

في الرد على ابن تيمية

تأليف

آية الله المجاهد الكبير

العلامة السيد محمد مهدي الكاظمي القزويني

(١٢٨٢هـ - ١٣٥٨هـ)

تحقيق

السيد مرتضى مير سجادي

الجزء الثاني

منهاج الشريعة

في الردّ على ابن تيمية

تأليف

آية الله المجاهد الكبير

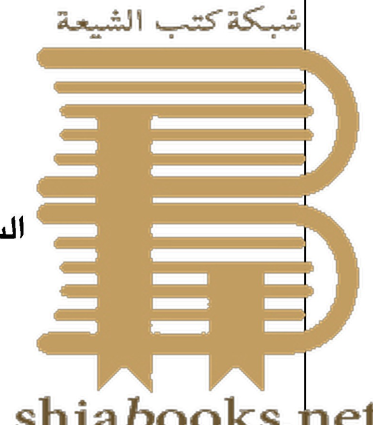
العلامة السيّد محمد مهدي الكاظمي القزويني قدس سره

(١٢٨٢ ـ ١٣٥٨ هـ)

الجزء الثاني

تحقيق

السيّد مرتضى ميرسجّادي



کاظمی قزوینی، محمد مهدی، ۱۸٦٥ ـ ۱۹۳۹ م.
منهاج الشریعه فی الرد علی ابن تیمیه / تالیف السید محمد مهدی الکاظمی القزوینی؛
تحقیق السید مرتضی میرسجادی.
مشخصات نشر: قم: محلاتی، ١٤٣٤ ق. = ۱۳۹۲.
مشخصات ظاهر: ج.
... ریال: (ج۲) ISBN: 978 - 964 - 7455 - 64 - 0
ـ. (دوره) ISBN: 978 - 964 - 7455 - 71 - 8
فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
کتاب حاضر ردیه‌ای است برکتاب «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» ابن تیمیه است که آن خود ردیه‌ای است که ابن تیمیه برکتاب «منهاج الکرامه فی معرفه الامامه» علامه حلی نوشته است.
یادداشت: کتابنامه.
موضوع: علامه حلی، حسن بن یوسف، ٦٤٨ ـ ٧٢٦ ق. منهاج الكرامة في معرفة الامامة ـ نقد و تفسیر.
موضوع: ابن تیمیه، احمد بن عبدالحلیم، ٦٦١ ـ ٧٢٨ ق. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ـ نقد و تفسیر.
موضوع: امامت ـ دفاعیه‌ها و ردیه‌ها.
موضوع: ٤. شیعه امامیه ـ دفاعیه‌ها و ردیه‌ها.
شناسه افزوده: میرسجادی، مرتضی، ١٣٤٥ ـ محقق.
رده بندی کنگره: ۱۳۹۲ ۸۰۸۲۷ م ۸ع/۲۲۳ BP.
رده بندی دیویی: ۲۹۷/٤٥

هوية الكتاب:

■ الكتاب: منهاج الشريعة في الردّ على ابن تيمية ج۲
■ تحقيق: السيد مرتضى ميرسجادي
■ الناشر: محلاتي
■ المطبعة: ثامن الحجج عليه السلام
■ التنضيد والإخراج الفني: كمبيوتر المجتبى عليه السلام
■ الطبعة: الأولى ١٣٩٢ هـ ش ـ ١٤٣٤ هـ ق
■ العدد: ٥٠٠ نسخة
■ شابك: ٩٧٨ ـ ٩٦٤ ـ ٧٤٥٥ ـ ٦٤ ـ ٠
■ شابك الدورة: ٩٧٨ ـ ٩٦٤ ـ ٧٤٥٥ ـ ٧١ ـ ٨


بسم الله الرحمن الرحيم

«اَللّـهُمَّ كُنْ لِوَلِيِّكَ الحُـجَّةِ بْـنِ الحَسَـنِ صَـلَوَاتُكَ عَـليْهِ وَعَـلَى آبَائِهِ في هَـذِهِ السَاعَةِ وَفي كُـلِّ سَـاعَةٍ وَلِـيّاً وَحَـافِظاً وَقَـائِداً وَنَـاصِراً وَدَلِـيلاً وَعَـيْناً حَـتَّى تُسْكِـنَهُ أرْضَكَ طَـوْعاً وَتُـمَتِّعَهُ فيها طَوِيلاً».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد وآله الطاهرين المعصومين سيّما بقيّة الله في الأرضين واللعنة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

قال الشيعي:

الفصل الأوّل:
في نقل المذاهب في هذه المسألة

ذهبت الإمامية الى أنّ الله عدل حكيم لايفعل قبيحاً ولايخلُّ بواجب، وأنّ فعله إنّما يقع لغرض صحيح وحكمة، وأنّه لايفعل الظلم ولا العبث وأنّه رؤوف رحيم بالعباد، يفعل بهم ما هو الأصلح والأنفع، وأنّه تعالى كلّفهم تخييراً لا إجباراً، ووعدهم الثواب وتوعّدهم العقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين عليهم السلام بحيث لايجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ولا المعاصي، وإلاّ لم يبق وثوق بأقوالهم وأفعالهم فتنتفي فائدة البعثة.

ثم أردف الرسالة بعد موت الرسول بالإمامة، فَنَصب أولياء معصومين منصوصين ليأمن الناس من غلطهم وسهوهم وخطئهم فينقادون الى أوامرهم، لئلاّ يخلي الله العالم من لطفه ورحمته.

وأنّه لمّا بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قام بنقل الرسالة ونصّ على أنّ الخليفة من بعده علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم من بعد علي ولده الحسن الزكي، ثُمَّ من بعد الحسن

على[(١)] ولده الحسين الشهيد، ثم على علي بن الحسين زين العابدين، ثم على محمّد بن علي الباقر، ثم على جعفر بن محمد الصادق، ثم على موسى بن جعفر الكاظم، ثم على علي بن موسى الرضا، ثم على محمّد بن علي الجواد، ثم على علي بن محمد الهادي، ثم على الحسن بن علي العسكري، ثم على الخلف الحجّة محمد بن الحسن المهدي (عليهم الصلاة والسلام) وأنّ النبي ﷺ لم يمت إلاّ عن وصية بالإمامة.

وأهل السنّة ذهبوا الى خلاف ذلك كله: فلم يثبتوا العدل والحكمة في أفعاله تعالى، وجوَّزوا عليه فعل القبيح والإخلال بالواجب، وأنّه تعالى لايفعل لغرض من الأغراض ولا لحكمة البتة، وأنّه يفعل الظلم والعبث، وأنّه لايفعل ما هـو الأصلح لعباده، بل ما هو الفساد في الحقيقة؛ لأنّ فعل المعاصي وأنواع الكفر والظلم وجميع أنواع الفساد الواقعة في العالم مستندة اليه ـ تعالى الله عن ذلك ـ وأنّ المطيع لايستحق ثواباً والعاصي لايستحق عقاباً، بل قد يعذّب المطيع طول عمره المبالغ في امتثال أوامره تعالى كالنبي ﷺ ويثيب العاصي طول عمره بأنواع المعاصي وأبلغها كإبليس وفرعون.

وأنّ الأنبياء غير معصومين بل قد يقع منهم الخطأ والزلل والفسوق والكذب والسهو، وغير ذلك.

وأنّ النبي ﷺ لم ينصّ على إمام وأنّه مات عن غير وصيّة، وأنّ الإمام بعد رسول الله ﷺ أبو بكر بن أبي قحافة بمبايعة عمر بن الخطاب له برضى أربعة: أبي عبيدة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُسيد بن خضير، وبشير بن سعيد، وسعد بن

---

(١) لا يوجد في الأصل: علىٰ.

عبادة.[١]

ثم من بعده عمر بن الخطاب بنص أبي بكر عليه، ثم عثمان بن عفان بنص عمر على ستة، هو أحدهم فاختاره بعضهم. ثم علي بن أبي طالب عليه السلام بمبايعة الخلق له، ثم اختلفوا، فقال بعضهم: إنّ الإمام بعده الحسن، وبعضهم قال: إنّه معاوية بن أبي سفيان، ثم ساقوا الإمامة في بني افمية إلى أن ظهر السفّاح من بني العباس فساقوها اليه ومنه إلى أخيه المنصور، ثم ساقوها فيهم الى المستعصم [إلى أربعين][٢].

(١) لا يوجد في الأصل: سعد بن عبادة.

(٢) منهاج الكرامة: ص٣١ ـ ٣٣ مع اختلاف يسير في اللفظ.

قال السنّي:

قلت: فهذا النقل لمذهب أهل السنة والرافضة فيه من الكذب والتحريف ما سنذكر بعضه من وجوه:

أحدها: إنّ إدخال مسائل القدر والتعديل والتجويز في هذا الباب كلام باطل من الجانبين، إذ كل من القولين قد قال به طوائف من أهل السنة، والشيعة، فالشيعة فيهم طوائف تثبت القدر وتنكر مسائل التعديل والتجويز، والذين يقرون بإمامة الثلاثة فيهم طوائف تقول بما ذكره من التعديل والتجويز، كالمعتزلة وغيرهم، ومعلوم أنّ المعتزلة أهل هذا القول، وأنّ شيوخ الرفضة كالمفيد والموسوي والطوسي [والكراجكي] وغيرهم، إنّما أخذوا ذلك من المعتزلة، وإلاّ فالشيعة القدماء لايوجد شيء من هذا في كلامهم.

وإن كان ما ذكره في ذلك ليس متعلّقاً بمذهب الإمامية، بل قد يوافقهم على قولهم في الإمامة من لايوافقهم على قولهم في القدر، وقد تقول بما ذكره في القدر طوائف لا توافقهم على الإمامة، كان ذكر هذا في مسألة الإمامة بمنزلة سائر مسائل النزاع التي وافقوا فيها بعض المسلمين كمسائل فتنة القبر، ومنكر ونكير، والحوض والميزان، والشفاعة، وخروج أهل الكبائر من النار، وأمثال ذلك مما هو من المسائل التي لاتتعلق بالإمامة، بل هي مسائل مستقلة بنفسها.

فتبيّن أنّ إدخال مسائل القدر في مسائل الإمامة إمّا جهل وإمّا تجاهل[١].

---

(١) منهاج السنة: ج١ ص١٢٧ ـ ١٢٨ مع اختلاف يسير في اللفظ.

قلت:

في هذه النبذة وجوه من العجائب:

أحدها: ما زعمه من أنّ إدخال مسألة القدر[١] في هذه المسألة مقالٌ باطل،

---

(١) إنّ مسألة القدر من المسائل الكلامية التي وقع الكلام فيها من الصدر الأوّل، فأنكره جماعة، أي ذهبوا إلى أنّ إرادة الله تتعلق بأفعال العباد والعباد ليس لهم اختيار في أفعالهم، وأثبته جماعة وذهبوا إلى أنّ العبد مستقل في مشيئته وقدرته. وبعبارة أوضح ذهبوا الى أنّ العبد هو خالق لأعماله، مستقلاً، من دون دخالة الربّ فيها، وسموا هؤلاء بالقدرية.

ثم إنّ الملفت للنظر هو أنّ كلا الفريقين رووا عن النبي ﷺ: أنّ القدرية مجوس هذه الأمة (أنظر: سنن أبي داود ج٢: ص٤١٠ ح٤٦٩١).

ولكن عند تعيين المصداق ذهب كل واحد من الطرفين الى أنّ القدرية هو طرفه المقابل، ولا يهمنا الآن أن نذكر أي الفريقين منهما يطلق عليه هذا العنوان واقعاً بعد أن كان كلا الفريقين باطل اعتقاده عند الشيعة الإمامية، وسيتضح للقارئ الكريم بطلان اعتقادهم في محله بالأدلة الوافية.

وسنذكر ما هو الصحيح عند أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام إن شاء الله تعالى، ولكن من أجل تنوير الأذهان نذكر هنا بعض ما ورد عن ائمة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، وهو ما جاء في الجواب عن السؤال الذي سأل الحسن البصري عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام في رسالة معروفة أرسلها الى الإمام الصادق عليه السلام وفيها السؤال عن القدر، وقد ذكر الإمام عليه السلام جواباً شافيا وافياً لكل ما يتعلق بسؤاله، وإليك نص جواب الإمام عليه السلام من هذه الرسالة:

فقال عليه السلام: «اتبع ما شرحت لك في القدر مما أفضى إلينا أهل البيت عليهم السلام، فإنّه من لم يؤمن بالقدر خيره وشره كفر، ومن حمل المعاصي على الله عزّوجلّ فقد افترى على الله افتراءً عظيماً، وإنّ الله لا يطاع بالإكراه، ولايعصى بغلبة، ولايمهل العباد في الهلكة، لكنه المالك لما ملكهم،

فإنّه عجيب منه؛ حيث يبحث ويخاصم الشيعي بدون معرفة منه بمقام البحث، أما عَلِمَ بأنّ بحث الشيعي في قبال من تسمى بأهل السنة في هذه المسألة في مقامين:

في الكبرى التي هي وجوب جعل إمام للخلق بعد الرسول ﷺ من باب اللطف[١] الذي دلّ عليه قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٢].

➲ والقادر لما عليه أقدرهم، فإن ائتمروا بالطاعة لم يكن لهم صاداً عنها مبطئاً، وإن ائتمروا بالمعصية فشاء أن يمنّ عليهم فيحول بينهم وبين ما ائتمروا به، فإن فعل ولم يفعل فليس هو حاملهم عليها قسراً، ولا كلفهم جبراً، بل بتمكينه إياهم بعد إعذاره وإنذاره لهم، واحتجاجه عليهم، طوّقهم ومكّنهم وجعل لهم السبيل إلى أخذ ما اليه دعاهم، وترك ما عنه نهاهم، وجعلهم مستطيعين لأخذ ما أمرهم به من شيء غير آخذيه، ولترك ما نهاهم عنه من شيء غير تاركيه، والحمد لله الذي جعل عباده أقوياء لما أمرهم به ينالون بتلك القوة، وما نهاهم عنه، وجعل العذر لمن لم يجعل له السبب جهداً متقبلاً، فأنا على ذلك أذهب، وبه أقول، أنا وأصحابي أيضاً عليه، وله الحمد... (أنظر: بحار الأنوار ج٥: ص١٢٣).

أقول: وأمثال هذه الرواية كثيرة في مصادر الشيعة الإمامية، ولو أردنا أن نشرح هذا الحديث وغيره مما ورد في هذا المجال لطال بنا المقام.

وملخّص الكلام: إنّ الشيعة الإمامية قد أخذوا معالم دينهم عن الأئمة الأطهار عليهم السلام في جميع المجالات ومن تلك المجالات: مسألة القدر، والباحث لو درس الروايات الواردة عن ائمة أهل البيت عليهم السلام لعرف الحق وأعرض عن جميع الأقوال والمذاهب.

(١) إنّ قاعدة اللطف من القواعد المهمة التي لها دور كبير في علم الكلام، ويترتب عليها الآثار المهمة في باب العقائد والمباحث المختلفة منها.

وحاصلها: إنّه لمّا كان الغرض من خلق الإنسان هو إيصاله الى الكمال المعنوي والفوز برضى الله عزّوجلّ، والقرب منه تعالى، فإنّ ذلك لايتحقق إلاّ بوجود مايُقرِّب العبد من الطاعة ويبعده عن المعصية ،لأنّ البشر في نقص ذاتي من هذه الجهة، حيث أنّه لايعلم دائماً ما هي المصلحة الواقعية والمفسدة الواقعية. فلابدّ أن يسلّم لربّ العالمين في جميع الأُمور، ومن هنا كان على الله تبارك وتعالى من باب أنّه رؤوف بالعباد أن يلطف عليهم ببعث أشخاص يتحملون ➲

والسنّي بنفسه قد نسب هذه المسألة الى الشيعة فيما تقدّم نقله عنه[٣]. ومن

➲ الرسالة الإلهية، ويرشدون العباد نحو ما هو المصلحة الواقعية، ويحذّرونهم عن الوقوع في المفاسد والمهلكات، كما أنّ هذه القاعدة تقتضي وجود أحكام بين الناس تتضمّن سعادتهم الدنيوية والأُخروية.

فوجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان بعد خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم يثبت بهذه القاعدة الضرورية؛ لأنّ الإمام المعصوم لطف من الله تعالى لإرشاد الناس نحو ما هو المصلحة لهم، وازاحة ما هو العلة عنهم ولعله الى ذلك أشار تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَاأَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٩١).

فان هذه الآية الكريمة تشير إلى أنّ من يعرف الله حق معرفة لايمكنه أن ينكر ارسال الرسل وبعث الانبياء ونصب الاولياء صلوات الله عليهم اجمعين وذلك لأنّه تعالى قد خلق الانسان لهدف معين حيث قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦).

فإذا كان الهدف الوصول إلى غاية العبادة والكمال والقرب من الله سبحانه، فإنّ هذا الهدف لايمكن تحققه إلاّ بتعاليم سماوية سليمة عن الخطأ والسهو، وهذا لايمكن للبشر العادي الوصول إليه إلاّ بوجود المعصوم في كلّ عصر وزمان عالم بالمصالح الواقعية ومفاسدها.

ثم إنّه كيف يمكن النسبة للذات الربوية الحكيمة على الإطلاق، الرحيم والرؤوف بالعباد، أن يترك عباده سدى ولا يعلّمهم طرق الوصول الى السعادة، لاسيما أنّ طرق السعادة مليئة بمختلف الموانع والعقبات والمتاهات، فالحكمة الإلهية تقتضي أن تكون هناك قاعدة تبين للناس الطريق إلى السعادة الأبدية والسبيل نحو الكمال الحقيقي لتأخذ بها الناس وتفوز بتلك المرتبة العظيمة، وهذا لا يتحقق إلّا بوجود المعصوم والتعاليم السماوية، فلاحظ.

(٢) سورة الأنعام: ٥٤.

(٣) قد ذكره ابن تيمية في الوجه الثالث عند التعرض لكلام العلامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه): من أنّ الإمامة هي أهم المطالب في أحكام الدين، وأشرف مسائل المسلمين... وهذا نص عبارته: فإنّ الإمامة إنّما أوجبوها لكونها لطفاً في الواجبات... وإنّ مطلوبهم بالإمامة أن يكون لهم رئيس معصوم يكون لطفاً في مصالح دينهم ودنياهم... (منهاج السنة ج١: ص ١٠٠).

المعلوم كون هذه المسألة مبنية على مسألة التعديل[١].

ومسألة نفي مازعموه من القدر؛ فإنّه بعد قولهم بأنّ الله سبحانه ليس بعادل،

---

(١) لايخفى على الخبير أنّ قاعدة اللطف من مباحث العدل الإلهي، لأنّ معنى العدل وحقيقته الحكمة من الحكيم، وإنّ من معاني الحكمة هو التنزيه عن فعل مالاينبغي، فالحكيم هو الذي لايفعل قبيحاً ولايخل بواجب، لأنّ فعل القبيح لايفعله إلاّ الجاهل به أو المحتاج إليه، والبارئ تعالى عالم وغني في ذاته وصفاته، لوجوب وجوده، فالتصديق بثبوت هذه الصفة للبارئ تعالى مبني على القول بالتحسين والتقبيح العقليين. وعلى ضوء هذا الحكم العقلي تثبت قاعدة اللطف أيضاً، إذ العقل حاكم مستقلاً بوجوب اتصاف ما يصدر عن الحكيم بالحسن وتنزيه اتصافه بالقبح.

ومن هنا يتضح حكم العقل بلزوم بعث الأنبياء وتكليف العباد، ووجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان، إذ فعله تعالى منزّه عن العبث، والعقل حاكم بلزوم ايصال كل مكلف الى الكمال، وزجرهم عما يمنعهم عن ذلك، حتى لايتركوا سدىً، ولا تفوتهم المصالح وترتفع عنهم الموانع. وإنّ المصالح والمفاسد تستدعي التكليف، فمن نتائج حكم العقل هو القول بعدله تعالى والقول بلزوم جعل التكليف للعباد بما يطيقهم، وإلزامهم نحو ما فيه المصلحة وحفظهم عن الوقوع في المفسدة.

وأيضاً أنّ هذا الحكم العقلي يقتضي وجوب تحقّق العدل الالهي بسيطرة إمام معصوم وقبضه على زمام الأُمور في كل زمان ،ليزيح العلة به عن الأمة بعد وفاة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، لما هو المعلوم من حصول الخلاف بعده وشيوع الشر والفساد، وخروج الأُمة عن إطار الطاعة لله تعالى، وعدم ضياع معالم الدين.

بل وجوب إزاحة علتهم من قبل الله تعالى تشريعاً بنصب الامام لهم، وتعريفهم به بما تتم به الحجة عليهم كما قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (سورة الأنفال: ٤٢).

إنّ العباد لو انقادوا إلى أدام ربّ العالمين وأطاعوه صلح أمرهم وعمّهم الخير، وإن كفروا بهذه النعمة العظيمة وخالفوه ذاقوا وبال أمرهم وعمّهم الفساد والهلكة، وليس لهم على الله حجة بعد أن لطف بهم وهداهم سواء السبيل، بل يتحملون وحدهم مسؤولية تفريطهم في أمر الله، ومجانبتهم عن الإمام الذي نصّبه الله لهم، كما لايخفى لمن تأمل في ذلك.

وبأنّه هو الخالق لأفعال عباده، فأيُّ معنى لوجوب نصب إمام معصوم يهدي الخلق الى الحق بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[(١)].

---

(١) فإنّه لما كان القوم يعتقدون بالجبر، والقول بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، ولا فعل في الحقيقة إلاّ من الله سبحانه كما صرح بذلك جماعة من كبار علمائهم؛ منهم: الأشعري ـ وهو إمام الأشاعرة ـ حيث قال: لا فعل لأحد في الحقيقة إلاّ الله وحده، والناس إنّما تنسب اليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة، ودارت الفلك، وزالت الشمس... (مقالات الإسلاميين ج١: ص٣١٢).

وقال الشهرستاني: إنّ الإنسان لايقدر على شيء ولايوصف بالاستطاعة، وإنّما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً (الملل والنحل ج١: ص٨٧).

وقال الأشعري أيضاً: إن سيئات العباد يخلقها الله وإنّ أعمال العبد يخلقها الله عزّوجلّ، والعباد لايقدرون أن يخلقون منها شيئاً (مقالات الإسلاميين ج١: ص٣٢١).

وقال الإيجي: إنّ العبد مجبور في أفعاله، وإذا كان كذلك لم يحكم العقل فيها بحسن ولا بقبح اتفاقاً (المواقف: ص٢٦٣).

والى غير ذلك من كلماتهم واعترافاتهم بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وعليه: إذا كانت جميع أفعال العباد مخلوقة لله تعالى فأنواع الشرور التي يرتكبها الإنسان كالظلم والعدوان والضرب والشتم والقتل والنهب والشرك والإلحاد و... كلها مستندة الى الله سبحانه وتعالى، إذ بناءً على هذا الزعم أن القبيح ليس ما يستقبحه العقل، ويكفي في اتصاف العقل بالحسن إسناده إلى الله سبحانه وتعالى.

ولذلك قالوا: إنّ افعال الله ليست معللة بالأغراض المترتبة على المصالح والمفاسد التي يستقل العقل بحسنها وقبحها بل الحسن عندهم ما حَسّنه الشارع والقبيح ما قبّحه (اُنظر: إبطال الباطل للفضل بن روزبهان، المطبوع ضمن إحقاق الحق ج١: ص٢٨٤، وضمن دلائل الصدق ج٢: ص٣٤٦).

وفي النتيجة: إنّه بناءً على مذهب القوم لا معنى لوجوب شيء على الله سبحانه، ولا معنى للقول بلزوم نصب إمام معصوم على الله سبحانه، إذ إنّهم زعموا عدم اعتبار الحكم العقلي بحسن ⬅

فعلم كون كبرى هذه المسألة مبنيّة على ما ذكره الشيعي من مسألة القدر والتعديل، والسنّي معترف بأنّ مبناها على مسألة اللطف! وهنا يزعم عدم مَدخلية ما بيّنه الشيعي هنا بهذه المسألة وهو تناقض بيِّن[١].

وفي الصغرى: وهي إمامة المنصوص عليهم بأسمائهم وأعيانهم[٢].

العقل وعدم لزوم نصب الإمام على الله تعالى. وبطبيعة الحال: إنّ العدالة بناءً على مسلكهم غير لازمة في صفاته سبحانه وتعالى، لأنّها وليدة هذا الحكم العقلي أيضاً، إذ العقل مستقل بحسن لزوم العدالة في أوصافه سبحانه وتعالى، كما أنّ العقل والعدل يحكمان بعدم الحكم بالمساواة بين المصلح والمفسد، والمؤمن والمشرك في مقام الجزاء والعقوبة، بل يجزي كل إنسان بما كسب، فيجزي الحسن بالإحسان والثواب والمسيء بالعقاب، كما أنه تعالى لايعاقب عبداً على مخالفة التكاليف إلاّ بعد البيان والبلوغ.

وقاعدة اللطف التي هي من أهم مباحث العدالة أيضاً غير معتبر عند القوم لعدم اعتبار هذا الحكم العقلي عندهم، فبناءً على هذا المذهب قال ابن تيمية: إن القدر ليس من مباحث الإمامة ولا دخل له بالمقام.

فيرد عليه: بأنّه ليس من حقه أن يقول للشيعة إنّ مبحث القدر ليس مربوطاً بالإمامة لأن القدر من مباحث العدل الإلهي المترتب على التحسين والتقبيح العقليين المعتبرين عند الشيعة، وإنّ القدر من فروع هذا المبحث، فالشيعة الإمامية تستدل بحسن وجوب نصب الإمام المعصوم على الله بالقاعدة المذكورة، كما تستدل بها على لزوم بعث الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. وعليه: فلايحق لأحد أن يعترض عليهم بأنّ مبحث القدر غير منوط بمسألة الإمامة، فلاحظ.

(١) وبعبارة أوضح: إنّ ابن تيمية صرح في كتابه منهاج السنة ج١: ص١٠٠: أنّ أصل كبرىٰ وجوب الإمامة عند الشيعة الإمامية مبنية على قاعدة اللطف. وأيضاً صرّح في نفس الكتاب ج ١: ص١٢٠ بأنّ مسأله القدر من ثمرات التحسين والتقبيح العقليين ومن مباحث العدل الإلهي.

فمن الواضح: أنّ العدل الإلهي يقتضي وجوب نصب الإمام من باب اللطف الذي هو من فروع مسألة التحسين والتقبيح العقليين.

(٢) استدل الشيعة الإمامية ـ مضافاً إلى الدليل العقلي ـ على نصب الأئمة من قِبَل الله سبحانه

ومن المعلوم كون قاعدة اللطف ينكرها جمهور من تسمى بأهل السنة، وهم أشاعرتهم ومن تابعهم[١].

➲ بالنصوص والروايات الصحيحة الواردة من طرق الفريقين، وقد جاء ذكر عدد الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أصح كتب القوم وهم اثنى عشر خليفة (أُنظر: صحيح البخاري ج٨:ص١٢٧ كتاب الأحكام، باب قبل باب إخراج الخصوم وأهل الريب، وصحيح مسلم ج٦:ص٣ كتاب الامارة، باب الناس تبع لقريش، ومسند أحمد بن حنبل ج٥: ص٨٧، وغيرها من المصادر كما جاء ذكرهم في مصادرهم بأسمائهم وخصوصياتهم وفيه التصريح بأنّ أولهم الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام واخرهم المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) (أُنظر: فرائد السمطين للحمويني الجويني ج٢: ص١٣٢ ح٤٣١، وينابيع المودة للقندوزي الحنفي الشافعي ج٣: ص٢٨١ وغيرهما).

(١) فإنّ الأشاعرة ـ وهم الذين يشكّلون أكثرية أهل السنة والجماعة ـ قد أنكروا قاعدة اللطف، وذلك لأنّهم ينكرون مسألة الحسن والقبح العقلي، فيقولون: أنّ الله تعالى مالك لكل شيء فله أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، فلا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها.

وعندما واجهوا أدلة القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين فكأنّما أدركوا بوجدانهم أنّ إنكار المطلق لهذه القاعدة المسلّمة أشبه بإنكار البديهيات، فحاولوا أن ينكروا معنى الحسن والقبيح العقلي المستقل بالحكم، وعمدوا إلى معاني أُخرىٰ ليجعلوها ملاكاً آخراً للحكم العقلي، فسلّموا التحسين والتقبيح العقليين بناءً على بعض المعاني التي ذكروا في هذا المجال، فمن المعاني المذكورة عندهم هو إدراك العقل استحقاق الفاعل الثواب والعقاب، فأنكروا ذلك وقالوا: لا شأن للعقل في هذا المجال، مع أنّه لا صلة بين هذا البحث وبحث التحسين والتقبيح العقليين، لأنّ مسألة الحسن والقبح العقليين من القضايا البديهية في العقل العملي، كقولنا: العدل حسن، والظلم قبيح، والجزاء بالإحسان حسن، والجزاء بالإساءة قبيح، والوفاء بالوعد حسن، والتخلف عنه قبيح، وهكذا، فهذه القضايا الأولية في الحكمة العملية والعقل العملي، وإنّ العقل يدرك من صميم ذاته الحسن وقبح القضايا بملاحظتها بلا تأمل ولا حاجة إلى تصوّر شيء آخر في جنبها.

وعلى ضوء تصديق هذه القضايا في الحكمة العملية يسهل التصديق في جميع القضايا الأولية ➲

➲ البديهية وغير البديهية في الحكمة العملية في مجال العقل العملي بصورة مطلقة، ولكن الأشاعرة خالفوا هذا الحكم العقلي الثابت بالدليل القطعي.

ولا يتوهم أحد أنّ القول بالتحسين والتقبيح العقليين دخالة في شؤون رب العالمين الذي هو مالك كل شيء حتى العقل، فإنّه إذا كان مالكاً للعقل فله أن يتصرّف في ملكه كيف يشاء، حيث أنّ لازم هذا القول عدم وجود الحكمة في أفعال رب العالمين؛ لأنّ الحكمة إنّما هي مبنية على الحكم العقلي بالحسن والقبح.

وتوضيح المقام: إنّ العقل ليس فارضاً على الله شيئاً وإنّما يكشف عن القوانين السائدة على أفعاله تعالى، فالعقل يطالع أولاً في صفات الله عزوجل كالغنىٰ والعلم والقدرة التي تكون ذاتية له سبحانه. ويستنتج من ذلك: انّ الذي يوصف بهذه الصفات الكمالية الذاتية منزّه عن ارتكاب القبائح، كما أنّ العقل النظري أيضاً يكشف عن تلك القوانين السائدة على نظام الكون وعالم الطبيعة.

فبالتأمّل في أقوال علماء الشيعة يظهر ضعف قول الأشاعرة في هذا المجال، فإنّ ما ذكره علماء الشيعة من وجوب اللطف على الله ثابت من باب الحسن والقبح العقلي، وانّ معنى ذلك تحصيل الطاعة للعبد، فانّ طاعة العبد مرهون بوجود الأوامر من رب العالمين، وإنّ وصول الأوامر الى العبد تحتاج أولاً إلى من يوصلها اليه من قِبل الله عزّوجلّ، وثانياً إلى أحكام ثابتة شرعية من قبل الشارع الأقدس، فعند ذلك تجب الطاعة على العبد، وهذا ما يسمىٰ بقاعدة اللطف، وإنّ ترك ذلك قبيح لا يصدر من الحكيم لأنّه مناقض للحكمة ومخل لها.

قال المحقّق البحراني: لو جاز الإخلال به في الحكمة فبتقدير: أن لا يفعله الحكيم كان مناقضاً لغرضه لكن اللازم باطل فالملزوم مثله.

وبيان الملازمة: إن الله تعالى أراد من المكلّف الطاعة، فإذا علم أنه لا يختار الطاعة أو لا يكون أقرب إليها إلّا عند فعل يفعله به لا مشقة عليه فيه ولا غضاضة وجب في الحكمة أن يفعله، إذ لو أخلّ به لكشف ذلك عن عدم إرادته له، وجرى ذلك مجرى من أراد من غيره حضور طعامه، وعلم أو غلب ظنه أنه لا يحضر بدون رسول، فمتى لم يرسل عدَّ مناقضاً لغرضه.

وبيان بطلان اللازم: إنّ العقلاء يعدّون المناقضة للغرض سفهاً وهو ضد الحكمة ونقص، والنقص ➲

➲ عليه تعالى محال (قواعد المرام: ص١١٧-١١٨).

وخلاصة الكلام: إنّ قاعدة اللطف عبارة عن حكم العقل بعدم ترك العباد بل إنّه تعالى قد لطف فبعث إليهم، وجعل لكل نبي وصيّاً لئلاّ يخلو الأرض من الحجّة في كل عصر، وأن يكون هذا الحجة هادياً مهدياً معصوماً. وأيضاً قد جعل لهم الأحكام تكليفاً للحصول على المصالح ودفع المفاسد. وقد ورد هذا المعنى صريحاً وضمناً في آيات وروايات عديدة، منها: قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً﴾ (سورة القيامة: ٣٦) وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١١٥).

وفي الكافي بسنده عن يونس بن يعقوب قال: كان عند أبي عبدالله الصادق عليه السلام جماعة من أصحابه منهم: حمران بن أعين ومحمد بن النعمان وهشام بن سالم والطيار وجماعة، فيهم هشام بن الحكم وهو شاب فقال أبو عبدالله عليه السلام ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته؟ فقال هشام: يابن رسول الله، إني أجلك وأستحييك ولايعمل لساني بين يديك، فقال أبو عبدالله عليه السلام: إذا أمرتكم شيء فافعلوا. قال هشام: يابن رسول الله، بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة فعظم ذلك عليّ، فخرجت اليه ودخلت البصرة يوم الجمعة فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد... فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي ثم قلت: أيها العالم! إني رجل غريب تأذن لي في مسألة؟ فقال لي: نعم، فقلت له: ألك عين؟ فقال: يابني أي شيء هذا السؤال؟ وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت: هكذا مسألتي، فقال: يابني سل وإن كانت مسألتك حمقاء! قلت: أجبني فيه، قلت: ألك عين؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص، قلت: فلك أنف، قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة، قلت: ألك فم؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعم، قلت: فلك أُذن؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أسمع بها الصوت، قلت: ألك قلب؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به، قال: أُميّز به كلّما ورد على هذه الجوارح والحواس، قلت: أوليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ فقال: لا، قلت: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة، قال: يابني إنّ الجوارح إذا شكت في شيء شمته أو رأته أو سمعته، ردته الى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشك. قال هشام: فقلت له: إنّما أقام الله القلب

➲

فإن قال: قد قال بها المعتزلة منهم[1].

⇦ لشك الجوارح؟ قال: نعم، قلت: لابد من القلب وإلاّ لم يستيقن الجوارح؟ قال: نعم.
قلت له: يا أبا مروان، فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح ويتيقن به ما شك فيه، ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم، لايقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك؟ قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً! ثم التفت إليَّ فقال لي: أنت هشام بن الحكم؟ فقلت: لا، قال: أمن جلسائه؟ قلت: لا، قال: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: فأنت إذن هو، ثم ضمني إليه، وأقعدني في مجلسه وما نطق حتى قمت.
قال: فضحك أبو عبدالله عليه السلام، وقال: يا هشام من علّمك هذا؟ قلت: شيء أخذته منك وألفته، فقال: هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى (الكافي ج١: ص١٦٩ ح٣) وإلى غير ذلك من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام فإنّها صريحة في أنّ الله تبارك وتعالى لم يترك ولن يترك العباد سدىٰ بل يلطف عليهم ببعث الأنبياء ونصب الأوصياء وتشريع الأحكام.
فنصب الامام واجب كبعث النبي لتكون ﴿لِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٩) و﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللهِ حُجَّةٌ﴾ (سورة النساء: ١٦٥) و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (سورة الأنفال: ٤٢).
وبعد ذلك كلّه لا يقال: إنه لا وجوب عليه، ولا حكم للعقل في مثل ذلك لأنّ معنى هذا الوجوب العقلي درك العقل حسن إرسال الرسول ونصب الإمام، وتشريع الشرائع إذ بالرسول والإمام يعرف الإنسان ربّه ويعبده ويطيع أوامره، وبالقوانين الشرعية يحصل له النجاة من الهلكات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦)، فإنّ العبد يحصل بالعبودية ولو ترك الله الإنسان سدىٰ لكان نقضاً لغرضه، فسقط منع وجوب اللطف وإنكارهم له.
ولعل منشأ هذا المنع والإنكار هو الغفلة عن حقيقة الاستدلال في هذا الباب، فلاحظ.

(١) إنّ المعتزلة طائفة من أهل السنة والجماعة وهم قد سلكوا طريقاً على خلاف ما سلكه أهل الحديث منهم، فأهل الحديث كانوا يتعبدون بظواهر الآيات والأحاديث من دون غور في مفاهيمها أو دقة في أسنادها، وكانوا يشكلون الأكثرية الساحقة بين المسلمين، وكثرت ⇦

➲ فيهم المشبّهة والمجسّمة وغير ذلك من البدع الظاهرة بين المسملين التي دخلت فيهم عن طريق الأحبار والرهبان المتسترين بالإسلام، وقد نشأت في قبال أهل الحديث فرقة الاعتزال في أوائل القرن الثاني من الهجرة، ويرجع أصلها إلى واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري، وله منهج كلامي خاص وأُصول معينة، فهم كانوا يتمسكون بالعقل أكثر من النقل، ويؤولون النقل إذا وجدوه مخالفاً لفكرتهم وعقليتهم، وكان التشاجر قائماً على ساقيه بين الفريقين طوال قرون.

فتارة يغلب أهل الحديث على أهل الاعتزال، وأُخرى يغلب جناح التفكر والاعتزال على أهل الظواهر والحديث.

وكانت غلبة كل فرقة على الأُخرى في كثير من الأحيان حسب ميول الحكومات آنذاك لأحد الطرفين المتعارضين، فترى في عصر الأمويين وأوائل عصر العباسيين عصر ازدهار منهج الحديث والمتمسكين بظواهر الآيات والنصوص، ثم ترى الأمر على العكس في زمن المأمون وأخيه المعتصم والواثق بالله إلى عصر المتوكل، فكان الإزدهار لمنهج الاعتزال حتى صار مذهباً رسمياً للحكومات السائدة، ولأجله اعتقل بعض مشايخ أهل الحديث مثل: أحمد بن حنبل حتى جلد ثلاثون سوطاً لأجل اعتقاده بقدم القرآن الذي يُعدُّ من مبادئ أهل الحديث. (أُنظر: تاريخ اليعقوبي ج٢:ص٤٢٧).

وكان الأمر على ذلك الى زمان المتوكل، فانّه لما أخذ مقاليد الحكم أمر بنشر منهج أهل الحديث بقوة وحماس، وتبعه غيره من العباسيين في دعم مقالتهم وتضييق الأمر على أهل الاعتزال، وقد كان الأمر على ذلك الى عصر أبي الحسن الأشعري حينما كان معتزلياً وبعد ما صار بحسب الظاهر من زمرة أهل الحديث، فكانت السلطة تسايرهم وتوافقهم على كل من المنهجين.

وقد امتازت المعتزلة من بين المدارس الكلامية لأهل السنة والجماعة مدرسة فكرية عقلية، وأعطت للعقل القسط الأوفر والسهم الأكبر حتى فيما لا سبيل له للقضاء فيه، ولها من نتائج الفكر والمعرفة ما شهد له التأريخ ودلّت عليه كتب القوم ورسائلهم الباقية، وما نقله عنهم خصومهم، إذ هوى العصبية بل يد الخيانة من خصومهم لعبت دوراً كبيراً في هذه المجالات، ➲

➲ وأطاحت بهم من جهة العقيدة والفكر.

قال أحمد أمين المصري في كتابه ضحى الإسلام ج٣: ص٦٩: مع أنّه لم أقف على كتب المعتزلة إلّا على الأقل، القليل كالانتصار لأبي الحسن الخياط المتوفى سنة ٣١١ هـ والكشاف للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وبعض كتب الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ قال: وقد اعتمدت في نقل عقائد المعتزلة على كتب الأشاعرة كمقالات الإسلاميين للشيخ الأشعري، ونهاية الاقدام للشهرستاني، والاقتصاد للغزالي ،والمواقف للعضدي، وغير ذلك، وهؤلاء كلهم أعداء المعتزلة لا يستطيعون تقرير مواقف خصومهم في المسائل مجردين عن كل انحياز، ومع ذلك كله لم أقف على من ينسب الى المعتزلة عن كتب هؤلاء.

ثم ذكر موارد من عقائد المعتزلة في التوحيد والعدل وحرية العباد والإرادة ونحو ذلك، فالاعتزال كان منهجاً فكرياً علمياً في قبال أهل الحديث، وكان ابتداء أمرهم في أوائل القرن الثاني للهجرة وذلك عندما اعتزل واصل بن عطاء عن حلقة الحسن البصري وشكّل حلقة دراسية فكرية في مقابل أُستاذه.

وقد ذكر أرباب الرجال والتراجم في وجه تسميتهم بالاعتزال أُموراً أشهرها القول بالمنزلة بين المنزلتين.

وقصته: إنّ واصلاً كان يأتي مجلس الحسن البصري، ولما ظهر الخلاف بين الجماعة وبين مرتكبي الكبائر من المسلمين، فقالت الخوارج بتكفيرهم، وقالت الجماعة بأنّهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر، فخرج واصل عن قول الفريقين، فزعم أن الناس من هذه الأُمة لا مؤمن ولا كافر فسقه منزلة بين المنزلتين... (أُنظر: الأنساب للسمعاني ج٥: ص٣٣٨).

ولكن لا يمكننا قبول أن حقيقة الاعتزال القائمة على الدراسة العلمية والعقلية أن تقوم بهذا الأصل وتفترق عن الجماعة وتعتزل منهم بذلك، فإن هذا الأمر لا يعد الدرجة الأُولى من الأُصول الإسلامية، فإنّ الأصلين التوحيد والعدل يعدان حجر الأساس لهذا المنهج العلماني وسائر الاصُول في الدرجة الثانية.

والظاهر أنّ الاعتزال قد أخذت هذين الأصلين التوحيد والعدل من البيت العلوي وأهل البيت عليهم السلام والشاهد على ذلك الاعترافات والتصريحات التي أدلى بها علماء القوم الذين ➲

⮌ أجهروا بذلك.

فمنها ما قاله البلخي في كتاب مقالات الإسلاميين، في مقالة لأبي القاسم الكعبي المتوفى سنة ٣١٩ هـ وهو من شيوخ المعتزلة، ما هذا نص عبارته: والمعتزلة يقال أنّ لها ولمذهبها أسناداً تصل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس لأحد من فرق الأمة مثلها، وليس يمكن لخصومهم الإعراض عنه، وهو أنّ خصومهم يقرؤون بأن مذهبهم يسند الى واصل بن عطاء، وإنّ واصلاً يسند الى محمد بن علي بن أبي طالب وابنه أبي هاشم عبدالله بن محمد بن علي، وأنّ محمداً أخذ عن أبيه علي، وأنّ علياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أُنظر: ذكر المعتزلة من مقالات الإسلاميين للبلخي: ص٦٨).

ومنها ما قال: كان واصل بن عطاء من أهل المدينة رباه محمد بن علي بن أبي طالب وعلّمه، وكان مع ابنه أبي هاشم عبدالله بن محمد في الكتاب، ثمّ صحبه بعد موت أبيه صحبة طويلة، وحكي عن بعض السلف أنه قيل له: كيف كان علم محمد بن علي؟ فقال: إذا أردت أن تعلم ذلك فانظر إلى أثر واصل، ثم انتقل واصل إلى البصرة فلزم الحسن بن أبي الحسن (نفس مقالات الإسلاميين: ص٦٨).

ومنها ما قاله القاضي عبدالجبار في طبقات المعتزلة، وإليك نص عبارته: وأخذ واصل العلم عن محمد بن الحنفية، وكان خالاً لأبي هاشم، وكان يلازم مجلس الحسن (أُنظر: طبقات المعتزلة: ص٢٣٤).

ومنها ما قاله الشهرستاني، وهذا نص عبارته: يقال أخذ واصل عن أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية (أُنظر: الملل والنحل ج١: ص٤٩).

ومنها ما قاله الذهبي، وإليك نص عبارته: جالس أبا هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية ثم لازم الحسن... (سير أعلام النبلاء ج٥: ص٤٦٤). إلى غير ذلك من كلمات العلماء في هذا المجال، والذي يؤكد ذلك أن واصل بن عطاء مولده عام ٨٠ من الهجرة وقد توفّى أُستاذه الحسن البصري عام ١١٠ فمن البعيد أن يستطيع إنسان على تشكيل حلقة دراسية قابلة للذكر في مقابل الخطيب الحسن البصري وله من العمر دون العشرين، وهذا يؤكد على أن واصلاً كان له ميزة في العلوم بحيث كان يعتنىٰ بنظريته واعتزاله عن شيخه، فيعرف من ذلك ⮌

قيل: حيث كان البحث في قبال عامة من قال بإمامة الثلاثة لزم التعرض لما خالف فيه مجموعهم لما ذهبت اليه اثنى عشرية الشيعة، فالمعتزلة ولو تابعت الشيعة في مسألة اللطف لكنّهم خالفوهم في مصاديقها بذهابهم الى إمامة الثلاثة، وغير ذلك من المسائل التي يأتي التعرّض لبعضها[١].

أنّه كان من العلماء البارزين حين تلمذه على الحسن البصري.

وعلى أي حال، فإنّ الاعتزال وإن كان مذهباً من مذاهب أهل السنة والجماعة إلّا أنّهم قد سلكوا طريقاً على خلاف ما سلكه أهل الحديث من أهل السنة، فإن أهل الحديث كانوا يتعبدون بكل ما وصل اليهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو من الصحابة وحتى من التابعين، ولكن المعتزلة كانوا أهل الغور في المفاهيم والدقة في الأسناد ،وكانوا يؤولون كلما وجدوا مخالفاً لفكرتهم وعقيدتهم. فهم قد أخذوا العدل في أُصول الاعتقادات من الشيعة الإمامية ومدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وهذا الاعتقاد يترتب عليه مباحث مهمة في الأُصول، منها قاعدة اللطف. قال التفتازاني: وفي كلام المتعزلة أنّ اللطف ما يختار المكلف عنده الطاعة تركاً وإثباتاً، أو يقرب منهما مع تمكنه في الحالين، فإن كان مقرّباً من الواجب أو ترك القبيح لطفاً مقرّباً وإن كان محصّلاً له فلطفاً محصّلاً، ويخص المحصِّل للواجب باسم التوفيق والمحصَّل لترك القبيح باسم العصمة (شرح المقاصد للتفتازاني ج٢: ص ١٦٠).

فهم قد أخذوا قاعدة اللطف من الشيعة ومن مدرسة أهل البيت عليهم السلام كما لا يخفى ذلك على الخبير، فلاحظ.

(١) انّ فرقة المعتزلة عاشت في أكناف أهل السنة، وكانت من خصماء الشيعة الإمامية كغيرهم من الفرق السنية، وإنّ أئمة المعتزلة وشيوخهم في جميع طبقاتهم كانوا من أشد المخالفين لشيعة أهل البيت عليهم السلام وإن كانوا متفقين معهم في بعض المبادئ العلمية، ولكنّهم خالفوهم في أصل الإمامة الذي يعد حجر الأساس في المذهب، فإنّهم خالفوا الشيعة في من هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته مباشرةً ،واعتقدوا بخلافة الخلفاء الثلاثة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع اعترافهم بأنّ أميرالمؤمنين عليه السلام أفضل من الثلاثة وأولى منهم بالخلافة؛ فقدّموا المفضول على

➲ الفاضل تعصّباً وعناداً على الله ورسوله وأهل البيت وشيعتهم؛ فسموهم بالاعتزال لانعزالهم عن أميرالمؤمنين عليه السلام.

قال أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي عند البحث عن الأحداث بعد قتل عثمان: إنّه لما قتل عثمان بايع الناس عليّاً فسلّموا جماعة، ثم افترقوا بعد ذلك وصاروا ثلاث فرق: فرقة أقامت على ولايته عليه السلام، وفرقة خالفت عليّاً وهم: طلحة والزبير وعائشة، وفرقة اعتزلت مع سعد بن مالك وهو سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، وأُسامة بن زيد بن حارثة، فإنّ هؤلاء اعتزلوا عن علي عليه السلام وامتنعوا عن المحاربة معه بعد دخولهم في بيعته والرضى به، فسموا المعتزلة وصاروا أسلاف المعتزلة إلى آخر الأبد... (فرق الشيعة: ص ٥).

والمستفاد منه: أنّ طريقة الاعتزال إنّما نشأت بالمخالفة مع الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بتركهم البيعة معه وعدم نصرتهم له في حروبه مع الناكثين والقاسطين والمارقين، وقد استمر هذا النهج من السلف حتى عصر واصل بن عطاء، فإنّه أخذه بعنوان منهج فكري، وحاول أن يلبسه ثوب الثقافة والطريقة العلمية بين أبناء أهل السنة والجماعة، وقد جرى بينه وبين أهل العلم منهم المحاورات والمناظرات لتثبيت هذه العقيدة حتى صار الاعتزال منهجاً فكرياً، وعلى أساس ذلك شاع عنهم مسألة المرتكب للكبيرة، ومنزلة بين المنزلتين أي بين الكفر والإيمان.

قال أبو القاسم البلخي المتوفى سنة ٣١٧ هـ: والسبب الذي له سميت المعتزلة بالاعتزال أنّ الاختلاف وقع في أسماء مرتكبي الكبائر من أهل الصلاة، فقالت الخوارج: إنّهم كفار مشركين وهم مع ذلك فساق. وقال بعض المرجئة: إنهم مؤمنون لإقرارهم بالله ورسوله بكتابه وبما جاء به رسوله، وإن لم يعلموا به ،فاعتزلت المعتزلة جميع ما اختلفوا فيه من تسميتهم بالكفر والإيمان والنفاق والشرك، وقالوا: لأنّ المؤمن ولي الله، والله يجب تعظيمه وتكريمه، وليس الفاسق كذلك والكافر والمشرك والمنافق يجب قتل بعضهم، وأخذ الجزية من بعض، وبعضهم يعبد في السّر إلهاً غير الله وليس الفاسق بهذه الصفة.

قالوا: فلما خرج من هذه الأحكام، خرج من أن يكون مسمىً بأسماء أهلها، وهذا القول بالمنزلة بين المنزلتين، أي الفسق منزلة بين الكفر والإيمان (أُنظر: باب ذكر المعتزلة من مقالات ➲

➲ الإسلاميين للبلخي: ص١١٥).

والظاهر أنّ هذه المناظرة والمحاورة لم تكن بحثاً علمياً فقط لاسيما أنّ البحث في حلقة الحوار كان بين المذاهب المختلفة، وذلك يكشف عن أهمية ذلك البحث لدى القوم، ولعل ذلك كان حول الاعتزال عن حروب أميرالمؤمنين عليه السلام حيث أنّ الاعتزال عن ذلك وقع مورد البحث بأنّه: هل هو ضلالة وكفر أو أن فاعله يكون مرتكباً للكبيرة لأنّهم كانوا متفقين على أن الامام أميرالمؤمنين عليه السلام كان على الصواب والحق في حروبه، وأن محاربيه أهل الضلالة والباطل ومع ذلك فقد وقع التساؤل بينهم من أنّه: هل يكون من حاربه كافراً أو مرتكباً للكبيرة أم لا؟!! (أُنظر: فضل الاعتزال للبلخي: ص١٣ـ١٤).

وعلى كل حال، فانّ الاعتزال إنّما نشأ في أيام خلافة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وهناك رواية أُخرىٰ وهي تدلّ على أن تسميتهم بهذا اللقب لاعتزالهم عن الإمام الحسن بن علي ومعاوية، نقلها أبو الحسين محمد بن أحمد الملطي المتوفى عام ٣٧٣ هـ في كتابه التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، فيقول: وهم سمّوا أنفسهم معتزلة وذلك عندما بايع الحسن بن علي معاوية وسلّم إليه الأمر اعتزلوا الحسن بن علي ومعاوية وجميع الناس، وذلك أنّهم كانوا من أصحاب علي ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة، وسموا بذلك المعتزلة (التنبيه والردّ: ص٢٦) واستحسن هذا القول محمد زاهد الكوثري في تعليقته على التنبيه والرد: ص١٠).

أقول: ولا يخفى أنّ بالروايتين قد ثبت أمراً واحداً وهو الاعتزال عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ حديث الأول يدل على أن الاعتزال نشأ في عصر إمامة أميرالمؤمنين عليه السلام، وهذا الحديث يدل على وجود الاعتزال في عصر الإمام الحسن عليه السلام، ووجه الجمع بين القولين هو أن نقول: بأنّ تثبيت هذه التسمية كان من زمن الإمام الحسن عليه السلام فإنّ أساس نشأة هذا المذهب من زمن الإمام أميرالمؤمين عليه السلام. ولكن توسعت هذه العقيدة وأخذت دورها الرسمي في زمن الإمام الحسن عليه السلام.

وبعد هذا، فإنّ من العجب العجاب رمي الاعتزال بالتشيّع، فإنّ الشيعة الإمامية تقتدي في أُصولها وفروعها بأئمة أهل البيت عليهم السلام الذين جعلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدلاً للقرآن الكريم، وقال: ➲

ومن المعلوم كون المذهب إنّما يمتاز عن مذهب غيره بمجموعة؛ فإنّه قد تطابق جملة من مسائل مذهب لمذهب غيره، والحال هما مذهبان.

وليس يجب في المذاهب بالنسبة الى غيره المخالفة في كل شيء، بل المخالفة ولو في بعض المسائل التي هي مبنى لهما كافٍ في التعدّد[١].

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي...».

فالشيعة لا ترجع الى غير هذين المصدرين، ولا حاجة للرجوع لغيرهما بعد أن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهما منحصراً لا ثالث لهما، ولكن المعتزلة كما أقرّ أعلامهم أنهم اتخذوا التوحيد والعدل من أهل البيت عليهم السلام وتلمذوا على أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية، ولكن مع ذلك ذهبوا إلى خلافه الخلفاء الثلاثة بالرغم من اعترافهم بفضل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وتقدمه على أقرانه وذهبوا الى خلافة المفضول وتقدمه على الفاضل.

ولعل من هنا صار سبباً لجرح كثير من الرواة، حيث اعتقدوا بأفضلية أئمة أهل البيت عليهم السلام بنصوص كثيرة من الآيات والروايات في حقهم، وإن كانوا على نهج الخلفاء من أهل السنة.

وعلى أيّ تقدير، فإنّ المعتزلة هم من أهل السنة، والذي أوقع الوهم على بعض ابناء العامة من أهل السنة من وحدة الشيعة مع الاعتزال هو اعتقاد المعتزلة ببعض المبادىء العلمية للشيعة الإمامية كالعدل الإلهي وقاعدة اللطف، فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: إنه قد انقسم الاختلاف بين المذاهب والفرق إلى قسمين رئيسيين: **أحدهما:** الاختلاف في الأُصول الاعتقادية، **وثانيهما:** الاختلاف في الفروع والأحكام الشرعية.

من المعلوم لدى الخبير: أنّ الاختلاف في المنهجية والأُسلوب في الأحكام الشرعية والفروع الدينية لايعدّ اختلافاً في العقيدة؛ لأنّ الاختلاف في الفروع والمسائل الفرعية الشرعية لايضرّ بإيمان الشخص واعتقاداته الدينية الراسخة في قلب المؤمن، وقد يكون الاختلاف في أصل الاعتقاد والأُصول التي تبتني عليها الإيمان، فإنّ إيمان الشخص ثابت في القلب بالعقيدة الصحيحة الحاصلة من الأدلة القطعية المعتبرة عند الجميع بحيث تنطلق من المسلّمات العقلية. وهي التي يوجب دخول الشخص إلى الجنة وترتاح اليها النفوس، بخلاف العقيدة

➲ الفاسدة وهي التي لم تقم دليل قطعي على اعتبارها، بل قد تقوم الأدلة الشرعية والعقلية على خلافها، فإنّ صاحبها في النار كما هو واضح ظاهر، لأنّ قبول الأعمال في جميع الأديان إنّما هو بالإيمان الصحيح وبدونه لا يتميز الهدى من الضلال.

قال السبكي: لا شك أنّ الاختلاف في الأُصول ضلال وسبب كل فساد كما أشار إليه القرآن... (أُنظر: فيض القدير ج١: ص٢٧٠ نقلاً عن السبكي).

وعليه: فإن الاختلاف في أُصول المذاهب يبتني على الأُصول العقدية التي تتوقّف عليها الإيمان بالله وبرسوله. وهذا النوع من الاختلاف اختلاف في أُصول الدين، كما أنّ الاعتقاد بأصل الإمامة من أُصول الدِّين حيث أنّ كل مسلم يأخذ معالم دينه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُصولاً وفروعاً من أئمة مذهبه فتحنلتف المذاهب باختلاف أئمتهم اختلاف في العقيدة والإيمان بالله وبرسوله، وإن تطابقوا أحياناً في بعض المسائل، إلاّ أنّ أصل الاختلاف في الإمامة مؤثّر في إيمان الشخص كما لا يخفى.

ولعل من أجل تثبيت الاعتقادات والجزم بالإيمان الصحيح كانت العلماء من الشيعة تبعاً للأئمة الهدى عليهم السلام من أهل البيت عليهم السلام يشتركون في المناظرات العلمية التي كانت تجري بينهم وبين المتكلمين من أرباب المذاهب والملل والنحل لتثبيت ما هو الصحيح من العقيدة بأدلة متفقة مسلّمة لدى الفريقين أو لدىٰ جميع الناس.

وقد كان بعض المثقفين في تلك العصور يعقدون المجالس للمناظرة بين أئمة أهل البيت عليهم السلام وعلماء المذاهب المختلفة أو بين علماء الشيعة وعلماء المذاهب المختلفة، وممن كان يهتم بذلك اهتماماً بالغاً في العصر العباسي هو يحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد، ففي خبر أنه كان يعقد مجلس المناظرة في داره بحضرة المتكلمون من كل فرقة وملة يوم الأحد، فيتناظرون في أديانهم، ويحتج بعضهم على بعض، فبلغ ذلك الرشيد، فقال ليحيى بن خالد: يا عباسي، ما هذا المجلس الذي بلغني في منزلك يحضره المتكلمون؟ قال: يا أميرالمؤمنين، ما شيء مما رفعني به أميرالمؤمنين وبلغ بي من الكرامة والرفعة أحسن موقعاً عندي من هذا المجلس، فإنَّه يحضره كل قوم مع اختلاف مذاهبهم، فيحتج بعضهم على بعض، ويعرف المحق منهم، ويتبين لنا فساد كل مذهب من مذاهبهم. ➲

➲ فقال الرشيد: أنا إن أحضر هذا المجلس وأسمع كلامهم على أن لا يعلموا بحضوري فيحتشموني ولا يظهروا مذاهبم، قال: ذلك إلى أميرالمؤمنين متى شاء، قال: فضع يدك على رأسي أن لا تعلّمهم بحضوري، ففعل ذلك، وبلغ الخبر المعتزلة، فتشاوروا بينهم وعزموا على أن لا يكلموا هشاماً إلّا في الإمامة لعلمهم بمذهب الرشيد وإنكاره على من قال بالإمامة.

قال: فحضروا، وحضر هشام، وحضر عبدالله بن يزيد الأباضي وكان من أصدق الناس لهشام بن الحكم، وكان يشاركه في التجارة، فلمّا دخل هشام على عبدالله بن يزيد من بينهم، فقال يحيى بن خالد لعبدالله بن يزيد: يا عبدالله، كلّم هشاماً فيما اختلفتم فيه من الإمامة. فقال هشام: أيها الوزير ليس علينا جواب ولا مسألة أنّ هؤلاء قوم كانوا مجتمعين معنا على إمامة رجل، ثم فارقونا بلا علم و لا معرفة، فلا حين كانوا معنا عرفوا الحق، ولا حين فارقونا علموا على ما فارقونا، فليس لهم علينا مسألة ولا جواب.

فقال بيان ـ وكان رجل من الحرورية ـ أنا أسألك يا هشام، أخبرني عن أصحاب علي يوم حكموا الحكمين أكانوا مؤمنين أم كافرين؟ قال هشام: كانوا ثلاثة أصناف: صنف مؤمنون، وصنف مشركون، وصنف ضلاّل.

فأمّا المؤمنون: فمن قال مثل قولي: إن علياً عليه السلام إمام عند الله عزوجل، ومعاوية لا يصلح لها. فآمنوا بما قال الله عزوجل في علي عليه السلام وأقروا به.

وأمّا المشركون: فقوم قالوا: علي إمام، ومعاوية يصلح لها، فأشركوا إذ أدخلوا معاوية مع علي عليه السلام.

وأمّا الضلاّل: فقوم خرجوا على الحميَّة والعصبية للقبائل والعشائر ولم يعرفوا شيئاً من هذا وهم جهّال.

قال: فأصحاب معاوية ما كانوا؟ قال: كانوا ثلاثة أصناف: صنف كافرون، صنف مشركون، صنف ضلاّل.

فأمّا الكافرون: فالذين قالوا: إنّ معاوية إمام، وعلي لا يصلح لها، فكفروا من جهتين إذ جحدوا إماماً من الله عزوجل، ونصبوا إماماً ليس من الله.

أمّا المشركون: فقوم قالوا: معاوية إمام، وعلي يصلح لها، فأشركوا معاوية مع علي عليه السلام.

➲

➲ أمّا الضلاّل: فعلى سبيل أُولئك خرجوا للحمية والعصبية للقبائل والعشائر، فانقطع بيان ـ وهو رجل من الحرورية ـ عند ذلك.

فقال ضرار: وأنا أسألك يا هشام في هذا؟ فقال هشام: أخطأت، قال: ولِمَ؟ قال: لأنّكم كلكم مجتمعون على دفع إمامة صاحبي، وقد سألني هذا عن مسألة، وليس لكم أن تثنوا بالمسألة علَيَّ حتى أسألك يا ضرار عن مذهبك في هذا الباب؟ قال ضرار: فسل، قال هشام: أتقول: إنّ الله عزوجل عدل لا يجور؟ قال: نعم هو عدل لا يجور تبارك وتعالى، قال: فلو كلّف الله المقعد المشي إلى المساجد، والجهاد في سبيل الله، وكلّف الأعمى قراءة المصاحف والكتب أتراه كان يكون عادلاً أم جائراً؟ قال ضرار: ما كان الله ليفعل ذلك.

قال هشام: قد علمت أنّ الله لا يفعل ذلك ولكن ذلك على سبيل الجدل والخصومة، أن لو فعل ذلك أليس كان في فعله جائراً، إذ كلّفه تكليفاً لا يكون له السبيل إلى إقامته وأدائه؟ قال ضرار: لو فعل ذلك لكان جائراً.

قال هشام: فأخبرني عن الله عزّوجل كلف العباد ديناً واحداً لا اختلاف فيه لا يقبل منهم إلّا أن يأتوا به كما كلّفهم؟ قال ضرار: بلى، قال هشام: فجعل لهم دليلاً على وجود ذلك الدين، أو كلّفهم ما لا دليل لهم على وجوده، فيكون بمنزلة من كلّف الأعمى قراءة الكتب، والمقعد المشي إلى المساجد والجهاد، قال: فسكت ضرار ساعة، ثم قال: لابد من دليل وليس بصاحبك، قال: فتبسم هشام وقال: تشيع شطرك، وصرت إلى الحق ضرورة ولا خلاف بيني وبينك إلّا في التسمية، قال ضرار: فإنّي أرجع القول عليك في هذا، قال: هات، قال ضرار لهشام: كيف تعقد الإمامة؟

قال هشام: كما عقد الله عزوجل النبوة، قال: فهو إذن نبي، قال هشام: لا لأنّ النبوة يعقدها أهل السماء، والإمامة يعقدها أهل الأرض، فعقد النبوة بالملائكة، وعقد الإمامة بالنبي، والعقدان جميعاً بأمر الله جل جلاله، قال: فما الدليل على ذلك؟ قال هشام: الاضطرار في هذا، قال ضرار: وكيف ذلك؟ قال هشام: لا يخلو الكلام في هذا من أحد ثلاثة وجوه:

إمّا أن يكون الله عزوجل رفع التكليف عن الخلق بعد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فلم يكلّفهم، ولم يأمرهم، ولم ينههم، فصاروا بمنزلة السباع والبهائم التي لا تكليف عليها، أفتقول هذا يا ضرار، إن ➲

التكليف عن الناس مرفوع بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال ضرار: لا أقول هذا.

قال هشام: فالوجه الثاني ينبغي أن يكون المكلفون قد استحالوا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علماء في مثل حدّ الرسول في العلم حتى لا يحتاج أحد إلى أحد، فيكونوا كلّهم قد استغنوا بأنفسهم، وأصابوا الحق الذي لا اختلاف فيه، أفتقول هذا، إن الناس استحالوا علماء حتى صاروا في مثل حدّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في العلم بالدين حتى لا يحتاج أحد الى مستغنين بأنفسهم عن غيرهم في إصابة الحق؟ قال: لا أقول هذا، ولكنهم يحتاجون إلى غيرهم.

قال هشام: فبقي الوجه الثالث وهو: أنّه لابد لهم من عالم يُقيمُه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهم لا يسهو ولا يغلط ولا يحيف، معصوم من الذنوب، مبرء من الخطايا، يحتاج الناس إليه ولا يحتاج إلى أحد، قال: فما الدليل عليه؟

قال هشام: ثمان دلالات، أربع في نعت نسبه، وأربع في نعت نفسه.

فأمّا الأربع التي في نعت نسبه: فإنّه يكون معروف الجنس، معروف القبيلة، معروف البيت، وأن يكون من صاحب الملة والدعوة إليه إشارة، فلم ير جنس من هذا الخلق أشهر من جنس العرب الذين منهم صاحب الملة والدعوة الذي ينادى باسمه في كل يوم خمس مرات على الصوامع، أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فتصل دعوته إلى كل برّ وفاجر وعالم وجاهل مقر ومنكر، في شرق الأرض وغربها. لو جاز أن تكون الحجة من الله على هذا الخلق في غير هذا الجنس لأتى على الطالب المرقاد دهر من عصره لا يجده، ولجاز أن يطلبه في أجناس من هذا الخلق من العجم وغيرهم، ولكان من حيث أراد الله عزوجل أن يكون صلاح يكون فساد، ولا يجوز هذا في حكمة الله جل جلاله وعدله أن يفرض على الناس فريضة لا توجد، فلمّا لم يجز ذلك لم يجز أن يكون إلّا في هذا الجنس لاتصاله بصاحب الملة والدعوة، فلم يجز أن يكون إلّا في هذا الجنس إلّا في هذه القبيلة لقرب نسبها من صاحب الملة وهي قريش، ولما لم يجز أن يكون من هذا الجنس إلّا في هذه القبيلة لم يجز أن يكون من هذه القبيلة إلّا في هذا البيت لقرب نسبه من صاحب الملة، والدعوة، ولمّا كثر أهل هذا البيت وتشاجروا في الإمامة لعلوها وشرفها ادعاها كل واحد منهم، فلم يجز إلّا أن يكون من صاحب الملة والدعوة إشارة إليه بعينه واسمه ونسبه كيلا يطمع فيها غيره.

➲ أمّا الأربع التي في نعت نفسه: فإنّه يكون أعلم الناس كلّهم بفرائض الله وسننه وأحكامه، حتى لا يخفى عليه منها دقيق ولا جليل، وأن يكون معصوماً من الذنوب كلّها، وأن يكون أشجع الناس، وأن يكون أسخى الناس، فقال عبدالله بن يزيد الأباضي: من أين قلت أنه أعلم الناس؟

قال هشام: لأنه إن لم يكن عالماً بجميع حدود الله وأحكامه وشرائعه وسننه لم يؤمن عليه أن يقلب الحدود، فمن وجب عليه القطع حده، ومن وجب عليه الحد قطعه، فلا قيم لله عزوجل حداً علىٰ ما أمر به فيكون من حيث أراد الله صلاحاً يقع فساداً.

قال: فمن أين قلت: إنه معصوم من الذنوب؟ قال هشام: لأنّه إذا لم يكن معصوماً من الذنوب دخل في الخطأ؟ فلا يؤمن أن يكتم على نفسه ويكتم على حميمه وقريبه، ولا يحتج الله بمثل هذا على خلقه.

قال عبدالله بن يزيد الأباضي: فمن أين قلت: إنه أشجع الناس؟

قال هشام: لأنّه فئة للمسلمين الذين يرجعون إليه في الحروب، وقال الله عزوجل: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ﴾ (الانفال: ١٦) فان لم يكن شجاعاً فر فيبوء بغضب من الله، ولا يجوز ان يكون من يبوء بغضب الله عزوجل حجة الله على خلقه.

قال عبدالله بن يزيد الأباضي: من أين قلت: إنّه أسخى الناس؟ قال: لأنّه خازن المسلمين، فإن لم يكن سخياً تاقت نفسه الى أموالهم فأخذها فكان خائناً، ولا يجوز أن يحتج الله على خلقه بخائن.

فعند ذلك قال ضرار: فمن هذا بهذه الصفة في هذا الوقت؟

فقال هشام: صاحب القصر أميرالمؤمنين، وكان هارون الرشيد قد سمع كلامه كلّه فقال عند ذلك: أعطانا والله من جراب النورة، ويحك يا جعفر! وكان جعفر بن يحيى بن خالد جالساً معه في الستر ـ من يعني بهذا؟ فقال: يا أميرالمؤمنين، يعني به موسى بن جعفر، قال: ما عنى بها غير أهلها، ثم عض على شفتيه وقال: مثل هذا حي ولي ملكي ساعة واحده؟ فوالله للسان هذا أبلغ من قلوب الناس من مائة ألف سيف، وعلم يحيى أن هشاماً قد أني ـ يعني وقع في ➲

وثانيها: ما نسبه الى بعض الشيعة من القول بالقدر وجحد مسائل التجويز والتعديل؛ فإنّه ظلم منه وعدم إنصاف، فهذه كتبهم تنطق ببهتان ذلك حتى على

➲ الهلكة ـ فدخل الستر فقال: يا عباسي، ويحك من هذا الرجل! فقال: يا أميرالمـؤمنين، حسبك تكفي تكفي، ثم خرج إلى هشام فغمزه، فعلم هشام انّه قد أتى، فقال: يريهم أنّه يبول أو يقضي حاجة، فلبس نعليه وانسلّ ومر ببنيه وأمرهم بالتواري وهرب، ومر من فوره نحو الكوفة فوافى الكوفة ونزل على بشير النبّال ـ وكان من حملة الحديث من أصـحاب أبـي عبدالله عليه السلام ـ فأخبره الخبر، ثم اعتل علة شديدة فقال له البشير: آتيك بطبيب؟

قال هشام: لا أنا ميت، فلمّا حضره الموت قال لبشير النبال: إذا فرغت من جهازي فاحملني في جوف الليل وضعني بالكناسة واكـتب رقـعة وقـل: هـذا هشـام بـن الحكـم الذي يـطلبه أميرالمؤمنين، مات حتف أنفه وكان هارون قد بعث إلى إخوانه وأصحابه فأخذ الخلق به، لما أصبح أهل الكوفة رأوه، وحضر القاضي وصاحب المعونة، والعـامل والمـعدّلول بـالكوفة، وكتب الى الرشيد بذلك، فقال: الحمدلله الذي كفانا أمره فخلى عمن كان أخذ به (اُنظر: اكمال الدين: ٣٦٢ـ٣٦٨) ورواه العلامة المجلسي في كتاب بحار الأنوار ج٤٨: ص١٩٧ ح ٧ والى غير ذلك من الروايات والمناظرات التي كانت في عصر الأئمة الأطهار عليهم السلام وأصحابهم مع علماء المذاهب والملل والنحل التي أضوت عـلى كـثير مـن الحـقائق العـلمية والعـقائدية والتاريخية مما يؤدي إلى عمق أكثر في التعرف عـلى نـظريات وأدلة كـل مـن المـذاهب الإسلامية في شؤون الخلافة الإسلامية، ولا سيما الشيعة الإمامية والوقوف على نظرياتها في هذا المسألة.

والخلاصة: إننا عندما ندقّق في أُسلوب نقاشات الأنبياء عليهم السلام مع الأعداء والظالمين والجبارين، كما يعكسها القرآن الكريم، أو كما تعكسها الروايات من الاحتجاجات والمناظرات العقائدية الواقعة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعداء الإسـلام، أو بـين أئـمة أهـل البـيت عليهم السلام وأعـدائـهم وخصومهم، أو بين أصحابهم ومخالفيهم، ننتهي الى دروس تربوية تطوي في مضامينها أدق الأساليب والوسائل النفسية التي تسهل لنا النفود إلى أعماق الآخرين.

وأكثر المناظرات في الاسلام ضجيجاً وتحدياً وصراحة هي مناظرات الشيعة مع خصومهم، وقد جاء كثير منها في كتب أهل السنة، ولا يتسع المجال لإيرادها في هذا المجال، وقد سـجل التاريخ جملة منها، فراجع ترجمة هشام بن الحكم وغيره من أصحاب الأئمّة الطاهرين عليهم السلام.

رجلٍ واحد منهم، فعلى من نسب الى فريق منهم ذلك سَوْقُ بيّنة تدلُّ على ذهاب رجل منهم إلى ذلك ومن يصدّقه(١).

---

(١) لقد أجمعت الشيعة الإمامية على أنّ الله تعالى عدل لا يجور ولا يجازي العباد إلاّ بما ارتكبوا من المعاصي والسيئات، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾ (سورة النساء: ١٦٠) فإنّ الجزاء بقدر إساءة كل أحد فلا تضاف على إساءته أية عقوبة، فلا يجزىٰ المحسن إلاّ بالإحسان والثواب، ولا المسيء إلاّ بما أساء وارتكب السوء، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٨١) وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٢٥) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٦٤) وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (سورة إبراهيم: ٥١) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: ١١١) وقال تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (سورة طه: ١٥) وقال تعالى: ﴿ووُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة الزمر: ٧٠) وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (سورة غافر: ١٧) وإلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وذلك لأن الله تعالى قد أعطى للإنسان بعض الحرية في الإرادة والاختيار لكي يمتحنه، ولكي يتكامل في ظل تلك الحرية ويطوي مسير تكامله بنفسه، ولكن إذا أساء الاستفادة من تلك الحرية فإنّه بسوء استفادته من هذه الموهبة الإلهية سيعاقب ويجازى نفس الجزاء الأولي، وهذا ما يقتضيه العدل الإلهي الذي نطق به القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ«٣٥» مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (سورة القلم: ٣٦) وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (سورة ص: ٢٨) الى غير ذلك من الآيات والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال ،بالغة عن حدّ التواتر ،لا يسعنا المجال لذكرها ،كما إن التحسين والتقبيح العقليين تدل على المقام بوضوح.

فالشيعة الإمامية تعتقد بهذه الصفة الإلهية اعتقاداً جازماً بحيث صارت هذه العقيدة من شعائر الشيعة ومن ضروريات مذهبهم، فلاحظ.

وهذه المسائل من ضروريات مذهبهم، مثل ذهابهم الى إمامة علي وولده صلّى الله على النبي وعليهم وسلّم. فهل يصدّق من نسب الى أحد منهم الذهاب إلى إمامة ولو أبي بكر وحده معهم؟!!!!

حاشا، بل هو مفتر من دون ريب، وهذا حال من نسب الى أحدهم القول بالقدر ونفي التعديل والتجويز(١).

---

(١) لا يخفى على أحد من أهل العلم وأهل التمييز إنّ الشيعة الإمامية يعتبرون العدل الإلهي من الأُصول الاعتقادية، ويمتازون بذلك عن غيرهم من المذاهب الأُخرى.

فمسألة العدل عندهم قد دخلت كل الأصعدة الحياتية المهمة، وهذا يعود إلى وجود العدل في كل أفعال الله تعالى، فهو ـ أي الله تعالى ـ قد جعله من أسمائه الحسنى، فعندما يأخذ الشيعة الإمامية العدل ويعتبرونه من أُصول الدين لم يكن هذا جزافاً، وإنّما كان على أساس وأصل متين استمدوه من القرآن الكريم، هذا الكتاب العظيم الذي بذر فكرة العدل في قلوب وأرواح الناس، ثم سقاها ونماها فكرياً وفلسفياً وعملياً واجتماعياً، إنّه القرآن الكريم الذي طرح مسألة العدل من حيث مظاهرها المختلفة، العدل التكويني، والعدل التشريعي، والعدل الأخلاقي، والعدل الاجتماعي...

والقرآن الكريم يصرّح بأنّ نظام الوجود مبني على أساس العدل والتوازن، وعلى أساس الاستحقاق والقابلية، وعلى هذا الأساس توجد عدة آيات تؤكد على مسألة العدل سواء كان ذلك عن طريق ذكر المقابل للعدل، أي الظلم فتأتي الآية القرآنية وتنفي الظلم وتقر العدل بالنتيجة، أو عن طريق ذكره بأنّ هناك يوم حساب يحاسبون فيه الناس ليكون العدل هو الأساس الذي سوف تكون عليه المحاسبة، وهكذا يذكر القرآن الكريم في كل مظاهرها الوجودية.

وسنورد هنا بعض الآيات القرآنية التي تعتبر الفاعلية الإلهية، والتدبّر الإلهي وقيامها على أساس العدل، حيث يقول تعالى في هذا المضمار: ﴿**شَهِدَ ٱللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ...**﴾ (سورة آل عمران: ١٨).

فيشهد الله تعالى بوحدانيته وعدالته في عالم الوجود في هذه الآية الكريمة؛ لأنّ عدالته تصاحب ←

⬅ نظام التكويني والتشريعي كما هو واضح لكل من تأمل فيه وفي بعض الآيات انّ العدل هو المعيار لله سبحانه وتعالى كما في موضوع خلقه، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلسَّماءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ (سورة الرحمٰن: ٧) وقد علق على هذه الآية الرسول الأعظمﷺ حيث قال: بالعدل قامت السماوات والأرض (اُنظر: تفسير الآلوسي ج٢٧: ص١٠١ ذيل الآية الكريمة).

واهتم القرآن اهتماماً استثنائياً بالعدل التشريعي أي مراعاة أصل العدل دائماً في النظام الاعتباري والتشريع القانوني، وقد صرح بذلك في الكتاب المعجز بأن الهدف من إرسال الأنبياء وبعثة الرسل إنّما هو القيام بالنظام على أساس العدل والقسط، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللهِ﴾ (سورة الحديد: ٢٥) هذه الآية الكريمة تبين الهدف من بعثة الأنبياء وإرسالهم بصورة دقيقة، وهو إقامة القسط والعدل وتحقيقة في المجتمع.

والمهم أن يتربى الناس على العدل والقسط بحيث يصبحون واعين له داعين إليه مقلدين ولبرامجه سائرين، وبالاضافة إلى ذلك فإنّ الأصل الكلي الذي نسبه القرآن الكريم الى كل الأنبياء بخصوص النظام التشريعي ولا سيما في الشريعة الإسلامية هو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ (سورة الأعراف: ٢٩) وفي مكان اخر قال تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللهِ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٢) فاعتبر القرآن الكريم النظام التشريعي المجعول من قبله هو النظام المبني على أساس القسط والعدل.

كما انّ القرآن الكريم اعتبر الإمامة والقيادة عهداً إلهياً ينبعث عنه النضال ضد الظلم ويتلائم مع الحق والعدل تماماً، فيقول تعالى في كتابه المجيد في موضوع لياقة إبراهيمعليه السلام للإمامة والقيادة الإلهية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٢٤).

فعندما اختار الله تعالى إبراهيم، إماماً استفهم إبراهيم وقال: هل تشمل هذه الموهبة الإلهية نسلي وذريتي؟

فأُجيب: بأنّ الإمامة عهد إلهي ولا ينالها الظالمين، فتبيّن من خلال هذه الآية والآيات السابقة بأنّ الهدف الأساسي من البعث وإرسال الأنبياء ونصب الأئمة هو إقامة القسط والعدل.

⬅

وثالثها: ما نسبه إلى فرق منهم هنا من ذهابهم إلى القول بالقدر، ونفي التعديل والتجويز؛ فإنّه مناف لما نسبه سابقاً إلى جميعهم من القول باللطف[١]؛ فإنّه بضرورة العقل مناقض للقول بأنّ الله سبحانه هو خالق المعاصي في المعاد، وهم ظروف محضة لها، وهو المعاقب لهم عليها[٢].

ففي هذه الآية الكريمة أكّد سبحانه وتعالى بأنّ الظالمين لا نصيب لهم في الامامة يعني: مقتضى العدالة الربانية والهدف من بعث الأنبياء هو عدم وجود ظالم بين المرسلين والمصطفين.

وإذا دقّقنا النظر في الآيات وجدناها تدور حول محور واحد وهو العدل في كل الأفكار القرآنية من التوحيد، والنبوة، والمعاد، والإمامة، والزعامة، ومن الآمال الفردية إلى الأهداف الاجتماعية. فالعدل في القرآن قرين التوحيد وركن المعاد وهدف لتشريع النبوة، وفلسفة الزعامة والإمامة ومعيار كمال الفرد ومقياس سلامة المجتمع كما هو ظاهر وواضح، فلاحظ.

(١) وقد نسبه الى الإمامية في الوجه الثالث من كلامه حيث قال: إنّ مطلوبهم بالامامة أن يكون لهم رئيس معصوم يكون لطفاً في مصالح دينهم ودنياهم... (منهاج السنة ج١: ص١٠٠).

(٢) فإنّ الأشاعرة من أهل السنة والجماعة صرحوا بأنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد والخالق هو الفاعل للأفعال حسناً كان أم قبيحاً، والعبد محل صرف لا أثر له ولا تصرف له بوجه أصلاً، فمباشرة العبد للأفعال لا أثر له، اذ بزعمهم في المقام أنّه لا مؤثر في الوجود مباشرة وغير مباشرة إلّا الله، حتى الأعمال الاختيارية التي تكون باختيار الإنسان، فإنهم يزعمون أن فاعلها هو الله سبحانه.

قال الفخر الرازي: احتجّ أصحابنا بقوله تعالى: ﴿وِللهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٤) على كونه خالقاً لأعمال العباد إذ لا شك أن أفعال العباد من جملة ما في السماوات والأرض فوجب كونها له... (تفسير الفخر الرازي ج٨: ص١٨٧).

فهم يقولون: بأن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه، وليس للانسان فيها صنع ولا دور، وليس لقدرته تأثير في تحقّق الفعل، وأقصى ما عندهم إنّ إرادة الإنسان ليست حرة بل إنما تتكون وتتشكل بإيجاد الله سبحانه فعله في عالم التكوين والوجود إلّا أن المتأخرين منهم تحاشيا

واللطف: عبارة عن فعل ما يقرّب العباد الى الطاعة، ويبعّدهم عن المعصية[١]، وأين معناه من القول بأنّه سبحانه هو الخالق للكفر والمعاصي والفساد

من الذهاب الى الجبر في تلك الأفعال من قبيل الفواحش والكفر والزندقة وأمثال ذلك، ومن ثم عمدوا إلى ابتداع نظرية الكسب المعقّدة فقالوا: إن الله هو الخالق والإنسان هو الكاسب.

وهو كماترى نظرية غريبة غير مفهومة، لأنّ الخالق للأفعال هو فاعله، وعلى حدّ زعمهم أن الله سبحانه هو الفاعل لأفعال العباد، والعبد محل صرف لا أثر له ولا تصرف له في ذلك أصلاً، وما ندري كيف يكون كسبها من العبد؟!!! والكسب بأيّ معنى فُسّر، وهل هو من فعل الله أم لا؟

وكيف يكون ذلك من مباشرة العبد والمباشرة أثر والمفروض عندهم أنّه لا مؤثر في الوجود إلا الله حتى في المقام. فهل يعقل بعد ذلك أن يكون الشيء بجهة حسناً لأنّه فعل الله وبجهة قبيحاً لأنّ العبد مباشر به، فهذه النظرية مكابرة مليئة بالألغاز التي عجز عن فهمها وإيضاحها حتى مبتدعوها أنفسهم فلاحظ.

(١) وحاصله: إنّه إذا كان الغرض المترتب على التكليف لا يحصل إلّا بفعل يقرب العبد من الطاعة ويبعده عن المعصية، كان على الله سبحانه القيام بذلك.

وبعبارة أخرى: كل ما هو دخيل في تحقق الرغبة إلى الطاعة والابتعاد عن التمرد والمعصية في نفوس الأكثرية الساحقة من البشر يجب على الله سبحانه القيام به صوناً للتكليف عن اللغو، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الإنسان: ٣) فمن أطاع الله وعمل بتلك الأحكام فاز وسعد، ومن عصى وأعرض عنها شقي وكان من الخاسرين، وليس له على الله عزوجل حجة في ذلك ﴿قُلْ فَلِلّٰهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٩) واستدلال الشيعة الإمامية بقاعدة اللطف على وجوب نصب الإمام على الله سبحانه وتعالى أيضاً من هذا الباب، وذلك حيث إن عموم البشر كانوا جاهلين بما يصلحهم في الواقع وغير معصومين من الفساد والشر والظلم، بل قد يتنازع فيهم دواعي الصلاح والفساد، والخير والشر، فمقتضى حكمة الله تعالى ورحمته أن يلطف بهم، ويزيح العلة عنهم بأن يجعل لهم إماماً معصوماً يهديهم إلى الرشاد والصلاح، وكان على الله أن يعرّفهم الحجة فيهم بدليل واضح، ولعله الى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللّٰهَ

في عامة العباد، ومعه هو المعاقب لهم عليها؟!!

وما المناسبة بين هذه العقيدة وبين قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[(١)]؟!!

فأيّ رحمة تتصوّر في خلقه في عباده، ما لم يرضه لهم من الكفر والفسوق والعصيان، وبعد خلقها فيهم يعاقبهم عليها؟!!!

بل هذه كتابة منتهى الظلم على نفسه، من حيث عقوبته الخلق على ما فعله هو فيهم من المستقبحات، ولم يفعلوها هم ولم تبرز منهم باختيارهم، فعلم مما نبّهنا عليه كمال المناقضة بين هاتين النسبتين[(٢)].

حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَاأَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٩١) فإنّه تعالى قد أتم حجته على جميع الناس في جميع الأعصار، وقال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٨) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٩٤) فإنّ تعليل ابتلاء الناس بالضراء والبأساء لرجاء رجوعهم للطاعة دليل على أن كل ما يكون سبباً للجوء الطاعة كان عليه سبحانه أن يقوم به، فلاحظ.

(١) سورة الأنعام: ١٢.

(٢) وتوضيح المقام: إنّ قاعدة اللطف لها دور كبير في اعتقاد الشيعة الإمامية، وتترتب عليها القواعد والأحكام. وحاصلها كما تقدّم: إنّه إذا كان الغرض المترتب على التكليف لا يحصل إلّا بفعل يقرّب العبد من الطاعة ويبعده عن المعصية، كان على الله سبحانه القيام بذلك.

فقاعدة اللطف تقتضي بعث الشارع العباد نحو ما فيه صلاحهم وزجره عما فيه الفساد، كذلك تقتضي جعل العقاب على ترك ما فيه الصلاح وفعل ما فيه الفساد وجعل الثواب على امتثال الأوامر، وفعل ما فيه الصلاح تحققياً للدعوة المؤدية إلى المصالح وعدم الوقوع في المفاسد.

وهذا هو المستفاد من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢) ولكن الخصم لايمكنه الجمع بين معنى هذه الآية الكريمة وبين الاعتقاد بالجبر.

ورابعها: ما زعمه من أخذ الشيعة هذه المسائل من المعتزلة، فإنّك قد عرفت فيما مضى كذبه في ذلك، وكتاب الله سبحانه وما ورد من السنّة من طرقهم

➲ ومن أجل تبيين بطلان دعوىٰ الخصم نقول: إنّ ما استدل به الأشاعرة على مدّعاه قوله تعالى: ﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٢) فالاستدلال بإطلاق الآية الكريمة على أنّه تعالى خالق لأعمال وأفعال العباد خيرها وشرها لأنها من الأشياء، ولكن هذا الاستدلال باطل لأنّ خالقية الله تعالى لكل شيء إنّما هو مع اتصافه بصفة الحكمة، فلايصح سلب هذه الصفة عن الله سبحانه. مع مراعاة صفة الحكمة في الخلق لابدّ من القول بأنّ أفعاله تعالى ليس فيها إلاّ الخير والحسن، لأنّه تبارك وتعالى عالم بجميع الأشياء أزلاً، فالحكيم العالم بالأُمور لايفعل إلاّ على وجه الحسن، فمقتضىٰ صفاته الكمالية أن لايفعل فعلاً مخالفاً للحكمة والعدل.

ثمّ إنّ الخالقية بالذات من مختصات الله تعالى، وذلك لا ينافي مع اختيار البشر في أفعاله، لأنّ ما يمتلكه البشر من القدرة والعقل والشعور، وحتى الاختيار والحرية كلّها من عند الله. وعلى هذا فمن جهة أنّ الله خالق لكلّ شيء؛ لأنّ قدرة العبد على أفعاله بيد الله عزّوجلّ، ويمكنه أن يسلب منه هذه القدرة في أيّ لحظة شاء ومن جهة أُخرى أنّ أفعال العباد تصدر منهم باختيارهم فهما في طول واحد وليس في عرض واحد، فالله سبحانه وتعالى الخالق لكل وسائل الأفعال، ونحن نستفيد منها في طريق الخير أو الشر باختيارنا.

فمثلاً الذي يؤسس معملاً لتوليد الكهرباء أو لانتاج أنابيب المياه يصنعها تحت تصرّفنا، فلا يمكن أن نستفيد من هذه الأشياء إلّا بمساعدته، ولكن بالنتيجة يكون التعميم النهائي لنا، فيمكن أن نستفيد من الكهرباء لإمداد غرفة عمليات جراحية، وإنقاذ مريض مشرف على الموت، أو نستخدمها في مجالس اللهو والفساد.

ويمكن أن نروي بالماء عطش إنسان ونسقي ورداً جميلاً، أو نستخدم الماء في إغراق دور الناس وتخريبها وهكذا.

ولو أعرضنا عن ذلك كلّه فالعموم مخصّص بالأدلّة العقلية والنقلية الكتابية وغيرها، الدالة على أنّ العباد هم الفاعلون لأفعالهم، كما ستعرف ذلك إن شاء الله في محله.

فالفرق بين قاعدة اللطف والقول بأنّ أفعال العباد مخلوقة لفاعله واضح لكل ذي فكر ولمن رزقه الله قوة التمييز، فلاحظ.

برهانان قاطعان على ذلك[١].

مضافاً الى حكم العقل الفطري الضروري بذلك[٢]، فأيّ حاجة لهم الى

---

(١) وخلاصة الكلام أنّه بعد ثبوت أصل الإمامة من الكتاب الكريم والسنة الشريفة وكذلك المباحث المدرجة في ذلك، والثابتة بالدليل القطعي، فبأيّ دليل نقول: إنّهم أخذوا عن غيرهم؟ فإنّ كتاب الله وسنّة رسول الله هما حجتان معتبرتان عند كافة المسلمين.

والمسلمون يحتاجون إليهما لكونهما مصدرين تشريعيين على الأُمة، وإنّه لا يوجد مصدر تشريعي آخر يبلغ مقامهما في الحجية.

والحق: إنّ كتب الشيعة مليئة بالقول والتصريح بأنهم يتمسّكون بالثقلين أعني: كتاب الله وسنة عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما هو ظاهر واضح لمن يراجع إلى كتبهم.

(٢) المقصود بالحكم العقلي هو كل قضية يدركها العقل، فالعقل هو مبدأ الإدراك، فإذا أدرك العقل من صميم ذاته ومن ملاحظة القضايا بنفسها فيسمى المدرك ـ بالفتح ـ بالحكم العقلي وهو على قسمين:

القسم الأوّل: العقل النظري، والمراد منه إدراك ما ينبغي أن يعلم، أي إدراك الأُمور التي لها واقع وهي غير متعلقة بالعمل مثل: «الله موجود واحد، وإن صفاته عين ذاته» ونحو ذلك.

القسم الثاني: العقل العملي، والمراد منه إدراك ما ينبغي أن يعمل، أي حكم العقل بأنّ هذا الفعل حسن ينبغي فعله أو قبيح لا ينبغي فعله، فشأن هذا الإدراك العقلي شأن العلوم المتعلقة بالعمل مثل: «التوكل بالله حسن، والرضا والتسليم والصبر محمودة» وهكذا.

وهذا الحكم العقلي هو المستعمل في علم الأخلاق ويسمى بالحكمة العملية. والحكمة هي التنزّه عن فعل ما لا ينبغي فعله، والحكيم هو الذي لا يفعل القبيح بل أفعاله مطابقة لما يدركه العقل، فالحكمة العملية والنظرية كلاهما من مقولة الإدراك، وإنّما الاختلاف في المتعلق هذا هو المعروف عند الفلاسفة.

وفي المقام: إنّ العقل الفطري السليم الخالي عن شوائب الأوهام الذي لا يخفى على أحد ممن شملته هذه الموهبة الإلهية يدرك بأن الله سبحانه وتعالى حكيم عادل منزه عن الظلم بجميع اقسامه، وإنّ أفعاله حسن يحكم بذلك العقل الفطري المستقل، وإن ممّا يترتب على هذا الحكم العقلي وجوب اللطف على الله تعالى بحيث يكون تركه قبيحاً في حقه تعالى، ومعناه

⬅

متابعة المعتزلة الذين قد تأخّر وجودهم عن وجود الشيعة في هذه المسائل التي قد دلّ عليها مانبّهنا عليه[١].

➲ كما تقدم: التقريب من الطاعة والتبعيد عن المعصية التي هي المملكة العظمى للبحث العقلي.
ومن المعلوم أنّ لطفه تعالى وإحسانه يقتضي إرسال الرسل ليزيح العلة عن الناس، وحيث كانت حاجة الناس مستمرة في جميع الأوقات والأزمان، فلابد من إمام معصوم في كل زمان يزيح العلة عنهم، ولا يكفي ارسال النبي في وقته بعد أن لم يكن خالداً، لأنّه إنّما يكون إماماً لعصره، ولا تزاح به العلة بعد ذلك، لما هو المعلوم من حصول الخلاف بعده وشيوع الشّر والفساد، فمن أجل إخراج الأُمة عن خطيرة الهلكات، ومن ضياع معالم الحق يجب عليه تعالى أن يجعل للناس معصوماً يصونهم عن تلك المهالك ويرشدهم إلى سواء السبيل، وهذا هو مفاد قاعدة اللطف.

(١) لا يخفى على الخبير الباحث في كتب الأخبار والتفسير والتأريخ أنّ بذرة التشيّع وضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب، وقد غرسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورعاها ولم يزل باذرها يتعاهدها بالسقي والعناية حتى نمت وأزهرت في حياته الشريفة، ثم أثمرت بعد وفاته في ظل التستّر والتقيّة وأخذت تنمو وتعلو وتواصل نموّها وعلوها حتى أصبحت عقيدة ثابتة من عهد الصحابة والروّاد الأوائل والصالحين من المؤمنين المخلصين في كل عصر وزمان، وذلك لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر بأنّ شيعة علي عليه السلام هم الفائزون، وقد رواه جمع من أعلام أهل السنّة مثل السيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (سورة البينة: ٧).

قال: أخرج ابن عساكر: عن جابر بن عبدالله قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأقبل علي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والذي نفسي بيده! إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ونزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾. فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أقبل علي قالوا: جاء خير البرية (الدر المنثور ج٦: ص٣٧٩).

وقال أيضاً: وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين (الدر المنثور ج٦: ص٣٧٩).

➲

➲ وقال أيضاً: وأخرج ابن مردويه عن علي قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ألم تسمع قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جئت الأُمم للحساب تدعون غر المحجلين (الدر المنثور ج٦: ص٣٧٩).

وأخرج الخوارزمي بسنده: عن علي بن الحسين، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي، مثلك في أُمتي مثل المسيح عيسى بن مريم، افترق قومه ثلاث فرق: فرقة مؤمنون، وهم الحواريون، وفرقة عادوه وهم اليهود، وفرقة غلوا فيه فخرجوا عن الإيمان، وإنّ أُمتي ستفترق فيك ثلاث فرق: فرقة شيعتك وهم المؤمنون، وفرقة أعداؤك وهم الناكثون، وفرقة غلوا فيك وهم الجاحدون السابقون، فأنت يا علي وشيعتك في الجنة، ومحبّوا شيعتك في الجنة، وعدوّك والغالي فيك في النار (المناقب للخوارزمي: ص٣١٧ ح ٣١٨).

وأخرج ابن حجر الهيثمي: عن أُمّ سلمة: أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا علي، أنت وأصحابك في الجنة، أنت وشيعتك في الجنة (الصواعق المحرقة: ص١٦١. وأخرجه المتقي الهندي في كنزالعمال ج١١: ص٣٢٣ ح ٣١٦٣١.

وفي نهاية ابن الأثير ما هذا نص عبارته في مادة «قمح»: وفي حديث علي عليه السلام، قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين، ويقدم عليه عدوك غضاباً مقمحين. ثم جمع يديه الى عنقه يريهم كيف الأقماح (النهاية في غريب الحديث ج٤: ص١٠٦).

وروى الزمخشري في ربيع الأبرار: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: يا علي، إذا كان يوم القيامة أخذت بحجزة الله تعالى وأخذت أنت بحجزتي وأخذ ولدك بحجزك، وأخذ شيعة ولدك بحجزتهم فترى أين يؤمر بنا (ربيع الأبرار ج١: ص٨٠٨). والى غير ذلك من الأخبار والروايات الواردة عن صاحب الشريعة في كتب القوم، مثل مسند أحمد بن حنبل وخصائص النسائي وأمثالها. ولو أراد متتبع أن يجمع أضعاف هذا القدر لكان سهلاً عليه.

وإذا كان نفس صاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وآله وسلم يكرر ذكر شيعة علي عليه السلام وينوه عنهم بأنّهم هم الآمنون يوم القيامة وهم الفائزون والراضون والمرضيون، فلا شك أن كل معتقد بنبوته يصدقه فيما يقول، لأنّه لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلّا وحي يوحىٰ، ولا شك أن المتردد في ذلك ➲

ومن هنا تعلم بأنّ جعل الشيعة في هذه المسائل قسمين، بعضهم قال بها وبعض لم يقل، كذب بيّن؛ فإنّ المعلوم من سيرة الشيعة هي المتابعة للفرقان العظيم، ولسنّة سيد المرسلين ﷺ وللعقل الفطري، وهذه جميعها قد تطابقت على ما ذهبت اليه الشيعة، فكيف يتصوّر مخالفة بعضهم لها جميعها[1].

متردد في نبوته ﷺ لأنّ الراد على كلامه راد لنبوته كما لا يخفى.

وإذا كان الشيعة صاحب العقيدة الثابتة في حياة النبي ﷺ كما صرح النبي ﷺ بنجاتهم، وكان فيهم من الصحابة الأجلاّء والرواد الأوائل من الصالحين والمخلصين الذين كانوا يعرفون بشيعة علي عليه السلام، كما صرح بذلك أبو حاتم السجستاني في كتابه الموسوم بـ«الزينة» على ما حكى عنه السيد الخونساري في روضات الجنات ما هذا نص عبارته: إن الشيعة كان على عهد رسول الله ﷺ لقب أربعة من الصحابة: سلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود الكندي، وعمار بن ياسر (أُنظر: روضات الجنات ج١: ص٣٢٣ في ترجمة ابن خلكان).

فالباحث لو درس الروايات والتاريخ والتراجم يقطع علم اليقين بأنّ الشيعة هم الذين مدحهم رسول الله ﷺ وبعد هذا فما معنى أنّ الشيعة أخذت من المعتزلة، فإنّ الشيعة كانت موجودة في حياة رسول الله ﷺ وإنّ مذهب الاعتزال حدث بعد سنين متمادية بعد وفاة رسول الله ﷺ، فكيف يعقل لأحد أن يقول بأنّ الشيعة أخذت من المعتزلة لا سيّما أن الشيعة الإمامية معرفون بأنّهم لا يأخذون مسألة من مسائل الدين إلّا من أهل بيت الوحي عليهم السلام فهم معروفون بهذه الخصوصية، فكيف يعقل أن يقال أنّهم أخذوا عن أعداء أهل البيت، فإنّ هذا مما لا يقبله العاقل المنصف الخالي من التعصّب، فلاحظ.

(١) ولا يخفى على الخبير أن الشيعة الإمامية لا يأخذون معالم دينهم إلّا عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام لأنّ رسول الله ﷺ قارنهم بكتاب الله عزّوجلّ فسماهما الثقلين، وأوقفهم موقف البيان والتعليم وقد أمر النبي الأكرم ﷺ بالتمسك والأخذ بالكتاب والعترة الطاهرة معاً لأنهما يهديان إلى السعادة وإنّ عدم التمسّك بهما يوجب الضلالة والهلاكة. فالأئمة الطاهرين من أهل بيت النبي ﷺ هم الهداة المهديّين الذين يهدي الله بهم العباد.

وليقل لنا من خالف من المتقدمين ومن نقله عنهم، وفي أيّ صحيفة قد رسم ذلك؛ فإنّ مجرد النسبة غير كافية في الثبوت، ما لم تقم عليها بيّنة، والمدّعي مفتري ما لم يقم على مدّعاه بيّنة، فليقم لنا بيّنة من تسمى بأهل السّنة على ما نسبه شيخهم الذي قد سَيّل قلوبهم فرحاً بما جمعه في منهاجه من العجائب، ونحن قد دعوناهم الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلناهم بالتي هي أحسن بغير سبّ وشتم وغلظة وفظاظة بل بمضامين آيات الفرقان العظيم وسنّة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم (١).

➲ فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أوضح للمسلمين بأنّ الهدى والفوز في ولاء الأئمة الطاهرين عليهم السلام من أهل بيته، وإنّ الضلال والشقاء في مخالفتهم، ولذلك إنّ الشيعة الإمامية إنّما يأخذون معالم دينهم من أئمة أهل البيت عليهم السلام. فقول ابن تيمية: أنّ الشيعة أخذت العدل من المعتزلة من مضحكات الدهر.

(١) ولا يخفى إنّ كثيراً من الافتراءات التي يوجّهها أبناء أهل السنة إلى الشيعة الإمامية إنّما توجب الفتن، بل ربما يتسرب في البين أحاسيس الانتقام من عوام أهل السنة، فتسبّب نهب الأموال وسفك الدماء وهتك الأعراض، فمسؤولية ذلك على عاتق علمائهم الذين يثيرون تلك الأقوال الباطلة ضد الشيعة الإمامية كابن تيمية وأمثاله الذين يفترون على الشيعة ويفتون ضدهم بالفتاوى الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان. وقد شاهدت التأريخ ضد الشيعة أثر تلك النسب الباطلة والاتهامات القبيحة العارية من الصحة التي يندى منها جبين البشرية وتبكي لها عين الإنسانية، والله يعلم كم من الشيعة المؤمنين قتلوا بأمثال هذه الاتهامات والتقوّلات الموهومة المزعومة ضد شيعة آل محمد ويحسبونهم كفاراً، فإنّ مسؤولية هذه الدماء التي سفكت والأعراض التي هتكت والأموال التي سلبت في هذا السبيل، إنّما تكون على أمثال ابن تيمية وغيره من علمائهم الذين افتروا على الشيعة وشنّعوا ضدّهم ليثيروا عليهم أحاسيس العوام، والى الله المشتكى في كل حال وعليه المعوّل في الشدة والرخاء، ونسأله التعجيل في فرج الإمام المنتظر المنتقم من الظالمين والمهلك لهم أجمعين آمين يا رب العالمين.

وخامسها: ما زعمه من أخذ المفيد وغيره من الشيعة ذلك من المعتزلة، فإنّه من عجيب البهتان، أما عَلِمَ السُّني بأنّ المعتزلة يقولون ببعض ذلك لساناً حسبما بيَّن المفيد ﷺ[1] الفرق بينهم وبين الشيعة من جهات عديدة في رسالته التي صنّفها

---

(١) وهو الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد المتوفى سنة ٤١٣ هـ، وكان الشيخ المفيد ﷺ من أهل عكبر وهي قرية من قرىٰ بغداد، ثم انحدر وهو صبي مع أبيه إلى بغداد، واشتغل على الشيخ أبي عبدالله المعروف بجعل أو الجعلي، ثم عند أبي ياسر، ولما كان أبو ياسر ربما عجز عن البحث معه والخروج عن عهدته أشار إليه بالمضي إلى علي بن عيسى الرماني الذي كان من أعاظم علماء الكلام، فمشى الشيخ فجلس في مجلسه ولم يزل يدني نفسه الى الرماني حتى دخل عليه رجل من أهل البصرة وسأل الرماني، قال له: ما تقول في حديث الغدير وقصة الغار؟ فقال الرماني: الغار دراية، وخبر الغدير رواية، والرواية لا تعارض الدراية، ولما كان ذلك الرجل البصري ليس له قوة معارضة سكت وخرج.

قال الشيخ المفيد: اني لم أجد صبراً عن السكوت عن ذلك، فقلت: أيها الشيخ عندي سؤال، فقال: سل، فقلت: ما تقول فيمن خرج على الإمام العادل فحاربه؟ فقال: كافر، ثم استدرك وقال: بل فاسق، فقلت: ما تقول: في أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؟ فقال: إمام، فقلت: ما تقول في حرب طلحة والزبير له في حرب جمل؟ فقال: إنهما تابا، فقلت: خبر الحرب دراية والتوبة رواية والرواية لا تعارض الدراية، فقال: وكنت حاضراً عند سؤال الرجل البصري؟ فقلت: نعم، فقال: رواية برواية وسؤالك متجد وارد (راجع: مجالس المؤمنين ج ١: ص٤٦٤ وتنبيه الخواطر ج ٢: ص٢٣٦).

وقال الذهبي: أنّه ذكر ابن أبي الطي في تاريخه فقال: هو شيخ الطائفة، ولسان الإمامية، ورئيس الكلام والفقه والجدل، كان أوحد في جميع فنون العلوم، الأُصول والفقه، والأخبار، ومعرفة الرجال والقرآن، والتفسير، والنحو، والشعر، ساد في ذلك كلّه، وكان يناظر أهل كل عقيدة، مع جلالة العظيم في الدولة البويهية والرتبة الجسيمة عند الخلفاء العباسيين، وكان قوي النفس، كثير المعروف والصدقة، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، يلبس الخشن من الثياب، وكان بارعاً في العلم وتعليمه، وملازماً للمطالعة والفكرة، وكان من أحفظ الناس.

⬅

في ذلك[١].

وفي مطالب شتى من مسائل التوحيد وغيره[٢]، فمن الفروق التي بيّنها فيما

⬅ ثم قال: حدثني رشيد الدين المازندراني: حدثني جماعة ممن لقيت أن الشيخ المفيد ما ترك كتاباً للمخالفين إلّا وحفظه وباحث فيه، وبهذا قدر على حل شبة القوم... .

وقال غيره: كان الشيخ المفيد ذا منزلة عظيمة من السلطان، ربما زاره عضد الدولة، وكان يقضي حوائجه، ويقول له: اشفع تشفع (أُنظر: تاريخ الإسلام للذهبي ج٢٨: ص٣٣٤).

فكان الشيخ المفيد{{قدس سره}} هو النجم اللامع في سماء علم الكلام في القرن الرابع، وهو ممن ردّ على المعتزلة بجد وحماس (لاحظ كتاب الحكايات: ص٢٤ـ٣٠).

(١) وهو كتاب الردّ على المعتزلة في الوعيد (أُنظر: الذريعة ج١٠: ص٢٢٤ رقم ٦٦٧) وفي رجال النجاشي: مختصر على المعتزلة في الوعيد (أُنظر: رجال النجاشي: ص٤٠٢).

(٢) قال الشيخ المفيد{{قدس سره}} في كتاب أوائل المقالات: عرّف المتكلّمون اللطف بما أفاد هيئة مقربة إلى الطاعة ومبعدة عن المعصية بحيث لم يكن له حظ في التمكين ولا يبلغ حد الإلجاء والتقييد بعدم الحظ في التمكين لأجل الاحتراز عن وقوع الفعل بواسطة الآلات والأدوات البشرية فإنّها وإن كانت مما يقرّب إلى الطاعة ويبعّد عن المعصية إلّا أنّ لها مدخلية في تمكين المكلف من الفعل، والتقيد بعدم الوصول إلى حدّ الإلجاء من جهة أنّه ينافي التكليف.

والقول بوجوب اللطف يختص به العدلية من المعتزلة والإمامية والزيدية. ويخالفهم فيه الأشعرية، وقد نسب الخلاف فيه أيضاً إلى بشر بن المعتمر من قدماء المعتزلة وإن حكي رجوعه عن ذلك أخيراً بعد مناظرة سائر المعتزلة إياه، لكن تعليل المعتزلة بوجوبه من جهة أنّهم أوجبوه من جهة العدل، وأن الله تعالى لو فعل خلافه لكان ظالماً.

والإمامية إنّما أوجبوه من جهة الجود والكرم، وأنّه تعالى لما كان متصفاً بهاتين الصفتين اقتضى ذلك أن يجعل للمكلفين مادام على ذلك الحال أصلح الأشياء لهم، وأن لا يمنعهم صلاحاً ولا نفعاً... (أوائل المقالات: ص١٦١).

وقال في مكانٍ آخر: فإن قيل: ما حدّ اللطف؟ قالجواب: اللطف هو ما يقرّب المكلف معه من الطاعة ويبعّد عن المعصية، ولاحظ له في التمكين ولم يبلغ الإلجاء.

فإن قيل: ما الدليل على أنّ اللطف واجب في الحكمة؟ فالجواب: الدليل على وجوبه توقف ⬅

مسألة اتفاق الشيعة على وجوب وجود امام في كل زمان هو حجة لله على عباده ويكون بوجوده تمام المصلحة في الدين(١).

غرض المكلف عليه فيكون واجباً في الحكمة وهو المطلوب... (النكت الاعتقادية للشيخ المفيد: ص٣٥) والى غير ذلك مما جاء في كلماته.

(١) قال الشيخ المفيد في كتابه النكت الاعتقادية: فإن قيل: من إمام هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فالجواب: علي بن أبي طالب عليه السلام فإن قيل: بما علمتم أنه الإمام؟ فالجواب: علمنا بالنص المتواتر من الله ـ عزوجل ـ ومن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أمّا الذي من الله تعالى فمثل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلاَمَ دِيناً﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ...﴾ وأمثال ذلك.

وأمّا الذي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: أنت خليفتي من بعدي، أنت وصيي وقاضي ديني، سلموا عليه بإمرة المؤمنين، أقضاكم علي تعلّموا منه ولا تعلّموه، اسمعوا له وأطيعوا، من كنت مولاه فعلي مولاه، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي، اللهم آتني بأحب خلقك اليك يأكل معي هذا الطير، أنا مدينة العلم وعلي بابها، نعم الراكبان هما وأبوهما خير منهما، لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرّاراً غير فرار، وكذلك النصوص الواردة في مثل إخائه، وتزويجه بابنته، وتعميه بعمامته، وركوبه على ناقته وأمثال ذلك كثير وبوفرة.

فإن قيل: من الإمام بعد علي عليه السلام؟ فالجواب: ولده الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي الباقر ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى بن جعفر الكاظم ثم علي بن موسى الرضا ثم محمد بن علي التقي الجواد ثم علي بن محمد الهادي ثم الحسن بن علي العسكري ثم الخلف القائم المهدي (صلوات الله عليهم أجمعين).

فإن قيل: ما الدليل على إمامة كل واحد من هؤلاء المذكورين؟ فالجواب: الدليل على ذلك أن

قلت: وما قاله من مصاديق اللطف والعدل وهما تنسيان الى المعتزلة نسبة لفظية، من حيث مخالفتهم لمعناهما؛ فانّ قولهم في هذه المسألة مخالف لهما لما نقله المفيدقدس سره عنهم فقال: وأجمعت المعتزلة على ما خالف ذلك، فجوزت عدم

⮊ النبيصلى الله عليه وآله وسلم نصّ عليهم نصاً متواتراً بالخلافة مثل قولهصلى الله عليه وآله وسلم: ابني هذا الحسين إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة تاسعهم قائمهم يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

ومثل قولهصلى الله عليه وآله وسلم في حق القائمعليه السلام: لو لم يبق من الدنيا إلّا ساعة لطوّل الله تلك الساعة حتى يخرج رجل من ذريتي اسمه كاسمي وكنيته ككنيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ويجب على كل مخلوق متابعته.

ولأنّ كل إمام منهم نص إمام من بعده نصاً متواتراً بالخلافة، ولأنهم صلوات الله عليهم ظهر عنهم معجزات وكرامات خارقة للعادة لم تظهر على يد غيرهم كعجن ـ أو كمعجز ـ الحصا وختمه ـ أو حتمه ـ وأمثال ذلك.

فإن قيل: من إمام هذا الزمان؟ فالجواب: القائم المنتظر المهدي محمد بن الحسن العسكري صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين.

فإن قيل: هو موجود أم سيوجد؟ فالجواب: هو موجود من زمان أبيه الحسن العسكريعليه السلام لكنه مستتر أبى أن يأذن الله تعالى له بالخروج، وسيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

فإن قيل: ما الدليل على وجوده؟ فالجواب: الدليل على ذلك أن كل زمان لابد فيه من إمام معصوم وإلّا لخلا الزمان من إمام معصوم مع أنّه لطف واللطف على الله في كل زمان.

فإن قيل: قد تقدّم أنّ الإمامة لطف واللطف واجب على الله، فإذا كان الإمام مستتراً كان الله تعالى مخلاً بالواجب تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً؟ فالجواب: اللطف الواجب على الله تعالى في الإمام هو نصبه وتكليفه بالإمامة، والله تعالى قد فعل ذلك فلم يكن مخلاً بالواجب، وإنّما الإخلال بالواجب من قِبَل الرعية، فإنّهم يجب عليهم أن يتابعوه، ويمتثلوا أوامره ونواهيه ويمكّنوه من أنفسهم ،فحيث لم يفعلوا ذلك كانوا مخلّين بالواجب فهلاكهم من قِبَل أنفسهم.

فإن قيل: ما الطريق إلى معرفته حين ظهوره بعد استتارهعليه السلام؟ فالجواب: الطريق إلى ذلك ظهور المعجز على يده (أُنظر: النكت الاعتقادية للشيخ المفيد: ص ٤٠ـ٤٥).

وجود امام للخلق في الزمان الطويل، ونقل عنهم المخالفة للشيعة في عصمة امام الخلق وفي أفضليته من غيره وهما حسبما عرفت مخالفان لمسألة العدل واللطف[١].

وذكر غير ذلك من الفروق وحَسْبُنا من بيان فساد ما نسبه السّنى هذه المسائل الثلاث المخالفة لما ذهب اليه الشيعة:

من العدل الذي هو حسبما عرفت من أصول الدين. واللطف مما يستلزمه العدل؛ فانّ له طرفين طرف منه لطف وطرف منه عقوبة المستحق، فان لم ينصب سبحانه اماماً أفضل من غيره معصوماً فقد خالف العدل، وذهب اللطف؛ لعدم فعله ما يوجب القرب معه الى الطاعة، وهو نصب من وصفناه، وذهب استحقاق العقوبة لعدم قيام الحجة بدون إمام وبالمفضول[٢].

---

(١) أُنظر: رسائل في الغيبة للشيخ المفيد ج٤: ص٦ـ٨).

(٢) وخلاصة الكلام: إنّ مبحث العدل من المباحث المهمة الأُصولية ويبتني عليه كثير من المسائل الإسلامية أُصولاً وفروعاً. بل ولا يتمّ شيء من الأديان ولا يصدّق نبي من الأنبياء إلّا بهذا الأصل الأساسي الذي يعتبر في جميع المجالات الاجتماعية والعبادية والأخلاقية والسياسية، والحكومية والتربوية وغير ذلك.

فعلى سبيل المثال: إنّه لا يمكن أن يعبد الله إلّا مع الجزم بهذا القانون والنظام الكلي الأُصولي؛ لأنّ الاعتقاد الجازم بالنجاة يستلزم وجود العدالة في نظام المعبود الذي يجب عبادته كما أن التصديق بالشرائع السماوية يستلزم ذلك؟ فإنّ كل شريعة سماوية لابد وأن ترتكز أُصولها على العدل والتمييز بين الفضائل والرذائل ولا يتحقق هذا التمييز إلّا بالإدراك العقلي؛ فإنّ العقل يدرك حسن الفضائل مستقلاً كما يدرك قبح الرذائل كذلك.

ولا يخفى على الخبير ما يترتب على هذا الحكم العقلي من المسائل والمباحث وماله من الأهمية في المعارف الإلهية والحكمة العلمية، ومن أهم مسائلها العدل الإلهي الذي يعدّ من ←

➲ مباحث التوحيد وهو مسألة تنزيه أفعال الله سبحانه عن الظلم والعبث، ولزوم اقترانها بالغايات والأغراض الحكمية.

وهذه المسألة من المسائل التي تشاجر فيها الإمامية والأشاعرة، فإنّ الامامية ذهبوا إلى لزوم العدالة في أفعال الله وصفاته سبحانه و تعالى، واستدلوا على ذلك: بأنّ خلو أفعاله من الغاية والغرض يعدّ لغواً وهو من القبائح العقلية، والله سبحانه وتعالى منزّه عن القبائح كلّها، فلابدّ أن تكون أفعاله مقترنة ومعللة بالأعراض والغايات.

وقد أنكرت الأشاعرة على هذا الاستدلال وذهبوا إلى أنّ أفعاله سبحانه لم تكن معللة بالأغراض ولا بالغايات لأنّه على زعمهم لا يجب على الله شيء.

والجواب عنهم واضح ظاهر لأنّ الله تعالى حكيم وانّ أفعاله تكون مبتنية على المصالح والنظام السائد فهو تعالى لا يختار فعلاً إلّا ما يناسب الحكمة والمصلحة، ولا يصدر منه ما يضادها ويخالفها، فالعقل يدرك بأنّ الحكيم على الإطلاق يفعل فعلاً إلاّ ما يكون فيه المصلحة والحكمة، وأنّ أفعاله سبحانه وتعالى منزّهة عن اللغو والعبث لأنّ العبث واللغو من القبائح العقلية كما لا يخفى. ومما يترتب على مبحث العدل الإلهي هو قانون اللطف، وهو عبارة عما يكون المكلف معه أقرب إلى فعل الطاعة، وأبعد عن فعل المعصية.

وبعبارة أُخرى: أنّ الله تعالى يتلطّف على عباده بجعل ما يرغّب العبد إلى الطاعة ويبعّده عن المعصية ويفسح له المجال لحصول الطاعة والابتعاد عن المعصية، بأن يجعل له التكاليف الشرعية والمسائل الدينية التي تدعو العباد إلى ما به فلاحهم وصلاحهم وخلاصهم من العذاب والهلاك.

كما أن القاعدة تقتضي نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالى على الرعية في كل زمان لئلّا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ومن هنا يعلم أنّ الإمام الذي ينصّبه الله تعالى علماً للعباد لابد، وأن يكون أعلم الناس ويكون عالماً بجميع الدين ولا يشذ منه شاذ، ليتم الحجة به على الناس على مدى العصور بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لئلا يبقىٰ لهم عذراً وحجة، كما قال تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥).

➲

وسادسها: ما زعمه من كون ادخال مسألة التعديل والقدر والتجويز مثل ادخال غيرها من المسائل المتنازع فيها كمسائل فتنة القبر ومنكر ونكير والحوض وغيرها في غير محله؛ لعدم ربطها بهذه المسألة فانّه من عجائبه[١]، لعدم

وعليه: فإنّ العقل والشرع يدلان على أنّ الإمام لابد أن يكون أعلم أهل زمانه، فكيف يمكن للمعتزلة أن يذهبوا إلى تفضيل المفضول على الفاضل بعد أن سلّموا للحكم العقلي؟!!!

وكيف يسمح ابن تيمية أن ينسب الى الشيعة بأنّهم أخذوا من المعتزلة وهو يعلم بأنّ المعتزلة في تناقض في باب الإمامة، ويعلم بأنّ الشيعة الإمامية يؤكدون على تمامية هذا الحكم العقلي من دون أيّ استثناء فيه، كما أنّ هذا الحكم العقلي مطابق للقرآن الكريم ولقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لاَ يَهِدِّي إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (سورة يونس: ٣٦).

ومن هنا نعلم أنّ المعتزلة الذين صرّحوا باعتبار قاعدة اللطف في أُصولهم فقد نقضوا هذه القاعدة المسلّمة عندهم وذهبوا إلى تقديم المفضول على الفاضل كما أعترف بذلك ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة بقوله: الحمدلله الذي قدّم المفضول على الأفضل لمصلحة... (شرح نهج البلاغة ج١: ص٣).

ولا يخفى بطلان هذا الكلام على أحد فإنّ تقديم المفضول على الفاضل لايجوز بوجه من الوجوه كما لا يحسن الظلم بوجه من الوجوه، إذ لا وجه لتبديل الحكم العقلي القطعي الذي حكم به العقل مستقلاً. فالمعتزله قد وقعوا في خطأ كبير لايمكنهم التخلّص منها إذ هم بهذا الاعتقاد قد حكموا بصحة الجمع بين المتناقضين كما هو واضح ظاهر.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ مسألة العدل الإلهي عند الشيعة الإمامية من أُصول الدين وقواعد الإسلام ومبانيه الحكيمة التي بثبوته تثبت تنزيه أفعال ربّ العالمين عمّا لاينبغي صدوره من الحكيم.

والتصديق بهذه الصفة للباري تعالى مبني على القول بالعدل الإلهي وعدم صدور الظلم منه سبحانه وتعالى.

وعليه: فمرتبة العدل في الإسلام في مرتبة التوحيد، ضرورة أنّ أفعاله سبحانه إنّما تصدر منه

انصافه دون جهله، بل تجاهله لعلمه؛ بانّ ما مَثّل به من المسائل مسائل فرعية مرتبتها متأخرة عن مرتبة ما بَيّنه الشيعي؛ فانّ الذي بَيّنه مصاديق العدل وشقوقه، وهو حسبما عرفت من أُصول الدين وامامة المعصوم التي تقولها الشيعة، مبنية على ثبوت هذه المسألة(١) فأين هذه من هذه فعلم مما بيناه كون ادخال مسألة العدل في المقام له تمام المدخلية فيه بل حسبما عرفت ان مسألة العدل هي مبنى هذه المسألة وأصلها فلم ينصف من زعم بانّ ادخالها فيه امّا من باب الجهل، وامّا

تعالى عن علم ومشيئة وإرادة حكيمة. وهذه المباحث هي من مباحث التوحيد وصفات رب العالمين ومن تلك الصفات العدل الإلهي.

وعليه: فمرتبة هذه المسألة عند الشيعة الإمامية مرتبة أُصول الدين كالاعتقاد بالقبر ومنكر ونكير والحوض وأمثال ذلك التي هي من مباحث المعاد، فإن البحث عن العدل من أهم مباحث أُصول الدين كما أنّ البحث عن القبر ومنكر ونكير من أهم مباحث المعاد.

(١) قال العلاّمة الحلي رحمه الله في كتابه منهاج الكرامة: ذهبت الإمامية إلى أنّ الله تعالى عدل حكيم، لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب، وأنّ أفعاله إنّما تقع لغرض صحيح وحكمة، وأنّه لا يفعل الظلم والعبث، وأنّه رؤوف بالعباد يفعل بهم ما هو الأصلح لهم والأنفع، وأنّه تعالىٰ كلّفهم تخييراً لا إجباراً، ووعدهم الثواب وتوعّدهم بالعقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين بحيث لا يجوز عليهم الخطأ والنسيان ولا المعاصي، وإلاّ لم يبق وثوق بأقوالهم وأفعالهم فتنفى فائدة البعثة.

ثم أردف الرسالة بعد موت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالإمامة فنصب أولياء معصومين عليهم السلام، ليأمن الناس من غلطهم وسهوهم، فينقادون إلى أوامرهم، لئلاّ يخلى الله تعالىٰ العالم من لطفه ورحمته، وأنه لما بعث رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قام بنقل الرسالة ونصَّ على أنّ الخليفة بعده علي بن أبي طالب عليه السلام ثم من بعده على ولده الحسن الزكي، ثم على الحسين الشهيد أخيه، ثم على علي بن الحسين زين العابدين، ثم على محمد بن علي الباقر، ثم على جعفر بن محمد الصادق، ثم على موسى بن جعفر الكاظم، ثم على علي بن موسى الرضا، ثم على محمد بن علي الجواد، ثم على علي بن محمد الهادي، ثم على الحسن بن علي العسكري، ثم على خلف الحجة بن الحسن عليهم أفضل الصلوات... (منهاج الكرامة: ص٣٢).

من باب التجاهل[١].

(١) لقد بيّن العلامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه) في كتابه منهاج الكرامة: ص٣ مسألة العدل وما يترتب عليها من قاعدة اللطف، واستدل بها على وجوب نصب الإمام المعصوم بأوضح البيان، وتقدّم شرح بيانه فيما سبق فلا نعيده، ومن لاحظ ذلك يعرف بطلان كلام ابن تيمية كالنار على المنار.

قال السني:

الوجه الثاني: أن يقال ما نقله عن الامامية لم ينقله على وجهه، فإنّ من تمام قول الإمامية، الذي حكاه وهو قول من وافق المعتزلة في توحيدهم، وعدلهم من متأخري الشيعة: إنّ الله لم يخلق شيئاً من أفعال الحيوان لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم بل هذه الحوادث تحدث، بغير قدرته ولا خلقه.

ومن قولهم أيضاً: إن الله لا يقدر أن يهدي ضالاً ولا يقدر أن يضل مهتدياً ولا يحتاج أحد من الخلق أن يهديه الله، بل الله قد هداهم هدىٰ البيان، وأمّا الاهتداء فهذا يهتدي بنفسه لا بمعونة الله له، وهذا يضل بنفسه لا بمعونة الله له.

ومن قولهم: أن هدي الله المؤمنين والكفار سواء ليس له على المؤمنين نعمة في الدين أعظم من نعمته على الكافرين، بل قد هدى علي بن أبي طالب كما هدى أبا جهل، بمنزلة الأب الذي يعطي أحد بنيه دراهم ويعطي الآخر مثلها، لكن هذا أنفقها في طاعة الله وهذا في معصيته، فليس للأب في الأنعام على هذه في دينه أكثر مما له من الأنعام على الآخر.

ومن أقوالهم: أنه يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء.

فإن قيل: فيهم من يقول: أنّه يخص بعضهم ممن علم منه أنه إذا خصه بمزيد لطف من عنده اهتدى بذلك، وإلّا فلا.

قيل: هذا هو حقيقة قول أهل السنة المثبتين للقدر، فإنّهم يقولون: كل من

خصه الله بهدايته إياه صار مهتدياً ومن لم يخصه بذلك لم يصر مهتدياً، فالتخصيص والاهتداء متلازمان عند أهل السنة.

فإن قيل: قد يخصه بما لا يوجب الاهتداء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

قيل: هذا التخصيص حق لكن دعوى لا تخصيص إلاّ هذا غلط، كما سيأتي، بل كل ما يستلزم الاهتداء هو من التخصيص.

وفي الجملة: القوم لا يثبتون لله مشيئة عامة ولا خلقاً متناً ولا لكل حادث، وهذا القول أخذوه عن المعتزلة وهم أئمتهم فيه، ولهذا كانت الشيعة في هذا على قولين[1].

---

(١) منهاج السنّة ج١: ص١٢٩ـ١٣١ مع اختصار في آخر كلامه.

قلت:

في هذه وجوه من العجائب:

أحدها: ما هو معلوم عند السُّني وغيره، من أنّ منهاجه قد حرره وجمعه يرَدّ بما فيه على الشيعة، والردّ إنّما يتحقّق بإقامة البينات الملزمة للخصم[1]، فليقل لنا السُّني: بأيّ دليل رَدّ على الشيعي بهذه الدعاوي التي سردها في المقام؟ فهل هي من ضروريات الدِّين[2]؟

---

(١) لا يخفى أنّ المحاجّة إنّما تصح إذا كانت قائمة على أُصولها؛ ومن أُصولها إقامة الدليل والبرهان وما يكون حجة على طرفه المقابل، لا مطلق المخاصمة والمكالمة. وإنّها لاتلزم الطرف المقابل بشيء لأنّ الاحتجاج وإقامة الحجة إنّما يصح من المتناظرين إذا كان ملزماً للخصم ومظهراً له الحق، كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا احتج على المخالفين والمنافقين والمعاندين بما يلزمهم من قبول ما هو الحجة عندهم، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يراعي هذا القانون العام مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِمَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ....﴾ (سورة آل عمران: ٦١) وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٢٥) وغير ذلك من الآيات المباركة.

فالمناظرة والاحتجاج إنّما تكون ناجحة وبنّاءة وهادفة إذا كانت لطلب الوصول الى الحق لا صرف المجادلة والمقاولة والمكالمة كما لا يخفى.

(٢) فإنّ الضروريات الدينية تنقسم عند الشيعة الإمامية الى قسمين:

فما معنى المنازعة فيها بين الفِرَق[١]؟ بل هو غشّ للغفلة، حيث يريهم أنّ ما

➲ قسم منها: ضروري عند عامة المسلمين أو جلّهم كوجوب الصلاة والصوم والزكاة ونحو ذلك.

وقسم منها: من ضروريات المذهب كجواز الجمع بين الظهرين والعشاءين وغيرهما، فإنهما غير ضروري عند غيرهم.

ولا يخفى أنّ إنكار أحد هذين القسمين عند الشيعة يعتبر إنكاراً للضرورة الدينية ويلحقه حكم المنكر لها، وكل منكر للضروري الديني فهو كافر لأنّه يرجع إلى إنكار الرسالة وصاحب الدين، سواء ثبت الحكم الضروري بدليل ثابت لجميع المسلمين أو ثبت بضرورة المذهب، والمهم أن يصدق عنوان الضروري للمنكر.

والضروري عبارة عن البديهي وفي المقام هو ما يكون من الأُمور الدينية القطعية عند الكل، وأن قسّموا الضروريات إلى ستة أقسام:

الأوّل: البديهيات الأولية، ككون الكل أعظم من الجزء، وكون السلب والإيجاب لا يجتمعان ولا يرتفعان.

الثاني: المشاهدات، وتسمى الحسّيات وهي المحسوسات بالحس الظاهري، ككون هذا الجسم أسود وذاك أبيض، وهذا مُرّ وهذا حلو أو حامض، وهذا صوت مشتمل على الحروف الهجائية وهذا صوت لم يشتمل عليها وهكذا.

أو بالحس الباطني، كالوجدانيات وهي: ككون أنّ لنا علماً بكذا وجهلاً بكذا، ولنا شوق إلى شيء وليس لنا شوق إلى شيء آخر وهكذا.

الثالثة: الفطريات، كانقسام الزوج إلى متساويين، وهي المعبّر عنها بالقضايا التي قياساتها معها.

الرابعة: التجربيات، ككون هذا العقار نافعاً وذاك العقار مسهلاً، فإنّها ضرورة تحصل من التجربة.

الخامسة: المتواترات، كحكمنا بوجود بلد لم نذهب إليه، كوجود أمريكا وبريطانيا في العالم.

السادسة: الحدسيات، ككون القمر نوره مستفاد من الشمس وهي ضرورة سببها اختلاف القمر في تشكيلاته الشهرية ابتداءً وانتهاءً، ولا إشكال أن مثل طريقية القطع وكاشفيته من الأُمور الضرورية الوجدانية، فإنّ الضروري في المقام هو ما ثبت ضروريته وبديهيته في الدين أي ما كان ضرورياً ومقطوعاً بالقطع واليقين، فلاحظ.

(١) لا شك أن العدل الإلهي من الضروريات الاعتقادية لدى الشيعة الإمامية، ويعتبرونه أصلاً

بَيّنه من الدعاوي ليس له حاجة إلى دليل فيزعمون حقيقة ما أثبته منها وفساد ما نفاه(١) فهل هذه سيرة منصف مبين للحق.

➲ من أُصول الاعتقاد، ولا يزال علماءهم يطعنون على مخالفيهم بالجبر، وبذلك ملؤوا كتبهم في الكلام والتفسير والحديث البحث في إثبات العدل والردّ على المخالفين بأدلة عقلية وشرعية وإنكارهم للظالم والجبر و....

وقد أثبتوا من خلال البحث العلمي أنّ العدل الإلهي مما لا يمكن إنكاره على جميع الموحّدين، وأنّ مما يستلزم من العدل الإلهي، وجوب نصب الإمام المعصوم بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقاعدة اللطف، وقد تقدم تقريب ذلك فلا نعيده.

وهذه المسألة مما اتفقت عليها جميع علماء الشيعة الإمامية في جميع الأعصار والأدوار ولم يختلف فيها اثنان، كما لا يخفى ذلك على أحد.

(١) لا شك أنّ الباحث لو درس التاريخ الإسلامي إلى يومنا هذا يجد أنّ أهل السنة والجماعة خاضعين لآراء وفتاوى رؤساء المذاهب الأربعة؛ فالحنفية يقلّدون إمامهم أبو حنيفة، والمالكية يقلّدون إمامهم مالك بن أنس، والشافعية يقلّدون إمامهم محمد بن إدريس الشافعي، والحنبلية يقلّدون إمامهم أحمد بن حنبل.

ولا يهمّنا البحث فعلاً في سبب انتشار هذه المذاهب وكيفية ذلك وهو الموجب لتسليم الناس وتقليدهم لرؤساء مذاهبهم الأربعة، وسنتعرّض لهذا البحث في محله إن شاء الله تعالى، كما نرى أنّه قد تفرعت من الحنابلة السلفية وهم أتباع ابن تيمية الحراني المتوفى سنة ٧٢٦ هـ وقد خالفوا جميع المسلمين في اعتقاداتهم حتى قالوا: بأن دخول المسجد النبوي بنية زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معصية، والخطوة الواحدة داخل المسجد بنية زيارته معصية، وإن كانت هذه الخطوة مع نية التوسل به فهي شرك. ويزعمون أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته لا ينفع ـ والعياذ بالله ـ فإنّ التوسّل به لغو وعبث.

وقد تحيّروا في الجواب عن هذا الإشكال بأنّه: يجب على جميع المسلمين أن يقولوا في صلواتهم: السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته.

وقد ردّ على هذه الآراء الباطلة علماء الإسلام حتى من أهل السنة وألّفوا فيها المؤلفات الكثيرة: منهم السمهودي المتوفى سنة ٩١١ هـ في كتابه وفاء الوفاء وغيره.

➲

والعجيب منه حيث حكم بغلطية من خالفه بدون حجة، فلِمَ لم يعمل بقوله سبحانه حسبما أدب به من هو على خلق عظيم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١].

فبأيّ وجه شرعي ينسب السُّني خصمه الى الباطل ويغلطه بدون اقامة دليل عليه في ذلك؟ فانّ هذه السيرة ليست سيرة انسان يناظر صاحبه في المسائل العلمية المختلف فيها[٢].

ثم تفرّعت من السلفية الوهابية وهم أتباع محمد بن عبدالوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ، وهم يتميّزون اليوم بالخشونة والتعصّب واللجاج بين المسلمين وقد حصروا الإسلام في منطقهم وتعقلهم فيما أفتوا به، ويجهرون بتكفير جميع المسلمين ممن خالفهم في ذلك، ولمن أراد الوقوف على بعض جرائمهم فليرجع إلى كتاب: كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب للسيد محسن الأمين رحمه الله، وكتاب الصحيح من سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأعظم للعلامة السيد جعفر مرتضى، وكتاب مذاكرات مستر هنفر وغير ذلك، وسيعرف كل باحث بالمراجعة الى المصادر المذكورة وغيرها بأن الوهابية هي ثمرة الشجرة التي غرسها أيادي الاستعمار بجهودهم الإلحادية، ودعموا آل سعود في إجراء مناويهم باعتبار سلطتهم على المسلمين في بلدة الحرمين الشريفين لينشروا بذلك أفكارهم السخيفة وآرائهم الباطلة بين المسلمين، كما لا يخفى ذلك على أحد.

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) لا يخفى أنّ أُسلوب المناظرة من أحسن الأساليب إقناعاً، ومن أسهلها استيعاباً، وأوقعها في النفس، حيث يتفاعل معها الإدراك من خلال الأخذ والردّ، ويستفيد منها عامة الناس مع اختلاف مستوياتهم الفكرية، غير أنّ المناظرة لا تكون منتجة ومثمرة إلّا أن تكون بنّاءة، هادفة لطلب الحق، وأن تحتوي على مناهج البحث العلمي مع رعاية آدابها وشرائطها المذكورة في محله.

فإنّ القرآن الكريم قد جعل للمناظرة حدوداً وضوابطاً، وأكّد على ضرورتها وأهميتها في كثير من آياته الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

وثانيها: ما زعمه من عدم نقل الشيعي ما عليه الشيعة على وجهه، فإنّ هذه العبارة تَدلّ على تحريف الناقل في نقله، ومن المعلوم كون الشيعي نقل ما يتعلق بمسألة المقام من معتقد الشيعة ومذهبهم صريحاً حسبما مرّ شرحه[١].

﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٢٥).

هذه الآية الكرية قد أعطت الطريقة التي رسمها الإسلام فيما يرتبط بالسياسة الإعلامية، وبيّنت الأساليب والوسائل التي تجب استعمالها في الدعوة إلى الله سبحانه.

فأولاً تقول: أنّ الدعوة تجب أن تكون إلى سبيل الرب جل جلاله. أي إلى معرفة الله وصراطه المستقيم، ودينه الذي ارتضاه للناس وهو الإسلام كما قال سبحانه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (سورة المائدة: ٣).

وثانياً: أن تكون الدعوة بالحكمة وإثبات الحجة والاستدلال وفق المنطق السليم والعلم النافذ إلى داخل فكر الناس الموجب لإيقاظ عقولهم والمانع عن الفساد والانحراف.

وثالثاً: أن يكون طريق الدعوة بالاستفادة من عملية تحريك الوجدان الإنساني والموعظة الحسنة، فإنّ لها أثر دقيق في التعامل والبُعد العاطفي لمختلف طبقات الناس وتوجيهم نحو الحق. وفي الحقيقة إنّ الحكمة تستثمر البُعد العقلي للإنسان، والموعظة الحسنة تتعامل مع البُعد العاطفي له.

ورابعاً: أن يكون طريق الدعوة بالجدال بالتي هي أحسن، أي بأقرب الطرق الموصلة إلى الحقيقة وأكمل مناهج الدعوة إلى الله وأليق الأساليب في المناظرة حتى يتجلّى الحق، وهو الاستدلال والإفادة من الأدلة التي ثبتت حجيتها وظهرت قاطعيتها وأيقن بها الجميع، والتي من شأنها أن تفحم الطرف المقابل وتلقمه حجراً.

فأحرى لكل باحث أن يتّبع هذا الطريق الإلهي في المناظرات والدعوة إلى الدين الحنيف، وأن تكون محاولته اجتذاب الآخرين الى رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يريد البحث فيه من المسائل الدينية لأنّه هو المنهج الوحيد البعيد عن الغلط في القول، فلاحظ.

(١) قد تعرّض العلامة الحلّي رحمه الله في كتابه: منهاج الكرامة للعدل الإلهي، وما يلحق به من مسائله مما ذكرها الشيعة الإمامية في كتب الاعتقادات من قاعدة اللطف وغيرها، وقد بيّن

وقد ذكر ما زعمه السُّني لزوماً بعبارة: إنّ الله عدل حكيم... إلى آخرها. فإنّه يلزم من عدله وحكمته لزوماً بَيّناً عدم خلقه لشيء من فعال عباده[1]، فأيّ عدل وحكمة في خلق المعاصي فيهم وعقابهم عليها[2]؟ وأيّ حكمة تقضي

من خلال ذلك أنّ ما تقوله الشيعة الإمامية غير ما تقول به المعتزلة، فإن الشيعة الإمامية يعتبرون العدل من أُصول الدين لا من المسائل الفرعية، فهو أصل ثابت عندهم بعد التوحيد، كما لا يخفى ذلك على الخبير، فلاحظ.

(١) لا يخفى أنّ مما يترتب على مسألة العدل الإلهي هو الالتزام بأنّ جميع أفعال الله تعالى حكيمة وصواب وليس فيها ظلم وجور ولا كذب ولا عبث ولا فاحشة، لأنّه سبحانه وتعالى حكيم، والحكيم هو الذي لا يفعل القبيح، والتصديق بهذه الصفة للباري تعالى مبني على القول بالتحسين والتقبيح العقليين، فإنّ الحسن والقبح العقليان مستندان الى صفات قائمة بالأفعال، أو قائمة بالوجوه والاعتبارات التي قد تقع عليها وتكون موصوفة بأحد الوصفين بحكم العقل مستقلاً، فإنّ العقل يدرك مستقلاً حسن الأشياء وقبحها ويحكم على مقتضاه، والغني بالذات منزّه عن الاتصاف بالقبح وفعل ما لا ينبغي، فالحكيم هو الذي يكون أفعاله مطابقة للحكمة وحكم العقل، فإنّ العقل المستقل يحكم بأنّ الله سبحانه وتعالى أفعاله منزّهة عن القبيح وكلّها حسنة لأنّها حكيمة، والحكمة هي من فروع العدل الإلهي والعدل الإلهي من فروع مبحث الحسن والقبح العقلي.

ومن هنا يتضح أن ما يصدر من العباد من الأفعال والفواحش والقبائح يصدر منهم باختيارهم، فهم مختارون في أفعالهم والله تعالى منزّه عنها وبريء منها كما لا يخفى.

(٢) ومن أجل وضوح المقام لا بأس بذكر ما نقله السيد المرتضى رحمه الله في كتابه الأمالي ج١: ص١٣٩ـ١٤٠ في المجلس الثالث عشر، لما فيه من الاعتراف على بطلان اعتقاد أهل السنة والاشاعرة من القول بالجبر.

فقد ذكر السيد المرتضى رحمه الله في ترجمة الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ بعض الحكايات المنقولة عنه، منها ما نقله المبرد قال: إنه قال الجاحظ: قلت لأبي يعقوب الشاعر ـ وهو إسحاق بن حسان بن قوهي الخراساني الذي كان من الشعراء الفصحاء في عصر الدولة العباسية الذي

بخلق الطاعات فيهم، وبعث الرسل اليهم يدعونهم اليها ويأمرهم هو سبحانه بها؛ فإنّ ذلك عبث صرف بضرورة من له أدنى شعور(١).

⊃ قال الصفدي أنه توفى سنة أربع عشرة ومائتين، قال: وكان من الشعراء الفصحاء في الدولة العباسية ـ.

: من خلق المعاصي؟ قال أبو يعقوب: الله، قلت: فمن عذّب عليها؟ قال: الله، قلت: فلِمَ؟ قال: لا أدري، وكان الجاحظ يقول: ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي الكلام، عذب ينابيعه، إذا حاور سدّد سهم الصواب الى غرض المعنى... (الأمالي للسيد المرتضى ج١: ص ١٤٠).

ونقل علي بن يونس العاملي في كتابه: الصراط المستقيم الحكايات من المجبرة والاحتجاجات عليهم، منها: أنه قيل لأبي الهذيل: من جمع بين الزانيين؟ قال: الفؤاد، قال أبو الهذيل لحفص: هل شيء غير الله وغير خلقه؟ قال: لا واحد منهما، بل على أنّه عصى، قال: فكونه عصى قسم ثالث، قال: لا، فأعاد السؤال فانقطع.

قال النظام ـ وكان حاضراً ـ قد عذّبه على الكسب، قال: فالكسب شيء غير الله وغير ما خلق؟ قال: لا، فأعاد السؤال فانقطع. (أُنظر: الصراط المستقيم ج٣:ص ٥٩). والى غير ذلك من القضايا والحكايات.

وملخّص الكلام: إذا كانت أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه كخلق التكوين لبطل الوعد والوعيد لأنّ العبد ليس له قدرة على العمل فهو مجبور عليه والثواب والعقاب، إذ أنّ من القبيح تعذيب العاصي على المعصية وهو الذي أجبره عليها.

فأهل السنة كالبخاري وغيره ذهبوا إلى أنّ أفعال العباد مخلوقة لله، وقد عقد ابن حجر العسقلاني فصلاً واسعاً للدفاع عن هذه الفكرة في شرحه للبخاري (أُنظر: فتح الباري ج٢: ص٤٥٢ باب قول الله تعالى: والله خلقكم وما تعلمون، من كتاب التوحيد).

وردّ عليهم الشيعة الإمامية بأنّ كل أفعال الله حكيمة وصواب والله تعالى لا يفعل القبيح والظلم، وأنّ الله تعالى ليس بظلاّم للعبيد، وكل القبائح الموجودة هي من أفعال العباد والله سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك، وسيأتي البحث فيه مفصّلاً إن شاء الله تعالى.

(١) لا شك أنّ الله تعالى حكيم لا يفعل القبيح وأنّ أفعاله سبحانه معللة بالغايات والأغراض الصحيحة ومنزّهة عن العبث واللغو، وهذه المسألة من المسائل العقلية المبنية على التحسين ⊂

➲ والتقبيح العقليين التي لا يتطرق اليها التخطئة بل لا محيص فيها من التصويب محضاً. وأنّ مما يبتني عليها القول بعدم كونه سبحانه خالقاً لأفعال العباد طاعة كانت أو معصية، لأنّ الفعل الصادر من العباد إذا كان مخلوقاً لله تعالى فيلزم أن يتعلق به إرادته سبحانه، إذ بناء على ما قرر عندهم أنّ كل ما خلقه الله تعالى فقد أراده وكل ما لم يخلقه لم يرده. وإذا كان الأمر كذلك فإنّه سبحانه وتعالى مستحق للمدح أو الذم بالفعل الصادر من العبد؛ لأنّ أفعال العباد تكون مستحقةً للمدح أو الذم العقلي، وإذا كان العبد مجبوراً في أفعاله وغير مختار للفعل المستحق لكل من المدح والذم كان ذلك يرجع إلى الله عزّوجلّ، لأنّه تعالى هو خالقها فيستحقّ بذلك المدح أو الذمّ. وهذا ينافي العدل في إعطاء الثواب والجزاء، لأنّ فاعل الفعل كان مجبوراً على العمل.

وعليه: فلا معنى لإعطاء الثواب على الطاعة ولا العقاب على فعل المعصية، إذ لم يكن ما فعله العبد موصوفاً بالحسن والمدح ليكون موضوعاً لإعطاء الثواب، ولم يكن موصوفاً بالقبح والذم كي يكون موضوعاً للعقاب لأنّ فاعله كان مجبوراً على ارتكاب الذنب وهذا مخالف للحكمة الربانية، والله سبحانه منزّه عن ذلك تعالى الله عمّا يصفون علواً كبيراً.

ثمّ إنّ من الضروري أنّ نظام الكون ليس فيه لغواً ولا باطلاً بل كلّها منظّمة بالأغراض والغايات الصحيحة، منها خلق الإنسان فإنّ في خلقه الغرض والغاية القصوى وهي السعادة النوعية والهداية نحو الصلاح.

ومن المعلوم أنّ الهداية تحتاج الى الهادي، والى بعث الرسل وتشريع الشرائع السماوية، وتوجيه الأمر على خير الأعمال والنهي عن شرها؛ لأنّ البشر غير قادر على وضع القوانين الكاملة التي توجب سعادته وتوفيقه نحو الصلاح الواقعية.

والدليل على ذلك: إنّا نجد وجداناً تبدّل الدائم في القوانين البشرية والنقض المستمر الذي يورد عليها، بحيث تحتاج في كل يوم إلى استثناء بعض تشريعاتهم المطروحة في العالم، وما ذلك إلّا لقصورها عن حقيقة الصلاح والسعادة الواقعية لهم، وعدم معرفة الطرق الموصلة لها.

وعلى كل حال، فإن هذه الحالة تحتاج الى بعث الرسل وانزال الكتب وتشريع الشرائع السماوية، واستمرار هذه الرسالة الإلهية بعد خاتم الأنبياء ﷺ بأوصيائه الطاهرين الممدودين ➲

والشيعي قد نفي عنه سبحانه في مقاله الظلم، وفعل العبث فلزم من ذلك نفى خلقه فعال عباده[١].

وثالثها: ما زعمه من كون الشيعة على قولين في مسألة خلق الله لفعال عباده، فإنّ ذلك من عدم إنصافه معهم، ونسبته الى بعضهم ما هو مخالف لضرورة مذهبهم حسبما يعلم ذلك من نظر الى صحفهم المصنّفة في ذلك[٢].

بالاصطفاء والاجتباء والإيراث الإلهي، فإن البشر يحتاجون اليهم كاحتياجهم الى الأنبياء لإنقاذهم من ورطة الشقاء والهلاك ودعوتهم الى الحق وتبيين ما هو موجب لسعادتهم وفلاحهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة.

(١) قال العلّامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه) في الفصل الأوّل من كتاب منهاج الكرامة: ص٣١ ما هذا نصّ عبارته: ذهبت الإمامية إلىٰ أن الله تعالى عدل حكيم لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب، وإنّ أفعاله إنّما تقع لغرض صحيح وحكمة، وإنّه لا يفعل الظلم والعبث...

أقول: ما أفاده (رحمه الله) في المقام وافٍ ببيان ما ذكره الشيعة في باب أفعال العباد من أنّه تعالى ليس بخالق لأفعالهم لأنّ أفعاله سبحانه معللة بالأعراض والغايات وإذا كان خالقاً لأفعال العباد كان خالقاً لخيرها وشرها وإذا كان كذلك لا يجوز له أن يعاقب الناس على أفعالهم القبيحة ولا يلومهم عليها، إذ لمّا كان هو الخالق لها فلا معنى لمؤاخذة العبد على ما خلقه هو بنفسه، وإذا جاز له العقاب حينئذٍ جاز له أن يكون من العابثين ومن أظلم الظالمين ـ والعياذ بالله ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

(٢) لا يخفى على الخبير الباحث في كتب الاعتقادات أنّ الشيعة الإمامية ذهبوا قاطبة إلى أنّ أفعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى بل إنّها مخلوقة لهم وصادرة باختيارهم وإرادتهم وإن كان أصل الاختيار والارادة مخلوقة لله تعالى، ولكن الأعمال الصادرة من العبد إنّما تتحقّق في الخارج باختيار العبد، وقد بيّن علماء الشيعة الإمامية هذا البحث بشكلٍ وافٍ موسّع دقيق يخضع للمنهج العلمي العقلي والنقلي، واليك بعض ما جاء في كتبهم:

قال السيد المرتضىٰ في رسائله ج١: ص١٣٥ ما هذا نصّ عبارته: أمّا أفعال العباد فليست مخلوقة لله عزوجل، وكيف يكون خلقاً له وهي مضافة إلى العباد إضافة فعلية؟

➲ ولو كانت مخلوقة له تعالى لكانت من فعله، ولو كانت فعلاً له لما توجّه الذم والمدح على قبحها وحسنها إلى العباد، كما لا يذمّون ويمدحون بخلقهم وصورهم وهيئتهم، ولكانت أيضاً لا يتبع في وقوعها تصوّر العباد ودواعيهم وأحوالهم...

وقال الشيخ المفيد: الصحيح عن آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى... وقد روي عن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا (صلوات الله عليهم أجمعين) أنه سئل عن أفعال العباد، فقيل له: هل هي مخلوقة لله تعالى؟

فقال عليه السلام: لو كان خالقاً لها لما تبرّأ منها، وقد قال سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، ولم ترد البراءة من خلق ذواتهم، وإنّما تبرأ من شركهم وقبائحهم.

وسأل أبو حنيفة أبا الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام عن أفعال العباد ممن هي؟

فقال له أبو الحسن عليه السلام: إنّ أفعال العباد لا تخلو من ثلاثة منازل: إمّا أن تكون هي من الله تعالى خاصة، أو من الله ومن العبد على وجه الاشتراك فيها، أو من العبد خاصة.

فلو كانت من الله تعالى خاصة لكان أولى بالحمد على حسنها والذم على قبحها ولم يتعلق بغيره حمد ولا لوم فيها، ولو كانت من الله ومن العباد لكان الحمد لهما معاً فيها والذم عليهما جميعاً فيها، وإذا بطل هذان الوجهان ثبتت أنّها من الخلق، فإن عاقبهم الله تعالى على جنايتهم بها فله ذلك، وان عفا عنهم فهو أهل التقوى وأهل المغفرة... (تصحيح اعتقادات الإمامية: ص٤٢ـ٤٤).

وقال العلامة الحلّي في كتابه نهج الحق: ص٧٣: قالت الإمامية ومتابعوهم من المعتزلة: إن جميع أفعال الله تعالى حكمة وصواب ليس فيها ظلم ولا جور، ولا كذب، ولا عبث، ولا فاحشة.

والفواحش والقبائح والكذب والجهل من أفعال العباد، والله تعالى منزّه عنها وبريء منها...

إلى غير ذلك من كلماتهم مما جاء في كتبهم (رضوان الله تعالى عليهم) وهي كثيرة جداً لا يمكننا استقصائها في هذه العجالة، وقد أجمعت الشيعة الإمامية على هذه العقيدة، فللباحثين المراجعة إلى كتبهم في بحث التوحيد والعدل والنبوة والإمامة في مواضع شتى، فإنهم تعرّضوا لهذه الجهة وبيّنوا ما هو الحقّ فيه، وإنّما أشرنا هنا إلى بعض كلماتهم من باب المثال ليعرف الباحث أنّ علماء الشيعة قد أخذوا معالم دينهم واعتقاداتهم من أهل بيت الوحي عليهم السلام فلاحظ.

بل العامي منهم، الحضري والبدوي بريئان من هذه العقيدة[١]؛ من حيث قيام ضرورتهم على ما خالفها؛ فانّهم بالضرورة يرون فرقاً في فعالهم وفيما يبرز منهم مثل حركة المرتعش، وحركة المختار[٢]، فلو كان سبحانه هو الخالق فعالهم

(١) لا يخفى على الخبير أن الشيعة الإمامية معروفون ومتميزون عن غيرهم بمخالفة الجبر، بحيث أصبحت عقيدتهم عند العلماء من الواضحات الظاهرات حتى أن عوام الشيعة يعرف بأنّه قد ورد عن الأئمة المعصومين عليهم السلام نفي الجبر والتفويض في باب أفعال العباد بل صار هذا الأمر عندهم من المسلّمات الضرورية ولو بصورة مجملة، وهذا نتيجة الركون والأخذ من أهل بيت الوحي عليهم السلام فإن الشيعة الإمامية بأجمعهم قد أخذوا أُصول دينهم وفروعه من الأئمة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وجعلهم خلفاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فهم الناقلين عن جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الآخذ ذلك بوحي جبرئيل عليه السلام من الله سبحانه وتعالى.

وفي الحقيقة: إنّ الشيعة قد أخذوا معالم دينهم من ينبوعه الصافي ومعينه العذب مباشرة من الله سبحانه وتعالى في جميع المجالات الدينية ومنها العقائد الإسلامية.

وهذا هو الأساس في الإيمان بالله ورسوله وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الله سبحانه.

فإن كل مؤمن مأمور بالسلوك في هذا الطريق المستمر عليه النهج الإلهي في جميع الأعصار، وبعد خاتم الأنبياء يجب الاقتداء بالمعصومين المصطفين الذين أوجب الله تعالى طاعتهم في الكتاب العزيز والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في سنته المتواترة بين جميع المسلمين قاطبة، فيلزم على جميع المسلمين الطاعة والامتثال لأوامر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من عند الله، ونتيجة ذلك وجوب طاعة أئمة أهل البيت عليهم السلام وهذا ما عليه الشيعة الاثنى عشرية كما هو واضح ظاهر.

(٢) لا إشكال أنّ العقلاء يفرّقون بين حركة المرتعش والحركة الصادرة باختيار الفاعل، فيسندون الثانية إلى الشخص بحيث يقال: إنّه فعله، فيلام عليه أو يثاب عليه على اختلاف موارده، دون أولى، فإنّه لا يقال له: لِمَ فعلت ذلك، أو حبّذا ما فعلت؛ لأنّها صادرة عنه بلا إرادة ولا اختيار.

بقدرته، وقدرتهم ليس لها مدخلية في ذلك لصارت حركتهم جميعاً كحركة المرتعش؛ لما فرض من أنّها فعل غيرهم فيهم، وليس لقدرتهم فيها مدخلية[١].

والسُّني فيما يأتي معترف بهذه الضرورة، فما ندري ما الباعث له الى نسبة ما خالفها الى بعض أهل مذهب خصمه[٢].

ورابعها: ما نسبه اليهم من كون الله ليس له قدرة على هدى الضال، وتضليل المهتدي؛ فإنّه اشتباه منه عظيم، أو فرية عليهم، فإنّهم يقولون ويعتقدون: بأنّ الله على كل شيء قدير، ومن جملة ما يقدر عليه هدي الضال، وتضليل المهتدي[٣]

⬅ فالأفعال بنظر العقلاء على نحوين: نحو يستحق المدح والذم كالفعل الصادر من المختار الذي ليس فيه مرض الارتعاش، ونحو لا يستحق المدح والذم، بل يسند الفعل إليه مسلوب الاختيار كحركة المرتعش فإنّها ليست أمراً اختيارياً، بل قهري الحصول، لأنّه لا اختيار للمرتعش في حركة عضوه الذي فيه الرعشة فليس له أن يفعل وأن لا يفعل، والفعل الصادر منه لا يكون بإرادته.

وعليه: فإن قلنا بأنّ أفعال العباد كحركة المرتعش لا تكون باختياره فإنّ ما فعله لا يُعدّ عصياناً وإلّا يلزم التكليف بما لا يطاق وهو قبيح عقلاً ومحال على الله سبحانه، فلاحظ.

(١) وخلاصة الكلام: أنّه بناءً على مسلك القوم أنّ العبد لا يسند الفعل إليه سواء كان مؤمناً أو كافراً لأنّه على زعمهم: أنّ الله خالق لأفعاله فجميع ما يصدر من العبد يكون صادراً منه عن غير إرادة واختيار كحركة المرتعش.

وبناءً على ما سلكوا يلزم القول بعدم صحة مؤاخذة العبد وعقابه على العصيان، وذلك لأنّه مجبور على ما فعله من المعصية ولا يثاب عليه لأنّ طاعته غير مستندة إليه.

(٢) أُنظر: منهاج السنة ج٣: ص٢١٠.

(٣) فإنّ الله يهدي عباده الضالين ببعث الأنبياء والمرسلين ونصب الأئمة المعصومين عليهم السلام بعد خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي بعث اليهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

⬅

ومعه يقولون ويعتقدون بأنّ فعاله سبحانه صادرة عن حكمة ومصلحة[١]،

فبإرسال الكتب وإرشاد العباد وإيضاح السبل وتعظيم أجرهم يهديهم الى صراط مستقيم، بل وبالحكمة التي أخبرنا الله بها قد بيّن لنا تبارك وتعالى حقيقة كل من الحق والباطل؛ لأنّ الحكمة هي معرفة الأشياء بحقيقتها، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (البقرة: ٢٦٩) فقد دلّ عباده إلى ما هو صلاحهم وأنذرهم عما فيه الضلال كي يصرف العبد اختياره إلى تحصيل الهداية والسعادة ويتجنّب الضلال والشقاوة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (سورة فاطر: ٨) وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ (النساء: ٨٨) فإنّه تعالى قد أتم حجته على الخلق بمقدار كاف، فلاينبغي للمعاندين توقع أن يأتيهم الله والملائكة أمامهم ويبيّنوا لهم الحقائق في جميع الأُمور، فإنَّ تبارك وتعالى قد أوضح لهم طرق السعادة وجعل المعصومين أدلاء على ذلك، فللإنسان العاقل الذي لايريد الضلالة أن يسلك طريق الحق والصراط المستقيم الذي هو طريق السعادة والأمن. وهذا إنّما يحصل باختيار العبد لا بإجبار المولىٰ جلّ وعلا.

(١) لا يخفى على الخبير الممارس في الآيات والأخبار وكتب العقائد أنّ إرادة الله ومشيئته مقرونتان بالحكمة والمصلحة، والهدف الصحيح، فلا يفعل الله إلّا ما هو الأصلح للناس في دينهم ودنياهم، ولا يأمرهم بشيء إلّا ما يقرّبهم إلى السعادة الأبدية والمصلحة الواقعية لهم ولا ينهاهم إلّا عما فيه المفسدة والضرر.

فأفعاله سبحانه وتعالى تكون وفق حساب دقيق ونظام صحيح وبرامج حكيم فلا خلل ولا خطأ في تدبيره، قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (سورة الرعد: ٢) وقال تعالى: ﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض...﴾ (سورة السجدة: ٥) فجميع أفعال الله مبنية على الحكمة والمصلحة وليست بدون حساب وكتاب وبدون فائدة ونتيجة، فإنّ ما يفعله سبحانه هو الأصلح للناس وإن جهلوا وجهه ظاهراً فهو تعالى عدل لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون (سورة يونس: ٤٤) ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٨) فأخبر سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بأنّه لا يريد ظلماً بوجه من الوجوه للعباد، فضلاً عن أن يباشر به.

وأمّا المجبرة الذين يقولون: إنّ كل ظلم يتحقّق في العالم يكون بإرادة الله ومشيئته. ويستدلون

➲ على ذلك: بأنّ خالق كل شيء هو الله حتى الجرائم والفواحش والأفعال القبيحة فالآيات الكريمة تردّ هذه النظرية الفاسدة بأوضح بيان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ (سورة غافر: ٣١) وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٨) فالآية الكريمة تشمل على دليلين: على عدم صدور الظلم منه سبحانه.

الأوّل: إنّ الله تعالى مالك الوجود كلّه، فله ما في السماوات والأرض، فلامعنى للظلم ولا موجب له عنده، وإنّما يظلم الآخرين ويتعدّى عليهم من يفقد شيئاً وإلى هذا يشير المقطع الأوّل من الآية الكريمة وهو قوله تعالى: ﴿وللهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الثاني: إنّ الظلم يمكن صدوره ممن تقع الأُمور دون إرادته ورضاه، أما من ترجع إليه الأُمور، وليس لأحد أن يعمل شيئاً بدون إذنه فلايمكن صدور الظلم منه، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: ﴿وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وهناك تفصيل في آياته الكريمة مما يكشف عن مدى أهميّة قدرته وجبروته وحكمته تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً.

كما أنّ الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كشفت عن أسراره العظيمة سبحانه وتعالى وهي كثيرة جداً، كما لا يخفى على أهل التحقيق، فعلى سبيل المثال نذكر ما رواه الديلمي في كتابه أعلام الدين في صفات المؤمنين، ففي خبرٍ: إنّ عبدالملك بن مروان كتب إلى الحجاج فقال له: تكتب إلى علماء أهل البصرة يكتبون إليك بما عندهم في القضاء والقدر فجاءته منهم أربعة أجوبة:

الجواب الأوّل: من الحسن البصري أنّه كتب: ليس عندي في ذلك شيء أبلغ من قول علي عليه السلام حيث قال: أيأمر بالعدل ويخالفه وينهى عن المنكر ويؤالفه؟! أفلا أفتري عليه من هو بهذا واصفة؟!

الجواب الثاني: من واصل بن عطاء أنّه كتب: لا أجد في ذلك كلاماً خيراً مما قاله علي بن أبي طالب، حيث قال: أدلك على الطريق، ولزم عليك المضيق! إنّ هذا بالحكمة لا يليق.

الجواب الثالث: من عمرو بن عبيدالله كتب: ليس عندي شيء في ذلك أتم حكمة من قول علي بن أبي طالب، حيث قال: إذا كان الوزر في الأصل محتوماً، كان الوازر في القصاص مظلوماً.

الجواب الرابع: من عامر الشعبي أنّه كتب: ليس عندي شيء في ذلك أصوب من قول علي عليه السلام ➲

فالمقدور الذي ليس في فعله حكمة ومصلحة لن يصدر منه[١]، وليس في خلق فعال العباد ذلك فلم تصدر منه سبحانه[٢].

➲ حيث قال: ما استغفرته عليه فهو منك، وما حمدته عليه فهو منه، وما بكم من نعمة فمن الله، وما بكم من خيانة فبما كسبت أيديكم، وما الله بظلاّم للعبيد... (أعلام الدين: ص٣١٧).

(١) فانّ الله سبحانه لا يأمر عباده بالوظائف والتكاليف إلّا ما فيها المصلحة التي تصلح شأن العباد في دنياهم وآخرتهم، ولا يأمر إلّا بالحسن الجميل، ولا ينهى إلّا عن القبيح الذي فيه الفساد والضرر، ولا يفعل مخالفاً للحكمة والمصلحة وإن كنّا لانعلم المصلحة الواقعية، وإن كان الأمر بغير المصلحة مقدوراً له؛ فإنّ قدرته تعالى فإنّ قدرته تعالى لم تكن محدودة بشيء وغير متوقّفة على شيء إلّا أنّ المقصود بقدرته المطلقة: هي عدم عجزه عن شيء لا أنّه يفعل كل شيء وإن لم يكن فيه مصلحة، أو كان مما يعدّ فيه الفساد والظلم للآخرين، كما أشار الى ذلك في كتابه العزيز بقوله الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة يونس: ٤٤).

فقد صرح في هذه الكريمة بان الظلم على الناس لا يكون من جانب الباري تعالى والظلم المتحقّق في العالم إنّما هو من قبل الناس أنفسهم المباشرين بأعمالهم القبيحة والفاسدة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٨) فإنّه سبحانه أنكر في هذه الآية الكريمة إرادة الظلم عن جميع العالمين، ومعنى ذلك: أنّه لا يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه مطلقاً.

وكذلك الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تدل على المقام ولا يسعنا المجال لذكرها في المقام، فراجع بحار الأنوار ج٥: ص٢.

(٢) لا يخفى أنّ غير المعصوم لاتكون أفعاله موافقة للحكمة والمصلحة دائماً إذ قد تكون مخالفة للمصالح الصريحة وقد تكون ظلماً صريحاً وعدواناً على الآخرين مع إقرارهم بحسن العدل وقبح الظلم ودرك عقولهم المصالح والمفاسد الظاهرية، ومن هنا يعرف بأنّ أفعالهم مخلوقة لهم لقدرتهم عليها واختيارهم لها من غير إجبار ولا معنى للقول بأنّ الله تعالى شارك فيها إذ لو كانت كذلك لما نسب إليهم المدح أو الذم على الأفعال مباشرة.

وهذا بخلاف أفعال الله سبحانه، فإنّها معللة بالأغراض والمصالح والحكم، وتشهد بذلك الآيات ➲

ومن هذه الجهة بعث اليهم رسله يدعونهم الى معرفته وطاعته بعد خلقه فيهم ما يقدرون به علىٰ تصديق رسله ومتابعتهم[١]، فأقام عليهم الحجة بما خلقه على

الكثيرة التي قد مرت الإشارة الى بعضها، غير أنّ الأشاعرة من أهل السنة والجماعة ذهبوا إلى أنّ أفعال الله سبحانه ليست معللة بالأغراض ولا يجوز عندهم تعليل أفعاله سبحانه بشيء من الأغراض... (أنظر: دلائل الصدق ج٢: ص٣٤٦). والردّ عليهم واضح في غاية الوضوح فلاحاجة إلى اطالة الكلام فيه.

ومن هنا يتّضح أنّ أفعال العباد لم تكن مخلوقة لله سبحانه وتعالى، لأنّ أفعال العباد لم تكن معلّلة بالأغراض وأفعاله سبحانه تكون معللة الأغراض، ويستحيل أن يكون الغرض منه قبيحاً بل كلها تكون وفق المصالح والحكم وجهات الحسن وإلّا لكان الله سبحانه وتعالى عابثاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) لقد بعث الله أنبيائه ورسله إلى العباد ليدعوهم إلى معرفة الله عزّوجلّ وطاعته والقرب منه، فقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٣) فهداية الأنبياء والمرسلين هي بمعنى الإرشاد والتبليغ، وبيان الطريق الصحيح الذي هو من شأن النبوة والرسالة، وهذا بالطبع لمن له الاستعداد واللياقة والأهلية، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ«٩٦» وَلَوْ جَاءَتْهُم كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ (سورة يونس: ٩٦ ـ ٩٧) فهذان الآيتان تخبران بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أدىٰ مسؤوليته في أعلىٰ مراتبه، وبالرغم من ذلك فإنّ بعض الناس لم يؤمنون به، وهذا لايعني أن يكون قصور في تبليغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو في آيات الله عزّوجلّ، وانّما امتناعهم من الإيمان من جهة عدم لياقتهم به وعدم أهليتهم للوصول إلى السعادة، فالآية الكريمة كأنّما تريد أن تقول: يا رسول الله لاتتعب نفسك في سبيل هداية هؤلاء الذين ليس فيهم الاستعداد لقبول الإيمان، فإنّ هؤلاء ممن ليس لهم أهلية ذلك.

ثم أنّه تعالى قد جعل في الإنسان فطرة، كما قال تعالىٰ فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي تقتضي الجذب إلى الكمال ولذلك أن الفطرة تهدي الإنسان إلى رسل رب العالمين، لأنّ الرسل إنما يكون هدفهم إيصال الناس الى الكمال، فإنّ الشرائع السماوية هي من أجل وصول الإنسان الى الكمال فكمال الإنسان إنّما يحصل بالمعارف الإلهية، وهذا يعني: إنّ

أيدي رسله من معاجزه الباهرة وبيّناته القاهرة المفيدة للعلم بصدق رسله حتى يتبعهم الخلق، فالبيان الذي بيّنه لهم جعله بياناً حجّة قاطعاً لعذرهم[١].

➲ الشرائع السماوية لا تفارق الفطرة قط بل تتماشا معها وتنسجم معها إنسجاماً تاماً، ولكن أكثر الناس خالفوا عقولهم وفطرتهم وعصوا أوامر رب العالمين وأوامر رسول ربّ العالمين مع أنّ الله تبارك وتعالى كان قادراً على جبرهم بالهداية وتصديق أنبيائه ورسله من أوّل الأمر فلم يخلقهم بهذه الصورة وإنّما خلقهم مع تلك الفطرة والعقل وجعل لهم الاختيار في أمرهم، فإن أرادوا أن يلتزموا بما يقتضيه العقل والفطرة فعلوا الفعل الحسن وإن أرادوا أن يفعلوا الفعل القبيح فهم مختارون فيما يفعلون وليسوا مكروهين ولا مقهورين عليها كما أنّه أمر وجداني ظاهر واضح ولايخفى على أحد.

(١) لاشكّ أنّ الله تبارك وتعالى لا يحاسب قوماً إلّا بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتبيين الحقائق.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَايَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (سورة التوبة: ١١٥).

هذه الآية الكريمة تشير إلى قانون كلي عام يؤيده العقل وهو: إنّ الله سبحانه مادام لم يبين حكماً ولم ينزّل الحكم لا يحاسب عليه أحداً بشيء، وبتعبير آخر: إنّ التكليف والمسؤولية تقع دائماً بعد بيان الأحكام وهذا هو الذي يعبّر عنه في علم الأُصول بقبح العقاب بلا بيان، فإنّ البيان رافع لحكم العقل بقبح العقاب بلا بيان وشبيه لهذه الآية ما جاء في سورة الإسراء، وهو قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ (سورة الإسراء: ١٥) فالعذاب بدون البيان قبيح لأنّه ظلم وإنّ الله تبارك وتعالى عادل حكيم يستحيل عليه فعل القبيح، بل الآية الكريمة تكشف عن اقتضاء العناية الإلهية بأنّه لا يعذّب قوماً بعذاب الاستئصال إلّا بعد أن يبعث إليهم رسولاً فيؤكد لهم الحجة ويقرعهم بالبيان بعد البيان.

فالله سبحانه وتعالى قد بيّن للناس أدلته الظاهرة على أيدى رسله وبإظهار النعم عليهم والنداء عليها والإشارة بها، وقد أقام لهم الحجج والبراهين والوعظ والزجر والألطاف القوية والدواعي الصارفة عن المعصية، والامتناع من التعدّي بأدلة واضحة وبراهين قاطعة، ومعجزات باهرة وآيات ظاهرة وحجج صادقة، ودحض حجج المبطلين، وردّ كيد الكائدين، ➲

وخامسها: ما نسبه اليهم من كون المهتدي إنّما يهتدي بنفسه بغير معونة الله سبحانه، فإنّه قد ظلمهم ولم ينصفهم بكذبه عليهم؛ فإنّهم جميعهم معتقدون بقوله سبحانه: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللهِ**﴾(١)، فمن نسب اليهم ما خالف نصّ فرقان

⬅ وقمع الشرك، وهدم الظلم بالحكمة والموعظة الحسنة التي تفيد صدق رسله وصحة كتبه فيما جاؤوا به من عنده، وبما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك الكفر بهم والنجاة بصدقهم، وغير ذلك مما يدل على إرائة الطريق منهم عليهم السلام الذي هو شأن الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ (سورة إبراهيم: ٤) وقال: ﴿**وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً**﴾ (سورة النساء: ٦٨).

فالهداية بهم بمعنى الإيصال إلى المطلوب وزيغ الضلالة، فإنّه بالعلم يدرك الحق ويفرّق بينه وبين الباطل، كما أنّ بالنور يدرك المحسوس ويفصل بين الأشياء المرئية فبإخبارهم عن طريق الوحي وكيفية سلوكهم يتبيّن طريق الشرع وبمتابعة الشرع يحصل الرشد، فيجب على كل إنسان عاقل أن يهتدي نحو ما هو دليل الى كماله، والعزم للوصول إلى تلك المرتبة التي فيها الرشاد والحياة الطيبة والفوز بالسعادة الأبدية.

(١) سورة النحل: ٥٣، لا يخفى على الخبير ما في هذه الآية الكريمة من الدلالة على أنّ كل فعل خير وحسن يفعله الإنسان فهو من الله تعالى؛ لأن الله سبحانه هو المسبّب لجميع أسباب الخير.

وتوضيح ذلك: أنّ الحسنات من الأقوال والأفعال التي يفعلها البشر تكون مطابقة لحكم العقل، بخلاف السيئات من أفعاله وأقواله فإنّها توجب خروج العقل عن سلامة الحكم.

وبما أنّ الله تعالى قد منح الإنسان نعمة العقل ليدرك به الحق ويميزه عن الباطل ويتخذه حجة مبرورة متقبلة ويدحض به الباطل عند اتخاذ النظر فهو عنده كرسول باطني يهديه إلى الحق، وهذه النعمة العظمىٰ بين أيدي البشر هي التي توجب سعادته ورغبته في الهداية نحو طريق الحق والخير وكل أفعال الحسن وهذا أمر وجداني واضح جداً.

وكذلك قد أرسل الله تعالى الأنبياء والمرسلين وأصفيائه المنتجبين وأوليائه المعصومين المقرّبين ⬅

الله فقد افترى إثماً عظيماً(١).

(صلوات الله عليهم أجمعين) ليهدوا الناس إلى صراط الله الحميد وينقذوهم من الهلكات والعقوبات الدنيوية والأُخروية فبهذين النعمتين العظيمتين التين قد منحهما الله إلى البشر قد هيّئ لهم طريق الحق ليسلكوا بهما طريق الهداية، وهذا هو الاعتقاد بالحق الذي يعتقد به الشيعة الامامية وأخذها من القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾ (سورة النساء: ٧٩).

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَٱللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة النور: ٤٦).

ويقول تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة البقرة: ١٤٢) الى غير ذلك من الآيات.

ثم إنّ الروايات الواردة في هذا المقام كثيرة جداً، نذكر بعض ذلك من باب المثال ففي حديث رواه الكليني بسنده عن أبي نصر عن الإمام الرضا عليه السلام قال: إنّ الله تبارك وتعالى قال: يا ابن آدم، بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، فجعلتك سميعاً، بصيراً، قوياً، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذاك أني أولىٰ بحسناتك منك وأنت أولىٰ بسيئاتك مني، وذاك أني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون (الكافي ج١: ص١٥٢ ح٦) فهذه الرواية وغيرها تدل بصراحة على أنّ الحسنات والطاعات إنّما هي من الله بلطف وعناية منه تعالى، فلاحظ.

(١) فإن الشيعة الإمامية يمتازون عن غيرهم من الفرق الإسلامية في التعبد بالنصوص القرآنية وكذلك بالنصوص الصادرة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين هم أعدال القرآن وذلك لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بالتمسك بالثقلين في الحديث المتواتر لدى الفريقين وستذكر الحديث سنداً ومتناً بصورة مفصلة في محله ان شاء الله تعالى وسيتبين للقارئ الكريم ما فيه من الدلالة على وجوب التمسك بهما معاً، وانّ من تمسك بهما لن يضل أبداً فالشيعة يعتقدون لزوم العمل بمقتضىٰ كتاب الله العزيز وآياته التي هي سبب الهدىٰ والنجاة فالقرآن نور قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ ٱللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (سورة المائدة: ١٥) هذه الآية الكريمة تشير إلى أهمية القرآن وعظمته وآثاره العميقة في هداية وإرشاد وتربية البشرية وقد عبرت عن الآيات

ومعتقدون بأنّ أعظم وأفضل نعم الله عليهم نعمة الهدىٰ إلى معرفته وطاعته التي هي المقصودة من خلقه لهم ولغيرهم من ذوي العقول(١).

بالنور؛ فانّ النور ظاهر بذاته ومظهر لغيره فالنور هو السبب لظهور الأشياء ولايحتاج إلى كشف ولكنه يحتاج إلى حامل يوجهه باتجاه الأشياء لكشفها وحملة القرآن وهم العترة الطاهرة فانّ كلماتهم نور كما جاء في زيارة الجامعة «كلامكم نور» فالقرآن نور وكلام العترة الطاهرة أيضاً نور فالشيعة يتمسّكون بالنورين وهما نور على نور فلاحظ.

(١) فإنّ الهدف من خلق الإنسان هي العبادة والطاعة والتسليم لأوامر الله ونواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦) هذه الآية الكريمة صريحة في أنّ الغرض من خلق الإنسان هي العبادة والعبادة بمعناها الشمولي هي التسليم لأمر الله والانقياد له في الشرائع والأحكام والحدود، وكل ما أنزله على رسوله.

وفي الحقيقة: إنّ إرسال جميع الرسل وإنزال الكتب وإرشاد العباد إنّما هو للإيصال إلى هذه البغية العظمى وأن يكون العبد مثالاً للعبودية وخاضعاً للربوبية، فجميع المناهج الدينية الإلهية تسلك هذا المسير ومن البديهي أنّ العبادة منهج لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة، وتهب روح الإنسان تكاملاً وسعادة ويودع فيه الاستعداد للوصول إلى معرفة الله ويهيئ له عوامل بلوغه إلى هذا الغرض والهدف الأساسي من خلقته وهو الارتقاء نحو الكمالات العلمية والعملية، وكيف لا يمكن أن لا يهدي الإنسان الى الغرض المقصود من خلقته ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (سورة طه: ٥٠).

ولذلك كان من الضروري في الهداية الإلهية إيصال الإنسان إلى الهدف من خلقه إيصالاً واضحاً ظاهراً، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (سورة الشمس: ٧ و ٨) فقد أشار تعالى في هذين الآيتين إلى الهداية الفطرية التي جبلت عليها العقول السليمة، وحكمت بضرورة تجنّب الضرر شخصياً كان أو نوعياً هو طريق الإسلام الذي يكون واضحاً وشفّافاً في جميع المجالات.

ولذلك نرى بوضوح تام أنّ الإنسان بفطرته يبحث عن صانعه وخالقه، ويريد أن يعرف من هو الذي أوجده بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً.

وأعطاه هذه الجوارح والأعضاء والقوى والنعم التي ينتفعون بها ويتلذّذون باستعمالها، وقد

ومعنى ذلك: خلقه سبحانه فيهم قوة بها يميّزون بين الحق والباطل[١]، وما

➲ أسبغها عليهم فقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (سورة لقمان: ٢٠) وهذه إشارة إلى أنّ الانسان قد غرق في نعمة الله التي لاتعدو ولاتحصىٰ، فقال عزوجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (سورة إبراهيم: ٢٤).

وكل ذلك من أجل أنّ الانسان يعرف المنعم الحقيقي ليقوم بوظيفته العقلية وهي شكر المنعم الحقيقي، ومن هنا يعرف أنّ نعمة الهداية إلى الإسلام والايمان والإسلام من أكبر نعم الله التي لا يتصور نعمة فوقها لإشتمالها على سعادة الإنسان ورقيّه الى أعلى درجات الكمال، فلاحظ.

(١) لقد كرّم الله تعالى الإنسان وفضّله على كثير من الخلق لما أعطاه من القدرة والقوة على التميز بين الحق والباطل، وبين الرشد والغي، وبين الخير والشر، وبين العدو الحقيقي والصديق الحقيقي و... ليختار بإرادته أحد الأمرين ويرفض الآخر، وقد بيّن سبحانه وتعالى له الحق والباطل من قبل فأعطى الإنسان نعمة العقل والفكر بشرط أن يكون الإنسان باحثاً عن معرفة ما هو الصلاح فيسعىٰ في الوصول اليه، ومن البديهي أنّ تمام الصلاح في الوصول إلى الكمال والكمال الحقيقي للإنسان هو قربه إلى الكمال المطلق وهو الله سبحانه.

ولا شك أنّ الإنسان العاقل يختار الكمال من خلال بحثه عن الحقّ والحقيقة؛ لأنّ كلّ إنسان بعد التفكّر في عالم الوجود يصل إلى هذه المرحلة بانّ كمال الانسان في وصوله إلى معرفة المعبود المستجمع لجميع الصفات الكمالية والجلالية والوصول إلى تلك المرحلة هي مرحلة العبودية فالانسان الباحث عن الحقيقة يعرف بانّ مبدأ عالم الوجود وخالقه هو الكمال المطلق وهو الوحيد الذي يستحق العبودية، فإنّ العبد بالعبودية يصل الى الكمال المنشود وأنّ الكمال المعنوي والمادي هو الحياة الطيبة التي قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل: ٩٥) وهذا هو الهدف الواقعي لعبوديتنا، وهذه هي فلسفة عباداتنا وابتهالاتنا فهي جميعاً دروس تربوية لتكاملنا.

وأساساً فإنّ أصل الخلق هو خطوة تكاملية عظيمة، أي مجيء الشيء من العدم الى الوجود ومن الصفر إلى مرحلة العدد، وبعد هذه الخطوة التكاملية العظيمة تبدأ مراحل تكاملية أُخرىٰ وهي منهج العبودية الذي هو طريق للسلوك إلى مراحل التكامل وهذه المراحل إنّما هي لامتياز ➲

فيه مضرّة وما فيه منفعة، وخلقه فيهم قوة بها يقدورن على اختيار الحق وتجنّب الباطل؛ لرؤيتهم قبحه بها، وأعانهم على اختيار الحق[1] بإرسال الرسل اليهم

⮊ الإنسان بالعقل والتمييز.

ولذلك قد ورد في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ العبادة إنّما يؤجر عليها بمقدار عقل العابد، فقد ورد عن محمد بن سليمان الديلمي عن أبيه قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: فلان من عبادته ودينه وفضله؟

فقال عليه السلام: كيف عقله؟ قلت: لا أدري، فقال: إنّ الثواب على قدر العقل، وإنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة، كثيرة الشجر ظاهرة الماء، وإنّ ملكاً من الملائكة مر به فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا! فأراه الله تعالى ذلك، فاستقله الملك، فأوحى الله تعالى إليه: أن أصبحه، فأتاه الملك في صورة إنسي، فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان، فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك، فلمّا أصبح قال له الملك: إنّ مكانك لنزّه، وما يصلح إلّا للعبادة. فقال له العابد: إنّ لمكاننا هذا عيباً فقال له: وما هو؟ قال: ليس لربنا بهيمة، فلو كان له حمار رعيناه في هذا الموضع، فإنّ هذا الحشيش يضيع، فقال له الملك: وما لربك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك: إنّما أثيبه على قدر عقله (الكافي ج١: ص١٢ ح ٨).

وفي حديثٍ آخر: قال إسحاق بن عمّار لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: جعلت فداك، إنّ لي جاراً كثير الصلاة، كثير الصدقة، كثير الحج لا بأس به، قال: فقال عليه السلام: يا إسحاق كيف عقله؟ قال: قلت له: ليس له عقل، قال: فقال: لا يرفع بذلك منه (أُصول الكافي ج١:ص ٢٤ ح ١٩). الى غير ذلك من الروايات التي تؤكد على أهمية العقل في إيمان الإنسان وعقيدته وانقياده لله تعالى، فلاحظ.

(١) لا يخفى أن الحق والباطل موجودان في كل زمان وكل مكان ولولا الحق فإنّ الباطل لا معنى له. فالصراع بين الحق والباطل كان على مرّ العصور والدهور أمراً ضرورياً طبيعياً عادياً.

والقرآن الكريم قد مثّل في هذا المجال مثالاً رائعاً يشمل جميع الأزمنة والأمكنة، فقال عز اسمه ⮈

في كتابه العزيز: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (سورة الرعد: ١٧).

وهذا مثل صريح يدل على أنّ كلمة الحق لا انقطاع لها أبداً ولو استتر في الظاهر وغاب مركز دائرتها عن الأنظار، وهذا أيضاً من أقوى وجوه الشباهة والبلاغة إذ لابد في المثال من المشابهة التامة الموجبة لبلاغته، وكلّما ازداد شباهته ازداد بلاغته.

فإنّ هذا المنظر يراه الناس في جميع الأزمان وفي جميع مناطق العالم، وكل الناس يعرف الفرق بين جريان الماء العذب والمالح والزبد الحاصل منه الذي لا فائدة فيه لأنّه يذهب جفاءً ويصير متلاشياً، وأمّا الماء الصافي النقي المفيد فيمكث في الأرض وينفذ إلى أعماق الأرض وتتكوّن منه العيون والآبار وتروي عطش العطاش وتروي الأشجار لتثمر وتنفع به العالم وتنمح لكل شيء الحياة.

فهذا المثال البليغ الذي عبّر عنه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة مثالاً لمصارعة الحق والباطل، فقد صوّر فيه الحق والباطل بأروع صورة فيه حقائق مخفية كثيرة، نشير هنا إلى بعضها:

١ـ إنّ الانسان يحتاج إلى معرفة الحق والباطل وأُصولها إذا أشكل عليه الأمر، فهناك علائم وأمثال يعرف من خلالها الحق والباطل، وقد بيّنها القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة وهي:

الف: الحق مفيد ونافع دائماً كالماء الصافي الذي هو أصل الحياة أمّا الباطل فلا فائدة فيه ولا نفع، فلا الزبد الطافي على الماء يروي ظمآناً أو يسقي أشجاراً، ولا الزبد الظاهر من صهر الفلزات يمكن أن يستفاد منه للزينة أو للاستعمالات الحياتية الأُخرىٰ، وإذا استخدمت لغرض فيكون استخدامها رديئاً ولا يؤخذ بنظر الاعتبار كما نستخدم نشارة الخشب للإحراق.

ب: إنّ الباطل مستكبر ومرفّه وكثير الصوت وصدر الأشياء لكنه فارغ من المحتوى، أمّا الحق فمتواضع قليل الصوت وكبير المعنى وثقيل الوزن.

يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في وصف أصحابه يوم الجمل ووصف أعدائه: إنه قد أرعدوا

➲ وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل، ولسنا نرعد حتى نوقع، ولا نسيل حتى نمطر (نهج البلاغة ج١: ص٤٢ الخطبة رقم ٩).

ج: إنّ الحق يعتمد على ذاته دائماً، أمّا الباطل فيستمد اعتباره من الحق ويسعى للتلبّس به كما أنّ الكذب يتلبّس بضياء الصدق، ولو فقد الكلام الصادق من العالم لما كان هناك من يصدّق الكذب، ولو فقدت البضاعة السليمة من العالم لما وجد من يخدع بضاعة مغشوشة، وعلى هذا فوجود الباطل راجع إلى شعاعه الخاطف واعتباره المؤقّت الذي سرقه من الحقّ، وأمّا الحق فهو مستند إلى نفسه واعتباره منه.

٢ـ إنّ المراد بالزبد هنا الرغوة وهي ما على وجه الماء من الزبد، فالماء الصافي أقل رغوة لأن الزبد يتكوّن بسبب اختلاط الأجسام الخارجية مع الماء، ومن هنا يتّضح أنّ الحقّ لو بقي على صفاته ونقائه لم يظهر فيه الخبث أبداً، ولكن لامتزاجه بالمحيط الخارجي الملوّث، فإنّه يكتسب منه شيئاً فتختلط الحقيقة مع الخرافة والحق بالباطل، والصافي بالخابط فيظهر الزبد الباطل إلى جانب الحقّ، وهذا هو الذي يؤكّده الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول: لو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين... (نهج البلاغة ج١: ص٩٩ الخطبة رقم ٥٠).

٣ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ مبدأ الفيض الالهي لا يقوم علىٰ البخل والحدود الممنوعة كما لو أنّ سحاباً يسقط أمطاره في كل مكان بدون قيد أو شرط، وتستفيد الأرض والوديان منها على قدر وسعها، فالأرض الصغيرة تستفيد أقل والأرض الواسعة تستفيد أكثر، وهكذا قلوب الناس في مقابل الفيض الإلهي، كما قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: إنّ القلوب أوعية فخيرها أوعاها... (نهج البلاغة ج٤: ص٣٥ رقم ١٤٧، من كلامه عليه السلام لكميل بن زياد النخعي.

٤ـ إنّ الآية الكريمة تقول بأنّ بقاء الماء له ربط بالنفع، فقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ**﴾، فليس الماء فقط عند بقائه ينفع الناس منه بل كل ما ينفع الناس يكون باقياً. فالله سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان القدرة على اختيار الحق، وقد بيّن له قبح الباطل بواسطة ➲

بآياته وبيّناته، وبوعده بالمثوبات لهم على متابعة رسله، وبتوعّده بالعقوبات العظيمة الشديدة على مخالفتهم[١]، فمعنى إعانته سبحانه لهم بعد خلقه تلك القوة

➲ الرسل والأنبياء، وقد أُعطي الإنسان العقل ليختار ما هو الحق ويتجنّب عن الباطل فلم يبق له شيء لم يعطه في سبيل اختيار الحق، وهذا المثال من القرآن الكريم يبيّن لنا الحقائق العلمية وتجعل منها أمراً محسوساً ليدركها الإنسان بسهولة، فلاحظ.

(١) ويستظهر من الآيات القرآنية أنّ إرادة الله تعالى ومشيئته قد تعلّقت بأن يظهر الحق على أيدي أنبيائه ورسله لأنّ الغاية من إرسال الرسل هي طاعة الأنبياء والمرسلين والانقياد لهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللهِ﴾ (سورة النساء: ٦٤).

فالآية تشير إلى أنّ الإيمان لا يكتمل إلّا بالانصياع والتسليم القلبي لما جاء به الأنبياء والمرسلين.

وعلى هذا يجب على جميع الناس أن يطيعون الأنبياء والسفراء الممدودين من قِبل الله سبحانه ولايعصونهم، وإذا أساء بعض الناس كان اللوم متوجّهاً إليهم أنفسهم لا إلى أحد، وبهذا تنفي الآية الكريمة عقيدة الجبريين الذين يقولون: إنّ الناس على صنفين: صنف كلّف بالطاعة من البدء، وصنف كلّف بالمعصية من البدء.

فإنّ المستفاد من عبارة بإذن الله هو: إنّ كل ما عند الأنبياء من الله؛ إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسوله طاعته فقرن طاعته بطاعتهم، ووعد على ذلك بجزيل الثواب وأوعد على مخالفتهم بسوء العقاب وأوجب امتثال أوامرهم واجتناب نواهيهم.

وقد ذكر المفسّرون من الشيعة الإمامية في تفسير هذه الآية الكريمة أن طاعة الأئمة عليهم السلام كطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واجبة، فيجب الالتزام بالعمل بسنتهم والتسليم لما جاؤوا به، فعلماء الشيعة يقولون بأنّ ما جاء في حق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...﴾ (سورة الحشر: ٧) إلى غير ذلك من الآيات فإنّها تدل على أنّ من قام مقام الرسول من قبل الله تعالى تجب طاعته فيما يأمر وينهىٰ، لأنّ الملاك في طاعة الرسول والإمام واحد، فنفس الآية التي تنص على لزوم متابعة الرسول وتصرّح بوجوب طاعته وعدم مخالفته ومعصيته تدل على لزوم متابعة الإمام المعصوم المنصوب من قبل الله تعالى، لأنّ إمامة الإمام استمرار لرسالة النبي كما هو واضح كمن تدبّر فيه، فلاحظ.

الشريفة فيهم التي هي العقل، تسديدهم الى متابعة الحق بما نبّهنا عليه، وبعثة الرسل شاهد صدق لما قلناه[١].

وسادسها: ما نسبه اليهم من كون الضال إنّما يضلّ بنفسه بدون معونة الله على ذلك؛ فإنّه لم ينقله على وجهه بطريق يعلم منه قولهم على حقيقته؛ فإنّهم يقولون: بأنّ الضالّ قد ضلّ بعدما أعانه الله على الهدى بما بيّناه في الوجه السابق[٢]، قال سبحانه: ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾[٣].

---

(١) ولا يخفى أنّ العقل من أعظم النعم الإلهية التي قد منَّ الله تعالى به على عباده لهدايتهم إلى ما فيه السعادة في معاشهم ومعادهم وتدبير أُمورهم وحلّ مشاكلهم وقبول الطريق الذي يهديهم إلى الصواب ولذلك يكون حجة عليهم.

وإنّما يسمى العقل عقلاً لكونه عقالاً من الأُمور الباطلة، فالعقل هي القوة التي يُعبد بها الرحمن ويكتسب به الجنان كما جاء هذا المعنى في النصوص الإسلامية (أُنظر الكافي ج١: ص١١ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٨: ص١٨٦).

وإنّ أهمية العقل والتفكّر في الإسلام مما لا يمكن إنكاره على أحد من البشر، إذ بالعقل يتعيّن مصير الإنسان من السعادة والشقاوة، فالعقل هو الذي يجعل الطريق أمام البشر فإن خضع الإنسان له فيرتقى نحو الكمال وإلاّ فلايصل إلاّ للانحطاط.

وقد وردت نصوص كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في مدح العقل وجعله حجة على الناس كما أنّ الرسل حجة عليهم (أُنظر: الكافي ج١: ص١٠٠ الباب ١ كتاب العقل والجهل وغير ذلك).

(٢) لقد تقدّم الكلام في وجه انّ الله تعالى يهدي من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم، وملخّصه: أنّه تعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم هملاً وإنّما خلقهم لهدف وغرض حكيم فأقام لهم البراهين والأدلّة النقلية والعقلية. ليهتدوا بها إلى الحقّ قال الله تعالى: ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ**﴾.

ومن هنا يعرف أنّ الضلالة ليست إجبارية ومعنى قوله تعالى: ﴿يضلّ من يشاء﴾ أي طريق الضلالة يختاره الإنسان؛ فإنّ الله تعالى قد أعطاه الحرية في الإرادة والاختيار ليختار ما يشاء لنفسه فإذا اختار الإنسان طريق الضلال إنّما هو مسؤول عن اختياره فلاجبر في عمله،

فقد ساوى في إعانته على الهدى بين الهالك الضالّ وبين الحيّ المهتدي (٤)،

➲ فالعبد يختار الضلالة لنفسه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَايَتَّقُونَ﴾ (سورة التوبة: ١١٥).

وفي الحديث النبوي: ألا وإنّ الله تعالى لم يدع شيئاً مما نهي عنه إلّا وقد بيّنه لكم ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾... (بغية الباحث للحارث بن أبي أُسامة: ص٨٠).

فالقرآن الكريم والسنّة الشريفة يؤكّدان على انّ الله تعالى قد أتم حجته على العباد بالبيان، والعبد قد أدرك البيان بالرسول الباطني أعني: العقل والرسول الظاهري أي الأنبياء والمرسلين الذين أبلغوا رسالات ربهم واحتجّوا بما جاؤوا من قِبل ربهم وأوضحوا طرق الهداية بالأدلّة والبراهين فأتمّوا الحجة لله قال الله تعالى: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَىٰ ٱلْهُدَىٰ...﴾ (سورة فصّلت: ١٧) أي بعد أن تمّت الحجة عليهم اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العمى على طريق الحق وبئس الاختيار. ثم لا يخفى أنّ الهداية الإلهية على نوعين:

أوّلاً: الهداية التشريعية، وهي تشتمل اراءة الطريق والكشف عنه بجميع العلائم.

وثانياً: الهداية التكوينية، وهي التي تتعلّق بالأُمور التكوينية كهداية كل نوع من أنواع المصنوعات الى كماله والقوانين الطبيعية المتحكّمة في الوجود للوصول الى أهدافه المعينة.

ولقد جمعت الهدايتان معاً في الآية الكريمة، حيث أنّ الأنبياء والقادة الإلهيين قد بذلوا كل جهودهم في سبيل هداية الناس بتبليغهم وإرشادهم نحو الصراط المستقيم.

وكذلك القسم الثاني منها؛ وهي التوصّل نحو الهدف، فإنّ الأنبياء والقادة الإلهيين قد أخذوا بيد العباد تكويناً لإيصالهم الى ذلك الهدف الأساسي، وذلك من خلال الأُمور التكوينية كالمعجزات التي كان يقوم بها الأنبياء والقادة الإلهيين، لإثبات الحق والحقيقة وإرشاد الناس الى القدرة الإلهية بأدلّة تكوينية، ولكن الناس بسبب غرورهم وتكبّرهم استحبوا العمىٰ على الهدىٰ، ولم يهتدوا إلى الحق رغم صراحة الآيات ووضوحها في حقّهم، فعصوا أمر ربهم واستحقّوا العذاب والهلاك. فلاحظ.

(٣) سورة الأنفال: ٤٢.

(٤) فإنّ المراد من الحياة والهلكة كما جاء في تفسير الآية هي الهداية والضلال، فتكون حياة الكافر وبقائه في الدنيا هلاكاً له، وذلك بمعنىٰ قوله تعالى: ﴿ليهلك من هلك...﴾ أي ليكفر من ➲

فاستعان المهتدي بها ولم يستعن بها الضالّ، بل تركها معرضاً عنها.

وقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾(1).

ومن المعلوم كون الحق هو ما نبّهنا عليه من بعث الرسل بآياته وبيّناته ووعده ووعيده وهي مشتركة بين جميعهم(2).

كفر بعد الحجة وإتمامها عليه ويحيى من اهتدى بعد قيام الحجة عليه، فيكون بقائه في الدنيا مع الإيمان حياة له.

قال الله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (سورة النحل: ٩٧) فإنّ الحياة الطيبة هي العيشة الحسنة في الدنيا والآخرة جميعاً، وهذه العيشة الطيبة إنّما تحصل بالإيمان والعمل الصالح، ففي الكلام استعارة الحياة للإيمان والأعمال الصالحة استعارة تمثيلية يمثّل بها حقيقة المقصود؛ لأنّ حياة الإنسان لاتنتهي بالموت، فإنّ الحياة الطيبة هي الحياة الخالدة الأبدية.

وتوضيح المقام: أنّ طبيعة الحياة في هذا العالم المادي هي الفناء والهلاك كما قال تعالى: ﴿**وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ «٢» إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ**﴾ (سورة العصر: ١ ـ ٣) فإنّ أقوى الأبنية وأكثر الحكومات دواماً وأشد البشر قدرة نهاية أمرهم الفناء، فكل شيء في معرض التلف والخسران، ولايبقى شيء إلاّ الإيمان والعمل الصالح فإنّهما خالدان والذي يكون منصفاً بهما يكون خالداً ويعيش عيشة طيبة في الدنيا والآخرة، وإلاّ فإنّ المقصود من الحياة ليست هي الحياة المادية الحيوانية التي هي منشأ للذائذ المادية الرخيصة، فإنّ بعض هذه الحياة ليست طيبة لأنّها لاتدرك الحقيقة بطبعها، وقد مثّل القرآن لذلك في قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَيَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَيُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَيَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ (سورة النحل: ٩٧). فإنّ الله تعالى جعل الفوز والعاقبة للمتقين، والخزي في الدنيا والآخرة على الكافرين، فلاحظ.

(١) سورة يونس: ١٠٨.

(٢) وبعبارة أُخرى: إنّ هذه الآية متضمّنة لإتمام الحجة مع الناس، فتقول لعامة الناس: يا أيها

وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ

➲ الناس قد جاءكم الحق من ربكم، أي إنّ ما جاء به النبي الأكرمﷺ من التعليمات والكتاب السماوي والمعارف الإلهية كلّها حق، والدليل على كونها حق سيتبيّن من خلال حقيقة قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

فكأنّما يريد الله تعالى أن يقول للنبيﷺ: يا أيها الرسول قل للناس: إنّي لست مأموراً باجباركم على قبول الحق، لأنّ الإجبار على قبول الحق والإيمان لا معنى له إذ الإجبار على عمل لا يبقىٰ للفاعل إلّا طرف واحد وهو العمل المكره عليه والقرآن يبيّن أنّ الإسلام والإيمان مبني على قضاء الفطرة الإنسانية التي لا ينبغي أن يرتاب في أنّ كمال الإنسان في حياته هو ما قضت به وحكمت ودعت إليه، ولذلك قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٦) فانّ الرشد عبارة عن الهداية للوصول إلى الحقيقة، والغي عبارة عن الانحراف عن الحقيقة والابتعاد عن الواقع، ولمّا كان الدين يهتم بروح الإنسان وفكره فلا حاجة إلى الإجبار والإكراه في ذلك، لأنّ الحقيقة ليس فيها إعوجاج وانحراف بل قابلة للاستدلال العقلي والمنطقي في جميع المراحل، فالإيمان الذي يكون مبنياً على أساس اليقين ليس له إلّا طريق المنطق والاستدلال، وجملة: «لا إكراه في الدين» في الواقع إشارة إلى هذا المعنى.

وخلاصة الكلام: أنّ الآية الكريمة في المقام تقول مخاطبة للرسول الأعظم ﷺ: يا أيها الرسول قل للناس إنّي لست مأموراً بإجباركم على قبول الحق، ولا أستطيع إذا لم تقبلوا الحق ولم تؤمنوا به أن أدفع عنكم العذاب الإلهي، بل إنّ من واجبي ومسؤوليتي هي الدعوة والبلاغ والإرشاد والهداية، فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه، فأمر الهداية والضلالة يتعلق بكم وعليكم انتخاب طريقكم.

فهذه الآية الكريمة تؤكد على مسأله الاختيار وحرية الإرادة في الإنسان، وإنّ قبول الحق سيعود نفعه الى الإنسان نفسه بالدرجة الأُولى كما أنّ مخالفته ستكون بضرره.

وأنّ توجيهات القادة الإلهيين والكتب السماوية ما هي إلّا دروس لتربية البشر، فلا يزيد الالتزام بها شيئاً على عظمة الله ولا تنقص مخالفتها من جلاله شيئاً كما يظهر ذلك من الآيات الكريمة في القرآن العظيم، فلاحظ.

فَعَلَيْهَا﴾[١].

ومن المعلوم كون البصائر ما نبّهنا عليها، فمن تابعها فقد أبصر ومن خالفها فقد عمى، فساوى سبحانه فيها بين عامة خلقه من مؤمنهم وكافرهم[٢].

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٤.

(٢) وتوضيح المقام: أنّه ليس المراد من قوله تعالى: «فمن أبصر...» أي نظر ببصر العيون، ولا في قوله تعالى: «ومن عمي...» أي عمى العيون، فإنّ المقصود كما جاء في الآية البصيرة، وهي وإن كانت من مادة «بَصَرَ» وهو بمعنى الرؤية إلّا أنّ الغالب في استعماله في المحاورات العربية تطلق على البصيرة القلبية والإدراك الذهني، وذلك عندما إذا كانت دلالة الأمر على الشيء في مرتبة من الوضوح بحيث أنّه كأنّما يرى الشيء بعين بصره، فيقال: إنّه ذا بصيرة أي أنّ الأمر يكون عنده واضحاً بوضوح بيّن في أعلى مراتب الوضوح وهذا الاستعمال من باب المجاز والتوسّع.

كما أنّ الأمر بالنسبة إلى الجهل والعمىٰ يكون كذلك، أي من باب الاستعمال المجازي فإنّ استعمال العمىٰ في مرتبة الأعلى من الجهل أمر متداول في المحاورات الجارية بين الناس، والمقصود بها في الآية الكريمة هي نفس المعنى المجازي، أي بمعنى الجهل على عكس جهة البصيرة.

وبالنتيجة: إنّ معنى الآية الكريمة في المقام هو أنّ الآيات الإلهية والحجج الربانية والبراهين القرآنية قد بيّنت للناس حقائق الأُمور وكشفت الأستار عن واقع القضايا بحيث جعلت الأُمور في مرتبة من الوضوح حتى أصبحت مبيّنة للناس مع ما فيهم من اختلاف الطبقات؛ فإنّه مع اختلافهم في الطبقات من حيث العلم والفهم والدرك يدركون حقيقة تلك الحجج والبراهين بصورة واضحة شفافة بحيث لا يبقي لديهم غموض في ذلك، ويسمى ذلك إبصاراً كما جاء في الآية الكريمة، وعدمه جهلاً وعمياً كما تقدّم.

ثم إنّ في المقام دلالة واضحة على أنّ المكلفين مخيّرون في أفعالهم وغير مجبورين على عمل وفعل، وهذا ردّ صريح على المجبرة حيث يزعمون أنّه ليس لهم فعل ولا اكتساب في أفعالهم.

نعم يزيد المهتدين منهم هدى حسبما نطق بذلك فرقانه العظيم[١]، فمن زعم أنّ الله قد فضّل بعض الناس على بعض بأسباب الهدى فقد خالف فرقانه العظيم الذي دلَّ على أنّ إعانته للخلق من حيث الهدى بأسبابه غير مختلفة، بل هي متساوية بالنسبة الى جميعهم، ومثل هذه من آيات الفرقان في المعنى كثير[٢].

فإنّ الله تعالى قد أكد في الآية الكريمة على أنّ هذه الأدلّة والبراهين كافية لإظهار الحقيقة لأنّها منطقية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (سورة الأنعام: ١٠٤). أي أن إبصارهم يعود بالنفع عليهم كما أن عماهم يسبب الإضرار بهم. فإذا اتخذ العبد القرار النهائي في اختيار طريق الحق أو الباطل إنّما يرجع ذلك إلى نفسه، وإنّ الله تعالى قد ساوى بين عامة الناس من هذه الجهة فجعل الاختيار لهم في انتخاب الكفر والإيمان ليكون إيمانهم بالله عن بصيرة، فلاحظ.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدىً وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً﴾ (سورة مريم: ٧٦).

في الحقيقة: إنّ هذه الآية الكريمة ردّ صريح على زعم الذين ادعوا أنّ الايمان لا يزيد ولا ينقص فهي تقول: بل إنّ الله تعالى يزيدهم هدى وإيماناً.

من البديهي أنّ الهداية إنّما تحصل بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى الحق والباطل، وبعد إعطائه تعالى للإنسان قدرة التمييز بنعمة العقل، وهذا معنى هداية الله، فإذا اختار الإنسان الحق وصار في الصراط الذي رسمه الله تعالى له يكون ممن هداه اليه وإذا طوى الإنسان درجات الهداية ولم يمنعه عن تلك المصائب وكثرة النعم فيرتقي درجاتها بعون الله وتسديده وإرشاده الى صراط مستقيم وتوفيقه نحو العمل الصالح حيث يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩) فهو في الواقع يرجع الى اختيار العبد بعد وضوح الأمر له.

(٢) ولا يخفى على الخبير المتتبّع أنّ لفظ الهداية قد جاءت في موارد كثيرة من القرآن الكريم وأُريد منها إراءة الطريق والإرشاد نحو الصراط المستقيم كقوله تعالى: ﴿وهديناهم صراطاً مستقيما﴾ (سورة النساء: ٧٠) أي بواسطة الأنبياء والرسل هدينا الناس إلى صراط مستقيم.

➲ وقوله تعالى: ﴿انا هديناه النجدين﴾ (سورة البلد: ١٠) والنجد: هو الأرض المرتفع. والمقصود به هنا: هو الطريق الخير والشر، كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: يا أيها الناس هما نجدان: نجد خير ونجد الشر، فما يجعل نجد الشر أحب اليكم من نجد خير (المعجم الأوسط للطبراني ج٣: ص٧٧، وتفسير القرطبي ج١٠: ص٧١٥٥).

ورواه الشيخ المفيد أعلىٰ الله مقامه الشريف في كتاب الأمالي: ص٢١٠ والعلاّمة المجلسي في البحار ج٢: ص٢١ وغيرهم وهذا الطريق الذي وضع للإنسان ليختار ما هو الحق والخير وقد قام الأنبياء والمرسلين بهذه المسؤولية وتبيين هذا الطريق فكانوا يرشدون الناس الى الحق، وهذا هو الهداية التشريعية.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الشورى: ٥٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الانسان: ٣) والى غير ذلك من الآيات التي جاءت بهذا المعنى.

هذا ولا يخفى على الخبير أنّ الهداية على نوعين:

النوع الأوّل: الهداية التكوينية: وهي التي تتعلق بالأُمور التكوينية وتشمل كل نوع من أنواع المخلوقات، كهداية كل خلق الى كماله الذي خلق لأجله والى أفعاله التي كتبت له، ويدلّ عليها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (سورة طه: ٥٠) وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ«٢» وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (سورة الأعلى: ٢).

وهذه الهداية هي قيادة رب العالمين لموجودات الكون في نظام خلقه والقوانين الطبيعية المتحكّمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى في الوجود لتكون عوامل التقدّم والتكامل في مختلف الكائنات في هذا العالم، ويشمل الإنسان كأحد الكائنات والموجودات كنمو الجنين في رحم أُمه، وليس هذا النوع من الهداية المقصود بها في المقام.

والنوع الثاني: هي الهداية التشريعية: وهي التي تتعلق بالأُمور التشريعية من الاعتقادات الحقة والأعمال الصالحة التي وضعها الله سبحانه، وهي تأتي عن طريق الوحي والكتب السماوية وإرسال الأنبياء ونصب الأوصياء، والتوجيه نحو الطريق الصحيح من قِبَل الله تعالى وهذه الهداية هي المقصود بها في المقام. فإنّ الله سبحانه وتعالى قد أكّد في كثير من الآيات بأنّ

➲

فعلم كون قول الشيعة في هذه المسألة مثل قولهم في غيرها هو الدين الحق، والقول الصدق المطابق لما نزل الوحي به من عند الله على سيد رسله ﷺ فهو في الحقيقة مأخوذ منه ومن السنّة المطابقة له[١].

وسابعها: ما نسبه الى الشيعة من القول بوجود ما لم يشاءه الله سبحانه وبعدم وجود ما شأنه، فإنّك قد عرفت كتمانه للحق في هذه المسألة فيما مضى،

➲ هذه الهداية قد جاءت من الله تعالى، أي إنّ الله قد أرشد الناس وهداهم الى صراط مستقيم، فلاحظ.

(١) فإنّ طريقة الشيعة الإمامية في الاستدلال على حقانية مذهبهم واضح لا غبار عليه، لأنّ أصل الحق أمر واضح لا غموض فيه، وبإمكان كل أحد أن يراجع قول الشيعة واستدلالهم في جميع المجالات الدينية والعقائدية فإنّهم يتمسّكون بما يجب على المسلمين الاعتصام به طلباً للنجاة، فيستدلون لإثبات معتقداتهم بالنصوص القرآنية والحديثية التي لا اضطراب فيها، ويعرضون عن جميع التقاليد الخاطئة الواهية التي واجهها الإسلام مواجهة عدائية بين الطوائف.

فالباحث لو لاحظ كتب الشيعة يجد أنّ منهجهم في الاستدلال على معتقداتهم التمسك بالأدلّة القاطعة بحيث تخضع لها جميع العقول عند جميع المستويات من الناس على ما يسلكون عليه من الطرق الفكرية والمنطقية والعقدية فانّ أساس اعتقاد الشيعة هو العقل والفطرة، وبعد تثبيت أصل المعتقدات الأساسية فإنّهم يتمسّكون بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من رب العالمين، معجزة خالدة لنبينا الأكرم ﷺ والروايات الواردة عن النبي ﷺ المتفق على نقلها جميع المذاهب الإسلامية، وعن الأئمة المعصومين عليهم السلام الناقلين عن جدّهم رسول الله ﷺ الآخذ ذلك من الله بوحي، ويتناقلها الشيعة عن الثقات خلفاً عن السلف الى أن تتصل الرواية بأحد المعصومين عليهم السلام.

وعلى الباحث المراجعة الى كتب الشيعة ككتب العلاّمة الحلي (رضوان الله تعالى عليه) المتوفى سنة ٧٢٦ هـ ككتاب: منهاج الكرامة في إثبات الإمامة، وكتاب: نهج الحق، وغيرهما من الكتب الاعتقادية والدينية له.

وخلطه بين مشيئات الله وجعلها جميعاً من باب التكوين[١].

ولم يدر بأنّ ذلك مبطل لبعثه الرسل يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[٢]، لعدم تصوّرهما حينئذٍ بالنسبة الى الخلق عامة، فإنّ المعروف الذي شأنه

---

(١) لقد بيّن المصنّف رحمه الله فيما تقدم معنى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل: ٩٣) وقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (سورة المدّثر: ٣١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ (سورة الرعد: ٢٧).

هذه الآيات الكريمة تدل على أنّ أمر الضلال والهداية تدور مدار المشيئة الإلهية والمشيئة الإلهية ليست جزافية وغير منظّمة، والمعنى: إنّ الله تعالى يضل أهل الكفر بحرمانهم من صراط الهداية فلايهتدون إلى عيشة سعيدة في الدنيا ونعمة باقية ورضوان الله في الآخرة، فإنّه تبارك وتعالى يضل من يشاء ولا يضل إلّا من يستحقّه، ويهدي من يشاء ويجعله على صراط مستقيم، ولا يشأ ذلك إلّا رحمة للعباد فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا، «ما يشاؤن إلّا أن يشاء الله» فالمشيئة الإلهية وأن يسير في طريق التكامل بحريته واختياره، ولذلك قال تعالى في آخر الآية ٩٣ من سورة النحل: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ فإنّ عمل الإنسان لو لم يكن مختاراً له لما كان مسؤولاً عنه حيث أنّ الجبر إكراه والعمل الإكراهي لايحكم عليه حكم المختار أي لايتعلق به التكليف بل إنّه مرفوع الحكم عن فاعله إذ أنّ فاعله لم يفعل الفعل باختياره وحريته فالمشيئة الإلهية قد تعلّقت في الهداية التشريعية ببيان المعارف الدينية، وإظهار طريق الحق والتحذير عن كل الانحرافات والضلالات. فمن اهتدىٰ فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (سورة الإسراء: ٧) فإنّ ما يعمله الإنسان من سوء أو خير نتيجته سوف تعود إليه، فمثلاً عندما يلحق الإنسان أذىً أو سوءاً للآخرين فهو في الواقع يلحقه بنفسه، وإذا عمل خيراً فإنّما يعمله لنفسه لأنّ مسؤولية كل عمل تكون على عاتق فاعله، وقد تقدّمت الإشارة الى هذا المعنى، فالمشيئة الإلهية هنا حكيمة ومتعلقة بالأفعال الاختيارية وقد بيّنتها الآيات والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فلاحظ.

(٢) فإنّ أحد مسؤوليات الأنبياء إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع البشري

➲ فإنّها من مقوّمات الأديان السماوية إذ بالأمر بالمعروف والنهي عن النكر يهتدي الإنسان الى الفطرة السليمة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لايزال الناس بخير ما أُمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر (عوالي اللآلي ج٣: ص١٨٨).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: ويل لقوم لايدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (التهذيب ج٦: ص١٧٦).

ثم إنّ بعث الرسل كلها من أجل انبعاث العباد نحو الطاعات وانزجارهم عن المنهيات والمنكرات فلا جبر ولا تفويض في عمل العبد، فلو كان أحد الأمرين معتبراً لما صح توجّه الأمر والنهي إليهم إذ لو كان العباد مجبورين وكانت أفعالهم مخلوقة لله سبحانه، كيف يجوز له تعالى أن يأمرهم وينهاهم عن فعل نفسه كما أنّه لا يصح ذلك إذا كان الأمر مفوّض اليهم، لأنّه كيف يمكن أمرهم بعدما فوّض سلطانه إليهم؟!!!

فيعلم أنّه لا جبر ولا تفويض في عمل العبد وإنّما هو حقيقة دقيقة يصح تكليفهم ويتوجّه اليهم الأمر والنهي بإرادة جدّية من الله تعالى وتتحقّق ذلك ببعثة الأنبياء والرسل وأوصيائهم المرضيين عليهم السلام وهذا في الحقيقة أمر واضح.

وأمّا قولهم عليهم السلام: «الأمر بين الأمرين» في في الواقع حقيقة قرآنية، حيث يقول تعالى من جهة: ﴿**إنّا هَديناه السبيل**﴾ فعليهم أن يختاروا ما يريدون، ومن جهة أُخرى يقول: ﴿وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله﴾، أي ليس لكم استقلال كامل في ما تشاؤون بل إنّ قدرتكم مقهورة تحت سلطانه جل جلاله، فإنّ حريتكم في العمل لاتخرجكم عن دائرة المشيئة الإلهية بمعنى: أنّه سبحانه وتعالى قادر أن يسلب منكم هذه القدرة والحرية متى شاء. وهذا معنى الأمر بين الأمرين.

فإنّه تعالى أمر عباده بأُمور ونهاهم عن بعض الأُمور ليتحمّل العباد مسؤولية التكليف المتوجّه إليهم والذي يعتبر ذلك رمزاً للتكامل من جهة. ومن جهة أُخرى ويعرفوا أنّ حقائق الأُمور، اذن لايتوهّم أحد بأنّه مستغن عن الله سبحانه.

وخلاصة الكلام: أنّه لابد للإنسان أن لا يتوهّم أنه مستغن عن رعاية الله وتوفيقه، وفي نفس الوقت لابد له أن يذعن بأنّه حرّ في أعماله وسلوكه كما هو ظاهر واضح.

في بعض عباده قد وجد بمشيئته فما يصنعون بأمر الرسول[١]؟!!! فإنّه على فرض السني طلب لتحصيل الحاصل وهو محال ضرورة[٢].

والمنكر الذي قد شاءه في بعض عباده قد وجد فيهم[٣]، فأيّ معنى لنهيهم

---

(١) وبعبارة أُخرىٰ: أنّه بعد تحقّق المعروف في الخارج ودفع الفساد والشر بفعل الله تعالى، فما هي فائدة إرسال الرسل؟ فإنّه بناءً على زعم القوم أنّ المعروف لو أوجده تعالى بمشيئته في عمل بعض عباده فلايبقىٰ موضوع لدعوة الناس إذ أن من اهتدىٰ فهو مهتدٍ بالجبر، ومن ضلّ فهو مضل بالجبر، فلاحاجة إذن إلى دعوة الأنبياء، فلاحظ.

(٢) وذلك مثل وجود الشيء حقيقةً في الخارج، فإنّه بعد وجوده في الخارج لا معنى للأمر بإيجاده، فإنّ الأمر به حينئذٍ لا يكون محرّكاً وباعثاً نحو المطلوب إذ المفروض وجود الشيء حاصل في الخارج فالدعوة الى وجوده في الخارج تكون تحصيلاً للحاصل وهو محال عقلاً.

(٣) وملخّص هذه الدعوىٰ: أنّ كلّ مخلوق لله تعالى وكل ما خلقه الله تعالى فقد تعلّق به إرادته سبحانه بمعنى أنّه إذا خلق شيئاً فقد أراده وإذا لم يخلق فمعناه أنّه سبحانه لم يرده، وحيث أنّهم يقولون بأنّ الله خالق كلّ شيء، فمعناه: أنّ له إرادة الله متعلّقة بكلّ مخلوق وكلّ شيء في العالم، سواء كان ذلك الشيء خيراً أو شرّاً، ومن تلك الأشياء أفعال العباد فكل ما يفعله العباد بناءً على هذا زعم أنّه مخلوق لله تبارك وتعالى، وكل ما خلقه تعالى فقد أراده وكل ما لم يخلقه لم يرده.

فبناءً على هذا المسلك يقولون: إنّ إبليس قد أمره الله تعالى بالسجود فلم يسجد، ومعنى ذلك: إنّ الله تعالى لم يرده فلم يفعله إبليس إذ لو كان تعالى يريده لفعل ما كان لازماً عليه وإنّ عدم تحقّق السجدة من إبليس دليل على أنّه تعالى لم يرده، وإنّ عدم إرادته لفعل إبليس قد شاءه في مشيئته، وهكذا الأمر بالنسبة الى جميع أفعال العباد من المنكرات والمعاصي و...

فبناءً على هذا الزعم يقولون: أنّ الله أراد فعل المنكرات ـ والعياذ بالله ـ لأنّ العبد العاصي فهو مرتكب لها، وبعد هذا فما معنى النهي عن المنكرات؛ فإن ذلك يرجع الى فعله كما لا يخفى ذلك على أحد.

عن شيء ليس فعلهم ولم يدخل تحت قدرتهم؟! وقد فعله خالقهم فيهم[١].

فنهيهم لهم حينئذٍ عن المنكر، مثل نهيهم للقصير منهم عن قصره ولطويلهم عن طوله ولضعيفهم عن ضعفه الى غير هذه مما هم عليه من الخلقة[٢]. فتدبّر في حال من زعم كون مشيئات الله جميعاً تكوينية.

ومتعلّقاتها بأجمعها مخلوقة لله، فتبطل حينئذٍ بعثة الرسل الى الناس البتّة[٣].

---

(١) إذ لو كانوا مجبورين على ارتكاب المنكرات لكانوا معذورين عليها بالضرورة واللازم باطل لاستحقاقهم العذاب كما يدل عليه كثير من الآيات والروايات، بل أنّه من الضروريات والمسلّمات عند الكل والمعذور لا يستحق العذاب، وهذا أمر واضح جليّ لايحتاج الى البحث.

(٢) فإنّ الأُمور التكوينية مرتبطة الى أسباب وجودية وهي تابعة للوجود والتكوين، فلا معنى لقياس الأُمور التكوينية بالأُمور التشريعية فعلىٰ زعم الأشاعرة أنّ الهداية والضلالة كالأُمور التكوينية كلّها بيد الله سبحانه قصراً، ومرجع هذا إلى القول بانّ الله تعالى غير عادل في خلقه ـ والعياذ بالله ـ أي أنّه أعطى لبعض خلقه ومنع عن بعض الآخرين بلا وجه، كذلك استدلوا بهذا الدليل في الأُمور التشريعية فذهبوا الى أنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه ولذلك ذهبوا إلى عدم قدرة العبد فيها، فذهبوا إلى عجز العباد عن الاختيار في الأُمور الاعتبارية والشرعية كالامور التكوينية، وعجزهم عن القيام بالفعل الاختياري التكليفي والشرعي كما عجزوا عن الفعل التكويني الذي خلقه الله سبحانه كخلق القصير قصيراً والطويل طويلاً والضعيف ضعيفاً و...

(٣) إذ لو كان العباد مجبورين في أفعالهم لكان إقامة الدليل والبرهان، وإرسال الأنبياء وتبليغهم ودعوتهم أمراً لغواً، لأنّ إقامة الدليل إنّما تكون مفيداً اذا كان الطرف المقابل حرّاً في أفعاله وإرادته اذ عدم القدرة على ذلك يمنع الأخذ بطريق الحق والصراط المستقيم حيث أنّ الانسان لو كان قادراً على متابعة الحق لأخذ هذا الطريق باختياره لأخذ هذا الطريق مجبوراً في أفعاله فإنّه لا معنى لإقامة الدليل والبرهان والدعوة الى الحق، فهذا دليل على أنّ الناس لهم الحرية والاختيار في الإرادة.

وهذه العقيدة حسبما ترى مخالفة لضرورة كل شريعة[١]، وسيأتي بيان نبذة من الشناعات التي لزمتهم على هذه العقيدة السخيفة.

وثامنها: ما نسبه اليهم من القيل؛ فإنّ معناه حق وقد بهتهم فيه السني من جهتين ولم ينصفهم بالنقل عنهم على وجه الصدق:

أحدهما: نسبته ذلك الى بعضهم خاصة، وإنّما هم جميعا متفقون على ذلك لما عرفته من قاعدة اللطف[٢].

---

(١) فإنّ كل عاقل يشهد بأنّ الإنسان حرّ في أفعاله، وأعماله وإنّه غير مجبور فيها، ولهذا إذا ظلمه أحد انزعج منه وأخذه ووبّخه، بل وعاقبه إذا قدر.

فإنّ كل ردود الفعل هذه تفيد بأنّه يرى الظالم المجرم حرّاً في عمله ومختاراً في فعله، وهذا دليل على أنّ الظلم الواقع عليه باختيار الظالم وبإرادته.

وهذا الاعتقاد ضروري لكل ملة ونحلة من الشرائع السماوية، بل وإن لم يكن الإنسان ملتزماً بشريعة خاصة فهو أمر ثابت ليس له دافع أصلاً؛ إذ الحاكم به هو العقل والضرورة والوجدان والسيرة العقلائية، حيث أنّ العقل المستقل في الحكم بقبح الظلم وعبّر عنه الأُصوليون عن ذلك ببديهة العقل، فلاحظ.

(٢) إنّ قاعدة اللطف من القواعد المتسالم عليها عند الشيعة الإمامية وتبتني عليها كثيراً من المسائل الدينية.

والمراد من الوجوب على الله كونها مقتضياً للحكمة أو مقتضى الرحمة الإلهية لا الوجوب المتبادر في أذهان الناس من حاكمية العباد على الله ـ والعياذ بالله ـ

فالمراد من وجوب اللطف عليه تعالىٰ هو ما ينبغي صدوره منه لحكمة داعية إلى ذلك، وعليه فإنّ العقل يستكشف بملاحظة الأوصاف الكمالية لربّ العالمين لزوم ذلك عليه من باب اللطف وكلّما كان كذلك فهو لازم صدوره.

وكيف كان، فلا مجال لإنكار قاعدة اللطف لأنّها إحدى الأدلة في إثبات النبوة العامة إذ لو لم يبعث النبي لكان للخلق حجة على الله فيكون في البعثة قطع العذر.

كما يثبت بها وجوب اللطف من وجود الإمام في كل عصر وزمان لتكون الأُمة مصوناً من

←

والثانية: تخصيصه ذلك ببعض من علم أنّه متى خصّه بمزيد لطف من عنده اهتدى(١)، ولا وجه لتخصيص ذلك

➲ الضلالة والانحراف.

وأيضاً بها يحصل غرض المكلف لأنّها تقربهم الى الطاعة وتبعدهم عن الأفعال القبيحة بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب التي تستتبع رغبة العبد الى العمل الصالح وما يبعده عن المعصية، فإنّ القدرة على الامتثال والمعرفة بالنسبة التكاليف لا تكون كافية للقيام بها بل يلزم هناك الوعد والوعيد، وهذا نوع من اللطف ويعبّر عنه باللطف المقرّب في اصطلاح المتكلمين، والقسم الآخر هو اللطف المحصّل: وهو عبارة عن القيام بالمبادئ والمقدمات التي يتوقف عليها تحقّق غرض المكلف بحيث لولا القيام بهذه المقدمات من جانبه سبحانه لصار فعله فارغاً عن الغاية وناقضاً لحكمته ،كبيان التكيّف للناس واعطائه القدرة على الامتثال، وغير ذلك من المقدمات التي سوف يأتي البحث عنها مفصّلاً.

(١) ومن أجل وضوح الأمر ودفع ما نُسب الى الشيعة الإمامية في المقام نتعرض للأدلة التي استدلت بها الشيعة على وجوب اللطف وعمدتها ما تلي:

١ـ فإن اللطف مقتضى كمال الله تعالى فإذا كان المحل قابلاً ومستعداً لذلك الفيض، كما هو المفروض، فإنّه تعالى لابدّ أن يفيض لطفه، إذ لا يخلّ سبحانه وتعالى بواجب وإنّ الإخلال بالواجب بعيد عن ساحته المقدسة ورحمته الواسعة، بل إنّ رحمته العظيمة تقتضي أن يفسح المجال للعباد ليسلكوا الطريق الذي فيه النجاة والسعادة، وإلّا لزم الخلف في كمال صفاته لأنّ أحد الصفات الكمالية هي الرحمة العامة الناشئة عن ذاته المقدسة، فإنّ ظهور هذه الصفة التي كتبها الله سبحانه على نفسه بأن لايترك عباده هملاً بل يسأل إليهم من يرشدهم نحو طريق النجاة والصلاح ويحذّرهم عن الهلكات والضلالات، وهذا معنى حاجة الإنسان الى بعثة الأنبياء والرسالة الممدودة من السماء، فإنّ الحكمة تقتضي أن ينصب الله للناس من يقيم العدل والحق فيهم ويجمع كلمتهم على الحق ويهديهم الى سبيل النجاة، فحاجة الإنسان إلى النبي والإمام المعصوم في كل عصر وزمان هي من أوضح الأُمور ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ حاجة الإنسان إلى البعثة كما عرف، أشد من الحاجة إلى كل شيء آخر، ➲

➲ كإنبات الشعر على الأشفار وعلى الحاجبين وتقعير الأخمص من القدمين، وغير ذلك، فإنّ الإنسان بدون البعثة لا يتمكّن من السلوك نحو الكمال اللائق به، والنيل إلى السعادة في الدارين.

٢ـ فإنّ اللطف واجب لتحصيل الغرض به، قال العلامة الحلّي قدس سره في شرحه على تجريد الاعتقاد: ص ٣٢٤ـ٣٢٥ ما هذا نص عبارته: والدليل على وجوبه أنّه يحصل غرض المكلف فيكون واجباً، وإلّا لزم نقض الغرض.

بيان الملازمة: أنّ المكلف [بالكسر] إذا علم أنّ المكلف [بالفتح] لا يطيع إلّا باللطف، فهو كلّفه من دونه، كان ناقضاً لغرضه، كمن دعا غيره الى الطعام وهو يعلم أنه لا يجيبه إلّا إذا فعل معه نوعاً من التأدب، فإذا لم يفعل الداعي ذلك النوع من التأدب، كان ناقضاً لغرضه، فوجوب اللطف يستلزم تحصيل الغرض... انتهى.

وقال المحقّق اللاهيجي: إنّ ترك اللطف نقض الغرض، ونقض الغرض قبيح فترك اللطف قبيح، وهو تعالى لا يفعل القبيح. (أُنظر: سرمايۀ ايمان: ص٧٩).

٣ـ إنّ وجوب الأصلح فيما لم يكن منافياً لمصلحة كل النظام يقتضي وجوب اللطف، لأنّ علمه تعالى بمقتضى وقوع النظام على أتمّ وجوهه أمر مسلّم، لأنّه تعالى هو مبدأ كل خير ولا مانع منه، فاللطف أصلح فيما إذا لم يكن منافياً لمصلحة كل النظام، كما هو المفروض في البعثة وإرسال الرسل، والأصلح مما يقتضيه علمه تعالى، لأنّه مبدأ كل خير، ولا مانع منه، فاللطف مما يقتضيه، ولابد من وقوعه، وإلّا لزم الخلف في كون علمه تعالى يقتضي وقوع النظام على أتم وجوهه.

وهنا تقريب آخر للمحقّق اللاهيجي وهو: أنّه إذا لم يكن للأصلح مانع مع وجود داعية، لكان الإمساك عن الأصلح وإفاضة غير الأصلح قبيحاً؛ لأنّ ترك الأصلح وأخذ غير الأصلح مذموم عقلاً، فإذا كان ترك الأصلح قبيحاً، كان وجود الأصلح واجباً، لكن ترك الأصلح قبيح فيكون وجود الأصلح واجباً (سرمايۀ ايمان: ص٨١).

بل يمكن هنا أن يذكر تقريباً آخر وهو: أنّه إذا لم يكن للأصلح مانع مع وجود داعية لكان الإمساك عن الأصلح وإفاضة غير الأصلح ممتنعاً، لأنّه ترجيح للمرجوح، وهو ممتنع، لأنّه ➲

بالبعض،[١] فإنّه جارٍ على مذهبهم في حق جميع من علم الله بأنّه يهتدي لو خصه بمزيد لطف[٢]؛

➲ يرجع الى ترجيح من غير مرجّح.

هذا ولا يخفى على الخبير أنّ المقصود ليس كل أصلح بل المقصود هو الأصلح إذا كان مقروناً بعدم المانع كما تقدّمت الإشارة إليه، بل الأفضل أن يقال: إنّ المقصود هو الأصلح الخاص، وهو الذي لا يكون مقروناً بالمانع مع وجود داعيه فهذا التقريب لا يرد عليه شيء من الإشكال والإيراد، فلاحظ.

(١) أي أنّ تخصيص لطفه تعالى لأحد بالمجازفة لا وجه له؛ لأنّ الله تعالى لا يفعل فعلاً مخالفاً للحكمة والعدالة وإنّما تكون أفعاله مطابقة للحكمة والمصلحة حيث انّه تبارك وتعالى يعلم المصالح والمفاسد ازلاً فلا معنى للقول بأن يكون أفعاله غير حكيمة، فإنّه تعالى عالم بجميع الأُمور أزلاً فهو يعلم كلّ الحوادث والموجودات من الأزل فحدوث الموجودات والأحداث لا يزيد الله علماً، وهذا يشبه علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم، ثم يتحول التصميم إلى بناء عملي.

والمهندس يقول حين ينفّذ تصميمه على الأرض: أُريد أن أرى عملياً ما كان في علمي نظرياً.

ولا يخفى على الخبير أنّ علم الله يختلف عن علم البشر بلا شك ولا شبهة، وإنّما ذكرنا هذا المثال في البحث من أجل التوضيح والتقريب الى الذهن فقط وإلّا فإن علم الله أزلي ليس كعلم المخلوقات، فإن علم المخلوقات محدود والله سبحانه علمه غير محدود، فلا شك أنّه تعالى عالم بجميع أسرار مخلوقاته ويعلم ما في السماوات والأرض، فإنّ علمه اللامتناهي محيط بجميع الأمور فعلمه يختص به. وعلى هذا الأساس يختص برحمته من يشاء من اللطف لما يراه من المصلحة فيه، فلاحظ.

(٢) فإنّ الهداية الخاصة هي الهداية التكوينية والعناية الربانية التي قد خص الله بها بعض عباده حسب ما تقتضيه حكمته، فيهيئ لهم ما يهتدون به نحو الكمال، فلولا إرشاده وتسديده لوقع الناس في الغي والضلالة، وأشار سبحانه وتعالى إلى هذا النوع من الهداية في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَالَةُ﴾ (سورة الأعراف: ٣٠).

هذه الآية الكريمة جواب لقول القدرية الذين يقولون: بأنّه لا قدر، أي يزعمون بأنّهم قادرون ➲

فإنّ من خلق الخلق وزيادته[١]، ومن هذه الجهة أعطى رسول الله ﷺ ما يزيد

⮌ على الهداية والضلالة فقط، فيقولون: إنّ الإنسان إن شاء اهتدىٰ وإن لم يشاء ضل، فيزعمون أن كل شيء بيدهم وهم مجوس هذه الأُمة حسب ما ورد في الروايات المتفقة بين الفريقين، فإنّ الله سبحانه وتعالى أجاب عنهم في هذه الآية الكريمة بأنّ زعمكم هذا باطل لأنّ الله تعالى لو كان يرىٰ مصلحة في الهداية التكوينية لخص بعض عباده بها بأن يبيّن لهم مزية الإيمان زيادة على ما جاء في الشريعة، وأيضاً يبيّن لهم عقبات الضلالة زيادة على ما جاء به رسله وما جاء في آياته.

فيقول تعالى في هذه الآية الكريمة لأجل ألاّ يتصوّر أحد أنّه ليس لله قدرة على هداية أحد؛ فإنّه يختص برحمته وهدايته لبعض الناس الذين لهم صلاحية الهداية، وهذا لايعني أنّ بعض الاخر لايتمتعون بذلك بل الآخرون أيضاً يشملهم هذه العناية الربانية ولكن تختلف الألطاف والعنايات باختلاف الناس وعقولهم ومدركاتهم، وقد بيّن تعالى هذه الحقيقة في الجملة التي تأتي في الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱللهِ...﴾ أي أنّ الضالين هم الذين اختاروا الشيطان ولياً فحق عليهم الضلالة واتخذوا طريق الباطل باختيارهم واعرضوا عما جاءهم من العنايات الربانية ففي الحقيقة هم أضلوا السبيل باختيارهم وهؤلاء بخلاف الفريق الأوّل؛ فإنّ الفريق الأول حيث لم يجعلوا الشياطين أولياء لهم فلهم قابلية التوفيق للهداية، فيجعل الله زيادة في هدايتهم وليس معنى ذلك اجبارهم على الهداية، وإنّما ذلك التنبيه والزيادة في التبيين لتحقّق العزم إلى فعل الخير، وانجذاب العباد نحو الحقيقة.

(١) فالمراد بالزيادة في الهداية هي الألطاف الإلهية والعنايات الربّانية والأسباب التي يجعلها الله تعالى للذين يسلكون سبيل الهداية ليضاعف بهم الايمان ويزداد بصيرتهم قال الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدىً وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَداً﴾ (سورة مريم: ٧٦) وقال تعالى: ﴿إِنَّهمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ (سورة الكهف: ١٣) وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (سورة محمد ﷺ: ١٧) وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ (سورة المائدة: ١٨).

من البديهي أنّ الهداية سواء كانت هداية تشريعية أو هداية خاصة زائداً على الهداية العامة التي ⮎

➲ تشمل للسالكين في طريق الحق والحقيقة إنّما هي عناية ربّانية خاصّة بـبعض العـباد له؛ ليتقرّبوا إلى الله عزّوجلّ، ويتّخذوا سبيل الحقّ بالبصيرة واليقين كـما تـحقّقت هـذه العـناية لأصحاب الكهف فإنّها ليست إجبارية اختيارية.

ولمزيد التوضيح نذكر هنا ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام في تفسير سورة الحمد وقوله تـعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قال عليه السلام: اهدنا الصراط المستقيم معناه: أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا (مـعاني الأخـبار للشـيخ الصدوق: ص٣٣).

فالمراد بالزيادة في الهداية هي أن يأخذ الله بيد عبده ويزيده هدى كما اتفق الأمر في أصحاب الكهف الذين جاءت قصتهم في القرآن الكريم فقال تعالى في حقّهم: ﴿إِنَّهمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ (سورة الكهف: ١٣).

فإنّ أصحاب الكهف حينما عرفوا الحق وأحسوا بفساد المجتمع الذي كانوا يـعيشون فـيه مـن عبادة الأصنام والكفر وغير ذلك فآمنوا بـالله سـبحانه وحـينما وجـدوا أنـهم لا يـتمكّنون المواجهة والتغيير لذلك القوم الفاسد فروا من ذلك المحيط حفظاً لإيمانهم وسبباً للمزيد من الهداية الربانية، فالآية الكريمة تؤكّد على أنّ أصحاب الكهف عندما آمـنوا بـالله وسـلكوا الطريق الحق فإنّ الله سبحانه قد زادهم هدىً وشملهم الإمداد الإلهي.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَـن نَدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ (سورة الكهف: ١٤).

ويعرف من هذه القصة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى أنّ مراتب الايمان تحصل للإنسـان مـن خلال مجاهدة الانسان نفسه في سبيل الوصول الى الحق والصـراط الأقـوم، ولذلك يـقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَـنَهْدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا﴾ (سـورة العـنكبوت: ٦٩) ويـقول تـعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً﴾ (سورة محمد: ١٧) فالذي جعل هدفه الوصول الى الحـق والصراط الإلهي سوف تشمله الألطاف الإلهية وعناياته الشريفة وإفاضاته وتوفيقاته، فيعرف من ذلك كله ان الله تعالى أكبر من أن يترك عباده في طريق الحق وحدهم، فأصحاب الكهف من أبرز مصاديق هذه الحقيقة؛ فإنّهم حيث وجدوا أنّ دقيانوس يدّعي الألوهـية ويسـتعبد ➲

على ألف معجزة[١]، ومن المعلوم كون الفرقان معجزة تدلّ على صدقه وتهدي

الناس لنفسه ويقتل أهل التوحيد فآمنوا بالله وتركوا الدنيا ومناصبها وهاجروا في سبيل الله وأعرضوا عن المشركين فأنقذوا أنفسهم من الكفر والشرك، وصاروا سبباً لتوعية الناس بخروجهم عن الدولة الجبّارة الحاكمة على الناس، وقاموا بوجه تلك الحكومة المشركة حسب ما كانوا يستطيعون وذلك لهدف دفع الشرك عن قلوبهم وقلوب الناس وزرع التوحيد وغرسه في مكانه فقد هاجروا من بلدهم لإنقاد أنفسهم والحصول على محيط أكثر استعداداً لمعرفة الخالق العظيم ورب الأرباب والله سبحانه وتعالى أيدهم بنصره وزادهم هدى، فلاحظ.

(١) إنّ معجزات النبي ﷺ وآياته الباهرة وكراماته الظاهرة قد ملأت الكتب من ذكرها وانتشرت في الآفاق روايتها وتركت أثرها الإيجابي في نفوس الناس، ولا تزال حتى اليوم تحصل البصيرة لكل من درسها وفكّر في جوانبها وحقائقها والظروف التي قضاها في عصره الشريف ﷺ فقد ظهر منه ﷺ معجزات لا يتسع هذا الموجز لاستقصائها؛ فمنها: انشقاق القمر ورجوع الشمس ونبوع الماء من أصابعه وحنين الجذع وتسبيح الحصى وكلام الذئب وشكوى البصير، وإحياء الشاة المأكولة وغير ذلك.

قال ابن حجر العسقلاني: أنّه قد ذكر النووي في مقدمة شرح مسلم: أنّ معجزات النبي ﷺ تزيد على ألف ومائتين.

وقال البيهقي في المدخل: بلغت ألفاً.

وقال الزاهدي من الحنفية: ظهر على يديه ألف معجزة، وقيل: ثلاثة الآف. وقد اعتنى بجمعها جماعة من الأئمة كأبي نعيم والبيهقي وغيرهما... (اُنظر: فتح الباري ج٦: ص٤٢٥).

وقال الفخر الرازي: إنّ معجزات رسول الله ﷺ كانت على نوعين:

النوع الأوّل: المعجزات التي ظهرت في ذاته المباركة وأجلّها وأشرفها: أنّه كان رجلاً اُمياً لم يتعلّم من اُستاذ، ولم يطالع كتاباً، ولم يتفق له مجالسة أحد من العلماء، لأنّه ما كانت مكة بلدة العلماء، وما غاب رسول الله ﷺ عن مكة غيبة طويلة يمكن أن يقال: إنّ في مدة تلك الغيبة تعلّم العلوم الكثيرة، ثم أنّه مع ذلك فتح الله عليه باب العلم والتحقيق، وأظهر عليه هذا القرآن المشتمل على علوم الأولين والآخرين، فكان ظهور هذه العلوم العظيمة عليه، مع أنّه

المنصفين الى الحق[١]،

⊃ كان رجلاً أُمياً لم يلق أُستاذاً ولم يطالع كتاباً من أعظم المعجزات.

والنوع الثاني: من معجزاته: الأُمور التي ظهرت من مخارج ذاته، مثل انشاق القمر، ونبوع الماء من بين أصابعه... (تفسير الكبير ج١٥: ص٢٩).

أقول: ولا أدري كيف لم يذكر من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم في القسم الأول إخباره بالمغيّبات كإخباره صلى الله عليه وآله وسلم لأميرالمؤمنين عليه السلام: بأنّك تقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم له: إنّك تقتل ذا الثدية. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعمّار: تقتلك الفئة الباغية. وإخباره عن عترته الطاهرة واحداً بعد واحد، وما يجري عليهم من القتل والسبي من بني أُمية وبني العباس. وإخباره عن وقعة الجمل، وخروج عائشة على الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ونباح كلاب الحوأب عليها. وإخباره عن خلفائه الاثني عشر. وإخباره بأنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يقتل بضربة في شهر رمضان على أُمّ رأسه فتخضب شيبته من الدماء. وإخباره عمّا يجري على الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام بعد موته وارتحاله الى الرفيق الأعلى. وإخباره بقتل الحسن بالسّم، وقتل الحسين في كربلاء بعد شهادة أصحابه غريباً وحيداً عطشاناً والى غير ذلك ما أخبر به صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ الإخبار بالمغيّبات من المعجزات التي أكرم الله بها نبيه دال على صدق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في نبوته وهذا أمر واضح جداً.

(١) إنّ أقوى معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهمها القرآن الكريم الذي تحدّى العرب وغير العرب من أعمدة البلغاء والفصحاء والفلاسفة والنوابغ وجميع العلماء على أن يأتوا بمثله ولا يزال ويبقى يتحدّى الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله فقال تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾ (الإسراء: ٨٨) ثم وقع الاقتصار على سورة واحدة فقال تعالى: ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ**﴾ (سورة البقرة: ٢٣) ولم يفرّق بين طويلة وقصيرة منها، ولو كانوا قادرين على معارضته لعارضوه؛ لأنّ الدواعي كانت متوفّرة إلى إظهار الغلبة، فإنّ من كان داعيه متوفراً الى شيء وعلم أنّه يحصل بما هو قادر عليه فإنّه يفعله لا محاله، فلمّا دعاهم القرآن جميعاً لمواجهته فلم يعارضوه وعدلوا عن ذلك ولم يأت أحد ولو بسورة من مثله دلّ على إعجازه، ولا يزال في كل عصر ووقت يكشف الناس صدق أخبار القرآن وأنبائه.

⊂

لكن من المعلوم كون جماعات من الخلق يحتاجون الى زيادة لطف بعد وجود هذه المعجزة العظيمة[١]،

➲ وقد أدهش القرآن العرب وغير العرب وحيّر ألباب البشر وعقولهم بمعجز بيانه وروعة معانيه ودقة ائتلاف ألفاظه ومبانيه، فلا يشبه كلام الخلق إذ لم يأت أحد بكتاب يعجز الخلق بمن فيهم أن يأتوا مثله من جهة البلاغة والفصاحة والعلم وغير ذلك، فكل كتاب جاء به البشر عارضه جماعة ولو على مر الزمان وتوالى الأعصار، وهذا ما يشهد به التأريخ، فالمعجزة تكون قوية عندما قام القرآن الكريم بإثارة وتحدّي أعدائه ومخالفيه، وبتعبيرنا: قد استفزّهم وقال لهم: إذا كنتم تظنون أنّ هذا الكلام ليس من الخالق وأنّه من صنع الإنسان فأنتم أيضاً بشر، فأتوا بمثله، وإذا لم تستطيعوا ذلك بأجمعكم ولو كان بعضكم لبعض ظهيراً من ناحية التعاون والتعاضد والتساند الفكري والعملي، فمعنى هذا العجز، وإنّ هذا القرآن معجزة خالدة لعمومية دعوة التحدّي التي تشمل كل البشر والموجودات العاقلة وخلود هذه الدعوى والتحدي واستمرارها إذ أنّها غير مقيّدة بزمان، فعلى هذا إنّ هذا التحدّي اليوم جار مثلما كان في أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيبقى كذلك في المستقبل.

وكيف يقدر المخلوق من تراب أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب، أين التراب ورب الأرباب؟ أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه أن يأتي بكلام ككلام الكامل الذي له الكمال المطلق والغني الواسع من جميع الوجوه؟!!!! هذا ليس في الإمكان ولا في قدرة الإنسان وكل من له أدنى معرفة بأنواع الكلام يذعن بهذا الكلام بلا إشكال إذ أنّ مقايسة هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء والفصحاء والشعراء والادباء والعلماء مقايسة بين رب الكلام والمربوب والبحث في هذا المجال يتطلب المجال الواسع ولمن أراد التحقيق فيه فليراجع التفاسير والكتب المؤلفة في معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفضائل القرآن وغير ذلك ومن جملتها كتاب القرآن واعجازه العلمي لمحمد اسماعيل ابراهيم وكتاب معجزة القرآن للشعراوي وكتاب خوارق البوارق في اثبات اعجاز القرآن للسيد علي الرضوي اللاهوري واعجاز القرآن للسيد حسن الموسوي الاصفهاني وكتاب نفحات الاعجاز في اعجاز القرآن للسيد الخوئي وغير ذلك فلاحظ.

(١) لا شك أنّ المعجزة التي أتىٰ بها الأنبياء إنّما هي لإثبات إرسالهم وإرتباطهم بالله سبحانه، ➲

مثل شقّ القمر[١]،

⮌ وإلّا فكلّ أحد يستطيع أن يدّعي النبوة، فإنّ معرفة الأنبياء الحقيقيين من المزيّفين لا يتيسر إلّا عن طريق المعجزة، والمعجزة ـ كما هو واضح من لفظها ـ عمل خارق للعادة يأتي به الأنبياء والمرسلون وأوصيائهم المرضيون (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) ليعرف الناس أنّهم مبعوثون من قبل الله عزّ وجل ومختصّون بتأييداته وقد جعل الله تبارك وتعالىٰ المعجزات تحت اختيارهم ليعرف الناس شأنهم عند الله عزّ وجل فالنبي أو الإمام المعصوم يتحدّى الناس الإتيان بمعجزته ويعلن لهم أنّ معجزته دليل على صدق دعوته. فالمعجزة يمكن أن تكون بذاتها دعوة وكتاباً سماوياً، ويمكن أن تكون أُموراً أُخرى من قبيل المعجزات الحسّية والجسمية، إضافة إلى أنّ المعجزة مؤثّرة في نفس النبي أو الإمام المعصوم، فهي تزيد من عزيمته وإيمانه وثباته.

فالقرآن الكريم معجزة خالدة لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم فهو كتاب يسمو على أفكار البشر، ولم يستطع أحد حتى اليوم أن يأتي بمثله وهو معجزة سماوية كبرىٰ، وهو أقوى سند حي على نبوة الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه معجزة ناطقة وخالدة وعالمية ومعنوية، ولكن مع ذلك كلّه أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد أتى بمعجزات أُخرىٰ كثيره عدا القرآن، وتحدّى المعارضين بها ليدعوهم إلى دين الحق.

فالمعجزة قانون ووثيقة تثبت به الدعوة الإلهية غير أنّ جميع معجزات النبي صلى الله عليه وآله عدا القرآن الكريم مقيدة بزمان ومكان معيّن لكن القرآن لا يرتبط بالزمان والمكان، فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، بل إنّ مرور الزمن زاد البشرية قدرة في العلم والإمكانات لتستفيد منه أكثر من ذي قبل، وما لا يرتبط بزمان أو مكان فإنّه يحوي عناصر الدوام والخلود وسعة دائرته. وبديهي أنّ الدين العالمي بحاجة إلى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة كما لا يخفى.

(١) إنّ معجزة انشقاق القمر من الحوادث العظيمة التي تدل على قدرة الباري عزوجل المطلقة والتي أجراها الله تعالى على يد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بمكة قبل الهجرة وذلك عندما اجتمع المشركون اليه وقالوا: يا محمد، إن كنت صادقاً فشقّ لنا القمر فرقتين (فلقتين).

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن فعلت تؤمنون؟ قالوا: نعم، وكانت الحادثة في ليلة بدر فسأل رسول ⮎

⮊ الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا، فشقّ القمر فرقتين (فلقتين)، ورسول الله ﷺ ينادي بهم: يا فلان يا فلان اشهدوا... (أُنظر: الأمالي للشيخ الطوسي: ص٣٤١ ح ٦٩٧).

وقد استفاضت الروايات على ذلك واتفق علماء الحديث والتفسير وأرباب السير على قبولها وصحة إسناد رواياتها:

فقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب المناقب، باب علامات النبوة ﷺ بسنده عن ابن مسعود قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ شقّتين، فقال النبي ﷺ: اشهدوا (صحيح البخاري ج ٤: ص١٨٦).

وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب صفة القيامة باب انشاق القمر ج٨: ص١٣٢، وأحمد بن حنبل في مسنده ج١:٣٧٧ وغيرهم.

وفي حديث آخر عن ابن مسعود أيضاً قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا (صحيح البخاري ج٦: ص٥٢ كتاب التفسير، باب تفسير سورة القمر).

واخرجه مسلم في صحيحه ج٨: ص١٣٣ باب انشقاق القمر، والترمذي في سننه ج٥: ص٧٢ ح٣٣٤٣ وغيرهم.

وذكر أبو حيّان الأندلسي في تفسيره أنّه ورد في حديث حينما انشقّ القمر نصفين بمكة، قال أبو جهل: اصبروا حتى يأتي أهل البوادي، فإن لم يخبروا بذلك كان محمد قد سحر أعيننا فأتوا فأخبروا بذلك... (تفسير البحر المحيط ج١: ص٤٩٦).

وأخرج السيوطي بسنده عن أبي مسعود قال: انشقّ القمر على عهد النبي ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة. فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السفار، فإنّ محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلّهم فجاء السفار فسألوهم فقالوا: نعم رأيناه، فأنزل الله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ...﴾ (الدر المنثور ج٦: ص١٣٣) و إلى غير ذلك مما ورد من الروايات وهي كثيرة وإسنادها صحيحة بل هي متواترة:

قال الآلوسي: فقيل: هو غير متواتر. وفي شرح المواقف للشريفي أنّه متواتر وهو الذي اختاره العلامة ابن السبكي قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب: الصحيح عندي أنّ انشقاق القمر ⮈

وشهادة الضب[١]،

⮌ متواتر منصوص عليه في القرآن، ومروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمتري في تواتره... (تفسير الآلوسي ج٢٧: ص٧٤).

أقول: ولكن المعتزلة من أهل السنة قد أنكروا هذه الحادثة مع ما ورد فيها من الروايات الصحيحة بل نطق بها القرآن الكريم دلالة واضحة في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ (سورة القمر: ١).

قال العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: إنّه اتفق أهل الحديث والمفسرون على قبولها كما قيل، ولم يخالف فيه منهم إلّا الحسن وعطاء والبلخي حيث قالوا: قوله: انشق القمر، سينشقّ القمر عند قيام الساعة... (تفسير الميزان ج١٩: ص٥٥).

فروايات الشيعة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في كتبهم الحديثية الواردة في هذا المجال كثيرة جداً وبالغة عن حدّ التواتر، وليس فيهم مخالف لذلك كما يظهر ذلك لمن تتبّع في كتبهم من التفسير والحديث والتاريخ والسيرة.

وعلى فرض المثال: راجع كتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج١٧: ص٣٤٧ الباب الثالث في ما ظهر من المعجزات من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وتفسير التبيان للشيخ الطوسي ج٩: ص٤٤٢، والأمالي له: ص٢٤١ و غير ذلك.

(١) أخرج ابن عساكر في تاريخه بسنده عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: بينما النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مجلسه يحدّث الناس بالثواب والعقاب والجنة والنار والبعث والنشور إذ أقبل أعرابي من بني سليم بيده اليمنى عظام نخرة وفي يده اليسرى ضب، فأقبل بالعظام يضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم يحرّكها برجله ثم قال: يا محمد، ترى ربك يعيدها خلقاً جديداً؟

فأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم جوابه فانتظر الإجابة من السماء، فنزل جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقرأ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة يس: ٧٨). فقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الأعرابي، فقال الأعرابي: واللات والعزّى ما اشتملت أرحام النساء وأصلاب الرجال على ذي لهجة أكذب منك ولا أبغض منك ولولا أنّ قومي يدعونني عجولاً لقتلتك وأفسدت بقتلك الأسود والأبيض ومن بني هاشم...

⮌

➲ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أعرابي، والله إنّي لمحمود في الأرض أمين في السماء عند الله، فقال الأعرابي: ورمى الضب في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: والله لا أُومن بك حتى يؤمن بك هذا الضب، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذنبه ثم قال: يا ضب، قال: لبّيك يا زين من وافى يوم القيامة، قال: من تعبد، قال: أعبد الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الجنة ثوابه وفي النار عذابه، قال: من أنا؟ قال: محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصى بن كلاب حتى نسبه الى إبراهيم عليه السلام، وقال: أنت رسول الله لا يحرم من صدّقك وخاب من كذّبك فولّى الأعرابي وهو يضحك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أبالله وآياته تستهزىء. فرجع اليه فقال: بأبي وأُمي ليس الخبر كالمعاينة، أنا أشهد بلحمي ودمي وعظمي ءن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: جئتنا كافراً وترجع مؤمناً... (تاريخ مدينة دمشق ج٤: ص٢٨٢).

وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ج٨: ص٢٩٢ في باب شهادة الضب بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم بسنده عن عمر بن الخطاب، والطبراني في معجمه الأوسط ج٦: ص١٢٦ بسنده عن عمر بن الخطاب، وابن كثير في تاريخه ج٦:١٦٥ عن عمر بن الخطاب وغيرهم.

وأخرجه علماء الشيعة الإمامية في كتبهم عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مع اختلاف يسير: فرواه الخزّاز في كفاية الأثر بسنده عن الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُنظر: كفاية الأثر: ص١٧٢.

ومحمد بن سليمان الكوفي في كتابه مناقب أميرالمؤمنين عليه السلام بسنده عن ابن عباس، أُنظر كتاب مناقب أميرالمؤمنين ج١: ص٤٨.

وابن حمزة في كتابه الثاقب في المناقب: ص٧٢.

وقطب الدين الراوندي في كتابه الخرائج والجرائح ج١: ص٣٨.

والعلامة المجلسي في كتاب بحار الأنوار ج١٧: ص٤٠٧ وج ٣٦: ص ٣٤٢ و ج٦٢: ص٢٣٥ وغيرهم.

وقد ذكره المحدّثون والمؤرّخون والمفسّرون في معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يسعنا المجال لذكر جميع من رووا هذا الحديث من الشيعة الإمامية في كتبهم، والمهم أنّ مضمون الحديث مورد اتفاق الفريقين، فلاحظ.

وتسبيح الحصى(١)، ونطق الناقة(٢)

(١) أخرج ابن عساكر في تاريخه بسنده عن أنس بن مالك قال: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ حصيات في يده فسبّحن حتى سمعنا التسبيح... (تاريخ مدينة دمشق ج٣٩: ص ١٢٠).

وأخرج الطبراني في معجمه الأوسط مثله عن أبي ذر وفيه: انّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ حصيات فسبّحن في يده ثم وضعهنّ فخرسن ثم أخذهن فسبّحن في يده... (المعجم الأوسط ج٤: ص ٢٤٥).

وأخرج الهيثمي في كتاب مجمع الزاوئد بسنده عن أبي ذر أيضاً قال في حديث طويل:... فتناول النبي صلى الله عليه وآله وسلم سبع حصيات أو تسع حصيات فسبّحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل... (مجمع الزوائد ج٨: ص٢٩٩) ورواه الذهبي في تاريخ الاسلام١: ص٣٥٢ وابن كثير في تاريخه ج٦: ص١٤٦ وغيرهم.

كما أنّ الشيعة الإمامية رووا هذه المعجزة العظيمة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كتبهم بأسانيد كثيرة منها: ما رواه السيد هاشم البحراني في كتابه مدينة المعاجز بسنده عن سلمان قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام فتناوله النبي صلى الله عليه وآله وسلم حصاه فما استقرت الحصاة في كف علي عليه السلام حتى نطقت، وهي تقول: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبعلي بن أبي طالب ولياً، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من أصبح منكم راضياً بولاية علي بن أبي طالب فقد آمن خوف الله وعقابه (مدينة المعاجز ج١: ص٤١٨).

ورواه العلامة المجلسي في كتابه بحار الأنوار ج١٧: ص٣٧٢. وقال في مكانٍ آخر بعد ذكر الحديث ومعجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنه يساعدنا قوله تعالى: ﴿**قَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ وقد ناسب اثبات النطق للصبح قوله تعالى: ﴿**والصبح اذا تنفس...**﴾ (أُنظر: بحار الأنوار ج٩١: ٢٤٨) والى غير ذلك مما ورد في كتب الشيعة فراجع.

(٢) روى السيد هاشم البحراني في كتابه مدينة المعاجز بإسناده عن سلمان قال: كنت قاعداً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبل أعرابي، فقال: يا محمد، أخبرني بما في بطن ناقتي حتى أعلم أنّ الذي جئت به حق، وأُومن بإلٰهك وأتبعك، فالتفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى علي عليه السلام فقال: حبيبي علي يدلك، فأخذ علي عليه السلام بخطام الناقة ومسح يده على نحرها، ثم رفع طرفه الى السماء، وقال: اللّهمّ إنّي أسألك بحق محمد وأهل بيت محمد، بأسمائك الحسنى، وبكلماتك التّامات لما أنطقت هذه الناقة حتى تخبرنا بما في بطنها، فإذا الناقة قد التفتت إلى علي وهي تقول: يا ⇐

وغير ذلك[1].

وهذه بأجمعها زيادة لطف في حق من علم توقف ايمانهم عليها وتوكيد حجة بحجة، وآية بآية، في حق من عتى وطغى وبغى[2].

أميرالمؤمنين: إنّه ركبني يوماً وهو يريد زيارة ابن عم له، فلما انتهى بي الى واد يقال له وادي الحسك نزل عني وأبركني في الوادي وواقعني، فقال الأعرابي: ويحكم أيكم النبي، هذا أو هذا؟ قيل له: هذا وهذا أخوه ووصيه، فقال الأعرابي: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله. وسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل الله ليكفيه ما في بطن ناقته، فكفاه وأسلم وحسن إسلامه (مدينة المعاجز ج٢: ص٢٠).

وأخرجه العلامة المجلسي في البحار ج١٧: ص٤١٤ وج ٤١: ص٢٣٠ وجر ٩١: ص٥، والراوندي في قصص الأنبياء: ص٢٩٥، وابن حاتم العاملي في الدر النظيم: ص١٤٥ وغيرهم.

ولكن الحديث جاء في كتب أهل السنة والجماعة بشكل آخر لا يثبت به معجزة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم!!! والظاهر أنّ يد التحريف والدس قد لعبت دورها وغيّرت ألفاظ الحديث لما كان فيه من كرامة ومعجزة للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فللباحث أن يراجع المستدرك على الصحيحين ج٣: ص٤١٨، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٤: ص١٠٩، والدر المنثور لجلال الدين السيوطي ج٣: ص١٦٥ وغيرهم. والحديث المذكور ورد في هذه الكتب عن سلمة بن سلامة لا عن سلمان، فللباحث أن يتأمّل في الحديث الذي رواه الشيعة الإمامية، والحديث الذي رواه أهل السنة يطمئن بأنّ الصحيح هو ما رواه الشيعة لما فيه الإعجاز للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم دون ما نقله السني، فلاحظ.

(١) ولا يخفى على الباحث أنّ معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة، ولمن أراد الوقوف عليها فليراجع كتاب: روضة الواعظين للفتّال النسيابوري، باب ما ورد من معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ص٦٠، والخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي ج٢: ص٩٢٢، ومدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني المجلد الأوّل وبحار الأنوار ج١٧: ص٣٥٥ وغير ذلك.

(٢) فإنّ الآيات القرآنية تؤكد على أنّ من استكبر عما جاء به الأنبياء من الإعجاز وعاند وتمرّد

فعلم بما بيّناه حال ما نسبه السني إلى خصوص بعض الشيعة، وتميّز الصدق من الكذب والحق من الباطل، ولله الحمد والمِنّة على ذلك[(١)].

← فعن الحق سوف يدخل في العذاب قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ«٣٧» وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا«٣٨» فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (سورة النازعات: ٣٧ – ٣٩) وذلك لأنّ العناد والطغيان والتمرّد إنّما ينشأ من الغرور والإصرار على العقيدة الفاسدة.

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام قال: ومن طغى ضلّ على عمد بلا حجة (الكافي ج٢: ص٣٩٤).

فالغرور يسحب بصاحبه إلى المهلكات لأنّ المغرور على الرغم من علمه بعدم وجود دليل وحجة على اعتقاده يخالف الحجة، ولا شكّ أنّ الله يعذّب المعاندين الطاغين. لأنّ الباري تعالى قد أتم حجته البالغة عليهم وأنّ كل ما جاء به الأنبياء بالبراهين الجليّة وبذلوا قصارى جهدهم في إيقاظ الناس وإرشادهم لإتمام الحجة على العباد قال الله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (سورة النساء: ١٩٥).

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: بعث الله رسله بما خصهم به من وحيه وجعلهم حجة له على خلقه لئلا تجب الحجة لهم بترك الأعذار إليهم، فدعاهم بلسان الصدق إلى سبيل الحق... (نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٤٤).

وقال الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن فلسفة النبوة: لئلّا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل، ولئلّا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولتكون حجة الله عليهم، ألا تسمع الله عزوجل يقول حكاية عن خزنة جهنّم، واحتجاجهم على أهل النار بالانبياء الرسل: ألم يأتكم نذير... الآية (علل الشرائع ج١: ص١٢١ باب ٩٩ ح٤، وبحار الأنوار ج١١: ص٣٩ ح ٣٧).

فإنّ الأدلة القطعية من القرآن الكريم والسنة النبوية وروايات أهل البيت عليهم السلام تدلّ بالصراحة على أنّ الله تعالى لا يعذّب قوماً حتى يتم عليهم حجته. بل إنّ العقل المستقل حاكم بلزوم إتمام الحجة وحصول الوثوق في هذه الموارد إذ لا يمكن أن يعذّب الله أحداً قبل أن يبيّن لهم ما يجب عليهم، فإنّ العقل يحكم بقبح العقاب بلا بيان، فكيف يصدر عقاب من الله عزوجل بدون أن يبيّن التكاليف الواجبة على المكلّفين تعالى الله من ذلك علوّاً كبيراً.

(١) لأنّه ظهر مما تقدم كذب ما نسبه إلى الشيعة الإمامية فإنّ عقيدة الشيعة في قاعدة اللطف

وتاسعها: ما زعمه من كون القول المرقوم هو قول من تسمى بأهل السنة، فإنّه من الكذب الجلي الذي سيُعلم كذبه من قوله فيما يأتي، فأين زيادة اللطف

➲ واضحة جلية وموافقة للنصوص القرآنية والسنة النبوية وروايات أهل البيت عليهم السلام كما تقدّمت الإشارة إليها، وذلك كالمعجزة التي يأتي بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم زيادة على ما جاء به من الله وذلك لإتمام الحجة على الناس، ولئلّا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فعقيدة الشيعة تختلف عن المعتزلة الذين يسمّون أنفسهم بالعدلية، فإنّ المعتزلة وإن التزموا بقاعدة اللطف ولكن خالفوا مقتضاها فذهبوا في باب الإمامة إلى انعقادها باختيار الأُمة، وهذه العقيدة لا تناسب قاعدة اللطف إذ لو كان اللطف واجباً على الله لوجب عليه تبارك وتعالى أن ينصب إماماً معصوماً بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّ القاعدة تقتضي وجوب إرسال الرسل وبعث الأنبياء كذلك تقتضي وجوب نصب الإمام المعصوم أيضاً إذ الملاك في بعث الأنبياء ونصب الأوصياء واحد.

ثمّ إنّ المعتزلة لا يعتقدون بكرامة الأولياء وينكرون كثيراً من معاجز الأنبياء.

قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: هنالك دعا زكريا ربه...(سورة آل عمران: ٣٨) ما هذا نص عبارته: الثاني: وهو قول المعتزلة الذين ينكرون كرامات الأولياء، وإرهاصات الأنبياء، قالوا: إنّ زكريا عليه السلام اشتهى الولد وتمنّاه فدعا عند ذلك.

ثم ردّ عليه بقوله: اعلم أنّ حصول الزهد والعفاف والسيرة المرضية لا يدل على انحراف العادات، فرؤية ذلك لا يحمل الإنسان على طلب ما يخرق العادة... (تفسير الفخر الرازي ج٨: ص٣٥).

فالنتيجة: إنّه قد اتّضح أنّ المعتزلة كالأشاعرة يعتقدون بأنّ الإمام يختاره الناس والولي إذا تولّى الأمر لا يعترض عليه وإن صدر منه الأفعال القبيحة: كمخالفة دين الرسول مثل ترك الصلاة المفروضة، وأكل الخبائث كالخمر والميتة، وفعل الفواحش وغير ذلك من ارتكاب أنواع الظلم والفواحش... .

وهل هذا يناسب حكم العقل بعدالة الرب عزوجل؟ وهل يناسب قاعدة اللطف التي تكون مقتضاها وجوب بعث الأنبياء وانزال الكتب واستمرار هذه الدعوة الإلهية في خلفاء الرسول الذين يمثّلون الرسول الأعظم وخاتم الأنبياء والمرسلين؟!!!

التي نبّهنا في الوجه السابق عليها من خلق الله سبحانه التوحيد، والطاعات في العباد، وعدم تأثير قدرة العبد فيها، وسيأتي تفصيل البحث في ذلك[١].

---

(١) وملخّصه: أنّه اتفقت كلمات علماء أهل السنّة من الأشاعرة وأهل الحديث على أنّ أفعال العباد مطلقاً مخلوقة لله سبحانه وتعالى، واستدلوا على مدّعاهم بأدلّة:

منها: ما رواه مسلم في صحيحه عن زيد بن وهب عن عبدالله قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصادق المصدّق أنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أُمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها (صحيح مسلم ج٨: ص٤٤ / كتاب القدر / باب كيفية خلق الآدمي).

هذا الحديث صريح في أنّ الإنسان لا يقدر على إضلال نفسه ولا هدايتها، كما أنّه لا يقدر على أن يجعل نفسه أهل الجنة أو النار فكلّما أراد من شيء يكون الكتاب السابق حائلاً بينه وبين إرادته.

ومنها: ما رواه أيضاً حذيفة بن أسيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟ فيكتبان فيقول: أي رب أذكر أو أُنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله (صحيح مسلم ج٨: ص٤٥ كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي). هذا الحديث يدل على أنّ الإنسان لا يقدر على تغيير مصيره بالأعمال الصالحة والأدعية والصدقات، وإن الكتاب الذي سبق حاكم على الإنسان فلا يزاد ولا ينقص، وهو يخالف النصوص الثابتة في القرآن والسنة النبوية القطعية من تغيير المصير والزيادة والنقص على المكتوب، بالأعمال الصالحة والصدقات والأدعية، أو ينقص منه الخير بالأعمال الطالحة، وكذلك مخالف للروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فإنّها تدل على أنّ لأعمال الإنسان دور مصيري في حياتهم وآخرتهم، كما أنّ الآيات الكريمة من القرآن تدل على ذلك، فالأشاعرة الذين أخذوا معارف دينهم من خلفاء الجور لاسيما حكّام بني أُمية الذين وضعوا أحاديث الجبر لتبرير أعمالهم الشنيعة كما هو أمر مسلّم عند أهل التحقيق.

➲ قال أبو هلال العسكري: إنّ معاوية أوّل من زعم أنّ الله يريد أفعال العباد كلها (كتاب الأوائل ج٢: ص١٢٥).

ولذلك أنّ عائشة لمّا سألت معاوية عن سبب تنصيب ولده يزيد خليفة من بعده، فأجاب معاوية: إنّ أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم (الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١:ص ١٥٨).

كما أجاب معاوية نفس هذا الجواب عندما سأله عبدالله بن عمر عن ذلك واستفسر منه عن تنصيبه ليزيد، قال: إني أُحذّرك أن تشقّ عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملتهم وأن تسفك دماءهم، وإنّ أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء ليس للعباد خيرة من أمره (الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١:١٦١).

فقد كانت الحكومة الأُموية الجائرة متحمّسة على أن تثبت هذه الفكرة في المجتمع الإسلامي وكانت تواجه المخالف لها بالشتم والضرب والإبعاد.

قال الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه «نظرية الإمامة»: إنّ معاوية لم يكن يدعم ملكه بالقوة فحسب، ولكن بأيديولوجية تمس العقيدة في الصميم، ولقد كان يعلن في الناس أنّ الخلافة بينه وبين علي عليه السلام قد احتكما فيها إلى الله فقضى الله له على علي كذلك حين أراد أن يطلب البيعة لابنه يزيد من أهل الحجاز، أعلن أنّ اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة في أمرهم، وهكذا كاد أن يستقر في أذهان المسلمين، أنّ كل ما يأمر به الخليفة حتى لو كانت طاعة الله في خلافه فهو قضاء من الله قد قدّر على العباد (نظرية الإمامة: ص٣٣٤).

وقد سرت هذه الفكرة الخاطئة إلى غير الأُمويين من أتباع مدرسة الصحابة وتوسّعت وأخذت دورها في جميع الأقطار فكانت السلطة الحاكمة التابعة لمدرسة الخلفاء يستتبعون هذا النهج الخاطئ ويأمرون الناس بالتسليم له، هذا عبيدالله بن زياد قاتل الإمام الحسين عليه السلام:

أخرج ابن سعد في طبقاته: أنّه لما أدخلوا جلاوزته أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام عليه أسيراً فوجد الإمام زين العابدين عليه السلام دخل معهم في المجلس، فسأل الإمام زين العابدين، فقال له: ما اسمك؟ فقال الإمام عليه السلام: أنا علي بن الحسين، قال: أو لم يقتل الله علياً؟!!! قال الإمام عليه السلام: ➲

وعاشرها: ما ذكره بالقيل، فإنّه حجة بيّنة عليه أنّه قد زعم أنّ من خصّه الله

➲ قلت: كان لي أخ يقال له علي أكبر مني قتله الناس، قال: بل قتله الله، قال الإمام عليه السلام: الله يتوفّى الأنفس حين موتها، فأمر بقتله، فصاحت زينب بنت علي: يابن زياد حسبك من دمائنا أسألك بالله أن عزمت على قتله قتلتني معه فتركه.... (الطبقات الكبرىٰ ج ٥: ص ٢١٢).

ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج ٤١: ص ٣٦٧، وابن كثير في البداية والنهاية ج ٨: ص ٢١١ وغيرهم فقول ابن زياد: «قتله الله» إنّما هو مبني على العقيدة الجبرية الذين يستندون أفعال العباد إلى الله تعالى وإن كان فعلاً قبيحاً كالظلم والقتل وغير ذلك.

وكذلك عمر بن سعد بن أبي وقاص قاتل الإمام الحسين عليه السلام لما اعترض عليه عبدالله بن مطيع بقوله: واخترت همذان وري على قتل ابن عمك؟ فقال عمر: كانت أُمور قضيت من السماء وقد أعذرت إلى ابن عمي قبل الوقعة فأبىٰ ما أبىٰ (الطبقات لابن سعد ج ٥: ص ١٥٨).

فكان حماس الأُمويين في هذه المسألة إلى حدّ بحيث قد شاع في ألسن الخطباء والمتحدثين والمفتين والعلماء المتمايلين إليهم ذكر هذه العقيدة وبثّها بين الناس وكانت السلطة تخوّف من كان يخالفها بالوعد والإرهاب. فقد روى ابن سعد في طبقاته عن أيوب قال: ما زالت الحسن البصري في القدر غير مرة حتى خوّفته من السلطان، فقال: لا أعود بعد اليوم (الطبقات لابن سعد ج ٧: ٢٦٧).

فكان مثل الحسن البصري الذي هو من مشايخ عصره ومشاهير علمائهم وخطبائهم يسكت لهذه المسألة أمام العمّال الاجرامية للسلطة آنذاك فكيف بالآخرين من الناس الذين ليس لهم محل ومنزلة في المجمتع!!!

وقد جلد محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية المعروفة في مخالفته للقدر، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب: إنّ محمد بن إسحاق اتّهم بالقدر، وقال الزبير عن الدراوردي: وجلد ابن إسحاق يعني في القدر (تهذيب التهذيب ج ٩: ص ٣٨ـ ٤٠).

والى غير ذلك من الأخبار الواردة في المقام الدالة على أنّ أساس الجبر قد وضعه بنو أُمية فكانت هذه العقيدة جارية بالقوة والقهر في أيامهم ومن بعدها اتخذها علماء أهل السنة كعقيدة ثابتة لهم تبعاً لحُكّام بني أُمية حتى أصبحت ثابتة في كتبهم الاعتقادية وقد أعلنها الأشاعرة عقيدة ثابتة لهم، ولكن ردّ عليهم مدرسة أهل البيت عليهم السلام بأدلّة عقلية ونقلية وافية بحيث يقبلها جميع البشر وترتاح إليها النفوس، وسوف نتعرّض لها إن شاء الله تعالى مفصّلاً.

بالهدى اهتدى(١)،

---

(١) لا يخفى أنّ الهداية من الله تعالى على قسمين: هداية عامة وهداية خاصة. والهداية العـامة قد تكون تكوينية: وقد تكون تشريعية.

أما الهداية العامة التكونية فهي التي أعدّها الله تعالى في طبيعة كل موجود سواء أكان جماداً أم كان نباتاً أو حيواناً، فهي تسري بطبعها أو باختيارها نحو كمالها، والله هو الذي أودع فيها قوة الاستكمال، ألا ترىٰ كيف يهتدي النبات إلى نموه، فيسير إلى جهة لا صاد له عن سيره فيها، وكيف يهتدي الحيوان فيميز بين من يؤذيه ومن لا يؤذيه؟ فالفارة تفرّ من الهرة ولا تفرّ من الشاة مع أنّ الشاة أكبر جسماً من الهرة، وكيف يهتدي النمل والنـحل إلى تشكـيل جـمعية وحكومة وبناء مساكن، وكيف تهتدي الطفل إلى ثدي أُمه، ويرضع منه في بدء ولادته.

يقول القرآن المجيد عن لسان موسىعليه‌السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُـمَّ هَـدَىٰ﴾ (سورة طه: ٥٠) ففي هذه العبارة الموجزة إشارة إلى أصلين أساسيين من الخلقة والوجود وكل واحد منهما دليل وبرهان مستقل:

الأوّل: إنّ الله سبحانه قد وهب لكل موجود ما يحتاجه، فلو نظرنا إلى جميع الخلق من النباتات والحيوانات وغيرها سوف نرى أنّ لكل منها انسجاما تاماً مع محيطها الذي تعيش فيه، وكل ما تحتاجه فهو موجود تحت تصرفها، فإنّ هيئة الطيور قد هيئتها للطيران من ناحية شكلها ووزنها وحواسها المختلفة، وهكذا تكوين بناء الحيوانات التي تعيش في أعماق البحار.

والثاني: إرشاد الموجودات وهدايتهم نحو احتياجاتهم بأسباب مختلفة التي تهدي الى الحياة من التكاثر وتربية الأولاد وغيرها مما له دخل في إدامة الحياة.

وأمّا الهداية التشريعية: فهي الهداية التي بها هدىٰ الله جميع البشر بإرسال الرسل اليـهم وانـزال الكتب عليهم، ونصب الأئمة والخلفاء فإنّهم يتلون على الناس آيات الله ويبيّنون لهم شرائع أحاكمه ويعلمّونهم المعارف الدينية التي فيها الصلاح والسعادة الأبدية لكل إنسان.

ثم أنّه تعالى قد أتم حجته عليهم بإفاضته عليهم العقل ليميزوا بين الحق والباطل والرشد والغي، وقرن رسالة الأنبياء وأوصيائهم المرضيون بالبراهين الواضحة والمعجزات القاهرة فلم يـبق للناس عذر بعد هذه الهداية، فمن الناس من اهتدى، ومنهم من حق عليه الضلالة قـال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الإنسان: ٣) فـقد أوضـح تـعالى ⬅

➲ للناس سبيل الرشد والغي، فمن آمن فله السعادة ومن كفر فله مايترتب على كفره.

وأمّا الهداية الخاصة: فهي نوع من الهداية التكوينية والعناية الربانية التي قد خصّ الله بها بعض عباده حسب ما تقتضيه حكمته، فإنّ الله تبارك وتعالى قد يهيئ لبعض عباده مايهديهم إلى الكمال وما يصل بهم إلى المقصود، ولولا تسديده لما وصل الى تلك المرحلة، هذا وقد أُشير إلى هذا القسم من الهداية في غير واحد من الآيات المباركة، منها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩).

فلا شك أنّ طريق الحق مليء بالموانع والصعوبات، فمن العسير على الإنسان طي هذا الطريق والوصول إلى الأهداف من دون لطف الله وعنايته، ونعلم أيضاً أنّ لطف الله أكبر من أن يترك العبد في طريق الحق وحده، فعندما يجاهد الإنسان من أجل الله؛ فإنّ الله يهديه إلى طريق الحق وفي آية أُخرىٰ نقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً﴾ (سورة محمد: ١٧) فالآية المباركة تتحدّث عن المؤمنين الحقيقيين الذين استخدموا عقلهم وفطرتهم في مسير الحق، ثم أخذ الله بيدهم كما وعدهم من قبل فزادهم هدى الى هداهم وألقىٰ نور الإيمان في قلوبهم وشرح صدورهم ورزقهم البصيرة التامة لدرك الحقائق والتنبيه لها، ومن الواضح لدى الخبير أنّ المراد من هذه الهداية ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين، بل المراد منها هي ألطاف جديدة على مثل هؤلاء العباد الصالحين وهي الهداية الثانوية.

وخلاصة الكلام: إنّ الهداية والضلالة ليستا جبريتين بل إنّهما يخضعان للأثر المباشر لأعمال الإنسان وصفاته، فالأشخاص الذين جاهدوا وسعوا بجدّية في الطريق والسبيل الإلهي فمن البديهي أنّ الله سيوفّقهم ويهديهم إلى الحق. ومن شرائط هذا النوع من الهداية قطع مقدار من طريق الهداية فهو شرط للاستمرار فيه بلطف الباري عزوجل.

فنستنتج من ذلك: أنّه لو لم تكن قطع مقدار من طريق الحق الذي بينه الله تبارك وتعالى للعبد بواسطة أنبيائه المرسلين وخلفائهم المرضيين، فإنّ اللطف الإلهي من هذا النوع من الهداية الربانية لا يشمل العبد، وسوف لا يتحقّق الغرض والمطلوب.

فبملاحظة الآيات القرآنية في هذا المجال أنّ المقام واضح جداً، ولكن الذين عجزوا عن الخروج بنتيجة صحيحة من آيات الهداية والضلالة ابتلوا بالقول بالجبر لأنّهم لم يتفكّروا في الحقيقة وقد ساروا في الأوهام وتسويلات الخيال، فلاحظ.

وآية ولو علم الله... الى وهم معرضون[١] قد دلّت على ان زيادة اللطف في حق هذه الجماعة غير موجبة للهدى[٢] بل يتولون معرضين عن الهدى بعد تخصيصهم

---

(١) قال الله تعالى: ﴿لَوْ عَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنفال: ٢٣) هذه الآية والآيات التي جاءت من قبلها تدلّ على تقصير بعض المؤمنين في الطاعة وتنفيذ أوامر الله ورسوله، فتبدأ الآيات بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾، ثم تضيف لتؤكد الأمر من جديد فتقول: ﴿وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، ثم تؤكد هذا المعنى أيضاً فتقول: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَيَسْمَعُونَ﴾.

إنّ هذا التعبير يشير للذين يعلمون ولا يعملون ويسمعون ولا يتأثرون، وفي ظاهرهم أنّهم من المؤمنين ولكنّهم لا يطيعون أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذه الفقرة من الآية الكريمة «لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم...» يقول تعالى: إنّ الله تعالى لا يمتنع من دعوة هؤلاء إن كانوا صادقين في طلبهم وعلى استعداد لدعوتهم، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم فالذين سمعوا دعوة الحق قد بلغت آذانهم ذكر الحق وآيات القرآن، وفهموا مضامينها العالية ولكنّهم أنكروها بسبب عتوهم وعصبيتهم فهم غير مؤهلين للهداية لما استكبروا وتمردوا ولم يؤمنوا بالحق فهم في ظلام دامس وضلالهم بهيم.

فالآية تعدّ جواباً قاطعاً للقائلين بالجبر لأنّها تقرر أنّ الإنسان يمكنه أن يجعل نفسه قابلاً للأثر، وأنّ الله يعامل الناس بما يبدونه من أنفسهم من استعداد وقابلية في طريق الهداية. فمعنىٰ قوله تعالى: ﴿لَوْ عَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ انّه لو كان لهؤلاء قابلية فسيوصل الحق لأسماعهم، لا أنّ هؤلاء ليس لهم قابلية للهداية أصلاً فلن يستجيب لهم تعالىٰ.

وهذه المسألة تشبه من يقول: إنني لو كنت اعتقد فلاناً يستجيب لدعوتي لدعوته، لكنّه في الحال الحاضر إذا دعوته فسوف لن يستجيب لدعوتي لا أنّه ليس له قابلية لاستجابة دعوتي، ولذلك يصح أن يقال: فسوف لن أدعوه لأنّه لم يستجيب دعوتي لا أنه ليس فيه قابلية الدعوة فلاحظ.

(٢) أي حتى أنّ الهداية الخاصة لا تنفع بحال هؤلاء القوم وإن كانت الهداية الخاصة تشمل من جاهد في سبيل الله وسعى من أجل الوصول الى الحق ولكن المقصود في الآية أن المعرضين عن الحق هم يعلمون الحق ويسمعون آيات الله ولا يتأثرون بها، فهم لا يطيعون أوامر الله

بزيادة اللطف[١].

فإن قال: ليس التخصيص المشار اليه فيها وحده تخصيصاً، بل في البين تخصيص غيره متصوّر، وقد صدر، قيل له: ليس ذلك سوى ما ذهبتم اليه من خلق الهدى في العباد، وقد مضى التنبيه على فساده فيما مر، وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد[٢].

ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فالله سبحانه وتعالى يقول: لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، أي أنّهم كانوا مدعوين الى الحق ولكن يعرضون عنها ولا يهتدوا بنور الإيمان والحق.

(١) أي لم يتأثر فيهم الآيات والبراهين والمعجزات فينكرونها ويستكبرون ولم يؤمنوا بها كما أنّ قوم موسى لجؤوا إلى عبادة العجل مع ما شاهدوا بأعينهم المعجزات الكثيرة والدلائل الواضحة على نبوة موسى عليه السلام، فإنّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ ٱلسَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا ٱللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ (سورة النساء: ١٥٣).

(٢) وخلاصة ذلك: إنّ الهداية الخاصة هي العناية الربانية التي خص الله تعالى بها بعض عباده حسب ما تقتضيه حكمته، وذلك بأن يهيّأ لهم من اللطف والتوفيق ما يهتدي به العبد إلى الحقّ باختياره.

وبعبارة أوضح: إنّ العبد هو الذي يرتقي الدرجات باختياره وإنّ الألطاف الإلهية إنّما هي إراءة الطريق له، وفي بعض الأحيان فيها التنبيه والعون والأخذ باليد وأمثال ذلك ولكن الإيمان إنّما يكون باختيار العبد.

وهذه الهداية مختصة باولياء الله وهي بصيرة قلبية زائدة على أصل التصديق والإيمان فمعنىٰ هذه الهداية هو تسديدهم في مزالق الحياة والأخذ بيدهم إلى سبيل النجاة وتوفيقهم للتزوّد بصالح الأعمال فليس المراد منها إجبار الناس على أعمال الخير لأن الجبر على عمل ليس فيه خيراً لصاحبه ؛ لأنّ من يفعل الخير مجبوراً فهو ليس فاعلاً باختياره بل لا يكون العمل منسوباً إليه حيث أنّ العمل الصادر منه كالمرتعش الذي ليس له اختيار في رعشة جسمه

➲ فيكون قهراً وقصراً فلامعنى للنسبة إليه كما أنّ معنى منعهم عن الشرور ليس معناه الاّ ترك الشر بالاختيار فان هذا ينفع الإنسان ويكون امتيازاً له، وأمّا الإجبار على ترك العمل فليس من الايمان الخالص كما هو ظاهر واضح.

فيكون معنى الإضلال في هذه المرحلة هو منعهم من المواهب الإلهية وخذلانهم في الحياة. لا الإجبار على العمل أو الترك منه وسيأتي توضيح ذلك مفصّلاً في محله إن شاء الله تعالى.

قال السُّني:

الوجه الثالث: إنّ قوله: «خلق أولياء معصومين...» الى آخره.

إن أراد بقوله: إنّه نصب أولياء أمكنهم وأعطاهم القدرة على سياسة الناس حتى ينتفع الناس بسياساتهم فهذا كذب واضح وهم لا يقولون ذلك، بل يقولون أنّ الأئمة مقهورون مظلومون عاجزون ليس لهم سلطان ولا قدرة ولا مكنة، ويعلمون أنّ الله لم يمكنهم ولم يملكهم فلم يؤتهم ولاية ولا ملكاً ما أتى المؤمنين الصالحين ولا كما آتى الكفّار والفجّار.

فإنّه سبحانه كما آتى الملك من الأنبياء كما قال تعالى في داود: ﴿**وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا**﴾ وقال تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ**﴾ وقال: ﴿**وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً**﴾ وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ**﴾.

فلم يؤت الله لأحد من هؤلاء كما أُوتيه الأنبياء والصالحون، ولا كما أُوتيه غيرهم من الملوك، فبطل أن يكون الله نصب هؤلاء المعصومين على هذا الوجه.

وإن قيل المراد بنصبهم إنّه أوجب على الخلق طاعتهم فإذا أطاعوهم

هدوهم لكن الخلق عصوهم.

فيقال: فلم يحصل بمجرد ذلك في العالم لا لطف ولا مصلحة ولا رحمة إنّما حصل تكذيب الناس لهم ومعصيتهم إيّاهم.

ثم كرر ما زخرفه سابقا في حق المنتظر من عدم وجود منفعة به .... .

ثم قال: وأمّا سائر الاثنى عشر فكانت المنفعة بأحدهم كالمنفعة بأمثاله من أهل العلم والدين، من جنس تعليم العلم والتحديث والإفتاء ونحو ذلك. فتبيّن أنّ ما ذكره من المصلحة واللطف بالأئمة تلبيس محض وكذب(١).

---

(١) منهاج السنّة ج١: ص١٣١ـ١٣٢.

قلت:

في هذه الجملة من الحيف عن طريق المناظرة ما نبيّنه بوجوده:

أحدها: ما هو معلوم بل ضروري مذهب اثني عشرية الشيعة عدم كون أئمتهم أهل قدرة وسلطان وملك وليس فيهم من يخطر في قلبه ذلك نعم صارت لسيدهم وأوّلهم سلطنة ناقصة ما تركها الناكثون والقاسطون والمارقون تتم، ومثله ولده الحسن في زمان قليل، فتطويل السني البحث في هذه الجهة بعد تصديقه عنهم بأنّ أئمتهم مقهورون مظلومون ليس لهم سلطان خروج منه عن مقام البحث[١].

---

(١) وتوضيح المقام: إنّ الفرق بين السلطة الدينية وهي الولاية الإلهية وبين السلطة الحكومية وهي السيطرة على الناس بالقدرة أو الغلبة أمر لا يخفى على الخبير، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد أعطى الولاية للأنبياء ليكونوا خلفائه في أرضه من أجل إجراء العدل وإقامة القسط في المجتمع. فمثلاً: إنّ إبراهيم الخليل عليه السلام كان من الأنبياء الذين أعطاه الله الولاية فأرسله تعالى إلى الناس ليمنعهم عن عبادة الأصنام فكان له الولاية عليهم فكسّر أصنامهم وأمرهم بعبادة رب العالمين مع أنّ السلطة كانت آنذاك لنمرود الجبار، وقد واجه نمرود إبراهيم عليه السلام مواجهة عنف وقسوة فأمر الصغير والكبير والوضيع والشريف من الرجال والنساء أن يجمعوا الحطب في مكان ليجعل منها النار وليحرق إبراهيم عليه السلام فيها، وبعد تحقّق ذلك، أمر بإبراهيم عليه السلام أن يلقى في النار، فإبراهيم عليه السلام الذي كان له الولاية على الناس أخذته الحكومة المسيطرة على الناس بالقوة والقهر وألقوه في النيران، وكذلك غيره من الأنبياء العظام فقد واجهوا مواجهة

➲ حكّام زمانهم بالظلم والعدوان.

فالشيعة الإمامية تعتقد بأنّ الولاية الإلهية ليست معناه الحكومة فحسب، بل هي الولاية على الدين والدنيا فولاية الأئمة المعصومين عليهم السلام تكون كذلك فهي الولاية الكبرىٰ، وهذه الولاية لها ثلاث مراتب:

الأُولىٰ: الولاية التكوينية وهي عبارة عن تسخيرالمكنونات تحت إرادتهم بإذن الله وحوله وقوته، وحيث أنّ الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام مظاهر أسماء الله وصفاته فيكون فعلهم فعل الله وقولهم قول الله. فالله سبحانه وتعالى جعل لهم هذه الولاية بحسب ارتقاء وجودهم وتكاملهم في العلم والقدرة النفسانية والإرادة ليتصرفوا في الكون بإذن الله ليعرف الناس أنّ وراء هذا الإنسان الكامل القدرة الإلهية، فهم يتصرفون في الكون بإذن الله ومشيئته، ومن الواضح أنّ مشيئتهم تكون في طول مشيئة الله.

الثانية: الولاية التشريعية الإلهية الثابتة لهم من الله سبحانه وتعالى في عالم التشريع، وذلك بمعنى وجوب اتباعهم في الأحكام الشرعية، فهذا النوع من الولاية مستتبعة لوجوب الطاعة لهم في أوامرهم المولوية الصادرة عنهم من هذه الجهة.

الثالثة: الولاية القضائية: وهي الولاية في الحكومة والقضاء بين الناس وذلك بمعنى: أنّه يجب اتباعهم في كل شيء فهم أولى بالناس في كل شيء من أنفسهم وأموالهم، فلا يصح أن يقوم مقامهم أحد من الناس إلّا بإذنهم ونصبهم.

ولذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل الناس يوم غدير قائلاً: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه (مسند أحمد بن حنبل ج٤: ص٣٧٢). فجعل الولاية الإلهية الثابتة له من الله تعالى للإمام أمير المومنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وسيأتي تفصيل الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

وعليه: فإنّ هذه الولاية مجعولة لهم من قبل الله تعالى فلا يسلب عنهم أبداً وإن كان الحكّام والمتسلّطين لم يسمحوا لهم إجراء ولايتهم في بعض مراتبها، الثابتة لهم إلّا أنّها لا تفارقهم أبداً، فإنّ سلب يدهم من الحكومة والقضاء ونحو ذلك تكويناً لايوجب سلب ولايتهم التي أعطاهم الله سبحانه، فإنّ الولاية الإلهية غير قابلة للعزل كما أنّ النبوة تكون كذلك فولاية ➲

وثانيها: ما زعمه من كذب وتلبيس من قال بحصول اللطف والمصلحة بوجود المعصومين، فإنّه إمّا جهل منه بمحل البحث وإمّا تجاهل منه، وخروجه بأحد هذين عن مقام المناظرة؛ فإنّ معنى اللطف هو عبارة عن: فعل ما يقرّب به العبد إلى الطاعة، ويبعّد عن المعصية[١]، وذلك يحصل بوجود معصوم يهدي الى

أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام على غرار الأنبياء عليهم السلام وسيأتي تفصيل الكلام حول هذا الموضوع إن شاء الله تعالى.

(١) وبعبارة أُخرىٰ: إنّ اللطف بمعنى فسح المجال أمام المكلف بنية حصول الطاعة والابتعاد عن المعصية؛ فإنّه تعالى يتلطّف على العبد ـ وراء إعطائه القابلية والقدرة له ـ بإرسال الرسل ونصب الأئمة المعصومين وتشريع الأحكام التي فيها صلاح الناس وسعادتهم ونجاتهم من الهلكات والدركات فبالتكاليف المتوجّهة إليهم يوجب سعادتهم لا أن تسلب منه القدرة على العمل؛ فإنّ القدرة شرط عقلي للإتيان بالتكاليف المتوجّهة إليهم ولولاها لقبح التكليف.

وعلى ضوء ذلك يتضح الأثر في حكمة الله تعالى من اللطف على عباده إذ لما اقتضت حكمته البالغة خلق العباد وتوجه التكليف اليهم فكان من اللازم عليه أن يرغّبهم نحو ما أمرهم به وابتعادهم عما نهاهم عنه.

ثمّ إنّ مظاهر اللطف الإلهي كثيرة، منها: انزال الكتب السماوية، ومنها: إرسال الرسل، ومنها: تعيين الأئمة والحجج من بعد الرسل، ومنها: بيان التكاليف الشرعية و... ومن أنواع اللطف: إتمام الحجة على المكلفين إذ لا يمكن أن يعذّب الله أحداً قبل أن يبين لهم ما يجب عليه؛ فإنّ العقل يحكم بقبح العقاب بلا بيان كما صرّحت الآيات الكريمة في القرآن بأنّ سنّة الله اقتضت أن تبين أحكامه ثم يجازي الذين يخالفون أمره فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (سورة الإسراء: ١٥).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَايَتَّقُونَ﴾ (سورة التوبة: ١١٥) فهذه الآيات تؤيد حكم العقل بقبح العقاب بلا بيان حيث صرحت بأنّ العذاب إنّما يشمل المخالفين بعد بيان ما هو الواجب عليهم.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ التكليف يتوجّه إلى المكلف بعد بيانه، فعند ذلك يكون رافعاً لحكم العقل بقبح

طاعة الله بالحكمة والموعظة الحسنة(١)،

➲ العقاب فالعذاب بدون بيان قبيح ويستحيل على الله تعالى لأنه تبارك وتعالى عادل حكيم لا يفعل القبيح.

ثم إنّ الظاهر من إطلاق قوله تعالى: (وما كنا معذبين...) (سورة الإسراء: ١٥) يشمل جميع أُصول الدين وفروعه، فإنّ العقاب بدون البيان يعتبر لدىٰ العقلاء ظلماً والله سبحانه هو الحكيم، ومحال أن يفعل ذلك أبداً. فانقدح مما تقدّم إنّ معنى وجوب اللطف على الله ليس هو الوجوب الشرعي بل معناه الوجوب العقلي أي إدراك العقل حسن الشيء وقبحه، مثلاً: إنّ العقل يحكم بحسن أداء الأمانة والإحسان والوفاء بالعهد وأمثال ذلك، وبقبح الخيانة والظلم وخلف الوعد وأمثال ذلك، فإنّ ذلك إدراك لا إلزام وإنّما الإلزام ينتزع من ذلك بعد كونه حكماً شرعياً وفي المقام فالعقل يحكم مستقلا بأنّ الحكيم لا يعذّب أحداً إلّا بعد بيان الحكم وإنزال الكتب وإرسال الرسل وإقامة الحجة على الناس لئلّا تكون للناس حجة بعد الرسل، لأنّ العذاب بدون إتمام الحجة ظلم قبيح لا يفعله الحكيم، وهذا معنى وجوب اللطف على الله، فلاحظ.

(١) فإنّ وجود المعصوم في كلّ عصر وزمان سبب لهداية الناس وعدم وقوعم في الضلالة، لأنّ المعصوم يعصم الأمة من الضلال إن هم تمسّكوا بأقواله وأفعاله وتقاريره، وما يصدر منه، فهو أُسوة وقدوة في جميع ذلك وهو السبيل إلى الله ولذلك قال تعالى: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**...﴾ (سورة يوسف: ١٠٨) فإنّ هذا المنهج المتخذ من القرآن الكريم لابد أن يتبع في كل عصر وزمان لأنّ الوصول إلى ما دعىٰ به الله عز وجل ـ إنّما يحصل بالبصيرة والبصيرة إنّما تتحقّق بوجود المعصوم فحاجة الناس إلى المعصوم مستمرّة في كلّ عصر وزمان حيث أنّ البصيرة لابدّ من تحصيلها للنيل إلى سبيل الله عز وجل ومن الواضح أنّ الدعوة إنّما تنتج البصيرة إذا كانت عن حكمة كما قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**....﴾ (سورة النحل: ١٢٥) والمراد بالحكمة هي المقالة الحسنة المحكمة الصحيحة التي تزيل الشبهة وتوضّح الحق، والموعظة هي النصيحة والدعوة السليمة نحو الرشد التي يستحسنها كل عاقل في نفسه، إذ قد تكون النصيحة في جهة عكس الرشد، فكم من موعظة أعطت عكس ما كان يؤمل بها بسبب أُسلوب طرحها الذي يشعر ➲

فوجوده لطف ورحمة(١).

⮊ الطرف المقابل بالحقارة والإهانة، وذلك كأن تكون الموعظة أمام الآخرين ومقرونة بالتحقير أو يُستشم منها رائحة الاستعلاء في الموعظة، فتأخذ الطرف المقابل العزة بالإثم ولا يتجاوب مع تلك الموعظة.

فبملاحظة الى هذه الجهة أنّ الحكمة الإلهية اقتضت وضع طريق آخر للبشر بأن تكون بيان الحكمة والموعظة بوجود المعصوم الذي يعرف واقع الأُمور فيبيّن للناس ما وصل إليهم عن طريق الوحي ليستنقذ عباده من الضلالة والجهل وليصل بهم إلى السعادة والكمال النهائي مع وجود أصل القابلية في النفوس ولابدّ للمعصوم أن يستخرج هذه الجوهرة من صميم وجودهم.

فالحكمة الإلهية اقتضت وضع طريق للبشر ـ غير الحس والعقل ـ من أجل التعرّف على مسار الكمال في كل المجالات حتى يستطيع البشر الاستفادة منه للوصول الى معرفة الله وعبادته بأقرب الطرف.

ثم إنّ كل ما دلّ على وجوب النبوة فهو دال على وجوب الإمامة أيضاً في هذه الجهة إذ المفروض وجود المعصوم طريق وسبيل للوصول إلى السعادة فهذا الملاك سارٍ وجارٍ في وجود الإمام المعصوم بعد ختم الأنبياء والمرسلين فإنّه الطريق والسبيل الى الله سبحانه إذ الإمامة خلافة ونيابة عن النبيﷺ في جميع الجهات إلّا في تلقّي الوحي الإلهي بلا واسطة لأنّ الوحي انقطع بوفاة سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين ﷺ، وكما أنّ ذلك واجب على الله تعالى كذلك.

(١) إذ من الواضح أنّ الإمام يدعو الخلق إلى الصلاح ويمنعهم عن الفساد ويقيم فيهم الحدود والأحكام، فإذا كان في الناس إمام يمنعهم من القبائح ويحثّهم على مافيه سعادتهم وخيرهم ومصلحتهم ونجاتهم وعزتهم وكمالهم الدنيوية والأُخروية كان حالهم في أتمّ الحالات من جهة الصلاح والفلاح ودفع الشرور والآفات؛ فإنّ العقلاء متفقون على حسن وجود الإمام الذي يصلح أمر العباد من جهة معاشهم ومعادهم ويبعدهم عن الفساد والظلم، فوجود الإمام لطف من الله تعالى ورحمة للناس جميعاً إذ به يتم الحجة على الناس، وهذا ما أشار إليه مولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام في خطبته الغراء حيث قال: لا تخلو الأرض من ⮈

أمّا علم السُّني من كتاب الله سبحانه بأنّ بعث خير رسله رحمة للعالمين[(١)]،

➲ قائم بحجة ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلّا يبطل حجج الله وبيّناته (أُنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٨: ص٣٥١، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج٥٠: ص٢٥٥، والمناقب للخوارزمي: ص٣٦٦ وغير ذلك).

فوجود الإمام لطف من الله تعالى في حق العباد وهذا اللطف لازم وواجب لأنّ اللطف منه عبارة: عمّا يقرّب العبد إلى الطاعة ويبعّده عن المعصية، وبالضرورة إنّ ما يقرّب العبد إلى الله هو سبب لكماله ونجاته في الدنيا والآخرة، فنصب الإمام يكون لطف في حق العباد لأنّ بالإمام تتحقّق الطاعة الإلهية وكل الكمالات والسعادات إنّما هي مطوية في طاعة الله وعبادته لأنّ العبادة سبب للتقرّب الى المعبود وكلّما اقترب الناس الى كمال المطلق ومطلق الكمال يحصل له إنارة في نفسه ويقتبس من صفات الكمال والجمال ويبتعد عن الأهواء والشهوات والاتجاهات المضلة فالهدف من العبادة هو كمال النفس، فوجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان سبب لارتقاء العباد وتقرّبهم الى الله ووصولهم إلى الكمال، وهذا لطف رباني لجميع البشرية.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧) فإنّ الله سبحانه وتعالى قد بيّن في هذه الآية المباركة حقيقة مكنونة عالية بشكل رائع وهي: إنّ بعثة رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء رحمة لجميع بني آدم سواء كانوا مؤمنين أو كافرين فإنّهم جميعاً مشمولين لرحمته ﷺ لأنّه ﷺ قام بنشر الدين الذي يحتوي على إنقاذ البشرية بأجمعها وإنّ عدم تشرّف بعض الناس بالإسلام لا يخدش في عمومية الرحمة بالنسبة إلى جميع الخلائق.

وإذا أردنا أن نعرف معنى قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ لابد أن نعرف معنى قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٦) لأنّ بعثة النبي الأكرم ﷺ إنّما هي من ألطاف رب العالمين التي تكون شاملة لجميع الخلق مادية ومعنوية فلاتختص بقوم دون قوم، وإنّما يتمتع به من عرف قدر هذه النعمة العظيمة.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ باب هذه الرحمة مفتوحة لجميع الناس بل لجميع الخلق فمن لم يشمله هذه العناية الربانية إنّما لعدم إرادة دخوله في حصن الرحمة الارلهية، حيث أنّ أبواب الرحمة ➲

ولطف بهم، ولم يؤمن به سوى شرذمة قليلة[١] بعد تمام الصدمات والزحمات،

كانت مفتوحة له وكانت تنتظر دخول جميع الناس ولكن الكافرين هم أنفسهم أعرضوا عنها ولم يدخلوا فيها، وذلك دليل على تقصيرهم لا محدودية الرحمة، وهذا يشبه تماماً بأن يؤسس جماعة مستشفى مجهزة لعلاج كل الأمراض وفيها الأطبّاء المهرة، وأنواع الأدوية، ويفتحوا أبوابها بوجه كل الناس بدون تمييز، أليست هذه المستشفىٰ نفعاً ومنفعة لكل أفراد المجتمع؟ فإذا امتنع بعض المرضى العنودين من قبول هذا الفيض العام فسوف لا يؤثر في كون تلك المستشفىٰ عامة المنفعة.

وبتعبير آخر: إنّ وجود النبي ﷺ رحمة للعالمين له صفة المقتضي وفاعلية الفاعل، ومن المسلّم أنّ فعلية النتيجة لها علاقة بقابلية القابل.

فإنّ التعبير بـ «العالمين» له إطار واسع يشمل كل البشر على امتداد الأعصار والقرون، ولهذا يعتبرون هذه الآية إشارة إلى خاتمية نبي الإسلام ﷺ لأنّ وجوده رحمة للجميع من الأوّلين والآخرين وحتى هذه الرحمة تشمل الملائكة والجن وسائر المخلوقات أيضاً.

ففي حديث عن النبي ﷺ لمّا نزلت هذه الآية سأل النبي ﷺ جبرئيل فقال: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ فقال جبرئيل: نعم إني كنت أخشى عاقبة الأمر، فآمنت بك لثناء أثنى الله تعالى عليَّ بقوله عزوجل: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ«٢٠» مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (سورة التكوير: ٢٠) (تفسير السمرقندي ج٢: ص٤٤٥).

وعلى كل حال، فإنّ من أراد أن يعرف معنى هذه الآية الكريمة لابد أن يعرف أولاً معنى الإسلام ثم يعرف وضع المجتمع الإنساني في عهد الجاهلية ويعرف الأديان والملل ثم يعرف النبي الأكرم ﷺ ويعرف أوصافه وآثاره من سننه وسيرته ليعرف معنى قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ من هذه الآية المباركة، فلاحظ.

(١) إنّ ألطاف النبي الأكرم ﷺ على أُمته وشمول رحمته لهم والاعتناء الخاص بمصالحهم والتحذير عما يضرهم إنّما يكون أمراً يعجز اللسان عن ذكرها، فكان ﷺ في الإشفاق على أُمته كالأب الشفيق على أولاده، الذي لايرضىٰ بوقوع أي حرج بالنسبة الى أولاده وهذا أمر واضح جليّ يعرفه من له الاطلاع عن حياة النبي الكريم ﷺ ويكفي للباحث ملاحظة التأريخ وأحوال النبي ﷺ في جميع أدوار حياته لاسيما في السنوات الأُولى من بعثته

الشريفة عندما أعلن دعوته إلى الإسلام وواجهه قريش مواجهة العنف والإنكار عما جاء به من قِبَل ربه حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر: ٩٥) هذه الآية الكريمة قد نزلت بعد أن قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث سنوات في الدعوة السرّية ولم يؤمن به إلّا القليل من المقرّبين إليه.

وأوّل من أسلم وآمن به من الرجال فهو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما ذكره الطبراني في كتاب الأوائل: ص٨١، ومن النساء خديجة الكبرىٰ كما في المستدرك للحاكم النيسابوري ج٣: ١٨٤.

ومن البديهي أنّ الدعوة إلى التوحيد الخاص إنّما كانت مصاحبة مع تحطيم نظام الشرك وعبادة الأصنام، ففي تلك الظروف العصيبة قد بدت منهم الأذى لشخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وقد سجّلها التاريخ في صفحاته السوداء.

وقد عقد ابن الأثير فصلاً خاصاً لهذا الموضوع وذكر فيه أسماء أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مكة، وبيّن فيه أنواع إيذاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فللقارئ الكريم أن يراجع الكامل لابن الأثير: ج٢: ص٤٧.

كما عقد العلّامة المجلسي (رحمه الله) في كتابه بحار الأنوار باباً خاصاً بعنوان: باب المبعث وإظهار الدعوة وما لقى صلى الله عليه وآله وسلم (لاحظ البحار ج١٨: ص١٤٨ـ٢٤٣).

ونحن نذكر هنا بعض تلك الموارد من باب المثال: فمن تلك الموارد ماورد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يطوف ذات يوم حول الكعبة فشتمه عقبة بن أبي معيط وألقى عمامته في عنقه وجرّه من المسجد فأخذوه من يده (أُنظر: السيرة الحلبية ج١: ص٢٩٣) وكان صلى الله عليه وآله وسلم يوماً جالساً على الصفا فشتجه أبو جهل ثم شج رأسه. قال حمزة بن عبدالمطلب:

لقد عجبت لأقوام ذوي سفه ... من القبيلين من سهم ومخزوم

القائلين لما جاء النبي به ... هذا الحديث أتانا غير ملزوم

فقد أتاهم بحق غير ذي عوج ... ومنزل من كتاب الله معلوم

من العزيز الذي لا شيء يعدله ... فيه مصاديق من حق وتعظيم

(مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج١: ص٥٢).

وقتل جماعات من عباد الله وخيار خلقه[١].

ونظائر هذه القضايا كثيرة فللباحث أن يراجع كتب السيرة والتاريخ ولو تأمّل فيها كل إنسان يذعن بأنّ تحمّل تلك الشدائد خارج عن طاقة الإنسان وإنّما هو إعجاز من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ ثبات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته في أوائل بعثته والسعي وجهده البالغ في تحقيق أهدافه قد أدت إلى هداية جماعة لا يتجاوز عددهم من عدد الأصابع وهم الذين ذكرهم التاريخ بأسمائهم كبلال وآل ياسر وأبي ذر وغيرهم، فإنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم مع ما كان يرى من الأذىٰ والتعذيب كان يقول دائماً: «اللهم أهد قومي فإنّهم لا يعلمون» فكان يريد لهم من الله الرحمة بدل العذاب ولا يتصوّر فوقها رحمة فلاحظ.

(١) ينبغي هاهنا أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى بعض ما تحمّلها أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى حينما آمنوا بالله ورسوله حقاً، فمنهم بلال الحبشي، وكان أبوه ممن أُسر في الجاهلية وجيء به من الحبشة إلى الجزيرة العرب ثم إلى مكة.

وأمّا بلالاً ـ الذي أصبح فيما بعد مؤذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقد كان غلاماً لأُمية بن خلف الذي كان من أشدّ أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحيث أنّ عشيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تولّتِ الدفاع عنه صلى الله عليه وآله وسلم وحمايته ولم يمكن لأُميّة إلحاق الأذىٰ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولذلك عمد إلى تعذيب غلامه بلال ـ الذي أسلم أمام الناس ـ بأشد الأذىٰ والتعذيب انتقاماً وتشفّياً لغيظه.

فقد كان يطرح بلالاً عارياً على الأحجار والصخور الملهّبة في الهاجرة ويضع صخرة على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمَّد وتعبد اللات والعزّىٰ، فيقول: وهو في ذلك البلاء والمحنة الشديدة: أحد أحد (أُنظر: السيرة النبوية لابن هشام ج١: ص ٢١٠).

ولقد كان ثبات هذا الغلام وصبره على الأذى بدرجة حتى أن ورقة بن نوفل مرّ عليه وهو يعذّب وهو يقول أحد أحد أقبل على أمية ومن يصنع به من بني جُمح فيقول له: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذته حناناً أي لأجعلنّ قبره متبرّكاً ومزاراً (السيرة النبوية لابن هشام ج١: ص ٢١٠).

وربما زاد أُمية من تعذيبه لبلال من فرط غيضه فكان يربط حبلاً بعنقه ويجعل الصبيان يديرون به في الأزقة والسكك (أُنظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣: ص٢٣٣).

وقد أُسر أُمية وابنه في معركة بدر وكانا أوّل من أُسرا من المشركين ولم يوافق بعض المسلمين

➲ على قتلهما ولكن بلالاً قال: رأس الكفر أُمية بن خلف لا نجوت إن نجا وأدّى إصرار بلال على قتلهما إلى قتل أُمية وابنه جزاء أعمالهما الظالمة. (السيرة النبوية لابن هشام ج٢:٤٦١).

ومنهم: آل ياسر، كان عمّار ووالداه من السابقين إلى الإسلام فهم أسلموا يوم كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلتقي بأصحابه ويدعوهم إلى الإسلام في بيت الأرقم بن الأرقم وعندما عرف المشركون بإنضمامهم إلى صفوف المسلمين عمدوا إلى إيذائهم وتعذيبهم ولم يألوا جهداً في ذلك أبداً.

وكان المشركون يخرجون عمّاراً وأباه ياسر وأُمه سُمية في وقت الظهيرة إلى رمضاء مكة ليقضوا ساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة وفوق الرمال الملهّبة والصّخور المفتدة في لظىٰ الرمضاء كأنّها الجمرات، وقد تكرر هذا التعذيب مرّات عديدة حتى أدىٰ إلى استشهاد ياسر فقضىٰ نحبه على تلك الحالة مظلوماً صابراً محتسباً.

وقد خاشنت زوجته سُمية أبا جهل وكلّمته في زوجها بغليظ القول فطعنها اللعين برمح في قلبها فقضت نحبها مظلومة مقهورة، وهما أوّل من استشهدا في سبيل الإسلام (أُنظر: السيرة الحلبية ج١: ص٣٠ و بحار الأنوار ج ١٨: ص٢٤١).

ولما وصل خبر شهادة ياسر وسُمية إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هاج به الحزن فبكى بكاءً شديداً، ثم أخذ صلى الله عليه وآله وسلم يسلّي عمّاراً ويصبّره على فقدان والديه ودموعه تنحدر من خدّيه ويقول: (صبراً فإنّ موعدكم الجنّة) (أُنظر: السيرة الحلبية ج١: ص٣٠٠).

ثم بعد استشهاد ياسر وزوجته بادرت كفار قريش إلى تعذيب عمار وإيذائه والتنكيل به، فأخذوا يعذّبونه على نحو ما كانوا يعذّبون به بلالاً وهم يقصدون قتله وإلحاقه بأبويه أو أن يتبرّأ من دين النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاضطر إلى أن يعطيهم ما يريدون ويظهر الرجوع عن الإسلام إبقاءً على نفسه وتقيّة منهم فتركوه وانصرفوا عن قتله، ولكنه سرعان ما ندم على فعله من الإظهار بترك الإسلام وتألّم من ذلك فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكي فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال: إن عادوا فعُد، فنزلت الآية المباركة: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ ❁ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (النحل: ١٠٥ و ١٠٦ وأُنظر: تفسير الدرّ المنثور للسيوطي ج٤: ➲

أما عَلِمَ بأنه لطف ورحمة[1]،

ص١٣٢ في ذيل الآيتين المذكورتين فإنّ الله تعالى قد أيد إيمان عمّار بهما).

وقد تكررت أمثال هذه الأعمال القاسية كثيراً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى استشهد منهم جماعة كآل ياسر وتحمّل الباقي أنواع التعذيب وأنحاء المشقة والأذىٰ والتنكيل والسخرية وغير ذلك.

ومن الواضح أنّ إيذاء المسلمين في الواقع كانت إيذاءً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم كانوا يعلمون حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما له من الرأفة والرحمة فكانوا يتبادرون الى ذلك إيذاءً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المرتبة الأُولىٰ، وكان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يتحمّل كل هذه المصائب والشدائد وكان يقول: «اللهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون».

(١) فإنّ من الرحمة الإلهية واللطف الرباني على العباد توفيقهم لنصرة الدين والجهاد في سبيل الله والصبر على تحمّل الأذى في سبيله، فقال في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّي ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (سورة الزمر: ١٠).

وقد ورد في حديث معروف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: قال الله عزوجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر... (أُنظر: صحيح البخاري ج ٤: ص٨٦ كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة) ورواه ابن أبي الجمهور الأحسائي في كتاب غوالي اللآلي ج٤: ١٠ ح ١٤٨ والعلامة المجلسي في بحار الأنوار ج٨: ص٩٢ بطرق عن رواة الشيعة.

فاختصاص هذا المقام العظيم لبعض المسلمين الذين ضحّوا بأنفسهم من أجل تثبيت دعائم الإسلام إنّما هو توفيق من الله سبحانه وتعالى لأنّه بجهودهم العالية انتشر تقوىٰ الإسلام وانتشرت معارف الدين فإنّ معرفة الناس بدين الإسلام إنّما هو ببركة دماء شهدائها، وهذا لطف ورحمة من الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلأَرْضُ وَلٰكِنَّ ٱللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ**﴾ (سورة البقرة: ٢٥١) فالآية الكريمة تشير الى قانون كلي: بأنّ الله لا يحب سريان الفساد وسرايته إلى المجتمع البشري قاطبة، فيحب الله المؤمنين المخلصين الذين يقفون أمام الطواغيت لاعتلاء كلمة التوحيد والحق.

والحال هذه[١]، وهذه حال غيره من الرسل مثل: نوح وإبراهيم وزكريا ويحيىٰ وموسى وعيسى عليهم السلام[٢].

⬅ وهذه من ألطاف الله على عباده المخلصين الذين يحقّقون الإرادة الإلهية بجهودهم في الأرض.

وشبيه هذا المعنى ورد في سورة الحج وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحج: ٤٠) فهذه الآية المباركة في الحقيقة بشارة للمؤمنين الذي يجاهدون في سبيل الله ويقفون أمام الطواغيت ويدافعون عن الدين الحق، فالآية تبشرّهم وتقول لهم: لولا جهودكم لهدّمت المعابد والمساجد التي يذكر فيها اسم الله، لأنّ من أهداف الطواغيت أن لا يعبد رب العالمين، وإنّما يريدون أن يكون الناس عباداً لهم ولكن الله تبارك وتعالى وعد المؤمنين المجاهدين في سبيل الله بالنصرة، ولا شك في إنجاز هذا الوعد الإلهي، لأنّه تبارك وتعالى قوي عزيز؛ فإنّ قوته وقدرته فوق جميع القدرات فوعدهم بالنصر وأكد بأنّه سينصرهم بلا ترديد فهذه النصرة لطف إلهي يشمل المؤمنين المجاهدين، فلاحظ.

(١) فإنّ وجود الإمام المعصوم لطف ورحمة ونعمة من الله تعالى على عباده وخلقه؛ إذ من الواضح أنّ تمام أنواع الفيض الإلهي إنّما تنزل على الناس بواسطة الإمام المعصوم فالسعادة والنجاح لا يمكن إدراكهما إلّا عن طريق قادة الحق، وقد ورد في الحديث: أنّه لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت (بصائر الدرجات: ص٥٠٨ ح ١٠).

فالإمام قلب عالم الوجود وقائد البشرية ومربّيها، والمستفاد من الحديث الشريف أنّ وجود الإمام لطف ظاهراً كان أو غائباً إذ لو لم يكن لساخت الأرض بأهلها، ولذلك قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة اما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلّا تبطل حجج الله وبيّناته... (نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٤٧).

(٢) فإنّ كلّ متتبّع يعلم بالضرورة أنّ من ألطاف الله عزوجل علىٰ البشرية إرسال الأنبياء وهداية الناس إلى الصراط المستقيم والحث على السير على هذا السبيل قال تعالى: ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى ٱللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ...﴾ (سورة يوسف: ١٠٨) فجعل تبارك وتعالى المعصومين قدوة ليؤمن الناس بهم.

⬅

أما عَلِمَ بأنّ جعل موسى أخاه هارون خليفة على قومه لطف ورحمة، وقد عصوه بعبادة العجل[1]؛ فالله سبحانه يقول لمن عصىٰ رسله عليهم السلام وخلفائهم عليهم السلام: لِمَ

➲ فلا شك أنّ هذه العناية الربانية من أكبر ألطافه سبحانه وتعالى على البشرية، حيث أنّ المعصوم مأمون من جميع الهلكات والضلالات فالنفوس أشد سكوناً إليه وأطوع وثوقاً له، فعلىٰ سبيل المثال: إنّ نوح عليه السلام قد بعثه الله تعالى لأُمته ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والتقوىٰ والعلم والتوفيق والسعادة و.... .

وقد بلغ شيخ الأنبياء طيلة مئات السنين ونصح ووعظ وأظهر علمه ومعجزاته للخلق فلم يتعظ ولم يؤمن به إلّا عدد قليل وعندما يئس من هداية قومه دعا عليهم بالهلاك، فيقول القرآن عن لسانه في قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً﴾ (سورة نوح: ٢١) وفي آية اخرىٰ قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (سورة نوح: ٢٦ و٢٧).

فاستجاب الله دعائه فأخذهم الطوفان وأُغرقوا ولم يبق منهم إلّا عدد قليل ممن آمن به وركب السفينة، وهكذا الأمر بالنسبة إلى سائر الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم الصالحين عليهم السلام إلّا أنّ نبي الإسلام وخلفائه المعصومين لم يدعوا على أُمتهم بالعذاب وكان إيذاء أُمة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أشد من إيذاء الأنبياء، فإنّه قد ورد في الحديث المتفق عليه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت (أُنظر: منال آل أبي طالب ج٣: ص٢٤٧، وكشف الغمة ج٢: ص٥٣٧، والتمحيص لمحمد بن همام الإسكافي: ص٤، وفتح الباري لابن حجر ج٧: ص١٣٦، والجامع الصغير للسيوطي ج٢: ص٤٨٨ ح٧٨٥٢ و٧٨٥٣ وغيرهم) وعلى كل تقدير فإنّ تحمّل الأذىٰ في سبيل الله درجة عظيمة للأنبياء وأوصيائهم المرضيين، فلاحظ.

(١) قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ﴾ (سورة مريم: ٥٣) هذه الآية الكريمة نصّ صريح في أنّ موسى عليه السلام كان نبياً ورسولاً وأخاه هارون كان نبياً يساعده في الدعوة الى الله رحمة منه تعالى على بني إسرائيل.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾ (سورة الفرقان: ٣٥) ➲

عصيتموهم وهم رحمة لكم ولطف، يقودونكم الى الطاعة بالحكمة والموعظة الحسنة[١]، فعند ذلك تأخذهم هذه الحجة القاطعة الساطعة، فليس لهم عذر به

وفي هذه الآية وآيات أُخرىٰ أنّ الله تعالى صرّح بأنّه قد شدّ عضد موسى بأخيه هارون وجعله وزيراً له فاستخلفه موسى وعندما أراد موسى عليه السلام الذهاب إلى ميقات ربّه جعل أخاه هارون خليفة وحجة عليهم كما أنّه كان حجة الله ووعدهم أن يعود بعد ثلاثين ليلة ولكن الله تعالى أتمهنّ بعشر، فلما رجع موسى وجد قومه قد كفروا بالله العظيم وتركوا خليفته هارون وعكفوا على العجل الذي صنعه السامري، فاستضعفوا هارون وأطاعوا السامري، فلمّا رأى موسى ذلك قال: بئسما خلفتموني.... (سورة النساء: ١١٤) والى آخر القصة.

فإنّ من الواضح ان أصحاب موسى عليه السلام قد خالفوا أمر نبيّهم الذي كان من أُولي العزم وتركوا وصيّه وخليفته واتبعوا المضلّين عند غيبة موسى في أيام قليلة ليس أكثر من شهر ونصف مع رجاءهم لعود موسى عليه السلام اليهم وعلمهم بأنّه إن وجدهم على تلك الحالة سوف يؤاخذهم ويوبّخهم على ترك الشريعة والإعراض عن خليفته ومع ذلك كلّه قد خالف قوم موسىٰ نبيهم وتركوا خليفته وارتدّوا عن دينهم وأخذوا يعبدون العجل من دون الله وذلك بعدما شاهدوا المعجزات والآيات الكثيرة من موسى عليه السلام.

ومن هنا يظهر أنّ الارتداد بعد النبي المرسل الذي جاء من قبل الله بمعجزات وآيات كثيرة ليس أمراً غريباً مستبعداً بالنسبة الى سائر الأُمم وكذا بالنسبة الى أُمة خاتم الأنبياء والمرسلين ولأجل إيقاظ المسلمين وتحذيرهم عما وقع في الأُمم السابقة انّ الله تعالى قد ذكر قصة موسىٰ وارتداد بني إسرائيل في مواضع عديدة من القرآن الكريم ليكن بذلك إتماماً للحجة وقد بيّن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مقام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حديث متفق بين جميع المسلمين قائلاً للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: أنت مني بمنزل هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي (أُنظر: صحيح ابن حبّان ج١٥: ص٢٦٩).

(١) لقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته المباركة إلى أنّه سبحانه أرسل أنبيائه وأصفيائه وأنزل معهم الكتاب وأودع في قلوبهم الأسرار والحقائق ليرشدوا عامة الناس إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

قال لله تعالى مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ

➲ ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٢٥) فإنّ الحكمة بمعنى العلم والمنطق والاستدلال القوي إذ الحكمة بمعنى المستحكم الحصين فأوّل خطوة على طريق هذه الدعوة هي التمكّن من الاستدلال وفق المنطق السليم لأنّ دعوة الأنبياء متوجّهة إلى جميع أصناف الناس الذي فيهم العالم والجاهل والذكي والبليد وغير ذلك، فلابد أن يكون الاستدلال نافذ ومقبول عند الكلّ.

فالموعظة الحسنة هي مراعاة أُصول الأدب والعفة في البيان واستعمال جميع الفنون والأساليب الطيبة لتجذيب الناس على حسب اختلاف أفهامهم واستعداداتهم المختلفة، فهي مؤثرة في النفس المستعدة لقبول الحق، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم: ٤) فإنّ التبيين بمعنى إزالة الإبهام وكشف الحقيقة، فالعلة في إرسال الرسل بلسان قومهم هي تبيين الحقائق للناس، وبعد وضوح كلّ شيء لهم من الخير والشر، فإنّ الناس هم مخيّرون في انتخاب الطريق إن شاؤوا اتّخذوا طريق الهداية والسعادة، وإن شاؤوا اختاروا طريق الغي.

قال الله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (سورة الأنفال: ٤٢) فالمراد بالحياة والهلكة هنا هي الهداية والضلالة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (سورة المزّمّل: ١٩) فلا فضيلة في اتخاذ الطريق الى الله بالإجبار والإكراه بل الفضيلة أن يختار الإنسان السبيل بنفسه وبمحض إرادته.

وخلاصة الكلام: إنّ الهداية الإلهية تكون بإرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك مما يتم الحجة على الناس، فقال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ﴾ (سورة غافر: ٢٢).

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حمِيدٌ﴾ (سورة التغابن: ٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (سورة فاطر: ٢٥ و ٢٦). والى غير ذلك من الآيات المباركة.

➲

يعتذرون(١).

➲ فقد أتم الله سبحانه الحجة على العباد ببعث الأنبياء والرسل ولكن أكثر الناس لم يؤمنوا بهم إيماناً صادقاً ولم يشكروا نعمة الله عليهم، وهكذا الأمر بالنسبة إلى أوصياء الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام من بعدهم؛ فإنّ الله تعالى قد أتمّ نعمته على البشرية بإكمال دينه وتنصيب الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي‌طالب عليه السلام إماماً وخليفةً ووليًّاً للمؤمنين بعد نزول الأمر الإلهي بذلك على خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة وفي العام العاشر من الهجرة، وكان ذلك في غدير خم أثناء رجوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من حجة الوداع.

فقد أخرج علماء الإسلام هذه الواقعة العظيمة في كتبهم التفسيرية والروائية والتاريخية وغير ذلك، بحيث لا يخلو مصدر من مصادر علماء الإسلام من ذكرها، وسيأتي ذكرها مفصّلاً إن شاء الله تعالى، ولكن مع ذلك كله أنّ أكثرية المسلمين لم تعرف قدر هذه النعمة العظيمة كما أنّ الأُمم السابقة لم تعرف قدر نعمة أنبيائهم وهذا أمر صرّح به القرآن الكريم والتأريخ فلاحظ.

(١) حيث أنّ حكمة الله البالغة قد اقتضت قيام الحجة على الناس دائماً لئلّا يقولوا بعدها إنّا كنا عن هذا غافلين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٩) فإنّ الحجة من «الحج» والحج بمعنى القصد وقد تطلق على الطريق الذي يقصده الإنسان، وأيضاً تطلق الحجة على البرهان والدليل لأنّ القائل يقصد بذلك اثبات مدّعاه للآخرين عن طريق الدليل والاستدلال بالأدلّة القاطعة والجليّة التي يقطع بها عذر الخصم وقد يقال لمن له الاعتقاد الصحيح: إنّ فلان على الطريق المستقيم، ويقصد بذلك أنّ له حجة ودليل على أقواله وأفعاله.

ومع ملاحظة لفظة «بالغة» في الآية الكريمة تتضح أنّ الأدلة التي أقامها الله سبحانه للبشر عن طريق العقل والنقل وإرسال الأنبياء وإنزال الكتب وغير ذلك أنّها واضحة لا لبس فيها ولا مجال فيها للترديد والشك، فالحجة الإلهية هي ما يقطع بها عذر الناس وقطع العذر بمعنى أنّه لم يبق أي شبهة في بيان الدليل له وإراءة الطريق لجميع الناس على ما فيهم من جميع المستويات بحيث يكون دليله حجّة وقاطعاً لعذر الجميع. وهذا لا يتحقّق إلاّ بوجود الرسل والقادة الإلهيين.

➲

فلو لم يجعل لهم من يهديهم لقامت الحجة لهم عليه تعالىٰ بقولهم: لِمَ منعتنا

➲ قال الله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥) فبعث الأنبياء لإتمام الحجة على الناس لئلّا يبقىٰ لهم عذر أو حجة، فالحكمة الإلهية قد اقتضت لتحقّق هذه الأمر ببعث الأنبياء المعصومين للقيام بهذه المسؤولية المهمّة.

ولذلك قد جعل الله لكل نبي وصياً وخليفة، وقد وردت بهذا المضمون روايات كثيرة: منها:

ما رواه الطبراني بسنده عن أبي سعيد الخدري عن سلمان قال: قلت: يا رسول الله، لكل نبي وصي فمن وصيك؟ فسكت عني فلمّا كان بعد رآني فقال: يا سلمان فأسرعت إليه، قلت: لبيك، قال: تعلم من وصي موسى؟ قلت: نعم يوشع بن نون، قال: لِمَ قلت، لأنّه كان أعلمهم، قال: فإنّ وصيي وموضع سرّي وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي ديني علي بن أبي طالب (المعجم الكبير للطبراني ج٦: ص٢٢١).

ومنها: ما رواه ابن عساكر بسنده عن ابن بريدة عن أبيه، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لكل نبي وصي ووارث وإنّ علياً وصيي ووارثي (تاريخ مدينة دمشق ج٤٢: ص٢٩٢) ورواه ابن حجر في فتح الباري ج٨: ص١١٤، وابن الأثير في تاريخه ج٣: ص١٥٤، والخوارزمي في مناقبه: ص٨٥ ح٧٤، والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج١: ص٢٣٥ ح٥ وغيرهم.

ثم إنّه قد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلِلّٰهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وهي تدل على أنّه المقصود بالحجة الإلهية الإمام المعصوم.

فمن تلك الروايات ما رواه ابن بابويه بسنده عن أبي حمزة الثمالي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ولِلّٰهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ قال: ما خلت الدنيا ـ منذ خلق الله السماوات والأرض ـ من إمام عدل إلى أن تقوم الساعة حجة الله لله فيها على خلقه (الإمامة والتبصرة لابن بابويه القمي: ص٢٥).

ومنها ما رواه أيضاً بسنده عن نعمان الرازي قال: كنت أنا وبشير الدهان عند أبي عبدالله عليه السلام فقال: لمّا انقضت نبوة آدم عليه السلام وانقطع أجله، أوحى الله عزوجل إليه: أن يا آدم، قد انقضت نبوتك وانقطع أجلك، فانظر إلى ما عندك من العلم والإيمان وميراث النبوة وأثرة العلم والاسم الأعظم، فاجعله في العقب من ذريتك عند هبة الله، فإنّي لن أدع الأرض بغير عالم يعرف به طاعتي وديني ويكون نجاة لمن أطاعه (الإمامة والتبصرة: ص٢٥). والى غير ذلك من الروايات الواردة في تفسير الآية الكريمة، فلاحظ.

اللطف والرحمة، بجعل معصوم يهدينا الى الطاعة بحكمته وموعظته، ويحذّرنا من المعصية[١].

وثالثها: ما طوّل به المقام من بيانه بعض المقامات التي وهب سبحانه لبعض عباده الملك من خيارهم ومن عتاتهم، فإنّه ليس يجد به نفعاً ما لم يأت بدليل يثبت به، كون إمامة الرجل للناس موقوفة على سلطنته عليهم وقدرته على سياستهم، وليس له الى ذلك سبيل[٢].

---

(١) وهذا أمر عقلي ثابت قبل ورود النص والأدلة النقلية، لأنّ العقل مستقل في الحكم بلزوم بعث الأنبياء والمرسلين واستمرار وجود المعصوم في كل عصر وزمان ممتدين إلى يوم القيامة، وهذا الحكم العقلي عام يشمل جميع الأعصار والأزمان وبالنسبة إلى جميع أفراد البشر، فلا يتبدّل بتبدّل الحضارات والتطوّرات الثقافية، فإنّ حاجة الناس إلى وجود المعصوم في كل عصر وزمان، وتأثيره في هداية الناس أمر ثابت بالدليل العقلي والحاجة لاتنتهي إلى يوم القيامة لأنّ المعصوم لايفعل إلاّ عن حكمة ولايقول شيئاً إلّا فيه المصلحة للناس ولاينهىٰ عن شيء إلاّ فيه مفسدة، فوجوده إنّما يكون مصلحة لجميع الناس في كلّ عصر وزمان وتجب طاعته بلاقيد ولاشرط ومخالفته مخالفة لله لأنّ المعصوم ليس إلاّ من عصمه الله.

(٢) وخلاصة الكلام: إنّ السلطة تكون على قسمين: سلطة مشروعة، وسلطة ظاهرية.

أمّا السلطة المشروعة: فهي السلطة التي تكون لمن جعل الله تبارك وتعالى له الولاية على العباد كالنبي أو الإمام الذي نصبه الله تعالىٰ خليفة في الأرض ليحكم بين الناس بالحق وبما آتاه الله من العلم والحكمة والفضل، فالنبي والإمام والخليفة الشرعي هو من له الولاية من قبل الله عزّوجلّ، وسلطنته إنّما تكون بسبب الولاية التي جعلها الله له.

وأما السلطة الظاهرية: فهي التي لا تكون من قبل الله تعالى ولا يستحقّها الحاكم المتسلّط على الناس وإن كان عادلاً بحسب العرف سواء كانت سلطته حاصلة بالعنف والقهر والقوة أو بالاختيار فهي غير معتبرة شرعاً لأنّها ليست من قبل الله تعالى وان كانت بحسب المتعارف متقومة بالقدرة الظاهرية الفعلية ولكن واقعها غير مشروعة لعدم وجود دليل شرعي على

قل: قد دلّ الدليل علىٰ نقيض ذلك، فإنّه سبحانه بعث نوحاً وصالحاً ولوطاً وشعيب، وغيرهم، مثل زكريا ويحيى وهوداً الى قومهم، ولم يعطهم سلطنة وقدرة عليهم[١] بل قومهم كانت لهم القدرة والسلطنة، ومن هذه الجهة كذبوهم ساخرين

اعتبارها.

اللهم إلّا أن يقال: إنّ في زمن غيبة المعصوم تعتبر سلطته من باب العنوان الثانوي وأُمور الحسبة حيث لابدّ للناس من أمير براً كان أو فاسقاً لئلّا يختل النظام، فإنّ الشارع الأقدس لا يرضى باختلال النظام.

ولكن الكلام في المقام لا يرتبط بذلك لأنّ السلطة المشروعة هي السلطة التي تكون منشاءها الولاية على الناس وهي الولاية المعتبرة من قبل الله ابتداءً لا ما كان مرتبطاً بالتزاحم واختلال النظام، وما شابه ذلك الذي يعبّر عنه بالعنوان الثانوي، فإنّ الفرق بينهما واضح جداً.

(١) فإنّ الأنبياء والمرسلين إنّما بعثوا لإنقاذ البشر من الجهل والضلالة وتخلّصهم من الشقاء والفساد والظلم والبغي و... وهدايتهم إلى ساحة النور والتوحيد وفوزهم بالسعادة في الدارين، فجميع الأنبياء والرسل كانوا يشتركون في هذا الهدف وهو التوحيد، وذلك بوسيلة الإنذار والتبشير كما قال الله تعالى: ﴿**كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾ (سورة البقرة: ٢١٣) هذه الآية الكريمة تؤكد على أنّ الدور الأساسي لجميع الأنبياء في المجتمعات البشرية هو دور إرشاد الناس وتبليغ أمر الرسالة.

وإذا كان لهم دور تنفيذي فكانوا يتحركون فيه من خلال الوسائل العادية المطروحة بين أيديهم في الحالات العادية إلّا إذا كان هناك تحدّياً كبيراً يحوّل الموقف إلى خطر كبير على الرسالة والرسول، فعند ذلك كانت تصدر منهم المعجزة للتحفّظ على كيان الرسالة وعدم اصطدامها بكيد الماكرين.

وإذا أردنا أن نلخّص الوسائل التي استعملها الأنبياء فيمكن أن نقول: إنّهم كانوا مسلّحين بثلاث وسائل وهي: ١ـ الدلائل الواضحة ٢ـ الكتب السماوية ٣ـ جعل المعيار والميزان لتمييز الحق من الباطل والجيد من الرديء فإنّ الأكثرية الساحقة منهم لم تكن لهم القدرة والسلطة على

بهم، غير معتنين بشأنهم[1]،

➲ الناس وإنّما كانوا كأحد البشر العاديين من حيث الظاهر، وطبقاً لما جاء في التواريخ فإنّهم دعوا أُممهم إلى الصلاح والخير وردعوهم عن الخطايا والآثام حتى قال الشاعر فيهم:

إنّ الرسول لسان حق للبشر ... بالأمر والنهي والاعلام الخير

هم الأذكياء ولكن لا يصرفهم ... ذاك الذكاء لما فيه الغرر

ألا تراهم لتأبير النخيل وما ... قد كان فيه على ما جاء من الضرر

هم سالمون من الأفكار إن شرعوا ... حكماً بحل وتحريم على البشر

(أنظر: فيض القدير في شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٣: ص ٦٦).

وأما من كان منهم على رأس الحكومة فقليل جداً، فإنّهم وإن كانوا قادة إلهية إلّا أن أصل عملهم إبلاغ الرسالة الإلهية بالإنذار والتبشير كما صرح بذلك القرآن الكريم، فلاحظ.

(١) لقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم وهي تشير إلى المحن والمصائب التي تحمّلها الأنبياء من خلال مراحل دعوتهم من الاستهزاء والتكذيب والتعذيب وغير ذلك إلّا أنّهم صبروا ابتغاء وجه ربّهم واستمروا في طريقهم ومنهجهم القويم واحتفظوا بمسارهم المستقيم.

ومن تلك الآيات: قوله تعالى: ﴿**لَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ (سورة الأنعام: ١٠).

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا**﴾ (سورة الأنعام: ٣٤).

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ (سورة الرعد: ٣٢). والى غير ذلك من الآيات التي ذكرت الحقائق من حياة الأنبياء وما واجهوا فيها من المشاكل والمصائب والمحن ولكنهم صبروا على الأذىٰ واستمروا بدعوتهم ولم تأخذهم في الله لومة لائم. فكم من الأنبياء وأوصيائهم استهزىء بهم ورفض دعوتهم وجحد حقهم بعدما تمت الحجة وقامت البينة على أيديهم، فإنّ القرآن الكريم نطق بجانب من ذلك ولم يذكرها كاملاً، ومما ذكره قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ**﴾ (سورة النمل: ١١٨).

فقد واجه أكثر الأنبياء والمرسلين المصائب والمحن والسخرية وغير ذلك فصبروا على ذلك حتى ➲

وبعضهم قتلوه مثل زكريا ويحيىٰ[1].

➲ أتاهم نصر الله، وكثير من الآيات تتسلىٰ نبي الإسلام ﷺ وتقول له: إنّ هذا الوضع مشابه لما واجهه الرسل والأنبياء، فما تواجهه أنت اليوم فقد واجه مثله الأنبياء السابقين فصبروا وكان حليفهم النصر والغلبة على الظالمين بإذن الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩٥).

فإذا كان الأنبياء لهم القدرة والسلطنة فلم يتوجّه إليهم تلك المصائب لأنّ الناس عادة على دين ملوكهم ولكن أكثر الأنبياء إنّما كانوا يبلّغون رسالات ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة من دون إعمال قدرة وسلطة على الناس، ثم إنّ الناس كانوا يسخرون بهم ويكذّبونهم يعرف أنّ الولاية والنبوة ليست مساوقة للقدرة والسلطنة، فلاحظ.

(١) إنّ من أعظم المصائب التي جرت في العالم، وأشدها على تكثير أنواعها من فعل الآدميين هو قتل الأنبياء وسفك دمائهم الطاهرة وتشريدهم وإيذائهم وإلى غير ذلك من أنواع البلايا والرزايا والمحن التي ارتكبتها الأيادي الظالمة المعتدية والطواغيت المتفرعنة من الأُمم السابقة على أنبيائها كما حكاها القرآن الكريم وإليك بعض ما جاء فيه منها، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (سورة آل عمران: ١١٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (سورة آل عمران: ١٨١).

ومنها قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ ٱللهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ....﴾ (سورة النساء: ١٥٥) وغيرها من الآيات الكريمة وكذلك الروايات الواردة في المصادر الإسلامية حتى أنّه روي: أنّ بني إسرائيل قتلوا في يوم واحد ثلاثمائة نبي في بيت المقدس (أُنظر: تفسير النسفي ج١: ص٥٨) والى غير ذلك من الروايات الواردة في المقام في حين أنّ الأنبياء عليهم السلام بعثوا لإنقاذ الناس من الجهل والانحراف وتخليصهم من الشقاء والعناد ولكن الناس لم يعرفوا قدر هذه النعمة فظلموهم بأنواع الظلم.

ومن الأنبياء الذين قتلهم يد العداء والظلم والكفر والإلحاد هما زكريا وابنه يحيىٰ عليهما السلام فإنّهما كانا نبيين وحجتين على من سمع كلامهما وبلغه رسالتهما، وإنّ قصة حياتهما وما جرىٰ بهما من

➲

ألم يصل الى السُّني خبرهم وما فعله قومهم؛ فإنّ قضاياهم يعرفها حتى السوقة والبدويون؛ لشهرتها بين الناس وفيضان التفاسير والصحف بها، فأيّ حجة وفائدة للسُّني؟!!![1].

فيما بيّنه من سلطنة من ذكرهم، ومن ذكرناهم وغيرهم ليس لهم سلطنة[2].

⬅ الظلم والجور معروف في كتب الحديث والتفسير والتاريخ، والقرآن الكريم قد تكفّل لذكر جانب من حياتهما وذكرهما بأوصاف جميلة عالية بالمقام العبودية والخلوص وطهارة النفس وتزكيتها واشتمالها على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال و...

وذكر أنّ زكريا عليه السلام كان شيخاً هرماً وقد منحه الله تعالى يحيى بعد أن دعا ربه لطلب الولد الصالح ليقوم مقامه.

وملخّص الكلام: إنّ زكريا ويحيىٰ كانا نبيين مشتغلين بين الناس بالوعظ والإرشاد والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة حتى أنّ طاغوت زمانهما قتلهما ظلماً وجوراً من أجل الوصول إلى الفساد وبعض مظاهر الشهوانية وقصتهما معروفة في كتب التاريخ والتفسير والحديث، فراجع قصص الأنبياء للراوندي: ص٢١٨، وقصص الأنبياء للجزائري: ص٤٤٤، وقصص الأنبياء لابن كثير ج٢: ص٣٤٧ وغيرها من المصادر الإسلامية.

(١) أُنظر: تفسير السمرقندي ج: ص٣٠١، وتفسير البغوي ج٣: ص٩٧، وتفسير فخر الرازي ج٣: ص١٨٦، وتفسير القرطبي ج١١: ص٨٩، والتسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ج٢: ص١٦٧، والدر المنثور للسيوطي ج٢: ص١٧٦ وج ٤: ص١٦٣ و ٢٦٣، والمستدرك للحاكم ج٣: ص ٥٥٥، وفتح الباري لابن حجر ج٦: ص٣٢٨، والمصنف لابن أبي شيبة ج٧: ص٤٦٧ ح ٥، والآحاد والمثاني للضحّاك ج١: ص٣١٠ ح ٤٣٠، وكنز العمال للمتقي الهندي ج٧:٦٨٨ ح ٤٤٧ و الكامل في التاريخ لابن الأثير ج١: ص٣٠٦ والبداية والنهاية لابن كثير ج٢: ص ٦٤، وتاريخ ابن خلدون ج٢: ص١٤٤ وغير ذلك.

(٢) لا يخفى على الخبير أنّ السلطة السياسية الحاكمة على المجتمع المتمتعة بالنفوذ والسيطرة ليست هي المرادفة للولاية المتعلّقة بالرسالة والإمامة في الشريعة الإلهية؛ فإنّ الإمامة والولاية على الدين والأُمم إنّما هي متقوّمة بالنص من قبل الله سبحانه ومن يتولى امر ⬅

فعلم من ذلك [أنّ] السلطنة ليست شرطاً في إمام الخلق؛ لتخلّفها وصيرورتها في الكفرة[1]، وعدم وجودها في جماعات من الذين جعل سبحانه

المؤمنين من العباد لابد وأن يكون منصوصاً من الله تعالى كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥٥).

ووجه الاستدلال بالآية: إنّ معنى وليكم في الآية هو المتولّي للأمر كله، أي من كان مستحقاً للأمر والأُولى بالقيام بأُمور الناس، والأحق بالولاية وهو الذي تجب طاعته وقد حصرهم تعالى في هذه الآية مؤكداً بلفظ «إنّما» في الله تبارك وتعالى ورسوله، ومن له هذا المقام بعد الرسول فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ فالحصر تدل على اختصاص الولاية بهم دون الغير، ثم إنّه أجمع المفسّرون على أنّ المقصود من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ هو مولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما جاء ذلك في رواية ابن عباس وعمار بن ياسر وعبدالله بن سلام وسلمة بن كهيل وأنس بن مالك وعتبة وأبو ذر الغفاري وغيرهم من الصحابة (أُنظر: احقاق الحق ج٢: ص٣٠٩ - ٤١٠).

وبالإضافة الى الرواة العشرة المذكورين فقد نقلت كتب أهل السنة هذه الرواية عن الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه (أُنظر: المراجعات للسيد شرف الدين: ص١٥٥).

وقد تجاوز عدد الكتب التي أورد هذا الحديث في تفسير الآية الكريمة من الثلاثين كتابا كلها تأليف علماء أهل السنّة، وسنذكرها إن شاء الله تعالىٰ في محلّه فهذه الآية الكريمة قد حصرت ولاية أمر المسلمين في ثلاث، وهم: الله جل جلاله، ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وسيتبين ذلك للقارىء الكريم تفسير هذه الآية الكريمة من خلال الروايات الواردة في كتب أهل السنّة والجماعة إن شاء الله تعالى.

(١) فإنّ السيطرة والاستيلاء على أُمور الناس والحكومات في الأغلب والأعم دون النادر والشاذ كانت للجبابرة والأكاسرة القاهرة والقياصرة الغالبة والفراعنة المدمّرة وأمثال ذلك.

ويكفى للباحث أن يطالع تاريخ الحكومات والدول والأنظمة الحاكمة على الناس في الأزمنة المختلفة من زمن إبراهيم الخليل عليه السلام وإلى يومنا هذا، فإنّه سوف يجد بوضوح أنّ أكثرية

لهم إمامة الخلق[1]، فالمعيار في معرفة إمام الخلق وتمييزه عن غيره الدليل

الحكومات والأنظمة المسيطرة على أوضاع المجتمعات والدول هي الحكومات التي استولت على شؤون الناس بالقوة والعنف فكانت السلطات تحارب رجال الدين محاربة العدوان والجور، فأكثرية الأنظمة السياسية هي الأنظمة التي غلبت على أُمور الناس واستولت عليهم بالدسيسة والاضطراب ونحو ذلك، فالسلطات الحاكمة أكثرها الأغلب هي السلطات الحاكمة الظالمة الكافرة الذين تسلّطوا على المجتمع وجعلوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً، وفسدوا في الأرض كنمرود وفرعون وإضرابهم، وهل يصح بعد ذلك القول بأنّ من له السلطة له حق الولاية على الناس؟!!!

(١) فإنّ أكثر الأنبياء وأئمة الدين في القرون المختلفة لم تكن لهم دولة في الأرض ولا حكومة، بل كانوا في الظاهر تحت كبت الحكومات الغاصبة الجائرة في عهودهم، ولاريب أنّ الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام كان لهم الولاية المطلقة على الرعية، وقد قال الله تعالى في حق نبينا صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ (سورة الأحزاب: ٦) هذه الآية المباركة قد جعلت أولوية النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمؤمنين بصورة مطلقة، أي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم أولى بهم من أنفسهم في جميع الصلاحيات التي يمتلكها الإنسان في حقّ نفسه؛ ومنها تدبير أُمورهم والقيام بنظام اجتماعي وسياسي وعسكري، فهو أولى بالحكومة من كل إنسان على وجه الأرض، وهذه الولاية ولاية عامة تشمل الولاية التكوينية والولاية التشريعية.

فمحصّل الآية: أن جعلت الولاية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم إنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥٥) قد جعلت الولاية للإمام المعصوم بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد جعل الولاية للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في حديث الغدير، فقال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: نعم، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه (أُنظر: المستدرك للحاكم النيسابوري ج٣: ص٥٣٣، والمعجم الكبير للطبراني ج٥: ص١٩٥، والمواقف للإيجي ج٣: ص٦٠٣ وغيرهم).

فإنّ الحديث بالصراحة يدل على أنّ نفس الولاية التي جعلها الله للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد جعلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للإمام أمير المؤمنين عليه السلام كما جعلها الله تعالى في آية الولاية للإمام أمير

الشرعي؛ فإنّ عينه الدليل فهو امامهم ولو عصاهم الخلق[(١)]، حسبما سمعت ذلك

⮌ المؤمنين عليه السلام، فالولاية المطلقة التي من فروعها الحكومة هي للمعصومين من الأنبياء والأئمة الطاهرين عليهم السلام ويجب على الناس طاعتهم والانصياع لأوامرهم، فعدم وجود السلطة لهم ليس دليلاً على عدم إمامتهم وولايتهم من الله بل إنّ الحكومة وديعة يجب إيداعها بيد من هو أهلها ومن يكون له الولاية من الله فهو أهل لها، فيجب تسليم الحكومة لمن له الولاية من قِبَل الله، فالحكومة الشرعية هي الحكومة التي على رأسها ولي من أولياء الله وأيّ حكومة ليس على رأسها المعصوم الذي له الولاية من قِبَل الله تعالى فهي حكومة غير شرعية وغاصبة، فالحكومة الإلهية هي حكومة الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام فالحكومة ليست مرادفة للحاكم كائناً من كان وإنّما هي وسيلة لأولياء الله ومن له الولاية من عند الله تعالى لإجراء العدالة في المجتمع، فلاحظ.

(١) فإنّ الإمام لابد وأن تثبت امامته بالدليل كما أنّ النبي لابدّ وأن تثبت نبوته بالدليل القاطع، فإذا ثبتت إمامته وجبت طاعته ولزمت مودته. فالإمام عند الشيعة الإمامية لابد أن يتصف بأوصاف النبي والشروط المشترطة فيه كالعصمة ونحو ذلك لأنّ الإمام يقوم مقام النبي في جميع المقامات التي يمتلكها النبي صلى الله عليه وآله وسلم سوىٰ كونه طرفاً للوحي القرآني، وبناءً على هذا ينحصر طريق ثبوت الإمامة بتنصيص من الله وتنصيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ الإمامة عند الشيعة الإمامية هي استمرار لوظائف النبوة سوى تحمّل الوحي الإلهي. ومقتضى هذا الاتّصاف لابد أن يكون الإمام متّصفاً بالصفات التي يمتلكها النبي سوىٰ نزول الوحي القرآني عليه.

ومعنى ذلك: أنّ الإمام لابد أن يكون أفضل الناس في صفات الكمال، وبإجماع المسلمين قاطبة أنّ هذه الشرائط لم تكن متوفرة في غير أئمة أهل البيت عليهم السلام لأنّ غير الشيعة لايلتزم بلزوم العصمة في الإمام، فغير الشيعة لايعتقد بوجود الإمام المعصوم بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمّا الشيعة الإمامية فيستدلون على إمامة الأئمة الاثني عشر بالأدلة القطعية من الكتاب والسنة المتفقة بين جميع المسلمين على أنّ الأئمة الاثني عشر يمتلكون جميع صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم سوى تحمّل الوحي القرآني.

ومن هنا يلزم على كل مسلم أن يعرف الإمام الذي يقتدي به، وهذا من الشرائط الأساسية في ⮌

في حق هارون[(١)] وغيره[(٢)] فتدبّر؛ فإنّ البحث في تعيين إمام الخلق وبيان ما

الدين الإسلامي، كما ورد في حديث متواتر لدى الفريقين وهو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية. أو ما ورد بهذا المضمون، فإنّ هذا الحديث متواتر من جهة المعنى. إذن إنّ معرفة الامام إنّما تتحقّق بالنص وإذا ثبت بالنص الجلي إمامته وجبت الطاعة، كما تجب طاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلاحظ.

(١) فإنّ هارون عليه السلام كان خليفة موسى عليه السلام ووزيره وأخيه ونبي من أنبياء الله ومفترض الطاعة على أُمة موسى لمكان شركته له في النبوة وكان أعلم بني إسرائيل بعد موسى، فكان له مقام قيادة بني إسرائيل حتى في عصر موسى عليه السلام ولكن لا بقيادة مستقلة، بل كان قائداً يقوم بممارسة وظائفه تحت إشراف موسى عليه السلام وهذا ما عبّر عنه القرآن بـ«وزير» حيث قال تعالى عن لسان موسى عليه السلام: ﴿**ٱجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ (سورة طه: ٢٩ـ٣٢).

وإنّما يقال للوزير وزيراً لتحمّله المسؤولية الثقيلة وتحمّل هذه المسؤولية على عاتقه تكون من قبل الله تعالى أيضاً، ولذلك بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة أنّ موسى عليه السلام الذي هو نبي من أنبياء الله قد جعل الله له أخاه هارون وزيراً وأشركه في أمر قيادة بني إسرائيل. فهارون كان شريكاً لموسى عليه السلام في رسالته ومن هنا نعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لانبي بعدي (أُنظر: صحيح البخاري ج٤: ص٢٠٨ كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، وج٥: ص١٢٩ كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، وصحيح مسلم ج٧: ص١٣٠ كتاب الفضائل، باب فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام) فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل للإمام أمير المؤمنين عليه السلام جميع منازل التي كانت لهارون من موسى وذلك أنّ هارون كان وزير موسى وشريكه في أمر الرسالة كذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة الى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان وزيره ومعاونه الخاص وعضده وشريكه في القيادة، فكما أنّ القرآن أثبت جميع هذه المناصب لهارون من موسىٰ، فقد جعل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هذه المناصب للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقال للإمام علي عليه السلام: أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ. فأثبت النبي صلى الله عليه وآله وسلم جميع تلك المنازل للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وسيأتي شرح الحديث.

(٢) فإنّ معرفة كل نبي من الأنبياء وتمييزه عن الآخرين إنّما تكون بالدليل القطعي؛ وتتوقّف

يعتبر فيه من الصفات دون بيان انتفاع الناس به أو عدم انتفاعهم لسوء اختيارهم(١).

➲ على معرفة باعثهم وخالقهم فمن عرف الله تعالى بصفاته الكمالية والجلالية على وجه لايفضي إلى التشبيه والتجسيم فهو يعلم بأنّ الله عليم حكيم، فكل مايفعله يكون مطابقاً للحكمة والمصلحة فمعرفته بالصفات الكمالية واضح بالدليل والبرهان كما بيّنها علماء المتكلّمين.

وبعد معرفة صفات الله الكمالية التي منها الحكمة فإنّها تقتضي أن لايفعل فعلاً إلّا فيه هدف صحيح، فخلق الإنسان يكون لهدف وغاية حكيمة وإذا كان كذلك فإنّ الحكمة تقتضي أن لايترك الله الإنسان سدىٰ بل لابد وأن يبعث إليهم من يهديهم نحو السعادة، فكلّ هذه الحقائق تحصل بإدراك العقل.

فأولاً: إنّ العقل يدرك بأنّ الإنسان لم يخلق سدىٰ، بل إنّما خلق لغاية.

وثانياً: يدرك بأنّه لا يصل إلى تلك الغاية إلّا بالهداية الإلهية والهداية الإلهية إنّما تتحقّق بالرسل والرسالة والبيان والدعوة الإلهية.

وثالثاً: يجب معرفة الرسول الذي يبعثه الله لهداية الناس، فإنّ وجوب التصديق به متوقّف على معرفته إذ لا يصح التصديق إلّا بعد المعرفة، كذلك الإمام والخليفة الذي عينه الله تبارك وتعالى لأمر الهداية لابد من معرفته بالدليل القطعي الذي لا يعتريه ريب ولا يخالجه شك بل لابد أن يكون واضحاً كالشمس في رائعة النهار، وهذا هو مقتضى قاعدة اللطف المذكور في كتب الكلامية.

فإنّ العقل مستقل بلزوم بعث الرسل لهداية البشر أو الإمام المعصوم خليفة لهم ليسدّ فراغ الأنبياء، فلا هميّة دور القائد المعصوم في المجتمع ومنع الناس من الانحراف والضلالات والتحكّمات والخرافات يكون وجود الإمام المعصوم لازماً ضرورياً، فالغاية من أكبر دليل وشاهد على هذه الحقيقة، كما أشار إليها القرآن الكريم في الآيات العديدة عند ذكر الغاية من بعث الأنبياء. وسيتبيّن هذا البحث أكثر وضوحاً من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

(١) لا شك أنّ البحث في مسألة الإمامة يكون من جهتين:

الجهة الأُولى: في أصل لزوم الإمام ووجوده في كل عصر وزمان كوجوب وجود النبي ونعمة ➲

⬅ النبوّة العامة.

والجهة الثانية: البحث في انتفاع الناس بالإمام في زمن حضوره وفي زمن غيبته، أمّا بالنسبة الى وجوب وجود المعصوم في كل عصر وزمان سواء كان المعصوم نبياً أو إماماً فقد تقدّم البحث فيه وثبت وجوب وجوده في كل عصر وزمان من باب وجوب اللطف على الله.

وأمّا بالنسبة الى الانتفاع به في زمن حضوره فواضح وهذا أمر مسلّم عند جميع علماء الإسلام، وقد اعترف به ابن تيمية نفسه فلاحاجة فيه إلى البحث أكثر مما تقدم.

وأمّا بالنسبة الى انتفاع الناس بالإمام في زمن غيبته فأيضاً يكون كذلك إذ قد ثبت بالأدلة العقلية والنقلية أنّ وجود المعصوم في كل عصر وزمان ضروري كضرورة وجود النور في هذا العالم، فكما أنّ العالم يحتاج إلى نور الشمس الذي يشعّ على الأرض وتمنح الحياة للموجودات، وإن كان مستتراً تحت السحاب، كذلك الإمام المعصوم فإنّه يهدي الخلق إلى الحقّ وإن لم يحضر بين الناس أو يحضر بين الناس ولايعرفه الناس، فالانتفاع بالإمام الغائب كالانتفاع بالشمس المحجوب بالسحاب فكما أنّ الشمس يتميّز بها النهار من الليل والنور من الظلمات كذلك المعصوم يتميّز به الحق والباطل وإن كان غائباً عن الأنظار فإنّ وجوده دليل على أحقية الهداة الإلهيين.

وتوضيح المقام: إنّ الإنتفاع الحقيقي إنّما يتحقق للناس إذا حصلت لهم القدرة للوصول إلى الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، مثلاً إذا أراد أحد أن يذهب من بلد إلى بلد أو من إقليم الى إقليم لابد له من دليل، ولولا دليل الطريق أو من يهديه إلى ذلك المكان المقصود ولو بوضع العلامات المخصوصة وإلاّ لم يمكنه الوصول إلى ذلك المكان المقصود، فالانتفاع بالإمام في عصر الغيبة كذلك فإنّ الإمامعليه السلام إذا أوضح للناس قبل غيبته الأمارات والطرق المعتبرة للوصول الى المقصود فالناس بإمكانهم أن يتخذوا بتلك الأمارات والطرق الموصلة الى المقصد ويصلون إلى الهدف المنشود في هذه الناحية.

ومن ناحية أُخرىٰ: إنّ الإمامعليه السلام في زمن غيبته موجود بين الناس فهو يراهم والناس يرونه ولكن لا يعرفونه وهو يدلي برأيه أحياناً ولم يترك الأُمة بل إنّ الناس يستفادون منه وإن لم يعرفوه.

⬅

ورابعها: ما زعمه في حق غير المنتظر من سائر آبائه الطاهرين عليهم السلام من وجود منفعة لهم في العلم مثل غيرهم من التحديث والتعليم وغير ذلك.

فإنّه أوّلاً: لا وجه لتخصيصه ذلك بغير المنتظر عليه السلام فإنّه عجّل الله فرجه الشريف مشارك لآبائه عليهم السلام فيما ذكر[١].

ويدل على ذلك: الروايات والنصوص الكثيرة التي وردت في كتب علماء الشيعة الإمامية، وسنذكرها إن شاء الله تعالى في محلّه.

فالإمام حافظ للدين والشريعة بوجوده سواء كان حاضراً أو غائباً، فهو كالنور الذي يزيح الظلمات ويشد الدين وأركانه ويقمع الباطل وبنيانه، وفي غيبته تكمن معان كبيرة من الحِكم والأسرار الإلهية وتبين مظلومية الأنبياء والأولياء على يد الحكّام الظلمة وسلاطين الجور. وسيتبين للقارئ الكريم هذه المسألة أكثر وضوحاً في محلّه إن شاء الله تعالى.

(١) إذ من الواضح لدى الخبير أنّ الحكومات الغاصبة من بني أُمية وبني العباس كانت تشدّد على الناس وتمنعهم الملاقات مع الأئمة الأطهار عليهم السلام حذراً من معرفة الناس أحقّيتهم بالحكومة والخلافة وتمايلهم اليهم والتسليم لهم بالطاعة، وكانوا يخافون الفضيحة من انكشاف قبائح أعمالهم وعقائدهم الفاسدة ومايفعلون من المخادعات وإظهار الإيمان وبطانة الكفر والشرك والإلحاد، فكانوا يمنعون الناس من المكالمة معهم لأنّهم كانوا يعلمون أنّ كلام أئمة أهل البيت عليهم السلام نفس كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلام الله، فإنّ كلام الله نور فيه الهداية قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (سورة المائدة: ١٥) وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِن رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكْرِ اللهِ﴾ (سورة الزمر: ٢٢). فكلام الأئمّة الأطهار عليهم السلام أيضاً نور فيه الهداية، كما تقرأ في زيارة الجامعة: «كلامكم نور... إلخ».

وقد ورد في الحديث عن ابن مسعود قال: سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِن رَبِّهِ﴾ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح، ثم قلنا: يا رسول الله، ما هي علامات انشراح الصدر؟ فقال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله (تفسير السمرقندي ج١: ص٤٩٩).

وثانياً: لا ينافي مرتبة إمامتهم، بل التعليم والتحديث والافتاء من شؤون إمامتهم وليس يضربها حسبما عرفت في الوجه السابق عدم طاعة الناس لهم، بل معصية الناس لهم مضرة بهم لخروجهم عن طاعة السلطان[1].

وفي تفسير علي بن إبراهيم إنّ عبارة «أفمن شرح الله صدره للإسلام» نزلت في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (تفسير القمّي ج٢: ص٢٤٨).

وعلى كل تقدير: فإنّ كلام المعصومين عليهم السلام فيه الهداية الرشاد، ولكن الحكّام الظلمة كانوا يمنعون الناس من معرفة المعصومين وكلماتهم القيّمة لئلاّ يعرف الناس الحقيقة؛ لأنّ كشف الحقيقة مساوق لتسليم الأُمور إليهم، ولكن الملك عقيم فلايسمح لكشف الحقيقة مساوق لتسليم الأُمور إليهم، ولكن الملك عقيم فلايسمح لكشف الحقائق، ولذلك أغلب الأنبياء والمعصومين عليهم السلام كانوا تحت أشدّ المراقبات والماصرات والعمل الإرهابي والسجون وغير ذلك، لئلاّ ينتفع الناس منهم، فالانتفاع من المعصوم في كلّ عصر حتّى مع وجود المانع فيه لطف على الناس؛ لأن هداية الناس تحصل بهم، سواء كان لهم القدرة أو لم يكن لهم القدرة، فإنّ العقول الحرّة تنجذب إليهم، وإن كانت هناك موانع وضغوطات تمنع من الوصول الى الحقيقة، ولكن الحقّ أمر لايبقىٰ تحت الستار دائماً، بل الحقّ يظهر كما يظهر النور عندما يستتر جانب منه، فالانتفاع بالإمام الغائب يكون كذلك.

(١) فإنّ عصيان الناس وتمرّدهم عن طاعة المعصومين لا يقدح في إمامتهم فإنّ الإمام المعصوم له ولايته على الناس وإن لم يطيعوه، كما أنّ عصيان الرسول لا يقدح في رسالته ونبوته، فطاعة الرسول واجبة وإن تمرّد الناس عن طاعته، قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ ٱللهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٣٢) وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (سورة الأنفال: ٢٠) فتجب طاعة الرسول، وهذا من شؤون النبوّة والرسالة كذلك الإمام المنصوب من قبل الله تعالى؛ فإنّ إمامته من شؤون مقامه ومنصبه قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ (سورة النساء: ٧٦).

فأوجب تعالى طاعة ولي الأمر بعد طاعة الرسول فتكون طاعة الإمام كطاعة الرسول واجبة؛ لأنّ

ومن هذه الجهة صار معاوية ومتابعوه من الدعاة الى النار لخروجهم عن طاعة إمامهم ومحاربتهم له[١].

⮌ كل من الطاعتين جاءت في الآية الكريمة على نسقٍ واحد وتكون الطاعة بالنسبة إلى كل من الرسول وأُولي الأمر على شكل واحد وبدليل واحد.

ولا شك أنّ هذه الطاعة في الآية الكريمة طاعة مطلقة غير مشروطة بشرط ولا مقيدة بقيد ولو كان هناك أمر يشترط في الطاعة لجاء في القول الحكيم، وحيث لم يأت فيه شرط ولا قيد فهو دليل على أنّ كل من الرسول وولي الأمر من بعده معصوم لأنّ الأمر بالطاعة له بشكل مطلق أمر بالطاعة في جميع الأقوال والأفعال والتقارير، وهذا لايصحّ الأمر به من الله تعالى ارلاّ أن يكون معصوماً فلابدّ من القول بأنّ الرسول والإمام معصومان بعصمة مطلقة ولا قائل لهذا القول في الفِرق الإسلامية إلّا الشيعة الإثنىٰ عشرية حيث استدلّوا بالآية على ذلك والتزموا بلوازمه.

وخلاصة الكلام أنّ طاعة الإمام حسب هذه الأدلة من شؤون مقامه كما هو المستفاد من الآية الكريمة كما انّ طاعة النبي من شؤون مقامه، وعليه: فإنّ تمرّد الناس عن أوامر الإمام ونواهيه لا يقدح في مقامه كما انّ عصيان الرسول يكون كذلك. فطاعة الإمام واجبة وتمرّد الناس عنه لا يسقط هذا الحق الثابت له من قبل الله، فلاحظ.

(١) لا يخفى على أحد أنّ معاوية بن أبي سفيان حارب مولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقّه اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله (مسند أحمد بن حنبل ج١: ص١١٨ وص١١٩) وقال صلى الله عليه وآله وسلم يا على حربك حربي (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢: ص٢٩٧). وكان معاوية طليق بن طليق قد حارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبل، وكان من قادة معسكر الشرك حتى يوم فتح مكة فاستسلم مع كثير من قريش مرغومين وبعد مدة اضطر معاوية أن يظهر إسلامه حفظاً لمصلحته، وقد جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم له ولأبيه حصة من سهم المؤلفة قلوبهم، فمات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو سفيان وابنه لهما حصة من ذلك السهم.

وقد دارت الأيام وتعاقبت الأحداث وإذا بالإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يجد نفسه مرة أُخرىٰ وجهاً لوجه مع قريش وفي المقدّمة ـ كالعادة ـ بنو أُمية وفي رأسهم معاوية بن أبي سفيان، فكأنّما

⮌

وأيضاً فإنّ السُّني خرج بذكره لخصوص هذه الصفة فيهم عن مقام البحث[(١)].

⟵ واقعة بدر تعيد نفسها أو أُحد تعود من جديد، والراية هي الراية والأهداف هي الأهداف. سرعان ما تمكّنت قوىٰ الكفر من العودة إلى واجهة الأحداث، طمعاً في الرئاسة والإمارة، والعودة بروح القبيلة، واتباع الأفكار الجاهلية المقيتة.

ولقد كانت المواجهة بين الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ومعاوية كشفت الحقائق، ورفعت الغطاء عن البطانة المكنونة من أهداف معاوية وبني أُمية التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل قائلاً للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين (أُنظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج٣: ص١٣٩) فالإمام عليه السلام قال في حديث معروف رواه علماء الإسلام شيعة وسنة: إنّه أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتال ثلاثة: الناكثين والقاسطين والمارقين (أُنظر: مجمع الزوائد ج٦: ص٢٣٥).

وكان المتفق عليه عند السلف والخلف أنّ القاسطين هم معاوية وأصحابه، فعرّفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحزب الباطل كما قال للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام غير مرة: حربك حربي وسلمك سلمي (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢: ص٢٩٧) ورواه الآلوسي في تفسيره ج٢٦:١٥١ في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ...**﴾ (سورة الحجرات: ٩) ومعنىٰ ذلك: أنّ من يحاربك فهو على باطل.

وأضاف الآلوسي قائلاً: إنّه أخرج الحاكم وصحّحه البيهقي وعن ابن عمر أنّه قال: ما وجدت في نفسي من شيء أني لم أُقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله في هذه الآية يعني (وان طائفتان...) وقوله: إني لم أُقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله تعالى ـ يعني بها معاوية ومن معه من الباغين ـ علىٰ علي كرّم الله وجهه (تفسير الآلوسي ج٢٦: ص١٥١).

وهذه حجة جارية على لسان ابن عمر، وبذلك ثبت أنّ معاوية وأصحابه كانوا أهل البغي بحكم الله ورسوله وإجماع عامة المسلمين إلّا من شذّ منهم الذي لا عبرة برأيه. ولا يخفى على الخبير حكم البغي على الإمام المفترض الطاعة، فإنّ المسلمين قاطبة حكموا بكفر من بغى على إمام زمانه، فلاحظ.

(١) وذلك لأنّ البحث في مقامنا يكون في وجوب متابعة إمام الحق، ومن له أهلية هذا المقام ⟵

فإنّه مختص بأنّهم أئمة قد جعل لهم الله سياسة الخلق(١)، وعدم حصول السلطنة لهم على ذلك سببه عصيان الخلق لهم، وذلك غير موجب لذهاب إمامتهم(٢).

⮌ العظيم والشأن الكبير والمنصب الرفيع، فهذا البحث إنّما يتكفّل لمعرفة الإمام وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً.

فالبحث هنا عن المؤهّلات والخصائص التي يعرف بها إمام المسلمين حقاً، مثلاً يبحث في أوصاف الإمام ويذكر أنّ الإمام لابد أن يكون أفضل الناس من جميع جهات من الكمال أي في العلم والفضل والشجاعة والعصمة و.....

وحينئذٍ لا وجه للبحث هنا عن وظائف الناس والتكاليف الإلهية وما يعملون من الأعمال تجاه الإمام وخليفة المسلمين الذي فيه خصائص الإمامة، فإنّ إمام وخليفة واجب الطاعة سواء عرفه الناس أم لم يعرفوه، وسواء عملوا بوظائفهم ومسؤولياتهم بالنسبة إليه أم لم يعملوا فهو إمام.

(١) فإمام الحق من له سياسة الخلق وترويج الدين من قبل الله سبحانه وتعالى وقد جعل الله له هذا المنصب لمصلحة الأُمة فساسهم بأمره لإنقاذ الأُمة من الهلكات وإرشادهم إلى السعادة.
وعليه: فما توهّم البعض من أنّ الإمامة هي عبارة عن الحكومة السياسية فهذا قول باطل لأنّ من تصدىٰ هذا المقام بالغلبة أو بانتخاب الناس وليس له شأن ومقام من جانب الله، فلايحقّ أن يحكم على الناس إذ لا اعتبار لحكمة تشخيص على شخص إلاّ أن يثبت له هذا الشأن من قبل الله عزّوجلّ، فالحكومات الظاهرية التي لادليل على اعتبارها فهي طاغوت، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: بئس القوم قوم جعلوا طاعة إمامهم دون طاعة الله، وبئس القوم قوم يختارون الدنيا على الدين، وبئس القوم قوم يستحلون المحارم والشهوات والشبهات (أُنظر: مستدرك الوسائل ج١١: ص ٣٧٠ ح٧).

فالحكومة الظاهرية قاصرة عن سياسة الخلق ومصلحة الأُمة فهي خارجة عن حدّ الشرع، بل هي حكومة غير مشروعة وجائرة، فلاحظ.

(٢) فإنّ تسليم الناس للسلطات الجائرة ومخالفتهم للإمام المنصوب من قبل الله عز وجل الذي جعله الله حاكماً عليهم لايقدح في ولاية الإمام وأولويته في الزعامة والرئاسة، فإنّ الإمام المعصوم حاكم على الناس شاؤوا أم أبوا كما أنّ الأنبياء لهم هذا المنصب سواء قَبِلَ الناس ⮌

بل موجب لعدم قبول من عصاهم، لطف الله ورحـمته الحـاصلين لهـم بإطاعتهم(١).

➲ حكومتهم أم لم يقبلوا، فإنّ ولايتهم وإمامتهم مجعولة من قبل الله تعالى، وإنّ منصب الحكومة من شؤون ولايتهم وإمامتهم وإن رفضها الناس فإنّها ثابتة لهم كالنبوة التي هي تكون من قِبل الله، فإذا رفض جميع الناس نبوة نبي من أنبياء الله لا يسلب منه هذا المنصب كذلك الأمر في الإمام فإنّ من شؤون الإمام الولاية والسلطة، فإذا سلبوا عنه هذه السلطة الظاهرية ولم يطيعوا أمره ونهيه وتجاهلت الناس حكمه وتساهلت عن منصبه فلا يضر بمقامه شيء فإنّ بـيان الدعوة الإلهية وتبيين الرسالة الربانية وإقامة الحجّة على الخـلق وبـعد إقـامه ذلك فـإن لم يلتزموا بالحجة وخالفوها لا يكون الإمام مسؤولاً عن فعل الناس، كما أنّ الرسول يكـون كذلك، قال الله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ﴾ (سورة المائدة: ٩٩) وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة النور: ٥٤) فإنّ النبي ﷺ مسـؤول عـن تـبليغ الرسالة لا غير، فإنّ أطاعوه استفادوا وإن لم يطيعوه خسروا، وليس عـلى النـبي أن يـجبر الناس على الهداية وتقبل دعوته ولذلك قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: لا رأي لمن لا يطاع (نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢٧).

فإنّ معنى قول الإمام عليه السلام أنّه إذا لم تسمح الناس إجراء الحكم الإلهي بيد الحاكم المنصوب من قبل الله حتى يجري أحكام الله فلا معنى لإعمال الولاية والحكومة لأنّ اعمال الولاية فرع لوجود السلطة والحكومة فإذا خالف الناس النبي أو الإمام، فـلايكون مسـؤولاً عـن فـعل الناس، فلاحظ.

(١) فإنّ الألطاف الإلهية والتوفيقات الربّـانية تشـمل العـبد أنّ تـحمّل المسـؤوليات بـاختياره وتمسّك بحبل الله المتين وسلك صراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩).

فالله سبحانه أحل العباد محل ألطافه وعناياته وتوفيقاته، فإن آمنوا بالذي جاء من عنده، وركبوا السفينة التي جعلها الله تعالى لنجاتهم، فتشملهم العنايات الربانية وألطافه المتعالية، وإن تركوا هذه السفينة ولم يتمسّكوا بها وبالأسباب الباعثة للهداية فطبعا لا يستحقون اللطف والإحسان من الله لسوء أعمالهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَـهْدِي مَـن يَشَـاءُ﴾ ➲

فانظر أين محلّ البحث من قول السُّني، فإنّه لم يقابل الشيعي بقوله المشار

(سورة المدّثّر: ٣١).

فإنّ معنى الإضلال سلب التوفيق واللطف من العبد بعد أن منح لهم أسباب الهداية وهي منحصرة في أصفيائه وأوليائه وأقرب الناس إليه لتقوم الحجة عليهم فإذا لم يتمسّك الإنسان بهذه الأسباب المودعة لهدايتهم فلا محالة يحرم نفسه من تلك النعمة الإلهية التي أنعمها عليه.

قال الله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنفال: ٥٣) هذه الآية الكريمة تبيّن لنا أنّ الرحمة الربانية عامة تسع جميع الخلائق لكنها عندما تبلغ الناس يلزم عليهم أن لا يضيعوا هذه النعمة العظيمة فإن أعرضوا عنها فإنّهم سوف يخسرون ذلك والله تبارك وتعالى لا يغيّر نعمة أنعمها على قوم.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ القرآن الكريم أشار في هذه الآية الكريمة إلى هدف أساسي لخلق الإنسان وهو هدايته نحو الكمال والسعادة الأبدية وإنّما هي نعمة، فقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٤) وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (سورة يونس: ١٠٨) وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ ٱللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ ٱللهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة المائدة: ١٥ ـ ١٦) فالآية الكريمة تشير إلى النعم الثلاثة التي تحصل من الهداية الربانية؛ وهي عبارة عن:

١ـ الهداية إلى سبل السلامة التي تشمل سلامة الفرد والمجتمع والروح والجسد والعائلة، والسلامة الأخلاقية. وكل هذه الأُمور تدخل في الجانب العملي من العقيدة الصحيحة.

٢ـ نعمة النجاة من ظلمات الكفر والإلحاد الى نور الايمان.

٣ـ الهداية الى النور، وفي هذا دلالة على الطابع العقائدي.

ويتم كل ذلك من خلال أقصر وأقرب الطرق وهو الذي أشارت إليه الآية الكريمة بقوله تعالى: الصراط المستقيم فإنّ هذا الصراط هو النعمة الإلهية التي أنعمها على جميع البشر ولكن كثيراً من الناس تركوا هذه النعمة العظيمة وتمرّدوا وأعرضوا عنها وبالنتيجة خسروا ألطافه وعناياته فلم تشملهم ذلك لأنّهم عصوا أوامر الله ورسوله فسلب منهم التوفيق والسعادة فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا (سورة الإسراء: ٤٨ وسورة الفرقان: ٩) فلاحظ.

اليه[١].

وخامسها: ما زعمه من كون من عناهم مثل غيرهم من أهل العلم والدين؛ فإنّه معلوم الفساد، لما تقدّم نقله من السنة، من خبر الثقلين[٢]؛

---

(١) ويكفي لكل باحث أن يرجع إلى الكتاب والسنة النبوية الشريفة ليعرف منهما الدليل على معرفة إمام الحق، فإنّه سوف يجد في الكتاب والسنّة أدلّة وافية لذلك، فقد قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَومِ ٱلآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (سورة النساء: ٥٩).

فإنّه قد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أُولي الأمر الذي طاعته واجبة مطلقاً كطاعة الله وطاعة الرسول. وإنّ عدم تكرار لفظ «اطيعوا» لأُولى الأمر أكبر شاهد على أنّ طاعة أُولي الأمر مثل طاعة الرسول ولكن كرر بعد قوله تعالى: أطيعوا الله ولعلّ هذا إشارة إلى أنّ طاعة الله طاعة ذاتية وطاعة الرسول وأُولي غير ذاتية وتكون بأمر الله عزّوجلّ فطاعة أُولي الأمر كطاعة الرسول واجبة بأمر الله سبحانه.

ولذلك قال الفخر الرازي في تفسير الآية: إنّ الله أمر بإطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم والقطع فلابدّ أن يكون معصوماً عن الخطأ ولو لم يكن معصوماً كان الأمر بإطاعته إقدامه تعالى على الخطأ وقد أمر بمتابعة من يخطىء (أُنظر: تفسير الفخر الرازي ج١٠: ص١٤٤).

فهذه الآية الكريمة وغيرها تدل على وجوب طاعة الإمام المعصوم بعد النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، ومن هنا يعرف الفرق بين قول الشيعة الإمامية في الإطاعة الواجبة للإمام والخليفة بعد الرسول وقول أهل السنّة في إطاعة كل حاكم برّاً كان أم فاجراً.

فإنّ الشيعة الإمامية يعتقدون: بأنّ مقتضى اللطف الإلهي نصب الإمام المعصوم، وقد دل على ذلك الآيات والروايات المتفقة بين جميع المسلمين وحكم العقل قد تبيّن شطر منها. وسيتّضح للقارئ الكريم الأدلّة الأُخرىٰ في محلّه.

(٢) فإنّ خبر الثقلين المتواتر بين الفريقين واضح الدلالة على المقصود لأنّ الظاهر منه عدم الافتراق بين العترة الطاهرة والقرآن الكريم، بمعنى: أنّ القرآن الكريم لمّا كان هو المرجع والملجأ لجميع مسائل الدين من المبدأ إلى المنتهىٰ ولجميع المسائل الحياتية في جميع

وخبر السفينة[١]، وغيرها[٢]؛ فإنها قد دلّت على كون الهدى للناس الى الدين إنّما يحصل بالعترة وحدهم، ولو فرض وجود مثلهم لقرنهم بالكتاب من بعث رحمة للعالمين صلى الله عليه وآله وسلم ولم يظلمهم بالكتمان[٣].

مجالاتها، كما قال تعالى: ﴿لاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الأنعام: ٥٩) تبيّن هذه العبارة القصيرة ما ورد في القرآن الكريم من العلوم فالعترة الطاهرة أيضاً تكون كذلك. وسيتبيّن للقارئ الكريم من خلال شرح الحديث في محله كيفية الاستدلال بالحديث وكيفية دلالة الحديث إن شاء الله تعالى.

(١) إنّ حديث السفينة من الأحاديث النبوية الشهيرة المتواترة التي رواه علماء الإسلام شيعةً وسنّة من المفسرين والمحدثين والمؤرخين بطرق عديدة عن عدة من الصحابة؛ منهم: ابن عباس ومسلمة بن الأكوع وأبوذر الغفاري وأبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وعبدالله بن الزبير وغيرهم، وسنذكر طرق الحديث من مصادر أهل السنة والجماعة إن شاء الله تعالى.

والحديث واضح الدلالة في وجوب اتباع أئمة الهداة المعصومين من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل أُمته مختاراً بين الأمرين النجاة والهلاك فمن أراد النجاة والفلاح فيجب عليه أن يركب السفينة وأراد بذلك اتباع أهل بيته عليهم السلام ومن لم يرد النجاة ولم يركب السفينة فهو من الهالكين. فدلالة الحديث واضحة لا غبار عليها. وسيتضح للقارئ الكريم شرح دلالة الحديث على وجوب طاعة أئمّة الهدىٰ من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند شرح هذا الحديث وعند بيان كلمات علماء الإسلام في شرح الحديث إن شاء الله تعالى.

(٢) وذلك كحديث المنزلة وحديث الراية وحديث المؤاخاة وحديث الطير وحديث المباهلة وحديث سدّ الأبواب وحديث أنا مدينة العلم وحديث خاصف النعل وحديث الكساء وحديث أمان لأهل الأرض وحديث اثنا عشر خليفة، وغيرها من الأحاديث.

(٣) لا يخفى على الخبير ما يترتب على كتمان الحق من الإثم والفساد والجريمة والمعصية، فإنّ كتمان الحق نوع من خلط الحق بالباطل، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٤٢) بل وفي بعض الآيات أنّ كل أنصار الحق يغضبون على من كتم الحق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ

➲ وَٱلْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٥٩).

فإنّه تعالى قد كرر صيغة اللعن في الآية المباركة للتأكيد عليه واستعمله بصيغة المضارع لبيان استمرار لعن الكاتمين.

ومن هنا يعلم أنّ من أكبر خيانة العالم هي محاولة كتمان الآيات المودعة عندهم فكيف بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو رحمة للعالمين.

ثم إنّ كتمان الحق من المسائل التي عانت منها المجتمعات البشرية على مرّ التاريخ، وكان لها دوماً آثار سيئة عميقة استمرت قروناً وأعصاراً لأن الذي يكتم الحق يلبس الحقيقة بالباطل ومثل هذا الفعل يوجب انحراف الناس ووقوعهم في الهلاكة والضلالة وهذا جرم عظيم، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من سئل عن علم يعلمه فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام النار (مسند أحمد بن حنبل ج٢: ص٤٩٥) وهذا يفيد أنّ الإنسان يلزم عليه أن لا يكتم شيئاً على الآخرين فلو كتمه وصار كتمانه سبباً لإضلال الآخرين فإنّه مسؤول عن ذلك.

ولعل القرآن الكريم لم يهدّد ولم يذم فئة كما هدّد وذم هذه الفئة إذ عمل هؤلاء يجر أجيالاً متعاقبة إلى طريق الضلال والفساد.

ولذلك ورد في بعض الروايات أنّ علماء اليهود والنصارىٰ لو كانوا يعلنون ما عندهم من حقائق وبشارات بشأن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ونشروا ما جاء في العهدين من البشائر والأدلّة حول رسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم لانضوىٰ أهل الكتاب تحت راية الإسلام، ولأصبحوا مسلمين أُمة واحدة، فإنّ كتمان الحق منهم صار سبباً لضلالة أهل الكتاب ولذلك أنّ القرآن الكريم وبّخهم بأشد التوبيخ، وهل يصح بعد ذلك كله نسبة كتمان الحق للمبعوث رحمة للعالمين؟!!!!

فلو كان هناك غير العترة الطاهرة والقرآن الكريم من يكون التمسّك به سبباً للنجاة كان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيانه ضمن حديث الثقلين لأنه أهميّة الهداية وعدم ضلالة الأُمة واقتضاء رحمة رسول رب العالمين مما يدلنا على أنّه لو كان هناك أمر آخر غير القرآن والعترة الطاهرة لذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة قبيح وعدم ذكره مع ذكر كلمة الحصر في أول الحديث دال على أنّ الهداية منحصرة في الثقلين، وأنّ الضلالة في عدمها، فلو ➲

فالهادي بعد خير الرسل هم[1]، والمهتدي الى دين الحق متابعهم، والمتعلّم

➲ كان هناك أمر آخر ولم يذكره الرسول الأعظم لكان هذا كتماناً منه للحق ـ والعياذ بالله ـ ومن الواضح أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كان أرحم بأُمته من الأب والأُم الذي يطلب مصلحة أولاده، فلاحظ.

(١) لا شك أنّ الهادي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابد أن يكون مستجمعاً لجميع الفضائل والكمالات النفسانية والدرجات الإنسانية والروحية ليسدّ بوجوده الفراغ الحاصل من رحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ هداية الهادي بعد الرسول مستمرة إلى قيام الساعة، قال عزّوجلّ: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ (سورة الرعد: ٧).

يعني: أني كما جعلتك يا رسول الله نبياً ومنذراً وأسّست أساس الدين بك، وأكملته وأحكمته بك فأتممت نعمتي على الناس بأن جعلت لكل قوم في القرون اللاحقة هادياً يهتدي به المهتدون. فالآية تدل على أُمور:

الأوّل: احتياج الناس إلى هاد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إبقاء الدين وصونه عن النقصان والزوال.

الثاني: إنّ منصب الهداية كمنصب الإنذار إنّما هو من المناصب الإلهية التي لا يتطرّق فيه اختيار الناس إذ جعل لهم سبحانه تعالى من يهديهم إلى الصراط السوي بلطف منه ورحمته.

الثالث: إنّ الهادي تلو النبوة، لأن تأثير أحدهما في التأسيس والآخر في الإبقاء، فكلاهما في أُصول الدين فيجب معرفة الهادي والاعتراف بمقامه واتّباعه، كما يجب معرفة المنذر والإقرار به وما يترتّب عليه من لزوم إطاعته.

وإذا اتّضح بالأدلّة القطعية أنّ هذا المنصب من المناصب الإلهية كما أنّ منصب النبوة منصب إلٰهي فالهادي بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الهادي لأُمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الشخص الحافظ والحامي للشريعة وهو الإمام المنصوب من قبل الله ولذلك ورد في تفسير الآية الكريمة روايات عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفسّرها بأنّ الهادي هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومن تلك الروايات: ما رواه الفخر الرازي في تفسيره لذيل الآية الكريمة عن ابن عباس قال: وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على صدره فقال: أنا المنذر. ثم أومأ إلى منكب علي عليه السلام وقال: أنت الهادي بك يهتدي المهتدون من بعدي (تفسير الرازي ج١٩: ص١٤).

ورواه الطبري في تفسيره ج١٣: ص١٤٢، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج١: ص٣٨٢، ➲

منهم[1]، والضالّ الهالك من تأخّر عنهم، بعدم المتابعة لهم؛ لما دلّ على إمامتهم

⇐ وابن الجوزي في زاد المسير ج٤: ص٢٢٨ وأبي حيّان الأندلسي في تفسير البحر المحيط ج٥: ص٣٦٠، و ابن كثير في تفسيره ج٢: ص٥٢٠، والسيوطي في الدر المنثور ج٤: ص٤٥، والشوكاني في فتح القدير ج٣: ص٧٠، والآلوسي في تفسيره ج١٣: ص١٠٨، وغيرهم، فالروايات في هذا المعنى من طرق الفريقين كثيرة جداً، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى في محله.

ثم اتّضح أيضاً من الآية والروايات الواردة في تفسيرها أنّه لا سبيل للناس إلى معرفة الهادي إلّا من الله تعالى ومن يكون متصلاً بعالم وحي فلابد للباحثين من الدراسة العميقة في الآية الكريمة، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال، فإنّ الآية الكريمة والروايات الواردة في تفسيرها فيها دلالة واضحة في أنّ الدين يكون قائماً بوجود الهداة والقادة الإلهيين الذين جعل الله تعالى لهم هذا المقام العظيم.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ الاهتداء فرع الاقتداء إذ بالاقتداء يحصل الاهتداء، قال الراغب: ويقال: المهتدي لمن يقتدي بعالم نحو قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (سورة المائدة: ١٠٤) تنبهاً أنّهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون... (مفردات غريب القرآن للراغب: ص٤٥١ مادة الهاء وما يتصل بها).

وقد ذكر المفسّرون هذا المعنى في تفسير الآية الكريمة أيضاً (أُنظر: تفسير النسفي ج١: ص٣٥، وتفسير الرازي ج١٢: ص١١١، وتفسير البحر المحيط ج٦: ص٤٦٢ وغيرهم).

ومن هنا يتضح معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٨) لأنّ المستفاد منها أنّ مجرد الاهتداء لا ينفع شيئاً ولا يؤثر إلّا إذا كانت الهداية معه من الله، فالهداية الإلهية هي التي يكمل بها الاهتداء وتتحتّم معها السعادة.

وبعبارة أوضح: إنّ الاهتداء لابد أن يكون بالاقتداء والاقتداء لابد أن يكون بالحجة، لأنّ الهداية الإلهية ليست هداية جبرية بل إنّها تحصل بالحجج التي يقيمها الهادي المنصوب من قِبَل الله عزّوجلّ فالهداية تتحقّق بإرشاد الهادي وتخضع للأثر المباشر في أعمال الإنسان وصفاته، فالأشخاص الذين جاهدوا بأنفسهم وسعوا بجدّية في طريق القرب الإلهي والتمسّك بحبل الله ⇐

وعصمتهم من الخبرين المتقدّمين [١] وغيرهما مما يأتي بيانه فيما بعد، فحالهم في

والسلوك في الصراط المستقيم فإنّ الله عزّوجلّ سيوفّيهم أجر جهادهم ويهديهم إلى السعادة والفلاح، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (سورة العكنبوت: ٦٩).

فالاهتداء الحقيقي إنّما يحصل بالاقتداء بالهادي الذي عيّنه الله تبارك وتعالى ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لاَ يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ (سورة يونس: ٣٥).

لأنّ الاهتداء الحقيقي يحصل بالاقتداء الصحيح والإقتداء الصحيح هو الإقتداء الهداة الحقيقيّين، وهم الذين جعلهم الله تبارك وتعالى علماً لهداية الناس.

ومن الواضح أنّ جميع الأنبياء والمرسلين هم هادين من قبل الله تعالى ولابد أن يكون خلفائهم كذلك كي تتحقّق معنى الهداية الإلهية.

ومن الواضح أنّ تحقّق هذا المعنى يكون بوجود الهادي المعصوم ولا قائل له في المذاهب الإسلامية إلّا الشيعة الإمامية القائلين بأنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الهداة المعصومين الذين جعلهم الله أعلاماً لدينه بعد خاتم الأنبياء، فالآية الكريمة تدلّ على أفضلية أهل البيت عليهم السلام وعصمتهم كما هو المستفاد من الروايات الواردة في تفسيرها من طرق الفريقين، فلاحظ.

(١) إنّ حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة عند جميع المسلمين وسنذكر طرق الحديث من مصادر المسلمين للقارئ الكريم في محله إن شاء الله تعالى، وهو يدل بالصراحة على أنّ الوقاية من الضلال والهلاكة إنّما تكون باتّباع الخط الإلٰهي الممثل بالثقلين: كتاب الله عزوجل وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالحديث متضمّن للبشارة بنجاة الأمة إن هم تمسّكوا بهما معاً، فالثقلين يكونان سبباً للهداية والنجاة معاً، وقد نهى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذيل حديث الثقلين عن التقدّم على العترة الطاهرة لأنّ التقدّم عليهم يكون سبباً للتهلكة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا. فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم باتباعهم والتمسّك بهم على سبيل الإطلاق ونهىٰ عن التقدّم عليهم بصورة عامة.

ومن الواضح لدى الخبير: أنّه لا يجوز اتباع أحد على الإطلاق إلّا إذا كان معصوماً لأنّ الذي يجوز له الخطأ قد يكون اتّباعه اتّباعاً خطائياً فلايصحّ اتّباعه مطلقاً. فالاتّباع المطلق إنّما يجوز من المعصوم ليس إلاّ فهذا نص صريح واضح الدلالة على إمامة العترة الطاهرة

➲ وعصمتهم وأهليتهم لقيادة الأمة بعد النبيصلى الله عليه وآله وسلم.

ثم إنّ النهي عن التقدّم عليهم وعدم التقصير في حقهم نصّ في أنهمعليهم السلام قوّامون على الدين وليس المراد بالتقدّم عليهم التقدم الزماني أو المكاني وإنّما المراد التقدّم عليهم بالحكم والرأي والإفتاء والتكلّم في أُمور الدين والشريعة وذلك بقرينة الهداية والضلالة يتحقّقان بمعالم الدين ومعالم الدين، إنّما يؤخذ ممّن له هذه الصلاحية فمن أخذ معالم الدين من القادة الإلٰهية فهو مهتدي، ومن لم يأخذ منهم فهو مضلّ، فالنهي عن التقدّم عليهم مطلق وعام لجميع أفراد الأُمة لكونهم أعلم الأُمة بأجمعهم كما أنّ التقصير في حقهم والائتمام بغيرهم يكون سبباً للتهلكة.

قال ابن حجر: وفي أحاديث الحث على التمسّك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهّل منهم للتمسّك به إلى يوم القيامة، كما أنّ الكتاب العزيز كذلك ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض... (الصواعق المحرقة: ص١٤٩، الطبعة المحققة ج٢: ص٤٤٢).

وقال المناوي: قال الشريف: إنّ بهذا الخبر يفهم وجود من يكون أهلاً للتمسّك به من أهل البيت والعترة الطاهرة في كل زمن إلى قيام الساعة حتى يتوجّه الحث المذكور إلى التمسّك بهم كما أنّ الكتاب كذلك، فلذلك كانوا أماناً لأهل الأرض، فإذا ذهبوا ذهب أهل الارض (فيض القدير ج٣: ص١٥).

وهذا يؤكد لنا أنّ الأئمة الاثني عشر بنصّ النبي الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم هم قرناء القرآن ولا يفترقوا عنه إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك أنّه كما يجب على الناس التمسّك بالقرآن الكريم وطاعة أوامره ونواهيه كذلك العترة الطاهرة فتجب على جميع الأُمة طاعتهم وإنّ عدم طاعتهم يكون سبباً لهلاكهم وضلالتهم وإن كل ضال في النار.

ومثله حديث السفينة: وهو أيضاً من الأحاديث المشهورة المتواترة وقد رواه كثير من علماء الفريقين الشيعة والسنّة من المفسرين والمحدثين والمؤرخين وغيرهم بطرق عديدة عن عدة من الصحابة: كعبدالله بن عباس ومسلمة بن الأكوع وأبي ذر الغفاري وأبي سعيد الخدري وأنس بن مالك وعبدالله بن الزبير وغيرهم، عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّما مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجىٰ ومن تخلّف عنها غرق أو هلك (أُنظر: المستدرك للحاكم ج٢: ٣٤٣

➲

الضعف والعجز عن السياسة للخلق بالدين القويم حال من نبّهنا عليهم من الرسل من حيث ثبوت ضعفهم وعجزهم عن سياسة الخلق بدين الله بسبب بغي الخلق، وطغيانهم عليهم ومعصيتهم لهم(١).

وج ٣: ص١٥١، ومجمع الزوائد للهيثمي ج٩: ص١٦٨، والمعجم الأوسط للطبراني ج٤: ١٠ وغيرها). وسنذكر الحديث بطرقه المتعددة للقارئ الكريم في محلّه إن شاء الله تعالى.

وهذا الحديث أيضاً يدل بالصراحة على أنّ الهداية والنجاة إنّما تحصل باتباع أئمة أهل البيت عليهم السلام وإنّ المتخلّف عنهم فهو من الهالكين.

فالحديث فيه ذكر السفينة، وهذا تعبير مجازي يعبّر بها عندما كان مسيرة الحياة في حالة خطرة لا طريق إلى النجاة إلّا ما ذكر فيه، فهذا حديث يحمل نفس المعنى الوارد في حديث الثقلين فهما يدلان على إمامة أئمة الهدىٰ المعصومين من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعصمتهم. وسيتبيّن ذلك في شرح الحديث الذي سنذكره إن شاء الله تعالى في محلّه.

(١) فإنّ من قرأ تاريخ الأنبياء يذعن إذعاناً جازماً بأنّ الأنبياء أكثرهم تحمّلوا الإيذاء والإهانة والتكذيب والتعذيب من الكافرين والطغاة الذين تمتعوا بمختلف ملاذ الدنيا ومع ذلك كان الأنبياء يرشدون الناس الى معرفة الحقّ والوصول إليه بالأسباب العادية المتعارفة، والأماكن العمومية من الأسواق والطرق وغير ذلك.

وكانت السلاطين والطغاة يستعملون القوّة والإرهاب ضدّ الأنبياء ليستحكموا بذلك ظاهر قدرتهم وحكموتهم الجائرة. فالأنبياء عليهم السلام كانوا يقابلون هذه القدرات الفاسدة، وكانوا يدعون الناس ارلى التوحيد ورفض الشرك، فكانت السلاطين تقوم بإيذاء الأنبياء والإعلام السلبي ضدّهم خوفاً على حكومتهم وسلطتهم الجائرة، فكانوا يواجهون سفراء الله بأشد القسوة والعنف والترهيب... .

وفي المقابل كان الأنبياء يرشدون الناس بالمنطق والأُسلوب الحكيم الجميل المؤثر عند العقلاء. ولكن الناس كانوا على دين ملوكهم فكانوا يواجهون الأنبياء بالمقابلة السلبية من قبيل التكذيب والتعذيب والقتل فضلاً عن العصيان والتمرد والمخالفة.

فوجودهم لطف ورحمة[(١)]

➲ في حين أنّ الأنبياء كانوا أعرف من غيرهم برعاية مصلحة أُمور النـاس ونـظام مـعاشهم ومعادهم والتصدّي للأُمور السياسية والاجتماعية ولكن لم تكن مجاري الأُمور تحت أيديهم ولم يشرفوا على مقام الرئاسة الاجتماعية الظاهرية وإلّا لو كانت الأُمور السياسية في أيديهم لحققوا العدالة في المجتمع كما أن بعض الأنبياء قد حصلت لهم هذه الفرصة وأقاموا القسط في المجتمع فإنّ الأمر بالنسبة إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام يكون كذلك فإنهم أوصياء الأنـبياء حقاً فرغم أنهم كانوا أعلم الأمة وأفضلهم وأعرفهم بتصدّي الأُمور لقيادة الأُمّة ومرجـعيّتها ونظم البلاد وانتظام أُمور العباد وسد الثغور وغير ذلك ولكن أهل الأهواء، والأطماع الدنيوية ويد العداء الطاغية منعتهم عن تحقّق ذلك في الخارج وحرّموا الناس عـن تـلك المـجتمع العادلة التي فيها الخير والصلاح لجميع الموجودات إلى أن يظهر الله قائمه فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً.

(١) فإنّ وجود الإمام المعصوم بين الناس لطف الٰهي؛ إذ به يضمن سلامة الدين ودوامـه ودفـع العناصر الخبيثة المخرّبة، ولولاه لانهدمت أركان الدين إذ بالإمام تقيم حجة.

ففي الحديث عن سليمان بن الأعمش قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: لا تخلو (الأرض) إلى أن تقوم الساعة من حجة الله فيها ولولا ذلك لم يعبد الله. قال سليمان: فقلت للصادق عليه السلام: كيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟ قال: كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب (ينابيع المودة ج٣: ص ٣٦٠ ح٣) ورواه الصدوق رحمه الله في إكمال الدين: ص٢٠٧، والعلاّمة المجلسي في بحار الأنوار ج٢٣: ص٦.

ومن دعاء الإمام السجّاد عليه السلام يوم عرفة قوله عليه السلام: اللهم إنك أيّدت دينك في كل أوان بإمام أقمته علماً لعبادك ومناراً في بلادك بعد أن وصلت حبله بحبلك، وجعلته الذريـعة إلى رضـوانك واقترضت طاعته وحذرت معصيته، وأمرت بامتثال أوامره، والانتهاء عن نهيه، وألّا يتقدّمه متقدّم ولا يتأخّر عنه متأخّر، فهو عصمة اللائذين وكهف المؤمنين وعروة المتمسّكين وبهاء الدين (الصحيفة السجادية الكاملة: ص٢٥٥ دعائه يوم عرفة) ورواه القندوزي الحنفي فـي ينابيع المودة ج٣: ص٤٢٢.

فالإمام سبب لكمال البشر وصعودهم إلى المراتب العالية مـن الفـضائل والكـمالات المـعنوية ➲

وتصرّفهم لطف ثان[١]،

➲ النفسانية سواء كان الإمام حاضراً أم غائباً إذ بوجوده يتقرّب الناس إلى الله عزّوجلّ حيث أن المكلفين إذا اعتقدوا بوجود إمام معصوم في كل عصر وزمان لانقادوا إليه، فتحذير العباد عن الوقوع في الهلكات والدعوة إلى الحقّ لطف من الله تعالى للعباد وموجب لارتقاء الإنسان من جهة الكمال النفسية والفضائل الروحية.

فمجرد وجود الإمام بين الناس لطف إلٰهي وسبب لنزول البركات والخيرات، وإن لم يكن ظاهراً. ولذلك عندما سأل عبدالعزيز بن مسلم عن الإمام الرضا عليه السلام من الإمامة التي كان الناس يتناظرون فيها فتبسّم الإمام عليه السلام وقال: يا عبدالعزيز، جهل القوم وخدعوا عن أديانهم، إنّ الله تعالى لم يقبض نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كل شيء، بيّن فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج اليه الناس كملاً، فقال عزّوجلّ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨).

وأنزل في حجة الوداع في آخر عمرة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (سورة المائدة: ٣) وأمر الإمامة من تمام الدين ولم يمض صلى الله عليه وآله وسلم حتى بيّن لأُمته معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد الحق وأقام لهم علياً عليه السلام علماً واماماً وما ترك شيئاً تحتاج اليه الأمة إلّا بيّنه.

فمن زعم أنّ الله عزوجل لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله عزوجل، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر... (عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢: ص١٩٥) فإنّ الإمام عليه السلام بيّن بأنّ إتمام الدين واستمرار الحجة الإلهية وتبيّن معالمه ومعارفه إنّما تحقّق بتنصيب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، فلاحظ.

(١) لا شك أنّ الإمام المعصوم لو كان على هرم القدرة كان اللطف على الناس مضاعفاً حيث تتضاعف طاعة الله على وجه الأرض، وتعمُّ تنوير القلوب بالهداية الى دين الحق وإلى الفضائل والكمالات المعنوية التي يميّز بها الإنسان عن غيره ويكون صاحب الفضائل والكرامات، فلا يتصوّر فوق هذا اللطف والرحمة شيء إذ هذا اللطف لا يغني عنه شيء، ولذلك إنّ الله تعالى عبّر عن ذلك في كتابه المجيد بإكمال الدين فأنزل بعد تنصيب الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (سورة المائدة: ٣).

➲

وعدمه من الخلق[١]، فالضرر على الخلق إنّما حصل بخروجهم عن طاعة

➲ هذه الآية الكريمة نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خم بعد عقده الخلافة والولاية للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما اتفقت عليه روايات الشيعة وكثير من روايات أهل السنة، أمّا بالنسبة إلى كتب الإمامية في الحديث والتفسير والتاريخ وعلم الكلام فضع يدك علىٰ أيّ منها تجرّه مفعماً بإثبات قصة الغدير والاحتجاج بمؤداها.

فحديث الغدير عند الشيعة الإمامية من المسلّمات بل من الضروريات التي لا تقبل التشكيك، ولا أحسب أنّ أهل السنّة يتأخرون بكثير من الإمامية في إثبات هذا الحديث البخوع لصحته والركون إليه والتصحيح له، والإذعان بتواتره، إلّا من شذ وحدت به العصبية العمياء وإلّا فإنّ المثبتين المحقّقيين لاتخالجهم أية شبهة في اعتبار أسانيد هذا الحديث الذي ورد في شأن نزول آية الإكمال.

وقد ذكر العلّامة الأميني (رضوان الله تعالى عليه) أسناد الحديث في جميع طبقاته من القرن الأول للهجرة حتى القرن الرابع عشر، فكان عددهم يزيد عن ثلاثمائة وستين محدّثاً، ولمن أراد التحقيق فليرجع إلى كتاب الغدير ج١: ص١٢ - ١٠٢.

ودلالة الأخبار صريحة في ذلك، كما سيأتي تفصيل الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

فالآية بضميمة الروايات الواردة في شأن نزولها وتفسيرها من الفريقين يدلان على أنّ الله تبارك وتعالى أكمل دينه بنصب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام خليفةً وإماماً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة.

فتصرّف الإمام في المجتمع لطف عظيم من الله إذ الإمام يقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وينوب منابه، فالهداية تكون بسببه بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو الحبل ما بين السماء والأرض، فطاعته طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وطاعة رسول الله طاعة الله تعالى، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (سورة النساء: ٨٠).

فلا انفصال بين طاعة الله وطاعة الرسول وطاعة الإمام المعصوم إذ كل خطوة يخطوها الرسول أو الإمام المعصوم لا يكون مخالفاً لإرادة الله، فكل ما يصدر منهما من القول والفعل والتقرير إنّما يكون مطابقاً مع إرادة الله سبحانه وتعالى ومشيئته، وهذه المواضيع المذكورة تحتاج الى شرح وتفصيل، ونحن نكتفي بهذه الخلاصة هنا، وسيأتي البحث فيها مفصّلاً إن شاء الله تعالى.

(١) وتحقيق المقام في أنّ وجود الإمام المعصوم لطف من الله عزّوجلّ تتم بأمور ثلاثة:

السلطان(١).

➲ الأوّل: هو واجب على الله من باب اللطف على العباد فإنّ تعيين الإمام وتمكينه بالعلم والقدرة في التكوين والنص باسمه ونصبه أمر لازم بضرورة العدل الإلٰهي.

الثاني: ما هو واجب على الإمام وهو تحمّله الإمامة وقبولها.

الثالث: ما هو واجب على الرعية وهو أن ينصروه ويطيعوه ويذبّوا عنه ويحفظوه من شر كل ذي شر.

ومجموع هذه الأُمور هو السبب التام للطفية وجود الإمام المعصوم بين الناس ظاهراً عملاً في الخارج، أي إنّ آثار اللطف يظهر للجميع مع وجود هذه الشرائط، وأمّا إذا لم تكن الرعية تعرف قدر هذه النعمة وعظمتها فهم سوف يتضررون فقدان هذه النعمة العظيمة وزوال العافية بحلول النقمة عليهم والفضيحة في الدنيا والآخرة، كما لا يخفى ذلك على أحد.

(١) وهذا ضروري، فإنّ عدم طاعة إمام الحق والخروج عن سلطانه يوجب دخولهم في الهلكات لأنّ بالإمام يصون المجتمع عن الوقوع في الضلالة والانحراف فكما أنّ بوجود الطبيب في المجتمع ومعالجاته يصون أبدان المرضىٰ عن الآفات والآلام كذلك بوجود الإمام على سرير السلطة، يصون المجتمع عن الانحراف والضلالة.

حيث إنّ أعوان الشيطان يرصدون المؤمنين دائماً فيحاولون أن يخرجوهم من الصراط المستقيم بسبب أعوانهم الظلمة فيمنعون الناس من الدخول في زمرة المؤمنين بأيّ سبب من الأسباب الممكنة ويستغلّون الفُرص لهذه الجهة، ولذلك يجب على المؤمنين أن يجهزوا أنفسهم بالعلم والمعرفة لئلّا يؤثر عليهم كيد الشياطين.

قال الإمام الصادق عليه السلام في خطبة يذكر فيها حال الأئمة الأطهار عليهم السلام وصفاتهم، قال عليه السلام: إنّ الله عزوجل أوضح بأئمة الهدىٰ من أهل بيت نبيّنا عن دينه، وأبلج بهم عن سبيل منهاجه، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه، فمن عرف من أُمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم واجب حق إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه، وعلم فضل طلاوة إسلامه، لأنّ الله تبارك وتعالى نصب الإمام علماً لخلقه، وجعله حجة على أهل مواده وعالمه، وألبسه الله تاج الوقار وغشاه من نور الجبار، يمد بسبب إلى السماء، ولا ينقطع عنه مواده، ولا ينال ما عند الله إلّا بجهة أسبابه، ولا يقبل الله أعمال العباد إلّا بمعرفته فهو عالم بما يرد عليه من ملتبسات الدجى، ومعميات السنن، ➲

ومشبهات الفتن، فلم يزل الله تبارك وتعالىٰ يختارهم لخلقه من ولد الحسين عليه السلام من عقب كل إمام يصطفيهم لذلك ويجتبيهم، ويرضي بهم لخلقه ويرتضيهم كل ما مضىٰ منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً علماً بيّناً وهادياً نيّراً قيماً وحجةً عالماً، أئمة من الله يهدون بلحق وبه يعدلون، حجج الله ودعائه ورعاته على خلقه، يدين بهديهم العباد وتستهل بنورهم البلاد، وينحو ببركتهم التلاد، جعلهم الله حياة للأنام ومصابيح للظلام، ومفاتيح للكلام، ودعائم الإسلام، جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها، فالإمام هو المنتجب المرتضىٰ، والهادي المنتجىٰ، والقائم المرتجىٰ، اصطفاه الله بذلك واصطنعه على عينه في الذر حين ذرأه، وفي البرية حين برأه، خلأ قبل خلق نسم عن يمين عرشه محبوّاً بالحكمة في علم الغيب عنده، اختاره بعلمه وانتجبه لطهره، بقية من آدم عليه السلام وخيرة من ذرية نوح، ومصطفى من آل إبراهيم وسلالة إسماعيل، وصفوة من عترة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، لم يزل مرعياً بعين الله يحفظه ويكلؤه ستره، مطروداً عن حبائل إبليس وجنوده، مدفوعاً عنه قلوب الغواسق ونفوث كل فاسق، مصروفاً عنه قوارف السوء، مبرّءاً من العاهات، محجوباً عن الآفات، معصوماً من الزلّات، مصوناً عن الفواحش كلها، معروفاً بالحلم والبر في يفاعه، منسوباً إلى العفاف والعلم والفضل عند انتهائه مسنداً اليه أمر والده، صامتاً عن المنطق في حياته.

فإذا انقضت مدة والده إلى أن انتهت به مقادير الله إلى مشيئته، وجاءت الإرادة من الله فيه إلى محبته وبلغ مدة والده فمضى، وصار الله اليه من بعده وقلده دينه، وجعله الحجة على عباده، وقيّمه في بلاده، وأيده بروحه وآثار علمه، وأنباه فصل بيانه، واستودعه سره، وانتدبه لعظيم أمره، وأنبأه فضل بيان علمه، ونصبه علماً لخلقه، وجعله حجة على أهل عالمه وضياءً لأهل دينه، والقيّم على عباده، رضي الله به إماماً لهم، استودعه سره واستحفظه علمه، واستخبأه حكمته واسترعاه لدينه، وانتدبه لعظيم أمره، وأحيا به مناهج سبيله وفرائضه وحدوده.

فقام بالعدل عند تحيّر أهل الجدب بالنور الساطع الشفاء النافع بالحق الأبلج، والبيان اللائح من كل مخرج، على طريق المنهج الذي مضى عليه الصادقون من آبائه عليهم السلام فليس يجهل حق هذا العالم إلّا شقي، ولا يجحده إلّا غوي، ولا يصد عنه إلّا جري على الله جلا وعلا (الكافي ج١: ص٢٠٣ ح٢).

➲ إذ أنّ الإمام المعصوم له أوصاف وهذه الأوصاف إنّما لابد أن يؤخذ من الله تعالى أو من رسوله أو من أحد المعصومين، ويجب على المؤمن أن يعرف أوصاف الإمام الذي يلزم عليه الاقتداء به، فالإمام الذي يجب الاقتداء به أولاً لابد أن يكون له السلطان من قبل الله تبارك وتعالى، أي إنّ الله تعالى قد جعله إماماً وسلطاناً على الخلق فخروجهم عن طاعته موجب لمعصية الله، تعالى أولاً ثم معصية الرسول ثم التوفيق والسعادة عنهم وعدم شمولهم الألطاف الإلهية ورحمته الواسعة كما لا يخفى ذلك من الأدلّة العقلية والنقلية، فلاحظ.

قال السُّني:

الوجه الرابع: إنّ قوله: «عن أهل السنة» أنّهم لم يثبتوا العدل والحكمة وجوّزوا عليه فعل القبيح والإخلال بالواجب نقل باطل عنهم من وجهين:

أحدهما: إنّ كثيراً من أهل السنة الذين لا يقولون في الخلافة بالنصّ على علي ولا بإمامة الاثني عشر، يثبتون ما ذكره من العدل والحكمة على وجه الذي قاله هو وشيوخه عن هؤلاء أخذوا ذلك كالمعتزلة وغيرهم ممن وافقهم من متأخّري الرافضة على القدر، فنقله عن جميع أهل السنة الذين هم في اصطلاحه واصطلاح العامة من سوى الشيعة هذا القول كذب منه.

الوجه الثاني: إنّ أهل السنّة الذين يقرّون بالقدر ليس فيهم من يقول: إنّ الله ليس بعدل، ولا من يقول: إنّه ليس بحكيم، ولا فيهم من يقول: إنّه يجوز أن يترك واجباً ولا أن يفعل قبيحاً.

فليس في المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام الذي من أطلقه كان كافراً مباح الدم باتفاق المسلمين.

ولكن هذه المسألة القدر والنزاع فيها معروف بين المسلمين، فأمّا نفاة القدر كالمعتزلة وغيرهم فقولهم هو الذي ذهب اليه متأخّروا الإمامية وأمّا مثبتوا القدر وهم جمهور الأُمة وأئمتها كالصحابة والتابعين لهم بإحسان وأهل البيت وغيرهم، فهؤلاء تنازعوا في عدل الله وحكمته والظلم الذي يجب تنزيهه عنه وتعليل أفعاله

وأحكامه ونحو ذلك.

فقالت طائفة: إنّ الظلم ممتنع منه غير مقدور وهو محال لذاته كالجمع بين النقيضين، وإنّ كل ممكن مقدور ليس ظلماً، وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم وهؤلاء يقولون: إنّه لو عذّب المطيعين ونَعّم العصاة لم يكن ظلماً، وقالوا الظلم التصرّف فيما ليس له والله له كل شيء، أو هو مخالفة الأمر والله لا آمر له، وهذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر، ومن وافقهم من الفقهاء من أصحاب الأئمة الأربعة.

وقالت طائفة: بل الظلم مقدور ممكن والله سبحانه لا يفعله لعدله ولهذا مدح نفسه، حيث أخبر أنّه لا يظلم الناس شيئاً، والمدح إنّما يكون بترك المقدور عليه لابترك الممتنع.

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾ قالوا: الظلم أن يجعل عليه سيئات غيره، والهضم أن يهضم حسناته.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فأخبر أنّه لم يظلمهم لما أهلكهم بل أهلكهم بذنوبهم.

وقال تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فدلّ على أنّ القضاء بينهم بغير القسط ظلم والله منزّه عنه... .

ومما يبيّن أنّ الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأنّه لا يحمل على أحد ذنب غيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فإنّ ذلك ينزّه الله عنه. ومثله في الفرقان كثير.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله تعالى يقول: يا عبادي، إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا.

فقد حرّم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله تعالى: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ فالممتنع لنفسه لا يحرمه على نفسه، وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر من أهل الحديث والتفسير وغيرهم.

وعلى هذا القول فالقائلون بعدل الله وإحسانه دون القائلين من القدرية بأنّ من فعل كبيرة حبط إيمانه، فإنّه ظلم نزّه الله تعالى عنه نفسه فقال: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾[١].

---

(١) منهاج السنّة ج١: ص١٣٣ـ١٣٨.

قلت:

في هذه النبذة وجوه:

أحدها: ما نسبه الى كثير ممن قال بإمامة الثلاثة من القول بالعدل والحكمة مثل ما تقوله الشيعة[1]؛ فإنّه قد مضى بيان بهتان هذه الدعوى بنفس ما ذهبت اليه

(١) فإنّ الشيعة الإمامية تعتقد أنّ العدل الإلهي من الحكمة الإلهية حيث يلزم به رعاية جميع الحقوق والحدود والمطالبات، وذلك بمعنى أنّ إرادته تعالى ليست عابثة وجزافية، بل تكون لغرض حكيم وأنّه تعالى لا يريد إلّا ما يناسب وما تقتضيه صفاته الكمالية وإذا لم يقتض صفاته الكمالية، فلايصدر منه ارلاّ يقضتيه العدل والحكمة.

فمقتضى الصفات الإلهية الكمالية أن يخلق العالم بصورة يتوفّر فيه الكمال الغالب والخير الغالب فإرادته بالإصالة إنّما تتعلّق بجهة كمال المخلوقات وخيرها، وإذا لزم من وجود المخلوق حدوث بعض الشرور فإنّها غير مقصودة بالأصالة في الإرادة الإلهية وإنّما هي جهة مقابلة للخير بحيث لا تنفكّ عنه.

فمثلاً: إنّ الإرادة الإلهية تعلّقت بخلق الإنسان، لأنّ الإنسان ممكن الوجود في ذاته وانّ وجوده منشأ للخير الغالب ولأكثر الخيرات، لأنّ الهدف من خلق الإنسان العبودية، والعبودية تكون منشأ للخير والبركة، لأنّ العبودية هي الطاعة بلا قيد ولا شرط، والامتثال للأوامر الإلهية في جميع المجالات وأثرها أن لا يفكّر الإنسان إلّا بعبادة المعبود الواقعي الذي هو الكمال المطلق فالعبودية هي قمة التكامل وأوج بلوغ الإنسان واقترابه من الله سبحانه.

ثم إنّ من المميزات الرئيسية للإنسان اختياره وإرادته الحرّة، ولا شك أنّ التوفّر على قوّة الإرادة والاختيار يعدّ من الكمالات الوجودية حيث يعد الواجد لها أكمل من الفاقد لها، ولكن ما ⇐

المعتزلة، من عدم لزوم نصب إمام معصوم، وغير معصوم في كل زمان[١]؛ فإنّ

➲ يلازم اختيارية الإنسان أن يكون قادراً على ممارسة الأفعال الحسنة الخيرة التي توصله إلى كماله النهائي والأبدي، وكذلك يكون قادراً على ارتكاب الأفعال القبيحة والمنكرة لتتجه به إلى السقوط في حضيض الخسران والشقاء الأبدي، وبطبيعة الحال فما تعلّق به الإرادة الإلهية هي أصالة الخير وتكامله، ولكن بما أنّه يلازم مقابلته للأفعال القبيحة، فلابدّ للإنسان أن يختار الفصل الحسن، وهذا الاختيار سبب لتكامله، فالحكمة الإلهية اقتضت، بأن يخلق الإنسان مع الاختيار والإنسان باختياره يرتقى درجات الكمال بإيجاده فعل الخير، لذلك وفّر له مستلزمات الحركة التكاملية، والهدف وصوله إلى أفعاله الحسنة.

فالدليل على العدل الإلهي هو نفس صفات الباري الذاتية حيث تكون حكيمة وعادلة. وهذا ما يقول به الشيعة الإمامية في العدل الإلهي.

وعليه: فإنّ الشيعة الإمامية تعتقد وجوب نصب الإمام المعصوم في كلّ عصر وزمان من باب العدل الإلهي والحكمة الارلهية؛ لأنّ اللطف بحال العباد يقتضي أن يكون لهم الهادي والمرشد واللطف من مصاديق العدل الإلهي وصفاته الحكيمة قال الله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ (سورة الأنعام: ١٢٤).

هذه الآية الكريمة تبيّن بشكل واضح أنّ الرسالة الإلهية الممتدة في الأنبياء والأوصياء وهي تكون بمشيئة الله وأنّ مشيئته تعالى عين حكمته وعدالته.

فما أبعد أهل السنّة عن هذه الحقيقة، وأمّا المعتزلة منهم وإن ذهبوا في مقام البحث والجدل إلى العدل الإلهي ولكنهم نقضوا ذلك في باب الإمامة، سيأتي البحث فيه مفصّلاً إن شاء الله تعالى.

(١) لا شك أنّ المعتزلة هم من أهل السنّة القائلين بخلافة خلفاء الأربعة في باب الإمامة، وأنّ هذه الحقيقة غير قابلة للمناقشة لأنّ كتبهم وآراء علمائهم أكبر شاهد على ذلك وإن كانوا يختلفون مع أهل الحديث والأشاعرة في بعض المناهج الفكرية التي أسّسوا عليها أُصول معتقداتهم، فهم يعتمدون على العقل كمصدر للفكر والعقيدة بخلاف أهل الحديث الذين يهملون دور العقل في أُصول معقتداتهم بالمرة. ولكنهم في باب الامامة يعتقدون بخلافة الخلفاء الثلاثة.

والغريب من هؤلاء الذين يسلكون في اعتقاداتهم مسلك الاعتماد على العقل ويذهبون إلى العدل ➲

➲ الإلهي في أُصول اعتقاداتهم ويقولون بوجوب اللطف على الله سبحانه ولكن مع ذلك كلّه يعتقدون بأنّ الإمامة ليست بنص من الله ولا من النبيصلى الله عليه وآله وسلم وإنّما هي باختيار الناس.

قال ابن أبي الحديد وهو من كبار علمائهم، ما هذا نص عبارته: اتفق شيوخنا كافة المتقدّمون منهم والمتأخرون، والبصريون والبغداديون على أنّ بيعة أبي بكر بيعة صحيحة شرعية، وإنّها لم تكن عن نصّ وإنّما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع وبغير الإجماع طريقاً إلى الإمامة... (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١: ص٧).

أقول: **أوّلاً**: إنّ هذه الوثيقة التاريخية قد بيّنت حقيقة الاعتزال والاختلاف الجوهري بينهم وبين الشيعة الإمامية. وسيتبيّن للقارئ الكريم أبعاد هذا الاختلاف بشكل أوضح في المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

وثانياً: إنّ مقتضى وجوب اللطف على الله الذي أسّس عليه المعتزلة بعض معتقداتهم نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالى في كلّ عصر وزمان كما أنّ مقتضاه وجوب إرسال الرسل من باب اللطف، فلماذا ذهبوا هؤلاء إلى أنّ الإمامة تكون باختيار الناس وهل يمكن الجمع بين الأمرين؟!!!

ومن أجل وضوح الأمر في هذا المجال ولو على نحو الإجمال نلفت نظر القارئ إلى بعض المناظرات التي وقعت بين المعتزلة والإمامية في بحث الإمامة كي يُعرف مدى الاختلاف بين المذهبين، فمن تلك المناظرات المناظرة التي وقعت في مكة المكرمة بين الإمام الصادقعليه السلام وعمرو بن عبيد المعتزلي.

يقول عبدالكريم بن عتبة الهاشمي: كنت عند أبي عبدالله الصادقعليه السلام بمكة إذ دخل عليه أُناس من المعتزلة فيهم عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وحفص بن سالم، وأُناس من رؤسائهم، وذلك أنّه حين قتل الوليد، واختلف أهل الشام بينهم، فتكلّموا فأكثروا وخطبوا فأطالوا.

فقال لهم أبو عبدالله الصادقعليه السلام: أنّكم قد أكثرتم علَيَّ فأطلتم، فأسندوا أمركم إلى رجلٍ منكم، فليتكلّم بحجتكم وليوجز. فأسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ وأطال، فكان فيما قال أن قال: قتل أهل الشام خليفتهم، وضرب الله بعضهم ببعض، وتشتّت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروءة، ومعدن للخلافة، وهو محمد بن عبدالله بن الحسن، فأردنا أن ➲

⬅ نجتمع معه فنبايعه ثم نظهر أمرنا معه، وندعو الناس إليه، فمن بايعه كنا معه وكان منا، ومن اعتزلنا كففنا عنه، ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ونرده إلى الحق وأهله، وقد أحبّنا أن نعرض ذلك عليك؛ فإنّه لا غنى عن مثلك ولكثرة شيعتك.

فلمّا فرغ، قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: أكلكم على مثل ما قال عمرو؟ قالوا: نعم.

فحمد الله وأثنى عليه وصلىٰ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال عليه السلام: إنّما نسخط إذا عصى الله، فإذا أُطيع الله رضينا، أخبرني يا عمرو، لو أنّ الأُمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مؤنة، فقيل لك: ولها من شئت، من كنت تولي؟

قال: كنت أجعلها شورى من المسلمين، قال: بين كلّهم؟ قال: نعم.

فقال عليه السلام: بين فقهائهم وخيارهم؟ قال: نعم.

قال عليه السلام: قريش وغيرهم؟ قال: العرب والعجم.

قال عليه السلام: فأخبرني يا عمرو أتتولىٰ أبابكر وعمر أو تتبرأ منهما؟ قال: أتولاهما.

قال عليه السلام: يا عمرو، إن كنت رجلاً تتبرّأ منهما؛ فإنّه يجوز لك الخلاف عليهما، وإن كنت تتولاهما فقد خالفتهما، قد عهد عمر إلى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحداً، ثم ردها أبوبكر عليه ولم يشاور أحداً، ثم جعلها عمر شورى بين ستة، فخرج منها الأنصار غير أُولئك الستة من قريش، ثم أوصىٰ الناس فيهم بشيء ما أراك ترضى أنت ولا أصحابك، قال: وما صنع؟

قال: أمر صهيباً أن يصلي بالناس ثلاثة أيام، وأن يشاور أُولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلّا ابن عمر ويشاورونه وليس له من الأمر شيء، وأوصىٰ من كان بحضرته من المهاجرين والأنصار ـ أن مضت أيام ولم يفرغوا ويبايعوه ـ أن تضرب أعناق الستة جميعاً، وإن اجتمع أربعة قبل أن تمضي ثلاثة أيام، وخالف اثنان أن تضرب أعناق الاثنين، أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورىٰ بين المسلمين؟ قالوا: لا.

قال عليه السلام: يا عمرو دع هذا، أرأيت لو بايعت صاحبك هذا الذي تدعو اليه، ثم اجتمعت لكم الأُمة ولم يختلف عليكم منها رجلان، فأقضيتم إلى المشركين الذين لم يسلموا ولم يؤدوا الجزية، كان عندكم وعند صاحبكم من العلم ما تسيرون فيهم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المشركين في حربه؟ قالوا: نعم، قال: فتصنعون ماذا؟ قالوا: ندعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا دعوناهم إلى ⬅

◄ الجزية.

قال عليه السلام: فإن كانوا مجوساً وأهل كتاب؟ قالوا: وإن كانوا مجوساً وأهل كتاب، قال: إن كانوا أهل الأوثان وعبدة النيران والبهائم وليسوا بأهل كتاب؟ قالوا: سواء.

قال عليه السلام: أخبروني عن القرآن، أتقرؤونه؟ قالوا: نعم.

قال عليه السلام: إقرأ ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلاَيُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (سورة التوبة: ٢٩).

قال عليه السلام: فاستثنىٰ الله عزوجل واشترط من الذين أُوتوا الكتاب، فهم والذين لم يؤتوا الكتاب سواء؟ قال: نعم.

قال عليه السلام: عمن أخذت هذا؟ قال: سمعت الناس يقولونه.

قال عليه السلام: فدع هذا، فإنّهم إن أبوا الجزية فقاتلتهم فظهرت عليهم، كيف تصنع بالغنيمة؟ قال: أخرج الخمس وأقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليها.

قال عليه السلام: تقسمه بين جميع من قاتل عليها؟ قال: نعم.

قال عليه السلام: فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فعله وفي سيرته، وبيني وبينك فقهاء أهل المدينة ومشيختهم فسلهم فإنّهم لا يختلفون ولا يتنازعون في أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّما صالح الأعراب على أن يدعهم في ديارهم وأن لا يهاجروا، ... أنّه إن دهمه من عدوه دهم فيستفزّهم فيقاتل بهم، وليس لهم من الغنيمة نصيب، وأنت تقول بين جميعهم، فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سيرته في المشركين، دع هذا، ما تقول في الصدقة؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ...﴾ (سورة التوبة: ٦٠).

قال عليه السلام: نعم، كيف تقسم بينهم؟ قال: اقسمها على ثمانية أجزاء، فأعطي كل جزء من الثمانية جزءاً.

فقال عليه السلام: إن كان صنف منهم عشرة آلاف، وصنف رجلاً واحداً أو رجلين أو ثلاثة، جعلت لهذا الواحد مثل ما جعلت للعشرة آلاف؟ قال: نعم.

قال عليه السلام: وما تصنع بين صدقات أهل الحضر وأهل البوادي فتجعلهم فيها سواء؟ قال: نعم.

◄

بضروره العقل والدين مازعموه مخالف للحكمة؛ فإنّها في خلق الخلق المعرفة[١]،

➲ قال عليه السلام: فخالفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما أُتي به، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم صدقة البوادي في أهل البوادي، وصدقة الحضر في أهل الحضر، ولا يقسم بينهم بالسوية، إنّما يقسمه قدر ما يحضره منهم، وعلى قدر ما يحضره، فإن كان في نفسك شيء مما قلت لك فإنّ فقهاء أهل المدينة ومشيختهم كلّهم لا يختلفون في أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذا كان يصنع، ثم أقبل على عمرو، وقال: اتق الله يا عمرو وأنتم أيضاً أيها الرهط، فاتقوا الله، فإنّ أبي حدّثني، وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من ضرب الناس بسيفه، ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه، فهو ضال متكلف (أُنظر: بحار الأنوار ج٤٧: ص٢١٩).

فيظهر من هذا الحديث وأمثاله أنّ المعتزلة وعلمائهم ورؤسائهم كانوا مخالفين للشيعة الإمامية في أساس الأُمور الدينية والمذهبية مع الإمامية، ومن أهم المسائل التي اختلفوا فيها هي مسألة الإمامة، فإنّهم رغم قبولهم الحكم العقل ولزوم متابعته واعترافهم بتقبيح تقديم المفضول على الفاضل قدموا غير المعصوم على المعصوم.

يقول ابن أبي الحديد في مقدّمة كتابه: الحمد لله الذي قدّم المفضول على الأفضل... (أُنظر: شرح نهج البلاغة ج١: ص ٣) فكيف يمكن الجمع بين هذا وبين الحكم العقل المستقل في تحسين الأُمور وتقبيحها؟!!!

ثم هل يصح تأسيس القاعدة العقلية يترتّب عليه المسائل العقدية كوجوب اللطف على الله ثم ينقض هذه القاعدة فيما.

(١) فإنّه لو نظر الإنسان إلى عالم الخلق والنظام الدقيق للخلقة المحيّر للعقول المذهل للنفوس، سوف يقطع بأنّه لم يخلق هملاً ولا عبثاً وإنّما هناك هدف وراء هذه الخلقة وإنّ مدبره فاطمه حكيم عليم، قادر، بصير.

قال الله تعالى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّماءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ (سورة الصافّات: ٦ ـ ٧) ويتضح من هاتين الآيتين أنّ عالم الكون وما يتكوّن منه عالم الأفلاك هو جزء من السماء الأُولى، وماوراء هذه السماء سماوات أُخرى ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

➲

ونحن نرى اليوم أنّه كلّما تقدّمت العلوم الناقصة للبشر اكتشفت عجائب ومجاهيل عظيمة فإنّ ما اكتشفه دوائر الإرصاد الفلكي العالمية حتى الآن مسافة في الكون تعادل ألف مليون (مليار) سنة ضوئية، والراصدون يعترفون إنّ أقصىٰ ما اكتشفوه هو بداية الكون لا نهايته، وما يدريك لعل العلم سيكتشف في المستقبل أفضل مما نسمعه الآن عن لسان المراصد العالمية وعلى كل تقدير فإنّ من تفكر وتعمق في خلق السماوات ونظم كواكبها يدرك عظمة الخالق قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِين كَفَرُوا﴾ (سورة الذاريات: ٥٦).

ثم إنّ الإنسان الذي هو أسمى وأطيب ثمار عالم هذه الخلقة كما يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (سورة الإنسان: ١ ـ ٢) فإنّ أوّل خطوة في خلق الإنسان هو ايجاد الاستعدادات والمواهب العظيمة فليه كالسمع والبصر وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (سورة الملك: ٢٣) فقد جعل للإنسان هذه النعم كي تحصل له المعرفة على حقائق الأُمور يرتقي بذلك مدارج الكمال.

ثم إنّه تبارك وتعالى أفاض على الإنسان نعمة العقل والإدراك والذكاء والفكر، فأودع فيه هذه النعم العظيمة ليختار بها العقائد الحقة.

وتحصيل هذه المعرفة والاعتقاد يحمل الإنسان على الاتجاه إلى الصراط المستقيم والتصديق بالمبدأ أو المعاد.

وتوضيح ذلك: إنّ كل إنسان له دوافع وميول داخلية ونفسية، فلو لاحظ كل أحد دوافعه الداخلية سوف يجد أنّ الدافع الأساسي لكثير منها هو الرغبة في الكمال والوصول الى الدرجات العالية من كمالات المعنوية والمادية، ومن الضروري أنّ من يحتمل وجود المنفعة والمفسدة في عواقب الأُمور، سوف يبحث ويسعى في تحصيل معرفة ماينفعه من المصالح فيلتزم به، وما يضره من المفاسد فيتركه، فاحتمال وجود المبدأ والمعاد يوجب البحث والسعي لتحصيل المعرفة الدينية، فما دام الإنسان يعتقد أنّ لهذا العالم خالقاً عليماً حكيماً، وأنّ الموت ليس

➲ نهاية لحياة الإنسان، وأنّ لخالقه هدفاً من خلقه إيّاه، وأنّه قد وضع له قانوناً إن هو لم يطبّقه وقع في الشقاء الأبدي، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ**﴾ (سورة المؤمنون: ١١٥) فيذعن بأنّ هذا النظام نظام دقيق، وكلّ هذه المسائل تكون في سبيل أنّ الإنسان ينتبه، وتحصل له معرفة الله عزّوجلّ.

فالمستفاد من الآية أنّ الهدف من الخلقة هو إيقاظكم وتوعيتكم وتقوية إيمانكم واعتقادكم، لأنّه لو تفكّر الإنسان في عالم الخلقة وثبت لديه نظام العالم وعدم العبثية ثم فكّر في خلق الإنسان وما سوف يتحقّق من مصير الإنسان المحتوم له من وراء جميع أفعاله وأفكاره ومناويه يعرف الحكمة والغرض من خلق الإنسان.

فإنّ عقله وفطرته توجب عليه أن يهتم بهذا الاحتمال والإعتقاد مهما كان ضعيفاً، لكون المحتمل أو المعتقد أمراً عظيماً وخطيراً جداً وتدفعه لأن يبحث عن حقيقة الأمر، ولايهدأ ولا يستقر حتى يصل الى نتيجة قطعية حاسمة، نفياً أو إثباتاً، وهذا كمن احتمل وجود مواد منفجرة في بيته، أو احتمل وجود تماس كهربائي بسبب احتراق بيته بمن فيه ومافيه، فإنّه لايستقر لحظة، بل يفحص ويبحث حتى يتيقّن بعدم وجود الخطر.

فالبحث في الأُمور الاعتقادية يكون كذلك، فيجب على كل إنسان عاقل أن يدرس الأُمور العقدية بحيث يحصل له المعرفة وعقد القلب والالتزام والتديّن بها.

والمعيار في هذا المجال هو معرفة الحق والعلم بحقائق الأُمور وكشف أسرارها وغوامضها.

ومن الأُمور المعرفية دين الحق فالإنسان العاقل يجب عليه أنّ يبحث عن الدين الحق والعقائد الحقة. فأوّل ما يجب عليه معرفته هو معرفة الله كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: أوّل الدين معرفة الله، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له (نهج البلاغة: الخطبة رقم ١) فإنّ كمال الإنسان في معرفة الله إذ بمعرفته تحصل الطاعة والتسليم والخلوص في العمل فيلزم على كل إنسان عاقل أوّلاً البحث عن الحق.

وإذا عرف الإنسان الحق حق معرفته سوف يؤمن به إيماناً غير قابل للترديد والإبهام، فيستقر الإيمان في قلبه كالشجرة الثابتة في الأرض، بل أثبت من الشجرة لأنّ الشجرة قد تقطع ولكن الإيمان الحقيقي لايخرج من قلب المؤمن قط إلّا أن ينعدم المؤمن ويخرج عن إطار ➲

ثم العبادة[1] وهما موقوفان على جعل هاد اليهما في كل زمان معصوم من الخطأ

➲ الوجود بما في جوفه من الاعتقاد الراسخ.

فبالمعرفة أنّ الإنسان يطيع ولايعصي وينكر ولا يكفر، ومع عدمها يتوجّه الجهل اليه وكل جحد وعصبية وكفر و....

ومن هنا نعرف حكمة خلق الإنسان وهي الوصول الى معرفة الدين الحق والشريعة المنجية له في أوّل خطوة يخطوها نحو الكمال، كما لايخفى ذلك على الخبير، فلاحظ.

(١) فإنّ العبادة هي الخضوع النابع من الاعتقاد بأُلوهية المعبود، ومدبريته، وكون أزمة الأُمـور ومصير الإنسان في الدنيا والآخرة بيده.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة:٢١) فإنّ النداء بقوله تعالى: يا ايها الناس نداء عام شامل لجميع أفراد البشـر ذكراً كان أو أُنثىٰ مؤمناً كان أو كافرا، فالخطاب في الآية الكريمة متوجّه إلى جميع الناس لتتحقّق الدعوة إلى جميع أفراد البشر، لأنّ العبادة هي من العبودية والطاعة والانقياد، وكلما تتحقّق الطاعة والعبودية بتقرّب الإنسان إلى الله تعالى أكثر لأنّ التقوىٰ تحصل من العبودية والطاعة والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات:١٣) فإنّ التقوىٰ تكمل النفوس وتفاضل الأشخاص، فمن أراد التقرّب إلى الله فليتق الله، والتقوىٰ إنّما تتحقّق بالعبادة والطاعة والانقياد. فالعبادة معناها كلفظها مشتقة من العبودية والتسليم، فهي الخضوع أمام من يعتقد الإنسان بأنّه يملك جميع شؤون العابد من حياته وأجله وعاجله و...

وبعبارة أوضح: إنّ العبودية من شؤون المملوكية ومقتضياتها، فعندما يـحس العـابد فـي نـفسه مملوكيته وكمال معبوده واستحقاقه للعبادة ذاتاً، يفرغ إحساسه هذا في الخارج في الألفاظ والأعمال خاصة بحيث تصير تلك الأعمال والألفاظ تجسيداً لهذا الإحساس، ويكون كـل عمل أو لفظ مظهراً لهذا الإحساس العميق.

ومن هنا تتضح أنّ العبادة الحقيقية هي العبادة التي تنشأ عن الشعور والمعرفة، فعندما تقرن العبادة بالمعرفة تتجلّى فيها أعمق الخضوع والخشوع وأورعها، وكلّما ازدادت المعرفة بـالأُلوهية ازداد عمق العبادة في العبد، ولا تتمّ العبادة إلاّ بالمعرفة.

ومن هنا نعرف أنّ العبادة هي غاية للخلقة كما قال تـعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

➲

والنسيان[١].

➲ لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦) فاللام في قوله تعالى: «ليعبدون» لام الغرض إذ لو كانت لام العاقبة لكان كذباً ـ والعياذ بالله ـ إذ كثيراً من الجن والإنس غير عابدين لله تعالى. فيعرف من ذلك أنّ الغاية القصوى لكل من تكوين الإنس والجن هي العبادة.

وخلاصة الكلام: أنّ العبادة منهج لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة، فالعبادة بمعناها الأعم الشمولي هي التسليم لأمر الله فهي ستهب روح الإنسان تكاملاً في الأبعاد المختلفة ولذلك يستفاد من بعض الآيات الأُخر، أنّ الهدف من الخلقة إيقاظكم وتوعيتكم وتقوية إيمانكم واعتقادكم كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الطلاق: ١٢).

ومن هنا نعرف أنّ الذين يستنكفون عن عبادة الله والخضوع له، غافلون غالباً عن العظمة المنطوية في خلق السماوات والأرض وجميع المخلوقات التي دبّرها المدبّر العليم الحكيم.

فالتذكير بهذه النعم دليل لمعرفة الله ومحرّك للشكر على هذه النعم، ونتيجة هذه العبادة هي التقوىٰ كما قال تعالى: لعلّكم تتقون (سورة البقرة:٢١).

من الواضح أنّ عبادتنا لا تزيد الله عظمة وجلالاً كما أنّ إعراضنا عن العبادة لا ينقص من عظمة الله شيئاً بل هذه العبادات مدرسة لتعليم التقوىٰ والحصول عليها والتقوىٰ هي الإحساس بالمسؤولية والمحرّك الذاتي للفرد وهي معيار قيمة الإنسان وميزان تقييم شخصيته.

ومن هنا يعلم أنّ الله سبحانه وتعالى لايحتاج الى عبادة العبد، وإنّما العبد يحتاج اليها لطي مراحل التكامل، إذ الحياة القيّمة في الإسلام هي الحياة المعنوية التي تجذب الناس الى الحق والتربية والتعليم، فجعل تعالى عبادته غاية لخلقهم فهم لم يخلقوا لغير العبادة والتكامل والسعادة فمعناها: إنّهم خلقوا ليتكاملوا بالعبادة وليبلغوا أعلى مقام الإنسانية.

(١) لاشك أنّ الغرض من خلق الإنسان معرفة الله تعالى وعبادته، ولايخفى على الخبير أنّ المعرفة هي العلم والحكمة النظرية، وأنّ العبادة هي الحكمة العملية.

فالحكمة النظرية: هي استعداد النفس الإنسانية بتصور المعارف الحقيقية والتصديق بالحقائق النظرية بقدر الطاقة البشرية.

وبعبارة أُخرى: إنّ الحكمة النظرية هي المقدّمة العلمية لبلوغ الهدف الأعلى للإنسانية، ومن ➲

خصائص هذه الحكمة أنها قابلة للتعليم والتعلّم، وأنّ أحد أسباب الوصول اليها بعثة الأنبياء ونصب الأوصياء، فهذه هي الحكمة التي ذكرها الله في مواضع من القرآن الكريم:

منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٤).

فإنّ تلاوة آيات الله وتزكية الناس وتعليمهم الكتاب والحكمة هي واجب الأنبياء والأولياء الذين جعلهم الله أعلاماً لدينه وخزنةً لوحيه وتراجمةً لكتابه، وأودعهم علم جميع ما يحتاج اليه خلقه ليلجأوا اليهم في جميع المجالات.

فالإرادة الإلهية الحكمية متعلّقة بالأصالة بكمال الإنسان وسعادته، ولكن بما أنّ هذا الكمال والسعادة السامية لا يمكن الوصول اليها إلّا عن طريق خاصّ جعله الله تبارك وتعالى أمام الانسان بالوحي السماوي وهداية المعصومين الذين جعلهم الله حجة على خلقه وأمر عباده بالرد اليهم والتعويل عليهم، فجعل المعصومين استمراراً لرسالته.

فالحكمة النظرية التي تسمىٰ بالعقل النظري: هي ما يهتدي بها الإنسان إلى الحياة الطيبة وتقرّبه من غاية الخلقة، وهذا يتخلّص في العقل النظري الذي هو على قسمين: الظاهري والباطني.

فالعقل الظاهري هم الأنبياء والمعصومين الذين تكفّلوا لبيان المعارف الاعتقادية والأخلاقية وغير ذلك مما يصل الإنسان إلى الكمال.

والعقل الباطني: وهو أساس لتعقّل الإنسان الأُمور كما قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: دعامة الإنسان العقل (علل الشرائع ج١: ص١٠٢ ح٢).

فبالعقل يدرك بأنّ الوحي والسفراء الإلهيين والمعلم الربّاني والمعصومين الذين اصطفاهم الله لتعليم العباد هو الطريق الوحيد لتحصيل الكمال والسعادة.

فالعقل هو الرسول الباطني الذي ولا مجال لمخالفة حكمه، لأنّ في حكمه النجاة والصلاح والمعصوم الذي اختاره الله تعالى هو الرسول الظاهري الذي يلزم طاعته وهذا ما يسمىٰ بالحكمة النظرية.

وأمّا الحكمة العملية: فهي المقدّمة العملية للوصول الى مقام الإنسان الكامل، ومن هذا المنطلق

فتجويز عدم نفسه مخالف لهذه الحكمة[١]، وتقديم المفضول على الفاضل

تسمى كافة الأعمال التي تنمي قابليات الإنسان وتدنيه من الكمال تفسّر بالحكمة العملية وحقيقتها طاعة الله عزوجل، كقول الله عزوجل: ﴿ٱللهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة:٢٥٧).

هذه الآية المباركة قد بيّنت مسألة الايمان والكفر واتضاح الحق من الباطل والطريق المستقيم عن الطريق المنحرف، فإنّ كلا الطريقين يحقّقان بمنشأهما وتوضح ذلك استكمالاً للموضوع أنّ لكل من المؤمن والكافر قائداً هادياً.

فتقول: إنّ الله تبارك وتعالى وليّ الذين آمنوا فهؤلاء الذين آمنوا يسيرون في ظل هذه الولاية فيخرجون من الظلمات إلى النور، أي إنّ الله سبحانه وتعالى عالم بالأسباب الذي جعلها الله تعالى لهدايتهم ونجاتهم من الظلمات وإرشادهم إلى النور، فالإنسان في مسيره نحو الكمال المطلق بحاجة شديدة إلى الهداية الإلهية في كل مرحلة وفي كل قدم وكل عمل، وذلك مثل قولنا في الصلاة كل يوم: ﴿إهدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيم﴾.

ومن الواضح أنّ الهداية الإلهية إنّما تكون بالاستدلال والبرهان كما قال تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ (سورة يونس:٩) وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱللهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي إنّ الله تعالى ولي الذين يتبعون دينه لأنّهم متقون والله وليهم، والذين يتبعون أهواء الجهلة لا يكون الله وليّهم بل كما قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (سورة الأنفال:٧٣) ومعنى ذلك: أنّ كلهم من جنس واحد ويسلكون نفس المسير، فيتبع بعضهم البعض الآخر.

وبعد وضوح القسمين من الحكمة النظرية والعلمية يتضح كيف يجب على الناس متابعة المعصوم، فلاحظ.

(١) أي أنّه إذا ثبت أنّ الحكمة اقتضت بأنّ السنّة الإلهية في هداية الناس جرت على وجود الهداة والقادة الإلهيين في كل عصر وزمان بحيث يستمر هذا الخطّ الرسالي الأصيل المتمثّل في المعصومين الذين اختارهم الله تعالى لهداية الناس كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (سورة الأنبياء:٧٣) فإنّ الهداية والإرشاد وبيان الطريق الصحيح هو من شأن الأئمّة وهداة الذين جعلهم الله تبارك وتعالى أدلاّء على صراطه، قال الإمام الصادق عليه السلام: انّ

على ما زعمته هذه الفرقة، تابعها منافٍ للعدل[1]؛ فإنّ ظلم للفاضل من دون

➲ الأئمة في كتاب الله إمامان، قال الله تبارك وتعالى: وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لا بأمر الناس، يقدّمون ما أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، قال: وجعلنا أئمة يهدون إلى النار، يقدمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله (الكافي ج١:ص٢١٦ح٢).

فالسنة الإلهية جرت على أنّ أئمة الحقّ هم أصحاب مناهج واضحة المطابقة لحكم العقل، فهم أئمة النور وخطهم صراط المستقيم والسعادة الأبدية وبهذا المعيار يتّضح أنّ الله سبحانه وتعالى لو جوّز الإمامة على خلاف سنته الجارية أي جعل الإمامة بأيدي الناس حتى إذا أخذها الأئمة الذين يدعون إلى النار ويقدّمون أمرهم على أمر الله وحكمهم على حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف كتاب الله، فهذا يخالف حكم العقل ويخالف الهدف والغرض الذي اتخذه لهداية الناس وسعادتهم فهو مخالف للحكمة الإلهية والتدبير الرباني وهدف من خلقته، فإنّ الحكمة الالإلهية ذات هدف بعيد وعميق في حياة الإنسان الماديّة والمعنوية فيستحيل أن تنقض هذه الحكمة وهذه السنّة في هداية الناس وسوقهم إلى الكمال، فلاحظ.

(١) إذ المراد بالعدل تنزيه الباري تعالى عن فعل القبيح، فقول المعتزلة يجوز تقديم المفضول على الفاضل منافٍ للعدل؛ لأنّ تقديم المفضول على الفاضل أمر قبيح عقلاً ونقلاً.

أمّا عقلاً: فلأنّ الضرورة قاضية بقبحه إذ المفضول يحتاج الى الفاضل والفاضل لايحتاج الى المفضول، فعقل كل عاقل يقتضي قبح تقدم المحتاج على من لا يحتاج الى الآخر، وبعد حصول هذا الحكم العقلي ثبوت القبح بالعقل المستقل ثابت ويستحيل ذلك في حق الشارع الأقدس، ولا استثناء لهذا الحكم لأنّ الأحكام العقلية غير قابلة للتخصيص.

فلو قال أحد جاز أن يحسن ذلك لعلة لجاز أن يقول يحسن تقديم المنهتك للمعاصي على أهل الستر والصلاح وتقديم الكافر على المؤمن بوجه ما وغير ذلك من هذه الأمثال.

فالمعتزلة الذين يقولون: بأنّ أبا بكر وعمر إمامان وإن أخطأت الأُمة في البيعة لهما مع وجود الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام منافٍ للقول بالعدل الالإلهي المبني على الحسن والقبح العقليين، باعتبار قبح تقدّم المفضول على الفاضل عند العقل.

وأما نقلاً فقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لاَ يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا ➲

ريب[١]، فلِمَ لم ينصف خصمه السّني بردّه عليه بما هو كذب معلوم؟!![٢].

لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (سورة يونس: ٣٥) فإنّ هذه الصيغة ـ أي صيغة تعجّب ـ من الله تعالى دالة على شدة الإنكار لامتناع التعجّب في حقه تعالى.

فمن الواضح أنّ المستفاد من الآية الكريمة أنّ الهادي الى الحقّ لايمكن أن يكون هادياً الى الحق بدون التسديد الإلهي، فالهداية الى الحق تحتاج الى تسديد الله، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ (سورة يونس: ٣٥) فالله سبحانه هو الذي يهدي الإنسان إلى سعادة الحياة ويدعوه إلى الجنة والمغفرة بإرساله الرسل وإنزاله الكتب وتعيين الهداة بأمره، فالدعوة الدينية الحقة هي من الله سبحانه فالآية تقول: هل الهادي من الله مقدّم أم غيره؟!!!

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر: ٩) فإنّ الله تعالى قد وبّخ الذين يأمرون الناس باتّباع من ليس له علم، فإنّ الاستفهام استنكاري ومعناه: أنّه هل يصح للإنسان العاقل أن يسأل من الجاهل في الأُمور التي فيها الخطورة مع وجود العالم الذي عنده خزائن العلم ومفاتيحها ويعرف طرق النجاة والسعادة؟!!!

فالمعتزلة وإن ذهبوا إلى العدل في صفات الباري تعالى غير أنّهم لا يلتزمون بلوازمه في باب الإمامة لأنّهم يقدّمون المفضول على الفاضل الذي بطلانه عند العقل من أوضح الواضحات.

(١) فإنّ قبح تقديم المفضول على الفاضل واستهجانه عند العقل مما لا يخفى على كل ذي لب، فكيف بالحكيم الذي لايصدر منه الفعل بلا حكمة ولا مصلحة.

ومن الواضح لدى كل عاقل: أنّ تقديم المفضول على الفاضل ظلم عقلاً كما أنّ تقديم الفاسق على العادل يكون كذلك، لأنّ الظلم عبارة عن الخروج من جادة العدل والانحراف عن سبيل الحق فتقديم المعصوم ظلم صريح وانحراف عن جادة عن الحق.

وبعبارة أوضح: ان الظلم عبارة عن سلب كل ذي حق حقه، فكل فعل ينطبق عليه هذا العنوان فهو ظلم وقبيح عقلاً وإنّ تقديم المفضول على الفاضل من أبرز مصاديقه كما لايخفى ذلك على كل عاقل. لأنّ المفضول ناقص عن درجة الفاضل والأفضل فالناقص كيف يقدّم على الكامل؟!!!

(٢) فإنّ من شرائط المناظرة عند من له إلمام بالمعارف العلمية وله أقل نصيب من الإنصاف أن يراعي خصمه في كلامه وما يبتني عليه من المباحث العلمية، فلايجوز لأحد من المتناظرين

وثانيها: ما زعمه من أخذ الشيعة المذهب العدل والحكمة من المعتزلة[١]،

⮌ أن يتصرف في كلام خصمه بزيادة ولا نقيصة، وأن لاينسب إليه شيئاً لايقبله الخصم ولا يستدل بحجة لايعتبرها الطرف الآخر فكل هذه الشرائط معتبرة في المناظرة لدى العقلاء في العالم.

ومن الواضح لدى الخبير أنّ مخالفة طريقة العقلاء مخالفة لطريقة الشرع والشارع الأقدس لأنّ الشارع تكون طريقته نفس طريقة العقلاء في المجالات، المختلفة وإذا كان للشارع الأقدس طريق خاص غير طريق العقلاء لبينه ونبّه عليه، بل إذا كان يخالف طريقة العقلاء لردع عنه، فإنّ عدم ردعه في كثير من المجالات دليل على قبوله لذلك بل امضاء منه على تأييد هذه الطريقة ففي باب المناظرة أنّ الأمر يكون كذلك ولذلك قال الله تعالى: (وجادلهم بالتي هي أحسن) (سورة النحل: ١٢٥) فإنّ المقصود بالجدال بنحو الأحسن هو تحرّي الحق والوصول الى الحقيقة، فالمراد من الجدال هو الجدال بالحق والجدال بالحق هو الجدال بالحجة لدى خصمه والحجة هي السلطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ (سورة غافر: ٥٦).

(١) لايخفى على الباحث الخبير أنّ مدرسة الاعتزال، مدرسة فكرية عاشت في أكناف أهل السنّة، وقد ظهرت هذه المدرسة في بداية القرن الثاني للهجرة في البصرة بشكل رسمي وعلني ومؤثر في المجتمع آنذاك ولايخفى ما للبصرة في ذلك الحين من شموخ في عالم العلم والأدب والثقافة، وملتقى العلماء والأُدباء وأهل الكلام. بحيث كان ينسب بعض الأقوال في العلوم والفنون إلى علمائها.

فيقال: إنّ علماء البصرة ذهبوا إلى كذا وكذا فهذا العنوان كان له دوره الخاص في المجالات العلمية ولذلك عندما شاعت مدرسة الاعتزال من البصرة اهتمت بها علماء الإسلام اهتماماً بالغاً باعتبار أنّ هذه الفكرة كانت فكرة جديدة عند التابعين لمدرسة الخلفاء من أبناء أهل السنّة والجماعة.

وقد ذكروا لوجه تسميتهم بالمعتزلة أُموراً كثيرة:

ومنها: قول صاحب كتاب الفرق بين الفرق في الصفحة ٩٤ و٩٨: حيث قال: إنّ أهل السنّة هم الذين دعوهم معتزلة، لاعتزالهم قول الأُمة بأسرها في الكبيرة من المسلمين، وتقريرهم أنّه ⮎

➲ لامؤمن ولاكافر، بل هو في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر.

ومنها: قول الشهرستاني في الملل والنحل ج١: ص٥٥ حيث قال: وهو أنّ واصل بن عطاء مؤسس المدرسة حين اختلف مع الحسن البصري في مسألة مرتكبي الكبائر أدلى برأيه فيها، واعتزل مجلس الحسن هو وبعض من وافقه على ذلك الرأي وجلس قرب إحدىٰ أُسطوانات المسجد يشرحه لهم، فقال الحسن البصري: اعتزل عنّا واصل. فسُمّي هو وأصحابه معتزلة.

ومنها: قول ابن خلّكان في وفيات الأعيان ج١: ص٦٠٩ حيث قال: إنّه إنّما سمّاهم بهذا الاسم قتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة ١١٧ هـ.

وهناك أُمور أُخرى ذكرت في وجه تسميتهم بالاعتزال ولا يهمّنا ذكرها في المقام لعدم ترتيب أثر علمي عليها إذ المهم في المقام هو ما اتفق عليه علماء تاريخ المذاهب الذين صرّحوا بأنّ مذهب الاعتزال حدث في القرن الثاني، وكان ابتدائه من علماء البصرة وإن كان المقصود بالحدوث هو الحدوث الرسمي وإلّا فإنّ الاعتزال كان له أصل وجذور في صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين اعتزلوا عن إمامة أهل البيت عليهم السلام.

وعلى كل تقدير فإنّ: المعتزلة قد اقتسموا الى قسمين: قسم منهم يشكل الأغلبية بالأكثر عدداً وهم القائلون بوجوب الإمامة على الأُمة بحكم العقل، وقسم القائلين بوجوب الإمامة شرعاً وعقلاً.

أما الثانية: فهم أيضاً على قسمين: قسم منهم أهل البصرة الذين يقولون بوجوب نصب الإمام على الأُمة بالنص من الله تعالى. وقسم من أهل بغداد الذين يقولون بوجوب نصب الإمام على الأُمة بحكم العقل. والأقرب للشيعة هم أهل البصرة ولكن الذي يوحّد صفوفهم مخالفتهم لإمامة أهل البيت عليهم السلام.

فبالرغم من أنّ بعض فرقهم يصرّح بأنّ الخلافة لابد أن تكون بنص من الله تعالى مع ذلك ذهبوا إلى خلافة الخلفاء الثلاثة والمهم بطلان قول ابن تيمية حيث زعم أنّ الشيعة أخذت منهم، فإنّ الشيعة الإمامية تعتقد بإمامة الأئمة الاثنى عشر من أهل بيت النبي عليهم السلام وهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته بلا فصل، وذلك للنصوص المتواترة التي رواها علماء المسلمين في كتبهم. ومعنى ذلك: أنّ الشيعة كانت من أوّل يوم برز فيه الإسلام هم أتباع أهل البيت عليهم السلام ➲

على الوجه الذي قالته المعتزلة[1]، فإنّك قد عرفت كذب هذه النسبة من وجهين:

← حقّاً لأنّ الرسول الأعظمﷺ نص على ولاية الأئمّة الطاهرين من أهل بيتهعليهم السلام منذ ذلك اليوم كما سيأتي البحث فيه إن شاء الله تعالى.

(١) إنّ بعض المتسرّعين من الكُتّاب قديماً وحديثاً يُصرون على أنّ الشيعة والاعتزال مشتركين في الآراء من جهة تطابقهم في بعض المسائل الاعتقادية، ومن هنا وقع البحث بينهم في أنّه هل أنّ أحد المذهبين أصل للآخر أم لا؟

وقد كثرت البحوث في ذلك وألّفت الكتب فيما يتعلق بهذا المقام، ولكن الباحث الخبير يعلم بأنّ هذه النظرية ليس تحتها شيء، فإنّ من قرأ تاريخ التشيّع والاعتزال وأفكارهما يعلم علم اليقين أنّ المذهبين على طرفي النقيض ويكفي للباحث أن ينظر ويراجع إلى الأخبار والآثار والمناظرات والمناقشات التي وقعت بين علماء الشيعة والمعتزلة من عهد أئمة أهل البيتعليهم السلام حتى يومنا هذا، فلا ندخل هذا الموضوع الوسيع لأنّه يتطلّب البحث والتطويل، ولكي لا يفوتنا المهم ولا نبتعد عن المقصود نقول:

إنّ المهم عندنا هو البحث عن الشكل السياسي الخفي والمستتر وراء هذه الحركات التي طفحت على الساحة السياسية وعصفت بالأُمة، ابتداءً من يوم السقيفة وما خلفها السقيفة السخيفة التي غرست بذورها وجذورها من يومها حتى حصل الانشقاق والاختلاف بين المسلمين، وحالت الأقلام واضطربت الأقوال من تلك الحادثة والواقعة التي تكوّنت منها الفرق والمذاهب، ووصل أمر المسلمين الى ما وصل اليه اليوم من الاختلافات والمنازعات الفكرية العقدية التي فرّقت شمل المسلمين ومزّقت وحدتهم، وكأنّهم نسوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٢) فصارت الأُمة الواحدة أُمماً متعددة، وأصبحت اليد الواحدة أيدي متشتتّة.

وعلى كل تقدير: عندما تشعّبت الناس بعد السقيفة وتفرّقوا ظهرت القدرية ومن بعدهم المعتزلة في آخر زمن الصحابة بالبصرة عندما درس فيها الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ وبعد واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ المعلّم الأوّل لمذهب الاعتزال، وكان هو وعمرو بن عبيد من تلامذة الحسن البصري، فلمّا اعتزلا حلقته سموا «معتزلة».

وذهب بعض إلى أنّ المعتزلة في الأصل كانوا امتداداً للمعتزلة السياسيين الذين اعتزلوا عن ←

الحرب التي وقعت بين أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ومعاوية في صفّين، وقد اعتمد هؤلاء على وثائق تاريخية لإثبات هذا الموضوع.

وقد نقل بعض المحدّثون والمؤرخون كما عن المسعودي في مروج الذهب وأبي الفداء في تاريخه والدينوري في الأخبار الطوال. والطبري في تاريخه والنوبختي في كتابه الفِرق (أُنظر: طبقات المعتزلة للقاضي عبدالجبار: ص١٦، والصلة بين الزيدية والمعتزلة لأحمد عبدالله عارف:ص٥٠، والشهرستاني في ملله البدايات الأُولى التي بدأ فيها الاختلاف حول المسائل الأُصولية كانت في أواخر أيام الصحابة، وذلك عندما حدثت بدعة معبد الجهني، وغيلان الدمشقي القدري، ويونس الأسودي في القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشر إلى الله... (أُنظر: الملل والنحل للشهرستاني ج١: ص٤٠).

فالباحث الخبير لايشك بعد ملاحظة التاريخ والآثار والأخبار أنّه قد توارث الاختلاف بين المسلمين منذ عصر الصحابة بعد حادثة السقيفة ولم يكن لمذهب الاعتزال اسم في بداية الأمر، بل إنّ الاعتزال ولد ودرج في زمن كانت الشيعة الإمامية تحتجّ على خصومهم بالأدلّة المتقنة من الكتاب والسنّة والعقل على أنّ امتداد الإسلام الحقيقي في خط أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين عيّنهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أئمة من بعده وبيّن لنا أنّهم سفن النجاة وأعلام الورى، وأبواب الرحمة وأصل شجرة العلم والحكمة والتقوى وهم سبل الهداية الشارعة، وذلك من خلال النصوص القرآنية والروائية التي هي كثيرة جداً. وسيتبيّن ذلك للقارئ الكريم من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

ثم إنّا نجد في النصوص الواردة في كتب أهل السنة والجماعة بأنّ أئمة المعتزلة أنفسهم ينصّون على أنّهم أخذوا أُصولهم من أبي هاشم ابن محمد الحنفية وهو قد أخذ من أبيه محمد وهو أخذ من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والده، فمع هذه النصوص الواردة في كتبهم هل يصح أن يقال: إنّ مذهب الاعتزال عقيدة قد أخذت الشيعة منها؟!!!

فإنّ شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كانت معروفة حتى في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك يقول أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ في كتاب الزينة: إنّ لفظ «الشيعة» كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقب أربعة من الصحابة وهم سلمان وأبو ذر

من تقدّم وجود الشيعة على المعتزلة وغيرهم من سائر الفرق، ومذهبهم من حين وجودهم[(١)]

➲ والمقداد وعمار (كتاب الزينة ج٣: ص١٠).

يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: والحقيقة إنّ تاريخ التشيّع إنّما يقترن بتاريخ نص النبيﷺ على الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي‌طالبعليه‌السلام بالخلافة، وقد كان جماعة من الصحابة يرون أنّ علياً أفضل أصحاب الرسول على الاطلاق.

ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي وعدّ منهم: عمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وأباذر، وسلمان، و جابر بن عبدالله، وأُبيّ بن كعب، وحذيفة بن اليمان، وبريدة، وأبا أيوب الأنصاري، وسهل بن حنيف، وعثمان بن حنيف، وأبا الهيثم بن التيهان، وأبا الطفيل، والبراء بن عازب، وعبادة بن الصامت، وجميع بني هاشم (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١:ص٢١٩–٢٢٠ طبع دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٩م، وكتاب الشيعة والحاكمون للشيخ محمد بن جواد مغنية: ص١٧).

وفي الاستيعاب لابن عبدالبر: وروي عن سلمان وأبي ذر والمقداد وحباب وجابر وأبي سعيد الخدري وزيد بن الأرقم، أنّ علي بن أبي طالب أوّل من أسلم، وفضله هؤلاء على غيره (الاستيعاب ج٣:ص٢٧) وإلى غير ذلك مما جاء في كتب القوم مما يدلّ على تقدّم الشيعة على غيرهم اسماً وعقيدة، فكيف يمكن أن يأخذوا شيئاً من غير أهل بيت النبيﷺ؟

فلاشك أنّ الشيعة سابقين على جميع المذاهب الإسلامية، كما أنّ النصوص الكثيرة تدل على ذلك وسيتضح ذلك. للقارئ الكريم ذلك من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالى، فلاحظ.

(١) إنّ من الحقائق التي لاترديد فيها لدى العلماء والباحثين في الأديان والمذاهب الإسلامية من المتكلمين وغيرهم هو الإذعان بأنّ مذهب الشيعة الإمامية قد فاق جميع المذاهب الإسلامية وتقدّم عليهم من حيث الزمان حدوثاً ومن حيث الدليل حجةً وبرهاناً؛ لأنّ الشيعة الاثنى عشرية متفقون على أنّه ليس لديهم حجة شرعية سوى الكتاب والسنّة النبوية والروايات الواردة عن أئمّة أهل البيتعليهم‌السلام فإنّهم عرفوا بذلك منذ حياة النبيﷺ لذلك لقّبوا بشيعة عليعليه‌السلام كما جاء هذا التعبير في النصوص الواردة عن النبيﷺ حيث قال: يا علي، أنت وشيعتك هم الفائزون (أُنظر: الصواعق المحرقة لابن حجر ص:١٦١ في الباب ➲

قد بيّن على العدل والحكمة واللطف[١].

الحادي عشر من الفصل الأول).

فإنّ هذا النص من النبي الأكرمﷺ دال على أنّ طائفة من أُمة رسول اللهﷺ هم الشيعة وهم الفائزون. ولا يخفىٰ أنّ الفوز بالسعادة إنّما يحصل لمن أطاع الله ورسوله.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (سورة الأحزاب: ٧٠-٧١) فإنّ الفوز هو الظفر بالمراد.

فالشيعة الإمامية الذين انقطعوا لأئمة الاثني عشر من أهل البيتعليهم السلام يعتقدون بأنّ النصوص القرآنية والسنة النبوية تدلّان على إمامة أئمة أهل البيتعليهم السلام بعد النبي ﷺ بلا فصل.

ويثبتون هذا الأمر بأدلّه معتبرة عند جميع المذاهب الإسلامية، وبهذا يعرف تفوّقهم على جميع المذاهب حيث أنّهم لا يستطيعون ذلك.

وأمّا توضيح المقام فسوف يتبيّن للقارئ الكريم بأنّ الروايات التي استدل بها الشيعة على إمامة الأئمة الطاهرين من مصادرهم المعتبرة.

(١) إنّ الشيعة الإمامية يعتبرون العدل الإلهي أصلاً من أُصول الاعتقاد، وبذلك ينفون كل لون من ألوان الظلم عن حريم الله المقدّس فيقولون: إنّ الله حكيم لايفعل القبيح فلايظلم أحداً وإن كان في أفعاله فعّالاً لما يشاء ولايسئل عن فعله إلاّ أنّ العقل المستقل يحكم بأنّ أفعاله منزّهة عن الفعل القبيح، وأيضاً إنّ العقل مستقل في الحكم بوجوب صدور فعل الجميل منه من باب اللطف.

فالأفعال الإلهية تدور حول المحور الأساسي وهو الحكم العقلي الثابت عند جميع العقلاء، وقد عبّروا عنه بالحسن والقبح العقليين، وهذا مذهب أئمة أهل البيتعليهم السلام الذين علمّوا به شيعتهم وأكّدوا على أنّ للعقل دور في درك الأُمور حتى أنّ الإمام الكاظمعليه السلام عدّه إحدى الحجج، إذ يقول: إنّ لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة. فأمّا الظاهرة الرسل والأنبياء، وأمّا الباطنة فالعقول (أُصول الكافي ج١:ص١٦).

ويقول الإمام الصادقعليه السلام: إنّ العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار... (توحيد المفضّل: ص١٧٧).

➲ وإلى غير ذلك من الروايات الدالة على أن العقل يدرك ما يجب على الإنسان الاعتقاد به كوجود الله وتوحيده وصفاته الذاتية الكمالية و... بل وهو يناسب مع المفاهيم القرآنية؛ فإنّ الله سبحانه لم يخلق الخلق حينما خلقهم ليتركهم سدى هملاً، فقال في كتابه المجيد: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً﴾ (سورة القيامة: ٣٦).

فإنّ الاستفهام للتوبيخ ومعناه: أيظن الإنسان أن يترك مهملاً لا يحاسب ولا يعاقب ولا يسأل عن شيء؟!!! فإذا كان يحاسب عن جميع أفعاله فلابد أن تكون أفعاله متصفاً بالحسن أو القبح العقلي قبل أن يحاسب حيث أنّه لابد من أن يعرف الإنسان العمل الحسن من القبيح كي يمكنه الاختيار، فإنّ العقل يفتح هذا المجال للإنسان قبل كل شيء.

ثم إنّ الله تعالى يبيّن للناس ما يهديهم إلى الحق، فقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ۞ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَا وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً﴾ (سورة الإنسان: ٣-٤).

فأوضح تعالى في هذه الآيات وغيرها أنّه لن يظلم أحداً، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٨) وقال تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٥) والى غير ذلك من الآيات المباركة.

وهناك روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تدل بالصراحة على أنّ القانون الإلهي هو إعطاء كل صاحب حق حقه، فلايجازي المسيء إلاّ بقدر إساءته ولاتضاف على إساءته أية عقوبة.

وقد استدلوا لنا بآيات قرآنية وبقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

فعلّمونا بأنّ الحكمة البالغة الإلهية تقتضي العدل في جميع أفعاله، وإلى هذا ما أشار الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة: عندما واجه هارون الرشيد في المطاف في المسجد الحرام.

وإليك ملخّص هذه القصة: فعن فضل بن الربيع قال: حج هارون الرشيد وابتدأ بالطواف، ومنعت العامة من ذلك لينفرد وحده فبينما هو في ذلك إذ ابتدر أعرابي البيت وجعل يطوف معه فقال الحاجب: تنح يا هذا عن وجه الخليفة، فانتهرهم الأعرابي وقال: إنّ الله ساوىٰ بين الناس في ➲

ومن مخالفة المعتزلة لما عليه الشيعة من معنى الحكمة والعدل بما نبّهنا عليه(١).

➲ هذا الموضع، فقال تعالى: ﴿سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ (سورة المائدة:٤٥) فأمر الحاجب بالكفّ عنه...

ثم صار الرشيد إلى المقام ليصلّي فيه فصلّى الأعرابي أمامه، فلمّا فرغ هارون من صلاته، استدعى الأعرابي فقال: أجب أميرالمؤمنين، فقال: مالي إليه حاجة فأقوم إليه بل إن كانت الحاجة له فهو بالقيام إلَيَّ أولى، قال: صدق، فمشىٰ اليه وسلّم عليه فرد عليه السلام،... فقال هارون: ويحك يا أعرابي مثلك من يزاحم الملوك؟ قال: نعم، قال: فإنّي سائلك فإن عجزت آذيتك، قال: سؤالك هذا سؤال متعلّم أو سؤال متعنّت؟ قال: بل سؤال متعلّم، قال: اجلس مكان المسؤول وسل وأنت مسؤول، فقال هارون: أخبرني ما فرضك؟ قال: إنّ الفرض رحمك الله واحد وخمسة، وسبعة عشر وأربعة وثلاثون، وأربع وتسعون ومائة وثلاثة وخمسون على سبعة عشر، ومن اثنى عشر واحد ومن أربعين واحد، ومن مائتين خمس ومن الدهر كله واحد، وواحد بواحد، قال: فضحك هارون وقال: ويحك، أسألك عن فرضك، وأنت تعد علَيَّ الحساب؟ قال: أما علمت أنّ الدين كله حساب، ولو لم يكن الدين حساباً لما اتخذ الله للخلائق حساباً ثم قرأ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين... فخرج الأعرابي فتبعه الناس وسأله عن اسمه، فإذا هو موسى بن جعفر عليه السلام (بحار الأنوار ج٤٨:ص ١٤٠).

والعدل هو ما يحكم به العقل مستقلّاً بحسنه، وحيث إن الله سبحانه حكيم فإنّ أفعاله حسنة بحكم العقل المستقل، وهذا ثابت بثبوت الصفات الجمالية لله تبارك وتعالىٰ، كما جاء ذكرها في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة وروايات أهل البيت عليهم السلام فإنّ أفعاله سبحانه وتعالى وصفاته مطابقة للحكم العقلي المستقل في الحكم كما تقدّم، فإنّ العقل بما هو عقل حاكم بحسن جميع أفعاله لأنّ من صفاته العدل وهو رعاية كل ذي حق حقه وهو مطابق للحكم العقلي وذلك بملاحظة صفاته الكمالية فلاحظ.

(١) ولايخفى على الخبير أنّ المعتزلة القائلين بوجوب العدل الإلهي ووجوب اللطف على الله سبحانه ورعاية المصلحة منه تعالى بضرورة الحكم العقلي المستقل لم يلتزموا بهذا الاعتقاد ➲

فالفرق بينهم معلوم، ولو صدق القائل بأنّهم قد أخذوهما منهم لثبتت متابعتهم لما قالوه فيهما كيف والمخالفة ثابتة، فعلم كذب هذه النسبة[(١)].

والحكم العقلي في مسألة الإمامة، فإنّهم خالفوا هذا الأصل الاعتقادي الذي بنوا عليها مذهبهم في هذا الباب بشكلٍ صريح بحيث لايقبل التأويل.

لأنّ المعتزلة كبقية أهل السنّة يعتقدون بعدم ورود النص في الإمامة لا من الله ولا من رسوله، وإنّما هي باختيار الناس علماً بأنّ الحكم العقلي ثابت عندهم من باب وجوب اللطف على الله من عدم خلو زمان من إمام معصوم يقود الناس الى الهداية والصلاح، فهم قد بيّنوا مخالفتهم لهذا الحكم العقلي صراحة وذهبوا إلى تقديم المفضول على الفاضل مع اعترافهم بقبحه عقلاً من باب الظلم الذي ليس فيه إلاّ القبح بل ارتكبوا بمخالفتهم لهذا القانون الذي بنوا عليه مذهبهم مخالفة الوجدان؛ لأنّ الوجدان قاض بقبح تقدّم المفضول على الفاضل. وسوف نتعرّض لأقوالهم في هذا المجال ونبيّن أنّه كيف انحرفوا عن الأُصول التي بنوا عليها مذهبهم.

ولايخفى أنّ هذا النوع من الاعتقاد لا أثر له في سوق العقلاء لأنّ العقلاء يقولون: إنّ الالتزام بشيء الالتزام بلوازمه فالحكم العقلي الثابت لايقبل التخصيص والاستثناء، فكيف يمكن أن يجعل ذلك من أُصول المذهب ويتخذ ذلك كقاعدة عقلية مسلّمة، ثم يخالف هذه القاعدة المسلّمة مخالفة صريحة عملاً والحكم العقلي الذي ليس فيه استثناء، فلاحظ.

(١) لاشك أنّه لو كانت الشيعة هم التابعين للمعتزلة في هذا الأصل الاعتقادي لكان عليهم أن يلتزموا بما التزم اليه المعتزلة لأنّ التابع للشيء لابد أن يكون تابعاً له في جميع ما ذهب اليه المتبوع وإلّا يلزم الخلف، فإنّ صدق المتابعة مرهون للتبعية، وحيث أنّه ليس هناك أثر لهذا المعنى فلا وجه لهذه النسبة.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ التبعية دعوىٰ من المدّعي لابد من إثباته، فلو كانت الشيعة قد أخذت من المعتزلة لابدّ أن يلتزموا بما بنى عليه المعتزلة وحيث لم يكن هناك دليل على إثبات هذا الأمر بل الدليل ثابت على عدمه، لأنّ المعتزلة تعتقد في باب الإمامة بإمامة الخلفاء الثلاثة، ولكن الشيعة تعتقد في باب الإمامة بأنّ الإمامة منصب إلهي كالنبوة يعطيه الله من يشاء من عباده لطفاً على عباده.

وثالثها: ما زعمه من كون سائر من قال من أهل السنة بخلق الله سبحانه أفعال عباده ليس فيهم من يقول بأنّ الله ليس بعدل....[1] إلى تمام قوله؛ فإنّه

وعلى أساس هذا القانون: إنّ الشيعة يعتقدون بأنّ النصّ على إمامة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا فصل.

ثم نص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الأئمة الأحد عشر من بعده فهم أئمة الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا هو اعتقاد الشيعة في باب الإمامة، فإذا كانت الشيعة تابعة للمعتزلة كان اللازم عليهم أن يلتزموا بما التزم به المعتزلة حيث أنّ قانون التبعية يقتضي ذلك وإلّا فلا معنى لهذه النسبة، فلاحظ.

بل على عكس ما ادّعاه المدّعي لأنّ هناك تشابه في بيان أصل العقيدة، وحيث أنّ المعتزلة لم يلتزموا بلوازم هذه العقيدة فمعناه أنّهم وجدوا هذه العقيدة حقاً كما وجدها الشيعة الاثنى عشرية، ولكن مع ذلك أنّ المعتزلة لم تأخذ بلوازمه.

(١) لايخفى على الباحث أنّ الأشاعرة أو أهل الحديث وهم الذين يرفضون العدل الإلهي باعتبار أنّه أصل اعتقادي من أصول الدين فإنّهم وإن لم يصرّحوا بأنّ الله تعالى ظالم ـ والعياذ بالله ـ باعتبار أنّ الآيات القرآنية صريحة في نفي أيّ لون من ألوان الظلم عن ساحة رب العالمين ولكنّهم صرحوا بأنّه لا يقبح شيء من الله تعالى، ولذلك صرّحوا بأنّ الإضلال في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ (سورة المدّثّر: ٣١) أنّه تعالى خالق الكفر والضلال وهذا من لوازم أفكارهم العدل الإلهي، لأنّ العدل عبارة عن: وضع الأشياء في محله. والأشاعرة يقولون: بأنّ التزام بهذا الأمر يلازم تحديد أفعال الله تعالى، ويزعمون أنّه ليس للعقل أن يدرك حسن الأفعال وقبحها، فالله سبحانه له أن يعاقب جميع الأنبياء والمرسلين ويدخلهم جهنّم، وله أن يثيب الكفّار والمشركين ويدخلهم الجنّة فلازم قولهم: إنّه لا مانع من القول بأنّه ظالم إذ عدم هذا الأمر يلزم منه تحديد أفعال رب العالمين.

فالبحث هنا دائر مدار حكم العقل لأنّ أساس هذا القول هو الحكم العقلي بحسن الأشياء وقبحها، فإنكار العدل يقتضي إنكار هذا القانون والضابطة.

وعليه: فإنّ بعضهم لم يصرّحوا بهذا التصريح ولكن لازم كلامهم نفي العدل من صفات الله، وإن صرّح بعضهم بنفي العدل، وهذا معناه: إثبات الظلم لله تعالى (أُنظر: كتاب اللمع للأشعري:

تدليس منه وغش؛ للغفلة؛ لأنّ الشيعة لم ينسب إليهم القول بذلك صريحاً حتى يقال ليس فيهم من يقول، فإنّ عبارته قد صرّحت بأنّ الشيعة ذهبت الى أنّ الله عدل حكيم الى تمامها[١] وبعدها نص صريحاً بذهاب أهل السنة الى ما خالف ذلك.

ومن المعلوم كون ذهاب من قال بإمامة الثلاثة الى ما خالف عقائد الشيعة من الظلم والفساد إنّما هو من حيث قولهم بأنّ الله هو الخالق لفعال عباده، ومن حيث قولهم بعدم لزوم نصب إمام معصوم في كل زمان، وقولهم بتجويز تقديم المفضول على الفاضل وغير ذلك، والمذهب الفاسد تلزمه المفاسد، فلزمهم من هذه نفي العدل والحكمة[٢]، فمن نسب هذه إليهم إنّما نسبها من حيث لزومها

ص٣٨-٣٩، ونهاية الاقدم للشهرستاني: ص٥٦٧، وشرح الأُصول الخمسة: ص ٤٩٥ وغير ذلك).

(١) قال العلاّمة الحلي: ذهبت الإمامية إلى أنّ الله تعالى عدل حكيم لايفعل قبيحاً ولايخل بواجب وإنّ أفعاله إنّما تقع لغرض صحيح وحكمة... (منهاج الكرامة: ص٣١).

وخلاصة ما أفاده في الفصل الأوّل: هو بيان ضرورة وجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان، وذلك لأنّ الله تعالى عدل حكيم لايفعل إلّا ما هو صلاح العباد، فأرسل الرسل لإرشادهم، فكان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم آخرهم، فنصب من بعده أئمة معصومين وهم اثنا عشر أولهم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم المهدي (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) فهذا موجز عقيدة الإمامية في باب الإمامة.

(٢) قال العلّامة الحلي: وذهب أهل السنّة إلى خلاف ذلك (أي الى خلاف ما ذكره الشيعة الإمامية) فلم يثبتوا العدل والحكمة في أفعال الله وجوّزوا عليه فعل القبيح والإخلال بالواجب، وإنّه تعالى لايفعل لغرض، بل كل أفعاله تصدر منه لا لغرض من الأغراض ولا لحكمة البتة (منهاج الكرامة: ص٣٢).

وخلاصة ذلك: إنّ أهل السنة لمّا لم يثبتوا العدل والحكمة في أفعال الله وذهبوا إلى خلاف ما

لمذهبهم لا تصريحهم بها باللسان والمذهب، وما يلزمه مذهب من دون ريب فقد قال: إذن من زعم بإمامة الثلاثة بشيء لزم منه لزوماً بيّناً هذه المفاسد التي نبّه عليها الشيعي(١).

➡ ذهب إليه الشيعة الإمامية في أفعال الله، وزعموا بأنّه تعالى خالق لأفعال العباد خيرها وشرها، فلزمهم الاعتقاد بأنّ الله تعالى لايفعل الأصلح للعباد بل قد يكون فعله الفساد والظلم حقيقة كما أنّ فعل العبد يكون كذلك، وحيث أنّه تعالى خالق لفعل العبد فيكون فاعلاً للظلم والفساد.

ثم ذهبوا إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام غير معصومين وإنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم ينص على إمامة أحد من الأئمة خليفة لما بعده، وأنّه مات بغير وصية، ولازم هذا الاعتقاد أنّهم يجوّزون في حق الله الإخلال بالواجب، حيث إنّ الله تبارك وتعالى كان له القدرة والإمكان لتعيين الإمام ونصبه، وحيث لم يفعل ذلك فأخلّ بالواجب.

ثم إنّ من لوازم القول بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات بغير وصية هو أنّ الأُمة اضطرت إلى تعيين إمام من عندهم ووصل هذا الاضطرار بحد إلى قبول إمامة يزيد بن معاوية وبني مروان والسفّاح والمتوكل و....

وخلاصة الكلام: لازم هذا الاعتقاد إمامة الفسّاق والفجّار بدل المعصومين، فإنّ ما نسبه العلامة الحلي (رضوان الله تعالى عليه) إلى أهل السنّة ليس إلاّ ما هو صريح اعتقادهم أو لازم ذلك، فإنّ من التزم بشيء التزام بلوازمه وهذا أمر مطابق للقاعدة العقلائية، فاعتقاد أهل السنّة في باب الإمامة يلزم منه الاخلال بالواجب وعدم العدل والحكمة في أفعاله تعالى، فإنّ هذا أمر يصح نسبته اليهم وإن لم يصرّحوا به فهو مدلول التزامي لاعتقادهم في هذا المجال، فلاحظ.

(١) فإنّ الاعتقاد بالشيء اعتقاد بلوازمه لأنّ الدلالة الالتزامية كدلالة المطابقية تدل على المطلوب بل في بعض الأحيان أنّ الدلالة الالتزامية تكون أدلّ من المطابقية باعتبار أنّ العرف والعقلاء عندهم أبلغ من المطابقة كالكناية التي هي أبلغ من التصريح، فإنّ قولك «زيد كثير الرماد» غير منفكّة عند العرف والعقلاء عن الجود وهو أبلغ من قولك: «زيد كريم».

وفي المقام أنّ الأمر كذلك فإنّ الاعتقاد بعدم ثبوت العدل والحكمة في أفعال الله تعالى عند أهل ➡

➲ السنّة صار دليلاً على عدم لزوم نصب الإمام والالتزام بهذا الاعتقاد، يلزم منه القول بجواز الإخلال بالواجب في أفعال الله تعالى وكذلك يلزم منه القول بجواز فعل القبيح على الله تعالى ـ والعياذ بالله ـ فالاعتقاد والاذعان والتصديق بشيء يلازم الاعتقاد بآثار ذلك الشيء فإنّ الإيمان بالله حقاً إيمان يلازم الايمان بوحدانيته ورسله واليوم الآخر، حيث إنّ الاعتقاد بالله حقاً يلزم الاعتقاد بصفاته الكمالية والجمالية التي تترتب عليه العقيدة بالعدل الإلهي والعقيدة بالعدل يترتب عليه لزوم الاعتقاد بسفراء الله وأنبيائه، والاعتقاد باستمرار الرسالة الإلهية في وجود المعصوم في كل عصر وزمان من باب اللطف، وكذلك يلازم الاعتقاد بوجود عالم الآخرة وحساب الأعمال، فإنّ هذه العقائد لاتنفك عن الإيمان بالله تعالى حقاً، لأنّ الإنسان إمّا أن يتابع الحق في عقائده وأقواله وأفعاله، وإمّا لايتابع فإذا كان بنائه متابعة الحق يلزم عليه إتباعه في جميع الجهات من الحق، قال الله تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة القصص: ٥٠) فإنّ متابعة الهوى نقطة مقابلة لطلب الحق، فإذا اتبع الإنسان هواه خرج عن طريق الحق إذ اتباع الهوى مانع من العدل والإنصاف، فيخرج الإنسان عن جادة الصواب.

وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: الشقي من انخدع لهواه وغروره (نهج البلاغة الخطبة رقم ٨٦).

وفي حديثٍ آخر عنه عليه السلام قال: الهوى عدوّ العقل (نهج السعادة ج٨: ٢٠١).

وفي حديثٍ آخر قال عليه السلام: الهوى أمين المحن (غرر الحكم: ص٤٢٥ ح١٠٤٨).

وفي حديثٍ آخر قال عليه السلام: لادين مع هوى (غرر الحكم، رقم الحديث ١٠٥٣١).

وفي حديثٍ آخر قال عليه السلام: لا عقل مع هوى (غرر الحكم، رقم الحديث ١٠٥٤١).

وخلاصة الكلام: إنّ اتباع الهوىٰ يخرج الإنسان عن طريق الحق من الدين والعقل، فأساس الاعتقاد والمذهب الذي يختاره الإنسان لابد أن يكون مرتكزاً على العقل والحق والعدل، فإذا كان الإنسان كذلك ولم يتّبع هواه سوف يصل الى الاعتقاد الصحيح لأن وسيلة الهداية هي إدراك الصحيح للحقائق.

➲

وأمّا الهوى يمنع عن ذلك، فإنّ الهوىٰ يلقي الحجب على العقل وسوف لايدرك الإنسان الحقائق فيقع في الضلال، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٦) فالآية صريحة في أنّ إكراه الناس وإجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لاينسجم مع السنن الإلهية وحرية الإرادة ولايكون ذلك دليلاً على عظمة الشخص بل الله سبحانه وتعالى يقول: تركناه لما تبع هواه فالإنسان هو الذي يعيّن مصيره بنفسه فيما يعتقد به، فيلزم أن يكون اعتقاده على أساس العدل والعقل والحقيقة إذ قد يكون الإنسان يعرف ويعلم الحق ولكن مع ذلك لايختاره كما قال الله تعالى في حق هؤلاء: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (سورة النحل: ١٤) فإنّ عدم متابعتهم للحق ليس من جهة عدم علمهم بذلك بل العلم والاعتقاد الحقيقي كان حاصلاً لديهم، والأُمور عندهم واضحة جليّة إلّا أنّهم غيّروا مسيرهم واتبعوا غير سبيل الرشاد أُولئك الذين ضلوا وأضلوا.

قال الله تعالى في حق هؤلاء: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلاَ«٦٧» رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ (سورة الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ (سورة غافر: ٤٧ ـ ٤٨) والى غير ذلك من الآيات التي تبيّن أنّ مصير الإنسان إنّما هو بيد الإنسان نفسه.

فكل عقيدة يلتزم بها الإنسان سوف تترتب آثارها على أعمال الإنسان ومصيره في الدنيا والآخرة، فلايحق له أن يلوم أحداً إلّا نفسه.

فالتصريحات التي صرّح بها علماء أهل السنّة من الأشعرية وأهل الحديث الدالة على عدم ثبوت العدل والحكمة في أفعال الله إنّما هي تلازم الاعتقاد بجواز فعل القبيح على الله كما أنّ الاعتقاد بعدم نصب الإمام المعصوم من قبل الله يلازم جواز الإخلال بالواجب وجواز الفعل القبيح في حقه هذا أمر لايمكنه الإنكار لأنّه لاينفك عن اعتقادهم كما هو واضح للقارئ

ورابعها: ماقاله من كفر القائل بأنّ الله سبحانه ليس بعدل وليس بحكيم الى تمام مالزمهم من الشناعات، فإنّه من عظيم غشّه وتدليسه لما هو معلوم من كون الكفر ليس له عبارة معينة مبينة تدلّ عليه بل عامة ما دَلّه على نفي ضروري من ضروريات الدين بدون شبهة عرضت للمعتقد بذلك فهو كافر[١]، إنّما يؤخذ به من

⮌ الكريم.

وعليه: فإنّ أهل السنة والجماعة وإن لم يصرحوا ببعض ما نسب اليهم في اعتقاداتهم إلّا أنّ لازم اعتقادهم في الأُمور الأصلية يلزمهم القول في الفروع، فلاحظ.

(١) لاشك أنّ منكر الضروري إذا علم أنّ ما أنكره يكون من ضروريات الدين فهو مرتد. والمراد بالضروري: هو ما كان عند المنكر يقيناً من الدين وإن لم يكن مجمعاً عليه إذ الظاهر من دليل كفره هو إنكار الشريعة أو إنكار صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو يستلزم الكفر سواء كان من الأحكام كالفرائض أو من غيرها، وأمّا إذا لم تكن المسألة عنده ضرورياً لشبهة عرضت له في المسألة فلايكون إنكاره إنكاراً للضروري.

وخلاصة الكلام: إنّ إنكار الضروري يشترط فيه الأمرين:

الأوّل: لابد أن يكون الأمر عند المنكر ضرورياً بحيث لم يخف عليه شيء من ذلك ويكون واضحاً عنده في غاية الوضوح.

الثاني: أن يرجع إنكاره الى إنكار قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو إنكار رسالته، فعند ذلك يحكم عليه بالكفر.

وعليه: فإنّ من قال بالجبر أو بالقدر ما شابه ذلك إن لم يثبت عنده ضرورة قول المخالف له فلايحكم عليه بالكفر لعدم صدق عنوان الضروري على ما أنكره ولعدم استلزامه تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو تكذيب رسالته أو الشريعة المقدّسة، هذا إذا قلنا بأنّ الملاك في الضروري هو الضروري عند المنكر، وأما إذا قلنا بأنّ المراد من الضروري هو الضروري عند كل الناس فيستلزم مضافاً إلى كون المسألة ضرورياً عند المنكر ضرورياً عند جميع المسلمين بحيث لايشك فيه مسلم، فإذا أنكره بعض المسلمين أو كان فيها شبهة عند بعضهم أيضاً لايصدق عليها عنوان الضروري ولا يرجع إلى تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

⮎

حيث كونه كاشفاً عن العقيدة القلبية بجحد الضروري[1]، فمن هذه الجهة تعتبر

➲ ففي المقام أنّ ابن تيمية حكم بكفر من لم يعتقد بأنّ الله سبحانه عادل بل حكم بجواز قتله من دون أن يذكر الملاك في الحكم بالكفر وجواز القتل بأنّ المنكر للعدل الإلهي هل انه كان منكراً لأمر ضروري عنده أم أنكر أمراً مجمعاً عليه بين المسلمين أو لا؟ فيلزم عليه إثبات هذا الأمر إذ تكفير المسلم أمر خطير يحتاج إلى الدليل، فلابد أن يكون إما منكراً لله تعالى أو منكراً لرسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو ما شابه ذلك، أي كان مرجع إنكاره إلى إنكار قول الله وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأمّا إذا لم يكن الأمر كذلك فبأيّ دليل يحكم بكفر مسلم وقتله؟ أليس يقول الله عزّوجلّ: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً**﴾ (سورة المائدة: ٣٢) وقال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً**﴾ (سورة النساء: ٩٣).

فإنّ الحكم بالكفر مع جريان الشهادتين على اللسان حكم على خلاف ما أنزل الله وعلى خلاف ما جاء به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد ورد عن أبي هريرة أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله، فمن قال: لا إله إلّا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلّا بحقه (صحيح البخاري ج٤: ص٥ باب دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم).

فإنّ من أجرى الشهادتين على لسانه يحكم بإسلامه وإنّ تكفيره يحتاج إلى إثبات بالدليل الشرعي بحيث يصدق عليه عنوان المرتد أو يصدق عليه عنوان منكر الضروري، أمّا الحكم بالكفر والقتل بلا دليل فهو على خلاف الدين، قال الله تعالى: ﴿**وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ**﴾ (سورة المائدة: ٤٤).

(١) فإنّ العقيدة هي أساس الايمان واطمينان القلب وسكون النفس وراحة البال، بل هي تربط العلم بالإيمان، فإنّ العلم يدعو إلى الإيمان والإيمان بدوره يحث على العلم.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ العقيدة تطلق على ما يؤمن به الإنسان وهي قناعة، وتسليم وإطمينان.

وحيث أنّها أمر قلبي لا إطلاع للآخرين عليها إلّا الله تعالى والذين جعل الله تعالى أسرار العالم ظاهراً مكشوفاً لهم.

فإنّ القول اللساني والعمل الظاهري إنّما يؤخذ بهما دليلاً على إيمان الشخص وعدمه لكونهما ➲

➲ كاشفاً عن العقيدة وإلّا فإنّ العقيدة أمر لا يطلع عليها أحد إلّا الله العالم بما في الصدور، ولذلك قد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأخبار أنّه قال: إنّ من الناس من يدفن في مقابر الكفار ويحشر مع المؤمنين، ومنهم من يدفن في مقابر المسلمين ويحشر مع الكفار (أنظر: تفسير الفخر الرازي ج٢٩: ص٢٠٢ في تفسير قوله تعالى ﴿واما من كان أصحاب اليمين...﴾ (سورة الحديد: ٩٠).

ومن هنا تعرف أهمية العقيدة في إيمان كل مؤمن وأعماله، فإنّ من تولّى شيئاً يحشر معه كما ورد في النص الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: المرء يحشر مع من أحب حتى لو أحب أحدكم حجراً حشر معه (تفسير ابن العربي ج١: ص٤٢).

وفي حديثٍ آخر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورد أيضاً قال: من أحبنا كان معنا يوم القيامة (أمالي الصدوق: ص١٧٤ ح٩).

فالحب والبغض من الأُمور الواقعية الثابتة في النفس، وهما يحقّقان أصل العقيدة ومجراها ولذلك ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال لبريد بن معاوية: هل الدين إلّا الحب والبغض (الكافي ج٨: ص٨٠).

وقد ورد هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مصادر أهل السنّة، ففي المستدرك على الصحيحين عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: هل الدين إلّا الحب والبغض (المستدرك على الصحيحين ج٢:ص٢٩١) ومن هذا المنطق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (سورة آل عمران:٣١).

ولا يخفى على الخبير أنّ المقصود بالحب هنا هو الإدراك والمعرفة بالنسبة إلى ساحة رب العالمين ونبيه الكريم والهادين من أهل بيت النبوة، فكلّما ازداد الإيمان في قلب المؤمن يزداد الحب فيه كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ (سورة البقرة: ١٦٥) لأنّهم أصحاب العقل والإدراك، يفهمون أنّ الله تعالى مصدر كل الكمالات، وكلّما كان حُبّ الكمال أكثر تزداد العقيدة وروح الإيمان في النفس أكثر، فإنّ أدرك الكمال المطلق يوجب الحب والانجذاب نحوه فادراك الصفات الكمالية والجمالية يوجب الحب لذلك لأنّ الانسان بذاته يحب الكمال وفطرة ينجذب اليه فالغمر في ذلك الحب ينجذب إلى القرب الإلهي، لأنّه ➲

➲ الكمال المطلق فيقول مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام في الدعاء: فهبني صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك (دعاء مولانا أميرالمومنين المروي على لسان كميل بن زياد المعروف بدعاء كميل).

فالحب الحقيقي يتجه دائماً نحو نوع من الكمال، والإنسان لا يحب العدم والنقص، بل يسعىٰ دوماً وراء الوجود والكمال، ولذلك كان الأكمل في الوجود والكمال هو أحق بالحب لدى الإنسان الطالب للحق والحقيقة، فالعقيدة إنّما تنشأ من الحب بوجود الأكمل والمرشد وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللهُ﴾ (سورة آل عمران:٢١).

ففي الواقع أنّ من آثار الحب للشيء انجذاب المحب نحو المحبوب والاستجابة له كما ينجذب الإنسان إلى ما يحبه ويتفاعل معه ليكسب رضاه وصحيح أن هناك حباً ضعيفاً لا تتجاوز أشعته جدران القلب، إلّا أنّ هذا لا يعتبر حباً مؤثراً إذ لا شك أنّ للحب الحقيقي آثاراً عملية تربط المحب بالحبيب وتدفعه للسعي في تحقيق طلباته، فحب الإنسان للعثور على الكمالات يجذبه نحو المنبع لتلك الكمالات وهي منحصرة في الله سبحانه والذين اصطفاهم من رسله وأوليائه، ولذلك ورد في الحديث: عن أبي ذر أنّه قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا نبي الله إنّي أحب قوماً أقواماً ما أبلغ أعمالهم، فقال: يا أبا ذر، المرء مع من أحب وله ما اكتسب، قلت: فإنّي أحب الله ورسوله وأهل بيت نبيه، قال: فإنّك مع من أحببت (أمالي الطوسي: ص٦٣٢ ح ١٣٠٣، وكشف الغمّة ج٢: ص٤١).

وفي حديثٍ آخر عن بشر بن غالب عن أبي عبدالله الحسين عليه السلام قال: من أحبنا للدنيا فإنّ صاحب الدنيا يحبه البر والفاجر، ومن أحبّنا لله كنا نحن وهو يوم القيامة كهاتين وأشار بالسبّابة والوسطىٰ (المعجم الكبير للطبراني ج٣: ص١٢٥ ح٢٨٨٠).

وعن بريد بن معاوية العجلي قال: كنت عند أبي جعفر الباقر عليه السلام إذ دخل عليه قادم من خراسان ماشياً، فأخرج رجليه وقد تغلفتا وقال: أما والله، ما جاء بي من حيث جئت إلّا حبكم أهل البيت، فقال أبو جعفر عليه السلام: والله لو أحبنا حجر حشره الله معنا، وهل الدين إلّا الحب (تفسير العيّاشي ج١: ص١٦٧ ح٢٧).

والنتيجة: إنّ العقيدة منشأها الحب القلبي وهو أساس إيمان المؤمن وأعماله الصالحة وكذلك ➲

عبارة اللسان[١]، فأمّا لو علم عدم كشفها عن عقيدة القلب فهي ليست معتبرة حسبما هو معلوم من قصة عمار حين جبره الكفرة، فاضطر إلى القول بما خالف ضرورة الدين المخالف لما في قلبه من العقيدة الحقة[٢].

يمكن أن يكون أساساً للعقيدة الفاسدة، فإنّ الميل والحب بالنسبة إلى الباطل وحب أهله يكون منشأً لصدور الأعمال القبيحة من صاحبها، فالجحد الضرروي إنّما هي الجحد القلبي والأعمال كاشف له، فلاحظ.

(١) وذلك لأنّ القول اللساني كاشف عما في قلبه بحسب الظاهر، فإنّ من قال كلمة الشهادتين يكون مسلماً بحسب الظاهر وتجري عليه أحكام الإسلام لأنّ ظاهر كلامه يكشف عما يعتقد به في قلبه ظاهراً، فإقرار الشهادتين إمضاء لإجراء أحكام الإسلام عليه.

والحاكم الشرعي إنّما يحكم بظاهر ما يسمعه من الألفاظ وإن كان الباطن خلافه، فيحكم بظاهر الشهادات والأقارير وإن كانت في الواقع مخالفة مع ما في قلبه وباطنه.

نعم متى ما شهد الحاكم ضد ما تضمنه الشهادة تبطل تلك الشهادة لأنّ القرينة القطعية قامت على خلافها ولولا تلك القرينة فإنّ الظهور حجة عقلائية لكل أحد كالنص ولا يمكن رفع اليد عنه إلّا بقرينة أقوىٰ قائمةً على خلافه وحيث لم توجد قرينة فظاهر الكلام حجة كما هو واضح ظاهر، فلاحظ.

(٢) فإنّ إظهار كلمة الكفر والأفعال الدالة عليه قد تكون لغاية اقتضتها الظروف الحرجة والأحوال الخطرة بحيث يترتب عليها غاية قصوىٰ، فلا يتحقّق الإرتداد حينئذٍ؛ لأنّ صدور الأفعال الدالة على الكفر والكلمات الصريحة فيه ليس عن جدّ؛ فإنّ الارادة الجدّية لازمة في تحقّق الكفر.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الحكم بالكفر دائر مدار أحد الأمرين:

أحدهما: تحقّق نفس الكفر سواء كان مبسوطاً بالإسلام أم لا.

والآخر: الانتحال إلى الإسلام مع إنكار الضروري مع الالتفات وعدم وجود حالة اضطرارية، بل لابد أن يكون في حالة عادية بحيث تصدر الأفعال من الإنسان عن جد وجزم، وحيث لا جزم له فيها فلا قصد له في المقام جداً ولا يحكم بما يقوله كما هو ظاهر من فعل عمار بن

ياسر لمّا أكرهه كفار مكة على إظهار البراءة من الرسول الأعظمﷺ ففعله عمار من دون قصد قلبي، كما حكىٰ لنا هذه القصة القرآن بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (سورة النحل: ١٠٦).

قال ابن حجر في شرح القضية: إنّ الآية المذكورة نزلت في عمار بن ياسر كما جاء من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عماراً فعذّبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبيﷺ فقال له: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنّاً بالإيمان، قال: فإن عادوا فعد... إلى أن قال: ورجاله ثقات (اُنظر: فتح الباري ج١٢: ص٢٧٧).

وروىٰ الجصّاص في تفسيره بسنده عن معمر عن عبدالكريم عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، قال: أخذ المشركون عماراً وجماعة معه فعذبوهم حتى قاربوهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى رسول اللهﷺ قال: كيف كان قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال: فإن عادوا فعد، قال أبوبكر: هذا أصل في جواز إظهار الكفر في حال الإكراه والإكراه المبيح لذلك هو أن يخاف على نفسه أو بعض أعضائه التلف، وإن لم يفعل ما أمره به فابيح له في هذه الحالة أن يظهر كلمة الكفر... (أحكام القرآن للجصّاص ج٣: ص٢٤٩).

أقول: ولا يخفى أنّ ما ذكره هنا من الأصل في جواز إظهار الكفر هو نفس التقية التي ذكرها الشيعة في كتبهم.

وروى الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عمار، وذلك أنّ المشركين أخذوه وأباه ياسراً وأُمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً فعذّبوهم، فأمّا سمية فإنّها ربطت بين بعيرين وجيء قلبها برحبة، وقتل زوجها ياسر وهما أوّل قتيلين في الإسلام.

وأمّا عمار فإنّه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً. قال قتادة: أخذ بنو المغيرة عماراً وغطوه في بئر مصون وقالوا له: اُكفر بمحمد (ولم يتعمّد) ذلك وقلبه كان مطمئناً بالإيمان، فأخبر رسول اللهﷺ بأنّ عماراً كفر، فقال رسول اللهﷺ: كلّا إنّ عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول اللهﷺ وهو يبكي فجعل رسول اللهﷺ يمسح عينيه وقال: مالك إن عادوا لك فعُد لهم بما قلت (تفسير الثعلبي ج٦: ص٤٥).

ومن هذه الجهة أمره ﷺ بأن يعود في قوله لو عاد عليه الكفرة[١].

والى غير ذلك من الروايات التي جاءت في بيان هذه الواقعة التاريخية في شأن نزول الآية الكريمة، كما أنّ الأمر في عكسه يكون كذلك، فإنّ الله تعالى قد أخبر عن قوم أظهروا الإيمان بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ...﴾ (سورة المائدة:٤١).

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٧).

(١) أخرج الحاكم في المستدرك على الصحيحين بسنده عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلمّا أتى رسول الله ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شرّ يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال ﷺ: إن عادوا فعُد (المستدرك على الصحيحين ج٢: ص٣٥٧).

وقال الحاكم بعد ذكر هذا الحديث أنّه صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، رواه البيهقي في سننه ج٨ ص٢٠٩، والزيعلي في نصب الراية، وقال بعد ذكر الحديث البيهقي في المعرفة وأبو نعيم في الحلية في ترجمة عمار، ورواه عبدالرزاق في مصنفه نصب الراية ج٥: ص٣٦٤.

ورواه ابن حجر في فتح الباري ج١٢: ص٣٧٨ وقال بعد ذكر الحديث: إنّه مرسل ورجاله ثقات....

ثم قال في كتابه الدراية في تخريج أحاديث الهداية بعد ذكر الحديث: وإسناده صحيح إن كان محمد بن عمار سمعه من أبيه. (الدراية في معرفة تخريج أحاديث الهداية ج٢: ص١٩٧).

أقول: إنّ ما ذكره ابن حجر من الإرسال محاولة منه للتغطية على حقيقة مسلّمة قرآنية وهي مشروعية التقية التي ذكرها القرآن وفيها النصوص الروائية الصحيحة، فلذلك مثل ابن حجر لم يتحمل هذه الأدلّة القاطعة فرض الحديث بالإسال وإن ذكر أنّ رجاله ثقات ثم تجد في مصدر آخر يؤكد على صحة الرواية، إذن لابد ان تقول في جوابه:

بل لو صدر منه قول يدلّ على إيمانه، وعُلِمَ عدم مطابقة قوله لما في قلبه،

➲ أولاً: إنّ أبا عبيدة حفيد عمار نقل هذا الحديث عن أبيه محمد بن عمار ولا إشكال في أنّ محمداً من أهل بيت عمار وأهل البيت أدرى بما في البيت من غيره.

وثانياً: إنّ قول محمد بن عمار محمول على الحس كجميع موارد الروايات، فإنّه وإن لم يكن حين الحادثة موجوداً إلّا أن حكايته عن والده دال على أنّه ينقل عن والده، وعليه: فإن كان الرجل ثقة عندهم فقوله محمول على الحس أي أنّه سمع من والده، فقول ابن حجر في طعن الحديث أنّه مرسل مردود.

وثالثاً: ذكر ابن أبي الحديد هذا الحديث ثم قال: وهذا مما أجمع عليه أهل التفسير... (اُنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٠: ص١٠٢).

ورابعاً: ورد في حديث صحيح رواه عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما خير عمار بين أمرين إلّا اختار أرشدهما (اُنظر: مسند أحمد بن حنبل ج٦: ص١١٢، والمستدرك للحاكم ج٣: ص٣٨٨ وسنن الترمذي ج٥ ص٣٢٢ وغيرهم).

ثم إنّ الذهبي أخرج هذا الحديث وقال: أخرجه النسائي والترمذي، وإسناده صحيح (تاريخ الإسلام ج٣: ص٥٧٥).

فالحديث الصحيح، فالتقية أمر مسلّم في الفكر الإسلامي، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمار بن ياسر بالتقية وهو قد ورد في قصة عمار التي ذكرها المفسرون والمحدّثون والمؤرخون. ووجه الاستدلال بالحديث على مشروعية التقية أوضح من أن يحتاج إلى بيان، لأنّ ما يخافه المؤمن من تهديد ووعيد الكافر أو المسلم الظالم، لا شك أن يخلق شعوراً لديه بامتهان كرامته ولو امتنع عن تنفيذ ما اُريد منه؛ لأنّه معرض في هذه الحالة للوقوع في البلاء، فإنّ عزم اقتحامه وهو لا يطيقه فقد أذل نفسه، هذا مع أنّ بإمكانه أن يخرج من هذا البلاء بواسطة التقية إلّا أن تصل إلى حدّ الدم لأنّ التقية شرعت لإتقان الدماء، فإذا وصل إلى الدم فلا تقية كما ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: إنّما جعلت التقية ليحقن بها الدم، فإذا بلغ الدم فلا تقية (اُصول الكافي ج٢:ص١٧٤).

وعليه: فإنّ قضية عمار أمر مسلّم عند الكل، فلا يمكن إنكارها، وهي حقيقة إيمانية ثابتة في الشرع كما أنّ الإيمان ثابت في القلب ولا يمكن الرسوخ اليه إلّا الله والذين جعل الله تعالى لهم السبيل إلى المعرفة بذلك.

فهو ليس بمؤمن بل كافر حسبما شهد الله سبحانه بكذب وكفر من شهد من المنافقين بأنّ المصطفى رسول الله ﷺ[١].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة المنافقون: ١) لقد وصف الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة المنافقين بأنّهم الكاذبون في شهادتهم لأنّ شهادتهم لم تكن موافقة لما في قلوبهم، حيث أنّهم لم يصدّقوا نبوة النبي ﷺ ومن لم يصدق نبوة النبي ﷺ فهو من الكفّار ولا تنفعهم الشهادة الكاذبة، بل إنّ الله تعالى قد واجههم بشدة لتبيين الحقيقة وتؤكّد الآية على أنّه يجب مواجهة المنافقين بنفس الشدة التي هم يؤكدون عليها من اظهار الصدق، وذلك لأنهم كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ويضعون الموانع والعراقيل أمام الناس ليصدونهم عن الهداية والسعادة، وليس هناك أقبح من أن يمنع الإنسان غيره من الاهتداء والصد عن سبيل الله. فالمنافق اسم فاعل من النفاق وفي القرآن الكريم عرّف بإظهار الإيمان وإبطان الكفر وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة؛ منها:

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (سورة آل عمران:١٦٧).

فصريح الآية أنّ المنافقين كانوا يظهرون خلاف ما يضمرون ويبدون من القول خلاف ما كانوا يكتمون من الاعتقاد والنيّة، فإنّهم كانوا يصرّون إصراراً بالغاً للحرب والقتال، ثم حين ما بدت المعركة وأجمعت الكفّار جيوشها ضد الإسلام وامتنعوا عنها بحجج واهية واعتذرات وتعلّلات للهروب عن ساحة المعركة والله سبحانه وتعالى قد أخبر عما كانوا يضمرونه بقوله تعالى: ﴿وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾، فإنّ الله سبحانه يعلم جيداً ما كانوا يخفونه ويضمرونه من النوايا، وأخبر تعالى بأنّه سيكشف عن نواياهم للمسلمين في هذه الدنيا كانوا كما سيعاقبهم ويحاسبهم على نواياهم الشرّيرة في الآخرة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا

←

وبالجملة: فالعبرة بالعقيدة دون العبارة، فأيّ عبارة دلّت على عقيدة الكفر يلزم بها قائلها؟[١]

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٤١).

هذه الآية الكريمة أيضاً فضحت المنافقين بصورة واضحة.

فإنّ عبارة «يسارعون» في قوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ تدلّ على أنّهم كانوا يتسابقون فيما بينهم للوصول إلى آخر مرحلة الكفر والنفاق واجترائهم على الله بالأيمان الكاذب، فكانوا يواصلون الأعداء الخارجين أخبار المسلمين ويحاربون الإسلام خفية وكانت أعمالهم مشوبة بالنفاق والرياء.

فالآية تؤكّد علىٰ أنّهم كانوا يسمعون كلام النبيﷺ لا لأجل إطاعته بل لكي يجعلوا ذلك وسيلة لتكذيب النبيﷺ والافتراء عليه حيث تقول الآية الكريمة: «سمّاعون للكذب» ثم لم يمكنهم ذلك، فتشير الآية الى أنّهم جعلوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه.... والى غير ذلك من الآيات التي نزلت في حق المنافقين، فلاحظ.

(١) فإنّ الاعتقاد القلبي لو تعلّق بأمر واستقر في قلب المعتقد ـ بالفتح ـ بحيث أصبح اعتقاداً جازماً وإيماناً راسخاً وعزماً ثابتاً لا تزحزحه العواصف والأهواء من مكانه، لأنّ الاعتقاد المستقر هو التصديق اليقيني الذي لا يعتريه الشك ولا يدانيه الريب حتى كأنّه يكون كالروح من جسم الإنسان لا يفارقه أبداً.

وأمّا الألفاظ والعبارات فهي التي تجري على اللسان وتخبر عما في القلب وهذا الإخبار له احتمالان بحسب الظاهر:

الأوّل: احتمال كونه مطابقاً للواقع.

والثاني: احتمال كونه مخالفاً للواقع.

والإيمان الحقيقي أمر واقعي ليس فيه مجال للأحتمال، وأمّا الإيمان الظاهري والإسلام اللفظي يحتمل فيه عدم مطابقته للواقع، بل وفي بعض الأحيان في الحقيقة يكون مخالفاً للواقع كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة

وعبارة: إنّ الله سبحانه خلق الكفر والمعاصي والفساد في العباد، ولم يجب عليه تقديم الفاضل على المفضول، ولم يجب وجود إمام في كل زمان، ولم يجب جعل إمام معصوم قد نفت عدله وحكمته، ودلّت على فعله، لعامة المستقبحات، وعلى عدم فعله لما يجب من رحمته بعباده[١]، فيحنئذٍ لزم السنّي أن يحكم بكفر

⮊ الحجرات: ١٤).

فإنّ الفرق بين الإسلام والإيمان هو الإسلام له شكل ظاهري قانوني، فمن شهد الشهادتين بلسانه فهو في زمرة المسلمين ظاهراً وتجري عليه أحكام المسلمين، أمّا الإيمان فهو أمر واقعي وباطني ومكانه قلب الإنسان لا ما يجري على اللسان، وإلى هذا النبيﷺ حيث قال: الإسلام علانية والإيمان في القلب (مسند أحمد بن حنبل ج٣: ص١٣٤).

وعليه فلابدّ أن يكون الكلام في غاية الوضوح والدلالة كي يمكن نسبة القول إلى قائله، لا سيما إذا كان الأمر فيه جهة الحكم على الآخرين، فلابد أن يكون مستنده علماً ويقيناً لا أن يكون عن مجاملة ولا بصورة عشوائية، فإنّ الحكم على الآخرين أخطر وأصعب بكثير من محاورة الكلام في المنهج المتعارف إذ لابد هناك من مراعاة الموازين والمقاييس العقلائية والشرعية لئلّا يكون الحكم على الآخرين حكماً غير مطابق للواقع بل مخالف لما أنزل الله حيث قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ (سورة البقرة: ٩٠).

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة المائدة: ٤٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾ (سورة المائدة:٤٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة المائدة:٤٦).

ومن الواضح أنّ للكفر مراتب كما أنّ للإيمان درجات، فدرجات الكفر تبدأ من إنكار وجود الله إلى بقية مراتبه ودرجاته، فإنّ في بعض مراتبه مضافاً إلى الكفر فيه جهة الظلم على الآخرين إذ يترتب عليه الحكم على الآخرين بلا وجه شرعي أو عقلي ويعدّ ذلك من الأحكام الجاهلية التي ليس لها مستند شرعي ولا عقلي فيكون الحكم حكماً بالعدوان والظلم، وساقط عن الاعتبار في سوق العقلاء بل خارج عن ساحة الدين، فلاحظ.

(١) فإنّ كلّاً من هذه العبارات والمطالب المذكورة لابد من إثباتها بدليل علمي فني دقيق بحيث

المعتقد بهذه لما عرفته من كون العبارة كاشفة، وقد كشفت عما قال السنّي بأنّه كفر(١)، فتدبر.

وخامسها: ما نسبه الى المسلمين من كونهم متفقين على كفر من قال ذلك، فإنّه كذب منه لأنّ من المسلمين اثني عشرية الشيعة، وهم حاكمون جميعاً بأنّ المعتقد بذلك ليس بكافر(٢).

➲ لو كان لطرفه المقابل مبنىً علمياً ومنهجاً خاصاً يعتنىٰ به عند العلماء للزم عليه مراعاته ليكون البحث معه بحثاً علمياً استدلالياً موضوعياً بعيدة عن المنابزة والاتهامات والتعصّبات، فعلى المدّعي أن يقيم الأدلة العلمية على مدعاه ويلزم على من يعتقد بالعدل الإلهي إقامة البرهان والاستدلال العلمي علىٰ أنّ الله تبارك وتعالى يجب عليه نصب الإمام المعصوم في كل عصر وزمان من باب أنّه عادل لا يعاقب إلّا بعد إتمام الحجة على العباد وأن بوجود المعصوم في كل عصر و زمان يتم الحجة على الخلق.

فنصب المعصوم في كل عصر وزمان من باب اللّطف وهو مقتضى العدل الإلهي كما أنّه يلزم بعث الأنبياء من هذا الباب. وعليه يلزم أن يكون البحث علمياً قائماً على أساس الأدلّة والبراهين العلمية لا عشوائية، فلاحظ.

(١) فإنّ الالتزام بشيء التزام بلوازمه، فإذا التزم أحد بالأُمور المذكورة يكشف عن التزامه بما هو لازم اعتقاده، فإنّ من لوازم القول بالعدل الإلهي هو القول بلزوم جعل الإمام المعصوم في كل عصر وزمان وأنّ عدم الالتزام بهذا اللازم يعتبر خروجاً عن البحث والميزان العلمي بل وفي بعض الأحيان يعدّ خروجاً عن حدود الإسلام. وسيتّضح ذلك للقارئ الكريم من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

فكما تقدّم من الماتن أنّ العقيدة غير القول والعبارة، فإنّ العقيدة أمر قلبي وإن لم يظهرها صاحبها بالقول والعبارة فإنّها ثابتة في حق صاحبها وإنّ لوازمها الاستدلال بما اعتقده من العقيدة وهي حجة عليه يلزم الالتزام بها، وأنّ ما يذكره من العبارة هي القول الكاشف عن تلك العقيدة لا حقيقتها، فأهمية العقيدة في إيمان الشخص والطابع الإيماني والروحي والإطمئنان النفسي يجر الإنسان إلى لازم تلك العقيدة، وهذا أمر عقلي ضروري كما لا يخفىٰ.

(٢) فإنّ الشيعة الإمامية تعتقد بأنّ الإسلام الظاهري أمر مسلّم يحكم على أساسه بالإسلام

➲ فيحقن به الدماء ويحفظ به الأموال ويحل به الذبائح ويوجب به المواريث بينهم، ويجب تجهيزهم وتغسيلهم وتدفينهم في مقابر المؤمنين، فهم يشاركون أهل الإيمان في الأحكام وذلك لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يفعله في صدر الإسلام.

وفي رواية نبوية قال صلى الله عليه وآله وسلم: أُمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولّى السرائر (أُنظر: شرح مسلم للنووي ج٧: ص١٦٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: إنّ الايمان يشارك الإسلام ولا يشاركه الإسلام، إنّ الإيمان ما وقر في القلوب والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدماء (أُصول الكافي ج٢: ص٢٦ ح٣).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: الايمان ما استقر في القلب وأفضى به إلى الله، وصدقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره، والإسلام ما ظهر من قول أو فعل وهو الذي عليه جماعة الناس من الفرق كلها، وبه حقنت الدماء وعليه جرت المواريث وجاز النكاح....(أُصول الكافي، ج٢:ص٢٦ح٥) والى غير ذلك من الأحاديث الواردة عنهم عليهم السلام الدالة على أنّ الإسلام الظاهري إنّما هو بالشهادتين وبذلك يتحقّق الحكم بالإسلام.

ثمّ إنّ الباحث لو درس التاريخ يجد بوضوح أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل لأحد من المسلمين أنت منافق، لم أقبل منك إسلامك، مع ما نزل في ذمّ المنافقين من الآيات الكريمة. وقد سمّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميع المسلمين في عصره بأصحابه وهو يعلم بأنّ فيهم المنافقين.

واليك الدليل على ذلك فقد أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن جابر بن عبدالله قال: كنا في غزاة قال سفيان مرة في جيش فكسع رجل من المهاجرين: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما بال دعوىٰ جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: دعوها فإنّها منته فسمع بذلك عبدالله بن أُبيّ فقال: فعلوها أما والله لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: دعه لايتحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه... (صحيح البخاري ج٦: ص٦٥ تفسير سورة المنافقين).

فترىٰ أنّه بناءً على قبول هذا الحديث أنّه مع كون الظاهر قبول النفاق منهم ولكن نسب اليهم ➲

بل هو مسلم ليس بشيعي من حيث عدم صيرورة هذه المسائل من ضروريات الدين حتى يكفر المعتقد بها[١].

بل ولو فرض صيرورتها من الضروريات فليس جحد الضروري مطلقاً كفر،[٢] بل ما لم يكن نفيه مسبّباً عن شبهة،[٣] فأمّا لو صدر نفي الضروري عن

الصحبة والصحابة وأمثال هذه الرواية كثيرة.

فالباحث لو درس هذه الروايات لا يبعد أن يستنتج منها أنّ أكثر الصحابة لم يكونوا بعيدين عن النفاق لاسيما مع ما قرره سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِ كَارِهُونَ﴾ (سورة المؤمنون:٧٠).

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لاَتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...﴾ (سورة التوبة:١٠١) والى غير ذلك من الآيات الشريفة.

وكل ذلك دليل على أن النبيﷺ كان يحكم بالإسلام الظاهري وإلّا فإنّ المنافقين كانوا في أصحاب النبيﷺ وعددهم كبير. وسنتعرّض لهذا البحث مفصّلاً في محله إن شاء الله تعالىٰ.

(١) لأنّ الضروري عبارة عن ثبوت الشيء من الدين يقيناً فاذا أنكره المنكر وكان معتقداً بأنّه من ضروريات الدين فهو كافر لأنّ إنكار الضروري انكار لما جاء به صاحب الرسالة وانكار لرسالته وهذا كفر محض ففي المسائل المذكورة إنّ القوم يعتقدون بما ثبت عندهم من الامور الدينية وإن كانت الأدلّة التي استدلوا بها عليها قاصرة عن الدلالة عند الشيعة الإمامية ولا تدل على مدّعىٰ إلّا أنّهم بعد تسليمهم للأدلّة والاعتقاد بما التزموا به في مذهبهم لا يمكننا القول بأنّهم منكرون للضروري إذ المدار في إنكار الضروري ثبوت الأمر عندهم من الدين لا وجود الدليل على خلاف معتقداتهم، فإنّ الخصم لو لم يعترف بصحة تلك الأدلة وإن كانت ضرورية عند طرفه المقابل يمكن نسبة إنكار الضروري اليه لأنّه لم يصح عنده الدليل وإن كان هو في خطأ، وعليه فلا يمكن أن يقال إنّه أنكر الضروري، فلاحظ.

(٢) فإنّ إنكار الضروري بنفسه لا يكون موجباً للكفر بل إنّما يوجب ذلك إذا كان الإنكار مستلزماً لإنكار أحد الأُصول الاعتقادية المسلّمة عند جميع المسلمين كرجوعه إلى إنكار

شبهة فليس بموجب للكفر، ومن هذه الجهة لم يقل شيعي بكفر من تسمى بأهل السنة(٤).

فعلى الفرض السابق فظاهر من حيث عدم نفيهم لمطلب ديني ضروري(٥).

➲ التوحيد أو الرسالة أو المعاد كما حقّق في محله، وأمّا إنكار الضروري بنفسه لا يكون موجباً للكفر، فلاحظ.

(٣) فإنّ إنكار الضروري لا يستتبع الكفر مطلقاً وإنّما يوجب الكفر فيما إذا كان المنكر عالماً بأنّ ما ينكره، وثابت بالضرورة وأنّ ما أنكره من الدين فيحكم بكفره، وأمّا إذا أنكر الضروري لشبهة حكمية أو موضوعية حصلت له بسبب ما، لا يخرجه عن كونه مسلماً، وهذا ما يفهم من الأدلّة عند الشيعة، فإنّ الأدلّة دالة على أنّ إنكار الضروري في حد ذاته لا يكون موجباً للكفر بل إنّما يلزم فيه جحود المنكر. هذا ما ذكره فقهاء الشيعة في الأبواب المختلفة من الفقه، فللباحث أن يراجع كتبهم.

(٤) فإنّ أهل السنة مهما كانوا مختلفين مع الشيعة الإمامية في كثير من المسائل الدينية وانّ كثيراً من تلك المسائل تكون ضرورية عند الشيعة الإمامية إلّا أنّ ذلك لا يعتبر عند الشيعة إنكاراً للضروري لأنّه كما تقدم أنّ الإنكار الضروري عند الشيعة في حد ذاته لا يكون موجباً للخروج عن الدين وإنّما يلزم فيه الجحود من المنكر أي يكون المنكر عالماً بكون ما ينكره ضرورياً من ضروريات الدين كما هو مذكور في كتبهم، ولذلك إنّ العلّامة الحلي (رضوان الله تعالى عليه) لم يقل بأنّ أهل السنّة والجماعة كفار لا في منهاج الكرامة ولا في غيره من كتبه فراجع.

(٥) فإنّ أهل السنّة وإن أنكروا الأدلّة التي تكون دلالتها صريحة بل واضحة ضرورية عند الشيعة كحديث الخلفاء من بعدي اثنى عشر، وغيره من الأحاديث، ولكن لا يحكمون على أهل السنّة بإنكارهم هذه الدلالة الواضحة منكراً للضروري لأنّه قد لم يصل القوم إلى ضرورتها، ولذلك تجد أنّ الشيعة يبيّنون الحقائق والمطالب الواردة في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة والتي تكون حجة على جميع المسلمين بحيث لا يكون للمحجوج معذرة ولا وسيلة يدفع بها عن ذلك.

➲

وأمّا على الفرض المتأخر فلتجويز الشبهة في حقهم ومعه، فالحكم بالكفر محرّم من دون ريب[١].

فعلم كذب ما زعمه السنّي هنا، إمّا لجهله بما بيّناه وإمّا لتجاهله، فعلى الحالين ما زعمه في حق المسلمين جميعهم من هذه النسبة باطل بيّن عند الشيعة بل وعند أهل مذهبه لعدم موجب للكفر على ما بيّناه حتى عندهم[٢].

وإنّما الشيعة الإمامية يستدلون بالروايات والحجج الواردة في كتب أهل السنّة ليلزموهم بما ألزموا به أنفسهم ليرفعوا الالتباس والشبهات عن أفكارهم ليصبحوا عارفين بما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ولذلك لا يتهمون أهل السنّة بإنكارهم لبعض الأدلّة أنّهم منكري ضروري الدين، فلاحظ.

(١) فإنّ خطورة الحكم بالكفر واضحة لجميع الناس إذ لو كان المحكوم بكفره مسبوقاً بالإسلام فإنّه يستوجب إجراء حكم المترتب على الإرتداد والحكم المترتب عليه القتل وخروج الأموال من ملكه، كما لا يخفى ذلك على من تتبّع كتب الفقهاء.

وعليه: فلا يصح تكفير المسلم بلا مستند قطعي لأهمية الشارع بالدماء والأعراض والأموال.

فانّه بسبب التكفير تنهتك الحرمات وتسفك الدماء وتبيح الأموال والشارع الأقدس لا يرضىٰ بذلك إلّا بالدليل القطعي المتفق عليه بين جميع المسلمين وهذا معنى الضروري، فإنّ الضروري ما هو الثابت عند الجميع بحيث لا يحتاج مشروعيته الى الاستدلال لأنّ مشروعيته واضحة عند الكل وامّا ثبوت شيء عند بعض المسلمين وان كان الثبوت ثبوتاً ضرورياً بالأدلّة عند طائفة من المسلمين لا يكون ضرورياً وان كانت الواضحة عندهم كوضوح الشمس في أُفق السماء، فإنّ الحكم بالكفر إنّما يترتب على المنكر للضروري لا لمطلق المنكر.

وعليه: فلا يصح نسبة منكر الضروري لأحد إلّا بعد إثبات ضروريته عنده، فإذا أقر المنكر بأنّ هذا الشيء ضروري عندي ومع ذلك أنكره فعند ذلك يصح إطلاق منكر الضروري عليه، فلاحظ.

(٢) أمّا بالنسبة إلى علماء الشيعة فالأمر واضح وقد تقدّم البحث فيه، وأمّا بالنسبة إلى علماء

أهل السنّة فالأمر كذلك.

واليك بعض ما جاء في كتبهم: قال علاء الدين ابن عابدين وهو من فقهاء الحنفية في كتابه تكملة حاشية ردّ المختار، عند ذكر هذه المسألة ما هذا نص عبارته: أمّا من له شبهة فيما ذهب إليه وإن كان ما ذهب اليه عند التحقيق في حد ذاته كفراً: كمنكر الرؤية وعذاب القبر ونحو ذلك، فإنّ فيه إنكار حكم النصوص المشهورة والإجماع، إلّا أنّ لهم شبهة قياس الغائب على الشاهد ونحو ذلك مما علم في الكلام، وكمنكر خلافة الشيخين والساب لهما؛ فإنّ فيه إنكار حكم الإجماع القطعي إلّا أنّهم ينكرون حجته الإجماع باتّهامهم الصحابة فكانت لهم شبهة في الجملة وإن كانت ظاهرة البطلان بالنظر إلى الدليل، فبسبب تلك الشبهة التي أدىٰ اليها اجتهادهم لم يحكم بكفرهم مع أنّ معتقدهم كفر احتياطاً، بخلاف مثل ما ذكرنا من الغلاة.

وحاصله: أنّ المحكوم بكفره من أدّاه هواه وبدعته إلى مخالفة دليل قطعي لا يسوغ فيه تأويلاً أصلاً، كردّ آية قرآنية أو تكذيب نبي أو إنكار أحد أركان الإسلام ونحو ذلك، بخلاف غيرهم كمن اعتقد أنّ علياً هو الأحق بالخلافة وصاروا يسبّون الصحابة، لأنّهم منعوه حقه ونحوه فلا يحكم بكفرهم احتياطاً، وإن كان معتقدهم في نفسه كفراً: أي يكفر به من اعتقد بلا شبهة تأويل... (أُنظر تكملة حاشية ردّ المختار لابن عابدين ج١: ص٥٨٠).

أقول: ونحن نسأل هذا العالم السنّي فنقول له: إنّ المستفاد من كلامك أنّ سب الصحابة مع الاعتقاد بأنّ النبيﷺ نهي عنه موجب للكفر فهل هذا الحكم يشمل نفس الصحابة أم لا؟

وبعبارة أُخرىٰ: هل أنّ هذا القول المنسوب الى النبيﷺ: لا تسبّوا أصحابي أنّ مقصود به غير الصحابة أو يكون شاملاً لهم أيضاً.

إذا كان القرآن يأمر المسلمين كافة بالأخذ بما آتاهم الرسولﷺ فأصحابه أيضاً يشملهم هذا النهي بل الصحابة أولى من غيرهم بالأخذ لأنهم سمعوا ذلك من النبيﷺ بأُذنيهم فهم بالعمل به اولى من غيرهم وإذا كان الأمر كذلك لماذا أهل السنّة لا يحكمون بكفر معاوية بن أبي سفيان الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام وكان يأمر الناس بذلك حتى أصبح سبّ الامام عليه السلام سنّة عندهم مدة ملك بني أُمية فهل أنّ هذا العالم السني يحكم بكفر معاوية ومن تبعه من أهل السنة والجماعة؟

وسادسهم: ما نسبه الى أهل البيت عليهم السلام ومن تابعهم من الصحابة وتابعيهم من القول بخلق الله لفعال عباده؛ فإنّه محض دعوى لم يأت عليها ببيّنة، فمن روى ذلك عنهم؟ وما الكتاب الذي قد روىٰ ذلك فيه عنهم؟ وما العبائر التي نقلت في الباب عنهم؟[1]

ولا يمكن أن يقال: أنّ معاوية لم يسمع النهي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما وردت روايات كثيرة تدلّ على المقام.

منها: ما كتبت أُمّ سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى معاوية فقالت فيها: إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم وذلك أنّكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبه، وأنا أشهد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحبه والله أحبه. فلم يلتفت معاوية الى كلامها (جواهر المطالب لابن الدمشقي ج ٢: ص٢٢٨).

وأخرجه العلّامة الأميني في كتاب الغدير نقلاً عن العقد الفريد (لاحظ الغدير ج٢: ص١٠٢ وفي ج١٠: ص ٢٦٠).

فمعاوية كان يدري أن سب الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب منهي عنه على لسان أصدق الصادقين الناطق بإلهام رب العالمين صلى الله عليه وآله وسلم ومع ذلك لم يهتم الى ما أمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهل أنّ معاوية الذي كان يعلم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشمله هذا الحكم الذي قاله العالم السنّي أم لا؟ وهناك مسائل أُخرىٰ لم نتعرّض لها للاختصار ولأنّها سنذكرها إن شاء الله تعالى في محلها ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

(١) فإنّ الباحث لو درس كتب الشيعة الإمامية يذعن بأنّ أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام قد أبطلوا الجبر والتفويض تبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام فإنّه قد ورد في الروايات الواردة الكثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: بأنّه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين (الكافي ج١:ص١٦٠ كتاب التوحيد، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين).

وقد روى الحسن بن علي الوشّاء عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته فقلت: الله فوّض الأمر إلى العباد؟ قال: الله أعز من ذلك، قلت: فجبرهم على المعاصي؟ قال: الله أعدل وأحكم من ذلك، قال: ثم قال: قال الله: يابن آدم أنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني،

➲ عملت المعاصي بقوتي التي جعلتها فيك (التوحيد للشيخ الصدوق: ص٣٦٣).
فإنّ معنى قوله عليه السلام: أنت أولى بسيئاتك مني هو أنّ الله تبارك وتعالى قد هيأ للعبد تكويناً وتشريعاً كل شيء يسعده على إتيان العمل الخير باختياره ولكن حيث لم يعمل العبد الخير بل وقد فعل السيئات فذلك منه كما قال تعالى: ﴿ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك...﴾ (سورة النساء: ٧٩).
فما أصاب الإنسان من الحسنات فهو من الله سبحانه لأنّه عمل الجميل بمعدّات جميلة التي جعلها الله سبحانه في اختيار العبد، وإن ارتكب البغي والظلم فقد ارتكب القبيح وذلك أيضاً باختياره وقدرته، فإنّه صرف قدرته في غير محله فهو أولى بالسيئات من الله.
وعليه: فإنّ الشيعة الإمامية تبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام أنكروا الجبر والتفويض في أفعالهم، ففي حديث ان يزيد بن معاوية الشامي سأل الإمام الرضا عليه السلام عن قول الصادق عليه السلام: لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين. فقال عليه السلام: من زعم انّ الله فعل أفعالنا ثم يعذّبنا فقد قال بالجبر، ومن زعم انّ الله فوّض أمر الخلق والرزق الى حججه فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر والقائل بالتفويض مشرك.
قال: فما أمر بين الأمرين؟ فقال عليه السلام: وجود السبيل إلى إتيان ما نهوا عنه. قال: فهل لله إرادة ومشيئة في ذلك؟ فقال: أما الطاعات فإرادة الله ومشيئته فيها الأمر بها والرضىٰ بها والمعاونة عليها، وإرادته ومشيئته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والعقوبة عليها والخذلان بها. قال: فللّه فيه القضاء؟ قال: نعم ما من فعل فعله العباد من خير وشر إلّا ولله فيه القضاء. قال: فما معنى هذا القضاء؟ قال: الحكم عليهم بما يستحقّونه على أفعالهم من الثواب في الدنيا والعقاب في الدنيا والآخرة (عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢: ص١١٤ ح١٧).
وعن كتاب نثر الدر: سأل الفضل بن سهل علي بن موسى الرضا عليه السلام في مجلس المأمون فقال: يا أبا الحسن، الناس مجبورون؟ فقال: الله أعدل من أن يجبر ثم يعذّب، قال: فمطلقون؟ قال: الله أحكم من أن يهمل عبده ويكله إلى نفسه.... (بحار الأنوار ج٩٤: ص١٧٢ ح٩). والى غير ذلك من الروايات الواردة في هذا المجال، فانّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قد علّموا شيعتهم وجميع الناس بأنّ أفعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى، وإنّ الاعتقاد الصحيح هو: لا جبر ولا ➲

فعلينا بذلك حتى ننظر فيه فنميّز صدقه من كذبه، فإنّ قال: قد روى ذلك عنهم حملة الحديث، وحفظته ممن تسمىٰ بأهل السنة، مثل البخاري،[(١)] وغيره

⮌ تفويض في ذلك، كما بيّنوا لنا ذلك من خلال الروايات الواردة عنهم عليهم السلام ومن هنا يلزم على عموم المسلمين الالتزام بذلك لأنّه لا شك أنّ الأدلّة الدالة على وجوب مودّة أهل البيت عليهم السلام وجعلها أجراً للرسالة كما هو صريح القرآن الكريم إنّما يكون ذلك باعتبار أنّ المرجعية العلمية ثابتة لهم، فتأكيد القرآن والسنّة النبوية على مودّتهم ومحبتهم إنّما هو لأجل وجوب طاعتهم وإنّهم قدوة وأُسوة في كل المجالات، علماً أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قد أخذوا علومهم تماماً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو أخذها عن جبرئيل وجبرئيل عن الله تبارك وتعالى. فما يصدر منهم إنّما يكون صادراً عن الوحي، فلاحظ.

(١) وهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه أبو عبدالله البخاري، المتوفىٰ سنة ٢٥٦هـ وقيل: «يذر دزبه» وهي لفظة بخارية، معناها «الزرّاع» (اُنظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ج١٢: ص٢٩١، وتهذيب الأسماء للنووي: ص٦٧).

والمغيرة جد البخاري أسلم على يد يمان الجعفي والي بخارىٰ وكان المغيرة مجوسياً (اُنظر: تاريخ الإسلام للذهبي ج١٩: ص٢٤٣، والثقات لابن حبان ج١: ص١١٣، وتاريخ بغداد للخطيب ج٢: ص٤ وغيرها).

وقد عاصر البخاري الملوك العباسيين كالمأمون والمعتصم والواثق الذين ساقوا المحدّثين إلى الاعتزال، ثم من بعدهم المتوكّل العباسي الذي كان شديد البغض للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي ارتفعت في عهده أعلام النصب ضد أهل البيت عليهم السلام خصوصاً للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وقد فتح لهم المتوكل أبواب العداء والنصب وخص لهم الارزاق والصلات والهدايا، وكان يجالس من اشتهر بالنصب والبغض للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي الذي كان يلعن أباه لأنّه سماه عليّاً (اُنظر: لسان الميزان لابن حجر ج٤: ص٢١٠ رقم ٥٨٨) وقال الذهبي: له اختصاص زائد بالمتوكل (تاريخ الإسلام ج١٨: ص٣٥٥ وغيره من النواصب).

فالمتوكل منح حمايته للمحدّثين النواصب الذين هم في غاية الشدة من النصب والعدوان للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ولذلك سموه أهل السنّة بـ«مُحي السنّة».

⮌

وجعلوه في كتبهم المعتمدة.

قيل له: ومن يصدق بما رويتموه فإنّه من باب الشهادة للنفس[١] وقد نفيت أنت حجّيتها على الخصم[٢].

➲ قال ابن خيّاط: استخلف المتوكل وتكلم بها في مجلسه، وكتب الآفاق برفع المحنة وبسط السنّة ونصر أهلها (أُنظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ج١٢: ص٣١ نقلاً عن ابن خيّاط).

والمحدّثون قد تسابقوا في تسطير الروايات، وكان ممن ألّف في تجميع الروايات في ذلك العصر هو البخاري وسمّاه «الصحيح» باعتبار أن مضامينها مطابقة مع ما كان يطلب منه السلطة المعادية لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ما نجده الوجه الوحيد لأهمية هذا الكتاب عند أهل السنّة والجماعة.

(١) فإنّ الشهادة للنفس تعتبر عند العقلاء إدعاء بلا دليل؛ حيث انّ الشهادة لصالح النفس شهادة لذي نفع والشهادة لذي نفع كالادّعاء الذي يصدر عن أحد الخصوم المترافعين عند الحاكم فيحتاج في إثباته بإقامة الدليل والبيّنة، أو أن تكون الشهادة محفوفة بالقرينة بحيث كل من سمعها يحصل له العلم بها، ولا يخفى على الخبير أنّ العبرة في ذلك تكون بالقرينة الموجبة للعلم لا للشهادة وحدها، فلاحظ.

(٢) فإنّ ابن تيمية قد نسبت إلى العلّامة الحلّي في الموارد العديدة بأنّ ما ذكره غير مقبول عند أهل السنّة لأنّه على حد زعمه أنّ ما ذكره العلامة الحلي رحمه الله من الأدلة والروايات إنّما هو من كتب الشيعة الإمامية، ومن تلك الموارد ما استدل العلامة الحلّي بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية (أُنظر: منهاج السنّة ج١: ص١١٠).

ولكن من الواضح أنّ هذا الحديث مروي في كتب أهل السنّة أيضاً، فقد رواه التفتازاني في كتابه شرح المقاصد ج٢: ص٢٧٥ وكذلك الشيخ علي القاري صاحب كتاب المرقاة في خاتمة الجواهر المضيئة ج٢: ص٥٠٩ وقال في صفحة ٤٥٧: وقوله في صحيح مسلم: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية.

أقول: ويعرف من ظاهر كلامه هذا أنّ الحديث كان موجوداً في صحيح مسلم، وقد حذفه أيادي التحريف عن النسخة الموجودة كما أن الحديث كان موجوداً في كتاب عقائد النسفي ➲

وهل يصدّق عاقل بما نسبته الى أهل البيت عليهم السلام ومتابعيهم وهو مخالف لضرورة كل ذي شعور؟[١] للفرق البيّن بين ما يبرز من العباد باختيارهم وغيره

⮊ للتفتازاني المطبوع سنة ١٣٠٢ هـ ثم حُذف منه في طبع سنة ١٣١٣.

وعلى أيّ حال، فإنّ ظاهر كلام علي القاري دال على أنّ النسخة من صحيح مسلم التي كانت عنده إنّما فيها الحديث بهذا اللفظ المذكور وإن كان مؤلف صحيح مسلم قد روىٰ الحديث بلفظٍ آخر والمعنى واحد، ولكن هذا اللفظ بناءً على شهادة علي القاري كان موجوداً في صحيحه فلا يصح انكاره بناءً على عدم وجوده في النسخ الفعلية لأنّ علي القاري لو كان ثقة عند أهل السنة فشهادته مقبولة عندهم اذ شهادة الثقة مقبولة عند العرف والعقلاء؛ لأنّ العقلاء يرتبون الأثر على شهادة الثقة وعليه، فإنّ شهادة علي القاري بأنّ الحديث يكون موجوداً في صحيح مسلم شهادة مقبولة عند عقلاءً ومعناه أنّ هذا الحديث كان موجوداً في النسخة التي كانت تحت يده.

وأيضاً أنّ الأُصول العقلائية حاكمة على عدم اشتباه علي القاري وعدم نقله بالمعنى لأنّه إذا كان الرجل ثقة عندهم لابد من حمل كلامه على ظاهره، وظاهر كلامه أن مسلماً نقل الحديث في صحيحه بهذا اللفظ: «من مات ولم يعرف امام زمانه...» فلعلّ يد التحريف حذفه في الطبعات الاخيرة. ولا يصح حينئذٍ دعوىٰ ابن تيمية بأنّ الحديث لم يكن موجوداً في كتب أهل السنّة هذا أولاً.

وثانياً: إنّ هذا الحديث لو انضمّ إلى الأحاديث المروية في كتب أهل السنّة القريبة منه المتحدة معه في المضمون فلا مانع من القول بصحته باعتبار أنّ ذلك نقل بالمعنى وهذا أمر صحيح عند أهل العلم بل أنّه من القوانين التي لا خلاف فيها بين المسلمين وغيرهم إذ لو كان النقل بالمعنىٰ يؤدي إلى تمام معنى المقصود، فالحديث المذكور على فرض عدم وجوده بألفاظه فإنّه موجود بمعناه، وقد ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة والمعنى في كلها واحد، وهو وجوب طاعة الإمام المفترض الطاعة، وهذا أمر لا ينكره أحد. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ الشيعة يتبعون أئمة أهل البيت عليهم السلام ويهتدون بهداهم ويقتفون آثارهم، ويحتجّون بالسنّة المنقولة عنهم ولا يقدّمون قول أحد على أقوالهم وأحاديثهم لأنّهم يعتقدون أنّ قول الأئمة الأطهار نفس قول الله ورسوله، ولا يخفى على المتتبّع قد بيّنوا حقيقة الأمر في هذه ⮈

المسألة بقولهم: لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين (الكافي ج١ ص١٦٠).

وهذا هو الذي تبنّاه أهل البيت عليهم السلام ونسبوه إلى القرآن الكريم حيث أنّهم عليهم السلام روّاد العلم والفضيلة والمعارف القرآنية.

والعجيب أنّ هذا التفسير القرآني الذي هو من تراث أهل البيت عليهم السلام الذين هم معدن الوحي بقي مختفياً في العصور الأُولىٰ وإن كان أئمة أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم وشيعتهم كانوا يستعملون هذا النهج القرآني في حواراتهم وكلماتهم ولكن مع ذلك أنّ النهج المخالف لهم لم يسمح لترويج القرآن بل كانوا يحاربون هذا النهج ويبدّلون مكانه النهج الأُموي وهو القول بالجبر، ثم بعد مدة درس المحققون والباحثون حول منهج أئمة أهل البيت عليهم السلام وعرفوا أنّ هذا المنهج منهج قرآني حيث أنّ القرآن أثبت بأنّ الإنسان على الاستمرار والدوام في حال الفقر والحاجة ويحتاج الى الإفاضة الربانية كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللهِ وَٱللهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (سورة فاطر: ١٥).

وهذه الإفاضة: هي ارتباط الوجود كله بالله مستمرة بحيث لو أنّها قطعت لحظة واحدة عن الإنسان لانتهى الإنسان وما بيده وماله من الإرادة والإختيار، هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ: أنّ القرآن الكريم قد بيّن حقيقة أفعال الإنسان بأنّها ليست من خلق الله، قال الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (سورة التوبة: ٣) فلم يقل: إنّ الله بريء من الخلق ذواتهم، وإنّما تبرّىء من شركهم وقبائح أعمالهم.

وقد ورد في الحديث عن الإمام الهادي عليه السلام: أنّه سئل عن أفعال العباد، فقيل له: أهي مخلوقة لله تعالى؟ فقال عليه السلام: لو كان خالقاً لها لما تبرّأ منها، وقد قال سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ ولم يرد البراءة من خلق ذواتهم وإنّما تبرّأ من شركهم وقبائحهم (بحار الأنوار ج٥: ص٢٠).

وسأل أبو حنيفة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن أفعال العباد ممن هي؟ فقال الإمام عليه السلام: إنّ أفعال العباد لا تخلو من ثلاثة منازل: إمّا أن تكون من الله تعالى خاصة أو منه ومن العبد على وجه الاشتراك فيها، أو من العبد خاصة، فلو كانت من الله تعالى خاصة لكان أولىٰ بالحمد على حسنها والذم على قبحها، ولِمَ لم يتعلق بغيره حمد ولا لوم فيها. ولو كانت من الله ومن العبد،

مثل: حركة المرتعش بحسب الخلقة وحركة غير المرتعش باختياره(١).

⮌ لكان الحمد لهما معاً فيها والذم عليهما جميعاً فيها. وإذا بطل هذان الوجهان ثبت أنّها من الخلق، فإن عاقبهم الله على جنايتهم بها فله ذلك، وإن عفى عنهم فهو أهل التقوىٰ والمغفرة (بحار الأنوار ج٥: ص٤ ح٢).

وفي أمثال ما ذكرناه من الأخبار والروايات الواردة عنهم عليهم السلام وما بمعناها كثيرة جداً ويطول به الكلام. وإن كان ما ذكرناه فيه غنىً وكفاية.

وقد استدل الشيخ المفيد رحمه الله بالقرآن الكريم على رفض نسبة أفعال الناس إلى الله فقال: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (سورة السجدة:٧) فخبّر بأنّ كلّ شيء خلقه فهو حسن غير قبيح، فلو كانت القبائح من خلقه لمّا حكم بحسنها وفي حكم الله تعالى ببطلان قول من زعم أنّه خلق قبيحاً (أُنظر: تصحيح الاعتقاد:ص٢٠٠).

ولا شك أنّ الشيخ المفيد رحمه الله كسائر علماء الشيعة أخذوا هذه المعارف والمعالم من ائمة أهل البيت عليهم السلام فإنّ قولهم عليهم السلام: الأمر بين الأمرين لا يخالف قدر الله وقضائه وسلطانه وعدله كما يحافظ على نسبة الفعل الصادر من الإنسان. فعلماء الشيعة استناداً بقول الأئمة المعصومين عليهم السلام كقول الإمام الباقر والصادق عليهما السلام أنّ الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذّبهم، والله أعز من أن يريد أمراً فلان يكون (الكافي ج١: ص١٥٩ ح٩).

وعن الإمام الصادق عليه السلام لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين (الكافي ج١:ص١٦٠ح١٣) والى غير ذلك من الروايات. أعلنوا هذا الاعتقاد وهذا النهج القرآني في المقام.

وخلاصة الكلام: إنّ القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام دالة على صحة ما يعتقد به الشيعة الإمامية في مسألة أفعال العباد. فلاحظ.

(١) فإنّ الوجدان حاكم بالفرق بين حركة المرتعش وحركة المختار، والفرق بينهما محسوس، فإنّ حركة المرتعش تصدر من الإنسان من غير قصد واختيار بخلاف حركة المختار فإنّها مستندة إلى اختياره.

والعقلاء أيضاً ينسبون كل فعل إلى فاعله المختار بحيث لو كان يترتب عليه من المدح أو الذم يوجهونه إلى فاعله فيقال: إنّه فعل فعلاً حسناً، أو يقال: فعل فعلاً قبيحاً، أو قال: انّه فعل ذا أثر في الآخرة فيثاب عليه أو يعاقب عليه على اختلاف موارده دون حركة المرتعش؛ فإنّه لا ⮎

فلو كان سبحانه هو الخالق لهاتين الحركتين فيهم لما حصل الفرق، ولما قَدَرَ على الحركة وعلى السكون الثاني منهما باختياره، بل لصار حاله حال من تقدّمه بلزوم الحركة له بغير اختياره وعدم قدرته على السكون[1].

يقال له: لِمَ فعلت ذلك، أو حبّذا ما فعلت لأنّه لا اختيار للمرتعش في حركته، فليس له أن يفعل ولا يفعل كي يستحق بذلك المدح أو الذم أو غيرهما من آثار الفعل الاختياري.

وبهذا التقريب تنحلّ مشكلة الجبر، إذ بذلك يثبت أنّ الفعل الاختياري هو ما كان تحقّقه باختيار الفاعل وإرادته، وأمّا إذا كان الأمر على خلاف ذلك كحركة المرتعش، فعند ذلك يصح القول بالجبر، وفي المقام حيث أنّ حقيقة أفعال العباد لم تكن كذلك أي لم تكن كحركة المرتعش بالأدلة التي تقدّمت والأدلة التي سوف تأتي فلاجبر في ذلك، كما تنحلّ مشكلة التفويض أيضاً بهذا الدليل المذكور حيث أنّ هذا الاختيار الذي يتمتّع به الإنسان إنّما خلقه الله تعالى له ليكون مختاراً في أفعاله وإنّ الله تعالى هو الذي أعطى الإنسان الاختيار، فهو قادر على أن يسلبه منه، فالقول بأنّ الله تعالى قد فوض إلى الإنسان أعماله وليس له تعالى قدرة في سلب الاختيار منه قول باطل لانّه يستحيل أن يقال بانّ الله أعطى الانسان الاختيار ولايمكن له سلب الاختيار منه فالمعطي يمكن له أن يأخذ ما أعطاه، فالانسان مستقل في تصرفاته ومختار في ذلك لأنّ الله تعالى جعل له الإختيار وفي نفس الوقت انّ الاختيار يكون اختياره بيد الله عزّوجلّ يقدر أن يسلبه من العبد ويقدر أن لايسلبه منه وهذا معنى لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين.

(١) إذ لو قلنا أنّه لا لإرادة للإنسان في أفعاله وأعماله وأنّ أفعاله وأعماله إنّما هي كحركة المرتعش خالية عن القصد والإرادة، وأنّ الأفعال الصادرة منه إنّما تصدر منه من دون اختيار كما يقوله الجبرية، فعندئذٍ لا معنى للقول بمخالفة الأمر واللوم على أفعاله القبيحة لأنّ مخالفة منه لم تكن عن قصد وإرادة، وكذلك ارتكاب الأفعال القبيحة لم تكن بإرادته واختياره وإنّما ذلك فعل الفاعل الذي له الإرادة والاختيار والقصد.

وعليه: فنسبة الأفعال إنّما تكون صادقة إذا كانت عن إرادة وقصد واختيار وحيث لا تصح النسبة فلا يصح المدح والذم والجزاء والعقاب كما في حركة المرتعش فانه لا يلومه أحد على

فهل يتصوّر في حق من عصمه الله حتى من الخطأ تعمّد مخالفة الضرورة، وحال من تابعهم من الصحابة وغيرهم حالهم في عدم تعمّد المخالفة لهذه الضرورة؟!!![1] وسيأتي البحث في هذه المسألة على وجه التفصيل.

➲ حركته حيث لم تصدر منه عن اختيار.

وخلاصة الكلام: أنّه لو لم تكن للعبد القدرة للعمل باختياره وإرادته فلا وجه لعقوبته، كما أنه لا وجه لنسبة الفعل إلى من لم يصدر منه الفعل عن اختيار ولذلك ذهب بعض علماء أهل السنة إلى انّ معنى الجبر هو الكسب وقد فسروه بذلك دفعاً للاشكال الوارد عليهم فذهبوا الى انّ المقصود منه هو انّ للعبد في أفعاله قدرة ضعيفة غير مؤثرة مع قدرة الله.

أقول: ويظهر بطلان هذه النظرية ايضاً بأدنىٰ تأمل لأنّ القدرة الضعيفة التي لا تأثير لها مع قدرة الله لا أثر لها لأنّ وجودها كعدمها وان كان المقصود به انّ العبد له قدرة في عرض قدرة الله فهذا خروج عن الموضوع كما هو واضح فنظرية الكسب ايضاً لا تنفعهم فلا محيص من الرجوع الى قول أهل البيت عليهم‌السلام حيث قالوا: لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ مخالفة الدين والضرورة ليست قابلة للتخصيص، فإنّ مخالفة الدين والضرورة الدينية عنوان يتحقّق بتحقّق موضوعه ولكن من المحال أن تصدر المخالفة من المعصوم حيث أنّه يعلم قبح المخالفة كعلمنا بقبح أكل القاذورات، وكعلمنا بقبح الخروج من البيت بين الناس عرياناً، فكما أنّ الإنسان العادي العاقل لا يرتكب عادة أمثال هذه الأفعال القبيحة لاستخباثها ولاستهجانها، فالمعصوم بالنسبة إلى جميع القبائح يكون كذلك حيث أنه يعلم واقع القبح وحقيقة الأمر فيها فلا يرتكبه أصلاً، إذن بعد هذا هل يصح نسبة فعل القبيح إلى المعصوم؟!!!

ومن هنا أنّ الشيعة تعتقد بوجوب طاعة المعصوم طاعة مطلقة لأنّ الأدلّة القطعية العقلية والشرعية تدل بالوضوح حجية أقوال المعصوم وأفعاله وتقاريره فانّ وجوب العمل بالحجة من الأحكام العقلية التي لا استثناء فيه ومن لهذا أثبت الشيعة الامامية بالأدلّة المتقنة المتفق عليها عند جميع المسلمين وجوب طاعة أئمة أهل البيت عليهم‌السلام لأنّهم معصومون بنص من الله

➲

وسابعها: ما قاله من كون القائلين بالقدر نافين للظلم عن الله بعد ذهابهم الى كونه ممكناً، لكن الله سبحانه قد نزَّه عنه نفسه؛ فإنّه من أعظم العجائب، حيث نسبوه سبحانه الى الظلم والتناقض[1]؛ فإنّ ما نسبوه اليه سبحانه من خلق الكفر والمعاصي في العباد وعقابهم عليها ظلم بيّن من حيث عقوبته لهم على شيء هو خلقه فيهم، ولم يصدر منهم باختيارهم ومشيئتهم وقدرتهم حسبما هو

ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقد شهد الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم بعصمتهم ضمن آيات عديدة: منها: آية التطهير التي سيأتي البحث عنها إن شاء الله في محله، وغيرها من الآيات وكذلك الروايات، والسنن المتفق عليها، كحديث الثقلين وغيره، فإنّها واضحة الدلالة في عصمتهم، فالشيعة تعتقد بوجوب الرجوع إلى أئمة المعصومين عليهم السلام لأنّ متابعة المعصوم واجبة وطريق النجاة منحصر في ذلك، كما سيتبيّن ذلك من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

ولذلك قال العلّامة الطبرسي في تفسيره: إنّ أصل الشيعة من المشايعة، وهي المتابعة، يقال: شايع فلان فلاناً على أمره أي تابعه عليه، ومنه شيعة علي عليه السلام وهم الذين تابعوه على أمره ودانوا بإمامته.

وفي حديث أُمّ سلمة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: شيعة علي هم الفائزون يوم القيامة. إشارة لهذا المعنى. أُنظر: تفسير مجمع البيان ج٦:ص١٠٢ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة الحجر:٦).

فمعنى الشيعة من المشايعة والمتابعة والمطاوعة بالدليل القطعي وإلّا فإنّ المتابعة ﴿لم تكن عن دليل فلا تعتبر عند العقلاء متابعة صحيحة. فلاحظ.

(١) فإنّ الظلم قبيح ذاتاً وتجويزه في حق الباري تعالى تجويز الفعل القبيح في حقه سبحانه. ومن الواضح أنّ جواز ارتكاب الفعل القبيح وما لا ينبغي صدوره من الفرد العادي غير معقول ولا يليق بحال العاقل ارتكاب القبيح الذي هو مخالف للحكم العقلي الضروري، فكيف بالحكيم الذي جميع أفعاله تكون عن حكمة والحكمة عبارة عن عدم ارتكاب فعل لاينبغي صدوره من العاقل فالقول بتجويز فعل القبيح في حق الله سبحانه مساوٍ للقول بجواز استحقاق الذم ـ والعياذ بالله ـ في أفعاله كما لا يخفى ذلك على أحد فيستحيل ذلك على الله تعالى. فلاحظ.

المفروض[١].

فكيف يستقيم نفيهم الظلم عنه الذي تنزّه بنفسه سبحانه عن فعله وحرمه على نفسه[٢]، وهم يزعمون أنّه المعاقب لهم على ما فعله هو فيهم من الشر والكفر

---

(١) فإنّ غاية ما ذكروه في المقام هو: أنّ الله تعالى يملك كل شيء في العالم وله أن يتصرّف في ملكه كيف يشاء سواء كان التصرف حسناً أو لا، فهو الفعّال لما يشاء.

ولكن هذا البيان باطل؛ لأنّ التصرف في الملك بنحو الإطلاق يشمل التصرف الحسن والتصرف القبيح، فإنّ بعض التصرفات قبيحة عند العقل مثلاً ضرب اليتيم وقتل المظلوم والدفاع عن الظالم قبيح عند العقل وصدوها من الخالق الحكيم مستحيل لعلمه تبارك وتعالى بقبح ما يستقبحه العقل بعد درك واقع الأمر، فإنّ العقل لو نظر في شيء من صميم ذاته واستقل بالحكم عليه بالقبح فلا محالة أنّ هذا الفعل القبيح بعيد عن العاقل والحكيم الذي يبتني أفعاله على التحسين والتقبيح العقليين.

وبعبارة: أنّ العدل الإلهي وعلمه الأزلي بالنسبة إلى كل شيء يمنع من ارتكاب الفعل القبيح لأنّ العدل والعلم من صفات ذاته المقدّسة وهما لا ينفكان عن ذاته سبحانه أبداً، فيستحيل صدور فعل القبيح منه سبحانه.

وأمّا بناءً على زعم القوم حيث أنّهم يقولون: بأنّ الله تعالى له أن يتصرف في ملكه كيف شاء فله أن يتصرف ملكه على خلاف مقتضىٰ العقل فإنّه ادّعاء باطل لأنّه بناءً على هذا الزعم يلزم القول بجواز تعذيب الصالحين وإثابة المجرمين والعاصين بدعوىٰ أنّهم من ملكه فله أن يتصرّف في ملكه كيف شاء وهل يمكن أن يتفوه بهذا الكلام الباطل عاقل؟!!!

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران:١٠٨) فأخبر تعالى في هذه الآية الكريمة بانّه لا يريد الظلم بوجه من الوجوه للعالمين.

وفي الحقيقة: أنّه تعالى أكّد على أنّه لا موجب له للظلم أصلاً إذ الوجود كلّه في ملكه فله ما في العالمين جميعاً والظلم يتحقق بسبب الاستعلاء الشخص وتحكمه على الآخرين، وأمّا بالنسبة إلى الله سبحانه فإنّ الوجود كلها في قبضته فلا معنى للقول بانّه يجوز في حقّه الظلم على الآخرين.

⬅

والفساد[١].

ومن الآيات النافية للظلم عن ساحة الربوبية هو قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ (سورة غافر:٣١) هذه الآية الكريمة أيضاً تدل بالصراحة على أنّه تعالى لا يريد الظلم للعباد ولا موجب له لظلمهم لأنّه تعالى هو الذي خلقهم بفضله وكرمه ووهبهم من نعمه ظاهرة وباطنة، وأرسل اليهم الأنبياء والمرسلين ليهديهم إلى الصراط المستقيم، وأفاض عليهم النعم السماوية والأرضية والبرية والبحرية وكل ذلك رحمة منه على عباده، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢) فالكتابة بمعنى الإثبات القضاء الحتمية والرحمة هي إفاضة النعمة على وجه الحكمة، فالله تبارك وتعالى هو مصدر كل رحمة وفيض على خلقه.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصّلت: ٤٦) وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة الأنفال: ٥١) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت:٤٠) والى غير ذلك من الآيات، فإنّها تنفي الظلم بالصراحة عن ساحة الربوبية جلّ وعلا. فلاحظ.

(١) وذلك لأنّه اذا كان الله سبحانه خالقاً لأفعال العباد بإطلاقها كان خالقاً للظلم والفساد وغير ذلك من الأفعال القبيحة، لأنّ من أفعال العباد الفساد والظلم والكفر والجور وغير ذلك الأفعال القبيحة، فالعقل الذي يدرك وجوده تبارك وتعالى ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته يدرك أيضاً أنّ الله تعالى عادل ولا يصدر منه ظلم أبداً، وهذا من لوازم صفاته الكمالية التي منها العلم والقدرة والحكمة، فإنّها تقتضي عدم صدور فعل قبيح منه سبحانه فيستحيل على الحكيم صدور الظلم منه لأنّ صدور الظلم من شخص معلول لأحد الأُمور التالية: ١ـ الجهل ٢ـ التشفّي ٣ـ العجز ٤ـ الخوف، وجميع ذلك مستحيل في حقه تعالى كما هو واضح ظاهر.

فإدراك العقل استحالة صدور الظلم والفساد عنه سبحانه من القضايا الأولية التي قياساتها معها، ولا بأس هنا أن نشير إلى بعض الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال لنعرف معنى درك العقل استحالة الظلم على الله سبحانه.

ففي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام عن آبائه عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم جالساً في مسجده اذ دخل عليه رجل من اليهود، فقال: يا محمد الى من تدعو؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله. قال: يا محمد، أخبرني عن هذا الرب الذي تدعو إلى وحدانيته وتزعم أنك رسوله كيف هو؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا يهودي، إنّ ربي لا يوصف بالكيف لأنّ الكيف مخلوق وهو مكيفه. قال اليهودي. فأين هو؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: انّ ربي لا يوصف بالأين، لأنّ الأين مخلوق وهو أيّنه. قال اليهودي: فهل رأيته يا محمد؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّه لا يرىٰ بالأبصار ولا يدرك بالأوهام. قال اليهودي: فبأيّ شيء نعلم أنّه موجود؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: بآياته وأعلامه. قال اليهودي: فهل يحمل العرش أم العرش يحمله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا يهودي، إنّ ربي ليس بحال ولا محال. قال اليهودي: فكيف خروج الامر منه؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: بإحداث الخطاب في المحال (جمع محل).

قال اليهودي: يا محمد، أليس الخلق كله له؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: بلىٰ. قال اليهودي: فبأيّ شيء اصطفى منهم قوماً لرسالته؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: بسبقهم إلى الإقرار بربي عزوجل. قال اليهودي: فأخبرني عن ربك هل يفعل الظلم؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا.

قال اليهودي: ولِمَ؟ قال: لعلمه بقبحه واستغنائه عنه. قال اليهودي: فهل أنزل عليك في ذلك قرآناً يتلىٰ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم:نعم أنّه يقول عزوجل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ويقول: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ ويقول: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾.

قال اليهودي: يا محمد، فان زعمت أنّ ربك لا يظلم، فكيف أغرق قوم نوح وفيهم الأطفال؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا يهودي إنّ الله عزوجل أعقم أرحام نساء قوم نوح أربعين عاماً فأغرقهم حين أغرقهم ولا طفل فيهم، وما كان الله ليهلك الذرية بذنوب آبائهم، تعالى عن الظلم والجور علواً كبيراً.

قال اليهودي: فإن كان لا يظلم فكيف يخلّد في النار أبد الآبدين من لم يعصه إلّا أياماً معدودة؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: يخلّده على نيته فمن علم الله نيته أنّه لو بقي في الدنيا إلى انقضائها كان يعصي الله عزوجل خلّده في ناره على نيته ونيته في ذلك شر من عمله، وكذلك يخلّدون في الجنّة بأنّه ينوي أنّه لو بقي في الدنيا أيامها لأطاع الله أبداً ونيته خير من عمله، فبالنيات يخلّد أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار، والله عزوجل يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ

وما معنى قول السنّي: إنّه ينتصف من العباد، وقد قال انّه هو خالق الظلم، فإنّ الظلم هو الذي قد خلقه فيهم، فأيّ معنى لقوله: «ينتصف منهم» ولم يصدر منهم ما يوجب انتصافه[١].

أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾.

قال اليهودي: يا محمد إنّي أجد في التوراة أنّه لم يكن لله عزوجل نبي إلاّ كان له وصي من أُمته، فمن وصيك؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا يهودي وصيي علي بن أبي طالب، واسمه في التوراة إليا، وفي الإنجيل حيدار، وهو أفضل أُمتي وأعلمهم بربي، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي، وأنّه سيد الأوصياء كما إنّي سيد الأنبياء.

فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله وأنّ علي بن أبي طالب وصيك حقاً، والله إنّي لأجد في التوراة كل ما ذكرت في جواب مسائلي، وإني لأجد فيها صفتك وصفة وصيك، وإنّه المظلوم ومحتوم له بالشهادة، وإنّه أبو سبطيك وولديك شبراً وشبيراً سيدي شباب أهل الجنة (توحيد الصدوق: ص٣٩٨).

(١) فإنّ الانتصاف بمعنىٰ الانتقام له وتشفّي الصدر وهو مستحيل علىٰ الله تعالى لأنّ شفاء الصدر آلة لإذهاب الغيض واقلاع حالة البغض عن النفس بالانتقام، وهذا مستحيل على الله لأنّ تبارك وتعالى ليس فيه نقص من أي جهة بل هو كمال المطلق لا يشذ عنه كمال من الكمالات ولا حاجة له إلى التشفّي بعد أن كانت جميع العوالم تحت قدرته وسيطرته.

نعم الانتقام بمعنى: الجزاء والعذاب للمخالفين والمتمردين والعصاة أمر آخر هذا هو عين العدل لأنّ هؤلاء سيصيبهم جزاء ما يعملونه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (سورة النساء: ١٤).

وعليه: إن كان الانتصاف بمعنى: الانتقام من الظالم بسبب ظلمه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ (سورة السجدة:٢٢) فإنّ هذا سُنّة إلهية جارية لا محالة وإنّ علة عذاب الله هو إجرام الظالمين وهذا أمر مسلّم عند الكل.

وهنا نسأل من ابن تيمية وأتباعه بل من جميع من يعتقد بالجبر هل انّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه: وهل أنّ مؤاخذة العبد وتوبيخه علىٰ الظلم الذي خلقه الله تعالى صحيح أم لا؟

بل ما زعمه السنّي انتصافاً هو الظلم الحقيقي من حيث عقوبته للناس على ما خلقه هو بنفسه فيهم من الشرور[١].

فأين ما كتبه على نفسه من الرحمة[٢] وما حرّمه على نفسه من الظلم[٣]؟

➡ وبعبارة أُخرىٰ: هل أنّ الظلم الذي خلقه الله تعالى يمكن أن يكون سبباً لعذاب العبد؟ فلو كان الله تعالى هو خالق للظلم والأفعال القبيحة فكيف يجوز له أن ينتقم ويعاقب عبده يوم القيامة إذ الانتقام بمعنى الجزاء والعقوبة وإنّما يستحقّها العبد إذا صدر منه ما يوجب ذلك.

والآية الكريمة قد ذكرت بعض مصاديق الظلم الصادر من الظالمين والانتقام منهم يوم القيامة بتحقق عنوان الظلم، فعند تحقّق الظلم تترتب العقوبة، وأمّا بناءً على مسلك القوم فلا تصح هذه النسبة لأنّه بناءً على زعمهم أنّ الله سبحانه هو خالق هذا الظلم الصادر من العبد ولازم ذلك أنّه تعالى هو الظالم ـ والعياذ بالله.

(١) وبعبارة أُخرىٰ: إنّه بناءً على زعم القوم إذا كان الله تعالى هو الفاعل للظلم الصادر من العبد، فإنّ عقوبة العبد على الفعل الذي لم يفعله باختياره من أبرز مصاديق الظلم لأنّ الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه وتعذيب العبد من غير استحقاق من أبرز مصاديق وضع الشيء في غير محله.

اذن القول بانّ العبد لايكون نافعاً ولا ضاراً مطلقاً سواء بالتسبيب أو بغير التسبيب مرجعه إلى عدم كونه فاعلاً بالنسبة إلى أفعاله وفي النتيجة لايجوز تعذيبه على الفعل الذي لايمكن انتسابه إليه حيث أنّه من أبرز مصاديق الظلم والظلم قبيح عقلاً.

(٢) قال الله تعالى: ﴿قُل لِمَن مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ (سورة الأنعام: ١٢) هذه الآية الكريمة تتضمّن بشارة للمؤمنين وتبيّن حقيقة هامة، وهي: إنّ رحمة الله واسعة تشمل جميع الكائنات خاصة البشر فتقول الآية «إنّه كتب الله على نفسه الرحمة» أي ثبت بالقضاء الحتم رحمته لخلقه بمقتضىٰ حكمته وتدبيره، فإنّ حكمته البالغة قد اقتضت بأن تكون جميع أفعاله صادرة منه بالمصلحة والحكمة فاذا اقتضت الحكمة والمصلحة أن تكون رحمته شاملة لجميع الخلق فلامعنى حينئذٍ للقول بانّ رحمته خاصة ببعض خلقه.

⬅

فلِمَ لم يلتفت من تسمى بأهل السنّة الى ما فعلوه بأنفسهم من هذه العقائد المتناقضة، يعترفون بنفي الظلم عنه سبحانه وبكتابة الرحمة عليه.

ويعتقدون بأنّه ـ تعالى وتنزّه وجل ـ هو الذي خلق الشرور في العباد، هو

➲ وبعبارة اخرىٰ: انّ عدم شمول بعض الخلق الرحمة الالهية معناه التبعيض والظلم بالنسبة إليهم وهذا بعيد عن مقام الربوبية جل وعلا.

(٣) أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنّه قال: يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي... (صحيح مسلم ج٨:ص١٧ كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم).

وأخرج ابن عساكر بسنده عن أبي سليمان قال: إنّ الله تعالى أوحىٰ إلى موسىٰ: مُر ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذكري، فإنّي أذكر من ذكرني منهم باللعنة حتى يسكت... (تاريخ مدينة دمشق ج٣٤:ص١٣٥).

وفي تفسير الفخر الرازي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: إذا كان يوم القيامة نادىٰ مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة من لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً أو مدّ لهم مدة احشروه معهم؟ (تفسير الفخر الرازي ج١٠: ص١٤١، ورواه القرطبي ج١٣: ص٢٦٣).

هذه الرواية قد جاءت في مصادر الشيعة أيضاً: فرواها صاحب الوسائل قريب في تفسيره منه في الوسائل ج١٢: ص١٣١ ح١٦.

والمستفاد من هذه الروايات وغيرها أنّ دين الإسلام دين العدل ولا يرضى بالظلم والبغي، وإنّ الله تبارك وتعالى حرّم الظلم على الجميع فلا يجوز لأحد أن يظلم الاخر مطلقاً، لأنّ الظلم منهي عنه في الاسلام وقد أكّد سبحانه وتعالى في الكتاب العزيز ان الظلم بعيد عن ساحته المقدّسة ضمن آيات عديدة:

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصّلت: ٤٦) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة العكنبوت:٤٠) وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ (سورة غافر:٣١) وغيرها من الآيات التي تنفي الظلم من الله تبارك وتعالى، بل ولا يتصوّر الظلم منه سبحانه إذ كل من الإنس والجن وغيرهما تحت قدرته وتصرف ملكه، فكيف يظلمهم وهو غني عنهم. فلاحظ.

الذي يعاقبهم على ما خلقه فيهم، فيعاقب من خلقه أبيض ومن خلقه أسود ومن خلقة أعمى ومن خلقه أصم ومن ومن خلقه مرتعشاً ومن خلقه منافقاً بزعمهم، وسارقاً ومشركاً وغيرهم على هذه الصفات التي خلقها فيهم وهذه منتهى غاية الظلم(١).

فأين ما نزّه الله سبحانه عنه نفسه حسبما دلّ عليه الفرقان العظيم من عدم حمله ذنب أحد على غيره(٢)،

---

(١) لا شك انّ العقاب الإلهي لا يكون أمراً عشوائياً، بل لا يشمل إلّا المستحقّين له، ضرورة أنّ العقاب يترتب على المعصية بحكم العقل قبل بيان الشرع، فصدور العقاب من الخالق العظيم العادل الحكيم من غير معصية محال عقلاً لأنّه ظلم محض وهو قبيح عقلاً لا يصدر من العاقل، فكيف بالحكيم العادل، فالعقاب يكون من تبعات أعمال العبد وأفعاله التي تصدر منه اختياراً، وأنّ الله سبحانه منزّه من أن يعاقب خلقه من دون معصية كما أنّه منزّه من أن يعاقب أحداً على فعل ليس للعبد قدرة واختيار على إرتكابه كما تقدّم.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (سورة الأنعام: ١٦٤) هذه الآية الكريمة التي جاء بمضمونها في سورة الإسراء: الآية ١٥ وسورة فاطر: الآية ١٨ وسورة الزمر: الآية ٧ وسورة النجم: الآية ٣٨، تدل بالصراحة على أنّه لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره ولا يعذّب الله على ما ليس من فعل يفعله الإنسان ولا يطالبه بعمل إلّا ما هو فاعله، ولا يلومه على فعل لم يفعله هو بنفسه، فكل شخص يحمل مسؤولية أعماله فلا تزر وازرة وزر أُخرىٰ، فلا يعمل أحد إلّا لنفسه والآيات الكثيرة من القرآن الكريم تدل على هذا المعنى.

منها: قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ«٧» وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (سورة الزلزال:٨) ومنها: قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٦) ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (سورة غافر:١٧) وإلى غير ذلك من الآيات الحاكمة بأنّ تبعة كل فعل انّما هو لفاعله إن خيراً فخير وان شراً فشر.

فهذه الآيات المباركة وغيرها تبيّن لنا هذا الأصل الإسلامي المهم وهو: أنّ كلّاً يرى نتيجة عمله

⬅ وما يترتب على أعماله من الأثر من الثواب الجزيل أو العقاب الأليم، فمهما كانت هذه النتيجة ضئيلة أو كثيرة، فإنّ الإنسان هو يخلقها بجهده وطاقته.

وبالجملة: أنّ نوع نتيجة الأعمال تكون على ضوء الشرائط المبيّنة في محلها، وهنا رواية لا بأس بذكرها لتبيين المقام وهي: أنّه قد جاء رجل من أهل البصرة إلى الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام فقال: يا علي بن الحسين، إنّ جدك علي بن أبي طالب عليه السلام قتل المؤمنين، فهملت عينا الإمام علي بن الحسين عليه السلام دموعاً حتى امتلأت كفّه منها، ثم ضرب بها على الحصىٰ.

ثم قال: يا أخا أهل البصرة! والله ما قتل علي مؤمناً، ولا قتل مسلماً، وما أسلم القوم ولكن استسلموا وكتموا الكفر وأظهروا الاسلام، فلمّا وجدوا على الكفر أعواناً أظهروه وقد علمت صاحبة الجدب والمستحفظون من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنّ أصحاب الجمل وأصحاب صفّين وأصحاب نهروان لعنوا على لسان النبي الأُمّي وقد خاب من افترىٰ.

فقال شيخ من أهل الكوفة: يا علي بن الحسين، إنّ جدّك كان يقول: إخواننا بغوا علينا. فقال علي بن الحسين عليه السلام: أما تقرأ كتاب الله ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً**﴾ فهم مثلهم أنجى الله عزوجل هوداً والذين معه وأهلك عاداً بالريح العقيم...

ثم ذكر الامام عليه السلام حال من مسخهم الله قردة من بني اسرائيل وحكى قصتهم فلمّا بلغ آخرها قال: إنّ الله تعالى مسخ اولئك القوم لاصطيادهم السمك، فكيف ترىٰ عند الله عزوجل يكون حال من قتل اولاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهتك حريمه؟!!

إنّ الله تعالى وإن لم يمسخهم في الدنيا فإنّ المعدّ لهم من عذاب الآخرة أضعاف عذاب المسخ، فقيل له: يابن رسول الله، فإنّا سمعنا منك هذا الحديث، فقال لنا بعض النصّاب: فإن كان قتل الحسين عليه السلام باطلاً فهو أعظم عند الله من صيد السمك في السبت، أفما كان الله غضب على قاتليه كما غضب على صيادي السمك؟

قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: قل لهؤلاء النصّاب فإن كان إبليس معاصيه أعظم من معاصي من كفر بإغوائه فأهلك الله من شاء منهم، كقوم نوح، وفرعون ولم يهلك إبليس، وهو أولى بالهلاك، فما باله أهل هؤلاء الذين قصروا عن إبليس في عمل الموبقات، وأمهل إبليس مع ⬅

وهو الحق الذي نزل به الفرقان العظيم[1] لكنه قد تناقض السنّي بما قاله هنا من

⬅ إيثاره لكشف المحرّمات، أما كان ربنا عزوجل حكيماً تدبيره وحكمة فيمن أهلك وفيمن استبقىٰ؟ فكذلك هؤلاء الصائدون في السبت وهؤلاء القاتلون للحسين، يفعل في الفريقين ما يعلم أنّه أولى بالصواب والحكمة، لا يسأل عما يفعل وعباده يسألون.

قال الإمام الباقرعليه السلام: فلما حدّث أبي بهذا الحديث قال له بعض من في مجلسه: يابن رسول الله، كيف يعاقب الله ويوبخ هؤلاء الأخلاف على قبائح أتاها أسلافهم وهو يقول: ولا تزروا وازرة وزر أُخرى؟ فقال الإمام زين العابدينعليه السلام: إنّ القرآن نزل بلغة العرب فهو يخاطب فيه أهل اللسان بلغتهم يقول الرجل التميمي ـ قد أغار قومه على بلد وقتلوا من فيه ـ: أغرتم على بلد كذا.

ويقول العربي: نحن فعلنا ببني فلان، ونحن سبينا آل فلان، ونحن خربنا بلد كذا، لا يريد أنّهم باشروا ذلك، ولكن يريد هؤلاء بالعذل وأُولئك بالافتخار.

إنّ قومهم فعلوا كذا، وقول الله عزوجل في هذه الآيات توبيخ لأسلافهم، وتوبيخ العذل على هؤلاء الموجودين لأنّ ذلك هو اللغة التي نزل بها القرآن، والآن هو الأخلاف أيضاً راضون بما فعل أسلافهم، مصوّبون لهم، فجاز أن يقال: أنتم فعلتم أي: إذ رضيتم قبيح فعلهم (الاحتجاج للشيخ الطبرسي ج٢:ص٤٠).

أقول: المستفاد من هذه الرواية والروايات الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هو صحة نسبة العمل إلى الإنسان حتى إذا كان الإنسان راضياً به. فلاحظ.

(١) قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَاءوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ (سورة النجم:٣١).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (سورة المدّثّر: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٢٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (سورة النساء:

⬅

⬅ (١١١).

فلا شك أنّ من أمعن في هذه الآيات القرآنية وغيرها التي هي كثيرة يتبيّن له أنّ جميع الناس إنّما سينالون نتيجة أعمالهم وإنّما يعاقبون بسبب أخطائهم وذنوبهم، وأنّ أعمالهم في الحقيقة مصدر نتيجة ما سيوافيهم غداً.

وأنّ الله سبحانه وتعالى هو عالم بأعمال العباد وهو حكيم يجازي كل إنسان بما يستحقّه، فقال تعالى في سورة النمل: ﴿ومن جاء بالسئية فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون﴾ (سورة النحل:٩٠).

هذه الآية المباركة تنص على أنّه لا يعاقب الذين عملوا السيئات إلّا بما كانوا يعملون، وإنّما يلقى بهم على وجوههم في النار لأنّهم حينما كانوا يواجهون الحق يلوون وجوههم ورؤوسهم، وكانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين فيوم القيامة لابد أن يبتلوا بمثل هذا العذاب ليعرفوا أنّ جزاء السيء مثله، فجملة «هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون» إشارة إلى أنّ العقاب والجزاء إنّما هو نتيجة عمل المذنبين في الدنيا.

وفي المقام روايات وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآية الكريمة وهي تقول: انّ المقصود بالسيئة هي إنكار الولاية والبغض بالنسبة إلى أهل البيت عليهم السلام، والحسنة هي معرفة الولاية وحب أهل البيت عليهم السلام.

فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: دخل أبو عبدالله الجدلي على أميرالمؤمنين عليه السلام فقال الإمام عليه السلام: يا أبا عبدالله، ألا أُخبرك بقول الله عزوجل: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل يجزون إلّا ما كنتم تعملون﴾ (سورة النمل: ٨٩ و٩٠) قال: بلى يا أميرالمؤمنين جعلت فداك.

فقال عليه السلام: الحسنة معرفة الولاية وحبّنا أهل البيت والسيئة إنكار الولاية وبغضنا أهل البيت.

ثم قرأ عليه السلام الآية (الكافي ج١: ص١٨٥ ح١٤، وبحار الانوار ج٧: ص٣٠٥ ح٧٦، وتفسير نور الثقلين ج٤: ص١٠٩).

ومن هنا نعرف انّ كل عمل صالح يشترط فيه الإيمان بالله وبرسوله وولاية الأئمة الأطهار عليهم السلام الذين أوجب الله تبارك وتعالى مودتهم وولايتهم في الكتاب العزيز، وكذا السنّة النبوية ⬅

الحق، لما سبق منه فيما مضى من ذمّة الباكين على الحسين عليه السلام[1].

➲ الشريفة الواصلة إلينا بالطرق والأسانيد الصحيحة وكذلك السنّة الصحيحة الواصلة من طرق أهل السنّة والجماعة، فالمستفاد من ذلك كله وجوب ولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام على جميع المسلمين كما سيأتي البحث فيه ان شاء الله تعالى.

وهذا بمقتضىٰ العدل الإلهي فإنّ العدل الالهي يقتضي نصب المعصوم في كل عصر وزمان فيجب على الناس طاعة المعصوم للنجاة من الهدكات الدنيوية والأُخروية، فالعدل الإلهي يقتضي تنصيب الموازين يوم القيامة ليوفي نتيجة أعمال الناس ويعاقب الذين عصوا الأوامر الإلهية ومنها عصيانهم بالنسبة إلى ولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام من شعائر الله التي من يعظّمها يكون من تقوىٰ القلوب، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ ٱللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (سورة الحج:٣٢) ولأنّه إظهار للحق الذي من أجله ضحّىٰ الإمام الحسين عليه السلام بنفسه واقربائه وأصحابه وهو إنكار للباطل الذي أظهره بنو أُمية، ولذلك بكى الإمام زين العابدين عليه السلام على أبيه مدة طويلة إظهاراً لمظلومية الإمام الحسين عليه السلام وانتصاراً لأهدافه السامية، بل ومن قبل ذلك بكى له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفاطمة الزهراء عليها السلام وأميرالمؤمنين عليه السلام كما ورد في الأحاديث المتواترة بكاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الحسين عليه السلام وعلى ما سيلقىٰ من أُمته.

فقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده بسنده عن ابن عباس قال: رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام بنصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه أو يتبع فيها شيئاً، قال: قلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: دم الحسين وأصحابه ولم أزل أتتبّعه منذ اليوم. قال عمار: فحفظنا ذلك اليوم فوجدنا قُتل ذلك اليوم (مسند أحمد بن حنبل ج١: ص٢٤٢) ورواه الحاكم في المستدرك ج٤: ص٢٩٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ج٩: ص١٩٤، والطبراني في معجمه الكبير ج٣: ص١١٠ وغيرهم.

وأخرج الزرندي الحنفي عن أُمّ سلمة أنّها قالت: جاء جبرئيل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدخل عليه الحسين فقال: إنّ أُمتك تقتله بعدك، ثم قال: ألا أُريك تربة مقتله. فجاء بحصيات فجعلهنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قارورة، فلمّا كان في ليلة قتل الحسين سمعت قائل يقول:

أيـها القـاتل جـهلاً حسـينا   أبشـروا بـالعذاب والتـنكيل

➲

➲ قد لعنتم على لسان ابن داود ومــــوسى وحـــامل الانـــجيل

قالت: فبكيت، وفتحت القارورة فإذا الحصيات قد جرت دماً (نظم درر السمطين:ص٢١٧).

وأخرج الهيثمي بسنده عن عائشة قالت: دخل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوحىٰ اليه فترا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو منكب وهو على ظهره، فقال جبرئيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أتحبّه يا محمد، قال: يا جبرئيل ومالي لا أُحبّ ابني، قال: فإنّ أُمتك ستقتله من بعدك، فمد جبرئيل عليه السلام يده فأتاه بتربة بيضاء فقال: في هذه الأرض يقتل ابنك هذا واسمها الطف، فلمّا ذهب جبرئيل عليه السلام من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتزمه في يده يبكي فقال: يا عائشة، إنّ جبرئيل أخبرني إنّ ابني مقتول بأرض الطف، وإنّ أُمّتي ستفتن بعدي.

ثم خرج إلى أصحابه فقال: أخبرني جبرئيل إنّ ابني الحسين يقتل بأرض الطف وجاءني بهذه التربة وأخبرني أنّ فيها مضجعه (أُنظر: مجمع الزوائد ج٩:ص١٨٦) ورواه الطبراني في معجمه الكبير ج٣: ص١٠٧، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج١٤: ص١٩٣، والذهبي في ميزان الاعتدال ج١:ص١٣و غيرهم.

وأخرج القندوزي الحنفي بسنده عن الشعبي قال: مر علي (كرّم الله وجهه) بكربلاء عند مسيره إلى صفّين فبكىٰ حتى بل الأرض من دموعه، فقال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكى، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأُمي ما يبكيك؟ قال: كان عندي جبرائيل آنفاً وأخبرني أنّ ولدي الحسين يقتل بشاطىء الفرات بموضع يقال له كربلاء، ثم قبض جبرائيل قبضة من ترابه وشمّني إيّاها فلم أملك عيني أن فاضتا. ثم قال القندوزي الحنفي: ورواه أحمد نحوه (ينابيع المودة ج٣: ص١٢).

وأخرج أحمد بن حنبل بسنده عن محمد بن عبيد قال: حدثنا شرحبيل بن مدرك عن عبدالله بن نجي عن أبيه: أنّه سار مع علي (رضي الله عنه) وكان صاحب مطهرته، فلمّا حاذىٰ نينوىٰ وهو منطق إلى صفّين فنادىٰ علي (رضي الله عنه) اصبر أبا عبدالله اصبر أبا عبدالله بشطّ الفرات، فقلت: وماذا؟ قال: دخلت علىٰ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبي الله، أغضبك أحد ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: بل قام من عندي جبريل قبل فحدّثني أنّ ➲

الحسين يقتل بشطّ الفرات، قال: فقال: هل لك إلى أن أنهك من تربته؟ قال: قلت: نعم فمدّ يده فقبض من تراب فأعطا فيها فلم أملك عيني أن فاضتا (مسند أحمد بن حنبل ج١:ص٥) ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج٩: ص١٨٧، وابن أبي شيبة في المصنف ج٨: ص٦٣٢، وأبويعلى الموصلي في مسنده ج١:ص٢٩٨ وغيرهم.

وأخرج الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين بسنده عن أُمّ الفضل بنت الحارث أنّها قالت: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله، إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة، قال: وما هو؟ قالت: إنّه شديد، قال: ما هو؟ قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خيراً، تلد فاطمة إن شاء الله غلاماً فيكون في حجرك، فولدت فاطمة الحسين فكان في حجري كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخلت يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوضعته في حجره، ثم حانت مني التفاتة فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوضعته في حجره الدموع، قالت: فقلت: يا بني الله بأبي أنت وأُمي مالك؟ قال: أتاني جبريل فأخبرني أنّ أُمتي ستقتل ابني هذا، فقلت: هذا؟ فقال: نعم، وأتاني بتربة من تربته (المستدرك على الصحيحين ج٣:ص١٧٧) ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج١٤: ص١٩٧، وابن كثير في البداية والنهاية ج٦:ص ٢٥٨، والمقريزي في إمتاع الأسماع ج١٢:ص٢٣٧، وابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمة ج٢:ص ٧٦٠ وغيرهم، وإلى غير ذلك من الروايات الواردة في كتب أهل السنّة والجماعة.

واذا أضفنا إليها الروايات الواردة في كتب الشيعة من بكاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الإمام الحسين عليه السلام قبل ولادته وحين ولادته وبعد ولادته، وكذلك الروايات الواردة في كتب الشيعة من أنّ جميع الأنبياء بكوا على مصائب الإمام الحسين عليه السلام لطال بنا المقام. والمهم أنّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام سنّة قطعية من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعليه: فإنّ محاولة ابن تيمية وامثاله المغرضين يحاولون إنكار هذه النصوص وهذه الحقيقة إنّما ذلك يكشف عن انحرافهم عن السنّة النبويّة، وإنّ قلوبهم مرض كما قال تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...**﴾ (سورة البقرة: ٩) إذ أنّهم يعلمون علم اليقين بأنّ البكاء على الحسين عليه السلام سنّة نبوية قطعية، فمحاولة الإنكار محاولة فاشلة لا قيمة لها في

ونقل حديثاً هناك عن البخاري دلّ على تعذيب الميت بمن بكى عليه من حيث بكائه عليه،(١) وذلك ظلم بيّن، فما ذنب الميت حتى يعذّب بسبب فعل غيره

➲ ميزان التحقيق العلمي وسبر الأدلّة والنصوص الكثيرة، فالأمر واضح كما قال تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ﴾ (سورة التوبة:٣٢) وقال تعالى: ﴿جَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (سورة النمل:١٤).

(١) ذكر ابن تيمية في منهاج السنّة ج١: ص٥٤ـ٥٥ الأحاديث والروايات المتعددة عن البخاري، وهي تدل على أنّ الميت يعذّب ببكاء أهله عليه أو ببكاء أحد عليه، واستنتج منها أنّ البكاء على ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السبط الشهيد الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام مشمول لهذه الأخبار والروايات.

أقول: أولاً: مع قطع النظر عن الروايات الواردة في فضل البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وبكاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء وأهل بيته عليهم السلام عليه، ومع قطع النظر أيضاً عن أنّ البكاء على الإمام الحسين من الشعائر الدينية التي تقدّمت الإشارة إليه فإنّ هذه الأحاديث التي رواها ابن تيمية مناقضة لما رواه البخاري نفسه في كتاب الجنائز.

فعن ابن أبي مليكة في حديث طويل قال:... فلما أُصيب عمر دخل صهيب يبكي ويقول: وا أخاه وا صاحباه، فقال عمر: يا صهيب، أتبكي عليَّ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه، قال ابن عباس: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الله ليعذّب المؤمن ببكاء أهله عليه، لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، وقالت: حسبكم القرآن ولا تزر وازرة وزر أُخرىٰ (صحيح البخاري ج٢: ص٨٠ كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر).

فالحديث الذي نقله ابن تيمية معارض للقرآن والسنّة النبوية التي روتها عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسنذكرها.

وثانياً: أخرج البخاري نفسه في كتاب الجنائز، باب الدخول على الميّت بعد الموت إذا أُدرج في أكفانه، عن عائشة: أنّه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقبل أبوبكر فكشف عن وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم أكب عليه فقبّله وبكىٰ (صحيح البخاري ج٢: ص٧١).

فإذا كان البكاء على الميّت حرام أو غير مشروع أو ما شابه ذلك، فلابد أن يقال: أنّ الخليفة ➲

الذي هو بكائه عليه[١].

➲ أبابكر قد ارتكب هذه الموبقة وهل يلتزم بذلك ابن تيمية؟

فهل أنّ أبابكر تشمله الأحاديث التي نقلها ابن تيمية عن البخاري أم لا؟!!!

وثالثاً: أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال: زار النبيصلى الله عليه وآله وسلم قبر أُمّه فبكى وأبكى من حوله... (صحيح مسلم ج٣: ص٦٥ كتاب الجنائز، باب استئذان النبيصلى الله عليه وآله وسلم ربه في زيارة قبر أُمّه).

وهل يصح أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول: إنّ الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه يخالف قول نفسه؟!!!

لاشكّ أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم أولى من غيره بالعمل بما قالهصلى الله عليه وآله وسلم وإذا كان البكاء على الميّت محرّماً كيف يجوز للنبيصلى الله عليه وآله وسلم أن يأذن ربه لفعل محرّم. فما هو جواب ابن تيمية وأهل السنّة عن ذلك؟ وما هو جواب أتباع محمد بن عبدالوهاب وغيره؟!!! ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (سورة الزخرف:٧٨).

(١) فإنّ العقل مستقل في الحكم بقبح العقاب وتعذيب الميّت ببكاء غيره عليه؛ ضرورة أنّ البكاء فعل الآخرين وتعذيب الميّت بفعل الآخرين ظلم محض لا يصدر من عاقل فضلاً عن الخالق الحكيم العادل.

وهل يجوز أن يعتقد المسلم في ذات الله تعالى بأشياء مخالفة للعقل والضرورة ـ والعياذ بالله ـ فإنّ العقيدة هي القاعدة الأساسية التي ينبىٰ عليها الإيمان، فإنّ إيمان كل شخص مبني على اعتقاداته، فإذا كانت الاعتقادات موهومة فالإيمان ايضاً يكون كذلك، فلابد أن تكون العقيدة مبنية على الثوابت التي لا يمكن دفعها فضلاً عن أن تكون مخالفاً للضرورة العقلية.

ثم إنّ التاريخ والنصوص الواردة في كتب أهل السنّة يؤكدان على أنّ عمر بن الخطاب نسب هذه الأباطيل الى رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم ضمن كلام غريب لا يقبله العقل ولا النقل، وإنّه مخالف لصريح الكتاب العزيز.

ومن العجيب أنّه قد أخرج البخاري هذا الحديث الذي مخالف للضرورة والقطعية في صحيحه في كتاب الجنائز: عن ابن أبي مليكة في حديثٍ طويل قال:... فلمّا أُصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: وا أخاه وا صاحباه، فقال عمر: يا صهيب، أتبكي علَيَّ وقد قال رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم: ➲

فانظر الى ما تضمّنه أعظم كتب من تسمى بأهل السنّة وأصحّها لديهم من نسبة ما خالف نصوص الفرقان العظيم الى من خص سبحانه نطقه بالوحي، وتدبّر في حال من يستدل على خصمه بما ناقض كتاب الله من الخبر في مقامٍ وهو بنفسه ينقض الخبر في مقامٍ ثان[1].

➲ إنّ الميت ليعذّب ببعض بكاء أهله، قال ابن عباس: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، والله ما حدّث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الله ليعذّب المؤمن ببكاء أهله عليه، لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، وقالت عائشة: حسبكم القرآن ولا تزروا وازرة وزر أُخرىٰ... (صحيح البخاري ج٢: ص٨٠ كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر) ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز، باب الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه، وغيرهما من أرباب الصحاح والمسانيد.

فانّه كما ترىٰ بوضوح أنّ الحديث مخالف لنص الكتاب العزيز لأنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (سورة الأنعام:١٦٤) أي لا يحمل أحد وزر الآخر، وهذا أمر عقلي ضروري. فمعاذ الله أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخالف نص القرآن الكريم والضرورة العقلية.

ثمّ إنّ من الجدير بالالتفات أنّ عمر بن الخطاب الذي روىٰ هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بكى على النعمان بن مقرن المزني لمّا جاء نعيه، فخرج ونعاه الى الناس على المنبر ووضع يده على رأسه يبكي (أُنظر الاستيعاب لابن عبدالبر ج٤: ص١٥٠٦). فإذا كان هذا الحديث صحيحاً فعمر بن الخطاب خالف سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا المقام.

وأيضاً أنّه بكى على خالد بن وليد عندما مات وامتنعت النساء من البكاء عليه، فلما انتهى ذلك الى عمر قال: وما على نساء بني المغيرة أن يرقن من دمعهنّ على أبي سليمان عندما لم يكن لغواً ولا لقلقة (العقد الفريد ج٣: ص٢٣٥).

وبكىٰ على أخيه زيد بن الخطاب، وكان صحبه رجل من بني عدي بن كعب فرجع إلى المدينة فلما رآه عمر دمعت عيناه وقال: وخلقت زيداً قاضياً وأتيتني (العقد الفريد ج٣: ص٢٣٥).

ألا يتعجّب العاقل من أُصول عقائد أهل السنّة من أعمال خلفائهم وعلمائهم وفي مقدّمهم ابن تيمية الذي يأخذ بقول عمر؟!!

(١) فمن ناحية يقول ابن تيمية: إنّ كل ظلم ممتنع بالنسبة إلى الله لأنّ الظلم قبيح والحكيم لا

⊃ يفعل القبيح.

ومن ناحية أُخرىٰ يقول: إنّ كل ممكن مقدور لله سبحانه، بل العالم ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه، يفعل فيهما ما يشاء، فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان عدلاً منه وكذلك لو أكرم المذنبين والكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك.

أقول: إنّ مضحكات الدنيا وعجائبها أن يكون مثل ابن تيمية مع هذه الأقوال والنظريات ملجاءً لبعض أهل السنّة إذ لا يخفى على كل مسلم يعرف آيات القرآن الكريم ويعلم بأنّ الله تعالى عالم بجميع أُمور الدنيا والآخرة وأنّه سلطان في الدنيا والآخرة وهو حكيم، وقد وعد المؤمنين في كتاب العزيز بالجنة والكافرين بالنار، وأنّ الله لا يخلف الميعاد وأن وعده حق، وغير ذلك مما جاء في كتابه العزيز من الآيات المحكمات.

ولكن يقول ابن تيمية في مقابل جميع ذلك: بأنّه لا مانع من أن يكون الله ظالماً. ويستدل علىٰ كلامه الباطل بأنّ الدنيا والآخرة تحت يده فله ما يشاء من الفعل، فإنّ كل أحد يعرف بأنّ الله وإن كان قادراً على كل شيء وإن كان كل شيء تحت قدرته، ولكن الله تبارك وتعالى حكيم لا يفعل فعلاً مخالفاً للحكمة، فما قاله ابن تيمية وأتباعه مخالف لصريح القرآن الكريم لأنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ (سورة النساء:٤٠) ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة يونس:٤٤) ويقول تعالى: ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (سورة الكهف:٤٩) ويقول تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ٥٤).

وإذا كان الله سبحانه لا يجب عليه شيء فلماذا أوعد الثواب والعقاب، ولماذا بعث الأنبياء والرسل؟!

ولكن مع الأسف الشديد أنّ ابن تيمية وأتباعه لا يعترفون بالنصوص الصريحة من القرآن الكريم كما أنّ بعض أهل السنة كذلك.

قال القاضي الإيجي في المواقف: المقصد السابع: تكليف مالا يطاق جائز عندنا (المواقف للايجي ج٣: ص٢٩).

هذه هي العقيدة الأشعرية التي ابتنىٰ عليها أكثر أهل السنّة وهي مخالفة لصريح القرآن الكريم، ⊂

وثامنها: ما نسبه الى بعض القدرية[١] من القول بأنّ من فعل كبيرة فقد جعل

➲ حيث قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة: ١٨٦).

وقال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة: ١٨٦).

وقال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ (سورة الطلاق: ٧) فأين هذه العقيدة من القرآن الكريم؟

وقالت الأشاعرة: إنّ الله يأمر بما يكره وينهى عما يجب، وانّ الله يفعل بدون غرض، وان أفعال العباد مخلوقة لله وانّ افعالهم خيرها وشرها من الله (راجع المواقف للإيجي وشرحه وكتاب الفروق للقرافي المالكي ج٢، وغير ذلك).

ولسائل أن يسألهم: هل أنّ أفعال إبليس مخلوقة لله ـ والعياذ بالله ـ وهل أنّ أفعال فرعون وقارون وأبي لهب مخلوقة له سبحانه!!!

وإذا كان الأمر كما زعموا فأيّ حجة تبقى لهم على أنّ المؤمن يدخل الجنة والكافر يدخل في النار، ثم إذا كان الأمر كذلك لماذا يصيح بعضهم بأنّ الشيعة أهل النار بالرغم أنّ أمله الجنة إذ ليس هم أقل من أمل إبليس حسب عقيدته، وكيف يعترفون بصحة حديث الفرقة الناجية ويرجّح نجاة أهل السنّة؟!!!

(١) الظاهر أنّ المقصود بالقدرية هنا أسلاف المعتزلة، وهم الذين يقولون بحرية الإنسان في أعماله وأفعاله، ويدعون الى فكرة التفويض، وإنّما سموهم بالقدرية من باب استعمال اللفظ في ضدّه، حيث أنّهم ينكرون تقدير الله وقضائه، وإنّما يعتقدون بأنّ الإنسان هو الذي يقدّر أعماله وأفعاله وليس لله سبحانه فيه دخل، ولكن المعتزلة يقولون: بأنّ المراد بالقدرية هم الأشاعرة لأنّ هذا اللفظ إنّما يطلق على من يعتقد بالجبر في القضاء والقدر.

وعلى كل حال، فهم من أهل السنّة والجماعة وقد نهىٰ أئمة أهل البيت عليهم السلام القول بها.

فقد روى الكليني رحمه الله في الكافي بسنده عن يونس بن عبدالرحمن قال: قال لي أبوالحسن الرضا عليه السلام: يا يونس لا تقل بقول القدرية، فإنّ القدرية لم يقولوا بقول أهل الجنة ولا بقول أهل النار ولا بقول إبليس، فإنّ أهل الجنة قالوا: الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وقال أهل النار: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين، وقال إبليس: رب بما أغويتني... .

➲

إيمانه محبطاً بها[١]؛ فإنّه من غشّه وتدليسه على الغفلة؛ لعدم مدخلية القول المشار

➲ فقلت: والله ما أقول بقولهم ولكنّي أقول: لا يكون إلّا بما شاء الله وأراد وقدّر وقضىٰ.

فقال: يا يونس، ليس هكذا لا يكون إلّا بما شاء الله وأراد وقدّر وقضى، فقال: يا يونس، تعلم ما المشيئة؟ قلت: لا، قال: هي الذكر الأوّل، فتعلم ما الإرادة؟ قلت: لا، قال: هي العزيمة على ما يشاء (قال:) فتعلم ما القدر؟ قلت: لا، قال: هي الهندسة ووضع الحدود من البقاء والغناء، قال: ثم قال: والقضاء هو الإبرام وإقامة العين، قال: فاستأذنته أن أُقبّل رأسه وقلت: فَتَحتَ لي شيئاً كنت عنه في غفلة (الكافي ج١: ص١٥٧ ح٤). ورواه البرقي في المحاسن ج١: ص٢٤٤، والعلامة المجلسي في البحار ج٥: ص١١٦ ح٤٩ وغيرهم، وهكذا أخذت شيعة أهل البيت عليهم السلام العقائد من أئمتهم عليهم السلام. فلاحظ.

(١) فإنّ إحباط الإيمان بمعنى محو الإيمان، والقول بأنّ الإيمان يحبط بسبب بعض الأعمال والذنوب إنّما هو قول بعض المذاهب التكفيرية الذين يكفّرون المسلمين بهذه الدعوىٰ ويسفكون دماء المسلمين والمؤمنين بدعوىٰ أنّهم خرجوا من الإيمان، ولكن الله سبحانه بيّن حقيقة الإحباط علىٰ عكس ما ادّعاه التكفيرية، فإنّ التكفيرية يقولون: بأن الذنب والعمل السيّء موجب لإحباط الإيمان والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ...﴾ (سورة المائدة:٥) فإن الخروج من الإيمان موجب لإحباط الأعمال لا أنّ العمل المذنب سبب لإحباط إيمانه، فإنّ مقتضىٰ العدل الإلهي هو عدم القول بإحباط الإيمان بفعل الكبيرة.

وعليه: فما ذكره ابن تيمية من نسبة الإحباط إلى القدرية انّما هو من أجل دفع هذا الإشكال عن منهجه الذي اتّخذه على رؤوس الأشهاد، فإنّه يعتقد بأنّ كثيراً من أفعال المسلمين تؤدي إلى الشرك وإحباط الإيمان.

فقوله: أنّ القدرية يعتقدون بهذا الاعتقاد تدليس بيّن؛ فإنّ القرآن الكريم يردّ على هذه الفكرة وهذا الاعتقاد حيث قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة:٧ و٨).

والبحث في هذه المسألة طويل وعريض سواء من حيث الأدلة العقلية أو النقلية.

وإجماله: إنّ المشهور بين علماء الإمامية كما يقول العلامة المجلسي قدس سره هو بطلان الاحباط ➲

اليه بالشيعة؛ فإنّ ذلك قول المعتزلة وهم من القائلين بإمامة الثلاثة[١] وهـذه

➲ والتكفير، غاية الأمر أنّهم يرون أنّ تحقّق الثواب مشروط بأن يستمر الانسان على إيمانه في الدنيا إلى النهاية، والعقاب مشروط كذلك بأن يرحل من هذه الدنيا بدون توبة، لكن المعتزلة يعتقدون بصحة الإحباط والتكفير نظراً إلى ظواهر بعض الآيـات والروايـات (اُنـظر: بـحار الأنوار ج ٥: ص ٣٣٢).

وكذلك قال الخواجة نصيرالدين الطوسي في كتابه تجريد الاعـتقاد بـبطلان القـول بـالإحباط، واستدل على ذلك بالدليل العقلي والنقلي، أمّا الدليل العقلي، فهو أنّ الإحباط نوع من الظلم، لأنّ الشخص الذي قلّت حسناته وكثرت ذنوبه سيكون بعد الإحباط بمنزلة من لم يأت بعمل حسن إطلاقاً، وهذا نوع من الظلم بحقه.

وأمّا الدليل النقلي: فالقرآن الكريم يصرّح بأنّه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (أنظر تجريد العقائد: ص ٣٢٧).

وهذا خلاصة ما ذكروه علماء الشيعة في باب إحباط الأعمال، فمن أراد البحث والتحقيق حول الموضوع فليراجع الى كتب الشيعة والمعتزلة، والمهم أن المعتزلة هم قائلين بهذه المقالة دون الشيعة.

(١) لا شكّ أنّ المعتزلة طائفة من أهل السنّة والجماعة القائلين بخلافة أبي بكر وعمر و عثمان بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فهم يسيرون على نهج خلفائهم ويتبعون آرائهم في جميع المـجالات الاعتقادية والدينية وغير ذلك.

فقد ورد حديث في كتبهم في باب القدر عن عبدالله بن عمر أنّه قال: جاء رجل إلى أبيبكر فقال: أرأيت الزنا بقدر؟ قال: فإنّ الله قدره علَيّ ثم يعذبني؟ قال: نعم، يابن اللخناء، أما والله لو كان عندي إنسان أمرت أن يجأ أنفك (تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٦٥).

فكل من الأشاعرة والمعتزلة يؤيدون هذا الخبر ويعملون به، لأنّ فعل الخليفة عندهم حجة وإن كان الخبر فيه إشكال على الأشاعرة، حيث سأل الرجل أبابكر بأنّ الله قدّر الزنا عَلَيّ ثـم يعذّبني بهذا القدر الذي قدّره عَلَيّ؟!!! ولمّا عرف أبوبكر بأنّه مخطئ في رأيه هدّده بإيجاء أنفه.

ومن هنا ذهبت المعتزلة إلى إحباط الأعمال وذهبوا إلى أنّ الزنا من الكبائر، فيحبط به الإيمان، ➲

المسألة من مسائل الفروق بين الشيعة والمعتزلة التي ذكرها المفيد في رسالته في ذلك[١].

وتاسعها: ما زعمه من كون القائلين بعدل الله وإحسانه، وهم من قال بخلق الله فعال عباده دون المعتزلة القائلين بأنّ فعل الكبيرة مُذهبُ إيمان فاعلها ومُزيلٌ له فإنّه عدم إنصاف منه معهم[٢].

➲ فأهل السنّة قد أخذوا دينهم من أبي بكر وأضرابه فيعتقدون بأنّ صاحب الكبيرة يدخل النار بسبب إحباط عمله وإيمانه.

ولكن الأمر واضح في غاية الوضوح حيث أنّه قد ثبت عند الشيعة الإمامية أنّ كلا المذهبين الأشاعرة والمعتزلة على الباطل حيث أنّ الأوّل مآله إلى الجبر والثاني إلى الظلم، لأنّ الأشاعرة يزعمون بأنّ كلما في الوجود فهو من الله خيراً كان أم شراً، وهذا هو الاعتقاد بالجبر.

وأمّا المعتزلة حيث أنّهم ذهبوا إلى حبط الأعمال كاخوانهم الأشاعرة فهم يعتقدون بالقدرة وان كان كل من الأشاعرة والمعتزلة ينسبون إلى الطرف الآخر منهم إلى القدرية، ولكن حقيقة الأمر كما تقدّم أنّهم تابعون للخلفاء الذين استولوا بغير حق على السلطة العامة في البلاد واستولوا على مقاليد الأُمور بعد النبيﷺ فهؤلاء وقفوا مع الخلفاء في أصل الاعتقاد، فهم في نهجٍ واحد في أُصول اعتقاداتهم وإن كانوا يختلفون في بعض الفروع، فإنّ ذلك لا يقدح في وحدة أُصولهم.

(١) المسائل السروية:٩٦ـ١٠١ في المسألة الحادية عشرة، في أصحاب الكبائر.

(٢) وذلك لأنّ من يقول أنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه يزعم أنّ أفعال العباد لم تصدر منهم باختيارهم وإرادتهم وإنّما هي جميعاً صادرة بإرادة الله تعالى، ولا يكون للعبد فيها تصرف إذ معنى لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله عندهم على وجه الإطلاق والعموم الشامل لجميع الشرور والقبائح.

وخلاصة الكلام: أنّ هؤلاء يقولون بأنّ العبد مجبور في جميع حركاته وسكناته، أي أنّ العبد كالميّت في يد الغسّال لا إرادة له ولا اختيار في أفعاله، فهم يقولون بأنّ معنى: لا مؤثر في ➲

فأين من ذهب الى أعظم ما يتصوّر من الظلم الذي هو القول بأنّ الله سبحانه

➲ الوجود إلّا الله، هو أنّ كل ما في صفحة الوجود فهو مخلوق لله تعالى، وحيث أنّ أفعال الإنسان من الأُمور الموجودة في الكون فهي مخلوقة لله تعالى، فالعبد مقهور في إرادته واختياره، بينما أنّ المعتزلة يقولون: إنّ العبد بإرادته واختياره يرتكب الكبيرة والمحرّمات ولكن بارتكابه الكبائر يحبط إيمانه لأنّه بارتكابه المحرّم يستحق الخلود في النار، واستحقاق الخلود في النار يقتضي إحباط الإيمان. ويستدلون على قولهم هذا ببعض الآيات.

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ (سورة النساء:٩٣) على أنّ مرتكب الكبيرة كقاتل النفس المحرّمة يخلّد في نار جهنم، وهذا يقتضي إحباط إيمانه لأنّ المؤمن لا يخلّد في نار جهنم إلّا من حبط عمله.

أقول: إنّ ما ذكره الطائفتين من أهل السنّة مردود وباطل عند الشيعة الإمامية.

أمّا الأوّل: مردود، فلأنّ القائل به قد خلط بين كون أفعال العباد مقدورة لله تعالى وبين وقوع أفعال العباد في الخارج، فإنّه لا شك، أنّ مبادئ أفعال العباد كالحياة والعلم والقدرة وما شابه ذلك كلها تكون تحت إرادة الله سبحانه، وأمّا أفعال العباد فهي تحت إرادة العبد واختياره، وأنّه يفعل ما يريد وجداناً وإن كان أصل قدرته وحياته بيد الله سبحانه فيعرف أنّ قولهم باطل والشواهد على بطلانهم من الكتاب العزيز والسنّة الشريفة والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جداً لا يسعنا المقام بذكرها، راجع كتب الشيعة في باب الجبر والتفويض.

وأمّا الثاني: وهو مذهب المعتزلة حيث ذهبوا إلى إحباط إيمان العبد بارتكابهم الكبائر أيضاً مردود وباطل، لأنّ مرجع هذا القول إلى الظلم وكل ظلم بعيد عن ساحة الربوبية، ضرورة أنّ الله سبحانه وتعالى لا يجازي السيئة إلّا بمثلها كما قال في كتابه العزيز: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٦٠).

فالآية فيها تصريح بأنّ من ارتكب سيئة لا يجازى إلّا بمثلها لأنّ المجازات بأكثر منها ظلم في حق العبد، وأمّا بالنسبة إلى الحسنات فيعطى له عشر أضعاف تشويقاً له وترغيباً بالعمل الخير ولطفا وإحساناً من الله سبحانه وتعالى، فهذه الآية وغيرها من الروايات الواردة في المقام كثيرة جداً لا يسعنا المقام لذكرها، وسنذكرها عند ذكر أدلة الشيعة إن شاء الله تعالى.

خلق الشرور جميعها في عباده ثم يعاقبهم عليها(١) من الذي ذهب الى أنّ فعل الكبيرة مزيل إيمان صاحبها؟!!!(٢)

---

(١) إذ من الواضح لدى الخبير أنّ الفعل إنّما ينسب إلى فاعله إذا كان هو المباشر له باختياره وإرادته، وأمّا إذا كان مجبوراً عليه فلا ينسب الفعل اليه كما هو واضح ظاهر، فلو كان الله تبارك وتعالى خالقاً لأفعال العباد من عباداته ومعاملاته فهو الحاج وهو الصائم وهو العابد وهو بائع وهو المشتري و... لأنّه هو الذي خلقها كما أنّه بناءً على هذا الزعم أنّ الله هو الذي ارتكب المحرّمات ـ والعياذ بالله ـ لأنّ كل من يفعل فعلاً يلحقه حكم فعله من المدح والذم والثواب والجزاء وينسب إليه ذلك الفعل حسناً كان أو قبيحاً، وهل تجوز هذه النسبة الفاسدة إلى العلي الأعلىٰ؟!!!

(٢) فإنّ المعتزلة يقولون: بأنّ إحباط الايمان نتيجة ارتكاب الكبيرة؛ لأنّ المرتكب للكبيرة يكون خالداً في النار، وأنّ الخلود في النار معناه إحباط الإيمان وإلّا فلا يصح الخلود، فكما أنّ الشرك بالله العظيم موجب لحبط الأعمال الصالحة كالصاعقة التي تهلك كل ما جمعه الإنسان خلال حياته كذلك ارتكاب الكبيرة فإنّها تحبط الإيمان وتدمّره، هذا مازعمه المعتزلة في باب إحباط الإيمان، ولكن السؤال الذي يطرح هاهنا هو أنّه: هل يصحّ أن تحبط الأعمال الصالحة للإنسان بسبب الأعمال السيئة التي يرتكبها، الإنسان فضلاً عن أن يحبط الإيمان بها فإنّ العمل الصالح إذا لم يعقل حبطه بواسطة الأعمال السيئة فحبط الإيمان بالأعمال السيئة بطريقٍ أولىٰ؛ وحيث أنّ العقل يحكم بأنّ حبط العمل مخالف للعدالة لأنّ العدالة تقتضي أن يكون الجزاء مطابقاً للعمل وإلّا سوف يكون الجزاء مخالفاً للعدالة والرحمة الإلهية، فإنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة: ٧ ـ ٨).

البحث في هذه المسألة طويل وعريض من حيث الأدلة العقلية والنقلية. وخلاصتها: أنّ إحباط الإيمان بارتكاب الكبائر ظلم محض والعقل مستقل في قبح الظلم، فلا يصدر من البارئ عزوجل ذلك مضافاً الى الآيات الكثيرة التي تدل بالصراحة على العفو عن المذنبين والمغفرة عن المجرمين يوم القيامة، وكذلك الروايات الكثيرة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وسنذكرها إن شاء الله تعالى عن قريب. فلاحظ.

وهو ولو كان مخالفاً لما نزل به الفرقان العظيم،[١] لكنّه ليس قبيحة

---

(١) فإنّ الآيات الواردة في العفو عن المذنبين كثيرة وهي تدل بالإطلاق على أنّ الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب وإن كان من الكبائر مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ**﴾ (سورء النساء:٤٨). هذه الآية الكريمة تصرّح بأن جميع المعاصي والذنوب قابلة للمغفرة والعفو إلّا الشرك، فإنّه تعالى لا يغفر أن يشرك به إلّا أن يكفّ المشرك عن شركه ويتوب إلى الله ويصير موحّداً.

وبعبارة أخرىٰ: الآية تدل على أنّه ليس هناك أيّ ذنب قادر بوحده على إزالة الإيمان، كما ليس هناك أيّ عمل صالح قادر على خلاص الإنسان إذا كان عمله مقروناً بالشرك، فالآية وردت في شأن العفو عن الذنوب سواء كان بواسطة الشفاعة أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**﴾ (سورة الزمر:٥٣) فإنّ هذه الآية الكريمة قد فتحت الأبواب أمام المذنبين والمرتكبين للكبائر والصغائر، وأعطتهم الأمل لغفران جميع ذنوبهم، وقد وصلت الأمر الى درجة من اللطف من جانب الباريءُ عزوجل وسعة رحمته حتى قال الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام: ما في القرآن آية أوسع من: يا عبادي الذين أسرفوا... لا تقنطوا من رحمة الله (أُنظر: كنز العمال ج٢: ص٤٩٢ ح٤٥١١) وفي مجمع البيان للعلّامة الطبرسي ج٨: ص٤٠٧.

والتدقيق في الآية الكريمة يبيّن هذه الحقيقة أكثر وضوحاً حيث أنّ التعبير في قوله تعالى مخاطباً لجميع الناس بلفظ «عبادي» فيه عناية ولطف ابتداءً من الله سبحانه ثم التعبير بـ «اسراف» بدلاً من الظلم والذنب والجريمة هو لطف آخر منه تعالى.

ثم التعبير فيها بقوله تعالى: ﴿على أنفسهم﴾ يبيّن أنّ ذنوب الإنسان تعود كلها عليه، وهذا التعبير هو علامة أُخرىٰ من علامات محبّة الله تعالى لعباده وهو يشبه خطاب الأب الحريص لولده عندما يقول: لا تظلم نفسك أكثر من هذا. ثم التعبير بـ «لا تقنطوا» مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «القنوط» عبارة عن اليأس في الخير فإنّها بوحدها دليل على أنّ المذنبين يجب أن لا يقنطوا من اللطف الإلهي.

ثم التعبير من رحمة الله وردت بعد عبارة: لا تقنطوا، تأكيداً آخراً على هذا الخير والمحبّة.

←

بتلك الدرجة.

فأين ظلم من يعاقب غيره على فعل هو فعله فيه ممن يعاقب غيره على فعل ذلك الغير زيادة على عقوبته التي يستحقّها بسبب ذلك الفعل[١].

فإنّ من قال: إنّ الكبيرة محبطة فقد زعم بخلود فاعلها في جهنم،[٢] ولو لم

➲ ثم التأكيد الأخير بأنّ الله يغفر الذنوب وهذه الكلمة أيضاً مشتملة على الألف واللام التي تشمل جميع الذنوب من دون استثناء، فالتأكيد بعد التأكيد بأنّ الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً. وإلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المجال.

وعليه: فإنّ الإنسان الذي يقرأ هذه الآيات الكريمة ويأمل رحمة ربه لا يبقىٰ عنده أدنىٰ ريب من أنّه تعالى يغفر الذنوب جميعاً، وإنّ رحمته وسعت كل شيء، فهذه الآيات وغيرها تدل بالصراحة على أنّ أبواب المغفرة والرحمة مفتوحة للجميع من دون أي استثناء، فبطلان كلام المعتزلة من أوضح الواضحات. فلاحظ.

(١) بعبارة أُخرىٰ: إنّ القائل بمخلوقية أفعال العباد والاعتقاد بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه يلزمه القول بأنّ مدح الفعل وذمه يلحق بالخالق، لأنّ الخالق هو الذي صدر منه الفعل، فهؤلاء ينسبون الظلم إلى الله سبحانه ويقولون: بأنّ الله تعالى هو خالق الظلم، فلابد لهم من الالتزام بأنّ ما يترتب على الظلم إنّما يلحق بصاحبه فهو أولى بالاستحقاق ممن لم يكن قادراً على الارتكاب.

ثم إنّ القدرية والمعتزلة القائلين بأنّ مرتكب الكبيرة يعاقب على فعل نفسه إلّا أنّه حيث يكون خالداً في نار جهنّم فإنّ فعل الكبائر مزيل لإيمانهم لأنّ الخلود في نار جهنم معناه: إحباط الإيمان، فالمرتكب للكبيرة كالكافر يعذّب في نار جهنم خالداً فيه.

أقول: وهذا أيضاً نسبة الظلم إلى الله تعالى لأنّ هؤلاء ينسبون إلى الله تعالى ما هو مخالف للعدل الالهي بل الظلم الصريح وينسبون إليه لا يليق بجلال شأنه، فيقولون: بأنّ الله لا يجزي بالعدل بل يجزى المذنبين على خلاف العدل والعدالة، بل يجزيهم بالظلم ويقولون: بأنّ معصية العبد مزيلة لإيمانه فإنّ زوال إيمان العبد بلا سبب، ظلم ولكن هذه النسبة أهون من نسبة ارتكاب الظلم وعذاب العبد كما هو واضح ظاهر. فلاحظ.

(٢) وذلك لأنّ المستفاد من القرآن الكريم أنّ جزاء بعض الذنوب الخلود في جهنّم مثل قتل

يقل بذلك فهي لها قدر من العقوبة في جهنّم ما لم تنل فاعلها الشفاعة[١].

➲ النفس المحترمة كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ (سورة النساء: ٩٣).

والخلود في النار هو من صفات الكفار، ومعنى ذلك بناءً على زعم المعتزلة أنّ مرتكب الكبيرة إن مات على ذنبه فهو مات على صفة الكّفار. وعلى هذا فإنّ المعتزلة يعتقدون بتكفير أصحاب الكبيرة باستحقاق خلودهم في النار، فانّه بناءً على هذا الزعم انّ من كان في قلبه الايمان وارتكب أحد الكبائر فبالكبيرة يذهب إيمانه إذ انّ السيئات يذهبن الحسنات حتى لا يبقىٰ له شيء من الحسنة وتكون صحيفة أعماله مليئة بالسيئة فهو لا يستحق إلّا الخلود في النار.

أقول: هذا الاعتقاد وإن كان باطلاً وظلماً في حق البارئ تعالى إذ أنّه تعالى لا يعذّب عباده بغير ما ارتكبه العبد كما قال عزّوجلّ في كتابه العزيز: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (سورة الزلزال: ٧ و٨).

ولكن مع ذلك كله أنّه أقل محذوراً من القول بتجويز ارتكاب الظلم له سبحانه ثم يعذب عبده على ما فعله هو بنفسه من الظلم، فإنّ هذا الاعتقاد أقبح من النسبة الأُولىٰ لأنّ في النسبة الأُولىٰ أنّ العبد قد ارتكب الذنب الكبير، ولكن حيث كان عذابه الخلود في جهنّم زعموا بأنّه سيحبط إيمانه، وأمّا بناءً على الثاني فإنّ العبد لم يرتكب أيّ جريمة ومع ذلك يعذّب، فالقولين بين الإفراط والتفريط كما لا يخفى ذلك على أحد. فلاحظ.

(١) وذلك لأنّ المختار في المسألة عند المعتزلة خلود الفاسق في العذاب، وإذا سألهم أحد عن الشفاعة يوم القيامة سوف تراهم يقولون: بأنّها مختصّة بالتائبين من المؤمنين وأثرها ترفيع المقام لا الإنقاذ من العذاب أو الخروج منه.

وهذه هي النقطة المهمة التي وقعت مورد البحث بين علماء الكلام، فالمعتزلة قد أوّلوا الآيات الصريحة من القرآن الكريم في مسألة الشفاعة وقالوا: إنّ الشفاعة لا تشمل الفسّاق الذين ماتوا على حالة فسقهم ولم يتوبوا إلى الله، لأنّ من مات على هذه الحالة يكون خالداً في النار فهو كمن لا إيمان له، والشفاعة إنّما تنال لمن له الإيمان ولو بمقدار بحيث لا يخلد في النار، وأمّا الخالد فيها فإنّه وإن كان مؤمناً إلّا أنّ ارتكاب الكبيرة يحبط إيمانه (أُنظر: شرح الأحول الخمسة للقاضي عبدالجبّار المعتزلي: ص٦٨٨).

➲

فأمّا على قول القدرية فالعبد غير مستحق للعقوبة بوجه من الوجوه، فخلق

➲ أقول: إنّ الخطأ في تفسير آيات الشفاعة ورفض الروايات الصريحة المتواترة فيها واضح ظاهر، لأنّ الشفاعة إنّما تكون للمذنبين الذين ليس لهم طريق للنجاة من العذاب إلّا هذا الطريق، ويكفي للباحث المراجعة إلى آيات الشفاعة والروايات الواردة فيها ويدقّق فيها فإنّها واضحة الدلالة على أنّ مجموعة من الناس المؤمنين تشملهم شفاعة الشافعين، ولذلك قال الله تعالى في شأن بعض المجرمين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ﴾ (سورة المدّثّر: ٤٨) فيبدو أنّ الله تعالىٰ قد أخذ شفاعة بعض الشافعين لبعض المؤمنين مفروغاً عنه ثم ينفيها عن بعض المجرمين، ولذلك نرىٰ أنّ القرآن الكريم يصرّح بأنّ الشفاعة إنّما تكون بإذن الله، قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (سورة البقرة:٢٥٥) وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (سورة سبأ:٢٣) فهذه الآيات تبيّن أنّ الشفاعة هي أمر محقق ولكن لها شروط خاصة.

والعجب أنّ القاضي عبدالجبّار يستدل على أنّ العقوبة على طريق الدوام لا تخرج الفاسق من النار بشفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ (سورة البقرة: ٤٨) وقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (سورة غافر: ١٨) (أُنظر: الأُصول الخمسة: ص٦٨٩).

ويرد عليه **أولاً**: إنّ الأُسلوب الصحيح في تفسير القرآن الكريم هو تجريد المفسّر نفسه عن كل رأي سابق أولاً، وجمع الآيات المربوطة بالموضوع ثانياً، فعند ذلك يقدر على فهم المراد من الموضوع الذي يريد تفسيره، فإنّ القاضي قد نظر الى الآيات بمنظار الاعتزال أولاً ثم لم يجمع بين هذه الآيات والآيات الراجعة الى الشفاعة.

ثانياً: فلو كان يلاحظ الآيات الواردة في الشفاعة لوجدها على سبعة أصناف، فأخذ صنفاً واحداً منها وترك الأصناف الأُخر.

وثالثاً: ما ذكره من الآيتين في نفي الشفاعة راجعتان إلى الكفّار.

ورابعاً: إنّ مسألة الشفاعة لم تكن فكرة جديدة ابتكرها الإسلام وإنّما هي من الأُمور الرائجة بين الأُمم وقد طرحها الإسلام وهذّبها من الأُمور الخرافية التي قامت بتحريفها أيادي حتى صارت مخالفة للعدل والعقل، وقد صحّحها الاسلام. فلاحظ.

الكفر فيه وتخليده في جهنّم غاية الظلم[١].

---

(١) وتوضيح المقام: أنّ القدرية يعتقدون بأنّ الله سبحانه لم يقدّر المعاصي على أهلها وهو لا يقدر ذلك فلا يهدي الضال ولا هو يقدر على ذلك.

فالمسلم هو الذي جعل نفسه مسلماً وهو الذي جعل نفسه مصلّياً وكذلك سائر الطاعات والمعاصي، بل العبد هو الذي خلق هدايته بنفسه ولا دخل للخالق فيها مطلقاً، فإنّ العبد بنفسه يكون خالقاً لهداية نفسه وجعلوا العبد خالقاً مع الله سبحانه عندهم، وأنّ الله لا يقدر أن يهدي أحداً ولا يقدر أن يضلّ أحداً. والى غير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة.

وخلاصة الكلام: أنّهم يعتقدون بالتفويض وحرية العبد في أفعاله بصورة مطلقة.

وقد ردّ عليهم علماء الشيعة تبعاً لأئمّة أهل البيت عليهم السلام حيث أنّهم عليهم السلام قد ردّوا على القدرية كما ردّوا على جميع الفرق الباطلة، وأنّ شيعتهم أخذوا منه معالم دينهم في جميع المجالات.

ففي المقام نذكر بعض الروايات الواردة عنهم عليهم السلام في هذا المجال ليتضح الأمر للقارئ الكريم.

فمنها: ما رواه الصدوق في كتابه فقه الرضا عليه السلام عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: مساكين القدرية ارادوا أنّ يصفوا الله عزوجل فأخرجوه من قدرته وسلطانه (فقه الإمام الرضا عليه السلام: ص٣٤٩).

ومنها: ما وراه الصدوق أيضاً في كتابه ثواب الأعمال بسنده عن زرارة ومحمد بن مسلم وأنّهما عن الإمام الباقر عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في القدرية: ﴿**ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ (ثواب الأعمال: ص٢١٣، ورواه المجلسي في البحار ج٥: ص١١٨ ح٥٤).

وفي هذين الآيتين من سورة القمر أي الآية رقم ٤٨ و ٤٩ أُشير الى أنّ المقصود من التقدير والحساب هو الجزاء والحساب الدقيق، فبيّن سبحانه وتعالى أنّ العذاب الإلهي واقع على المذنبين ولا ريب فيه، وسيواجهونه عملياً رغم استهزائهم وسخريتهم وادّعائهم أنّه من نسج الأساطير سيدخلون النار الحامية التي تكون درجتها بحدّ يذهل ويخرق بلمسها ومسّها الأجسام.

وخلاصة الكلام: أنّ القرآن الكريم يبيّن وينبّه الأمر للجميع خاصة الذين أنكروا التقدير الإلهي وظنّوا أنّ الله تعالى ليس له تدخّل في أعمالهم وأنّهم قادرون على كل شيء، فيؤكد عليهم بأنّهم لابد لهم من التأمّل في حقيقة المبدأ والمنتهىٰ ويأخذوا الآيتين بعين الاعتبار وإلّا سوف يدخلوا في المنحرفين المضلّين.

فعلم كون قول المعتزلة دون قول القدرية القائلين بأنّ الله هو خالق فعال عباده[1].

⮊ وهناك آيات وروايات كثيرة تبيّن حقيقة فعل الإنسان وحقيقة الهداية الربّانية والتعاليم السماوية وغير ذلك، فالقدرية حيث أنّهم ابتعدوا عن القرآن والعترة الطاهرة المفسّرين للقرآن الكريم فقد ضلّوا وأضلّوا السبيل. فلاحظ.

(١) لا يخفىٰ أنّ القدرية في لسان الروايات والمتكلّمين أُطلق على فريقين:

الفريق الأوّل: هم الذين ذهبوا الى الجبر والقول بأنّه لا مؤثر في الوجود إلّا الله، فهؤلاء ورد في حقّهم الرواية المعروفة عن النبيﷺ حيث قال: القدرية مجوس هذه الأُمة (أُنظر: المستدرك للحاكم النيسابوري ج١: ص٨٥) وروىٰ مثله الشيخ الصدوق في كتابه التوحيد: ص٣٨٢ عن الإمام الصادقعليه‌السلام، والظاهر ان نسبتهم الى المجوس من حيث أنّ المجوس ينسبون الخسائس والنقائص الى الله سبحانه لأنهم يعتقدون أنّ الله هو السبب الأول في أفعال العباد والكل بتقديره وقدرته من دون دخالة أيّ واسطة في البين.

الفريق الثاني: هم الذين ذهبوا الى أنّ أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى ولم يقدّرها، فالله سبحانه تعالى لم يخلق المعاصي ولم يقدّرها على العباد كذلك الطاعات فليس له أيّ دخل في عمل العبد.

وبعبارة **أُخرىٰ**: هؤلاء يقولون: أنّ أفعال العباد محقّقة من غير قضاء وقدر ومن غير علّية ومدخلية من الله سبحانه وإرادة منه سبحانه في أصل القدرة، وهؤلاء قد ورد في حقّهم بعض الروايات.

منها: ما ورد عن الإمام الرضاعليه‌السلام قال: مساكين القدرية أرادوا أن يصفوا الله عزوجل فأخرجوه من قدرته وسلطانه (فقه الإمام الرضاعليه‌السلام: ص٣٤٩).

والمعتزلة هم الذين يقولون بأنّ الله تعالى خلق العباد وأقدرهم على أفعالهم وفوّض إليهم الاختيار، فهم مستقلّون بإيجاد أفعالهم على وفق مشيئتهم وطبق قدرتهم.

والفرق بين القدرية بكلا قسميه وبين المعتزلة واضح لمن تأمّل فيهم ولو بصورة إجمالية، إذ أنّ المعتزلي يدّعي ثبوت الاختيار والتفويض للعبد حفظاً للعدل. والقدري القسم الأول منه يدّعيّ بأنّ الله هو الخالق لأفعال العباد من دون أن يكون اختيار للعبد، والقسم الثاني منهم ⮈

وعاشرها: ما زعمه حجة للقائلين بالقدر على المعتزلة من آية: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**...﴾(١) الى آخرها. فإنّه حجة بينة على من قال أنّ الله خالق لفعال

➲ يقول: أنّ الإنسان يتولّد مجرداً عن كل لون وصبغة عن كل ميل وغريزة للحفاظ على حريته وعدم انسياقه بالذات الى جانبٍ خاص.

وخلاصة الكلام: أنّ كل من الطرفين بين إفراط وتفريط.

وأمّا الشيعة الامامية: فهم حيث أخذوا معالم دينهم من أئمة أهل البيت عليهم السلام فإنّ عقيدتهم صريحة وشفّافة في هذا المجال كبقية المجالات، فإنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام علّموا شيعتهم بأنّه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين. والباحث عندما يدرس الحقيقة وجوانبها مع تطبيقها على الآيات القرآنية والسنّة القطعية الصادرة من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يجدها كاملاً مطابقة لهما بل بذلك ترتاح النفس.

فللباحث أن يراجع المصادر الشيعية ثم يطبّقها على الآيات والروايات القطعية الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك يطبّقها على الفعل ثم يجعل النتيجة الحاصلة من ذلك جنب قول القدرية والجبرية والمفوّضة والأشاعرة والمعتزلة، ثم يحكم بإنصافه (أُنظر: الكافي ج١: ص١٥ باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين، وفقه الإمام الرضا عليه السلام: ص٣٤٨ باب القدر والمنزلة بين المرتبتين، والتوحيد: ص٢٥٩ باب نفي الجبر والتفويض، والبحار ج٥: ص٢).

(١) سورة الزلزلة: ٧، والبحث في هذه الآية الكريمة بحث طويل، وإجماله: إنّ الله سبحانه يجزي العباد جزاءً أوفىٰ، والمراد بالجزاء الأوفى هو الجزاء الذي يكون طبقاً للعمل، فليس للإنسان إلّا مقتضى سعيه، فان كان خيراً أراه الله ذلك وإن كان شراً أمضاه له، فالوزن إنّما يكون بالأعمال دون العامل، فالآية تثبت للعمل وزناً سواء كان خيراً أو شرّاً، فالفعل لا يفارق فاعله وبالطبع أنّ هذا لا ينافي لطف الله وتفضّله على العباد بأن يضاعف الجزاء لهم على الأعمال الصالحة بحيث يجعلها عشرة أضعاف أو عشرات أضعاف بل ومئات أضعاف أو أنّ يعطىٰ هذه القدرة لبعض الحسنات بحيث أنّها يذهبن السيئات والى ما شاء الله من تفضّل رب العالمين، كما أنّ بعض الآيات تدل على ذلك كقوله تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ (الاعراف: ١٦٠). وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ**﴾ (سورة هود: ١١٤) والى غير ذلك من الآيات الكريمة.

➲

عباده[١]، فإنّه سبحانه قد نص فيها على رؤية عامل الخير لما عمله من خيره، ورؤية عامل الشر لما عمله من شره، ولم يقل: من خلقت فيه مثقال ذرة من الخير

⮊ ولكن بالنسبة الى الأعمال السيئة فلا يوجد فيها بأنّ الله تعالى يعذّب عبده مجازاة أكثر مما عمله العبد، بل صريح بعض الآيات أنّ الله لا يعذّب إلّا مثل ما ارتكبه العبد من الذنب والعصيان فقال تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٦٠).

ومن التأكيد في ذيل الآية الكريمة يعرف بطلان قول القدرية حيث استدلوا بقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً﴾ (سورة المائدة:٣٢).

فإنّ الجواب عنه واضح ظاهر إذ المقصود في الآية ليس قتل الناس جميعاً حيث أنّ ظاهر الآية في المقام أهمية حفظ النفس ولذلك لم تذكر الآية بأنّ جزاء من قتل نفساً جزاء قتل جميع الناس بل إنّ العبارة في الآية الكريمة هي: «فكأنّما قتل الناس جميعاً» والمقصود في المقام هو كناية عن كون الناس جميعاً ذو حقيقة واحدة إنسانية وهذه الحقيقة متحدة فيها، فإذا ارتكب أحد التعرّض الى هذه الحقيقة فكأنّما ارتكب الجرم والتعرّض الى جميع هذا العنوان، كما أنّ الماء له حقيقة واحدة فإذا ينسب اليه نسبة فكأنّما نسب الى جميعها. ففي المقام أنّ الله تعالى لم يقل بأنّه سيعذّب القاتل عذاب جميع الخلق كما هو ظاهر الآية. فلاحظ.

(١) لأنّ نسبة العمل في الآية الكريمة إلى الإنسان مباشرة تدل على أنّ أثر الأعمال يرجع إلى صاحبه وفاعله، فالأفعال الاختيارية كالشرب والأكل والقعود والقيام وغير ذلك إنّما يسند إلى فاعله، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من هذه الأعمال الاختيارية من الخير أو الشر فيراه، لأنّ كل منها له أثر فيترتب عليها آثارها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ومن هذا المنطق قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (سورة الروم:٤٤).

ولا شك أنّ الاعتقاد بعالم مابعد الموت وبقاء آثار الأعمال البشرية سواء كانت خيراً أو شراً يترك أثره العميق علىٰ فكر وأعصاب وجسد الإنسان ويمكنه أن يكون عاملاً مؤثراً في التشجيع على الأعمال الحسنة. فلاحظ.

يرى ذلك، ومن خلقت فيه مثقال ذرة من الشر يرى ذلك[١].

فالعدول عن هذه العبارة المتأخّرة الى العبارة المتقدّمة دليل بيِّن على كون فاعل الخير وفاعل الشر هو العبد[٢] دون الله، فتدبّر فيما يذكره حجةً له وهو حجة عليه[٣].

---

(١) إذ لو كانت أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه بحيث يكون الإنسان منعزلاً عن الفاعلية والتأثير كان من اللازم أن يقول تعالى في هذه الآية المباركة: ومن خلقت فيه من الفعل الخير ولو بمقدار ذرة سوف يجده، وهكذا بالنسبة الى فعل الشر. ولكن صريح الآية هو قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة...﴾.

وعلى كل حال، فإنّ عقيدة الشيعة الإمامية موافقة للكتاب العزيز في جميع المجالات الاعتقادية وغيرها، ومنها مسألة القضاء، والقدر فإنّهم أخذوا معارف دينهم في هذا المجال من القرآن الكريم وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم المعصومين الذين هم خزنة الوحي وحملة الدين وأوعية العلم وهداة الخلق بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) لأنّ أفعال العباد تصدر عنهم بإرادتهم واختيارهم من غير جبر، فان شاؤوا فعلوا وإن لم يريدوا لم يفعلوا في الوقت نفسه، وإن كانت قدرة الإنسان وحياته بيد الله سبحانه والله تعالى قادر على أن يسلب الإنسان قدرته حتى لا يستطيع الإتيان بالفعل ولكن البارئ عزوجل جعل هناك نظام الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات للحكمة التي اقتضت بان يجري الأُمور بأسبابها ويأبىٰ أن يجري على خلاف ذلك إلّا فيما يراه مصلحة.

وعليه: فإذا كان الإنسان في مقام الحرب مع الله تعالى ويفعل السوء والعصيان والإجرام. فإنّ الله تعالى يمهله ويعطيه القدرة، وأنّ الأُمور الجارية في الأسباب والمسبّبات تجري كعادتها، ولذلك يقول تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ**﴾ (سورة الأنعام: ٤).

فالإمهال إنّما هو بتوفّر كل الوسائل لهم ولكن حيث أنّ ظلم المجرمين له أثره الوخيم فإنّ أفعالهم السيئة سبب لأخذهم بغتة محزونين مكروبين من شدّة التألّم. وعليه: فإنّ الله تعالى لم يسلب الإنسان إرادته واختياره ولم يجعله مجبوراً على الأفعال بل خلقه مختاراً في أفعاله.

(٣) فإذا اعترف ابن تيمية بأنّ الله سبحانه عدل ولا يجور ولا يؤاخذ إلّا بالذنب الذي فعله

➲ الإنسان باختياره وهو حكيم في أفعاله فلا يجوز ولا يمكن أن ينسب اليه أفعال العباد لأنّ في أفعالهم فعل الشر والظلم إن كان عرضه هذا فهذا حجة داحضة على ابن تيمية وأبناء أهل السنّة من الأشاعرة وغيرهم، حيث ذهبوا الى أنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه كما تقدّم بيانه فراجع.

قال السنّي:

وأمّا من اعتقد أنّ مننه على المؤمنين بالهداية دون الكافرين ظلم منه فهذا جهل لوجهين:

أحدهما: إنّ هذا تفضّل منه كما قال تعالى: ﴿**بَلْ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

فتخصيص هذا بالإيمان، كتخصيص هذا بمزيد علم وقوة وصحة، وحال ومال، قال تعالى: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾[2].

وإذا خص أحد الشخصين بقوة وطبيعة تقتضي طعاماً صالحاً خصّه بما يناسب ذلك من الصحة والعافية... .

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فهو لا يضع العقوبة إلّا في المحل الذي يستحقّها لا يضع العقوبة على محسن أبداً... .

ولهذا يخبر أنّه يعاقب الناس بذنوبهم وإنّ إنعامه عليهم إحسان منه كما في الحديث الصحيح، يقول الله تعالى: «يا عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا، إنّما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثمّ أُوفّيكم إيّاها،

(١) سورة الحجرات: ١٧.

(٢) سورة الزخرف: ٣٢.

فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه».

قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾[١] اي ما أصابك من نعم تحبّها كالبصر والرزق، فالله أنعم بذلك عليك، وما أصابك من نقم تكرهها فبذنوبك وخطاياك. فالحسنات والسيئات أراد بها النعم والمصائب كما قال تعالى: ﴿**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[٢]... ثم ذكّركم آية أُخرى تدل على ذلك.

ثم قال: فأخبر أن ما يصيب به الناس من الخير فهو رحمة منه أحسن بها الى عباده، وما أصابهم من العقوبات فبذنوبهم[٣].

---

(١) سورة النساء: ٧٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٦٨.

(٣) منهاج السنّة ج١: ص١٣٨ـ١٤١.

قلت:

في النسخة المطبوعة من كتاب السنّي ليس سوى ما نقلناه من أوّل الوجهين، والثاني ليس له وجود فيها[١].

وفيه من العجائب ما نشير اليها بوجوه بياناً للحق وتنبيهاً للغفلة وتعليماً للجهلة.

أحدها: ما زعمه من أنّ مننه بالهدى على المؤمنين دون الكافرين تفضّل

---

(١) لا شك أنّ البحث مع الخبير يختلف عن غيره، فلابد من مراعاة الجهات العلمية والعقلية والمعرفية في البحث معه حتى يكون لكلامهم وزناً وأثراً في سوق العقلاء والعلماء لاسيّما إذا كان ذلك الطرف المخاطب من كبار العلماء الذين لهم الخبرة في الصناعة وميدان التحقيق والبحث. كالعلّامة الحلي رحمه الله الذي فاق في العلم والمعرفة والعلوم الإسلاميّة أقرانه وألّف في مختلف المجالات العلمية الكتب بحيث لم يدانيه أحد في ذلك، فمثلاً كتب في العقائد كتباً قيّمةً لو قرأها كل إنسان منصف تمايل التشيّع، ولذلك غضب منه أهل السنّة ومن هذه الجهة اهتمّ ابن تيمية بردّ أحد كتبه وهو كتاب «منهاج الكرامة»، فالبحث مع مثل هذا الإنسان يستدعي مراعاة الجهات العلمية.

فابن تيمية الذي تكفّل للردّ على كتاب «منهاج الكرامة» للعلّامة الحلي (رضوان الله تعالى عليه) لابد له أن يراعي الجهات العلمية وشرائط الحوار ولكنه لم يراعي ذلك فلم يذكر الوجه الثاني في كلامه، فإنّ كل أحد يعرف أنّه لو ذكر انّ في البحث وجوه متعددة لابد من ذكرها فإن لم يذكرها فهو لم يراعي الجهات العلمية لأنّ كل عاقل يعرف من ظاهر الكلام ما يقصده المتكلّم، فإذا خالف ظاهر كلامه فأيّ اعتبار بعد إلى كلامه؟!! والله من وراء القصد. فلاحظ.

منه[١]، فإنّه من عجائبه أنّه سبحانه تفضّل بخلق الخلق جميعهم، وبيّن في فرقانه

(١) قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ ٱللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة ق:١٧).

فقد بيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية المباركة حقيقة الايمان والكفر والخطاب في هذه الآية متوجّه إلى جماعة من الصحابة كما ورد في بعض الروايات الواردة في شأن نزول الآية المباركة، فإنّهم جاؤوا إلى النبي الأكرمﷺ وقالوا له: بأنّا أسلمنا في الوقت الذي حاربك القبائل العربية فالله سبحانه وتعالى يقول في جواب هؤلاء للنبيﷺ: ﴿قُل لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم﴾ والخطاب كما هو ظاهر عتاب وملامة لهم، ثم يقول الباري عزوجل: بأنّه قد مَنّ الله تعالى عليكم ببركة النبيﷺ أن هداكم للإيمان وأرشدكم اليه فالكلّ من مِننه وإحسانه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِن أَحَدٍ أَبَداً﴾ (سورة النور:٢١).

قال بعض المفسّرين: المراد بالفضل والرحمة هما القرآن والنبي الأكرمﷺ ولولاهما ما زكى منكم من أحد أبداً حيث أنّ البشر لا يخلو من حب الجاه والمال ولا يؤمن عليه من الوقوع في الضلال وغلبة الهوىٰ مالم تشمله الهداية الربانية، ولذلك لقّن الله تعالى عباده أن يقولوا في اليوم على أقل التقادير عشر مرات «اهدنا الصراط المستقيم» في صلاتهم فالعبد يطلب من ربه فيها الهداية المختصة بالمؤمنين، تلك الهداية التي فيها تعليم الكتاب ومعرفة الحكمة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾. (سورة آل عمران:١٦٤).

وبذلك نعرف أنّ النعمة التي منّها الله على المؤمنين الصادقين في إيمانهم هي نعمة بعثة الرسول الأعظمﷺ لجميع البشرية.

ونعرف خلال الآيتين أنّ النعمة التي أنعمها الله على البشرية إنّما هي تضمن السعادة الأبدية للإنسان وهي التي جعلها الله تعالى حكمة لخلق الإنسان، ولذلك قال مولانا أميرالمؤمنينعليه السلام في بيان أهمية بعثة الأنبياء: أُنظروا إلى مواقع نِعَم الله عليهم حين بعث اليهم رسولاً فعقد بملّته طاعتهم وجمع على دعوته أُلفتهم، كيف سرت النعمة عليهم جناح كرامتها

العظيم كون الباعث خلقه لهم عبادتهم له بعد معرفته[1]، فما معنى تفضيل بعضهم

➡ وأسالت لهم جداول نعيمها، وألفت الملة بهم في عوائد بركتها فأصبحوا في نعمتها غرقين، وعن خضرة عشها فكهين... (نهج البلاغة ج٢: ص١٥٣ الخطبة رقم١٩٢ المعروفة بـخطبة القاصعة).

فالمستفاد من كلمات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة المباركة هو أنّ الفضل الإلهي له حساب وأنّ نعمته تعالى مبنية على حكمة، ولولا حجج الله جل جلاله على العباد ما خلق الله أرضاً ولا سماءً ولا أحداً في البلاد ولا ناراً ولا جنة للمعاد ولا شيئاً من النعيم والإرقاد.

ولذلك ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ آدم لمّا رأىٰ اسمي واسم أخي علي وابنتي فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام مكتوبة على سرادق العرش بالنور قال: إلهي هل خلقت خلقاً قبلي هو أكرم عليك مني قال تعالى: ﴿لولا هذه الأسماء لما خلقت سماء مبنية ولا أرضاً مدحية ولا ملكاً مقرّباً ولا نبياً مرسلاً ولا خلقتك يا آدم» فقال: إلهي وسيّدي بحقّهم إلاّ غفرت لي خطيئتي... .(شرح أُصول الكافي للشيخ محمدصالح المازندراني ج٤: ص٢٣٢ في الهامش).

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات:٥٦) هذه الآية الكريمة صريحة بأنّ الهدف والغرض من خلق الإنسان العبادة.

من البديهي أنّ الله سبحانه وتعالى غني عن عبادة المخلوقين لأنّ وجوده كامل من كل الجهات، والكامل من كل جهة لا يحتاج إلى شيء فهو غني بالذات.

فبطبيعة الحال أنّ نفع هذه العبادة إنّما هي متوجه للعبد، وهذه الحقيقة يتبيّن لنا من خلال معرفة العبادة حيث أنّه لا شكّ أنّ المراد من العبادة ليس أداء المراسم والمناسك من الركوع والسجود وغير ذلك فقط بل العبادة بمعناها الشمولي التي هي التسليم لأمر الله تعالى، وأن يكون العبد تابعاً لإرادة ربه ومولاه، كما أنّ معنى العبادة لغة هي منتهى الخضوع للمعبود الذي له حق العبادة فالعبادة هي أن يكون الانسان متعلقاً بمولاه وصاحبه من قرنه الى قدمه، وهذا الاتّباع سيهب للإنسان روح المعنوية التي تبعث الإنسان نحو الكمال في الأبعاد المختلفة.

وخلاصه الكلام: إنّ العبادة منهج لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة.

⬅

➲ وهكذا يتضح إنّنا خُلقنا لعبادة الله، لكن المهم أن نعرف الله سبحانه ونعرف أنفسنا ليتبيّن لنا حقيقة هذه العبادة ولنعرف الهدف من خلق الإنسان، فإنّ بملاحظة عدة مقدمات يمكن أن نسلّط الضوء على هدفنا لكشف هذا المجهول:

١ـ نحن دائماً نقصد في أعمالنا إلى هدف ما، وعادة يكون هذا الهدف إشباع حاجة ورفعها وإتمام النواقص وحتى الخدمة للآخرين أو إنقاذ مبتلى من بلائه، ولو قمنا بعمل إنساني وآثرنا على أنفسنا، فذلك أيضاً نوع من الحاجات المقدسة وبرفعها نزداد معنوية وكمالاً.

ولما كنا نقيس أحياناً صفات الله مع أنفسنا فقد يخطرمثل هذا التصوّر وهو: ماهي الحاجة عند الله حتى ترفع بخلقنا؟ أو اذا كانت الآيات الآنفة تقول: «وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدوني».

فنقول: ما هي حاجته الى العبادة؟ مع أنّ هذه التصوّرات ناشئة من المقايسة بين صفات الخالق والمخلوق والواجب والممكن.

وحيث أنّ وجودنا محدود فإنّنا نسعى وراء إشباع حاجاتنا وأعمالنا جميعها نفع في هذا المسير، إلّا أنّ هذا غير وارد في وجود مطلق، فينبغي البحث عن هدف أفعاله في غير وجوده، فهو عين فيّاضة ومبدأ النعمة الذي يكتنف الموجودات في كنف حمايته ورعايته وإنمائه والمملوك بها إلى الكمال، وهذا هو الهدف الواقعي لعبوديتنا، وهذه فلسفة عبادتنا وابتهالاتنا، فهي جميعاً دروس تربوية لتكاملنا.

وأساساً فإنّ الخلق هو خطوة تكاملية عظيمة، أي مجيء الشيء من العدم إلى الوجود، ومن الصفر إلى مرحلة العدد، وبعد هذه الخطوة التكاملية العظيمة تبدأ مراحل تكاملية أُخرىٰ، فجميع المناهج الدينية والإلهية تملك بالإنسان هذا المسير.

٢ـ وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: إذا كان الهدف من الخلق هو الجود ـ على العباد ـ من المعبود لا النفع للخالق، وهذا الجود يتمثّل في تكامل الناس، فلِمَ لم يخلق الله (الجواد الكريم) العباد كاملين من البداية ليكونوا في جواره وقربه وأن يتمتعوا ببركات قربه وجوار ذاته المقدّسة؟

والجواب على هذا السؤال واضح إذ تكامل الإنسان ليس أمراً يمكن خلقه بالإجبار، بل هو طريق طويل مديد وعلى الناس أن يسيروه ويجوبوه ويقطعوه بإرادتهم وتصميمهم وأفعالهم ➲

الاختيارية.

فمثلاً: لو أخذ مال باهظ قسراً من أحد لبناء مستشفىٰ. فهل لهذا العمل من أثر تكاملي روحي وأخلاقي في نفسه؟ قطعاً لايكون كذلك، لكن لو أعطى بمحض إرادته ورغبته وميله النفسي ولو درهماً واحداً لهذا الهدف المقدّس فإنّه يخطو في طريق التكامل الأخلاقي والروحي بتلك النسبة التي ساهم فيها.

ويستفاد من هذا الكلام: أنّ على الله أن يبيّن لنا هذا المسير بأوامره وتكاليفه ومناهجه التربوية بواسطة أنبيائه وأصفيائه والعقل ليتم الإبلاغ بذلك فنعرف هذا المسير التكاملي ونطويه باختيارنا وإرادتنا.

٣ـ وينقدح هنا سؤال آخر وهو: أنّ كل هذا حسن فالهدف من خلقنا هو التكامل الإنساني، أو بتعبير آخر: القرب من الله وحركة الوجود الناقص نحو الوجود الكامل الذي لا نهاية له إلّا أنّه ما الهدف من هذا التكامل؟

والجواب يتضح بهذه الجملة أيضاً وهو: أنّ التكامل هو الهدف النهائي أو بتعبير آخر هو «غاية الغايات».

وتوضيح ذلك: أنّه لو سألنا طالب المدرسة عَلامَ تدرس؟ فتراه سوف يجيب بأنّه حتى أدخل الجامعة.

ولو سألناه مرة ثانية: ما تستفيد من الجامعة؟ سوف تراه يقول: سأكون طبيباً أو مهندساً جديراً. فتقول له: ما تصنع بشهادة الدكتوراه أو الهندسة؟ فيقول: لأبرز نشاطاتي وفعالياتي الإيجابية المثبتة ولكي يكون ربح وفير، فتقول له: ما تصنع بالربح الوفير؟ فيقول: لتكون حياتي منعّمة وأعيش مكرّماً ومرفّهاً.

وأخيراً نوجّه اليه هذا السؤال وهو أنّه: لِمَ تريد الحياة المنعّمة؟

وهنا تراه يجيب بلحنٍ آخر فيقول: حسن لتكون حياتي منعّمة وأعيش مكرّماً ومرفّهاً عَلَيَّ، أي أنّه يكرّر جواب السؤال السابق.

وهذا دليل على أنّ ذاك الجواب جواب نهائي وكما يصطلح عليه بأنّه «غاية الغايات» لعلمه بأنّه ليس ورائه جواب آخر وأنّه هو الهدف النهائي.

على بعض بالمِنّة على بعضهم بالهدى دون بعض؟!!![١]

⬅ كل هذا هو في المسائل المادية وهكذا الحال في الحياة المعنوية، فحين يسأل عَلامَ مجيء الأنبياء ونزول الكتب من السماء، ولِمَ هذه التكاليف الشرعية والمناهج التربوية؟ فيجيب: للتكامل الإنساني والقرب من الله.

وإذا سألوا منه: ما المراد من التكامل الإنساني والقرب من الله؟ يقول: هو القرب من الله أي أنّ هذا هو الهدف والقرب من الله، وأمّا القرب من الله فلنفسه أي لقرب من الله.

ومن هنا نعلم أنّ الهدف من خلق الإنسان هو القرب الى الله وهذا القرب يحصل بعمل العبد وعبادته وهو العبادة والهدف منه الوصول الى الله سبحانه، وكل ذلك يكون باختيار الإنسان لا بالإجبار، فلاحظ.

(١) فإنّ معنى أنّ الله أراد هداية بعض عباده دون الآخرين هو أنّ الله تبارك وتعالى قد أتمّ نعمه المعنوية والمادية لجميع العباد، ولكن حيث أنّ بعض الناس اهتدوا عرفوا قدر النعمة الإلهية فشملهم هذه النعمة الإلهية دون الذين أعرضوا عن ذلك فإنّهم حيث لم يعرفوا قدر نعمة الهداية لم تشملهم النعمة الإلهية بسبب إعراضهم اختياراً عن هداية الله فهم في زمرة من لم يرد الله أن يهديهم. إذن إنّ الهداية الإلٰهية نعمة ربّانية فمن قبلها دخل في الهداية التي جعلها للمؤمنين الصالحين ولم يدخل في هذا الحصن الحصين فهو غير مشمول للعناية الربّانيّة فالهداية إنّما هي الهداية الاختيارية لا الجبرية، والهداية الاختيارية هي الهداية التي تعمّ لكل إنسان أولاً وبالذات ثم يختارها بعض الناس فتشملهم الرحمة ورضوان الله تعالى.

وأمّا الذين لم يختاروا الإيمان ولم يدخلوا في زمرة المؤمنين فلا تشملهم هذه النعمة العظيمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الإنسان:٣) فالإنسان بإرادته واختياره يدخل في الإيمان، والكافر بإرادته واختياره يرفض الإيمان.

وما ذكره ابن تيمية من معنى «لو شاء الله لهداكم» باطل لأنّ ذلك بعيد عن إنسان عادي كأب بالنسبة إلى بعض أولاده ويكون خلافاً للعدل والعقل إذ يتوجّه إليه السؤال وهو أنّه: لماذا حرمان البعض من الهداية، أليس أنّ النعمة هي التي تقسّم بين الجميع بالسوية ولماذا الفرق بين الأفراد؟

ثمّ إنّ الهداية الاختيارية هي الهداية التي تدعو الكل إلى الاهتداء، فإذا كانت الهداية متوجّهة إلى ⬅

وقد كتب على نفسه الرحمة[1]، فلِمَ لم يجعل الشيء في موضعه وهـو

⟵ بعض خاص دون الآخرين فمعناها أنّ الهداية هي الهداية الجبرية في حين أنّ المراد مـن الهداية هي الهداية باختيار الناس وهذه تكون نعمة قد منّها الله على الناس بإرسال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

(فالآية الكريمة: وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ...﴾ تدل على أنّ المِـنّة لبعثة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إذ بواسطة هذه النعمة العظيمة أنّ الله هدى النـاس، فـحيث أنّ جماعة من الناس اقتدوا برسول الله واهتدوا فصاروا من الشاكرين لتقديرهم هذه النعمة، وأمّا جماعة اخرىٰ لم يؤمنوا به فصاروا من جملة الكافرين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الانسان:٣).

وعلى هذا، فإنّ الآية الكريمة تؤكّد على حرية إرادة الإنسان ونفي مذهب الجبر، وتدلّ على أنّ الاختيار النهائي هو بيد الإنسان.

ثم إنّه جاءت الآية التالية لتنفي مذهب التفويض فتقول: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللهُ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (سورة الإنسان:٣٠).

وهذه الحقيقة إثبات لأصل انفرد به الشيعة الإمامية هو القول: بالأمر بين الأمرين، الذي ذكـره أئمة أهل البيت عليهم السلام وتبيّن من خلال ما تقدّم أنّ ما ذكره أئمة أهل البـيت عليهم السلام فـي هـذا المجال أصله من القرآن الكريم، فأخذها الشيعة من القرآن الكريم ومن أئمة أهل البيت عليهم السلام. فلاحظ.

(١) قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ...﴾ (سورة الأنعام:١٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَـأَنَّهُ غَـفُورٌ رَحِـيمٌ﴾ (سـورة الأنعام:٥٤).

فإنّه سبحانه وتعالى قد بيّن في هذين الآيتين بأنّه وحده مصدر كل رحمة وهو الذي أوجب على نفسه الرحمة والإفاضة على الجميع. فالكتابة كناية عـن الإلزام والتـعهّد، إذ أنّ مـن نـتائج الكتابة توكيد الأمر وثبوته، فالكتابة هنا هو الإثبات والقضاء الحتم فإنّه تعالى قـد وصـف ⟵

➲ نفسه بصفة الرحمة وهي إفاضة النعمة على مستحقّها ورفع حاجة كل محتاج وإيصال الشيء إلى السعادة التي تليق به.

فبمقتضى ملكه ورحمته يفيض على عباده النِعم ومن أهم النِعم هي نعمة الهداية. وأية نعمة أعظم من هذه النعمة ونعني من هذه النعمة هي هداية الأفراد اللائقين للانتفاع بنتائج أعمالهم الصالحة في العالم الآخرة، وهي هداية تختص بالمؤمنين الصالحين، ويقول القرآن الكريم: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (سورة العنكبوت:٦٩).

هذه الآية جاءت بعد ذكر تضحية الشهداء في سبيل الله، وأوضحت بأنّ هذا النوع من الهداية ترتبط بتمتّع هؤلاء بثمار أعمالهم بسبب هدايتهم إلى الصراط المستقيم وإنقاذهم من الضلالات ونجاتهم من المتاهات، فإنّ هذه النعمة العظيمة والموهبة الكبيرة من الله حيث أرشدهم نحو الهداية بواسطة رسله، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً...﴾ (سورة آل عمران:١٦٤).

ثم إنّه ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ روايات كثيرة:

منها: ما رواه العيّاشي في تفسيره عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: رحم الله عبداً تاب الله قبل الموت، فإنّ التوبة مطهرة من دنس الخطيئة ومنقذة من شقاء الهلكة، فرض الله على نفسه لعباده الصالحين، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام: ٥٤)، ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله توّاباً رحيماً (تفسير العياشي ج١: ص٣٦١).

وفي تفسير ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لمّا خلق الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه، فهو مرفوع فوق العرش: إنّ رحمتي تغلب غضبي (تفسير ابن أبي حاتم ج٤: ص١٣٦٨) والى غير ذلك من الروايات الواردة في تفسير الآيتين، فإنها صريحة بأنّ الله تعالىٰ تفضّل على عامة العباد بالرحمة والهدىٰ والتوبة و... .

وليس هذا التفضّل لجماعة خاصة ممن اهتدى وسلك طريق الحق، فإنّ رحمة الله واسعة لجميع الخلق إلّا أنّ بعض الناس باختيارهم لم يؤمنوا بالله ولم يدخلوا في الطريق الحق فلا تشملهم تلك النعمة العظمىٰ التي كانت لجميع البشر، وحيث أنّ الكفار لم يستأثروا بآثارها فلم ➲

التفضل على عامة العباد بالهدىٰ لما عرفته من كون الباعث لخلقه لهم معرفتهم به وعبادتهم له، فلِمَ خصّهما ببعض دون بعض ولم يجعل الشيء في موضعه[١].

تشملهم هذه النعمة وبقوا في ضلالهم فالضلال يبعد الإنسان عن هذه النعمة لأنّ الضلال يمنع الإنسان من التمييز بين الحق والباطل والخطأ والصواب، ولكن الإنسان لو رجع الى نفسه وتأمّل أدنى تأمّل تمتع لا أقل من الإدراك والشعور نحو هذه النعمة العظيمة، ثم يلتحق بالهداية نحو الحق الذي تمسك المؤمنون بها. فلاحظ.

(١) لأنّه ظهر من الآية المباركة وهي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام:١٢) وغيرها من الآيات أنّه تعالى يريد الهداية العامة الشاملة لكل شيء بصورة موسّعة من الأحياء والجمادات وغيرهما، وهي إيصال كل شيء إلى كماله وقد أودع في كل شيء ما يناسب من الآلات والمعدّات للوصول إلى ذلك الهدف، فقال في كتابه العزيز: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (سورة طه:٥١).

وأيضاً يريد الهداية للإنسان بصورة خاصة، وأنّ حقيقة الهداية في الإنسان هي إراءة الطريق الموصل الى المطلوب فإنّه تعالى قد أرشد الإنسان نحو الطريق الذي يضمن سعادته في الحياة الدنيوية والحياة الخالدة الأُخروية بالتبليغ، وبيان الحقائق بواسطة الأنبياء والرسل وأوصيائهم عليهم السلام للوصول الى تلك الهداية التي تشمل سلامة الفرد والمجتمع، والروح والجسد والعائلة والسلامة الأخلاقية، وكل هذه الأُمور لها طرق خاصة وهي من مستلزمات الهداية، وقد وضعها الله تعالى أمام الإنسان بالقدر الكافي، فالإنسان هو الذي ينتخب باختياره الطريق الصحيح الذي يوصله إلى الهداية، ولذلك إنّ الله سبحانه وتعالى يقول عن لسان نبيه: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (سورة الأنعام:٦٦) فإنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يقول لهم في هذه الآية المباركة: إنّ الأمر يعود اليكم فأنتم الذين يجب أن تتخذوا القرار النهائي في قبول الحقيقة أو ردّها، فما أنا إلّا رسول أُبلّغ رسالة الله.

وفي الآية التالية قد بيّن تبارك وتعالى هذه الحقيقة بصورة واضحة ولكن بعبارة قصيرة وهي قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٦٧). أي إنّ كل خبر أخبركم به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الدنيا أو في الآخرة موضع ومقر وسوف يتحقّق في موعده المقرّر، وعندئذٍ ستعرفون ذلك.

وبعبارة: هي بلسان الخصم لِمَ خلق الهدى في بعض، وخلق الكفر في بعضهم بعد خلقه لهم جميعاً للهدى، ومعه يعذّبهم على ما خلقه فيهم من الكفر فهو سبحانه لم يجعل الشيء الذي هو الهدى في موضعه وعاقب الكفرة والعصاة بدون ذنب صدر منهم[1].

وفي آية أُخرىٰ يقول الله تعالى لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ ٱلْـهُدَىٰ وَأُمِـرْنَا لِـنُسْلِمَ لِـرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الانعام:٧١).

وهذا دليل آخر لأنّ الهداية هي إراءة الطريق حيث أنّه يأمـر سـبحانه بـالتسليم أمـام الأوامـر الصادرة عنه سبحانه، فهذه الآيات تكشف عن البرنامج الذي يدعو اليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من التوحيد والمعاد والارتباط مع الله والاتقاء من كل ذنب و... .

(١) فإنّ وضع الشيء في محله يمثّل العدل وهو الحكمة والمصلحة والوصول إلى هو الحق في المكافاة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما أنّ وضع الشيء في غير محله يمثّل الظلم، ومن هنا ذكروا أنّ الحكمة هي عبارة عن وضع الشيء في محله.

قال المناوي في شرح لفظ «الحكمة» أنّه قال القاضي: هي اشتغال النفس الإنسـانية بـاقتباس النظريات وكسب الملكة التامة، والمداومة على الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية.

وقال بعض المحقّقين: الحكمة العلم بالأشياء كما هي، والعمل بها كما ينبغي.

وقال ابن حجر أخذاً من كلام النووي: والمراد بها: العلم المشتمل على المعرفة بالله، وقال فـي موضعٍ آخر: أصحّ ما قيل فيها أنّها: وضع الشيء في محله... (أُنظر: فيض القدير في شـرح الجامع الصغير ج١: ص١٢٣).

وقال الزركشي:... ووجب أن يوصف (الله) بالحكيم أيضاً لأنّ الحكيم من يضع الشيء في محله، فالله تعالى كذلك... (البرهان للزركشي ج١: ص٨٩).

وقال الشربيني: وسُمّي القضاء حكماً لما فيه من الحكمة التي توجب وضع الشيء فـي مـحله لكونه يكفّ الظلم عن الظلمة... (مغني المحتاج ج٤:ص٣٧٢).

وقال ابن حجر: وأصح ما قيل في الحكـمة: أنّـها وضـع الشـيء فـي مـحله... (فـتح البـاري ج٧:ص١٥٧).

➲ وقال المناوي أيضاً: والعدل: وضع الشيء في محله اللائق به شرعاً وعرفاً، وهو يشمل كل فعل جميل جناني ولساني... (فيض القدير ج٤:ص٤٩٧).

فالعدل والحكمة قد عرّفا بوضع الشيء في محلّه، ومن هنا يصح أن نقول: إنّ قوام الدين بالعدل والحكمة حيث أنّ الإسلام قد وضع كل شيء في محله، فلا يكون شيئاً في الدين خارج عن إطارهما ولذلك فإنّ القرآن الكريم عبّر عن منزلة الأمانة بالعهد الذي لا ينال الظالمين فقال الباري عزوجل: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٢٤).

فالمقصود بالظلم ما يقابل العدل وقد استعمل هنا بالمعنى الواسع له حيث أنّ الظلم هو النقطة المقابلة للعدل: الذي هو وضع الشيء في محله، فالظلم إذن وضع الشيء في غير مكانه المناسب له، وحيث كانت منزلة الإمامة والقيادة الإلهية ذات مسؤوليات جسيمة هائلة عظيمة فإنّ لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسبّب سلب هذه المنزلة واللياقة عن الشخص، ولذلك ترىٰ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يثبتون بهذه الآية الكريمة الإمامة والخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكانوا يستدلّون بالآية الكريمة الإمامة للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث أنّه عليه السلام لم يسجد لصنم قط. فالآية تدل على انّ من عبدالصنم ولو في لحظة واحدة من حياته لا يليق بهذا المقام العظيم لأنّ من ارتكب الذنب فهو يعد من الظالمين، وأيّ ذنب أكبر من عبادة الأصنام؟!! (أُنظر: أُصول الكافي ج١:ص١٧٥ح١ باب طبقات الأنبياء والرسل، ح١ والأمالي للشيخ الطوسي: ص٣٧٩ وشواهد التنزيل ج١:ص٤١٢).

فإذا كانت الحكمة والعدل بمعنى وضع الشيء في محله فالهداية أيضاً تكون كذلك فهي وضع الشيء في محله حيث أنّها تشمل القضايا الحقّة المطابقة للواقع من حيث اشتمالها للسعادة الإنسانية، والحياة الطيّبة التي لا ينالها الإنسان بدونها كما أنها أساس النجاح والفلاح في عالم الآخرة، وكل ذلك يحصل بانتخاب الإنسان واختياره الأعمال الصالحة في هذه الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللهُ ٱلظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللهُ مَا يَشَاءُ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٧).

فالمخلصون الثابتون في الإيمان الذين لا تزلّ أقدامهم لوساوس الشياطين إنّما هم أهل الهداية والإيمان باختيارهم وبألطاف الباري عزوجل في إراءة الطريق لا أنّ الله تعالى أجبرهم على ➲

فالعقوبة قد صارت في غير موضعها، فثبت الظلم بالعلم دون الجهل حسبما زعمه السنّي[1].

➲ الهداية فصاروا في زمرة المهتدين إذ لو كان الله تعالى يهديهم جبراً ويضلّ الآخرين جبراً كان هو السبب في الهداية والضلالة فلا معنى لتعذيبهم عندئذٍ.

نعم إنّ الله سبحانه وتعالى قد مَنَّ على المؤمنين بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب ليهتدوا بهدىٰ الله، فمن اهتدىٰ فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل (سورة يونس:١٠٨).

فالهداية إنّما هي بإراءة الطريق من الله سبحانه، فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه حيث أن كلّ إنسان قادر على الفعل والترك فهو المهتدي ومن لم يتخذ طريق الهدىٰ فهو في الضلالة والخسران. فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: إنّ ما زعمه ابن تيمية من أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم أزلاً أفعال العباد ومع ذلك أنّه خالق لأفعالهم خيراً وشراً، أي أنّه خالق لظلم العباد وعصيانهم مع علمه سبحانه بها أزلاً. وهذا أمر باطل بلا ريب وبطلان ما زعمه ثابت بالأدلة القطعية من الكتاب والسنّة والعقل، أمّا الكتاب فيدلّ على بطلان زعمه آيات من القرآن الكريم:

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (سورة النساء: ٤٠).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلاَ يِظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (سورة الكهف:٤٩).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ (سورة غافر:٣١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً﴾ (سورة يونس:٤٤).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصّلت: ٤٦).

وقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران:٢٥).

والى غير ذلك من الآيات.

فدلالة هذه الآيات على المقام واضحة ظاهرة لأنّ هذه الآيات وغيرها تدلّ بالصراحة على انّ الله تعالى لايصدر منه الظلم ولو بمقدار ذرة مطلقاً كيف ينسب ذلك ابن تيمية إلى الله عزّوجلّ؟!!! كما أنّ دلالة الروايات الكثيرة الواردة في تفسير هذه الآيات وغيرها مما ورد عن الفريقين واضحة أيضاً، فيكفي للباحث الرجوع إلى الآيات المذكورة وإلى تفسيرها ➲

وقد عرفت فيما مضى عدم الفرق في مننه من حيث الهدى، بل هي متساوية بالنسبة الى جميع الخلق[1].

والروايات الواردة في تفسير أهل السنّة وتفاسير أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام فإنّ فيه غنى عن الذكر فلا نطيل الكلام فيها إذ لا مجال في هذا المختصر للاستقصاء الكامل.

مضافاً الى العقل فإنّه يحكم بوضوح بالعدل الإلهي لأنّ العدل صفة كمال والظلم صفة نقص فالعقل يحكم بأنّ الله الذي هو مستجمع لجميع صفات الكمال ومنزّه عن كل عيب ونقص لابد أن يكون عادلاً ومنزهاً عن الظلم، فالظلم نقص وذاته تعالى منزّه منه، وأساساً أنّ الظلم تابع لأحد العوامل الثلاثة:

١ـ جهل الفاعل بقبح الظلم.

٢ـ احتياج الفاعل للظلم إلى الظلم مع علمه بقبحه وعجزه عن القيام بالعدل.

٣ـ كون فاعل الظلم سفيهاً غير حكيم فهو لا يبالي بإتيان الأفعال الظالمة رغم علمه بقبحها، ورغم قدرته على القيام بالعدل ومن البديهي أنّه لا سبيل لأيّ واحد من هذه العوامل الى ذات الإلهية المقدّسة، فهو تعالى منزّه عن الجهل والعجز، وعن الاحتياج والسفه، ولهذا فإنّ جميع أفعاله تصدر منه بالعدل والحكمة.

وقد صرّح علماء الشيعة الإمامية في كتبهم بالأدلة الأربعة على أنّه تعالى عدل حكيم لا يصدر منه الظلم.

قال الشيخ الصدوق رحمه الله في كتاب التوحيد: والدليل على أنّه لا يقع منه عزوجل الظلم ولا يفعله أنه قد ثبت أنّه تعالى قديم غني عالم لا يجهل، والظلم لا يقع إلّا من جاهل بقبحه أو محتاج إلى فعله منتفع به (التوحيد للصدوق: ص٣٩٦ـ٣٩٧).

وقال المحقّق الطوسي في كشف المراد: واستغنائه وعلمه يدلان على انتفاء القبح عن أفعاله تعالى (كشف المراد للمحقق نصير الدين الطوسي: ص٣٠٥) والى غير ذلك من كلماتهم، فالظلم والجور منفيان عنه سبحانه وتعالى.

(١) فإنّ الله تعالى قد مَنّ على جميع الناس بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتبيين الآيات والدلائل والبراهين وارائة الطريق بدين الحق وما تضمنه الشرائع. بالحجج البالغة والأدلة الواضحة والنور والصراط المستقيم ليستضيء الناس بنور الهدىٰ ويخرجوا من ظلمات الجهل

ومن هذه الجهة بعث رسله بآياته الى جميعهم مساوياً بينهم فيها[١]، فعلم

والضلالة إلى نور الهداية، وكل ذلك لطف وتفضّل من الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ (سورة البقرة:٢٤٣).

فإنّ هداية الأنبياء وموعظة الهادين المرسلين والمنصوبين من قبل الله سبحانه والكتب السماوية والقوانين الإلهية إنّما هي لهداية جميع الناس بلا استثناء. وإن كان أكثر الناس لا يشكرون هذه النِعم الإلهية، بل يكفرون بها ويحرمون أنفسهم منها ويستبدلون النعمة بالنقمة والهداية بالضلالة، فبدل أن يتبعون الدلائل الواضحة يتبعون الانحرافات والأوهام التي يجلّ عنها الألفاظ.

وقد بيّن تبارك وتعالى في القرآن الكريم حقيقة انّه يعلم أزلاً ما يحتاج اليه البشر للوصول الى قمّة التكامل وإلى الصراط المستقيم فقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شَهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِي ٱلسَّماءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة يونس: ٦١).

فبيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بأنّه أنعم على جميع الخلائق حسب علمه الأزلي رغم أنّه يعلم بأنّ الناس والمخلوقين أكثرهم غير شاكرين فأنعم عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، أمّا النعمة الظاهرة فهي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من الله عزوجل من توحيد الله وولاية المعصومين عليهم السلام وهي النعمة العظمى التي قد قال تعالى في بيانها: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (سورة المائدة: ٦٧) وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (سورة المائدة: ٣) فالنعمة في هذه الآية الكريمة هي النعمة الولاية كما جاء في الروايات الواردة في تفسيرها فانّه قد وردت في مصادر المسلمين من الشيعة وأهل السنة ما هو بالغ عن حدّ التواتر في أنّ هذه الآية المباركة نزلت في غديرخم بعد تنصيب الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وسنذكرها ان شاء الله في محلّه، وأمّا النعمة الباطنة فهي العقل.

(١) فإنّه تعالى قد بعث أنبيائه ورسله مبشرين ومنذرين إلى جميع الناس ليبشّروهم برحمة

عدم إنصاف السنّي هنا من جهتين:

➲ رب العالمين وثوابه وينذروهم عن عقابه وعذابه ليتم الحجة عليهم جميعاً، كما قال الله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (سورة النساء:١٦٥).

فقد أحكم تعالى خطة إرسال الأنبياء ونفّذها بكلّ دقّة وأكّد بأنّ هذه الدعوة مبتنية على الحكمة والمصلحة القصوىٰ.

فالهدف من بعث الأنبياء إيصال الدعوة الإلهية إلى الأسماع في قاطبة الأصقاع وعلى رؤوس الأشهاد، وتأكيداً لهذه الحقيقة جعل لكل قوم هاد، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (سورة الرعد:٧) فلو أنّ الأقوام والأمم اتّبعت الأنبياء وتخلّت عن أهوائها ورغباتها الشخصية لما بقي أثر لأيّ خرافة وانحراف أبداً.

ولولا بعث الأنبياء والرسل لخسر الناس الدنيا والآخرة كما خسرها أُولئك الذين ابتعدوا عن نهج الأنبياء إذ لو دقّقنا النظر في أهداف الأنبياء لوجدنا أنّهم أُرسلوا من أجل هداية الناس وسعادتهم الأبدية، فجهد الأنبياء كانت تلخّص في الأُمور التالية:

١ـ التعليم والتربية كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ...﴾ (سورة الجمعة:٢).

٢ـ إكمال القيم الأخلاقية كما ورد في الحديث المعروف: إنّما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق (بحارالأنوار ج١٦: ص٢١٠، ومجمع الزوائد ج٩: ص١٥، ومكارم الأخلاق لابن أبي الدينا: ص٦ وغيرها).

٣ـ إقامة القسط والعدل الذي أشار اليه القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ (سورة المجادلة:٢٥).

والى هنا يمكن أن نلخّص أهداف بعثة الأنبياء في الأُمور التالية:

١ـ الثقافة الصحيحة الفكرية للمجتمع.

٢ـ الأخلاق والآداب والصفات الحميدة.

٣ـ الأهداف السياسية لاستقرار كلمة التوحيد.

٤ـ الأهداف الاجتماعية والقيام بالوظائف الإنسانية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (سورة الطلاق:٣).

من جهة جعله المؤمنين والكافرين مختلفين في مِنّة الله عليهم بالهدىٰ[١].

ومن جهة حكمه بجهل من قال بأنّ تفضّله سبحانه بالزيادة على المؤمنين وحدهم ظلم[٢].

---

(١) أي بناءً على زعم ابن تيمية وأتباعه أنّ الله تعالى لم يهد الناس جميعاً وإنّما هدىٰ بعضهم فأخذ بيد البعض وهداهم وترك الآخرين فلم يعتني بهم.

أقول: إنّ بطلان هذا الزعم لا يخفىٰ على عاقل فضلاً عن عالم يعرف الكتاب والسنّة النبويّة فإنّ من رجع إلى القرآن الكريم يجد أنّ الله تعالى قد أتمّ نعمته على جميع الخلائق بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الأولياء وتشريح الشرائع والأحكام، وأكمل لهم دينهم الذي ارتضى لهم وجعل الإسلام ديناً ختامياً لكل البشرية، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (سورة المائدة:٣٠).

فهذه النِعم الإلهية شاملة لجميع البشر غير أنّ المعاندين والكافرين والمخالفين ابتعدوا أنفسهم من هذه النعمة العظيمة كالمريض الذي لا يريد علاج نفسه أو لا يعرف علاجه وهو يحتاج إلى من يعالجه ويعطيه الدواء في علاجه، فإنّ الطبيب الذي جاء لعلاج جميع المرضىٰ فهو كأب شفيق يعرف الطبابة ويأتي فوق رأس أبنائه ليعالجهم من الأمراض والآفات، ولكن المريض يهرب من الطبيب والتداوي فلم تحصل لديه السلامة والعافية، فالمعاند والمخالف أيضاً كذلك فهو يكفر بنعمة الله ويعرض عن السعادة والنجاة.

وعليه: فإنّ المؤمن والكافر مساويان في المِنّة التي مَنّ الله عليهم من أسباب الهداية، كما صرّح به الله تعالى في كثير من الآيات القرآنية:

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الإنسان: ٣). وغيرها من الآيات ولكن الإنسان ظلوم كفور. فلاحظ.

(٢) فإنّه من الواضح لدى الخبير أنّ زيادة اللطف والرحمة بالنسبة إلى طائفة دون الأُخرىٰ بلا سبب وبلا جهة ظلم محض لأنّ تقديم البعض على الآخر بلا سبب ترجيح بلا مرجّح وهو قبيح عقلاً لا يصدر من العاقل كيف بالحكيم الإطلاق، بل أنّ الرحمة واللطف من الله تبارك وتعالى يكون على نحو سواء، وإنّما الأمر هنا في أنّ القابلية والاستعداد تلعب دورها في ←

➲ تقرير مصير الإنسانية، وإذا أردنا أن نمثّل له في الأُمور الطبيعية نقول: إنّ المطر رحمة إلهية وهذه الرحمة الالهية تنزل على الأراضي الزراعـية والأراضـي المـالحة فـتأثر فـي زراعـة الأراضي الزراعية دون الآخر أي إنّ هذه القابلية واللياقة موجودة في كل قطرات المطر، فهي منشأ الخير والبركة والنمو والحياة ولكن من المسلّم أنّ هذه الرحمة لا تظهر إلّا في الأراضي المستعدة.

وعلى هذا فيصحّ قولنا إذا قلنا: أنّ جميع القطرات أساس الرحمة كما يصح قولنا: إنّ هذه القطرات لها قابلية والاستعداد في مرحلة الاقتضاء والقابلية، ثم انتاج ذلك إنّما يكون فـي مـرحـلة الوجود والفعل بمعنى وجود الاستعداد والقابلية لتحقّق تلك النتيجة، فإذا انسلبت القابلية من البعض انّما ذلك من أجل عدم وجود الاستعداد فيه وفي المقام انّ الأمر كذلك فـان سـلب قابلية الهداية عن أحد إنّما هو بسبب فعل نفسه لا أنّ هذه القابلية لم يـعط له جـبراً، فـإنّ الاقتضاء موجود على كل حال ولكن الفاعل لابد له من تمامية الفاعلية ومـحل الانـفعال والقابلية كما هو واضح لدى الخبير.

وعلى هذا، فإنّ الله تبارك وتعالى قد وسعت رحمته لجميع الخلائق على نحو السوية فإنّ اللطف والعناية الاقتضائية منه شاملة لجميع البشر، وأمّا من له الاستعداد والقابلية لقبول هذه الرحمة وهذا اللطف الإلهي فقد تتحقّق لديه هذه النعمة بصورة واضحة وتكون بالنسبة إليـه فـعلياً، ولذلك قال تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ**﴾ (سورة الرعد: ١٨).

والوجه في ذلك واضح ظاهر إذ أنّ الله تعالى قد هيّأ لجميع الناس أسباب الخير والهداية والسعادة ولم يترك في هذه الجهة شيئاً من المقدّمات كإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الأولياء، وتشريع الأحكام وغير ذلك، فجميع الناس بالنسبة إلى هذه الرحمة الإلهية على حدّ سـواء ليس لأحد فيه مزية على الآخر.

ثم بعد ذلك من استجاب لربه وأطاع الأوامر الإلهية يدخل في زمرة المؤمنين الذين مَنّ الله عليهم بالهداية فهو باختياره يصل إلى هذه المرحلة، كما أنّ الطالب عندما يدرس في المدرسة فإنّ درجة شهادته تكون على قدر اجتهاده في تحصيل العلم والتعليم، فكما كان الطالب المجد ➲

وثانيها: ما ذكره السنّي من آية ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾[(١)].

➲ يتحصّل الشهادة العليا في الدراسة كذلك المؤمن في المقام، فإنّ من جدّ في طريق الحق وسعىٰ في السير إلى الصراط المستقيم فسوف يصل إلى نتيجة إيمانه وعمله الصالح. فلاحظ.

(١) قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة الحجرات: ١٧).

هذه الآية الكريمة تبيّن لنا المعيار الأساسي في النظام العقدي والقِيم الإنسانية السامية عند الله سبحانه وتعالى، حيث أنّ الله تعالى يؤكّد على أنّ الإيمان النافذ في أعمال القلوب يختلف اختلافاً جوهرياً مع الإسلام الظاهري حيث من شهد الشهادتين لساناً فهو في زمرة المسلمين وتجري عليه أحكام الإسلام.

وأمّا الإيمان الحقيقي فهو أمر واقعي باطني ومكانه قلب الإنسان، ولذلك نجد في سورة الحجرات الآية: ١٤ قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ـ الى أن قال ـ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾. هذه الآيات تفيد:

أولاً: إنّ الإسلام هو التسليم للدين بحسب الظاهر ولكن الإيمان أمر قلبي.

وثانياً: إنّ الإيمان الذي هو أمر قلبي وإذعان باطني بحيث يلزم أن يترتب عليه العمل بالجوارح والآثار المرتبة عليه، فإذا لم تتحقّق تلك الآثار فلا معنى لتحقّق الإيمان.

ويؤكّد تعالى في هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، فإنّ الله تعالى قد جعل المعيار فيها أيضاً الإيمان بالله لا الإسلام الظاهري الذي يتحقق باللسان والشهادة الظاهرية، فإنّ حقيقة الإيمان هو الاعتقاد الحقيقي الذي يكون ميزاناً للمسلم الواقعي والصادق في إيمانه بالله ورسوله.

ومن هنا نعرف أنّ ما جاءت من القبائل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: بأنّا أسلمنا وغيرنا حاربك فقاموا يكلمون بكلمات تظهر منها المِنّة على الله ورسوله وتبيّن من ذلك أنّهم لم يؤمنوا حقاً.

ولذلك قال سبحانه في جوابهم: ﴿قُل لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم﴾ (أي الإسلام الظاهري) ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (فإن الدعوة من الله إلى الإيمان الواقعي) ويشهد لذلك قوله ➲

ومن خبر الصحيح[١] محتجّاً بهما على زيادة تفضّله سبحانه على المؤمنين

تعالى في سورة إبراهيم حيث قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ...﴾ (سورة إبراهيم:١١) فإنّ الموهبة الإلهية هي إيجاد المقتضي لتحقيق الإيمان الواقعي الذي له برامج خاصة وعلائم واضحة فلا يمكن الادّعاء بذلك بلا دليل.

(١) أخرج مسلم في صحيحه في كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تحريم الظلم بسنده عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما روىٰ عن الله تبارك وتعالى أنّه قال: يا عبادي، إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظلموا يا عبادي كلكم ضال إلّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم... يا عبادي، إنّما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أُوفيكم إيّاها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه (صحيح مسلم ج٨: ص١٧) وأخرجه البيهقي في سننه ج٦: ص٩٣، وعبدالرزّاق الصنعاني في المصنّف ج١١: ص١٨٢، وابن حبّان في صحيحه ج٣: ص٣٨٥ وغيرهم.

هذه الرواية مخالفة لمسلك الجبر وتصادم عقيدة ابن تيمية القائل بأنّ الله تعالى هو خالق أعمال البشر خيراً كان أو شراً ظلماً كان أو غير ظلم، لأنّ هذه الرواية تنفي الظلم عن أفعال الباري تعالى بصورة مطلقة، فلا يبقىٰ وجه تحت ذلك كي يقول ابن تيمية معنى قوله تعالى «أن الله يفعل ما يشاء» أي حتى لو كان فعله ظلماً.

ثم إنّ هناك روايات واردة في صحاحهم وهي تدل على أنّ الميزان والمعيار في درجات المؤمنين وغير المؤمنين ليس هي أعمالهم بل الميزان هو قانون الجبر.

منها: ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عمران بن حصين قال: قال رجل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قال: فلِمَ يعمل العاملون؟ قال: كل يعمل لما خلق له أو لما يسّر له (صحيح البخاري ج٧: ص٢١٠ كتاب الرقاق، باب جفّ القلم على علم الله، وقوله: وأضلّه الله على علم).

ومنها: ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: دُعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه قال: أو غير ذلك يا عائشة إنّ الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم (صحيح مسلم ج٨: ص٥٥ كتاب القدر، باب

دون الكافرين؛ فإنّه من عظيم جهله أو تجاهله؛ لأنّهما برهانان معلومان مثبتان لقول خصمه، فهما حجتان عليه[١].

➲ بيان أنّ الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عمّا سبق).

ومنها: ما رواه مسلم أيضاً في صحيحه عن زيد بن وهب عن عبدالله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدّق: إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أُمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره أنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها (صحيح مسلم ج٨: ص٤٤ كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أُمه).

فهذه الروايات وغيرها معارضة لما ورد في مصادرهم من نفي الظلم عن ساحة الربوبية والخبير يعلم بأنّ المرجع عند المعارضة هو الكتاب العزيز، فما كان مخالفاً له يضرب عرض الجدار.

(١) لأنّ من يقول: إنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه قائل بأنّ الهداية والضلالة جبريان ومرتبطان بإرادة الله تعالى، فيزعمون أنّ الله تعالى أراد أن يهدي المؤمنين إلى الايمان ولم يرد أن يهدي الكفّار إلى الإيمان، ويستنتجون من ذلك بأنّ الله قد تفضّل على المؤمنين في أصل الهداية ولم يتفضّل على الكفّار، في حين أنّ الآية الكريمة تدل بالصراحة على أنّ الايمان الحقيقي أصله من الله لجميع الناس كافة وهو غير خفي على الخبير لأنّ الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب ونصب أوليائه علماً ليهتدي بهم الناس جميعاً ولكن الكافرين قد أعرضوا عما جاءهم من الحق ولم يصدقوا بما جاء من عند الله.

وبعبارة موجزة: إنّ الهداية والضلالة ـ في المفهوم القرآني ـ لا يعنيان الإجبار على انتخاب الطريق الصحيح أو الخاطئ، بل إنّ مفهوم الهداية في الآيات القرآنية توفّر سُبل السعادة والإضلال: بمعنى زوال الأرضية المساعدة للهداية دون أن يكون هناك إجبار في المسألة، فهما نتيجة أعمال الإنسان.

ومن هنا يعرف أنّ ما ذكره ابن تيمية من الاستشهاد بالآية فهو حجة عليه، لأنّ المقصود من الهداية والضلالة في القرآن ليست الهداية والضلالة الإجبارية وإنّما هي الهداية والضلالة التي ➲

فإنّ هذه الجماعة قد منّت على النبيﷺ بإيمانهم حسبما دلّ على ذلك ما قبل ما حكاه السنّي من قوله سبحانه ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ ٱللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ**﴾[1]... إلى آخرها.

فإنّه خاطب نبيه بأن يقول لهم: إنّ المنة لله عليهم بإرشاده لهم الى ذلك

➲ يختارها الإنسان كما هو واضح من الآيات المتقدّمة، إذ في بعضها قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ**...﴾ (سورة آل عمران: ١٦٤).

فإنّ الله قد جعل الطريق لهداية الناس جميعاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم و... هذه الجملة صريحة في أنّ الهداية إنّما هي بإراءة الطريق من الله تعالى إذ أنّ الله تعالى قد مَنّ على المؤمنين وبعث اليهم الرسول ليهديهم الى الصراط المستقيم، ثم نصب لهم الأولياء والأئمة الطاهرين ليرشدون عباد الله إلى الهداية والسعادة، وهذا واضح وظاهر وحجة دامغة على ابن تيمية ومن سلك مسلكه.

(١) سورة الحجرات:١٧، لقد وردت روايات كثيرة عن طرق الفريقين في شأن نزول هذه الآية المباركة ومدلولها: أنّه جاءت طائفة من الأعراب من أهل البادية وقالوا للنبيﷺ أنّهم أسلموا وأنّ سائر القبائل العربية الأُخرىٰ حاربوا النبيﷺ فقاموا بذكر أقوال فيها المِنّة على رسول اللهﷺ فنزلت هذه الآية الكريمة: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا**﴾... أُنظر: تفسير مقاتل بن سليمان ج٣:ص٢٦٥، وتفسير جامع البيان للطبري ج٢٦:ص١٥٩، وتفسير أبي حاتم الرازي ج١٠:ص٣٣٠، وتفسير السمرقندي ج٣:ص٢٩٠، وتفسير أبي زمنين ج٤:ص٢٦٧، وتفسير السلمي ج٢:ص٢٦٤، وتفسير الثعلبي ج٩:ص٨٦، وتفسر الواحدي ج٢:ص١٠٢٠، وتفسير السمعاني ج٥:ص٢٣، وتفسير ابن عطية الأندلسي ج٥:ص١٥٤، وتفسير زاد المسير لابن الجوزي ج٧:ص١٥٦، وتفسير الرازي ج٢٥:ص١٠٧، وتفسير القرطبي ج١٦:ص٣٥٠، وتفسير البيضاوي ج٥:ص٢٢١، وتفسير القمّي ج٢:ص٣٢٢، وتفسير التبيان للشيخ الطوسي ج٩:ص٣٥٤، وتفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ج٩:ص٢٣١، وتفسير الصافي ج٥:ص٥٦ وج٦:ص٥٢٨، وتفسير نورالثقلين ج٥:ص١٠٣، وتفسير الميزان ج١٨:ص٢٢١، وغير ذلك من تفاسير الشيعة وأهل السنّة ذيل الآية.

بآياته وبيّناته،[(١)] إن كان ما قالوه من دعوى إيمانهم صدقاً[(٢)].

---

(١) وذلك لأنّ الهداية إلى الإيمان غير الايمان كما أنّ التوفيق للإيمان غير الإيمان نفسه، فـإنّ الهداية لله تعالى، أي إنّ الله تعالى يهيّئ أسباب الهداية للناس من إرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك ليهتدوا بها الناس.

بعبارة أُخرىٰ: إنّ الهداية الالهية هي تهيئة المقدّمات للوصول إلى الغاية، فهي في مرحلة الدعوة تشمل جميع الناس، واما في مراحل الأُخرىٰ فهي باختيار الناس فإن اختاروا الهداية فهم في زمرة السعداء وإن لم يختاروا فهم في زمرة المضلّين. وعليه: فلا معنى لأن نقول أنّ البارئ عزوجل يجبر الإنسان في هذه المرحلة على الوصـول الى الهـدف وإنّـما يـضع الوسـائل المطلوبة للوصول الى ذلك الهدف المعيّن ليختار الناس ذلك.

وعلى سبيل المثال: فإنّ وجود مربّ جيّد، وبيئة سالمة للتربية مقدّمة لتربية الأطفال، فإذا جاء المربّي وعلّم الأطفال على طبق الضوابط المعيّنة التي بها عادة يتربّىٰ الأطفال، فإن لم يطعه طفل وخرج عن دائرة المتعلّمين ليس هذا إلّا من عنده كما أنّ الذين وصلوا إلى مـرحـلة التربية إنّما كان باختيارهم، والمثال في باب تهيئة المقدّمات كثيرة لا يخفى على الخبير.

والمهم أنّ الانسان العاقل هو يختار الطريق الذي فيه السعادة والنجاة وإنّ المربّي والمرشد يكون له الدور التربية.

وفي المقام: أنّ التوفيق للإيمان يكون كذلك فإنّه باختياره يترقّى درجات الايمان الذي جاءت تعاليمه من قبل الله تعالىٰ، فإنّ عمله مبيّن لمقاماته إذ قد يفعل الإنسان بعض الأفعال ونتيجة ذلك الارتقاء إلى الدرجات العلىٰ من الايمان وقد يكون بالعكس، وذلك كأن يعمل الأفعال الشّريرة بحيث تسلب منه التوفيق الى الايمان.

فالنتيجة أنّ العمل الذي يفعله الإنسان باختياره هو يعيّن مصيره في الدنيا والآخرة.

وملخّص الكلام: أنّ الهداية الإلهية تتمّ من خلال بعثة الرسل والأنبياء، وأمّا الإيمان فهو يرتبط بإرادة العبد واختياره فلم يتم إلّا بوجوده الحقيقي في قلب المؤمن، وأمّا الإسلام الظـاهري وإن كان موجباً لإجراء أحكام الإسلام عليه من حقن الدم وحفظ الأموال وحلية الذبـيحة وغير ذلك إلّا أنّ ذلك غير مقبول عند الله تعالى، لأنّ الايمان أمر واقعي قلبي ويلازم لوازمه من الاعتقاد القلبي بالمبدأ والمعاد، وما جاء من قبل الله عزوجل والتسليم لإرادتـه تـعالى ←

➲ والطاعة لأوامره والاجتناب عن نواهيه وغير ذلك مما يثبت وجود الإيمان فيه. فالآية الكريمة تبيّن هذه الحقيقة بصورة واضحة.

وخلاصة الكلام: أنّ الهداية الإلهية هي تهيئة الأسباب للإيمان فإذا آمن المؤمن حقيقةً فقد اهتدى بوسائل الهداية الإلهية وإلّا. فلا.

(٢) فإنّ ذيل الآية الكريمة وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة الحجرات:١٧) يدلّ بالصراحة على انّ مجرد ادعاء الإسلام غير كافية في إثبات الإيمان في الأشخاص لأنّ الإيمان الحقيقي هو الإيمان الصادق بالله عزوجل، والإيمان الصادق هو الإيمان الذي لا يخالطه ما يضاده من الأفعال والنيات وكون الإيمان ثابتاً على الاستمرار.

فالإيمان الحقيقي هو الاعتقاد الراسخ بالله ورسوله قلباً والعمل بما جاء به الرسل من قبل الله تعالى، وما أمر به الهداة الالهية ورسوخ الإيمان في القلب حقيقة إنّما يحتاج الى الإثبات، فإنّ الايمان من الأُمور الواقعية الذي يوجد بوجوده الواقعي والحقيقي أي أنه يوجد بتحقق الاعتقاد القلبي في الانسان.

فادّعاء الإيمان وحده لا يعد دليلاً لصدق دعواه بل وحتى المشاركة مع المسلمين في الأُمور العبادية وسوح الجهادية وغير ذلك لا تكون دليلاً على ثبوته إذ قد تكون وراء ذلك أُمور أُخرىٰ ومقاصد شيطانية، والله من وراء القصد.

ولابد من تبيين تلك الحقائق حتى يعرف أن الإيمان هو الإيمان الحقيقي أو الادّعائي، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة:١٤٢).

فيبدو من الآية الكريمة أنّ جماعة من المسلمين كانوا يظهرون الإيمان بالله ويقولون: أنّ هذا وحده كافٍ لدخولهم الجنة، ولذلك كانوا لا يواطنوا أنفسهم على تحمّل الصعاب والمشاق ظانين أنّه سبحانه هو الكفيل بإصلاح أُمورهم وشرّ الأعداء عنهم، فالآية الكريمة تردّ عليهم وتقول: أنّ السنّة الإلهية جرت على امتحان واختبار المؤمنين كي يعرف من يكون مؤمناً حقيقياً ومن يكون مؤمناً ادّعائياً، ولذلك أنّ النبيصلى الله عليه وآله وسلم كان يؤكد على حب أهل بيته لأنّ من الحقائق الهامة التي تميّز بها الإيمان الصادق عن الزائف هو حب أهل البيتعليهم السلام الذي ➲

فإن كان ما زعمه السنّي من تخصيص المؤمن بزيادة يؤمن بها دون الكافر حقّاً فما معنى قوله سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟[(١)] يعني في دعوى كونهم

بيّنه تبارك من خلال قوله تعالى: ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (سورة الشورىٰ:٢٣) فإنّ حب أهل البيت عليهم‌السلام عقيدة مستمدة من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه المصطفىٰ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كما ورد في الأحاديث المتواترة التي سنذكرها إن شاء الله تعالى في محله.

فالحب ليس هو مجرد هوى عابر أو عاطفة مجردة بل أنّه مبدأ يتعلّق بإيمان المؤمن عقيدته الراسخة في أعماق قلبه، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللهُ...﴾ (سورة آل عمران:٣١) فإنّ المستفاد من الآية الكريمة وجود الارتباط المباشر بين الطاعة والحب وأساس الإيمان الطاعة والانقياد، ولذلك قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في حديث متواتر لدى الفريقين: يا علي، لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق (مسند أحمد بن حنبل ج١:ص٩٥).

فالإيمان الحقيقي هو الإيمان بمجموع ما جاء به النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومن جملة ما جاء به النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وجوب طاعة أهل بيته عليهم‌السلام فلاحظ.

(١) فالظاهر أنّ الجملة التي وردت في ذيل الآية الكريمة إشارة إلى أنّ الإيمان ينقسم إلى قسمين: إيمان صادق وإيمان غير صادق. فالإيمان الصادق هو الإيمان الحقيقي كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة:١١٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحجرات:١٥).

فالقرآن الكريم عرف المؤمن الحقيقي إجمالاً بانّه يكون صادقاً في إيمانه أي مستقراً على دينه وعقيدته لا تحرّكه العواصف ولا يزيله القواصف لأنّ اعتقاده مستند إلى الدليل القطعي والبرهان القاطع واليه أشار سبحانه وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَةِ﴾ (سورة إبراهيم:٢٧).

وقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّه قال: المؤمن كالجبل الراسخ لا يحركه العواصف... (الكافي ج١:ص٤٥٥) أي أنّ المؤمن لا يحرّكه ريح الهوىٰ ولا شهوة المنىٰ ولا...

➲ فالمؤمن الحقيقي مضافاً الى الاعتقاد القلبي والتصديق بأُصول الدين لابد له من الصفات المذكورة في الآيتين، وأمّا الذين أسلموا وأظهروا الإسلام ثم جعلوا يمنون على النبيﷺ بأن أسلموا فإنّ ذيل الآية تبيّن أنّ إسلامهم لم يكن عن نية صادقة لأنّهم لم يكونوا كما قال الله تعالى، فلم يكن إيمانهم إيماناً حقيقياً صادقاً عن إخلاص بل ولم يسلموا وجههم إلى الله وحده فلم تكن الصفات المذكورة في الآيتين فيهم حتى يكون إيمانهم إيماناً حقيقياً بالله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة الحجرات:١٦).

فهذا توبيخ على زعمهم الباطل حيث كانوا يعتقدون انّهم مؤمنون صادقون في دعواهم، ولكن الله تعالى بيّن بأنّ إيمانهم لم يكن عن صدق بل ادعائهم للايمان كذب محض، وهل يمكن لأحد أن يدّعي الايمان الكاذب أمام الله سبحانه وتعالى؟!!!

فالذين كانوا يمنّون على النبيﷺ إسلامهم لم ينالهم توفيق الإيمان ولم يكونوا في زمرة المؤمنين حقاً، إذ الإيمان الحقيقي لايجتمع مع ما يخالفه في الفعل والعقيدة فانّ الإيمان الحقيقي يمنح الإنسان إدراكاً جديداً عن عالم الوجود ويكشف عنه حجب الأنانية والغرور، ويحيي في نفسه القيم الإنسانية ويمنحه العلم والقوة والشهامة والإيثار والنصيحة والعفو الشامخ والإخلاص ويجعل منه إنساناً قوياً بعد أن كان موجوداً ضعيفاً فيأخذ بيده ويصعد به في مدارج الكمال الى قمة القمر ويجعله منسجماً مع عالم الوجود ويسخر عالم الوجود طوع أمره. وهذه النعمة التي أنعمها الله على الإنسان ليجعله ذات قيمة.

ففي الحقيقة أنّ النعمة هي التي تضمن سعادة الإنسان ويصرف الإنسان عن كل شر وسيئة ويوصله إلى كل خير وإحسان، فالإيمان الحقيقي هو الإيمان المقرون بالصدق والوفاء كما قال تعالى: «إن كنتم صادقين».

ومن هنا نعرف أنّ الذين كانوا يمنّون على النبيﷺ بأن أسلموا لم يكن إيمانهم عن صدق إذ الإيمان الحقيقي هو الإيمان الذي يشعر الإنسان بأنّه سيدرج درجات السعادة في الدنيا والآخرة وهذا يعتبر ربح ونفع، فيلزم أن يعرف المؤمن الحقيقي قدر من هداه إلى هذا النفع والربح لا أن يمنّ عليه بأن أسلم، فإنّ الإيمان تجارة مربحة كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ

➲

مؤمنين؛ فإنّه بعد فرض تخصيصه لهم بالزيادة هم مؤمنون قطعاً، فإن كنتم صادقين حينئذٍ ليس لها محل[(١)].

بل هي مستدركة حيث يصير المعنى: قد مننت عليكم فجعلتكم مؤمنين دون الكافر، إن كنتم صادقين[(٢)]، فإن كنتم صادقين تضرّ بالمعنى الذي قصده السنّي لقصده[(٣)]؛ أنّه قد جعلهم مؤمنين بزيادة منته عليهم وهو ينافي تجويز كذبهم

آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ...﴾ (سورة الصف:١١ـ١٠) فمن يدلّ المؤمن على هذه التجارة المربحة، فإنّه يمنّ على المؤمنين حيث انه قد أوصله إلى هذا النفع. فلاحظ.

(١) إذ مرجع هذا القول بناءً على زعم القوم الى أنّ المؤمن هو الذي أراد الله أن يكون مؤمناً وهو مؤمن في بطن أُمه وإذا كان كذلك فلابد أن يكون إيمانه مستقراً وثابتاً في قلبه، لأنّه بناءً على زعم هؤلاء أنّ الله تعالى أراد إيمانه فإرادة الله لا تتخلّف عن المراد، فمعناه: أنّ المؤمن مؤمن من أول ما خلقه الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا معنى لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إذ إمّا أن يكون الشخص مؤمناً أو لا يكون مؤمناً، فإذا كان مؤمناً معناه: أنّ الله تعالى أراد أن يكون هذا الشخص مؤمناً، وإذا أراد أن يكون الشخص مؤمناً فيستقر الإيمان في قلبه إذ يستحيل تخلّف إرادة الله عن مراده، وبناءً على هذا كيف قال تعالى: إن كنتم صادقين؟ فكيف يمكن الجمع بين الأمرين؟!!!

(٢) وهذا جمع بين المتناقضين إذ بناءً على زعم القوم الذين أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا نحن مسلمين ومؤمنين فاذا كانوا في زمرة المؤمنين فمعناه أنّ الله تعالى أراد أن يجعلهم مؤمنين لأنّ ارادة الله لا تنفكّ عن مراده، فلابد من كونهم مؤمنين حقاً وإذا كانوا مؤمنين حقاً كيف يصح الأستدراك عن ذلك كما هو واقع في قوله تعالى: «إن كنتم صادقين» فإنّ هذه الجملة دالة على عدم استقرار الإيمان في قلوبهم أولا أقل من كون إيمانهم محل ترديد ومحل تأمّل، فكيف يجتمع الترديد مع الجزم، وهذا مما يقضي منه عجب العجاب.

(٣) حيث قصد من زيادة تفضّله تعالى عنايته الخاصة بالمؤمن دون الكافر، أي جعل المؤمن مؤمناً حقيقياً وغيره كافراً فالمؤمن والكافر بناءً على زعمه بإرادة الله تعالى وإذا كان الأمر

في دعوى أنّهم مؤمنون[(١)].

فأمّا على المذهب الحق فحيث كان إيمانهم من أفعالهم[(٢)]، وقد أقام لهم من

➲ كذلك لا ينسجم هذا مع قوله في ذيل الآية: «إن كنتم صادقين» إذ معناه: أنّه إذا كنتم صادقين في إيمانكم أنّ إرادة الله محقّقة في حقكم وإذا لم تكونوا صادقين، فإنّ إرادة الله لم تتحقّق في حقكم وهذا لا ينسجم مع قوله: أنّ الله جعل المؤمن مؤمناً في بطن أُمه وجعل الكافر كافراً في بطن أُمه، إذ الإيمان الصادق وغير الصادق إنّما يرجع إلى اختيار العبد إلى الله في الأول، وفي الثاني إلى الله عزوجل، وعليه: يلزم الانفكاك بين إرادة الله ومراده وهو محال قطعاً.

(١) حيث إنّ الذين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: بأنّنا مؤمنين وجعلوا يمنّون إسلامهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإذا كانوا هؤلاء مؤمنين حقاً عند ابن تيمية فإنّ إيمانهم بناءً على زعمه ناش من الإيمان الذي جعله الله لهم زيادة على غيرهم، وإذا جعله الله تعالى لهم فهم يخبرون عن جعل الله فكيف يجوز تكذيب شيء جعله الله؟!! أليس هذا يرجع إلى الجمع بين المتناقض ـ والعياذ بالله ـ فلاحظ.

(٢) لأنّ الإيمان الواقعي هو الإذعان والتسليم في الباطن والظاهر للحق، فلا يتحقّق الإيمان إلّا بعد ثبوت العقيدة في القلب، ومن الواضح البديهي أنّ الإيمان له مراتب ودرجات تبتدئ بالشهادتين قولاً واعتقاداً، وهذا الإقرار عنصر أساسي من عناصر الإيمان ثم يترتب عليه الشهادتين وسائر مراتب الإيمان من المعرفة والطاعة وغير ذلك، فالإيمان الحقيقي هو الاعتقاد الجزمي الذي لا يشوبه الريب ولذلك ذكر علماء الكلام أنّ التقليد في الاعتقادات غير جائز، فلابد أن يكون الاعتقاد ناشئاً عن الاستدلال الصحيح والبرهان المتين والاعتماد على الأدلة المتقنة بحيث يؤمن بها جميع العقول وترتاح اليها النفوس.

ومن هنا يعرف أنّ الإيمان هو فعل الإنسان وحقيقته ثابتة باختيارهم، ولذلك يمكن أنّ يجزم الإنسان بشيء ومع ذلك يعمل على خلاف جزمه واعتقاده كما جاء في القرآن الكريم قوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً﴾ (سورة النمل:١٤).

ومعنى ذلك: أنّهم عرفوا الحق وجزموا به ولكن مع ذلك جحدوا به فنعرف من ذلك أنّ الإيمان يكون باختيار الإنسان إذ قد تكون دلالة الدليل عنده واضحة لا غبار عليه، ومع ذلك ينكر ويعاند ولا يعترف به.

➲

آياته ما به يؤمنون،(١) لو ينصفون فصدرت منهم هذه الدعوى(٢).

قال الكلبي في التسهيل لعلوم التنزيل في تفسير الآية الشريفة: يعني: إنّهم جحدوا بها مع أنّهم تيقنوا أنّها الحق فكفرهم عناد، ولذلك قال فيه ظلماً، والواو فيه واو الحال وأضمرت بعدها، قد علوا يعني: تكبّروا (التسهيل ج٣: ص٩٢).

وعليه: فإنّ الذين كانوا يمنّون إسلامهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد أخطأوا في منّتهم عليه بوجهين:

أحدهما: إنّ حقيقة النعمة التي مَنّ الله عليهم هو الايمان الذي هو مفتاح سعادة الدنيا والآخرة دون الاسلام الظاهري الذي تترتّب عليه أحكام الإسلام الظاهري من حقن الدماء وجواز النكاح والمواريث وأمثال ذلك.

وثانيهما: جهلهم بالنسبة إلى حقيقة واضحة وهي أنّه ليس للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلّا تبليغ الدين، فإذا أسلم أحد فقد وصل إلى تلك السعادة الذي ضمن الدين له ذلك وإلّا فإنّ عدم الإيمان لا يضر بالنبي شيئاً ولا يضر بساحة الربوبية أيضاً شيئاً، لأنّه تعالى غني عن العالمين والرسول صلى الله عليه وآله وسلم وظيفته إبلاغ الرسالة فقط، فالذي يخسر النعمة والسعادة هو الكافر. فلاحظ.

(١) وبعبارة أوضح: إنّ ما جاء به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كامل وجامع ليس فيه أيّ نقص من أي جهة وقد أتمّ الله دينه بالحجج والبراهين على جميع الخلائق، فالإنكار بعد إتمام الحجة له عواقب وخيمة وعواقبه ومفاسده ترجع إلى المنكر نفسه إذ بارادته يختار مصيره، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ...**﴾ (سورة فصّلت:١٧).

فمعنى استحباب الدنيا على الآخرة هو اختيار الدنيا وترك الآخرة، كما أنّ المراد بالعمىٰ الضلال وهي استعارة في مقابله الهدىٰ وفيها إيماء إلى أنّ الهدىٰ هي البصيرة والعمىٰ هي الضلالة. فالمعنى: أنّ الله سبحانه وتعالى قد بعث الأنبياء والمرسلين وأتمّ على العباد الحجة ولكنهم اختاروا العمىٰ على الهدىٰ فأخذتهم صاعقة العذاب... .

إذن أنّ الإيمان في المفهوم القرآني هو الإيمان الذي ينسجم مع حرية الإنسان وعدم الجبر، وهذا ما أكّد عليه الشيعة الإمامية تبعاً للقرآن الكريم وأئمة بارادته أهل البيت عليهم السلام فلاحظ.

(٢) وبعبارة أوضح: أنّ كل عاقل يعلم ضرورة بأنّ النفع في الحقيقة عائد إلى من سلك طريق النجاة والهدىٰ وتحصيل السعادة ولولا سلوك الطريق الذي فيه السعادة والنجاة لوقع الإنسان

فأمر رسولهﷺ ان يقول لهم: على تقدير صدقكم بدعوى أنّكم آمنتم فالمِنّة لله عليكم بأن هداكم بآياته الى معرفته[1].

➲ وفي المهالك والمخاوف الذي هو الخُسران والدمار قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ...﴾ (سورة العصر: ١ ـ ٣) فكل انسان في هذه السوق الكبرىٰ خاسر إلاّ مجموعة تيسر على طريق الهداية والعمل الصالح مع التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وعليه فالأعراب الغافلون المغفّلون الذين كانوا يمنّون علىٰ النبيﷺ بأن أسلموا، فإنّهم لو أنصفوا وأمعنوا في حقيقة الإيمان الواقعي بالله ورسوله لعرفوا أنّ الايمان والإسلام ينفعهم ويعطيهم امتيازات بحيث يتمنّىٰ كل عاقل أن تكون له تلك الامتيازات، لأنّ العطاء التي فرضته الشريعة الإسلامية المقدسة للمساعدة على تأمين الحاجات الأساسية للمسلمين في جميع شؤون الحياة عطاءً جميلاً لا يمكن تحصيله إلّا بعد الدخول في زمرة المؤمنين ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (سورة الإسراء:١٠) أي منقوصاً؛ فإنّ عطاءه في قِبال الإيمان عطاء كاملاً يتمنّاه كل عاقل إلّا أنّ الكلام كل الكلام في تحقّق هذا الإيمان في النفس حقيقة، فإنّه يلازم الصدق والإخلاص في نيته وعمله وما آمن به.

(١) قد بيّنت الآيات السابقة أنّ المؤمن الحقيقي هو المؤمن الصادق في إيمانه وأنّ المؤمن الصادق في إيمانه هو ما جاء في حقه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ أُولَئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحجرات:١٥).

هذه الآية الكريمة تتحدّث عن علائم الإيمان التي تميّز المؤمن حقاً عن المسلم الذي أظهر إسلامه بشكلٍ ظاهري فقط، فتقول الآية: ﴿فَٱلَّذِينَ آمَنُوا... وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فأول علامة لايمانهم هو أنّه لم يرتابوا أي لم يعرض لديهم التردّد في مسير الإسلام بالله ورسوله.

والعلامة الثانية: هي الجهاد بالأموال وهذا الجهاد أثر عملي لذلك الاعتقاد القلبي، فإذا كان الشخص صادقاً في إيمانه واعتقاده يجاهد في سبيل الله ببذل أمواله وبإنفاقه في سبيل الله ومرضاته ولا يحبسها عن هذا السبيل.

➲

وأمّا الخبر فقد نهاهم سبحانه فيه عن الظّلم، فمن نهيه لهم عنه علم كونه فعلهم يصدر عنهم باختيارهم[١].

➲ ثم العلامة الثالثة: التي هي أهم من الجهاد بالأموال هي الجهاد بالنفس، فإذا كان المؤمن صادقاً في إيمانه لا يبخل عن نفسه عندما اقتضت الضرورة والحاجة إلى المقاتلة فيقدّم أعزّ الشيء عنده وهو نفسه في سبيل اعتقاده؛ وهذا أحد علائم الإيمان الصادق بالله ورسوله، ولذلك الآية ختمت مؤكدة في القول بأنّ: أُولئك هم الصادقون، وهذا هو المعيار الذي حدّده الإسلام لمعرفة المؤمنين حقاً وتمييزهم عن الكاذبين.

ثم بعد ثبوت الإيمان الحقيقي بالأوصاف المذكورة في الآية الكريمة إنّ ما يترتّب عليه من الامتيازات والمزايا والخصائص التي تختص بمقام المؤمن في الدنيا والآخرة هي من النعم الإلهية التي تنالها الإنسان وتلك من النِعم الإلهية التي لابد من شكرها لأنّ الله تبارك وتعالى قد مَنّ على المؤمنين بما منحهم من تبيين الحقائق لهم وارشادهم إلى الحق وإلى طريق الصواب لأنّ الإيمان بهذه الأوصاف يجمع في الإنسان جميع الخيرات إذ بهذا الإيمان يتمتع الإنسان السعادة واللذائذ المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ آمَنُوا... وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف:١٥٧).

فإنّ اتّباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حقاً واتّباع النور الذي أُنزل معه وهو القرآن الكريم، أو المراد به الكناية عما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي انّه أعم من القرآن الكريم، فهذا الذي يضمن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة وقبل كل شيء، فإنّ الإيمان بالله ورسوله يمنح الإنسان إدراكاً جديداً عن عالم الوجود ويكشف عن حجب الأنانية والغرور، ويوسّع عليه أُفق نظرته، ويجسّد له عظمة خلقه، وإنّه يلقي على عواطفه النور الضياء ويربّيها ويحيي في نفسه القِيَم الإنسانية وينمي استعداداته العالية فيه، ويمنحه العلم والقوة والشهامة والإيثار والنصيحة والعفو والتسامح والإخلاص و... .

(١) والمقصود بالخبر هو ما أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم بسنده عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنّه قال: إنّي حرمت على نفسي الظلم على عبادي فلا تظالموا... (صحيح مسلم ج٨: ص١٧).

هذا الحديث يدل بالصراحة على أنّ الظلم أمر مبغوض عند الله تبارك وتعالى إذ من الواضح انّ ➲

ولو كان فعله فأيّ معنى لنهي عباده عنه، وقد جعل اللوم فيه لمن عمله الشر على نفس العامل،[١] فلو لم تكن الحجة قد قامت عليه من قبل الله على التجنّب

➲ الظلم عبارة عن التعدي إلى حقوق الآخرين أو عبارة عن التعدي عما ينبغي الوقوف عليه والتعدي أمر مبغوض عند الشارع الأقدس فلا يعقل أنّ يفعل تعالى فعلاً قبيحاً مبغوضاً عنده، فإنّ الظلم مبغوض عند الله ولذلك قد نهي عنه والشيء المبغوض كيف يمكن أن يتعلّق إليه إرادته ومشيئته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد نزّهت أفعاله عن ذلك فالأدلة القطعية والبراهين الجليّة قائمة على عدم وجود الظلم في أفعاله تعالى وذلك بمقتضىٰ صفاته الحكمية وعدله وقسطه وقضائه ودقة حسابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، فكيف يمكن أن يخالف صفاته الكمالية الجمالية التي حكم العقل بحسنها مستقلّاً كيف يمكن تجويز العقل فعل القبيح بالنسبة اليه تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

فإنّ النظام الذي جعله الله تعالى للعباد هو نظام مبني على الحكمة والعدل، وهذا النظام يقتضي اسناد الفعل الى فاعله وإلّا يلزم الظلم.

وكيف كان، لا يصح نسبة الفعل المبغوض إلى الشارع فإنّ الظلم مضافاً إلى أنّه قبيح عقلاً منهي عنه من قِبل الشارع الأقدس فهو مبغوض عند الشارع ولا يجوز نسبة فعل المبغوض إلى الشارع الأقدس فالحديث يدل بالصراحة على أنّ الله تعالى نهى عن ارتكاب الظلم. ومن الواضح أنّ أفعال العباد فيها الظلم والظلم قبيح عقلاً ومبغوض عند الشارع، وقد نهى عنه في هذا الحديث فكيف يمكن أن يكون خالقاً له؟!!!

(١) فإنّ ذيل الحديث فيه أنّ النبي ﷺ قال: إنّ الله تبارك وتعالى قال: يا عبادي، إنّما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أُوفّيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه (صحيح مسلم ج٨: ص١٧ كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تحريم الظلم).

والوجه في ذلك واضح ظاهر إذ أنّ الله تعالى قد أنعم على الإنسان بالبصر وأسباب البصيرة، وأنعم عليه بالهداية والإرشاد الى طريق الحق وصراط المستقيم والتحذير عن الانحراف والضلال، فمع هذه النِعم لو انحرف الإنسان عن جادة الحق فلا يلومنّ إلاّ نفسه لأنّه مقصّر في حق نفسه.

عن فعل الشر، فأيّ معنى للومه نفسه[١]، لو كان الله قد خلقه فيه ولو كان المِنّة

(١) وبعبارة أوضح: أنّه لو لم تتم الحجة على الناس في جميع الجهات ومنها عدم جواز ارتكاب الظلم والشرور والقبائح لما صحّ أن يلوم الظالم نفسه على الفعل الذي ارتكبه، فإنّ اللوم والتوبيخ إنّما يصحّ إذا كان الملوم مختاراً في فعله وكان له إمكان ترك الفعل، فعندئذٍ يصحّ اللوم ويتوجه اليه الذم لما فعله من القبيح سواء قلنا انّ الظلم قبيح شرعاً أو قبيح عقلاً.

وعلى كل حال، فإنّ عمله يكون تحت اختياره و قد تمّت عليه الحجة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذٰلِكَ أَن لَمْ يَكُن رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٣٠ـ١٣١).

فإنّ التوبيخ واللوم إنّما يكون بعد إتمام الحجة على الإنسان وحيث أنّ الحجة بالنسبة إلى فعل الظلم تامة في حق جميع الناس عقلاً قبل ورود النهي من ناحية الشرع الأقدس، فيلزم على الناس الاجتناب عنه.

فالمستفاد من الآيتين أنّ القانون الإلهي وسنته الثابتة هي عنده تعالىٰ أن لا يأخذ الناس إلّا بالحجة والذي يلفت الانتباه هو أنّه تعالى لم يقل في الآية الكريمة أهلها جاهلون لأنّ الأخذ بالجهل أقبح من الأخذ بالغفلة حيث أنّ الغافل يعلم قبح الظلم ولكنه غافل عنه، وأمّا الجاهل فلا يعلم أصلاً، وهذا لا يصح في باب الظلم لأنّ الظلم قبيح ذاتاً.

نعم يمكن أن يكون الإنسان غافلاً عنه فعند ذلك يصحّ تحذيره عنه. وعليه: فإنّ الله تبارك وتعالى قد أتمّ الحجة على الناس بإرسال الرسل وإقامة البيّنات والآيات وقطع بذلك عذر الظالمين، قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (سورة الروم:٥٧).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ﴾ (سورة غافر:٥٢) فإنّ المجرمين حين يواجهون واقعهم المرير المؤلم يظهرون ندمهم ويعتذرون ببعض الأعذار لما صنعوا من الأجرام ولكن القرآن يردّ عليهم ويقول: لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم بل يتتضحون يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ولهم اللعنة والبُعد عن الرحمة الإلهية ولهم العذاب في أسوأ مكان من نار جهنم، فالظالم ليس له إلّا أن يلوم نفسه كما قال تعالى: ﴿فلا يلومن

مختلفة لقال فاعل الشر: يا رب لِمَ لم تزدني مِنّةً مثل مِنّة فاعل الخير فعله مثله فأشاركه في حمدك وقد كتبت على نفسك الرحمة، لِمَ منعتني منها وتفضّلت بها على غيري، فانظر هل ترىٰ لله فيه من حجة[١].

وثالثها: ما زعمه من قياس ما نحن فيه بما مثّل من التفضيل بالقوة وزيادة الرزق والجاه وغيرها من التكوينيات، فإنّ هذا القياس فاسد جداً لأنّ هذه خارجة عن قدرة الناس وعن مشيئتهم بل هي فعله سبحانه ولو سعى الناس في تحصيلها بأشدّ سعي لم يحصلوها من حيث كونها فعل الله[٢].

⬅ أحد منكم إلّا نفسه﴾ لأنّ الظالم يكون مقصّراً في حقّ نفسه إذ بارتكابه الفعل القبيح عقلاً والنهي عنه شرعاً. فلاحظ.

(١) لأنّ معنى الحجة لغةً هو الاحتجاج على الغير والظفر عليه إمّا بإسكاته وقطع عذره وإبطاله، وإمّا بأن يلجئه على عذر صاحب الحجة فتكون الحجة معذرة له، وقد بيّن سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في القرآن الكريم بقول تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الأنعام:١٤٩) أي أنّ الحجة إنّما هي لله عليكم إذ الحجة معناه الطريق الذي يقصده الإنسان لأنّ الحجة من الحج والحج بمعنى القصد وقد يطلق على الدليل والبرهان، لأنّ القائل به يقصد بها إثبات مدّعاه عن طريق الدليل والبرهان ومع الملاحظة الأدلّة البالغة يتّضح أنّ الأدلة التي أقامها الله للبشر عن طريق العقل والنقل واضحة لا لبس فيها من جميع الجهات بحيث لا يبقىٰ مجال للترديد والشك لأحد ثم يقول تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالجبر لفعل ولكن الإيمان الجبري لا قيمة له إنّما فضلية الإنسان وتكامله في أن يسلك طريق الهداية باختياره فلو كان الإنسان مجبوراً في عمله لكان إقامة الدليل والبرهان من إرسال الأنبياء وتبيين الآيات والدعوة الى الحق من قبل الله تبارك وتعالى لغواً، لأنّه لو قلنا أنّ العباد مجبورين في أعمالهم فمعناه: أنّ الخير والشر يفعله الله ويخلقه، فلا معنى لأن يفعل العبد شيئاً بعد ذلك حتى يحتاج إلى ارشاد الأنبياء. فلاحظ.

(٢) وتوضيح المقام: أنّ القوانين الموجودة في العالم على نوعين:

⬅

➲ **الأوّل**: القوانين التكوينية، وهي القوانين المربوطة بالتكوين وعالم الطبيعة ونظام الكون وعالم الوجود بما فيها من الدقة والانسجام الموزون الدال على أنّ مبدأ الوجود في خلق الكائنات هو الكمال المطلق الذي خلق كل شيء بحكمة وهو القادر الحكيم العليم الذي جعل القوانين التكوينية نظاماً للكون لبلوغ كل شيء إلى كماله المطلوب، وتسمىٰ هذه القوانين التكوينية بالإرادة التكوينية وهي القوانين وانظمة عالم التكوين.

الثاني: القوانين التشريعية والإرادة القانونية التي ترد في الشرائع السماوية وتعاليم الأنبياء وأوصيائهم وتربيتهم وإرشاداتهم وهداياتهم، أو ما يصوّبها مجالس التقنين من العقلاء، فهي قوانين تعبّدية لتنظيم حياة البشر في الأُمور الفردية والاجتماعية، أو هي كالدواء لأمراض الروح خاصة أمراض المعرفية.

أمّا القسم الأوّل: فإنّه لا شكّ أنّ زمام جميع المخلوقات من جهة القوانين التكوينية بيد الله عزوجل فالجميع مستسلمون لهذا القانون الجبري وفق مشيئة الله، شاؤوا أم أبوا حتى العتاة والطغاة الألدّاء والمتمرّدون على القانون والجبابرة هم مضطرون أن ينحنوا رؤوسهم لهذه القوانين التكوينية الإلهية.

والدليل على ذلك: هو خالقية الله ومالكيته بالنسبة إلى مخلوقاته، فإنّ مَن خلق الموجودات في البداية وتكفّلها بتدابيره فله أن يفعل ما يريد و ما يراه من المصلحة والحكمة بالنسبة إلى مخلوقاته ولا دخالة لأحد في ذلك، فهذا القانون بيد الله سبحانه وتجري بين جميع مخلوقاته جبراً.

وأمّا القسم الثاني: فهي القوانين التشريعية وهذه القوانين لا تكون كالقوانين التكوينية جبرية بل هي حسب المصالح والمفاسد المترتّبة على الأعمال وهي تنقسم إلى قسمين:

الأوّل: القوانين السماوية وهي القوانين التشريعية التي مبدأها الوحي والسماء.

الثاني: القوانين التي يصوبها مجالس تقنين العقلاء، فلاشكّ أنّ المقصود بالقوانين التشريعية هنا هي القسم الأوّل وهي التي تضمن السعادة الإنسان وتوفّر له كامل حقوقه وتبيّن وظائفه الفردية والاجتماعية من الواجبات والمنهيات والمباحات وحتى الأحكام الوضعية بشكلٍ يعطي للحياة نظاماً متميّزاً قائماً على أُسس وجذور قوية متينة، ففريقاً يسلّم لهذه القوانين ➲

فأما السعي في تحصيل معرفة الله، ومعرفة رسوله، وخلفائه، وغيرها من الشرعيات، من آيات الله وبيّناته، فهو فعل لهم يصدر عنهم باختيارهم ومشيئتهم[١].

⬅ طوعاً كالمؤمنين وفريقاً لا يسلّم لها ويتخلّف عنها فهي باختيار الناس.

ومن هنا نعرف أنّ الإرادة الإلهية في القسمين تختلف نعلقها حسب المشيئة الإلهية ومعناها أنّ إرادة تكوينية وهي الإرادة التي لا تتخلّف عن المراد، لأنّ الاداة تتعلق بفعل الله عزّوجلّ فاذا أراد شيئاً فيكون ذلك الشيء موجوداً كما قال تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يّس: ٨٢).

وإرادة تشريعية وهي الإرادة القانونية وهي تتعلق بفعل المكلفين أو تتعلق بجعل القانون لعموم الناس، فمن عمل بها فهو في زمرة المهتدين والسعداء ومن لم يعمل بها فهو في زمرة الكافرين والمضلّين كما أنّ القوانين العقلائية أيضاً تكون كذلك باختيار الناس، فإنّ دائرة جعل القانون تصوّب القانون للناس لعدم وقوع اختلال النظام فيهم، فمن عمل بها يكون مصوناً من التوالي الفاسدة لهم ومن لم يراعيها فتشمله التوالي الفاسدة المترتبة عليها فهذه الإرادة ليست كالإرادة التكوينية. فلاحظ.

(١) من الواضح جداً أنّ سعي الإنسان في تحصيل ما ينفعه من المصالح لنفسه ودفع المفاسد عن نفسه أمر اختياري بلا ريب، لأنّه يصحّ استناد العمل اليه سواء كان العمل خارجي أي الفعل الذي تقوم به الجوارح أو عمل قلبي كالنية والقصد والتصديق بالأمر الاعتقادي، فإنّ تحصيل كل ذلك يحتاج الى سعي الإنسان عن علم وإرادة للوصول إلى نتيجة عمله وجهوده وتأثير ما يترتب عليه من آثاره، فإنّ سعيه هذا أمر اختياري له.

والنتيجة الحاصلة من ذلك أيضاً راجعة إلى الاختيار سواء كانت النتيجة حاصلة من الأعمال الجارحية أو من الأُمور القلبية والقصدية كالأمر الاعتقادي، فإنّ الأمر الإعتقادي اختياري كما أنّ الفعل الجارحي أمر اختياري بيد الفاعل يمكن له فعل ذلك ويمكن له تركه، كذلك الفعل الجانحي، وعلى هذا الأساس أنّ عمله يوجب استحقاق الثواب والأجر أو العقاب ويصح أيضاً أن يسأل عنه بأنّه لماذا فعلت هذا الفعل؟ أو ما كان هدفك من هذا الفعل؟ أو ⬅

ومن هذه الجهة بعث سبحانه رسله اليهم بآياته التي تدلّ على صدقهم ونبوّتهم يدعونهم الى معرفته وعبادته،(١) ولم يبعثهم يدعونهم الى السعي في

لماذا تركت منه ذلك، الجزء؟ أو غير ذلك، فالملاك في العمل الصادر من المكلّف العاقل هو صدور العمل منه باختياره لا على نحو الجبر، فإذا سعى الإنسان في معرفة أُصول الدين وفروعه أي سعى في معرفة الله جل وعلا ومعرفة الرسول وأوصيائه المعصومين عليهم السلام أو سعى في تحصيل الأحكام الشرعية وغير ذلك فإنّه بلا إشكال عمل اختياري من أعمال نفسه التي سيحصل بها السعادة كما انّه إذا لم يسعىٰ في طلب السعادة في أفعاله فانّه سوف لا يصل اليها بل قد يصل إلى الشقاوة وهذا أيضاً يكون أمراً اختياراً.

والدليل على ذلك: أنّ عقل كل إنسان لو خُلّي وطبعه يميز بين الحسن والقبح والخير والشر والنفع والضرر والطاعة والمعصية والثواب والعقاب، فكل إنسان يعلم وجداناً أنّه باختياره وإرادته يختار أحد طرفي الخير أو الشر، وهذا أمر مسلّم لا يمكن إنكاره.

ثم إنّ الآيات الكثيرة الواردة في المقام دالة على أنّ الانسان مختار في أعماله، منها: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ« ٥» وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (سورة الليل: ٥ـ٧) فمن المؤكد أنّ الذين سلكوا طريق التقوىٰ سينالهم الجزاء الأوفىٰ، وللتأكيد على ذلك أنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (سورة الليل:٤) أي أنّ اتّجاهات سعيكم مختلفة فنتائجها أيضاً تكون مختلفة، فإنّ نتيجة كل عمل يصدر من الإنسان بحسب ذلك العمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهكذا علّمنا القرآن كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣٩ـ٤٠).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (سورة المدّثّر:٣٨) والى غيرها من الآيات الدالة على انّ سعادته وشقاوته مرهونة بسعيه واجتهاده في تحقّق العمل، فكل شخص يتحمّل مسؤولية أعماله.

وقد ورد هذا المعنى في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وهي كثيرة جداً، سنتعرّض لها إن شاء الله تعالى في محله.

(١) فإنّ الله تعالى قد بعث الأنبياء والمرسلين ونصب الأوصياء (صلوات الله عليهم أجمعين) لدعوة الخلق إلى الحق، فقال عز من قائل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ

مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيما ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة البقرة:٢١٣).

هذه الآية الكريمة تبدأ ببيان مراحل الحياة البشرية وكيفية ظهور الدين لإصلاح المجتمع بواسطة الأنبياء، وذلك على مراحل:

المرحلة الأُولى: الدعوة إلى الحق؛ وهي في الواقع الدعوة إلى الفطرة لأنّ الإنسان فيه روح البحث عن الحق والإحساس بالمسؤولية تجاه معرفة الحقيقة، فأرسل الله أنبيائه وخلفائهم ليدعو الناس إلى الحق.

المرحلة الثانية: مرحلة معرفة الإنسان الحق والحقيقة؛ فاؤنّ الأنبياء جاؤوا بكتب سماوية وتعاليم إلهية لحلّ النزاعات المختلفة بين البشر، فهذه القوانين والاحكام السماوية تبيّن الحقّ للإنسان.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة التمسّك بتعاليم الأنبياء وما ورد في كتبهم السماوية.

المرحلة الرابعة: هي استمرار هذا الوضع حتى بعد الأنبياء والمرسلين باستمرار هذا الخط الرسالي السماوي في اوصياء الأنبياء وخلفائهمعليهم السلام فهذه الرسالة هي التي تعطي الإنسان الهوية والعزّة والمجد والخلود وهي موهبة إلهية تقدّم لنا ملامح رائدة لمنهج النظام السائد الاجتماعي والديني، ويعرض علينا نظرية رائعة لتنظيم مجتمعنا على أرقىٰ طراز في العدالة ومعالجة للانحراف و... فيجب على الناس أن ينتهجوا منهج الأنبياء في جميع مسائلهم، لأنّ الأنبياء جاؤوا لإبلاغ الحقائق إلى الناس، وقبل كل حقيقة سوق الناس إلى معرفة الله عزوجل لأنّ معرفته سبحانه وتعالىٰ أساس جميع الخيرات. فإذا عرف الإنسان الخالق العظيم الذي أحسن إلى عباده وخلقه بنعمه اللامتناهية ودرس أسرار الخلقة يعتقد قهراً بانّ الخالق لهذا العالم لم يخلق شيئاً عبثاً وجزافاً ويعتقد أيضاً بغناه عن العالمين، ويعتقد أيضاً بأنّه لا شريك ولا شبيه له في الخلق وتجب طاعته وعبادته.

وتتبيّن هذه الحقيقة من خلال آيات كثيرة في القرآن الكريم:

منها: قوله تعالى: ﴿ٱللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

زيادة الرزق وتحصيل الجاه والعزّة والذلّة والصحة والمرض وغيرها مما هو فعله[(١)].

﴿ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ﴾ (سورة إبراهيم:٣٢) وفي بعدها يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ...﴾. ومعناها: أنّه ليست مخلوقات العالم المسخّرة للإنسان مختصة بما في الأرض، بل وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين.

ثم يقول تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (سورة إبراهيم:٣٤) فإنّ معرفة النعم الإلهية متوقّفة على إحصائها، وحيث لا يمكن الإحصاء لعدم قدرة الإنسان على إحصاء تمامها يدفع الإنسان الى الشعور بالمسؤولية وهي تفتح الطريق للعبودية، إذ لو عرف الإنسان الخالق العظيم الذي أنعم عليه النعم الظاهرة والباطنة يدفعه ويحرّكه إلى شكر المنعم وإنّ هذا أمر فطري عقلي، فالمعرفة تؤدي إلى العبادة لأنّ الإنسان إذا وصل الى هذه المرحلة من التفكّر وعرف المنعم الحقيقي لا محالة يتوجّه إلى هذه النقطة المهمة وهي: أنّ الوحيد الذي يستحق العبادة هو المنعم الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى، فالعبادة تختص بذاته المقدسة لأنّه هو المعطي وهو الخالق وهو المدبّر جميعاً، فهو المنعم الحقيقي بجميع أقسام النِعم.

والعبادة عبارة عن الإتيان بأكمل وجوه التعظيم وذلك لا يليق إلّا بمن صدر عنه أكمل وجوه الإنعام، فلمّا كان الخالق الحق والمنعم الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى وجب أن لا يجوز الإتيان بالعبادة والعبودية إلّا له ولأجله.

ومن البديهي أنّ العبادة منهج لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة. فالعبادة بمعناها الشمولي التي هي التسليم لأمر الله ستهب روح الإنسان تكاملاً في الأبعاد المختلفة كما أنّ بمعناها الخاص أيضاً تبعث بالإنسان إلى مرحلة القرب من الله، وتحقيق الهدف الذي خلق الله الإنس والجنّ من أجله كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات:٥٦) وهذا هو الهدف النهائي.

وبتعبير آخر: إنّ الله تعالى أراد كل شيء للتكامل والقرب منه، فإنّ التكامل كل التكامل يحصل بالقرب من الله تعالى. فلاحظ.

(١) لأنّ هذه الموارد المذكورة وأمثالها من الأُمور التي لا تتحقّق إلّا بأسبابها وإعداد مقدّماتها.

➲ وعلىٰ سبيل المثال: إنّ الله تعالى لا يبسط الرزق لأحد بدون الاستفادة من أسبابه الطبيعية، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادقعليه السلام حيث قال: أبى الله أن يجري الأُمور إلّا بأسبابها (الكافي ج١: ص١٩٣ح٧).

نعم إنّ هذه الأسباب تستمدّ سببيّتها من الله تعالى، ولذلك ورد في الأدعية المأثورة: اللهم يا سبب من لا سبب له، يا سبب كل ذي سبب، يا مسبّب الأسباب من غير سبب (اُنظر: المصباح للكفعمي:ص١٧٠ في دعاء مجرّب في سعة الرزق).

فالأسباب والعلل لها تأثيرها في العالم إلّا أنّ تأثيرها مستمدّ من الله، ولهذا صرّح القرآن بتأثيرها في قوله تعالى: ﴿فالمدبرات أمرا﴾ (سورة النازعات:٥) فإنّ لله تعالى ملائكة تدير شؤون العالم بأمر الله وهم الذين لا يتخلّفون ولا لحظة واحدة في تنفيذ ما يؤمرون به، كما تشير الى ذلك قوله تعالى: ﴿**لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾ (سورة الأنبياء:٢٧).

فإيجاد هذه الأُمور مذكورة وأمثالها تدور مدار وجود أسبابها ومجرد كون المقدور بالواسطة مقدوراً له لا يمكن القول بأنّ الأسباب غير دخيلة في تحقّق الأُمور، لأنّ قدرة الله تعالى مقرونة بحكمته، فإنّ حكمته البالغة قد تعلّقت بأنّ الأُمور الطبيعية كالرزق والصحة والمرض، وغيرها مترتبة على أسبابها الطبيعية فهي تتحقّق بأسبابها والله تبارك وتعالى لا يشاء إلّا بما تقتضي الحكمة، فإنّ حكمته متعلّقة بأنّ تجري الأمور بأسبابها، فإنّ النار طبيعتها محرقة وقد جعلها الله تبارك وتعالى كذلك إلّا أنّ هذا السبب تستمد سببيتها من الله عزوجل فإذا أراد الله تعالى أن يخرجها من طبيعتها فذلك أمر بيده، كما قال في قصة إبراهيمعليه السلام: ﴿**يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ (سورة الأنبياء:٦٩).

فلا شكّ أنّ الله تعالى قد أمر تكويناً للنار بأن تكون بارداً وخارجاً عن طبيعتها كالأمر الذي يصدر منه في عالم الوجود الى الشمس والقمر والأرض والسماء والنباتات والجمادات، فإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ولكن هذا لاينافي تأثير العلل والأسباب في معاليلها فانّ كل ذلک وفق نظام الخلق وحكمة رب العالمين فالأُمور التكوينية هي ما تقتضي الحكمة في إيجادها بدون تكليف، فإن مشيئته سبحانه إذا تعلّقت بشيء تقارن حصولها من دون تخلّف، كما قال النبيصلى الله عليه وآله وسلم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (الكافي ج٢: ص٥٧٢، وسنن أبي داود ج٢: ص٢٩٥ح٤٦١٢).

وأمّا العلم فعلى قسمين: ربّاني إلهامي، مثل علم الرسل؛ فإنّه إلهام تارة،[(١)]

(١) العلم الإلهامي أو اللدنّي عبارة عن العلم الذي يهبه الله تعالى لعباده المخلصين الذين يراهم سبحانه وتعالى أهلاً لذلك، فلا يؤتىٰ لكل أحد ولا يقاس بأيّ معيار مادي، ولا يـقرأ هـذا العلم عند أُستاذ ولا يعطى لأحد بدون حساب، فهو علم وأسرار يجعلها الله في قلب من يشاء من عباده.

قال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ (سورة الكهف:٦٥).

فإنّ استخدام عبارة «عبداً» في الآية الكريمة تبيّن أنّ أفضل فخر للإنسان هو أن يكون عـبداً حقيقياً للخالق جلّ وعلا، وإنّ مقام العبودية هذا يكون سبباً في شمول الإنسان بـالرحـمة الإلهية وفتح أبواب المعرفة والعلم في قلبه، كما أنّ استخدام عبارة «من لدنّا» تبيّن أنّ علم ذلك العالم الذي تكلّم عنه سبحانه في هذه الآية الكريمة لم يكـن عـلماً عـادياً كـالعلوم الاكتسابية أو التجربية التي تحصل بالحسّ والفكر، بل إنّ ذلك من أسرار هذا العالم وأسرار الحوادث التي لا يعلمها إلّا الله تعالى، فهو من أدلّة عظمة الخالق وإعجازه وآياته وبراهـينه لدعوة الناس إلى الحق وصدق دعوة أوليائه وايمانهم الراسخ له.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ (سوة هود:١٧) فإنّ البيّنة هي الدليل القاطع من الله لهدف دعوة الناس الى الحق، وهذا النوع من العلم يكون بيّنة مـن الله تعالى.

ولعل من أجل هذه الدعوة والهداية الربّانية قال في كتابه العزيز: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (سورة يٓس:١٢).

وقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه لمّا نزلت هذه الآية الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ قام أبوبكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله، هو التوراة؟ قال: لا، قالا: فهو الإنـجيل؟ قـال: لا، قـالا: فـهو القـرآن؟ قـال: لا، قـال: فأقـبل أميرالمؤمنين عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو هذا، إنّه الإمام الذي أحصىٰ الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء (معاني الأخبار:ص ٩٥ باب معنى الإمام).

فالإمام هو الذي جعل الله تعالى فيه علم الكتاب كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَـهِيداً بَـيْنِي

←

➲ وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ﴾ (سورة الرعد:٤٣) وهذه الآية الكريمة تتحدّث عن الحجة على رسالة النبي الأكرمﷺ عندما أنكر عليه بعض الناس رسالته، قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾، فأنكروا رسالته لعدم إذعانهم بما أنزل الله، فالله سبحانه لقّن نبيهﷺ ليقول لهم أنّ الحجة على رسالته هو شهادة من عنده علم الكتاب أي يكفي لهذا المقام شهادة من له المعرفة في الكتب السماوية، فإنّ من له علم الكتاب هو من أحاط بأسرار الكتب السماوية.

ونقرأ في الآية ٨٩ من سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فمن الواضح انّ من يعلم بأسرار مثل هذا الكتاب لابد أن يكون مطّلعاً على أسرار الغيب، وهذا دليل واضح على أنّ من عنده علم الكتاب هو في المقام يساوي النبيﷺ من هذه الجهة حيث أنّ النبيﷺ عنده علم الكتاب وهذا الشاهد أيضاً يكون كذلك.

ثم إنّه قد وردت روايات كثيرة في تفسير الآية الكريمة وهي صريحة في أنّ المقصود بقوله تعالى: «من عنده علم الكتاب» هو الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي‌طالب عليه السلام.

فمنها: ما رواه أبو سعيد الخدري قال: سألت رسول اللهﷺ عن قول الله عزوجل قال: الذي عنده علم من الكتاب، قال: ذاك وصي أخي سليمان بن داود، فقلت له: يا رسول الله، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب؟ قال: ذاك علي بن أبي طالب (أمالي الصدوق: ص٦٥٩ح٨٩٢). هذا من ناحية.

ومن ناحية أُخرىٰ نقرأ في الآية ٣٢ من سورة فاطر قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾.

فإنّ الله سبحانه قد بيّن في هذه الآية الكريمة أنّ المخلصين (بالفتح) الذين ورثوا علم الكتاب أُولئك الذين رفعوا مشعل القرآن الكريم بعد نزوله على الرسول الأكرمﷺ في زمانه وبعد وفاته على مرّ القرون والعصور وهم يحفظونه ويحرسونه، فتقول الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فمن الواضح أنّ المقصود بـ«الكتاب» نفس الكتاب الذي ذكره تعالىٰ في الآية السابقة وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ هُوَ ٱلْحَقُّ...﴾ لأنّ الألف واللام فيه للعهد، والتعبير بـ«الإرث» هنا لأجل أنّ الإرث يطلق على ما ➲

وتارة بإخبار جبرئيل وغيره من حملة علم الله الى رسله[1].

⬅ يستحصل بلا اكتساب.

ومن المعلوم أنّ العلم لدنّي وإلهامي يكون كذلك أي من الله سبحانه الذي يجعله في قلب أوليائه.

وقد وردت روايات كثيرة هنا بأنّ المراد من ورثة الكتاب هم أئمة أهل البيت عليهم السلام راجع تفاسير الشيعة ذيل الآية الكريمة، فهم الذين سموا واجتهدوا في طريق حفظ هذا الكتاب، فالعلم اللدني يؤتى لهؤلاء وأمثالهم. فلاحظ.

(١) ويسمىٰ هذا النوع من الإخبار وحياً، وهو أهم طريق للإخبار عن حقائق الأمور لأنّ هذا الطريق طريق اتصال الأنبياء مع خالق الكون، والقرآن الكريم يصف الوحي بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْـمُنذِرِينَ﴾ (سورة الشعراء:١٩٢ـ١٩٤).

هذه الآية المباركة تشير إلى أنّ الذي يتلقّىٰ الوحي من الروح الأمين هو نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لقوله تعالى: ﴿على قلبك﴾ فإنّ القرآن منزل من الله تعالى على قلب خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا نفسه دليل على إعجاز القرآن، إذ لو لم يكن القرآن نازلاً عليه بهذا الطريق وهذه الصورة من الإنزال لم يكن مصونا من الخرافة، لذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (سورة الشورى:٥١).

وقد وردت بعض الروايات في سبب نزول هذه الآية الكريمة أنّه جاء عدد من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا له: لماذا لا تتكلّم مع الخالق؟ ولماذا لا تنظر اليه؟ فلو كنت نبياً حقاً فافعل مثل موسى حيث نظر إلى الخالق وتحدّث معه، وسوف لا نؤمن بك أبداً حتى تفعل ما نطلبه منك، وقد أجابهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ موسى عليه السلام لم ير الخالق أبداً. هنا نزلت هذه الآية الكريمة (أُنظر: تفسير القرطبي ج٨: ص٨٥٧٢ ذيل الآية الكريمة).

فالآية الكريمة تتحدّث عن أهم نعمة إلهية وأكثرها فائدة لعالم البشرية ألا وهي قضية الوحي والارتباط بين الأنبياء والخالق، فإنّه تعالى يؤكد على أنّ الخالق منزّه عن الجسم والجسمانية، فلا يمكن أن ينظر الإنسان اليه لعدم كونه جسماً ولا يمكن أن يتكلّم معه مباشرة مثل تكلّم الإنسان بعضهم مع بعض، لأنّ ذلك أيضاً يقتضي الجسمانية، فقال تعالى: ⬅

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كان في قصة موسى عليه السلام حيث انّه كان يتحدث مع الله في جبل الطور، وكان يسمع الجواب عن طريق الأمواج الصوتية التي كان يحدثها الخالق في الفضاء دون أن يرىٰ موسى عليه السلام أحداً لأنّه لا يمكن مشاهدة الخالق بالعين كما ثبت ذلك في محله.

فالوحي: نزول كلمات رب العالمين على قلب الرسول بواسطة الروح الأمين وهو جبرئيل كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة: ٩٧).

وقد سمّاه تعالى في موضع آخر بروح القدس فقال عزوجل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (سورة النحل:١٠٢) فتكون معنى الآية على هذا أنّ الله أيّد عيسى بن مريم بجبرائيل وشاهدهم على ذلك، وجه تسمية جبرائيل بروح القدس هو أنّ جبرائيل ملك، والجانب الروحي في الملائكة أمر واضح، وإطلاق كلمة الروح عليهم متناسب مع طبيعتهم، وإضافة الروح الى القدس إشارة إلى طهر هذا الملك وقداسته الفائقة.

وملخّص الكلام: إنّ الوحي هو الاتصال برب العالمين بواسطة ملك مقرّب عند الله أو الاتصال بعالم الغيب، ولا يصح تحليله بالأدوات المادية المعروفة عند الكل ولا بالأُصول التي تجهّز بها العلم الحديث التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأُمور الجزئية، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يرى ويسمع حينما يوحىٰ اليه من غير أن يستعمل حاسّتي البصر والسمع، والشاهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَايَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لوْ شَاءَ ٱللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فُيكُمْ عُمُراً مِن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يونس:١٥ و١٦).

ويتضح من هذين الآيتين: أنّ كل ما عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من علم وكل ما فعله كان بوحي من السماء، وأنّه لم يكن يفعل شيئاً باجتهاده ولا بالعمل بالقياس ولا يأتي شيء آخر، وإنّما كان يتبع الوحي في كل أمر من الأُمور.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي معناه: أنّي لست عاجزاً عن تغيير أو تبديل

وتحصيلي وهو علم سائر الناس؛ فانّه يحصل بتعليم بعضهم بعضاً، وسعيهم في تحصيله، وحفظه وضبطه فبقدر السعي يقل ويزيد(١).

➲ هذا الوحي الإلهي، بل إنّي أخاف أن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم.

ثمّ تتطرق الآية التالية الى دليل هذا الموضوع وتقول: قل لهم بأني لست مختاراً في هذا الكتاب السماوي، «قل لو شاء الله وما تلوته عليكم ولا أدراكم به» والدليل على ذلك: فقد لبثت فيكم عمراً من قبله لكنّكم لم تسمعوا مني مثل هذا الكلام مطلقاً. أي لو كانت هذه الآيات من عندي لتحدّثت بها لكم خلال هذه الأربعين سنة، فهل لا تدركون أنّ هذا الأمر يكون أمراً عظيماً بهذه الدرجة بحيث أنّ البشر العادي لا يمكن أن يأتي به ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

(١) وذلك لأنّ الاطّلاع على كل معلوم بحقيقته يحتاج إلى وجود سبب، فلابد من تحقّق هذا السبب قبل حصول المعلوم، كما أنّ كل معلول يحتاج إلى وجود العلة فالأُمور المعلومة عند الناس تكون بالتحصيل والتعليم، فإنّ حصل التعليم والتحصيل حصل العلم وإن حصل العلم في النفس كشفت له الحقيقة ومن كشفت له حقيقة الأشياء يمكنه أن يميز بين الخير والشر والحق والباطل، وبها يعرف ما يتعلّق بالمبدأ والمعاد وله مراتب بحسب الشدة والضعف.

والحاصل: أنّ الله تعالى قد جعل لكل شيء دليلاً وبرهاناً، فعلى الإنسان أن يسعى ويجتهد في سبيل تحصيله.

ومن الواضح أنّ مقدار المعلومات الموجودة عند كل عالم إنّما بحسب جدّه واجتهاده، فكلّما سعىٰ الإنسان في تحصيل العلوم تحصل له المعلومات بحسب سعيه كما قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (سورة النجم:٣٩ـ٤٠).

هذه الآية الكريمة صريحة في أنّه ليس للإنسان إلّا بمقتضىٰ سعيه، وإنّ باب تحصيل العلم مفتوح لكل أحد يريده، كما أنّ السعي في تحصيل الرزق يكون كذلك، فكلّما سعىٰ الإنسان في تحصيل رزقه يكون رزقه أوسع وأكثر.

قال السمعاني في تفسير الآية الكريمة: قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ معناه: إنّ السعي في الخير يلق الخير، وإنّ السعي في الشر يلق الشر (تفسير السمعاني ج٥:ص٣٠١).

وقال الفخر الرازي نقلاً عن الكعبي أنّه قال: إنّ هذه الآية الكريمة دالة على أنّ العبد متمكّن من ➲

ومن هذه الجهة أمر عباده بالسعي في تحصيل علوم دينهم ممن هي عندهم بحفظها وضبطها والعمل بها[١].

الخير والشر، وإنّه غير مجبور على عمل بعينه أصلاً، لأنّ من اهتدىٰ فإنّما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها... (تفسير الرازي ج ٢٠:ص١٧١) وعلى أيّ تقدير، فإنّ زيادة معلومات الإنسان وقلّتها خيرها وشرها كلّها راجعة إلى سعي الإنسان وجهده في تحصيلها كما هو واضح ظاهر.

(١) لا شكّ أنّ تحصيل العلم من وجهة نظر الإسلام لا يعرف له حدّ معيّن ثابت، بل وزيادة الطلب في كثير من الأُمور مذمومة إلّا في طلب العلم فإنّها ممدوحة، وكذلك الإفراط قبيح في كل شيء إلّا في طلب العلم.

فالعلم ليس له حدّ مكاني، فيجب الاجتهاد وتحصيله ولو كان في الصين أو الثريا، وأيضاً ليس له حدّ زماني فهو يستمر من المهد إلى اللحد، ولا يعرف له حدّ من جهة المعلم؛ فإنّ الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها، فإذا سقطت جوهرة من فم إنسان ملك فاسق فله أن يلتقطها، ولا حدّ له في الإسلام لمقدار السعي والاجتهاد في تحصيله، فإنّه وإن غاص في أعماق البحار ليكتسب فيها العلم، أو ضحىٰ بروحه في طريق تحصيل العلم فلا لوم عليه.

وعلى هذا، فإنّ كلمة (خرّيج) أو (أنهىٰ دراسته) لا معنى لها في منطق الإسلام، فإنّ المسلم الحقيقي لا يعرف نهاية في تحصيله فهو دائماً طالب جامعي، وطالب علم حتى لو أصبح من أكبر الأساتذة وأفضلهم، فالإسلام يأمر بطلب العلم والمزيد منه ويعلم البشر بهذا الدعاء القرآني: ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (سورة طه:١١٤) وذلك ليقف أمام هذا التصوّر الخاطئ بأنّ العجلة ليست مطلوبة في جميع الأُمور بصورة مطلقة بل إنّها غير ممدوحة إلّا في باب تحصيل العلم.

والروايات الإسلامية الواردة عن طرق الفريقين في الحثّ على تحصيل العلم وعلو مرتبته عالم أكثر من أن تحصى.

ومن باب التيمّن والتبرّك نذكر بعضها: فمنها: ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه، وأكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلّهم علماً (الأمالي للشيخ الصدوق: ص٧٣ح٤١).

وقد جاء في مصادر أهل السنّة قريب منه، وفيها: أقل الناس قيمة أقلّهم علماً إذ قيمة كل امرىء ما يحسنه (مطالب السؤول لمحمد بن طلحة الشافعي: ص٢٤٩).

ومنها: ما ورد عن النبيﷺ أنّه قال: ما عبد الله بمثل العقل، وماتم عقل امرىء حتى يكون فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشر منه مأمون... ولا يسأم من طلب العلم طول دهره (تحف العقول: ص٤٤٢). وإلى غير ذلك من الأحاديث والروايات الواردة في المصادر الإسلامية، ولا يسعنا المجال لذكرها، والمهم أنّ العلم والعالم له قدر عظيم في الإسلام لا يمكننا وصفه في هذه العجالة.

ثم إنّه مما لا شكّ فيه أنّ لطلب العلم تبعات ومسؤوليات عديدة؛ ومن أهمّها العمل بما علمه الإنسان.

وفي حديث عن الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام قال: اعلموا أنّ كمال الدين طلب العلم والعمل به (الكافي ج١:ص٣٠ح٤) وقد شبّه العالم بلا عمل بالشجر بلا ثمر، أو بالسحاب بلا مطر.

وقد مثّل القرآن الكريم في هذا المجال مثالاً واضحاً بليغاً صادقاً في التعبير، وهذا دأب القرآن الكريم أن يبيّن المعارف ويقص القصص ويذكر الشرائع بالموعظة والوصية، وبيان الحقائق لئلّا يفارق الإنسان الحق، فمثل في هذا المجال للعالم بلا عمل مثالاً يبيّن فيه أنّ العلم من غير عمل لا قيمة له في الإسلام، فقال عزّ من قائل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ (سورة الجمعة:٥) فإنّه تعالى بيّن بهذا المثال بأوضح صورة أنّ العالم بلا عمل كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب ولا يشعر بما يحمله، لأنّ الحمار عندما يحمل عليه الشيء إنّما يحس فقط بثقل الحمل على ظهره من دون تمييز بين أن يكون المحمول عليه هو خشب أو حجر أو كتب فيها أدقّ أسرار الخلق وأحسن منهج في الحياة.

ومن هنا يعرف: أنّ العلم إذا لم يهد حامله إلى مستقيم الصراط كان ضلالاً وجهلاً، وقد ورد عن النبيﷺ أنّه قال: من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلّا بعداً (بحار الأنوار ج٢: ص٣٧) وعن الامام علي بن الحسين عليه السلام انّه قال: إنّ العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلاّ كفراً ولم يزدد من الله إلاّ بُعداً (الكافي ج١: ص٤٥ح٤).

وقد عيّن رسولهﷺ قوماً معلومين للتعلّم منهم علوم شـريعته بـخبر الثقلين[١]،

➲ وعن أميرالمؤمنينعليه السلام قال: العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلّا ارتحل عنه (الكافي ج١: ص٤٤ح٢) والى غير ذلك من الروايات، فـالعالم بـلا عمل لا قيمة له في الإسلام. فلاحظ.

(١) وهو حديث معروف رواه علماء الفريقين عن النبي ﷺ وقد رواه أكثر علماء أهل السنّة من المحدّثين والمفسّرين والمؤرّخين، وقد صرّح كثير منهم بتواتر الحديث.

قال ابن حجر المكي: إنّ لحديث التمسك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صـحابياً (الصواعق المحرقة: ص١٥٠) وغيره كما صححه جماعة كبيرة منهم نذكر بـعض اسـمائهم فليراجع المحقق إلى كتبهم.

فمنهم: الحاكم النيسابوري في المسـتدرك عـلى الصـحيحين، والذهـبي فـي التـلخيص عـلى المستدرك، والسيوطي في الجامع الصغير، والهيثمي في مجمع الزوائد، وابن حجر العسقلاني في المطالب العالية، والبوصيري في مختصر إتحاف السادة المهرة، والألبـاني فـي سـلسلة الأحاديث الصحيحة وصحيح الجامع الصغير وحسنه، والترمذي في سننه، والبغوي في شرح السنّة، وابن حجر المكي في الصواعق المحرقة، وابن كثير في البداية والنهاية، والمناوي في فيض القدير وغيرهم.

وقد مرّ ذكر هؤلاء في المباحث السابقة، وسيأتي في محله اؤن شاء الله تعالى.

وأمّا لفظ الحديث فقد رواه القوم بألفاظ مختلفة:

منها: ما رواه أحمد بن حنبل بسنده عن عبدالله بن الحسن المثنىٰ عن أبيه عن جده قال: خطب جديﷺ يوماً فقال بعدما حمد وأثنى عليه: معاشر الناس أُدعىٰ فأُجيب، وإنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، واؤنّهما لن يفترقا حتى يردا علَيَّ الحوض، فتعلّموا منهم ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم، ولا تخلو الأرض منهم ولو خلت لانساخت بأهلها... (ينابيع المودة ج١:ص٧٢ح٩ من الباب الثالث وهو فـي بـيان أنّ دوام الدنيا بدوام أهل بيته، وبيان أنّهم سبب لنزول المطر والنعمة، نقلاً عن كتاب الفضائل لأحمد بن حنبل).

➲

وغيره مما مضى وما يأتي نقله من السنّة(١).

فعلم الفرق بين المقيس وبين المقيس عليه، وثبت عدم إنصاف السنّي في

➲ وأمّا دلالة الحديث فإنّها واضحة لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل في هذا الحديث عترته الطاهرة قرين الكتاب في وجوب التمسّك بهم وأمر المسلمين كافة أن يتبعوهم ويتعلّموا منهم ولا ينفصلوا عنهم أبداً.

فيدلّ الحديث أولاً على أنّ العترة الطاهرة هم أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجب التمسّك بهم والرضىٰ بسبيلهم والأخذ بطريقهم كما يجب الأخذ بالقرآن الكريم.

وأيضاً يدلّ هذا الحديث على نفي صلاحية التعليم عن غير العترة الطاهرة وتحريم الردّ عليهم، فإنّ هذا هو المراد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تعلّموهم، وتعلّموا منهم» فمعنى ذلك أنّه لابد للأمّة أن تطلب علوم القرآن من العترة الطاهرة فقط، وإذا رجعت الأُمة إلى غيرهم في التعليم هلكت وأهلكت.

فالحديث يدلّ بالصراحة على أنّ المرجع الوحيد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هما القرآن والعترة الطاهرة.

وفي حديث رواه الشيعة قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله عزوجل أنزل علَيَّ القرآن وهو الذي من خالفه ضلّ ومن ابتغىٰ علمه عند غير علي هلك... ومن طلب الهدىٰ في غيرهم فقد كذّبني... (أمالي الصدوق: ص٦٢:ح١١). ومعنى ذلك: أنّ أهل البيت عليهم السلام مضافاً إلى أنّهم عِدل القرآن أنّ الاهتداء بهم نفس الاهتداء بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وإنّ تكذيبهم نفس تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: وسيتبيّن للقارئ الكريم متون هذا الحديث الشريف وما تحتوي من المعاني في محله إن شاء الله تعالى.

(١) وذلك كحديث الكساء، وحديث أهل بيتي أمان لأهل الارض، وحديث السفينة، وحديث الخلفاء من بعدي اثنى عشر، وغيرها من الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أفضلية أهل بيته عليهم السلام وأحقّيتهم بالتقدّم على جميع الأُمة، ولزوم التعلّم منهم، ومعنى ذلك التصريح بثبوت إمامتهم وخلافتهم وفرض طاعتهم على الناس كثيرة جداً، نذكرها إن شاء الله تعالى في محله.

جعله لهما متحدّي الحكم[١].

ورابعها: ما ذكره من آية: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ...**﴾.[٢] وما

---

(١) فإنّ قياس الأُمور التكوينية ونظام عالم الكون بالقوانين التشريعية التي تتحقّق بتعاليم سفراء الله وإرشاداتهم وما جاؤوا به من قِبل الله تبارك وتعالى قياس مع الفارق لأنّه قد تبيّن أنّ القوانين والأُمور التكوينية إنّما هي بيد الله عزوجل والجميع مستسلمون لمشيئة الله عزوجل شاؤوا أم أبوا. والدليل على ذلك: خالقية الله ومالكيته بالنسبة الى جميع مخلوقاته، فإنّ الخالق هو مدبّر الأمر ومتكفّل لجميع أُمور مخلوقاته، فله أن يفعل بالنسبة الى مخلوقاته على ما يراه من المصلحة فلا دخالة لأحد في ذلك.

وطبعاً أنّ الله تعالى حكيم ويعرف حكمة كل شيء فيضع القوانين حسب ما يراه من المصلحة ويرسل المجري لهذه القوانين من يراه صالحاً لهذا المقام، وبهذين الأمرين تتم الحجة على الخلق، وهذا أمر واضح لدى الخبير الذي درس أسرار عالم الكون.

وأمّا القوانين التشريعية فهي مبتنية على المصالح والمفاسد الواقعية التي تتضمّن سعادة الإنسان بالعمل بها. وهي باختيار الإنسان، وذلك بمعنى أنّ القانون الإلهي التشريعي قد قرر في أتم الأُمور وأكملها، وجعل لتنظيم حياة البشر في مختلف مجالاته الحياتية وأنّ كل مكلّف يكون مساوياً مع الآخرين أمام الدستور الشرعي، ولكن مع ذلك أنّ الإنسان مختار في الامتثال والعصيان وهذا أمر وجداني، لأنّك ترىٰ أنّ جماعة من الناس يخضعون للقانون الشرعي كل الخضوع لمعرفتهم بصاحب الشرع وقوانينه ويعرفون حقيقة ذلك ويعتقدون به اعتقاداً قلبياً، فيكون العمل بهذا القانون عندهم أمراً واجباً شرعياً، وفي مقابل هؤلاء جماعة من الناس وهم لا يعتقدون بذلك اعتقاداً جازماً أو يعتقدون به ولكن يخالفون اعتقادهم فهم غير عاملين بهذا القانون التشريعي.

ومن هنا يعرف أنّ هذه المخالفة ليست جبرية كالأُمور التكوينية بل أنّها وإن كانت واجبة على الناس بصورة عامة إلّا أنّ العمل بها يكون باختيار الناس، فمن عمل بها فيكون من المؤمنين ويكون في درجة السعداء ومن لم يعمل بها فهو من الخاسرين. فلاحظ.

(٢) قال الله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ...**﴾ (سورة النساء:٧٩).

➲ الظاهر أنّ هذه الآية الكريمة والآية السابقة عليها وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِن عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ ٱللهِ فَمَالِ هٰـؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ (سورة النساء:٧٨) فهما تشيران إلى قضية مذكورة في باب الجبر والتفويض وهي: أنّه وإن كانت الأُمور تتصل بالله سبحانه من جهة أنّ الله تعالى وهب الإنسان القدرة والقوة وحرية الانتخاب والاختيار إلّا أنّ كل ما يختاره الانسان ويفعله يكون بإرادته.

فإنّ الفعل ينسب للإنسان لأنّه صادر عن وجوده وإرادته فانّ الانسان هو الذي يحدّد اتّجاه الفعل. ولذلك يقال: كلّ إنسان مسؤول عن أعماله خيرها وشرها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الإنسان:٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (سورة يونس:١٠٨).

وقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (سورة الانسان:٢٩).

وعلى هذا الأساس، يمكن أن يقال: أنّ حصيلة هذين الآيتن أي قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ...﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ...﴾ معاً تثبتان قضية الأمر بين الأمرين التي جاءت في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في باب الجبر والتفويض. راجع: أُصول الكافي ج١: ص١٥٦ باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين، لأنّ هذين الآيتين تبيّنان جهتين من الأمر حيث أنّهما نزلتا في شأن اليهود وهم الذين كانوا يقولون: أنّ جميع الوقائع النافعة الحادثة حين بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم منسوبة الى الله وجميع الوقائع الضارة كانوا ينسبونه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فالآية السابقة تقول: إنّ الوقائع والأحداث كلها بيد الله، فالله الذي يهب الإنسان ما يستحقّه ويعطيه بحسب قيمته الوجودية النعم فجميع الأُمور راجعة إليه ففي هذا المقام ـ أي في مقام بيان أن الله تعالى وهب الإنسان القدرة والاختيار والحرية في الأنتخاب ـ قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ ٱللهِ﴾.

➲

بعدها بالمعنى الذي قاله، فانّه ليس له دخل بمحل البحث[١]، إنّه حسبما عنونه

⬅ وأمّا في الآية التالية يصرّح القرآن بأنّ كل ما يصيب الإنسان من خيرات وفوائد وكل ما يواجهه الكائن البشري من سرور وانتصار هو من عند الله، وان ما يحصل للإنسان من سوء وضرر وهزيمة أو خسارة فهو بسبب الانسان نفسه.

وتبيّن هذه الآية أنّ كل ما يفعله الإنسان من شر فانّه سبب لوقوعه لأنّ كل جهة سيئة أمر عدمي لا ينسب إلى الله وإن كانت من جهة إعطاء القدرة الى العبد ينسب اعطاء هذه القدرة والحرية والاختيار في العمل إلى الله سبحانه، إلّا أنّ استخدام هذه القدرة ان كان في محلّه فهو من الأفعال الحسنة التي منشأها نعمة القدرة والأمن والسلامة والصحة والغنىٰ وغير ذلك كلها من الله سبحانه وأمّا اذا استخدمها الإنسان في غير محلّه أي إستعمل القدرة في الشرور والاعمال القبيحة فإنّ ما يفعله الانسان هو باختياره وقدرته فيرجع نتيجة عمله إليه حيث انّه عمل بسوء اختياره فانّ الله سبحانه وتعالى أعطاه القدرة ليستخدمها الإنسان في الطريق الصحيح الذي تعلّمه الانسان بواسطة الأنبياء وأوصيائهم المرضيين باستمرار المرسلين ونصب رسالة السماء بإتمام الحجة على البشر بعد أن أعطاهم الاختيار في اعمالهم وهذا معنى الأمر بين الأمرين والردّ على القول بالجبر أو التفويض. وقد ورد هذا المعنى في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام:

ففي قرب الإسناد عن البزنطي، قال: قلت للرضا عليه السلام: إنّ أصحابنا بعضهم يقول بالجبر، وبعضهم بالاستطاعة، فقال لي: اكتب، قال الله تبارك وتعالى: يابن آدم، بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أدّيت إلَيَّ فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعاً بصيراً قوياً، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذلك أنّي أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني، وذلك أنّي لا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون، فقد نظّمت لك كل شيء وتريد... (قرب الإسناد للحميري: ص٢٧٤ ح١٢٥٧).

وبالجملة: فالذي لا تنسب إلى الله من الأفعال هي المعاصي من جهة أنّ المعاصي إنّما هي أفعال الناس وصرف العبد نعمة الاختيار في جهة السوء وأمّا إن صرفها في جهة الإيجاب فهي نعمة إلهية استمتع بها العبد فيكون من عند الله تبارك وتعالى. فلاحظ.

(١) فإنّ كل من له أدنىٰ معرفة بالمسألة يعرف أنّ ما ذكره ابن تيمية في المقام هو خلط بين ⬅

السنّي بنفسه مختص بأنّ مِنّة الله سبحانه على المؤمنين بالهدى تزيد على منّته به على الكافرين[١].

➲ المسألتين لا ربط بينهما إذ من ناحية أنكر وجود الفرق بين القضايا التكوينية والقضايا الشرعية كما تقدّم بيانه آنفاً.

وقد أجاب عنه المصنف رحمه الله بما له الكفاية، ومن ناحية أُخرىٰ ذكر الآيات والأدلة التي تنفي الجبر والتفويض. فلا يخفى على الخبير خبطه وخلطه في هذه المسائل، وإنّما أراد بذلك التشنيع والتلبيس لعموم الناس، وإلّا فإنّ افترائه واضح عند أهل الخبرة، لأنّ الخبير يعلم الفرق بين الأُمور التكوينية والتشريعية، وأيضاً يعرف محل النزاع في مسألة الجبر والتفويض وكيفية دلالة الآيات والروايات الواردة فيها، وهذه طريقة علماء السوء الذين يحاولون أن يغطّوا على الحقائق ولو بالمغالطة والجدل بالأسوء لكي لا يظهر الحق للناس، ولئلّا تكشف لهم الحقيقة. فلاحظ.

(١) فإنّ ما ذكره ابن تيمية من أنّ الله تعالى قد منّ على المؤمنين بالهدىٰ زيادة خاصة لهم دون أن يجعلها للكفار، مخالف لما استدل به هنا من الآيات حيث أنّ من الآيات قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾ (سورة النساء:٧٩) فإنّ هذه الآية الكريمة تدلّ بالصراحة على أنّ ما يصيب الإنسان من الخير فمن الله بصورة عامة ومطلقة سواء كان ذلك الإنسان مؤمناً أو كافراً، وما يصيبه من الشر فهو من نفسه مطلقاً سواء كان كافراً أو مؤمناً. فالآية الكريمة لا تنسجم مع ما بنىٰ عليه ابن تيمية في الاعتقاد من أنّ الله تعالى جعل عنايته في الهداية زيادة للمؤمن دون الكافر، فإنّ هذا يوجب الظلم حيث للكافر أن يحتج على مولاه ويقول: بأنّه لو كان له من تلك العناية والرحمة زياة لكنت من المؤمنين أيضاً.

والأمر بالنسبة إلى الآيات الأُخرىٰ تكون كذلك فإنّها مخالفة لما ذكره ابن تيمية بعين هذا البيان كما هو واضح ظاهر.

وخلاصة الكلام: أنّ أدلّة الهداية من قبل الله تعالى عامة شاملة لجميع الناس ومقتضية لهداية جميع الناس عموماً، فمن عمل بها واستجاب الدعوة الإلهية فيكون في زمرة المؤمنين ومن لم يستجب دعوة ربه فهو من الكفّار. فالدعوة الإلهية عامة ليست زيادة لأحد دون الآخر. فلاحظ.

فأمّا مسألة الخير الدنيوي من كثرة المال، والعزّة والرئاسة، وزيادة الولد، والعشيرة، وصحة البدن، وغيرها فليست من محل البحث في شيء،[1] بل مِنّة في

(١) فإنّ المستفاد من الآيات والروايات المذكورة في المقام: أنّ هذه الدنيا سوق ومحل للبيع والتجارة والزراعة وغير ذلك، فكل ما يبذل الإنسان جهده في سبيل تحصيل الظواهر الدنيوية من المال والجاه وغير ذلك سوف يمكن أن يصل إليها كما هو مقتضىٰ العادة، فإنّه مثلاً: إذا زرع الأرض زراعة سوف يحصل على الربح نتيجة زراعته وكذلك في التجارة والصناعة والحياكة وغير ذلك من الأُمور التي تصنعها يد البشر وتكون من الظواهر الدنيوية التي تشمل الجميع ويستفيد منها الكل بَرّاً كان ام فاجراً، صالحاً كان أم طالحاً. فإنّها تابعة لعمل الإنسان. وهناك أفعال خاضعة للقوانين التكوينية الفيزيائية والبيولوجية التي لا دخل للإنسان في الحصول عليها: كمرور الزمان وجاذبية الأرض و...

فإنّ الأفعال الاختيارية الصادرة عن الإنسان يمكن أن تكون بنية الخير وعن إيمان وشعور صحيح، ويمكن أن لا يكون كذلك فإنّ كل هذه الموارد المذكورة لا توجب وحدها السعادة الأُخروية بل أنّ ما يوجب النعمة أو العذاب من جهة صدورها عن إيمان أو كفر لا أنّ من كان له أكثر مالاً أو قوة او ثروة أو لذة أو جمالاً يكون له السعادة للزيادة التي أعطاها الله إيّاه في هذه الدنيا. فإنّ كل ذلك وسيلة لاختيار الناس من جهة معرفة الحق والحقيقة.

ويتضح الأمر أكثر وضوحاً من خلال النظر إلى التأريخ؛ فإنّه يبيّن لنا هذه الحقيقة بشكلٍ واضح فعلىٰ سبيل المثال، أنّ من رجع إلى تأريخ أصحاب الكهف وتأمّل في جزئياته يذعن بأنّ الإيمان بالله ثروة عظيمة لايقابلها أية نعمة، فإنّ أصحاب الكهف كانوا من الوزراء وأصحاب المناصب الكبيرة داخل الحكم آنذاك، وقد نهضوا ضد الحاكم وضد مذهب الوثنية واختاروا حياة الكهوف على هذه الحياة قراراً للفوز بالسعادة وخلاص أنفسهم من طاغوت زمانهم، فإنّ الحصول على هذه السعادة كان باختيارهم إذ كان يحتاج إلى المزيد من الشهامة والهمّة والروح والإيمان العالي.

فإنّ البيتوتة في ذلك الكهف البارد المظلم الذي قد يتضمّن خطر الحيوانات المؤذية كانت أعز عند أصحاب الكهف من الحياة التي كلها كانت عيشاً رغداً، لأنّه عندما عرفوا أنّ هناك عالم من النور والإخلاص والتوحيد والمعاني السامية قد جذبتهم روحانية ذلك العالم العظيم ←

➲ فاختاروا هذا الطريق الصعب فالتحقوا بالموحّدين وتركوا الدنيا بظواهرها الواسعة باختيارهم ولم يكن هناك إجبار للعمل، فهذه السعادة والنعمة الإلهية هي التوفيق بالعناية الربانية ولذلك أنّ الله سبحانه وتعالى يحكي قصتهم من باب أبرز مصاديق المؤمنين الحقيقيين، فيقول تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ (سورة الكهف:١٣).

فبيّن تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة الجمع بين الفتوة والإيمان اللذين هما أساس الخيرات وهي تضمن سعادة الإنسان.

ثم إنّ الآية الكريمة تبيّن الإمداد الإلهي للمؤمن الحقيقي بأنّ الإنسان لو خطىٰ خطوة في طريق الله بإيمانٍ وإخلاص فإنّه سوف يشمله الإمداد الإلهي، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾، وفي مكانٍ آخر يقول تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ (سورة الكهف:١٤).

فالمستفاد من قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...﴾ أنّ بذرة التوحيد كانت منذ البداية مرتكزة في قلوبهم إلّا أنّه لم يكن لديهم قدرة على إظهارها ولكن الله بتقوية قلوبهم أعطاهم القدرة على إظهارها، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (سورة الروم: ٣٠).

فإنّ أصل التوحيد فطري ينشأ من فطرة كل إنسان عاقل له قدرة الإدراك، فأصحاب الكهف أدركوا حقيقة هذا الأمر وسعوا في تحقيق ذلك.

وآيات أُخرىٰ تؤيد هذه الحقيقة بوضوح: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (سورة العنكبوت: الآية الأخيرة) وفي سورة محمدﷺ: الآية رقم ١٧: تقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

وخلاصة الكلام: أنّ المستفاد من مجموع الآيات والروايات هو أنّ اللطف الإلهي والعناية الربانية تشمل للمؤمنين الحقيقيين حيث أنّ المؤمن الحقيقي عندما يريد الدخول في جادة الحق يشاهد أنّ هذه الجادة مليئة بالموانع والصعوبات، فيرىٰ من العسير طيّ هذا الطريق والوصول إلى الهدف من دون لطف وعناية ربانية فيلتجئ إلى هذا الحصن الحصين، وهذا معنى الزيادة ➲

هذه على الكفرة من باب إتمام الحجة عليم أعظم[(١)]

➲ في الهدى، ولذلك تجد في القرآن الكريم أنّ الله تعالى يخاطب نبيه ويقول: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ (سورة الكهف:٢٨).

فقد روى المفسّرون في نزول هذه الآية الكريمة: أنّ مجموعة من أشراف قريش ومن المؤلّفة قلوبهم جاؤوا الى النبيﷺ وقالوا له: يا رسول الله، إن جلست في صدر المجلس ونحّيت عنا هؤلاء وروائح صنانهم (أي نتن الإبط) كانت عليهم جبات الصوف جلسنا نحن اليك وأخذنا عنك، لأنّه لا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء، وكانوا يقصدون في كلامهم المستضعفين والفقراء من أصحاب رسول اللهﷺ من أمثال: سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وغيرهم.

وهنا نزلت هذه الآية الكريمة وسلّت خاطر رسول اللهﷺ حيث تقول: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم....﴾ (سورة الكهف: ٢٨) وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ (سورة الأنعام: ٥٢).

فالقرآن الكريم وضع هاتين المجموعتين أحدهما في مقابل الآخر من حيث الصفات، فمن جهة جماعة من المؤمنين وهم مؤمنون حقيقيون إلّا أنّهم فقراء، ولهم قلوب مملوءة بحب الله يذكرونه باستمرار ويسعون اليه.

ومن جهة أُخرىٰ الأغنياء المستكبرون الغافلون عن ذكر الله الذين كانوا يتّبعون الهوىٰ وخارجون عن حدّ الاعتدال في كل أُمورهم، فالقرآن بصراحة يقول للرسولﷺ: كن مع الطائفة الأُولى واترك الطائفة الثانية. والى غير ذلك من الآيات الواردة في المقام وكذلك الروايات المفسّرة لها. فلاحظ.

(١) فإنّ المال والصحة والسلامة والجاه وبسط السلطة والقدرة وغير ذلك من الظواهر المادية التي قد يتمتّع بها الكفّار والعصاة، فإنّها وسيلة لتكامل الإنسان واستشعاره بالعبودية أمام الخالق المتعال الذي يكون كل الخير صادر منه، وأنّ الإنسان متنعّم بجميع تلك الظواهر ليعرف الحق من الباطل والخير من الشر، وكل ذلك يكون من باب إتمام الحجة عليهم وإيضاح المحجة لهم لئلّا يقولوا يوم القيامة: إنّا كنّا بهذا الأمر جاهلين أو كنّا عنه غافلين، فإنّ ➲

➲ في هذه الأُمور وغيرها من الأُمور المادية والامتيازات الظاهرية عِبَرٌ ومواعظ وتنبيهات بما فيه من الكفاية من إتمام الحجة عليهم؛ لأن فيها السرور والغم والفرح والحزن والرغبة والرهبة والتعذيب والنعمة، وقد جعل الله تعالى في هذه الموارد عبرة لمن أراد الاعتبار.

ويتضح هذا الأمر من خلال درك هذه الحقيقة بأنّ هذه اللذّات قد تكون محفوفة بالآلام، أو أنّها تنقضي ولا تبقى، أو قد تكون خسارة من عدم نيل الإنسان الى ما يريده، أو وجود النقص فيما حصله، فتكون كل ذلك حسرة عليه، ويسلب منه الطمأنينة والراحة، ولابد أن يأخذ الإنسان العبرة من تلك الحالات العجيبة التي تتغير باسبابها وعوالمها ليعرف الانسان ضعفه أمام خالقه وإلّا سوف تكون حياته في حالة الاضطراب والقلق الدائم من عدم نيله الى السعادة المادية حيث أنّ مثل هذا الإنسان لا يرىٰ السعادة إلّا السعادة المادية، فإنّ السعادة عنده تدور مدار ما يراه من العيش المادي في هذه الدنيا وحيث لا تتحقّق مطامعه دائماً فينسلب منه حالة السلوىٰ والطمأنينة القلبية فيقضي حياته في الاضطراب النفسي.

والقرآن الكريم قد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة إبراهيم:٢٢).

هذه الآية الكريمة تبيّن أنّ الحجة القاطعة قائمة عند الإنسان دائماً وأنّ كان شيطان يسعىٰ في إغواء بني آدم ولكن ليس له عليهم سلطان.

ويظهر ذلك من خلال المحادثة الصريحة بين الشيطان وأتباعه التي أشارت اليها الآية الكريمة.

ونستفيد من هذه المحادثة بشكلٍ أكيد أنّ وساوس الشيطان لا تسلب الإنسان اختياره وحريته وإرادته بل هي مجرد دعوة ليس أكثر من ذلك، فالناس هم الذين يُلبّون دعوة الشيطان بإرادتهم كما نقرأ أيضاً في سورة الصافّات في شأن المشركين الذين كانوا يتحاجّون في يوم القيامة مع أتباعهم فيقولون: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ﴾ (سورة الصافّات:٣٠).

➲

مثل نمرود[1]،

➲ وعلى كل حال، فإنّ مظاهر الدنيا كلّها أسباب لاختيار الإنسان وتوعيته وذلك لإتمام الحجة عليه ولئلّا يظن أحد بأنّ الظواهر الدنيوية امتياز زائد خاص من الله تعالى لمن أعطاه الله تلك الظواهر من المال والقدرة وغير ذلك، فإنّ ما أعطاه الله تعالى هو من باب إتمام الحجة عليه، فكل ذلك تحذير لهم من باب أنّه تم بما فيه الكفاية من الحجة وتمّت عليهم الحجة.

ولذلك يقال لهم يوم القيامة: ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٣٠).

فإنّ القضاء الالهي لا يسلب عنهم الاختيار الذي عليه مدار المؤاخذة والمجازاة، ولا الاختيار الإنساني الذي عليه مدار السعادة والشقاوة، فمتابعة الإنسان الشياطين باختياره وإرادته هي المقضية لا أنّ القضاء يبطل اختيار الإنسان في فعله ولا أنّ القضاء يجعل الإنسان مضطراً، فإنّ القضاء الإلهي لا يكون إلّا خيراً فيجب الرضى، ولكن مع الأسف أنّ الانسان ظلوم كفور فيستخدم النِعم الإلهية في طريق الشر ولا يستخدمها في طريق الخير.

ثمّ إنّ الظواهر المادية المذكورة وغيرها إنّما تكون نعمة إذا وافقت الغرض الإلهي من خلقتها لأنّ بها تحصل السعادة والقرب الى الله بالعبودية والخضوع أمام عظمته لأنّ في القرب الإلهي ارتفاعاً عن حضيض هذه الدنيا التي هي بمالها من اشتغال الإنسان يسقطه عن مقام الإنسانية، فالقرآن الكريم علّمنا بأنّ القرب الالهي هي العبادة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

(١) وهو نمرود بن كنعان من أحفاد سام بن نوح، وكان قد ملك الشرق والغرب، فقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن السدي قال: إنّ أوّل من مَلِكَ مُلك الأرض شرقها وغربها نمرود بن كنعان بن كوشن بن سام بن نوح، وكانت الملوك الذين ملكوا الأرض أربعة؛ نمرود وسليمان بن داود وذوالقرنين وبخت النصر... (تفسير ابن أبي حاتم الرازي ج٨: ص٢٧٧٦).

وقال السمرقندي: وهو أوّل من تجبّر وقهر وسنّ سنن السوء، وأوّل من لبس التاج فأهلكه الله ببعوضة دخلت في خياشمه، فعذّب بها أربعين يوماً ثم مات (التفسير لأبي الليث السمرقندي ج٢: ص٢٤٨).

➲

وعاد،(١)

➲ وفي حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ملك الأرض كلها اربعة مؤمنان وكافران فامّا المؤمنان فسليمان بن داود عليهما السلام وذو القرنين والكافران نمرود وبخت النصر... (الخصال للشيخ الصدوق:ص٢٥٥ح ١٣٠).

فكان نمرود ذلك الملك الجبار الذي ادّعى الأُلوهية، وأمر بعمل الأصنام على صورته ونشرها على بلاده وأمرهم بعبادته والسجود لها ولم يكن في عهده مؤمن حتى بعث الله خليل الرحمن... (أُنظر: شرح أُصول الكافي للشيخ محمد صالح المازندراني ج١٢: ص٥٢٩).

وهو الذي جادل إبراهيم الخليل عليه السلام في ربه وسأل إبراهيم عليه السلام عن ربه من هو الإلٰه الذي تدعوني اليه؟

قال إبراهيم عليه السلام: رب الذي يحيي ويميت... .، وهذه القضية أعظم قضية وهي قضية الخلقة يعني: قانون الحياة والموت الذي هو أوضح آية على علم الله وقدرته حيث أنّ الموت والحياة لا يمكن لأحد إنكاره حتى مثل نمرود، ولكن نمرود اتّخذ طريق المجادلة والسفسطة وتزييف الحقائق بشكل آخر لإغفال الناس والملأ من حوله فقال: إنّ قانون الحياة والموت بيدي قال: «أنا أُحيي وأُميت» ومن أجل إثبات هذه الدعوىٰ الكاذبة استخدم حيلة كما في الرواية المعروفة المذكورة في تفسير الآية ٢٥٨ من سورة البقرة حيث أمر بإحضار سجينين أطلق سراح أحدهما وأمر بقتل الآخر.

ويتبيّن جليّاً من خلال الآية الكريمة أنّ نمرود لم يكن في الواقع يبحث عن الحقيقة، بل كان يريد أن يظهر باطله بمظهر الحق، وأنّ إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنّ نمرود لا يستطيع أن يحيي ويميت ولكن مهارته في الدجل جعلت إبراهيم عليه السلام يأتيه بسؤال لا قدرة له على جوابه، فذكر ابراهيم عليه السلام دليلاً آخر لإحباط هذه الحيلة، فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ (سورة البقرة:٢٥٨).

(١) وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقد سمّيت قبيلته باسمه، كما قد يقال لبني أمية أُمية، ففي قوله تعالى: ﴿ألا انّ عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ (سورة هود:٦٠).

وذكر الثعلبي في تفسيره: أنّه كانت قصة عاد وهلاكهم على ما ذكره محمد بن إسحاق والسدي وغيرهما من الرواة والمفسّرين: أنّ عاداً كانوا ينزلون اليمن وكان مساكنهم منها بالشجرة ➲

وفرعون[١]،

➲ والأحقاف وهي رمال يقال لها «رمل عالج» ما بين عمان الى حضر موت... (تفسير الثعلبي ج ٤: ص٢٤٦).

وروىٰ الحاكم في المستدرك: أنّه كان ساكن عاد في رمالها، وكان بلاد عاد أحصب بلاد العرب وأكثرها ريفاً وأنهاراً وجناناً... (المستدرك على الصحيحين ج ٢: ص ٥٦٤).

وقال العلامة الطبرسي رحمه الله في تفسيره: إنّ عاداً كانوا ينزلون اليمن وكانت مساكنهم بالشجر والأحقاف... وكان لهم زرع ونخل، ولهم أعمار طويلة وأجساد عظيمة، وكانوا أصحاب أصنام يعبدونها، فبعث الله تعالى اليهم هوداً نبياً وكان من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً، فدعاهم الى التوحيد، وخلع الأنداد، فأبوا عليه وكذّبوه وآذوه وأمسك الله عنهم المطر سبع سنين وقيل: ثلاث سنين حتى قحطوا... (تفسير مجمع البيان ج ٤: ص٢٨٧).

وأخرج الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة هود: ٥٠) بسنده عن السدي قال: إنّ عاداً أتاهم هود، فوعظهم وذكّرهم بما قص الله في القرآن، فكذّبوه وكفروا به وسألوه أن يأتيهم العذاب، فقال لهم: «إنّما العلم عند الله وأُبلّغكم ما أُرسلت له...» (جامع البيان لابن جرير الطبري ج٨: ص٢٨٨).

والظاهر من الآية الكريمة أنّ هود عليه السلام دعا قومه الى التوحيد في منتهى الشفقة والعطف حيث أنّ التعبير القرآني هو: وإلى عاد أخاهم هوداً... فإن كلمة «أخوهم» تدلّ على أنّ دعوته كانت عن محبّة وأُخوة.

ثم أضاف تعالىٰ قائلاً: «إنّي لكم رسول أمين»، فلم تجدوا مني غير الصدق والحق، ولا تتصوّروا بأنّي أدعوكم لأنتفع من وراء دعوتي إياكم في حياتي الدنيا، فلست أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على رب العالمين.

ولكن قوم عاد كذّبوا هوداً فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (سورة هود: ٦٠) فألحق الله بهم الهلاك فأهلكوا بالريح والصاعة جميعاً.

(١) إنّ فرعون اسم يطلق على ملوك مصر، وكان اسم فرعون زمان موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن معاوية، وقد قام مقام أخوه قابوس بن مصعب بعد موته وتسلّط على الملك.

قال الطبري: وكان الوليد بن مصعب أعتىٰ من قابوس وأكفر وأفجر منه، وهو تزوج آسية بنت ➲

➲ مزاحم... (تاريخ الطبري ج١: ص٢٧١).

وقال أيضاً: ولم يكن في الفراعنة أشد غلظة ولا أقسىٰ قلباً ولا أسوأ ملكة لبني إسرائيل منه، فإنّه كان يعذّبهم فيجعلهم خدماً وخولاً، وصنّفهم في أعماله، فصنف يبنون وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله فعليه الجزية... (تاريخ الطبري ج١: ص٢٧٢).

ويستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ فرعون شدّد إرهابه على بني إسرائيل التصدّي لقوتهم، وقد أمر بقتل أبنائهم وإبقاء بناتهم للخدمة لكي يمنع ولادة ولد من بني إسرائيل الذي يزيل ملكه حيث أنّ المنجّمون أخبروه بولادة ولد من بني إسرائيل وأنّه سوف يثور عليه ويزيل ملكه، فكان يشدّد عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص: ٤).

وقال تعالى مخاطباً لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأعراف: ١٤١).

فالآية الكريمة صريحة بأنّ بني إسرائيل كانوا دوماً تحت التعذيب من قبل الفراعنة، ثمّ عبّر القرآن من ذلك بالبلاء العظيم الذي كان يتمثّل في قتل أولادهم الذكور واستخدام الإناث لخدمة آل فرعون، واستثمار طاقات بني إسرائيل لخدمة الأقباط وإشباع رغبات ونزوات المستكبرين.

ففي هذين الآيتين وغيرهما من الآيات قد ذكرت ما ارتكبه فرعون من التعذيب والإرهاب في حق بني إسرائيل.

وفي الحقيقة: إنّ فرعون وقومه الظالمين قد فرضوا على بني إسرائيل أحكاماً جائرة أُخرى، إلّا أنّ هذين العذابين كانا أشدّ وأصعب، ولذلك ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ فرعون كان يريد تحطيم قوة بني إسرائيل من جهة، وكان من جهة أُخرىٰ غير راغب في انقراض نسلهم تماماً لأنّه كان يعتبرهم عبيداً يصلحون للخدمة فقط، ولذلك كان قد أمر بأن يتركوا الأولاد سنة ويذبحونهم سنة أُخرىٰ، فكان أن ولد موسى عليه السلام في العام الذي يقتل فيه الأولاد. فالله سبحانه ➲

وهامان[1]،

➲ وتعالى بين كيفية انتصار الحق على الباطل، ومَثل حَـيّ لانـتصار المسـتضعفين عـلى المستكبرين، بأنّ موسىعليه السلام كان في أشد حالات الضعف، أمّـا فـرعون فـهو فـي أقـوىٰ الحالات وأكثرها هيمنة ولكن انتصرت مشيئة الله على إرادة الجبابرة. فقال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ (سورة المزمّل:١٦) هذه الآية تشير إلى عـاقبة أمـر فرعون في عصيانه موسىعليه السلام، فقوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ...﴾ إشارة إلى أنّ ما كان لفرعون من العزّة والعلو في الأرض والتبجّح بكثرة العدد وسعة المملكة ونفوذ المشيئة لم يغن عنه شيئاً ولم يدفع عنه عذاب، ففي النهاية أُغرق في أمواج النيل المتلاطمة فغرق في النيل الذي يتباهى به بأنّه من ملكه فأخذه العذاب الشديد، فإنّ الوبيل عـبارة أُخـرىٰ عـن الشديد لأنّ الوبل بمعنى المطر الشديد والثقيل وكذا يطلق على كل مـا هـو شـديد وثـقيل بالخصوص في العقوبات، فالآية الكريمة تشير إلى شدّة العذاب النازل على فرعون كالمطر الشديد الثقيل.

(١) إنّ هامان كان وزير فرعون، وكان يتمتّع بنفوذ وسلطة إلى درجة بحيث كان قد يتدخّل في أُمور الحكومة بلا محدودية. تقول بعض الروايات: إنّ موسىعليه السلام حين استقبل ثدي أُمه، قال هامان لأُمّ موسى: لعلك أُمّه الحقيقية، إذ كيف أبىٰ جميع هذه المراضع ورضي بك؟!

فقالت: أيها الملك، لأنّي امرأة ذات عطر طيب ولبني عذب، لم يأت طفل رضيع إلّا قـبل بـي، فصدّقها الحاضرون وقدّموا لها هدايا ثمينة (أُنظر: تفسير الفخر الرازي ج٢٤: ص٢٣١).

ولا شكّ أنّ فرعون كان نموذج للطغيان والعصاة وحكّام الظـلم والجـور، وهـامان كـان رمـز للشيطنة والخطط الشيطانية.

ولذلك كانت دعوة موسىعليه السلام تستهدف القضاء على الحاكـم الظـالم والمـخطّطات الشـيطانية السياسية في حاشية السلطان الظالم.

ولمّا شاع خبر انتصار موسىعليه السلام على السحرة في مصر وإيمان السحرة بالله تبارك وتعالى زاد في الأمر أهمية، كما أنّ موقع الحكومة الفرعونية أصبح في خطر جدّي شديد، فكان على الحكومة أنّ تصرف أفكار الناس بأيّة قيمة كانت واشتغالهم بسلسلة من المشاغل الذهـنية لإغفالهم عن الحقيقة ومعالجة الموقف، ولذلك استشار فرعون وزيره هامان وغيره ممن كان ➲

➲ يشاورهم في الأُمور فوصلوا إلى هذه النتيجة أن يأتي فرعون في الملأ ويقول: أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأنا إلٰهكم في الأرض، وأمّا إله السماء فلا أدري عنه شيئاً ولكني سأُحقّق في الأمر. فالتفت إلى وزيره هامان وقال له: أوقد لي يا هامان على الطين، ثم أصدر الأوامر ببناء برج وصرح عالي مرتفع جداً، قال: لأصعد عليه وأستخبر عن إله موسىٰ.

وهنا يخطر بالبال هذا السؤال وهو أنّه: هل أنّ البرج الذي أرادت بناءه السلطة الفرعونية أكثر ارتفاعاً من الجبال التي كانت موجودة آنذاك؟ لماذا لم يقل: أصعد الجبال لأرىٰ إله موسىٰ، أو لماذا لم يقل: أوقد لي صرحاً على الجبال ليكون ارتفاعه أعلىٰ من الجبال؟!!!

فيعرف من ذلك أنّ الفراعنة أرادوا اشتغال ذهن الناس بشيء وإغفالهم عن الحقيقة.

وعلى كل حال، فإنّه قد ورد في بعض التواريخ أنّ هامان أمر بأرض واسعة ليبنى عليه الصرح أو البرج، وهيّأ خمسين ألف رجل من العمّال والمهندسين لهذا العمل الغريب، وفتح أبواب الخزائن لصرف الأموال الطائلة في هذا السبيل، وكلّما اعتلى البناء أكثر فأكثر كان الناس يأتون للتفرّج وماعسىٰ أن يفعل فرعون بهذا البناء وهذا البرج؟ صعد البناء الى مرحلة بحيث أصبح مشرفاً على جميع الأطراف، ولما بلغ البناء تمامه ولم يستطع البنّاؤون أن يعلوه أكثر من ذلك جاء فرعون نفسه يوماً وصعد بتشريفات خاصة فنظر الى السماء فوجدها صافية كما كان ينظرها في الأرض لم يتغير ولم يطرأ عليها جديد. والمعروف أنّه رمىٰ سهماً إلى السماء، فرجع السهم مخضّباً بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور، أو أنّها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل، فنزل فرعون من أعلى القصر، وقال للناس: اذهبوا فقد قتلت إله موسى (اقتبسنا هذه القضية من التفاسير في ذيل قوله تعالى: وقال ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هامَانُ عَلَى ٱلطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَىٰ...﴾ (سورة القصص:٣٨).

والخلاصة: أنّ الآية الكريمة تبيين مصدر الانحراف الخطير الذي يتورّثه الإنسان المغرور، فإنّ التعصّب القوي والغرور والتكبّر وحب الذات هي من أهم العوامل التي تقود إلى مثل هذه التصوّرات الخاطئة، وفي بعض الأحيان تكون سبباً لأعمال الإنسان الخاطئة المنحرفة بحيث يرىٰ ذلك من مفاخره كما قال تعالى: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَغَالِبَ لَكُمُ ➲

وقارون[١]،

➲ ﴿ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ (سورة الأنفال:٤٨) وذلك أنّ القرآن الكريم يقول بعد ذكر قصة برج فرعون في سورة غافر: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (سورة غافر: ٣٧).

وعلى كل حال، فإنّ فرعون إذا تسلّط على الناس وفعل ما فعل بهم من الظلم فكان بمساعدة هامان وأمثاله، ولذلك ورد في الروايات عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنّه من مدح سلطاناً جائراً أو تخفّف وتضعضع له طمعاً فيه كان قرينه في النار، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عزوجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (سورة هود:١١٣)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: من دلّ جائراً على جور، كان قرين هامان في جهنّم... (الأمالي للشيخ الصدوق ص١٥٤).

وخلاصة الكلام: أنّ عمل فرعون كان فساداً في الأرض كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص:٤) فهو استعلىٰ فكان استعلائه فساداً في الأرض ومن شرك في استعلائه كان شريكاً معه في فساده وظلمه، والخطط الإجرامية التي استعملها ضد الرسول والحجة الإلهية، فاستمرار حكومة فرعون الجائر بتقويته كما أنّ الأمر في حكومة السلاطين الغاصبين لحقوق أهل البيت عليهم السلام يكون كذلك.

ففي حديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً، إنّ الأبرياء منّا أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته، وإنّ عدوّنا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه (بحارالأنوار ج٢٤: ص١٦٧، ومجمع البيان للطبرسي ج٧: ص٤١٤).

(١) إنّ قارون كان من بني إسرائيل، ومن أرحام موسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾ (سورة القصص:٧٦). وقال العلّامة الطبرسي في تفسير هذه الآية الكريمة: أنّ قارون كان من بني إسرائيل وهو ابن خالة موسى عليه السلام، كما ورد ذلك في حديث عن عطاء عن ابن عباس، وروىٰ ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام، وقيل: كان ابن عم موسى عليه السلام لحاً؛ لأنّه كان قارون يصهر ابن فاهث، وموسى بن عمران بن فاهث... (اُنظر: مجمع البيان ج٧: ص٤٥٩).

والحاصل أنّ قارون من أقارب موسى عليه السلام سواء كان ابن عمه أو ابن خالته، وقد ذكروا أنّه كان في بداية أمره مع المؤمنين وكان عارفاً بالتوراة، قال الثعلبي: إنّه قال العلماء بأخبار القدماء، ➲

⮌ إنّ قارون كان أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون، وأقرأهم للتوراة، وأجملهم، وأغناهم، ولكنه نافق كما نافق السامري فبغىٰ على قومه... (تفسير الثعلبي ج٧: ص٢٦٤).

فالغرور والثروة قد جرّه إلى الكفر ودعاه إلى أن يقف بوجه موسىعليه السلام فكان سبب بغيه وظلمه أنّه كان ذا ثروة عظيمة والقرآن الكريم عندما يشير الى ثروته يقول: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ...﴾ (سورة القصص:٧٦). فإنّ المفاتح جمع مفتح، والمفاتيح جمع مفتاح ومعناهما واحد وهو عبارة عمّا يفتح الأغلاق.

أو أنّ مفاتح جمع مفتح على زنة مكتب، ومعناه: المكان الذي يدخر فيه الشيء كالصندوق الذي يحفظ فيه المال، وهو ما يسمّيه بعض التجّار: القاصة.

وعلى أيّة حالة إنّ قارون كان ذا مال عظيم وكثير ووفير من الذهب والفضة وغير ذلك بحيث كان يصعب حمل صناديقها على الرجال أو كان يصعب حمل مفاتيح صناديقه إلّا على الرجال الأشدّاء أُولي قوة.

وأنّ كلمة «عصبة» تعني الجماعة المتآزرون يداً بيد على أمر مهم. وقال بعض المفسّرين: إنّ العصبة هي من عشرة رجال إلى أربعين رجلاً.

وأنّ كلمة «تنوء» في الآية الكريمة من النوء ومعناه: القيام بالمشقّة والثقل، وتستعمل في حمل الأثقال التي لها ثقل ووزن كبير بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه.

والمهم أنّ قارون كان ذا مال وقدرة عظيمة اجتماعية بسبب أمواله الطائلة.

ونستفيد من بعض الآيات أنّ قارون كان من جماعة فرعون حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (سورة غافر:٢٣و٢٤) فإنّ المستفاد من هذين الآيتين أنّ رسالة موسىعليه السلام كانت من البداية لمبارزة ثلاثة أشخاص المذكورين في الآية الكريمة، ومن هنا نعرف أنّ قارون كهامان كان من جماعة فرعون وكان على خطه، كما ورد في التواريخ أنّ قارون كان ممثلاً لفرعون في بني إسرائيل كان أمين الصندوق عند فرعون، والمسؤول على خزانته (أُنظر: تفسير الفخر الرازي ج٢٥: ص١٣، وتفسير مجمع البيان ج٧ ص٢٦٦ ذيل الآية الكريمة).

ومن هنا نعرف أنّ قارون كان له سهم عظيم في إذلال بني إسرائيل وسلب أموالهم فاختار فرعون ⮌

⬅ هذا الرجل المنافق من بني إسرائيل لإجراء مقاصده ومناويه فأودعه أزمة أُمورهم ليستثمر أموالهم لخدمة نظامه الجبّار، وليجعلهم حفاة عراة، ويكتسب من هذه الطريقة ثروة ضخمة.

ويقال: أنّ الثروة العظيمة التي حصلها قارون هي أموال الناس والأموال التي بقيت عنده من خزائن فرعون حيث أنّه بعد هلاك فرعون أخذها إغارة.

وعلى كل حال، فسواء كانت هذه الثروة قد حصل عليها في عصر فرعون أو حصل عليها عن طريق الإغارة على خزائن فرعون وهلاكه أو غير ذلك كما قال البعض أنّه قد حصل عليها عن طريق علم الكيمياء أو التجارة أو غير ذلك، فإنّه مهما كان سبب تحصيله هذه الثروة العظيمة فإنّ قارون كان من أعداء موسى عليه السلام ولم يدخل قلبه ذرة من الإيمان بل كل ما كان يفعله ضد موسى عليه السلام كان من باب النفاق، وقد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق وجرّه إلى الانحراف والاستكبار.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ﴾ (سورة القصص:٧٩ و٨٠).

فالقرآن يتحدّث عن غروره واستكباره بصورة موجزة فيقول: «فخرج على قومه في زينته»، ففي رواية أنّه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف في زيه... (أُنظر: تفسير شبّر: ص٢٧٨).

ثم ذكر المؤرخون في هذا الصدد: أنّه خرج في استعراض كبير على بني إسرائيل وقد أركب أربعة آلاف نفر على أربعة آلاف فرس حمر غالية القيمة، مغطّاة بالقماش الفاخر، وقد ملأها زينة من الذهب والجواهر الأُخرىٰ، فمر بهذا الاستعراض على بني إسرائيل، وقد أثار هذا النظر الناس، لمّا رأوا أربعة الآف من الخدم أبيض يلبسون ثياباً حُمراً مع زينتهم.

فهنا أصبح الناس طائفتين: طائفة وهم الأكثرية ـ من عبدة الدنيا ـ أثارهم هذا المشهد، فاهتزّت قلوبهم وتأوّهوا بالحسرات وتمنّوا كانوا مكان قارون ولو يوماً واحداً ولو ساعة واحدة وحتى ولو لحظة واحدة ولذلك أنّ القرآن يذكر ما تمنّوه هذه الجماعة بقوله تعالى: ﴿قَالَ

⬅

ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، فهنا جاء دور الامتحان الإلهي، فمن جانب كان القوم يرون أنّ قارون له أموال إلاّ أنّه لم يستخدمها في خدمة دين موسى عليه السلام بل كان يستعرضها على الجماهير استنكاراً على دين الله ورسوله موسى عليه السلام وهذا أمر معروف عند أصحاب الثروة من أنّهم يتلذّذون باستعراض ثروتهم على الآخرين خصوصاً حينما يمرون على المستضعفين وحفاة الأقدام من الناس ليحقّرونهم بذلك، فحينئذٍ يشعرون بالراحة النفسية لا سيما حين يرون أنّ الفقراء يلتفتون اليهم ويهوون ذلك الجاه، وقد يقولون: ما أعظم جلاله وعزّته وغير ذلك مما يدل على ما تتمنّاه النفوس الضعيفة.

ولكن في مقابل هذه الطائفة كانت طائفة أُخرىٰ: وهم من العلماء والمتقين الورعين الذين سمعت آفاقهم عن مثل هذه المسائل المادية، وكانوا حاضرين وشاهدين ذلك المشهد الذي مرّ عليهم، وحيث أنّ هؤلاء القوم لم يُقوّموا الشخصية بالذهب والفضة والقوة وغير ذلك من المظاهر الدنيوية المادية فلم تبرههم هذه المظاهر، بل كانوا يسخرون ويتبسّمون تبسّم الاستهزاء والازدراء، وكان يحقّرون هذه الرؤوس القارعة، فهؤلاء كان لهم موقف آخر من قارون كما يعبّر القرآن عنهم ويقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ﴾ (سورة القصص: ٨٠). اولئك الذين لا تهزهم زخارف الدنيا وزبارجها، ويفقهون باستقامة جولة وشهامة أمام المتكبّرين المتجبّرين المحاربين لله ورسوله ولأوليائه ولا يطأطئون رؤوسهم للأراذل ممن لا يعرف قيمة الإنسان إلّا بمادة، فكانوا يقفون أمام هؤلاء كالجبل الراسخ في هذا الامتحان الإلهي وهؤلاء هم الجديرون بثواب الله سبحانه، والظاهر أنّ هؤلاء العلماء من علماء بني إسرائيل الذين كان منهم يوشع بن نون.

والجدير بالذكر: أنّ القرآن عبّر عن الطائفة الثانية بـ «الذين أُوتوا العلم» فأراد الله تعالى بذلك أن يبيّن لمثل قارون الذي كان يدّعي العلم بأنّ العلماء الحقيقون هم الذين لا يريدون الحياة الدنيا كما أرادت الطائفة الأُولى من الناس، وكما أرادها قارون فإنّه لا يكون في زمرة العلماء بعمله هذا.

وغيرهم من الكفرة[1].

➲ وعلى كل حال، فقد أوصل قارون بعمله هذا طغيانه وعناده إلى الدرجة القصوىٰ.

ثم جاء زمان الامتحان بالنسبة إلى قارون ليعرفوه الناس، فقال له موسىعليه السلام: إن الله أمرني أن آخذ الزكاة منك فأبىٰ قارون وقال لموسى: إنّ أمرك ربك فاجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك.

قال موسى: نعم فجمعم، وقال لهم: إنّ الله أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا... وأن تعطوا الزكاة.

ومن جملة ما قاله موسىعليه السلام هو: أنّ الله أمرني في الزاني إذا أُحصن أن يرجم، فقال له: هـذه حده؟ قال موسى: نعم، قال قارون: فإنّك قد زنيت، قال موسى: أنا؟!!! فأرسـلوا الى امـرأة فجاءت وشهدت على موسىعليه السلام، فقال لها موسىعليه السلام: أُنشدك بالله إلّا ما صدقت، قالت: أنا إذ أنشدتني فإنّهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنك بريء وأنك رسول الله، فخرّ موسىعليه السلام ساجداً وبكى، فأوحىٰ الله إليه: ما يـبكيك قـد سـلّطناك عـلى الأرض فمرها فتعطيك، فرفع موسىٰعليه السلام رأسه فقال: خذيهم، فأخذتهم إلى أعقابهم.

فيقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ (سورة القصص:٨١) أي فظهر بـخسفنا بـه وبـداره وبأمواله الأرض بطلان ما كان يدّعيه.

أجل حين يبلغ الطغيان والغرور وتحقير المؤمنين الأُبرياء والمؤامرة ضد الدِّين وأصحابها تتجلّىٰ قدرة الله تعالى وتطوي حياة الطغاة وتدمّرهم تدميراً لكي يكون عبرة لغيرهم، وبهذه الصورة انتهى أمد سلطة قارون وتكبّره وتجبّره وغروره، فاعتبروا يا أُولي الألباب.

(١) فإنّ الحكّام والطواغيت الذين كانوا يخالفون دعوة الأنبياء والأوليـاء وكـانوا يـقفون أمـام الرسالة الالهية والدعوة الربانية ولا يرضون إلّا بإزالة الدين الإلهي من صفحة الوجود لم يكن عددهم قليل، فإنّ من نظر إلى تاريخ الأنبياء والأئمة عليهم السلام يجد أنّ كان في مقابل كل موسى كان فرعوناً وفي مقابل كل ولي من أولياء الله طاغوت من الطواغيت، وكانوا يدعون الناس إلى الكفر والجاهلية في مقابل دعوة الأنبياء والأولياء ومع ذلك حيث انّ مشيئة الله سبحانه مبنية على الحكمة وإتمام الحجة على جميع الناس فانّ الله تبارك وتعالىٰ استمر خط الرسالة ➲

➲ والامامة إلى يوم القيامة وذلك لدعوة الناس إلى الهداية وترغيبهم إلى صراط المستقيم والاستقرار على جادة الحق والحقيقة.

ثم انّ الله تبارك وتعالى قد يمدّ البعض بالنِعم الوافرة ويستدرجهم بالنعمة لكي يعرفوا الحق والحقيقة يتم الحجة عليهم ولمّا اعرضوا عن الحق وقعوا في الهلاك، أي أنّه تعالى يمهلهم ولا يتعجّل بالعذاب عليهم ويتم الحجة عليهم بإعطاء الفرصة الكافية لهم، لعلّهم يرجعون ويتّعظون وحيث أنّهم يصرّون على المخالفة والحرب مع الله وأوليائه فالله سبحانه وتعالى يأخذهم فجأةً وهم في ذروة النعم ويسلبهم كل شيء وهم في أوج اللذّة والتمتّع ليظهر لهم قبح ما كانوا يفعلون، وأنّ تمتّعهم في الأنعام والعافية تمتّع قليل قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَادِ«١٩٦» مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ (سورة آل عمران:١٩٦ـ١٩٧).

فالقرآن الكريم يبيّن لنا هذه الحقيقة بشكل واضح بأنّ النجاحات المادية التي يحصل عليها الكافرون والظالمون هي متاع قليل ولذّة عابرة حيث أنّ الملذّات المادية عادةً تستعقب عواقب سيئة؛ لأنّ مسؤولية هذه الأُمور المادّية والأموال والثروات والنعم الظاهرية والباطنية ستجر الإنسان عادة إلى مصير مشؤوم، وإلى محطتهم الأخيرة هي جهنّم وبئس المهاد لأنّ فقدان هذا النعيم أشد وقعاً على النفس، وأكثر مرارة من جميع ما يكابده الإنسان في الدنيا، كما نقرأ في الكتاب العزيز: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ﴾ (سورة الأنعام:٤٤). وهكذا استوصلت جذور أُولئك الظلمة وانقطع دابر الذين ظلموا.

وقال مولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في بعض خطبه: وسيجد التالون غبّ ما أسسه الأولون، ولئن كانوا في مندوحة من المهل وشفاء من الأجل وسعة ومن المنقلب واستدراج من الغرور وسكون من الحال وإدراك من الأمل، فقد أسهل الله عزوجل شداد بن عاد وثمود بن عبود وبلعم بن باعور، وأسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة وأمدّهم بالأموال والأعمار وأتتهم الأرض ببركاتها ليذكروا آلاء الله وليعرفوا الإهابة والإنابة إليه ولينتهوا عن الاستكبار، فلمّا بلغوا المدة استتمّوا الأكلة أخذهم الله عزوجل واصطلمهم، فمنهم من حصب ومنهم من ➲

⬅ أخذته الصيحة ومنهم من أحرقته الظلمة ومنهم من أودته الرجفة ومنهم من أودته الخسفة، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (الكافي ج٨: ص٣٠ح٤).

فهذه الكلمات القيّمة هي بعض مقاطع خطبة الإمام عليه السلام وهي الخطبة المعروفة بخطبة الوسيلة التي خطبها المولى عليه السلام بالمدينة المنوّرة بعد سبعة أيام من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك بعد أن فرغ من جمع القرآن وتأليفه.

والخطبة فيها دروس قيّمة من ذكر الامتحان الإلهي وإتمام الحجة على الخلق، بأنّ الله تعالى قد أنذر الظالمين والشياطين من الإغواء والغواية والإضلال والضلال، وقد أمهلهم وأعطاهم الفرصة الكافية لأن توقظهم من نومهم وأن يستعدّوا لقبول الحق، وأتمّ الحجة عليهم وذلك لا لعجزه سبحانه أو لعدم علمه بحال الظلمة وإنّما حكمته توجب أن يمنح الظلمة الفرصة الكافية لتتم الحجة عليهم ﴿قُلْ فَلِلّٰهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ (سورة الأنعام:١٤٩).

فهذه السنّة الإلهية وهي أنّه تعالى لا يعذّب قوماً حتى يتم عليهم الحجة البالغة لكن إذا تمّت الحجة، وفسح لهم المجال، ولم يتوبوا إلى الله أنزل عذابه ليرون مصير أعمالهم القبيحة لأنّهم عندما يصلون إلى مرحلة لا تفيدهم أيّ موعظة ولا سبيل إلى رجوعهم عن أفعالهم الشنيعة إلّا بالعذاب، فإنّ العذاب آخر مرحلة تنبّه.

وقد وردت هذه الدروس القيّمة في أحاديث أهل البيت عليهم السلام وكل ذلك من أجل أن تأخذ الناس العبرة وتهتدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ولذلك نقرأ في الحديث الوارد عن الامام الصادق عليه السلام حيث قال: من ظلم، سلّط الله عليه من يظلمه أو على عقب عقبه.

قال الراوي: قلت له: فيسلّط الله على عقبه أو على عقب عقبه؟!!! فقال: إنّ الله عزوجل يقول: وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديداً (الكافي ج٢: ص٣٣٢).

وأيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام قال: انّ الله عزوجل أوحىٰ إلى نبي من أنبيائه في مملكته جبار من الجبّارين أن ائت هذا الجبار فقل له: إنّني لم أستعملك على سفك الدماء واتّخاذ الأموال وإنّما استعملتك لتكفّ عني أصوات المظلومين، فإنّي لم أدع ظلامتهم وإن كانوا كفّاراً (الكافي ج٢: ص٣٣٣).

⬅

والصدمات والمصائب والفقر والضعف وغيرها في عباد الله الصالحين انّما هي لرفع درجات بعضهم(١)

➲ وقال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد (نهج البلاغة: الحكمة رقم ٢٢١).

وقال عليه السلام: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم (نهج البلاغة: الحكمة رقم ٢٤١). والى غير ذلك من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام التي تبيّن لنا هذه الحقيقة بشكل واضح بأنّ الدنيا لو أقبلت لأحد وأخذه الغرور نتيجة السلطة الحاصلة له من كثرة المال والعزّة الظاهرية والرئاسة الدنيوية وزيادة الأولاد والعشيرة وصحة البدن والعافية وغيرها ليست إلّا وسيلة للامتحان وإتمام الحجة عليهم.

فهذه الظواهر المادية إنّما يتمتّع بها الناس وحتى الظالمين ليتم الحجة عليهم ويقطع دابر القوم الذين يريدون إطفاء نور الله وإخفائه، وبطبيعة الحال فقد ورد في الروايات الجوانب المختلفة من هذا الأمر، ولا يسعنا المجال لذكر جميع تلك الجوانب. فلاحظ.

(١) لا يخفى أنّ البلايا والمصائب التي قد تتوجّه إلى الإنسان فيها جهات الايقاظ والوعظ والموعظة واتمام الحجة و... فإنّها وإن كانت مُرّة ويكرهها الإنسان ولكن نتيجتها إيقاظ وتنبيه للإنسان، فتكون نعمة من نِعم الله للبشر لإتّعاظهم وتذكرة لمن يتخذها عبرة.

وقد ورد في الحديث عن الامام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة (مستدرك الوسائل ج٢: ص٤٢٧ح٢٤٠٠).

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من ابتُلي فصبر، وأُعطي فشكر، وظُلم فغفر، وظَلَم فاستغفر، قالوا: ما باله؟ قال: أُولئك لهم الأمن وهم المهتدون (بحارالأنوار ج٦٤: ص٢٣٦).

ومن الواضح أنّه لما كان أغلب خوف الإنسان واضطرابه من الذنوب والعذاب الذي سيواجهه بعد ارتكاب المعاصي فإنّ الذي يجعل الإنسان في درع حصين هو إيقاظه وتنبيهه على خطئه فيتذكّر ويتعظ من ذلك البلاء، ولذلك نقرأ في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: إذا أراد الله بقوم خيراً ابتلاهم (بحارالأنوار ج٦٤: ص٢٣٦).

فالبلايا والمصائب تكون نِعم من الله تبارك وتعالى وهي وسيلة لتفجير الطاقات وتقدّم العلوم ورقيّ الحياة البشرية، فها هم علماء الحضارة يصرّحون: بأنّ أكثر الحضارات لم تزدهر إلّا ➲

وتمحيص ذنوب بعضهم في غاية الكثرة[١].

➲ في أجواء الحروب والصراعات والمنافسات حيث كان الناس يلجأون فيها إلى استحداث وسائل الدفاع في مواجهة المهاجمين، ففي مثل هذه الظروف تتحرك قابليات الإنسان وتقوم بجبران ما فات منه وتتميم ما نقص منه وتهيئة ما يلزم إعداده.

وبعبارة واضحة: إذا لم يتعرّض الإنسان للمشاكل في حياته فإنّ طاقاته ستبقىٰ جامدة هامدة لا تنموا ولا تنفتح، فإنّ خروج تلك الطاقات من القوة إلى الفعلية مرهون لوقوع الإنسان في مهب المصائب والشدائد والصعوبات وهي تجعل الإنسان وعياً وتخرجه من الكسل والفشل ويجعله صلباً راسخاً كالجبل.

وقد مثّل الإمام أميرالمومنين عليه السلام في هذا الصدد مثالاً رائعاً دقيقاً وهو قوله عليه السلام: «ألا وإنّ الشجرة البريّة أصلب عوداً والروائع الخضرة أرق جلوداً، والنباتات البدوية أقوىٰ وقوداً وأبطأ خموداً... (نهج البلاغة: الخطبة رقم ٤٥).

وأهمية هذا المثال تتضح لمن ينظر إلى تفاوت الريحانة الظريفة مع الشجرة البرية في الطاقة وسنخ الحاجة، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللهُ فِيهِ خَيْراً﴾ (سورة النساء:١٩) فإنّ الأشخاص الذين لا يعرفون آثار الأدوية المُرّة والمنفّرة، فهم في أول الأمر يظهرون عدم رغبتهم فيها إلّا أنّهم بعد أن يروا تأثيرها يتقبّلوا الدواء برحابة صدر وهكذا يكون الأمر في المقام.

(١) لقد وردت الروايات الكثيرة في كتب الفريقين ـ الشيعة وأهل السنّة ـ ما مضمونها: أنّ البلايا والمصائب والأسقام يمحو الذنوب والخطايا ويمحقها.

منها: ما رواه المتقي الهندي في كنزالعمّال بسنده عن خالد بن الوليد قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا نبي الله أُحب أن أكون أعلم الناس، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اتق الله تكن أعلم الناس، قال: أُحب أن أكون أغنى الناس، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: كن قنعاً تكن أغنى الناس، قال: أُحب أن أكون خير الناس، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: خير الناس من ينفع الناس فكن نافعاً لهم... قال: ما الذي يمحو عني الخطايا؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: الدموع، والخضوع، والأمراض (كنز العمّال ج١٦: ص١٢٩ح ٤٤١٥٤).

ومنها: ما رواه أبو الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ ➲

➲ المؤمن إذا قارف الذنوب وابتلى بها ابتلي بالفقر، فإن كان في ذلك كفّارة لذنوبه وإلّا ابتُلي بالمرض، فإن كان في ذلك كفارة لذنوبه وإلّا أُبتلي بالخوف من السلطان يطلبه، فإن كان في ذلك كفارة لذنوبه وإلّا ضيّق عليه عند خروج نفسه حتى يلقاه وماله من ذنب يدعيه عليه فأُمر به إلى الجنة... (مشكاة الأنوار: ص١٧٥). ورواه العلامة المجلسي في كتابه بحارالأنوار ج٦٤: ص٢٣٧ ح٥٤ وج٧٨: ص١٩٩ح٥٦ والى غير ذلك من الروايات الواردة في الباب.

وفي بعضها: أنّ البلايا والمصائب نعم من الله ليتعظ الإنسان المؤمن ويتذكّر بها ويترك المعاصي، كما قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم ووله من قلوبهم لرد عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد... (نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٧٨).

والمستفاد من هذه الروايات وغيرها أنّ الصبر على البلاء في السراء والضراء، والشدة والرخاء يعطي الإنسان روح التسليم ويجعل في وجوده الندامة من ارتكاب الذنب، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال: كفّارة الذنب الندامة (مسند أحمد بن حنبل ج١: ص٢٨٩).

فالبلايا والمحن التي يبتلي بها الإنسان يجعل في وجوده ندامة وحسرة بحيث يخرجه عن عيش غفول وطغيان جهول.

وقد ورد في الحديث عن مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: أنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة (مستدرك الوسائل ج٢: ص٤٣٧ ح٢٤٠٠).

وأيضاً ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: إنّ الله إذا أراد بقومٍ خيراً ابتلاهم (مستدرك الوسائل ج٢: ص٤٣٨ح٢٤٠١).

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام قال: يبتلى المرء على قدر حبه (مستدرك الوسائل ج٢: ص٤٣٨ح٢٤٠٢).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: وإنّما يبتلي الله تبارك وتعالى المؤمنين من عباده على قدر منازلهم عنده (مستدرك الوسائل ج٢: ص٤٣٨ح٢٤٠٣).

فالمصائب والبلايا جرس إنذار للناس ليتنبّهوا ويوقظوا من نوم الغفلة حيث أنّ التمتّع بالمواهب المادية والاستغراق في اللذائذ والشهوات يوجب غفلة كبرىٰ عن القيم الأخلاقية، وكلّما ازداد ➲

ولقد ابتلى الرسل سوى نادر منهم ومتابعيهم بأعظم المصائب والصدمات بأذى قومهم لهم(١)

➲ الإنسان توغّلاً في اللذائذ والنِعم ازداد ابتعاداً عن الجوانب المعنوية، وهذه الحقيقة يلمسها كل إنسان في حياته وحياة غيره ويقف عليها في صفحات التأريخ، ويرى حياة الأعيان والأشراف من الناس في طول التاريخ وما عرض لهم من الكبر والغرور، وما كان نتيجة ذلك من العذاب و... .

ولا يخفى أنّ الندم على وقوع شيء مع تمنّي عدم وقوعه يشعر بالالتزام بعدم وقوعه، ولذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث قال: كفى بالندم توبة (كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص٤٠٨).

وورد عن الإمام السجّاد عليه السلام أنّه قال في بعض الأدعية: إلٰهي إن كان الندم من الذنب توبة فأنا من النادمين (أُنظر: الصحيفة السجادية: مناجاة التائبين ليوم الجمعة الدعاء رقم ١٨٢).

فإذا تاب أحد من الذنب توبة صادقة فكأنه لا ذنب له أصلاً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: التائب من الذنب كمن لا ذنب له (سنن ابن ماجة ج٢: ص١٤٢٠ح٤٢٥٠).

وأيضاً قال مولانا الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة التائبين: إلٰهي أنت الذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك سميته التوبة، فقلت: توبوا إلى الله توبة نصوحاً في عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه (المناجاة الخمسة عشر).

والمهم أنّ الندم من الذنب توبة وبالبلاء يحصل الندم من الذنب، وإذا كان الندم يبعث بالإنسان إلى كفّ عن ارتكاب المحارم فهذا أكبر توعية ودرس للغافلين حسب النصوص.

(١) كما هو واضح لمن تتبّع واتّعظ من تاريخ الأنبياء وقصص وحوادث الأُمم الماضية، فالباحث في هذا المجال يجد أنّ الأنبياء قد تكلّفوا بالمأمورية الثقيلة من جانب رب العالمين لهداية الخلق ودعوتهم إلى التوحيد وأساساً لكل النشاطات الإيمانية والأعمال الحسنة والبنّاءة، ومكافحة الشرك الذي هو في الواقع منشأ أصلي لجميع المفاسد الاجتماعية والمحرّمات الإلهية، فكان اهتمام الأنبياء في النهي عن الشرك مباشرة قبل ذكر تعاليم مهمة كحرمة قتل النفس، والأمر بالعدل، وغير ذلك مما يدلّ على أهمية الأمر فيه، فكانوا يواجهون ضغوطاً شديدة وتهديدات ومعارضات عنيفة من المعاندين والمنكرين والطغاة الذين كانوا ➲

يرون أنّ انتشار تلك التعاليم يؤدي إلى تهديد مصالحهم الاجتماعية وإبادة أفكارهم الخرافية، فكانوا لا يتورّعون في مواجهة الأنبياء من ارتكاب كل جريمة نكراء، ويمارسون كل ظلم في حقهم، فبعضاً كانوا يتوسلون الى التكذيب والاستهزاء والسخرية، وأُخرىٰ إلى الحصار الاجتماعي وقطع الروابط والعلاقات، وأُخرىٰ الى الأذىٰ بالتعذيب والتنكيل والإرهاب والسلب والنهب والقتل واستخدام الفتنة بأيّ وسيلة من وسائل المحاربة ضدهم.

وكان الأنبياء عليهم السلام يتحمّلون تلك المصائب ويصبرون عليها لأنّ الصبر والاستقامة مفتاح النصر الأصيل.

قال الله تعالى في هذا الصدد: ﴿لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَاكُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَبَإِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الأنعام:٣٤).

ففي هذه الآية الكريمة أنّ الله تعالى سلىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه قد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا، وهذه سيرة المصلحين عندما يواجهون الأذىٰ من المعاندين والطغاة كانوا يصبرون ويتحمّلون أشد التعاذيب الروحية والجسمية في سبيل أهدافهم المقدسة، وكانوا يقدّمون إرادة الله على إرادتهم ويتحمّلون المحن والمصائب، فكم من نبي قتل في هذا السبيل، وكم من نبي كُذّب وأُوذي واتُّهم بتهم و.... .

فصبروا على ما أُوذوا حتى أتاهم نصر الله، والقرآن الكريم أشار إلى بعض قصص الأنبياء ومعارضة بعض الأقوام لهم مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة التوبة:٧٠).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (سورة ابراهيم:٩).

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (سورة غافر:٥).

وبغيره من الفقر والمرض وغير ذلك[١].

⮌ وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ (سورة الحج:٤٢). والى غير ذلك من الآيات المباركة.

فنلاحظ من خلالها أنّ معارضة الرسل وتكذيبهم أمر مشترك بين أكثر الأقوام والأمم السابقة ومع أنّ الآيات الكريمة تبيّن أنّ كل قوم قد أُهلكوا بالعذاب نتيجة محاربتهم للأنبياء والرسل، ومع ذلك كله لم يتخذوا عبرة، فهذا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أعظمهم في المصيبة وأبلاهم في الإيذاء، يقول كما ورد في الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ما أُوذي نبي مثل ما أُوذيت (أُنظر: تفسير الفخر الرازي ج٤: ص٨٧٥) وتفسير ابن العربي ج١: ص٢٣٩ وغير ذلك.

وأمّا إيذاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فله معنى واسع يشمل كل عمل يؤذيه، سواء كان بإظهار الكفر والإلحاد ومخالفة أوامر الله والافتراءات والتُّهم في حياته، أو ما يراه من الأذىٰ ممّا سيصيب أهل بيته وشيعتهم من بعده خاصة الايذاءات المتوجّهة إلى أميرالمؤمنين وفاطمة الزهراء (سلام الله عليهما) والاعتداء عليهما وغصب حقوقهما بحيث وضعوا بذلك حجر الأساس على ظلم أهل البيت عليهم السلام وغصب حقوقهم وقتلهم وقتل شيعتهم، وبذلك انحرفت الأُمة وصاروا سبباً لإضلال أُمة الإسلام، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم شاهد على أعمال أُمته، فهو يرىٰ أعمالهم بنص القرآن الكريم: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (سورة الأحزاب:٤٥) كما نص تعالى في موضعٍ آخر: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة التوبة:١٠٥).

وهذا العلم يمكن تحقّقه عن طريق عرض أعمال الأمة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّ الأنبياء الماضين كانوا شاهدين على أُممهم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هٰؤُلاَءِ شَهِيداً﴾ (سورة النساء:٤١).

فهذه الآية الكريمة تدلّ أنّ الأنبياء شاهد لأعمال أُمتهم والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم شاهد لجميع الأنبياء، وكذلك شاهد لأعمال أُمته أيضاً. فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم شاهد على جميع الأُمة الإسلامية بل هو شاهد على جميع الأُمم كما تدلّ هذه الآية المباركة على ذلك. فلاحظ.

(١) لقد ورد في حديث معروف رواه الفريقين ـ الشيعة وأهل السنّة ـ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: بأنّ أشد الناس بلاءاً في الدنيا الأنبياء ثم الذين يلونهم من أوصيائهم ثم الأمثل فالأمثل، وروى ⮎

➲ الكليني رحمه الله بسنده عن عبدالرحمن بن الحجاج قال: ذكر عند أبي عبدالله الصادق عليه السلام البلاء وما يخص الله عزوجل به المؤمن، فقال عليه السلام: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أشد الناس بلاءً في الدنيا؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: النبيون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلي المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتدّ بلائه، ومن سخف إيمانه وضعف علمه قلّ بلائه (الكافي ج٢: ص٢٥٢ح٢).

وروى الحاكم النيسابوري مثل هذا الحديث مع اختلاف يسير في اللفظ بإسناده عن سعد بن أبي وقاص أنّه قال: سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أشد الناس بلاءً؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: النبيون ثم الأمثل فالأمثل، يبلى الرجل على حسب دينه إن كان صلب الدين اشتد بلائه... (المستدرك على الصحيحن ج١: ص٤١).

والبخاري عقد باباً في صحيحه بعنوان: باب أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأوّل فالأوّل ثم روىٰ مثل هذا الحديث (أُنظر: صحيح البخاري ج٧: ص٣).

وقال ابن حجر في شرح الحديث المذكور انّ صدر الحديث أخرجه الدارمي والنسائي في سننه الكبرىٰ وابن ماجه وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم من طريق عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن سعد بن أبي وقاص... (فتح الباري ج١٠ ص٩٦).

وروى الشيخ المفيد رحمه الله في الاختصاص بسنده عن علي بن عثمان عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: إنّ الأنبياء وأولاد الأنبياء وأتباع الأنبياء خصّوا بثلاث خصال: السقم في الأبدان، وخوف السلطان، والفقر (الاختصاص: ص٢١٣).

وإلى غير ذلك من الروايات فإنّ المستفاد منها أنّ البلاء ليس كله على شكلٍ واحد بل البلاء يختلف باختلاف الأشخاص والمؤمنين، فإنّ البلاء الذي يتحمّله المؤمن هو البلاء الحسن كما قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَناً﴾ (سورة الأنفال:١٧).

فالبلاء الذي يتحمّله المؤمن إنّما هو ارتقاء له في إيمانه وتوكله وإخلاصه وزهده وتقواه و... بخلاف البلاء للكافر فإنّ البلاء للكافر سوط من سياط الله لتعذيبه قد يكون خيراً وقد يكون شراً، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (سورة الأنبياء:٣٥) فالمصائب والابتلاءات التي ترد على الإنسان قد تكون بلاءً سيئاً وذلك عندما كان الإنسان يخسر ➲

➲ مقامه الذي جعله الله له وقد يكون بلاءً حسناً كما قال تعالى: ﴿لِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً﴾ فإنّ ذلك من البلاء المختص بالمؤمن كما أنّ النوع الأرقىٰ من البلاء الحسن هو بلاء للأنبياء مثل إبراهيمعليه السلام حيث قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...﴾ (سورة البقرة:١٠٦).

وقال في قصة ذبح إسماعيل: ﴿إِنَّ هٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلاَءُ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة الصافات:١٠٦) وقال تعالى في قصة أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص:٤٤) أي إنّا وجدناه فيما ابتليناه به من المرض وذهاب الأهل والمال والمحن التي أحاطت به من تركه أصحابه وحتى أقرب المقرّبين إليه، ولكن مع ذلك بقي صابراً كالجبل راسخ، فإنّ هذا النوع من البلاء ارتقاء لمقام الأنبياء، ولذلك قال الله تعالى في وصف أيوب بعد تحمّله البلاء: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مطيعاً لله، فالامتحان والابتلاء للمؤمنين له درجات، وبذلك تعرف درجة إيمان الأنبياء والأولياء والأصفياء والمؤمنين و....

وأمّا البلاء المسمىٰ بالسيئة فهو قد سُمّي في بعض الأحاديث بالفتنة، ففي حديث رواه أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده عن أبي عبيدة بن الجراح عن عمر بن الخطاب قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلحيتي وأنا أعرف الحزن في وجهه، فقالصلى الله عليه وآله وسلم: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أتاني جبرئيل آنفاً فقال لي: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فقلت: أجل إنّا لله وإنّا اليه راجعون، فما ذلك يا جبرئيل؟ فقال: إنّ أُمتك مفتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، فقلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ فقال: كل سيكون، فقلت: ومن أين وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: فكتاب الله يفتنون وذلك من قبل أُمرائهم وقرّائهم يمنع الناس الأُمراء الحقوق فيظلمون حقوقهم ولا يعطونها فيقتتلون ويفتنون ويتبع القرّاء أهواء الأُمراء فيمدّونهم في الغي ثم لا يقصرون! فقلت: كيف يسلم من يسلم منهم؟ قال: بالكفّ والصبر، إن أُعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوهم تركوه (حلية الأولياء ج٥: ص١١٩). ورواه المتقي الهندي في كنز العمال ج١١: ص٢٦٥ ح٣١٤٧١، والسيوطي في الدر المنثور ج٣:ص٥٥ وفي نصّهما: أتاني رسول الله وأنا أعرف الحزن في وجهه، فأخذ بلحيتي فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. وفي هذا الحديث وأمثاله دلالات بليغة لا يتسع المجال لشرحه.

➲

فإدخال هذه المطالب في مقام البحث عبث صرف لكون التفضيل المزبور ليس فيه منازعة بين الناس[١].

⬅ من أخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما يحصل من الفتن وكأنّما النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم رأس الفتنة، فإنّ الذي يصفه القرآن الكريم «بأنّك لعلى خلق عظيم» قد يأخذ بلحية الرجل ويخبره بالفتنة التي ستصيب أُمته بعد وفاته من اضلال الناس على أيدي شرار خلق الله.

وخلاصة الكلام: انّ مادة البلاء قد تستعمل في البلاء السيء وقد تستعمل في البلاء الحسن، وعلى كلّ حال فإنّ سُنّة الله تعالى قد جرت في أن يبتلي الأنبياء بأشدّ البلاء ولكن البلاء يكون حسناً كما أنّ الأوصياء كذلك، ثم الأماثل فالأماثل من المؤمنين.

وقد ورد في الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام حيث قال: لن تكونوا مؤمنين حتى تعدّوا البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وذلك أنّ الصبر عند البلاء أعظم من الغفلة عند الرخاء (جامع الأخبار: ص٣١٣).

وفي حديث عن الإمام العسكري عليه السلام قال: ما من بلية إلّا ولله فيها نعمة تحيط بها (بحارالأنوار ج٦٧: ص٢٣٧) والى غير ذلك من الروايات فإنّ المؤمن الحقيقي يقع في البلاء من الله وغير المؤمن في الفتنة وهي من الشيطان. فلاحظ.

(١) لأنّ الفرق بين المسألتين واضح ظاهر، حيث أنّ هذه الأُمور ككثرة المال والعزة والرئاسة وزيادة الولد والعشيرة وصحة البدن كلها من الأُمور التكوينية التي لا ربط لها بالهداية التشريعية كما تقدّم فانّ الإختلاف فيها حسب الأُمور التكوينية التي تتحقق في وعاء العين تكويناً وهي على أساس الحكمة من الله تبارك وتعالى فهو الحكيم على الإطلاق إن أعطى البصر لأحد يكون ذلك لحكمة منه تعالى، وإن لم يعطه للآخر فهو من باب الحكمة أيضاً، فإنّ حكمته تعالى تقتضي أن يجعل البصر لأحد ولم يجعله للآخر لما يرىٰ فيه من المصلحة وهذا ما يرتبط بعالم الوجود والتكوين والخلقة فلا دخل له في إرادة الإنسان، فكما أنّ أجهزة بدن الإنسان تشتغل تكويناً على أساس ما خلقه الله فإنّ الأُمور المذكورة تكون كذلك كلّها تكوينية وهي بيد الله سبحانه وجوداً وعدماً ولا ربط لها بباب الهداية التشريعية التي يكون اختيار الإنسان دخيلاً فيها، فإنّ الهداية التشريعية انّما تتحقق بالاعتقاد الحاصل للانسان باختياره وأنّ الأُمور التكوينية المذكورة أمرها بيد الله تعالى «فلا يقاس أحد الأمرين ⬅

وخامسها: ما ذكره من آية: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ...﴾ الى آخرها[١] والمثال الذي مثّل به فإنّه سابقه ليس له دخل في محل البحث؛ لأنّ آية ﴿أَهُمْ

بالآخر» فالعقيدة لو كانت صحيحة تتم بها الهداية وإلّا فلا تتحقّق والفرق بينهما بُعد المشرقين. فلاحظ.

(١) قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (سورة الزخرف:٣٢). فإنّ المستفاد من هذه الآية المباركة أنّ النبوة إنّما هي رحمة ولطف من الله رب العالمين بعالم الإنسانية، وهذا الكلام في قبال قول بعض المشركين حيث كانوا يقولون أن المعيار في تقييم البشر هو المال والثروة والمقام والشهرة.

وقالوا: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ فكانوا يتصوّرون بأنّ الأثرياء وزعماء قبائلهم الظلمة هم أقرب الناس إلى الله سبحانه، ولذلك كانوا يتعجّبون من أمر الأنبياء والرسل، حيث كان يتوجّه إليهم هذا السؤال بأنّه: لماذا لم تنزل موهبة النبوة والرحمة الإلهية العظيمة على رجل ثري ممن كانوا يزعمون لهم الزعامة، فقد وجدوا بأنّ النبوة جعلت في يتيم فقير خالي اليد اسمه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهؤلاء كانوا على خطأ كبير، فإنّ ربك هو أعلم حيث يجعل رسالته فهو أعرف بأنّه كيف يقسم رحمته، وهو يعلم من يستحق هذا المقام العظيم ومن هو أهل له.

قال الله تعالى: ﴿اَللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٤) تشير هذه الآية بإيجاز إلى طريقة تفكير هؤلاء الذين عرفوا في تصورهم الباطل بأنّ مقام النبوة وهداية الناس لايعتمد فيها على سنّ الشخص وماله، أو من له ميدان المنافسة الصبيانية بين القبائل بأن يقال في زعمهم الباطل: انّه كان على الله أن يراعي هذه الأُمور المضحكة الباطلة التي لا تدلّ إلّا على منتهى الانحطاط الفكري وعدم إدراك معنى النبوة وقيادة الخليقة.

فالقرآن الكريم يردّ على هؤلاء بوضوح قائلاً: «الله أعلم حيث يجعل رسالته» إذ من البديهي أنّ الرسالة لا علاقة لها بالسنّ ولا بالمال ولا بمراكز القبائل؛ لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحي، وطهارة الضمير والسجايا الإنسانية الأصلية والفكر السامي، والرأي السديد ثم التقوى إلى درجة العصمة و... .فلاحظ.

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ صدرها نزل في المقام الردّ على من تمنّى نزول الفرقان العظيم، أمّا على رجل عظيم صاحب ثروة من أهل مكّة والمشهور أنّه الوليد بن المغيرة[1].

(١) فإنّ المفسّرين ذكروا أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف:٣١) أنّ القريتين هما: مكة والطائف، والمراد بالرجل العظيم عندهم من مكة هو الوليد بن المغيرة الذي كان له المال والجاه، وكان ملاك الشرافة عند القوم وعلوّ منزلته عند الجاهلية أمر ثابت في التاريخ (انظر تاريخ الطبري ج٢: ٧٥).

والمراد بالرجل العظيم عندهم من أهل الطائف هو عروة بن مسعود الثقفي قال الذهبي: وكان سيداً شريفاً من عقلاء العرب وهاتهم... (تاريخ الإسلام للذهبي ج٢: ص٦٦٠). فتوهّموا أنّ هذين الرجلين لهما صلاحية النبوة ونزول القرآن عليهما.

وأخرج ابن جرير الطبري في تفسير الآية الكريمة بسنده عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال: الرجل الوليد بن المغيرة، قال: لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل على هذا، أو على ابن مسعود الثقفي، والقريتان: الطائف ومكة، وابن مسعود الثقفي من الطائف اسمه عروة بن مسعود (جامع البيان ج٢٥: ص٨٤ الرقم٢٣٨٣٩).

وقال الفخر الرازي في تفسير الآية: إنّ من كفريات هؤلاء القوم التي حكاها الله تعالى عنهم في هذه السورة هي: أنّ هؤلاء المساكين قالوا: منصب رسالة الله منصب شريف فلا يليق إلّا برجل شريف، وقد صدقوا في ذلك إلّا أنّهم ضمّوا اليه مقدّمة فاسدة وهي: إنّ الرجل الشريف هو الذي يكون كثير المال والجاه ومحمد ﷺ ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به، وإنّما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال في إحدى القريتين وهي مكة والطائف.

قال المفسّرون: والذي بمكة هو الوليد بن المغيرة والذي بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفي، ثم أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهين:

الأول: قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، وتقرير هذا الجواب من وجوه... (تفسير الفخر الرازي ج٢٧: ص٢٠٩).

وروى القرطبي عن السدي أنّه قال: كنانة بن عبد بن عمرو روى أنّ الوليد بن المغيرة ـ وكان

➲ يسمىٰ ريحانة قريش ـ كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل عَلَيّ أو على أبي مسعود، فقال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة فيضعونها حيث شاءوا نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا... (تفسير القرطبي ج١٦: ص٨٢) والى غير ذلك من التفاسير التي صرّحت بذلك.

وأما الوليد بن المغيرة المخزومي الذي ابنه خالد بن الوليد المعروف فقد ذكره ابن حبان في ثقاته وقال: كان يروي عن سعيد بن المسيب وروى عنه الثوري (الثقات لابن حبّان ج٨: ص٥٥٤).

قال ابن الأثير: الوليد بن المغيرة وهو الذي جمع قريشاً وقال: إنّ الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه، فيقول: هذا ساحر ويقول: هذا كاهن ويقول: هذا شاعر، ويقول: هذا مجنون، وليس يشبه واحداً مما يقولون... (الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٢ ص٧١). ورواه الذهبي في تاريخ الإسلام ج١: ص١٥٥.

وأخرج الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام عن الثوري عن جعفر بن إياس عن سعيد بن الجبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ قال: المستهزؤون: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، وأبوه زمعة الأسود بن المطلب من بني أسد بن عبدالعزىٰ، فأتاه جبرئيل فشكاهم النبيﷺ اليه فأراه الوليد، أومأ جبرئيل إليَّ، فقال: ما صنعت، قال: كفيته... (تاريخ الإسلام للذهبي ج١: ص٢٢٤). ثم قال الذهبي: مات الوليد بن المغيرة بمكة على الكفر... (تاريخ الإسلام ج٢: ص٤٠).

وهذا خلاصة ما ورد في ترجمة الرجل، والمهم هو ما ذكره ابن حبّان في ثقاته مع أنّ حال الرجل كان معلوماً في الفسق والظلم والاستهزاء بالنبي الأكرمﷺ وغير ذلك مما ورد في قدحه، وإن كان ذلك ليس بعجيب من ابن حبان حيث أنّه جعل يزيد بن معاوية لعنة الله عليه في الثقات، فقال في المجلد الثاني من كتاب الثقات: تولّى يزيد بن معاوية الخلافة يوم الخميس من شهر رجب في اليوم الذي مات فيه أبوه... إلى أن قال: وتوفىٰ يزيد بجوارين قرية من قرىٰ دمشق لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، وهو يومئذٍ ابن ثمان وثلاثين، وقد قيل: إنّ يزيد بن معاوية سكر ليلة وقام يرقص فسقط على ➲

وأما على من هو مثله من أهل الطائف، والمشهور أنّه عروة بن مسعود الثقفي[١].

➲ رأسه وتناثر دماغه. (الثقات ج٢: ص٣٠٦ـ٣١٤) فهذا حال علماء الرجال من أهل السنّة وهذا هو المعيار عندهم في الوثاقة. فلاحظ.

(١) وهو عروةبن مسعود بن متعب بن مالك بن عمرو الثقفي وأُمه سبيعة بنت عبدالشمس بن عبد مناف القرشية، وكان عروة عم مختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي كما أنّه عم المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، وأيضاً هو عَمُّ الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر الثقفي، فكان عروة من الثقيف ومن أهل الطائف، وأهل الطائف كانوا مرتبطين اقتصادياً بأهل مكة ومن حولهم، لأنّهم كانوا يصدّرون الفاكهة التي هي عمدة محاصيلهم إلى مكة وغيرها من الأطراف المحيطة بهم، فهم كانوا يرون مصيرهم مرتبطاً اقتصادياً واجتماعياً بغيرهم وكانوا بحاجة إلى التقرب والتزلّف إلى ذلك الغير، واستجلاب محبتهم ورضاهم حتى لا يتعرّضوا للضغط الاجتماعي، أو إلى حصار اقتصادي كما جرى ذلك لبني هاشم قبل الهجرة النبوية.

ثم إنّ أهل الطائف كان لهم صنم يقال له اللات، وكان له سدنة يزوره العرب، فكان لهم مركز ديني أيضاً بين العرب يهتمون جداً بالمحافظة عليه، فمن هنا نعرف أنّ أهل الطائف كانوا أشداء في مواجهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذه المكانة الاجتماعية الوثيقة التي كانت لديهم بين العرب، ولذلك تأخّر إسلامهم إلى أواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوفدوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة التاسع من الهجرة فلم يؤمنوا إلّا بعد أن علموا لا طاقة لهم بالتأخير بعد أن أسلم من حولهم من القبائل العربية فكانت قبيلة ثقيف بئست القبيلة.

وقد روىٰ ابن أبي الحديد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: لو لا عروة بن مسعود للعنت ثقيفاً (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديدج٨: ص٣٠٢).

وروي عن الحسن البصري أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن ثلاث بيوت: بيتان من مكة وهما بنو أُمية وبنو المغيرة، وبيت من الطائف وهم ثقيف (شرح نهج البلاغة ج٨: ص٣٠٢).

وعلى كل حال، فإنّ أهل الطائف لما سمعوا انتصار المسلمين بأرض تبوك واجتذاب سائر الأقوام العربية إلى الإسلام استسلموا لأنّه قد شاع في جميع أنحاء الجزيرة العربية أنّ ➲

⮌ الروميين الذين غلبوا الايرانيين طالما سادوا نصف المعمورة في ذلك الوقت حكموا حتى اليمن وما حولها في آخر حروبهم، واستعادوا صليبهم وأعادوه إلى بيت المقدس، فدفعاً لتسليم الروم رغبوا بالقوة الإسلامية الكبرىٰ فغيّرت القبائل العربية موافقتها المعادية وعنادها مع الإسلام، وأنّ قبيلة ثقيف كانت معروفة بطغيانها وعنادها بين القبائل العربية. ومما يشهد لذلك: أنّهم قاوموا حصار الجيش الإسلامي لمدة شهر واحد معتصمين بحصونهم في الطائف، ولم يسلّموا حتى بعد فتح مكة، وأمّا بعد غزوة تبوك حيث وجدوا أنّ القبائل العربية قد أسلمت أو استسلمت فلم يجدوا مفرّاً إلّا التسليم.

هذا وكان عروة بن مسعود الثقفي قد علم بانتصار المسلمين في أرض تبوك، فقدم على رسول الله ﷺ قبل أن يدخل المدينة وأسلم على يديه وأستاذنه في أن يذهب الى الطائف ليدعوا قبيلته إلى الإسلام فحذّره رسول الله ﷺ من مخاطر هذا العمل، لأنّه كان يعرف أنّ فيهم نخوة الامتناع والجاهلية والتفاخر بأنسابهم فقال له رسول الله ﷺ: إنّهم يقتلوك، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحبّ اليهم من أبكارهم (أو من أبصارهم) وكان فيهم كذلك محبّباً مطاعاً.

فلمّا رجع عروة وأظهر لهم إسلامه ودعاهم الى الإسلام فرموه بالسهام والنبال فأصابه سهم فقتله، وفي الوقت الذي كان يعتنق الموت لم يكفّف عن دعوته إلى الاسلام، فكان يقول وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلَيَّ فليس فيَّ إلّا ما في الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله مع رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم فادفنوني معهم، فدفنوه معهم... (اُنظر ترجمته في الطبقات لابن سعد ج٥: ص٥٠٢، والاستيعاب لابن عبدالبر ج٣: ص١٠٦٦ رقم ١٨٠٤، وأُسد الغابة لابن الأثير ج٣: ص٤٠٥، والإصابة لابن حجر ج٤: ص٤٠٦ رقم ٥٥٤٢ وتاريخ الطبري ج٢: ص٣٦٣ في وقائع سنة التاسعة من الهجرة وغيرهم من علماء الرجال والتاريخ والسيرة النبوية.

وعلى كل حال، فإنّ عروة بن مسعود الثقفي كان من الأثرياء المعروفين، وكان له جاه ومكان رفيع في عشيرته حتى جعلوه الثاني ممن قالوا: يليق به منصب الرسالة، إذ الملاك عندهم لهذا المنصب هو الرجل الذي له مكان رفيع في عشيرته وهو كثير المال، فلم يكن آنذاك مثل ⮌

فأجابهم سبحانه بأنّه ليس لهم قسمة ما هو رحمة أُخروية وهي النبوة، محتجّاً عليهم بأنّه ليس لهم قسمة حتى فيما يرجع الى الدنيا، بل هو قَسّم معيشتهم في الحياة الدنيا بأن جعل بعضهم غنياً وبعضهم ألبسه الفقر، وبعضهم ملكاً، وبعضهم مملوكاً حسبما اصطفى للرسالة بعضهم[1].

عروة من الطائف والوليد بن المغيرة من مكة أن يكون لهما هذا العنوان.

فالمشهور بين المفسّرين أنّ المقصود بأحد الرجلين من إحدى القرىٰ المذكورة في الآية الكريمة بعنوان القريتين هما عروة بن مسعود الثقفي والوليد بن المغيرة، وقد ذكر ذلك علماء التفسير من الفريقين الشيعة وأهل السنّة (أُنظر: تفسير التبيان للشيخ الطبرسي ج٩: ص١٩٥، وتفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ج٩: ص٧٩، وتفسير الصافي للفيض الكاشاني ج٣: ص٢١٨، وتفسير نور الثقلين للشيخ الحويزي ج٣: ص٢٢٢، وتفسير الميزان للطباطبائي ج١٨: ص٩٨، وتفسير جامع البيان لابن جرير الطبري ج٢٥: ص٨٤، وتفسير ابن أبي حاتم الرازي ج١٠: ص٣٢٨٢، ومعاني القرآن للنجاس ج٦: ص٣٥١، وتفسير الثعلبي ج٨: ص٣٣٢، وتفسير السمعاني ج٥: ص٩٩، وتفسير البغوي ج٣: ص٤٥٢ وغيرهم.

(١) وخلاصة الكلام: أنّ المستفاد من قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ...﴾ أنّ كلمة «الرحمة» هي النبوة، حيث أنّ النبوة رحمة ولطف من رب العالمين بعالم الإنسانية إذ لولا بعث الأنبياء لخسر الناس الدنيا والآخرة كما خسرها أُولئك الذين ابتعدوا عن نهج الأنبياء، فقد بَيّن تعالى في هذا المقطع من الآية الكريمة بأنّ المعيار الذي ذكروه في تقييمهم للبشر، خاطئ جداً؛ لأنهم لا يملكون خزائن الرحمة الإلهية كي يمنحوها وإنّما هي تحت تصرف البارئ عزوجل، فهو يعلم أفضل خلقه ومن يستحقّ هذا المقام العظيم ومن هو أهل له، الله أعلم حيث يجعل رسالته.

ثم يقول تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ...﴾.

فبيّن تعالى في هذا المقطع من الآية الكريمة بأنّ التفاوت الموجود بين الناس من ناحية المعيشة لا يدلّ على تفاوتهم في المقامات والمنازل المعنوية مطلقاً حيث إنّا قسمنا بينهم معيشتهم في

⮌ الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً.

لقد نسي هؤلاء أنّ حياة البشر الاجتماعية إنّما تدور عن طريق التعاون والخدمة المتبادلة إذ الناس يختلفون من جهة معيشتهم وقابلياتهم ومكانتهم الاجتماعية، فلابد من التعاون بينهم حتى لا يخدعهم هذا التفاوت ويظنّوا أنّ المعيار في القيم الإنسانية هو كون الشخص ذا مال وذا جاه عظيم، إذ قد يكون أجلّ الملوك وأغنى الأغنياء محتاجاً الى أفقر الفقراء.

وببيان أوضح: إنّ هؤلاء عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوة بمراحل ولا منزلة له في الواقع وهو معيشتهم في الحياة الدنيا، فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزلة منها بما لا يقدر قدرة عليه وهي النبوة التي هي رحمة ربك الخاصة بهم.

والدليل على أنّ الأرزاق والمعايش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنىٰ والفقر والعافية والصحة وفي الأولاد وسائر ما يعدّ من الرزق، ولا يكاد أن يتيسّر لأحد منهم جميع ما يتمنّاه ويرتضيه، فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد فقير في شيء منها بل لم يختلف اثنان فيها، فاختلافهم فيها أوضح دليل على أنّ الرزق مقسوم بمشيئة من الله دون الإنسان، هذا كله في المال.

وأمّا بالنسبة إلى الجاه فهو أيضاً مقسوم من عند الله، فإنّه يتوقف على صفات خاصة بها ترفع درجات الإنسان في المجتمع فيتمكّن من تسخير من هو دونه كالفطنة والدهاء والشجاعة وعلو الهمّة وإحكام العزيمة وكثرة المال والعشيرة، وشيء من ذلك لا يتم إلّا بصنع من الله سبحانه، وذلك قوله تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً...**﴾.

فتبيّن من مجموع القولين أعني المستفاد من قوله تعالى (نحن قسمنا...) وقوله تعالى: (ورفعنا بعضهم فوق بعض...) أنّ القاسم للمعيشة والجاه بين الناس هو الله تعالى لا غير.

وأمّا قوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَةُ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾، أي أنّ النبوة خير من المال فكيف يملكون قسمها وهم لا يمتلكون قسم المال فيما بينهم؟

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ المقامات والثروات لا تعدل جناح بعوضة في مقابل رحمة ربك والقرب منه، فهؤلاء الذين لا يقدرون على هذا المقدار القليل من القسمة كيف يمكنهم القول بأعلى منها، ⮌

ومن المعلوم كون هذه جميعها من المطالب التكوينية التي هي فعله وعنه صادرة بمقتضى لطفه وحكمته(١).

➲ فإنّ مقام النبوة لا يبلغه مقام في سموه فهو مقام من المواهب الإلهية لمن له الاستعداد والأهلية لتحمّله، وأنّ الله تعالى هو الذي يصطفي من عباده من يشاء لأداء مهام النبوة وحمل الرسالة.

(١) فإنّ تقسيم المعيشة باختلاف أفراده بالغنى والفقر والعافية والصحة وفي الأولاد وسائر ما يعد من الرزق جميعها من الأُمور التكوينية، ومن هنا يعرف معنى قوله تعالى: يا أيها الناس ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٢٣١) هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ﴿لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة فاطر:٣) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (سورة يونس:٣١).

فالرزق بمعنى العطاء والبذل المستمر، ولمّا كان الواهب لكل المواهب في الحقيقة هو الله سبحانه، فإنّ الرزق بمعناه الحقيقي استعمل هنا وحيث أنّ أكثر أرزاق الإنسان تكون من السماء فإنّ المطر المحيي للنبات من السماء كما أنّ أشعة الشمس التي هي أصل للمطر بل وأنّها أصل لإحياء أكثر الموجودات حيث أنّها لا تبقىٰ بدونها حياً أيضاً من السماء.

ثم ذكرت الآية حاستين من حواس الإنسان اللتين يحصل بهما الإنسان تحصيل العلم، فالآية أشارت إلى النعم المادية والمواهب والأرزاق المعنوية كلها من الله تعالى، الأرزاق بيد الله تعالى إلّا أنّ الانسان كلما يجتهد في سبيل تحصيل الرزق أو الجاه والمقام سوف يرزق منها مثلاً إذا زرع الارض سوف يحصل على النتيجة بإذن الله، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ﴾ (سورة الواقعة:٦٣ـ٦٤) فإنّ الحرث عبارة عن نشر الحبوب وتهيئتها للإنبات، وأمّا الزراعة بمعنى النمو والنضج، فإنّ أهم عناصر الحياة بيد الله من الماء والنور وغير ذلك من المواد التي توجب رشد النبات، فالحرث بيد الإنسان والزرع بيد الله، ولذلك ورد في الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: لا يقولنّ أحدكم: زرعت وليقل: حرثت، فإنّ الزارع هو الله (أُنظر: السنن الكبرى للبيهقي ج٦:ص١٣٨) فإنّ جميع هذه الأُمور وأمثالها خاضعة للقوانين التكوينية وهي الأفعال الصادرة من الله تعالى ➲

ومثال السنّي من هذه الجملة، فإنّ القوة والضعف والصحة والمرض والطعام المناسب لكل من هذه تكوينيات ليست تكليفية[1]، ومحل البحث مسألة التخصيص بزيادة المِنّة على المؤمن؛ من حيث إيمانه، وهي حسبما عرفت

⮊ بمقتضىٰ لطفه وحكمته.

فلايخفى على الخبير الفرق بين المقام وبين الهداية التشريعية فرق وسيع جداً، لأنّ الهداية التشريعية هي الهداية التي تكون باختيار الإنسان وأنّ الإنسان باختياره يدخل في دين الله ويؤمن بما جاء من قبل الله سبحانه، وأمّا القوانين التكوينية فهي بيد الله عزوجل وليس للإنسان في أصله دخل وإن كان له الاجتهاد في التحصيل إلّا أنّ أصله بيد الله تعالى، فإنّ الرزق يقدّر للانسان بمشيئة الله قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ (سورة الأنعام:١٥١) فإن شاء تبارك وتعالى بسطه لعبده وإن شاء ضيقه حسب مايراه من المصلحة فكل ما هو موجود فمن الله، فلا عطائه دليل على رضاه عن العبد ولا منعه دليل على تفاهة عبده عنده، فالله تعالى يمتحن عباده بالأموال والثروات أو بالفقر والشدة ولايدلّ أيّ منهما عن سريرتهم ونياتهم. فلاحظ.

(١) لأنّ التكليف لابد أن يتعلّق بالفعل الاختياري، والفعل الاختياري عند العقلاء هو الفعل الصادر من المكلف بإرادته، فلا محالة يستحيل وجوده في الخارج عند عدم تعلق الإرادة.

وعليه: فإنّ صحة البدن وسعة الرزق والعزة والرئاسة وزيادة الولد والعشيرة لم تكن إلّا بفضل الله تبارك وتعالى كما أنّ المرض والفقر والبلاء وغير ذلك كلها بيد الله تعالى لم تكن بإرادة الإنسان؛ اذ لو كانت بإرادة الإنسان لم يبق مريض في العالم ولا فقير ولا بلاء آخر وحيث أنّها لم تكن بيد الإنسان ومن ناحية أنّ الأفعال الاختيارية للإنسان هي الأفعال التكليفية التي هي بإرادة الإنسان، فما لم تكن صدوره بإرادة الإنسان فهي الأفعال التكوينية التي يفعلها الله سبحانه وتعالى مبنياً على الحكمة والمصلحة، فإنّ كل ما يجعله الله تعالى لعبده من صحة البدن والمرض أو من الغنىٰ والفقر أو من العزة والذلة كلها مترتبة على المصالح والأغراض، فلا يكون فيه ظلم ولا جور ولا عبث مطلقاً؛ لأنّ الله تبارك وتعالى حكيم والحكيم لا يصدر منه الفعل إلّا على أساس الحكمة وتقدّم الوجه في ذلك. فلاحظ.

تكليفية(١)، فعلم مما ذكرناه في المقام من بيان ما قاله ونقله السنّي فيه عدم الفائدة له بغالب ما بيّنه فيه لخروجه به عن مقام البحث وغير الغالب منه حجة لخصمه

---

(١) لأنّ الايمان أمر قلبي يتحقّق عن طريق التعليم والتربية، فإنّ الإيمان بالشيء اعتقاد بـذلك الشيء والاعتقاد بمعنىٰ سكون نفس وسكون النفس لا ينفكّ عن العلم.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الاعتقاد بالشيء لا يحصل إلّا بعد العلم بلوازم ذلك الشيء وآثاره، فإذا أحاط الإنسان بذلك الشيء ولوازمه وآثاره سوف يحصل له الاعتقاد به وهذا أمر فطري كـما أنّ الإيمان بالحق يكون كذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ (سورة البقرة:٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِـنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْـحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّالِحِينَ﴾ (سورة المائدة: ٨٣ـ٨٤).

فالعلم بالحق والمعرفة به شرط أساسي للاعتقاد به.

ثمّ أنّه لا شك أنّ تحصيل العلم والمعرفة أمر اختياري فإنّ كل إنسان إذا أراد أن يـعرف شـيئاً يتعلّمه بالتحصيل والاكتساب وهذا من الواضحات الأولية، لأنّه أمـر وجـدانـي ضـروري فلايحتاج إلى البحث الزائد.

ثم انّه بعد وضوح أن تحصيل العلم أمر إختياري فانّ تعليم المعارف الدينية ومـعالم السـماوية أيضاً يكون اختيارياً؛ فانّ الله سبحانه وتعالى قد بيّن الحقائق للناس من طريق إرسال الرسل وإنزال كتب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل:٤٣ـ٤٤) فإنّ وظيفة الأنبياء إبلاغ رسالة السماء والوحي الإلهـي وإيصال دعوة الله إلى الناس، والسعي الحثيث لتحقيق أهداف الوحي، وكل ذلك لإتمام الحجة على الناس، قال تعالى: ﴿فلله الحجة البالغة﴾ (سورة الأنعام:١٤٩).

وهكذا أقام الله بواسطة أنبيائه والعقل الحجة على جميع الناس ولم يبق أي عذر لمعتذر، فـإذا تعلّم الناس الحقيقة وصرفوا الوقت والجهد في سبيل تحصيل معرفة الحق سوف يصلوا اليه، فإنّ تعلّم الحق ومعرفته أمر اختياري كما لا يخفىٰ.

عليه[1].

---

(١) حيث أنّ ابن تيمية خلط بين القوانين التكوينية والقوانين التشريعية، فإنّ ما ذكره مـخالف لصريح الآيات القرآنية حيث أنّ الله تبارك وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾ (سورة الإنسان:٣). فالإنسان مختار في الوصول الى الهدايـة، فـإذا اختار الحق يكون شاكراً لأنعم الله، وإذا لم يختار الهداية يكون من الكافرين الذين كـفروا بأنعم الله عزّوجلّ، لأنّ الله تعالى قد فتح له أبواب الهداية، فإن لم يعرفه ولم يحصل له العلم به فقد كفر بأنعمه إذ قد جعل الله تعالى الطريق الحق واضحاً أمـامه، فـعدم اخـتياره الطـريق الواضح من سوء تقصيره قال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَـىٰ صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ**﴾ (سورة آل عمران: ٥١)، فمن البديهي أنّ دعوة الأنبياء هي مظهر دعوة الله تعالى؛ لأنّ كل ما عند النبي هو من الله، فالذي يهتدي بهدىٰ الله يكون باختياره.

وكذلك بالنسبة إلى المنحرفين والمشركين فقد ورد في الآية ٢٣ من سورة النجم قـوله تـعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُم مِن رَبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰ**﴾. فأصل الهداية من الله ولكن معرفة ذلك والاهتداء به يكون باختيار الإنسان. فلاحظ.

قال السنّي:

وكذلك الحكمة، أجمع المسلمون على أنّ الله موصوف بالحكمة لكن تنازعوا في تفسير ذلك.

فقالت طائفة: الحكمة ترجع الى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده ولم يثبتوا إلّا العلم والإرادة والقدرة.

وقال الجمهور من أهل السنّة وغيرهم: بل هو حكيم في خلقه وأمره والحكمة ليست مطلق المشيئة، اذ لو كان كذلك لكان كل مريد حكيماً، ومعلوم أنّ الإرادة تنقسم الى محمودة ومذمومة والحكمة تتضمّن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة، والقول بإثبات هذه الحكمة ليس هو قول المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة بل هو قول جماهير طوائف المسلمين فأئمّة الفقهاء متفقون على إثبات الحكمة والمصالح في أحكامه الشرعية وإنّما يتنازع في ذلك طائفة من نفاة القدر وغير نفاته وكذلك فيما خلقه من المنافع والحكم والمصالح لعباده معلوم.

ثم نقل عن جهم ومتابعيه وعن أشعريهم ومن تابعه من فقائهم أنّه يقولون: ليس في كتاب الله سبحانه لام التعليل بل ليس فيه سوى لام العاقبة، والجمهور قائلون بأنّ لام التعليل داخلة في أفعال الله وأحكامه.

ثمّ ذكر جماعات ممن قال بذلك، ثم قال: وبالجملة النزاع في تعليل أفعال

الله وأحكامه مسألة لا تتعلّق بالإمامة أصلا، وأكثر أهل السنّة على إثبات الحكمة والتعليل.

والمنكرون لذلك محتجّون بحجّتين:

إحداهما: إنّ ذلك يستلزم التسلسل، فإنّه إذا فعله لعلة فتلك العلة أيضاً حادثة فتفتقر الى علة أن وجب أن يكون لكل حادث علة وأن عقل الأحداث من غير علة لم يحتج الى إثبات علة، والقول في حدوث العلة كالقول في حدوث المعلول فيلزم التسلسل.

الحجة الثانية: إنّهم قالوا: من فعل لعلة كان مستكملاً بها، لأنّه لو لم يكن حصول العلة أولى من عدمها لم تكن علة والمستكمل بغيره ناقص بنفسه وذلك ممتنع على الله.

وأوردوا على المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة حجة تقطعهم على أُصولهم، فقالوا: العلة التي فعل لأجلها ان كان وجودها وعدمها اليه سواء امتنع أن تكون علة وإن كان وجودها أولى فإن كانت منفصلة عنه لزم أن يستكمل بغيره وإن كانت قائمة به لزم أن يكون محلّاً للحوادث.

وأمّا المجوّزون للتعليل فهم متنازعون، فالمعتزلة وأتباعهم من الشيعة تثبت من التعليل مالا يعقل وهو أنّه فعل لعلة منفصلة عن الفاعل مع كون وجودها وعدمها اليه سواء.

وأمّا أهل السنّة القائلون بالتعليل فإنّهم يقولون: إنّ الله يحب ويرضى كما دَلّعلى ذلك الكتاب والسنّة، ويقولون: إنّ المحبة والرضا أخص من الإرادة، وأمّا المعتزلة وأكثر أصحاب الأشعري فيقولون: المحبة والرضا والإرادة سواء، فجمهور أهل السنّة يقولون: إنّ الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه

وإن كان داخلاً في مراده كما دخلت سائر المخلوقات لما في ذلك من الحكمة وهو وإن كان شراً بالنسبة الى الفاعل فليس كل ما كان شراً بالنسبة الى شخص يكون عديم الحكمة، بل لله في مخلوقاته حكم قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها.

وهم يجيبون عن التسلسل بجوابين:

أحدهما: يقال: هذا تسلسل في الحوادث المستقبلة لا في الحوادث الماضية، فإنّه إذا فعلا فلا لحكمه كانت الحكمة حاصلة بعد الفعل، فإذا كانت تلك الحكمة يطلب منها حكمة أُخرىٰ بعدها كان تسلسلاً في المستقبل وتلك الحكمة الحاصلة محبوبة له وسبب لحكمة ثانية فهو لا يزال سبحانه يحدث من الحكم ما يحبه ويجعله سبباً لما يحبه.

والتسلسل في المستقبل جائز عند جماهير المسلمين وغيرهم من أهل الملل وغيرهم؛ فإنّ نعيم الجنة والنار دائم مع تجدّد الحوادث فيهما، وإنّما أنكر ذلك الجهم فزعم أنّ الجنة والنار يفنيان.... ونقل عن غيره ما يقارب قوله.

ثم ذكر: التسلسل في المعاصي ونقل فيه قولين، وجعل يستدل لكل منهما، وطوّل البحث في ذلك وتعرّض لقول أهل الفلسفة بقدم العالم وجعل بردّ عمدة ما زعموه برهاناً لهم على ذلك. وتعرّض لقول من قال: بأنّ الله سبحانه موجب وجعل يردّ عليه. وتعرّض لغير ذلك مما ليس له مدخلية بمحل البحث[1].

---

(١) منهاج السنّة ج١: ص١٤١ـ١٤٧.

قلت:

ونتعرّض لما له دخل في أصل البحث بعد هذه النبذة، وفيما نقلناه هنا وجوه من الفساد:

أحدها: إنّ ما نسبه إلى المعتزلة وغيرهم من القول بالحكمة التي هي عبارة عما تضمّنه خلق الله سبحانه وأمره من الغايات المحبوبة، إمّا جهل منه وإمّا تجاهل بحقيقة الحال؛ لعدم إنصافه ولترويجه للباطل في قبال الحق، فأيّ معنى يتصوّر للحكمة[1]

---

(١) لا شك أنّ كل إنسان عندما يتأمل في عالم الكون ونظامه الدقيق من زواياه المختلفة يجد أنّ هذا النظام البديع مثير للدهشة من جهة نظمه وتدبّره؛ وتسوقه إلى غاياته وترتيبه على أساس محاسبة دقيقة ومنسجمة مع الحكمة بحيث يوقظ فطرة كل إنسان ويرشده إلى ذلك الخالق القادر الحكيم الذي علمه فوق كل العلوم، وقدرته فوق جميع القدرات، ليس كمثله شيء وهو على كل شيء قدير، فلا يجد في الخلق عبثاً ولا غلطاً ولا مفسدة ولا عدم الفائدة.

وبعبارة أوضح: إنّ من الدلائل المحكمة على معرفة الله وحكمته هو تقديراته الدقيقة في هذا العالم؛ فانّ كل عاقل لو تأمل في صنع هذا العالم سوف يعرف بأنّ خالقه عليم حكيم لأنّه يجد بوضوح أنّ مدبّر هذا العالم هو المحيط بجميع حقائقه من جهة الظاهر والباطن، لأنّ إتقان صنعه يدلّ على حسن تقديره قال الله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ (سورة الفرقان: ٢) وقال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللهُ لِكُلِّ شَيءٍ قَدْراً﴾ (سورة الطلاق: ٣) وقال تعالى: ←

➲ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (سورة الحجر: ٢١).

فإنّ الله تعالى قد جعل تقدير كل شيء ضمن نظام دقيق وقانون متقن، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (سورة السجدة: ٧) فعمّم سبحانه وتعالى حسن تقديره في خلق كل شيء، وإذا أردنا أن نقرّب الى الأذهان هذا التقدير الأحسن فيمكننا أن نقول: بأنّ هذا الكون أشبه بتلك العمارة المنظّمة الجميلة التي أنشأها تفكير المهندس وتقدير عمله حيث نجد أنّ كل شيء مستقراً في محله حسب قياس صحيح، فالحكمة التي اقتضت تدبير هذا عالم الكون هي جهة الخير والصلاح والكمال التي تتناسب ذلك الهدف النهائي من الخلق.

وهذه هي الحكمة التي تُعرّف بوضع كل شيء في موضعه، وبناءً على هذا فإنّ المتأمل في عالم الكون يعرف علم اليقين بأنّ وراء هذا العالم خالق قد خلق العالم بدقة وصواب كامل لهدف وغرض ومصلحة وغاية منتهية إلى اللطف والرحمة بالمخلوقات، وهذا ما تسميه الشيعة الإمامية بالعدل الإلهي ومعنى ذلك: أنّ جميع أفعال الله تعالى تصدر منه عن حكمة وصواب وليس فيها ظلم ولا جور، ولا كذب، ولا عبث ولا فاحشة.

وأمّا الأشاعرة من أهل السّنة فقد ذهبوا إلى أنّه ليس جميع أفعاله تعالى حكمة وصواباً لأنّ الفواحش والقبائح التي يرتكبها الإنسان هي صادرة عن الله تعالى ـ والعياذ بالله ـ لأنّه لا مؤثر في الوجود إلّا الله، وقد فسّروا هذه الجملة بتفسير باطل يلزم منه هذا القول الفاسد بأنّ جميع ما يرتكبه الإنسان فهو مخلوق لله سبحانه وتعالى وما خلقه الله تبارك وتعالى فهو صادر منه تعالى، وإذا كان كذلك فمعناه: أنّ ما يصدر من الإنسان من الفجور والمعاصي والكفر وغير ذلك فهي صادرة عن الله ـ والعياذ بالله ـ وعليه فيزعمون بأنّه ليس جميع أفعاله سبحانه وتعالى مبنياً على الحكمة والعدل والمصلحة حيث أنّه من البديهي أنّ بعض أفعال البشر ظلم ومخالف للعدل والحكمة والمصلحة فهؤلاء يعتقدون بأنّ الله خالق هذه الأفعال القبيحة وإذا كان كذلك فلا معنى للقول بانّ أفعاله تبارك وتعالى مبنية على العدل والحكمة وبناءً على هذا الزعم لا يلزم القول بأنّ كل ما يصدر من الله سبحانه فهو صادرة منه عن حكمة ومصلحة وصواب.

وأمّا المعتزلة فهم وإن خالفوا الأشاعرة في هذا القول الباطل وذهبوا إلى أنّ الله تعالى حكيم ➲

فيما ذهبت اليه المعتزلة بتجويزهم عدم نصب إمام في كل زمان[١]؟!!!

➲ وعادل وأنّ أفعاله صواب ومعللة بالأغراض إلّا أنّهم في مرحلة الاعتقاد العملي لم يلتزموا بهذا الاعتقاد عملاً، إذ قد ذهبوا الى ما ذهبت الأشاعرة في باب الإمامة كما لا يخفى ذلك على أحد. وهذا مخالف للعدل وقاعدة اللطف كما هو واضح. وعليه: فلا يمكن القول بأنّهم كالشيعة يعتقدون بالعدل الإلهي. فلاحظ.

(١) لا شكّ أنّ الحكمة الإلهية تقتضي وجود المعصوم في كل عصر وزمان؛ لأنّ أي مجتمع لو خُلّي من المعصوم لم يكن مصوناً من وقوعه في الخطأ والضلال والانحراف، فإنّ العقل يجيز وقوع الخطأ في المجتمع الذي لم يكن فيه المعصوم، إذ ليس هناك قانون يعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ؛ فالعصمة تستلزم العلم بواقع الأُمور والمعصوم هو من له الإحاطة بجميع الامور سواء كان متصدّياً، فإنّه لابد أن يكون محيطاً بجميع ما يحتاجه الناس من جلب المصالح ودفع المفاسد عنهم، ولا يخفى أنّ من له القدرة على جلب المصالح الحقيقية ودفع المفاسد الواقعية ليس إلّا الله تبارك وتعالى، ومن جعل الله تبارك وتعالى له هذا المقام العظيم ولابد أن يكون محيطاً بكل شيء ليعرف الحق والباطل والطيب والخبيث ويخبر الناس عن حقائق الأُمور.

فهل هناك قانون للبشر أن يصل إلى هذه المرحلة بحيث يصون المجتمع من أيّ خطأ وانحراف؟ وإذا كان جواب السؤال منفياً أي لا يمكن وجود هذا القانون إذن أنّ العقل يرشدنا بلزوم وجود المعصوم في كل عصر وزمان ليصون المجتمع من الانحراف والضلال والهلاك.

ومن هنا يعرف أنّ الحكمة الإلهية قد اقتضت بعث الأنبياء والمرسلين من بدء خلق آدم عليه السلام وذلك من باب لزوم اللطف على الله تعالى، كما اقتضت الحكمة الإلهية تكليف العباد وأمرهم ونهيهم وتخويفهم من العذاب وترغيبهم إلى الثواب ليضمن لهم السعادة الأبدية، فنصب الامام المعصوم بعد خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم مقتضىٰ الحكمة الالهية ولطفه على العباد ليمنع الناس من وقوعهم في الضلال والانحراف، ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥).

فإنّ وجود الإمام المعصوم بعد النبي ضروري كوجود النبي نفسه لأنّ الإمام المعصوم هو من يملأ الفراغات التي قد تواجهها الأُمة بعد فقد نبيها؛ فالإمامة هي استمرار لوظائف النبوة كلها ➲

ومن الضرورة لذوي عامة من له شعور يميّز به بين الظلمة والنور، والظل والحرور أنّ في نصبه حكماً عظيمة، وغايات محبوبة جسيمة[1]؛ منها: بيان الدين

سوىٰ نزول الوحي عليه، ومقتضى ذلك: أن يكون الإمام متمتّعاً بجميع الشرائط المشترطة في النبي سوى ما استثني.

فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان يملأ فراغاً كبيراً وعظيماً في حياته الشريفة للأمة الإسلامية ولم تكن مسؤولياته وأعماله مقتصرة على تلقي الوحي الإلهي، وتبليغه إلى الناس فحسب بل كان يقوم بأُمور أُخرى كتفسير القرآن، وبيان أحكام الإسلام، والردّ على الشبهات والتشكيكات والتساؤلات المريبة التي كان يثيرها أعداء الإسلام، والمراقبة من كيد الكائدين وتحريف المحرّفين ليصون الدين من التحريف والدس، فهذه الأُمور غيرها من مسؤوليات النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي مارسها أيام حياته الشريفة، ومن المعلوم أنّ رحلته وغيابه يخلّف فراغاً هائلاً ومفزعاً في هذه المجالات، فلابد من وجود من يسدّ هذا الفراغات بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم ويقوم بتلك الأعمال والمسؤوليات ليسدّ الفراغ الحاصل من فقده صلى الله عليه وآله وسلم أي لابدّ أن يمتلك أوصاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم من العصمة والولاية والعلم والكمال وغيرها ليقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تلك المسؤوليات.

ومن هنا نعرف لزوم وجود الإمام المعصوم بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنّه لازم لسدّ الثغرات الحاصلة بفوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فالحكمة الإلهية تقتضي لزوم نصب الإمام في كل عصر وزمان حتى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّها كانت تقتضي لزوم بعث الرسول والنبي. فلاحظ.

(١) لا يخفى أنّ ضرورة وجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان أمر بديهي لا يحتاج إلى زيادة بيان حيث أنّ ضرورة وجوده كضرورة وجود الأنبياء، فإنّ الحكمة كما تقتضي بعث الأنبياء لإرشاد عباد الله نحو مصالحهم وسعادتهم الدنيوية والأُخروية وتحذيرهم عن الانحراف والشقاء والهلاك والخسارة في الدنيا والآخرة كذلك تقتضي نصب الإمام من قبل الله تبارك وتعالى لنفس الغاية، وهذه عقيدة الشيعة في الإمامة، ولذلك قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: اللّهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إمّا ظاهراً مشهوراً، وإمّا خائفاً مغموراً، لئلّا تبطل حجج الله وبيناته (نهج البلاغة الكلمات القصار، رقم الحديث ١٤٧).

للخلق ورشدهم الى ما جهلوه منه[(١)].

➲ ثمّ لا يخفى أنّ ضرورة وجود الإمام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر إجماعي بين جميع المسلمين وإن كان هناك فرق بين الشيعة وأهل السنّة في أوصاف الإمام الذي يقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك في من يجعل وينصب الإمام إماماً للأمة ولكن الأمة مجمعة على أنّ أصل وجود الإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ضروريات الدين، ولذلك تجد في التاريخ أنّ الصحابة قد تركوا جثمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الأرض وبادروا إلى تعيين الخليفة، فكان تعيين الخليفة عندهم أهم من تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتدفينه. وإن كانت حقيقة الإمامة عندهم أشبه بسياسة وقتية زمنية يقودها الحاكم العادي إلاّ أنّ ضرورة وجوده بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر مسلّم عندهم، وأمّا تعيين الإمام عند الشيعة الإمامية أمر إلهي لابد أن يكون من قبل الله سبحانه كما وضّحه المصنّف رحمه الله فأصل حاجة الناس إلى الإمام بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أمر ضروري عند الفريقين.

والخبير يعلم أنّ الأُمة مهما كانت لها درجة من الفضل ولكنها لا يمكن لها القيام بسدّ الفراغات الهائلة التي خلّفها رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فلا مناص من قبول أنّ نصب الإمام لابد أن يكون من قبل الله كما أنّ بعث الأنبياء وإرسال الرسل يكون من قبل الله.

(١) لا شك أنّ أحد مسؤوليات الإمام هو تبيين المعارف الدينية والأحكام الشرعية كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الشريعة كان له هذه المسؤولية فكان صلى الله عليه وآله وسلم يبيّن للأُمة كل ما يتلقّاه من الوحي الالهي والمعارف والأحكام الدينية، ومن المعلوم أنّ هناك بعض الأحكام لم يعرفها المسلمون شيئاً عن ماهياتها وتفاصيلها في عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لعدم الابتلاء بها، فكان من اللازم أن يستودعها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم شخصاً مثالياً في الأُمة محيطاً بالعلوم والمعارف في جميع المجالات ليسدّ الفراغ الحاصل من رحلته (صلوات الله عليه).

والشاهد على ذلك: إنّا نجد في التاريخ أنّ الصحابة قد واجهت بعض المسائل الدينية لم تر لها حل ولن يمكنهم الإجابة عنها إلاّ بالرجوع إلى أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعلى سبيل المثال: إنّ من تلك الموارد أنّه رفع رجل إلى أبي بكر وقد شرب الخمر فأراد أن يقيم عليه الحدّ فادّعى أنّه نشأ في قوم يستحلونها ولم يعلم بتحريمها إلى الآن فتحير أبوبكر في حكمه، ولم يعلم وجه القضاء فيه، فأشار عليه بعض من حضره أن يستخبر أميرالمؤمنين علي بن أبي ➲

➲ طالب عليه السلام عن حكم ذلك، فأرسل إليه من سأله عنه، فقال أميرالمؤمنين عليه السلام: مر نقيبين من رجال المسلمين يطوفان به على مجالس المهاجرين والأنصار ويناشداهم الله هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم، أو أخبره بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فإن شهد أحد بذلك رجلان منهم فأقم الحدّ عليه، وان لم يشهد عليه أحد بذلك فاستتبه وخلّ سبيله (رواه الشيخ المفيد في الإرشاد ج١: ص١٩٩ عن رجال العامة والخاصة).

ومنها: إنّه سئل عمر بن الخطاب عن رجل طلّق امرأته في الجاهلية تطليقتين، وفي الإسلام تطليقة، فهل تضم التطليقتان إلى الثالثة أم لا؟ فقال للسائل: لا آمرك ولا أنهاك... (المصنف لعبد الرزّاق الصنعاني ج٧: ص١٨١ ح١٢٦٨).

ومنها: مسألة العول التي شغلت بال الصحابة فترة من الزمن وكانت من المسائل المستحدثة التي واجهت الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد طُرحت هذه المسألة أيام خلافة عمر بن الخطاب فتحيّر، فأُدخل النقص على الجميع استحساناً منه، وقال: والله ما أدري أيّكم قدّم الله ولا أيّكم أخّر، ما أجد شيئاً أوسع لي من أن أقسم المال عليكم بالحصص، وأدخل على ذي حق ما أدخل عليه من عول الفريضة (أحكام القرآن للجصّاص ج٢: ص١١٤، والمستدرك للحاكم ج٤: ص٣٤٠ وراجع في توضيح ذلك مسألة العول إلى المصادر الفقهية من أهل السنة والجماعة في باب الميراث).

فالباحث لو أمعن النظر في هذه المسائل وأمثالها التي هي كثيرة جداً وتأمل فيها لا سيما في قول الخليفة حيث يحلف ويقول: والله ما أدري كيف أصنع بكم، أو يقول: والله ما أدري أيّكم قدّم الله ولا أيّكم أخّر، فهذا حال خليفة المسلمين الذي لا يعرف حكم مسألة من مسائل المسلمين فكيف بالمسلمين العاديين الذين لا يعرفون شيئاً من المعارف الدينية.

ولا يخفى على الخبير أنّ الشريعة الإسلامية لم تكن ناقصة بل هي كاملة كما صرّح تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (سورة المائدة:١٠٦).

والظاهر من الآية الكريمة أنّ قول الله سبحانه وتعالى «اكملت لكم» مجموع المعارف الدينية إلى يوم القيامة، ومن المعلوم أنّ كثيراً من الاحكام والمعارف الدينية لم يذكرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ➲

➲ بشكل مباشر للامة الإسلامية ولم يعلمها إلّا لشخص معيّن وقد قال في حقه: إنّه باب مدينة علمي فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أنا مدينة العلم وعلي بابها (اُنظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم النيشابوري ج٣: ص١٢٦ـ١٢٧، ومجمع الزوائد للهيثمي ج٩: ص١١٤، والمعجم الكبير للطبراني ج١١: ص٥٥، والاستيعاب لابن عبدالبر ج٣: ص١١٠٢، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٧: ص٢١٩، والجامع الصغير للسيوطي ج١: ص٤١٥ رقم٢٧٠٥، وكنزالعمال للمتقي الهندي ج١٣: ص١٤٨ رقم٣٦٤٦٣ وغيرهم).

وقال في حقه مرة اُخرىٰ: أنا مدينة الحكمة علي بابها (الصواعق المحرقة: ص٧٣ وقال: رواه البيهقي).

وقال في حقه مرة اُخرىٰ: علي باب علمي ومبيّن من بعدي لأُمتي ما اُرسلت به، حبه إيمان، وبغضه نفاق (كنز العمال ج١١: ص٦١٤ ح٣١٩٨١).

وقال مرة اُخرىٰ في حقه مخاطباً له: أنت تبيّن لأُمّتي ما اختلفوا فيه من بعدي. اخرجه الحاكم النيشابوري وقال بعد ذكر الحديث: هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرك على الصحيحين ج٣: ص١٢٢).

فلا شكّ أنّ أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان يربو بعلمه على جميع الصحابة وكانوا يرجعون اليه في القضايا والمشكلات، ولا يرجع إلى أحد منهم في شيء، وقال عليه السلام: علّمني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألف باب من العلم، يفتح كل باب ألف باب، ولَم يعلّم ذلك أحداً. أخرج هذا الحديث علماء الإسلام من الفريقين بعبارات مختلفة وطرق متعددة وقد رواه علماء أهل السنّة الجماعة في مصادرهم.

منهم: الفخر الرازي في تفسيره ج٨: ص٢٣، ومنهم: التفتازاني في شرح المقاصد ج٢: ص٣٠٠ وغيرهما، قال التفتازاني: وأمّا المعقول فهو (أي الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) أنّه أعلم الصحابة... وذلك شدة ملازمته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم واستفادته منه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين نزول قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (سورة الحاقّة: ١٢). اللهم اجعلها اُذن علي، قال علي: ما نسيت بعد ذلك شيئاً. وقال: علّمني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألف باب من العلم فانفتح لي من كل باب ألف باب. ولهذا رجعت الصحابة اليه في الكثير من الوقائع... ➲

ومنها: حفظه عن التغيير والتبديل والتحريف(١).

(شرح المقاصد ج٢: ص٣٠٠).

وهناك روايات كثيرة تدلّ على أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أعلم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

منها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: قال: أعلم أُمتي من بعدي علي بن أبي طالب (كنز العمّال ج١١: ص٦١٢ ح٣٢٩٧٧).

ومنها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: علي وعاء علمي ووصيي وبابي الذي أُوتي منه (شمس الأخبار لعلي بن أحمد القرشي: ص٣٩، وكفاية الطالب للكنجي الشافعي: ص٧٠ وص٩٣).

ومنها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: علي خازن علمي (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢: ص٤٤٨).

والى غير ذلك من الروايات الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم استودع علومه وما تلقّاه من الوحي إلى الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حتى ترجع الأُمة من بعده اليه، وبذلك يبقىٰ الإسلام ديناً كاملاً تاماً إلى الأبد حتى يعرف العالم أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقصّر في تبليغه بل بيّن للامة ما يحتاجون اليه وذلك ببركة نصب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمّة الأحد عشر من ولده عليهم السلام الى يوم القيامة.

(١) لا شك أنّ أحد مسؤوليات الإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو صيانة الدين الحنيف وأحكامه المقدّسة عن التحريف والدس والتغيير والتبديل، فلابد للإمام أن يراقب الناس والأمة بأنّهم مَمَّ يأخذون معالم دينهم والى من يرجعون؟ فإذا كان هناك من الأعداء من يكون هدفه إيجاد التشويش والتزلزل في عقائد الأُمة بالتساؤلات والتشكيكات فعلى الإمام أن يردّ عليهم ويصون الدين من الانحراف، كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقوم بهذا الواجب في حياته الشريفة ومن ذلك عندما قدم عليه جماعة من كبار النصارىٰ لمناظرته، فاستدلوا لاعتقادهم بنبوة المسيح عليه السلام، بتولده من غير أب، فأجاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوحي من الله سبحانه: بأنّ أمر المسيح عليه السلام ليس أغرب من أمر آدم عليه السلام حيث ولد من غير أب ولا أُم، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة آل عمران:٥٩).

وإذا طالعت تفاسير القرآن الكريم تقف على أنّ قسماً من الآيات المباركة نزلت في الإجابة عن التشكيكات المتوجّهة إلى الإسلام من جانب أعدائه من المشركين واليهود والنصارىٰ وغيرهم، فكان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يجيب عن تلك التساؤلات والشبهات ويصون الدّين من

➲ الهجمات المريبة لأعداء الإسلام...

كذلك يجب على الإمام والخليفة أن يدافع عن الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويرد على الشبهات والتشكيكات والتساؤلات التي يطرحها أعداء الإسلام دفاعاً عن الدين، ولئلّا يتزلزل اعتقاد المسلمين ولا يتشوّش أفكارهم.

ومن الواضح أنّ من يقوم بهذا الدور لابدّ أن يكون مؤهلاً لذلك المقام الرفيع أي لابد أن يكون متّصفاً بجميع صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم من العلم والعصمة والشجاعة و...

وقد اتفق المؤرخون والمحدّثون أنّه قد وقع مثل ذلك في التأريخ كراراً بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها أنّه: قد جاء يهودي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وسأل عن خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأشار القوم إلى أبي بكر فوقف عليه فقال: أُريد أن أسألك عن أشياء لا يعلمها إلّا نبي أو وصي نبي، فقال أبوبكر: سل عما بدا لك، قال اليهودي: أخبرني عما ليس لله، وعما ليس عند الله، وعما لا يعلمه الله، فقال أبوبكر: هذه مسائل الزنادقة يا يهودي، وهمّ أبوبكر والمسلمون باليهودي، فقال ابن عباس: ما أنصفتم الرجل، فقال أبوبكر: أما سمعت ما تكلّم به؟ فقال ابن عباس: إن كان عندكم جوابه وإلّا فاذهبوا به إلى علي يجيبه، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي بن أبي طالب: اللهم اهد قلبه، وثبّت لسانه، قال: فقام أبوبكر ومن حضره حتى أتوا علي بن أبي طالب فاستأذنوا عليه، فقال أبوبكر: يا أبا الحسن، إنّ هذا اليهودي سألني مسائل الزنادقة، فقال علي: ما تقول يا يهودي؟ قال: أسألك عن أشياء لا يعلمها إلّا نبي أو وصي نبي، فقال له: قل، فردّ اليهودي المسائل، فقال علي: أمّا لا يعلمه الله فذلك قولكم «يا معشر اليهود: إنّ العزير ابن الله، والله لا يعلم أنّ له ولداً»، وأمّا قولك: أخبرني بما ليس عند الله، فليس عنده ظلم للعباد، وأمّا قولك: أخبرني بما ليس لله فليس له شريك، فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وأنّك وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال أبوبكر والمسلمون لعلي عليه السلام: يا مفرّج الكرب (المجتبىٰ لأبي بكر بن محمد بن الحسن بن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ: ص٣٥) ورواه العلامة الأميني في الغدير ج٧: ص١٧٨ نقلاً عن كتاب المجتبىٰ.

ومنها: ما أخرجه الحافظ العاصمي عن سلمان الفارسي، قال: لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اجتمعت

➲

⮌ النصارىٰ إلى قيصر ملك الروم فقالوا له: أيها الملك إنّا وجدنا في الإنجيل رسولاً يخرج من بعد عيسى اسمه أحمد وقد رمقنا خروجه وجاءنا نعته فأشر علينا فإنا قد رضيناك لديننا ودنيانا، قال: فجمع قيصر من نصارىٰ بلاد مائة رجل وأخذ عليهم المواثيق أن لا يغدروا ولا يخفوا عليه من أُمورهم شيئاً وقال: انطلقوا إلى هذا الوصي الذي من بعد نبيّهم فاسألوه عما سئل عنه الأنبياء عليهم السلام وعما أتاهم به من قبل، والدلائل التي عرفت بها الأنبياء، فإن أخبركم فآمنوا به وبوصيّه واكتبوا بذلك إليّ، وإن لم يخبركم فاعلموا أنه رجل مطاع في قومه، يأخذ الكلام بمعانيه ويردّه على مواليه، وتعرّفوا خروج هذا النبي.

قال: فسار القوم حتى دخلوا بيت المقدس واجتمعت اليهود إلى رأس جالوت، فقالوا له مثل مقالة النصارىٰ بقيصر، فجمع رأس الجالوت من اليهود مائة رجل، قال سلمان: فاغتنمت صحبة القوم فسرنا حتى دخلنا المدينة، وذلك يوم عروبة (يعني يوم الجمعة وكان يسمىٰ قديماً يوم عروبة) وأبوبكر قاعد في المسجد يفتي الناس فدخلت عليه وأخبرته بالذي قدم له النصارىٰ واليهود، فأذن لهم بالدخول عليه، فدخل عليه رأس الجالوت، فقال: يا أبابكر إنّا قوم من النصارىٰ واليهود جئناكم لنسأل عن فضل دينكم، فإن كان أفضل من ديننا قبلناه وإلّا فديننا أفضل الأديان، فقال أبوبكر: سل عما تشاء أجيبك إن شاء الله، قال: ما أنا وأنت عند الله؟ قال أبوبكر: أمّا أنا فقد كنت عند الله مؤمناً وكذلك عند نفسي إلى الساعة، ولا أدري ما يكون من بعد، فقال اليهودي: فصف لي صفة مكانك في الجنة، وصفة مكاني في النار لأرغب في مكانك وأزهد عن مكاني، قال: فأقبل أبوبكر ينظر إلى معاذ مرة وإلى ابن مسعود مرة، وأقبل رأس الجالوت يقول لأصحابه بلغة أُمّته: ما كان هذا نبياً، قال سلمان: فنظرإليّ القوم، قلت لهم: ابعثوا إلى رجل لو ثنيتم الوسادة لقضى لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل الزبور بزبورهم، ولأهل القرآن بقرآنهم، ويعرف ظاهر الآية من باطنها وباطنها من ظاهرها.

قال معاذ: فقمت فدعوت علي بن أبي طالب وأخبرته بالذي قدمت له اليهود والنصارىٰ، فأقبل حتى جلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال ابن مسعود: وكان علينا ثوب ذل: فلمّا جاء علي بن أبي طالب كشفه الله عنا، قال علي: ⮌

➲ سلني عما تشاء أخبرك إن شاء الله.

قال اليهودي: ما أنا وأنت عندالله؟ قال: أمّا أنا فقد كنت عند الله وعند نفسي مؤمناً إلى الساعة فلا أدري ما يكون بعد، وأمّا أنت فقد كنت عندالله وعند نفسي إلى الساعة كافر ولا أدري ما يكون بعد.

قال رأس الجالوت: فصف لي صفة مكانك في الجنة وصفة مكاني في النار فأرغب في مكانك وأزهد عن مكاني، قال علي: يا يهودي لم أر ثواب الجنة ولا عذاب النار فأعرف ذلك، ولكن كذلك أعدّ الله للمؤمنين الجنّة وللكافرين النار، فإن شككت في شيء من ذلك فقد خالفت النبيصلى الله عليه وآله وسلم ولست في شيء من الإسلام، قال: صدقت رحمك الله، فإنّ الأنبياء يوقنون على ما جاؤا به، فإن صدّقوا آمنوا وإن خولفوا كفروا، قال: فأخبرني أعرف الله بمحمد أم محمداً بالله؟

فقال علي: يا يهودي، ما عرفت الله بمحمد ولكن عرفت محمداً بالله، لأنّ محمداً محدودٌ مخلوق وعبد من عبادالله اصطفاه الله، واختاره لخلقه، وألهم الله نبيه كما ألهم الملائكة وعرّفهم نفسه بلا كيف ولا شبه، قال: صدقت، قال: فأخبرني الرب في الدنيا أم في الآخرة؟

فقال علي: إنّ فِيَّ وعاء، فمتى ما كان بقي كان محدوداً ولكنه يعلم ما في الدنيا والآخرة وعرشه في هواء الآخرة وهو محيط بالدنيا والآخرة بمنزلة القنديل في وسطه إن خليت تكسّر، وإن أخرجته لم يستقم مكانه هناك فكذلك الدنيا وسط الآخرة، قال: صدقت. قال: أخبرني الربّ يحمل أو يُحمل؟ قال علي بن أبي طالبعليه السلام: يَحمل، قال رأس الجالوت: فكيف؟ وإنّا نجد في التوراة مكتوباً «يحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية»، قال علي: يا يهودي، إن الملائكة تحمل العرش، والثرى يحمل الهواء والثرى موضوع على القدرة، وذلك قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ (سورة طه:٦) قال اليهودي: صدقت... الحديث (أُنظر: الغدير ج٧: ص١٧٩ نقلاً عن كتاب زين الفتىٰ في شرح سورة هل أتى للشيخ أحمد بن محمد العاصمي من علماء القرن الخامس).

وهناك روايات كثيرة وردت في مصادر الفريقين وهي تنقل القضايا المختلفة التي وقعت بعد رحلة الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله وسلم من ورود الشبهات وإثارة التشكيكات من قبل أعداء الإسلام ➲

ومنها: إقامة الحدود بين الناس(١).

بطرق مختلفة، وكانت بعضها بواسطة الوفود الذين كانوا يأتون مركز الإسلام. ليثيروا على عواطف المسلمين وليخذلوهم من ناحية الثقافة الدينية، فكان ذلك غالباً من اليهود والرهبان والنصارىٰ ومؤيدي المجوس ككعب الأحبار وتميم الداري ووهب بن منبه وعبدالله بن سلار غيرهم من الزنادقة والملاحدة الذين وفدوا على أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية وطرحوا أسئلتهم عليهم، وهؤلاء لم يستطيعوا الجواب عما سئلوا، ولولا وجود أئمة أهل البيت عليهم السلام كاد أن يمحو الإسلام من الأرض ولم يبق اسم منه ولكن ببركة وجود الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام والأئمة الطاهرين المعصومين عليهم السلام قد أُجيب عن تلك التساؤلات والتشكيكات، فبقي الإسلام خالداً مؤثراً بليغاً يفتخر بوجوده المسلمين.

فالإمام هو الذي يصون الدين من محاولات التحريف والتغيير كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان كذلك، ولا فرق بين أن يكون الإمام حاكماً على هرم الحكومة أو يكون جالساً في البيت، فإن الفراغات الحاصلة من رحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا تسد إلّا بوجود إنسان مثالي يقوم بتلك الواجبات.

ومن هنا يعرف أنّ الأُمة بما فيهم من العلماء لا يمكنهم إحياء الدين وصونه عن التحريف إلّا الإمام المعصوم المنصوب من قبل الله تبارك وتعالى، فلاحظ.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ أحد شؤون الإمام المعصوم إقامة الحدود وما يجري مجراها من القضاء بين الناس وإقامة العدل في المجتمع البشري بالولاية التي جعلها الله تعالى له ولرسوله، فقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الأحزاب:٦).

هذه الآية الكريمة ذكرت أولوية النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين بصورة مطلقه، ومعنى ذلك: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالإنسان المسلم من نفسه في جميع شؤون حياتهم وجميع الصلاحيات التي يمتلكها الإنسان في حق نفسه من الدماء والأعراض والأموال، فتشمل الولاية في ادارة الأُمور الاجتماعية، والأولوية في مسألة القضاء وما يرتبط بها من إجراء الحدود والقصاص، وغير ذلك مما يترتب على التصرف في أموال الناس ونفوسهم وغير ذلك، فالنبي أولى بالتصرف في جميع شؤون حياة المسلمين العملية والفكرية والمعاشية والاجتماعية و...

ومن الأُمور التي مارسها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيام حياته الشريفة هو القضاء بين المسلمين وإجراء الحدود

➲ وإقامتها، ومن المعلوم بالدليل القاطع من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ـ كما سيظهر ذلك للقارىء الكريم إن شاء الله تعالى ـ أن هذا المنصب يكون من صلاحيات الإمام المعصوم بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فالإمام له نفس الولاية التي كانت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل المسلمين يوم غدير خم، فقال لهم: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم. فلمّا قال المسلمون: بلىٰ يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه... (أُنظر: مسند أحمد بن حنبل ج ١: ص١٩ وج ٤: ص٣٧٢ وج ٥: ص٣٤٧ وسنن ابن ماجة ج ١: ص٤٣، والمستدرك على الصحيحين للحاكم ج٣: ص١١٠، ومجمع الزوائد للهيثمي ج ٥: ص١٩٥ وغير ذلك).

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدما أخذ الإقرار من المسلمين بأنّه أولى بالمؤمنين من أنفسهم قال: إنّ علياً عليه السلام يكون له نفس الولاية التي جعلها الله لي. فأحد مسؤوليات الإمام القضاء وإجراء الحدود وهو أعلم الناس بحدود الله وأحكام القضاء بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: قد روت العامة والخاصة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: أقضاكم علي... (شرح نهج البلاغة ج ١: ص١٨).

وقال الإيجي في المواقف: قد اجتمع في علي عليه السلام الكمالات ما تفرق في الصحابة؛ وهي أُمور: الأول: العلم، وعلي أعلم الصحابة... وأما أبوبكر فاتصل بخدمته في كبره لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: أقضاكم علي. والقضاء يحتاج إلى جميع العلوم... (المواقف ج٣: ص٦٢٧).

وقال الباقلّاني: وروي فيه (أي الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام) من الفضائل المشهورة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحو قوله: أقضاكم علي. مع العلم بأنّ القضاء يشتمل على معرفة أبواب الحلال والحرام وأحكام الشرع، وما يحتاج إلى علمه إمام الأمة... (تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: ص٥٤٣).

فإذا كان أحد الجهات اللازمة للإمام والخليفة هي رفع الخصومات فلابد أن يقدّم أقضىٰ الناس على غيره لأنّ العقل يحكم بأنّ أقضىٰ له التقدم على غيره، وكذلك السيرة العقلائية جارية في تقديم الأعلم على غيره.

وقد ورد عن سعيد بن أبي الخضيب البجلي قال: كنت مع أبي ليلى مزاملة حتى جئنا إلى المدينة ➲

فبينا نحن في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ دخل جعفر بن محمد عليه السلام، فقلت لابن أبي ليلى: تقوم بنا اليه، فقال: وما نصنع عنده؟ فقلت: نسأله ونحدّثه، فقال: فقمنا اليه، فسألني عن نفسي وأهلي، ثم قال: من هذا معك؟ فقلت: ابن أبي ليلى قاضي المسلمين، فقال له: أنت ابن أبي ليلى قاضي المسلمين؟ قلت: نعم، قال: فبأي شيء تقضي؟ قال: بما بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن علي عليه السلام وعن أبي بكر وعمر، قال: فبلغك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنه قال: إنّ علياً عليه السلام أقضاكم؟ قال: نعم، قال: فكيف تقضي بغير قضاء علي عليه السلام وقد بلغك هذا، فما تقول إذا جبي بأرض من فضة وسماء من فضة ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيدك فوقّفك بين يدي ربك، فقال: يا رب، إنّ هذا قضى بغير ما قضيت؟... (الكافي ج٧: ص٤٠٨ ح٥).

والطريف أنّ الطبراني أخرج في معجمه الأوسط بسنده عن أبي مروة مسلم بن سالم. قال: سمعت ابن أبي ليلىٰ يقول: سمعت عمر يقول: أقضانا علي بن أبي‌طالب (المعجم الأوسط ج٧: ص٣٥٧).

ورویٰ ابن عبدالبر في الاستيعاب عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال: أقضانا علي (الاستيعاب ج٣: ص١١٠٤).

ثم إنّ عمر نفسه كان يقول: لا أبقاني الله لمعظلة لا أرىٰ فيها ابن أبي طالب (أُنظر: أنساب الأشراف للبلاذري:١٠) في حديث قال: لا أبقاني الله بأرض لست فيها يا أبا الحسن (أُنظر: نصب الراية ج٣:ص١١٧) ورواه ابن أبي الحديد في شرح نهج ج١٢: ص١٠١.

وأيضاً اعترف عمر بن الخطاب غير مرة قوله المعروف بأنّه: لولا علي لهلك عمر.

منها: لما أُتي عمر بن الخطاب بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها، فتلقّاها عليّ فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر عمر برجمها فردّها علي وقال: هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها، ولعلك انترتها، أو أخفتها، قال: قد كان ذلك، قال: أو ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا حدّ على معترف بعد بلاء، إنّه من قيد أو حبس أو تهدّد، فلا اقرار له، فخلّىٰ سبيلها، ثم قال: عجزت النساء أن تلدن مثل علي بن أبي طالب، لولا علي لهلك عمر (أُنظر: الأربعين للفخر الرازي: ص٤٦٦، والمناقب للخوارزمي: ص٨٠ ح٦٥، وفرائد السمطين للجويني ج١: ص٣٥١ ح٢٧٦، ومطالب السؤول لابن طلحة الشافعي: ص١٣٠، وينابيع

➲ المودة للقندوزي الحنفي ج١: ص٢٢٧ ح٥٧ وج٢: ص١٤٦ وغيرها).

ومنها: إنّ رجلاً أُتي به إلى عمر كأن قال: في جوابهم لمّا سألوه: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحب الفتنة، وأكره الحق، وأُصدّق اليهود والنصارىٰ، وآمن بما لم أره وأقر بما لم يخلق، فأرسل عمر إلى علي فلمّا جاء أخبره بما قال الرجل، فقال: صدق، قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، ويكره الحق يعني: الموت، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾، وصدق اليهود والنصارىٰ، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ويؤمن بما لم يره يعني: الله، ويفر لما لم يخلق يعني: الساعة، فقال عمر: لولا علي لهلك عمر (نظم دررالسمطين: ص١٢٩).

وأخرجه الحافظ الكنجي في كفاية الطالب: ص٩٦ عن حذيفة بن اليمان: أنّه لقي عمر بن الخطاب فقال له عمر: كيف أصبحت يابن اليمان؟ فقال: كيف تريدني أصبح؟ أصبحت والله أكره الحق وأحب الفتنة... وابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمة: ص١٨، ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة:ج٢ص١٦٣ عن ابن سمان. وغيرهم.

ومنها: إن عمر امر برجم امرأة ولدت لستة أشهر، فنبّهه الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي‌طالب عليه السلام بقوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾ (سورة الأحقاف: ١٥) ﴿وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٣) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، فقال عمر: لولا علي لهلك عمر (تفسير فخرالرازي ج٦:ص١٢٧).

قال ابن عبدالبر في الاستيعاب: قال احمد بن زبير: حدثنا عبيدالله بن عمر القواريري، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا سفيان الثوري عن يحيىٰ بن سعيد بن المسيب قال: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبوالحسن. وقال في المجنونة التي أمر برجمها، وفي التي وضعت لستة أشهر، فأراد عمر رجمها، فقال له علي: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾... الحديث. وقال له: إنّ الله رفع القلم عن المجنون... الحديث. فكان عمر يقول: لولا علي لهلك عمر (الاستيعاب لابن عبدالبر ج٣:ص١١٠٣).

وقال ابن أبي الحديد: والثانية: علومه التي لولاها لحكم بغير الصواب في كثير من الأحكام، وقد اعترف عمر له بذلك والخبر المشهور: لولا علي لهلك عمر (شرح نهج البلاغة ج١:

➲

ومنها: سدّ الثغور[١].

⮌ ص١٤١).

إنّ الروايات الواردة في كتب أهل السنة مما تدل بصراحة على أنّ الصحابة والخلفاء كانوا يعترفون بأنّ الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو الوحيد الذي كان له صلاحية شأن القضاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإقامة العدل في المجتمع، ولولاه لفشلت أهداف النبي صلى الله عليه وآله وسلم المقدّسة وتلك الجهود التي بذلها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم من أجل اعتلاء كلمة الإسلام وحفظه عن الانهيار، كما هو ظاهر وواضح من الأدلة والروايات فراجع.

(١) فإنّ أحد شؤون الإمام المعصوم سدّ الثغور وحفظ البلاد الإسلامية، وتجهيز جيوش المسلمين وعساكرهم وسراياهم للدفاع عن حريم الإسلام وأعراض المسلمين ونواميسهم، وغير ذلك مما يتوقف عليه نظام الأُمور العامة في المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلامية، بل هو من أهم الأُمور في تحقيق حاكمية الإسلام في المجتمع وقدرته الظاهرية وشوكته العظيمة أمام الأعداء ولذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتولى أمر تجهيز جيوش المسلمين وعساكرهم بقيادته الحكيمة، بل وحتى كان يخطّط التخطيطات العسكرية في المواقف الحرجة.

وكان من أساليب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحروب مع الأعداء جمع المعلومات حول استعدادات العدو، ومدىٰ تهيئة إمكانياتهم المادية ومعنويات أفرادهم، وهذه المسألة من المسائل المهمة في المجال العسكري حتى اليوم، حيث إنّ المعلومات العسكرية تفيد وتساعد الجيش المقابل لاتخاذ الموقف المناسب أمام تحركات العدو. وقد ذكر الواقدي في كتاب المغازي: بأنّه كانت مغازي النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي غزا بنفسه أربعاً وخمسين غزوة (المغازي ج١: ص٧) ومثله في الطبقات لابن سعد ج٢: ص١).

ومما يؤيد أنّ غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسراياه بلغت ثمانين موطناً ما رواه ابن شعبة في تحف العقول بسنده عن الإمام أبي الحسن الثالث عليه السلام قال: وكان المتوكل نذر أن يتصدّق بمال كثير إن عافاه الله من علته، فلمّا عوفي سأل العلماء عن حد المال الكثير، فاختلفوا، ولم يصيبوا المعنى، فسأل أبا الحسن عليه السلام عن ذلك فقال: يتصدق بثمانين درهماً، فسأل عن علة ذلك؟ فقال: إنّ الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، فعدّدنا مواطن ⮌

⮊ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبلغت ثمانين موطناً وسمّاها الله كثيرة، فسّر المتوكّل بذلك (تحف العقول: ص ٤٨١).

ثمّ إنّ هناك عدة من المنافقين كانوا بين أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم يشكّلون جبهة عدوانية داخلية، أشبه بما يسمىٰ بالطابور الخامس، فهؤلاء أسلموا بألسنتهم دون قلوبهم، وكانوا ينتظرون الفرص لإبادة الدولة الإسلامية بإثارة الفتن الداخلية، وإيصال المعلومات إلى أعداء الإسلام، ولقد تبرّى القرآن الكريم لفضح هؤلاء القوم ببيان خطفه ضد الدين في العديد من الآيات، بل وقد نزلت في حقهم سورة خاصة، فاهتمام القرآن بالتعرّض للمنافقين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم المتواجدين بين الصحابة أدلّ دليل على أنّهم كانوا قوة كبيرة ويشكلون جماعة وافرة، ويلعبون دوراً خبيثاً في إفساح المجال لأعداء الإسلام بحيث لولا قيادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحكيمة لقضوا على كيان الدين، ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (سورة التوبة:٤٨).

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحافظ على نظام المسلمين وكيانهم، وتنفيذ قوانين الإسلام وأُسسه الرفيعة مما يتوقّف عليه بيضة الإسلام، فكان هدف النبي صلى الله عليه وآله وسلم حماية الدين والدفاع عن الإسلام والمسلمين، وهذا أحد شؤون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأُمة، ويكون أيضاً من شؤون الإمام المعصوم بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ من واجبات الإمام المعصوم حفظ ثغور الإسلام والدفاع عن حرمات المسلمين وحقوقهم وإن لم يكن الإمام على رأس القدرة والحكومة، فإذا بلغ الأمر إلى الدفاع عن أصل الإسلام وعمود الدين ووجهه فيلزم على الإمام الدفاع عنه.

ولا يخفى على الخبير أنّ الدفاع عن بيضة الإسلام وثغور المسلمين لا يعد دفاعاً عن الحكّام الظلمة الذين يحكمون على الناس بالجور والباطل، لأنّ مصلحة الأهم وهي حفظ بيضة الإسلام وثغور المسلمين مقدّمة على كل شيء لأنّه لولاها لما بقي من الإسلام شيئاً.

ومن هنا نعرف أهمية دور القيادة الإلهية في المجتمع الإسلامي، فإنّ نجاح كل أُمة وفلاحها إنّما يحصل بوجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان، فإنّ القيادة الإلهية المتمثّلة في النبي أو الإمام المعصوم، فالامام إنّما هو يُحيي الدين ويحافظ على نظام المسلمين كيانهم، ومن ⮈

ومنها: تأمين الطرق والسبل بقمعه لقطّاعها(١).

➲ الواضح أنّ النصر الحقيقي دائماً يكون معهم إذ النصر الحقيقي هو الانتصار على العدو بالأهداف والأغراض التي دفعت القيادة الإلهية إلى محاربة من يقوم بوجههم.

ومن هنا: أنّ البصيرة لها أهمية عظمىٰ في هذا المجال لأنّ السعادة الحقيقية هي السعادة التي يدعو اليها الخالق والوصول اليها إنما يكون عبر الطريق الذي جعله الله سبحانه لهداية العباد. فالقيادة الإلهية هي القيادة الوحيدة التي ترشد إلى ساحل النصر الحقيقي، وأمّا الفتوحات التي لم تتحقّق بواسطة القيادة الإلهية لا تعتبر نصراً حقيقياً إذ ليس كل غالب هو الناشز، لأنّه قد يكون الإنسان غالباً بحسب الظاهر ومغلوباً في الواقع إذ لمّا كانت الغلبة الواقعية هي حفظ الاسلام وتقويم أُسسه ودعائمه فيحتاج إلى شخص عالم بجميع الزوايا التي فيها المصالح والمنافع للاسلام حقيقة وهذا لايمكن إلّا بمن هو محيط بجميع تلك الزوايا وجميع المصالح الواقعية التي توجب حفظ الاسلام واقعاص وكيانه العظيم وهذا لايتيسّر من أحد إلّا المعصوم الذي يحيط معرفته بكلّ شيء لأنّ معرفة المعصوم مستمدة من الله سبحانه وتعالى فالقادة الإلهيين هم غالبين دائماً لأنّ قيادتهم مستمدة بتعاليم الله وبحكمته البالغه وبقدرته العظيمة، فلاحظ.

(١) فإنّ أحد شؤون الإمام المعصوم توفير الأمان في المجتمع الإسلامي ودفع المخاطر المتوجّهة الى المسلمين ومن يعيش في ذمة الإسلام في جميع المدن والبلاد الإسلامية، وتأمين الطرق، لئلّا يختل الذهاب والإياب والاكتساب والاشتغال وغير ذلك.

وقد اهتم الإسلام بهذا الأمر اهتماماً بالغاً بحيث جعل قطّاع الطرق ومن شهر سلاحه على الناس في حكم المحارب لله ورسوله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٣٣).

فقد ورد في شأن نزول هذه الآية بأنّ جماعة من المشركين قدموا إلى النبي ﷺ وأعلنوا إسلامهم لكنهم لعدم تعوّدهم على طقس ومناخ المدينة أُصيبوا ببعض الأمراض، فنصحهم النبي ﷺ أن يذهبوا إلى منطقة ذات مناخ جيد في الصحراء خارج المدينة، كانت مرتعاً ➲

⬅ لإبل الزكاة، وأجاز لهم الانتفاع بلبن تلك الإبل بما يكفيهم ففعلوا، وتعافوا مما كانوا يعانون منه من الأمراض، لكنهم بدل أن يقدّموا الشكر على صنيع النبيﷺ معهم، عمدوا إلى قتل الرعاة المسلمين والتمثيل بهم وسمل عيونهم ونهبوا إبل الزكاة وارتدّوا عن الإسلام إلى الشرك، فأمر النبيﷺ بإلقاء القبض عليهم والقصاص منهم بمثل ما ارتكبوه بحق أُولئك الرعاة الأبرياء وجزاءً لهم على جرائمهم، فسملت عيونهم وقطّعت أيديهم وأرجلهم وقتلوا، لكي يصبحوا عبرة لغيرهم، ولئلا تسول لأحد أن يرتكب مثل هذه الجرائم الوحشية البشعة، وقد نزلت الآية المباركة تبياناً للحكم الإسلامي في هذه الجماعة (أُنظر: تفسير المنار ج٦: ص٣٥٣ ذيل الآية الكريمة ٣٣ من سورة المائدة، وتفسير القرطبي ج٣: ص٢١٤٥).

فالآية الكريمة تبيّن جزاء وعقاب من يشهر السلاح بوجه المسلمين وينهب أموالهم عن طريق التهديد والقتل والإرهاب والعنف، فالمراد من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ هم الذين ارتكبوا العدوان ضد الناس واستخدموا السلاح لتهديدهم وإرعابهم وأخذ أموالهم ونفوسهم سواء كان هذا العدوان من قبل قطّاع الطرق خارج المدن أو داخلها، فالآية تشمل الأشرار الذين يعتدون على أرواح الناس وأموالهم ونواميسهم.

والذي يلفت الانتباه في هذه الآية المباركة هو أنها اعتبرت العدوان الممارس ضد البشر بمثابة إعلان الحرب وممارسة العدوان ضد الله ورسوله، وهذه النقطة تبين بل تثبت مدىٰ اهتمام الإسلام بمسألة الأمان في البلاد الإسلامية، وقد جعل حدّ المحارب لهم، لأنّ المحارب هو من ليس لديه حرمة لطرفه المقابل، فأهمية الإسلام لأمان الناس من جهة الأعراض والنفوس والأموال جعل حدّاً ثقيلاً للمحارب للحفظ على النفوس، وإيجاد الأمان والاحترام بحقوق البشر وسلامتهم.

وقد وردت روايات كثيرة عن أئمة أهل البيتعليهم السلام في تفسير الآية الكريمة للانتباه بأهمية هذا الأمر بان من شهر السلاح في دار الإسلام فهو محارب لله تعالى:

ففي حديث عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: من شهر السلاح في مصر من الأمصار فعقر اقتص منه ونفي من تلك البلد، ومن شهر السلاح في مصر من الأمصار وضرب وعقر وأخذ المال ولم يقتل فهو محارب، فجزاؤه جزاء المحارب، وأمره إلى الإمام إن شاء ⬅

ومنها: الحكم بين الناس بالعدل وتسلم المظلمة من الظالم ودفعها الى المظلوم[١]،

➲ قتله وصلبه، وإن شاء قطع يده ورجله... (وسائل الشيعة ج١٨: ص٥٣٢ ح١).

ولأهميّة الأمر قد خطب مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام خطبة بليغة عندما سمع خبر غزو الأنبار بجيش معاوية وقتلهم الأبرياء ونهبهم الأموال والثروات، فقال عليه السلام فيها: هذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأُخرىٰ المعاهدة فينتزع حجلها وقُلبها وقلائدها ورعاثها ما تمتنع منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم ولا أُريق لهم دَم، فلو أن أمرئً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً (الخطبة رقم ٢٧).

فإنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين أخبر بهجوم سفيان بن عوف الغامدي المأمور من قِبَل معاوية بن أبي سفيان لإغارة بلاد المسلمين في الأنبار وقتلهم ونهب أموالهم، والذي عبّر عنه بـ«أخو غامد» وقتل الناس الأبرياء صغيراً وكبيراً، وفيهم عامل الإمام عليه السلام عليها حسان بن حسان ونهبوا أموالهم وخرّبوا بيوتهم دون أن يواجهوا أدنىٰ مقاومة، ثم عادوا إلى الشام سالمين.

وقد كشف الإمام عليه السلام عن عمق اللوعة التي كانت تعتلج في صدره مستغرباً ما حدث كيف يضعف المسلمون إلى هذه الدرجة، والمهم أنّ الامام عليه السلام لم يفرّق بين المرأة المسلمة والمعاهدة لما تعرّضت له من انتهاك الحرمة والتطاول على حُلِّيها ووسائلها، كما يكشف من مدىٰ ضرورة الالتزام للدولة الإسلامية بالدفاع عن حقوق الأقليات الدينية التي تعيش في ذمة الإسلام.

ومن هنا نعرف مدىٰ أهمية الأمان عند الإمام عليه السلام حتى بالنسبة إلى من يعيش في ذمة الإسلام، فكيف بالمسلمين، ففي هذه الخطبة قد أشار عليه السلام الى بالغ حزنه وأسفه لما تعرّضت لها المرأة اليهودية أو النصرانية التي كانت تعيش في المجتمع الإسلامي.

(١) فإنّ أحد شؤون الإمام المعصوم وتكاليفه فصل الخصومات والقضاء بين الناس بالعدل، كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمارس هذا الأمر أيام حياته بل وإنّ القضاء من شؤون الأنبياء وأوصيائهم.

➲

➲ ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: اتقوا الحكومة، فإنّ الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء، العادل في المسلمين لنبي أو وصي نبي (الكافي ج٧:ص٤٠٦).

فأصل منصب القضاء من الله تبارك وتعالى لأنبيائه، كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ (سورة ص:٢٦).

والمراد بالخلافة هنا هو: أن يكون نائباً لله بين العباد ومنفذاً لأوامر الله سبحانه وتعالى في الأرض. وهذه الجملة تبيّن أنّ الحكومة في الأرض يجب أن تمثّل شرعيتها من الحكومة الإلهية أي حكومة النبي فانها قد أخذت شرعيتها بأمر من الله تبارك وتعالى فهذه هي الحكومة الإلهية وأمّا غيرها من الحكومات فإنّها حكومة ظالمة وغاصبة.

وبالجملة: فإنّ الله سبحانه هو الذي منح أنبيائه الخلافة في الأرض وكلّفهم الحكم بين الناس بالحق، وفي واقع الأمر أن الحكم بين الناس بالعدل أحد ثمار خلافة الله، فإنّ الخلافة هي ظهور لتلك الحكومة الإلهية التي هي قائمة على أمر الله تعالى وأن تحكم بين الناس بالحق.

فالخليفة هو الحاكم بأمر الله تعالى بين الناس بالعدل، ولا فرق بين أن يكون خليفة الله نبيّاً من أنبيائه أو وصي نبي أو إمام معصوم نصّب للإمامة والخلافة من جانب الله سبحانه، والمهم أنّ هذا الخليفة الإلهي هو الذي يعرف الحلال والحرام ويعرف حقيقة الأُمور ويعرف أوامر رب العالمين ونواهيه ويعرف كيف وهو يحكم بين الناس بالعدل والحق، وهذا أمر واضح ظاهر من حياة الأنبياء وسيرتهم في إجراء العدالة في المجتمع، فكانت سياستهم الجارية دائماً الدفاع عن الحق والمظلوم ودفع اعتداء الظالمين وصيانة المجتمع من لوث السلاطين والجائرين المعتدين على حقوق الإنسانية وإجراء القوانين الإلهية وإحياء القيم الإنسانية، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (سورة الحديد: ٢٥).

فالآية الكريمة تبيّن هذه الحقيقة بشكل واضح بأنّ من أهداف إرسال الرُسل وإنزال الكتب قيام الناس بالقسط، ومن المعلوم أنّ الوصول إلى هذه الغاية الحكيمة انّما يتحقّق بوجود عادل عارف بالقوانين الحقّة، ومن الواضح أنّ من لايجد في نفسه ملكة العدالة كيف يتسنىٰ له أن يطبّق العدالة في المجتمع. قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: كيف يعدل في غيره من يظلم نفسه

➲

وغير ذلك من الغايات المحمودة[١]،

(الغرر والدرر ج٤:ص٥٦٤ح٦٩٩٦) أي أنّه لا يعقل أن يكون الانسان مجرياً للعدل إلّا أن يعرف العدل فيجرّبه أولاً في نفسه ثم في المجتمع، ولا يعقل أن يأمر الله الناس بالقسط وهو لم يبيّنه للناس أو لم يجعل من يجريها بين الناس ومأموراً بإجرائه فيهم، فإنّ السلطة بلا إجراء العدالة وبلا مجري عادل منصوب من قبل الله ليس له قيمة أبداً، ولذلك تجد انّ مولانا الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام يقول عندما أراد الخروج إلى الجمل في ذي قار وذلك لما دخل عليه ابن عباس وجده يخصف نعله، فقال له الإمام عليه السلام: ما قيمة هذا النعل؟ قال: قلت: لا قيمة لها، فقال: والله لهي أحب إلَيَّ من أمركم إلّا أن أُقيم حقاً أو أدفع باطلاً... (نهج البلاغة، الخطبة رقم ٣٣).

فالإمامعليه السلام يبيّن الحقيقة التي بيّنها الله سبحانه في الآية الكريمة المتقدمة بأنّ الله تعالى يريد إجراء العدل في المجتمع وإلّا لا قيمة للحكومة من دون إجراء العدالة.

والذي نفهمه من هذا الحديث والآية الكريمة وقوله تعالى: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ (سورة صَ: ٢٦) أنّ خلافة الله في الأرض إنّما هي من أجل إقامة الحق وتحقيق العدالة في المجتمع وهو لا يتحقّق إلّا بوجود المعصومينعليهم السلام.

ثم لا يخفى على الخبير أنّ اختصاص مقام القضاء بالمعصومين بمعنى أن اختيار أمر القضاء بيد النبي أو الإمام المعصوم، فله أن ينصب نائبه الخاص أو العام لمقام القضاء، كما أنّ الأمر يكون كذلك في الاسلام.

وقد ورد في الروايات عن أئمة أهل البيتعليهم السلام في بيان هذا الأمر، حيث جعلوا الفقهاء الجامعين لشرائط القضاء حاكماً وقاضياً على الناس، وذلك بقولهعليه السلام: فإنّي قد جعلته قاضياً (الكافي ج٧:ص٤١٢) أو جعلته حاكما عليكم (الكافي ج٧:ص٤١٢).

(١) وخلاصة الكلام: إنّ للإمام المعصوم من المنازل والشؤون التي لا توجد في أحد غير الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله وسلم ومن تلك الشؤون:

أنّ الإمام هو المفسّر للقرآن كما أنّ النبيصلى الله عليه وآله وسلم كان يفسّر القرآن للناس، ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ (سورة النحل:٤٤) فالآية الكريمة تذكر أحد شؤون النبيصلى الله عليه وآله وسلم وهو تبيين وتفسير القرآن الكريم.

➲ ولا يخفى أنّ القرآن ليس كتاباً عادياً على نسقٍ واحد حتى يستغني عن البيان؛ لأنّ فيه المحكم والمتشابه والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك.

يقول مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: خلّف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها، كتاب ربكم فيكم مبيّناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصه وعامه، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسراً مجمله ومبيّناً غوامضه (نهج البلاغة، الخطبة رقم ١).

فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان يفسّر القرآن ويشرح مقاصده ويكشف رموزه وأسراره في أيام حياته الشريفة، ومن المعلوم أنّ رحلته وغيابه يخلف في هذا المجال فراغاً واسعاً لابد من سدّه بشخص قائم مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأثبت التاريخ أنّ القرآن لا يدرك حقائقه إلّا بواسطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو من يتلو تلوه في العلم والعصمة والكمال، فلا يمكن ملئ هذا الفراغ وسد هذه الثغرة إلّا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن يكون كنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الخصوصيات والكمالات.

ويكفي لإثبات هذا الأمر وجود الاختلاف الفاحش في تفسير الآيات، فلا ترىٰ آية إلّا ما شذّ اتفق في تفسيرها قول الأُمة. حتى أنّ الآيات التي يرجع مفادها إلى عمل المسلمين ـ ويوماً وليلاً ـ لم تصن عن الاختلاف، ونحن نذكر مورداً واحداً على سبيل المثال وحكم الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحد، وذلك قوله تعالى: ﴿**فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ**﴾ (سورة المائدة:٦).

فقد اختلفت الأُمة في فهم الآية المباركة، فمنهم من قال: بأنّ الأرجل عطف على الرؤوس، ومنهم من قال: بأنّه عطف على الأيدي، فتمسح الأوّل على ظاهر الأرجل وتغسل الثاني ظاهر الأرجل وباطنها، فأيّ الرأيين هو الصحيح، وأي التفسيرين هو المراد؟ ولو عرضنا الآية على عربي بعيد عن الأجواء الفقهية وعن اختلاف المسلمين وطلبنا منه أن يبيّن ما فهمه من ظاهر الألفاظ سوف نجده يقول بوضوح: إنّ الوضوء غسلتان ومسحتان دون أن يفكّر في أنّ الأرجل هل هي معطوفة على الرؤوس أو معطوفة على وجوهكم، فهو يدرك بأنّها تتضمّن جملتين صُرّح فيهما بحكمين.

ففي الجملة الأُولىٰ يقول تعالى: ﴿**فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ**﴾، يغسل الوجوه، ثم
➲

➲ عطفت الأيدي عليها فوجبت لها من الحكم مثل حكم الوجوه لأجل العطف.

ثم في الجملة الثانية يقول تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، يمسح الرؤوس ثم عطفت الأرجل عليها فوجب أن يكون لها من الحكم مثل حكم الرؤوس لأجل العطف والواو الدالة على المشاركة ما بعدها لما قبلها في الحكم، فالتفكيك بين حكم الرؤوس وحكم الأرجل لا يحتمله عربي صميم، بل يراه مخالفاً لظهور الآية فإنّه لو سمع العربي يقول: أحب زيداً وعمراً ومررت بخالد وبكر من دون أن يعرب «بكر» بالنصب أو الجر، فيحكم بأن بكر معطوف علىٰ خالد لأنّ العطف من حقه أن يكون على الأقرب دون الأبعد حتى إذا كان إعراب بكر بالنصب أيضاً يكون عند العرب إلى الأقرب لوجود قاعدة في النحو واللغة العربية بأنّ النصب يكون للمحل بنزع الخافض، فإنّ ذلك دال على حذف الجار بعد العطف إذ قد تأتي الكلمة منصوباً كقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ (سورة التوبة:١٠٠) فإنّ أصلها تجري من تحتها الأنهار، فنصبت كلمه «تحت» لحذف حرف الجر لمحل «تجري»، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ (سورة الأعراف:١٥٥) وتقديره: واختار موسىٰ «من» قومه سبعين رجلاً، فنصب كلمة «قوم» لمكان حرف «من» وحذفه وهذا أمر ثابت القواعد العربية.

وفي المقام: إنّ الأمر كذلك، فإنّ أرجلكم منصوب بعد العطف على الجار والمجرور بحذف الجار لمحل «أمسحوا» فالآية الكريمة تدلّ على صحة القائل بالقول الأوّل بحسب الظاهر، وأمّا بحسب الروايات فإنّ الروايات الواردة عن غير طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام هي على طائفتين:

الطائفة الأُولىٰ: الأحاديث التي تدل على أنّ الصحيح في الوضوء هو المسح على الرجل؛ وهي روايات كثيرة:

منها: ما رواه بسر بن سعيد، قال: أتىٰ عثمان المقاعد فدعا بوضوء فمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه ثلاثاً ومسح برأسه ورجليه ثلاثاً، ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا توضأ، يا هؤلاء أكذلك؟ قالوا: نعم لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنده (مسند أحمد بن حنبل ج١: ص٦٨) ورواه الدارقطني في سننه ج١: ص٨٩ وغيره).

➲

ومنها: ما رواه أبو مطر قال: بينما نحن جلوس مع علي في المسجد جاء رجل الى علي وقال: أرني وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعا قنبر، فقال: ائتني بكوز ماء فغسل يديه ووجهه ثلاثاً وغسل ذراعيه ثلاثاً ثم مسح رأسه واحدة ورجليه إلى الكعبين ولحيته تهطل على صدره، ثم حسا حسوة بعد الوضوء، ثم قال: أين السائل عن وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ كذا كان وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (كنز العمال ج٩: ص٤٨ ح٢٦٩٠٨).

ومنها: ما رواه رفاعة بن رافع أنه قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنّه لا يجوز صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمره الله عزوجل ثم يغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح رأسه ورجليه الى الكعبين (سنن ابن ماجة ج١: ص١٥٦ وسنن النسائي ج٢: ص٢٢٦) والى غير ذلك من الروايات الواردة في كتب أهل السنة من الطائفة الأُولىٰ.

والطائفة الثانية: هي الروايات التي رواها جماعة من علماء أهل السنّة كالبخاري في صحيحه ومسلم في صحيحه وغيرهما، وهي تدلّ على لزوم غسل الرجل في الوضوء:

منها: ما رواه حمران مولى عثمان قال: إنّ عثمان بن عفان دعا بوضوء فتوضّأ.... ثم غسل رجله اليمنىٰ الى الكعبين ثلاث مرات ثم غسل اليسرىٰ مثل ذلك ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توضأ وضوئي هذا... (صحيح مسلم ج١: ص١٤١).

ومنها: ما رواه عبدالله بن عمرو قال: تخلّف النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنا في سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرفعنا العصر، فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا فنادىٰ بأعلىٰ صوته: ويل للأعقاب من النار، مرتين (صحيح البخاري ج١: ص٥٢ باب غسل الرجلين).

أقول: كما ترىٰ التعارض والتهافت بين روايات أهل السنة واضح لا يحتاج الى البحث، فالاختلاف بين مدلول الروايات يمنع عن الاستدلال بها، فلا وجه لتطويل الكلام في ذلك، ولكن عندما نأتي إلى الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين جعلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عِدلاً لكتاب الله العزيز في حديث الثقلين المتواتر معنى لدى الفريقين، قد نصّوا على أنّ الصحيح هو المسح على الأرجل كما هو ظاهر القرآن الكريم. واليك بعض هذه الروايات:

فمنها: ما رواه داود بن فرقد قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إنّ أبي كان يقول انّ للوضوء حداً من تعدّاه لم يؤجر، وكان أبي يقول: انّما يتلدّد، فقال له رجل: ما حدّه؟ قال: تغسل وجهك

فبوجوده وتصرّفه يقام أمر الدين والدنيا(١)، وعلى تقدير عدم تصرّفه من جور

ويديك، وتمسح رأسك ورجليك (الكافي ج٣: ص٢١).

ومنها: ما رواه زرارة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: ألا أحكي لكم وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقلنا: بلىٰ، فدعا بقعب فيه شيء من ماء ثم وضعه بين يديه، ثم حسر عن ذراعيه، ثم غمس فيه كفه اليمنىٰ ثم قال: هكذا اذا كانت الكف طاهرة، ثم غرف فملأها ماء فوضعها على جبينه، ثم قال: بسم الله، وسدله على أطراف لحيته، ثم أمرّ بيده على وجهه وظاهر جبينه مرة واحدة، ثم غسل يده اليسرىٰ فغرف بها ملأها، ثم وضعه على مرفقه اليمنىٰ وأمّر كفه على ساعده حتى جرى الماء على أطراف أصابعه، ثم غرف بيمينه ملأها فوضعه على مرفقة اليسرىٰ وأمرّ كفّه على ساعده حتى جرىٰ الماء على أطراف أصابعه، ومسح مقدّم رأسه وظهر قدميه ببلة يساره وبقية بلة يمناه، قال:

وقال أبو جعفر عليه السلام: إنّ الله وتر يحب الوتر، فقد يجزيك من الوضوء ثلاث غرفات واحدة للوجه واثنتان للذراعين، وتمسح ببلة يمناك ناصيتك وما بقي من بلة يمينك ظهر قدمك اليمنىٰ، وتمسح ببلة يسارك ظهر قدمك اليسرىٰ، قال زرارة: قال أبو جعفر عليه السلام: «سأل رجل أميرالمؤمنين عليه السلام عن وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحكى له مثل ذلك» (الكافي ج٣ ص٢٥ ح٤).

والى غير ذلك من الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، وهي تدلّ بالصراحة على أنّ وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد كان غسلتان ومسحتان كما بيّنه الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام.

فهذه مسألة واحدة وهي من المسائل العملية المبتلىٰ بها عامة الناس، وهي عبادة تجب على المكلّفين الإتيان بها على أقل التقادير باليوم ثلاث مرات، فكيف بمسائل أُخرىٰ التي لا تقلّ في الأهمية عن الصلاة والوضوء وأمثالهما بل قلّما يتفق المسلمين على مسألة إلّا أن يكون هناك إماماً معصوماً بين الناس قائم مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبيّن للناس ما نزل اليهم من الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة، فلاحظ.

(١) وذلك لأنّ وجود الإمام المعصوم وظهوره وأمره ونهيه وتدبيره وتصرّفه يهدي الناس إلى الكمال الحقيقي والكمال لا يتحقّق إلّا في ظل قانون عام يجذب مصلحة الإنسان الدينية والدنيوية أو يدفع عنه المضرة والمفسدة، ويحقّق سعادته الأبدية ويسوقه إلى الكمال،

➲ والكمال إنما يتحقق بإجراء القوانين الإلهية وهي تشمل جميع شؤون الحياة البشرية في جميع مجالاتها، وبما أنّ الإمام المصعوم محيط بتلك القوانين كالنبي فالإمام المعصوم يضمن سعادة الإنسان بإجراء تلك القوانين الدينية والأنظمة الشرعية والمناهج الربانية، وذلك لأنّ الله تعالى خالق الإنسان فهو أعرف بخصوصيات المخلوق وما يصلحه من الأُمور أو يفسده، فهو أولى بالتقنين له، قال الله سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك: ١٤) فالله سبحانه المحيط بكل شيء يحق له التقنين والتشريع.

وأمّا وظيفة المرسلين والأئمة المعصومين المنصوبين من قبل الله تبارك وتعالى تنفيذ القوانين الإلهية، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (سورة يوسف: ٤٠).

والمراد من الحكم هنا هو الحكم التشريعي بقرينة قوله سبحانه: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ وهذه إشارة إلى أنّ الحكم المذكور هو القانون العام في الأرض وهو التشريع الإلهي الذي بيد الله تعالى، فإنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ الحكم لا يتم إلّا بأمر الله، فلابد أنّ يكون الأمر راجعاً إلى الله تعالى كي يتحقّق التشريع الإلهي، فالحكم لولم يكن فيه الأمر من الله، أو الأمر ممن أوجب الله طاعته ليس حكم الله، فإنّ النسبة إنّما تتم إذا كان من الله تعالى مباشرة أو بواسطة من جعله حجة على الناس من نبي أو إمام معصوم، فلابد أن يرجع الحكم إلى الله، قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥٠).

فهذه الآية الكريمة تقسّم القوانين الحاكمة على البشر إلى قسمين: إلهي وجاهلي، وحيث أن ما كان من صقع الفكر البشري ليس إلهياً فهو بالطبع يكون حكماً جاهلياً، قال الله سبحانه: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ (سورة المائدة:٤٥) وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧).

فهذه المقاطع توضّح أولاً: إنّ التقنين والحكم لابد أن يكون من قِبَل الله تبارك وتعالى، وثانياً: لابد من منفذ لتلك القوانين الإلهية إذ لابد هناك من يبلّغ الأوامر الإلهية إلى الناس، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللهِ﴾ (سورة النساء:٦٤) وعلى ذلك فتجب طاعته، والانقياد لأوامره، والانتهاء عن مناهيه كما تجب الطاعة للأوامر الإلهية، فتجب على ➲

➲ كل مؤمن طاعة أُولي الأمر الذين أُوجب الله تعالى طاعتهم كما نص على ذلك في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ ...﴾ (سورة النساء: ٥٩).

فالآية تبيّن أن إطاعة الرسول وإطاعة أُولي الأمر هي إطاعة الله لأنها بأمر من الله سبحانه، وقد عبّر عن ذلك تبارك وتعالى في بعض الآيات بأنّ من أطاع الله ورسوله فهو مع الذين أنعم الله عليهم، ومعنى ذلك: إنّ إطاعة الرسول وأولي الأمر نعمة من الله تبارك وتعالى على البشر، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً﴾ (سورة النساء: ٦٩).

فالذين ساروا في طريق الهداية وأطاعوا الله ورسوله حق طاعته ولم يكن فيهم أي انحراف فهم الذين أنعم الله عليهم من الإيمان ودرجات الكمال، فهذه الدرجات إنما تتحقّق بطاعة الولاة الإلهية والقادة السماوية، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ...﴾ (سورة المائدة:٦٦) وبديهي أنّ المراد من إقامة التوراة والإنجيل هو اتّباع الرسل ما جاؤوا به من قبل الله تبارك وتعالى، وذلك بقرينة ما أنزل الله اليهم من ربهم، فإنّ هذه العبارة تشمل جميع الكتب السماوية والأحكام الإلهية، لأنّ هذه الجملة يفهم منها الإطلاق، وهي في الحقيقة إشارة الى الصراط المستقيم والخط الإلهي الرباني الداخل في الأمة، فالذين ساروا في هذا الطريق وسلكوا هذا السبيل من أعماق نفوسهم وقلوبهم فهم يعيشون في أفضل النعم الإلهية ألا وهي نعمة الدنيا والعقبىٰ، وهذا معنى قول سلمان الفارسي حيث قال: لو بايعوا الناس علياً لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم. رواه البلاذري في أنساب الأشراف ج١: ص٥٩١.

وعن المدايني عن جعفر بن سليمان الضبعي عن أبي عمرو الجوني قال: قال سلمان الفارسي حين بويع أبوبكر: كرداد وناكرداد... .

وروىٰ ابن أبي الحديد عن جرير بن المغيرة: إن سلمان والزبير والأنصار كان هو أهم أن يبايعوا علياً عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما بويع أبوبكر، قال سلمان: أصبتم الخير وأخطأتم المعدن... (شرح نهج البلاغة ج٢: ص٤٩).

➲

العتاة تذهب هذه الفائدة[١].

➲ وروى أيضاً بسنده عن حبيب بن أبي ثابت قال: قال سلمان يومئذٍ: أصبتم ذا السن منكم وأخطأتم أهل بيت نبيكم، لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان، ولأكلتموها رغداً (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢: ص٤٩).

فبوجود الإمام المعصوم المنصوب من قبل الله تعالى وتصرّفه وحكومته يقام أمر الدين والدنيا كما تقدّم بيانه.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ وظيفة الإمام ومسؤوليته لا تنحصر في بيان المعارف الإلهية فقط بل الإمام له الولاية كما أنّ النبيﷺ كانت له الولاية مضافاً إلى نبوته ورسالته، وذلك بنص القرآن الكريم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ (سورة الأحزاب:٦).

فقد ذكرت هذه الآية الكريمة أولوية النبيﷺ بالمسلمين والمؤمنين بصورة مطلقة، ومعنى ذلك: إنّ النبيﷺ أولى بهم من أنفسهم في جميع الصلاحيات التي يمتلكها الإنسان في حق نفسه لا فقط تدبير الأُمور الاجتماعية أو الأولوية من جهة مسألة القضاء أو طاعة الأمر بل الأمر أوسع من ذلك، فإنّ ولاية الرسول فرع من ولاية الله إذ كل قيادة وولاية يجب أن تتبع من ولاية الله وتكون حسب أمره ومشيئته؛ لأنّه تبارك وتعالى هو الحاكم والمالك التكويني لهذا العالم فكل شيء يرجع حاكميته ومالكيته إلى الله ويجب أن يكون بإذنه وبأمره، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا..﴾ (سورة المائدة:٥٥) فالله تبارك وتعالى قد جعل لرسوله ومن هو قائم مقام الرسول الولاية أي من يكون أحق بهم وبأمورهم.

وفي الحقيقة: إن هذه الولاية استمرار للقيادة الإلهية في الأرض وهي تكون سبباً لسعادة البشرية، وبهذه الولاية تتحقّق نظم الحياة المادية والمعنوية للناس، إذ الإنسان لو دخل تحت الولاية الإلهية يخرج عن ولاية الشيطان كما قال تعالى: ﴿ٱللهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ...﴾ (سورة البقرة:٢٥٧) فالمؤمنون الحقيقيون هم تحت الولاية الإلهية وإلّا فهم في ولاية الشيطان والقرآن يعلّمنا خصوصيات من له الولاية الإلهية، فإن ولي الأمر الذي له الولاية هو من يؤتيه الله الولاية والعلم والحكمة كما حكىٰ لنا في قصة مصاحب موسىعليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً

➲

مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ إلى آخر الآيات (سوره الكهف: ٦٥ـ٨٢) فإن موسىعليه السلام مع أنّه من الأنبياء الكرام والرسل العظام وولي من أولياء الله ظاهر باسط يد، تعرفه الأُمة وتقتدي به ولكن مع ذلك كان يعيش في زمانه من هو ولي من اولياء الله أيضاً ويكون غائباً عن الأنظار وهو شخص يتعلم منه موسىعليه السلام، فالقرآن يدلّنا على أنّ الولي ربما يكون غائباً ولكنه ولي من أولياء الله، وعلامة ولايته: إنّ الله آتاه العلم والحكمة بل هو يتصرف أحياناً في المصالح التي جعلها الله تعالى من شؤون ولايته من دون أن يعرفه أبناء الأمة، فعلى ضوء القرآن الكريم يصح لنا أن نقول بأنّ الولي إما ولي حاضر مشاهد، أو غائب محجوب.

وإلى ذلك يشير الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام في كلامه لكميل بن زياد النخعي، كما يقول كميل: أخذ بيدي أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، فأخرجني إلى الجبان، فلما أصحر، تنفّس الصعداء، وكان مما قاله: اللهم بلىٰ لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إمّا ظاهراً مشهورا أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته (نهج البلاغة، كلمات القصار والحكم رقم ١٤٧).

وعليه: إذا كان الإمامعليه السلام له الولاية والإرشاد الباطني وتنظيم الحياة المعنوية للناس فإن حضوره الجسماني ليس له موضوعية إذ يمكن للإمام عن طريق الغيب أن يتصل بالنفوس ويشرف عليها بإذن الله تبارك وتعالى، وإن عدم رؤيته لا يكون مانعاً من إجراء الولاية وأعمالها، بل انّ وجوده لازم دائماً وإن كان غائباً، وإن كنا لا نعلم زمان ظهوره وإنّه متى يرتفع المانع عن ظهوره، ولا نعلم أن المقتضي متى يتحقّق ويحصل، ولكن نعرف أنّ في غيبته حكمة كما في كثير من الأُمور الدينية التي لا نعرف علّتها، بل وحتى في بعضها لا نعرف وجه حكمته، وذلك لأنا يكفينا أن يثبت لدينا بالأدلّة والبراهين أنّ الله تعالى أرسل حجته إلى الأُمة ولكن كانت هناك بعض المصالح التي استدعت أن يبقى وراء ستار الغيبة.

ويبدو من بعض الروايات أنّ السبب الأصلي للغيبة قد سيعرف بعد ظهور الحجةعليه السلام كما في رواية عبدالله بن الفضل عن الإمام الصادقعليه السلام، قال: سمعته يقول: إنّ لصاحب هذا الأمر غيبة لابد منها، يرتاب منها كل مبطل، فقلت له: ولِمَ جعلت فداك؟ قال: لأمر لم يؤذن لنا في كشفه

➲ لكم، قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟ قال: وجه الحكمة في غيبته وجه الحكمة في غياب من تقدم من حجج الله تعالى ذكره، إنّ وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلّا بعد ظهوره، كما لا ينكشف وجه الحكمة لمّا أتاه الخضر عليه السلام من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار لموسى عليه السلام إلّا وقت افتراقهما، يابن الفضل: إنّ هذا الأمر من أمر الله وسرّ من سرّ الله وغيب من غيب الله، ومتى علمنا الله عزوجل حكيم صدقنا بأنّ أفعاله كلها حكمة وإن كان وجهها غير منكشف لنا (علل الشرائع للشيخ الصدوق ج١: ص٢٤٦ ح٨، وكمال الدين له: ص٤٨٢، وبحار الأنوار للعلّامة المجلسي ج٥٢: ص٩١ ح ٤).

هذا ولكن قد يمكننا أن نعد للغيبة بعض الفوائد التي قد تكون بعض الأخبار قد أشارت اليها:

منها: امتحان الأُمة، ففي الحديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: إذا فقد الخامس من ولد السابع من الأئمة فالله الله في أديانكم لا يزيلكم أحد عنها، يا بني إنّه لابد لصاحب هذا الأمر من غيبة حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به، إنّما هي محنة من الله امتحن بها خلقه... (الغيبة للشيخ الطوسي: ص١٦٦ ح١٦٦، وبحار الانوار للعلامة المجلسي ج٥٢: ص١١٣ح٢٦).

ومنها: حفظ الامام من القتل، إنّ ملاحظة تاريخ الأئمة عليهم السلام والجور الذي توجّه اليهم من قِبل خلفاء بني أُمية وبني العباس، ترشدنا إلى أنّ الإمام الثاني عشر لو كان ظاهراً فإنّه سيقتل كما قتل آبائه من قبل، وذلك لأنّ الأعداء والسلطة الجائرة كان قد وصلت إليهم الأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أنّه سيظهر شخص من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ولد علي وفاطمة عليهما السلام، يحطّم عروش الظالمين المستبدّين، وأنه ابن الإمام العسكري عليه السلام، فكانوا يعلمون من هو الموعود الإلهي من الأخبار الواصلة إليهم، ولذلك اهتموا بأن يقضوا عليه لتتحقّق آمالهم الشيطانية.

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: إن للقائم غيبة قبل ظهوره. قال الراوي: قلت: لِمَ، قال: يخاف القتل (الغيبة للشيخ الطوسي: ص٣٣٢، وبحار الأنوار ج٥٢: ص٩٧).

ومنها: لئلّا تكون في عنقه عليه السلام بيعة لأحد، فهناك روايات تؤكد هذا المعنى وأنّ غيبته عليه السلام حفظته من بيعة الظالمين والحكّام الغاصين، وأن سيظهر حين يظهر وليس لأحد بيعة في عنقه، فيظهر ➲

فالله سبحانه قد فعل ما فيه الحكمة للخلق لكنّهم عصوه في الجري على مقتضاها، حسبما عصاه غالبهم في ردّ قول رسله وعدم المتابعة لهم[1].

➲ الحق عياناً وبلا أيّ مدار به، ويقر في الأرض حكم القسط والعدل.

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: يقوم القائم وليس لأحد في عنقه بيعة (كمال الدين: ص٤٨، وبحار الانوار ج٥٢: ص٩٦).

فهذه بعض فوائد الغيبة، وهناك فوائد أُخرىٰ لم نذكرها رعايةً للاختصار فراجع.

(١) وخلاصة الكلام: أنّه بعد أن أثبتت المعتزلة وجود الخالق الحكيم لهذا الكون العظيم وأنّ جميع أفعاله عن حكمة وغرض ومصلحة لدى كل العقلاء، وأيضاً أثبتت ضرورة وجود النبوة والنبي بقاعدة اللطف والرحمة الربانية، فلابد لهم أن يعتقدوا بالدور الأساسي للإمام المعصوم في كل عصر وزمان وتأثيره في إكمال الدين وإتمام نعمة الهداية، لأنّ النبوة وهي التعليم والتربية الإلهية قد ختمت بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، وانّ مرحلة نزول الوحي وتبليغ الرسالة قد انتهت برحلته صلى الله عليه وآله وسلم ولكن القرآن الذي أُنزل لتعليم الإنسان وتربيته باق وخالد وهو يحتاج إلى معلّم ومربّ وقوانينه إنّما شرعت لضمان حقوق الإنسان وسعادته الأبدية فيحتاج إلى مفسّر ومنفّذ، وذلك لأنّ الغرض الإلهي من بعثة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم غرض ممتد في الأجيال، لا يتحقّق إلّا بوجود معلّم عالم بأسرار القرآن، منزّه عن الخطأ والهوىٰ، متخلّق بأعلىٰ صفات الكمال المقصودة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق. فبذلك يتحقّق الكمال العلمي والعملي للبشر، الذي هو الغرض من خلق الانسان ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (سوره غافر: ١٠).

فإنّ الذي يصعد إليه تعالى هو الكلم الطيّب، والعقيدة الصحيحة فإنّها تقرّب صاحبها من الله سبحانه فجعل سبحانه السعادة والصعود اليه، والقرب منه في الاعتقاد الحق والصحيح وعبّر عنه بالكلم الطيّب كناية عن ذلك، فالاعتقاد الصحيح إنّما يحصل بواسطة الحجج الإلهية الذين جعلهم الله وسيلة لتقرّب العباد اليه، فجعل سبحانه وتعالى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وسيلة لتقرب الناس اليه وهو الذي كان يعلّم الناس القرآن الكريم لارتقاء معلوماتهم الدينية والمعنوية، ثم من بعد النبي الأكرم لابد من يقوم بهذه المسؤولية لارتقاء إيمانهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (سورة المجادلة: ١١) وقال ➲

وأما غير المعتزلة فإنّهم شاركوهم في القول بعدم لزوم نصب إمام معصوم، إنّ هذه الحِكَم المشار اليها إنّما توجد على الوجه المطلوب شرعاً بسياسة دون سياسة غيره ممن هو ليس بمعصوم لخطأه ونسيانه وجهله، فيحصل التغيير بذلك

➲ تعالى: ﴿هُدُوا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (سورة الحج: ٢٤).

فالطيب من القول هو القول، والحديث الذي يجعل في الإنسان روح المعنوية ويثير اليه الحيوية بحيث يجعله في درجات من النقاء والصفاء الروحي حتى يتلذّذ بحلاوة المعرفة والعبادة والتقرب من الله.

وقد ورد في الحديث عن علي بن إبراهيم: إنّ المقصود من الطيب من القول هو ولاية أئمّة أهل البيت عليهم السلام (أُنظر: تفسير القمي ج٢: ص٨٣).

وبالجملة: لولا وجود تعلّم الكتاب والحكمة والقيام بالقسط في الأمة، بل لولاهم لتحوّلت مفاهيم القرآن الكريم لوجود الاختلاف والنزاعات والأهواء والأفكار الخاطئة والخرافات الموجودة لدىٰ سواد الناس أو الأغلبية المنحرفة.

وكيف يتعقّل الإنسان أنّ الله الذي لم يترك دور الحاجب في جمال الوجه حتى أنفه، مراعياً قاعدته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ينزل كتاباً لغرض تصوير مسيرة الإنسان في أحسن تقويم ثم يبطل غرضه في تنزيله، ومن أرسل الرسل، بعدم نصبه حافظاً وشارحاً للكتاب؟!!!

ومن هنا يتضح أيضاً قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي رواه جميع المسلمين بعبارات مختلفة ومضامين متعددة أنه: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية (أُنظر: شرح المقاصد للتفتازاني ج٢:ص٢٧٥). لأنّه لولا الإمام لما عرف الناس معارف الدين، فالمعتزلة لابد لهم من القول بضرورة وجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان بناءً على التزامهم بالحسن والقبح العقلي وقبول قاعدة اللطف، ولكنهم خالفوا ما بنوا عليه في باب العدل الإلهي التزموا بتقديم المفضول علىٰ الفاضل في باب الامامة وخالفوا قاعدة اللطف في الإمامة فإنهم ـ كبقية اتباع أهل السقيفة ـ ذهبوا إلى إمامة المفضول وتقدّمه على الفاضل وهذا أمر باطل عندهم فضلاً عن غيرهم.

في الدين، ويصدر الظلم في العالم حسبما بيّنا نبذة من ذلك في التنبيهات[١].

---

(١) وخلاصة الكلام: أنّ غير المعتزلة من أهل السنّة والجماعة حيث لا يعتقدون بأنّ جميع أفعال الله تعالى صادرة عنه بالأغراض الصحيحة والعقلائية دائماً فيزعمون أنّ جميع أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه وتعالى خيرها وشرها ظلمها وجورها فسقها وفجورها و....

ويفسّرون هذه العبارة المعروفة: «لا مؤثر في الوجود الّا الله» تفسيراً خاطئاً حيث يقولون بأنّ معنى ذلك العموم والشمول لجميع الأشياء حتى أفعال العباد خيرها وشرها ظلمها وغير ظلمها ومرجع هذا القول إلى أنّ أفعال الله سبحانه ليست مبتنية على الأغراض والحكم والمصالح إذ قد تكون فيه المفسدة لأنّ أفعال العباد فيها الظلم المفسدة وبناءً على زعم القوم أنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد فيكون خالقاً للظلم والفساد وليس في الظلم والفساد مصلحة فبناءً على الاعتقاد الفاسد ذهبوا إلى جواز كون الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاسقاً ولذلك انكروا قاعدة اللطف ولزوم وجود المعصوم في كلّ عصر وزمان وذهبوا إلى إمامة كل من تسلّط على الناس وإن كان فاسقاً أو جائراً فالإمامة عندهم أشبه بالسياسة الوقتية الزمنية، يقودها الحاكم العادي من نفس الأُمة وإن تسلّط على الحكم بالقهر والغلبة والاستيلاء.

قال التفتازاني في شرح المقاصد: وتنعقد الإمامة بطرق:

أحدها: بيعة أهل الحلّ والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يتيسر حضورهم من غير اشتراط عدد ولا إتفاق من في سائر البلاد، بل لو تعلّق الحلّ والعقد بواحد مطاع كفت بيعته.

الثاني: استخلاف الإمام وعهده، وجعله الأمر شورى بمنزلة الاستخلاف، إلّا أن المستخلف غير متعين فيتشاورون ويتفقون على أحدهم، وإذا خلع الإمام نفسه كان كموته، فينتقل الأمر إلى ولي العهد.

الثالث: القهر والاستيلاء، فإذا مات الامام وتصدّىٰ للإمامة من يستجمع شرائطها من غير بيعة واستخلاف وقهر الناس بشوكته انعقدت الخلافة له، وكذا إذا كان فاسقاً أو جاهلاً على الأظهر... (شرح المقاصد ج٢:ص٢٧٢).

فالإمامة تتحقق عندهم لكل من أخذ زمام الأُمور بيده وتسلّط على هرم القدرة كائناً من كان، وعلى ذلك فإن مصالح الدين تختلف عندهم حسب ما يراه الحاكم أي إذا رأى الحاكم

فانظر هل يتصوّر في المخالفة لمذهب الحق وجود الحكم التي بنى عليها خلق الله سبحانه ودينه[١].

➲ حسب زعمه أنّ الظلم في حق الناس فيه مصلحة، أو أنّ قتل الأبرياء والأخيار من الأُمة فيه مصلحة، أو أنّ نهب أموال المسلمين غارتهم فيه مصلحة، أو أنّ قتل ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه مصلحة، فكل ذلك عند هؤلاء من أهل السنة يعتبر من الدين وإن كان مخالفاً صريحاً لقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المتواترة عند جميع المسلمين لأنّ تغيير رأي الإمام عندهم يعتبر مخالفة للدين والحكم الإسلامي وهل يرضى عاقل بذلك؟!!!

(١) لا شك أنّ مشروعية الامامة عند جميع مذاهب أهل السنة والجماعة إنّما تكون باختيار الناس لا بتعيين من الله ولا بتعيين من رسوله، وفي نفس الوقت قد اختلفوا فيما تنعقد به الإمامة الى أقوال شتىٰ:

قال الإيجي: وإذا ثبت حصول الإمام بالاختيار والبيعة، فاعلم أنّ ذلك لا يفتقر إلى الإجماع، إذ لم يقم عليه دليل من العقل والسمع بل الواحد والاثنان من أهل الحلّ والعقد، كافٍ لعِلمنا أن الصحابة مع صلابتهم في الدين اكتفوا بذلك كعقد عمر لأبي بكر، وعقد عبدالرحمن بن عوف لعثمان، ولم يشترطوا اجتماع من في المدينة فضلاً من إجماعهم هذا (المواقف للإيجي: ص٣٩٩ـ٤٠٠).

وقال الماوردي: اختلف العلماء في عدد تنعقد به الإمامة منهم على مذاهب شتىٰ، فقالت طائفة: لا تنعقد إلّا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ليكون الرضا به عاماً، والتسليم لإمامته إجماعاً، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي‌بكر على الخلافة باختيار من حضرها، ولم ينتظر ببيعة قدوم غائب عنها.

وقالت طائفة أُخرى: أقل ما تنعقد به منهم الامامة خمسة يجتمعون على عقدها أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة، استدلالاً بأمرين:

أحدهما: أنّ بيعة أبي بكر انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها، وهم عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن جرّاح، وأُسيد بن خضير، وبشر بن سعد، وسالم مولى أبي حذيفة.

والثاني: إنّ عمر جعل الشورىٰ في ستة ليعقد لأحدهم برضى الخمسة، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلّمين من أهل البصرة.

➲

⊃ وقال الآخرون من علماء الكوفة: تنعقد الإمامة بتولّيها أحدهم برضا الاثنين، ليكونوا حاكماً وشاهدين كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين.

وقالت طائفة أُخرىٰ: تنعقد بواحدٍ لأنّ العباس قال لعلي: أُمدُد يدك أُبايعك، فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بايع ابن عمّه فلا يختلف عليك اثنان... (أُنظر: الأحكام السلطانية: ص ٦ـ٧ ط الحلبي بمصر).

وإلى غير ذلك من أقوال علمائهم، فإنّ تشتّت هذه الأقوال أكبر دليل على أنّه ليس هناك عندهم حكم أو قانون من الإسلام في صحة انعقاد الإمامة لخلفائهم، بل إنّ موقفهم في هذا المجال موقف من اعتقد بصحة خلافة الخلفاء الذين تمهدت لهم الرئاسة والسيطرة على الناس.

فالاستدلال على صحة الخلافة والإمامة عندهم مبني على ما حدث في التاريخ من كيفية وصول خلافهم إلى الحكم وعلى حسب زعمهم، فإنّ ما حدث في التأريخ من غصب الخلافة والوصول اليها بأيّ نحو كان عندهم صار دليلاً علىٰ إمامة وخلافة كل من أخذ زمام الأمر بيده حسب السياسة التي مارسها سلفهم فأخذوا تلك السياسة بعين الاعتبار في الدين والشريعة المقدسة وذهبوا إلى أنّ نفس العامل الذي صار سبباً لوصول خلفائهم إلى الحكومة والرئاسة هو العامل الديني في هذا المجال الخطير، وقد نسبوا ذلك إلى الشارع الأقدس. من دون اقامة أي دليل معتبر عند المسلمين.

ومن البديهي أنّ السبب في الوصول الى الرئاسة في كل خليفة من خلفائهم كان بصورة خاصة وعلى حسب السياسية الحاكمة في الأوضاع الموجودة آنذاك، ولذلك اختلفت الأسباب والعوامل عندهم فيما ينعقد به الإمامة عندهم، وبناءً على ذلك فقد اختلف أقوالهم في هذا المجال.

أقول: إنّ هذا النوع من الاستدلال باطل عند العلماء والعقلاء لأنّ الاستدلال للدعوىٰ يكون بنفس المدّعىٰ مصادرة بالمطلوب، حيث أنّ الاستدلال على اعتبار خلافة أبي بكر يكون بنفس ما حدث في التاريخ بالنسبة إلى خلافته، فإنّ الدليل فيه نفس المدّعىٰ فلا يثبت شيء، كما هو واضح لدى العلماء، مضافاً إلى أنّ هذا النوع من الاستدلال دور صريح وباطل بلا إشكال. لأنّ اعتبار خلافة أبي بكر متوقّف على ما حدث في التاريخ وما حدث في التاريخ ⊂

دعنا من ذهاب الجمهور منهم الى مسألة خلق الله سبحانه فعال عباده[(١)]،

⮌ متوقّف على اعتبارها.

ثم إنّه بناءً على اعتقادهم في باب أوصاف الإمام أنّ رأي الخليفة يكون حكم الله فإذا تغيّر الخليفة وجاء خليفة آخر مكانه وأصبح حاكماً وكان رأيه على خلاف رأي الخليفة السابق فيتغير حكم الله ودينه، وهكذا يحصل التغيير في دين الله بسبب اختلاف آراء الخلفاء واحداً بعد الآخر ولذلك تجد أنّ خلافة أبي بكر انعقد له في السقيفة وخلافة عمر كانت بنص من أبي بكر وخلافة عثمان بالشورىٰ العمرية وأن معاوية بن أبي سفيان قد وصل الى الحكم والخلافة بالخدعة والتمويه والحيلة، وأنّ يزيد بن معاوية وصل إلى الحكم بإجبار معاوية وهكذا... .

ففي كل مورد أهل السنة يعتقدون أن حكم الله في اللوح المحفوظ يتغير بتغير آراء أصحاب السلطة وكان الخليفة له أن يحكم بما شاء وأراد، وأنّ لوح الله يكون في خدمة الخلفاء وأهوائهم وما يشتهون ويرغبون حسب آرائهم ورغباتهم، وهذا ما يعبّر عنه في اصطلاح العلماء بالتصويب فإنّهم ذهبوا الى أنّ كل مجتهد مصيب، فعلى زعمهم أنّ حكم الله عند كل مجتهد وما يكون غالباً ومسيطراً على الحكم فهو حكم الله ويكون لازم الاتباع (أُنظر: المستصفىٰ ج٢:ص٢٦٣).

والعمدة في نظرهم هو القول بالتصويب في آراء الصحابة وأفعاله،م فزعموا أن ما فعلته الخلفاء والصحابة يطابق حكم الله الواقعي في جميع الأُمور وأنّهم غير مخطئين في أقوالهم وأفعالهم، وسنبيّن بطلان قولهم، وأدلّتهم على هذه الدعوىٰ بأدلة كثيرة في محله إن شاء الله تعالى.

(١) وذلك لأنّ أهل السنة اختلفوا في أنّ الله سبحانه هل هو خالق لأفعال العباد أم لا؟

قالت المعتزلة: إنّ الله تعالى لا يفعل القبيح وحيث إنّ أفعال العباد فيه الظلم والقبيح فلا يصح نسبة خلقها إلى الله تعالى إذ لو كان الله خالقاً لأفعالهم لكان يصح نسبة الظلم والجور والكفر وغير ذلك من القبائح إليه، لأنّ الخالق هو الفاعل وحيث لا يصح نسبة ذلك الى الله فلا يصح القول بأنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد.

وقالت الأشاعرة: صحيح أنّ الله لا يفعل القبيح ولكن المعيار في حسن الأفعال وقبحها هو الله وليس للعقل شأن في درك حسن أفعال الله وقبحها، فكل ما يفعله الله أو يأمر به فهو حسن، ⮎

فإنّ مسألة نفي العصمة عن إمام الخلق المتفق عليها عند عامة من قال بإمامة الثلاثة كافية لمن ينصف من نفسه في معرفة المناقضة بين قولهم بالحكمة في المعنى المشار إليه، وبين قولهم بأنّ إمامهم ليس بمعصوم(١)؛ فانّه يذهب بسياسة

➲ وكل ما ينهىٰ عنه فهو قبيح، وحيث أنّ الأدلّة تقتضي بأنّ الله تعالى خالق كل شيء على الإطلاق، فمن الأشياء أفعال العباد فهو خالق لها إذ لا مؤثر في الوجود إلّا الله فالله سبحانه بناءً على زعم الأشاعرة خالق لجميع أفعال العباد، وإنّ ما يفعله تعالى يكون حسناً وإن كان يشمل الفسق والفجور والكفر والعصيان وغير ذلك، فإنّ ما يفعله الله ليس بقبيح إذ هو خالق لها وأفعاله كلها حسنة.

ولينظر العاقل إلى مقالة الطرفين وينصف في البحث معهم بدليل واضح لا يتعدىٰ دائرة البحث العلمي، فعلىٰ صعيد البحث العملي إنّ الكل متفقون على حرية الاختيار للإنسان، وهذا يظهر لنا بوضوح بأنّه أصل الحرية والاختيار من الأُصول التي انطوت عليها الفطرة الإنسانية والوجدان حاكم عليه، وبناءً على ذلك، كيف يمكن القول بأنّ الله تعالى هو خالق لأفعال العباد فإذا كان هو الخالق لأفعال العباد لكان يصح نسبة الفعل اليه أي هو القائم والقاعد والآكل والشارب والزاني والسارق والى غير ذلك لأنّ خالق الشيء هو فاعله.

ثم بناءً علىٰ هذا الزعم الباطل لابد أن يستحق الجزاء على أعماله القبيحة حيث بناءً على زعمهم أنّ الله تعالى هو الذي فعل تلك الأفعال القبيحة ـ والعياذ بالله ـ وأنّ العبد لا قدرة له ولا اختيار لارتكاب أعماله فنسبة الأفعال إلى العبد عندهم غير صحيح. وعليه: فإنّ نسبة أفعال العبد إلى الله نسبة صحيحة لأنّهم يقولون: إنّ أفعال العبد وإن كانت عند العقل المستقل تتصف بالقبح ولكن حيث أنّ فاعله يكون هو الله تعالى فيكون ذلك الفعل حسناً، هذا ما ذهبت إليه الأشاعرة.

وأما المعتزلة: فإنّهم وإن اتفقوا في الرأي مع الإمامية في استقلال العقل في الحكم بالحسن والقبح العقلي إلّا أنّهم لم يلتزموا بما بنوا عليه هنا في باب الإمامة لأنّهم كالأشاعرة من أهل السنّة يقولون بإمامة الخلفاء الثلاثة بدعوىٰ أنّ الناس قد اختارهم فكيف نجمع هذه النظرية مع الالتزام بالحكم العقلي والحسن والقبح العقليين وقاعدة اللطف وما يرتبط بهذا الموضوع؟!!!

(١) لقد اتفق أهل السنّة بما فيهم من المذاهب المختلفة على أنّ العصمة ليست من شرائط

➲ الإمام أخذاً بمبادئهم، حيث أنّهم يعتقدون بأنّ خلفائهم بعد رسول الله ﷺ لم يكونوا معصومين.

قال التفتازاني: واحتج اصحابنا على عدم وجوب العصمة بالإجماع على إمامة أبي بكر وعمر وعثمان، مع الإجماع على أنّهم لم تجب عصمتهم... وحاصل هذا دعوى الإجماع على عدم اشتراط العصمة في الإمام (شرح المقاصد ج٥: ص١٤٩).

أقول: لا شك أنّ من يعتقد بوجوب الامامة بعد الرسول الاعظم ﷺ لابد أن يعتقد أنّ الامام يتصدي لجميع الامور والشؤون بعد رسول الله ﷺ فهو قائم مقام الرسول الاعظم ﷺ في تنفيذ الأحكام واقامة الحدود وحفظ الشريعة وتأديب الأنام وغير ذلك، فإنّ النبي ﷺ كان متصدياً لهذه الأُمور وكان معصوماً، فالإمام الذي يقوم مقام النبي لابد أن يكون له هذه الصلاحية والمقام من الكفاءات والمؤهلات ليكون مصوناً من الوقوع في أي خطأ أو زلل، ولكي يمكنه حفظ الشريعة من جميع الجهات ويكون هادياً للناس، واليه أشار العلامة الحلي ﵀ بقوله: ذهبت الإمامية إلى أنّ الأئمة كالأنبياء في وجوب عصمتهم عن جميع القبائح والفواحش من الصغر إلى الموت عمداً وسهواً لأنهم حفظة الشرع والقوّامون به، فحالهم في ذلك كحال النبي ﷺ (نهج الحق وكشف الصدق: ص١٦٤).

فاتّفقت الإمامية على أنّ إمام الدين لابد أن يكون معصوماً من الخطأ كي يكون قادراً على إجراء الرسالة الإلهية ووصولها إلى أهدافها وأن يكون قائداً مطاعاً وقدوة يعتمد عليه. وبناءً على هذا لابد أن يكون تعيينه بيد الله سبحانه، لأنّ الله تعالى يعلم أين يضع هذه الرسالة.

وعليه: فالمعتزلة الذين وافقوا الشيعة في العدل الإلهي وقاعدة اللطف يجب عليهم القول بعصمة الإمام أيضاً لأنّ الله حكيم لايأمر عباده بطاعة غير معصوم؛ لأنّ غير المعصوم قد يصدر منه فعل القبيح، وإذا كان الله قد أمر باتباع غير المعصوم بصورة مطلقة فمعناه أن الله سبحانه قد أمر بالقبيح لأن غير المعصوم لا يكون مصوناً من فعل القبيح، وهل هذا يكون من الحكمة؟!!

ومع ذلك كله فإنّ المعتزلة لم يلتزموا بلوازم قاعدة العدل واللطف حيث انّ هذه القاعدة لازمه نصب الامام المعصوم من قِبل الله عزّوجلّ بل التزموا في باب الإمامة بخلافة الخلفاء الثلاثة مع الاعتقاد بعدم عصمتهم، وهذا مخالف لما بنوا عليه في باب العدل الإلهي وقاعدة اللطف، ➲

من ليس بمعصوم غالب الحكم المنظورة لله في دينه وخلقه من دون ريب[١].

⬅ إذن إنّ جميع أهل السنة التزموا بعدم عصمة الإمام سواء اتفقوا مع الشيعة في باب العدل أو خالقوهم، فلاحظ.

(١) وذلك لأنّ ما دلّ على وجوب طاعة النبيﷺ دلّ بنفسه على وجوب طاعة الإمام؛ لأنّ الحكمة واحدة، حيث إنّ طاعة الرسول في الأقوال والأعمال والأخلاق داخلة في طاعة الله لأنّها بأمر الله عزّوجلّ كذلك طاعة الإمام، كما سنوضّحه إن شاء الله في محله، ومن المعلوم لدى الخبير أنّ الطاعة المطلقة تستلزم العصمة.

وتوضيح المقام: إنّ وجوب الطاعة الذي يؤمر به الناس على نحوين: الأوّل وجوب الطاعة المطلقة، والثاني: وجوب الطاعة المقيدة.

ونعني بوجوب الطاعة المقيّدة خصوص التي يأمر بها الله سبحانه وتعالى لمخلوق من مخلوقاته على نحوٍ معيّن في ظل شروط خاصة، وذلك كوجوب طاعة الوالدين بناءً على القول بـه، فمن المعلوم إنّ هذا النوع من الطاعة طاعة معيّنة وليست مطلقة، فطاعة الوالدين واجبة مالم يأمروا بالمعصية، ومن هنا قيل: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (اُنظر: مسند أحمد بن حنبل ج١:ص١٣١) فلو أمر الوالد بمعصية الله عزّوجلّ فسوف يسقط وجوب طاعته، يقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ (سورة العنكبوت:٨).

وعلى ضوء هذه الحقيقة لو أمر الله سبحانه وتعالى بوجوب الطاعة المقيدة فنستكشف من ذلك أنّ طاعته ليست مطلقة، وحينئذٍ نعرف أنّ الذي أمر الله بطاعته ليس معصوماً لأنّـه تـبارك وتعالى لم يأمر بطاعته مطلقاً، ومعنى ذلك أنّ وجوب طاعته في حالة خاصة أو في زمـن خاص أو لشخص خاص محدود من حيث الشرائط والقيود، فيثبت أنّه غـير مـعصوم ولذا كانت طاعته مقيدة.

أمّا الطاعة المطلقة: فهي الطاعة التي لا حدود لها ولا شروط، فإنّ الأمر بالطاعة المطلقة لغـير المعصوم قبيح لأنّ نتيجة ذلك الأمر بالفعل القبيح لأنّ غير المعصوم ربما يفعل القبيح وربما يأمر بذلك، فإنّ الأمر بطاعته حينئذٍ أمر بفعل القبيح وهذا لايـصدر مـن الحكـيم، فـالأمر بوجوب الطاعة المطلقة كالأمر بطاعة النبيﷺ قال الله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُـولَ فَـقَدْ

⬅

➲ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (سورة النساء: ٨٠). يدلّ على أنّ النبي ﷺ معصوم كما أنّ الأمر بطاعة اولى الأمر في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (سورة النساء: ٥٩) يكون كذلك الأمر بطاعة الأنبياء قال الله تعالى: وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع باذن الله (سورة النساء: ٦٤) فهذه الطاعة هي الطاعة المطلقة، ويعرف من ذلك انّ الانبياء كلهم معصومون لا يصدر منهم المعصية أو الخطأ أو السهو أو النسيان إذ معنى الطاعة المطلقة التسليم المطلق لهم أي في جميع الأقوال والأفعال والحالات وهذا لايصح إلّا إذا كان المطاع معصوماً من زلل وخطأ فعند ذلك يصح عقلاً الأمر بطاعتهم مطلقاً.

ولذلك قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (سورة النساء:٦٤) إنّ الآية دالة على أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون عن المعاصي والذنوب لأنّها دلّت على أنّ وجوب طاعتهم مطلقاً، وإلّا فلو أتوا بمعصية لوجب علينا الاقتداء بهم في تلك المعصية، فتصير تلك المعصية واجبة علينا، وكونها معصية يوجب كونها محرمة علينا، فيلزم توارد الإيجاب والتحريم على الشيء الواحد، وإنّه محال (التفسير الكبير للفخر الرازي ج ١٠:ص ١٦١).

وعلى ضوء هذه الحقيقة قد اتضح أنّ طاعة أُولي الأمر التي جاء ذكرها في القرآن الكريم هي الطاعة التي ليس فيها قيد ولا شرط، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ (سورة النساء:٥٩). حيث أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين أولاً: بأن يطيعوا الله، ومن البديهي أنّ جميع الطاعات مرجعها إلى الله سبحانه، وكل قيادة وولاية يجب أن تتبع من ولاية الله سبحانه وذاته المقدسة لأنّه الحاكم والمالك التكويني لهذا العالم، ومقتضىٰ ذلك: أن جميع الطاعات لابد أن تكون بإذنه.

وفي المرحلة الثانية: أنّ الآية الكريمة تأمر بطاعة النبي ﷺ بصورة مطلقة أي تجب طاعة الرسول بلا قيد ولا شرط، ثم عطفت الآية الكريمة طاعة أُولي الأمر على طاعة الرسول، ومعنى ذلك: أنّ طاعة أُولي الأمر كطاعة الرسول مطلقة أيضاً، وهذا يعني من يطع أُولي الأمر فقد أطاع الرسول ﷺ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك فلابد أن نسأل: من هم أُولي الأمر المقصودون بالآية المباركة؟

➲

لما عرفته من ترتب دين من ليس بمعصوم، وهم من تسمى بأهل السنّة على عشر مسائل جميعها مخالفة للشريعة(١).

فما حال الدين الذي بني علىٰ هذه العشر المخالفات لمّا نزل من عند الله(٢).

وثانيها: إنّ ما نسبه السنّي الى جمهورهم من القول بما قالته الشيعة من الحكمة التي معناها ما تضمّنه مخلوقاته سبحانه من الغايات المحمودة المحبوبة

⊃ لا ريب في أنّ من تجب طاعته بصورة مطلقة لابد أن يكون معصوماً بالعصمة المطلقة حسب ما تقدم، لأنّه لو لم يكن الأمر كذلك للزم الأمر بطاعة الفعل القبيح إذ ربما يصدر من غير المعصوم القبيح فالأمر بطاعته أمر بارتكاب الفعل القبيح، وهذا لا يناسب مع حكمة رب العالمين، بل هو جميع بين المتناقضين إذ من ناحية يلزم طاعة من أمر الله بطاعته، ومن ناحية أنّ غير المعصوم غير مصون من ارتكاب الفعل المنهي عنه، فإذا أمر الله بطاعته فقد أمر بجواز ارتكاب المعصية إذ غير المعصوم يجوز في حقه ارتكاب المعصية عقلاً، فالأمر بطاعته أمر بجواز الارتكاب عقلاً وهذا جمع بين بالمتناقضين ولذلك لايعقل أن يكون المراد بأولي الأمر في الآية الكريمة غير المعصوم سواء كان حاكماً أو غير حاكم لأنّه يلزم منه التناقض كما ذكرنا.

وعليه: لا يمكن القول بأنّ أُولي الأمر يشمل الخلفاء الغاصبين لأنّ ظاهر الآية تدل بالصراحة على لزوم طاعة أُولي الأمر الذي هو معصوم بالعصمة المطلقة، فجميع الخلفاء الغاصبين لا تشملهم الآية الكريمة؛ لأنّه بإجماع المسلمين قاطبة أنّ غير أهل البيت الذين شهد الله تعالى بعصمتهم غير معصومين قطعاً وبلا ارتياب ولا يختلف في ذلك أحد من المسلمين. فلاحظ.

(١) أُنظر: منهاج السنّة ج١: ص٤٤٢ـ٤١٩.

(٢) لا يخفى أنّ آثار السوء والمفاسد التي حصلت في الاسلام بسبب الخلفاء الغاصبين ليست مقتصرة على المسائل العشرة التي ذكرها المصنف ﳶ، بل إنّ مخالفاتهم للدين الحنيف والشريعة المقدسة أكثر من أن تحصى، حيث أنّهم خالفوا أكثر نصوص القرآن الكريم وخالفوا السنن النبوية ووصايا رسول الله ﷺ وحاربوا أهل بيت النبي ﷺ إذ أنّ انحراف المسلمين وضلالتهم إنّما بدأ من يوم السقيفة، فما جزاء من أسّس أساس الظلم والجور في الاسلام، وغصب حق أوصياء الرسول وخلفائه وخالف أوامره وأظهر البدع في الدين و....

بهتان عظيم يعرفه من نظر الى كتب أهل مذهبه[١].

---

(١) لا يخفى أنّ من سمىٰ نفسه بأهل السنّة والجماعة واعتقد بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد وقع في أحد طرفي الفريقين من أهل السنة والجماعة إذ من أوائل القرن الثاني من الهجرة:

ظهر فرقة سمّوهم «أهل الحديث»: وهم الذين عرفوا فيما بعد بـ «الأشاعرة» لأنّهم تبعوا منهج علي بن إسماعيل الأشعري من تلامذه أبي علي الجبائي المتوفى ببغداد سنة ٣٢٤ هـ فهذه الفرقة كانت تتعبد بظواهر الآيات والروايات في العقيدة وغيرها من دون غور في مفاهيمها ومعانيها ومطابقتها للحكم العقلي فأنكروا التحسين والتقبيح العقليين، ولذلك كثرت فيهم المشبّهة والمجسّمة والمثبتون لله سبحانه اليد و الرجل والوجه وغير ذلك من العقائد الباطلة والبدع الظاهرة، لتعبّدهم العمياء بظاهر الآيات والروايات من دون الدقة في مفاهيمها ومعانيها ومن الفرق بين محكمها ومتشابهها وحتى اعتمدوا على بعض الروايات الضعيفة من جهة السند وهي الروايات التي جاءت كثيراً منها عن طريق الأحبار والرهبان المستترين بالإسلام، وسيتّضح ذلك كله للقارئ الكريم إن شاء الله تعالى في محله.

وفرقة سمّوهم بـ «المعتزلة»: وهم الذين كانوا يعتمدون على العقل في المسائل الكلامية والعقيدة، وكانوا يؤولون النصوص القرآنية والروائية عندما يجدونه مخالفاً لفكرتهم وآرائهم.

ولا يخفى أنّ فرقة «أهل الحديث» أو «الأشاعرة» كانوا يشكّلون الأكثرية الساحقة بين المسلمين، وكان التشاجر بين الفريقين قائماً طوال القرون، فتارة يغلب أهل الحديث وأُخرىٰ أهل الاعتزال، وكانت غلبة كل فرقة على الأُخرىٰ بسبب الحكومة الحاكمة وسياستها في الأخذ بما يتماشا مصلحة حكومته، فمثلاً في عصر الأمويين وأوائل عصر العباسيين كان عصر ازدهار منهج أهل الحديث، وفي زمن المأمون وأخيه المعتصم والواثق بالله كان عصر ازدهار منهج الاعتزال، ولما توفى الواثق بالله عام ٢٣٣ هـ وأخذ المتوكل العباسي زمام السلطة بيده انقلب الأمر وصارت القوة لأصحاب الحديث ولم تزل السيرة على ذلك حتى هلك المتوكل، وقام المنتصر بالله مقامه ثم المستعين بالله، ثم المعتز بالله ثم المهتدي ثم المعتمد ثم المعتضد ثم المكتفي ثم المقتدر، فأخذ المقتدر زمام الحكم عام ٢٩٥ هـ الى سنة ٣٢٠ هـ.

ففي تلك الفترة أظهر أبو الحسن الأشعري إعراضه عن مذهب الاعتزال ودخوله في سلك أهل الحديث، وذلك لأن السلطة كانت تؤيدهم وكان منهج أهل الحديث آنذاك منهج الحنابلة فاتخذ أبوالحسن الأشعري مذهب الحنبلية وتصرف في بعض عقائدهم.

والمهم أنّ العقيدة الأشعرية هي عقيدة حنبلية مع بعض التغييرات وأيضاً إنّ الأشاعرة يشتركون مع المعتزلة في أصل المذهب، وهو الالتزام بمنهج الخلافة على طريقة العامة، وبذلك يفترقون عن التشيع في أصل المعتقد، فالاختلاف الأساسي بين الشيعة وأهل السنّة بجميع فرقها نفس الاختلاف الذي حدث بعد وفاة رسول الله ﷺ فإنّ الاختلاف في الإمامة والخلافة وهذا أصل أساسي في المقام وان كان أهل السنة والجماعة قد اختلفوا في ما بينهم إلى فِرق متعددة بعضهم أخذوا من الشيعة وبعضهم عاندوا الشيعة فعلى كل حال أنّ الإختلاف الأساسي بين المسلمين بدأ من بعد رحلة النبي ﷺ فانّ الصحابة انقسموا إلى قسمين: قسم تبعوا أهل السقيفة وقسم بقوا في متابعتهم للرسول وأهل بيته، فأساس الاختلاف بين الشيعة وأهل السنّة بدأت من ذلك الزمان.

وعلىٰ كل حال، فإنّ الأشعري قد أبقى كثيراً من المسائل الاعتقادية لأهل الحديث بحالها، منها: الجبر والقدر، والقول بكون القرآن قديماً، وإثبات الصفات الخبرية لمعانيها الحقيقية على الله تعالى كاليد والرجل والعين وسائر الأعضاء التي كانت الحنابلة وأهل الحديث يعتقدون بها، ومن جملة الأُمور: الاعتقاد بانّ الله سبحانه خالق لأفعال العباد خيرها وشرها.

قال ابن النديم المتوفى سنة ٤٢٨ هـ: أنّ أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري من أهل البصرة وكان أولاً معتزلياً، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة في يوم الجمعة، رقى كرسياً ونادىٰ بأعلىٰ صوته: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أُعرّفه نفسي، أنا فلان ابن فلان، كنت أقول بخلق القرآن وأنّ الله لا يرىٰ بالأبصار وأنّ أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة... (الفهرست لابن النديم: ص٢٣١، وذكره ابن خلكان في ترجمته في وفيات الأعيان ج٣: ص٢٨٥).

وقد ذكر في كتابه الإبانة عن أُصول الديانة في الباب الثاني منه: أنّه لا خالق إلّا الله، وأنّ أعمال العبد مخلوقة لله مقدورة، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافّات: ٩٦) وانّ العباد لا

ولقد نص صريحاً صاحب (المواقف) وشارحه وشارح المقاصد وغيرهم على ذهاب أشاعرتهم وجمهور المحدّثين منهم وغيرهم الى صدور الفعل منه سبحانه بدون غرض محبوب[١].

➲ يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ﴾ (سورة فاطر: ٣)... (نقلاً عن كتاب الابانة: ص ٢٠).

وقال في كتابه مقالات الإسلاميين: في حكاية جملة قول أهل الحديث وأهل السنة ما هذا نص عبارته: وأقروا أنه لا خالق إلّا الله، وأنّ سيئات العباد يخلقها الله، وأنّ أعمال العباد يخلقها الله عزّوجلّ، وأنّ العباد لا يقدرون أن يخلقوا منها شيئاً (مقالات الإسلاميين ج١: ص٣٢١).

ثم انتشر مذهب الأشعري في البلاد، يقول الكوثري: وتفرق أصحابه ـ أي الأشعري ـ في بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب، ومضى لسبيله، وبعد وفاته بيسير استعاد المعتزلة بعض قوتهم في عهد بني بوية، ولكن الإمام ناصر السنة أبابكر الباقلاّني قام في وجههم، وقمعهم بحججه ودان للسنّة على الطريقة الأشعرية أهل البسيطة إلى أقصى بلاد أفريقية (المعتزلة: ص٢٦٤).

والمهم إنّ أغلب أهل السنة التابعين لمنهج الأشعري يعتقدون أنّ أفعال العباد مخلوقة لله، وأنّ أفعال الله ليست معللة بالأغراض ولا يجوز تعليل أفعاله سبحانه وتعالى بشيء من الأغراض، كما سيجيء البحث فيه إن شاء الله تعالى، ووافقه في ذلك جماهير علماء أهل السنة.

قال فضل بن روزبهان في كتابه: إبطال نهج الباطل: ومذهب الأشاعرة أنّ أفعال الله ليست معللة بالأغراض... (أنظر: إبطال نهج الباطل، المطبوع ضمن دلائل الصدق ج٢:ص٣٤٦).

وقال الفخر الرازي: إنّ أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض ولا يجوز تعليل أفعاله بشيء من الأغراض، والعلل الغائية (التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٧:ص١١) وغيرهم من القوم.

وسيتبيّن للقارئ الكريم اعتقادات أهل السنّة من الأشاعرة والمعتزلة من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

(١) لا يخفى على الخبير الباحث أنّ المتأخرين من الأشاعرة وإن اعتمدوا في المسألة على ➲

➲ غير ما اعتمد عليه الشيخ الأشعري، ولكن المرجع في الأقوال أمر واحد وهو أنّ أفعال الله سبحانه وتعالى ـ على حدّ زعمهم ـ ليست معللة الأغراض.

قال الإيجي في المواقف: المقصد الثامن، في أنّ أفعال الله تعالى ليست معللة بـالأغراض اليـه، ذهبت الأشاعرة إلى أنّه لا يجوز تعليل أفعاله بشيء من الأغراض والعلل الغائية، خالفهم فيه المعتزلة... لنا في إثبات مذهبنا بعدما بيّنا من أنّه لا يجب عليه تعالى شـيء، فـلا يـجب ـ حينئذٍ ـ أن يكون فعله معللاً بغرض ولا يقبح منه شيء، فلا يـقبح أن تـخلو أفـعاله عـن الأغراض وبذلك يبطل مذهب المعتزلة... (المواقف ج٣:ص٢٩٥).

وقال القاضي الجرجاني في شرح المواقف عند شرح قول الإيجي: (إنّ أفعال الله ليست مـعللة بالأغراض) كما ذهبت به الأشاعرة.

إنّ الأشاعرة قالوا: لا يجوز تعليل أفعاله تعالى بشيء من الأغراض والعلل الغائية، وخالفهم فيه المعتزلة... و(لنا) في إثبات مذهبنا (بعدما بيّنا من أنّه لا يجب عليه) تعالى (شيء) فلا يجب ـ حينئذٍ ـ ان يكون فعله معللاً بفرض (ولا يقبح منه شيء) فلا يـقبح أن تـخلو أفـعاله عـن الأغراض بالكليّة، وبذلك يبطل مذهب المعتزلة... (شرح المواقف ج٨:ص٢٠٢).

وقال التفتازاني في شرح المقاصد: المبحث الخامس: جعل أصحابنا جواز تكليف مـالا يـطاق وعدم تعليل أفعال الله تعالى بالأغراض... (شرح المقاصد ج٢:ص١٥٤).

أقول: لا يخفى أنّ بعض المتأخرين من الأشاعرة كالتفتازاني وغيره لم يطرحوا هذا البحث في المقام بشكلٍ مفصّل وإنّما طرحوا هذا البحث في مسألة الصفات في البحث عن القدرة الإلهية في مسألة أنّ الله قادر على كل المقدورات أو «عموم قدرته لكل شيء» أو «عموم القدرة» والبحث عن التكليف بما لا يطاق. وذلك لأنّه كان يعلم بأنّ الإشكال وارد على الأشـاعرة فإنّ قولهم: إنّ أفعال الله ليست صادرة منه تبارك وتعالى لغرض وحكمة أمر لا يقبلها العلماء مع أن ذلك من أهم اعتقادات الأشاعرة، فبعضهم تراجع عن ذلك وبعضهم لم يذكره هرباً من الإشكال الواضح عليهم.

ثم قال التفتازاني: وأمّا نفي الغرض مـا ذهب إليـه الأشـاعرة مـن أنّ أفـعال الله ليست مـعللة بالأغراض يفهم من بعض أدلته عموم السلب، ولزوم النفي بمعنى: أنّه يمتنع أن يكون الشيء ➲

وعلى ذهاب المعتزلة ونفر شاذ من غيرهم الى الحكمة بالمعنى المرقوم[١].

➲ من أفعاله معللاً بالغرض ومن بعضها سلب العموم ونفي اللـزوم بـمعنى: أنّ ذلك ليس يلازم في كل فعل... (شرح المقاصد ج٢: ص١٥٦).

أقول: إنّ التفتازاني وغيره من المتأخرين قد سلموا الإشكال وتراجعوا عما بـنىٰ عـليه الشـيخ الأشعري، وهذا أمر يظهر من مطاوي كلماتهم وإن لم يصرّحوا به، ولكن يكفي للباحث أن يعرف فساد هذا القول من كلمات المتأخرين منهم، فلاحظ.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ القول بالحكمة في الأفعال الإلهية مبني على القول بالعدل الإلهي، وذلك بمعنى: إنّ أفعاله تعالى صادرة عنه على أساس التحسين والتـقبيح العـقليين، أي إنّ العقل من صميم ذاته يدرك أن أفعال الله صادرة عنه لغرض معقول، وإنّ أفعاله منزّهة عـن العبثية واللغوية، فإنّ ما يفعله الله تبارك وتعالى يكون على أساس الحكمة والمصلحة والهدف الصحيح عند العقل، لأنّ القدرة الإلهية وحكمته مقرونتان في جميع أفعاله، فمن الواضح أن الحكمة التامة والقوة اللا محدودة يقتضيان أن تتصف أفعاله بالحسن وتكـون مـنزّهة عـن القبح، وأيضاً مقتضيته أن تكون أفعاله تعالى معللة بالغايات ومنزّهة عن اللغو والعبث، وإذا كان كذلك فلابد من القول بالعدل الإلهي، ونفي الجبر وتنزيه الباري عن الفعل الظلم والقبيح، وهذا لا ينسجم مع اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب الإمـامة لأنّ جـميع أهـل السـنة يعتقدون بإمامة الخلفاء الثلاثة الذين غصبوا حق أميرالمؤمنين عليه السلام وأخذوا منه الخلافة ظلماً وجوراً في السقيفة بالإرهاب واستخدام أُسلوب العنف والتهديد والوعيد، فإنّ هذا النوع من الخلافة التي أعطوها غطاء شرعية لا تنسجم مع العدل الإلهي الذي يقتضي وجوب نـصب الإمام المعصوم بعد خاتم الأنبياء والمرسلين لأنّ الله تعالى خلق الإنسان لغرض الكمال كما قال سبحانه: ﴿مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات:٥٦).

ومعناه: أنّه سبحانه أراد منهم العبادة لأنّ «اللام» لام الغرض فـالعبادة هـي الارتـباط المـطلق والتسليم التام لإرادة الله سبحانه، فهذا هو الكمال المطلوب مـن خـلق الإنسـان، والكـمال الحقيقي هو القرب إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يخفى أن الكمال لا يحصل إلّا بوجود المعلّم الإلهي والمعلّم الإلهي يجب أن يتصف بصفات الأنبياء لأن الأنبياء هم المعلّمين من قِبل الله تعالى، فيجب أن يكون المعلّم الإلهي عالماً بجميع ما يحتاجه البشر، ويكون معصوماً من كل ➲

فالسنّي قلّب النسبة فافترىٰ على الجمهور بنقيض قولهم ومذهبهم، وعلى غيرهم بنقيض مذهبهم ففي المقام هو مفتر فريقين(١).

⮊ زلل وخطأ، كعصمة الأنبياء، فالمعلّم الإلهي بعد خاتم الأنبياء والمرسلين لا بد أن يتصف بصفات جميع الأنبياء في العلم والعصمة وغير ذلك من الصفات سوىٰ نزول الوحي عليه.

فالعدل الإلهي يقتضي نصب الإمام المعصوم بعد خاتم الأنبياء والمرسلين وذلك لوصول الناس إلى الغرض الذي خلق الله تبارك وتعالى الإنسان من أجله.

ولكن المعتزلة من أهل السنة الذين اعتقدوا بالحكمة في أفعال الله على أساس التحسين والتقبيح العقليين فقد وقعوا في التناقض بين القضيتين، فمن ناحية أقرّوا بالعدل الإلهي ومن ناحية لم يلتزموا بلوازمه في باب الإمامة، فلاحظ.

(١) فإن من أعجب العجب عند أهل العلم هو قول ابن تيمية في المقام لأنّه جمع بين المتناقضين، فمن ناحية يقر على ما بنى عليه الأشاعرة من أنّ كل شيء مخلوق لله تبارك وتعالى حتى أفعال العباد بإطلاقها بما فيها من القبائح، ومن ناحية أُخرىٰ يقول: أنّ ما يفعله الله تعالى مطابقاً مع الآراء المحمودة ومطابقة لآراء العقلاء والحكمة العلمية التي تكون مبنية على الحسن والقبح العقليين.

وبعبارة أُخرى: انه من ناحية يقول: إنّ أفعال الله صادرة منه على أساس الحكمة والحسن والقبح العقلي، ومن ناحية أُخرىٰ يعتقد بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه، فالجمع بين هذين الأمرين جمع بين المتناقضين؛ لأنّ القول بأنّ أفعال الله مبنية على الحكمة معناه: أنّ أفعال الله منزّهة عما لا ينبغي صدوره منه بل يلزم عقلاً صدور ما تقتضيه الحكمة منه، وثبوت هذه الصفة للباري تعالى مبني على القول بالتحسين والتقبيح العقليين.

وأمّا بناءً على زعم ابن تيمية وأهل السنّة الذين يزعمون بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه لا ينسجم مع الحكمة الربانية إذ من البديهي أنّ الخالق لشيء هو فاعله، فإذا كان الله سبحانه هو الخالق لأفعال العباد يلزم القول بالفاعلية ومن الواضح أنّ أفعال العباد فيها الظلم والفساد والقبيح، ولازم قول أهل السنة التابعين لمنهج الأشاعرة هو انّ تعالى فاعل الظلم والفساد والقبيح فهل هذا ينسجم مع الحكمة والعدل؟!!!!

فابن تيمية وأكثر أهل السنّة يقولون بأنّ أهل الله خالق لفعل العباد وإن كان قبيحاً، ولكن ابن ⮈

وثالثها: إنّ ما نقله عن جماهير فرق المسلمين من ذهابهم الى وجوده الحكم والمنافع والمصالح في خلقة التي ثمرتها لعباده هو حجة بينه على عامة من

➲ تيمية يدعىٰ هنا انّ أهل السنة يعتقدون بالعدل الإلهي والحكمة في أفعاله، وهذا جمع بين المتناقضين.

وحيث أنّ المتأخّرين من أهل السنّة قد التفتوا الى قبح هذا القول والإشكال الوارد عليه غيّروا منطقهم، فجعلوا أنفسهم في مقام الدفاع عن هذا الزعم الباطل، فذهبوا الى القول بـالكسب وذكروا: أنّ الله تعالى هو الخالق لأفعال العباد والعبد هو الكاسب، أي أنّ العبد يعاقب على كسبه ومباشرته للعمل، فخرجوا بذلك من الحفرة فوقعوا في البئر. لأنّ هذا أمـر لا يـمكن الالتزام به كما سيتبين للقارئ الكريم إن شاء الله تعالى.

وحيث لم يمكنهم الجواب فالتزموا بمالا يمكن الالتزام به، فنحن نسأل منهم: هل أنّ هذا الكسب فعل العبد أم فعل الله؟

إذا قالوا: أنّه فعل العبد فقد خرجوا عن قولهم ومذهبهم بأنّ الله تبارك وتعالى خالق لأفعال العباد حيث أنّ العبد من دون دخالة الله لابد أن يكون كاسباً لئلّا يخرجوا عن المبنىٰ الذي بـنوا عليه.

وإذا قالوا: إنّ كسبه مخلوق لله تبارك وتعالى فمعناه: أنّه لم يكن كاسباً ومباشراً للعمل، فـيعود الإشكال فيرجع السؤال وهو كيف يعذب الله تبارك وتعالى العبد على الفعل الذي هو يكون فاعله وخالقه؟!!! فابن تيمية والأشاعرة من تنزيه أفعال رب العالمين من الظلم والقبيح فضلاً عن أن يعتقدوا بانّ أفعاله تعالى مبنية على الحكمة والمصلحة فأهل السنّة القائلين بـالجبر والمخالفين للحكمة الإلهية هم بين الأمرين لابد أن يختاروا أحد الأمرين ليس إلّا، إمّا أن يرفعوا اليد عن الجبر ويذهبوا إلى الحكمة وإمّا أن يعرضوا عن القول بانّ أفعال الله مبنية على الحكمة والمصلحة وإلّا فلا يمكن الجمع بين الأمرين، كما أنّ المعتزلة منهم ايضاً لا ينسجم قولهم في باب الإمامة، مع القول بالعدل الالهي ووجود الحكمة في أفعال رب العالمين، فأهل السنّة والجماعة ليس لديهم دليل ولا منطق على ما بنوا عليه، ونحن نلزمهم بالالتزام بما بنوا عليه من باب قاعدة الإلزام. فلاحظ.

قال بإمامة الثلاثة[١].

للعلم الضروري بشدة رحمة الله على عباده، وجوده عليهم بحيث خلق لهم عامة ما في أرضه من وحوش وطيور وسائر ما فيه روح، ومن النبات ومن الجماد لمنفعتهم ومصلحتهم ينتفعون بها كيف يريدون في هذه الحياة الدنيا الدنية الفانية، فمن هذه رحمته في هذه الدنيا يستحيل ضرورة منعهم رحمته في العقبىٰ الباقية[٢].

---

(١) لاشكّ أنّ الله تبارك وتعالى خلق الخلق بقدرته وأتقن خلقه بما تقتضيه حكمته ولطفه لاسيما خلق الإنسان، فإنّه قائم على النظام الأحسن أي قائم على نظام دقيق لايمكن تخيّل نظام أكمل منه لأنّ ذلك حسب اقتضاء علمه تعالى الذي يكون عين ذاته ومقتضىٰ كماله المطلق الذي يستحيل إنفكاكه عن ذاته، ومن المعلوم أن من يكون متصفاً بالكمال المطلق يكون لطيفاً بعباده إذ الكمال يقتضي اللطف والرحمة، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ (سورة الشورىٰ:١٩) فكلمة «لطيف» مشتقّة من اللطف واللطف بمعنى: العمل الجميل الذي يمتاز برقته، ولهذا يطلق على الرحمة الإلهية اللطف ذلك اللطف الواسع غير المحدود ومقتضى اللطف الرفق، فالله تبارك وتعالى لطيف بعباده أي رفيق بهم.

وهل يصحّ أن ينسب إلى الله اللطيف بالعباد أنّه لم ينصب الإمام المعصوم بعد خاتم أنبيائه ويترك عباده سدىٰ؟!!!

(٢) وخلاصة الكلام: أنّ الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وأجلسه على مائدة رحمته وأنعم عليه بالكثير من النعم الظاهرية والباطنية والمادية والمعنوية من دون أن يطلب في مقابلها أي شيء، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً...﴾ (سورة لقمان: ٢٠) فالإسباغ أي الإتمام: أُسبغ عليكم أي أتمّ عليكم نعمه ظاهرة كالحواس الظاهرية مثل: السمع والبصر وسائر الجوارح، والنعم الباطنية كالصحة والعافية والرزق والعقل والشعور وغير ذلك، فأنعم تبارك وتعالى على الإنسان بمالا يُعد ولا يُحصىٰ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (سورة إبراهيم:٢٤).

⊂

➲ وإذا نظرنا إلى أحد هذه النِعم الإلهية نظرة دقيقة عرفنا عظمة الله تعالى وعظمة نعمائه، فمثلاً: إنّ الشمس التي تعم العالم بنورها وتعطي الحرارة والنور لجميع الموجودات الحية وتكون أساساً لنموّ النباتات وعاملاً أساسياً لكل حركة على وجه الكرة الأرضية مثل: حركة الرياح وأمواج البحار وجريان الأنهار والشلّالات وغير ذلك.

وفي الحقيقة: أنّ أشعة نور الشمس تعتبر ضرورة حتمية لجميع الموجودات من أجل أن تواصل حياتها وهذه إحدى النِعم الإلهية التي سخّرها الله تبارك وتعالى للإنسان، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٣).

فإنّه تبارك وتعالى قد حشد للإنسان في هذا الكون الفسيح كل مصالحه ومنافعه، ووفّر له الموارد الكافية لإمداده بحياته وحاجاته المادية، وهناك ملايين من الكواكب كالشمس في السماء تدور لنظم الكون وغيرها من النعم الإلهية لتنظيم الحياة في هذا الكون العظيم من النباتات والحيوانات في البر والبحر وأسرارها المدهشة التي تذهل عقول العلماء عند دراستها والتحقيق حولها، فجميع هذه الموجودات والنعم اللامتناهية الإلهية إنّما هي رحمة الله ولطف منه تعالى.

فهل من الحكمة أنّ الحكيم الذي وهب هذه النعمة العظيمة بحكمته وتدبيره مختصة بعالم الدنيا أن لا يضع قوانين ولم ينظّم أمر الناس بالنسبة الى سعادتهم الأبدية ويتركهم سدىً ولو في مقطع من الزمان؟!!!

كلّا ثم كلّا، فإنّه سبحانه وتعالى لم يخلو الأرض من الحجة والمعصوم منذ خلق آدمعليه السلام والى يوم القيامة، فإنّ رحمته الواسعة وحكمته البالغة تقتضيان أن يجعل معصوماً في كل عصر وزمان لئلّا يكون للناس على الله حجة بعد الرسول (سورة النساء:١٦٥) فقد أحكم تبارك وتعالى خطة إرسال الرسل ونفّذها بكل دقة تحقيقاً للطفه ورحمته وحكمته ولئلّا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ولذلك قال تعالى في ذيل الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ ٱللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ فإنّ حكمته توجب تحقيق هذا العمل وقدرته تمهّد السبيل إلى تنفيذه، فهذه الحكمة البالغة ليس لها استثناء، ولابد أن تمتدّ حتى لما بعد خاتم الأنبياء والمرسلين وذلك بنصب الإمام المعصوم بعد خاتم الأنبياء والمرسلين من أجل هداية الناس وإرشادهم الى ما فيه ➲

بل يفعل بهم ما ينتفعون به فيها من جعل إمام معصوم لهم في كل زمان يسيّسهم بالشريعة جمعها ويحثّهم عليها؛ لتُحصل لهم السعادة في النشأة التي خلقهم سبحانه للفوز برحمته الغير المنقطعة فيها[١].

مصلحة معاشهم ومعادهم وتزكيتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتركيز الحق في نفوسهم، وسوقهم الى الله، ووصولهم إلى الكمال الفردي والاجتماعي، ووصولهم إلى سعادتهم المعنوية وسلوكهم إلى مرضاة رب العالمين، وإنقاذهم من الضلال والهلاك والحيرة والجهالة.

فدور الإمام المعصوم في المجتمع كدور الشمس في نظام الكون، فكما أنّ نور الشمس وأشعّتها تعتبر في الحقيقة ضرورة حتمية لجميع الموجودات من أجل أن تواصل حياتها كذلك وجود الإمام المعصوم ضرورة حتمية لنضوج وتكامل بني الإنسان من الجهة المعنوية والوصول إلى السعادة الأبدية. غير ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٤) فإنّ الإنسان ظلوم وكفور بالنسبة إلى أنعم الله ومن أعظم نعمه نصب الأئمة المعصومين عليهم السلام أعلاماً للدين ومناراً للهدىٰ ما دامت السماوات والأرض، ولكن أكثر الناس لم يشكروا هذا النعمة العظيمة وانّ كفرانهم لهذه النعمة صار سبباً لغيبة الإمام المعصوم في عصرنا الحاضر، فغاب المعصوم عن الأنظار وإن كان موجوداً بينهم كالشمس وراء السحاب ولكنّهم محرومون من رؤيته. فلاحظ.

(١) وذلك لأنّ المجتمع بحاجة ماسة إلى وجود المعصوم في كل عصر وزمان ليكون واسطة بين الخالق والمخلوق ورابطاً بينهما، إذ لا سبيل لمعرفة الله إلّا من طريق المعصوم الذي يعلم الواقع وحقيقة الأمر، ولا يجوز عليه الخطأ. فهو الطريق الوحيد الذي يضمن السعادة الحقيقية للبشر لأنّ المعصوم يعلم حدود الأشياء وثغورها، فالله تبارك وتعالى قد أعطاه علم كل شيء، فقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (سورة يٓس: ١٢).

وقد ورد في تفسير هذه الآية الكريمة عن الإمام الباقر عليه السلام عن آبائه الطاهرين عليهم السلام: أنّه لما نزلت هذه الآية المباركة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قام أبوبكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله، هو التوراة؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا، قالا: فهو الإنجيل؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا، قالا: فهو القرآن؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم :لا، قال: فأقبل أميرالمؤمنين عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو هذا إنّه الإمام الذي أحصىٰ الله تبارك

فهل يليق بجناب رحمته ما نسبه اليه من قال بإمامة الثلاثة من عدم جعله لهم إماماً معصوماً يهديهم الى سبيل رحمته التي خلق الخلق لها؟[١]

وتعالى فيه علم كل شيء (معاني الأخبار للصدوق: ص٩٥).

وبالجملة: أنّ الله تبارك وتعالى يصطفي من عباده من يشاء لتبليغ دينه ورسالته الكبرىٰ التي لاتختص بقوم دون قوم ولا برقعة من الأرض دون اخرىٰ، ولا بأُمة دون سائر الأُمم قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٢١).

وهذا أكبر دليل على رحمته ولطفه بعباده لدخولهم الجنة، فإنّه لو لم ينصب المعصوم في كل عصر وزمان لنقض غرضه في وصول النفع إلى الخلق تعالى الله عزوجل عن ذلك علواً كبيراً.

وعلى ضوء ما تقدّم: فإنّ كل عاقلٍ يدرك بالضرورة لزوم وجود المعصوم العالم بحقائق الأُمور في كل عصر وزمان ليكون رابطاً بين الخالق والمخلوق.

قال الإمام أميرالمومنين عليه السلام: اللّهم بلى لا يخلو الأرض من قائم لله بحجة إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً، لئلّا تبطل حجج الله وبيّناته (نهج البلاغة: الحكمة رقم ١٤٧).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ الأرض لا تخلو وفيها إمام، كيما زاد المؤمنون شيئاً ردّهم وإذا نقصوا شيئاً أتمّه لهم (الكافي ج١:ص١٧٨).

(١) لا شكّ أنّ الغرض من خلق الإنسان هو إيصاله إلى الكمال المعنوي الذي عبّر عنه الفلاسفة بـ «التكامل» وفي لسان القرآن والحديث هو القرب إلى الله تعالى، أو العبادة، قال الله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦).

ومن البديهي أنّ العبادة بمعناها الشمولي التي هي التسليم لأمر الله تعالى هي المنهج الأوّل لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة، إذ أنّ العبادة ستهب روح الإنسان تكاملاً في أبعاده المختلفة، لأنّ العبادة هي: جعل العبد نفسه في مقام العبودية والتسليم لإرادة رب العالمين، وذلك يؤدي إلى السعادة الأبدية لأنّ الله تبارك وتعالى محيط بحقائق الأُمور، فهو أعلم بسعادة الانسان من غيره، فمن سلّم أمره الى الله فقد سعد وفاز، ومن أجل هذا الغرض أنّ الله تبارك وتعالى أرسل الأنبياء ونصب الأوصياء وأنزل الكتب السماوية رحمةً منه ولطفاً على عباده، وجعل صراط الحق واضحاً لا لبس فيه ولا شبهة فيه، فمن يسلكه فقد ابتغىٰ النجاة ومن أعرض

وهل يليق بجناب قدسه خلق الكفر والمعاصي والشرور في عباده ثم يعاقبهم عليها؟![1]

فأين رحمته التي رحمهم بها في الدنيا وهو سبحانه لم يخلقهم لها؟[2]

➲ عنه فقد ضل وهلك، قال الله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (سورة الأنفال: ٤٢) فالمراد من الحياة والهلكة هنا هي الهداية والضلالة، لأنّ الله تبارك وتعالى قد بيّن هذه الحقيقة في آياته الكريمة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (سورة يونس: ١٠٨).

إذن إنّ الغرض من إرسال الأنبياء هو الهداية الإلهية، ومن المعلوم أنّ هذه الغاية لا تحصل إلّا بوجود المعصوم في كل عصر وزمان وأجمل ما قاله أئمة أهل البيت عليهم السلام في فلسفة وجود الامام المعصوم في كل عصر وزمان ومدىٰ تأثيره هو قول الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: إنّ الله لم يدع الارض بغير عالم ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل (الكافي ج١: ص١٧٨ ح٥) فلاحظ.

(١) إنّ من أشنع النسب الباطلة التي نسبها الجبرية إلى الله سبحانه هي نسبة خلق أفعال الانسان، فهم قد نسبوا إلى الله عزّوجلّ خلق الشرور حيث انّهم يقولون: أنّ الله تعالى خالق كل أفعال العباد خيراً كان أم شراً، وإنّ لازم هذا القول هو أنّه لا فائدة لأعمال الإنسان الصالحة ولا ضرر له بالنسبة إلى أعماله الطامحة. لأنّ الفاعل والخالق لها هو الله سبحانه ومعنى هذه النسبة هو أن تكون مضرة فعل الباري جلّ وعلا أعظم من مضرة إبليس الذي يدعو الناس إلى الكفر والعصيان؛ وذلك لأنّ إبليس يدعو الناس إلى الأفعال القبيحة باغوائه ووسوسته من غير أن يتدخّل في إرادة الإنسان واختياره، ولكن بناءً على هذا الزعم: إنّ الله تبارك وتعالى يتصرّف في إرادة العبد واختياره فيخلق أفعاله بما فيها من القبائح من دون دخالة إرادة الإنسان واختياره، ومعنى ذلك: أنّ المضرة الحاصلة من خلق الله سبحانه ـ والعياذ بالله ـ أعظم من مضرة إبليس اللعين الذي يدعو الناس الى الكفر والعصيان بوسوسته فقط. وهل تليق هذه النسبة الى ساحة القدس الربوبية المستجمعة لجميع صفات الكمالية والنعوت الجلالية؟!!

(٢) فإنّ الله تبارك وتعالى خلق الإنسان ليعيش في هذه الدنيا الفانية فترة قصيرة ويتزوّد من

➲ أيامها القليلة لحياته الآخرة الباقية وهي دار تعيين الجزاء والحساب، فالرحمة الإلهية التي سبقت غضبه تقتضي أن لا يتساوى بين المؤمن والكافر وبين المحسن والمسيء والعادل والظالم، قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللّٰهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (سورة إبراهيم: ٥١) وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران:٢٥) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللّٰهُ نَفْسَهُ وَٱللّٰهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (سورة آل عمران:٣٠).

وإلى غير ذلك من الآيات المباركة وهي صريحة بما لا مزيد عليها بأنّ حساب الله يوم القيامة دقيق وحاسم، وأنّ جزاء الأعمال وعواقبها سترد اليهم، كما ورد التصريح في بعض الآيات بمشاهدة الأعمال الصالحة والطالحة يوم القيامة، فكل الناس ترىٰ أعمالها حاضرة مجسّمة أمام عينها وسيعلم الإنسان ما قدّم لآخرته ويلاقي نتيجة عمله أمام محكمة العدل الإلهي فيُسلّم كل فرد قائمة أعماله بيده وهم يحصدون ما زرعوه في هذه الدنيا ومهما يكن الجزاء والعقاب فهم لا يظلمون لأنّ ذلك هو حاصل أعمالهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران:٢٥).

فالرحمة الإلهية مطابقة مع العدل الإلهي، ومن الطبيعي أنّ هذا الهدف لا يتحقّق إلّا وجود عالم آخر لأنّ الأيام القلائل التي يعيشها الإنسان في هذه الدنيا قد لا يمكن إجراء العدل والحق بها مثلاً: إذا قتل شخص خمسين مؤمناً فكيف يمكن أن يقتص منه خمسين مرة وله نفس واحدة، فكيف يتحقق في حقه العدل لولا وجود يوم الآخرة؟ فهذه الأيام لا قيمة لها بالنسبة الى الهدف الأصيل الكامن وراء الخلق، ومن ناحية أُخرىٰ: إنّ حكمته البالغة قد اقتضت أن لا يتساوى بين المحسن والمسيء، والعادل والظالم، فإنّه تعالى يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (سورة صّ: ٢٨).

فيجزي كل نفس بما كسبت، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ حكمته تقتضي بأن يجعل للناس طريقاً لهدايتهم والوصول الى سعادتهم الأبدية فيلزم من ذلك أن يكون لهم في كل عصر وزمان من يهديهم الى صراط مستقيم ويخرجهم من الظلمات الى النور وهم الأنبياء والمرسلين الذين ➲

وكيف أعرض عن الآخرة التي خلقهم لأجلها، وهي أولىٰ بالرحمة فيها من الأُولى، فلماذا يمنعهم منها، بل ويعاملهم بسبب ما خلقه فيهم مما يوجب سخطه عليهم ويوجب بُعدهم عن رحمته، فانظر هل تجوز في حقّه ذلك؟[(١)]

➲ اصطفاهم الله لهداية خلقه ثم من بعد الأنبياء الأوصياء وخلفائهم المرضيين الذين جعلهم الله تعالى إماماً للعالمين وهادياً للخلق أجمعين فلابد أن يكونوا معصومين كي يمكنهم الهداية الحقيقية وهي الهداية بأمر الله، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٧٣) وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (سورة الأعراف:١٨١).

وقد ورد في الروايات الواردة في كتب الأحاديث الإسلامية أنّ المراد بالأمة هم الأئمة الطاهرين عليهم السلام (أُنظر: تفسير نور الثقلين: ج٢ ص١٠٤ـ١٠٥).

(١) فإنّ الرحمة الإلهية الواسعة التي لا يتصوّر فوقها رحمة هي التي تشمل جميع الموجودات والكائنات من طريق الخلق والرزق والنفع ودفع الضرر و.... في هذا العالم العظيم الذي خلقه الله تعالى وفق نظام دقيق مدروس منسجم مع الحكمة التامة والقوة اللا محدودة. ومعنى ذلك: أنّ رحمته تعالى لا تقلب حكمته أي لا تكون على أساس عاطفي كما هو الحال فينا بل إنّ رحمته ممتزجة دائماً مع حكمته وحكمته توجب وجود كل شيء في محلّه كما أنها تقتضي عقوبة المذنبين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً﴾ (سورة النساء: ٥٦ـ٥٧).

ففي ذيل الآية الأُولى يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي: أنّه قادر بعزته أن يوقع هذه العقوبات للعصاة وأنّه تعالى لا يفعل ذلك اعتباطاً بل كلها عن حكمة ومصلحة وكل ذلك جزاء لأعمالهم التي فعلوها في الدنيا، ثم يقول تعالى: ﴿والذين آمنوا...﴾ أي إنّنا نعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن ندخلهم الجنة مع ما فيها من العيش والذة للروح والجسد، فالانسان مختار إذا أراد أن يدخل الجنة لابد له من العمل الذي يكون نتيجته ➲

وهل تجد مناسبة بين ما فعله لهم في الدنيا من الرحمة وبين ما فعله لهم في العقبى من العقوبة والبعد عن رحمته؟![١]

➲ الدخول إلى الجنة فانّ الجنّة والنار معدتان ومهيئتان لأصحابهما قال الله تعالى في التعبيتر عن الجنّة: ﴿**اعدّت للمتّقين**﴾ (سورة آل عمران: ١٢٣ وسورة الحديد: ٢١) وقال تعالى في التعبير عن النار: (اعدّت للكافرين) (سورة البقرة: ٢٤ وسورة آل عمران: ١٣١).

والمتأمّل في الآيتين يجد بوضوح أنّ الرحمة الإلهية سابقة على غضبه لأنّ في الآية الأُولى ذكرت عقوبة الكفّار وبدأت بكلمة «سوف» في حين أنّ في الثانية بدأت الوعد بالجنة للمؤمنين بـ«السين» فقال تعالى: (سندخلهم) فالسين للمستقبل القريب وسوف للبعيد، فهذه هي الرحمة الواسعة الإلهية التي تقتضي أن تكون غالبة على غضبه، وإنّ مقتضى هذه الرحمة الواسعة أن لا يترك الله تعالى الناس سدىً بل يهديهم إلى الصراط الحق ليقيم عليهم الحجة ولئلّا يكون للناس على الله حجة (سورة النساء: ١٦٥).

وقد أنفذ تعالى خطة إرسال الأنبياء لهذا الهدف والغرض ونفّذ هذا الأمر بكل دقة، وقال في كتابه العزيز: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (سورة البقرة: ٣٨) فإنّ من اتّبع هدى الله فلا يضلّ ولا يشقى، فجعل تعالى في اتّباع الهداة الربانيين كل الخير في الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَارىٰ وَٱلصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (سورة البقرة: ٦٢).

ويتضح من خلال هذه الآية الكريمة وغيرها بأنّ التبعية من الهداة الإلهية تتعقّب شمول الرحمة الإلهية للإنسان، كما قال تعالى: ﴿**فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

فيتبيّن الآية أنّ من تبع الأنبياء «فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» فهذه الرحمة الإلهية شاملة للجميع حتى بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم حيث لا يمكن أن يجعل الله سبحانه أُمة خاتم أنبيائه بلا وجود هاد معصوم منصوب من قبله، فإنّ رحمته الواسعة تقتضي أن يجعل لهم إماماً معصوماً يهدي الناس إلى الحق لتشملهم الرحمة الإلهية، كما أنّ الله تعالى بعث الأنبياء رحمة لعباده. فلاحظ.

(١) لا شكّ أنّ رحمة الله تبارك وتعالى واسعة تشمل جميع المخلوقات ولكن أنّ رحمته تكون ➲

⬅ وفق الحكمة والمصالح الواقعية التي هي الأساس في الأفعال الإلهية سبحانه ولا معنى للقول بأنّ رحمته الواسعة تقتضي أن لا يعذّب المذنبين بل أنّ رحمته تقتضي ألّا يساوي بين المذنب والمطيع، قال الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (سورة صٓ: ٢٨) فإنّ حكمته البالغة قد اقتضت بأن يخلق هذا العالم ويجعل له هدفاً حكيماً وعرضاً مناسباً مع العدل والحكمة.

نعم إنّ الله سبحانه لا يعذّب أحداً إلّا بعد اتمام الحجة عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (سورة الإسراء: ١٥) فإنّ سنّة الله تعالى جارية على أن لا يعذّب الإنسان في الدنيا ولآخرة إلّا بعد إتمام الحجة عليه.

وإذا أمعنا النظر في مجاري الأُمور والحوادث الواقعة في هذه الدنيا لوجدنا ارتباطاً منطقياً بين أعمال الإنسان وما سيواجهه من الأحوال الايجابية والسلبية، فإنّ عاقبة كل أُمر بيد الإنسان نفسه، لأنّ الأمر يدور مدار سعي الإنسان وبمقتضىٰ قانون العلية، فإنّ كل معلول موجود بوجود علته والقرآن الكريم يصرح هذا المعنى في مواضع عديدة:

فمنها: قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ«٣٩» وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣٩ـ٤٠).

ومنها: قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة الجاثية: ٢٢).

ومنها: قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (سورة المدّثر: ٣٨).

ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (سورة غافر: ١٧).

فكل هذه الآيات وغيرها تصرّح بأنّ عاقبة أمر كل إنسان بأيديه وكل إنسان سينال نتيجة أعماله التي اقترفها في الحياة الدنيا، فإنّ الهداية والضلالة إنّما تكون بعمل الإنسان، ولذلك ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: حقيقة السعادة أن يختم للرجل عمله بالسعادة، وحقيقة الشقاء أن يختم للرجل بالشقاوة (الخصال للشيخ الصدوق: ص٥ ح١٤).

وعليه: فإنّ التوفيق للهداية إنّما يحصل بعمل الإنسان، ويمكن التمثيل لهذه الحقيقة بمثال بسيط: فإنّه حين يمرّ الإنسان قرب هاوية خطرة فإنّه يتعرض لخطر الانزلاق والسقوط فيها فكلّما ⬅

وقد وصف رحمته بأنّها وسعت كل شيء،[١] فما لها قصرت عن عباده في العقبىٰ فلم تسعهم بل وسعتهم نقمته وعقوبته وغضبه حيث خلق فيهم الكـفر

➲ يقترب الإنسان اليها كان احتمال سقوطه أكثر وكلّما يبتعد عنها فيكون احتمال انزلاقه وسقوطه أقل وأبعد، فالعقوبة انّما هي نتيجة أعمال الإنسان، قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة التوبة: ٧٠) وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (سورة النحل: ٣٤).

فالعمل الفاسد لا يجر على صاحبه إلّا النتيجة الفاسدة، فما يصيب الإنسان من العقاب فهو بسبب أعماله.

ومن هنا يعرف أنّ رحمة الله تعالى مقرونة بالحكمة والعدالة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (سورة هود: ١٠٨) فمن رحمة الله الواسعة أن يتم الحجة على جميع الناس ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥).

(١) قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ (سورة غافر: ٧) وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٦) فانّ المستفاد من الآيتين أنّ الرحمة الإلهية واسعة تسع كل شيء بالفعل لا شأناً، لأنّ التفضّل الإلهي ليس له حدّ نهاية بل يشمل جميع المخلوقات.

ولذلك روىٰ العلامة الطبرسي في مجمع البيان عن ابن عباس وغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فردّه تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٦) أُنظر مجمع البيان ج٤:ص٣٧٠.

أقول: الظاهر إنّ ما تبادر لإبليس اللعين انّه مصداق للشيئية؛ لأنّ الشيئية قد جاءت في الآية الكريمة، فأراد إبليس أن يستدل بالآية علىٰ شمول الرحمة بالنسبة إلى نفسه حتى بعد عصيانه وإغوائه الإنسان، ولكن الله سبحانه بيّن المراد من الشيئية ليدفع به ما خطر ببال إبليس، فقال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

وبالجملة: فإنّ الرحمة الإلهية شاملة لجميع الأشياء ومكتوبة للمتقين كتاباً محكماً، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام:١٢).

والشرور وهو يعاقبهم يوم القيمة عليها ولم يجعل معصوماً إماماً لهم يهديهم الى دينه فيتعلّمون منه ما يستحقون به رحمته وفضله[١].

ورابعها: انّ ما نسبه إلى طائفة من أهل مذهبه من عدم وجود ما يدلّ على التعليل في الفرقان العظيم، بل ما ظاهره التعليل فيه هو للعاقبة، بهتان منه[٢]

---

(١) فإنّ الرحمة الإلهية المطابقة للحكمة الربانية تقتضي أن يجعل للناس إماماً معصوماً يتحمّل مسؤولية الرسالة الإلهية ليقودهم نحو السعادة الخالدة والنعيم الدائم، فالمعصوم الذي هو الرسول أو الإمام الذي جعله الله تعالى رسولاً وإماماً للدين والدنيا والآخرة فهو الذي يطبّق الخطط الإلهية ويستهدف سعادة الانسان والحياة الطيّبة له و....

فالمعصوم هو الحجة الإلهية على الخلق الذي لا تخلو الأرض منه، قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة، إمّا ظاهر مشهور أو خائف مغمور، لئلّا تبطل حجج الله وبيّناته (كمال الدين للشيخ الصدوق:ص٢٩١).

وفي حديثٍ آخر ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث قال لأحد أصحابه وهو هشام بن الحكم: يا هشام، إنّ لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأمّا الباطنة فالعقول... (الكافي ج١:ص١٦).

ولا يخفى على الخبير أنّ مقتضىٰ إطلاق الحديث لزوم وجود المعصوم في كل عصر وزمان باعتبار أنّ الحجة الظاهرة لابد من وجودها في جنب الحجة الباطنة دائماً إلى يوم القيامة، وهذا هو معنى الرحمة الإلهية الشاملة لجميع الخلق، فالرحمة الإلهية مطابقة لحكمته البالغة وهي تقتضي وجود المعصوم والحجة على وجه الأرض في كل عصر وزمان وقد امتدت هذه الحجة الإلهية إلى بعد خاتم الأنبياء بالأئمة المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فوجود هؤلاء الحجج الإلهية لطف من الله تعالى، وهذا معنى اقتضاء اللطف الإلهي الشامل لجميع المخلوقات. فلاحظ.

(٢) لا يخفى على الخبير أنّ حرف اللام تستعمل في اللغة العربية لمعانٍ كثيرة، منها: الملكية ومنها: الاختصاص، ومنها: التعليل، ومنها: الغاية، ومنها: الاستحقاق، ومنها: التعجّب، ومنها: العاقبة وغير ذلك، قال ابن هشام: وللام الجارة اثنان وعشرون معنى... السادس: التعليل،

حسبما عرفته من جهتين: فإنّ القول المزبور قول جمهور أهل مذهبه دون طائفة منهم؛ لقولهم: أنّه ما فعل ولن يفعل لغرض مقصود[١].

➲ كقوله تعالى: ﴿لإِيلاَفِ قُرَيشٍ...﴾ (مغني اللبيب ج١:ص٢٠٨ـ٢٠٩).

أقول: الظاهر أنّه بناءً على مسلك التحقيق أنّ اللام وضع للإشارة إلى أنّ مدخول اللام مطلوب للإنسان ومراد له، وبعبارة أخرى: إنّ اللام موضوعة لمعان متعددة بصورة عامة ليستعملها المتكلم ويستخدمه في المعنى الذي يريده بالإشارة اليه ضمن قرينة معينة، كما في باب الاشتراك باستعمال اللفظ المشترك بالقرينة المعينة في المعنى المقصود، مثل قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (سورة إبراهيم: ١).

من البديهي أنّ هداية الناس وخروجهم من الظلمات إلى النور مراد له سبحانه، فاللام استخدمت في الآية الكريمة لمعنى الغاية، إذن إنّ اللام تستعمل في اللغة العربية لبيان مابعدها من مراد المتكلم.

وقد تستعمل لبيان نتيجة عمل المرء ومآل موقفه من العمل كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ (سورة القصص:٨).

من الواضح أنّ آل فرعون إنّما أخذوا موسىعليه السلام ليكون لهم سروراً وقرة عين ولكن نتيجة الأمر حصلت العداوة والحزن بوجود نبي الله موسىعليه السلام لآل فرعون.

والظاهر أنّ هذا الاستعمال بهذه الصورة المذكورة لا يختص باللغة العربية فقط، بل مشهور في غيرها من اللغات والآداب أيضاً، فإنّهم يستعملون بعض الكلمات ولا يعرف معنى الكلمة إلّا بإقامة القرينة ضمن الكلام والعرف ببابك.

ومن هنا يتضح أنّ الوضع في باب الحروف عام والموضوع له أيضاً عام والمستعمل فيه خاص، أي أنّ المراد يكون بتعيين المتكلم. وعليه: فإنّ نسبة عدم وجود اللام لمعنى التعليل في القرآن الكريم ادّعاء باطل لا أساس له، وإنّما ذلك على مسلك الجبر الذي بنى عليه أكثر أهل السنّة في باب الاعتقاد، فإنّهم بنوا على هذا الإعتقاد الباطل وزعموا أنّ في القرآن لم يأت مدخول اللام لإفادة التعليل. فلاحظ.

(١) فإنّ الأشاعرة ـ وهم الذين يشكّلون أغلبية أهل السنّة والجماعة ـ ذهبوا إلى أنّ أفعال الله ليست معللة بالأغراض والمصالح، وبناءً على ما ذهبوا إليه استنتجوا من ذلك أنّه لا يجوز ➲

➲ تعليل أفعاله تعالى بشيء من الأغراض والعلل الغائية، ولذلك قالوا: «لا يجب على الله شيء ولا يقبح منه شيء» وصرحوا بأنّه يجوز في حقه تعالى أن يأمر بما لا يطاق العبد وبما لا يقدر عليه العبد ثم يعذب العبد على تركه (أُنظر: المواقف للإيجي ج٣:ص٢٩٣).

أقول: لا يخفى على الخبير أنّ بعض علماء أهل السنّة المتأخرين منهم كالتفتازاني وغيره لمّا وجدوا أنّ هذه العقيدة مخالفة للكتاب والسنّة صرحوا بعدم صحتها وقالوا: الحق أنّ بعض أفعاله تعالى معللة بالأغراض. واليك نص عبارة بعض علمائهم:

قال التفتازاني: الحق أنّ تعليل بعض الأفعال سيما شرعية الأحكام بالحِكم والمصالح ظاهر كإيجاب الحدود والكفّارات وتحريم المسكرات وما أشبه ذلك.

والنصوص أيضاً شاهدة بذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات:٥٦). وقوله تعالى: ﴿مِن أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ (سورة المائدة: ٣٢). وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (سورة الأحزاب: ٣٧) (شرح المقاصد ج٢:ص١٥٧) انتهى.

فإنّ التفتازاني ومن تبعه من علماء أهل السنّة لمّا درسوا واقع الأمر في أفعال الله وطبّقوه على الآيات والروايات فهموا أنّ ما بنىٰ عليه الجبرية والأشاعرة بناء باطل حيث وجدوا أنّ أفعال الله تعالى لا تخلو من علل ومصالح، فالتزموا بأنّ بعض أفعاله تعالى معللة بالأغراض وإن لم يصرح هذا البعض بالرجوع عن مسلك الجبر ولكن المستفاد من كلامهم ذلك؛ لأنّ القول بالجبر يلازم القول بعدم وجود علة في أفعاله وإلّا سوف يلزم أن تكون العلة هي الفساد ـ والعياذ بالله ـ.

وعليه: فهم من باب الجمع بين الجبر والحكمة ذهبوا إلى أنّ بعض أفعاله معللة بالأغراض الحسنة، وهذا أكبر دليل على بطلان الجبر حيث أنّ الخبير يعلم بأنّ الحكمة أمر عقلي إذا كان الحاكم هو العقل فلابد أن يحكم في جميع الموارد وإذا لم يكن حاكماً فلا معنى لحاكميته في بعض الموارد دون الأُخرىٰ، ولذلك تجد أنّ الشيعة الإمامية اتفقوا على أنّ أفعاله تعالى معللة بالأغراض والمصالح حيث أنّه تعالى حكيم ولا يفعل العبث فأفعاله تعالى لا ينفكّ عن الغرض سواء كان في ناحية التكوين أم في ناحية التشريع، ويستحيل أن يكون ➲

بل الذي فعله في غالب خلقه الكفر والشرور والمعاصي وهم من حيث زعمهم خلق الله فعال عباده المشار إليها، لزمهم القول بأنّه سبحانه لم يفعل ولن يفعل لعلّة،[(١)]

ذلك الغرض قبيحاً فجميع أفعاله تعالى مشتملة على الأغراض الصحيحة، وإن لم نعلم كُنه ذلك الغرض وحقيقة تلك الحكمة، إذ لا سبيل لنا إلى معرفة حقيقة جميع الأشياء، لعجز القوة البشرية عن إدراك جميع ذلك ولكن حيث نعلم بانّ الحكيم لايفعل إلاّ مايقتضيه الحكمة فنقول: انّ جميع أفعاله ناشئ عن الحكمة والمصلحة. فكل أفعال الله معللة بالأغراض لكنها أغراض تعود إلى العباد، إذ انّ الله تبارك وتعالى غني لايحتاج إلى شيء وإنّما العبد يحتاج إلى مولاه، فإنّ من أفعاله تعالى بعث الأنبياء ونصب الأئمة المعصومين، وانّ المصلحة فيه واضح عند الكل، فالمصالح إنّما تعود إلى الإنسان لأنّ الله تعالى غني عن العالمين، فالغني المطلق لا يحتاج إلى أيّ نفع بل الكل محتاجون اليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللهِ وَٱللهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (سورة فاطر: ١٥).

(١) وتوضيح المقام: أنّ من اللوازم الفاسدة للقول بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه هو القول بأنّ أفعال الله سبحانه ليست معللة بالأغراض والمصالح؛ لأنّ من زعم أنّ أفعال العباد مخلوقه لله سبحانه يدّعي بأنّه أي تأثير في الوجود ـ سواء كان تأثيراً مباشراً أو تأثيراً تبعياً ظلياً ـ يكون من الله حيث يقولون بأنّه: لا مؤثر في الوجود إلاّ الله على نحو الإطلاق، فأنكروا وجود أي تأثير حتى التبعي لغير الله سبحانه وقالوا: ليس في العالم مؤثر وعلة في الوجود إلاّ مؤثر واحد وهو الله سبحانه، وإن كان ذلك الفعل من الأفعال القبيحة عند العقل فإنّه بناءً على هذا الزعم أنكروا مؤثرية العلل والأسباب التكوينية التي لها تأثير في عالم الوجود بعد أن جعلها الله مؤثّراً وقانوناً في التكوين.

فلا ريب أنّ قانون العلّية والمعلولية ثابت في الوجود فانّ النار سبب للحرارة والإحراق والثلج سبب للبرودة وهكذا، فجرت عادته تعالى على أن يجري الأُمور بأسبابها.

وعليه: يتبيّن من خلال هذا القانون بأنّ فعل الشرور الذي يفعله الإنسان إنّما هو فعل نفسه لا فعل الله تعالىٰ.

فحرف التعليل فيما يصدر عنه مفقود وحرف العاقبة فيه موجود[(١)].

➲ وفي الحقيقة: إنّ الأشاعرة تخيّلوا أنّ قانون العلّية يوجب سلب القدرة الإلهية في باب الأسباب والعلل التكوينية فذهبوا إلى أنّ أفعاله ليست معللة بالأغراض، وبذلك وقعوا في إشكال الذي لا مفر لهم منه.

وفي الحقيقة: هم خرجوا من الحفرة ووقعوا في البئر، لأنّه لا شكّ أنّ الحكيم إنّما تكون أفعاله على أساس الحكمة والغرض الصحيح إذ لو خُلّي فعله عن الغاية والغرض يعدّ لغواً وعبثاً وهو من القبائح العقلية والله تعالى منزّه عن القبائح، فلابد أن يكون فعله مقترناً بالغرض والعلة الصحيحة عند العقل.

وخلاصة الكلام: أنّ سلب وصف المؤثرية والعلّية عن كل شيء حتى على نحو التبعية والظلّية أمر غير معقول في قاعدة التكوين كما تقدّم.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ القول بعدم وجود حرف التعليل في القرآن أمر فاسد عند العلماء وأهل الفن.

قال الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الشعراء: ١٣٥): أنّه تعالى في موضع التعليل أي «إنّي أخاف عليكم إن لم تتّقوا وتقوموا بشكر هذه النعم عذاب يوم عظيم»؛ فإنّ كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أنّ شكرها مستلزم لزيادتها، قال الله تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (سورة إبراهيم: ٧) وعلّل بما ذكر دون استلزام التقوىٰ للزيادة لأنّ زوال النعمة يحزن فوق ما تسر زيادتها... (تفسير الآلوسي ج١٩: ص١١١).

فإنّ ما ذكره في المقام واضح بأنّ اللام في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ لام التعليل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

وقال الفخر الرازي نقلاً عن الكعبي أنّه قال: اللام في قوله تعالى: ﴿ليجزىٰ الذين آمنوا﴾ (سورة يونس: ٤) يدل علىٰ أنّه تعالى خلق العباد للثواب والرحمة، وأيضاً فإنّه أدخل لام التعليل على الثواب، وأمّا العقاب فما أُدخل فيه... (تفسير الفخر الرازي ج١٧: ص٣١).

قال الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ (سورة يونس: ٨٨): اللام في قوله «ليضلوا» لام التعليل... (تفسير ➲

وأمّا غير الجمهور ومنهم وهم «المعتزلة»، فقد عرفت فيما نقلناه عنهم من المسائل كونهم غير ملتزمين بوجود التعليل[1]، فأيّ علّة في تقديم المفضول على

⊃ الرازي ج١٧: ص١٤٩).

وإلى غير ذلك من الموارد التي جاءت في كتب تفسير القوم، فإنّ لام التعليل في القرآن موجود بتصريح أهل الفن، ولذلك نجد أنّ كثيراً من علماء أهل السنّة من مسلك الأشاعرة تراجعوا عن هذا القول بأنّ أفعال الله ليست معللة بالأغراض، وذهبوا الى أنّ بعض أفعال الله معللة بالأغراض؛ منهم التفتازاني في شرح المقاصد فإنّه صرّح بأنّ الحق في المقام هو القول بأنّ بعض أفعال الله معللة بالأغراض، واليك نص كلامه:

قال: الحق أنّ تعليل بعض الأفعال سيما شرعية الأحكام بالحِكم والمصالح ظاهر، كإيجاب الحدود والكفّارات وتحريم المسكرات وما أشبه ذلك.

والنصوص أيضاً شاهدة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦) وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾ (سورة المائدة: ٣٢) وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٧)... (شرح المقاصد ج٢: ص١٥٧).

وبالجملة: أنّ المتأخرين من الأشاعرة عندما وجدوا الإشكال على ادعاء المتقدمين منهم من أنّ أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض رجعوا عن قولهم وذهبوا إلى أنّ بعض أفعال الله معلّلة بالأغراض، وأيضاً ذهبوا إلى وجود حرف التعليل في القرآن وبذلك أثبتوا وجود الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى ولو على نحو الموجبة الجزئية، وهذا يعتبر تراجعاً عن المبنىٰ الذي بناه الشيخ الأشعري لأنّ هؤلاء المتأخرين كالتفتازاني وغيره لمّا وجدوا بأنّ القول بعدم وجود الحكمة في أفعاله تعالى مساوٍ لتجويز العبث في حقه تعالى، إذ من الواضح أنّ عدم وجود الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى تجويز العبث في التكوينيات والتشريعيات مضافاً إلى أنّه مخالف لحكم العقل ومخالف للكتاب العزيز والسنّة، كما سيتبيّن للقارئ الكريم من خلال المباحث الآتية ان شاء الله تعالىٰ، فلاحظ.

(١) أمّا المعتزلة حيث كانوا يصرون على أنّ العقل يكون مركزاً لاعتقاداتهم، فمن لوازم ذلك القول بوجود حرف التعليل في القرآن لأنّ التعليل من الأحكام العقلية والالتزام بشيء واقعاً ⊂

الفاضل[١].

وفي عدم جعل إمام في العالم،[٢]

⮌ يستلزم الالتزام بلوازمه، فذهبوا في قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف:٧٠) إلى أنّ ظاهر الآية تدل على أنّ أفعال الله معللة بالأغراض، فمعنى قوله تعالى: «لنبلوهم...» أي لنختبرهم أيّهم أحسن عملاً (أُنظر: التسهيل لعلوم التنزيل للكعبي ج٢:ص١٨٢).

وقال الرازي في تفسير الآية الكريمة: المسألة الثالثة: اللام في قوله «لنبلوهم» تدلّ ظاهراً على أنّ أفعال الله معللة بالأغراض عند المعتزلة، وأصحابنا قالوا هذا محال... (تفسير الفخر الرازي ج٢١:ص٦٨) وقال ابن عادل في تفسير اللباب ج١:ص٣٣٩٧ مثله.

فالمعتزلة ذهبوا إلى وجود حرف التعليل في القرآن بخلاف الأشاعرة إلّا أنّ المعتزلة لم يلتزموا بلوازم هذا الحكم العقلي الثابت عندهم والمثبت لوجوب اللطف على الله تعالى، فإذا ثبت أنّ اللطف الإلهي يقتضي لزوم بعث الرسل بقاعدة اللطف ثبت أيضاً أنّ هذا اللطف يقتضي لزوم نصب الإمام المعصوم بعد خاتم الأنبياء عليهم السلام بنفس المناط الذي وجب عليه إرسال الرسل، كما هو واضح ظاهر.

(١) فإنّ تقديم المفضول على الفاضل قبيح عقلاً لأنّ عقل كل عاقل يدرك بالبداهة لزوم تقديم الفاضل على المفضول وتقدّم العالم على الجاهل فتقديم المسبوق على السابق أو الجاهل على العالم قبيح عند العقل بالضرورة، فكيف بالحكيم على الإطلاق؟! فإنّ تقديم المفضول على الفاضل عنده يعدّ من الظلم العظيم إذ من الواضح انّ تقديم الفاضل على المفضول من الأحكام العقلية المسلمة عند جميع الناس بلا استثناء وأساس القول بالحكمة والعدل هو الحكم العقلي فإنّ الحكمة والعدل يقتضيان تقدّم الفاضل على المفضول، كما لا يخفى ذلك على الخبير.

(٢) وخلاصة الكلام: أنّه مع التزام المعتزلة بوجوب اللطف على الله تعالى فإنّهم لم يلتزموا بلوازم هذا الاعتقاد من نصب المعصوم في كل عصر وزمان من باب اللطف، بل أنّهم ذهبوا إلى إمامة الخلفاء الثلاثة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع اعترافهم بعدم عصمة هؤلاء الثلاثة الذين ادعوا الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم واعرضوا عمّا بنوا عليه في هذا مجال، فإنّ هذا الاعتقاد ⮎

وفي عدم لزوم كون إمام الحق معصوماً[١].

نعم قد يقولون في بعض المطالب بلزوم التعليل[٢].

مناف للعدل ولوجوب اللطف كما تقدم توضيح البحث فيه، فقاعدة اللطف تقتضي وجوب وجود إمام معصوم من قبل الله في كل عصر وزمان من باب اللطف حيث ثبت بالدليل القطعي أنّ لخلقة الإنسان غرض وغاية مناسبة، ومن الواضح أنّ الإنسان بنفسه غير متمكّن من الوصول إلى تلك الدرجة العليا، فلابد له من الهادي والمرشد إلى ذلك، وهذه الهداية إنّما تحصل بوجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان، ولو لم يجعل الله للناس الإمام المعصوم لهذا الغرض لكان نقضاً لغرضه تعالى وهو محال.

(١) فإنّ مقتضي الحكم العقلي لزوم اللطف من الله على عباده بوجود إمام معصوم في كل عصر وزمان وهذا اللطف لازم كماله سبحانه وتعالى وصفاته الجلالية، فوجوب نصب الإمام المعصوم في كل عصر وزمان واجب من باب حكم العقل واقتضاء الصفات الإلٰهية؛ لأنّ مقتضىٰ الحكمة الربّانية جعل الهادي المعصوم في كلّ عصر وزمان للحصول على الغاية التي خلق الإنسان من أجلها، فوجود الإمام المعصوم الذي هو أعرف الناس يصون المجتمع من الخطأ والضلال، وغير المعصوم لا يؤمن من الخطأ والانحراف والضلال فاذا كان القائد من لا يؤمن المجتمع من الوقوع في الانحراف الضلال فهذا المجتمع يحتاج إلى من يصونهم من الضلال والانحراف وهذا حكم عقلي ليس فيه اسشتثناء فالحاكم لو لم يكن معصوماً سوف يكون محتاجاً إلى من يهديه الىٰ الحق وكذلك كل من يهديه إذا كان غير معصوم كذلك يحتاج إلى من يهديه وهكذا الأمر يتسلسل إلى مالا نهاية له لأنّ كل غير معصوم محتاج إلى من يهديه إلى الحق حتى يصل الأمر إلى المعصوم.

فقول المعتزلة في الإمامة منافٍ لما بنوا عليه في باب العدل الإلهي وقاعدة اللطف حيث انّهم استدلوا هناك على وجوب الإمامة من باب العقل وإذا كانت الإمامة واجبة فبقاعدة اللطف المترتب على التحسين والتقبيح العقليين يلزم الالتزام بوجوب نصب الإمام المعصوم من باب اللطف ليصون به المجتمع من الضلال والخطأ هذا مخالف لما يعتقدون في باب الإمامة. فلاحظ.

(٢) فإنّ المعتزلة وان التزموا في باب الصفات الإلهية بالعدل الإلهي وذهبوا إلى أنّ أفعال الله

وخامسها: إنّ ما زعمه من عدم مدخلية مسألة الحكمة في المقام من عجائبه[١].

أما عَلِمَ بأنّ غير الحكيم قد يفعل العبث وقد يفعل المضر، فأمّا الحكيم فلن يصدر عنه سوى ما فيه المصلحة والمنفعة للعباد[٢]، وأعظم منفعة ومصلحة لهم بعد

سبحانه منزّهة عن الظلم والقبيح، ومعنى ذلك: أنّ أفعاله تعالىٰ مقترنة بالحكمة والأغراض الحسنة والغايات الصحيحة لأنّ الغني بالذات لا يفعل فعلاً مخالفاً للحكمة والعقل، بل تكون أفعاله منزّهة عن القبح وفعل ما لا ينبغي، فلابد أن تكون أفعاله معللة بالغايات ولكن مع الأسف لم يلتزموا بلوازم هذا البناء في باب الإمامة فذهبوا الى إمامة «خلفاء الثلاثة وبذلك خرجوا عما بنوا عليه في باب العدل الإلهي وهذا أمر مردود عند العلماء كما هو واضح ظاهر لأنّ مرجع ذلك. إلى تقديم المفضول على الفاضل وهو قبيح عقلا. فلاحظ.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ الأشاعرة باعتبار نفهيهم الحسن والقبح العقلي أنكروا الحكمة في أفعال الله تعالى، وذهبوا إلى أنّه ليس شيء قبيح على الله سبحانه حتى الظلم والفواحش حيث يقولون: لو قلنا أنّ الله لا يفعل القبيح فقد جعلنا لله سبحانه محدوداً والله تعالى غير محدود اذ لو قلنا: أنّ الله لا يفعل القبيح فمعناه القول بأنّ أفعاله مقيّدة بالحسن فقط وهذا هو التحديد.

أقول: إنّ القول بالحكمة في أفعال الله سبحانه أمر والقول بالتحديد أمر آخر، فإنّ التحديد في ذاته تبارك وتعالى غير معقول، وأمّا تقييد صفاته بالكمال والجمال والجلال ليس معناه التحديد، بل معناه درك العقل صفاته حميدة، فإنّ العقل يدرك من صميم ذاته بأنّ الغني بالذات لا يصدر منه فعل القبيح كما أنّ العقل يدرك بأنّ الحكيم تكون أفعاله معللة بالغايات والأغراض الحسنة، وعليه: يصح أن يقال: إنّ أفعاله تعالىٰ لا تصدر منه إلّا على وجه الحكمة، وهذا ما يعترف به ابن تيمية في المقام، ولكن مع ذلك يقول: لا مدخلية للحكمة في أفعال رب العالمين!!!!

(٢) فإنّ الحكيم هو الذي لا يصدر منه الفعل القبيح ولا يخِل بواجب لأنّ القبيح لا يفعله إلّا الجاهل أو المحتاج والبارئ تعالى عالم وغني في ذاته وصفاته فلا يفعل قبيحاً ولا يخِل

مرتبة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم جعل سائس لهم معصوم عن الخطأ والزلل يسوّسهم في أُمور دينهم ودنياهم بالشريعة جميعها[١]، فتحصل بذلك لهم السعادة في النشأتين على

بواجب، والتصديق بثبوت هذه الصفة للبارئ تعالى مبني على القول بالتحسين والتقبيح العقليين، فإنّ العقل حيث يدرك حسن الأفعال وقبحها يدرك بأنّ الغني بالذات منزّه عن الاتّصاف بالقبح وفعل ما لا ينبغي، فالحكيم هو الذي لا يفعل القبيح ولا يصدر منه إلّا ما فيه المصلحة والمنفعة والوجه في ذلك أنّ الحكيم عارف بجميع الأشياء وأسرارها فيعرف حقائق الأشياء وما فيها من المصالح والمفاسد، فأفعاله تكون حكيمة كما أنّ صفاته كاملة، فالحكيم على الإطلاق أفعاله قائمة على أساس الحكمة والمصلحة والهدف الصحيح. وبعبارة أُخرىٰ: الحكيم هو الذي يعطي كل ذي حق حقه فلا يصدر منه العبث واللغو والجزاف. فلاحظ.

(١) فإنّ مقام المعصوم من أعظم المقامات: التي لا يمكن معرفته إلّا باخبار من الله عزوجل فاذا أخبر الله تعالى بعصمة أحد من الأنبياء أو الأولياء والمقربين وشهد بطهارته كما شهد الله تعالى بطهارة أهل بيت النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (سورة الأحزاب:٣٣). فتثبت عصمته.

فالمعصوم هو الحجة من الله على الخلق، وكل ما دلّ من العقل على وجوب طاعة الله ورسوله دلّ بنفسه على وجوب طاعة المعصوم الذي أخبر الله تعالى بعصمته لأنّ الحكمة واحدة مع وجود الاختلاف في المرتبة بين المعصوم الذي يجب طاعته وبين الله عزوجل الذي تجب طاعته ذاتاً، فإنّ طاعة الله واجبة أولاً وبالذات وهي في المرتبة الأُولى وطاعة المعصومين في المرتبة الثانية. أي أنّها واجبة بالعرض، هذا هو الحكم العقلي بوجوب الطاعة.

وأمّا الدليل النقلي على وجوب طاعة الله وطاعة المعصومين، فإنّ الله تبارك وتعالى أمر عباده بطاعة المعصومين في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (سورة النساء: ٥٩) فذكر تعالى طاعة الرسول بعد طاعته ثم قرن طاعة أُولي الأمر بطاعة الرسول، ومعنى ذلك: أنّ الحكم في جميع هذه المراتب واحدة وهي وجوب الطاعة فكما تجب طاعة الله مطلقة بلا قيد تجب طاعة الرسول وطاعة أُولي الأمر كذلك.

فالمعصوم من كانت طاعته واجبة على المؤمنين بلا قيد ولا شرط، وعليه فإنّ طاعة أُولي الأمر

تقدير متابعتهم له[١]، وبقدر ما يعصونه يفوتهم من السعادة يستحقون بذلك العقوبة

أيضاً لابد أن يكون كذلك لأنّ الله تبارك وتعالى أوجب طاعته على الوجه الذي أوجب طاعة رسوله ﷺ لأنّ الله تعالى عطف أُولي الأمر على الرسول وأمر بطاعة اولي الأمر بلا قيد وشرط فجعل حكم المعطوف بحكم المعطوف عليه، فطاعة أُولي الأمر واجبة بنص الآية الشريفة كطاعة النبي ﷺ.

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ أُولى الأمر لابدّ أن يكون مثل النبي ﷺ في الصفات والأوصاف النفسية والشرائط المعتبرة في وجوب الطاعة كالعصمة والعلم وغير ذلك. لأنّ الحكم فيهما واحد

إذن أنّ الآية الكريمة تبيّن لنا أنّ الطاعة إنّما تجب إذا كانت الشرائط موجودة وهي:

١ـ الطاعة الذاتية وهي مختصّة بالذات الإلهية.

٢ـ الطاعة العرضية وهي مختصّة بالمعصومين وهم الذين شهد الله تعالى بعصمتهم وأمر بطاعتهم فلاحظ.

(١) فإنّ سعادة الإنسان وكرامته وحسن عاقبته انّما تحصل بالانقياد والطاعة والتسليم إلى الله تبارك وتعالى قال الله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً﴾ (سورة النساء: ٦٩) هذه الآية الشريفة تقسّم الذين أنعم الله عليهم على أربع مجاميع: الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولعل ذكر هذه المجاميع الأربع إشارة إلى المراحل الأربع لبناء المجتمع الإنساني السالم المؤمن الذين سار في الطريق المستقيم وقد وصف تعالى هذا الإيمان والطاعة قبل هذه الكريمة بقوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً« ٦٥» وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ (سورة النساء: ٦٥ و ٦٦) فوصفهم الله تعالى بالثبات التام قولاً وفعلاً وظاهراً وباطناً على العبودية، فجعل هؤلاء المؤمنين تبعاً لأُولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

وقد ذكر بعض المفسّرين أنّ النعمة إذا أُطلقت في عرف القرآن فهي الولاية الإلهية (أُنظر: تفسير الميزان ج٤: ص٦٢).

والبُعد عن رحمته[1].

⬅ وعليه: فإنّ المعنى في المقام هو الولاية الإلهية التي جعلها الله تعالى لرسوله وأهل بيته المعصومين (عليهم صلوات الله أجمعين).

وخلاصة الكلام الطاعة والتسليم إلى الله تبارك وتعالى وكذلك الطاعة والتسليم إلى من له الولاية من قِبل الله تبارك وتعالى يجعل الانسان في حصن السعادة والكرامة والفوز بالدار السلام قال الله تعالى: لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون (سورة الأنعام: ١٢٧).

(١) لا شك أنّ الانسان هو يختار مصيره في الدنيا والاخرة لأنّ الإنسان حرّ في انتخاب الطريق والأفعال الذي يباشره فهو غير مجبور في أعماله وارادته قال الله تعالىٰ: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنفال: ٥٣).

فقد بيّنت هذه الآية الكريمة أسمىٰ قانون في حياة الانسانية ووضحت بكل وضوح حقيقة واجدانية غير قابلة للإنكار ألاوهي اختيار الانسان في تعيين مصيره وأنّ مدرسة القرآن الكريم هي أكرم مدرسة فكرية لحياة المجتمعات الإنسانية، فهي تقول لجميع البشر: إنّ السعادة والنعم الإلهية دائماً موجودة للإنسان والإنسان هو الذي يتمتّع بها أو يردّها، فالابتعاد عن الرحمة الإلهية الذي يسلب من الإنسان التوفيق والسعادة والخير والبركة إنّما هو بسبب الإنسان نفسه حيث أنّه إذا خرج عن خطّ طاعة الله لا محالة يقع في مصير الخسران والابتعاد عن اللطف الإلهي.

فلا شكّ أنّ إرسال الرسل لطف من الله على الناس، فإذا كان الإنسان معرضاً وجهه عن هذا اللطف الإلهي فهو يتضرّر ويخسر، كذلك الأمر في طاعة الإمام المعصوم فإنّها واجبة وإلى مخالفتها سبيل، ولذلك قد ورد في الروايات الواردة عن طرق أهل السنّة أنّ طاعة مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

منها: ما أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين بسنده عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصىٰ الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصىٰ علياً فقد عصاني. ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرك على الصحيحين ج٣:ص١٢١) ورواه المتقي الهندي في كنز العمال ⬅

وقد عرفت ذهاب من قال بإمامة الثلاثة الى ما خالف الحكمة،(١) فجعل

ج١١:ص٦١٤ح٣٢٩٧٣، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص٢٧٠.

ومن مميزات هذا الحديث: أنّ الذهبي الذي هو إمام النقد والتجريح عند علماء أهل السنّة قد صحح هذا الحديث في الهامش ووصف أباذر الذي ينتهي اليه السند بأنّه: رأس في العلم والزهد والاخلاص والجهاد وصدق اللهجة. هذا من ناحية السند، وأمّا من ناحية فقه الحديث: فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدأ بكلمة: «من أطاعني فقد أطاع الله» أي من أطاع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو داخل في دائرة المطيعين لله تبارك وتعالى،ثم قال: «ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصىٰ علياً فقد عصاني» فدلّ على أنّ من دخل في تلك الدائرة الأُولىٰ فعليه أن يدخل في هذه الدائرة الثانية ايضاً والّا فلا تتم طاعته، ولا يمكن التخلّف بين الدائرتين، أي أنّ طاعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هي طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي طاعة الله تبارك وتعالى، والخبير يعلم أنّ الأمر والنهي معلولان للارادة لا محالة، فيستحيل إطاعة الله تعالى ومعصيته بدون وجود إرادة الأمر والنهي الرباني، أي لابد أن تكون أوامر الرسول والامام ونواهيهما مطابقةً لإرادة رب العالمين حتى تكون طاعتهما طاعة رب العالمين، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الذي لا ينطق عن الهوىٰ» «من أطاع علياً فقد أطاعني ومن أطاعني فقد أطاع الله» وفإنّ معناه: وجوب طاعه علي عليه السلام.

وبمقتضىٰ هذا النص تجب طاعة الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كوجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله لأنّ طاعتهما واجبة بأمر الله عزوجل ووجوب الطاعة المطلقة دليل على عصمتهما فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: أنّ القائلين بخلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل وإن ذهب بعضهم إلى العدل الإلهي والقول بأنّ أفعال الله تعالى تكون مبينة على الحكمة والعدل إلّا أنّهم نقضوا هذا الاعتقاد في باب الإمامة، حيث ذهبوا إلى خلافة الخلفاء الثلاثة الذين لم ينصبهم الله تعالى وهذا مخالف للحكمة والعدل الإلهي، لأنّ من فروع العدل الإلهي قاعدة اللطف وهي تقتضي وجوب نصب الإمام المعصوم كما أنّها تقتضي وجوب إرسال الأنبياء.

فالقول بأنّ الإمامة ليست بتنصيب من الله تعالى مناقض للقول بالحكمة والعدل الإلهي، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (سورة الحج:٧٥).

إمام معصوم هاد الى طاعة الله مبني على كون الله يفعل لحكمة ومصلحة[١].

وفي حديث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله اصطفى من خلقه خلقاً ثم قال: إنّ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس خلقاً يدخلهم الجنة، وإني أصطفي منكم من أحب أن أصطفيه ومؤاخ بينكم كما آخى الله بين الملائكة... (المعجم الكبير للطبراني ج٥:ص ٢٢٠).

فهذه الحقيقة مسلمة من جهة العقل والنقل بل وحتى من جهة أقوال العلماء.

قال المناوي: وأمّا الذي يصطفيه فانّه تعالى يفتح عليه أبواب الحكمة بفيض إلهي ويلقي إليه مقاليد وجوده فيبلغه ذروة السعادة ﴿**وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء...**﴾ (فيض القدير ج١:ص٢٦). وإلى غير ذلك من أقوالهم في هذا المجال. وعليه: فإنّ جميع أهل السنّة لابد لهم من الالتزام بهذا الأمر الثابت عقلاً ونقلاً. فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: أنّ الله تبارك وتعالى حكيم على الإطلاق والحكيم لا يصدر منه فعل مالا ينبغي، بل أنّ أفعاله ناشئة من الحكمة والمصلحة وهذه الصفة للباريً تعالى مبني على القول بالتحسين والتقبيح العقليين.

ومعنى ذلك أنّ العقل يدرك مستقلاً حسن الأشياء وقبحها فيدرك أنّ الغني بالذات منزّه عن الاتّصاف بالقبح وفعل مالا ينبغي وهذا بخلاف ما ذهب اليه الأشاعرة فإنّهم زعموا أنّ العقل لا يميّز بين الحسن والقبح بدون حكم الشرع، فإنّ مرجع كلامهم إلى أنّه يجوز على الله أنّ يعذّب جميع الأنبياء والصالحين في نار جهنم ويدخل الأشقياء والأشرار في الجنان العلىٰ ـ والعياذ بالله ـ فبطلان هذا القول واضح لمن له أدنىٰ تأمّل في المقام، لأنّ الله تبارك وتعالىٰ مستجمع لجميع الصفات الكمالية والكمال الحقيقي هو الخير المطلق والخير المطلق هو الصفة أو الفعل الذي يُرغب فيه في كل حال وعند كل أحد وهذا معنى أنّ العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها، فإنّ العقل يدرك مستقلاً بأنّ الكامل لا يصدر منه القبيح بل كل ما يصدر منه حسن وإذا كان كذلك فلا معنى لزعم الأشاعرة.

ومن هنا يتضح: أنّ الحكيم الذي خلق كل شيء بحكمته لا يأمر بطاعة غير المعصوم طاعة مطلقة بلا قيد لأنّ غير المعصوم لا يؤمن من الخطأ والسهو والمعصية فهو في معرض الفساد والهلاك وبمنزلة الضال الذي يجعل دليلاً للطريق، فإنّ اتّباع الضال في الطريق المخوف أمر قبيح عند العقل لا يفعله العاقل فكيف بالحكيم بل وكيف بالحكيم على الإطلاق؟؟!!!

ولم يذهب اليه القائلون بإمامة الثلاثة[١]، فمن هذه الجهة قدّم الشيعي ذكر

⊃ وعليه: فلاتجوز طاعة غير المعصوم على الاطلاق عقلاً ولذلك أنّ الله تبارك وتعالى أمر في كتابه العزيز بطاعة أُولى الأمر معطوفاً على طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وذلك للإشارة إلى أنّ الطاعة الصحيحة هي طاعة المعصوم، فكما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معصوم ما ينطق عن الهوىٰ وطاعته على نحو الإطلاق تكون واجبة كذلك طاعة أُولى الأمر فإنّها واجبة بصورة مطلقة.

(١) وإنّا نسأل جميع أهل السنّة القائلين بخلافة الخلفاء الثلاثة: هل أنّ طاعة خلفائكم واجبة بأمر من الله أو لا؟

فإذا كانت طاعتهم واجبة عليكم بأمر من الله، فمعناه: أنّ أفعال الله تعالى ليست مبنية على المصالح والحكم حيث أنّ من الواضح أنّ طاعة غير المعصوم مخالف للحكمة لأنّ غير المعصوم في معرض ارتكاب الخطأ والمحرم فلا يؤمن من القبيح أو الأمر بالقبيح لا محالة، اذ من الواضح أنّ غير المعصوم في معرض الخطأ والنسيان والزلل فلا يؤمن به.

ومن هنا يعلم أنّ من أعطاه الله الولاية فهو معصوم لأنّ معنى الولاية العامة والمطلقة هي صلاحية الولي للتسليم أمامه في جميع الجهات حتى بالنسبة إلى الأنفس كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ...﴾ (سورة الأحزاب:٦).

ولا خلاف بين أهل اللغة بأنّ الأولى هو الأخص والأحق بالشيء، قال الطبري في تفسيره انّه يقول تعالى ذكره: «النبي محمد أولىٰ بالمؤمنين»، يقول: أحق بالمؤمنين به من أنفسهم، أن يحكم فيهم بما يشاء من الحكم... (تفسير الطبري ج٢١: ص١٤٦).

وقال النحّاس في ذيل الآية الكريمة: وحقيقة معنى الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمر بشيء أو نهى عنه ثم خالفته النفس، كان أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونهيه أولىٰ بالاتّباع من الناس (معاني القرآن للنّحاس ج٥: ص٣٢٤).

وقال النسفي: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ أي أحقّ بهم في كل شيء من أُمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، فعليهم أن يبذلوها دونه ويجعلوها فدائه... (تفسير النسفي ج٣: ص٢٩٧).

وقال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ أي أحق، فله أن يحكم فيهم بما يشاء. قال ابن عباس: إذا دعاهم إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى شيء، كانت طاعته

⊂

ما يتوقّف عليه ثبوت هذه المسألة[١]، فعلم إمّا جهل السّني وإمّا تجاهله وعدم

➲ أولىٰ من طاعة أنفسهم، وهذا صحيح، فإنّ أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم والرسول عليه السّلام يدعوهم ما فيه نجاتهم (زاد المسير ج٦: ص١٨٢).

وقال العظيم آبادي في عون المعبود: أنا أولىٰ بالمؤمنين: أي أحقّ بهم وأقرب (عون المعبود ج٨: ص١٢١). والى غير ذلك من أقول علماء أهل السنّة، فمعنى الأولوية هو الأحقّية ولذلك قال النبي ﷺ يوم غدير خُم: ألست أولىٰ بكم من أنفسكم... (اُنظر: مسند أحمد بن حنبل ج١:ص١١٩و ج ٤:ص٣٧٢ وج ٥:ص٢٤٧، وسنن ابن ماجة ج١:ص٤٣، والمستدرك للحاكم ج٣:ص١٠، ومجمع الزوائد للهيثمي ج٥:ص١٩٥ وغير ذلك من المصادر) فإنّ من الواضح أنّ المقصود به هو معنى الآية الكريمة كما هو ظاهر واضح.

ثم قال ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه. فذكر ﷺ نفس اللفظ بعد أخذ الإقرار منهم، ومعنى ذلك: أنّه استعمل نفس اللفظ في نفس المعنى الموجود في الجملة الأُولىٰ الذي كان معهوداً عند الجميع لغةً وما جاء مطابقاً للغة في كتابه العزيز، فأثبت الله بها الولاية لرسوله وأثبت الرسول الأعظم ﷺ بها الولاية للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فيثبت ان معنى وجوب الولاية وجوب طاعة من ثبت له الولاية الشرعية ولذلك، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (سورة النساء: ٥٩) فانّ معنى أُولي الأمر أي من له الولاية والأمر شرعاً فتجب طاعته بصورة مطلقة إذ الظاهر من الآية الكريمة وجوب الطاعة المطلقة لله تبارك وتعالى ولرسوله ولأُولي الأمر.

(١) قال العلّامة الحلي رحمه الله في بداية الفصل الأوّل: أنّه ذهبت الإمامية إلى أنّ الله تعالى عدل حكيم لا يفعل قبيحاً ولا يخِل بواجب، وأنّ أفعاله إنّما تقع لغرض صحيح وحكمة، وأنّه لا يفعل الظلم ولا العبث، وأنّه رؤوف بالعباد يفعل بهم ما هو الأصلح لهم والأنفع... (منهاج الكرامة: ص١٧٤).

أقول: وقد اتضح مما تقدّم من كلام المصنف رحمه الله أنّ ما قاله العلّامة الحلّي رحمه الله من مسألة الحكمة له ارتباط وثيق بمسألة الامامة إذ من أهم مباحث الإمامة قاعدة اللطف وقاعدة اللطف من مباحث العدل الإلهي والحكمة في أفعاله تعالى فمبحث العدل الالهي من المباحث الأساسية والمبنائية للإمامة، فإنّ الشيعة الإمامية حيث بنوا في اصول دينهم على العدل الإلهي فالتزموا ➲

إنصافه بزعمه عدم توقّف مقام البحث على مسألة الحكمة(١).

وسادسها: إنّ ما زعمه من لزوم التسلسل على القول بالتعليل من العجائب؛ حيث نقل عنهم ما زعموه برهاناً ولم ينقل بيان فساده عن مخالفيهم(٢).

⬅ بوجوب نصب الإمام المعصوم من قبل الله عزوجل من باب اللطف الذي هو من المباحث المتفرعة علىٰ العدل الإلهي؛ لأنّ العدل الالهي يقتضي أن لا يخل بواجب ويكون أفعاله مبينة علىٰ الحكمة فمبقتضىٰ العدل الإلهي وقاعدة اللطف وجوب نصب الإمام كما اقتضت نفس القاعدة إرسال الرسل، وشرح ذلك موكول الى محله في الكتب المفصّلة.

فاعتراض ابن تيمية على العلّامة الحلّي ﴿رضوان الله تعالى عليه﴾ اعتراض في غير محله إذ أنّ ما ذكره العلّامة ﵀ وإن كان داخلاً في مسائل الصفات والتوحيد والقدر والعدل الإلهي ولكن ذكرها في باب الإمامة لازم من باب المقدّمة. فلاحظ.

(١) فإنّ الحكمة عبارة عن تدبير الله عزوجل بعد علم الله تبارك وتعالىٰ بجميع الأُمور أزلاً وأنّ أفعاله سبحانه إنّما تصدر منه لغرض وهدف حكيم من لدن عليم خبير، فالحكمة بمعنى: تنزيه أفعال رب العالمين من العبثية واللغوية، وهذا المعنى يدركه العقل المستقل الذي يحكم بحسن الأشياء وقبحها من صميم ذاته، فهذه الحكمة الربانية تقتضي بعث الأنبياء من باب اللطف كذلك تقتضي نصب الأوصياء والأئمة المعصومين بعد خاتم الأنبياء والمرسلين كما تقدّم البحث فيه مفصلاً، وهذا أمر ظاهر واضح عند من له أدنىٰ معلومات بالمعارف الإسلامية، فابن تيمية إمّا تجاهل عن ذلك أو جاهل لابد من إرشاده.

(٢) وخلاصة ما ذكروه هو: أنّ أفعال الله سبحانه إذا كانت صادرة عنه لغرض حكيم معناه أنّ كل ما يفعله الله تعالى مفتقر الى العلة لأنّ كل حادث يحتاج إلى العلة وتلك العلة أيضاً حادثة فهي أيضاً محتاجة الى العلة الأُخرىٰ وهكذا إلى ما لا نهاية.

فنقول في الجواب ملخّصاً: انّ بطلان ما ذكروه في غاية الوضوح لأنّ أفعاله تعالى محكمة متقنة مشتملة على الحكم والمصالح ولا يلزم من ذلك التسلسل لأنّ علة صنعه تبارك وتعالى علمه بالأشياء قبل إيجادها، فإنّه تعالى يعلم قبل إيجاد كلّ شيء ما يترتب عليه من المصلحة والحكمة في وجوده فإنّ علة وجود ما يعلمه تعالى بما يترتب على ذلك الشيء.

⬅

أما علم بأنّ هذه التي وسموها بالحجّة مبنيّة على مقدّمة باطلة معلومة الفساد، وهي: حاجة كل حادث الى علة حادثة، ومن هذه الجهة لزم التسلسل[1].

ثم إنّ الفلاسفة يقولون: إنّ العلل اللامتناهية إذا تعاقبت بالعلة القديمة فهي تكون علة العلل مثلاً: إنّ صانع العالم هو الذي صنع حركة الدورات الفلكية فلولا الحركة القديمة التي هي ناشئة عن علم الصانع لكانت كل حركة محتاجة إلى علة إذ كل حركة منها حادثة وكل حادث يحتاج إلى العلة، فالحركة القديمة هي كحجر الأساس للعلل، فكما أنّ المهندس يجعل حجر الأساس لبناء العمارة ويكون وضعه ذلك مستنداً إلى علمه فكذلك الحركة في الفلكيات.

وخلاصة الكلام: أنّ العلم بالمسبّب علة وسبب لإيجاد الأشياء، والمراد به العلم بالحيثية التي صارت مبدأ لوجود المعلول وحدوثه.

فمن الواضح لدى الخبير أنّ ابن تيمية إمّا جاهل بالنسبة الى هذا الأمر أو تجاهل عنه.

(١) وبعبارة أوضح: أنّه ليس كل شيء يحتاج إلى العلة بل كل حادث يحتاج إلى العلة، فإنّ العقل يحكم بأنّ كل حادث يحتاج إلى العلة؛ وأنّه لابد وأن تنتهي سلسلة الاحتياج إلى من لا يحتاج إلى موجد فيحكم بأنّه علة العلل وهو الغني بالذاب الواجب للوجود.

فإذا كانت القضية كما يزعمون أي كل شيء يحتاج إلى العلة فمعناه: أن لا يوجد شيء في العالم إلّا وهو يحتاج إلى العلة، فتتسلسل العلل إلى مالا نهاية له، وأمّا أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام يقولون: بأنّ كل حادث يحتاج إلى العلة، والفرق بين الأمرين واضح ظاهر لأنّ الوجود ينقسم إلى قسمين: واجب الوجود وممكن الوجود. فواجب الوجود: هو الذي لا يفتقر في وجوده إلى غيره ولا يجوز عليه العدم وهو الله سبحانه وتعالى. وممكن الوجود: هو الذي يفتقر في وجوده إلى غيره ويكون مسبوقاً بالعدم ويجوز عليه العدم وهو ما سوىٰ الله. فلو كان الشيء ممكن الوجود لافتقر الى مؤثر ومحدث والحادث مفتقر دائماً إلى العلة وإلى أن ينتهي إلى واجب الوجود.

وهناك مباحث أُخرىٰ في أحكام الوجود العامة، كالبحث في أنّ الأصل هل هو الوجود أو الماهية؟ وهو بحث عميق علمي دقيق نشير إلى خلاصة ماذكره العلماء في المقام.

وملخّص ذلك: أنّ في الذهن مفهومان ١ـ الوجود ٢ـ الماهية، فإنّ الموجود الخارجي موجود

فأمّا اثنى عشرية الشيعة فيقولون بأنّ كل حادث يفتقر وجوده الى علة قديمة وهي علمه سبحانه بما يترتب على كل حادث من الحكم[1]، ومن هذه

عيني واحد فيلزم أن يكون أحد المفهومين هو الأصيل والآخر عارض، فأيّهما الأصيل وأيهما العارض؟

وهذا بحث عميق وقع بين الفلاسفة فذهب المشّائيون إلى أصالة الوجود، وذهب الإشراقيون إلى أصالة الماهية، وقد دعم الملّا صدرا رأي المشائيين بالبرهان وفرّع عليه جملة من أساسيات مدرسته، وقد سار من جاء بعده على نهجه. وهناك مباحث في هذه المسألة طويلة لا يرجع فيها إلى محصّل والمهم أنّ الأمر واضح في المقام حيث أنّ من المسلّم عند الكل انّ الحادق يحتاج إلى محدث سواء كان الأصل الوجود أو الماهية.

ثم إنّه قد وقع البحث بين العلماء في أنّ الوجود هل هو حقيقة واحدة أو مشككة؟ أي هل أنّه في درجة من الوجود بحيث يصدق عليه المفهوم أو أنّه ذات مراتب التشكيك كالبياض والسواد والحرارة؟ وغير ذلك. هذه مسألة أيضاً لها بحث طويل في الفلسفة وليس المقام هنا مربوط بها.

ومن جملة هذه المسائل المطروحة في علم الفلسفة هي مسألة «أصل العلية» وهذا المبحث أيضاً فيه بحث طويل وتفصيله موكول الى محله. وخلاصته: أنّ كل حادث يحتاج في وجوده إلى العلة لأنّ كل حادث مسبوق بالعدم لابد أن يكون حدوثه بحادث ليتحقّق وجوده سواء كان من الأُمور التدريجية أو من الأُمور الدفعية، فهنا يأتي هذا البحث وهو: أنّه لابد من وجود العلة والمؤثر في الامور الحادثة ويسمىٰ بـ«أصل العلية» والخبير يعلم بأنّ هذا كله يختلف اختلافاً جوهرياً مع ما ذكره ابن تيمية من أنّ كل شيء يحتاج إلى العلة. من الواضح أنّه إمّا تجاهل في البحث منه، أو خلط وقع منه في المقام، أو أنّه جاهل لا يعرف الفلسفة الإسلامية.

(١) فإنّ علمه سبحانه وتعالى من صفاته القديمة الأزلية أي أنّ الله تعالىٰ يعلم كل شيء قبل وجوده وهو محيط بجميع جهاته وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٣١) فإنّ علمه سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات وعالم الوجود حتى قبل إيجاده.

وقد ذكروا لإثبات علمه تعالى بالأشياء قبل إيجاده وجوهاً من البراهين، نكتفي بذكر وجهين

➲ منها في المقام:

الوجه الأوّل: إنّ العلم بالسبب بما هو سبب علم بالمسبّب والعلم بالعلة بما هي علة علم بالمعلول، والمراد من العلم بالسبب والعلة، العلم بالحيثية التي صارت مبدءً لوجود المعلول وحدوثه، ولتوضيح هذه القاعدة نمثّل بالأمثلة التالية:

الف: إنّ المنجّم العارف بالقوانين الفلكية، والحسابات الكونية يقف على أنّ الخسوف أو الكسوف أو ما شاكل ذلك يتحقّق في وقت أو وضع خاص وليس علمه بهذه الطوارئ إلّا من جهة علمه بالعلة من حيث هي علة لكذا وكذا.

ب: إنّ الطبيب العارف بحالات النبض وأحوال القلب وأوضاعه يقدر على التنبّؤ بما سيصيب المريض في مستقبل أيامه، وليس هذا العلم إلّا من جهة علمه بالعلة من حيث هي علة.

ج: إنّ الصيدلي العارف بخصوصية السم إذا شربه الإنسان يخبر عن أن سيقضي على حياة الشارب بعد مدة معينة.

إذا عرفت هذه الأمثلة نقول: إنّ العالم بأجمعه معلول لوجوده سبحانه وذاته تعالى إمّا علة لوجود الشيء أو علة لعلة وجود الشيء، وعلى كل تقدير: فإنّه سبحانه عالم بوجود ذلك الشيء أزلاً، وأنّ ذاته المقدّسة محيطة بجميع ما في العالم، فالعلم بالذات علم بالحيثية التي هي سبب لتحقّق العالم وتكوّنه.

وبعبارة أُخرىٰ: العلم بالذات علم بالحيثية التي صدر منها الكون بأجمعه، والعلم بتلك الحيثية يلازم العلم بالمعلول، وهذا البرهان مبني على مقدّمات مسلّمة عند الإلهيين؛ نشير إلى خلاصتها:

الأُولى: إنّ العالم بجميع أجزائه مستند إليه سبحانه وهو مقتضى التوحيد في الخالقية، وإنّه لا خالق إلّا هو.

الثانية: علية شيء لشيء عبارة عن كونه مشتملاً على خصوصية تقتضي صدور المعلول عنه وتوجب إيجاباً قطعياً لوجود المعلول في الخارج بحيث لولا تلك الخصوصية لما تحقّق المعلول؛ ولأجل ذلك توجد الرابطة والعلاقة بين الخصوصية القائمة بالعلة ووجود المعلول رابطة وصلة خاصة تقتضي بحيث لو لا تلك الخصوصية لكانت نسبة المعلول الى العلة والى

➲

الجهة قدّم بعضاً على بعض بالوجود وبالخصوصيات[١]، فقد علم سبحانه بأنّ

غيرها متساوية مع أنّ فعلية المعلول تدور مدار علته وهذا أمر ضروري، فالخصوصية الموجودة في النار الموجبة للحرارة غير الخصوصية الموجودة في الماء المقتضية للرطوبة.

الثالثة: إنّ العلم بالجهة المقتضية للشيء علم بذاك الشيء، فيتحصّل أنّ علمه تعالى بذاته علم بتلك الخصوصية والجهة ويترتب عليه لازمه، أعني: علمه بالأشياء قضاء للملازمة.

الوجه الثاني: إنّ الإحكام والإتقان في صنع الأشياء دليل على علمه تعالى بمصنوعاته قبل إيجاده.

وتوضيح المقام: إنّ ملاحظة كل جهاز بسيط أو معقّد يدلنا على أنّ صانعه عالم بما يسود ذلك الجهاز من القوانين والعلاقات، كما تدل دائرة معارف ضخمة على علم مؤلفيها وجامعيها بما فيها.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ وجود المعلول كما يدل على وجود العلة، فخصوصياته تدل على خصوصيته في علته، فالعالم بما أنّه مخلوق لله سبحانه يدلّ على أنّ فيه خالق بديع الخلق ودقيق التركيب على أنّ خالقه عالم بما خلق عليم بما صنع، فالخصوصيات المكنونة في المخلوق ترشدنا إلى صفات صانعه.

وخلاصة الكلام: أنّ المصنوع بما فيه من إتقان ودقّة ونظام بديع ومقادير معينة مضبوطة يحكي عن أنّ صانعه مطلّع على هذه القوانين والرموز وعارف بما يتطلّبه ذلك المصنوع من المقادير والأنظمة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل في صنع الله تبارك وتعالى، حيث قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**﴾ (سورة الملك: ١٤).

وقال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: علم ما يمضي وما مضى، مبتدع الخلائق بعلمه ومنشؤها بحكمته (نهج البلاغة، الحكمة رقم ١٩١).

(١) وذلك لأنّ علمه تعالى محيط بجميع الكائنات ولا يخفى عليه خافية، قال تعالى: ﴿**عَالِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ (سورة سبأ: ٣) فعلمه اللامتناهي محيط بجميع الأشياء حتى بما تخفيه الصدور، فهو سبحانه عالم بالسرائر ومطلّع على الضمائر ومحيط بنيات الإنسان وعقائده

الحكمة والمصلحة بأمر الملائكة بالسجود لرسوله آدم عليه السلام[(١)] فأمرهم به ولم

الداخلية.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة التغابن: ٤).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّماواتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (سورة آل عمران: ٢٩).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (سورة قٓ: ١٦).

والى غير ذلك من الآيات الدالة على أنّ علمه تعالى محيط بجميع الأشياء وحتى قبل حدوثها لأنّ علمه تبارك وتعالى عين ذاته وذاته عين علمه، فذاته علم والعلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول، فإذا كان عالماً بالمخلوقين فهو عالم بصفاتهم وخصوصياتهم فهو عالم بجميع خصوصيات الأشياء بعينها لا بصورتها المأخوذه منها، نظير علومنا وإدراكاتنا التي تتعلّق بظواهر الأشياء، بل إنّ علمه محيط بكل شيء كما قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٣١).

فإطلاق الكل وإطلاق الشيء لا يبقىٰ شيئاً إلّا وجعله تحت علمه وسلطانه بحقيقته، ومعنى ذلك: أنّه لا يفقده ظاهر الشيء ولا باطنه ولا يحجب عنه شيء من حالات مخلوقاته وصفاتهم ومراتبهم من أيّ جهة، سواء كان من جهة الكمال أو الإيمان أو من جهة العصيان والكفر والإلحاد وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأحقاف: ١٩).

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٣٢).

والآيات في هذا المقام كثيرة، وفيها ما يدلّ على كفر اليهود وفساد ضمير المشركين، وعلى نفاق المنافقين وإيمان المؤمنين، ودرجات إيمان الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم المرضيين وجميع عباد الله الصالحين، والآيات في ذلك كثيرة يطول ذكرها، ونكتفي للاستدلال على جميع ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فلاحظ.

(١) إنّ قصّة سجود الملائكة لآدم عليه السلام قد تكررت في عدة مواضع من القرآن الكريم:

منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة: ٣٤).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١١)

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ«٢٨» فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ«٢٩» فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ«٣٠» إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الحجر: ٢٨ـ٣١).

هذه الآيات وغيرها قد أشارت إلى هذه الحقيقة المهمة التي ذكرها القرآن الكريم في مواضع عديدة.

ولا يخفى على الخبير أنّ سجدة الملائكة لآدم عليه السلام لم تكن عبادة له لأنّ العبادة مخصوصة لله سبحانه وتعالى كما هو المراد من التوحيد في العبادة الذي هو قسم من أقسام التوحيد، وهو الذي دعا اليه جميع الأنبياء والمرسلين وخلفائهم المرضيين الأئمة الطاهرين عليهم السلام فكيف جاز ذلك؟

وقد أجاب العلماء عن ذلك بوجوه:

الوجه الأول: إنّ سجود الملائكة بمعنى: الخضوع والتواضع أمام عظمة آدم وسمّو مرتبته لمّا كان في صلبه أشرف المخلوقات وهو خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ومن يتلو تلوه في المقامات والكمالات النفسانية المعنوية وهم أهل البيت عليهم السلام كما جاء هذا المعنى في بعض الروايات الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام:

منها: ما رواه الصدوق في عيون أخبار الرضا عليه السلام عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: كان سجودهم لله تعالى عبودية، ولآدم إكراماً وطاعة ولكوننا في صلبه (عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢:ص٢٣٨).

الوجه الثاني: إنّ سجود الملائكة كان لله وإنّما كان آدم قبلة لهم، كما يقال: صلّي للقبلة، أي إليها لا لها كما في الصلاة للميت، فإنّها وإن كانت مقابل الميت ولكن في الحقيقة أنّ الصلاة إلى جهة القبلة لا للميت، وقد أمرهم الله تعالى بالتوجّه إلى آدم عليه السلام في سجودهم تكريماً

يأمرهم بالسجود لمن هو أفضل منه وقد علم بأنّ الحكمة والمصلحة ببعثة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم آخر الرسل، فأرسله وجعله خاتمتهم وشريعته ناسخة لما كان قبلها وغير ذلك[١].

وتعظيماً لشأنه.

الوجه الثالث: إنّ السجود لآدم عليه السلام من حيث أنّه أمر الله تعالى به فهو في الحقيقة خضوع لله وسجود له.

وبيان ذلك: إنّ السجود هو غاية الخضوع الذي خصه الله لنفسه ولم يرخّص عباده أن يسجد لغيره، وإن لم يكن السجود بعنوان العبودية غير أنّ السجود لغير الله اذا كان بأمر من الله كان في الحقيقة عبادة له وتقرّباً إليه؛ لأنّه امتثال لأمره وانقياداً لحكمه، وإن كان بحسب الظاهر تذلّلاً للمخلوقات ولكن في الواقع عبادة لله لأنّ معنى العبادة والعبودية هي التسليم المحض أمام أوامر المعبود الحقيقي، ولذلك يصح عقاب المتمرد عن هذا الأمر ولا يسمع اعتذاره بأنّه تذلل للمخلوقات كما أنّ الله تبارك وتعالى أبعد إبليس عن مقامه وجرّده عن منزلته ووعده العذاب لأنّه أبىٰ واستكبر ولم يكن من الساجدين، فإنّ عذاب الشيطان إنّما هو لعصيانه لأمر الله تعالى.

أقول: الظاهر أنّ الصحيح هو الوجه المؤيّد بالروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بأنّ السجود عبادة لله وكرامة لآدم عليه السلام وتعظيماً لما كان في صلبه من أشرف المخلوقات، كما ذكرنا بعض الروايات الواردة في هذا المجال فلاحظ.

(١) فإنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو أعظم الأنبياء والرُسل الإلهيين وأكرمهم وأقربهم إلى الله سبحانه، فهو أشرف واكمل انسان وجد على وجه الأرض، واجتمع فيه خصال الكمال وصفات الجمال ما لا يحصره حدّ ولا يحيط به عدّ، وأثنى عليه تعالى في كتابه المجيد بقوله سبحانه:
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤).

فوصفه تعالى بالخلق العظيم وزاده في مدحه بأعلى وصف في الأخلاق المشعرة باستعلائه على معالي الأخلاق واستيلائه عليها فلم يصل اليه مخلوق.

ولا يخفى على الخبير أنّ كمال الخُلق إنّما هو من كمال العقل، فالذي هو جامع لجميع الكمالات

وسيأتي بيان كون علمه سبحانه عينه بدون زيادة مثل سائر صفاته من القدرة والحياة والسمع والبصر وغيرها، فعلم فساد ما زعموه حجة وخطأهم في ذلك(١).

➡ والفضائل وبعيد عن جميع الرذائل هو الإنسان الكامل من جهة العقل لأنّ للعقل درجات ومراتب، فالعقل هو السُلّم الذي يرتقي به الإنسان الدرجات، وبه يعبد الرحمن وتكتسب الجنان، فهو يطهّر عمل الإنسان، فكلّما كان العمل خالصاً لوجه الله فيكون العقل في درجة أعلىٰ ومرتبة أعلىٰ، فإذا وصل إلى أعلىٰ درجة الخلوص في العبودية بحيث لا يتصور فوقه عبادة الله خالصة لوجه شيء آخر فهو العقل الكامل ويطلق عليه «عقل الكل» أو «العقل الأوّل»، فإنّ هذه المرتبة من المكارم والخصائص التي يعجز الإنسان عن وصفه لأنّه يكون جامعاً لجميع الكمالات.

وأمّا الأنبياء والمرسلين الذين عصمهم الله من الزلل والخطأ فهم وإن كانوا مخلصين ـ بالفتح ـ في أعمالهم وعباداتهم إلّا أنّهم في المقام دون خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم ولذلك أنّ القرآن الكريم عند ما يذكر أسماء بعض المرسلين يذكرهم بخصوصيتهم وصفاتهم الكريمة، ولذلك يقولون: أنّ خصال الكمال وصفات الشرف كانت مفرّقة بين الأنبياء المرسلين، فمثلاً أنّ داود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة، وأيوب كان من أصحاب الصبر والبلاء، ويوسف كان مستجمعاً لهاتين الحالتين، وموسى كان صاحب الشريعة القوية والمعجزات الباهرة، وزكريا ويحيىٰ وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق، ويونس صاحب التضرّع، وغيرهم من الأنبياء العظام كل واحد منهم له خصوصية من خصائص الكمال والشرف والمدح.

وأمّا خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم فهو جامع لجميع تلك الخصال، فهو أعظم من آدم صفوة الله الذي سجدت له الملائكة بأمر من الله تبارك وتعالى ولم يأمر تبارك وتعالى بالسجود على خاتم الأنبياء مع أنّه أفضل من آدم عليه السلام. فلاحظ.

(١) وخلاصة الكلام: أنّ علمه تعالى بالحوادث والأشياء عين ذاته المقدسة والعلم بمعنى العالمية عين ذاته تعالى فلا يكون من الأفعال التسبيبية الحادثة، فعلمه تعالىٰ قديم أزلي كبقية ➡

وسابعها: إنّ ما زعموه من دعوى أنّ استكمال الفاعل لعلة بها فمن خطأهم البيّن المبني على خلطهم بين المقامات؛(١) فإنّ العلة قد تكون من حيث نقصان

➲ صفاته الذاتية، وأنّ الأشياء تكون معلومة له بنفس وجوده لا بصورة مأخوذة من تلك الأشياء أي لا يكون علمه تبارك وتعالى نظير علومنا وإدراكاتنا للأشياء في الخارج، فإنّ علومنا من العوارض والصفات التي تعرض لنا ولكن علمه سبحانه وتعالى عين ذاته وحيث أنّ ذاته المقدسة أزلية فعلمه كذلك، قال الله تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ (سورة المائدة: ٩٤).

فأخذ سبحانه وتعالى وجود المؤمنين في هذه الآية المباركة محقّقاً بعد علمه تعالى بوجودهم، فإنّ وجودهم يكون معلوماً عنده تعالى أزلاً، فعلمه بجميع الأشياء محيط بهم قبل تحقّقهم لأنّ علمه عين ذاته المقدسة فهذه الصفة واحدة وحقيقة قائمة بذاته تعالى، قال الله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لاَيَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سورة الأنعام: ٥٩).

فالقول بأنّ الله يعلم ما في البر والبحر كناية عن إحاطته بكل شيء فهذه حقيقة قرآنية ثابتة ومعناه أنّ علمه تبارك وتعالى الأزلي أبدي وأنّ علمه عين ذاته المقدسة حاضرة في كل مكان. ومن هنا نعرف بأنّ علمه تبارك وتعالى بالنسبة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين كان حاضراً عنده قبل خلقة آدم عليه السلام وكانت هذه الحقيقة ثابتة عنده كثبوت ذاته المقدسة وهو العلم بأنّ خاتم الأنبياء أعظم وأشرف الكائنات أجمعين فعلمه تعالىٰ أزلاً بأنّ سيولد بعد قرون من خلق آدم عليه السلام خاتم الأنبياء والمرسلين وأكمل الخلق أجمعين ومع ذلك أمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام وهو ليس أفضل الأنبياء فضلاً أن يكون أفضل من خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله ومع ذلك كلّه فانّ تعالىٰ أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ولم يأمرهم بالسجود على خاتم الأنبياء والمرسلين، ومن المسلّم أنّ ما فعله سبحانه كان مبنيّاً على الحكمة والمصلحة وإن لم نعرف وجه الحكمة في ذلك. إلّا أنّ الرواسات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام قد بينت هذه الحكمة بانّ السجود عبادة لله تعالى وكرامة لآدم عليه السلام ونعطيماً لما في صلبه من أشرف المخلوقات وهو خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: أنّه بناءً على زعم الأشاعرة أنّ الله تعالى لا يفعل فعلاً لغرض من

الفاعل، فوجودها سبب لتتميم فاعليته،[١] وقد تكون من حيث نقصان قابلية

➲ الأغراض ولا لغاية من الغايات؛ لأنّه لو كان كذلك كان مستكملاً بذلك الغرض، أي أنّه تعالى كان محتاجاً لذلك الغرض والمستكمل لغيره ناقص وهو محال على الله لأنّه تعالى منزّه عن النقصان.

وأجابت الإمامية في الردّ على هذا الزعم ما ملخّصه: إنّ الاستكمال إنّما يلزم إذا كان الغرض والنفع عائداً إلى الله تعالى ولكن الأمر ليس كذلك، فإنّ الشيعة الإمامية يصرّحون بأنّ الغرض إمّا عائد إلى مصلحة العبد أو إلى اقتضاء نظام الوجود بمعنى: أنّ نظام الوجود لا يتم إلّا بذلك الغرض، فيكون الغرض عائداً إلى النظام لا اليه تعالى، وعلى كل من الأمرين لا يلزم الاستكمال.

فالأشاعرة خلطوا بين الغرض الراجع إلى الفاعل، والغرض الراجع إلى فعله تعالى، فالاستكمال موجود في الأوّل دون الثاني، والقائل بكون أفعال الله معللة بالأغراض والغايات إنّما يعني بها الثاني لا الأول.

والعجب من غفلة الأشاعرة من النصوص الصريحة في هذا المجال!! فإنّ القرآن الكريم آياته صريحة في أنّ أفعال الله تعالى مبنية على الحكمة والمصلحة.

فمنها: قوله تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ** ﴾ (سورة المؤمنون: ١١٥).

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ** ﴾ (سورة الدخان: ٣٨).

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّماءِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا باطِلاً ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ نَّار**﴾ (سورة صّ: ٣٧). والى غير ذلك من الآيات الدالة على المقام.

والحاصل: أنّ فاعليته سبحانه لا تتوقف على أمر زائد على ذاته، فليس هناك ما يكمل ذاته تعالى، فهو سبحانه وتعالىٰ قادر متعال، وانّ حكمته تقتضي أن لا يفعل إلّا الفعل الحسن الراجح الذي فيه المصلحة والغرض الصحيح عند العقل وأين هذا من حديث الاستكمال ونحو ذلك فإنّه تعالى لا يحتاج في الإيجاد الى شيء وراء ذاته المقدسة، فهو سبحانه وتعالى فاعل حكيم والفاعل الحكيم لا يختار إلّا ما يناسب الحكمة ولا يصدر منه ما يضاد الحكمة وما يخالفها. فلاحظ.

(١) فإنّ علة الفاعلية هي المبدأ الذي يتحقّق منه الوجود، أي أنّه الذي يهب للشيء الوجود في

المفعول فبوجودها تتم قابليته[١]، فيتعلق فعل الفاعل به، وذلك قد يكون مشروطاً

➲ الخارج. ومن أجل توضيح المقام نمثل هنا مثالاً فنقول: إنّ الكرسي أو السرير الذي يصفه النجّار إنّما يتحقق في الخارج لوجود أمرين:

الأول: وجود المادة وهي الخشب والمواد التي يستعملها النجّار لصنع الكرسي، وهذا يسمى بـ«العلة المادة».

الثاني: تركيب أجزاء المادة بعضها مع بعض بيد النجّار وبه تحصل الهيئة الخاصة في الخارج، وهذا يسمى بـ «العلة الفاعلية»، ومن الواضح أنّ المادة وحدها لا يمكن أن تكون علة تامة لتحقّق الكرسي، بل لابد من إنضمام العلة الفاعلية لها، ثم إنّ النّجار قبل أن يصنع الكرسي يصح اتصافه بالعلة الفاعلية حتى قبل صنع الكرسي في الخارج لأنّه علة لوجوده بالفعل.

وبعد وضوح ما تقدّم أنّ أوصاف الله تبارك وتعالى أزلي لا تؤثر الحوادث على أحديته ولا حدود لعلمه وقدرته وقوته، فهو بالتالي منشأ لجميع البركات والخيرات ومنبع لجميع الخيرات، مثلاً من صفاته سبحانه «الرازقية» إنّ الله تعال رازق أزلاً ولكن خلق الخلق ليرزقهم، فإنّ صفة الرازقية له تعالى لا يلزم وجود الخلق حتى يصدق عليه سبحانه الرازقية فإذا لم يخلق تبارك وتعالى الخلق لا يكون ذلك نقصاً كما إذا خلق الخلق ورزقهم لا يكون ذلك استكمالاً له سبحانه وتعالى.

وخلاصة الكلام: أنّ الله تبارك وتعالى ليس محتاجاً لخلق الخلق حتى يصدق أنّه الرازق وإن كانت صفة الرازقية بالفعل تتبيّن من خلق الخلق ولكن الرازقية صفة من صفاته الثبوتية الفعلية الأزلية، فإن شاء فعله وإن لم يشأ لم يفعله.

فما ذكره ابن تيمية من أنّ العلة الفاعلية سبب للاستكمال والحاجة الى التتميم واضح البطلان عند كل من له أدنى تأمّل في المطلب، كما تبيّن من خلال ما تقدّم. فلاحظ.

(١) فإنّ قابلية القابل شرط لتحقّق الشيء في الخارج كما أن فاعلية الفاعل شرط له، مثلاً: إنّ الأرض السبخة لا تثمر وإن هطل عليها المطر آلاف المرات، لأنّ قابلية الأرض شرط في استثمار ماء المطر والأمر في باب الهداية يكون كذلك إذ لو لم يكن في الإنسان روح قبول الحقائق ولم يكن أن يقبل بذر الهداية في وجوده، أي أنّه مالم يتم تطهير نفس الإنسان من اللجاج والعناد والتعصّب لا يمكن تحقّق الهداية في وجوده، ولذلك قال الله تعالى في أول ➲

بزمان مخصوص ومحل معين، وغير ذلك مما تتحقّق به قابليته[١]، فيتأخر تعلّق فعل الفاعل به من جهة عدم تمام قابليته وليس له دخل باستكمال الفاعل بهذه العلة، فإنّ هذه العلة مكملة لقابلية الفعل وغير مكملة لفاعلية الفاعل[٢] فإنّه من

سورة البقرة: ﴿هدىً للمتقين﴾، فإذا لم تكن النفس متقية من اللجاج والعناد لا تتحقق الهداية فيها، فالهداية تحتاج الى القابلية ولكن عدم قابلية الإنسان للهداية ليس من جهة وجود نقص في هداية الهادي، وإنّما هو حالة مستندة إلى القابل من جهة قصور المقتضي فيه.

(١) لا شكّ أنّ القابلية والاستعداد شرط في وجود الشيء وتحقّقه في الخارج، ولا يخفى أنّ الاستعداد إذا كان مشروطاً بزمان خاص أو مكان معين لا يدلّ ذلك على نقص الفاعل واحتياجه لأنّ القابلية والاستعداد حالة للقابل وليست من الجواهر حتى يقال يحتاج اليها الفاعل فتكون شرطاً لاستكمال العلة وهي ما تسمىٰ بـ«بعلة الفاعلية»، بل ينبغي أن يتحصّل هذا الاستعداد والقابلية والإمكان في القابل ليتحقّق الشيء له في الخارج.

مثلاً: إنّ النار علة لوجود الاحراق في الخارج ولكن الإحراق إنّما يتحقّق بمماسة النار إذا كان مُقتضياً للإحراق، فإذا كان الجسم غير رطب وتحقّقت المماسة فيتحقّق الإحراق، وإذا كان الجسم مرطوباً وإن تتحقّقت المماسة لايتحقّق الإحراق لأنّ الأثر إنّما يحصل إذا كان المقتضي موجوداً والمانع مفقوداً فعندئذٍ يتحقّق الأمر، وفي المقام أنّ الأمر كذلك.

(٢) فإنّ الفيض واللطف قد يتأخر إلى زمان وجود الاستعداد والقابلية للقابل وذلك لتحقّق شرائط القبول عند القابل لأنّ نسبة القابل الى المقبول نسبة الامكان والاستعداد التام إلى الفعل والعمل، ومن الواضح أنّ تحقّق الاستعداد لإيجاد الفعل تمهيد من القابل لقبول الفيض واللطف وليس علة لفعل الفاعل ومتمماً له، ومن أجل وضوح المقام نمثّل مثالاً واضحاً فنقول:

قد ورد في حديث مشهور عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ كل مولود يولد على الفطرة (أُنظر: أُصول الكافي ج٢:ص١٢ح٢، وصحيح البخاري ج٢:ص٩٧ كتاب الجنائز).

والظاهر منه: أنّ الله تعالى قد جعل فطرة الإنسان نقية مقتضية لقبول التوحيد والمعارف الحقّة وحُب الخير والحق والتصديق بحسن العدل وتقبيح الظلم والنفور عن الباطل والشر بحيث لو

الضروري كون قدرة الله عامة شاملة لعامة الممكنات ونسبتها اليها جميعاً متساوية[١]، فتعلّقها ببعضها في زمان معين وفي بعضها في زمان غيره وفي بعضها

➲ كانت فطرة الإنسان سليمة غير محجوبة بعوامل العناد واللجاج من قبيل سوء التربية وأمثال ذلك لكان الإنسان بنفسه يهتدي الى الله عزوجل ويقر بوجود الصانع كما كان يقبل بعقله وفطرته العقائد الحقة عند العرض عليه.

فمن البديهي أنّ الفطرة النقية الموجودة في وجود كل إنسان تشعر وتشخص حسن الأعمال وقبحها وكل ما يحتاج إليه البشر ليطوي به مسيرة تكامله وان اختلفت الأذواق والأمزجة، فإنّ أصل الفطرة وطبيعة الإنسان لا تقبل البطلان بل إنّ الأعمال الطالحة منافية مع طبيعة الإنسان وفطرته السليمة وكذلك أنّ الأعمال الصالحة مطابقة لمسيرة الفطرة وطبيعة الانسان ولكن آفة هذه الحقيقة هي عوامل العناد واللجاج من قبيل سوء التربية وعوارض أُخرىٰ، فهي تمنع من أن يقبل الإنسان حقيقة الأمر، كما قد قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَيَقُولَنَ الله...﴾ (سورة الأحزاب: ٨٧) ولكن إذا لم يكن مانع فإنّ فطرتهم تشهد بذلك. والأمر في المقام كذلك.

(١) وتوضيح المقام: أنّ المقصود من عموم قدرته تعالى هو سعتها لكل شيء ممكن بمعنى: أنّه تعالى قادر على خلق كل ما يكون ممكناً في عالم الوجود؛ ولكن حكمته البالغة سبحانه وتعالى قد اقتضت على خلق الأشياء وتحقّقها بأسبابها وعللها حسب المجاري العادية، وحيث أنّ جميع الأسباب والعلل تحت استيلائه وقدرته العظيمة التي هي فوق جميع القوىٰ والطاقات فيكون قادراً لكل شيء، كما قال في كتاب العزيز: ﴿إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة النحل: ٧٧).

فإنّ قدرته اللامتناهية وإن كانت شاملة لكل شيء بإطلاق دائرة الشيء وعمومه إلّا أنّها مقارنة مع حكمته ومندرجة فيها، فإنّ عدم القيام ببعض الأفعال الممتنعة إنّما هو من أجل مخالفتها للحكمة لا لعدم قدرته عليه وإلّا فإنّ قدرته وسيعة كما في الآية الكريمة فهي تسع بكل شيء مطلقاً، ولكن من جهة عدم وجود القابلية في بعض الأشياء فلا يخلقها، فعدم خلقه للشيء الممتنع ليس من أجل نقص في قدرته تعالى بل من أجل عدم قابلية الممتنع للوجود بحكمة كما هو واضح ظاهر، إذن لا نقص من جانب الفاعل، ولذلك قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام في ➲

على خصوصيات خاصة معلومة وفي بعضها على غيرها، ومحل معيّن إنّما هو من حيث معلومية كون الحكمة قضت بوجود الممكن المعيّن في الزمان والمكان والخصوصيات الخارجية التي وجد فيها وعليها[1].

➲ الردّ على من سأله بأنّه: هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن يصغّر الدنيا أو يكبّر البيضة؟ فقال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى لا ينسب إلىٰ العجز والذي سألتني لا يكون (التوحيد للصدوق: ص١٣٠ح ٩).

يعني أنّه تعالى لا يعجز عن شيء من الممكنات، وعندما سأل السائل عن الأمر المحال فقال عليه السلام: إنّ قدرته لا تتعلق بالمحال من جهة عدم وجود الحكمة فيه، فإنّ الحكمة تقتضي أن تتعلق القدرة بالأمور والاسباب الجارية العادية وهذا ليس نقص في الفاعل فإنّ النقص في القابل الذي لا يمكن تحقّقه لا من جانب الفاعل.

وعليه: فإنّ سعة قدرته تعالى عامة لجميع الممكنات وإنّ نسبة هذه القدرة إلى جميع الأُمور متساوية لأنّ الله تبارك وتعالى منزّه عن الزمان والمكان والجهة، فكل شيء تحت استيلائه وقدرته من الأزل.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ جميع الأسباب والعلل الطبيعية إنّما تكون تحت قدرته واستيلائه على نعت سواء من غير اختلاف بالسهولة والصعوبة والقُرب والبُعد وغير ذلك، فلا مؤثر في إيجاد الأسباب والعلل إلّا الله تعالى فكل شيء في قبضة قدرته تعالى من جميع الأحوال والأوقات ليلاً ونهاراً، فهي تتحقّق بإشارة واحدة وأمر واحد ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يسٓ:٨٢) والمقصود من هذه الجملة ليس هو صدوره من الله تعالى اللفظ المذكور وهو لفظ «كن» وإنّما المقصود تحقّق إرادة الله سبحانه، فحينما تقتضي إيجاد الشيء فتتعلّق به إرادته من دون أية مقدّمة لتحقّق ذلك الشيء.

(١) وخلاصة الكلام: أنّ سعة قدرته تعالى كسعة علمه فكما أنّه تعالىٰ يعلم كل شيء ويعرف دقائق الأُمور وتحقّقها في أيّ زمان وعلى أي مكان، فإنّ فإنّ قدرته مطابقة لعلمه وتوضيح المقام إنّ علمه بوقوع الشيء في زمان خاص أو مكان خاص علة لفعله حسبما يراه من المصلحة فيتعلق به قدرته ويتحقّق ذلك في الزمان المعلوم عنده أو المكان الذي يرىٰ فيه ➲

وهذه مرجعها بأجمعها الى استكمال المفعول دون الفاعل؛[١] فإنّ الحكمة

المصلحة، فيكون كل شيء داخلاً تحت علمه وقدرته حسبما يراه من المصلحة.

فكل شيء تحت قدرته وسلطانه وانّما تتعلق به القدرة إذا كان فيه المصلحة والّا فإنّ كل شيء في حدّ ذاته ممكناً تتساوىٰ اليه نسبة الوجود والعدم، وكون الشيء واجب التحقّق من محله الزماني والمكاني الذي تعلق به القدرة والعلم لا يخرجه عن حدّ الإمكان، كما أن كون الشيء الممتنع عند عدم تحقّق علته لا يخرجه عن ذلك الحدّ، وعلى ذلك فإنّ كل ما يكون معلوماً في علمه سبحانه لا تجعل الشيء واجباً بالذات أو ممتنعاً كذلك، بل الشيء حتى بعد تحقّق ضرورة وجوده أو امتناع وجوده من جانب وجود علته أو موصوف بالإمكان غير خارج عن حدّ الاستواء، مثلاً إذا تعلق علمه سبحانه وتعالى بولادة إنسان في زمن معيّن يكون وجوده في ذلك الزمن قطعياً ولا يقع نقيضه، ولكن الأمر بالنسبة إلى عدم التحقّق ليس من ناحية عدم قدرته سبحانه بل إنّ قدرته وسيعة تشمل جميع الأشياء بإطلاقها ولكن عدم القيام بالشيء ليس دليلاً على عدم قدرته بل إنّ قدرته تكون دائرة مدار حكمته وحكمته تكون دائرة مدار علمه.

فإذا تعلّقت قدرته تعالى بشيء في زمانٍ خاص أو مكانٍ معين فيكون معلوم التحقّق في علمه، فيجب تحقّقه ولكن هذا الوجوب كما قلت لا يخرج الشيء عن كونه ممكناً، فإنّ الحكمة البالغة الربانية إذا تعلّقت بالشيء فيتحقّق في الزمان الخاص والمكان المعين والخصوصيات التي يختص بوجوده في ذلك الزمان الخاص أو في ذلك المكان المعين، فتعلّق القدرة في زمان خاص أو مكان خاص مع علمه بذلك، لا يخرجه عن حدّ الإمكان فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: أنّ فقر الإنسان وحاجته إلى الغني بالذات وكونه في معرض الاستكمال ورفع نواقصه وسد ما يحتاج اليه أمر بديهي محسوس لا يمكن الإرتياب فيه فإنّ فطرة الإنسان ووجدانه واعماق روحه شاهد على هذا الفقر وطلب الاستكمال.

حيث أنّ فطرة الإنسان وعقله تدفعه إلى الخير والبحث عن علل الأشياء والسير نحو الاستكمال فهو دائماً يطلب النفع والسعادة لنفسه، وحيث أنّ الله تبارك وتعالى قد أتم نعمه وفضله ورحمته ولطفه على الإنسان وأعطاه المواهب والقوىٰ والقابليات لإيفاء الأغراض الصحيحة إمّا للفرد أو للعموم ومصلحة النوع، فلم يترك شيئاً من هذه الجهة في التكوينيات وكذلك في

المطلوبة من خلق إبراهيم ومن بعثته بالرسالة هي عدّة مطالب، منها: كونه مخلوقاً ومبعوثاً في الزمان الذي بعد زمان نوح وفي خصوص زمان نمرود وغير ذلك[١].

➲ السوق نحو الكمال المعنوي والسعادة الأبدية. فمثلاً: أرسل الرسل ونصب أوصيائهم ليسير الإنسان في سيره التكاملي نحو سُبل الارتقاء والاهتداء.

ثمّ إنّه تعالى منحه العقل والفطرة والوجدان ليعرف الحق ويتمسّك به فإذا لم يسلك الإنسان طريق الحق ولم يهتدي بهدىٰ الله فذلك نقص من الإنسان نفسه لا من الله عزوجل وهكذا في جميع الأُمور، لأنّ أفعاله تعالىٰ بناءً على قول الشيعة الإمامية معللة بالأغراض والغايات والمصالح، وإذا كانت كذلك فلا وجه للاستكمال في فعله تعالى إذ بعد وضوح أنّ الغرض الراجح موجود في جميع أفعاله وجداناً وأنّ أفعاله تعالى تكون منزّهة عن النقصان حيث أنّ الغاية والغرض إما أن يكون فيها من جهة الفرد أو من جهة النوع في نظام الوجود، وعلى كلا التقدير: لا يلزم الاستكمال؛ لأنّ الاستكمال إنّما يتحقّق إذا كان هناك نقصاً في الأفعال.

وعليه: إذا كانت أفعاله تعالى معللة بالغايات الصحيحة والتامة فلا معنى للنقص والاستكمال في أفعاله تعالى والنقص يكون في فعل العبد لأنّ في أفعاله قصور من ناحية قابلية القابل ومن ناحية فاعلية الفاعل. مثلاً: أنّ نور الشمس من النِعَم الالهية التي أفاضها تعالى ليتمتّع بها جميع الموجودات، فإذا استتر أحد عن نوره وأشعته وبقي في الظلمات فهو الذي لم يقبل انتشار النور عليه وعدل عنه وهذا لا يرجع إلى نقصان في الشمس بل انما يرجع إلى القابل الذي امتنع عن قبول فيض شعاع الشمس وهكذا الأمر في جميع الامور التكونية والتشريعية فانّ الحكمة البالغة الالهية اقتضت على اتمام النعمة والحجة على جميع الناس وتمهيد المقدمات لقبول الحق والفيض الإلهي كما مهدها لجميع خلقه وحينئذٍ فلا وجه للاستكمال بالنسبة إلى الله سبحانه وانّما الاستكمال للمخلوق. فلاحظ.

(١) لقد كان إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وثاني أُولي العزم وخليل الرحمن وكانت الأنبياء يتبعون دينه وينسبون دينه إلىٰ أنفسهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة ال عمران:٦٨).

فإبراهيم عليه السلام كان نبياً عظيماً لدى جميع الأديان والمذاهب بحيث أنّ كل الأديان كانت تدّعي أنّ ابراهيم منهم ليفتخروا به على خصمهم ولذلك ورد في بعض الروايات انّ علماء اليهود ➲

ومن الضروري كون قدرة الله بالنسبة الى خلق إبراهيم عليه السلام وبعثه متساوية النسبة في كل زمان،[١] وهذه الحال والمقال في عامة ما صدر في العالم مما خلقه

➲ ونصارىٰ نجران جاءوا إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأخذوا يجادلونه في إبراهيم عليه السلام، فقالت اليهود: إنّه كان يهودياً، وقالت النصارىٰ: إنّه كان نصرانياً، فنزلت هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْـمُشْرِكِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٦٧).

فإبراهيم عليه السلام رحمة من الله للبشرية جمعاء بعثه الله في هذا الاتساع ليكون أباً للمسلمين وليواجه الانحراف ويبطل الضلال، فإنّ الله أتاه رشده في صغره وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٥١) فكان إبراهيم عليه السلام على رأس الصالحين، وإماماً لهم أعطاه الله المواهب لأنّه كان أهلاً لذلك.

وفي الحقيقة: إنّ المواهب الإلهية لا توهب عبثاً وبلا حكمة بل المؤهّلات والقابليات صارت سبباً لإعطائه هذه المقامات العظيمة، فقوله تعالى: ﴿انّا كنا به عالمين﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة الثابتة فإنّه تعالى كان عالماً أزلاً بجميع خصوصياته وحالاته ومبلغ استعداده ولياقته ويقينه وإيمانه، فكان عليه السلام أهلاً ومحّلاً لتلك المقامات العالية، فآتاه الله تعالى تلك المقامات العالية والفيوضات والإشراقات الربانية والأسرار القدسية، حيث أنه كان واجداً لتلك الشرائط ومع ذلك أنّ الله تعالى قد امتحنه واستخبربه فنج في جميع ذلك فشمله رحمة رب العالمين والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ومن هنا يتّضح أنّ الرسالة لا علاقة لها بالسنّ ولا بالمال ولا بمراكز القبائل لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحي وطهارة الضمير والسجايا الإنسانية الأصلية والفكر السامي والرأي السديد، ثم التقوىٰ إلى درجة العصمة... .

ثم إنّ هذه الصفات خصوصاً الاستعداد لمقام العصمة لا يعلم بها إلّا الله، فالله سبحانه وتعالى عرف النفوس ويعرف القابليات ويعرف ما تخفي النفوس ويعلم ما تخفي الصدور فيعطي من له القابلية العصمة والرسالة والإمامة ويأمر الناس بالاتباع منه قال الله تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالته (سورة الأنعام: ١٢٤).

(١) لأنّ المقتضي لوجوده عليه السلام في أي زمان شاء تعالى موجود والمانع مفقود، أمّا الأول فلأنّ ➲

وقرّره من نبي بعد نبي وشريعة بعد شريعة فقدرته غير مشروطة بشيء حتى تكمل بوجوده وتنقص بعدمه(١) بل متعلق القدرة يصير مشروطاً بشيء حسبما نبّهنا عليه(٢)،

⬅ المقتضي للقدرة هو الذات ونسبة الذات إلى جميع الممكنات متساوية لأنّ ذاته سبحانه منزّهة عن الزمان والمكان والجهة، فليس شيء أقرب اليه من شيء آخر حتى تتعلّق به القدرة دون الآخر.

وأمّا الثاني: فانّ المصحّح للمقدورية هو الإمكان لأنّه ليس من الحكمة صرف القدرة في غير الممكن وأنّه تعالى لا يفعل على خلاف الحكمة فيكفي للشيء أن يكون ممكناً كي يتعلق به القدرة مع وجود المصلحة واقتضاء الحكمة، والإمكان مشترك بين جميع الأزمان والأمكنة فتكون صفة المقدورية أيضاً مشتركةً بين جميع الممكنات بأسرها.

(١) فالحق أنّ معنى قدرته تعالى عبارة عن: كونه بحيث إذا شاء فعل وإذا لم يشأ لم يفعل، فلازم هذا المعنى الإيجابي انتفاء مطلق العجز عنه، سبحانه لأنّه بناءً على هذا المعنى أنّ سبحانه وتعالى قادر غير مجبور على أحد الطرفين فلا يمتنع منه شيء مع كونه ممكناً له، فإنّ الممكن لا يزال منوطاً بتعلق مشيئة الله تعالى، فإن تعلقت مشيئته به وجد وإلّا لم يوجده وإذا ثبتت قدرته على بعضها ثبتت على كلّها فقدرته تكون متعلقة بكل ما يكون ممكناً من حيث ذاته وإن امتنع وقوعه فهو تعالى قادر على جميع الأشياء لإمكانها الذاتي وامتناعها الغيري، فعدم وقوع الممتنع منه لا من أجل عدم قدرته بل لعدم وجود الحكمة فيه ولا معنى للقول بأن يخرجه عن المقدورية إذ كل شيء مقدور له لأنّ كل شيء تحت سلطانه، وإنّ الامتناع امتناع غيري فالنسبة إليه لا يكون شيئاً ممتنعاً ولكن الحكيم على الإطلاق لا يفعل فعلاً مخالفاً للحكمة. فلاحظ.

(٢) ويمكن توضيح المقام بهذا البيان وهو: أنّ الله تبارك وتعالى قادر على كل مقدور، وعالم بكل معلوم، والدليل على ذلك أنّ نسبة جميع المقدّرات والمعلومات إلى ذاته المقدسة متساوية وذاته المقدسة منزّهة عن الزمان والمكان والجهة، فاختصاص قدرته وعلمه ببعض دون بعض ترجيح بلا مرجّح فلا يمتنع منه شيء وإنّ الله على كل شيء قدير.

⬅

فأصل حجّتهم هذه ساقطة ليس لها دخل بمقام البحث[(١)].

و **ثامنها**: إنّ ما زعمه من كون نفاة التعليل موردين على الشيعة حجة قاطعة لهم على أُصولهم[(٢)].... .إلخ قد عرفت فساده، بأنّ علة ما يفعله سبحانه وما يأمر

⬅ وببيان آخر: إنّ قدرته تعالى عامة ولا اختصاص لها بشيء فإنّ الاختصاص أثر المحدودية، فهو تعالى محيط بكل شيء ولا موجب بعد إحاطته وكماله للاختصاص، فهو تعالى قـادر على كل شيء يمكن وجوده.

وأمّا المحالات فالنقص فيها من ناحيتها لا من ناحيته سبحانه وتعالى، فإنّ من المـحالات أن يخلق سبحانه مثله لأنّ معناه أن يكون الممكن واجباً وهو خلف.

وملخّص الكلام: أنّ قدرة كل موجود نشأت من قدرته تعالى فلا يعقل أن تكون لأحد قدرة في قبال قدرة الله وعلى خلاف مشيته والآيات الكريمة والروايات المباركة الكثيرة تدلّ عـلى المقام ولا مجال لاستقضائها في هذا المختصر ولكن مع ذلك نذكر بعضها من باب المثال، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ «١٩» وَمَا ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (سورة إبراهيم: ١٩ و ٢٠).

والى غير ذلك من الآيات وكذلك الروايات الواردة في المقام كثيرة، يكفي للباحث الرجوع إلى ما ورد في تفسير هذين الإيتين.

(١) فإنّ البحث عن القدرة الإلهية مفصل ومذكور في محلّه ضمن مباحث التـوحيد والصـفات الإلهية، فالقدرة من الصفات الثبوتية للذات الأحدية ولا ربط لها بالإمامة، فراجع.

(٢) وتوضيح المقام: أنّ الموجود الذي لم يوجد بذاته لابدّ له من خالق ومـوجد فـهو مـمكن الوجود وكل ممكن الوجود لابد من وجود علته، فقد زعم ابن تيمية ومن سلك مسلكه أنّ الشيء إذا صار موجوداً فهو موجود لعلته، وعليه يمتنع القول بانّ الاشياء تحتاج إلى العلة بعد وجودها.

ولكن الخبير يعلم بأنّ هذا الزعم باطل لأنّ العلة تنقسم إلى العلة المحدثة والعلة المبقية، فـابن تيمية ومن سلك مسلكه يقولون بأنّ الشيء إذا حدث في العالم لا يحتاج إلى علة في بقائه، فانّ العلة الحادثة كافية في بقائه فبناءً علىٰ هذا الزعم أنّ الأشياء غير محتاجة إلى الله تعالى ⬅

به، وما يتركه، وما ينهى عنه نفس علمه بالمصلحة التي تترتب على وجود الشيء ونفس المفسدة التي تحصل بسبب وجوده وعلمه حسبما يأتي بيانه عينه بغير زيادة،[١] فهو سبحانه يفعل لعلة قديمة، وهي نفس علمه بما سمعت فأيّ محذور

بقاءً.

ولكن الشيعة الإمامية يقولون بأنّ كل موجود في العالم يحتاج ومفتقر دائماً إلى القادر المتعال وحاجته إلى الله مستمرة، ولذلك قال الحكيم السبزواري في منظومته الشعرية:

أزمـة الأُمـور طُـرّاً بـيده والكلّ مستمدّ من مـدده

فكل شيء مستمدّ بمدده بقاءً ومحتاج إليه حدوثاً، وإذا امتنع الخالق لحظة من الزمان عن إفاضة الوجود للعالم فلا يبقى شيء في الوجود. فلاحظ.

(١) وخلاصة الكلام: أنّ الأفعال الالهية منشأها الإرادة الربّانية وحكمته البـالغة، فـإذا تـعلّقت إرادته بشيء فمعناه: أنّ ذلك الشيء كان معلوماً عنده تعالى أزلاً ومـقدّراً بـتقديره الأزلي، وأيضاً يكون إيجاد ذلك الشيء فيه الحكمة والمصلحة لأنّ أفعاله تـعالى مـعللة بـالغايات والأغراض، فالإرادة الالهية إنّما تتعلق بما فيه المصلحة، وأمّا تزاحم الماديات فيما بينها قد يؤدي إلى عروض النقص والضرر على بعضها بفعل البعض الآخر وهذا لا ينافي المصلحة الواقعية لأنّ المصلحة الواقعية تـقتضي إيـجاد الشـيء عـلى نـحو المـجموع، أي الحكـمة والمصلحة الإلهية تقتضي وجود المـجموع بشكـلٍ يـترتّب عـليه الخـير والكـمال الأكـثر والأغلب.

ومن ملاحظة هذه العلاقات والروابط وبهذا البيان نتوصّل إلى مفهوم المصلحة وعنوانها الذي يدل على إحاطة علم الفاعل بجميع الأشياء خيرها وشرها، فإرادته تبارك وتعالى تتعلّق دائماً بما هو الأصلح والنظام الأتم وما فيه كل الخير حسب الحكمة ومقتضىٰ العـناية عـلى أحسـن الوجه وأتم النظام، فالله تبارك وتعالى هو منبع الفيض الأزلي والبركات وهو خير محض.

فالمصلحة والحكمة الإلهية تقتضيان إيجاد الخير والكمال الأكثر والأغلب، فكل مخلوق إنّـما خلق من جهة توفّره على الكمال والخير والمصلحة، فالعلة هي المصلحة أو دفع المـفسدة وهذه العلة شاملة للعلة الحادثة والعلة الباقية كما تقدّمت الإشارة اليها؛ لأنّ كل موجود في

يلزم من ذلك[١] وهذه حجة قاطعة لمن خالفهم، فإنّ المخالف لهذه الحجة يلزمه

➲ العالم كما يحتاج إلى علة الحدوث يحتاج إلى علة البقاء أيضاً، فجميع الموجودات مفتقر دائماً إلى الله تبارك وتعالى الخالق المتعال الذي بيده كل شيء، وإذا امتنع الخالق لحظة واحدة عن إفاضة الوجود حدوثاً أو بقاءً فلا يبقى شيء في عالم الوجود، وهذا معنى قول الشاعر حيث قال:

أزمة الأُمور طُرّاً بيده   والكلّ مستمدّ من مدده

(١) فإنّ العلة في أفعال الله سبحانه هي العلة القديمة الأزلية وهي علمه سبحانه وتعالى بجميع الكائنات وعالم الوجود بكل جزء جزء منه وبمجموعة مجموعة منه وبمختلف أنظمته الكلّية والجزئية، فإنّ علمه تعالى أزلي قديم محيط بكل شيء فلا تخفى عليه خافية ولا تدق عنه غامضة.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (سورة الكهف:١٠٩) فإنّ لفظ «مداد» بمعنى الحبر أو أي مادة ملوّنة تساعد في الكتابة، وهي في الأصل مأخوذة من «مدّ» بمعنى سحب، وحيث تتوضح خطوط الكتابة بسحب القلم أُطلق على الحبر بالمداد.

فالآية الكريمة تقول: لو كان البحر مداداً ولم يذكر تعالى خصوصية للبحر كي تقيده، ومن ذلك نفهم بأنّ المراد ليس بحراً خاصاً بل المراد جنس البحر، وهذا إشارة إلى أنّه مهما أضفنا من أمثال البحار الموجودة في العالم فإنّ الكلمات الإلهية لا تنتهي ولا تنفد.

وأمّا ما جاء في سورة لقمان الآية ٢٧ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللهِ﴾ فإنّ معناه: أنّ هذه الأقلام وإن استكثرت والمحابر ستجفّ حتى آخر قطرتها، ومع ذلك فإنّ أسرار المخلوقات وحقائق عالم الوجود لا تنتهي، فإنّه تعالى قد تجسّد العدد اللامتناهي بهذا المثل، وذلك للتقريب إلى الذهن وإلّا فإنّ علمه تبارك وتعالى غير محدود، فعلمه أزلي أبدي لا حدود لعلمه ولا حدود لقدرته فهو أزلي العلم والحكم والقدرة والحكمة وإذا أردنا أن نفهم جانباً من علمه الأزلي فلابد من ملاحظة شمولية علمه بالنسبة إلى جميع الكائنات وعالم الوجود، وإذا فكّرنا قليلاً بأنّ كل لحظة تدخل الأرض ملايين الملايين من الوجودات والمختلفة وملايين الملايين من ➲

➲ الموجودات تخرج منها، فهذه حقيقة واحدة تعرف منه مدىٰ اتّساع علمه سبحانه، فعلمه اللامتناهية علة لافعاله سبحانه وتعالى.

وبعبارة أُخرى: أنّ كل موجود ممكن جوهراً كان أو عرضاً، خارجاً كان أو ذهناً لا محيص له عن الاستناد بالعلة، فكل ممكن يحتاج في تحقّقه إلى علة، وليس للمعلولية معنى سوىٰ تعلّق وجود المعلول بعلته وقيامه بها قياماً واقعياً كقيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي، فكما أنّ المعنى الحرفي بكل شؤونه قائم بالمعنى الإسمي فهكذا المعلول قائم بعلته، وكما أنّ انقطاع المعنى الحرفي عن الإسمي يقضي على وجوده، فهكذا انقطاع المعلول عن العلة ينتهي إلى انعدامه.

فكل معلول ينتهي في مقام الوجود إلى الله سبحانه الذي وهو العلة القديمة لوجود جميع الأشياء، ومن الواضح لدى الخبير أنّ كل معلول حاضر بوجوده العيني عند علته، والحضور هو العلم به، فالله سبحانه وتعالى يفعل لعلة قديمة وكل فعل يصدر منه تعالى فهو معلول لعلمه أزلاً ولا يلزم من ذلك محذور؛ لأنّ اتصاف الله بالصفات الفعلية لا يعني منه حصول تغيّر في الذات الإلهية أو حدوث عرض فيه، فإنّ العلة القديمة سبب كحدوث المعلول ولا مانع من ذلك لكون تقدّم العلة على المعلول رتبي يحصل الانفكاك بينهما بالتقدم والتأخر الرتبي، فإنّ العلة اذا كانت موجودة في الخارج تتحقق النسبة بينها وبين معلولها لأنّهما متضائفان.

فظهر أنّ النسبة بين علمه تعالى ومخلوقاته هي النسبة الإضافية بشكلٍ خاص وهو أنّ كل شيء تعلق به الإرادة الإلهية إنّما تعلق به لأنّه عالم بذلك الشيء ويكون ذلك فيه الحكمة ولا يصدر منه العبث والجزاف وبدون حكمة بل ما تتعلق به الإرادة الإلهية أصالة فيه جهة الكمال والخير ولو على نحو العموم إذ قد يقع التزاحم بين الماديات ويؤدي إلى عروض النقص والضرر بعضها على البعض الآخر، فلذلك أنّ المصلحة في الأفعال الإلهية تكون بشكل المجموع أي يتوفّر الكمال المجموعي والأكثر والأغلب.

وبما أنّ الأفعال الإلهية تنشأ من صفاته الذاتية كالعلم والقدرة ونحو ذلك، فإنّها دائماً متوفرة على المصلحة أي يترتب عليها الخير والكمال الغالب، ويعبّر عن مثل هذه الإرادة بـ «الإرادة الحكيمة».

➲

المحاذير التي تعرض لبعضها هنا[١]، فعلم كذب من يقول بأنّ هذه الحجة قاطعة للشيعة في المقام على أُصولهم وفساد قوله بما نبّهنا عليه[٢].

⬅ ومن هنا تنتزع صفة أُخرىٰ لأفعاله تعالىٰ وهي: صفة الحكيم؛ فإنّها العلة الغائية للأفعال الإلهية وهي العلة الفاعلية نفسها وليس لله غاية مستقلة وزائدة على ذاته، أمّا الكمال والخير والمصلحة في الموجودات فهي غاية فرعية وتبعية. فلاحظ.

(١) إذ لو قلنا أنّ الأفعال الإلهية لم تكن ناشئة عن علمه الأزلي ولم تكن معللة بالأغراض والمصالح لكان مستكملاً بذلك الغرض إذ بذلك يستلزم أن تكون أفعال البارئ تعالى معللاً بالأغراض والمصالح العائدة إلى الله سبحانه، وأمّا إذا قلنا بأنّ علة أفعاله تعالى علمه الأزلي فلا إشكال ولا محذور في ذلك ويتجلّىٰ الأمر أكثر وضوحاً لو تأملنا في نظام هذا العالم بشكل دقيق، فيتضح الأمر وضوحاً كاملاً إذ نجد فيه أنّ نظام الكون إنّما هو موجود بالنظام الدقيق القائم على الحكمة والمصلحة، فالبارئ تعالى يفعل الفعل الحسن لأنّ علمه الأزلي يقتضي أن يوجد نظاماً دقيقاً منسجماً مع الحكمة، وهذا النظام الدقيق يرجع فائدته إلى عالم الوجود فلو خُلي الفعل من الحكمة لكان عبثاً وكان فعله ناقصاً ـ والعياذ بالله ـ وهذا مخالف لكونه مستجعاً للصفات الكمالية وموصوفاً بواجب الوجود المستجمع لجميع الكمالات.

فإنّ واجب الوجود أزلي ليس فيه نقص أبداً وإنّ صفاته الكمالية لا يتصور فيه النقص وأنّ ما يفعله حسن بتحسين العقل مستقلاً لا لجهة الاستكمال، فإنّ الاستكمال يكون للشخص الذي ذاته ناقصة ومحتاجة الى الاستكمال والحال أنّ ذات الباري تعالىٰ كاملة وصفاته الكمالية منزّهة عن أيّ نقص وعيب، فهو سبحانه وتعالى منزّه عن العبث.

وبالجملة: فإنّ الإشكال وارد على الأشاعرة في هذا المجال لا مفر منه أبداً، وأمّا لو قلنا بأنّ أفعال الباري تعالىٰ معللة بالأغراض وأنّه تعالى يفعل الفعل الحسن لا ليستفيد به نفعاً ولا يدفع به ضرراً لم ينكره العقل ولا يعد نقصاً بل يعد كمالاً، فإنّ الحسن حسن لذاته والله سبحانه عالم بحسنه فأفعاله حسنة لأنّ إيجاد الفعل الحسن من الكمال لا الاستكمال. فلاحظ.

(٢) لأنّا نقول: إنّ ذاته تعالى كامل لأنّ أفعاله مطابقة للحكمة وإنّ العقل مستقل في الحكم بذلك، لا بالنظر إلى ذلك اللازم الذي به يكون كاملاً.

⬅

وتاسعها: إنّ ما نسبه الى المعتزلة من ذهابهم الى كونه سبحانه يفعل لعلة منفصلة عنه ظاهر في نقل ذلك عن جميعهم(١)، وهو بهتان عليهم لما ذكره

➲ ومن هنا نسأل ابن تيمية وأتباعه: ما الدليل على استحالة ما يقول به الشيعة الإمامية؟ فإنّ الشيعة الإمامية يعتقدون بأنّ للباري تعالى أفعال حسنة باعتبار صفاته الكمالية، لكن لا يكون مستفاداً من غير ذاته، ولا متأخراً عن ذاته لم يزل كاملاً، ولم يجز وصفه بالنقص لأنّه لم تكن تلك العوارض والصفات متلقّاة عن الغير وحيث أنّه تبارك وتعالى كامل مستجمع لجميع الصفات الكمالية وليس فيه نقص فلا معنى للاستكمال، وإنّما يلزم الاستكمال إذا كانت الاستفادة والمنفعة راجعة إلى الفاعل، وأمّا إذا رجعت إلى غيره كالإحسان إلى المخلوقين فلا يتوجه الإشكال اليهم. إذ لا مجال على ذلك للنقصان بالنسبة إلى الله سبحانه كما لا يخفىٰ.

فكاملية أفعاله تقتضي كون المنفعة تكون حاصلة للغير لا للفاعل أي أنّ المصالح راجعة إلى العباد، فتلك المصالح غايات وثمرات لأفعاله وهذا هو المذهب الصحيح والحق الصريح الذي لا يشوبه شبهة ولا تحومه ريبة.

ثم إنّ الشيعة الإمامية لا تقول بما قالت به الأشاعرة من أنّ الحسن والقبح يتحقّقان في فعله سبحانه بمعنى النقص والاستكمال بل يقولون: أنّ الحسن في أفعاله تعالى إنّما هو من أجل صفاته تكون حسنة وأن العقل بما هو مستقل يحكم بحسن أفعاله، فالشيعة الإمامية يقولون أنّ أفعاله تعالى إنّما تنشأ من صفاته الذاتية وأنّ إرادته إذا تعلّقت بإيجاد شيء لا تتعلق به عبثاً وجزافاً وبدون حكمة، فإرادته تعالى إنّما تتعلق بالنظام الأتم وما فيه الخير فهو تعالى منبع لفيضان الخير، وحينئذٍ تكون فاعليته تعالى معللاً بعالميته، وهذا معنى لا مؤثر في الوجود غير الله تعالى.

(١) وذلك لأنّ ظهور الكلام عند العرف والعقلاء حجة وكاشف عن مراد المتكلّم، إذ لو كان مراد المتكلم المعنى الخاص لكان عليه بيان ذلك وحيث لم يذكر الخصوصية في كلامه فالعقلاء يحملون مراده على المعنى المطلق العاري عن الخصوصيات، فابن تيمية قد نسب إلى المعتزلة على نحو الإطلاق بأنّهم قائلون: أنّ أفعال الله تعالى معللة بالعلل والغايات، فإنّ العرف والعقلاء حسب القاعدة الأولية عندهم يحملون الكلام على معناه المطلق الظاهر منه، ➲

الشهرستاني في الملل والنحل وغيره من عمدة أهل مذهبه من ذهاب الجبائي[(١)] ومتابعيه من المعتزلة الى ذلك دون جميعهم[(٢)].

➲ وهذه القاعدة مسلّمة عند جميع العقلاء، وقد قامت عليها السيرة العقلائية، فيجب في المقام حمل كلامه على الإطلاق. فلاحظ.

(١) وهو أبوعلي، محمد بن عبدالوهاب بن سلام بن خالد بن عمران بن أبان مولى عثمان بن عفان، ويطلق الجبائي أيضاً على ابنه أبي هاشم عبدالسلام بن محمد ويقال لهما: الجبائيان وكلاهما من رؤساء المعتزلة، ولهما مقالات على مذهب الاعتزال، وقد جاء ترجمتها في كتب الرجال والتاريخ والسيرة فهما من رؤساء المعتزلة.

قال الذهبي في ترجمته: شيخ المعتزلة وصاحب التصانيف أبوعلي محمد بن عبدالوهاب البصري... أخذ من أبي يعقوب الشحام وعاش ثمانياً وستين سنة، ومات وخلفه ابنه العلامة أبوهاشم... (سير أعلام النبلاء ج١٤:ص١٨٣رقم١٠٢).

وقال ابن خلكان: أنّه أحد أئمة المعتزلة، كان إماماً في علم الكلام، وأخذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبدالله الشحام رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره، وله في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة، وعنه أخذ الشيخ أبو الحسن الأشعري عنه علم الكلام، وله معه مناظرة روتها العلماء... (وفيات الأعيان ج٤:ص٢٦٧رقم٦٠٧).

وقال الياقوت الحموي: الجبائي منسوب إلى جُبّا بضم الجيم وتشديد الباء، بلداً وكورة من خوزستان، ومن الناس من جعل عبّادان من هذه الكورة، وهي في طرف من البصرة والأهواز حتى جعل من لا خبرة له جُبّاً من أعمال البصرة... جبّىٰ في الأصل عجمي وكان القياس أن ينسب اليها جُبوي فنسبوا اليها جبّائي على غير قياس مثل نسبتهم إلى الممدود، وليس الكلام العجم ممدود جبّىٰ أيضاً من أعمال النهروان ينسب اليها أبو محمد دعوان بن علي بن حماد الجبائي المقري الضرير... جبى هذه أبوعلي محمد بن عبدالوهاب الجبائي المتكلم مات سنة ٣٠٣هـ ومولده سنة ٢٣٥ هـ وابنه أبو هاشم مات سنة ٣٢١هـ ببغداد... (معجم البلدان ج٢:ص٩٧ (ماده جبىٰ)).

(٢) قال الشهرستاني في كتابه الملل والنحل عند ذكر طوائف المعتزلة: الجبائية وهم أصحاب أبي علي محمد بن عبدالوهاب الجبائي وابنه أبي هاشم عبدالسلام، وهما من معتزلة البصرة، ➲

وعاشرها: إنّ ما نسبه الى الشيعة من الذهاب الى ما ذهب اليه الجبائي ومتابعيه من القول بالعلة المنفصلة قد عرفت كذبه عليهم في هذه النسبة، وهذه كتبهم تنطق على الناس بالحق وتنادي بأنّ العلة علمه سبحانه بالمصلحة حسبما بيّناه(١).

➲ وانفردوا عن أصحابهما بمسائل، وانفرد أحدهما عن صاحبه بمسائل، أمّا المسائل التي انفردوا بها عن أصحابهما منها: أنّهما أثبتا أنّ إرادات حادثة لا في محل يكون الباري تعالى بها موصوفاً مريداً وتعظيماً لا في محل؛ اذا أراد أن يفني العالم، وأخص أوصاف هذه الصفات يرجع اليه من حيث أنّه تعالى أيضاً لا في محل وإثبات موجودات هي أعراض وفي حكم الأعراض لا محل لها، كاثبات موجودات هي جواهر أو في حكم الجواهر لا مكان لها، وذلك قريب من مذهب الفلاسفة حيث أثبتوا عقلاً أنّه تعالى جوهر لا في محل ولا في مكان... (الملل والنحل ج١:ص٧٣ـ٧٤).

فصرّح الشهرستاني بأنّهما انفردا بالمورد المذكور واضح وغيرها من الموارد، فالمعتزلة أيضاً عندهم اختلاف في هذه المسألة وغيرها كما سيتبيّن للقارئ الكريم من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالىٰ.

(١) لا شكّ أنّ الله تعالى عالم بذاته وعالم بالنظام الأكمل الأتم والأصلح، فإنكار علمه في مرتبة الذات، مساوق لانكار كماله فانّه تعالى عالم بذاته على أتّم الوجه وذاته علة لخلق جميع ما سواه.

قال صدر المتألّهين: إنّ إرادته سبحانه بعينها هي علمه بالنظام الأتم وهو بعينه هو الداعي لا أمر آخر (الأسفار الأربعة ج٦:ص٣٣٣).

وقال الشيخ الملّا هادي السبزواري في كتابه شرح الأسماء الحسنى: إنّ ذاته تعالى علة لجميع ما سواه وذاته عالم بذاته والعلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول... (شرح الأسماء الحسنى ج٢:ص٢٥).

وقال المحقّق الطوسي: إنّ إرادته سبحانه هي العلم بنظام الكل على الوجه الأتم، وإذا كانت القدرة والعلم شيئاً واحداً مقتضياً لوجود الممكنات على النظام الأكمل كانت القدرة والعلم والارادة ➲

وحادي عشرها: إنّ ما زعمه في حق الشيعة من القول بتساوي وجود العلّة وعدمه اليه سبحانه من عجيب كذبه عليهم؛ لقولهم صريحاً بأنّ فعل الحكيم مثل

⊃ شيئاً واحداً في ذاته مختلفاً بالاعتبارات الفعلية (الأسفار الأربعة ج٦:ص٣٣١ نقلاً عن المحقّق الطوسي).

وقال العلّامة الطباطبائي: إنّ ذاته المتعالية لا يحده حدّ ولا يشذّ عنه وجود ولا كمال وجودي، فما في تفاصيل الخلقة من وجود أو كمال وجودي بنظامها الوجودي فهو موجود عنده بنحو أعلىٰ... (بداية الحكمة: ص٢٠٤) والى غير ذلك من كلماتهم.

فإنّ جميع الموجودات الموجودة في العالم وجميع المخلوقات معلول لارادته ومشيئته وإنّ إرادته تعالى من شؤون علمه وإنّ علمه علة لمعلوله خارجاً بتقريب أنّ إضافته اليه إضافة إشراقية لا إضافة محمولية، ومعنى الإضافة الإشرافية أنّ المضاف اليه يوجد بنفس الإضافة.

وعلى هذا فالمعلوم بعلمه تعالى يوجد بنفس علمه، وهذا بخلاف الإضافة المحمولية فإنّها تتوقّف على وجود المضاف اليه في المرتبة السابقة عليها.

بيان ذلك: أنّ أفعال العباد بما أنّها حادثة من الحوادث المسبوقة بالعدم، فلا يمكن أن تقع طرفاً لعلمه الذاتي مباشرة وإلّا لكانت أزلية، وعلى ذلك فلا مناص من الالتزام بأنّ أفعال العباد جزء من سلسلة الأشياء الطبيعية الطولية بعللها ومعلولاتها وحلقاته التصاعدية، وهكذا يكون أساس مبدأ العلية الذي هو نظام عام للكون.

وأمّا علمه بالأشياء حاضر عنده تعالى بنفس وجوده لا بصورة مأخوذة منها نظير علومنا وادراكاتنا ولازم ذلك لابد أن تكون إرادته تعالى نفس علمه بالشيء هي إرادة تحقّقه وظهوره.

وأمّا علمه الذاتي بالأشياء قبل خلقها ووجودها فهو خارج عن حدود تصورنا وإدراكنا ضرورة أنّه ليس بإمكاننا تصوّر علمه الذاتي الذي هو عين ذاته المقدسة وإلّا لكان تصوّر ذاته المقدسة من الممكنات، وعلى الجملة فلا يمكن تصور كيفية تعلق علمه الذاتي الأزلي بالأشياء قبل وجودها لأنّه لا يمكننا تصور ذلك، وهذا لا ينافي التصديق بأنّه تعالى عالم بالأشياء بالعلم الأزلي وإنّ علمه عين ذاته المقدسة.

تركه مسبّب عن علة[١] وبدونها لن يعقل صدور شيء عنه، للزوم الترجيح بدون مرجح، وهو محال[٢]،

---

(١) فإنّ تركه تعالى لشيء ليس من جهة اهماله له؛ لأنّه تبارك وتعالى حكيم، والموصوف بكمال الحكمة لا يترك عملاً إلّا وفيه الحكمة والمصلحة كما انّه لا يصدر منه شيئاً إلّا وفيه الحكمة والمصلحة، فإذا أعطى أعطى عن حكمة ومصلحة وإذا منع منع عن حكمة ومصلحة، فجميع أفعاله وتروكه تكون منوطة بالحكمة والمصلحة، وأنّ صفة الحكمة تقتضي أن لا يهمل مثقال ذرة في شيء لأنّ الإهمال نقض للغرض حيث أنّ ذاته المقدسة عالم بجميع الأُمور أزلاً وقادر على خلق كل شيء وعالم بعواقب الأُمور ومنزّه عن العبث والخطأ والقبيح، فحينئذٍ لا يعقل أن يهمل في الأُمور؛ وبعدما ثبت أنّ جميع أفعاله وتروكه مبتنية على الهدف الصحيح والغرض العقلائي الذي فيه المصلحة والصواب فيستحيل في حقه تعالى أن يهمل شيئاً إذ أنّ الإهمال بالشيء نقض للغرض وهو قبيح والحكيم لا يرتكب القبيح لأنّ فعل القبيح إنّما يجوز ارتكابه عند من هو جاهل بحقائق الامور والله تبارك وتعالى عالم أزلاً بجميع الأشياء وعواقبها فلا حاجة له إلى الإهمال، فهو تعالى غني على الإطلاق فلا معنى للإهمال في أفعاله أبداً.

ومن هنا أنّ جميع علماء الشيعة الإمامية يعتقدون بأنّ جميع أفعال الله سبحانه وتروكه إنّما تكون مبنية على المصلحة والحكمة والشاهد على ذلك كتبهم وهي مليئة بذكر هذا الأمر.

وعلى سبيل المثال: راجع كتاب توحيد المفضّل للمفضّل بن عمر: ص ١٤، وكتاب كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلّامة الحلي: ص٤١٠ـ٤١٧، وكتاب إحقاق الحق للعلّامة القاضي التستري ج١:ص١٨٥ وغيرها.

(٢) فإنّ من درس هذا الموضوع في كتب الشيعة دراسة علمية موضوعية يظهر له أنّ علماء الشيعة يؤكدون في كتبهم على أنّ الأُمور جارية في هذا العالم بقانون العلية والمعلولية، فإنّ اختلاف الموجودات في نظام الخلق خاضع لقوانين العلية والمعلولية وافتراض تساويهما أمر ممتنع: ضرورة أنّه لا يمكن إنكار الحكمة والتعليل في نظام العالم والهدف الصحيح الذي ينسجم مع قانون الخلق وجوداً وعدماً، فإنّ القوانين التكوينية والعلاقات العلية والمعلولية لازمة النظام والخلق، حيث أنّ كل معلول يمتنع وجوده مع عدم علته، وإنّ لكل شيء من

وهذه كتبهم تشهد بمذهبهم شهادة صدق على الحق[١].

وأمّا المعتزلة: فانّها وإن قالت بأنّه سبحانه يفعل لعلة لساناً، لكنّها خالفت ذلك في مقام العمل حسبما تقدّم بيان ذلك في تجويزهم تقديم المفضول على الفاضل[٢].

⬅ الأشياء الموجودة الممكنة علة وبدونها يمتنع وجوده كذلك لكل حادث علة وسبب، هذا مما لا ريب فيه، وأيضاً أنّه لا ريب أنّ وجود الممكن معلول وعلّته هو الباري تعالى إمّا بلا واسطة أو بالواسطة أي إمّا أنّ الله تعالى خالق له بلا إيجاد علّة في البين، أو أنّه تعالى خالق له بواسطة إيجاد علّة لوجوده، وعلى كلّ تقدير فهو تعالى خالق لجميع الأشياء وعلّة لوجود كل شيء، غاية الأمر أنّ علّة لوجود كل شيء علمه الأزلي وإنّ المقادير إنّما تكون جارية وفقاً للنظام الأحسن ومافيه المصلحة، فإنّ فعله سبحانه وتعالى وتركه إنّما يكون للهدف الصحيح ولو أدركنا هذه الحقيقة لعلمنا أنّ صدور كل شيء منه يكون على طبق نظام دقيق وهدف صحيح، فلايفعل إلاّ لغرض وغاية ومصلحة، ولايترك فعل إلاّ لغرض ومصلحة، فجميع أفعاله ناشئ من علمه الأزلي. فلاحظ.

(١) فإنّ الخبير الباحث لو درس كتب الشيعة الإمامية في العقائد يجد أنّ هذا المطلب من المسلّمات والواضحات عند الشيعة الإمامية، ومن أجل وضوح الأمر راجع كتاب المسلك في أُصول الدين للمحقّق الحلي: ص٢٩٤ـ٢٩٥، وكتاب قواعد المرام في علم الكلام لابن ميثم البحراني: ص٦٤ـ٦٧، وكتاب النافع ليوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر للعلامة الحلي: ص٢٣ـ٢٤، وكتاب كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلي أيضاً: ص٦٤ وغير ذلك.

(٢) فإنّ تقديم المفضول على الفاضل أمر جائز عند المعتزلة كما أنّه أمر جائز عند جميع علماء أهل السنّة، وقد صرح بذلك علماءهم من المعتزلة والأشعرية واليك نماذج من كلماتهم:

قال الحلبي في كتابه السيرة النبوية: أنّ أبابكر كان يرىٰ جواز تولية المفضول على من هو أفضل منه وهو الحق عند أهل السنّة... (السيرة الحلبية ج٣:ص٤٨١).

وقال الباقّلاني في التمهيد عند الجواب عن قول أبي بكر: «وليتكم ولست بخيركم» يمكن أن ⬅

➲ يكون قد اعتقد أنّ في الأُمة أفضل منه، إلّا أنّ الكلمة عليه أجمع والأُمة بنظره أصلح، لكي يدلهم على جواز إمامة المفضول عن عارض يمنع من نصب الفاضل، ولهذا قال للأنصار: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أحدهما: عمر بن الخطاب وأبا عبيدة الجرّاح، وهو يعلم أنّ أبا عبيدة دونه ودون عثمان، غير أنّه قد رأىٰ أنّ الكلمة تجمع عليه... (التمهيد: ص١٩٥).

وقال القاضي الجرجاني في شرح المواقف: وتصح إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وأبوبكر وعمر إمامان وإن أخطأت الأُمة في البيعة لهما مع وجود علي لكنه خطأ لم ينته إلى درجة الفسق... (شرح المواقف ج٨:ص٢٩٣) والى غير ذلك من كلماتهم.

ومن العجيب أنّهم لم يبالوا الى قبح هذه المقالة حتى وصل الأمر بهم إلى أنّ ابن أبي الحديد المعتزلي شارح نهج البلاغة حمد الله تعالى بتقديم المفضول على الفاضل في مقدمّة كتابه (أُنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١:ص٣).

ولا يخفى على الخبير أنّ الضرورة العقلية حاكمة بقبح تقديم المفضول على الفاضل حيث أنّ مقام المفضول متأخّر عن الفاضل عقلاً وتقديم ما يستحق التأخير قبيح عقلاً بلا اشكال ولكن أهل السنّة والجماعة خالفوا هذا الحكم العقلي الضروري صراحة ولم يبالوا قبح ما يترتب عليه، وقد كتبوا في هذا المجال كتب معروفة منها: ما كتبه عبدالجبار المعتزلي في الإمامة فإنّه ذكر فيه أنّ الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أفضل ممن تقدمه، لكن الله جوّز تقدم المفضول على الفاضل لأنّه تقدّم عليه عملاً من هو مفضول.

فكتب السيد المرتضى علم الهدىٰ رحمه الله في رده كتاب الشافي في الإمامة ولخصه الشيخ الطائفة الطوسي رحمه الله، ثم كتب أبو عثمان الجاحظ رسالته العثمانية وذكر فيه نفس المطلب وردّ عليه السيّد ابن طاووس أحمد بن طاووس في رسالته الموسومة ببناء المقالة الفاطمية في نقض العثمانية.

وكذلك ردّ عليهم علماء الشيعة في كتبهم كالعلامة الحلي رحمه الله في كتابه المعروف المشهور الموسوم بالألفين، وسرد فيه كل ما يمكن أن يكون دليلاً على إمامة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من الآيات والروايات، ثم كتب كتابه الآخر هو كتاب نهج الحق وكشف ➲

وفي تجويزهم عدم العصمة في الخليفة العام[١]، وفي عدم لزوم نصب الخليفة في كل زمان[٢].

➲ الصدق الذي ردّ عليه روزبهان، وردّ على روزبهان القاضي التستري كتابه إحقاق الحق، وكذلك العلّامة الشيخ محمد حسن المظفّر ردّ على روزبهان في كتابه دلائل الصدق.

ثم كتب العلامة الحلي (رحمه الله) كتابه المعروف الموسوم بـ«منهاج الكرامة» الذي ردّ عليه ابن تيمية وقد ردّ على ابن تيمة جماعة من علماء الشيعة منهم: المصنف رحمه الله وغيره.

(١) فإنّ المعتزلة وإن ذهبوا في باب الصفات الإلهية بالعدل المقتضي لوجوب اللطف عليه واللطف هو ايجاد ما يقرب العبد إلى الطاعة ويبعده عن المعصية فإنّ مقتضىٰ صفاته الجمالية والكمالية والجلالية أن يفيض لطفه على عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الأئمة المعصومين، وهذا منتهىٰ اللطف منه تعالى كما أنّ العدل الربوبي في حق الإنسان يقتضي أن لا يتركه سدى ويجعل له من يهديه إلى الحق والصراط المستقيم ولكن المعتزلة لم يلتزموا بهذا اللازم.

وبعبارة أخرىٰ: إذا ثبت وجوب نصب الإمام ثبت وجوب كونه معصوماً إذ لابد أن يكون الإمام مأموناً ومصوناً من الخطأ حتى تصح طاعته المطلقه في جميع الأُمور وإلّا فلا وجه لطاعته المطلقة والتعبّد بأقواله وأفعاله بصورة مطلقة لأنّ غير المعصوم لا يؤمن من الخطأ والقبيح، فالمعتزلة وإن ذهبوا بأنّ الله تبارك وتعالى يفعل لعلة ولكنهم خالفوا ذلك في باب الإمامة حيث ذهبوا الى عدم لزوم العصمة في الامام وقد دلّ الدليل من العقل والنقل على لزومها، وللباحث أن يراجع كتاب الألفين الحلي رحمه الله الحلي فإنّه قد أثبت في هذا المجال ما يتجاوز عن ألف دليل عقلي ونقلي على أنّ الامام يجب أن يكون معصوماً وغيره من الكتب. فلاحظ.

(٢) لا يخفى أنّ الحاجة إلى الإمام المعصوم في كل عصر وزمان كحاجة الخلق إلى النبي، فكما لا تكمل الرسالة بدون الرسول كذلك لا تتم الشريعة بدون وجود الإمام المعصوم لأنّ ما يدل على لزوم بعث الرسل من قاعدة اللطف وغيره يدل ايضاً على لزوم وجود الإمام المعصوم بضرورة العقل لأنّ طبيعة البشر تهوي إلى الشهوات واللذات بمقتضىٰ الغرائز والسوق إلى الأسفل ولا يكفيها وجود الشريعة بوجوده الرسمي في الأسفار بل لابد من ➲

➲ تجسيد تلك الشريعة في إنسان كامل وأنّه يتمتّع بالتفوّق التشريعي بحيث قابلية تطبيق الشريعة وتنفيذها، فالإمام المعصوم هو الذي يكون منّفذاً لأوامر رب العالمين.

ثم إنّ المشيئة الإلهية قد تعلقت بأن تكون سعادة الإنسان غير جبرية أي أنّها تحصل له باختياره وذلك كرامة له وتعظيماً لقدره وشرفاً لنفسه وتفضيلاً له على سائر الخلق ليصل الإنسان إلى المقامات العالية على ضوء الوحي وتعاليم الأنبياء وخلفائهم المعصومين الداعين إلى التوحيد وإقامة العدل وتزكية النفوس، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة الجمعة: ٢).

فحاجة الناس إلى وجود المعصوم مستمرة الى يوم الدين كما أنّ إمامة الحجة بهم كذلك مستمرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ (سورة طه: ١٣٤).

فإنّ البشر في كل حال يحتاج الى وجود المعصوم ليكون ملجأ آمناً وملاذاً للأنام حيث أنّ المعصوم هو المبلّغ لشريعة السماء وهو واسطة في تبليغ أحكام السماء من ضمن مهماته الأساسية التي تجمع في الولاية والقضاء والحكومة، فنحن نعتقد أنّ اولئك الذي هم وسائط الفيض ومبادئ تبليغ الدين والشريعة بين الله والخلق لابد أن يكونوا معصومين بالأدلّة القاطعة كتاباً وسنّة وعقلاً، والمعصوم هو الامام بالحق، والإمامة هي قيادة الخلق وزمام الأُمة فكراً وعملاً، وهذا المقام يعطى للنبي أو الوصي وكلاهما يشتركان في الوساطة لإبلاغ الأحكام، ففي جميع الأزمان لا تخلو الارض منهم لأنّ الحاجة اليهم مستمرة إلى قيام يوم الدين إلّا أنّ بعد وفاة خاتم الأنبياء أنّ هذا المقام أُعطي لأوصيائه المعصومين وهم الأئمة عليهم السلام من ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ أنّ لهم الكفاءات والصلاحيات الموجودة في الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وعندهم العلوم التي تحتاج الخلق اليها ولديهم ما يضمن سعادة الناس، فمن تبعهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ولو لم يقم فيهم المعصوم لكان لهم أن يحتجّوا على الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ

➲

وثاني عشرها: إنّ ما نسبه الى أهل مذهبه وهم الجمهور من كون يريد بالنسبة الى الله أعم من يحب ويرضى دعوى منه لم يأت عليها بيّنة تدلّ عليها[١].

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة القصص: ٤٧).

وفي هذه الآية الكريمة قد بيّن القرآن الكريم ما يترتب من لطف الله الالهي بوجود النبيﷺ والمعصوم في كل عصر وزمان حيث إذا أراد الله سبحانه نزول العذاب على قوم بسبب ظلمهم وسيئاتهم قالوا: لماذا لم ترسل لنا رسول يبين لنا أحكامك لنؤمن به ولولا أن تصبهم مصيبة بما قدمت أيديهم....

فتشير الآية المباركة إلى نقطة دقيقة وهي: أنّ طريق الحق واضح وبيّن، وكل عقل حاكم ببطلان الشرك وعبادة الأصنام ولكن مع ذلك إنّ الله تبارك وتعالى يجعل للناس طريقاً لمعرفة الحق ومرشداً للهداية اليه، أي إن لم يرسل اليهم رسولاً ولم يجعل فيهم معصوماً، فللناس أن يحتجّوا على ربهم بقولهم: ﴿لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ (سورة طه: ١٣٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة القصص: ٤٧) فيقولون كل يوم كلاماً ويختلفون الأعذار وللقرار من الحق وإن كان العقل يكفي في إرشادهم اليه، ولكن الله سبحانه يؤكد على إتمام الحجة على خلقه فيقول في مقام الاحتجاج: لا نعذّب حتى نبعث رسولاً لئلّا يبقىٰ للناس حجة على الله فالأمر في نصب الإمام كذلك. فلاحظ.

(١) لا شكّ أنّ الحب والرضاء بالنسبة الى الله تعالى من صفاته الفعلية، سواء قلنا بأنّ الحب والرضاء مرحلة من إرادته سبحانه أو نفس إرادته على اختلاف موجود بين علماء أهل السنّة.

فإنّ الأشاعرة من أهل السنّة ذهبوا الى أنّ جميع صفات الله قديمة لا حادثة حتى صفاته الفعلية، وذلك لأنّهم يزعمون: بأنّه لو لم يكن كذلك للزم أن يكون الباري تعالى جاهلاً بالأُمور الحادثة ـ والعياذ بالله ـ فيقولون: إنّ القدم والحدث من الأُمور الوجودية والله تبارك وتعالى أزلي وصفاته أزلية.

وعلى هذا الأساس أنكروا قانون العلية والمعلولية في الموجودات الإمكانية وذهبوا إلى أنّه ليس

وقد عرفت كذب من قال أنّ جمهور من تسمى بأهل السنّة قائلون بالتعليل حقيقة بالمعنى[1]، كيف وهم القائلون بأنّه هو خالق أفعال العباد من الكفر

⬅ في صفحة الوجود مؤثر وموجد وخالق إلّا الله سواء كان على وجه الاستقلال أو على وجه التبعية لأنّ كل منهما يدخل في الأُمور الحادثة التي يستحيل نسبتها إلى الله، وبناءً على ذلك يقولون بأنّ جميع أفعال العباد خيرها وشرها مخلوقة لله سبحانه. فالحب والرضى في فعل العبد يكون كذلك. أي مثل أفعاله.

ولنا أن نسأل هؤلاء: هل أنّ المراد بصفة الحب والرضى الإلهي هي الصفة الحادثة له تعالى بفعل العباد أو أنّها أزلية بصفة لله عزوجل؟

وكيف يمكن أن تكون الصفة أزلية صفة يفعل فيها فعل خلق وهو الفعل حادث؟!

وبعبارة أُخرىٰ: كيف يمكن الجمع بين قوله: إنّ الله يحب ويرضىٰ لفعل العبد مع أن فعله حادث وأنّ جميع صفاته حتى الحب والرضى منه تعالىٰ أزلية؟

وبعبارة أوضح: إنّ الله يرضىٰ لفعل المؤمن الحقيقي ويغضب لفعل المذنب، فإذا أذنب الإنسان ثم تاب وصار مؤمناً كيف يكون راضياً ومحباً لفعل عبده وكيف يكون مبغضاً لأفعاله القبيحة السابقة؟!

فبناءً على مسلك الأشاعرة وابن تيمية يستحيل على الله أن يحدث له الرضى لأنّ ذلك بناءً على زعمه موجب للقول بعدم علمه سبحانه بما يحدث بعد.

فالباحث الخبير يعلم أنّ مثل هذا القول لا يمكن الالتزام به، ولذلك تجد أنّ ابن تيمية لم يذكر دليلاً على هذه الدعوىٰ ولم يمكنه بسط البحث فيه إذ لو فتح المجال للباحث في المقام لعرف كل أحد خبطه بين عقيدته وقانون العلية كما هو واضح للخبير. فلاحظ.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ الأشاعرة ينكرون التعليل في الموجودات الإمكانية مطلقاً، لأنّهم يقولون بأنّه لا مؤثر في الوجود إلّا الله سواء على نحو الاستقلال أو على نحو التبعية والواسطة.

مثلاً يقولون: أنّ النار لا يحرق الحطب اليابس وإنّما الإحراق فعل الله كما أنّ الثلج لا يبرد فإنّ التبريد فعل الله لا الثلج، كذلك السموم لا تقتل بل القتل فعل الله، وهكذا أفعال الإنسان خيرها وشرها مخلوقة لله سبحانه.

⬅

والشرور والفساد[١]، فيما يأتي سنبيّن بتوفيق الله وتسديده التساوي بين معنى

⬅ قال الشيخ الأشعري في كتابه الإبانة عن أُصول الديانة في الباب الثاني: إنّه لا خالق إلّا الله وإنّ أعمال العبد مخلوقة لله ومصدورة، كما قال: ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ وأنّ العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون... (الإبانة: ص٢٠).

وقال في كتابه مقالات الإسلاميين في حكاية جملة قول أهل الحديث وأهل السنّة، وأقروا أنّه لا خالق إلّا الله، وانّ سيئات العباد يخلقها الله، وانّ أعمال العباد يخلقها الله عزوجل، وأنّ العباد لا يقدرون أن يخلقوا منها شيئاً (مقالات الإسلاميين ج١:ص٣٢١) وإلى غير ذلك مما جاء في كتب الأشاعرة القائلين بالجبر، وهذا مذهب أكثر أهل السنّة.

نعم لما وجد الأشاعرة أنّ هذه المقالة مستلزمة للجبر والجبر أمر باطل لا يمكن الالتزام به حاول الشيخ الأشعري أن يعالجه بإضافة نظرية الكسب إلى الخلق، فقال: إنّ الله هو الخالق والعبد هو الكاسب.

وحاصله: أنّ كل فعل يصدر من الإنسان يشتمل على جهتين: جهة الخلق التي ترتبط الخالق الكون وجهة الإنسان التي ترتبط باختياره وسيتضح توضيح هذه النظرية وما يترتب عليها من الإشكالات في محلّه ان شاء الله تعالىٰ. وإن كان هناك من الاشاعرة من لا يفرق بين حركة المرتعش وغيرها من الحركات في أفعال الإنسان كالجهمية ومنهم من يفرّق بين الحركتين، إلّا أنّ قضية الكسب لا تحل المشكلة كما سيتبيّن في محله.

فالقول بأنّه لا كسب للمرتعش في حركته، وأنّ غير المرتعش له كسب في حركاته أمر باطل وإن فسّر بعضهم بأنّ المقصود بالكسب القدرة الضعيفة للعبد التي لا تكون مؤثرة مع قدرة الله القاهر، فإنّ الإشكال باقٍ في محله كما سيأتي توضيحه إن شاء الله تعالى.

(١) لا شكّ أنّ سبب هذا التوهّم هو القول بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه وكذلك إنكار التحسين والتقبيح العقليين في الأفعال مطلقاً وما يتفرع عليه من الأقوال في صفات الله سبحانه من عدم وجوب اللطف على الله سبحانه وعدم تحسين بعث الأنبياء وجواز تكليف مالا يطاق وتجويز الأمر بما ليس فيه المصلحة وغير ذلك.

ثم إنّ الحسن والقبيح العقليين منهم يعدّ حجر الأساس للقول بعدم درك العقل حسن أفعال الله تعالى فيقولون: ليس للعقل شأن لدرك فعل الشارع، فإنّ الشارع له أن يعذّب الأنبياء بذنوب ⬅

الفراعنة وله أن يدخل الفراعنة الجنة بطاعات الأنبياء، وإذ سألتهم: بأيّ وجه ذلك؟ سوف تراهم يقولون: بأنّ الله خالق كل شيء فهو خالق لأفعال العباد خيرها وشرها، وأنّ العقل ليس له شأن في درك أفعال الله تعالى فله أن ما يشاء بالنسبة إلى مخلوقاته ولكن بطلان هذا القول من أوضح الواضحات اذ لا شك أنّ موضوع حكم العقل هو الفعل الاختياري، فلا يمكنهم إنكار اختيار العبد فانّ العقل حاكم مستقلاً في ذلك، فاعتقادهم في هذا المجال أمر غير معقول اليك بعض أقوالهم:

قال ابن أبي العز الحنفي في كتابه شرح العقيدة الطحاوية: والذي عليه أهل السنة والجماعة أنّ كل شيء بقضاء الله وقدره، وأنّ الله تعالى خالق أفعال العباد، وأنّ الله يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً ولا يرضاه ديناً... (شرح العقيدة الطحاوية: ص٢٧٧).

وقال محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ والتفسير في كتابه صريح السنّة: وأمّا الصواب من القول لدينا فيما اختلف فيه من أنّ أفعال العباد وحسناتهم وسيئاتهم، فإنّ جميع ذلك من عند الله تعالى والله سبحانه مقدّره ومدبّره... (صريح السنة: ص٢١).

وقال الفخر الرازي في تفسيره: أمّا القائلون بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى فهذا الكلام على مذهبهم ظاهر، ثم لهم قولان: منهم من قال: الحتم هو خلق الكفر في قلوب الكفار، ومنهم من قال: هو خلق الداعية التي إذا انضمت إلى القدرة صار مجموع القدرة معها سبباً موجباً لوقوع الكفر... (تفسير الفخر الرازي ج٢:ص٤٩).

فالأشاعرة يدّعون أنّ أفعال العباد إنّما تصدر منهم بإرادة الله سبحانه التي لا تتخلف عنها، والناس قد أصبحوا مضطرين ومجبورين في جميع حركاتهم وسكناتهم كالميت في يد الغسّال.

قال القاضي الجرجاني في شرح المواقف: إنّ أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله سبحانه وتعالى وحدها وليس لقدرتهم تأثير فيها... (شرح المواقف ج٨:ص١٤٥).

ومن هنا ذهبت الأشاعرة إلى أنّه ليس جميع أفعال الله تعالى حكمة وصواب لأنّ الفواحش والقبائح كلها صادرة منه تعالى لأنّه لا مؤثر في الوجود غير الله استقلالاً ولا تبعاً، فالعبد لا

يريد ويرضى ويحبّ بالنسبة اليه سبحانه[١].

يتمكّن من الفعل والترك فهو كالجمادات فكلما لا يجوز أمر الجماد ونهيه ومدحه وذمه فالإنسان أيضاً يكون كذلك.

(١) وخلاصة الكلام: أنّ أهل السنّة والجماعة في هذه المسألة بين إفراط وتفريط، فالأشاعرة منهم ذهبوا إلى أنّ إرادة الله متعلقة بكل كائن وغير متعلقة بما ليس بكائن، وأنّ كل ما يقع في العالم فهو بفعل الله وتقديره، فأفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وليس للإنسان فيها صنع ولا دور، وليس لقدرة الإنسان أي تأثير في تحقّق الفعل.

قال شارح المواقف: أنّ أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله سبحانه وحدها وليس لقدرتهم تأثير فيها... (شرح المواقف للقاضي الجرجاني ج٨:ص١٤٥).

المعتزلة منهم ذهبوا إلى أنّ أفعال العباد مفوّضة إليهم وأنّهم مستقلون في جميع حركاتهم وسكناتهم، وإنّما يفتقرون إلى إفاضة الحياة والقدرة من الله حدوثاً فحسب، ولا يفتقرون إلى علة جديدة بقاءً، بل العلة الأُولى كافية في بقاء القدرة والاختيار لهم، وقد صرّح إمام الحرمين أبو المعالي الجويني المتوفىٰ سنة ٤٧٨هـ بتأثير قدرة العباد في أفعالهم وأنّ عالم الكون مجموعة من الأسباب والمسبّبات وكل سبب يستمد من سببه المقدم عليه، وفي الوقت نفسه يستمد ذلك السبب الآخر من الخالق وهو الخالق للأسباب والمسبّبات... (أُنظر: الملل والنحل للشهرستاني ج١:ص٩٨ـ٩٩).

ووافقه في ذلك الشيخ الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ هـ في كتابه اليواقيت والجواهر وقال: ومن زعم أنّه لا عمل للعبد فقد عاند، فإنّ القدرة الحادثة إذا لم يكن لها أثر فوجودها وعدمها سواء... (أُنظر: اليواقيت والجواهر: ص١٣٩ـ١٤١).

وقد صرّح الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ بتأثير قدرة العبد في فعله ولم يبال في ذلك باعتراض رجال الأزهر الذين كانوا يكفرون من قال بالعلة الطبيعية أو بمطلق العلة غيره سبحانه... (أُنظر: رسالة التوحيد له: ص٥٩ـ٦٢) والظاهر أنّ اعتقاد مفتي الديار المصرية إنّما حصل من اتصاله بالسيد جمال الدين الأسد آبادي كما يقال هكذا.

وعلى كل تقدير: فإنّ الشيعة الإمامية قد رفضت نظرية الأشاعرة في أفعال العباد ونقدها صريحاً كما رفض نظرية المعتزلة فيها ونقدها كذلك واختارت نظرية ثالثة وهي الأمر بين الأمرين،

وثالث عشرها: إنّ ما زعمه من وجود الحكمة في خلقه الكفر والمعاصي والشرور في العباد من عجيب الباطل والفساد!! فأيّ حكمة تتصوّر في خلق شيء تترتب عليه عقوبة الله والخلود في جهنم[1]؟!!!

وقد أخذت هذه النظرية من روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهي تدل بالصراحة على بطلان الجبر والتفويض، ومن ناحية تدل على إثبات الأمر بين الأمرين وفي مثل هذا الاعتقاد الإيماني الخالص بالله والخط الوسط بين الجبر والتفويض.

وخلاصة الكلام: إنّا نعتقد إنّ الإنسان مختار في أعماله وأفعاله ضمن وجود الهيمنة الإلهية، حيث إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد في أي لحظة أن يسلب هذا الاختيار من الإنسان فهو قادر ولكن مع قدرته التامة يأبىٰ أن يجري الأُمور إلّا بأسبابها، وقد أعطى الإنسان الاختيار لتكون أفعاله صادرة عنه بالحرية والاختيار، وهذا البحث يحتاج إلى البيان والتوضيح، وسيتبيّن الأمر للقارئ الكريم أكثر وضوحاً من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

(١) من الواضح لدى الخبير أنّ الإرادة الإلهية لا تتعلق بإيجاد الشيء عبثاً وجزافاً وبدون حكمة، بل الإرادة الإلهية ومشيئته الحكمية لا تنفصل عن الحكمة أبداً، وإنّ حكمته منبعثة عن قدرته وعلمه حيث إنّ إرادته ومشيئته مبنية على الحكمة والنظام والمصلحة في عالم الخلق وعالم الإنسانية، ومن المسلّم أنّ حكمته تعالى اقتضت أن يكون الإنسان حراً في اختياره وهذا هو مقتضىٰ النظام الأتم الأصلح، وإن كان الإنسان قد يستعمل حرية اختياره في وجه الفساد ولكن أصل وجود الاختيار له فيه الحكمة والمصلحة، فجرت مشيئته تعالى على أن يخلق الإنسان مختاراً في أفعاله لأنّ علمه يسع كل شيء فيعلم ما هي المصلحة في هذه الجهة، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (سورة البقرة:٢٥٥) فإنّ علمه سبحانه محيط بكل شيء ولا يخرج شيء عن منطقة نفوذ علمه.

نعم بما أنّ تزاحم الماديات فيما بينها قد يؤدي إلى عروض الضرر بعضها على بعضها الآخر، فإنّ الحكمة الإلهية تقتضي أن يوجد المجموع بشكل يترتب عليه الخير والكمال الأكثر والأغلب، فإنّ ما يصدر منه تعالى هو خير محض لأنّ في تركه شر، وبملاحظة هذه العلاقة

بل قل لمن له أدنى شعور، ونَصَفَ من نفسه: ما وجه وجود الحكمة فيما زعمتم خَلْقه في العباد من الكفر والشرور والفساد، وقد نهى عباده عنها وحرّمها عليهم، وبعث رسله عليهم السلام إليهم حتى يرشدوهم الى حرمتها ويمنعوهم عنها[١]؟ فهل يتصوّر في حق الحكيم النهي عن شيء فيه حكمته، والعقوبة على فعله[٢]؟ فإنّ

⬅ والرابطة يتوصّل الإنسان إلى مفهوم المصلحة، حيث إنّ الأفعال الإلهية تنشأ من صفاته الذاتية كالعلم والقدرة وحبه للخير وغير ذلك، فإنّ هذه الأفعال دائماً متوفرة على المصلحة أي يترتب عليها الخير والكمال الغالب، ويعبّر عن مثل هذه الإرادة بـ «الإرادة الحكيمة» ومن هنا تنتزع هذه الصفة من صفاته الفعلية وهي تسمىٰ بصفة «الحكيم» وهي كسائر الصفات الفعلية وتنتهي الى الصفات الذاتية.

وعلى ضوء ذلك: فإنّ من اللازم على الحكيم رعاية المصالح وما تقتضيه الحكمة والمصلحة، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (سورة النساء: ١٧٠) فالآية الكريمة تؤكد على أن الله عالم بجميع الأشياء مصالحها ومفاسدها ولكن حيث أنّه حكيم، فإنّ أفعاله نابعة عن حكمته وغناه الذاتي وعلمه المحيط بكل شيء. فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: أنّه إذا كان الله سبحانه خالقاً للكفر فمعناه: أنّه تعالى عالم بكفر العبد أزلاً وكتب له ذلك في اللوح المحفوظ، وإذا كان كذلك كيف يمكن أن يرسل اليهم الأنبياء والمرسلين ليخرجهم من الكفر بعد ثبوت الكفر في علمه أزلاً، فإنّ معنى ذلك أنّه تعالى إمّا أن يكون علمه جهلاً ـ والعياذ بالله ـ لأنّه لو ثبت عنده الكفر فلا معنى لخروجه منه، وإمّا أن يكون عمله لغواً وعبثاً وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، إذ بعد كونه عالماً بكفر العبد والكفر مكتوب له في اللوح المحفوظ وثبوته له، فإرسال الانبياء إليهم يعد عند العقلاء عملاً لغواً كما هو واضح ظاهر.

(٢) لا شكّ أنّ الله تعالى منزّه عن العبث واللغو لأنّ العبث هو ما لا غرض فيه كما أنّ اللغو يكون كذلك وخلو الفعل من الغرض نقص والنقص محال على الله، لأنّ النقص في الأفعال هو عين القبح العقلي، والحكيم إنّما تكون أفعاله مقترنة بالغاية والأغراض الحكيمة، فتعالى الله شأنه العزيز عن ذلك علواً كبيراً، فالله سبحانه منزّه عن فعل القبيح والتصديق بثبوت هذه ⬅

معنى الحكمة المصلحة والمنفعة،[1] فكيف ينهى العاقل ويعاقب على الفعل الذي

الصفة للباري تعالى مبني على القول بالتحسين والتقبيح العقليين، لأنّ مفاد تلك المسألة: هو أنّ هناك أفعالاً يدرك العقل كونها حسنة أو قبيحة، ويدرك أنّ الغنيّ بالذات منزّه عن الاتصاف بالقبح وفعل ما لا ينبغي، ومن هنا نعرف أنّ الله تبارك وتعالى هو الحكيم على الإطلاق، وأنّ أفعاله وأحكامه مبنية على الحكم والمصالح، فهو منزّه عن اللغو والعبث، ولا مساغ لفعل منه خالية عن المصلحة لأنّه تعالى منزّه عن كل نقص وعيب، فإنّ عمل اللغو يرجع إمّا إلى عدم العلم أو الى عدم وجود الحكمة في الفعل وهما قبيحان لأنّهما يعتبران نقصاً وعيباً والله تعالى منزّه عن كل عيب ونقص وهو غني عن العالمين، فله العلم والكمال والقدرة والمشيئة النافذة في جميع الأشياء. فلاحظ.

(١) لا يخفى أنّ مفهوم الحكمة مفهوم واسع وله مصاديق عديدة، فاستخدم لفظ الحكمة في القرآن الكريم في عدة معاني.

منها: المواعظ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ (سورة البقرة:٢٣١) أي مواعظ القرآن.

ومنها: بمعنى النبوة كما في قوله تعالى: ﴿آتَيْنَا آلَ إِبرَاهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (سورة النساء: ٥٤) أي النبوة.

ومنها: بمعنى الفهم والعلم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ (سورة لقمان:١٢) أي آتيناه الفهم والعلم.

ومنها: بمعنى القرآن كما في قوله تعالى: ﴿أُدعُ إِلَى سَبِيلَ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَة﴾ (سورة النحل:٥٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (سورة البقرة:١٢٩).

فاستعمال الحكمة في المعاني العديدة يدل على أنّ مفهومه مفهوم واسع، وقد وصف الله تعالى نفسه بـ «الحكيم» في القرآن الكريم إحدى وتسعين مرة، وقد جاءت هذه الصفة له تبياناً لحكمته في أفعاله وخلقه.

ومن هنا يعرف أنّ الجمع بين هذه المعاني هو الإتقان في العلم والعمل، فالحكمة والحكيم يطلق على الفاعل الذي يعمل بإتقان فلا يفوته جهة من الكمال والسعادة ولا حق من الحقوق،

➲ فالحكيم هو الذي يجلب المنفعة ويدفع المضرة.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الحكمة عبارة عن: أنّ الفاعل تكون أفعاله واقعة على وجه المصلحة، وبذلك يعدّ الفاعل حكيماً في فعله، ولولاها لكان الفعل لغواً ولا أثر له، ومن الضروري أنّ المصلحة المترتبة على الفعل لا وجود لها قبل الفعل فكونها باعثة للفاعل نحو الفعل هو العلم بالمصلحة والمنفعة.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ المصلحة ليس لها وجود مستقل عن وجود الإرادة نحو الفعل المتوفرة على الغاية.

وبعبارة أوضح: إنّ الحكيم عنده صورة علمية مأخوذة من النظام الخارجي بما فيه من القوانين الكلية الجارية والأُصول المنظّمة الحاكمة بانسياق الحركات إلى غاياتها والأفعال إلى أغراضها، وما تحصل عنده بالتجربة من روابط الأشياء بعضها مع بعض، هذا بالنسبة إلى أفعالنا الصادرة منّا، فإنّ الفاعل الإرادي منا لو انطبقت حركاته وأفعاله النظام العلمي الذي فيه مراعاة المصلحة، فإن أصاب في تطبيقه الفعل على العلم كان حكيماً في فعله ومتقناً في عمله، وإن أخطأ في انطباق العلم على المعلوم الخارجي ولم يصب لقصور أو تقصير لم يسم حكيماً بل لاغياً وجاهلاً ونحو ذلك.

فالحكمة صفة الفاعل من جهة انطباق فعله على النظام العلمي المنطبق على النظام الخارجي، واشتمال فعله على المصلحة وهي ترتب فعله على الصورة العلمية المترتبة على الخارج، فالحكمة بالحقيقة صفة ذاتية للخارج، وإنّما يتصف الفاعل أو فعله بها من جهة إنطباق الفعل عليه بواسطة العلم، وكذا الفعل مشتمل على المصلحة بمعنى تفرّعه على صورتها العلمية في الخارج، وهذا إنّما هو في أفعال الإنسان وإرادته، وأمّا بالنسبة إلى فعل الله وإرادته الحكمية فإنّ فعله سبحانه نفس الحكمة لا بمعنى أنّ الحكمة والمصلحة الخارجية تدعوه اليه وتبعثه نحوه.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ أفعاله سبحانه إنّما تنشأ من صفاته الذاتية كالعلم والقدرة وغير ذلك أنّ أفعاله تتحقّق دائماً متوفرة المصلحة أي يترتّب عليها الخير والكمال الغالب، ويعبّر عن هذه بـ «الإرادة الحكيمة».

➲

فيه مصلحة ومنفعة؟[١]

فانظر الى ما ينسبونه الى الله سبحانه وتعالى من المناقضة بين فعله وهو

➲ ثم إنّ ما ذكرنا من أنّ أفعاله تعالىٰ تشتمل على المصلحة لا يعني أنّ المصلحة هي العلة الغائية لله تعالى، بل إنّ المصلحة تعتبر هدفاً ثانوياً تبعياً، وأمّا الغاية الأصلية لأفعاله سبحانه فهي كماله اللامتناهي الذاتي، ومن هنا قالوا بأنّ العلة الغائية للأفعال الإلهية هي العلة الفاعليّة نفسها، وليس لله غاية مستقلة وزائدة على ذاته، ولكن هذه الفكرة لا تنافي مع اعتبار المصلحة في الموجودات غاية فرعية وتبعية، ففعله تعالى نفس الحكمة لا علة منطبقة على الحكمة وفعله مشتمل على المصلحة بمعنى: أنّه متبوع المصلحة لا تابع للمصلحة بحيث تدعوه اليه وتبعثه نحوه كما عرفت.

(١) وبعبارة أوضح: أنّه بعد ثبوت أنّ الحكيم إنّما تكون أفعاله على وجه المصلحة والمصلحة كما جاء هذا التعبير في كتب القوم، وذكروا بأنّه ذلك عبارة عن: جلب المنفعة أو دفع المضرة.

قال الغزالي في كتابه المستصفىٰ: إنّ المصلحة هي في الأصل عبارة عن: جلب منفعة أو دفع مضرة، وإنّ جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، ولسنا نعني به ذلك، ولكنّا نعني بالمصلحة: المحافظة على مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم فكل ما يتضمّن حفظ هذه الأُصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأُصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة... (أُنظر: المستصفىٰ ج١:ص١٤٠).

وقال الرازي في المحصول: إنّ الغرض والحكمة ليس إلّا جلب المنفعة أو دفع المضرة... (المحصول ج٥:ص١٣٣).

وقال الجصّاص في كتابه الفصول في الأُصول: إنّ المصالح نفسها هي الأحكام التي تعبّدنا الله تعالى بها، وقد علمنا عند ورود النص أنّه لم يفعلها إلّا حكمةً وصواباً، وإن لم نقف على وجه المصلحة في كل شيء بعينه... (الفصول في الأُصول ج٤:ص١٤٠).

وإلى غير ذلك مما جاء في كتبهم فإنّ من البديهي أنّ العاقل لا ينهي عن الفعل الذي فيه مصلحة ولا يأمر بفعل فيه المضرة، ولا يعاقب على فعل فيه المصلحة والمنفعة واقعاً، فكيف بالحكيم على الإطلاق فلابد أن تكون أفعاله على وجه المصلحة لا جزافاً، فإنّ الجزاف ينافي الحكمة والله تبارك وتعالى منزّه عن ذلك. فلاحظ.

خلق هذه، وبين قوله وهو نهيه عنها[١].

بل قل: بين فعلية خلقه لها في العباد، وعقوبته لهم عليها في الدنيا ويوم المعاد[٢].

فيا لهفي عليهم وما يجدي ذلك لهم بعد ذهابهم الى ما ترى من نسبتهم هذه المناقضة الشنيعة الى العليم اللطيف البرّ الرحيم الحكيم المنزّه عما فيه شائبة نقص[٣].

---

(١) فإنّ التناقض بين الأمرين ـ أي بين أن يكون الله تعالى خالق الكفر والشرور والفساد وبين القول بأنّه سبحانه نهىٰ عن جميع ذلك ـ واضح لكل ذي فهم حتى الصبيان فلا حاجة إلى الكلام فيه أكثر من ذلك.

(٢) فإنّ التناقض واضح جداً إذ لو عرض النسبتين إلى شخص، فإنّ كل إنسان عاقل يذعن بالتناقض بين الفعلين ونسبتهما إلى الله سبحانه، فمن ناحية نسبوا اليه تعالى خلق أفعال العباد خيرها وشرها، ومن ناحية أُخرىٰ نسبوا اليه تعالىٰ أنّه يعاقب عباده على مباشرتهم الأعمال فكيف يمكن نسبة الفعلين اليه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٣) لا يخفى على الخبير ما يترتب على هذه النظرية والفكرة من النتائج الخطرة، أي الاعتقاد بأنّ الله تبارك وتعالى خالق للشرور والكفر والفساد ـ والعياذ بالله ـ فإنّ الانحراف إنّما يتّضح فيما لو درسنا آثار هذه الفكرة السيئة في مجال الأفعال الاختيارية للإنسان ومسؤوليته أمام خالقه، فانّ نتيجة هذا اللون من التفكير نفي فاعلية الإنسان وأهم خاصّته وميزته، وعدم فائدة كل الأنظمة التربوية والأخلاقية والقانونية والحقوقية بالنسبة إليه ومنها النظام التشريعي. وذلك أنا لو سلبنا الاختيار عن الإنسان علىٰ أيّ فعل من أفعاله، لما بقي موضع للمسؤولية والوظيفة والأمر والنهي والتكليف والجزاء والثواب والعقاب، بل لاستلزم عبثية النظام التكويني، وعدم غائيته؛ مع أنّ الهدف من خلق عالم الطبيعة توفير الأرضية لخلق الإنسان، ليتوصّل من خلال فعالياته وممارساته الاختيارية وعبادته وعبوديته لله تعالى، إلى أرفع الكمالات الإمكانية ومقام القرب الإلهي كما يدلّ على ذلك آيات كثيرة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ
⬅

ورابع عشرها: إنّ ما زعمه من وجود الحكمة في الكفر والفسوق والعصيان بعد تصريحه بأنّها غير مرضية لله وغير محبوبة له من عجائب تناقضه[1].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (سورة هود: ٧).

ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ...﴾ (سورة الملك: ٢).

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف: ٧).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة: ٧٢).

والى غير ذلك من الآيات فإنّها صريحة في أنّ الإنسان إنّما يصل المقامات العالية في الدنيا والآخرة بسبب أفعاله الاختيارية وأعماله العبادية، وأمّا لو رفضنا اختيار الإنسان وأنكرنا مسؤوليته، فلا يكون مستحقّاً للحصول على الثواب والنعم الخالدة والرضوان الإلهي، وبذلك سينقض الهدف من الخلق وينهار ويتحوّل نظام الخلق الى مسرح كبير يلعب فيه الناس وتحدث فيها الحركات والأفعال بدون إرادة منها، ولكن بعد ذلك سوف ينال البعض العقاب والمذمة وينال البعض الآخر الثواب والثناء من دون دخالة أي عمل في ذلك.

فإنّ من أهم العوامل التي أدّت إلى اتساع هذا الاتجاه الخطر والمنحرف هو المطامع السياسيّة للحكومات الجائرة المجرمة لتوجّه وتُبرّر بمثل هذه العقائد الباطلة تصرفاتها ومواقفها المنكرة، ولتفرض على الشعوب غير الواعية الإذعان لسلطانها، وتقبّل حكوماتها، دون أن تتحرك الجماهير الساحقة للثورة والانتفاضة بوجه هذه السلطات المجرمة، وحقّاً يلزم على الباحثين أن يدرسوا هذه الفكرة بصورة واعية ليعرفوا منهج الخلفاء الذين غصبوا حقوق أهل البيت عليهم السلام فإنّ هؤلاء التجؤا إلى هذا الانحراف الفكري لتقوية سلطنتهم على الناس وتحذير الشعوب ومتعهم من التفكّر والرشد العقلي اللازم في هذا المجال. فلاحظ.

(١) لا شكّ أنّ الحكمة من صفات الله سبحانه، كما أنّ الحكيم من أسمائه تعالى، وقد نصّ

➲ القرآن الكريم بذلك فقال تعالى: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورء النساء: ٢٦).

قال الغزالي: وقد دللنا على أنّه لا يعرف الله إلّا الله فيلزم أن يكون الحكيم الحق هو الله، لأنّه يعلم أصل الأشياء، وهو (العلم بأصل الأشياء) أصل العلوم، وهو علمه الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله، المطابق للعلوم مطابقة لا يتطرق إليها الخفاء ولا الشبهة (أنظر: الأسماء الحسنى: ص٢٧٩ـ٢٨٠).

فالحكيم هو من يكون فعله في غاية البداعة والإحكام والإتقان ويكفي في الاستدلال لاثبات وصف الحكمة لرب العالمين ندقق في أفعاله تعالى ومن أفعاله خلق هذا العالم الكبير المنظم بنظام بديع فإنّ كل من دقّق فيه يرى أنّ الخلق في كل نوع من أنواعه إنّما يكون بأفضل صورته والتي تناسبه الأجهزة والأدوات المُعدّة لها، وكل ذلك مظهر من مظاهر حكمة رب العالمين.

فعلى سبيل المثال: أنّ العين فيها ما يقارب إلى مائة وأربعين مليون مستقبل حسّاس للضوء وتسمىٰ بالمخاريط والعصي، وطبقة المخاريق العصي هذه واحدة من الطبقات العشر التي تشكّل شبكية العين، ولا يتجاور ثخانتها ـ بطبقاتها ـ العشر أربعة أعشار المليمتر الواحد، ويخرج من العين نصف مليون ليف عصبي ينقل الصورة بشكل ملون، وأمثال ذلك كثير مما لا تستوعبه السطور بل ولا الزبر، فإنّ العلوم الطبيعة أفضل دليل على وجود الحكمة الإلهية في الكون، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ أفعال الله تبارك وتعالى تكون قائمة علىٰ أساس الحكمة وفي غاية الكمال ونهاية التمام بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون وهل بعد ذلك يصح نسبه خلق فعل القبيح إلى الله عزوجل فانّ سبحانه وتعالى منزّه عن الفعل القبيح ومالا ينبغي فعله لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح.

ومن الواضح أن الكفر والفسوق والعصيان من القبائح كيف يمكن نسبتها إلى الباري عزوجل الخالق المتعال الحكيم على الإطلاق سبحانه وتعالى عما يصفون؛ فالتصديق بصفة الحكمة للباري تعالى مبني على قبول الحكم العقلي بالحسن والقبح مستقلّاً لأنّ العقل يدرك أنّ الغني بالذات منزّه عن الاتصاف بالقبيح وفعل ما لا ينبغي، وهذا هو الأساس في الحكم العقلي باتّصافه تعالى بالحكمة والعدل.

➲

فانظر هل تتصوّر وجود خير ومصلحة، في شيء ليس يُحبّه الله وليس يرضاه؟[(١)] فإنّ معنى الحكمة الخير والمصلحة والمنفعة وما هذه معناه يحبّه الله

ومن هنا يتّضح بطلان زعم القوم بأنّ خلق الكفر والفسوق والعصيان من أفعال الله سبحانه.
وخلاصة الكلام لو كان الله تبارك وتعالىٰ حكيماً عند علماء أهل السنة والجماعة فيلزم عليهم قبول لوازم هذا القول ومن لوازم هذا القول الالتزام بوجود الحكمة في أفعال رب العالمين ومعنى الحكمة أن تكون أفعاله سبحانه وتعالى مبنيّاً على الحسن والقبح العقلي وهذا معنى وجود الحكمة في أفعاله، وإذا كان الأمر كذلك كيف يمكن أن يكون الشيء القبيح حسناً فضلاً عن أن يكون فيه حكمة؟!! وكيف يمكن القول بأنّ الله تبارك وتعالى يرضى بفعل القبيح؟!!
فان الله تعالى انّما يرضى ويحب العبد إذا أتىٰ بوظيفة العبودية وكان يرىٰ نفسه خاضعاً لله عزوجل لا يؤوب إلّا الى ربه ولا يرجع إلّا اليه، كما قال تعالى في سليمان وأيوب: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (سورة صٓ: ٣٠ و ٤٤).
وهذا هو الرضى الحقيقي وهو مقام عظيم عند الله عزوجل، فإنّ الإنسان إذا كان عبداً حقيقياً للخالق جل وعلا فإنّ مقام العبودية يكون سبباً في شمول الإنسان بالرحمة الإلهية وفتح أبواب المعرفة والعلم في قلبه، والعبودية ولازمها طهارة النفس والاتصاف بالتقوى، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٧٦).
وقال تعالى: ﴿إِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المائدة: ٤٢).
فالله تبارك وتعالى يحب المتقين والمقسطين ويرضى عن المؤمنين الحقيقيين.
وفي حديث رواه مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً فيرضىٰ لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وإن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا... (صحيح مسلم ج٥: ص١٣٠ كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة) وإذا كان الله تعالى يحب العبد الصالح المتقي فكيف يصح نسبة خلق الكفر والعصيان والفسوق إليه؟!!

(١) من الواضح لدي الخبير أنّ الإرادة الإلهية لا تتعلق بإيجاد الشيء عبثاً وجزافاً وبدون حكمة ومصلحة، بل إنّما تتعلق الإرادة الإلهية بالشيء إذا كان فيه المصلحة وإنّ مفهوم

ويرضاه؟[١]

➲ المصلحة والحكمة وعنوانها مبنيان على الحكم العقلي المستقل في الحكم بالحسن والمصلحة والحكمة، لأنّ أفعاله تعالى الحكيمة والحكمة منشأها علمه تبارك وتعالى الذي هو من صفاته الذاتية وحبّه للكمال والخير، فأفعاله إنّما تصدر منه لعلمه بالمصالح فكل ما يفعله تبارك وتعالى حسن لأنّه مبني على الحكمة والوجه الحسن والكمال الغالب، ومن هنا تنتزع صفة أُخرىٰ لله تعالى من صفاته الفعلية التي تنتهي الى صفاته الذاتية كما أشرنا اليه سابقاً.

وعليه: فإنّ من الواضح أنّ الشيء الذي لا يحبّه الله ولا يرضىٰ به ليس فيه مصلحة أبداً كما في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ (سورة البقرة: ٢٠٥) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص: ٧٧).

فإنّ الإذعان بكونه تعالى لا يحب الفساد ولا يرضىٰ به كيف يمكن الجمع بينه وبين خلقه تعالى لفعل لا يحبه ولا يرضى به أن يخلق الفساد ليفسد في الأرض والحرث والنسل، ولذلك لو رجعت الى القرآن الكريم تجد حقيقة واضحة وهي البراءة من الفساد والكفر والفسوق و...

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ (سورة البقرة: ٢٠٤ و٢٠٥).

فإنّه تعالى بيّن في هذين الآيتين إنّ سوء سريرة بعض الناس قد يصل بهم الى أنّه إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، وأما الله تبارك وتعالى لا يحب الفساد، نعم الله تبارك وتعالى يفضح هؤلاء ويكشف عن سوء سريرتهم ليعلم الجميع أنّ أفعاله تعالى مبنية على الحكمة والمصلحة لا على الظلم والفساد والعدوان.

وفي الحقيقة: إنّ الله تبارك وتعالى قد بيّن في هذه الآية الكريمة أحد الأوصاف القبيحة والذميمة للمنافقين حيث أنّهم كانوا لا يستسلمون للحق بسبب التعصّب والتحجّر وقساوة القلب، وهذه الصفات تبلغ بصاحبه إلى أعلىٰ درجات الإثم، فمن البديهي أنّ الانحراف والفساد وما شابه ذلك إنّما يعرض للإنسان بسوء نيته وسوء سريرته وسوء أعماله والله تبارك وتعالى بريء من ذلك فكيف يمكن نسبة فعل الى الله سبحانه وهو بريء منه.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ الحكمة تطلق على معنيين:

⮌ **أحدهما**: كون الفعل في غاية الإحكام والإتقان وغاية الإتمام والإكمال، كما قال تعالى: ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (سورة هود: ١) فإنّ جميع آيات القرآن متقنة ومحكمة؛ لأنّ فيها تفصيل حاجات الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية ـ المادية والمعنوية ـ ومبيّن فيها جميع الأشياء في جميع الأزمنة والأعصار في العالم من غير تحديد ولا تعيين بسعة معنى الشيء، والى ذلك أشار مولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال في مقام بيان الحكمة الإلهية: بأنّه تعالى قدّر ما خلق فأحكم تقديره (نهج البلاغة: الخطبة رقم ٩١).

وثانيهما: إنّ الحكمة تطلق على فعل العاقل الذي يضع الأشياء في مواضعها من غير زيادة ونقصان فلا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب، فالعاقل الذي يكون أفعاله مبنية على الحكم العقلي المستقل، يصح اطلاق صفة الحكمة عليه وذلك لأنّ العقل يحكم من صميم ذاته بحسن الأشياء والأفعال وقبحها كما قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام في وصف العاقل: بأنّ العاقل من وضع الأشياء مواضعها والجاهل ضد ذلك (عيون الحكم والمواعظ: ص٢١ح ١٢٤).

وقال عليه السلام في حديثٍ آخر عندما سُئل عن العاقل؟ قال: إنّ العاقل هو الذي يضع الشيء مواضعه، فقيل: فصف لنا الجاهل؟ فقال: قد فعلت (نهج البلاغة: الحكمة رقم ٢٣٥). أي أنّ مقابله يكون الجاهل.

وعلى أي تقدير: فإنّ معنى الحكمة هو ما كان مطابقاًللحكم العقلي ولذا فسرّها الإمام عليه السلام بوضع الأشياء في موضعها لأنّ الحكمة مبنية على حكم العقل واذا كان العقل حاكماً في جميع الأشياء فهو يحكم بأنّ الحكيم منزّه عن فعل مالا ينبغي صدوره من العاقل، وقد عبّر عن هذا الحكم العقلي بالحكم العقل العملي الذي يبتني عليه مصالح العامة ودفع المفاسد والمضار العامة، وهذا الحكم انّ العقل يدرك حقائق الأشياء من دون لحاظ طائفة خاصة من الناس فيه دون الاخر منهم، بل الأمر مشترك بين الجميع والعقلاء يرون فيه من منظر العقل العملي التي تطابقت عليه الآراء المحمودة مثلاً: إنّ العقل يؤاخذ المجرم بجرمه ويستقبح عمله حقيقة ويمدح العادل بأفعاله الحسنة من دون مدخلية أي خصوصية فيه.

⮌

ومن المعلوم بضرورة الدين بغضه للكفر والفسوق والعصيان، وسخطه على من صدرت منه،[١] فكيف يتصوّر وجود خير فيها، وقد نهىٰ عنها، وتوعّد

➲ وعلى هذا الأساس فإنّ العقل يحكم بحسن جميع أفعال رب العالمين حيث أنّ فيها المصلحة والخير والمنفعة وهو مستقلّ في دركه، إذن إنّ الله تعالىٰ يرضىٰ ويحب العمل الجميل والحسن وانّ العقل مستقلاً يحكم بحسن فعل الجميل فلاحظ.

(١) لا شكّ أنّ التعدّي من حدود الله وحرماته يوجب سخط رب العالمين، لأنّ العبد إذا اقتحم نفسه في الكفر والفسوق والعصيان والفساد سوف يجد عواقبه الوخيمة المترتبة على أعماله الشنيعة وعقائده الفاسدة، فالأعمال السيئة تجرّ الإنسان إلى سخط الله وخلوده بالعذاب.

ومن الواضح لدى الخبير أنّ غضب الله لا يعني به التأثير النفسي كما أنّ رضاه لا يعني به انبساط الروح وانشراح الأسارير؛ لأنّ كل ذلك محال لرب العالمين كما سيتّضح في محله، بل هما كما ورد في الأحاديث المتفقة بين المسلمين يتأوّلان إلى العقاب والثواب، فإنّ الغضب بالنسبة إلى الله سبحانه عبارة عن عقابه، وإنّ الرضى بالنسبة اليه عبارة عن ثوابه.

ففي حديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله إذا أحب عبداً دعا جبرئيل فقال: إنّي أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبّه جبرئيل، ثم ينادي في السماء فيقول: إنّ الله يحب فلاناً فأحبّوه فيحبّه أهل السماء، ثم قال: يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبداً دعا جبرئيل فيقول: إنّي أبغض فلاناً فأبغضوه قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض (صحيح مسلم ج٨:ص٤٠ كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً أحببه لعباده).

وأخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد ج٨:ص١٩٥ غير أنّه لم يذكر ذيل الحديث وهو قوله ﷺ: اذا أبغض عبداً دعا جبرئيل...

أقول: ولعل البخاري إنّما أبتر الحديث كعادته لأنّه فهم أنّ ذيل الحديث تمس كرامة الصحابة إذ المستفاد من الحديث أنّ بعض الصحابة تشملهم غضب رب العالمين لأنّ البخاري يعلم هناك أحاديث كثيرة تدل بالصراحة على أنّ غضب أهل بيت النبي عليهم السلام هو غضب رسول الله ﷺ وغضب رسول الله غضب الله عزوجل.

ففي حديث رواه الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: ➲

➲ والذي نفسي بيده! لا يبغضنا أهل البيت أحد إلّا أدخله الله النار (المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج٣:ص١٥٠).

وأيضاً ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أحبّني فليحبّ علياً، ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله ومن أبغض الله أدخله النار (أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ج١٣:ص٣٤، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص٢٨٤، وابن حجر الهيثمي في صواعقه: ص٢٣٠ وغيرهم).

فالبخاري كان يعلم علماً ضرورياً بأنّ كثيراً من هذه الأحاديث صحيحة الإسناد عند علماء أهل السنّة والجماعة وهي موجودة في المصادر الروائية الصحيحة منهم، ومن ناحية يعلم بأنّ الضرورة التاريخية مقتضية على أنّ كثيراً من الصحابة قد آذوا أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من يوم السقيفة وما بعدها من أصحاب الجمل وصفين وغيرها فكانوا يبغضون أهل البيت عليهم السلام سيّما الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام وحتى أنّ البخاري نفسه روىٰ في صحيحه عن عائشة: أنّ أبابكر أبىٰ أن يدفع فدك إلى فاطمة، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلّمه حتى توفّيت، فلمّا توفّيت دفنها زوجها علي عليه السلام ليلاً ولم يؤذن بها أبابكر، وصلّىٰ عليها الإمام عليه السلام ودفنها سراً (اُنظر: صيحح البخاري ج٥:ص٨٢ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر).

وأيضاً روىٰ البخاري في صحيحه عن مسور بن مخرمة: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني (صحيح البخاري ج٤:ص٢١٠ كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين).

فكان البخاري يعلم بأنّ بغض أهل البيت عليهم السلام مساوق لبغض الله عزوجل لأنّ بغض أهل البيت عليهم السلام بغض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبغض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغض الله، فأبتر هذا الحديث لئلّا ينكشف للباحثين حقيقة الأمر وهي: أنّ أكثر صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشملهم ذيل الحديث.

وخلاصة الكلام: أنّ الله تبارك وتعالى يبغض العمل القبيح ومن أشد البغض هو البغض الحاصل من العداء للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأوصيائه المقرّبين عليهم السلام، فمن أبغضهم فقد أبغض الله ومن أبغض الله فهو في النار ويشمله العذاب الإلهي في الدنيا والآخرة.

➲

بالعقوبات من فعلها، ومن عاون عليها؟[١]

وقد وردت الأخبار والروايات الكثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ما تدلّ على المقام.

منها: ما رواه الشيخ الصدوق ﴿رحمه الله﴾ في كتابه معاني الأخبار بسنده عن المفضّل بن عمر، قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: إنّ من قبلنا يقولون: إنّ الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نوه به منوه من السماء أنّ الله يحب فلاناً فأحبوه، فتلقىٰ له المحبة في قلوب العباد، فإذا أبغض الله تعالى عبداً نوه منوه من السماء أنّ الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيلقي الله له البغضاء في قلوب العباد. قال: كان عليه السلام متكئاً فاستوىٰ جالساً فنفض يده ثلاث مرات يقول: لا، ليس كما يقولون ولكن الله عزوجل إذا أحب عبداً أغرىٰ به الناس في الأرض ليقولوا فيه فيؤثمهم ويأجره، وإذا أبغض الله عبداً حبّبه إلى الناس ليقولوا فيه فيؤثمهم ويؤثمه. ثم قال عليه السلام: من كان أحب الى الله من يحيىٰ بن زكريا عليه السلام؟ أغراهم به حتى قتلوه، ومن كان أحب الى الله من علي بن أبي طالب عليه السلام؟ فلقىٰ من الناس ما قد علمتم، ومن كان أحب إلى الله تعالى من الحسين بن علي ﴿صلوات الله عليه﴾ فأغراهم به حتى قتلوه (معاني الأخبار:ص٣٨٢ح١١).

وفي حديثٍ آخر: أنّ رجلاً من أهل الكوفة كتب الى مولانا أبي عبدالله الحسين عليه السلام: يا سيدي، أخبرني بخير الدنيا والآخرة؟ فكتب اليه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد... فإنّه من طلب رضى الله بسخط الناس كفاه الله أُمور الناس، ومن طلب رضى الناس بسخط الله وكّله الله إلى الناس، والسلام (الأمالي للشيخ الصدوق: ص١٢١).

وفي رواية أُخرىٰ: كتب مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام لمحمد بن أبي بكر: ان إستطعت أن لا تسخط ربك برضى أحد من خلقه فافعل فإنّ في الله عزوجل خلقاً من غيره، وليس شيء سواه خلف منه (الامالي للشيخ الطوسي: ص٢٩) والى غير ذلك من الروايات.

وعلى كل تقدير: فإنّ بغضه تعالى بالنسبة إلى الكفّار والعصاة والفسّاق واضح ظاهر لأنّ كل ذلك يحصل بسبب مخالفة الله عزوجل ومخالفة آياته وحججه، وهذه المخالفة تؤدي إلى سخط الله عزوجل ثم غضبه وعذابه فلاحظ.

(١) لايخفى أنّ الفعل المنكر ليس فيه جهة الخير؛ لأنّ المنكر هو الفعل القبيح، والشاهد على ذلك أنّ غالب الأفعال المنكرة تنفر منه طبع الإنسان عند دركه ودرك آثار السوء المترتبة

ولو كان في هذه خير لبعض الناس، الذين لم يفعلوها لم ينه سبحانه عنها على تقدير غلبة جهة الخير على جهة الشر، ولم يتوعّد العقوبة على فعلها[١]، وحيث علمنا بنهيه سبحانه درينا بأنّها إمّا فاقدة لجهة الخير، وإمّا جهة الخير فيها مغلوبة حسبما بيّن ذلك سبحانه في الخمر والميسر بقوله: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَفْعِهِمَا﴾[٢].

عليه. ولا شك أنّ فعل القبيح مما يستحق فاعله الذم، فإذا كان العقل المستقل يحكم بقبح الفعل المنكر فمعناه أنّ فعل المنكر يكون مذموماً عند العقلاء، وإذا كان الفعل مذموماً لدى العقلاء كيف يصح نسبته إلى الشارع الأقدس الذي هو رئيس العقلاء وانّ طريقته طريقة العقلاء.

والخبير يعلم أنّ المنكرات والفواحش التي نهى الله سبحانه عنها كلها قبيحة عند العقل، فإنّ العقل يدرك من صميم ذاته قبح جميع الفواحش والفسوق، فلا معنىً للاستثناء في حكم العقل، ففي كل منكر أنّ العقلاء يذمون فاعله لارتكابهم الفعل المنكر، ومن الواضح أنّ ذم الشارع الأقدس لفعل منكر والتوعّد عليه بالعقوبة دليل على أنّه لا يكون خالقاً للفعل المنكر وإلّا فقد خالف هو طريقة نفسه التي هي طريقة العقلاء ـ والعياذ بالله ـ فعقابه ومجازاته للعمل المنكر دليل على أنّه لا يكون خالقاً له.

(١) لأنّ النهي عن تلك الفسوق والعصيان يصبح أمراً لغواً اذ لو كان في خلق الشرور والمنكرات جهة الخير الغالب لبعض الناس لكان نهي الشارع عن ذلك بصورة عام منعاً للخير في بعض الموارد فإنّ نهي الشارع وردعه عن الفسوق والمنكرات والشرور بصورة عامة ومطلقة دليل على أنّه ليس فيها جهة الخير وإلّا للزم القول بأنّ الشارع منع وردع عن الخير في تلك الجهة الخاصة فنهي الشارع عن تلك الأفعال المنكرة دليل على أنّه لم تكن في الأفعال المنكرة جهة الخير بل من المسلّم أنّ جهة الخير تكون فيه مقلوبة بحيث يصح سلب عنوان الخير عنه.

وبعبارة أوضح: أنّ نهي الشارع دليل على قبح العمل والعمل القبيح ليس فيه جهة الحسن لأنّ الدليل العقلي لا يصح فيه الاستثناء كما هو واضح لدى الخبير.

(٢) قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا

﴿أَكْبَرُ مِن نَفْعِهِمَا﴾ (سورة البقرة: ٢١٩) فأخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أنّ في الخمر والميسر إثماً كبيراً، وايضاً أخبر تعالى أنّ فيها منافع للناس، ثم قال: «إثمهما أكبر من نفعهما»، أي أنّ النفع الذي فرض فيهما لا يعتنىٰ به عند العقلاء مع وجود الإثم الأكبر فيهما، وهذا الخطاب إنّما هو في المرحلة الأُولىٰ مع الالتفات إلى المجتمع الجاهلي الذي كان غارقاً في الخمر والقمار، ولذلك جاء الحكم بتحريمهما بشكل تدريجي وعلى مراحل، كما نرىٰ من اللين والمداراة والأُسلوب الهادئ في لحن الآية الكريمة، وفي هذه الآية الكريمة وردت مقايسة بين منافع الخمر والميسر وأضرارهما وأثبتت أنّ ضررهما وإثمهما أكثر من نفعهما وذلك لأنّ هناك منافع مادّية للخمر والقمار أحياناً يحصل عليها الفرد عن طريق بيع الخمر أو مزاولة القمار، أي تلك المنفعة الخيالية التي تحصل عن المسكر وتخدير العقل والغفلة عن الهموم والغموم والأحزان إلّا أنّ هذه المنافع ضئيلة جداً بالنسبة إلى الأضرار الأخلاقية والاجتماعية والصحية الكثيرة المترتبة على هذين الفعلين.

وبناءً على ذلك: فإنّ الإنسان العاقل لا يقدم الإضرار بنفسه كثيراً من أجل نفع ضئيل.

والإثم بمعنى: كل شيء يؤثر تأثيراً سلبياً في روح وعقل الإنسان ويعيقه عن الوصول إلى الكمالات والخيرات، فعلى هذا يكون وجود الإثم الكبير أي الخمر والقمار دليل على التأثير السلبي لهما في وصول الانسان الى التقوىٰ والكمالات المعنوية والإنسانية وقيل المراد بالإثم هو «الخمر» كما قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي كذلك الإثم يذهب بالعقول

وعلى كل حال: فإنّ الله تبارك وتعالى حرّم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة إذ فيهما من المفسدة الغالبة المانعة من تحقق الكمال والسعادة للإنسان، فإنّ اللحن في النفع فيهما وإن كان بأُسلوب هادئ إلّا أنّه دال على الحرمة لأنّ المفسدة الغالبة الدالة على حرمتهما لا تبقي مجالاً لتلك المنفعة الخيالية التي لا أثر لها في قبال مفاسدها.

والشاهد على ذلك: الآيات التي جاءت في المرحلة الثانية والثالثة؛ فانّ في المرحلة الثانية نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة المائدة: ٩٠) فإنّ إستعمال «إنّما» التي تعني الحصر تؤكّد على أهمية

وبالجملة: فالنهي دليل إمّا على وجود محض الشَّر في المنهي عنه، وإمّا دليل على غلبته على الخير، فليس في البين خير فيه مصلحة من حيث غلبة الشَّر عليه(١).

الأمر في الحرمة بحيث وضعت هذه الآية الخمر والقمار الى جانب الأنصاب وهي قطع أحجار صورة لها تتخذ كالأصنام للدلالة على أنّ الخمر والقمار لا يقلّان ضرراً عن عبادة الأصنام، ولذلك ورد في الحديث عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم قال: شارب الخمر كعابد الوثن (أنظر: تفسير الطبري ج٧:ص٣١، وتفسير نور الثقلين ج١:ص٩٦) ثم أكّدت الآية الكريمة بأنّ هذه الأعمال القبيحة كلها من أعمال الشيطان ولابد من الانفصال والابتعاد عنها فشدّد تعالى النهي فيهما.

ثم في المرحلة الثالثة نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللهِ وَعَنِ ٱلصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (سورة المائدة: ٩١) فإنّ استعمال فعل المضارع في قوله تعالى «يريد» دلالة على استمرار إرادة الشيطان على هذا النحو، والاستعمال القرآني لكلمة الشيطان يشمل حتى أفراد البشر المفسدين المعاندين للدعوة الإلهية كقوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ﴾ (سورة الأنعام: ١١٢) فالآية الكريمة تعدّد بعض أضرار الخمر والقمار التي يريد الشيطان أن يوقعها بهم، وذلك أنّ الله تعالى عرف الشيطان في كلامه بأنّه عدو للإنسان لا يريد به خيراً البتة كما قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة يوسف: ٥) قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ (سورة الحج: ٤).

فكل ذلك تدلّ على أنّ الشيء الذي حرّمه الشارع فيه المفسدة الغالبة التي ليس تعبير النفع القليل فيه بشيء أي لا يترتب العقلاء عليه أثر حيث أنّ النفع القليل الذي هو ملحق بالعدم يصح سلب عنوان النفع عنه عقلاً وعقلائياً. فلاحظ.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ مفهوم الشر مفهوم جامع الأُمور القبيحة عند الشرع والعرف والعقل فهو مفهوم كلي يندرج تحته أفراد كثيرة مما ينطبق عليه عنوان الشر وهو في مقابل الخير الذي مفهومه أيضاً يكون كلياً جامعاً لجميع الأُمور الحسنة، فالخير والشر ضدان لا يجتمعان

وخامس عشرها: إنّ ما تعرّض له من مسألة التسلسل هنا وبيان ردّه ليس له دخل بما ذهبت اليه اثنى عشرية الشيعة(١)، فليس علينا التعرّض له، خصوصاً

➲ في شيءٍ واحد من جهة واحدة، فإنّ الشر يستلزم الفساد والمفسدة والخير يستلزم المصلحة والفرق بينهما واضح بداهة قبح الشر وحسن الخير، وعليه: فإنّ الشر الغالب ليس فيه جهة المصلحة لأنّ الشر الغالب يستلزم فساد الغالب والفساد الغالب لا يجتمع مع المصلحة، فإنّ العقل حاكم بقبح الشر الغالب لجهة غلبة الفساد والمفسدة فيه كما هو ظاهر واضح. كما أنّ معنى العقلائي العرفي له سئل المعنى العقلي فانّ الشرّ عرفاً يطلق على ما يضاد الخير كما ورد هذا المعني في اللغة فمفهوم الشرّ واسع جداً والشرع المقدس ايضاً بمعنى ما يقابل الخير وتفصيل البحث موكول الى محله.

(١) فإنّ التسلسل عبارة عن ترتّب العلل والمعاليل الممكنة بحيث يكون السابق علة في وجود لاحقه وهكذا إلى مالا نهاية كترتب (أ) مثلاً على (ب) والثاني على (ج) والثالث على الرابع وهكذا إلى ما لا نهاية له، فإنّ كّلاً من الأُمور الممكنة يكون معلولاً لما فوقه وعلة لما دونه، فالمعلولية وصف مشترك بين جميع المعاليل المرتبة في سلسلة العلل والمعاليل كما أنّ العلة لن تقف حتى يكون أوّل السلسلة غير معلول، فكل معلول محتاج الى العلة وكل حادث يحتاج في حدوثه إلى محدث فالعلة الممكنة أيضاً محتاجة في وجوده الى العلل الأُخرىٰ وهكذا يتسلسل الأمر إلى مالا نهاية، وهذا لا يرتبط بما ذكره الشيعة في باب قانون العلية والمعلولية بمعنى: أنّ كل موجود ممكن يحتاج في وجوده إلى العلة فإنّ قانون العلية قانون كلي ونظام سائر ونافذ في عالم الموجودات الممكنة وهو مرتبط بوجود الأسباب والمسبّبات.

فالشيعة الإمامية في هذا المجال يقولون: إنّ الدليل قائم على أنّ الله تبارك وتعالى قد جرت سنته على أن يجري الأُمور بأسبابها بمعنى: أنّه تعالى يريد عقيب كل علة معلول وكل ممكن محتاج إلى مؤثر، فلا يمكن للمعلول أن يوجد بدون علتها في هذا الكون الفسيح، فكل حادث محتاج الى محدث وعلة بقانون المذكور حتى معجزة الأنبياء وكرامات الأولياء فإنّها غير مستثناة من هذا الحكم والقانون، غاية الأمر أنّ العلية في باب المعجزات والكرامات ليست من سنخ العلل الطبيعية، والشرائط المادية. فهناك توجد علل وأسباب مؤثرة ولكن ➲

بعدما عرفته من عدم ذهاب جمهور من تسمى بأهل السنّة وغيرهم، مثل المعتزلة ومن تابعهم الى القول بالحكمة لفظاً ومعنىً[1].

← نحن لم نكن نعتادها فهي أُمور لها أسبابها الخاصة المؤثرة بإذن الله تبارك وتعالى، فقانون العلية ونظام السببية أمر لا يمكن إنكاره عقلاً ووجداناً، وقد أيده القرآن الكريم ضمن آيات كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّماءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (سورة الروم: ٤٨) فهذه الآية الكريمة صرحت بتأثير الرياح في تحريك السحاب وسوقها، والى غير ذلك من الآيات المباركة الدالة على المقام.

إذن لا ريب في وجود قانون العلية والمعلولية في الموجودات الممكنة وأين هذا من القول بالتسلسل في العلل، فإنّ من الواضح أنّ كلّ شيء مخلوق لله سبحانه إمّا بلا واسطة وإمّا مع الواسطة، فلا مانع من القول بأنّ المعلول يوجد بوجود علته ولاتنافي بين ذلك، وقولك: إنّ الله تعالى خالق لجميع الأشياء لأنّه تعالى هو الذي أعطى القدرة والسببية لوجود العلة حتى يتولد منه المعلول فوجود العلة ليس في عرض الله لأنّ العلة وجودها ممكن والله سبحانه وجوده واجب فنظام العلية والأسباب بقدرة الله سبحانه فالله تبارك وتعالى هو الذي يرسل الرياح مؤثراً في تحريك السحاب، وأمّا في باب قانون العلية أنّ تحريك السحاب بتأثير الرياح كما أنّ الإنسان يتحرّك بإرادته ويفعل ما يريد ولكن إرادته تكون بقدرة الله ولا منافاة في البين، فالعلة الممكنة مؤثرة في المعلول بإذن الله، وهكذا كل علة حادثة تحتاج الى علّة أخرىٰ إلى أن ينتهي الأمر الى علة واجب الوجود فينقطع التسلسل كما لا يخفى.

(١) فإنّ الأشاعرة وهم الذين يمثّلون أكثرية أهل السنّة والجماعة ينكرون التحسين والتقبيح العقليين ويجوّزون تخلّف المعلول عن العلة لأنّهم يقولون: لا شأن للعقل في الحكم بحسن الأشياء وقبحها انّما الحسن ما حسّنه الشرع والقبيح ما قبّحه الشرع، فإنّ مرتبة العقل عندهم بعد مرتبة الشرع.

وعلى هذا المنبىٰ يقولون: أنّ أفعال الله سبحانه ليست معللة بالأغراض والغايات لأنّه لا يجب على الله شيء ولا يقبح منه شيء كما يقولون: بأنّ أفعاله تعالى ليست مبنية على الحكمة لأنّ الحكمة عبارة عن اعطاء كل ذي حق حقه أو وضع الشيء في محله، وحيث ذهبوا إلى أنّه: لا يجب على الله شيء، فلا يلتزمون بهذا الحكم العقلي وهو الحكم بأنّ الحكيم لا يصدر منه ←

فأيّ ثمرة بالتعرّض لما يلزم المذهب الفاسد بعد تبيّن فساد نفس الملزوم بأنّه كذب بيّن(١).

⬅ فعل القبيح ولا يترك الحسن، وأنّ عدم إعطاء كل ذي حق حقه ظلم، وأنّ وضع الشيء في غير محله عبث وقبيح لأنّ هذه الأحكام إنّما متوقّفة على الحكم العقلي والقول بالتحسين والتقبيح العقليين والأشاعرة ينكرونها.

وعليه: فإنّ أكثر أهل السنّة ينكرون هذا الحكم العقلي، فلا يلتزمون بأنّ أفعال الله سبحانه مبنية على الحكم والمصالح لأنّ الحكمة من ثمرات الحكم العقلي المستقل وهم ينكرونه.

وأمّا المعتزلة فإنّهم وإن وافقوا الشيعة في قبول الحكم العقلي وآثاره العملية كالقول بالحكمة في أفعال الله سبحانه إلّا أنّهم كبقية أهل السنّة لم يلتزموا بلوازم هذا الحكم العقلي في باب الامامة والخلافة حيث أنّهم التزموا فيها بخلافة أبي بكر بن أبي قحافة مع تصريحهم بانّ خلافته لم تكن بتعيين من الله سبحانه وهذا مخالف لما بنوا عليه في باب أفعال الله سبحانه وقاعدة اللطف التي يترتب عليها لزوم بعث الأنبياء ونصب الأوصياء والأئمة المعصومين عليهم السلام فإنّ الحكم العقلي على مبناهم مستقل في وجوب نصب الإمام من قبل الله تعالى من باب اللطف فهم ينكرون هذه الضرورة العقلية مع التزامهم بلزوم العمل مطابقاً للحكم العقلي.

وعلى أي حال، فإنّ جميع أهل السنّة لا يلتزمون عملاً بهذا الحكم العقلي الذي يتولد منه الاعتقاد بأنّ أفعال الله تبارك وتعالى مبنية على الحكمة والمصلحة فلاحظ.

(١) إذ من الواضح لدى الخبير أنّ من ثمرات الحكم العقلي والتحسين والتقبيح العقليين هي القول بالحكمة والمصلحة في أفعال رب العالمين، وذلك لأنّ الله تبارك وتعالى لا يفعل القبيح ولا يترك الحسن، إذ لو أراد تعالى أن يترك الفعل الحسن أو أراد أن يفعل القبيح لخالف الحكمة ومخالفة الحكمة يعدّ جهلاً والجهل بعيد عن ساحته المقدسة.

وبعبارة أُخرى: إنّ علمه الأزلي هو السبب في أن لا يفعل قبيحاً ويعطي حق كل ذي حق، فإنّ عدم إعطاء كل ذي حق حقه ظلم وقبيح، كما أنّ وضع الشيء في غير محله عبث وقبيح والله سبحانه وتعالى منزّه عن الفعل القبيح، فمن لا يفعل القبيح لا يترك الفعل الحسن ومن يكون كذلك فهو حكيم، وإذا كان أهل السنّة لا يلتزمون بهذا الحكم العقلي أو لا يلتزمون بلوازم هذا الحكم فيعرف مدىٰ اعتقاداتهم لأنّ جميع الامور الاعتقادية مبنية على الحكم العقلي، ⬅

➲ وأنّ العقل أساس في الاعتقادات، فإذا كان العقل عندهم في هذه المرتبة من العمل به فيعرف أنّ اعتقاداتهم في أي المرتبة، فتبيّن أنّ مذهب الأشاعرة والمعتزلة وجميع أهل السنّة والجماعة في غاية الانحطاط كما تبيّن ذلك للقارئ الكريم من خلال المباحث السابقة. فلاحظ.

قال السنّي:

في جملة مقال له، وقيل: إنّ علياً عليه السلام طلب مَن سبَّ أبابكر وعمر ليقتله فهرب منه الى قرقيسيا، وأمّا المفضّلة الذين يفضّلونه على أبي بكر وعمر، فروي عنه أنّه قال: يضرب مفضّله عليهما حدّ المفتري.

قال: وقد روى عنه أكثر من ثمانين ثقة أنّه قال على المنبر: خير أُمة رسول الله بعده أبوبكر وعمر، وهو ثابت في البخاري... (إلى أن قال:) فإن قلتم: لا يعقل فاعل لا يريد إلّا وهو عابث قيل لكم ولا نعقل فاعلاً يحدث شيئاً بغير سبب حادث أصلاً، بل هذا أشدّ امتناعاً في العقل من ذلك، فلماذا أثبتم الغاية ونفيتم السبب الحادث، وقيل لكم أيضاً الذي يعقل من الفاعل أن يفعل لغاية تعود اليه، وأمّا فاعل يفعل لغاية تعود الى غيره فهذا غير معقول... (إلى أن قال): وأنّه وإن كان قول بعض أهل السنّة ضعيفاً فقول الشيعة أضعف منه. انتهى ملخّصا[1].

(١) منهاج السنّة ج١:ص٣٠٧ـ٣٠٨.

قلت:

في هذه وجوه من تشييد الباطل وكتمان الحق المعلوم ثبوته بالنسبة.

أحدها: ما زعمه من طلب من سبّ الشيخين ليقتله علي عليه السلام فإنّه دعوى منه ليس له عليها بيّنة،(١)

(١) لا شكّ أنّ هذه الفرية والتهمة التي ألصقها ابن تيمية بمولانا أميرالمؤمنين عليه السلام لا يوجد في مصدر من المصادر، وإنّما انفرد بها ابن تيمية نفسه فقط في عدة مواضع من كتبه، فذكرها في كتابه «مجموع الفتاوى ج٣٥:ص١٨٥» ولم يذكر فيه اسم الشخص الذي سب الشيخين. ومثله في كتابه منهاج السنّة ج١:ص٣٠٧ـ٣٠٨.

ثم ذكر في منهاج السنّة ج٨:ص٣٧٩ هذا الخبر ونسبه إلى عبدالله بن سبأ، ونحن تتبّعنا المصادر فلم نجده في مظان وجوده شيء من هذا الخبر المزعوم، ولا يخفى الأمر على الباحثين الذين لهم الممارسة في كتب الحديث والتاريخ والسيرة وغير ذلك لا سيما في عصرنا الحاضر مع وفور أجهزة التحقيق والحاسب الآلي والأقراص المدمجة فيها الكتب، فيمكن لكل أحد أن يستكشف الحقيقة بأسرع وقت.

وإذا كان مقصود ابن تيمية من ذاك الشخص هو عبدالله بن سبأ، فإنّ من الواضح لدى الجميع أنّ عبدالله بن سبأ كان يدعي النبوة ويزعم أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام هو الله، فبلغ ذلك أميرالمؤمنين عليه السلام فدعاه وسأله فأقر بذلك، وقال: أنت هو، فقال له: ويلك! قد سخر منك الشيطان فارجع عن هذا ثكلتك أُمك وتُب، فلمّا أبىٰ حبسه واستتابه ثلاثة أيام فأحرقه بالنار (انتهى) (أُنظر: مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب ج١: ص٢٢٧).

⇐

بـــل البـــيّنات العـــديدة دلّت عـــلى كـــذبها، مـــنها: خـــبر الثـــقلين[1]

فليس هناك أنّ عبدالله بن سبأ كان يسب الشيخين وإنّما نسب ابن تيمية له ذلك ليثبت بـه مشروعية خلافة أبي بكر وعمر بالإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولكنه غـفل عن أنّ الباحثين يعلمون أنّ القرآن الكريم جوّز سب المضلّين الذين أضلوا الناس وصـدوا عن سبيل الله في قوله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللهِ مَن لَعَنَهُ ٱللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَـن سَـوَاءِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ (سورة المائدة: ٦٠).

فيعلم الخبير أنّ مثل مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام الذي هو عِدل القرآن لا يخالف القرآن فلا يعاقب من يعتقد شيئاً ويكون مستنده القرآن الكريم، فإنّه إذا كان أحد يفعل فعلاً وله الدليل عـلى جواز ذلك الفعل من القرآن الكريم، فمن الواضح أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام يعرف القرآن كله فاذا كان استدلال ذلك الشخص بالقرآن الكريم صحيحاً فانّ امير المؤمنين عليه السلام لا يخالف القرآن.

فإذا استدل ساب الشيخين بالقرآن على جوازفعله وأثبت بالقرآن الكريم على أنّ الآية الكريمة تجوّز له سبّهما من باب أنّهما ممن غضب الله عليهما فهل لأحد أن يرد القرآن الكريم فهنا يلزم على كل مسلم أن يناظر معه ويبحث معه حول الدليل والمجوّز لذلك، فإن أمكنهم الردّ عليه فهو وإلّا فمن القطع واليقين أنّ مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام لا يخالف القرآن فلا يعاقب من جوّز ذلك بكتاب الله العزيز. سيأتي توضيح البحث في محله إن شاء الله تعالى.

(١) إنّ حديث الثقلين من الأحاديث الإسلامية المتواترة التي رواها علماء الإسلام فـي كـتبهم الحديثية وله طرق متعددة.

قال ابن حجر الهيثمي في كتابه الصواعق المحرقة: اعلم أنّ لحديث التمسّك، بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً ... (الصواعق المحرقة: ص١٣٦).

وقد اهتمّت مؤسسة الإمام الباقر عليه السلام بجمع الأحاديث الواردة عن طرق أهل السنّة في موسوعته الموسومة بكتاب الله وأهل البيت عليهم السلام ووصل العدد بهم إلى سبعة وأربعين صحابياً الذيـن رووا هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن الطبيعي: أنّه لا يسعنا المجال لاستقصاء هذا العدد الكبير من الروايات في المقام، والمهم إنّ أكثر الجوامع الحديثية من أهل السنّة رووا هذا الحديث وقد شهد جماعة منهم بصحة إسناده

➲ مما يوجب القطع واليقين لهم بصدور الحديث عن النبيﷺ فلا يمكن إنكاره والتجاهل به أو التضعيف من شأنه، فإنّ الحديث في غاية القوة والإجادة من جهة السند وكذلك من جهة المتن، فيجب علينا أن ندرس معطياته بصورة واعية لأنّ أهمية الدراية تفوق أهمية الرواية ولا زلنا بحاجة إلى تكريس الجهود ومضاعفتها نحو الفهم الصحيح لهذا الحديث وهو حديث واضح في مدلوله وفي معناه.

ولنذكر أوّلاً بعض ألفاظ هذا الحديث ثم ندرس معطياته بشكل موجز.

فممن روىٰ هذا الحديث الترمذي في صحيحه بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال :قال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس، إنّى تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي (سنن الترمذي ج٥:ص٦٦٢ح٣٧٨٦، ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت).

وأيضاً في صحيح الترمذي بإسناده عن زيد بن أرقم قال: قال رسول اللهﷺ: إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما (سنن الترمذي ج٥:ص٦٦٣ح٣٧٨٨).

فهذان لفظان من ألفاظ حديث الثقلين عن صحابيين من له رواة هذا الحديث، وقد اعترف الترمذي وغيره صحة سندهما والأحاديث واضحة الدلالة في وجوب الاتباع والانقياد لأهل بيت النبيﷺ والإطاعة لهم لأنّ النبيﷺ جعل أهل بيته عدلاً لكتاب الله المجيد، الذي يجب على كل مسلم التبعية منه وإن كنتم في شكّ من ذلك فبامكانكم أن ترجعوا إلى كتب علماء أهل السنّة وتبحثون عن شرح هذا الحديث.

فعلى سبيل المثال: راجع كتاب فيض القدير في شرح جامع الصغير، وإلى المرقاة في شرح المشكاة، وإلى نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، وإلى شرح المواهب اللدنية، والسراج المنير في شرح الجامع الصغير وغير ذلك، ونحن نذكر بعض ما جاء في كتبهم من شرح هذا الحديث الشريف.

قال ابن حجر الهيثمي في كتابه الصواعق المحرقة الذي ألّفه للردّ على الشيعة ما هذا لفظه: تنبيه، سمّىٰ رسول اللهﷺ القرآن وعترته وهي بالمثناة الفوقية الأهل والنسل والرهط الأدنون، ➲

➲ ثقلين لأنّ الثقل كل نفيس خطير مصون وهذان كذلك، إذ كل منهما معدن للعلوم الدينية والأسرار والحكم العليّة والأحكام الشرعية.

ولذا حثّ ﷺ على الإقتداء والتمسّك بهم والتعلّم منهم، وقال: «الحمدلله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت».

وقيل: سمّيا ثقلين لثقل وجوب رعاية حقوقهما ثمّ الذين وقع الحثّ عليهم منهم إنّما هم العارفون بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض، ويؤيده الخبر السابق: «ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم» وتميزوا بذلك عن بقية العلماء؛ لأنّ الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وشرفّهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة، وقد مرّ بعضها وسيأتي الخبر الذي في قريش.... ثم أحق من يتمسك به منهم امامهم وعالمهم علي بن أبي طالب كرم الله وجه لما قدمنا من مزيد علمه ودقائق مستنبطاته، ومن ثم قال أبوبكر: عليّ عترة رسول الله ﷺ أي الذين حثّ على التمسك بهم فخصه لما قلنا وكذلك خصّه بما مر يوم غدير خمّ... (أُنظر: الصواعق المحرقة: ص١٥١ في الباب الحادي عشر، في فضائل أهل البيت عليهم السلام الفصل الأوّل، في الآيات الواردة فيهم).

وقال المناوي في كتابه فيض القدير في شرح هذا الحديث ما هذا لفظه: في هذا الحديث تصريح بأنّهما ـ أي القرآن والعترة الطاهرة ـ كتوأمين خلّفهما وأوصىٰ أُمته بحسن معاملتهما، وإيثار حقهما على أنفسهم، والاستمساك بهما في الدين (فيض القدير في شرح الجامع الصغير ج٣:ص١٥).

وقال القاري في المرقاة: الأظهر أنّ أهل البيت غالباً يكونون أعرف بصاحب البيت وأحواله، فالمراد بهم أهل العلم منهم المطلعون على سيرته، الواقفون على طريقته، العارفون بحكمه وحكمته، وبهذا يصلح أن يكونوا عدلاً لكتاب الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿**يعلّمهم الكتاب والحكمة...**﴾ (المرقاة في شرح المشكاة ج٥:ص٦٠٠).

وقال السمهودي في تنبيهاته: ثانيها: الذين وقع الحث على التمسّك بهم من أهل بيت النبوي والعترة الطاهرة، هم العلماء بكتاب الله عزوجل؛ إذ لا يحث ﷺ على التمسّك بغيرهم، وهم الذين لا يقع بينهم وبين الكتاب افتراق حتى يردا الحوض، ولهذا قال: لا تقدموهما فتهلكوا ➲

الذي دلَّ على هلكة من تأخّر عن العترة ومن تقدّم(١)، وقد صدر ذلك من أبي بكر

➲ ولا تقصروا عنهما فتهلكوا... (جواهر العقدين: مخطوط).

والى غير ذلك مما جاء في شرح الحديث في كتبهم، وهذا القليل من الكثير إنما ذكرناه هنا كنموذج من كلمات شرّاح الحديث من أهل السنّة والجماعة في بيان مدلول الحديث وسنتعرّض إن شاء الله لشرح الحديث مفصّلاً في محله.

فالحديث صريح في وجوب اتّباع العترة الطاهرة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّه صريح في وجوب اتّباع كتاب الله عزوجل دون فرق بينهما، فعلىٰ الأُمة التمسّك بهما معاً ولا تعصم الأُمة إن فارقت واحد منهما أو كلاهما لأنّ كل واحد منهما في جنب الآخر الىٰ يوم القيامة فلا يفترقان حتى يوم القيامة، فإنّ التمسّك بهما يضمن للأُمة النجاة من الضلال، فدلالة الحديث صريحة على إمامة العترة الطاهرة، لأنّ القرآن إمام الأُمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكما يجب على الأُمة إطاعة القرآن لأنّه إمام كذلك يحب إطاعة العترة الطاهرة لأنّهم الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعلى الأُمة امتثال أوامرهم كالقرآن ولا يحب على أهل البيت امتثال غيرهم، ومعنى ذلك: إمامتهم وخلافتهم كما هو ظاهر واضح.

(١) لقد ورد هذا المضمون في روايات عديدة وبعبارات متقاربة ضمن حديث الثقلين، ففي بعضها ورد بعنوان «ولا تقدموهم فتضلوا» كما في حديث الذي رواه القندوزي الحنفي وذلك ضمن حديث طويل عن الإمام أميرالمومنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد أن سأل السائل منه عن قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (سورة النساء: ٥٩) فقال عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مواضع، وفي آخر خطبة يوم قبضه الله عزوجل إليه: «إنّي تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي إن تمسّكتم بهما، كتاب الله عزوجل وعترتي أهل بيتي، فإنّ اللطيف الخبير قد عهد إليَّ أنّهما لن يفترقا حتى يردا علَيَّ الحوض كهاتين ـ وجمع مسبحتيه ـ ولا أقول كهاتين ـ وجمع مسبحته والوسطىٰ فتمسّكوا بهما ولا تقدموهم فتضلوا (ينابع المودة ج١:ص٣٥٠ح٤).

وفي بعضها الآخر ورد بعنوان «فلا تسبقوهم فتهلكوا» وذلك ما رواه السخاوي الشافعي بسنده عن أبي الطفيل عن عامر بن أبي ليلىٰ وحذيفة بن أُسيد قالا: لما صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حجة الوداع، ولم يحجّ غيرها، حتى إذا كان بالجحفة نهى عن سمرات بالبطحاء متقاربات لا ➲

ينزلوا تحتهنّ حتى إذا تزل القوم وأخذوا منازلهم... وذكر الحديث، والقصد من قولهﷺ: أيها الناس أنا فرطكم وإنّكم واردون علَيَّ الحوض أعرض مما بين بُصرىٰ وصنعا، وفيه عدد النجوم قدحان من فضة، ألا وإنّي سائلكم حين تردون علَيَّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما حتى تلقوني؟ قالوا: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرف بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا وتبدّلوا، ألا وعترتي، فإنّي قد نبأني اللطيف الخبير ألا يفترقا حتى يلقياني، وسألت ربّي لهم ذلك فأعطاني فلا تسبقوهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فهم أعلم منكم (استجلاب ارتقاء الغرف ج١:ص٣٥٣ح٧٧).

وفي بعضها ورد: «فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا».

فمنها ما رواه محمد بن سليمان الكوفي بسنده عن زيد بن أرقم في حديثٍ طويل ذكر فيه واقعة الغدير وقول النبيﷺ:... هل تسمعون؟ قالوا: نعم، قال: إنّي فرطكم، وإنّكم واردون علَيَّ الحوض، وإنّ عرضه أبعد ما بين بُصرىٰ الى صنعاء، فيه عدد الكواكب أقداح من فضة، فانظروا كيف تخلّفوني في الثقلين؟ فنادىٰ منادٍ: يا رسول الله، وما الثقلان؟ قال: الأكبر كتاب الله طرفه بأيديكم وطرفه بيد الله، فاستمسكوا به لا تزلّوا ولا تضلوا، وعترتي، فإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا علَيَّ الحوض، وسألت لهما ذلك ربي فلا تقدّموهم فتهلكوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فهم أعلم منكم... (مناقب الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام ج٢:ص٣٧٥ح٨٤٩، ورواه الزرندي الحنفي في نظم درر السمطين: ص ٢٣٣).

ومنها: ما رواه ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة قال: وفي رواية صحيحة: إنّي تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموهما وهما: كتاب الله وأهل بيتي عترتي. زاد الطبراني: إنّي سألت ذلك لهما فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم (الصواعق المحرقة: ص١٥٠)، ورواه الطبراني في معجمه الكبير ج٥:ص١٦٦، والهيثمي في مجمع الزوائد ج٩:ص٢٥٨ وغيرهم).

وفي بعضها ورد: «فلا تسبقوا أهل بيتي بالقول فتهلكوا» أخرجه أبوالفوارس في كتابه الأربعين في فضائل الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام على ما ورد في كتاب عبقات الأنوار للسيد حامد النقوي

وعمر ومن تابعهما لتأمّرهما على العترة، وهو معنى التقدّم عليهم وعدم تعلّمهم الدين من العترة وهو من معنى التأخّر عنهم[1].

➲ بسنده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّي تارك فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فهما خليفتان بعدي، أحدهما أكبر من الآخر، سبب موصول من السماء إلى الأرض، فإن استمسكتم بهما لن تضلوا، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا علَيَّ الحوض يوم القيامة، فلا تسبقوا أهل بيتي بالقول فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتذهبوا، فإنّ مثلهم فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجىٰ ومن تخلّف عنها هلك... (عبقات الأنوار ج١:ص١٩٦).

أقول: هذه النصوص واضحة وجلية في حرمة التقدم على العترة الطاهرة كما يدل حديث الثقلين على حرمة الابتعاد عنهم لأنّه سبب للوقوع في الضلالة والهلكة، ومعناه: أنّ طاعتهم واجبة على سبيل الإطلاق كطاعة الله ورسوله، فكما أنّ طاعة الله ورسوله واجبة الى يوم القيامة كذلك طاعة العترة الطاهرة واجبة إلى يوم القيامة، وهذا من أدلّ دليل على وجوب الاقتداء بهم عليهم السلام وإنّ الأُمة لن تهتدي إطلاقاً إلّا إذا تمسّكت بالثقلين، فالقرآن ثقل وأهل البيت عليهم السلام الثقل الآخر، ويستحيل على الأُمة الهداية إلّا إذا تمسّكت بالثقلين معاً، فاستمرار البقاء في هذا الطريق والحفظ على الإيمان الذي حصل بطاعة الله ورسوله إنّما يستمر بقاءً بالتمسّك بالثقلين وكل واحد منهما حجة لا يجوز تركه.

والخلاصة: إنّ النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد أكّد بأنّ الهدىٰ الإلهية لا تتحقّق إلّا بالتمسّك بالثقلين، القرآن والعترة الطاهرة معاً، وجزم بأنّ التجنّب من الثقلين أو من واحد منهما يوجب الضلالة والهلكة فترك أهل البيت والتقديم عليهم ضلال واضح.

(١) لا شكّ أنّ النهي عن التقدم على العترة الطاهرة عام يشمل جميع أنواع التقديم عليهم فيحرم التقدم عليهم في كل أمر من الأُمور لوقوع المتقدم عليهم في الضلالة والانحراف، ومعنى ذلك: أنّ مخالفة العترة الطاهرة بصورة عامة ومطلقة سبب للوقوع في الانحراف والانزلاق في المتاهات المظلمة وفي مهوى الضلال والشقاء الأبدي.

ومن هنا يتضح أنّ أبابكر وعمرومن تبعهما إنّما وقعوا في الضلالة، لاسيّما الذين حضروا السقيفة وتوسلوا إلى مبايعة أبي بكر فإنّهم تقدموا على أهل البيت عليهم السلام وصاروا سبباً لانحراف الأُمة عن سياستها الإلهية التي رسمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم إذ تآمروا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخالفوا ➲

➲ أوامره ونواهيه ومن أوامر الرسول صلى الله عليه وآله بالعترة الطاهرة حيث أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بيّن لهم أنّ تحقيق آلية استمرار الرسالة الإلهية والمرجعية العامة في الإسلام بعد حياته الشريفة إنّما تكون بالتمسّك بالثقلين ولكن أبابكر وعمر منعا الناس بارتكابهم الجريمة الكبرىٰ في السقيفة من أخذ البيعة من الناس بالقوة والقهر وإقصاء أهل البيت عليهم السلام عن الساحة السياسية والتقدّم عليهم في الحكومة وزمام أُمور المسلمين فمنعوا الناس أن يتبعوا العترة الطاهرة وبذلك وقعوا في الضلال والهلاك.

وفي الحقيقة: إنّ الفتنة الكبرىٰ التي حصلت للمسلمين في السقيفة بمبايعة أبيبكر وأحداث النظام الذي اعتمد على خطة سلب النص الإلهي والنبوي، وتمثّل ذلك السلب في نظرية خطيرة طرحها عمر بن الخطاب في رزية يوم الخميس عندما طلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو محتضر ـ أن يكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده، قال عمر: حسبنا كتاب الله، وهذا يعني: إنّ عمر بن الخطاب أراد أن يقول: يكفينا القرآن لا حاجة إلى سنّة رسول الله ولا حاجة إلى عترته الطاهرة، حيث أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أكد غير مرة بأنّ الأمان من الضلال إنّما منحصر في التمسّك بالثقلين يعني القرآن وأهل بيته ﴿صلوات الله عليهم أجمعين﴾، فقول عمربن الخطاب ليس له تفسير معقول غير مخالفة الرسول صلى الله عليه وآله مع انّ قول رسول الله صلى الله عليه وآله حجة كقول الله عزوجل.

ثم إنّ هناك رواية أخرىٰ يرويها علماء أهل السنّة وهي قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: ألا وإنّي أُوتيت الكتاب ومثله معه (مسند أحمد حنبل ج ٤: ص ١٣١)، وفي رواية أُخرىٰ قال: ألا إنّي أُوتيت القرآن ومثله معه (مسند أحمد بن حنبل ج٤:ص١٣١).

ومعنى ذلك: أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أُوتي مثل الكتاب، فإذا أُوتي مثل الكتاب فمعناه: أنّه أُوتي ليكون تماماً على القرآن وإكمالاً لبيان دينه وشريعته.

ومن العجيب أنّ عمربن الخطاب لم يشفق بحال صاحبه أبيبكر لما مرض، فإنّه قد أتاح له الفرصة ليكتب وصيته وتوجيهاته النهائية وقد عامل هو والصحابة أثناء مرضه بكل تقديس واحترام ولم يقولوا بأنّك تهجر مع أنّ أبابكر كان في حالة شديدة بحيث يغمىٰ عليه مرة ويفيق حتى أنّ كتابة الوصية كانت بين الإغماء والإفاقة، فلم يقل له أحد حسبنا كتاب الله، بل أنّ عمر نفسه جلس في ذلك المجلس ليكون شاهداً لما يكتبه أبوبكر من توجيهاته ➲

ومنها: خبر السفينة الذي دلَّ على هلكة من لم يعتصم بالعترة ولم يتابعهم[(١)].

➲ النهائية ووصيته، فكان عمر يقول للناس: أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله إنّه يقول: إنّي لم آلكم خيرا (أُنظر: تاريخ الطبري ج٢:ص٦١٨، والكامل في التاريخ لابن الأثير ج٢:ص٤٢٥). ألا يتجب المنصف من الموقفين لعمربن الخطاب؟!!! وما يقول المنصف من أهل السنة عند ملاحظة الموفقين من عمر بن الخطاب؟

والله إنّ حادثة رزية يوم الخميس من أكبر الرزايا التي مرت على الإسلام، فلو لبس المسلمون السواد وأقاموا المآتم وبلغوا غاية الأحزان على ذلك كان ذلك يسيراً لما أنّ هذه الرزية قد غيّرت مصير الأُمة وخلّفت انحرافاً أساسياً بين الأمة، بحيث صار سبباً لسفك دماء الأبرياء وتلف الأموال، وأعقبت حروباً دامية وعداء بين المسلمين والأجيال التي جاء بعد ذلك حتى انتهت إلى عصرنا الحاضر، الذي نمارس فيه اعمال العنف وارهاب ضد الشيعة الإمامية واستعمال الوسائل الاجرامية والمفخمات لقتل الأبرياء الذين يزورون قبور أئمة الأطهار عليهم السلام ويشتركون في مجالس الولاء والعزاء لأهل البيت عليهم السلام التي ستقام في المناطق الشيعية وإنّ قتل الشيعة صار عادة لهؤلاء المجرمين وإلى الله المشتكىٰ فأساس هذه الفتن غصب الخلافة ولذلك قال الشهرستاني: وأعظم خلاف بين الأُمة خلاف الإمامة إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان (الملل والنحل ج١:ص٢٤) فشعار «حسبنا كتاب الله» إنّما هو في مقابل قول الله ورسوله، وذلك لإقصاء أهل البيت عليهم السلام تماماً عن الساحة السياسة وإبعادهم عن حقهم الخلافة والإمامة وصدهم عن قيامهم مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قيادة الأُمة، ثم ابعاد الأُمة الإسلامية عن هؤلاء بحيث أصبحوا يجهلون أهل البيت عليهم السلام ولم يعرفوا حقهم لئلا يقدموا عليهم. فلاحظ.

(١) انّ حديث السفينة من الأحاديث التي روتها كبار علماء السنة وحفاظهم ومشاهير أعلامهم من المفسّرين والمحدّثين والمؤرّخين، وله طرق عديدة عن عدة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّما مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجىٰ ومن تخلف عنها غرق». وفي رواية «هلك» (أُنظر: المستدرك للحاكم النيسابوري ج٢:ص٣٥٣ وج٣:ص١٥١، ومجمع الزوائد للهيثمي ج٩:ص١٦٨، والمعجم الأوسط للطبراني ➲

ج٤:ص١٠و ج٥:ص٣٥٥ وج٦:ص٨٥، والمعجم الصغير له ج١:ص١٣٩، والمعجم الكبير له ج٣:ص٤٦، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١:ص٢١٨، والجامع الصغير للسيوطي ج١:ص٣٧٣ح٢٤٤٢، وكنز العمال للمتقي الهندي ج١٢:ص٩٤ح٣٤١٤٤ وغيرها من المصادر).

قال ابن حجر المكي في الصواعق: جاء هذا الحديث من طرق عديدة يقوّي بعضها بعضا (الصواعق المحرقة: ص٢٣٤).

وهذا الحديث واضح الدلالة، في لزوم متابعة أهل البيت ﷺ، وما أورعه من تشبيه دال وموقظ يبعث على التيقّظ والحذر؛ إذ أنّ رسول الله ﷺ بيّن في هذا الحديث بالصراحة طريق نجاة الأُمة في المستقبل حينما أتتها طغيان الطوفان الفكري والعقائدي والاجتماعي، فبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث أن لا ملجأ للأُمة إلّا الالتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام دون المذاهب الأُخرىٰ، فمن تمسّك بهم وركب سفينتهم فقد نجا من الهلكات والضلالات والفتن، ومن تخلّف عنهم ولم يركب سفنهم فقد هلك في أمواج الفتن والانحرافات، فالفرقة الناجية من الأُمة الإسلامية هي الفرقة الراكبة في سفينة أهل البيت عليهم السلام.

وقد اعترف بذلك كبار علماء أهل السنّة ومحقّقيهم من شرّاح السنّة النبوية في معنى الحديث ولا بأس بذكر بعض ما ورد عنهم في المجال:

قال الطيبي في شرح الحديث: رواه أبوذر الغفاري عن النبي ﷺ قال: وقوله وهو آخذ باب الكعبة. أراد الراوي بهذا مزيد توكيد لإثبات هذا، وكذا أبوذر اهتم بشأن روايته، فأورده في هذا المقام على رؤوس الأنام ليتمسّكوا به، وفي رواية له بقوله: من عرفني فأنا من قد عرفني، ومن أنكرني فأنا أبوذر، سمعت النبي ﷺ يقول: ألا إنّ مثل أهل بيتي... الحديث. أراد بقوله: «فأنا أبوذر» المشهور بصدق اللهجة وثقة الرواية، وأنّه هذا الحديث صحيح لا مجال للرد فيه.

وهذا تلميح الى ما روينا عن عبدالله بن عمرو بن العاصي حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدق من أبي ذر. وفي رواية: من ذي لهجة أصدق ولا أوفىٰ من أبي ذر. شبه عيسى بن مريم فقال عمر بن الخطاب ـ كالحاسد ـ: يا

⮌ رسول الله، أفتعرف ذلك؟ قال: ذلك فاعرفوه. أخرجه الترمذي وحسّنه الصنعاني في كشف الحجاب.

شبه الدنيا بما فيها من الكفر والضلالات والبدع والأهواء الزائفة ببحر لُجّي يغشاه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، وقد أحاط بأكنافه وأطرافه الأرض كلها وليس فيه خلاص ومناص إلّا تلك السفينة... (اُنظر: مرقاة المفاتيح ج١٠:ص٥٥٣ نقلاً عن كتاب الكاشف).

وقال القاري: مثل كلمات التي ذكرها الطيبي واستشهدوا بالحديث (اُنظر: المرقاة في شرح المشكاة ج٥:ص٦١٠).

وقال السمهودي: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح... (الحديث) ووجه انّ النجاة ثبت لأهل السفينة من قوم نوح عليه السلام...إلخ.

ومحصّله: الحث على التعلق بجعلهم وحبهم وإعظامهم شكراً لنعمة مشرفهم صلى الله عليه وآله وسلم فمن أخذ بذلك نجا من ظلمات المخالفة وأدىٰ شكر النعمة الوافرة، ومن تخلّف عنهم غرق في بحار الكفران وتيار الطغيان فاستوجب النيران (جواهر العقدين ج٢:ص١٢٦).

وقال المناوي: إنّ مثل أهل بيتي فاطمة وعلي وابنيهما و... وجه التشبيه: إنّ النجاة ثبت لأهل السفينة من قوم نوح، فأثبت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لاُمته التمسّك بأهل بيته النجاة، وجعلهم وصلة إليها. ومحصوله: الحث على التعلّق بحبهم وحبلهم وإعظامهم شكراً لنعمة مشرفهم، فمن أخذ بذلك نجىٰ من ظلمات المخالفة وأدىٰ شكر النعمة المترادفة، ومن تخلّف عنه غرق في بحار الكفران وتيّار الطغيان فاستحقق النيران، لما أنّ بغضهم يوجب النار كما جاء في عدة أخبار، كيف وهم أبناء أئمة الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ، الذين احتج الله بهم على عباده، وهم فروع الشجرة المباركة وبقايا الصفوة الذين أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. برأهم من الآفات، وافترض مودتهم في كثير من الآيات، وهم العروة الوثقىٰ، ومعدن التقىٰ... (فيض القدير بشرح الجامع الصغير ج٢:ص٥١٩) والى غير ذلك من الكلمات في شرح الحديث.

فالحديث يدلّ على وجوب متابعة أهل البيت عليهم السلام ولا شك أنّ وجوب المتابعة مطلقة ليس فيها قيد ولاشرط، ولا شك أنّ وجوب المتابعة المطلقة من أجل إمامتهم وخلافتهم بعد رسول ⮎

➡ الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ وجوب المتابعة المطلقة دليل علىٰ عصمتهم ومن أهم شرائط الامامة العصمة، إذ لولاها لوكقع الامة في الضلالة ومستحيل أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم امته باتباع من لا يؤمن منه النجاة وعليه: فالحديث يدلّ بالدلالة الالتزامية على بطلان خلافة أبي بكر و عمر وعثمان وغيرهم من خلفاء بني أمية وبني العباس، لأنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بيّن في الحديث بأنّ طريق النجاة الوحيد إنّما هو الالتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام دون مذاهب أخرىٰ، فلا مناص حينئذٍ من ثبوت بطلان مذهب أهل السنّة والجماعة القائلين بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وهذا ما يخرجهم من الفرقة الناجية التي صرّح بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في حديث معروف، الذي رواه علماء الإسلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ بني إسرائيل تفرّقت إلى إحدى وسبعين فرقة، فهلكت سبعون فرقة وخلصت فرقة واحدة، وإنّ أُمتي ستفرق على اثنتين وسبعين فرقة، فتهلك احدىٰ وسبعين وتخلص فرقة (مسند أحمد بن حنبل ج ٣: ص ١٤٥).

وفي حديث آخر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ أهل الكتاب افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإنّ هذه الأُمة على ثلاث و سبعين ملة يعني: الأهواء كلها في النار إلّا واحدة (مسند أحمد بن حنبل ج ٤: ص ١٠٢).

فإذا جعلنا هذا الحديث جنب حديث السفينة يستنتج منهما: إنّ الفرقة الناجية هي الفرقة التي تمسكت أهل البيت عليهم السلام وركبت سفينتهم فدلالة الحديثين واضحة وصريحة في أنّ الشيعة الاثنى عشرية هم الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالفرقة الناجية لأنّهم قد تمسّكوا بولاية أهل البيت عليهم السلام الراكبين في سفنهم، وإلى هذا المعنى أشار الإمام الشافعي بقوله:

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهم ... مذاهبهم في أبحر الغي والجهل
ركبت على اسم الله في سفن النجا ... وهم أهل بيت المصطفى خاتم الرسل
وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم ... كما قد أمرنا بالتمسّك بالحبل
إذا افترقت في الدين سبعون فرقة ... ونيفاً على ما جاء في واضح النقل
ولم يك بناجٍ منهم غير فرقة ... فقل لي بها ذا الرجاحة والعقل
أفي الفرقة الهلاك آل محمّد؟ ... أم الفرقة اللاتي نجت منهم قل لي

⬅

ومنها: خبر ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب من حيث تركهما سنّته بالتقدّم على العترة، ومن حيث تأخّرهما عنهم[1]، ومن حيث تذليلهما للعترة

فإن قلت في الناجين فالقول واحد — وإن قلت في الهلاك حفت عن العدل
إذا كان مولى القول منهم فإنني — رضيت بهم لا زال في ظلّهم ظلّي
رضيت علياً لي إماماً ونسله — وأنت من الباقين في كم وسع الحل

قد ذكر هذه الأبيات العلّامة الأميني في كتابه الغدير ج٢:ص٤٢٣ نقلاً عن رشفة الصادي للحضرمي: ص٢٤.

وهذه الشهادة صريحة بأنّ من ركب سفينة أهل البيت عليهم السلام فهو في الناجين، ومن تخلف عنهم ذلك فهو في المضلّين، ويحكي عن الشافعي أنّه قال هذه الأبيات في جواب من سأله عن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. فلاحظ.

(١) لقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صفته من الأخبار والسنن الصحيحة أنّه لعن جماعة ممن كانوا يستحلون حرمة عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واليك بعض النصوص الواردة في هذا المجال.

فمنها: ما وراه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين بسنده عن عائشة انّها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ستة لعنهم الله وكل نبي مجاب؛ المكذّب بقدر الله، والزائد في كتاب الله، والمتسلّط بالجبروت يذل من أعز الله ويعز من أذل الله، والمستحل لحرم الله، والمستحل من عترتي ما حرّم الله، والتارك لسنتي. ثم قال الحاكم: وهذا حديث صحيح لا أعرف له علة ولم يخرجاه (المستدرك على الصحيحين ج١:ص٣٧) وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ج١:ص١٧٦، وابن حبّان في صحيحه ج١٣:ص٦٠، والطبراني في معجمه الكبير ج٣:ص١٢٧، والسيوطي في الجامع الصغير ج٢:ص٤٦ح ٤٦٠، والمتقي الهندي في كنزالعمال ج١٦:ص٨٥ح٤٤٠٢٤ وغيرهم من أرباب الصحاح والمسانيد وكتب الحديث والتفسير والسِيَر وغير ذلك.

فهذه الرواية كغيرها صريحة في جواز لعن المذكورين في الحديث، ومنهم من استحلّ حرمة العترة الطاهرة.

قال المناوي: والمستحلّ من عترتي ما حرّم الله: يعني من فعل بأقاربي، لا يجوز من إيذائهم أو ترك تعظيمهم، فإن اعتقد فكافر وإلّا فمذنب... (فيض القدير بشرح جامع الصغير

➲ ج٤:ص٩٦).

وهذا ما فهمه كل شرّاح السنّة النبوية. وعليه فإنّ من استحلّ حرمة العترة الطاهرة فهو في زمرة الملعونين على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سواء من باب إيذائهم أو من باب التقديم عليهم وترك تعظيمهم أو غير ذلك.

ثم إنّه لا شك أنّ أوّل من استحل حرمة العترة الطاهرة وانتهك حرمتهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هما أبوبكر وعمر، باعتبار أنّهما تقدّما على العترة الطاهرة ليأخذا البيعة من الناس في السقيفة، فإن قرأ التاريخ بعين الإنصاف لا يشك بأنّ غصب الخلافة انّما هو أكبر ظلم وجريمة ارتكبه أبوبكر وعمر حيث أنّهما قدّما من أخّره الله وأخّرا من قدّمه الله، وتعاقدا على هذه الجريمة العظمىٰ في السقيفة ليس فوقها جريمة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ جميع المظالم بدت من ذلك اليوم، فهما حرّفا مسار الاسلام وقلبا الحقائق كما سننبّه عليه عند ذكر حادثة السقيفة وما وقع فيها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنّهم تركوا تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويوم الأبعاء، فصلّى عليه أميرالمؤمنين عليه السلام وبنو هاشم وجماعة من المسلمين، ثم صلى عليه المسلمون زمراً زمراً (أُنظر: الاستيعاب لابن عبدالبر ج١:ص٤٧).

وجهز جثمانه الطاهر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ودفنه ولم يشهد أبوبكر وعمر غسل وتجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفنه (أُنظر: أسد الغابة لابن الأثير ج١:ص٣٤).

وقالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من آخر الليل ليلة الأربعاء (مسند أحمد بن حنبل ج٦:ص٦٢).

وذكر الطبري: وكان الذي نزل قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب والفضل بن العباس... (أُنظر: تاريخ الطبري ج٢:ص٤٢٥)، فأبوبكر وعمر تركا جثمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليأخذوا البيعة من الناس ويتقدما على من قدّمه الله عليهما، ولذلك قال أبوبكر بعد أخذ البيعة من الناس في خطبته المعروفة: أمّا بعد، أيها الناس فإنّي قد ولّيت عليكم ولست بخيركم... (تاريخ الطبري ج٢:ص٤٥٠).

ومعنى كلامه: إنّ فيكم من هو خير مني وهو أصلح لمقام الإمامة، فكلامه هذا يدلّ بالوضوح ➲

➲ على نفي صلاحيته للإمامة عن نفسه أوّلاً، والاعتراف بأنّ هناك من هو أفضل منه لهذا المقام ثانياً، ولذلك قال أبوبكر الباقّلاني في كتابه التمهيد عند الجواب عن قول أبي بكر: ولّيتكم ولست بخيركم. ماهذا عين عبارته: يمكن أن يكون قد اعتقد أنّ في الأُمة أفضل منه، إلّا أنّ الكلمة أجمع والأُمة بنظره أصلح، لكي يدلّهم على جواز إمامة المفضول عن عارض يمنع من نصب الفاضل... (تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: ص٤٩٤).

أقول: أولاً: مازعمه من إجماع الأمة كذب لم يتحقّق الإجماع لأنّ بيعة أبيبكر كانت في السقيفة وفي السقيفة لم يحضرها إلاّ جماعة من الناس، وبعد ذلك أيضاً لم يبايعه بنيهاشم وكثير من الصحابة، فلم يتحقّق الإجماع على أي وجه من الوجوه.

وثانياً: إنّ الأدلّة القطعية من الكتاب والسنّة قائمة على أنّ الإمامة والخلافة عهد إلهي ومنصب رباني لا يتطرّق فيه اختيار الناس لا تثبت إلّا بالنص من قِبل الله تعالى ورسوله وسيتّضح هذا المطلب للقارئ الكريم إن شاء الله تعالى من خلال المباحث الآتية.

وثالثاً: لا أدري كيف غفل الباقّلاني وغيره ممن دافعوا عن أبيبكر عن أنّه ليس من المعقول أن يترك الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أُمته سدىً والناس بعده في أشد الاختلاف، كيف أنّ عبدالله بن عمر يقول لأبيه عندما طعن وكان في فراش موته: إنّ الناس يتحدّثون أنّك غير مستخلف، ولو كان لك راعي إبل أو غنم ثم جاء وترك رعيته رأيت أن قد فرط ـ لرأيت أن قد ضيّع ـ ورعية الناس أشد من رعية الابل والغنم، ماذا تقول لله عزوجل ولم تسخف على عباده؟ (سنن البيهقي ج٨:ص١٤٩، والرياض النظرة ج٢:ص٩٨٠، وحلية الأولياء ج١:ص٤٤).

وقالت عائشة لابن عمر: يا بني أبلغ سلامي وقل له: لا تدع أُمة محمد بلا راع استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاً، فإنّي أخشىٰ عليهم الفتنة (الامامة والسياسة ج١:ص٢٢).

ثم إنّ أبابكر نفسه هو الذي استخلف عمر بن الخطاب ليتقطّع به دابر الخلاف والفرقة والفتنة من بين الناس، فهل يمكن أن تقول بأنّ أبابكر وعائشة وعبدالله بن عمر أرأف بحال الأُمة وأحرص عليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة التوبة: ١٢٨).

وعلى كل حال، فإنّ الباقّلاني وغيره من علماء أهل السنّة لايمكنهم الدفاع عن ظلم أبيبكر و ➲

بتآمرهما عليهم[١]، ومن حيث تسلّطهما على خير أُمة بالجبروت، لما عرفته من

➲ عمر في قضية غصب الخلافة وشمول النص النبوي صلى الله عليه وآله وسلم لهما بأنّهما استحلّا حرمة عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و شملما لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلاحظ.

(١) الظاهر أنّ المقصود بالتذليل ارتكاب الظلم بالنسبة إلى أرباب الفضل والعزة لتحقير شأنهم بحسب ما يتوهّمون؛ وإلّا فإنّ العزة الحقيقية ثابتة لله ولرسوله وللمؤمنين الحقيقيين، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة المنافقون: ٨) وقال الله تعالىٰ: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (سورة النساء: ١٣٩).

فالكفّار الذين طبع الله على قلوبهم لايدرون بأنّ العزّة الحقيقية والكرامة والشموخ في الدنيا والآخرة، إنّما تتبع العلم والقدرة، وإنّ الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء فهم لا يمتلكون من القوة والعلم شيئاً، فلا يستطيعون إنجاز شيء لكي يصبحوا مصدراً للعزّة والشرف فيبتغون العزّة الخيالية فيزعمون أنّ بعض المظاهر الدنيوية توجب العزّة لهم فهم في غفلة عن أنّ جميع مالديهم تحت القدرة والهيمنة الربانية، وليس وراء العزّة الإلهية عزة، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ (سورة فاطر: ١٠).

ومن هنا يتضح أنّ العزّة الحقيقية ثابتة وباقية لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة المنافقون:٨) أي أنّ العزّة والغلبة الحقيقية لله تعالى لأنّ الله تعالى مبدأ لجميع الممكنات المحتاجين اليه في جميع الجهات، فهو مسبّب الأسباب، وأما المنافقون فهم جاهلون لشدة فسادهم وكثرة جهلهم وأنّ العزة هي حصول أسباب الدنيا، وهذا ما يجهله المنافق، لأنّه ينظر إلى الدنيا كهدف حقيقي بينما يرىٰ المؤمن الذي عمله يكون خالصاً لله الدنيا وسيلة لوصوله إلى أغراضه التي توجب رضا الله تعالى.

وبعبارة أوضح: إنّ غير الله تعالى فقير في ذاته ذليل في نفسه لا يملك لنفسه شيئاً إلّا أن يرحمه الله أو يؤتيه شيئاً من العزة كما كتبه الله تعالى لنفسه ولرسوله وللمؤمنين، وبذلك يظهر معنى قوله تعالى: «إنّ العزّة كله لله تعالى» قال الله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ (سورة فاطر:١٠) فالعزة الحقيقية إنّما هي بيد الله سبحانه، فمن طلبها منه تعالى اكتسبها منه بالعبودية التي لا تحصل إلّا بالإيمان والعمل الصالح، فإنّ الشيء لا يطلب إلّا عند صاحبه ومالكه.

➲

➲ فالآية الكريمة تبيّن هذه الحقيقة بصورة واضحة، وأنّه تعالى بيده كل شيء من أسباب النصرة والعزّة، فهو الذي يعز رسوله والمؤمنين الحقيقيين، ولكن الظالمين قد يتوهّمون أنّ بالظلم على أولياء الله والوصول إلى بعض المظاهر الدنيوي سبب لعزتهم في الدنيا ووصولهم لبعض المطامع الدنيوية يحيلون أنّه العزّة الحقيقية ولكن، هذه هي التعزّز لا العزة وفي الحقيقة هي ذل كما عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم: كل عز ليس بالله فهو ذل (مفردات غريب القرآن للراغب: ص٣٣٣) إذ العزة الحقيقية أن يصل الإنسان إلى أهدافه وأغراضه وإن لم يكن موجوداً حاضراً في الدنيا فالعزة الحقيقية طلب رضا الله ـ عزوجل ـ فهو تعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء كما علَّم تعالى نبيه بأن يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران: ٢٦).

فالله تبارك بيده أسباب كل شيء لا يذل أوليائه وإن كان قد يبتليهم بظلم الظالمين، فإنّ ذلك امتحان لإيمانهم، فيعزّهم بقوة إيمانهم وتزكية نفوسهم وقابلياتهم الخُلقية ومواهبهم الإنسانية أعلى مراتب الكمال والفضل والخير والقرب اليه المقتضي للإحسان والإفاضة التي تساوق النبوة والرسالة والإمامة والولاية من قِبل الله تبارك وتعالى، فالظالمين الذين يرتكبون الجرائم بحق أولياء الله الشرّيرة لأنّ الله تعالى يعزّ أوليائه بنصره وتأييده لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي ٱلأَبْصَارِ﴾ (سورة آل عمران:١٣).

ومن هنا نعرف وجه لعن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وكل نبي مجاب الدعوة في حق من ظلم أهل بيت النبيصلى الله عليه وآله وسلم وعترته الطاهرة، فإنّ من استحلّ حرمتهم بالظلم في حقّهم والعداء عليهم إنّما قام بحرب الله ورسوله لأنّ الله تبارك و تعالى جعل أهل بيت النبي قدوة للبشرية فهم يمثّلون الرسالة الإلهية فمن حاربهم فهو محارب لله تبارك وتعالى ومحارب للرسالة السماوية.

وعليه: فإنّ أبابكر وعمر هما أوّل من ظلما أهل البيتعليهم السلام بعد وفاة الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله وسلم بالهجوم على بيتهم لأخذ البيعة وإن لم تحصل البيعة ولكن كان الهجوم هجوماً قاسياً تكررت عدّة مرات، وقد رواه أرباب التاريخ والسير.

وملخّصه: أنّ عمر بن الخطاب حمل الحطب وقبس من النار بأمر من أبيبكر إلى دار فاطمة ➲

➲ ليحرقها بمن فيها إذا لم يخرجوا ولم يبايعوا وتكرر الهجوم عدة مرات، وفي مرة خرجت الزهراءعليها السلام وصاحت من وراء الباب: يا رسول الله، ماذا لقينا من ابن أبي قحافة وابن الخطاب بعدك؟ يا عمر، جئت لتحرق علينا دارنا؟ فدفعوا باب الدار بشدة وهي خلفه، فكسروا بعض أضلاعها وسبّبوا إسقاط جنينها، ثم مرضها وشهادتها (صلوات الله عليها) وسنذكر مصادر هذه الوقائع الأليمة الفجيعة في محلها إن شاء الله تعالى.

والمهم هنا ما قاله النبيصلى الله عليه وآله وسلم في حديث متفق عليه بين جميع المسلمين؛ وهو قولهصلى الله عليه وآله وسلم: حرّمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي، (اُنظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيعلي ج٣:ص٣٦، وتفسير الثعلبي ج٨:ص٣١١، وتفسير ابن العربي ج٢:ص٢١٩، وتفسير القرطبي ج١٦:ص٢٢، وتفسير أبي السعود ج٨:ص٣٠، وتفسير الكشّاف للزمخشري ج٣:ص٤٦٧ وغيرهم).

وفحرمت عليهم الجنّة؛ لأنّهم وقعوا مورد غضب الله تبارك وتعالى بظلمهم وعدائهم على أهل بيت الرسالة، وتأمرهم عليهم، فاستحقّوا بذلك غضب الله وسخطه، ومن وجب عليه العذاب فلن تجد له نصيرا قال الله تعالى: ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا(سورة النساء: ٥٢) كما قال تعالى: ﴿**بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (سورة البقرة: ٨١) وقال تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللهِ مَن لَعَنَهُ ٱللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ (سورة المائدة: ٦٠).

فإنّ مجموع هذه الآيات تدلّ بوضوح على أنّ من غضب الله عليه فهو في زمرة الخالدين في نار جهنم ويعذبون فيها عذاباً دائماً ومن غضب الله عليه فهو ممن لعنه الله في كتابه العزيز وقد نص الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المذكور أنّ من أذل من أعزه الله فهو ملعون، وقد أعز الله أهل بيت النبيصلى الله عليه وآله وسلم بوجوب مودّتهم في كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللهِ**﴾ (سورة الشورى: ٢٣). والتعبير الوارد في سورة سبأ قوله تعالىٰ: قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجري إلّا على الله (سورة سبأ: ٤٧) فيستنتج من الآيتين أنّ المودة في القربىٰ وسيلة لحصول الهداية وهذه المودد لا تنفع النبي ➲

عدم كونهما إمامين،(١)

الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بل تنفع الناس؛ لأنّ استمرار منهج الرسالة انّما يكون في ذوى القربىٰ فيجب الارتباط بهم والاعتماد عليهم ومن خرجه من دائرة المودة ووقع في زمرة أعدائهم فهو مخالف للرسالة الإلهية.

وخلاصة الكلام: إنّ من ظلم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد أراد إذلال من أعزّه الله وهو في زمرة الملعونين على لسان خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو في جهنم خالداً فيها أبداً وبئس المصير.

(١) فإنّ المتسلّط بالجبروت هو المتسلّط بالقدرة والسيطرة على الناس بالظلم والجور، قال المناوي: والمتسلّط بالجبروت: أي المستولي أو الغالب أو الحاكم بالتكبّر والعظمة ولا الجبروت فعلوت، وهو في حق الإنسان من يجبر نقيصته بإدّعاء منزلة من التعالي لا يستحقّها (فيض القدير ج٤:ص١٢٧).

فالمتسلّط بالجبروت هو الذي لا يرىٰ لنفسه مانعاً من الشرع والعقل للتسلّط على الناس، وقد سمّاه القرآن الكريم بالطاغوت وهو من يحكم على الناس بغير الحق، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ...﴾ (سورة النساء: ٦٠).

والجدير بالذكر: إنّ هذه الآية الكريمة مكمّلة للآية السابقة عليها، حيث أنّ تلك الآية تدعو المؤمنين الى طاعة الله ورسوله وأُولي الأمر، وهي قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَومِ ٱلآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (سورة النساء: ٥٩).

فبالمقارنة بين الآيتين يعرف أنّ القرآن الكريم قد جعل مقابلة بين طاعة الله والتحاكم الى ما أمر الله ورسوله وبين التحاكم الى الطاغوت والحاكم بالجور والطغيان، فبيّنت الآية الكريمة أنّ التحاكم إلى الله والرسول هو خير لهم وأحسن طريق وسبيل لرفع التنازع، وإنّ التحاكم الى الطاغوت مشمول لغضب رب العالمين، حيث قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللهِ مَن لَعَنَهُ ٱللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة: ٦٠).

فالآية الكريمة تدلّ بالصراحة على أنّ من لعنه وغضب عليه مشمول للأوصاف المذكورة في

➲ الآية الكريمة، والمراد من اللعنة والغضب هو الابتعاد عن لعنه وعن كل خير وبركة ونـعمة وسعادة، ومن الطبيعي أنّ ابتعادهم عن كل خير ينتهي بهم إلى نار جهنم والعذاب العظيم.

وفي الحقيقة: إنّ الابتعاد عن الرحمة الإلهية تمثّل العقاب الجسدي لهم فهم في العذاب ومأواهم جهنّم، وبقرينة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُـمْ كُـفَّارٌ أُولَـئِكَ عَـلَيْهِمْ لَـعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ« ١٦١» خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٦١ و ١٦٢).

ويتّضح لنا أنّ عَبَدَة الطاغوت هم في زمرة الكفار، وأيضاً يتضح من خلال ما تقدم أن كل أُمـة لابد لها من حاكم إلهي، ويلزم على الناس الدخول في طاعته وإن لم تدخل في طاعة ولاية الله هو في طاعة الطاغوت ولا ثالث لهما، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَـلَيْهِ ٱلضَّلاَلَةُ ...﴾ (سورة النحل: ٣٦) فدعوة جميع الأنبياء هي الدعوة الى التوحيد والاجتناب عن الطاغوت ولا ثالث لهما وكذلك الأمر في دعوة خاتم الأنبياء، فإنّ الله تبارك وتعالى أمر امة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بطاعة الرسول وأولى الأمر الذي يكون متصفاً بجميع صفات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للدفع عن حكومة الطاغوت.

ومن هنا يعرف ان كل من ادعىٰ الولاية والحكومة على الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن يتصف بأوصاف الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بنص القرآن أنّه كان من الطاغوت لأنّ الحكومة الإلهية التي شرّعها الله تعالى هي لمن له منصب ولاية الأمر، كما قال تعالى: ﴿أَطِـيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (سورة النساء: ٥٩).

فإنّ المراد بأُولي الأمر من له صفات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من العصمة وغيرها مـن الصـفات المشترطة في وجوب الطاعة حيث أنّ أُولي الأمر في الآية معطوف على الرسول، ومقتضى العطف اجراء حكم المعطوف عليه علىٰ المعطوف فوجوب طاعة أُولي الأمر كطاعة الرسول مستفادة من نصّ القرآن الكريم، أي يجب طاعته بصورة مطلقة والطاعة المطلقة إنّما تصح إذا كان أُولي الأمر معصوماً كالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وإلّا فإنّ طاعته المطلقة غير صحيحة عقلاً وشرعاً، كما سيتضح الأمر في محله إن شاء الله تعالى. وعليه: فإنّ من ادّعىٰ الخـلافة بـعد ➲

فهذه ثلاث خصال من الخبر صدرت منهما(١).

ومنها: مخالفتهما لخبر ولي كل مؤمن بعدي وتركهما العمل(٢).

➲ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن معصوماً أي ادعىٰ أنه اولى الأمر وهو غير معصوم فهو من الطاغوت.

(١) لا شك أنّ أبا بكر و عمر هما أوّل من تعاقدا على غصب الخلافة وقد ساعدتهما الأحداث الواقعة في السقيفة فاستغلّا الفرصة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما كان الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وبني هاشم وجماعة من الصحابة مشغولين بتجهيز النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاجتمعت الصحابة في سقيفه بني ساعدة لاختيار الخليفة وتقديم من أخره الله وتأخير من قدّمه الله، ومخالفة نص الغدير وغيره من النصوص المتواترة عند المسلمين، فقصة بيعة أبي‌بكر وفتنة السقيفة لا ينكرها أحد.

وأنا أقول: إنّ غصب الخلافة كان أكبر جريمة قام بها أبوبكر وعمر، لأنّ هذه الجريمة العظمىٰ هي أساس ضلالة الامة الاسلامية والفتنة بينها وافتراقها وهي التي اقتطعت الامة الإسلامية إلى الاقطاعات وفرق مختلفة وسببت الحروب الدامية وهتك الأعراض ونواميس المسلمين فلم يبق ذنب إلّا ارتكب بسبب هذه الجريمة العظمىٰ التي أسسها الاوّل والثاني بمساعدة الحزب الأموي وبعض طوائف قريش الحاقدين على بني هاشم وهذه الحقيقة الواضحة سجلها التأريخ حفظها الأجيال حيث كانت لها أثر عميق في الماضي وحاضر المسلمين إذ لبس بها الأُمة الإسلامية ثوب عار ومسار خطر لا ينكره اللبيب المنصف فضلاً عن الناقد.

وملخّص الكلام: إنّ نتيجة ما وقع في السقيفة من بيعة بكر بمساعدة صاحبه عمر بن الخطاب وجمع من الطلقاء وغيرهم إنّما حققت الموضوع للأحاديث التي صدرت من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في ذم طاعة الطواغيت ولعن من أخرّ أهل البيت عليهم السلام عن مقامهم وأذل من أعزهم الله ورسوله وهذا النص من النصوص الثابته عند جميع المسلمين فلاحظ.

(٢) أخرج الحاكم في المستدرك على الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: أنت ولي كل مؤمن بعدي ومؤمنة (المستدرك على الصحيحين ج٣:ص١٣٣).

وأخرجه النسائي في كتابه فضائل الصحابة بسنده عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن من بعدي (فضائل الصحابة للنسائي: ➲

ص١٥).

وأخرجه أحمد بن حنبل في مسنده عن عمران بن حصين في حديثٍ طويل... قال: بعث رسول الله ﷺ سرية وأمر عليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأحدث شيئاً في سفره فتعاهد، قال عفان: فتعاقد أربعة من أصحاب محمد ﷺ أن يذكروا أمره لرسول الله ﷺ قال عمران: وكنّا إذا قدمنا من سفر بدأنا برسول الله ﷺ فسلّمنا عليه، قال: فدخلوا عليه، فقام رجل منهم، قال: يا رسول الله، إنّ عليّاً فعل كذا وكذا فأعرض عنه، ثم قال الثاني فقال: يا رسول الله، علياً فعل كذا وكذا فأعرض عنه، ثم قام الثالث فقال: يا رسول الله، إنّ علياً فعل كذا وكذا فأعرض عنه، ثم قام الرابع فقال: يا رسول الله، إنّ علياً فعل كذا وكذا، قال: فأقبل رسول الله ﷺ على الرابع وقد تغير وجهه فقال: دعوا علياً دعوا علياً إنّ علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي (مسند أحمد بن حنبل ج٤:ص٤٣٨) ورواه الترمذي في سننه ج٥:ص٢٩٦ح٣٧٩٦، وسليمان بن داود الطيالسي في مسنده :ص ١١١، وابن أبي شيبة في المصنف ج٧:ص٥٠٤خ٥٨، والضحّاك في الآحاد والمثاني ج٤:ص٢٧٩ح٢٢٩٨، وأبو يعلىٰ الموصلي في مسنده ج١:ص٢٩٣ح٣٥٥، وابن حبّان في صحيحه ج١٥:ص٣٧٤، والطبراني في معجمه الكبير ج٥:ص١٦٦ح٤٩٦٩ وغيرهم.

فإنّ الحديث له طرق صحيحة ومتعددة وإن كانت كثرة الطرق تغني عن البحث في صحة سنده، لأنّه إمّا أن يصل إلى حدّ التواتر أو إلى حدّ الاستفاضة، والاستفاضة بمعنى الشيوع والشهرة.

قال النووي: الاستفاضة هي مأخوذة من فاض يفيض إذا شاع. وهو حديث مستفيض أي منتشر في الناس (المجموع ج ٢٠: ص ٢٦٦).

فالحديث لا أقل يكون من الأحاديث المشهورة التي يعتمد عليهما وسيتضح بيان ذلك للقارىء الكريم ان شاء الله تعالى في محله، لأنّ قوله ﷺ للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: أنت ولي كل مؤمن بعدي. أي أنت أولى بالناس من بعدي، فإنّ الولي بمعنى: أولىٰ بالتصرّف. وقوله ﷺ: «بعدي» ينفي احتمال كون الولاية بمعنى المحبة والمودة إذ ليس من المعقول أنّ النبي ﷺ يختص المودة والمحبة بالنسبة إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام إلى بعد وفاته، فيتعين معنى الولي في الولاية والإمامة.

ومنها: ثبوت بغضهما لمن حبّه إيمان وبغضه نفاق[(١)] من الجهات المشار

ومن ذلك قول الشيخين أبي‌بكر وعمر يوم غدير خم عندما أرادا أن يبايعا الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام تنهئة بامرة المسلمين بعدما عرّفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك المنصب قالا: بخ بخ لك يا علي، أصبحت مولاي ومولىٰ كل مؤمن ومؤمنه. وقد رواه أئمة الحديث والتفسير والتاريخ منهم: القندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج ٢:ص٢٤٩، ومنهم الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج١:ص١٢٣، ومنهم الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج٨:ص٢٨٤ وغيرهم.

وقد أخرج كثير من هذه المصادر العلّامة الأميني في كتابه الغدير ج١:ص٢٧٢ـ٢٨٢ فالولي: بمعنى الولاية كما فهمه أبوبكر وعمر وإن كانا قد نكثا بيعتهما وخالفا النص الصريح من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعصوا أمر رب العالمين، حيث يقول تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَانَ ٱللهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (سورة القصص: ٦٨).

فإذا اختار الله سبحانه أمراً وبلّغه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجب على جميع المسلمين أن يختصوا لحكم الله ويسلّموا لأمره له تسليماً؛ لأنّ مفهوم الإسلام حقيقةً هو التسليم لله تعالى، فعدم التسليم له سبحانه دليل على عدم وجود الإيمان الصادق به. فلاحظ.

(١) لقد أخرج علماء أهل السنة روايات كثيرة في كتبهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمضامين قريبه أن حُبّ الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق والكفر.

منها: ما رواه مسلم في صحيحه بسنده عن زر بن حبيش قال: قال علي:

والذي فلق الحبة وبرأ النسمة. إنّه لعهد النبي الأُمي إليَّ أنّه لا يحبّني إلّا مؤمن ولا يبغضني إلّا منافق (صحيح مسلم ج١:ص٦١ كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ حبّ الأنصار وعلي من الايمان وعلاماته) وأخرجه ابن ماجة في سننه ج١:ص٤٣ح١١٤، والنسائي في سننه ج٨:ص١١٧، وابن أبي شيبة في المصنف ج٧:ص٤٩٤، وعمرو بن أبي عاصم في كتاب السنة: ص٥٨٤، وأبويعلىٰ الموصلي في مسنده ج١:ص٣٤٧ ح٤٤٥، وابن حبّان في صحيحه ج١٥:ص٣٦٧، وابن عبدالبر في الاستذكار ج٨:ص٤٤٦ وغيرهم.

ومنها: ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده بسنده عن زر بن حبيش عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: عهد إلَيَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق (مسند

أحمد بن حنبل ج١:ص٩٥) ورواه الترمذي في سننه ج٥:ص٣٠٦ح٣٨١٩، والنسائي في سننه ج٨:ص١١٦، وكذا في خصائص أميرالمؤمنينعليه السلام: ص ١٠٥، والهيثمي في مجمع الزوائد ج٩:ص١٣٣، وفتح الباري ج٧:ص٥٧ـ٥٨، وأبويعلىٰ الموصلي في مسنده ج١:ص٢٥١ح٢٩١، والطبراني في معجمه الأوسط ج٢:ص٣٣٧ عن عمران بن حصين وغيرهم.

ومنها: ما رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب قال: لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنّه قضى فانقضىٰ على لسان النبي الأُمي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: يا علي، لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق (شرح نهج البلاغة ج١٨:ص١٧٢) ورواه الآلوسي في تفسيره ج١٦:ص١٤٣، وابن عساكر في تاريخه ج٤٢:ص٢٧٧، والقندوزي في ينابع المودة ج١:ص١٥٢، ومحمد بن عقيل في النصائح الكافية: ص٩٥ وغيرهم.

ومنها: ما رواه الزرندي الحنفي في نظم درر السمطين عن الحارث الهمداني قال: جاء علي رضي الله عنه حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قضاء قضاه الله على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم النبي الأُمي، لا يحبني إلّا مؤمن ولا يبغضني إلّا منافق، وقد خاب من افترىٰ (نظم درر السمطين: ص١٠٢) ورواه الخطيب البغدادي في تاريخه ج٢:ص٢٥١، وابن عساكر في تاريخه ج٤٢:ص٦٠، ومحب الدين الطبري في رياض النضرة ج٢:ص٢١٤ وغيرهم.

ومنها: ما رواه ابن أبي الحديد المعتزلي عن الحبة العرني عن أميرالمؤمنينعليه السلام قال: إنّ الله عزوجل أخذ ميثاق كل مؤمن على حبّي وميثاق كل منافق على بغضي، فلو ضربت وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني ولو صببت الدنيا على رأس المنافق ما أحبني (شرح نهج البلاغة ج٤:ص٨٣) ورواه ابن عساكر في تاريخه ج٤٢:ص٢٧٨، وغيره من الروايات الواردة بهذا المضمون وهي كثيرة جداً لايسعنا استقصائها.

والمهم أنّ مدلول هذا الحديث المتفق عليه بين علماء أهل السنّة صدوره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو أنّه صلى الله عليه وآله وسلم جعل علامة الايمان حب الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وبغضه علامة

➡ النفاق والكفر والضلال، وقد ثبت عن غير واحد من الصحابة بأنّهم كانوا يقولون: ما كنا نعرف المنافقين إلّا ببغضهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام قال ابن أبي الحديد: إنّه قال الشيخ أبوالقاسم البلخي: وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة، قالوا: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا ببغض علي بن أبي طالب عليه السلام (شرح نهج البلاغة ج٤:ص٨٣).

وقد روى ابن عبدالبر في الاستيعاب الحديث عن جابر بن عبدالله الأنصاري ثم ذكر بعد الحديث أنّه سُئل الحسن البصري عن علي بن أبي طالب عليه السلام عنه فقال: كان علي والله سهماً في مرامي الله على عدوه ورباني هذه الأُمة وذا فضلها وذا سابقتها وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن بالنؤمة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله ولا بالسروقة لمال الله أعطىٰ القرآن عزائمه، ففاز منه برياض مؤنقة ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الاستيعاب ج٣:ص١١١٠).

أقول: بعد وضوح هذه الروايات يتبيّن لجميع المسلمين أنّ المعيار والميزان في كون الشخص مؤمناً أو غير مؤمن هو حب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وبغضه، فحبه علامة الإيمان وبغضه علامة الكفر والنفاق. وهذا الميزان الكلي ينطبق على جميع المسلمين من الصدر الأوّل والى يوم القيامة لأنّ كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس فيه جهة خاصة أو حيثية خاصة، إذن هذا الميزان ينطبق على صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وينطبق على أبي‌بكر وعمر أيضاً، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ من مسلّمات التاريخ أنّ أبابكر وعمر قد تواطئا على الهجوم إلى بيت أميرالمؤمنين عليه السلام بالعنف والإرهاب، فأمر أبوبكر بذلك وباشره عمر بن الخطاب مع جماعة من الأوباش فهجموا على بيت الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وفيه فاطمة الزهراء سلام الله عليها والحسنين عليهما السلام وهم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال ابن قتيبة ـ وهو من كبار علماء أهل السنّة ـ: وإنّ أبابكر تفقّد قوماً تخلّفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار علي فأبوا أن يخرجوا فدعا بحطب وقال: والذي نفس عمر بيده! لتخرجنّ أو لأحرقنّها على من فيها، فقيل له: يا أباحفض، إنّ فيها فاطمة، قال: وإن، فخرجوا فبايعوا. فوقفت فاطمة (رضي الله عنها) على ➡

➲ بابها، فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم جنازته بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردّوا لنا حقاً، فأتىٰ عمر أبابكر، فقال له: ألا تأخذ هذا المتخلّف عنك بالبيعة؟ فقال أبوبكر لقنفذ وهو مولى له: اذهب فادع علياً، قال فذهب إلى علي، فقال له: ما حاجتك؟ فقال: يدعوك خليفة رسول الله، فقال علي: لسريع ماكذّبتم على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فرجع فأبلغ الرسالة، فقال عمر الثانية: لا تمهل هذا المتخلف عنك بالبيعة....

ثم قام عمر فمشى معه جماعة حتى أتوا باب فاطمة فدقّوا الباب، فلمّا سمعت فاطمة عليها السلام أصواتهم نادت بأعلىٰ صوتها: يا أبت يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة، فلما سمع القوم صوتها وبكائها تفرّقوا باكين وكادت قلوبهم تنصدع، وأكبادهم تنفطر، وبقى عمر ومعه قومه فأخرجوا علياً ومضوا به إلى أبي بكر.... فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى فاطمة فإنّا قد أغضبناها، فانطلقا جميعاً فاستأذنا علىٰ فاطمة فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلّماه، فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلّما عليها، فلم ترد عليهما... فقالت (فاطمة): أرأيتكما إن حدّثتكما حديثاً عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تعرفاته وتفعلان به؟ قالا: نعم، فقالت: نشدتكما الله! ألم تسمعا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: رضى فاطمة من رضائي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة فقد أحبني ومن أرضىٰ فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ قالا: نعم سمعناه من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقالت: أشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماتي وما أرضيتماني ولئن لقيت النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لأشكونّكما إليه... (الإمامة والسياسة ج١:ص٢٠).

وقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب المغازي باب غزوة خيبر: أنّ فاطمة هجرت أبابكر فلم تكلّمه حتى توفيت... (صحيح البخاري ج٥:ص٨٢) فإنّ غضب فاطمة الزهراء وأميرالمؤمنين عليهما السلام بالنسبة إلى أبيبكر وعمر من الامور الثابتة ومن مسلّمات التاريخية بحيث لايعترية الشك.

وإنّ صريح البخاري أنّ فاطمة ماتت وهي غضبىٰ عليهما لأجل لأنّهما غصبا الخلافة من أميرالمؤمنين عليه السلام وخالفا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فهما زمرة أعداء أميرالمؤمنين والمبغضين له، ➲

إليها،[١] ومن حمل الحطب والنار الى بيته ليحرقوه ومن في البيت لو لم

⬅ فالميزان الذي ذكره النبيﷺ في الحديث لايحبه إلّا مؤمن ولايبغضه إلّا المنافق ينطبق عليهما بوضوح تام.

(١) فإنّ حديث حب الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام علامة الإيمان وبغضه علامة الكفر والنفاق والضلال يشمل أبابكر وعمر من الجهات المذكورة في المتن:

أوّلاً: من جهة أنّهما تقدّما على الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام؛ إذ من الواضح أنّ الحب الحقيقي يستدعي إنجذاب المحب نحو المحبوب والاستجابة له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ...﴾ (سورة آل عمران: ٣١).

فإنّ المستفاد من الآية الكريمة أنّ الحب الحقيقي ليس بالعلاقة القلبية فحسب، بل يجب على المحب أن يظهر حبه بآثار خارجي في عمله، فمن يدّعي أنّه يحب الله فعليه اتّباع الرسول كما هو تصريح الآية الكريمة، وفي المقام أنّ حب الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام يستلزم إظهار أثر ذلك الحب وهو الاتّباع منه والتأخّر عنه، وحيث أنّ أبابكر وعمر لم يظهرا هذا الأمر بل إنّهما أظهرا خلاف ذلك وتأمرا عليه وغصبا حقه، ثم اتفقا واتسقا مع الطلقاء فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لغصب الخلافة. فبايعوا أبابكر وخالفوا بذلك النصوص من الكتاب وسنن رسول اللهﷺ فقدموا علىٰ الامام أميرالمؤمنين عليه السلام وأبعدوا أهل بيت النبي ﷺ عن ساحة السياسة ولم يكتفوا بذلك حتى هجموا على دار الامام وفعلوا ما فعلوا من الإجرام والظلم على أهل بيت الوحي، فإنّ أفعالهم الإجرامية تدل على علىٰ مراتب بغضهما للإمام أميرالمؤمنينعليه السلام والعترة الطاهرة ﴿صلوات الله عليهم﴾ كما يستّضح ذلك من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالى، وبذلك قد شملهما حديث رسول اللهﷺ: يا علي، لا يبغضك إلّا المنافق أو إلّا الكافر.

وثانياً: إنّ الحديث يشملهما من جهة أنّهما جهدا في تقليل شأن الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام وأهل بيت النبيﷺ لا للوصول فقط إلى بعض المظاهر الدنيوية، فإنّهما قد بذلا سعيهما لتذليل أهل بيت النبوة والرسالة والعترة الطاهرة الذين أعزّهم الله عزوجل، فإنّ هجومها على بيت الزهراء وأميرالمؤمنينعليهما السلام لم يكن من أجل أخذ البيعة فقط، بل إنّهما أرادا بذلك الاستعراض أمام أعين الناس ليعرف الناس أنّ أهل البيت الذين مدحهم الله تعالى

⬅

يبايعهم،[١] الى غير ذلك مما يأتي بيانه من مخالفتهما للسنن المعلومة وحكمهما

⮊ في القرآن الكريم وأوجب مودتهم على جميع المسلمين، ومدحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الأحاديث الكثيرة قد سيطروا عليهم بالعمليات الإرهابية بحيث تنكرت الناس شأن ذلك البيت العظيم إذ هجموا ذلك البيت العظيم وغصبوا حقوقهم في وسط النهار ولم يتعرض لهم أحد، بل ساعدهم الطلقاء والحرب الأموي وجماعة من الأوباش وهذا من أبرز مصاديق البغض للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنه علامة النفاق والكفر.

وثالثاً: قد شملهما الحديث من جهة أنّهما تسلّطا على الأمة بالظلم والجبروت، ومنعا الأُمة من ولاية ولي الله ورسوله، فإنّ المحب إنّما وظيفته أن يمهّد الأمر لإعمال ولاية محبوبه لا المنع من ذلك، فإنّ أبابكر وعمر قد غصبا الخلافة والإمامة ومنعا إمامة ولي الله بعد رسول الله، وحكما على الامة بالظلم والجور والجبروت ليشملهما الحديث ويدخلا في زمرة الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكل نبي مجاب الدعوة، فشملهما حديث ستة لعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة. فلاحظ.

(١) إنّ من أبشع الجرائم التي ارتكبها الغاصبين لخلافة أهل البيت عليهم السلام هي الاعتداء والهجوم على بيت فاطمة الزهراء عليها السلام التي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقها: فاطمة بضعة مني، فمن آذاها فقد آذاني (سنن البيهقي ج ١٠:ص٢٠١).

قال البيهقي بعد ذكر هذا الحديث: إنّه قد رواه البخاري في صحيحه عن أبي الوليد، ورواه مسلم عن أبي معمر عن سفيان (انتهى).

فلا شك أنّ المهاجمين على بيت الزهراء عليها السلام كانوا يعلمون عظمة ذلك البيت ومن يسكنها، علماً بأنّ الله تعالى قد أنزل في شأنهم قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ إِذْنِ الله أَنْ تَرْفَعِ وَيُذْكَرِّ فِيهَا اِسْمُهُ يُسَبِّحْ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ الآصَالِ﴾ (سورة النور: ٢٦) وأنزل فيهم أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (سورة الأحزاب: ٣٣).

فقد استحلّوا بالهجوم على ذلك البيت العظيم حرمته، وأبرزوا بذلك أحقادهم الدفينة وعقيدتهم المهلهلة لتقليل شأن ذلك البيت الرفيع. وقد أخرج هذه الحادثة الأليمة جمع كثير من أعلام أهل السنة وأئمتهم منهم: أبو الفدا، قال في تاريخه ج١:ص٢١٩: ثم انّ أبابكر بعث عمر بن الخطاب إلى علي ومن معه ليخرجهم من بيت فاطمة رضي الله عنها.

⮈

➲ وقال: إنّ أبوا عليك فقاتلهم، فأقبل عمر بشيء من نار على أن يضرم الدار، فلقيته فاطمة رضي الله عنها. وقالت: إلى أين يابن الخطاب؟ أجئت لتحرق دارنا؟ قال: نعم.

ومنهم البلاذري، قال في كتابه أنساب الأشراف ج١:ص٥٨٦: إنّ أبابكر أرسل إلى علي يريد البيعة، فلم يبايع فجاء عمر ومعه فتيلة، فتلّقته فاطمة على الباب، فقالت فاطمة: يا بن الخطاب أتراك محرقاً علَيَّ بابي؟ قال: نعم، وذلك أقوىٰ فيما جاء به أبوك.

ومنهم ابن عبد ربّه الأندلسي، قال في كتابه العقد الفريد ج٤:ص٢٥٩: الذين تخلّفوا عن بيعة أبي بكر علي والعباس والزبير وسعد بن عبادة، فأمّا علي والعباس فقعدوا في بيت فاطمة، وقال له: إن أبوا فقاتلهم، فأقبل بقبس من نار علىٰ أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة، فقالت: يا بن الخطاب! أجئت لتحرق دارنا؟ قال: نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة.

ومنهم الطبري، قال في تاريخه ج٣:ص١٩٨: أتىٰ عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين، فقال: والله لأُحرقّن عليكم أو لتخرجّن إلى البيعة، فخرج الزبير مصلتاً بالسيف، فعثر فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه.

ومنهم الشهرستاني، قال في كتابه الملل والنحل ج١:ص٥٦: إنّ عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألقت الجنين من بطنها، وكان يصيح، أحرقوا دارها بمن فيها، وما كان في الدار غير علي وفاطمة والحسن والحسين.

ومنهم الصفدي، قال في كتابه الوافي بالوفيات في ترجمة النظام: إنّ عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة، حتى ألقت المحسن من بطنها (الوافي بالوفيات ج٥:ص٣٤٧).

ومنهم ابن حجر العسقلاني، في ترجمة أحمد بن محمد بن السري بن يحيى بن أبي دارم، بعد أن أرّخ موته قال: كان مستقيم الأمر عامة دهره، ثم في آخر أيامه كان أكثر ما يقرأ عليه المثالب، حضرته ورجل يقرأ عليه: إنّ عمر رفس فاطمة حتى أسقطت بمحسن (لسان الميزان ج١:ص٢٩٣) وكذلك الذهبي في ميزان الاعتدال ج١:ص١٣٩). والرفس: الصدمة بالرجل في الصدر.

ومنهم المسعودي، قال في كتابه اثبات الوصية: ص١٢٣: فأقام أميرالمؤمنين عليه السلام ومن معه من شيعته في منزله بما عهد إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوجهوا إلى منزله فهجموا عليه وأحرقوا بابه، ➲

بغير ما نزل من عند الله(١).

واستخرجوه منه كرهاً وضغطوا سيدة النساء، حتى أسقطت محسناً، وأخذوه بالبيعة فامتنع وقال: لا أفعل. فقالوا: نقتلك، فقال: إن تقتلوني فإنّي عبد الله وأخو رسوله.

ومنهم عمر رضا كحالة، قال في كتابه أعلام النساء ج٤:ص١١٤: فجاءهم عمر فناداهم وهم في دار فاطمة فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده لتخرجنّ أو لأحرقنّها على من فيها!!! فقيل له: يا أبا حفص، إنّ فيها فاطمة، فقال: وإن.

أقول: لا يخفى أنّ من قال لعمر: «إنّ في البيت فاطمة» أراد أن يبيّن له بأنّ فاطمة هي التي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقها: «فاطمة بضعة مني فمن آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذىٰ الله، وإلّا فما معنى قوله: «إنّ فيها فاطمة» أليس أنّ القوم كانوا يعلمون أنّ ذلك البيت بيت فاطمة، وهل كان أحد يجهل ذلك البيت وصاحبها؟!!

ويتّضح ذلك أكثر وضوحاً من جواب عمر بن الخطاب حيث قال في جواب الرجل بكل قسوة: «وإن» ومعنى كلامه: إنّه وإن كانت فاطمة في هذا البيت العظيم، وإن قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقها: فاطمة بضعة مني فمن آذاها فقد آذاني، وإن كان الله تعالى أنزل في حق فاطمة وأهل هذا البيت الآيات الكريمة الدالة على طهارتهم وعصمتهم و.... .

(١) لا يخفى على من تتبّع في الآثار والسنن أنّ أبابكر وعمر كانا متصافقين في الردّ أو القبول بالنسبة إلى كل عمل وقول وفعل واتخاذ طريقة وغيرذلك في جهة مخالفة القرآن الكريم ومخالفة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وبعد وفاته. وسوف نتعرّض لهذا البحث بأدلة وافية وشواهد كافية من التاريخ والحديث إن شاء الله تعالى.

ولكن من باب الشاهد على المدّعىٰ نشير هنا إلى موجز تلك المخالفات مما سجّله المحقّقون من علماء الإسلام الذين يعتنىٰ بقولهم ورواياتهم ومصنفاتهم عند المسلمين من أبناء أهل السنّة والجماعة.

فعلى سبيل المثال: إنّ أبابكر ترك سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الالتحاق بجيش أُسامة، وشمله لعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: لعن الله من تخلّف عن جيش أُسامة (أُنظر: المواقف للإيجي ج٣:ص٦٥٠، والملل والنحل للشهرستاني ج١:ص٢٣، وشرح نهج البلاغة ج٦:ص٥٢ وغيرهم) كما ترك سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في إيذاء بضعته الزهراء عليها السلام وتحدّىٰ غضبها (أُنظر: أنساب

➲ الأشراف ج١:ص٥٨٦، والعقد الفريد ج٤:ص٢٥٩، وتاريخ أبي فداء ج١:ص٢١٩ وغيرها) وكما ترك سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قتل المسلمين الذين منعوا إعطاء الزكاة له (أُنظر: السنن الكبرىٰ للبيهقي ج ٨: ص ١٧٦، ومجمع الزوائد للهيثمي ج ٦: ص ٢٢١، والاستيعاب لابن عبد البر ج ٣: ص ١٣٦٢، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١: ص ١٧٩ و ج ٤: ص ٢١٠ و ج ١٧: ص ٢٠٢ وغيرها) كما ترك سنّة رسول الله في حرقه الفجاءة السّلمي، وقد نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك (أُنظر: الاستيعاب لابن عبدالبر ج٢:ص٧٧٦، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٧:ص٢٢٢، وتاريخ مدينة دمشق ج٣٠:ص٣١٨ وغير ذلك) كما ترك سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في استخلافه عمر بن الخطاب على المسلمين دون حجة ودليل شرعي، وهناك موارد كثيرة أخرجها علماء أهل السنّة، وقد جمع العلّامة الأميني مجموعة من تلك الأخبار في كتابه الغدير ج٧:ص١٠٣ـ٢٢٩.

كما أنّ عمر بن الخطاب أيضاً خالف وعارض السنن النبوية معارضة صريحة، ومن تلك المعارضات قوله المعروف: إنّ رسول الله يهجر حسبنا كتاب الله (أُنظر: صحيح البخاري ج ٥:ص١٣٨ كتاب المغازي، باب فرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم) فعارض بذلك القرآن والسنّة النبوية حيث أنّ مرجع قوله إلى تكذيب القرآن لأنّ القرآن الكريم فيه التصريح بأنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطق عن الهوىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿**مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ«٣» إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ (سورة النجم:٢و٣) كما أنه خالف وعارض السنّة النبوية والقرآن الكريم في امراق روايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّه خالف السنن النبوية في إهانة الزهراء صلى الله عليه وآله وسلم والهجوم على دارها وإيذائها بالتهديد بحرق باب دارها و.... .

والى غير ذلك مما جاء في التاريخ وقد جمعه المحققّون، منهم العلّامة الأميني في كتابه الغدير ج٦:ص٨٣ ـ٣٣٣.

ولقائل أن يقول: كيف جاز لأبي بكر وعمر المخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس قال الله تعالى: ﴿**مَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ (سورة الحشر: ٧) وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً**﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦) فلا يشك الباحث حينئذٍ في ضلالة أبيبكر وعمر ومخالفتهما للقرآن والسنة النبوية، فلا حظ.

فهذه هي التي جوّزت لمن يسبّهما سبّهما[١]، وحاشىٰ من يحب الله ورسوله

---

(١) لا شك أنّ الحكم بنفي الايمان وجواز اللعن والسب لمن أظهر وأبرز الإسلام إنّما منوط بإقامة الحجة الشرعية القطعية من الكتاب والسنة النبوية المتفقة بين جميع المسلمين؛ فإنّ من ارتكب فعلاً شنيعاً بحيث استلزم منه تكذيب الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو إلى إعراضه عما جاء به النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإنّه سوف يصح نفي الايمان عنه لأنّ فعله تكذيب الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو تكذيب لرسالته وهو سبب مستقل للارتداد. ومن ارتد عن الدين يترتب عليه آثار الكفر، وفي بعض الأحيان يترتب عليه آثار المنافقين إذا كان من أول أمره يظهر الإسلام ويستتر بالكفر، وقد حكم تعالى بكفر هؤلاء وجواز لعنهم كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (سورة التوبة:، ٦٨).

بل وفي بعض الآيات أن المستفاد منها جواز سبهم كما قال تعالى: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٦)

هذه الآية الكريمة وإن كانت في صدرها تحكي عن رجل كان في بداية أمره مؤمناً حاملاً للعلوم الإلهية ثم انحرف عن هذا النهج، فكانت عاقبة أمره الوقوع في الضلال والشقاء، ولكن ذيل الآية يعطينا ميزاناً كلياً معينا لجواز سب من يكذب بآيات الله، فإنّ التكذيب بآيات الله والرد على حججه والمروق عن طاعته والعناد للحق استكباراً على الله هو الملاك التام لخروج الإنسان عن الايمان وجواز سبه ولعنه.

ومن هنا نعرف أنّ المنافقين الذين كانوا يبرزون الايمان في عصر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويستترون الكفر، كما وصفهم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٤) كانوا يراقبون ويرصدون فرصة لتحقيق مناويهم، ولذلك أنّ القرآن الكريم عرَّفهم بالتكذيب لأنّهم كانوا يستترون الكفر ويظهرون الإسلام فجعلهم الله تبارك وتعالى في زمرة المكذّبين بآيات الله، وقال في حقّهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ٣٩)

←

➲ وقال تعالـى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُـونَ ﴾ (سـورة الأنعام: ٤٩)

من الجدير بالانتباه أنّ هذه الآية الكريمة ذكـرت العـقاب للـذين يكـذّبون بآيـات الله بـلفظ «يمسّهم العذاب» فكأنّ هذا العقاب يطاردهم في كل مكان حتى يشملهم بأشد مـا يكـون من العذاب لأنّ المس ظاهره عرفاً فيما يكون الجسد موجوداً فهو بمعنى الإصابـة بالجسـد.

ومـن الواضح أنّ الغاصبين لخلافة أهل البيت عليهم السلام كانوا في الطرف المقابل من حكم الإسلام وكان كل سعهم وظهورهم في الجبهة المقابلة للإسلام وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأراد بـأخذ الحكومة باسم الاسلام أن يشوهوا سمعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام لئلا يـعرف النـاس حقيقة الإسلام فكانوا يخالفون النصوص القرآنية والنصوص الروائية على رؤوس الأشـهاد ليستصغروا من شأن الإسلام عظمة القرآن والسنة النبوية الشريفة فهم فـي زمـرة المكـذبين بآيات الله عزوجل والقرآن الكريم قد أعطانا الملاك العام والميزان الكلي في المكذبين فـي صريح بعض آياته بانّهم سيجزون العذاب ويدخلون الجهنم خالدين فيها أبداً قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُـوءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٥٧) فهذه القاعدة العامة تنطبق على أبي بكر وعمر حيث انهما كذبا آيات الله.

وأيضاً ينطبق عليهما قول الله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ لَـعَنَهُمُ ٱللهُ فِـي ٱلدُّنْـيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ (سورة الأحزاب: ٥٧) لأنّ المصادر الإسـلامية صـريحة على أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام ماتت وهي غاضبة وواجدة على أبي‌بكر وعمر، وأنّها أوصت أن تدفن ليلاً لئلّا يصلّي عليها أحد من الذين غصبوا حق أهل البيت عليهم السلام وحقها جهاراً أخذوا نحلتها ومنعوها عن حقوقها حتى توفيت وهي غاضبة على أبي بكر (أُنظر: صيحح البخاري ج٤:ص٤٢ كتاب الخمس فرض الخمس) وإليك نص العبارة: .... فقال لها أبابكر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا نورث ما تركناه صدقة فغضبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهجرت أبابكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت.... ➲

ويحبّه الله ورسوله[١] المخالفة لشيء من هذه السنن، فكيف بجميعها وغيرها مما

➲ وفي ج٥:ص٨٢ من كتاب المغازي باب غزوة خيبر جاءت هذه العبارة: فأبىٰ أبوبكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً فوجدت فاطمة على أبي‌بكر في ذلك فهجرته، فلم تكلمه حتى توفيت.... .

وأخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة قال: انّ فاطمةعليها‌السلام جاءت أبابكر وعمر تسأل ميراثها من رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقالا: سمعنا رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول: إني لا أُورث، قالت فاطمةعليها‌السلام: والله لا أُكلمكما أبداً فماتت ولم تحكمهما... (أخرجه الترمذي في علله : ص٢٦٥ ح ٤٨٥).

وذكر ابن قتيبة هذا الحديث تحت عنوان: كيف كانت بيعة علي بن أبي طالبعليه‌السلام في حديث طويل (الى أن قال)... فقال عمر لأبي‌بكر: انطلق بنا إلى فاطمةعليها‌السلام فإنّا قد أغضبناها فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا علياً فكلماه فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط، فلما سلّما عليها فلم ترد عليهما السلام (إلى أن يقول): فقالتعليها‌السلام: أرأيتكما أن حدثتكما حديثاً عن رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم تعرفانه وتفعلان به؟ قالا: نعم، فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعها رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب ابنتي فقد أحبني ومن أرضىٰ فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟

قالا: نعم سمعناه من رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، قالت: فإني أُشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لنشكوكما اليه.... فخرجا من عندهاعليها‌السلام وهي ساخطة عليهما (الإمامة والسياسة ج١:ص١٩).

هذا وقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب المناقب باب مناقب فاطمةعليها‌السلام عن النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال: فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني (صحيح البخاري ج٤:ص٢١٩).

(١) هذه العبارة إشارة إلى حديث الراية الصحيح الثابت المتواتر المتفق عليه بين الفريقين والذي أخرجه كبار علماء أهل السنّة في صحاحهم ومسانيدهم وكتبهم المعتبرة، ونحن نذكر في المقام بعض ما جاء في كتبهم فقد روىٰ هذا الحديث البخاري في صحيحه بسنده عن سهل قال: قال النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يوم خيبر. لأعطينّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ➲

ورسوله، ويحبه الله ورسوله فبات الناس ليلتهم أيهم يعطى فغدوا كلّهم يرجوه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أين علي؟ فقيل: يشتكي عينيه، فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية، فقال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم أدعهم إلى الاسلام... (صحيح البخاري ج٤:ص٢٠).

وفي حديثٍ آخر عن سلمة بن الأكوع: قال صلى الله عليه وآله وسلم: لأعطين الراية أو قال: ليأخذن غداً رجل يحبه الله ورسوله، أو قال: يحب الله ورسوله يفتح عليه، فإذا نحن بعلي وما نرجوه فقالوا: هذا علي فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففتح الله عليه (صحيح البخاري ج٤:ص١٢).

ورواه مسلم في صحيحه بسنده عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعته (أي سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، قال فتطاولنا لها، فقال: ادعو لي علياً، فأُتى به أرمد فبصق في عينه ودفع الراية، ففتح الله عليه... (صحيح مسلم ج٧:ص١٢٠ كتاب الفضائل باب فضائل، علي بن أبي طالب).

ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا أبابكر فعقد له لواءً ثم بعثه، فسار بالناس فانهزم حتى إذا بلغ ورجع، فدعا عمر فعقد له لواءً فسار ثم رجع منهزماً بالناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، كرار ليس بفرار، فأرسل فأتيته وأنا لا أبصر شيئاً فتفل في عيني، فقال: اللّهم اكفه ألم الحر والبرد، فما آذاني حر ولا برد بعد (مجمع الزوائد ج٩:ص١٢٤) ورواه أيضاً ابن أبي شيبة في كتابه المصنف ج٧:ص٤٩٧ح١٧ وج ٨:ص٥٢٣ح١١، والمتّقي الهندي في كنزالعمال ج١٣:ص١٢١ح٣٦٣٨٨ وغيرهم.

وأمّا الواقدي فقد أشفق أن يقرن اسم أبي بكر وعمر مع الهزيمة والرجوع دون فعل شيء، لذلك روى الخبر بهذه الصورة: انّه دفع الرسول لوائه إلى رجل من أصحابه المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً، ثم دفعه إلى أخر فرجع ولم يصنع شيئاً (اُنظر: المغازي للواقدي ج٢: ص٦٥٣).

ولاح له أنّه بعلمه هذا برّأ أبابكر وعمر من نسبة الهزيمة لهما، وبإخفائه للحقيقة وتحريفه لواقعة تاريخية، وإن لا يمكن إنكاره لأهل العلم ولكن العجز قد ساقه الى إخفاء تلك الحقيقة أو

يأتي بيانه فيما بعد[1].

وثانيها: ما نسبوه اليه من القول بضرب حدّ المفتري لمن فضّله على أبي بكر وعمر؛فإنّه من عجائب البهتان[2]، ألم يثبت عندهم صحيحاً وقد نصّ على صحته

⬅ تحريفها مع اعتراف كبار علماء أهل السنة، حتى أنّ ابن أبي الحديد المعتزلي ذكر أبياتاً يبيّن فيهما فرارهما في تلك الواقعة، منها:

ما أنس لا أنس الذين تقدما ... فرهما والفرقد علماً حوب

وللراية العظمىٰ وقد ذهبا بها ... ملابس ذلّ فوقها وجلابيب

أُنظر: الروضة المختارة شرح القصائد العلويات السبع لابن أبي الحديد المعتزلي: ص ٩٢).

ونحن نسأل ابن أبي الحديد وغيره من علماء أهل السنّة مع وجود هذه النصوص الصحيحة عندكم: هل تصح النسب التي نسبها ابن تيمية إلى الامام أميرالمؤمنينعليه السلام وقوله: بأنّ الإمامعليه السلام قد عزّر من كان يسب أو يلعن أبابكر وعمر؟

(١) وملخّص الكلام: أنّه لمّا ثبت بالدليل القطعي من القرآن الكريم والسنة النبوية الصريحة جواز اللعن والسب لمن كذّب بآيات الله لاقتضائه تكذيب الرسولصلى الله عليه وآله وسلم أو إلى تكذيب رسالته، فلايجوز مؤاخذة من سبّ أو لعن من يستحقه، إذ من الواضح أنّ تكذيب الرسول أو تكذيب رسالته ينافي مع الإعتقاد الإسلامي المتقوم بشهادتين، فانّ أحد أركان الإسلام هو الإعتقاد بنبوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ومع تكذيبه ينهدم هذا الركن الركين فتكذيب الرسول يستلزم الخروج من الايمان إذا كان مؤمناً قبل التكذيب.

وقد يكون المكذب بآيات الله كافراً من أوّل الأمر وانّ تكذيبه من باب الالحاد والعناد واللجاج كما قال تعالى: ﴿ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ (سورة المائدة: ٦٨) فجواز سب ولعن المكذب بآيات الله من الواضحات الأولية التي جاء بها القرآن الكريم فلاحظ.

(٢) لا شكّ أنّ هذه النسبة الباطلة من افتراءات أعداء أهل البيت والحاقدين عليهم من أتباع خلفاء الجور، حيث أنّ هذه النسبة مخالفة للسنن النبوية الصريحة، وهي قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: علي مع القرآن والقرآن معه لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض (المستدرك للحاكم ⬅

الطبري حسبما نقله عنه صاحب منتخب كنزالعمال ونص على الصحة مثله حافظهم المعتمد المغربي في استيعابه، وهو ثابت في مسند أحمد بطريق ثابت الصحة لديهم خبر: لقد زوّجتك أوّل أُمتي سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم

➲ النيسابوري ج٣:ص١٢٤) ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج٩:ص١٣٤، وأبو جعفر الإسكافي في المعيار والموازنة:ص٤٥، والطبراني في المعجم الأوسط ج٥:ص١٢٥، والسيوطي في الجامع الصغير ج٢:ص١٧٧ وغيرها.

فإذا كان الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام مع القرآن والقرآن معه الى يوم القيامة معناه: أنّه لا يخالف القرآن أبداً والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٨) هذه الآية الكريمة وغيرها صريحة في أنّ أفكار ما جاء من عند الله جحود فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَكَّناهُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفِئِدَتُهُم مِن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الأحقاف: ٢٦) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسَوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٥١) فالجاحد هو الذي يقر في نفسه وعقيدته شيء وفي نفس الوقت يتظاهر بعكسه وفي المقام أنّ من كان يظهر الإيمان بالرسول الأعظم ولكن أنكر ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم صراحة كانكار واقعة الغدير وامثاله فهو من الجاحدين والمكذبين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجوز لعنه وسبّه واذا لعنه أحد فإنّه عمل بكتاب الله، عزوجل وهل يعقل أن يعزر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من يعمل بكتاب الله عزوجل على حق وعلى وجه يرضىٰ به الله عزوجل؟!!!

أنا وعلي (مسند أحمد بن حنبل ج٤:ص١٦٥) ورواه ابن ماجة في سننه ج١:ص٤٤ح١١٩ والترمذي في سننه ج٥:ص٣٠٠ وابن أبي شيبة في المصنف ج٧:ص٤٩٥ح٨ وغيرهم.

فمعناه أنّ ما يفعله الامامعليه السلام نفس فعل رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم فاذا كان الامر كذلك كيف يعقل أنّ الامامعليه السلام يعرز من لعن أو سب من شمله لعنة الرسولصلى الله عليه وآله وسلم بسبب تخلفه عن جيش اسامة وهذه القصة من المسلمات فهل يصح هذه النسبة إلى من يكون فعله فعل الرسولصلى الله عليه وآله وسلم كلا ثم كلا.

حلماً[١].

(١) أُنظر منتخب كنزالعمال بهامش مسند أحمد بن حنبل ج٥:ص٣١، وأخرجه المتقي الهندي في كنزالعمال ج١٣:ص١١٤ح٣٦٣٧٠، واليك نص الحديث: عن علي قال: خطب أبوبكر وعمر فاطمة إلى رسول الله ﷺ فأبى رسول الله ﷺ فقال عمر: أنت لها يا علي، قال: مالي من شيء إلّا درعي وجملي وسيفي، فتعرّض علي ذات يوم لرسول الله ﷺ فقال: يا علي هل لك من شيء؟ قال: جملي ودرعي أرهنهما، فزوّجني رسول الله فاطمة، فلمّا بلغ فاطمة ذلك بكت فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال: مالك تبكين يا فاطمة، والله أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأقدمهم سلماً، وفي لفظ: أوّلهم مسلماً.

ثم قال المتقي الهندي: أخرجه ابن جرير وصحّحه الدولابي في الذريعة الطاهرة (أُنظر: كنز العمال ج١٣: ص١١٤ ح٣٢٩٢٤).

ولاحظ الاستيعاب لابن عبدالبر ج٣:ص١٠٩٩ وفيه: أوّل أصحابي إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً. وكذلك في مسند أحمد بن حنبل ج٥:ص٢٦.

وأخرج الحديث جماعة أُخرىٰ من أعلام أهل السنّة ومحدّثيهم منهم: الهيثمي في مجمع الزوائد ج٩:ص١٠١ ثم قال: ورواه أحمد والطبراني وفيه خالد بن طهمان ووثّقه وأبو حاتم وغيره، وبقية رجاله ثقات.

وفي حديثٍ آخر قال: عن أبي إسحاق: إنّ علياً لمّا تزوّج فاطمة قالت للنبي ﷺ: زوجتنيه أُعيمش عظيم البطن، فقال النبي ﷺ: زوجتكه وأنّه لأوّل أصحابي مسلماً وأكثر علماً وأعظمهم حلماً. ورواه الطبراني وهو صحيح الإسناد (مجمع الزوائد ج٩:ص١٠١).

وفي مكانٍ آخر قال بعد ذكر الحديث قال: ورواه أحمد والطبراني برجال ووثقوا (أُنظر: مجمع الزوائد ج٩:ص١١٤).

ورواه ابن أبي شيبة الكوفي في المصنف ج٧:ص٥٠٥ح٦٨، والضحّاك في الآحاد والمثاني ج١:ص١٤٢ح١٦٩، والطبراني في المعجم الكبير ج٢٠:ص٢٣٠، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج٧:ص٢٢٠ وج ٩:ص١٧٤ وج١٣:ص٢٢٧، والزرندي الحنفي في نظم درر السمطين: ص١٢٨، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص١٢٦ وج٧٠:ص١١٣، وابن الأثير في أُسد الغابة ج٥:ص٥٢٠، ومحب الدين الطبري في الرياض النظرة

ألم يثبت لديهم من طرق عديدة جهاده وشدّته فيه وتقدّمه على غيره من الصحابة فيه(١).

ج٢:ص٥٥، والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج١:ص٢٠٢ وغيرهم.

وهذا الحديث صريح في أنّ مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام أول القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً وأعلمهم بدين الله فإذا ثبت ذلك ثبتت إمامته لأنّ الإمام لابد أن يكون أعلم الناس بالقرآن.

وقد أخرج الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل بسنده عن عمر بن الخطاب أنّه قال: علي أعلم الناس بما أنزل الله على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم (شواهد التنزيل ج ١: ص ٣٩).

واذا ثبتت امامة مولانا الامام أميرالمؤمنين عليه السلام لابد من الرجوع اليه في جميع الامور واذا وجب الرجوع إليه فيلزم على جميع المسلمين أن يقتدوا به وعليه فانّ الإمام اميرالمؤمنين عليه السلام بيّن حقيقة قرآنية في قضية غصب الخلافة إذ قد صرح على رؤوس الأشهاد قائلا: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لعهد النبي الامي صلى الله عليه وآله وسلم إليّ أن لا يجني إلّا مؤمن ولا يبغضني إلّا منافق (صيح مسلم ج١،ص٦١ كتاب الإيمان والكفر باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات) فانّ هذا الحديث صريح في أنّ من خالف أميرالمؤمنين عليه السلام فهو في زمرة المنافقين وانّ المنافقين في درك الأسفل من الجحيم وهل يمكن أعلم الناس بالقرآن أن يعزر من يلعن الكفار والمنافقين بنص القرآن الكريم؟!!!!

(١) اجتمعت الأُمة الاسلامية على أنّ الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان إماماً في الجهاد والإيثار والتفاني في سبيل الله ورفع راية الإسلام ونشر تعاليمه الغرّاء بتضحياته الفذّة وببذل أعز الأشياء لديه في سبيل مرضاة الله، فكان جهاده فوق كل جهاد.

وقد اعترفت بذلك علماء أهل السنّة منهم التفتازاني في كتابه شرح المقاصد، قال في ضمن ذكره فضائل الإمام عليه السلام: إنّه أشجعهم. ويدلّ عليه كثرة جهاده في سبيل الله وحسن إقدامه في الغزوات، وهي مشهورة غنية عن البيان، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا فتى إلّا علي ولا سيف إلّا ذوالفقار، وقال صلى الله عليه وآله وسلم يوم الأحزاب: لضربة علي خير من عبادة الثقلين... (شرح المقاصد ج٢:ص٣٠١).

وقال محمد بن طلحة الشافعي: وأمّا جهاده في سبيل الله واجتهاده في قتال المشركين في الغزوات والسرايا فأشهر من نصرة الأنصار وأظهر من ظهيرة النهار.

➲ وقد نقل الواحدي في كتابه الذي صنفه في أسباب النزول أنّ الحسن والشعبي والقرطبي قالوا: إنّ علياًعليه السلام والعباس وطلحة افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت الذي بيدي مفتاحه ولو أشاء بتّ فيه.

وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها.

وقال عليعليه السلام: ما أدري ما تقولان لقد صلّيت ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله تعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ لاَيَسْتَوُونَ عِندَ ٱللهِ**﴾ (سورة التوبة: ١٩) الى إن قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ**﴾ (سورة التوبة: ٢٠) الى قوله تعالى: ﴿**أجرٌ عَظِيمْ**﴾ (سورة التوبة: ٢٢).

فصدّق الله بهذه الآيات علياًعليه السلام في دعواه واتصافه بالجهاد والزكاة ورفع مقامه بذلك (مطالب السؤول في مناقب آل الرسولصلى الله عليه وآله وسلم: ص١٩٨).

وقال أبوبكر الدينوري: كان درع عليعليه السلام لا ظهر لها، رواه جماعة (أُنظر: المجالسة وجواهر العلم: ص ١٩٣).

وأخرج ابن عساكر بسنده عن مصعب بن الزبير عن أبيه قال: كان علي بن أبي‌طالبعليه السلام حذراً في الحرب شديد الروغان من قرنه، إذا حمل يحفظ جوانبه جميعاً من العدو، وإذا رجع من حملته يكون لظهره أشد تحفّظاً منه لقدّامه، لا يكاد أحد يتمكّن منه، فكانت درعه صدره لا ظهر لها فقيل له: ألا تخاف أن يؤتى من قبل ظهرك فقال: إن أمكنت عدوّي من ظهري فلا أبقىٰ الله عليه إن أبقى علَيَّ (تاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص٢٤٠).

وقال القندوزي الحنفي: اما جهاده في سبيل الله فمعلوم عند جميع الناس من المعلومات الضرورية كالعلم بوجود مكة ومصر. فقُتل في بدر سبعون من المشركين، قَتَل عليعليه السلام ستة وثلاثين منه وقتل المسلمون والملائكة أربعة وثلاثين، وإذا رجعت إلى مغازي محمد بن الواقدي، وتاريخ الأشراف ليحيى بن جابر البلاذري ومحمد بن إسحاق المطلبي وغيرهم علمت صحة ذلك، دع من قتله في غيرها كأُحد وخندق وحنين وخيبر.... (ينابيع المودة ج١:ص٤٥١).

➲

وقد نقل حافظهم المغربي في استيعابه إجماعهم على أنّه أغنى عن غيره في عمد المغازي، وقام فيها المقام الكريم وهي بدر وأُحد والخندق وخيبر[(١)].

➲ والى غير ذلك مما جاء في كلماتهم، فإنّه عليه السلام جاهد في الله حق جهاده ولا يمكن لأحد إنكار جهاده عليه السلام في سبيل الله، وكان جهاده في سبيل جهاداً عظيماً، وفي نفس الوقت كان مجاهداً مع النفس الذي عبّر عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجهاد الأكبر.

فكان عليه السلام يصفح عمن أساء عليه ويعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه، فقد روىٰ القندوزي الحنفي أنّه عليه السلام حينما ظفر يوم الجمل بمروان بن الحكم وكان أعدىٰ الناس له وأشدهم بغضاً فصفح عنه.

وكان عبدالله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد، وخطب ابن الزبير يوم البصرة فقال: قد أتاكم الوغب اللئيم علي بن أبي طالب ـ والعياذ بالله ـ فظفر به الإمام عليه السلام يوم الجمل فأخذه أسيراً فصفح عنه وقال له: اذهب فلا أرينك. وظفر بسعد بن العاص الأُموي بعد واقعة الجمل بمكة، وكان من أعدائه، فأعرض عنه ولم يقل له شيئاً، ولمّا ظفر بعائشة أكرمها وبعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبدالقيس عممهنّ بالعمائم، وقلّدهن بالسيوف، فلمّا وصلت المدينة ألقت النساء عمائمهن وقلن لها: نحن نسوة. ولمّا ظفر بأهل البصرة رفع السيف عنهم ونادىٰ منادي: لا يتبع مولّ، ولا يقتل جريح ولا أسير، ومن ألقىٰ سلاحه فهو آمن، ومن تحيّز إلى عسكر الامام فهو آمن، ولم يأخذ أموالهم ولا سبي ذراريهم، وقد تابع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة.

ولمّا ملك عسكر معاوية شريعة الفرات، وقالت رؤساء الشام لمعاوية: اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاناً. فالتمس منهم أصحاب علي عليه السلام أن يسوّغوا لهم شرب الماء، فقالوا: لا والله ولا قطرة حتى تموتوا عطاشا كما مات عثمان بن عفان عطشاناً. فلمّا رأى علي عليه السلام ذلك حمل بأصحابه على عسكر معاوية حملات كثيفة حتى أزالهم عن مراكزهم، وملكوا الماء، فقال أصحاب علي: نمنعهم من الماء يا أميرالمؤمنين كما منعونا، ولا نسقيكم منه قطرة، وهم يموتون بالعطش فلا حاجة لنا إلى الحرب. فقال: لا والله لا أُكافيهم بمثل فعلهم، فافسحوا لهم عن بعض الشريعة فقد حد السيف ما يغني عن ذلك (ينابيع المودة ج١:ص٤٥٠).

(١) وهذا نص كلامه، قال: وأجمعوا على أنّه صلى القبلتين، وهاجر، وشهد بدراً والحديبية ➲

وروى هو وغيره مثل صاحب الرياض النضرة وغيره بطريق ثابت الصحة، أنّه أسلم أهل اليمن على يده جميعهم بعدما مكث فيهم خالد بن الوليد ستة أشهر يدعوهم الى ذلك، فلم يجبه رجل منهم[١].

➲ وسائر المشاهد، وأنّه أبلىٰ ببدر وبأُحد وبالخندق وبخيبر بلاءً عظيماً، وأنّه أغنى في تلك المشاهد وقام فيها المقام الكريم، وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده في مواطن كثيرة، وكان يوم بدر بيده على اختلاف في ذلك، ولما قتل مصعب بن عمير يوم أُحد وكان اللواء بيده دفعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي (رضي الله عنه).

وروى ابن الحجّاج بن أرطأة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال: دفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الراية يوم بدر إلى علي وهو ابن عشرين سنة، ذكره السراج في تاريخه ولم يختلف عن مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مذ قدم المدينة إلّا تبوك... (الاستيعاب ج٣:ص١٠٩٦).

ولايخفى على الخبير أنّ غزوة تبوك لم يتحقّق فيها المقاتلة وإنّما انتهت بانسحاب الكفّار وتسليمهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) وهي عبارة ابن عبدالبر في الاستيعاب، قال: أخبرنا أبو عمر أحمد بن محمد بن سعيد حدثنا أبوبكر أحمد بن الفضل بن العباس الدينوري، حدثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء ومحمد بن هياج قالا: حدثنا محمد بن عبدالرحمٰن الأزدي، حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فكنت فيمن سار معه، فأقام عليهم ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالد ومن اتبعه إلّا من أراد البقاء مع علي (رضي الله عنه) فيتركه، قال البراء: فكنت فيمن قعد مع علي فلمّا انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر فجمعوا له فصلى بنا علي الفجر، فلمّا فرغ صففنا صفّاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلمت همدان كلها في يومٍ واحد، وكتب بذلك علي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولمّا قرأ كتابه خر ساجداً ثم جلس فقال: السلام على همدان وتتابع أهل اليمن السلام... (الاستيعاب ج٣:ص١١٢٠، وكذلك في ص ١١٠٠).

➲

وقد ثبت هرب الشيخين بمن معهما في خيبر،[١] ولم يخرجا في يوم

➲ وأخرجه أحمد بن عبدالله محب الدين الطبري المكي صاحب كتاب الرياض النضرة المتوفى في سنة ٦٩٤هـ في كتابه ذخائر العقبىٰ: ص١٠٩، وأيضاً أخرجه جمع كثير من أعلام أهل السنّة؛ منهم: البيهقي في سننه الكبرىٰ ج٢:ص٣٦٩ح١٠٩، وابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري ج٨:ص٥٢، والإلباني في كتابه إرواء الغليل ج٢:ص٢٢٩، والطبري في تاريخه ج٢:ص٣٩٠ في حوادث السنة العاشرة من الهجرة، وابن الأثير في تاريخه ج٢:ص٣٠٠، والذهبي في تاريخ الإسلام ج٢:ص٦٩٠، وابن كثير في البداية والنهاية ج٥:ص١٢١، وابن خلدون في تاريخه ج٢:ص٥٥، والحلبي في سيرته ج٣:ص٢٢٥ وص٣١٩، والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج٢:ص١٩٧ح٥٧٠، والمسعودي في التنبيه والإشراف: ص ٢٣٨ وغيرهم.

(١) ذكر المؤرخون أنّ غزوة خيبر كانت في ذي الحجة سنة ست من الهجرة وعندما أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتح خيبر قد حاصر القلاع والحصون اليهودية بضعاً وعشرين ليلة، فكانت معركة خيبر اختلفت عن سائر الحروب بهذه الجهة، إذ المسلمون قد واجهوا حصونا منيعة وكثرة المحاربين، إذ ذكرت الروايات وجود عشرة آلاف مقاتل يهودي في خيبر، وكانت هذه الحصون والقلاع والأعداد العسكرية الهائلة يسندها المال والسلاح والشهرة القتالية والمكر اليهودي ولعل بسبب ذلك سُمّي بعض الحصون باسم زعيم الحصن وسيده مثل حصن مرحب الخيبري، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفتح الحصون حصنا بعد حصن وكان من أشدها حصن القموص وأخرج الهيثمي عن ابن عباس انّه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى خيبراً أحسبه قال: أبابكر فرجع منهزماً ومن معه فلما كان من الغد بعث عمر فرجع منهزماً يجبن أصحابه ويجبنّه أصحابه... (مجمع الزوائد ج٩:ص١٢٤).

ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج٣:ص٣٧، وصححه الذهبي في التخليص ج٣:ص٣٧، وتاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص١٠٧، وتاريخ الطبري ج٢:ص٣٠٠، والسيرة الحلبية ج٢:ص٣٧، والسيرة النبوية لابن هشام ج٣:ص٣٣٤ وغير ذلك.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والذي نفسي بيده! لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرّار ليس بفرّار يفتح الله له، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ادعوا لي علياً، فقالوا: إنّه أرمد العين، فقال: ➲

الخندق لفارس قريش ابن عبدوِد العامري، وقد ضمن صلى الله عليه وآله وسلم الجنة لمن يبرز له، فأحجم جميعهم ولم يبرز له سوى علي عليه السلام(١).

ارسلوا اليه وادعوه فأُتى به يقاد، فبصق في عينيه فقام وعينيه جزعتان، وأعطاه الراية ودعا له فأقبل حتى ركزها قريباً من الحصن، فخرج إليه مرحب فبارزه فضرب رجله فقطعها وحمل على الجماعة اليهودية فانهزموا فدخلوا الحصن وأغلقوا الباب فقطع الامام عليه السلام باب الحصن وجعله جسراً ليعبر عليها المسلمون. وفي بعض الروايات: دحا به خلفه ذلك الباب الذي قال في وصفه ابن أبي الحديد المعتزلي:

يا قالع الباب الذي عن هـزّها عجزت أكفّ أربـعون وأربـع

والى آخر أبياته (اُنظر: الروضة المختارة في شرح العقائد العلوية لابن أبي الحديد:ص١٤).

وفي مسند أحمد عن أبي رافع قال، بعد بيان قتل الإمام علي عليه السلام مرحب أنّه ألقاه من يده ـ يعني الباب ـ: فلقد رأيتني في نفر معي من سبعة أُناساً منهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه (مسند أحمد بن حنبل ج٦:ص٨).

فأجمع المسلمون على صحة حديث الراية وانهزام الشيخين من المعركة الدال على جبنهما عن الحروب وخوفهما عن البراز للحتوف وجزعهما من لقاء الأبطال، وضعف بصيرتهما وعـدم ثباتهما في القتال بما أوجب في الحكمة والدين والتدبير، حسبهما في ذلك المكان، ومنعهما من التعرّض إلى القتال. فلاحظ.

(١) لا يخفى أنّ معركة الخندق ـ وهي التي تسمىٰ بالأحزاب ـ من المعارك التـي تـمتاز عـن غيرها لاشتمالها على تجميع الطوائف المختلفة في جيش العدو بحيث لم يعرف له تـاريخ العرب والجزيرة من نظير، حيث إنّ أعداء الإسلام قد اجتمعوا في صف واحد ضد رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يخفى ان الحروب التي جرت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين والكفّار كانت حروباً كثيرة ولكن العدو في جميع تلك الحروب كان من طائفة أو قبيلة واحدة ولم يكن من عموم الجزيرة العربية ومن عموم القبائل المعادية للإسلام آنذاك أي إنّ الإسلام لم يـواجـه ذلك الاجتماع العظيم ضده في الحروب والوقائع عدواناً شاملاً من سكّـان الجـزيرة، مـن القبائل العربية والقرشية.

وأمّا في غزوة الأحزاب: فقد اجتمعت القبائل في الجزيرة العربية عن طـريق اتـحاد عسكـري

➲ عريض يضم بعضها إلى بعض، فعمدوا الى تعبئة أكبر قدر من المقاتلين واستجلبوا أكبر صناديد العرب وأشهر أبطالهم كعمرو بن عبدود العامري، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن وهب، ونوفل بن عبدالله، وضرار بن الخطاب وغيرهم لإبادة الإسلام ومحو شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا كانت معركة الأحزاب مواجهة كاملة بين كل الكفر وكل الإيمان، ومن هنا خاف المسلمون وأخذ المنافقون يبثون من الأقاويل ما أزاغ الأبصار وجعل القلوب في الحناجر، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ ٱلظُّنُونَا * هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْـزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ (سورة الأحزاب: ١٠ـ١٢) فأصاب المسلمين حالة اليأس من النصر وخاصة عندما تبارز بطل الإسلام وبطل الكفر وتواجها في ساحة القتال، لأنّ عمرو بن عبدود العامري كان يعدل ألفاً من الأبطال كما يصفه بعض المؤرخين، فعبر الخندق من مكان ضيّق وعبر معه جماعة من شجعان المشركين: كعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن وهب، ونوفل بن عبدالله وغيرهم، ثم أخذوا يدعون المسلمين إلى البراز في كبرياء وغرور، فتقدم عمرو بن عبدود وقد ركبه الغرور والاعتداد بالنفس وكانت له خبرة طويلة في الحرب، ورفع صوته طالباً من يبارزه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيكم يبرز إلى عمرو أضمن له الجنة؟ وقد قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات، وفي كل مرة يقوم علي عليه السلام ويقول: أنا له يا رسول الله، والقوم ناكسوا رؤوسهم (اُنظر: تاريخ الخميس ج١:ص٤٨٦)، وفي بعض المصادر جاء هذا التبصير: كأنّ المسلمين يومئذٍ على رؤوسهم الطير لمكان عمرو وشجاعته (اُنظر: المغازي للواقدي ج٢:ص ٤٧٠).

وكان أبوبكر وعمر حاضرين في هذا الجمع فلم يجيبا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولما رأى عمرو أنّ المسلمين لم يتجرّؤوا من مبارزته فأخذ يسخر بالمسلمين وبمعتقداتهم فقال: أين جنتكم التي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها؟ أفلا يحب أحدكم أن يذهب اليها أو يدفعني الى النار؟ ولا زال النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحثّ أصحابه على الخروج اليه ويفزّهم بالجنة، فلا يزداد القوم إلّا انكماشاً وارتعاداً، وهنا أنشد عمرو أبياته المعروفة وهي:

➲

➡ ولقد بحححت من النداء — بجمعهم هل من مبارز

إنّي كذلك لم أزل — متسرّعاً نحو الهزاهز

إنّ السماحة والشجاعة — في الفتى خير الغرائز

ففي كل مرة لا يجيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحد إلّا الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولابد أن تحل هذه المشكلة بيد علي عليه السلام فارس ميادين الحرب المقدام وكان كذلك، فلما رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يجيبه أحد من الصحابة وفي كل مرة أنّ الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب يقوم من مكانه ويقول: يا رسول الله أنا حاضر أن أُبارز وأُقاتل معه، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيفه الخاص ذا الفقار وعمّمه بيده ووجّهه صوب عمرو، وقد دعا له قائلاً: اللهم أعنه عليه ثم قال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته.

فبرز الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عمرو يهرول في مشيته، مبادراً اليه دون إبطاء، وهنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلمته الخالدة: برز الإيمان كله إلى الشرك كلّه (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٣:ص٢٦١ وفي ج١٩:ص٦١) فمشىٰ الإمام عليه السلام الى الحرب وهو يرتجز ويقول:

لا تعجلنّ فقد أتاك — مجيب صوتك غير عاجز

ذو نية وبصيرة — والصدق منجي كل فائز

إنّي لأرجو أن أُقيم — عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقىٰ — ذكرها عند الهزاهز

فأراد عمرو أن يعرف من برز اليه فقال: من أنت؟

فقال الإمام: أنا علي بن أبي طالب، فقال عمرو: إنّي أكره أن أُريق دمك، والله إنّ أباك كان لي صديقاً ونديماً، فقال علي عليه السلام: لكنّي ما أكره والله أن أُهريق دمك، فلمّا التقيا دعاه الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام إلى الإسلام أولاً فأبىٰ، ثم دعاه إلى الاعتزال الحرب فرفض ذلك واعتبره عاراً عليه، وفي الثالثة دعاه الإمام عليه السلام إلى أن ينزل عن ظهر جواده ويقاتله راجلاً، فغضب عمرو وقال: ما كنت أحسب أحداً من العرب يدعوني إلى مثل ذلك، فنزل من على ظهر فرسه، ولكي يرعب علياً عليه السلام عرقب قوائم فرسه على عادة العرب في الجاهلية (أُنظر:

⬅

⮌ المغازي للواقدي ج٢:ص ٤٧٠و ٤٧١).

وبدأ تصاول شديد بينهما وارتفعت العجاج بحيث حجبت الرؤية، وإنّما كان الناس يسمعون فقط صوت اصطكاك السيوف والدروع الحديدية، وبعد فترة من التصاول سقط عمرو إلى الأرض فظن المنافقون أنّ علياًعليه السلام قد قتل بسيف عمرو فاستعدوا لتسليم النبيصلى الله عليه وآله وسلم للمشركين فتشاور الصحابة بينهم بما فيهم أبوبكر وعمر أن يأخذوا النبيصلى الله عليه وآله وسلم ويسلّموه إلى الأعداء، ثم انكشفت العجاجة، فنظر المسلمون فإذا عليعليه السلام على صدر عدوّ الله يريد أن يذبحه، فارتفع أصواتهم بالتكبير فلم يتأخر ساعة إلّا ورأوا أنّ الامامعليه السلام يرجع إلى معسكره رويداً رويداً والدم ينزف من رأسه من ضربة عمرو بالسيف على رأسه ولكن ابتسام النصر على شفتيه وهو يحمل رأس عمرو إلى النبيصلى الله عليه وآله وسلم فألقى هلاك عمرو رُعباً عجيباً في نفوس بقية الأبطال الشجعان فهربوا راجعين الى معسكرهم وخابت آمالهم، ولذلك قال النبيصلى الله عليه وآله وسلم: ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين أو من عبادة أُمتي إلى يوم القيامة (أنظر: المستدرك للحاكم النيسابوري ج٣:ص٣٢) وبكشف النبيصلى الله عليه وآله وسلم بهذا الكلام عن أهمية الضربة التي أوقعها الإمامعليه السلام بعمرو في تلك الوقعة.

ولمن أراد الوقوف على جزئيات هذه الغزوة وما حدث فيها فليراجع كتب التاريخ والمغازي، فإنّا قد لخّصنا ما ذكر في أُمهات المصادر التاريخية التي صنّفها علماء الإسلام. كالطبري وابن الأثير والمسعودي واليعقوبي وغيرهم.

أقول: إنّ غزوة الأحزاب كانت امتحانا عجيباً للصحابة الذين كانوا يدعون الإسلام، وكذلك للذين كانوا يدعون الحياد أحياناً، وكان لهم في الباطن ارتباط وتعامل مع أعداء الإسلام ويتعاونون معهم ضد الدِّين، لقد تبّين بوضوح تام موقع فئات المؤمنون الصادقون وضعفاء الإيمان والمنافقون، من ضلال عملهم واتضحت تماماً القيم والمفاهيم الإسلامية من الإيمان والإخلاص للمؤمن الصادق، وعلى عكسه من كان يظهر بالإيمان وكان عمله ينبأ عن نفاقه، فهنا لابد لكل مؤمن غيور أن يبحث بحثاً علمياً دقيقاً في هذا المجال والموقف العظيم لتنكشف له الحقائق ويعرف المؤمن من المنافق من أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم، فهذه الواقعة تكشف عن الكثير من الأُمور للمنصف الذي يبحث عن حقائق الأُمور فغزوة الأحزاب تبيّن

⮍

قال النيشابوري في تفسير سورة القدر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مبارزة علي يوم الخندق أفضل من عمل أُمتي الى يوم القيامة[١]. ولهذه وغيرها صار محبّه مؤمناً ومبغضه منافقاً[٢]

⬅ هذهالحقيقة بصورة واضحة، بأنّ إيمان مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام كان إيماناً واقعياً حقيقياً، وأمّا إيمان الصحابة الذين لم يتأثروا بطلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم للحرب مع عمرو بن عبدود مع أنّهم كانوا يقرؤون القرآن ليلاً ونهاراً كان إيماناً ظاهرياً غير واقعي، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الأحزاب:٦).

وهذا يعني: إنّ المؤمن الحقيقي لابد له من الإذعان بهذه الأولوية، فالصحابة كلّهم أو أكثرهم قدّموا أنفسهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويخرّ للبراز مع عمرو ولكن ترىٰ الأمر على العكس بالنسبة إلى مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام، فكانت هذه الواقعة عاصفة شديدة لم تدع المجال لأيّ شخص أن يُخفي ما في قلبه، فعرف الكل أنّ الصحابة بما فيهم أبابكر وعمر لم يجيبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الموقف الحسّاس من التاريخ الذي طلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم أن يبارزوا الكفر وضمن لهم الجنة إن قتلوا.

وكان لمولانا أميرالمومنين عليه السلام حق الحياة على جميع الصحابة آنذاك، إذ لولا أميرالمؤمنين عليه السلام لما علم مصير الصحابة من قبول الذل وتسليمهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكفّار والمشركين، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ مبارزة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام مع عمرو بن عبدود أفضل من عبادة أُمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ الغاية من الكلام واضحة، لأنّ كلّاً من الإسلام والقرآن كان على حافة الهاوية ظاهراً، وكان يمر بأحرج خطاب وأصعبها، ولذلك كانت تضحية الإمام عليه السلام في هذه الحرب أعظم تضحية، حيث حفظ الإمام عليه السلام بها الإسلام من السقوط، ودرأ عنه الخطر، وضمن بقاءه إلى يوم القيامة. فإنّ عبادة جميع الأُمة مرهونة بعمل الإمام عليه السلام. وإنّ عدم إجابة الصحابة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة من أبي بكر وعمر بقيت عاراً عليهم إلى يوم القيامة.

(١) أُنظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم النيشابوري ج٣:ص٣٢.

(٢) لقد وردت روايات كثيرة في مصادر أهل السنة والجماعة بهذا المضمون ومفهومها انّ حب الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق، منها: ما رواه ⬅

➲ مسلم في صحيحه عن زر بن حبيش قال: قال علي، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة انّه لعهد النبي الأُمي صلى الله عليه وآله وسلم إلَيَّ أن لا يحبني إلّا مؤمن ولا يبغضني إلّا منافق (صحيح مسلم ج١:ص٦١ كتاب الإيمان، باب من أن حب الأنصار وعلي عليه السلام من الإيمان وعلاماته).

ومنها: ما رواه ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني، وذلك أنّه قضى فانقضىٰ على لسان النبي الأُمي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: يا علي لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق (شرح نهج البلاغة ج١٨:ص١٧٣) ورواه محمد بن إبراهيم الثقفي في كتابه الغارات ج١:ص٤٣، والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج١:ص١٥٢ح١٥، ومحمد بن عقيل في النصائح الكافية: ص٩٥.

ومنها: ما رواه الحافظ السّمان في أماليه بإسناده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لو أنّ عبداً عبد الله سبعة آلاف سنة وهو عمر الدنيا ثم أتىٰ الله عزوجل يبغض علي بن أبي طالب جاحداً لحقه ناكثاً لولايته لأتعس الله خيره وجدع أنفه (أُنظر: شمس الأخبار لعلي بن حميد القريشي: ص ٤٠).

ومنها: ما رواه الخوارزمي بسنده عن زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لعلي: يا علي، لو أنّ عبداً عبد الله عزوجل مثل ما قام نوح في قومه، وكان له مثل أُحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله، ومدّ في عمره حتى حج ألف عام على قدميه، ثم قتل بين الصفا والمروة مظلوماً، ثم لم يوالك يا علي لم يشم رائحة الجنة ولم يدخلها (المناقب للخوارزمي: ص ٦٧ح٤٠ب٦).

ومنها: ما رواه ابن عساكر بسنده عن أُم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وأنّ عبداً عبد الله ألف عام بعد ألف عام وألف عام بين الركن والمقام، ثم لقى الله مبغضاً لعلي بن أبي طالب وعترتي أكبّه الله على منخريه يوم القيامة في نار جهنم (تاريخ دمشق ج٤٢:ص٤٧١) وأخرجه القندوزي في ينابيع المودة ج١:ص٢٩٠.

ومنها: ما رواه ابن عساكر أيضاً بسنده عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا علي، لو أنّ أُمتي صاموا حتى يكونوا كالحنايا، وصلّوا حتى يكونوا كالأوتار، ثم أبغضوك لأكبّهم الله على وجوههم ➲

في النار (تاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص٦٤) ورواه القندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج١:ص ٢٧١ح ٥).

ومنها: ما أخرج أبو يعلىٰ في مسنده عن أُمّ سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا يحب علياً منافق، ولا يبغضه مؤمن (مسند أبي يعلىٰ الموصلي ج١٢:ص٣٦٣ح٦٢٣١).

ومنها: ما أخرجه الحاكم النيسابوري بسنده عن عمار بن ياسر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي: يا علي طوبىٰ لمن أحبك وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذب فيك (المستدرك على الصحيحين ج٣:ص١٣٥) وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ج٩:ص١٢٢، وأبويعلى الموصلي في مسنده ج٣:ص١٧٩ح١٦٠٢، والزرندي الحنفي في نظم درر السمطين: ص١٠٢ وغيرهم.

ومنها: ما رواه الهيثمي بسنده عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذا جبرئيل يخبرني أنّ السعيد حق السعيد من أحب علياً في حياته وبعد موته، وأنّ الشقي كل الشقي من أبغض علياً في حياته وبعد موته (مجمع الزوائد ج٩:ص١٢٢) وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير ج٢٢:ص٤١٥، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج٩:ص١٦٩، والمتقي الهندي في كنزالعمّال ج١٣:ص١٤٦ح٣٦٤٥٨، والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج٢:ص٤٨٧ح٣٧٢ وغيرهم.

ومنها: ما رواه الحاكم النيسابوري بسنده عن سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني (المستدرك على الصحيحين ج٣:ص١٣٠) وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ج٩:ص١٣٢، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٣:ص٣٨٠، والسيوطي في الجامع الصغير ج٢:ص٥٥٤ح٨٣١٩ وغيرهم.

ومنها: ما أخرجه الحاكم النيسابوري بسنده عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فلو أنّ رجلاً صفّ قدميه بين الركن والمقام فصلىٰ وصام ثم لقي الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار (المستدرك على الصحيحين ج٣:ص١٤٩) وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير ج١١:ص١٤٢، والمتقي الهندي في كنزالعمال ج١٢:ص٤٢ح٣٣٩١٠، والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج٢:ص١١٥ح٣٢٦ وغيرهم، والى غير ذلك من الروايات الواردة في كتبهم فلاحظ.

والنظر الى وجهه عبادة،(١) حسبما روىٰ ذلك جماعة من الصحابة منهم الشيخان،(٢) فلو لم يحبّه الشيخان لثبت نفاقهما وصار سابّه سابّ الرسول(٣)

---

(١) أُنظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج٣:ص١٤٢، والمعجم الكبير للطبراني ج١٠:ص٧٧ وذخائر العقبى لأحمد بن عبدالله الطبري: ص ٩٥، وعمدة القاري في شرح البخاري للعيني ج٢:ص١٥٠، وكنزالعمال للمتقي الهندي ج١١:ص٦٠٤ح٣٢٩٨٥، وكشف الخفاء للعجلوني ج٢:ص٣١٨ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٢:ص٤٩، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج٤٠:ص٩ وج٤٢:ص٣٥٠، وسير أعلام النبلاء للذهبي ج١٥:ص٥٤٢، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج٢:ص٢٢٩، والبداية والنهاية لابن كثير ج٧:ص٣٩٤ وغير ذلك.

(٢) أخرج ابن المغازلي بسنده عن عائشة أنّها قالت: رأيت أبابكر يكثر النظر إلى وجه علي، فقلت: يا أبه، أراك تكثر النظر إلى وجه علي. فقال: يا بنية، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: النظر إلى وجه علي عبادة (المناقب لابن المغازلي: ص٢١٠ح٢٥٢ أخرجه بسندين، وأيضاً أخرجه أبوبكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم: ص٥١٤، والخوارزمي في مناقبه: ص٣٦٢ح٣٧٥، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص٣٥٠، ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة ج٢:ص١٢٠، وذخائر العقبى: ص ٩٥ وغيرهم).

وأخرج أبو الفداء ابن كثير بسنده عن عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم: عمر بن الخطاب أنّه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: النظر إلى وجه علي عبادة (أُنظر: البداية والنهاية ج٧:ص٣٥٧) وأخرجه الكنجي الشافعي في كتابه كفاية الطالب: ص ١٦١، وابن حجر في لسان الميزان ج١:ص٢٤٣ في ترجمة أحمد بن عيسى بن محمد وغيرهم.

(٣) أُنظر: مسند أحمد بن حنبل ج٦:ص٣٢٣، والمستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج٣:ص١٢١، ومجمع الزوائد للهيثمي ج٩:ص١٣٠، والسنن الكبرىٰ للنسائي ج٥:ص١٣٣، ونظم درر السمطين للزرندي الحنفي: ص ١٠٥، وذخائر العقبىٰ لأحمد بن عبدالله الطبري: ص ٦٦، والجامع الصغير للسيوطي ج٢:ص٦٠٨ح٨٧٣٩، وكنزالعمال للمتقي الهندي ←

ومبغضه مبغض الرسول،(١) الى غير ذلك من خصائصه التي قضت بتقدّمه بالفضل على غيره بعد خير الرسل صلى الله عليه وآله وسلم(٢).

ولذلك روىٰ الخطيب ونقله عنه صاحب منتخب كنز العمال ما دلَّ على كون الله قد اختار من أهل الدنيا رجلين: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلياً عليه السلام. قال: وسنده حسن مثل سند حديث: النظر الى وجهه عبادة(٣).

➲ ج١١:ص٥٧٣ح٣٢٧١٣، وتاريخ مدينة دمشق ج١٤:ص١٣٣ وج٣٠:ص١٧٩ وج٤٢:ص٢٦٦، وتاريخ الإسلام للذهبي ج٣:ص٦٣٤، والبداية والنهاية لابن الأثير ج٧:ص٣٩١، والمناقب للخوارزمي: ص ١٣٧، والفصول المهمة لابن الصبّاغ المالكي ج١:ص٥٩٠ الى غيرها من المصادر.

(١) أُنظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج٣:ص١٣٠، ومجمع الزوائد للهيثمي ج٩:ص١٠٨، والمعجم الأوسط للطبراني ج٥:ص٨٧، والمعجم الكبير له ج١:ص٣١٩، والاستيعاب لابن عبدالبر ج٣:ص١١٠، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢:ص١٩٥، ونظم درر السمطين للزرندي الحنفي: ص ١٠١، والجامع الصغير للسيوطي ج٢:ص٥٥٤ح٨٣١٩، وكنز العمال للمتقي الهندي ج١١:ص٢٩٧ح٣٢٥٦٢، وتفسير الآلوسي ج١٦:ص١٤٣، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٣:ص٣٤، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج٤٢:ص٢٤٠، وأُسد الغابة لابن الأثير ج٤:ص٣٨٣، وميزان الاعتدال للذهبي ج٢:ص٦١٣، ولسان الميزان ج٥:ص٢٠٦، والوافي بالوفيات للصفدي ج٢١:ص١٧٩، والبداية والنهاية لابن كثير ج٧:ص٣٩١، والمناقب للخوارزمي: ص ٧٠، ومطالب السؤول لمحمد بن طلحة الشافعي: ص ٩٩، وينابيع المودة للقندوزي الحنفي ج١:ص١٦٧، والنصائح الكافية لابن عقيل: ص٩٣ وغير ذلك.

(٢) مثل حديث: من آذى علياً فقد آذاني. وحديث: إنّ علياً مني وأنا منه. وحديث: خاصف النعل. وحديث: الطير. وحديث: أنا مدينة العلم وعلي بابها. وحديث: علي مع الحق والحق مع علي. وحديث: صاحب الحوض واللواء، وغيرها من الأحاديث التي يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

(٣) أُنظر: منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد بن حنبل ج٥:ص٣٩، ورواه الخطيب

وروي في منتخب كنز العمال حديثاً عن جماعة منهم: محمد بن جرير الطبري وصحّحه، وابن شاهين[١] وابن السني[٢] وغيرهم دلَّ على تساوي علي عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الفضائل جميعاً سوى النبوة،[٣] وهو في المعنى مطابق لخبر المنزلة[٤].

البغدادي في تاريخه ج٤:ص٤١٨ رقم الترجمة ٢٢٠٢، في ترجمة أحمد بن صالح أبوجعفر المصري.

وأيضاً أخرجه الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد ج٩:ص١١٢ وفيه: إنّ الله اختار من أهل الجنة رجلين... .

وأخرجه الطبراني في كتابه المعجم الكبير ج١١:ص٧٧ وفيه: إنّ الله اختار من أهل الأرض رجلين... .

وأخرجه ابن عساكر في كتابه تاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص١٣٥، والذهبي في كتابه ميزان الاعتدال ج١:ص٢٦، وابن حجر العسقلاني في كتابه لسان الميزان ج١:ص٤٥ وغيرهم.

(١) وهو أبو جعفر عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد الواعظ المعروف بـ «ابن شاهين»، من المحدّثين، أصله من مرو وكان مولده سنة ٢٩٧ هـ ويقال: إنّ ابتداء ما كتب في الحديث كان سنة ٣٠٨هـ وله إحدىٰ عشرة سنة. كما قاله الخطيب البغدادي في تاريخه ج١١:ص٢٦٤. وكان إذا ذكر المذاهب عنده كالشافعي وغيره يقول: أنا محمّدي المذهب، توفي سنة ٣٨٥هـ ودفن عند قبر أحمد بن حنبل (أُنظر: سير أعلام النبلاء ج١٦:ص٨٣١ رقم ٣٢٠).

(٢) في المصدر (ابن المندة) بدل (ابن السني).

(٣) أُنظر: منتخب كنزالعمال بهامش مسند أحمد بن حنبل ج٥:ص٣٢ـ٣٣.

(٤) إنّ حديث المنزلة من الأحاديث الصحيحة عند علماء الإسلام قاطبة، قد أخرجه أعلام أهل السنّة في صحاحهم ومسانيدهم، وأرسله أهل السِيَر والأخبار إرسال المُسلّمات، وهو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلّا أنّه لا نبي بعدي. (أخرجه البخاري في صحيحه ج٤:ص٢٠٨ كتاب المناقب، باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك في ج٥:ص١٢٥ كتاب المغازي، باب غزوة تبوك،

➲ وأخرجه مسلم في صحيحه ج٧:ص١٢٠ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، وأحمد بن حنبل في مسنده ج١:ص١٧٧ و١٧٩ وص١٨٢ وص١٨٤ وص١٨٥ وص٣٣١ وج٣:ص٣٢، وابن ماجة في سننه ج١:ص٤٣ح١١٥، والترمذي في سننه ج٥:ص٣٠٢ح٣٨٠٨ وغيرهم). فلا إشكال في صحة سند الحديث وتواتره عندهم من المسلّمات.

والحديث هو نص قاطع في خلافة أميرالمؤمنين عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلافصل، ودلالته واضحة لأنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم جعل جميع المنازل والفضائل والمناقب الثابتة لهارون من موسى لسيدنا ومولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي‌طالب عليه السلام، من نفسه إلّا النبوة وهذا يدلّ على أنّ الإمام عليه السلام أفضل من جميع الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ عدم الاستثناء في الكلام دليل على العموم.

قال البيضاوي: ومعيار العموم جواز الاستثناء، فإنّه يخرج به ما يجب اندراجه لولاه، وإلّا لجاز من الجمع المنكر (أُنظر: منهاج الوصول في معرفة علم الأُصول: ص٧٦).

وقال نظام الدين الأنصاري في شرحه لكلام محب الله البهاري: (لنا جواز الاستثناء) ثابت في الكلمات المذكورة (وهو معيار العموم) فإنّه لأخرج ما لولاه لدخل... (أُنظر: فواتح الرحموت بهامش المستصفىٰ ج١:ص٢٦١).

فتثبت بالحديث أنّ للإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام جميع منازل هارون الثابتة له إلّا النبوة كما جاء ذكر هذه المنازل في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (سورة طه: الآية ٢٩ـ٣٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَتَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٢).

فالحديث بضميمة الآيتين يبيّن بوضوح أنّ جميع منازل هارون من الخلافة والوزارة والشراكة في الأمر كلّها ثابتة للمولى أميرالمؤمنين عليه السلام، والمراد بالإشراك في الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (سورة طه: ٣٢) هو الإشراك في الإمامة لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان نبيّاً وإماماً كما أنّ ابراهيم الخليل كان كذلك قد جعله الله إماماً، فالإمام أميرالمؤمنين عليه السلام شريك ➲

وقد دعا لهﷺ في خبر الغدير من عدة طرق صحّحها الذهبي،[١] بأن

➲ النبيﷺ في الأمامة، حيث أنّ النبوة قد انتهت بنبوة خاتم الإنبياء ولذلك أنّ النبيﷺ استثنىٰ النبوة بقولهﷺ: «إلّا أنّه لا نبي بعدي» فبقيت الإمامة تحت العموم مع المنازل التي كانت لهارون، فالحديث نص صريح في إمامة أميرالمؤمنينعليه السلام.

والنقطة الأُخرىٰ التي تجب الإشارة إليها هي: إنّ النبيﷺ ذكر هذا الحديث في عدة مواضع خلافاً لما يتصوّر البعض من أنّ هذا الحديث صدر من النبي الأكرمﷺ في غزوة تبوك فقط، بل قالهﷺ في مواضع أُخرىٰ أيضاً.

منها: في يوم المؤاخاة الأُولىٰ وهي المؤاخاة التي جعلها رسول اللهﷺ بين المهاجرين، واختار الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام في هذه المؤاخاة لنفسه ثم قال: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي (أُنظر: كنزالعمال ج٥:ص٤٠ح٩١٨).

ومنها: في يوم المؤاخاة الثانية: والتي كانت في المدينة بعد الهجرة بخمسة أشهر حيث آخى بين المهاجرين والأنصار، واصطفى لنفسه منهم علياًعليه السلام واتّخذه دونهم أخاه، وقال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلّا أنّه لا نبي بعدي (أُنظر: منتخب كنزالعمال بهامش مسند أحمد بن حنبل ج٥:ص٣١).

ومنها: ما ذكره النبيﷺ لأُمّ سليم: يا ام سليم انّ علياً لحمه من لحمي ودمه من دمي وهو مني بمنزلة هارون من موسىٰ (أُنظر: كنز العمال ج١١:ص٦٠٧).

ومنها: قال ابن عبّاس: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كفّوا عن ذكر علي بن أبي طالب، فقد رأيت رسول اللهﷺ يقول فيه خصالاً: لئن تكون لي واحدة منهنّ في آل الخطاب أحب عما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبوبكر وأبو عبيده في نفر من أصحاب رسول اللهﷺ فانتهينا إلى باب أُمّ سلمة، وعلي قائم على الباب، فقلنا: أردنا رسول اللهﷺ فقال: يخرج إليكم، فخرج رسول اللهﷺ فسرنا إليه، فاتكأ على علي بن أبي طالب ثم ضرب بيده منكبه، ثم قال: يا علي أنت أوّل المؤمنين إيماناً وأولهم إسلاماً، وأنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ (كنز العمال ج١٣:ص١٢٢-١٢٣ح٣٦٣٩٢) وغيره من المواضع.

(١) أخرج الحاكم النيسابوري حديث الغدير في كتابه المستدرك على الصحيحين بعدة طرق وصحّحها، ثم وافقه الذهبي في تلخيصه في هامش المستدرك (أُنظر: المستدرك على ➲

الصحيحين مع تلخيص الذهبي في الهامش ج٣:ص١٠٩).

وقال الذهبي في ترجمة الحاكم النيسابوري: أنّه أخرج حديث الطير... وقد جمعت طرق حديث الطير في جزء وطرق حديث: من كنت مولاه وهو أصح... (أُنظر: سير أعلام النبلاء ج١٧:ص١٦٩).

وقال ابن كثير: أنّه قال شيخنا أبو عبدالله الذهبي: هذا الحديث (أي حديث الغدير) صحيح (أُنظر: تاريخ ابن كثير ج٥:ص٢٠٩) بل وقد اعترف الذهبي بتواتر متن الحديث وذلك في ترجمة المطلب بن زياد بعد ذكره لحديث الغدير، فقال: هذا حديث حسن عال جداً ومتنه متواتر (أُنظر: سير أعلام النبلاء ج٨:ص٣٣٤).

أقول: وقد أفرد الذهبي رسالة في حديث الغدير وأثبت فيها تواتر الحديث، وطبعت هذه الرسالة أخيراً بتحقيق العلّامة السيد عبدالعزيز الطباطبائي.

وأيضاً نص على صحة حديث الغدير جمع كبير من أعلام أهل السنّة. نذكر بعضهم تأييداً للمقام:

فمنهم: أبو عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩، فإنّه قال بعد أن أخرج الحديث: هذا حديث حسن صحيح (أُنظر: سنن الترمذي ج٢:ص٢٩٨).

ومنهم: أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ فإنّه بعد أن روى الحديث بطرق متعدّدة قال: فهذا الحديث صحيح الإسناد ولا طعن لأحد في رواته (أُنظر: مشكل الآثار ج٢:ص٢٠٥).

ومنهم: ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ قال: وأما حديث (من كنت مولاه فعلي مولاه) فقد أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان... (فتح الباري ج٧:ص٦١).

ومنهم: ابن حجر المكّي المتوفى سنة ٩٧٤ هـ: أنّه قال: حديث (من كنت مولاه فعلي مولاه) صحيح لا مرية فيه، وقد أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي وأحمد، فطرقه كثيرة جداً، ومن ثمّ رواه ستة عشر صحابياً، وفي رواية لأحمد أنّه سمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثون صحابياً وشهدوا به لعلي مما توزع أيام خلافته كما مرّ وسيأتي، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان، ولا التفات لمن قدح في صحتها ولا لمن ردّه بأنّ علياً كان باليمن، لثبوت رجوعه منها... (الصواعق المحرقة: ص٢٥).

يحبّ المحبّ له ويعادي المعادي له وينصر ناصره ويخذل خاذله، ويدير الحق معه حيث يدور،(١) وهو يدلّ على عصمة علي عليه السلام حتى من الخطأ؛ فإنّ من يخطأ يخالف الحق فيصير خاذله محقّاً وناصره مبطلاً، فدعائه له صلى الله عليه وآله وسلم بذلك مطلقاً دليل

ومنهم: علي القاري المتوفى سنة ١٠١٤ هـ فانّه قال بعد أن روى الحديث: والحاصل إنّ هذا الحديث صحيح لا مرية فيه، بل بعض الحفّاظ عدّه متواتراً... فلا التفات لمن قدح في ثبوت هذا الحديث وأبعد من رده بانّ علياً كان باليمن (اُنظر: المرقاة في شرح المشكاة ج٥:ص٢٦٨).

ومنهم: المناوي المتوفىٰ سنة ١٠١٣ هـ حيث قال: قال ابن حجر: حديث «الغدير» كثير الطرق جداً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرده، منها صحاح ومنها حسان (اُنظر: فيض القدير ج٦:ص٢١٨) والى غير ذلك من كلمات أئمة الحديث من أهل السنّة في صحة أسناد حديث الغدير، ولذلك إنّ الباحث لو تفحّص في كلماتهم لم يجدهم أن يناقشوا في سند الحديث، وإنّما ناقشوا في دلالته بتأويلات باردة ليس لها قيمة عند العقلاء. فلاحظ.

(١) اُنظر: المستدرك على الصحيحين ج٣:ص١٠٩ وص١٢٥، وأخرجه أبو عبدالله الزرقاني المالكي المتوفى سنة ١١٢٢ هـ في شرحه على كتاب المواهب اللدنية لابن حجر العسقلاني عن الطبراني وغيره، قال: وبإسناد صحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه خطب بغدير خم وهو موضع بالجحفة برجعة من حجة الوداع... (فذكر الحديث) وفيه: يا أيها الناس! إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولىٰ بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد ومن عاداه، وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار... (شرح المواهب اللدنية ج٧:ص١٣).

ومثله ما أخرجه السبط ابن الجوزي بسنده عن زادان قال: سمعت علياً عليه السلام يقول في الرحبة، وهو ينشد الناس ويقول: أنشد الله رجلاً سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول في غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه، فقام ثلاثة عشر رجلاً من الصحابة فشهدوا أنّهم سمعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك. وزاد الثاني في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وأدر الحق معه كيفما دار وحيث دار. وحكم السبط ابن الجوزي بعد ذكر الحديث بكوفه حسناً (اُنظر: التذكرة لسبط ابن الجوزي: ص٢٨).

على كونه معصوماً،(١) فانظر الى ما بيّناه في الوجه السابق من بعض مخالفات الشيخين للشريعة والى ما بيّناه هنا،(٢) فستعلم علماً يقيناً بظلم من تسمّى بأهل

---

(١) وبعبارة أوضح: إنّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم: أدر الحق معه حيث يدور... أراد به صلى الله عليه وآله وسلم دوران الحق معه بصورة مطلقة شاملة لجميع أقواله وأفعاله وسكناته ما ظهر منه وما بطن ودوران الحق معه هكذا، وكونه مع الحق بصورة مطلقة حتى بالنسبة إلى ما يميل اليه الإمام عليه السلام وهذا معناه العصمة المطلقة، لأنّ الحق هو الصواب ولا يبطله شيء، فإنّه موافق للواقع، فإذا ثبت كون الشيء حقاً فيثبت أنّه مخالف للباطل، فلو كان الإنسان محقاً فهو مخالف للباطل وإذا كان الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو الحق ويدور الحق معه حيث ما دار، بصورة مطلقة معناه: إنّ جميع أقواله وأفعاله ونياته تكون مطابقةً للحق واذا كانت مطابقةً للحق فمعناه: إنّ جميع أفعاله تكون مطابقةً لإرادة الله سبحانه؛ لأنّ الله تبارك وتعالى هو الحق المبين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة النور: ٢٥) أي أنّ في ذلك اليوم سيشاهدون الحقائق، ويجدون أنّ ما اختلفوا فيه من المعارف الدينية إنّما يكون الحق فيها أمراً واحداً وهو ما كان مطابقاً لإرادة الله سبحانه، فإنّه تعالى يفصل بين الحق والباطل وأنّ ما يدعونه من دونه هو الباطل، فإذا كانت إرادة الإنسان مطابقةً لإرادة الله من جميع الجهات فمعناه: أنّه معصوم لا يصدر منه مايخالف إرادة الله، وعند ذلك تكون هذه الجملة مطابقة للعصمة المطلقة.

(٢) لا شك أنّ أبا بكر وعمر قد خالفا الشريعة المقدسة في مواطن عديدة ومناسبات كثيرة في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم؛فإنّ الأخبار الصحيحة المعتمدة عليها لدى الفريقين كثيرة في هذا المجال جداً لا يسع المجال لذكرها في هذا المختصر، نكتفي هنابذكر مورد واحد ونترك كشف الحقيقة للقارىء الكريم، لأنّ المخالفة حتى في مورد واحد كافٍ لثبوت الحكم حيث يتحقق به عنوان المخالفة فانّ نقيض السالبة الكلية الموجبة الجزئية، فإذا ثبت في موردٍ واحد المخالفة يصدق العنوان وينطبق عليه الحكم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦).

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة

⬅ النور: ٦٣) وقال تعالى: ﴿مَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (سورة الحشر: ٧) وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ (سورة النساء: ٥٩).

وقد أجمع المسلمون كافة على أنّ المخالفة لكتاب الله عزوجل وسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولو في مورد واحد يعتبر مخالفة للقرآن كما أجمعت الأُمة الاسلامية بجميع مذاهبها على لزوم التعبّد بكتاب الله وسُنّة رسوله، فيصبح المخالفة للنصوص الاسلامية مخالفة للضروري فيتبعه حكم المخالف للضروري.

فمن الموارد الذي خالف أبوبكر وعمر أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما رواه جمع من علماء أهل السنّة عن أنس بن مالك قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتذاكرنا رجلاً يصلّي ويصوم ويزكّي، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا أعرفه، فقلنا: يا رسول الله، إنّه يعبد الله، ويسبّحه، ويقدّسه، ويوحّده، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا أعرفه، بينا نحن في ذكر الرجل إذا طلع علينا، فقلنا: هو ذا. فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال لأبي بكر: خذ سيفي هذا وامض إلى هذا الرجل واضرب عنقه، فإنّه أوّل من يأتيه من حزب الشيطان، فدخل أبوبكر المسجد، فرآه راكعاً، فقال: والله لا أقتله، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهانا عن قتال المصلّين، فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إنّي رأيته يصلّي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اجلس فلست بصاحبه.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عمر، خذ سيفي من أبي بكر، وادخل المسجد، واضرب عنقه، قال عمر: فأخذت السيف من أبي بكر، ودخلت المسجد فرأيت الرجل ساجداً، فقلت: والله لا اقتله، فقد أستأمنه من هو خير مني، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: يا رسول الله، إنّي رأيت الرجل ساجداً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا عمر اجلس فلست بصاحبه، ثم قال: قم يا علي، فانك أنت قاتله، وإن وجدته فاقتله، فإنّك إن قتلته لم يقع بين أُمتين اختلافاً أبداً.

قال علي: فأخذت السيف ودخلت المسجد فلم أره، فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله ما رأيته، فقال: يا أبا الحسن، إنّ أُمة موسى افترقت إحدىٰ وسبعين فرقة، فرقة ناجية والباقون في النار، إنّ أُمة عيسى افترقت اثنتين وسبعين فرقة، فرقة ناجية والباقون في النار، وإنّ أُمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة ناجية والباقون في النار، فقلت: يا رسول الله، وما الناجية؟ فقال: التمسّك بما أنت وأصحابك عليه، فأنزل الله في ذلك ثاني ⬅

عطفه... (سورة الحج: ٩).

يقول: هذا أول من يظهر من أصحاب البدع والضلالات، قال ابن عباس: والله، ما قتل ذلك الرجل إلّا أميرالمؤمنين يوم صفّين... (اُنظر: مسند أحمد ج٣:ص١٥ عن أبي سعيد الخدري، والعقد الفريد لابن عبد ربه ج١:ص٣٠٥، والإصابة لابن حجر ج١:ص٤٨٤ وغيرهم).

فيعرف من هذه الرواية وأمثالها أنّ الشيخين خالفا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه الواقعة تدلّ على إنّهما لم يكونا مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً، لأنّه لو كانا يعتقدان برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه لا ينطق عن الهوىٰ، وإنّما هو وحي يوحىٰ بل ويجب امتثال أوامره بنص القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾ (سورة الأنفال:٢٠) وقال تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة آل عمران:٣٢) .

فطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا تنفصل عن طاعة الله بمقتضي قوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾ بل هي نفس إطاعة الله لأنّ الله تعالى أمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الواقع أنّ القرآن الكريم بيّن هاهنا حقيقة واضحة وهي: إنّ الإنسان إمّا أن يكون مؤمناً بالله تعالى ومطيعاً له واقعاً، وإمّا أن لا يكون كذلك، فإذا كان مؤمناً مطيعاً لله فهو في زمرة المؤمنين وإلّا فهو في زمرة الكافرين، وعليه: فإنّ مخالفة الشيخين لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في موردٍ واحد يثبت كفرهما بنص القرآن الكريم، فكيف اذا ثبت لهما المخالفات العديدة لاسيّما المخالفات العظيمة التي فيها محاربة الله ورسوله، إذ من موارد مخالفتهما لله ولرسوله غصب حقوق أهل البيت عليهم السلام ولا يخفىٰ على الخبير أنّ غصب الامامة التي عينها الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم يعتبر من أكبر محاربة مع الله ورسوله فإنّهما قد تواطئا على غصب حقوق أهل البيت عليهم السلام وهتك حرمتهم والهجوم على بيتهم، لاسيّما ذلك البيت العظيم الذي قال الله تعالى في شأنها: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾ (سورة النور:٣٦).

فهذه المخالفة ليست مخالفة عادية بل هي محاربة الله، وهذا الهجوم على أهل البيت الوصي من الاُمور المسلمة عند المؤرخين والمحدّثين والعلماء، بل وبعضهم أرسله إرسال المسلّمات.

قال الاُستاذ الكبير خالد محمد المصري في كتابه «الديمقراطية»: إنّ عمر بن الخطاب ترك

➲ النصوص الدينية المقدّسة من القرآن والسنّة عندما دعته المصلحة لذلك... (أنظر الديمقراطية: ص ١٥٠).

وقال أحمد أمين المصري الكاتب المعروف وهو يصف الخليفة عمر بن الخطاب: إنّه كان ممن يأخذ بروح القانون لا بلفظه (أُنظر فجر الإسلام: ج٢:ص ٢٣٨).

أقول: والظاهر أنّ المقصود بروح القانون مخالفته للنصوص الصريحة اللفظية من الكتاب والسنّة لأنّ النصوص إذا كانت صريحة في موضوع لا معنى لمخالفتها، وأنّ روح القانون إنّما يكون موجوداً في نفس النصوص، ولاندري هل هناك قانون اخر غير ما جاء به الله ورسوله؟ فإذا كان القانون هو قانون الإسلام وما جاء به الله ورسوله، فإنّ روح القانون مطوي في النصوص الواردة في كتاب الله عزوجل وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمخالفة النصوص مخالفة للقوانين الإلٰهية، فما ذكره هذا العالم السنّي ليس إلّا مجرد دعوىٰ، ولكن في الضمن أثبت بأنّ عمر بن الخطاب خالف نصوص القرآن والسنّة النبوية بتعبير أراد به الدفاع عنه ولكن لا يفيده ذلك.

وقال الدكتور الدواليبي عند ذكره لبدعة عمر بن الخطاب من وقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، قال في كتابه أُصول الفقه ما هذا لفظه: ومما أحدثه عمر تأييداً لقاعدة تغيير الأحكام بتغير الزمان، هو إيقاعه الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، مع أنّ المطلق في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وزمن خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر، كان إذا جمع الطلقات الثلاث بفم واحد جعلت واحدة، كما ثبت ذلك في الخبر الصحيح عن ابن عباس، وقد قال عمر بن الخطاب: إنّ الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم.

قال: وقال ابن قيم الجوزية في ذلك: ولكن أميرالمؤمنين عمر رأىٰ أنّ الناس قد استهانوا بأمر الطلاق، وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة، فرأىٰ من المصلحة عقوبتهم بإمضائه عليهم، فإذا عملوا ذلك كفوا عن الطلاق، فرأىٰ عمر أنّ هذه مصلحة لهم في زمانه، ورأىٰ أنّ ما كان عليه في عهد النبي وعهد الصديق وصدراً من خلافته كان الأليق بهم لأنّهم لم يتتابعوا فيه، وكانوا يتّقون الله في الطلاق.... ـ الى أن قال ـ: فهذا ما تغيّرت به الفتوىٰ لتغيّر الزمان... ثم قال: وعلم الصحابة سياسة عمر... (أُنظر أُصول الفقه للدواليبي: ص ٢٤٦) الى غير ذلك من الروايات الدالة على المقام، فمخالفة الشيخين لأوامر الله ورسوله أُمر ثابت واضح حتى عند علماء ➲

السنّة لعلي عليه السلام من جهتين: من جهة هذه النسبة التي نسبوها اليه، وقد علموها بهذه السنن وغيرها بأنّها بهتان عليه[١].

أهل السنّة.

ثم إنّ من المسلّمات التاريخية هي كشف بيت فاطمة وهذه الحقيقة التاريخية غير قابلة للإنكار وهي التي استوجبت غضب فاطمة وهجرانها لهما حتى ماتت عليها السلام شهيدة على أثر تلك الهجوم والضربات و... ودفنها زوجها الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام سرّاً في الليل بوصية منها دون أن تأذن حضورهما في مراسيم تشييعها، كما هو ظاهر من الروايات الكثيرة الواردة في كتبهم كالبخاري ومسلم وغيرهما (أُنظر صحيح البخاري ج٤:ص٤٢ كتاب الخمس، باب فرض الخمس، وصحيح مسلم ج٥:ص١٥٣ كتاب الجهاد، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا نورث).

(١) لا شكّ أنّ الروايات الواردة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بشأن الإمام أميرالمؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام كثيرة جدّاً، لايمكن إحصائها وقد جمعها علماء الإسلام في كتب الحديث والتاريخ والتفسير والسيرة وغير ذلك، وهي صريحة في أفضلية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وتقدّمه على جميع الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي بعضها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: علي خير البشر، من شك فيه فقد كفر (أُنظر فرائد السمطين ج١: ص١٥٤، وكنز العمّال ج١١:ص٦٢٥ح٣٣٠٤٥، وتاريخ بغداد ج٧:ص٤٣٣ في ترجمة الحسن بن محمد بن الحسن بن جبير أبو سعيد الصيرفي، رقم الترجمة ٣٩٨٤، وتاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص٣٧٢، وسير أعلام النبلاء ج٨:ص٢٠٥ في ترجمة شريك بن عبدالله النخعي، وميزان الاعتدال ج١:ص٤٧٢ في ترجمة الحر بن سعيد النخعي، وينبايع المودة ج٢:ص٧٨ وحديث خثيمة بن سليمان الطرابلسي: ص٢٠١ وغير ذلك.

فقد أصبحت أفضلية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الرواية وغيرها من ضروريات الدين، بحيث لا يمكن إنكارها إلّا ممن جحد الحق، ولذلك يصح لمن يقول بأنّ منكر أفضلية الإمام عليه السلام ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً...**﴾ (سورة النمل: ١٤) فإنّ مما لا شكّ فيه أنّ إنكار هذه الرواية وأمثالها من الروايات تكذيب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وانكار قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع العلم بصدوره منه يستلزم الجحود والجحد بآيات الله مساوق للكفر لأنّ الجحود عبارة من انكار ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان بالرسول لا

ومن جهة تقديم الشيخين بالفضل عليه بعد علمهم بأنّهما في معزل عن درجة الفضل ومقامه[١]، وبُعدهم عن ساحته بما رووه عنهما صحيحاً من المخالفات للشريعة والمشاقّات لله ورسوله[٢]، وسيأتي فيما بعد ما تعلم منه

يجتمع مع الجحود والانكار به فكيف يمكن لمن صدّق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما ذكر من أوصاف أميرالمؤمنين عليه السلام أن ينسب هذه الفرية العظيمة إلى أمير المؤمنين عليه السلام؟!!!

(١) فإنّ أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من أهل بيت لا يقاس بهم أحد. رواه أبو الفرج عبدالرحمٰن بن الجوزي في كتابه مناقب الإمام أحمد بن حنبل، في حديث عن عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: حدّث أبي أحمد بن حنبل بحديث السقيفة، فقلت: يا أبه! ما تقول في التفضيل؟ قال: في الخلافة أبوبكر وعمر وعثمان، فقلت: فعلي بن أبي طالب؟ قال: يابني! علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد (أُنظر كتاب مناقب أحمد بن حنبل: ص ١٦٣ طبعة دار الآفاق).

وروى الحاكم الحسكاني بسنده عن الوليد بن محمد بن زيد بن جذعان عن عمه قال: قال ابن عمر: إنّا إذا عدّدنا قلنا: أبوبكر وعمر وعثمان وفقال له رجل: يا أبا عبدالله فعلي؟ قال ابن عمر: ويحك! علي من أهل بيت لا يقاس بهم، علي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في درجته، إنّ الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (سورة الطور: ٥٢) ففاطمة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في درجته وعلي معهما (أُنظر شواهد التنزيل ج٢:ص٢٧١).

وروي عن أحمد بن حنبل أنّه قال: من لم يثبت الإمامة لعلي رضي الله عنه فهو أضل من حمار أهله (أُنظر شرح رسالة الحلبي للشيخ طه بن مهنا: ص٦٣) والى غير ذلك من الروايات. وهذا دليل على أنّ أفضلية مولانا أمير المؤمنين عليه السلام عند الصحابة والتابعين أمر واضح بيّن كالشمس، وإن فضل الإمام عليه السلام الى درجة لايمكن أن يقاس به أحد، فالبُعد بينه وبين بقية الناس بل لا يقاس به أحد بُعد المشرقين، أين الثريا من الثرىٰ!! فلا شبهة في أنّه لا يقاس به أحد.

(٢) هذه العبارة إشارة الى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (سورة الأنفال: ١٣) وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ

مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (سورة النساء: ١١٥) فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الله....﴾ أي يخالفه؛ لأنّ الشقاق في الأصل: الانفطار والانفصال، وبما أنّ المخالفة تعتبر انفصالاً عملياً ومفارقة واقعية بين الشيئين فالشقاق بمعنى المخالفة الصريحة.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره: ومعنى قوله: ﴿شاقّوا الله ورسوله﴾، فارقوا أمر الله ورسوله وعصوهما، وأطاعوا أمر الشيطان، ومعنى قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، ومن يخالف أمر الله وأمر سوله، وفارق طاعتهما، فانّ الله شديد العقاب... (جامع البيان ج٩:ص٢٦٤).

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن عطية قال: قال ابن عمر: دعاني معاوية فقال: بايع لابن أخيك (أي ليزيد) فقال: قلت له: يا معاوية ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾، فأسكته عني (تفسير ابن أبي حاتم ج٤:ص١٠٦٦).

وفي تفسير الثعلبي: عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ...﴾ قال: نزلت هذه الآية في نفر من قريش، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ودخلوا الإسلام، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم انقلبوا إلى مكة مرتدّين ورجّحوا عبادة الأوثان، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ...﴾ أي يفارق الرسول من بعد ما تبين له الهدى... (تفسير الثعلبي ج٣:ص٣٨٦، ورواه القرطبي في تفسيره ج٥:ص٢٨٥).

فالمشاققة: هي المعاداة والمخالفة العملية بعد تبن الحقيقة وتؤكّد جملة «من بعد ما تبين له الهدىٰ» هذا المعنى، ثم انّ من يشاقق الله يكون عاقبة أمره الوصول إلى العذاب الأليم والخزي في الدنيا والآخرة إذ أنّه يستمر في الدنيا على الطريق الأعوج الذي اختاره لنفسه، وإنّ الطريق الأعوج لا يصل الإنسان الى المقصود بل ينتهي الإنسان الى الهلاك والضلال، ونتيجة الأمر في الأُمور المعنوية هي الحرمان من التوفيق المعنوي، بل الدخول في سبيل المضلّين كما هو المستفاد من قوله تعالى: «يتبع سبيل غير المؤمنين» أي الموحدين «ونوله ما تولى» أي ندعه وما اختار لنفسه «ونصله جهنم» أي ندخله إياها.

يقول أبو السعود في تفسيره: وكل من يشاقق الله ورسوله كائناً من كان فله بسبب ذلك عقاب

تفصيل حالهما في المخالفة لله ورسوله[١].

➲ شديد، فإذن لهم بسبب مشاقّتهم لهما عقاب شديد.... (تفسير أبي السعود ج٤:ص١١) ومن هنا نعرف أنّ أبا بكر وعمر هما ممّا شاقّوا الله ورسوله بسبب ايجاد الفتنة بين الأُمة والانشقاق بينهم وتمزيقهم إلى فِرق متعددة، لأنّ أساس الاختلاف بين الأمة الاسلامية كان من السقيفة السخيفة التي حدثت بمؤامرة الأوّل والثاني وذلك مخالفتهما للشريعة المقدسة والنصوص الاسلامية فلاحظ.

(١) لا شك أنّ من نظر إلى التاريخ نظرة فحص وتمحيص يجد أنّ التاريخ مشحون بالشواهد من مخالفات الخلفاء الثلاثة للنصوص الاسلامية، ومع الأسف عندما نتعرّض لبعض هذه المخالفات من كتب علماء أهل السنّة بأسناد صحيحة عندهم يرموننا بالرفض والزندقة والكفر وأمثال هذه التعابير، وينفعلون من ذلك أكثر مما ينفعلون من نسبة الكذب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فمثلاً عندما يقول أحد: بأنّ سورة «عبس وتولّى» لم يكن المقصود بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنّما المقصود بها أحد كبار الصحابة من بني أُمية الذي عاتبه الله على تكبّره واشمئزازه عنه رؤيته الأعمىٰ الفقير كما ورد ذلك في بعض الأخبار والروايات المعتبرة عندهم فتراهم لا يقبلون هذا التفسير ويقرؤون عليك هذه الآية الكريمة: ﴿وما محمد إلّا بشر﴾ وقد فعل هذا الفعل، وإن قلت لهم لا يصح نسبة العبوس إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ الله تعالى وصفه بالخلق العظيم والعبوسية لاتجتمع مع هذه الآية المحكمة، كيف يمكن أنّ الله يصف نبيه بالخلق العظيم ثم يصفه بالعبوسية أليس هذا تناقض واضح؟!!!

مضافاً إلى أنّ آية: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ نزلت قبل سورة عبس، ولكن مع ذلك كلّه فإنّهم يقلّلون من شأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ كرامة الصحابة، فعندما تقول بأنّ عمر بن الخطاب أخطأ وابتدع صلاة التراويح وخالف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي نهى عن الصلاة النافلة جماعة، فتراهم بكل قوة يقولون بانها بدعة حسنة رغم أنّ البدعة كلّها سيئة وليس فيها حسنة لأنّ البدعة ادخال ما ليس في الدين في الدين وادخال ما ليس في الدين في الدين منهي عنه من قبل الشارع مطلقاً فكل أنواع البدعة ضلالة وصاحبها في النار كما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وإياكم ومحدثات الأُمور! فإنّ كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» (مسند أحمد بن حنبل ج٤:ص١٢٧) ورواه الدارمي في سننه ج١:ص٤٥ وابن ماجة في سننه ➲

وعليك يا حبيبي بعد النظر الى ما رسمناه، ونرسمه فيما بعد أن تنصف الحق بأن تتبعه وترفض الباطل وتجتنبه، فإنّا بتوفيق الله وتسديده حسبما ترىٰ قد بيّنا الحق وشرحناه بنصوص الفرقان العظيم المنزّه عن الباطل وبما ورد من السنن

➲ ج١:ص١٦ح٤٢ والحاكم في المستدرك على الصحيحين ج١:ص٩٦ والبيهقي في سننه الكبرىٰ ج١٠:ص١١٤ وغيرهم ولكن ترىٰ أهل السنة بكل جهودهم يلتمسون أعذاراً لتبرئة الخليفة رغم وجود النص من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على النهي عنها.

وإذا قلت: إنّ أبابكر منع الناس حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تجدهم يحاولون بكل جهدهم إخفاء هذا الأمر والالتجاء إلى توجيهات باردة لا تقبلها العقول الحرّة.

وأمّا إذا قلت لهم: لماذا ترك أبابكر وعمر وعثمان وغيرهم جثّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يشتغلوا بتجهيزه وتغسيله وتكفينه بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، بل أسرعوا إلى مؤتمر سقيفة بني ساعدة وتنافسوا على الخلافة فيها، ووقع فيها ما وقع من الشتم والضرب والقتل وغير ذلك ثم حملوا الناس على البيعة بالضرب والقتل والتهديد وإرعاب والإرهاب وحتى الهجوم على بيت الزهراء عليها السلام وإحراق باب دارها وعصرها بين الحائط والدار حتى أسقطت جنينها، فتراهم ينفعلون من هذه الأخبار وينسبون إلى قائلها الرفض والكفر والزندقة، هب أنّ ناقلها من أهل السنّة والجماعة، فلا يسمحون لأحد أن يتكلّم في طعن الخلفاء مع أنّهم يعتقدون بعدم عصمتهم، والمفروض أن لا ينفعلوا بذلك لأن ذلك لا يقدح في اعتقادهم بالنسبة اليهم، ولكن مع ذلك كله يتهمون المتكلم بأنواع التُّهم ويحكمون عليه بأشد الأحكام من الكفر والزندقة و... وأمّا بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته فلا يهتمون أبداً، مع أنه لو سألتهم: هل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم أم الصحابة؟ سوف تراهم يقولون؟ أنّ رسول الله أهم ولولاه لما كان معنى لتقديس الصحابة ولكن مع ذلك كله عندما يأتون في مرحلة العمل يقدّمون الصحابة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام لاسيما الخلفاء الثلاثة، بل وحتى معاوية ويزيد بن معاوية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لانهم يقولون يجب علينا أن لا نتكلّم في تنقيص الصحابة والخلفاء، وأما إذا ورد عن الصحابة في عدم عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقبلونه ويقولون: هذا أمر مقبول لأنّه ورد عن الصحابة. أليس يتعجّب كل عاقل منصف من هذه المقالة؟!!!

الصحيحة والحسنة من طرق من تسمى بأهل السنّة(١).

وثالثها: ما زعمه من تفضيل عليعليه السلام للشيخين على عامة «خير أُمة بعد نبيها» على المنبر، ونقل ما يزيد على ثمانين شخصاً عنه لذلك؛ فإنّه من عظيم وشنيع مفترياتهم ومناقضاتهم(٢)؛ لما رووه في حق عليعليه السلام حسبما مرّ نبذة منه

---

(١) وخلاصة الكلام: إنّ القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة تدلان بأوضح الدلالة على أفضلية مولانا أميرالمومنين علي بن أبي طالبعليه السلام على جميع الناس من الأولين والآخرين بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم فما نَسَبَه ابن تيمية إلى الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب من أنّهعليه السلام فضل الشيخين كذب وافتراء من هذا الناصب الذي انفرد بهذه النسبة الكاذبة إلى من عصمه الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم في آية التطهير، فإنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام معصوم بنص القرآن الكريم، فلا معنى لأن يفضل من ثبت جواز سبه ولعنه من القرآن الكريم كما ظهر ذلك من الآيات المذكورة سابقاً وكذلك النصوص المتفقة عليها بين المسلمين فإنّها تدلّ على كفرها وجواز لعنهما وقد أشرنا اليها سابقاً، وسنذكرها إن شاء الله تعالى في محله بالتفصيل، فحاشا للإمام أميرالمؤمنين أن يضرب من سبّ أبابكر وعمر، فإنّ ذلك مخالف للسنة النبوية الشريفة القطعية المتفق عليها بين جميع المسلمين لأنّه قد ثبت في النص المتواتر أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم لعنهما صراحة عند تخلّفهما من جيش أُسامة بن زيد، فإنّ سنّة رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم واجبة الاتباع، كيف تصح نسبة تعزيز من سبّهما ولعنهما إلى مولانا أميرالمؤمنينعليه السلام. مع أنّ السابّ يكون عاملاً بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) لا شك أن هذه التناقضات لم تكن مخفية على الباحثين والمحقّقين، ونحن في غنى عن البحث حول هذه الأُسطورة، وما فيها من المضحكات حيث أنّ الباحث يعلم:

أولاً: إنّ ابن تيمية دلّس لكي يشنّع على الشيعة بأنّ الإمام قاله على المنبر ونقل عنه الثمانين، فإنّ الحديث المذكور في البخاري وهو فرية نسبوه إلى محمد بن الحنفية (أُنظر الى صحيح البخاري ج٤:ص١٩٤ كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين).

وثانياً: إنّ هذا الحديث معارض لحديث آخر رواه البخاري ومسلم في صحيحهما واليك نصّ الحديث فعن مالك بن أوس، عن عمر بن الخطاب في حديث طويل، أنّه قال مخاطباً علياً

في الوجه السابق وغيره،(١) ولما ثبت عندهم من مخالفات ومشاقات الشيخين لله

➲ والعباس: فلمّا توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أبوبكر: أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجئتما تطلب ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبوبكر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا نورث ما تركاه صدقة، فرأيتماه كاذباً آثماً غادراً خائناً، والله يعلم أنّه لصادق بار راشد تابع للحق، ثم توفي أبوبكر فكنت أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وولي أبي‌بكر، فرأيتماني كاذباً آثماً غادراً خائناً، والله يعلم إنّي لصادق بار راشد تابع للحق. (اُنظر صحيح البخاري ج٤:ص٤٤ كتاب الخمس، باب فرض الخمس، وج٥:ص٢٤ كتاب المغازي، باب باب حديث بنى نضير، وصحيح مسلم ج٥:ص١٥٢ كتاب الأنفال، باب حكم الفيء) واللفظ لمسلم، وبناءً على هذا الحديث الصحيح الصريح في أنّ أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان يرىٰ أبابكر وعمر كاذبين آثمين غادرين باعتراف عمر بن الخطاب كما هو نص الحديث، وإذا كان الإمام عليه السلام يراهما كاذبين آثمين غادرين كيف يصح بعد ذلك أن يراهما خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟!!!!

(١) لقد اختص الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بفضائل ومناقب لا تدانيه أحد من الأولين والآخرين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إطلاقاً، فهو أخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأوّل من آمن به وصدّقه وأحب الناس إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ووارثه وصفيه، ووزيره، وباب مدينة علمه، وولي كل مؤمن بعده و... ففضائله ومناقبه تفوق حد الإحصاء.

قال ابن عبّاس في شأن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: لو أنّ الشجر أقلام، والبحر مداد، والإنس والجن كُتّاب وحُسّاب، ما أحصوا فضائل أميرالمؤمنين عليه السلام (اُنظر المناقب للخوارزمي: ص ٣٢ح١، وفرائد السمطين للجويني ج١:ص١٦، ومائة منقبة لابن شاذان: ص١٨٥ح٩٩ وغيرها).

وروى الحاكم النيسابوري بإسناده عن أحمد بن حنبل قال: ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الفضائل أكثر ما جاء لعلي بن أبي طالب عليه السلام (المستدرك على الصحيحين ج٣:ص١٠٧) ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص٤١٨، والثعلبي في تفسيره ج٤:ص٨١، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج١:ص٢٦، وابن الأثير في الكامل ج٣:ص٣٩٩، والخوارزمي في المناقب: ص١١ وغيرهم.

➲

⮊ وقال ابن أبي الحديد المعتزلي: اعلم أنّ أميرالمؤمنين لو فخر بنفسه وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته التى آتاه الله تعالى إيّاها واختصه بها، وساعده على ذلك فصحاء العرب كافة، ولم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه في أمره... (أنـظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٩:ص١٦٦).

وقال خليل بن أحمد الفراهيدي اللغوي لمّا سئل عن فضائل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: إنّه ما أقول في رجلٍ كتم أحبّاءه فضائله خوفاً وأعداءه حسداً، ثم ظهر بين الكتمين ما ملأ الخـافقين (أُنظر مقدّمة كتاب المناقب للخوارزمي: ص٨، وكتاب البابليات ج١:ص ١٢١).

وأيضاً عنه في شأن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: احتياج الكل إليه، واستغنائه عن الكل دليـل على أنّه إمام الكل (أنظر أعيان الشيعة ج٦:ص٣٤٥ في ترجمة خليل بن أحمد).

أقول: والكلام في هذا المجال كثير، والفضائل كثيرة جداً. فما نقول نحن في هذا المقام بعدما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديثٍ معروف رواه العامة والخاصة، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: لو أنّ الأشجار أقلام والبحر مداد والجنّ حُسّاب والإنس كُتّاب ماأحصوا فضائل علي بن أبي طالب (مناقب الخوارزمي ج ١: ص ٢٥٩).

ونحن نكتفي في هذا المجال بذكر رواية واحدة من تلك الفضائل من باب التيمّن والتبرّك، وهو ما رواه ابن المغازلي في كتابه المناقب بسنده عـن الأعـمش، قـال: وجّـه إلَـيَّ المـنصور الدوانيقي، فقلت للرسول: لِمَ يريدني أميرالمؤمنين؟ قال: لا أعلم، فقلت: أبلغه أنّي آتيه، ثم تفكّرت في نفسي، فقلت: ما دعاني في هذا الوقت لخير، ولكن عسىٰ أن يسألني عن فضائل أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فإن أخبرته، قتلني. قال: فـتطهّرت، ولبست أكـفاني وتحنّطت ثم كتبت وصيتي ثم صرت إليه فوجدت عنده عمرو بن عبيد، فحمدت الله تعالى على ذلك، وقلت: وجدت عنده عون صدق من أهل النـصرة، فـقال لي: أُدن يـا سـليمان، فدنوت، فلمّا قربت منه أقبلت علىٰ عمرو بن عبيد أُسائله، وفاح مني ريح الحنوط، فقال: يا سليمان ما هذه الرائحة؟ والله لتصدقني وإلّا قتلتك!

فقلت: يا أميرالمؤمنين، أتاني رسولك في جوف الليل، فقلت في نفسي: ما بعث إلَيَّ أميرالمؤمنين في هذه الساعة إلّا ليسألني عن فضائل علي، فإن أخبرته قتلني! فكتبت وصـيتي ولبست

⮈

➲ كفني وتحنّطت، فاستوىٰ جالساً وهو يقول: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم، ثم قال: أتدري يا سليمان ما اسمي؟ قلت: عبدالله الطويل ابن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، قال: صدقت.

فأخبرني بالله وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كم رويت في علي من فضيلة، من جميع الفقهاء وكم يكون؟ قلت: يسيراً يا أميرالمؤمنين عشرة آلاف حديث وما زاد، قال: فقال: يا سليمان، لأُحدّثنّك في فضائل علي حديثين يأكلان كل حديث رويته عن جميع الفقهاء، فإن حلفت لي أن لا ترويهما لأحد من الشيعة حدّثتك بهما، قلت: لا أحلف ولا أخبر بهما أحداً منهم، فقال: كنت هارباً من بني مروان، وكنت أدور البلدان أتقرّب إلى الناس بحب علي وفضائله، وكانوا يأوونني ويطعمونني ويزورونني، ويكرمونني ويحملوني، حتى وردت بلاد الشام، وأهل الشام كلّما أصبحوا لعنوا علياً عليه السلام في مساجدهم لأنّ كلهم خوارج وأصحاب معاوية، فدخلت مسجداً ـ وفي نفسي منهم ما فيهم ـ فأُقيمت الصلاة، فصلّيت الظهر وعلَيَّ كساء خَلِق، فلمّا سلّم الامام إتكأ على الحائط، وأهل المسجد حضور فجلست فلم أر أحداً منهم يتكلّم توقيراً لإمامهم، فإذا بصبيين قد دخلا المسجد، فلمّا نظر إليهما الإمام قال: ادخلا مرحباً بكما ومرحباً بمن سمّيتكما بأسمائهما، والله ما سمّيتكما بأسمائهما إلّا بحب محمّد وآل محمّد، فإذا أحدهما يقال له: الحسن والآخر الحسين، فقلت: فيما بيني وبين نفسي قد أصبت اليوم حاجتي، ولا قوة إلّا بالله، وكان شاب إلى جنبي فسألته عن هذا الشيخ، ومن هذان الغلامان؟ فقال: الشيخ جدهما، وليس في هذه المدينة أحد يحب علياً عليه السلام غير هذا الشيخ ولذلك سمّاهما الحسن والحسين، فقمت فرحاً وإنّي يومئذٍ لصارم لا أخاف الرجال، فدنوت من الشيخ، فقلت: هل لك في حديث أقرّ به عينك؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك، وإن أقررت عيني أقررت عينك.

فقلت: حدّثني أبي عن جدّي عن أبيه عن سول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: من والدك؟ ومن جدّك، فلمّا عرفت أنّه يريد أسماء الرجال، فقلت: محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، قال: إنّا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا فاطمة قد أقبلت تبكي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما يبكيك يا فاطمة؟ قالت: يا أبة! إنّ الحسن والحسين قد ذهبا منذ اليوم ولا أدري أين هما وأنّ علياً مشى إلى الدالية منذ ➲

⮌ خمسة أيام ليسقي البستان، وإنّي قد طلبتهما في منازلك فما أحسست لهما أثـراً، وإذا أبوبكر عن يمينه فقال: يا أبابكر! قم فاطلب قرة عيني، ثم قال: يا عمر! قم فاطلبهما، ويـا سلمان ويا أباذر ويا فلان وفلان.

قال: فأحصينا على رسول الله ﷺ سبعين رجـلاً بـعثهم فـي طـلبهما وحـثّهم، فـرجـعوا ولم يصيبوهما، فاغتمّ النبي ﷺ غمّاً شديداً، ووقف على باب المسجد وهو يقول: اللّهم بحق إبراهيم خليلك وبحق آدم صفيك، إن كانا قرّتا عـيني وثـمرتا فـؤادي أخـذا بـرّاً أو بـحراً فاحفظهما وسلّمهما. فإذا جبرئيل عليه السلام قد هبط فقال: يا رسول الله، إنّ الله يقرئك السلام ويقول لك: لا تحزن ولا تغتم، الصبيّان فاضلان في الدنيا وفاضلان في الآخرة وهما في الجنة، وقد وكلت بهما ملكاً يحفظهما إذا ناما وإذا قاما، ففرح النبي ﷺ فرحاً شديداً، ومضى جبرئيل عن يمينه والمسلمون حوله حتى دخل حضيرة بني النجار فسلم على ذلك الملك المـوكل بهما، ثم جثا النبي ﷺ على ركبتيه وان الحسن معانق للحسين وهما نائمان، وذلك الملك الموكل قد جعل احدىٰ جناحيه تحتهما والآخر فوقهما وعلى كل واحد منهما دراعة من شعر أو صوف والمداد على شفتيهما، فما زال النبي ﷺ يلثمهما حتى استيقظا فحمل النبي ﷺ الحسن وحمل جبرائيل الحسين وخرج النبي ﷺ من الحضيرة.

فقال ابن عباس: وجدنا الحسن عن يمين النبي ﷺ والحسين عن يساره وهو يقبّلهما ويقول: من أحبّكما فقد أحب رسول الله ﷺ ومن أبغضكما فقد أبغض رسول الله ﷺ.

فقال أبوبكر: يا رسول الله، أعطني أحدهما أحمله، فقال له رسول الله ﷺ: نِعم المحمول ونِعم المطية تحتهما، فلمّا أن صار إلى باب الحضيرة لقيه عمر فقال له: مثل مقالة أبي بكر فردّ عليه رسول الله ﷺ كما ردّ على أبي بكر، فرأينا الحسن متشبّثاً بثوب رسول الله ﷺ ووجدنا يد رسول الله ﷺ على رأسه فدخل النبي ﷺ المسجد، فقال: لأُشرفن ابني اليـوم كـما شرّفهما الله.

فقال: يا بلال علَيَّ بالناس. فنادىٰ بهم، فاجتمع الناس. فقال النبي ﷺ: يا معشر أصحابي. بلّغوا عن نبيكم، سمعنا رسول الله ﷺ يقول: ألا أدلكم اليوم على خير الناس جداً وجدة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: عليكم بالحسن والحسين، فإنّ جدّهما محمد رسول الله وجـدّتهما ⮌

خديجة بنت خويلد سيدة نساء أهل الجنة، هل أدلكم على خير الناس أباً وأُمّاً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: عليكم بالحسن والحسين فإنّ أباهما علي بن أبي طالب وهو خير منهما، شاب يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ذو المنفعة والمنقبة في الإسلام، وأُمـهما فاطمة بنت رسول الله سيدة نساء أهل الجنة. يا معشر الناس! ألا أدلّكم على خير الناس عمّاً وعمّة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: عـليكم بـالحسن والحسـين، فـإنّ عـمّهما جـعفر ذو الجناحين يطير في الجنان مع الملائكة وعمّتهما أم هاني بنت أبي طالب. ألا يا معشر الناس أُعلمكم أنّ جدّهما في الجنة وجدتهما في الجنة وأبوهما في الجنة وعمهما في الجنة وهما في الجنة ومن أحبهما في الجنة ومن أبغضهما فهو في النار، وانّ من كرامتهما على الله انـه سماهما في التوراة شبراً وشبيراً.

فلما سمع الشيخ مني هذا قال: من أنت يا فتىٰ؟ قلت من أهل الكوفة، قال: عربي أم مولىٰ؟ قلت: عربي، قال: أنت تحدث بهذا الحديث، وأنت في هذا الكساء؟!! قال: فكساني حلة وحملني علىٰ بغلة، قال: فبعتهما في ذلك الزمان بمائة دينار، ثم قال: يـا فـتىٰ أقـررت عـيني، والله لأرشدنك إلى شاب يقر عينك، قال: قلت: نعم ارشدني. قال: فقال: نعم ههنا رجلان أحدهما امام والآخر مؤذن، فأمّا الامام فهو يحب علياً منذ خرج من بطن أمه، وأمّا الآخر فقد كان يبغض علياً وهو اليوم يحب علياً. قال: فأخذ بيدي وأتىٰ بي باب الامام، فاذا شاب صبيح الوجه قد خرج عليّ فعرف الحلة وعرف البغلة، وقال: والله يا أخي ما كساك فلان حلته، ولا حملك على بغلته، إلّا لأنك تحب الله ورسوله وتحب علياً، فحدثني في علي. فـقلت: نـعم حدثني والدي عن أبيه عن جده قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم إذا أقبلت فاطمة وهي حاملة الحسن والحسين على كتفيها وهي تبكي بكاءً شديداً، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا فاطمة ما يبكيك؟ قالت: يا رسول الله عيرتني نساء قريش أنّ أباك زوجك معدماً لا مال له!! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا فاطمة لا تبكي، فوالله ما زوجتك حتى زوجك الله وشهد على ذلك جبرئيل واسرافيل، ثم قال: وانّ الله اطلع علىٰ أهل الدنيا فاختار من الخلائق أباك فبعثه رسولاً ونبيا، ثم اطلع الثانية فاختار من الخلائق علياً فزوجك اياه واتخذه لي وصيا، فـهو أشجع الناس قلباً وأحلم الناس حلماً وأسمح الناس كفاً وأقدمهم سلماً وأعلمهم علماً، وفي

⬅ القيامة لواء الحمد بيده، وينادي المنادي: يا محمد نعم الأب أبوك ابراهيم ونعم الأخ أخوك علي يا فاطمة اني مقيم غداً علياً على حوضي، يسقي من عرف من امتي، والحسن والحسين ابناه سيدا شباب أهل الجنة من الأولين والآخرين، وقد سبق اسمهما في تورات موسىٰ، وكان اسمهما في التوراة شبراً وشبيراً، سماهما الله الحسن والحسين لكرامة محمد على الله وكرامتهما عليه.

يا فاطمة يكسىٰ أبوك حلتين من حلل الجنة ويكسى علي حلتين من حلل الجنة ولواء الحمد في يدي وامتي تحت لوائي فأنا وعلياً لكرامة علي علىٰ الله، وينادي منادياً يا محمد نعم الجد جدك ابراهيم ونعم الأخ أخوك علي بن أبي طالب واذا دعاني رب العالمين دعا علياً معي واذا حييت حييٰ علي معي واذا شفعت شفع علي معي، عوني على مفاتيح الجنة، قومي يا فاطمة علياً وشيعته هم الفائزون غداً قال: وبينا فاطمة جالسة إذ أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى جلس إليها وقال: يا فاطمة لا تبكي ولا تحزني، فلابد من مفارقتك فاشتد بكائها ثم قالت: يا أبة أين ألقاك؟ قال: تلقيني تحت لواء الحمد أشفع لامتي، قالت يا أبة فان لم أجدك؟ قال: تلقيني على الصراط وجبرئيل بيميني وميكائيل عن شمالي واسرافيل بحجزتي والملائكة خلفي وأنا انادي يا رب امتي امتي، هون عليهم الحساب، ثم انظر يمينا وشمالا إلى امتي وكل نبي يومئذ يشتغل بنفسه يقول: يا رب نفسي نفسي وأنا أقول: يا رب امتي امتي، وأوّل من يلحق بي من امتي أنت وعلي والحسن والحسين عليهم السلام يقول: يا محمد انّ امتك لو أتوني بذنوب كامثال الجبال لغفرت لهم ما لم يشركوا بي شيئاً ولم يوالوا لي عدواً.

فلمّا سمع الشاب هذا مني أمر لي بعشرة آلاف درهم. وكساني ثلاثين ثوباً، ثم قال: من أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، فقال: عربي أم مولى؟ قلت: عربي شريف، قال: فكساني ثلاثين ثوباً في تحت وأعطائي عشرة الاف درهم في كيس ثم قال لي أقررت عيني يا فتى أقر الله عينك ولم يسأل عما سوى ذلك ولكنه قال لي: يا فتى لي إليك حاجة، فقلت له قضيت ان شاء الله تعالى، فقال: اذا اصبحت غداً فآت مسجد بني فلان كيما ترىٰ أخي الشقي، قال أبوجعفر: فوالله لقد طالت تلك الليلة حتى خشيت أن لا أصبح حتى أفارق الدنيا، قال: فلما أصبحت أتيت المسجد الذي وصف لي وحضرت الصلاة فقمت في الصف الأوّل لفضله، وإلى جانبي ⬅

ورسوله حسبما نبهّنا على جملة منها في المقام وفيما مضى وسيأتي جملة وهي قد

➲ على يساري شاب معتم بعمامة فذهب ليركع، فسقطت عمامته عن رأسه فنظرت إلى رأسه فإذا رأسه رأس خنزير ووجهه وجه خنزير، قال: أبوجعفر فوالذي أحلف به ما أعلمت ما أنا فيه ولا عقلت أفي الصلاة أنا أم في غير الصلاة تعجباً ودهشتاً حتى ما أدري ما أقول في صلاة إلى أن فرغ الامام من التشهد فسلّم وسلمت، ثم قلت له: يا فتى ما هذا الذي أرىٰ لك؟ فقال لي: فلعلك صاحب أخي ألذي ارسلك لتراني؟ قلت: نعم، فأخذ بيدي فأقامني وهو يبكي بكاءً شديداً وشهق في مكانه حتى كادت نفسه أن تقبض حتى أتىٰ بى إلى منزله فقال لي: انظر إلى هذا البنيان فنظرت إليه ثم قال لي ادخل، فدخلت، فقال لي: انظر إلى هذا الدكان فنظرت، ثم قالى لي: اني كنت رجلاً أؤذن وأؤم بقوم، وكنت ألعن علي بن أبي طالب عليه السلام بين الأذان والاقامة ألف مرة، وانّه لمّا كان يوم الجمعة لعنته أربعة آلاف مرة ولعنت أولاده فاتكأت على هذا الدكان وذهبت في النوم فرأيت في منامي كأنّما أنّي في الجنة وفيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحوله أصحابه وعلي والحسن عن يمينه والحسين عن يساره ومعه كأس، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا حسن اسقني فسقاه ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: اسق علياً فسقاه فشرب ثم قال: اسق الجماعة فشربوا، ثم رأيته كأنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: اسق المتكىء على هذا الدكان، فقال الحسن: يا جدي أتأمرني ان أسق هذا وهو يلعن والدي كل يوم ألف مرة وقد لعنه في هذا اليوم أربعة آلاف مرة، فأتاني النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال لي: مالك عليك لعنة الله أتلعن علياً وعلياً مني؟ وتشتمه وهو من لحمي ودمي، فرأيته كأنّه تفل في وجهي، وضربني برجله وقال صلى الله عليه وآله وسلم: غير الله ما بك من نعمة، فانتبهت من نومي، فاذا رأسي رأس خنزير، ووجهي وجه خنزير، ثم قال أبوجعفر المنصور: هذان حديثان كانا في يدك؟

قلت: لا، فقال: يا سليمان حب علي ايمان وبغضه نفاق والله لا يحبه إلّا مؤمن، ولا يبغضه إلّا منافق، قال: قلت: الأمان يا أميرالمؤمنين؟ قال: لك الأمان، قال: قلت: ما تقول في قاتل الحسين بن علي؟ قال: الى النار وفي النار ثم قال: قلت: وكذلك من يقتل ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى النار وفي النار، قال: فحرك أبوجعفر رأسه طويلاً ثم قال: ويحك يا سليمان الملك عقيم قالها ثلاثاً ثم قال لي: يا سليمان أخرج فحدث الناس بفضائل علي بن أبي طالب بكل ما شئت. (أُنظر: المناقب لابن المغازلي: ص١٤٣ ـ ب٥٥ ح١٨٨ والمناقب للخوارزمي: ص٢٠٠ ـ ٢٠٨ ح١٧٩).

دلّت على عدم وجود فضل فيهما بوجه من الوجوه(١).

---

(١) فانّ القرآن الكريم قد أعطانا الملاك والمناط في التفضيل فذكر تبارك وتعالى أنّ أحد الأُمور التي يعرف بها الفضل والتقديم هو العلم، فإنّ العالم يمتاز عن الجاهل ويقدّم عليه، قال الله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انّما يتذكر اولوا الألباب (سورة الزمر:٩) فانّ نفي المساواة بين العالم والجاهل دليل على وجود التفاوت بينهما حقيقة وقد أشارت الآية الكريمة إلى نقطة مهمة في ذيلها وهي أن هذا التفاوت بين العالم والجاهل لا يعرفها إلّا أرباب العقول الكاملة والأفهام الفاضلة، لأنّ الجاهل كالأعمىٰ لا يعرف من الإنسان إلّا صورة التي يدركها من الانسان، وإنّما يعرف ذا الفضل من الناس من هو عالم، ولو أردنا أن نطبّق هذا الميزان الكلي بين الصحابة لنعرف الأفضل منهم فلابد أن نعرف من هو أعلمهم، ثم الأدنىٰ فأدنىٰ منهم، ولا شك أنّ هذه الحقيقة تتبّين لنا من خلال شهادة الله عزوجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومعاملة ذلك الفرد المقصود مع الناس، فإذا كانت معاملاته في المجادلات المختلفة مطابقة لأحكام الدين والشريعة السماوية، فهو أعلم الناس لأنّ العلوم السماوية تضمن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وإذا لم يكن لديه هذه المعرفة فلا فضل له على الآخرين.

وعلى هذا الأساس: إذا أردنا أن نعرف حقيقة الخلفاء الثلاثة في هذا المجال لابد أن نعرفهم من خلال معاملتهم مع العلوم لاسيّما العلوم التي تضمن السعادة الدنيوية والأُخروية للإنسان، فإنّ من العلوم المعارف الإلٰهية التي تبيّن حقيقة الشريعة المحمّدية وهي مخزونة عند أهلها، فالعالم الحقيقي هو من له الإحاطة بتلك العلوم لو نجمعها من العلوم الطبيعية والفلسفية والعقلية والطّبية والرياضية وغير ذلك، كلّها مخزونة عند خالق الإنسان وهو قد يعطي أنبيائه، فالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أعلم الناس من الأولين والآخرين، فحديثه يكون فيه أعلىٰ مراتب العلم والمعرفة، وإذا كان الأمر كذلك فلنأتي إلى الخلفاء والصحابة لنرىٰ مافعلوا بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالتاريخ والمصادر الإسلامية ينبئنا بأنّهم لم يعرفوا منزلة الأحاديث النبوية، ولم يدركوا معنى قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ (سورة الحشر: ٧).

فالمراد بالإيتاء هو الأمر وذلك بقرينة مقابلته لقوله تعالى: ﴿**وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ**﴾، فتجب طاعة أوامر ←

الرسول كما تجب اطاعة أوامر الله سبحانه، وقد قرنهما الله تعالى في آيات عديدة من القرآن الكريم، وأمر المؤمنين بهما في محلٍ واحد، كقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (سورة النساء: ٥٩) وفي بعض الآيات: إنّ الله تعالى جعل طاعة الرسول طاعته، فقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾ (سورة النساء: ٨٠).

وفي بعض الآيات جعل أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حجة، حيث أنّه لا ينطق عن الهوىٰ، وإن لم يكن قرآناً فقال تعالى: ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ «٤» عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣ـ٥) وفي بعضها جعل أفعال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حجة أيضاً فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ (سورة الأحزاب: ٢١) فالسنّة النبوية بمعناها العام قد اعتبرها الله تعالى حجة على المسلمين كافة، فوجوب العمل بها واجبة كوجوب العمل بقول رب العالمين.

وإنّ من الحقائق التي لا يستطيع أحد إنكارها هي: إنّ الشيخين أبا بكر وعمر منعا حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقلاً وتدويناً، وكان ذلك ذريعة لمآربهم الفاسدة. وسيتضح للقارئ الكريم هذه الحقيقة أكثر وضوحاً عندما يلاحظ التاريخ، فيجد بأنّ الخلفاء كانوا يتّخذوا إجراءات شديدة ضد من ينقل أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم لئلا تنكشف للناس الحقيقة فلو درس الباحث هذا الموضوع دراسة علمية موضوعية سوف يصل إلى هذه النتيجة: بأنّ أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الشامل لأقواله وأفعاله صلى الله عليه وآله وسلم تبين أنّ الرسالة الالهية انّما ينبغي أن تحملها المعصوم من البشر وغير المعصوم لا يمكنه ذلك فالروايات الصادرة من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كانت سدّاً منيعاً أمام سياسة الخلفاء وسلاحاً قوياً بأيدي مخالفي الخلفاء. وحيث أنّ الخلفاء عرفوا بأنّ الأحاديث تصطدم مصالحهم وتتعارض مع منوياتهم فعمدوا إلى تجريد مخالفيهم من هذا السلاح القوي، وأوّل مبادرة بادر بها الحزب الحاكم هي إثارة فكرة: حسبنا كتاب الله التي تدعو الى رفض السنّة.

فهذه المحاولة الخطيرة قد بدأت من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما طلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدواة والقرطاس ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً، فقال عمر بن الخطاب: هجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ والعياذ بالله ـ حسبنا كتاب الله، ومعناه: لا حاجة لنا بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد

➲ سجّل هذه الجسارة البشاعة على رسول الله جميع أرباب الصحاح والمسانيد والسنن من أهل السنّة (اُنظر صحيح البخاري ج٥:ص١٣٨ كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيره).

ومن الواضح لدىٰ الخبير: إنّ قوله: «حسبنا كتاب الله» يدلّ على دعوىٰ استغناء الرجل عن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أنّ القرآن الكريم صرح بحجية أقواله صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله وعدم استغناء المسلمين عنه إلى يوم القيامة، فإنّ رزية يوم الخميس أثبتت هذه الحقيقة بصورة واضحة في المرحلة الاُولىٰ من منع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم إنّ أبا بكر قد وافق زميله عمر بن الخطاب في هذه الفكرة الخطرة وقال عندما استتتب الأمر له في خطبة خطبها للناس، فقال فيها: أيها الناس! إنّكم تحدّثون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشدّ اختلافاً، فلا تحدّثوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله وحرّموا حرامه (اُنظر تذكرة الحفّاظ للذهبي ج١:ص٢).

والسؤال الذي يتوجه إلى أبي‌بكر وعمر ومن يدافع عنهما هو: أنّه إذا كان الأمر كذلك ما تقولون في حديث أنتم تعتقدون بصحته عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: تركت فيكم خليفتين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي. فبناءً على صحة هذا الحديث عندكم لماذا أنّ أبابكر وعمر رفضا سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقيما لها وزناً، ويقول عمر: حسبنا كتاب الله ويساعده الخليفة الأول في ذلك، أليس أليس تقولون هذا الخبر صحيح عندنا وأليس يقولون أنّ سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجة على جميع المسلمين؟

ومن هنا اعترض جماعة من علماء أهل السنّة على الشيخين ومحاولتهما والخطرة، ألا وهي رفض سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الشيخ المحدّث الدكتور محمود أبو شهبة استاذ الأزهر: قد ظهرت فئة في القديم والحديث تدعو إلى هذه الدعوة الخبيثة (وهي الاكتفاء بالقرآن) وغرضهم هدم نصف الدين، أو إن شئت قلت تفويض الدين كله، لأنّه إذا اُهملت الأحاديث، فسيؤدي ذلك ـ ولا ريب ـ إلى استعجام معظم القرآن على الأمّة، وعدم معرفة المراد منه. وإذا اُهملت الأحاديث واستعجم القرآن، ➲

فبان ممّا نبّهنا عليه بهتانهم في نسبة القول المرقوم الى علي عليه السلام حتى لو نقله عنه اُلوف عديدة[١]

فقل: على الإسلام العفاء (اُنظر في رحاب السنّة: ص١٣، ودفاع عن السنّة: ص١٥ـ١٦).
وقال الشيخ سليمان الندوي ـ أحد علماء الهند ـ: إنّ الذين أرادوا أو يريدون أن يفرّقوا بين القرآن والسنّة، فيقبلوا القرآن ويردّوا السنّة، قد ابتعدوا عن الصراط المستقيم، أو يبتعدون، فإنّهم يحاولون أن يفهموا من القرآن حسب ما يدركونه بعقولهم، ويجعلوا استنباطهم من القرآن كل ما للإسلام من تعاليم صحيحة ويكتفوا بذلك دون غيره (اُنظر مقدّمة كتاب تدوين الحديث). وإلى غير ذلك من أقوالهم.
فهذه أوّل محاولة خطيرة استعملها أبوبكر وعمر.
ثم إنّ أبا بكر قد أحرق أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنده وهي حوالي خمسمائة حديث على ما رواه الذهبي في تذكرة الحفّاظ ج١:ص٣. ولا يخفى ما نتج من هذا العمل الصادر منه من العقاب والآثار السيئة التي حصلت من هذا العمل الفاسد الذي يكون أحد عقباته هو الاختلاف والنزاع والتشاجر بين اُمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى صار سبباً للقتل وإراقة الدماء بين المسلمين إذ من المعلوم أنّ الإحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نور يهتدي بها المهتدون وهي امان من الضلال والفتن وجمعها كانت لازمة لهذه الغاية فلو كانت موجودة عند المسلمين لحلّوا بها مشاكلهم. فإحراق الأحاديث إما دليل على عدم كونه عاقلاً لأنّ العاقل لا يسدّ الأبواب على نفسه، وإمّا دليل على جهله، وإما دليل على عداوته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على كل حال: فإنّ هذا أحد الموارد الكثيرة التي تدل بوضوح على جهل أبي‌بكر وعمر والموارد كثيرة جداً.

(١) فإنّ كثرة المخبرين لا تكون دليلاً على صدق الخبر وعدم تعمّدهم على الكذب، لأنّ الكذب له أسباب ودواعي كالحب والبغض الذين يجران الإنسان إلى الخبر الكاذب، فالملاك في صدق الخبر مطابقته للواقع، لا مطابقته لاعتقاد المخبر، كما أنّ الكذب هو عدم مطابقة الخبر للواقع، وإن ذهب بعض أعلام أهل السنّة إلى أنّ الصدق عبارة عن مطابقة الخبر لاعتقاد المخبر، فإذا قال أحد: السماء تحتنا، وكان معتقداً بذلك يكون خبره عند هؤلاء من العلماء صحيحاً، وإذا قال: السماء فوقنا، غير معتقد بذلك يكون كذباً. والمراد بالاعتقاد عندهم: ما يعم الظن وهو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، فانّ ذلك يعُدّ صدقاً عندهم

➲ وعلماً وإن كان جهلاً مركباً.

ولكن هذا القول باطل كما هو واضح لدىٰ الخبير، لأنّ الصدق والكذب ليسا من مدلول الخبر بل إنّهما صفتان تعرضان على الخبر من الخارج بالقرائن، فجملة: زيد قائم خبر فيه الموضوع والمحمول، الموضوع هو، زيد والمحمول هو القيام، والنسبة بينهما هي المعنى الحرفي التي تجمع بين الموضوع والمحمول، فنسبة القيام إلى زيد خبر يحتمل صدقه وكذبه إذ هذه النسبة قد تتصف في الواقع بالصدق وقد تتصف بالكذب، فاتّصاف الخبر بالصدق والكذب لا يكون دخيلاً في مدلول الخبر ونسبة القيام إلى زيد.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ القيام يحمل على زيد وينسب إليه لا أنّ القيام الاعتقادي يكون محمولاً لزيد، فالقيام الكلي الخالي عن الاعتقاد يجعل محمولاً لزيد فالصدق والكذب أمر واعتقاد المخبر أمر آخر خارج عن الخبر. وعليه يمكن أن يكون خبر المخبر غير مطابق للواقع وإن كان عدد المخبرين في كثرة، فإنّ عدم مطابقة أخبارهم للواقع دليل على كذب خبرهم، وإنّ عدد المخبرين لا يكون دليلاً على صدق الخبر حيث أنّ الحب والبغض قد يجرّان الإنسان الى التقوّل في الآخرين على خلاف الواقع، فقد يكون عدد المخبرين كثيرة ولكن عدم مطابقة خبرهم للواقع عند من يسمعه واضحاً كالشمس في رائعة النهار، لوجود التناقض والتضاد في خبرهم.

وهذا ما نشاهده اليوم في وسائل الإعلام، فإنّ القوىٰ الكبرىٰ العالمية تلعب دوراً كبيراً في الأخبار في مجال الإعلام العالمي، وقد تنشر بعض الأخبار المخالفة للواقع وربما تنطق جماعة كثيرة من أرجاء مختلفة بذلك الخبر على وسائل الاعلام، ولكن الخبر لا أصل له فلا يصدّق عند العقلاء، حيث القرائن الخارجية الدالة على كذب الخبر واضحة عندهم فعندما يستمع اليه الناس يجدون فيه التناقض والتضاد ولا يصدقونه. والمقام من هذا القبيل، فإنّ نسبة هذه الفرية إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام نسبة كاذبة لا يصدّقها العاقل، لأنّ من يدرس صفات الإمام عليه السلام وما جاء في أوصافه عن لسان النبي الصادق صلى الله عليه وآله وسلم في أقواله يجد أنّ هذه النسبة لا تطابق مع أوصافه الإمام عليه السلام إذ لا معنى أنّ الإمام يضرب حدّ المفتري على من لايكون مفترياً بل يكون صادقاً في قوله، ثم إنّ المؤمن المعتقد بالله والرسول ويعلم مقام ➲

من حيث مناقضته لما عرفت من هاتين الجهتين،[١] فالمعيار في صدق الخبر

⇒ أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يعرف بأنّ ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شأن مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: علي مع الحق والحق مع علي. أو الحق مع علي حيث ما كان (مجمع الزوائد ج٧:ص٢٣٥) دليل على أنّ ما يفعله الامام أميرالمؤمنين عليه السلام عين الحق، فإذا كان كذلك فإنّ الإمام عليه السلام لا يخالف الحقيقة؛ إذ لمّا ثبت أنّ أبا بكر وعمر خالفا النصوص النبوية وخالفا النصوص القرآنية، فلا مانع من لعنهما وسبهما كما تقدّم كما أنّ هذه النسبة التي نسبها ابن تيمية إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام مخالف لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ قد ورد عن عمر بن الخطاب أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: علي أقضاكم (أُنظر شرح نجه البلاغة لابن أبي الحديد ج١:ص١٨).

فإذا كان الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أقضى الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمعناه أن قضائه لابد أن يكون مطابقاً للكتاب والسنة النبوية فاذا جوز القرآن والسنة لعنهما فلا معنى لأن التعزير الامام من سبّهما ولعنهما فهذا افتراء بيّن على الامام عليه السلام.

(١) الجهة الأُولىٰ: هي الروايات الصحيحة التي رواها علماء أهل السنّة في أفضلية أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على جميع الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كحديث المنزلة وحديث الراية وحديث الطير وحديث المؤاخاة، وحديث لا يحبك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق، وحديث انّا مدينة العلم وعلي بابها، وحديث من آذىٰ علياً فقد آذاني، وحديث خاصف النعل، وحديث علي مع الحق والحق مع علي، وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي ملأت الكتب، فهذه الأحاديث وغيرها تدلّ بالصراحة على أفضلية الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام على جميع المسلمين كافة بما فيهم الصحابة وبما فيهم الخلفاء الثلاثة الغاصبين لحقوق آل البيت عليهم السلام وغيرهم.

والجهة الثانية: هي جهة مخالفة أبيبكر وعمر للشريعة المقدسة كمخالفتهم لحديث الغدير الذي سمعاه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غديرخم وهنّئا الامام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بإمرة المسلمين كما ورد في النصوص الكثيرة.

قال العلّامة الأميني: وخصوص حديث تهنئة الشيخين رواه من أئمة الحديث والتفسير والتاريخ من رجال الستة كثير لا يستهان بعدتهم بين راو مرسلاً له إرسال المسلم، وبين راو إباه ⇐

وكذبه وزنه بالسنن المعلومة الصحيحة، فإن طابقها فهو صدق، وإن خالفها فهو كذب،[1] ونحن عرضناه على السنن نزنه بها فوجدناه قد خالفها من

بمسانيد صحاح برجال ثقات تنتهي إلى غير واحد من الصحابة كابن عباس وأبي هريرة والبراء بن عازب وزيد بن أرقم و... ثم ذكر ستين مصدراً من مصادر أهل السنة التي رووا هذه الواقعة عن الصحابة بأسانيدها المختلفة (أُنظر: الغدير ج١:ص٢٧٢ـ٢٨٢).

فهما خالفا هذا الحديث وتركاه وراء ظهرهما وجحدوا بها واستيقنها أنفسهما ظلماً وعدواناً وبغياً فانّهما قد تبعا الشيطان وصح التعبير بهما الجبت والطاغوت، والذين حكما على الناس ظلما وجوراً، فيلزم على كل مؤمن ومؤمنة التبرّي منهما كما نقرأ في زيارة الجامعة الكبيرة الواردة عن الإمام الهادي عليه السلام: برئت إلى الله تعالى من أعدائهم ومن الجبت والطاغوت والشياطين وإخوانهم الظالمين لكم، والجاحدين لحقكم، والمارقين من ولايتكم، والغاصبين لإرثكم، والشاكين فيكم، والمنحرفين عنكم، ومن كل وليجة دونكم...

وإنّ القرآن الكريم قد ألزمنا التبري من الجبت والطاغوت، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلاَءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ (سورة النساء: ٥١ـ٥٢) ومعنى الجبت والطاغوت ـ كما ورد في الروايات ـ هو ما ينطبق على كل حاكم حكم الناس بغير الحق. والطاغوت هو: ذو الطغيان على جهة المبالغة وهو من يعبد الشيطان بدل ما يعبد الرحمٰن كما ورد في قوله تعالى: ﴿**وعبد الطاغوت**﴾ في الآية ٦٠ من سورة المائدة، فانطباقها على الشيخين في المقام واضح لما ذُكر من الوجهين المتقدمين فلاحظ.

(١) لا يخفى على الخبير الباحث في مجال الحديث وعلومه: إنّ علماء الإسلام على اختلاف مسالكهم ومذاهبهم قد وضعوا مجموعة من القوانين والقواعد والضوابط لمعرفة الحديث الصحيح من المكذوب، منها: قاعدة عرض الحديث بالسنن المعلومة الصحيحة الثابتة صحتها عند جميع المسلمين من جهة اشتمالها على القرائن والشرائط الرئيسية في قبول الحديث عند الكل، والاعتماد عليه والإطمئنان به من جهة عدم كذبه وانحرافه.

قال الدكتور محمود أبو ريّه: ذكر المحققون أُموراً كلية يعرف بها أنّ الحديث موضوع؛ منها:

← مخالفته لظاهر القرآن، أو السنة المتواترة، أو الإجماع القطعي، أو القواعد المقررة في الشريعة، أو للبرهان، أو للحس والعيان وسائر اليقينيات... (أضواء على السنّة المحمدية: ص١٤٠).

وقال الألباني في كتابه: إرواء الغليل نقلاً عن ابن الجوزي، إنّه قال: إذا رأيت الحديث يباين المعقول، أو يخالف المنقول، أو يناقض الأُصول، فاعلم أنّه موضوع، قال: ومعنى مناقضته للأُصول أن يكون خارجاً عن دواوين الإسلام من المسانيد والكتب المشهورة... (إرواء الغليل ج٤:ص١٢).

أقول: ومن هنا يعلم أنّ الحديث قد يكون صحيحاً من جهة السند؛ لثبوت وثاقة رُواته وعدم مخالفته للواقع. وقد يكون ضعيفاً من جهة سنده أي أن رواته له غير موثّقين ولا يمكن تصديقهم لعدم وثاقتهم، أو لوجود قرائن على عدم مطابقة الخبر للواقع، فلا يعتمد على مثل هذا الخبر.

قال ابن خلدون في مقدّمته الشهيرة: إنّ الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أُصول العادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال والاجتماع الإنساني، ولا يقاس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومنزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرّخين والمفسّرين وأئمة النقل من المغالطة في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً وسميناً، ولم يعرضوها على أُصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبّروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط... (تاريخ ابن خلدون ج١:ص٩).

وقال الأُستاذ محمد عبده: لم يرزأ الإسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون إليه، وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه، فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين، وأساء ظنون غيرهم فيما بني عليه الدين، وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمّدي في قرونه الأُولى حتى عرف ذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم. بل عهد الكذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته إلّا أنّ عموم البلوىٰ بالأكاذيب حق على الناس بلائه في دولة الأُمويين، فكثر الناقلون وقلّ ←

حيث ثبوت أفضلية علي وسائر العترة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من سائر الخلق[1].

➲ الصادقون، وامتنع كثير من أجلّة الصحابة عن الحديث إلّا لمن يثقون بحفظه خوفاً من التحريف فيما يؤخذ عنهم...

وروى الإمام مسلم في مقدّمة صحيحه، قال: ما رأيت أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث. ثم اتسع شر الافتراء وتفاقهم خطب الاختلاف وامتد بامتدادات الزمان... (أنظر أضواء على السنّة المحمّدية: ص٣٨٩ـ٣٤٠ نقلاً عن تاريخ الأستاذ محمد عبده ج٢:ص٣٤٧، وانظر مقدّمة صحيح مسلم ج١:ص١٤ـ١٥) والى غير ذلك من كلمات علماء أهل السنّة الذين صرّحوا بأنّ كثيراً من الأحاديث الموجودة في كتبهم موضوعة ومزوّرة.

والخبير يعلم بأنّ سياسة معاوية بن أبي سفيان كانت قائمة على أساس المكر والخداع والتحريف، وقد رسم اخطر عملية في تاريخ الإسلام وهي تحريف حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال الدكتور أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام:... وقد يسوقنا هذا إلى أن نذكر أنّ الأمويين فعلا وقد وضعوا أو وضعت لهم أحاديث تخدم سياستهم من نواحٍ متعدّدة، منها أحاديث في زيادة مناقب عثمان؛ إذ كان هو الخليفة الأُموي... (أُنظر ضحى الإسلام ج٢:ص١٢٣).

والنتيجة: إنّ هذه السياسة الآثمة والغاشمة المبنية على الغدر والكذب قد أدت إلى اختلاط الأوراق اختلاطاً عجيباً، فضاعت فيها الحقائق، وصار الوصول الحق منها من أصعب الأمور وأكثر تعقيداً، ومن أجل ذلك وضع علماء الإسلام مجموعة من القواعد والضوابط لمعرفة الحديث الصحيح من المكذوب، وقسموا الأحاديث إلى أقسام ومراتب، ومن تلك القواعد والضوابط عرض الحديث ووزنه بالسنن المعلومة الصحيحة عند جميع المسلمين.

(١) لا شك ولا ريب في أفضلية الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام والعترة الطاهرة عليهم السلام وهي أمر ثابت بالنصوص القطعية والروايات الواردة في أفضليتهم وأحقّيتهم بمنصب الإمامة؛ كثيرة جداً لا يمكن احصائها، ويكفي فيه ما ورد صحيحاً من طرق الطرفين أنّ العترة الطاهرة لا يقاس بهم أحد.

فقد أخرج أبوالفرج عبدالرحمٰن بن الجوزي في كتاب مناقب أحمد بن حنبل بإسناده، عن عبدالله بن أحمد بن حنبل، قال: حدّث أبي بحديث السقيفة، فقلت: يا أبه! ما تقول في التفضيل؟ قال: في الخلافة أبوبكر وعمر وعثمان، فقلت: فعلي بن أبي طالب؟ قال: بُني، علي ➲

➲ بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد (أُنظر كتاب مناقب أحمد بن حنبل: ص ١٦٣ باب سياق كلامه في علي وأهل البيت عليهم السلام).

وأخرج الحاكم الحسكاني في كتابه شواهد التنزيل باسناده، عن الوليد بن محمد بن زيد بن جذعان، عن عمه، قال: قال ابن عمر: إنّا إذا عدّدنا قلنا: أبوبكر وعمر وعثمان، فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن، فعلي؟ قال ابن عمر: ويحك! علي من أهل بيت لا يقاس بهم، علي مع رسول الله في درجته، إنّ الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ....﴾ (سورة الطور: ٥٢)... (لاحظ شواهد التنزيل ج٢:ص٢٧٠رقم ٢٧٠).

وأخرج القندوزي الحنفي في ينابيع المودة بسنده، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نحن من أهل بيت لا يقاس بنا أحد (ينابيع المودة ج٢:ص١١٧ح ٣٣٤) وأخرجه محب الدين الطبري الشافعي في ذخائر العقبىٰ: ص١٧، وإلى غير ذلك مما ورد في كتب القوم.

ولو أردنا أن نذكر الروايات المؤيدة لطال بنا المقام. ونذكر هنا من باب المثال ما رواه البخاري في صحيحه، عن ابن عمر، عن أبي‌بكر بن أبي قحافة، قال: ارقبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في أهل بيته (صحيح البخاري ج٤:ص٢١٠ كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين وفضلهم).

وقال ابن حجر في شرحه: إنّه يخاطب بذلك الناس ويوصيهم به، والمراقبة المحافظة عليه، يقول: احفظوه فيهم فلا تؤذوهم، ولا تسيئوا إليهم، ثم ذكر حديث المسور بن المخرمة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني.... (فتح الباري ج٧:ص٦٣).

أقول: ما ذكره ابن حجر في معنى المراقبة وذكر المصداق إنّما هو دليل واضح على لزوم المراقبة والمراعاة بالنسبة اليهم أمر في غاية الأهمية، بحيث أنّ الإخلال فيه يلزم الإخلال في العهد الذي يكون لازماً في الديانة، فإنّ ذمة كل مسلم مشغولة بالعهد الذي أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم؛ بأنّ أجر الرسالة محبة أهل بيته، كما قال تعالى: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (سورة الشورىٰ:٢٣) ومعنى ذلك: أن لا يفضّلوا عليهم أحداً إلّا إذا فضّله الله تعالى ورسوله عليهم، وحيث لم توجد آية ولا رواية تدلّ على أفضلية غيرهم منهم، فهم بهذه النصوص وغيرها مقدّمون على غيرهم، إذ لو كان هناك أحد أفضل منهم أو في مرتبتهم من ➲

ومن حيث صدور المخالفات للشريعة من الشيخين التي دلّت على عدم وجود فضل فيهما،(١) ولهاتين الجهتين المعلومتين المعروفتين لدى من له أدنىٰ

الفضل لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالاقتداء بهم وبلزوم محبتهم دونهم، وحاشا لله ورسوله أن يقدّم المفضول على الفاضل من ذلك.

ومن تلك الأحاديث المؤيدة هي الرواية «لا يقاس بأهل البيت أحد» وقد رواه ابن عساكر بسنده، عن حبة العرني، قال: سمعت علياً يقول: نحن النجباء أفراطنا أفراط الأنبياء، وحزبنا حزب الله، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوىٰ بيننا وبين عدونا فليس منا (أُنظر تاريخ مدينة دمشق ج٤٢:ص٤٥٩) رواه أحمد بن حنبل في فضائله ج٢:ص٦٦٤ح١١٣٢، والمتقي الهندي في كنزالعمال ج١١:ص٣٥٦ح٣١٧٢٨، وابن حجر المكي في الصواعق المحرقة: ص٢٣٨ وغيرهم.

ومثله ما رواه محمد بن علي الطبري الشيعي في كتابه «بشارة المصطفى» بسنده عن حبيش بن المعتمر، قال: دخلت على أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقلت: السلام عليك يا أميرالمؤمنين ورحمة الله وبركاته، كيف أمسيت؟ قال: أمسيت محبّاً لمحبّنا ومبغضاً لمبغضنا، وأمسىٰ محبّنا مغتبطاً برحمة من الله كان ينتظرها، وأمسىٰ عدونا يؤسس بنيانه على شفا جرف هار، فكأن ذلك الشفاء قد انهار به في نار جهنم، وكأنّ أبواب الرحمة قد فتحت لأهلها، فهنيئاً لأهل الرحمة رحمتهم، والتعس لأهل النار والنار لهم.

يا حنش! من سره أن يعلم أمحب لنا أم مبغض، فليمتحن قلبه، فإن كان يحب ولياً لنا فليس بمبغض لنا، وإن كان يبغض ولياً لنا فليس بمحب لنا، إنّ الله أخذ الميثاق لمحبنا بمودتنا، وكتب في الذكر اسم مبغضنا، نحن النجباء إفراطنا إفراط الأنبياء (أُنظر بشارة المصطفى: ص٨٤ح١٣). ورواه إبراهيم بن محمد الثقفي في «كتاب الغارات» البيت بأغضابهم فبدل امتثال أوامرهم قاموا بنصب العداء لهم، وبذلك خالفوا أوامر.

(١) لا شك أنّ الباحث لو درس المصادر الإسلامية من التاريخ والسيرة والحديث والتفسير وغير ذلك دراسة علمية موضوعية بقصد التمحيص يجد أنّ الأحداث التي توالت على الأُمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتي سبّبت انحراف الأُمة عن مسيرها الذي رسمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم إنّما هي نتيجة مؤامرة الشيخين أبوبكر وعمر، حيث أنّهما أسّسا البنيان التي

➲ استقرت عليه السنن التي أحدثها أهل السقيفة للسيطرة على أعناق الناس، فإنّهما أسّسا في الدين البدع ليغيرا مسير الأُمة وليحكما عليهم فكان الهدف الرئيس عندهما الوصول إلى القدرة والرئاسة بأيّ وسيلة كان، ولذلك إنّ أول خطوة اتخذاها الشيخان هو إبعاد أهل البيت عليهم السلام عن ساحة الحكم ومنعهم عن كل نشاط ديني وسياسي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يسمحوا لهم المجال في أداء دورهم أصلاً، لئلّا يعرف الناس حقيقة شأنهم ومقامهم، ولذلك هجموا على بيت الزهراء ليعرف الناس أنّهم لا مانع لديهم من إغضاب الزهراء عليها السلام وإيذائها وإيذاء أهل البيت، وإن كان ذلك ينتهي إلى إغضاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأرادوا بذلك أن يبينوا للناس لا مانع لهم من أي جريمة أو عمل للوصول ألى الهدف الذي كانوا يتابعونه وكان الأمر ينتهي إلى مخالفة الله عزوجل الذي أمر المسلمين بمودة أهل البيت عليهم السلام، حيث قال تعالى: ﴿**قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ**﴾ (سورة الشورىٰ:٢٣) ولكن أبا بكر وعمر خالفا صرح الآية الكريمة وقد شملهم قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً**﴾ (سورة الكهف:١٠٣ـ١٠٦).

الظاهر أنّ لفظ الأخسرين من الأخسرين هم لضلالة غيرهم، وفي الروايات والأحاديث الاسلامية المفسّرة لقوله تعالى: ﴿**بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً**﴾ هم أهل البدعة كما في الرواية التي رواها أصبغ بن نباتة عن مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام، فقال الإمام عليه السلام: هم كفرة أهل الكتاب، وقد كانوا ابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (أُنظر كتاب الغارات لإبراهيم بن محمد الثقفي ج١:ص ١٨٠).

وهناك روايات أُخرىٰ في تفسير هذه الآية الكريمة تصرّح بأنّ المراد جاء في هذه الآية الكريمة للدلالة على أنّ الأعمال القبيحة التي يرتكبها هؤلاء سيجزون العذاب الأكبر، لأنّ هؤلاء بالنسبة إلى غيرهم حيث أنّهم يعذّبون بسبب المعصية التي ارتكبوها ويجزون العذاب الآخر؛ لأنّهم صاروا سبباً الذين ينكرون ولاية أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (أُنظر تفسير نور الثقلين ج٣:ص٣١١ـ٣١٢).

➲

➲ فأوّل مخالفة أُحدث في الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي مؤامرة السقيفة، وهذه المؤامرة المشؤومة الظالمة قد غيرت مسيرة الامة الاسلامية إلى مائة وثمانين درجة اذ مؤامرة السقيفة بدلّت السياسة الإلٰهية بالسياسة القريشية التابعة لعصر الجاهلية وهي سياسة العنف التي تحطّم جميع القيم الإسلامية والإنسانية، وعلى أصح التعبير فهي السياسة الجاهلية التي حاربها الإسلام وهي سياسة متابعة الهوىٰ وإباحة كل طغيان وإنحطاط الفكري بحسب طباعة الشريرة التي كانت في عصر الجاهلية فحملوا الناس على روح القبيلية والنخوة الجاهلية السائدة في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام فأعادوا على الناس تلك العريكة، وهناك وثائق تاريخية مقبولة عند جميع المسلمين حيث أخرجها علماء أهل السنّة والجماعة وهي تدلّ بالصراحة على أنّ الشيخين أبابكر وعمر قد خالفا النصوص من الكتاب والسنّة النبوية مخالفة قطعية، وستذكرها إن شاء الله تعالى في محله.

وهنا نشير الى بعض مخالفتهما للشريعة المقدّسة من باب المثال: فقد ذكر المؤرخون أنّ أبا بكر صدر منه الكلام في الصلاة بعد التشهّد وقبل السلام مخاطباً لخالد بن الوليد وهو قوله: «لا تفعلن يا خالد! ما امرتك به حتى أحتج بذلك علماء أهل السنّة» فجماعة منهم ذهبوا إلى أنّه لا يجوز الكلام بعد التشهّد وقبل السلام إلّا لضرورة، كما فعله أبوبكر وجماعة أُخرىٰ ذهبوا إلى عدم الجواز حتى في حال الضرورة، وقالوا في توجيه هذا الحديث. أنّ أبابكر ذكر هذه الجملة بعد السلام لا قبل السلام، وعلى أي حال فإنّ النزاع بين القوم إنّما وقع من أجل هذا الحديث الذي قد أخرجه علماء الإسلام.

وملّخصه: أنّ أبابكر أمر خالد بن الوليد بقتل أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد صلاة الفجر مباشرة، أي بعد أن سلّم مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام صلاة الفجر، ولما قام أبوبكر إلى الصلاة ندم على ذلك وخشي انقلاب الأمر عليه، فقال قبل أن يسلّم: لا تفعلن يا خالد! ما أمرتك... (أُنظر الاستغاثة لأبي القاسم الكوفي المتوفى سنة ٣٥٢هـ ج١:ص١٥).

والباحث عندما ينظر إلى هذا الحديث في كتب الحديث والتأريخ والفقه قد يسبق الى ذهنه أسئلة؛ منها: إنّه لماذا أبوبكر أمر بقتل إنسان مؤمن من غير جرم على أقل التقادير؟

ومنها: لماذا تكلّم في الصلاة وهو يعلم أنّ كلام الآدمي مبطل للصلاة؟! ➲

معرفة بالمنقول وصفنا هذه الكذبة بالشنيعة على من صدرت منه[١].

⊃ ومنها: لماذا أبطل جماعة المسلمين بإبطال صلاته؟!!

ومنها: إنّ الصلاة من الأُمور التوقيفية لماذا زاد فيها؟ أليس كل ذلك بدع ومخالفة للشريعة. وهل يجوز لأحد أن حديث في الدين ما هواه أليس هذه المتابعة للهوىٰ من سنن عصر الجاهلية التي حاربها الإسلام أليس هذا العمل محض الجهل الناشي من حدوث الطغيان ونفثات الشيطان؟

ثمّ إنّ لعمر بن الخطاب أيضاً مواقف كثيرة في هذا المجال، ولو أردنا أن نشير إلى بعض ذلك لطال بنا المقام، ولا حاجة لذكرها بعد ثبوت الروايات والأخبار الواردة في كتب أهل السنّة وهي تدلّ بوضوح على أنّ مخالفات عمر بن الخطاب للشريعة المقدّسة أكثر بمراتب من أبي‌بكر، ولمن أراد الوقوف على ذلك فليرجع إلى كتاب الغدير للعلّامة الأميني ج٦:ص٨٣ـ٣٣٣ فإنّه أخرج بعض تلك الموارد من مصادر علماء أهل السنّة ممن يعتمد على قولهم، وعقد لهذا الموضوع باباً سمّاه «نوادر الأثر في علم عمر» ويكفي للباحث الرجوع إلى هذا الفصل والدراسة في الروايات الواردة في هذا المجال.

(١) لا شك أنّ من شر الرذائل الكذب، فقد ورد في الروايات الكثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم النهي الشديد عنه، ففي حديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: إياكم والكذب! فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار.... (أُنظر صحيح مسلم ج٨:ص٢٩ كتاب البِرّ والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله).

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الروايات الكبيرة في ذم الكذب والكاذبين، ومفادها: أنّ الكذب أقبح الذنوب وأفحشها، منها ما عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: إنّ الله عزّوجلّ جعل للشرّ أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب (الكافي ج٢:ص٣٨ح٣).

وعن الإمام العسكري عليه السلام، قال: جعلت الخبائث كلها في بيتٍ، وجعل مفتاحها الكذب (بحارالأنوار ج٦٩:ص٢٦٣) والى غير ذلك من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام في المقام.

لهذه الأهمية أعطت التعاليم الاسلامية افاضاتها الخاصة لمسألة الصدق والنهي عن الكذب، واعتبرت الكذب مفتاح لكل جريمة، حيث أنّ الكذب يطلق العنان للإنسان للوقوع في ⊂

➲ الذنوب، وأمّا الصدق فإنّه يحدّد الإنسان عن القبائح ويرسله إلى طريق يوصله الى ساحل النجاة، وقد جسّد النبي الأكرم ﷺ هذه الحقيقة في قضية معروفة، وهي ما رواه العامة والخاصة من أنّه جاء اليه ﷺ رجل وقال له: يا رسول الله، إنّي لا أُصلّي وأرتكب القبائح والكذب، فأيّها أترك أوّلاً؟ فقال له رسول الله ﷺ: لا تكذب فتعهّد الرجل للنبي ﷺ أن لا يكذب أبداً، فلمّا خرج الرجل عرضت له نية منكر، فقال في نفسه: إن سألني رسول الله ﷺ غداً عن أمري ماذا أقول له؟ فإن أنكرت كنت كاذباً وإنّي تعهّدت اليه أن لا أكذب بعد، وإن صدقت جرىٰ علَيَّ الحدّ، وهكذا بالنسبة إلى كل فعل قبيح تركه من أجل ترك الكذب حتى تورّع عنها جميعاً.

ومن هنا نعرف صحة قول ما ذكروه، وهو ليس صفة بعد الكفر أقبح من الكذب والنفاق والخيانة؛ لأنّ الصدق لا ينحصر في القول فقط بل الصدق في القول والعمل، ولذلك قال النبي ﷺ: علامة المنافق ثلاثة: إذا حدّث كذّب، وإذا أوعد أخلف، وإذا ائتمن خان (أُنظر صحيح البخاري ج٣:ص١٦٢ كتاب المظالم، باب حديث الإفك).

فالكذب بمعناه الواسع أقبح الرذائل، وانّ بلاءه عظيم عميم يعم ألمجتمع، وأقبح من الكذب التهمة والبهتان لأنّهما بالإضافة إلى إحتواهما لمفاسد الكذب، فإنّهما أيضاً يحملان أضرار الغيبة، فهما أسوأ حالاً من الكذب؛ ولذلك يقول النبي ﷺ من بهت مؤمناً أو مؤمنةً أو قال فيهما ما ليس فيهما إقامه الله عزوجل يوم القيامة على تل من النار (كنز العمّال ج٣:ص٥٦٤ح٧٩٢٤)

وقريب منه في الكافي بسنده، عن ابن أبي يعفور، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: من بهت مؤمناً أو مؤمنة بما ليس فيه بعثه الله في طينة خبال حتى يخرج مما قال، قلت: وما طينة الخبال؟ قال: صديد يخرج من فروج المومسات (الكافي ج ٢: ص ٣٥٧).

ثم إنّ الآثار السلبية المترتبة على الكذب والتهمة والبهتان والافتراء غير خفي على أحد؛ إذ أنّها تؤدي إلى انهيار نظام العدالة الاجتماعية، واختلاط الحق بالباطل، هذا كله بالنسبة الى الكذب والبهتان على غير الله ورسوله، وأمّا الافتراء على الله ورسوله فهو أعظم وأشد ظلماً؛ لأنّ الكذب على الله ورسوله كذب على الدين، وما جاء من قبل رب العالمين وذلك يؤدي ➲

⬅ إلى إضلال الناس، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللهَ لاَيَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ﴾ (سورة النحل: ٢٦٧).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ لاَ يَهْدِيهِمُ ٱللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة النمل: ١٦٦) والى غير ذلك من الآيات التي تدلّ على أنّ الافتراء على الله أعظم ذنب وأعظم ظلم، لا يساويه شيء.

كما أنّ الكذب والافتراء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكون كذلك، فقد أخرج الطبراني بسنده، عن رافع، عن خديج، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تكذبوا علَيَّ، فإنّه ليس الكذب علَيَّ ككذب على أحد (المعجم الكبير ج٤:ص٢٦٨).

فالكذب على رسول الله كالكذب على الله من أعظم الذنوب الذي لا يساويه ذنب؛ لأنّه يوجب إضلال الناس، لأنّ ذلك يؤدي الزيادة أو النقصان في الرسالة المحمدية فلا يجوز لأحد أن يزيد فيها أو ينقص منها.

وفي المقام رواية أخرجها البخاري في صحيحه والمضمون فيها نفس المضمون الوارد في رواية خديج إلّا أنّ فيها زيادة لفظ «متعمّداً» (أنظر البخاري ج٢:ص٨١).

قال الدكتور محمود أبو ريه: انّ زيادة لفظ «متعمّداً» في البخاري لا يمكن صدورها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه من حقّق النظر فيه يجد أن يستبعد صدور ذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار منافاتها للعقل، لأنّ هذا اللفظ بفتح الطريق لمن أراد أن يكذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير مباشر وتعمّد، فيسوّغ لناقل الكذب نقله استناداً بهذا الحديث، وهذا لا يتلاءم مع العقل السليم، حيث كيف يمكن أن ينهىٰ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن نسبة الكذب اليه لما يترتّب عليه من الآثار السلبية التي ترتبط بأيمان الناس ثم يقيّده بالكذب العمدي، فإنّ الكذب له آثاره وإن لم يكن متعمّداً كما هو واضح ظاهر... (أنظر أضواء على السنّة المحمدية: ص٦٠).

ومن هنا قال بعض علماء أهل السنّة بأنّه: لا أعتقد صحة سند الحديث، ولا أقول صحابي عالم يخالف ظاهر القرآن وإن وثقوا رجاله، فربّ راوٍ يوثّق للاغترار بظاهر حاله وهو سيّء ⬅

ورابعها: ما زعمه من عدم تعقّل فاعل يفعل لغير سبب حادث؛ فإنّه من عجائب عقائده، بل قل من أعجبها بل أعجبها من حيث تصريحه في هذه النبذة بعدم معرفته بالله وجهله به، بل وجحده له،(١) وذلك أنّه قد قامت ضرورة الدين

الباطن، وقال: ولو انتقدت الروايات من جهة فحوىٰ متنها، كما تنتقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالتناقض، ونحن نجزم بأنّنا نسينا وأضعنا من حديث نبيناصلى الله عليه وآله وسلم حظّاً عظيماً لعدم كتابة علماء الصحابة كل ما سمعوه، ولكن ليس منه ما هو بيان للقرآن أو من أُمور الدين، فإنّ أُمور الدين معروفة في القرآن ومبنية في السنّة العملية، وما دون من الأحاديث فهو مزيد هداية وبيان (أُنظر الأضواء على السنّة المحمدية: ص٤١٠ نقلا عن السيد رشيد رضا).

وعلى كل تقدير: فإنّ الكذب على الله وعلى رسوله إنّما يؤدي إلى اضمحلال الدين وإضلال الناس، فإنّ هذه السلبية أيضاً جارية في الكذب على الإمام المعصوم وخليفة رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ خليفة رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم لا يؤدي إلّا عن رسول الله، فالكذب عليه كذب على رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم لأنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم قال في حديثٍ متواتر: لا يؤدي عني إلّا أنا وعلي. رواه أحمد بن حنبل في مسنده، عن حبشي بن جنادة، مسند أحمد بن حنبل ج ٤: ص ١٦٥، وابن ماجة في سننه ج ١: ص ٤٤، والترمذي في سننه ج ٥: ص ٣٠٠، والنسائي في فضائل الصحابة: ص ١٥، وابن أبي شيبة في المصنف ج ٧: ص ٤٩٥ وغيرهم، وكذلك بالنسبة إلى أهل بيت النبيصلى الله عليه وآله وسلم الذين جعلهم رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم خلفائه من بعده، فالتكذيب عليهم تكذيب على رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وعليه: كيف يقبل العقل الرواية التي نسبها ابن تيمية إلى مولانا أمير المؤمنينعليه السلام، حيث قال فيها: أنّ الإمامعليه السلام حدّ من فضله على أبي بكر وعمر؟!!!!

(١) وتوضيح المقام: إنّ كل فعل صادر يصدر من عاقل ذي شعور فهو بإرادته واختياره وإلّا سوف يكون عابثاً في فعله وعمله، ومن أجل توضيح المقام نمثّل مثالاً عرفياً لنبيّن للقارئ الكريم حقيقة البحث في المقام:

فنقول: لو فرضنا أن يكون عندنا مخزناً حاوياً لأطنان عدّة من مواد البناء بما فيها من الحجر

➲ والحديد والإسمنت والخشب والزجاج والأسلاك والأنابيب وغيرها من لوازم البناء، ثم وضع نصف ما في المخزن تحت تصرف أحد المهندسين أو المعماريين لينشئ به عمارة ذات طوابق متعددة على أرض منبسطة، ففعله المهندس أو المعمار، ثم بعد فترة من الزمن جاء سيل جارف وجرف النصف الباقي من المواد الموجودة في المخزن وتركها على شكل تل على وجه الأرض، فإنّ العمل الأوّل وهو بناء العمارة بيد المعمار أو المهندس نتج من عمل وإرادة المعمار، وكان عمله هذا سبباً خاصاً وهو بناء العمارة؛ ليستفاد منها لجهة خاصة، وأمّا الثاني أي حصول التل، فقد حدث بالفعل الطبيعي للسيل من دون إرادة وتعقّل وسبب لجهة خاصة، فالعقلاء بمختلف مراتبهم وقومياتهم وعصورهم يحكمون بعقلانية صانع العمارة ومدىٰ إبداعه في البناء من وضعه الأعمدة في أماكنها المناسبة وإكسائها الجدران بالمرمر ونصب الأبواب في مواضعها الخاصة وغير ذلك مما يتبع هندسة خاصة ودقيقة لتحقّق هذا الإمر، وهو البناء من أجل الانتفاع به لغرض خاص.

وأمّا إذا ما نخرج إلى الصحراء كي نشاهد ما صنعه السيل، فغاية ما نراه هو انعدام النظام والترتيب، فالحجر والمرمر نراه قد اندثر تحت الطين والتراب والقضبان الحديدية نراها قد طرحت في جانب والأبواب مرمية هنا وهناك وغير ذلك من معالم الفوضىٰ والتبعثر، وبشكل عام، إنّ المعدوم من هذا الحشد هو الأساس في هذا القسم اذ لا هندسة ولا تدبّر فيه.

والذي نستنتج من هذا المثال هو: أنّ المؤسس للبناء هو فعل الفاعل العاقل الذي له الإرادة والعزيمة نحو إيجاد الفعل ويكون لفعله هذا سبباً وغاية، وأمّا ما تحصّل من السيل ليس فيه سبب خاص ولا غرض ولا...

ومن هنا يتبيّن: أنّ ما ذكره ابن تيمية من عدم مدخلية إرادة الإنسان في أفعاله حيث باعتقاده أنّ الإنسان مجبور في أعماله وأفعاله، ولا اختيار له في ذلك، فإنّ مرجع كلامه الى هذا المثل أي أنّ أعمال الإنسان مثل جريان السيل الذي جاء في المثال المتقدّم.

وأمّا بالنسبة إلى أفعال الله سبحانه، فإنّه ينتقد الشيعة ويقول: لماذا تقولون: أن السبب لأفعال الله قديم مع أنّ الفعل يكون حادثاً، ولماذا أثبتم أنّ أفعال الله تعالى معللة بالأغراض والغايات على فرض أنّ السبب يكون حادثاً؟!!!

➲

على أنّ الله موجود قبل كل شيء بنفسه وهو سبحانه الموجد للعالم بمشيئته وقدرته، فإن فرض أنّه يفعل لسبب حادث فذلك السبب الحادث يفتقر وجوده الى سبب حادث، فإن عاد الى الحادث السابق لزم الدور وهو باطل من دون ريب[١]

➲ وفي الجواب سوف يتضح له ولجميع من يسأل الشيعة هذا السؤال: بأنّ أفعال الله تبارك وتعالى حادثة وسببها علمه القديم الأزلي الذي يعلم جميع الأشياء فلايخفى عليه خافية كما أنّ أفعاله تعالى معللة بالأغراض والمصالح مطلقاً؟ أي سواء كانت المصالح تعود الى الناس أو الى نظام الكون؛ لوضوح أنّ الله تعالى غني بالذات، فلا معنى للقول بأنّ المصالح تعود اليه، وبعد ثبوت أنّ المصالح تعود إلى المخلوقين، فإنّ السبب لأفعاله تعالى هو علمه الأزالي بالأشياء، فعند ما يرىٰ المصلحة لإيجاد فعل يفعله لعلمه الأزلي بوجود المصلحة فيه.

(١) وتوضيح المقام: أنّه لا شك أنّ الصفات التي تُنسب إلى الله تبارك وتعالى إمّا أن تكون صفات لذاته المقدّسة كالحياة والعلم والقدرة و...

وإمّا أن تكون صفات لأفعاله تعالى كالخالقية والرازقية والاحياء والأمانة و... .

فمن صفاته الفعلية هي إرادته تعالى في خلق الأشياء؛ فهي عين حدوثها، كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يٓس: ٨٢) فإنّ خلق كلّ شيء مرتبط بإرادته وإشارته ومشيّته، فالصفات الفعلية هي تكون متعلّقة بالمشيئة الإلٰهية والمشيئة الألٰهية متعلّقة بعلمه الذي لا حد له ولا نهاية.

وبعبارة أُخرى: إنّ السبب والعلة للأفعال الإلٰهية هي الإرادة الإلٰهية ومشيئته، وإنّ سبب مشيئته علمه الأزلي بالأشياء.

وبعد وضوح هذه المقدّمة يعرف بطلان قول ابن تيمية في المقام، حث انّه يقول: إذا قلنا إنّ أفعال الله تعالى يصدر منه لسبب وعلة حادثة لابد أن نقول أنّ هذه العلة تستلزم علة أُخرىٰ لتحقّقها لأنّها أمر حادث يحتاج الى العلة.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّه لو قلنا أنّ الفعل الالٰهي سببه وعلته مشيئته وإرادته فإنّ هذه المشيئة والإرادة تستلزم علة وسبباً لتحقّقها، وإذا قلنا أنّ هذه الإرادة والمشيئة متوقّفة على فعله سبحانه وتعالى يلزم الدور الباطل؛ لأنّه عندئذٍ يلزم أنّ فعله تعالى متوقّف على إرادته وإرادته متوقّفة ➲

ولو لم يعد، فإمّا أن ينتهي الى سبب قديم وهو ما قلناه فيما مضى من علمه بالمصلحة المترتبة على الفعل الباعث له على فعله في زمانه ومكانه وكيفياته وخصوصياته التي علم مدخليتها في ترتّب المصلحة على وجوده متّصفاً بها[١].

على فعله، وهذا دور صريح باطل، هذا من ناحية ومن ناحية أُخرىٰ: إذا قلت بأنّ إرادته تستلزم علة أُخرىٰ غير فعله، فإذا كانت هذه العلة الحادثة علة لإرادته فهي أيضاً علة حادثة وتحتاج في حدوثها إلى علّة أُخرىٰ، وهكذا تتسلسل العلل الى ما لا نهاية له.

ولكن ما ذكره ابن تيمية واضح البطلان؛ لأنّه كما تقدّم أولاً، لأنّ الشيعة الاثنى عشرية يقولون: بأنّ أفعاله تعالى متوقّفة على مشيئته، والمشيئة متوقّفة على علمه الأزلي، كما بيناه وسيتضّح هذه المسألة في محله إن شاء الله تعالى.

وثانياً: إنّ أفعاله تعالى ليست كأفعالنا التي تصدر من علّة حادثة كالعلم والقدرة ونحوهما الحادثتان في الإنسان، فإنّ أفعاله تعالى معللة بالعلّة الأزلية وهي علمه سبحانه وتعالى، كما في محله إن شاء الله تعالى، وعليه فلا يتوجّه إشكال إلى الشيعة أبداً.

(١) فإنّ العلم الإلٰهي بالموجودات والحوادث أزلي أبدي، أي أن علمه عين ذاته وذاته عين علمه، فهو عالم قبل إيجاد الأشياء وقبل حدوث الحوادث.

ومن أجل تقريب المطلب إلى الذهن نقول: إنّ علمه تعالى بخلقه يشبه علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم، ثم يتحوّل التصميم إلى بناء عملي، والمهندس يقول حين ينفّذ تصميمه على الأرض: أُريد أن أرىٰ عملياً ما كان في علمي نظرياً.

ومن الواضح البديهي: أنّ علم الله سبحانه يختلف عن علم البشر اختلافاً كبيراً، إذ أنّ الله تعالى علمه عين ذاته أزلي، بخلاف الإنسان فإنّ علمه حادث يعرض عليه وصفة يتصف به عند تحققه في الخارج ذكرناه من المثال هاهنا كان من باب التقريب الى الذهن، وإلّا أين التراب ورب الأرباب! فعلمه تعالى بالحوادث أزلي، حيث أنّه تعالى يعلم الأسباب والمسبّبات والحوادث أزلاً، وإليه أشار تعالى في قوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّماواتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران: ٢٩).

وإمّا أن يتسلسل الى غير النهاية وهو باطل من دون ريب،[١] فإنّ مرجعه الى حدوث الحادثات بدون سبب محدث لها وذلك غير معقول[٢].

➲ وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لاَيَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الأنعام: ٥٩) فإنّ جميع مفاتح الغيب وخزائنه بيد الله تبارك وتعالى؛ لأنّ وجوده اللامتناهي عين علمه حاضر وناظر، فلا شيء ولا حادث خارج عن علمه، فلاحظ.

(١) فإنّه بناءً على دعوىٰ ابن تيمية في باب أفعال الله تعالى: أنّ كل حادث يفتقر وجوده إلى سبب حادث، وهذا السبب الحادث أيضاً يحتاج إلى سببٍ آخر، وهكذا كل سبب وكل إرادة من الله سبحانه يحتاج إلى إرادة أُخرىٰ إلى ما لا نهاية فيلزم التسلسل.

والجواب عنه واضح ظاهر؛ إذ أنّ الشيعة الإمامية يعتقدون بأنّ الإرادة الإلٰهية والمشيئة الرحمانية صفة من صفاته الفعلية، وخارجة عن ذاته المقدسة ومتعلقة إلى سبب قديم وهو علمه تبارك وتعالى بالإشياء والحوادث، فإنّ علمه من صفاته الذاتية وأزلية، فلا معنى للحدوث فيه أبداً، فلاحظ.

(٢) وذلك لأنّ كل حادث مسبوق بالعدم ويحتاج في حدوثه إلى العلة. ومن الواضح أنّ الشيء الحادث لا يكون خالقاً لنفسه، فلابد أن يكون علة سابقة عليه لحدوثه.

وبعبارة أُخرى: أنّه إذا احتاج موجود إلى موجود آخر، فإنّه في اصطلاح الفلسفة يعبّر عنه بالمعلول ويعبّر عن الموجود الآخر بـ«العلة»، ولكن العلة لا تكون مستغنية بصورة مطلقة عن علة أُخرىٰ بل هي أيضاً محتاجة لوجوده إلى علة أُخرىٰ، ومعلولة لموجود آخر؛ لأنّ كل حادث مسبوق بالعدم ويحتاج في حدوثه ووجوده إلى علة أُخرىٰ.

ثم إنّ سلسلة العلل لابد أن تنتهي إلى موجود لا يكون في نفسه معلولاً ولا حادثاً وإلّا يستلزم تسلسل العلل الى ما لا نهاية لها وهو محال؛ لأنّ وجود المعلول محتاج الى العلة ومشروط بوجودها ووجود كل ممكن يكون مشروطاً بتحقّق الموجود الآخر وإلّا سوف لن يوجد وجود أبداً.

إذن، تحقّق الموجودات الخارجية دليل على وجود علة في تحقّقه. والعلة الحادثة لابد من وجودها إلى أن ينتهي الأمر إلى الموجود الواجب الذي لا يحتاج في وجوده إلى حادث، فلاحظ.

فلزم أن تنتهي الى سبب قديم هو الباعث للفاعل على فعلها،(١) فالقائل بعدم تعقّل فاعل يفعل لغير سبب حادث، جاحد وناف لوجود الرب الموجد للعالم من العدم؛ لما نبّهنا عليه من محالية الدور والتسلسل،(٢) فالقائل بقول مبني على

---

(١) فإنّ علمه تعالى بمصالح الأُمور ومفاسدها قديم أزلي، ومعنى كونه أزلياً أي قائم بنفسه، فلا يتقيد بقيد ولا يجوز عليه التغيّر ولا الزوال ولا يحتاج إلى علة، فإنّ علمه تعالى عين ذاته المقدسة أزلي قائم بنفسه، وكل أفعاله سبحانه تنتهي إلى هذا السبب القديم وعليه: فلا يبقى محذور في البين؛ لأنّ ما ذكره ابن تيمية من أنّ القول بلزوم وجود العلة لكل معلول يوجب القول بحدوثية صفات الباري تعالىٰ، فما ذكره مردود لأنّ سلسلة العلل لابد أن تنتهي إلى وجود واجب قديم أزلي، وفي المقام أنّ الأمر يكون كذلك فإنّ أفعاله تعالى ناشئة من علمه الأزلي، وعلمه تعالى أزلي كذاته المقدسة كما تقدّم بيانه.

(٢) إذ من الواضح أنّ القول بلزوم العلة والسبب لكل شيء في الخارج عموماً وإطلاقاً يلزم شمول الحكم للباري تعالىٰ لأنّ الباري تعالىٰ موجود، فإذا قلنا بعموم القاعدة وإطلاقها حتى بالنسبة إليه يلزم منه الجحود وإنكار فاعليته تعالى في خلقه؛ لأنّه بناءً على هذا العموم والإطلاق يلزم القول بأنّ كل معلول يحتاج إلى العلة؛ فيلزم منه الإشكال بالدور والتسلسل الذي تقدّم ذكرهما.

فابن تيمية إمّا تجاهل بالنسبة إلى هذا الأمر؛ لأنّ انتهاء سلسلة العلل إلى واجب الوجود أمر واضح عقلاً، وإمّا أنّه جاهل بالنسبة إلى هذا الامر الضروري، وإذا كان جاهلاً كان بإمكانه أن يراجع كتب الشيعة ويقرأ ما ذكروه في باب صفات الله، فإنّ الشيعة الإمامية يصرّحون بأنّ سلسلة العلل تنتهي إلى واجب الوجود، حيث أنّ كل ممكن له سبب وعلة لوجوده الى أن ينتهي الأمر إلى واجب الوجود، فإنّه ليس له علة فهو أصل لكل وجود ومنتهىٰ كل وجود وصانع وخالق لكل شيء ممكن الوجود.

وأمّا وجود العلل والأسباب في الممكنات انّما هو لوجود حكمته في الخلق.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ فعله تعالى إيجاد كل شيء بمقتضى الحكمة، أي أنّ فعله مطابق لعلمه الأزلي، فيخلق كل شيء في وقته بتقديره تبارك وتعالى وتدبيره، وبإرادته الحكيمة، وعلة هذه ⬅

أحدهما قائل بالمحال وناف لوجود الرب(١).

فانظر الى معنى قول السنّي، فهل ترى عجب منه فإنّه قد بنى على نفي ضروري الوجود وعلى المحال من الدور أو التسلسل، وببيان جليّ يتساوى في فهمه العالم والعامي، وهو أنّه من المعلوم عند المسلمين وغيرهم من الملّيين أنّ الله سبحانه كان قبل كل شيء ثم خلق العالم فلم يكن قبل خلقه العالم شيئاً حادثاً حتى يصير علة لخلقه العالم،(٢) فالعالم يقيناً خلق بدون علة حادثة فيلزم كون

⇦ الإرادة علمه الأزلي سبحانه وتعالى، فعلمه بمصلحة وجود كل شيء سبب لإيجاده، وأما قوله تعالى: ﴿الا وله الخلق والأمر﴾ (سورة الأعراف:١٥٧) فمعناه أنّ له إيجاد الأشياء، فلا يشاركه أحد في ذلك وله الأمر وبعبارة أوضح: أنّ الله تبارك وتعالى خالق لكلّ شيء، وأنّ خلقه لكله شيء يكون بتقدير قدره له وبتدبير دبره له، فهو تبارك وتعالى يخلق الخلق بتقديره وبتدبيره، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (سورة الأعلىٰ: ٢ و٣). وهذا أمر مسلّم عند الشيعة الاثنى عشرية ولا يتوجّه اليه أي محذور، بعد توضيح ما تقدّم من معنىٰ ايجاد الأشياء وما يقتضيه مقام الربوبية. فلاحظ.

(١) لأنّه لو قلنا: أنّ الأفعال الألٰهية لا تكون معلولة لعلة أزلية يلزم أن تكون العلة في أفعاله سبحانه حادثة، وإذا كانت العلة حادثة فيرد عليه إشكال الدور والتسلسل؛ لأنّ الحادث يحتاج الى العلة والعلة أيضاً أمر حادث تحتاج إلى علة أُخرىٰ وهكذا إلى مالا نهاية، وكذلك تكون علة الحادثة متوقّفة على حدوث الشيء وحدوث الشيء متوقّف على العلة، وهذا دور صريح.

(٢) لا شك أنّ العلة هي منشأ صدور المعلول بذاتها وبحقيقتها لا بوصفها العلية، فإنّ خلق العالم معلول لعلة تستحق تلك العلة الوجود قبل المعلول، فإذا كانت العلة موجوداً فسوف يأتي هذا السؤال أنّه: كيف تحقّق المعلول؟

من الواضح أنّ الخالق لكل شيء هو القادر عليه، والقادر لكل شيء هو المحيط به ومعنى ذلك أنّ له القدرة علىٰ جميع الأشياء بجميع جهاتها والمحيط بالشيء من جميع الجهات هو. العالم والقادر به لأنّ الإحاطة من كل جهة تستلزم العلم بها من جميع الجهات، فالله تبارك ⇦

العلة لخلقه قديمة وهو المطلوب،[١] فعلم فساد ما زعمه السنّي من عدم تعقّل فاعل يفعل لغير سبب حادث؛ فإنّه على ما بيّناه يلزم على زعمه عدم وجود شيء من العالم لعدم وجود سبب حادث قبله البتة[٢].

وتعالى عالم بجميع الأشياء أزلاً، أي قبل أن يخلقها فهو عالم بكل شيء من جميع الجهات قبل إيجاده وقبل خلقه، وهذا الأمر يكون جارياً بالنسبة إلى جميع مخلوقاته. فالأمر فيها يرجع إلى علمه تبارك وتعالى بالأشياء، واذا كان الأمر كذلك لا معنى لإشكال ابن تيمية على الشيعة بأنّ كل حادث يحتاج إلى العلة، وكل علة إمّا أن تتوقّف على فعل الله أو على علة أُخرىٰ بحيث يتلزم من ذلك الدور أو التسلسل، فإنّ هذه المقالة مرجعها إلى إنكار إحاطة رب العالمين علماً وقدرةً بالأشياء قبل الخلقة، فكل إنسان مؤمن بالله لابد له أن يعتقد بإحاطة رب العالمين علماً أزلياً بجميع الأشياء قبل الخلق وإلّا سوف يقع في الإشكال الذي لا مفر له فلاحظ.

(١) من الواضح لدى الخبير أنّه اذا قلنا: أنّ علة أفعال الله تبارك وتعالى علمه الأزلي بمصالح الأُمور، فلابد أن نقول: أنّ العلة قديمة وليست بحادثة لأنّ علمه تبارك وتعالى أزلي من صفات ذاته المقدسة الثابتة لذاته أزلاً. وعلى هذا: فإنّ نظام الخلقة وتدبير العالم كلها تكون معلولة لعلة أزلية وإن كان الفعل حادثاً وهذا معنىٰ قوله تعالى: ﴿الله علىٰ كل شيء قدير﴾ (سورة البقرة:٢٠) إذ الآية الكريمة تؤكد مفهوم قدرة الله سبحانه وعلمه وحاكميته في السماوات والأرض أي قدرة كل شيء بيد الله تعالى، ومعنى ذلك: أنّ الله تبارك وتعالى محيط بكل شيء وقادر على كل شيء، ولكن أفعاله لا تخرج عن دائرة الحكمة والمصلحة، فإنّ سنته وعادته جرت على أن يوجد الأشياء بأسبابها وفق الحكمة. والمصلحة وعلى هذا: فلا إشكال في البين؛ لأنّ العلة في أفعاله تعالى قديم فلا دور ولا تسلسل ولا إشكال آخر. فلاحظ.

(٢) وبعبارة أوضح: أنّه إذا كان العالم حادث كما هو كذلك، فلابد له من علة والعلة إمّا أن تكون قديماً أو حادثاً، فإذا كانت العلة حادثة فتحتاج أيضاً إلى علة أُخرىٰ، وهكذا الأمر إلى أن تنتهي الأمر إلى العلة القديمة الأزلية وإلا سوف يلزم التسلسل.

وخامسها: ما زعمه من دعوى أنّ وجود فاعل يفعل بغير سبب حادث أشد امتناعاً في العقل من وجود فاعل يفعل لغير حكمة وهو غير عابث، فإنّه دعوى منه مثل سابقتها لم يأت عليها ببيّنة وهو في محل المناظرة فهي مردودة عليه،[١] بل

➲ انّ قلت: لو كان هناك علة غير علة قديمة أزلية للزم أن يكون له علة أُخرى؛ إذ كل حادث مسبوق بالعدم ويحتاج في وجوده إلى العلة وعليه إذا قلت: أنّ هذا العالم إنّما تحّقق بإرادة الله تبارك وتعالى، وأنّ خلقه كان أمراً حادثاً، فيلزم أن يكون لكل حادث علة، فإذا كان لفعل لله تعالى علة لوجود العالم فيتوجّه هذا السؤال:

انّه ما هي العلة لحدوث العالم هل هناك علة حادثة أو أنها علة أزلية؟

إذا قلت: بل هي علة حادثة فالإشكال جارٍ كما تقدّم.

وأمّا إذا قلت: أنّ هناك علة أزلية فلا يبقىٰ إشكال في البين؛ لأنّ مفهومه أنّ الله تبارك وتعالى أزلي أبدي لا يحتاج إلى خلقه ولا يفتقر إلى شيء، وإنّما خلقه إفاضة منه للوجود، فكلّ لحظة هو خالق ويفيض منه الوجود ولا يشاركه في هذا الفيض أحد، فهو الفيّاض على الإطلاق وعليه: إذا أراد أن يخلق خلقاً فهو تبارك وتعالى يكون محيطاً بخلقه علماً وقدرةً لأنّه تبارك وتعالى يريد أن يفيض له الوجود، فعلمه بالأشياء قبل حدوثها صار سبباً لتحقّق تلك الأشياء كما تبيّن من خلال الكلمات الماضية، وإنّ علمه الأزلي بالأشياء قبل وجودها صار علة لإرادته تبارك وتعالى: ﴿**إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ فعلّة تحقّق الأشياء والأُمور الحادثة التي تصح نسبة فعلها إلى الله تبارك وتعالى إنّما تكون ناشئاً من علمه الأزلي بمصلحة ذلك ووجوده، فالعلة الحادثة تكون متوقّفة على العلة القديمة، وعليه فلا يلزم منه الدور ولا التسلسل. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ الفاعل الحكيم لا يصدر منه الفعل إلّا علىٰ وجه الحسن والفعل الحسن هو الفعل الذي فيه الغاية والفائدة العقلائية بحيث يستحسنه جميع العقلاء و لولا ذلك للزم منه نقض الحكمة؛ لأنّ الحكمة هي معرفة الأشياء على وجه الأكمل، فالذي يعرف الأشياء حق معرفته ويعلم الصحيح من غيره لا يفعل إلّا الفعل الكامل من جهات الحسن والخالي عن جهات القبح فالحكيم هو من يضع الأشياء في موضعها بحيث يحكم العقل بحسن فعله وقبح ما ➲

⬅ تركه، ومن له هذه الصفات لا يصدر منه الفعل إلّا على مقتضىٰ معرفته ومقتضى حكمته، فلا يصدر منه الفعل المخالف للغرض العقلائي، لأنّ العقلاء يذمّونه. اذ يقولون له: إنّك كنت تعلم وتعرف الشيء حقّ معرفته، وكنت حكيماً تعرف الحسن الأفعال وقبحها، كيف لم تفعل على مقتضى علمك وحكمتك؟

فإن المصلحة تقضي أن يكون علمك علة لحسن فعلك لأنّ العقل مستقل في الحكم بحسن الأشياء وقبحها، فكان بإمكانك أن تفعل على الوجه الحسن الذي كنت تعلمه وتقدّر عليه، ولذلك قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِين كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (سورة صٓ: ٢٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٦).

وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ (سورة الأحقاف: ٣).

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١١٥).

وإلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنّ الله تبارك وتعالى إنّما تكون أفعاله صادرة منه لغرض صحيح عقلائي.

وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلٌ مُسَمّىً عِندَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٢).

والمقصود من هذا الكلام تقرير أمر المعاد؛ إذ لمّا ثبت أن تخليق بدن الإنسان إنّما حصل؛ لأنّ الفاعل الحكيم والمقدّر الرحيم رتّب حلقة هذه الأعضاء على هذه الصفات المختلفة بحكمته وقدرته، وتلك القدرة والحكمة باقية بعد موت الحيوان، فيكون قادراً على إعادتها وإعادة الحياة... (تفسير الفخر الرازي ج١٢:ص١٥٣).

أقول: لا شك أنّ من يقرّ بأنّ الله تبارك وتعالى حكيم في قضية المعاد لابد له أن يعترف أيضاً بحكمته في جميع خلقه أيضاً إذ الحكيم الذي لا يفوته المصلحة في أفعاله هو الحكيم علىٰ الإطلاق فلابد أن يكون حكيماً في جميع أفعاله؛ ولا شكّ أنّ الحكمة على الاطلاق تقتضي لزوم مراعاة الحكمة في جميع أفعاله وعدم إهماله بالنسبة إلى كل أفعاله بصورة مطلقة، لأنّ ⬅

هي من أعجب عجائبه لما عرفته من لزوم المحال له على قوله بعدم تعقّل فاعل يفعل لغير سبب حادث ولزوم نفيه لوجود الرب العظيم المستحيل عدمه في

➲ الحكيم العالم بمصلحة الأشياء يعلم مصلحة كلّ شيء، إذ لو لم يعمل على وفق المصلحة والغرض العقلائي يكون عابثاً بفعله، ويكون مغرياً بالجهل والعبث وهو محال بالنسبة إلى الله سبحانه بالعقل والنص والإجماع.

أمّا العقل، فلأنّ العبث، والسفه صفة نقص والنقص على الله محال.

وأما النص، فقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١١٥).

وأما الإجماع، فقد أجمع المسلمون قاطبة على أنّ الله تعالى ليس بعابث، فثبت أنّه لابد له من المصلحة في أفعاله، وقد اقتضت المصلحة أن تكون أفعاله لأغراض وغايات معقولة وحسنة ومنسجمة مع الحكمة الربّانية، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يصرّح ابن تيمية ويقول: أنّ أفعاله تعالى لاتكون لغرض فبناءً على زعمه أنّ أفعاله تعالى لاتكون عن حكمة ومصلحة.

وقد اتضح جوابه مما تقدّم من أنّ علة حدوث أفعاله تعالى إنّما هي علمه الأزلي بالمصالح والحِكَم، وأنّه تعالى يفعل لغرض وغاية لا عبث في أفعاله.

وتوضيح المقام: أنّ الفاعل الحكيم انّما يصدر منه الفعل وغاية مطلوبة عند العقل وعاقبة محمودة وإلّا سوف يكون فعله مورد ذم العقلاء، فإنّ العقلاء إنّما يتوقّعون من الحكيم صدور الفعل الموافق للحكمة والمصلحة وإلّا فانّ الفعل الصادر منه على غير مقتضىٰ الحكمة يكون فعلاً سفهياً أو عبثياً ومخالفاً للعقل.

هذا بالنسبة إلى الحكيم الذي يصدق عليه عنوان الحكيم، وأمّا بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى الذي هو الحكيم على الإطلاق فأمره أهم عند العقل من غيره، إذ لابد أن يكون فعله سبحانه على نحو الأتم الأكمل، حيث أنّه تبارك وتعالى محيط بكل شيً أزلاً، فالمحيط بجميع الأشياء أزلاً يكون محيطاً بجميع المصالح والمفاسد، وإذا كان المطّلع بالمصلحة يفعل على غير وجه المصلحة فهو عابث والله تعالى منزه عن العبثية فما بال ابن تيمية وما يقول بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى أنّ أفعاله ليست فيها الغاية؟!!!

العقول، فهو قد لزمه من قوله: هاتان البليّتان ولم يكتفه ذلك،[١] بل زعم أنّ فعل الفاعل لغير سبب حادث أشّد امتناعاً في العقل من فعل الفاعل لغير حكمة،[٢] فإنّه

---

(١) فإنّ من البديهي أنّ القول بالدور والتسلسل في المقام على ما زعمه ابن تيمية يلزم إنكار إحاطة رب العالمين بمخلوقاته من جهة العلم ومن جهة القدرة؛ إذ مرجع كلامه إلى أنّ الله تعالى لم يصدر منه الفعل على وجه الحكمة والمصلحة. إذ بناءً على زعمه أنّ القول بالحكمة في أفعال ربّ العالمين يلزم تقييد أفعاله بالحكمة والمصلحة، وفي النتيجة يلزم المحدودية في أفعاله سبحانه وتعالى.

والجواب عنه: أوهلاً بالنقض، فإنّ تقييد أفعاله بالحكمة منتزعة من صفاته الكمالية، فإذا قلنا: أنّ الحكمة توجب المحدودية فالقول بالكمال أيضاً يوجب المحدودية.

وثانياً بالحل، فإنّ أفعاله تعالى لاتكون محدودة بشيء، وإنّما يكون تدبيره في الخلق وتصرّفه في الأُمور مستحكمة ومتقنة.

وبعبارة أُخرى: أنّ أفعاله تعالى لاتكون مقيّدة بشيء، فإنّه يفعل ما يشاء إلاّ أنّ تدبيره في الأُمور مقيّدة بالحكمة والمصلحة. وعليه فالمحذورين المذكورين إنّما يتوجّه هنا إذا أنكرنا القدرة والعلم عن الباري تعالىٰ ولا شك أنّ إنكاره لهذين الصفتين من الله عزوجل أسوأ حالاً من إشكال الدور والتسلسل، فإنّ القول بأنّه تعالى يرتكب فعل القبيح وأفعاله ليس فيها المصلحة ولا تكون لغرض صحيح محذوره أشد مما زعمه من الإشكال المتقدّم.

وبعبارة أُخرىٰ: أن الشيعة الامامية يعتقدون بأنّ الله تبارك وتعالى لا يفعل فعلاً قبيحاً عند العقل، وإنّما تكون أفعاله عند العقل حسناً ومبنياً على الحكمة والمصلحة.

وامّا ابن تيمية، فإنّه يدّعي لا وجود لخالق يفعل فعلاً على أساس حكم العقل؛ لأنّه يلزم من ذلك المحال، فإنّه على حدّ زعمه أنّ مرجع قوله إلى عدم الوجود فيكون ادّعائه أعجب عند العقلاء، وهو كلام لا يمكن أن يؤمن به الإنسان بل ولا أن ينفوه به إذ يرجع إلى القول بعدم كون أفعاله تعالىٰ مبنيةً على العقل ـ والعياذ بالله ـ فليعرف العالم ابن تيمية ومعتقداته.

(٢) إذ من الواضح أنّ العاقل لو صدر منه الفعل يكون فعله مبنياً على حكم العقل ومقيداً بحكمه الحسن والقبح، أي أنّ فعل العاقل يجعل في ميزان العقل والعقل يلزم عليه أن يكون له غرض صحيح وهدف عقلائي وعند ذلك يحكم بحسن الفعل أو قبحه، هذا في الفاعل

لو فرض صدور فعل من فاعل عاقل لغير حكمة فإنّما يترتّب عليه ويلزمه العبث لا غير، فالفعل يصدر لكن من دون ثمرة تترتب على وجوده،[١] فأين ما هذه حاله من الذي يستحيل صدوره حسبما عرفت من محالية صدور الفعل من الله سبحانه بغير سبب قديم،[٢] فأين ما هو محال في العقل من حيث النظر الى نفسه

العاقل، وأمّا الحكيم على الإطلاق فإنّ أمره أوضح عند العقل والعقلاء لأنّ الحكيم علىٰ الإطلاق فعله يكون لمصلحة وتركه يكون لوجود مفسدة، ولذلك أنّ الشيعة الإمامية قد أثبتوا بالأدلة الوافية بأنّ أفعال الله تعالى معللة بالمصالح والحِكَم؛ وأنّه سبحانه يفعل لغرض وغاية ومصلحة وحكمة لا لعبث كما تزعمه الأشاعرة وابن تيمية، فإنّهم ذهبوا إلى أنّ أفعال الله تعالى لم تصدر منه لغرض حكيم، وإنّما تصدر منه بإرادته على نحو الإطلاق، فيقولون: بأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (سورة الحج:٨١) معناه: أنّ الله تعالى هو المالك في خلقه، فيفعل ما يشاء في حقهم وان كان فعله مخالفاً لحكم العقل، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً ولو أدخلهم ناراً لم يكن جوراً، إذ لا يتصوّر منه ظلم ولا ينسب إليه جور، فيقولون بأنّه يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء بلا مصلحة ولا حكمة، بل لأنّه مالك يهب لمن يشاء بلا رعاية وجه حسن عند الفعل والمهم أنّهم أسقطوا العقل عن الاعتبار في الحكم والإدراك فلاحظ.

(١) وبعبارة أوضح ـ بناءً على ما ذكره ابن تيمية ـ تصح هذه النسبة إلى الله تعالى والقول بأنّه يكون عابثاً في أفعاله ـ والعياذ بالله ـ كما يزعم صحة نسبة صدور الفعل منه بلا ثمرة ولا فائدة، ومعنى ذلك أنّ أفعاله تعالى لا تكون مبنيةً على وجه الحسن والقبيح، بل بناءً على زعمه أنّه يصح صدور الفعل منه تعالى حتىٰ على خلاف العقل والحكمة لا أنّه لم يعمل بحكم العقل، والفرق بينهما واضح، لأنّه قد يكون الشخص لا يعمل بحكم العقل سواء طابق فعله حكم العقل أم لا، فهذا غير الذي يكون فعله مخالفاً لحكم العقل، فإنّ دعوىٰ ابن تيمية ـ كما تقدّم ـ صحة فعله سبحانه على خلاف مقتضىٰ حكم عقل، وهذا من الغرائب عند من له ادنىٰ معرفة بالأدلة العقلية والنقلية في صفات الله تبارك وتعالى. فلاحظ.

(٢) قد تقدّم البيان حول علة أفعال الله سبحانه وتعالى، وذكر المصنف؆ أنّ الشيعة الإمامية

مما هو ممكن بالنظر الى نفسه لكنه لن يصدر عن الحكيم، وهل عاقل يجعل الثاني أشد امتناعاً من سابقه بل هل يساوي بينهما من له أدنى شعور[١].

وسادسها: ما زعمه من كون المعقول من الفاعل أنّه يفعل لغاية تعود اليه، وأمّا فاعل يفعل لغاية تعود الى غيره فهو غير معقول، فإنّه من أعجب عجائبه[٢]

تعتقد أن الأفعال الإلٰهية تصدر منه بسبب علمه الأزلي بمصالح الأُمور، وإن لم ينكشف لدينا وجه المصلحة الباعثة له نحو الفعل فإنّ صفاته الكمالية الجلالية ترشدنا بأنّ أفعاله لاتكون جزافية ولاتكون عابثة بل إنّها تصدر للغايات الحكيمة، لأنّ أفعاله سبحانه وتعالى تصدر منه بالعلم الأزلي، وأنّ علمه عين ذاته، قديم أزلي. وعليه: فلا يبقى محذور في البين لأنّ حدوث الأفعال منه تعالى متوقّف على هذه الصفة القديمة الأزلية، فلا يلزم منه الدور ولا التسلسل كما تقدم.

(١) فإنّ كل عاقل يعلم بأنّ الله تبارك وتعالى حكيم، وأنّ أفعاله سبحانه لا تنفصل عن الحكمة إذ الحكيم لو لم يصدر منه الفعل على وجه الحكمة والمصلحة يكون نقصاً في عمله، وإنّ صفات الله الكمالية والجلالية منزّهة عن النقص والسفه والعبث، حيث تبيّن من خلال المباحث السابقة أنّ الحكيم لو لم يكن فعله عن حكمة يكون عابثاً والعبث محال على الله. وسيتّضح هذا البحث من خلال المباحث الآتية ـ إن شاء الله تعالى ـ أكثر وضوحاً.

(٢) لا شك أنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق العالم سدىٰ، بل إنّما يكون خلقه لغاية محمودة وهدف مطلوب. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِين كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (سورة صٓ: ٢٧) وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٧) وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ (سورة المؤمنون: ١١٦) فخلقه تعالى إنّما يكون لغاية مقصودة وحكمة متحققة موجودة ويتأكد الأمر حينما يتفكر الإنسان في نظم هذا العالم الدقيق فيشعر بأنّ هذا العالم لم يخلق عبثاً بل خلق لغاية وحكمة متحققة للناظرين فأعطىٰ تبارك وتعالىٰ الوجود لهذا العالم مع ما فيه النظم الدقيق مع استغنائه عنه وقد نصّ علىٰ هذه الغاية المحمودة في خلق الإنسان بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات:٥٦) والعبادة بمعناها

أنسى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢)

➲ الشمولي التي هي التسليم لأمر الله عزوجل منهج لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة وهذه التربية تهب للإنسان التكامل في الأبعاد المختلفة فالعبودية هي الغرض الإلهي من خلق الإنسان والاستثناء من النفي في الآية الكريمة لا ريب في ظهوره في أنّ للخلقة غرضاً وأنّ الغرض العبادة أي كون الإنس والجنّ عابدين لله لا كونه تبارك وتعالى معبوداً فإنّه تبارك وتعالى غني عنهم لأنّ بالعبادة يصل الإنسان إلى الكمال والكمال نفع له فإنّ الإنسان يحتاج إلى الكمال ومن يرشده إليه لا الخالق الحكيم، وهذا هو الغاية التي تعود نفعها إلى الإنسان لا إلى الله، فالله تعالى غني عن عباده، فلا يصبه شيء بسبب طاعة الناس ولا تنقص من كبريائه شيء بسبب عصيان البشر.

وخلاصة الكلام: إنّ ما زعمه ابن تيمية من أنّ المعقول أنّ الفاعل يفعل لغاية تعود منفعته إليه لا يصدق بالنسبة إلى الباري تعالى، لأنّ طلب منفعة يعدّ نقصاً والله تعالى منزّه عنه. فلاحظ.

(١) سورة العنكبوت: ٦. هذه الآية الكريمة تدلّ على أنّ الله تبارك وتعالى غني عن كل شيء بالذات، أي أنّ ذاته المقدّسة لا تحتاج إلى شيء فهو الغني بالذات من جميع الجهات. فكل الخلائق فقيرة ومحتاجة بالذات والله تعالى هو الغني المطلق، قال الله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ (سورة طه:١١١) فإنّ لفظ «عنت» من مادة العنوة، وقد وردت بمعنى الخضوع والذلة ونسبة الخضوع إلى الوجوه، من أجل أنّ كل الإحساسات النفسية ومن جملتها الخضوع تظهر آثارها أولاً على وجه الإنسان، وهو كناية عن انه تبارك وتعالى غني عن العالمين، وجميع المخلوقات خاضعة له لاحتياجهم وفقرهم المطلق له، وعليه فانّ الغني بالذات لا حاجة له بعبادة المخلوقين وإنّ نفع العبودية التي هي غاية لخلق الإنسان يرجع إلى الإنسان نفسه لأنّه محتاج إلى الكمال فعبادة العبد نفعه عائد إليه لا إلى.

(٢) سورة الحج: ٦٤. هذه الآية الكريمة تتحدّث عن صفة الغنىٰ التي هي من صفات ذات الحق جلّ وعلا؛ لأنّه تبارك وتعالى هو غني على الإطلاق وحميد من كل جهة، فذكرت الآية الأمرين معاً، حيث أنّ غناه وعدم احتياجه وحمده وثناه كلها من مواهبه السامية، حيث أنّ الحمد بمعنى الثناء على العمل الحسن الذي يصدر بالاختيار، وكل حسن نراه في هذا العالم ➲

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١] وقوله سبحانه:

➲ فهو من الله سبحانه، فحمده أيضاً من الأُمور الحسنة والخصال المستحسنة، وأفضلها ما يتضمّن العبودية لله سبحانه من الله تبارك وتعالى والنفع كله بيده، فهو الخير كل الخير كما وصف نفسه تعالى في كتابه العزيز: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة :٢٦) أي أنّ الخير منحصر في يده وحده لا بيد غيره، فكل فعل من الأفعال الحسنة التي يفعلها الإنسان إنّما هو بلطف من الله سبحانه ومن أجل ذلك يلزم علىٰ الإنسان أن يحمد الله ويثني عليه عند ما يفعل الخير؛ لأنّ أساس كل فعل الخير هو الله عزوجل وإن كان لا يحتاج إلى حمد العبد وثنائه ولكن هذا الحمد والثناء كمال العبد لأنّ الله تعالى غني عن العالمين فلا يحتاج إلى حمد وثناء عبده، وإنّما العبد يصل إلى مراحل الكمال بسبب العبودية والحمد والثناء من مراتب العبودية.

(١) سورة لقمان: ٢٦، هذه الآية الكريمة أيضاً تتحدّث عن غنى رب العالمين عن خلقه وحاجتهم إليه واستحقاقه والحمد والثناء على النعم؛ لأنّ له ما في السموات وما في الأرض فهو مالك حقيقة لكل شيء ومن جملتها الإنسان، والمراد بالملكية الحقيقية الاستيلاء التكويني والسلطنة التكوينة التي تحيط بكل شيء فله تبارك وتعالى ملك السماوات والأرض وما فيها قال الله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ (سورة طه:٦) فلا يكون هناك ملكية وسلطنة بغير ملكية الله عزوجل فكل شيء تحت قدرته الكاملة، لأنّه الخالق بجميع الموجودات والقادر المتعال وواهب النعم الذي يحتاج اليه الكل ولا يحتاج هو إليهم قال الله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ ٱللهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيراً﴾ (سورة النساء:١٣٣) لأنّه تبارك وتعالى غني عنكم لا يستضر بذهابكم ويأت بخلق جديد يحمدونه ويثنون عليه لا لحاجة منه إليهم بل لأنّه حميد ومقتضاه أن يجود فيحمد وليس ذلك على الله بصعب لقدرته المطلقه وقال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَايَشَاءُ﴾ (سورة الأنعام:١٣٣) فهذا دليل حي على غناه المطلق، وأنّه أهل لكل حمد وثناء، ولذلك تقول الآية: ﴿انّ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فذكرت الغناء والحمد معاً لتبيّن أنّ النفع كذلك يعود إلى المخلوقين؛ لأنّ كل منهما موهبة من رب العالمين، حيث أنّ كل ما يصدر من الإنسان فهو بسبب نعمة أنعمها الله ➲

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١) وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢)

على الإنسان، وكرامة أكرم بها الإنسان ورحمة واسعة منه لخلائقه، لأنّ كل الموجودات محتاجة اليه في كل ان وفي جميع شؤونهم، فلو قطع لطفه ورحمته ونعمته لحظة واحدة لأصبحت عدم في عدم، فالكل يحتاجون اليه وهو غني عن العالمين.

(١) سورة فاطر: ١٥، هذه الآية الكريمة بدأت بالخطاب إلى الناس والخطاب يشمل المؤمن وغير المؤمن بصورة عامة مطلقة شاملة لجميع أفراد البشر، قائلاً: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسكم وأحوالكم، لأنّ كل البشر بل كل الموجودات محتاجة اليه في جميع شؤونها وفقيرة إليه ومرتبطة بذلك الوجود المستقل، بحيث لو قطع ارتباطه منهم لحظة واحدة لأصبحت الموجودات عدم في عدم.

فإنّ الفقر أمر ذاتي للبشر وسائر المخلوقات، فلا ينفكّون عنه، كما أن الغني وعدم الاحتياج مطلقاً أمر ذاتي لله تبارك وتعالى. فالجملتان واردتان على الحصر، وإنّ الدليل على فقر كل شيء حاجته إلى الغير وعدم استغنائه منه والدليل على الغناء هو عدم حاجته الى غيره، فغناه عن الموجودات دليل على غناه المطلق واحتياجهم به دليل على فقرهم ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

ثم إنّه تعالى مع كونه غنياً عن العالمين يكون رحيماً وعطوفاً بالنسبة اليهم، وفي عين أنّه أرحم الراحمين، فهو غير محتاج لأحد مطلقاً. فالالتفات إلى هذه الجهة له أثر على المؤمن بالله سبحانه بأنّه إنّما خلق جميع الموجودات ووهبهم النِعَم لغاية وهي تعودّ أيضاً اليهم، لأنه تبارك وتعالى غني مطلق والناس هم الفقراء محتاجون إليه، فكل الخير يعود إلى البشر ولا يعود إلى الله تعالى. فلاحظ.

(٢) سورة الحديد: ٢٤، هذه الآية الكريمة تتحدّث عن البخل بعض الناس وإعراضهم عن الإنفاق، بل ودعوة الآخرين الى البخل، ثم تقول الآية: إنّ الله غنيّ عن إنفاقهم وإنفاق غيرهم، حيث إنّ الإنفاق فيه آثار معنوية تعود منفعته إلى المنفق، وقد شبّه الله تعالىٰ صفة المنفق في سبيل الله بزارع الحبة التي أنبتت في تكثير حسناته وما يرجع الى المنفق من النفع المادي والمعنوي، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ

الى غير هذه من آيات فرقانه العظيم التي قد دلّت على غناه،[١] ومن الضروري

➲ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَٱللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة:٢٦١) فالآية الكريمة تشبّه الأشخاص الذين ينفقون في سبيل الله بالبذرة المباركة التي تزرع في الأرض وتنتج سبعمائة حبة، لأنّ كل حبة تنتج سبع سنابل وكل سنبلة مائة حبة، وهذا التشبيه تشبيه رائع وعميق، وكأنّ القرآن يريد أن يقول: إنّ عمل كل إنسان انعكاس لوجوده، وكلّما اتسع العمل اتسع في واقع وجود ذلك الإنسان.

ثم إنّ هذه الآية الكريمة تقول: ﴿الذين يبخلون...﴾ فقد جعلت البُخل حاجزاً عن الإنفاق إذ البخيل يحجزه فلا يمكنه الوصول إلى الربح الحقيقي، وإن كان هو في الظاهر فرحاً بما أُوتي من الدنيا مختالاً فخوراً بخيلاً، ولكنه محروم عن لذة المواهب الألهية وإن كان هو لا يدرك هذا المقام العظيم لأنّه في حالة سكر البخيل، كما ورد في الحديث عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: السكر أربع سكرات: سكر الشراب، وسكر المال، وسكر النوم وسكر الملك (معاني الأخبار:ص٣٦٥) فإنّ السكران لا يدرك حقيقة الأُمور، حيث لا يدرك بأنّ المال الذي ينفقه في سبيل الله هو إعطاء المال قرضاً لله، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً...﴾ (سورة البقرة:٢٤٥) فإقراض الله بمعنى إنفاقه في سبيل الله، فإنّ الله يضاعف له أضعافاً كثيرة كالبذرة التي تقدّم ذكرها، وإن كان الله تعالىٰ لا يحتاج إلى إنفاق المنفقين؛ إذ أنّه تعالى غني عن العالمين، فإنّ فيه النفع للمنفقين والله تبارك تعالى يضاعف له إنعامه، ولكي لا يتصوّر أحد أنّ تأكيد الله سبحانه على الإنفاق وترك البخل في الآيات السابقة، وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً...﴾ معناه: أنّ الإنسان له دخل في الغنى ومساعدة الآخرين، فإنّ الله تبارك وتعالى بيّن في هذه الآية المباركة غناه عن إنفاق العالمين فهو محمود في ذاته لا يؤثر في شأنه وكبريائه شيء من إنفاق المنفقين ولا يضره الإعراض عن إنفاقه وشكره، بل الكل محتاجون اليه وهو الغني عن العالمين، وإنّما يكون إنفاقنا في سبيله نافعاً كل النفع لأنفسنا، حيث أنّ جميع خزائن رحمته تكون في قبضته وهو جامع لصفات الكمال، فلا يحتاج إلى إنفاق أحد وهو المحمود في ذاته، ويستحق كل شكر وثناء، وان أعرض الناس بأجمعهم عن ذلك، ومن يتولّ فإنّ الله هو الغني الحميد.

(١) وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ

كونه هو الذي خلق العالم بأجمعه، وغناه دليل على عدم عود ما في خلقه من الحكم اليه بل اليهم[١].

➲ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٠).

وقوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَمِنكُم مَن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ وَٱللهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ﴾ (سورة محمّد: ٣٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة المزمّل: ٢٠) وغير ذلك من الآيات الشريفة.

(١) فإنّ ضرورة كون الأشياء والموجودات مخلوقة لله سبحانه أمر واضح لكل أحد تدبّر في خلق السماوات والأرض، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (سورة الرعد:١٠) قد بيّنت هذه الآية الكريمة حقيقة مرئية لكل إنسان له قدرة النظر والرؤية، فهو أمر واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان ومؤنة برهان، فإنّ كل إنسان لو تأمل في هذه الحقيقة الثابتة لا محاله يذعن ويؤمن بوجود قادر متعال خالق لجميع الكائنات، عالم بالذات ليس فوقه شيء، وقادر بالذات ليس قدرة فوق قدرته، فهو القديم الأزلي.

ومن هنا نعرف معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ (سورة الرعد:١٦) وقوله تعالى: ﴿ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (سورة الزمر:٦٢) فإنّ شمولية لفظ الكل لكل شيء وعمومية لفظ الشيء الدالة على جميع الأشياء دليل على أن كل موجود مادياً كان أم غير مادي فهو مخلوق لله سبحانه.

ومن الواضح لدىٰ الخبير أنّ هذا الاطلاق لا ينافي حرية الاختيار للإنسان، إذ قد يستفاد الجبر من الآيتين، وذلك بأنّ أعمال الإنسان من الأشياء، ولكن جوابه واضح ظاهر، لأنّ الآية الكريمة ذكرت في آخرها: أنّ الله على كلّ شيء وكيل، فإنّ هذه العبارة تشير إلى التوحيد في الربوبية.

وتوضيح المقام: أنّ الله تعالى خالق لكلّ شيء، وفي مقام الربوبية وإتفاق خلقه فهو على كلّ شيىء وكيل.

➲

فانظر الى مخالفته لنصوص الفرقان العظيم في هذه الدعوى الشنيعة التي دلّت على حاجة من ليس لغناه حدّ ونهاية الى عباده الذين قد تفضّل عليهم بخلقه

➲ إذ أنّ الله تعالى خلق الإنسان وجعل له القدرة في اختيار أعماله وحرية أفعاله بتدبيره، فأفعال الإنسان تصدر من الإنسان باختياره، وإن كان هذا الاختيار قد أعطاه الله إلى الإنسان، وإنّه تعالى يمكن أن يسلب منه هذا الاختيار، ولكن حيث أنّ الإنسان له الحرية في اختيار عمله، ومن ناحية أنّ هذا الاختيار اختياره بيد الله، فهذا يدل على أنّ خالق الاختيار هو الله فبيده كل شيء.

وهذا معنى قولهم عليهم السلام: لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين. فإنّ الله تبارك وتعالى خالق جميع الموجودات، فكل موجود بأسره مقهور تحت حكم الله وأمره، وهو يتصرف فيهم ما شاء كيف يشاء، ويحكم ما يريد كيف يريد ولا يسئل عما يفعل، ليس معنى ذلك الجبر، لأنّ التوحيد في الخالقية يقتضي نعتقد بأنّ الله تبارك وتعالى خالق لكلّ شيء بلا استثناء، وأمّا التوحيد في الربوبية يقتضي أن نعتقد بأنّ الله تبارك وتعالى يدبّر الأُمور بالحكمة والمصلحة. فالأمر في أفعال الإنسان يرجع إلى التدبير في خلقه، فإنّ مقتضىٰ بربوبيته تبارك وتعالى جعل الاختيار في الإنسان ليكون حرّاً في انتخاب عمله، وهذا لاينافي التوحيد في الخالقية.

ثم إنّ خلق جميع الأشياء من دون احتياج إلى شيء، دليل على غناه عن العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَايَشَاءُ﴾ (سورة الأنعام:١٣٣) فإنّ كل موهبة في هذا العالم تعود إلى الله تعالى، وكل ما يملكه الإنسان فإنّه صادر منه، وإنّ خزائن كل الخيرات بيده، وهذا دليل حي على غناه المطلق، فإذا كان غنياً عن كل شيء، فإنّ الطاعات والعبادات كلها تعود خيرها إلى العبد بحيث لا يزيد بذلك في ملكه مثقال ذرة. وعليه: فمن كفر بالله العظيم فلا يضر الله شيئاً، ومن أطاعه فلا يزيد في عظمته، فإنّه غني عن عبادة العابدين وشكر الشاكرين.

ومن هنا اتضح: أنّ المراد بالغنىٰ ليس غنى المال فقط، وإنّما الغنى من جميع الجهات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللهِ وَٱللهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (سورة فاطر: ١٥) وقال تعالى: ﴿لِلهِ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (سورة لقمان: ٢٦).

فالمراد بالغنىٰ في الآيتين الغنىٰ بصورة مطلقة شاملة لجميع الأمور، كما هو ظاهر العبارة. فلاحظ.

لهم وبجريان نعمه التي يعجزون عن عدّها، فثبت من قوله هنا جهله بالله حيث جعله محتاجاً الى خلقه وساوىٰ بينه وبينهم في الحاجة الى ما يفعله مثل حاجتهم الى ما يفعلونه، وهو سبحانه ليس كمثله شيء، وحال المشبّه لله بخلقه ولو في جهة من الجهات معلومة[١].

وسابعها: مازعمه من أضعفية قول الشيعة، وأنّه معلوم ببهتانه على تقدير قصده بهم اثنى عشريتهم لما عرفته الى هنا؛ وستعرفه فيما بعد من عدم وجود ضعف في قولهم المخالف لقول من تسمى بأهل السنّة[٢] بل عامة ما قالوه في

---

(١) وخلاصة الكلام: أنّ مازعمه ابن تيمية من أنّ ارادة الله وتقديره لابد من تحقّقها بوجود علة حادثة فهو باطل، كما تقدّم بيانه وبيان المحذورات التي تترتّب على هذا الزعم.

ثم لايخفى على الخبير أنّ بهذا الزعم قد ساوى بين المخلوقين ورب العالمين، حيث جعل أفعال رب العالمين محتاجة إلى العلة كالمخلوقين، والقرآن يصرّح بأنّه تبارك وتعالى: ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة آل عمران:٩٧) فلايحتاج إلى شيء ثم انّه تبارك وتعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (سورة الشورىٰ: ١١) أي ليس مثله في الذات والصفات شيء، وإنّه تبارك وتعالى لا يشبه بشيء من المخلوقات؛ إذ لو كان ذا شبه من خلقه لكان محتاجاً إلى مؤثر ومدبّر مثله.

فهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات تنزّه رب العالمين عن المثلية والتشابه والاحتياج، كما أنّ قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (سورة النحل: ٧٤) أيضاً يدلّ على المقام حيث أنّه تبارك و تعالى حذر الناس من خطورة هذا الانحراف، وهذه الفكرة الباطلة في الله تبارك وتعالى، وبيّن في الآية الكريمة بأنّه لا يمكنكم أن تضربوا الأمثال لله تبارك وتعالى؛ لأنّه لو أحطتم علماً بعظمة وجوده الكريم ولطفه ورحمته المطلقة لعرفتم بأنّه لا يمكنكم أن تصفوه بصفات العباد، لأنّ الباري تعالى جلّت عظمته وجود مطلق وكل الموجودات بما فيها الإنسان محدودة، فلا يمكن تشبيه المطلق بالمحدود، فإنّ وجوده تعالى ليس له نهاية ولا يحدّ بحدّ، وكل شيء غيره له نهاية وحدّ من حيث القدر والعلم والحياة والإرادة والفعل و... وهذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

(٢) فإنّ قول الشيعة في أفعال الله تعالى واضح لا غبار عليه كما تقدم فهم يعتقدون بأنّه

قبالهم حق وصدق مثل ثبوت فساد وكذب ما قاله أهل السنّة في قبال اثنى عشرية الشيعة،[١] وقد عرفت الفرق بين السنّي وبين خصمه، فإنّ خصمه قد برهن في

يستحيل صدور الفعل من الله تبارك وتعالى بغير حكمة ومصلحة، فإنّ قولهم هذا موافق للعقل والقرآن الكريم، وإنّ من له المعرفة بصفات الله عزّوجلّ تكون هذه الحقيقة واضحة عنده بأجلىٰ الوضوح، حيث أنّ من له المعرفة بصفات الباري تعالى يعلم بأنّه تبارك وتعالى حكيم كما وصف نفسه في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٠٩) وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة: ٢٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ربّك عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة يوسف: ٦) وإلى غير ذلك من الآيات، والحكيم من يكون جميع أفعاله لغرض فيه الحكمة والمصلحة، فالحكيم الذي يكون غنياً عن العالمين تكون أفعاله مطابقة للحكمة والمصلحة والمهم في معرفته تبارك وتعالى أن نصل الى هذه الحقيقة، ألا وهي ليس كمثله شيء، والى هذه الحقيقة يشير أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول: أوّل عبادة الله معرفته، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه لشهادة العقول أنّ كل صفة وموصوف مخلوق، وشهادة كل مخلوق أن له خالقاً ليس بصفة ولا موصوف، وشهادة كل صفة وموصوف بالاقتران، وشهادة الاقتران بالحدث، وشهادة الحدث بالامتناع من الأزل الممتنع من الحدث، فليس الله عرف من عرف بالتشبيه ذاته، ولا إياه وحده من اكتنهه ولا حقيقة أصاب من مثّله، ولا إياه عنى من شبّهه، ولا صمده من أشار اليه وتوهّمه (نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٨٦).

وفي مكانٍ آخر يقول عليه السلام: كل مسمىٰ بالوحدة غير قليل (نهج البلاغة: الخطبة رقم ٦٥).

وخلاصة الكلام: أن الشيعة الاثنى عشرية قد أخذت التوحيد وجميع معتقداته في صفات الله عزوجل بل وفي جميع اصول الدين من القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام وكذلك من العقل القائم على تمامية هذا الاعتقاد.

(١) لا شك أنّ عقائد الشيعة الإمامية واضحة ومذكورة في كتبهم، وأنّ كتبهم تحت أيدي الباحثين والكُتّاب في كل مكتبات العالم، والمجال لمن أراد أن يدقّق في عقائدهم وكتبهم واسع جداً.

والحقّ ظاهر لا محالة حيث يمكن أن يكشف من خلال البحث والتدقيق، في كتبهم المعوّل عليها

مناظرته للسنّي على دعاويه بما هو حجة بيّنة على السنّي ملزم بها.

وأمّا السنّي فقد عرفت حال دعاويه، فعلم عدم وجود حتى الضعف في

➲ في مجال العقيدة وأُصول الدين، فإنّ عقيدة الشيعة الإمامية في التوحيد والصفات الإلٰهية واضحة لمن أراد الوقوف عليها، فهم قد أخذوا ذلك من القرآن الكريم والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومن أجل وضوح المقام نشير إلى رواية واحدة الواردة في هذا المجال عنهم عليهم السلام، وهي ما رواه أبوبصير عن الإمام الباقر عليه السلام قال: جاء رجل إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام فقال له: أخبرني عن ربك متى كان؟ فقال عليه السلام: ويلك إنّما يقال لشيء لم يكن: متى كان؟ انّ ربي تبارك وتعالى كان ولم يزل حياً بلا كيف ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كيف، ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكون شيئاً، ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً، ولا يشبه شيئاً مكنوناً، ولا كان خلواً من القدرة على الملك قبل إنشائه، ولا يكون منه خلواً بعد ذهابه، لم يزل حياً بلا حياة وملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً وملكاً جبّاراً بعد انشائه للكون، فليس لكونه كيف ولا له أين ولا له حد ولا يعرف بشيء يشبهه ولا يهرم لطول البقاء، ولا يصعق لشيء بل لخوفه تصعق الأشياء كلها، كان حياً بلا حياة حادثة، ولا كون موصوف، ولا كيف محدود، ولا أين موقوف عليه، ولا مكان جاور شيئاً بل حي يعرف، وملك لم يزل له القدرة والملك، أنشأ ما شاء حين شاء بمشيئته، ولا يحدّ ولا يبعّض ولا يغنىٰ، كان أولاً بلا كيف ويكون آخراً بلا أين، وكل شيء هالك إلّا وجهه، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين... (الكافي ج١:ص٨٩) رواه للشيخ الصدوق في كتابه التوحيد: ص١٧٣. والخبير لو دقّق في متن هذه الرواية لوجدها بحراً واسعاً في التوحيد والمعرفة، بحيث لو كتب بماء الذهب لكان قليلاً، ولو شرح هذا الحديث سنوات عديدة كان فيه المجال لبسط البحث بأوسع ممّا يتصوّر منه.

فهذا مورد واحد من الموارد التي علّمنا أهل البيت عليهم السلام التوحيد والصفات الربوبية. وهناك روايات كثيرة في العقائد وأُصول الدين من التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد، وهي المعتمد عليها عند الشيعة الإمامية. فللباحثين المراجعة إليكتب الشيعة في مجال العقيدة والحديث.

دعاوي السنّي بل جميعها دعاوي باطلة فاسدة مناقضة للشريعة[1].

(١) فإنّ الميزان في صحة الاحتجاج عند المسلمين هو القرآن والسنة النبوية، فإنّ الآيات المحكمة من القرآن الكريم أمر متفق عليه بين جميع المسلمين، وكذلك السنّة النبوية المتفقة عليها بين جميع المسلمين أمر ثابت بالاتفاق، فرفض أحد هذين الدليلين والحجتين عند جميع المسلمين رفض وإنكار لأصل الدين إذ الدين الإسلامي ثابت على هذين الركنين الأساسيين، وإنّ الشيعة الإمامية كانوا خاضعين لهذين الدليلين منذ وجودهم ـ أي من عصر صاحب الرسالة ـ في جميع المجالات الاعتقادية والأحكام الشرعية والأُمور الأخلاقية و... وهذا أمر ليس فيه خفاء يعرفه كلّ من تعرّف على حقيقة الشيعة في العقيدة والتاريخ فلاحظ.

قال السنّي:

وأما قول الشيعي: وجوّزوا عليه فعل القبيح والإخلال بالواجب، فيقال له: ليس في طوائف المسلمين من يقول أنّ الله يفعل قبيحاً أو يخلّ بواجب، ولكن المعتزلة ونحوهم ومن وافقهم من الشيعة النافين للقدر يوجبون على الله من جنس ما يوجبون على العباد، ويحرّمون عليه ما يحرّمونه على العباد ويضعون له شريعةً بقياسه على خلقه فهم مشبّهه الأفعال.

وأمّا المثبتون للقدر من أهل السنّة والشيعة فمتّفقون على أنّ الله لا يقاس بخلقه في أفعاله كما لا يقاس بهم في ذاته وصفاته، فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وليس ما وجب على أحدنا وجب مثله على الله ولا ما حرّم على أحدنا حرم مثله على الله تعالى ولا ما قبح منّا قبح على الله ولا ما حسن من الله تعالى حسن من أحدنا وليس لأحد أن يوجب على الله تعالى شيئاً ولا يحرّم عليه شيئاً، فهذا أصل قولهم الذي اتّفقوا عليه واتّفقوا على أنّ الله تعالى إذا وعد عباده بشيء كان وقوعه واجباً بحكم وعده؛ فإنّه الصادق في خبره الذي لا يخلف الميعاد.

واتفقوا على أنّه لا يعذّب أنبيائه ولا عباده الصالحين بل يدخلهم جنته كما أخبر، لكن تنازعوا في مسألتين:

إحديهما: أنّ العباد هل يعلمون بعقولهم حسن بعض الأفعال ويعلمون أنّ الله متصف بفعله ويعلمون قبح بعض الأفعال ويعلمون أنّ الله منزّه عنه على قولين:

أحدهما: أنّ العقل لا يعلم به حسن فعل ولا قبحه، أمّا في حق الله تعالى فلأن القبيح ممتنع منه لذاته، وأمّا في حق العباد فلأن الحسن والقبح لا يثبت إلّا بالشرع.

والقول الثاني: أنّ العقل قد يعلم به حسن كثير من الأفعال وقبحها في حق الله تعالى وحق عباده، وهذا مع أنّه قول المعتزلة فهو قول غيرهم من الفرق.

ونقل عن جماعة منهم كون القول السابق قول أهل البدع قال: وفي المسألة قول ثالث، اختاره فخر الدين في آخر مصنّفاته، وهو القول بهما في أفعال العباد دون أفعال الله تعالى، وقد تنازع أئمة الفرق في الأعيان قبل ورود الشرع، فقالت الحنفية وكثير من الشافعية والحنبلية: بأنّها مباحة، وقالت فرق: أنّها على الحظر مع أنّ أكثر الناس يقولون بأنّ صحة القولين مبيّنة على القول بأنّ العقل يحسن ويقبح، فإنّ من قال بأنّ العقل ليس له حكم لم يصفها قبل الشرع بإباحة أو حظر حسبما قال ذلك جماعة.

المسألة الثانية: تنازعوا هل يوصف الله تعالى بأنّه أوجب على نفسه أو حرّم على نفسه، أو لا معنى للوجوب إلاّ إخباره بوقوعه ولا للتحريم إلّا إخباره بعدم وقوعه؟

فقالت طائفة بالقول الثاني، وقالت طائفة: بل هو اوجب على نفسه وحرم على نفسه كما نطق بذلك الكتاب والسنّة، في مثل قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله في الحديث الصحيح: يا عبادي، إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً، فمن قال

أنّه لا يجب عليه شيء ولا يحرّم عليه شيء امتنع عنده أن يكون مُخّلاً بواجب أو فاعلاً لقبيح، ومن قال أنّه أوجب على نفسه أو حرّم على نفسه فهم متّفقون على أنّه لا يخلّ بما كتبه على نفسه ولا يفعل ما حرّمه على نفسه.

فتبيّن أنّه ليس في أهل السنّة من يقول أنّه يخل بواجب أو يفعل قبيحاً، ولكن هذا المبدع سلك مسلك أمثاله يحكي عن أهل السنّة أنّهم يجوّزون على الله تعالى الإخلال بالواجب وفعل القبيح ليلزم إحدىٰ الطائفتين الذين يقولون: لا يجب عليه شيء، فله أن يخلّ بكل شيء، فقال: بأنّهم مجوّزون فعل القبيح أي فعل ما هو قبيح عندهم، أو فعل ما هو قبيح من أفعال العباد، والقدرية يوجبون عليه ويحرّمون عليه ما لم يوجبه على نفسه وما لم يحرّمه على نفسه، ثم يحكمون على من لم يوجبها أنّه يقول: إنّ الله يخلّ بالواجب، وهذا تلبيس في نقل المذهب وتحريف له. وأصل قول القدرية تشبيه الله بخلقه في الأفعال فيجعلون ما حسن منه حسن من العبد وما قبح من العبد قبح منه. انتهى ملخّصاً بحذف ما لم يضر بمطالبه منه(١).

---

(١) منهاج السنّة ج١: ص ٤٤٧ ـ ٤٥٤.

قلت:

فيه من العجائب ما نبيّنها بوجوه ليتبيّن الحق بأجلىٰ برهان، ويتميز عن الباطل بأظهر بيان حتى تحصل السعادة لمن تابعه عن الدليل الشرعي، وتقوم الحجة من خالفه بعد علمه به.

أحدها: إنّ ما زعمه السنّي من عدم قول فرقة من المسلمين بأنّ الله يفعل قبيحاً ويخل بما وجب تدليس منه وهرب عن محل البحث، فإنّ الشيعي لم ينسب الى من تسمى بأهل السنّة القول بذلك، بل نصّ صريحاً على تجويزهم له ولم يقل: قالوه.[1]

(١) لقد وقع البحث بين العدلية والأشاعرة في جواز فعل القبيح على الله سبحانه وعدم جوازه وأيضاً في جواز الإخلال بالواجب وعدمه؟ ذهبت العدلية إلى أنّ الله تعالى عدل حكيم لايفعل القبيح ولايخل بواجب، ومنعت الأشاعرة من ذلك، وذهبوا إلىٰ بأنّ كل شيء مخلوق لله تعالى حتى أفعال العباد خيرها وشرها ومعصيتها وطاعتها، فلا اختيار للإنسان فهو كالميّت في يد الغسّال.

(أنظر الإبانة للشيخ الأشعري: ص٢٠، ومقالات الإسلاميين للأشعري ج١: ص٣٢١، والأربعون للفخر الرازي: ص٢٣١ ـ ٢٣٢، وشرح التجريد للقوشجي: ص٤٤٧، والمواقف للإيجي ج١: ص٢٤١، وشرح الواقف للقاضي الجرجاني ج٨: ص١٤٥ وغير ذلك).

ولكن الشيعة الإمامية ذهبوا إلى عدم جواز الفعل القبيح على الله تبارك وتعالى، لأنّه تعالى عالم

والتجويز تارة يعلم من طريق اللزوم[١] وتارة من القول صريحاً،[٢] فمن قال بأنّ الله سبحانه خالق الكفر والمعاصي في العباد فقد جوّز عليه فعل القبيح ومعه يعاقبهم عليها، وليس لهم ذنب يستحقّون به العقوبة لما زعموه من كونه سبحانه هو خالقاً فيهم[٣].

حكيم في أفعاله، والحكيم لا يصدر منه فعل القبيح، فالله تعالى ولا يخل بواجب، إذ الإخلال بالواجب قبيح على الحكيم، فلايصحّ نسبة فعل القبيح إلى الحكيم. فلاحظ.

(١) لأنّ من التزم بشيء التزم بلوازمه؛ وهذه القاعدة من الضروريّات، بل من المسلّمات عند العلماء بحيث لايعقل الانفكاك بين الاعتقاد بالشيء والاعتقاد بلوازمه، فكما أنّ العلم بالشيء موجب للعلم بلوازمه وملزوماته، فكذلك الاعتقاد بالشيء لا ينفك عن لوازمه، فإذا جاز الاعتقاد ـ عند الأشاعرة ـ بأنّ الله تعالى لا يقبح منه شيء ولو بالقول بجواز صدور الأفعال القبيحة منه فيجوز لغيرهم أن ينسب إليهم بأنّهم يعتقدون بجواز صدور فعل القبيح من الله تعالى بهذه القاعدة، ومفاد هذه القاعدة واضح من حيث الدلالة. فإنّ العقل إذا أدرك شيئاً أدرك لوازمه. فالقاعدة ثابتة عقلاً وليس لها استثناء.

(٢) فإنّ صراحة القول تبيّن حقيقة المراد ومدى مقصود القائل في موضوع البحث باعتبار أنّ الظاهر حجة وأمارة عند العقلاء، ولذلك يحاسب المتكلم على ظاهر كلامه عند العقلاء، فلو قال القائل بأنّ الله تبارك وتعالى خالق لأفعال العباد، والعبد ليس له اختيار في أفعاله، وأنّ العقل لا يحكم بحسن الأشياء ولا بقبحها، فتصحّ نسبة الجبر اليه حيث لازم هذا القول سلب الاختيار عن العبد ونسبة خلق الأشياء بما فيها من القبائح إلى رب العالمين. وعليه: فبناءً على زعم القائل بتجويز فعل القبيح على الله وجواز الإخلال بالواجب هو القول بالجبر، لأنّ لازم هذا القول جواز نسبة فعل القبيح إلى الله، وكذلك جواز الإخلال بالواجب وهما نتيجة هذا الزعم كما لا يخفى على الخبير.

(٣) وتوضيح المقام: أنّ ما ذهب اليه الأشاعرة من أهل السنّة تبعاً لأهل الحديث هو أنّ العقل لا يدرك حسن الأشياء، ولا قبحها، وأنّ الحسن ما حسنّه الشارع الأقدس والقبيح ما قبّحه، أو فقل على حسب زعمهم: أنّ الحسن ما أمر به الشارع والقبيح ما نهىٰ عنه، ولو جُرّد

➲ الموضوع عن الأمر والنهي لما تمكّن العقل من إدراكهما (أُنظر الإرشاد للجويني: ص٢٥٨ وغيره).

أقول: إنّ إنكار الأشاعرة للحكم العقلي بالحسن والقبيح في الأشياء أشبه بإنكار السوفسطائيين في إنكار الحقائق الخارجية إذ أنّهم ينكرون الوثوق بكل معرفة حتى المحسوسات حتى وجودهم وأنفسهم لأجل شبهة واهية؛ هي أنّه لايوجد على أديم الأرض إنسان ينكر جداً حسن الإحسان وقبح الظلم، وحسن العمل بالميثاق وقبح نقضه، وحسن الجزاء بالحسان وقبح الجزاء بالسوء، والى غير ذلك من القضايا الواضحة التي تُعدّ أساساً للحياة الفردية والاجتماعية.

والذي يسهّل الخطب أنّ الأشاعرة أكثر تعقّلاً من السوفسطائيين، حيث أنّهم لمّا واجهوا أدلة القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين وأدركوا بوجدانهم أنّ الإنكار المطلق أشبه بإنكار البديهيات حاولوا أن يبتكروا معاني متعددة للحسن والقبيح أو ملاكات لهما، فسلّموا التحسين والتقبيح في بعض المعاني والملاكات دون البعض الآخر، ومع ذلك ذهبوا الى أنّ الله تبارك وتعالى خالق لأفعال العباد حسنة كانت أم قبيحة، وزعموا أنّ الله تعالى هو خالق للكفر والمعاصي، وغير ذلك من الأفعال القبيحة التي يرتكبها الإنسان، فقد أجازوا على الله سبحانه أن يأمر بكل شيء وينهى عن كل شيء.

ونحن نسأل ابن تيمية وأتباع مدرسة الأشعري: أنّه بناءً على زعمكم أنّ الحسن ما أمر به الشارع والقبيح ما نهى عنه، هل أنّ الشرك بالله تعالى قبيح ذاتاً أم لا؟

وبعبارة أُخرى: هل أنّ الشرك بالله تعالى قبيح قبل نهي الشارع عنه أو لايكون قبيحاً، بل بنهي الشارع صار قبيحاً؟

فإن قُلتم أنّ الشرك كان أمراً قبيحاً قبل أن ينهى الشارع عنه، فمعناه هو الالتزام بحكم العقل لأنّه إذا قلنا أنّ الشرك قبيح ذاتاً معناه: أنّ العقل قبّحه قبل تقبيح الشارع له، وهذا خلاف ما بنيتم عليه في باب الحسن والقبح.

وإن قُلتم أنّ الشرك ليس له قبح قبل نهي الشارع، فمعناه: أنّهم لايرون التوحيد حسناً قبل الأمر به، وإذا كان كذلك فإنّ التوحيد يتوقّف على الأمر به والأمر به يتوقّف على التوحيد، وهذا ➲

فأيّ سبب يبعثه على العقوبة على ما خلقه هو فيهم ولم يفعل بعباده ما كتبه على نفسه من الرحمة، فيهديهم بآياته الباهرة إلى معرفته وطاعته(١).

➲ دور صريح واضح، فبناءً على زعمكم هذا ترون أنّ التوحيد وسائر الطاعات ليست حسنة في ذاتها، وإنّما اكتسبت صفة الحسن بأمر الله تعالى بها، ولو نهى تبارك وتعالى عن التوحيد وسائر الطاعات لكانت قبيحة، فإنّكم أجزتم على الله الشرك وعدم التوحيد، وهذا يكون لازم اعتقادكم؛ إذ بناءً على اعتقادكم هذا يجوز فعل كل شيء ممكن لذاته المقدسة، فله أن يعذّب الأنبياء والأولياء ويجعلهم في سجين وينعم شياطين الإنس والجن ويجعلهم في علّيين، وكل هذه التوالي مترتبة علىٰ هذا الزعم الباطل وهو: القول بأنّ لايكون الشيء حسناً ولا قبيحاً بذاته وعليه يترتب علىٰ هذا القول الجبر والقول بأنّ خالق الشرور والكفر سبحانه وتعالى عما يصفون.

(١) وبعبارة أوضح: أنّ المراد بالرحمة في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢) وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ٥٤) هي الرحمة واللطف إلى العبد من جهة أنّه تعالى هداهم بإرسال وإنزال الكتب وإيضاح السُبل ونصب أوصياء الرسل والأئمة الأطهار عليهم السلام قال الله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥) فالله تبارك وتعالى لم يترك أُمة بدون الحجة عليهم وبلا ولي معصوم منصوب من قبله، فأوجب على نفسه هذه الرحمة إيجاباً مؤكداً، ولطفاً منه جلّ جلاله ليفسح المجال أمامهم بُغية حصول الطاعة والابتعاد عن المعصية وهي الغاية والغرض من خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦).

فمن الواضح أنّ الشرط الأساسي لهذا اللطف والرحمة هو قابلية العبد لقبول هذه النعمة الإلٰهية ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (سورة يونس:٥٨) فالمراد من الرحمة هي النعم المادية والمعنوية التي تشمل حال الأفراد اللائقين بهذه الرحمة وهم الذين يهتدون إلى طريق الهداية ويجتنبون الضلال بما بيّنه الله تعالى لهم من براهين الأنبياء وأدلّة الأولياء المعصومين، فإن سلكوا طريق الهداية هدوا الى الحقّ، وشملتهم الرحمة الإلٰهية، وإن أخذوا طريق الضلالة والعمى خسرواالنِعَم الإلهية ورحمته الواسعة، فلامعنى ➲

بل أخلّ بما فرضه على نفسه، فخلق في غالبهم الكفر والشرور فلزم التجويز لما قالوه لزوماً بيّناً ضرورياً[(١)].

للجبر في الهداية الارلهية، فإنّ كلّ إنسان يختار لنفسه الطريق الذي يريد السلوك فيه، سواء كان طريق الهداية أو طريق الضلالة، فهو يختار لنفسه، ولكن حيث أنّ له الرسول الباطني فله قابلية أن يختار الطريق الحقّ، ارذ القدرة العقلية شرط لقبول الحقّ، فلكلّ إنسان قابلية أخذ طريق الحقّ، وهذا معنى قول الله عزّوجلّ: ﴿فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (سورة الروم: ٣٠) فإنّ الفطرة والعقل شرط لقابلية العبد على العمل، ولولاها لا يكون العمل قابلاً للامتثال.

فمثلاً: إذا لم يخلق الله الخمر فلا يشربها أحد ولا يسكر بشر وكذا إذا لم يخلق الله الشهوة فلا يزني أحد، فإنّ عدم ارتكابهما ليس من باب الطاعة؛ لأنّ العبد لم يكن قادراً على ارتكابها فلا يعد تكليفاً، لأنّ التكليف إنّما يصدق إذا كان المكلّف به مقدوراً للعبد، وأما إذا كان العبد مسلوب القدرة كيف يأمره الله بشيء خارج عن قدرته، وإذا كانت أفعال العبد خارجة عن إرادته وقدرته، فبماذا يستحقّ العقاب يوم القيامة؟ فالهداية الإلهية تتحقّق بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الأوصياء فمن كان فيه شرائط القبول وتحقّق فيه ذلك فتشمله الرحمة الإلهية وهذه الهداية هي الرحمة واللطف الإلٰهي التي تحصل بإختيار الإنسان لا بالجبر فلاحظ.

(١) فإنّ من القواعد المسلمة عند العلماء هي الملازمة بين تجويز الشيء وقبول لوازمه حيث أنّ صدق القضية يستلزم في التجويز القول به.

وبعبارة أُخرىٰ: إذا جاز عند الأشاعرة القول بأنّ الله خالق كل شيء حتى القبائح جاز للآخرين أن ينسبوا إليهم القول بأنّ الله خالق الشرور والكفر والعصيان، لأنّ القول بكون الله سبحانه خالق كل شيء على نحو الإطلاق بلا قيد يستلزم القول بأنّه تعالى خالق للكفر والشرور أيضاً والقول بذلك يستلزم الجبر، وهذا أمر واضح ظاهر والالتزام إذ الالتزام بهذا القول يستلزم الاعتقاد بلوازمه؛ لأنّ الالتزام بالشيء التزام بلوازمه.

والعجيب أنّ الباحث لو درس تاريخ هذه المسألة ـ أي عقيدة الجبر ـ يجد أنّ العرب في الجاهلية كانوا معتقدين بهذا الاعتقاد ـ أي كانوا يعتقدون بسلب الاختيار عن الإنسان ـ ولذلك أنّ الله

تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَاأَشْرَكْنَا وَلَاآبَاؤُنَا وَلَاحَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٨).

وليست هذه الآية الكريمة آية وحيدة تكشف عن عقيدة العرب في العصر الجاهلي حول فعل الإنسان، بل هناك آيات أُخرىٰ تشير الى هذه الحقيقة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَايَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٨) فقولهم: «والله أمرنا بها» إشارة إلى أنّ ارتكاب كل عمل قبيح منهم يكون بأمر الله سبحانه وليس للعبيد فيه اختيار حتى إذا انتهى الأمر إلى الشرك بالله العظيم وعبادة الأوثان فإنّه بناءً على هذا المنطق يكون بأمر الله إذن هذه الآيات وأمثالها تبيّن لنا بأنّ الجبر له جذور من عصر الجاهلية، فالذين روّجوا هذه العقيدة في الإسلام إنّما أرادوا إحياء تلك العقائد الجاهلية، ومن هنا يعلم أنّ إصرار بني امية على رواج الجبر بين المسلمين إنّما هو من أجل إرجاع المسلمين إلى عهد الجاهلية وكذلك الخلفاء الغاصبين لحقوق أهل البيت عليهم السلام فانّهم كانوا يتابعون هذه العقيدة الجاهلية لتبرير أفعالهم الشنيعة ضد الدين ويتضح هذا الأمر للباحث الخبير من خلال الدقة في كلماتهم.

فقد روى الواقدي في مغازيه عن أُمّ الحارث الأنصارية وهي تحدّث عن فرار المسلمين يوم حنين، قالت: مرّ بي عمر بن الخطاب منهزماً، فقلت: ما هذا؟ فقال عمر: أمر الله (المغازي للواقدي ج٣: ص ٩٠٤) فالظاهر من قوله: «أمر الله» أي لم يكن دور للغزاة من المسلمين في هزيمة حنين، وقد كانت الهزيمة تقديراً قطعياً من الله ولم يكن محيص من التسليم أمامه. وهذا هو نفس الجبر لا يفترق عنه قيد شعرة، مع أنّ الله سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ﴾ (سورة التوبة: ٢٥).

ثم إنّه سبحانه وتعالى قد أشار الى عامل الهزيمة في الآية الكريمة بأنّه أمران:

الأوّل: إعجابهم بكثرتهم، فاعتمدتم على الكثرة مكان الاعتماد على الله سبحانه، وذلك حيث يقول تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ (سورة التوبة:٢٥).

والسنّي بنفسه يعترف بأنّ الشيعي قد جرى على هذه الطريقة هنا في بيانه

➲ الثاني: الانسحاب عن ساحة الحرب بدل الثبات، كما يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، مع أنّهم أُمروا بالثبات، كما يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ (سورة الأنفال: ١٥). فالقرآن الكريم يدل بالصراحة على عدم الجبر. ولكن المخالفين لمسلك القرآن اتخذوا عقيدة الجبر تبريراً لجبنهم وأفعالهم السيئة.

ثم إنّ مما يدلّ أيضاً على أنّ هذه العقيدة ـ أي عقيدة الجبر وسلب الاختيار ـ كانت سائدة في عصر الجاهلية واتخذها الخلفاء الغاصبين تبريراً لأعمالهم الشنيعة بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو ماروا السيوطي في تاريخه عن عبدالله بن عمر أنّه قال: جاء رجل إلى أبي بكر فقال: أرأيت الزنا بقدر؟ قال: نعم، قال: فإنّ الله قدّره علَيَّ ثم يعذّبني؟ قال: نعم ياابن اللخناء! أما والله لو كان عندي إنسان أمرته أن يجأ أنفك (تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص٩٥).

فإنّ السائل كان في حيرة من أمر القدر، فسأل الخليفة عن كون الزنا مقدّراً من الله أم لا؟ فلمّا أجاب الخليفة «نعم»، استغرب السائل من ذلك الجواب لأنّ العقل لا يسوّغ تقديره سبحانه شيئاً سالباً للاختيار عن الإنسان في فعله أو تركه ثم تعذيبه عليه، ولذلك سأل مرة ثانية، وقال: فإنّ الله قدّره علَيَّ ثم يعذّبنى؟!!! فعنذ ذلك أقرّه الخليفة، وقال: نعم ياابن اللخناء... وعلى فرض أنّ هذه العقيدة كانت عقيدة صحيحة عند الخليفة، كان المفروض عليه أن يجيب عن سؤال السائل حتى لايبقىٰ لديه شبهة لا أن يسبّه ويهينه، فمن شدّة الكلام الظاهرة من جواب الخليفة يعرف بأنّ هذه العقيدة مخالفة للعقل حتى عند الخليفة نفسه، لأنّه حين وجد لم يكن لديه جواب مقنع للسائل فجعل يهدّده ويتكلّم معه بأسلوب خشن غير منطقي. لئلّا تكشف الحقيقة.

ومن الواضح لدى الخبير الباحث أنّ الخلفاء إنّما عمدوا إلى هذه العقيدة الجاهلية لأنّ القول بالجبر كان يفتح لهم المجال لتبرير أفعالهم القبيحة واستبدادهم ولعبهم بأحكام الدين، وإبطالهم حدود الله وظلمهم للمخلوقين و... لأنّه لو كان الاعتقاد بأنّ كل فعل يكون خالقه هو الله سبحانه إذن لم يبق وجه للسؤال عن الجرائم التي كانوا يرتكبونها باسم الدين وإذا كانوا يواجهون السؤال بأنّه كيف ارتكبتم الجرائم؟ فكانوا يجيبون بانّ كل ذلك يكون من عند الله وليس للعبد فيها دور، وعندئذٍ فلا يتوجّه إليهم الإشكال كما يستضح ذلك كله للقارئ الكريم من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

للمسألة الثانية، فعلم تدليسه وهربه عن محل البحث بنفس قوله(١).

وثانيها: إنّ كان نسبه الى الشيعة من وضعهم لله سبحانه شريعة يقضون عليه فيها بالوجوب والتحريم من عظيم بهتانه عليهم؛ فإنّهم حسبما عرفت تابعون لنصوص الفرقان العظيم والسنّة، وقاضون بهما وبالعقل المطابق لهما،(٢) وقد كتب

---

(١) إنّ من البديهيات عند الشيعة الإمامية الاعتقاد بأنّ الله تعالى ليس له شبيه ولا نظير في ذاته وأوصافه كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (سورة الشورىٰ:١١) أي ليس مثله في الذات والصفات شيء، وهو كلام صريح في نفي المثلية عنه تعالى بصورة مطلقة.

وإلى هذه الحقيقة أشار مولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول: ما وحّده من كيفه، ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا إيّاه عنى من شبّهه، ولا صمده من أشار اليه وتوهّمه (نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٨٦).

فنفي المثلية حقيقة أساسية في التوحيد ومعرفة صفات الله وبدونها لا يمكن التوصّل إلى أيّ صفة من صفات الله، لأنّ أكبر منزلق يواجه السائرين في طريق معرفة الله يتمثّل في التشبيه حيث يشبّهون الخالق جل وعلا بصفات مخلوقاته، وهو أمر يؤدي للسقوط إلى وادي الشرك، فإنّ اعتقاد الشيعة الإمامية في الله تبارك وتعالى هو: أنّ وجود الله تعالى ليس له نهاية ولا يحد بحده، وكل شيء غيره له نهاية له حدّ من حيث القدر والعمر والعلم والحياة والإرادة والفعل و... وفي كل شيء، وهذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات الذي يعتقد به الشيعة الإمامية.

وخلاصة الكلام: أنّ البحث في ذات الباري وصفات الخالق عزوجل يجب أن يكون على ضوء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ وكذلك من خلال أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الطاهرين عليهم السلام وإلاّ فسوف يقع الإنسان في المشاكل والمعاضل وليس لديه طريق للحل.

(٢) وبعبارة أوضح: أنّ ما زعمه ابن تيمية أنّ الشيعة الإمامية يوجبون على الله من جنس ما يوجبون على العباد و يحرّمون عليه من جنس ما يحرّمون على العباد بهتان محض، حيث إنّ قول الشيعة واضح ومذكور في كتبهم، فإنّهم يقولون: إنّ الوجوب على الله بمعنى درك

⬅ العقل له بمقتضىٰ صفاته وأفعاله وأقواله في مقتضى حكمته أنّ العقل يدرك بأنّ الحكيم لا يفعل فعلاً مخالفاً للحكمة وبمقتضىٰ قوله تعالى: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ (سورة الأنعام: ١٢) يدرك العقل بأنّه تعالى قد فتح باب الرحمة واللطف على عباده، لأنّ الكتابة هي الإثبات والقضاء والحكم وإفاضته تبارك وتعالى، على العباد والإنعام عليهم بارشادهم إلى السعادة تفضلاً واحساناً عليهم فمعنىٰ أوجب علىٰ نفسه أي أو عد عباده أنّهم إذا سلكوا طريق الهداية تشملهم الرحمة الإلٰهية فقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ مثل قوله تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (سورة المجادلة: ٢١) وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (سورة يٓس: ١٢) وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (سورة المائدة: ٤٥) فالكتابة بمعنى: الإثبات، وفي المقام أنّه تعالى أتمّ نعمته على عباده ليجزيهم بأقوالهم وأعمالهم بعد إتمام الحجة عليهم، فيفوز وينجح من عمل بما أمره الله الانتهاء عمّا نهاه عنه وهم المؤمنون حقاً ويخسر من شقي وخرج عن الطاعة وهم الكافرون، فالكتابة هي القضاء منه تعالى على خلقه بالحكمة والإفاضة عليهم بنعمة الارشاد والابلاغ ووعيهم للوصول إلى ساحل النجاة فالكتابة بمعنى انه تعالى كتب على نفسه الرحمة بما أوعد عباده.

فابن تيمية والمنكرين للحسن والقبح العقلي القائلين بعدم وجوب شيء على الله؛ بدعوىٰ أنّ معنى الوجوب على الله نفس معنى الوجوب علىٰ العبد لم يحقّقوا في كلمات الشيعة أو تجاهلوا عن ذلك، حيث أنّ كلام الشيعة واضح في غاية الوضوح، فهم يصرحون ويقولون: بأنّ معنى الوجوب على الله هو درك العقل صفاته الكمالية وما يترتّب عليه من لوازم الصفات، حيث أنّ كل صفة من صفات الله جل جلاله لابد من معرفتها والاعتقاد بمفادها جزماً، إذن ما ذكره ابن تيمية وأضرابه من أنّه لا يجوز توصيف الله بالوجوب عليه، فإن كان مقصودهم ما ذكره الشيعة من الاعتقاد والالتزام بصفات الله جزماً بمعنى: درك العقل أنّ الحكمة تقتضي وجوب الوفاء بالوعد، فإنّ هذا الوجوب ليس كالوجوب التكليفي المتوجّه إلى العبد، بل أنّه مقتضىٰ حكم العقل ودركه بالنسبة إلى صفات الله ـ عزوجل ـ فانّ الله تبارك وتعالىٰ عدل لا يخلف الميعاد وبمقتضىٰ هذه الصفة أنّ العقل يدرك بانّ الباري تعالى لو وعد لا يخلف ميعاده أبداً ونحن نسأل هل معنى هذا الإدراك العقلي هو الإلزام على الله تبارك ⬅

سبحانه على نفسه الرحمة في فرقانه العظيم،[١] وتنزّه عن الظلم فيه[٢].

⮌ وتعالىٰ؟ كلّا ثم كلّا من الواضح أنّ هذا الوجوب عقلي أي لزوم دركي لا تكليفي، كما هو واضح عند الخبير.

فما ذكروه ابن تيمية وأتباعه خلط بين المطالب لأنّ معنى حكم العقل الدرك لا الوجوب بمعنى اللزوم من جنس التكليف المتوجّه الى العباد، وإنّ معنى الدرك العقلي هو: أنّ العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها، وحيث أنّ الحكيم لابد أن تكون أفعاله مطابقةً للحسن والقبح العقلي فالعقل يحكم بأنّ الحكيم لايفعل القبيح، إذن العقل يحكم بأنّ الله تعالى لا يظلم، وهذا ليس تكليف على الله.

إذن إنّ ابن تيمية ومن تبعه خلطوا بين المسألتين.

الأُولى: مسألة قابلية العقل لدرك حسن الفعل وقبحه.

والثانية: خلطوا بين فرض التكليف على الله ودرك العقل الصفات الإلهية والمعرفة بالنسبة إلى تلك الصفات من خلال درك العقل صفاته الكمالية، فالقائل بالملازمة لا يفرض التكليف على الله، بل يقول: إنّ بالعقل يستكشف أنّ الله تعالى ليس عابث ولا ظالم ولا جاهل، ومقتضىٰ ذلك وجوب اللطف عليه، أي أنّ العقل يدرك بأنّ من له هذه الصفات الكمالية يجب عليه اللطف بالعباد وإرشادهم إلى السعادة والنجاة، هذا ما يدركه العقل، فأين هذا من وجوب والحكم التكليفي المتوجّه إلى العبد؟!!!

(١) سورة الأنعام: ١٢ و ٥٤. فإنّ مقتضىٰ الرحمة الألٰهية أن لا يهمل مصلحة من عباده وأن يوفّي لكل ذي حقّ حقه.

(٢) قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً**﴾ (سورة النساء: ٤٠) أي إنّ الله تعالى لا يظلم حتى بمقدار ذرة، والذرة: هي الأشياء الصغيرة كالهباء المبثوث في الهواء الذي لا يكاد يرىٰ من جهة صغره، فقوله تعالى: ﴿مثقال ذرة﴾ نائب المفعول المطلق والمعنى: إنّ الله تعالى لا يظلم ظلماً حتى إذا كان الظلم صغيراً يعدل مثقال ذرة وزناً، بل وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنها أجراً عظيماً.

فهذه الآية الكريمة في الحقيقة تنبّه الكافرين وتقول لهم: إنّ العقوبات التي ستصبكم يوم القيامة إنّما هي جزاء ما قمتم به من الأعمال القبيحة، وإنّه لا يصيبكم أيّ ظلم من جانب رب ⮎

وورد صحيحاً في السنّة تحريمه سبحانه الظلم على نفسه[1].

➲ العالمين، بل لو أنّكم تركتم الكفر وسلكتم طريق الله لنلتم المثوبات العظيمة المضاعفة. فالآية صريحة في أنّ الله تعالى لايظلم أبداً، والآيات الوارده بهذا المضمون كثيرة:

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة يونس:٤٤) ومنها قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَيُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَنَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلاَيَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلاَيَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللهَ لاَيُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة التوبة: ١٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة قٓ: ٢٩) والى غير ذلك من الآيات.

(١) أخرج مسلم في صحيحه بسنده، عن أبي ذر، عن النبيﷺ عن الله تبارك وتعالى أنّه قال: يا عبادي! انّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً، فلا تظلموا يا عبادي، كلّكم ضال إلّا من هديته فاستشهدوني أهدكم.... (صحيح مسلم ج٨: ص١٧ كتاب البر و الصلة والآداب، باب تحريم الظلم).

وأخرج البيهقي في سننه الكبرىٰ بسنده عن أبي ذر عن رسول اللهﷺ عن الله عزوجل: أنّه قال: إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظلموا. يا عبادي! إنّكم الذين تخطئون بالليل والنهار وأنا الذي أغفر الذنوب، ولا أُبالي فاستغفروني أغفر لكم... (سنن الكبرىٰ للبيهقي ج٦: ص٩٣ كتاب الغصب، باب تحريم الغصب وأخذ أموال الناس بغير حق).

وقد أخرج ابن تيمية في كتاب دقائق التفسير هذا الحديث وصرّح بصحته؛ ثم استدلّ بمدلول الحديث على عدم صدور الظلم منه، وإليك نص عبارته:.... ولهذا يخبر أنّه تعالى يعاقب الناس بذنوبهم وإنّ الغامر عليهم إحسان منه كما في الحديث الصحيح الإلٰهي، يقول الله تعالى: يا عبادي! إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظلموا.... (دقائق التفسير ج٢: ص١٠٨).

وأخرج أحمد بن حنبل في مسنده بسنده عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطي عليها في الدنيا ويثاب عليها الآخرة، وأمّا الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضىٰ إلى الآخره لم يكن له بها حسنة يعطىٰ بها خيراً (مسند أحمد بن حنبل ج٣: ص١٢٣) وأخرجه ابن حبّان في صحيحه ج٢: ص١٠١ وغيره.

فأيّ شيء هو رحمة دنيوياً كان أم أُخروياً، فقد فرضه على نفسه وما هو ظلم في النشأتين قد حرّمه على نفسه؟[١].

---

(١) وبعبارة أوضح: إنّه تبارك وتعالى أوجب على نفسه الرحمة من طريق الانعام والتفضّل والإحسان بالإرشاد إلى ما فيه هدايتهم وصلاحهم، وبيان ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقرّبهم الى الجنّة ورضاء الله عنهم، والنهي عمّا يقرّبهم إلى النار وسخط الله عزّوجلّ، فيعطي الثواب لمن أطاع ويمهل لمن فرّط حتى أن يتدارك ويتوب الى الله من المعاصي ثم يعذّب من كذّب بآيات الله ولم يتوب إلى الآخر فهذه الرحمة الواسعة في الدنيا والآخرة لا تتلائم مع الظلم.

وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه قال: واعلموا إنّ الله تبارك وتعالى الحليم والعليم إنّما غضبه على من لم يقبل منه رضاه وإنّما يمنع من لم يقبل منه عطاه، وإنّما يضلّ من لم يقبل منه هداه (الكافي ج٨: ص٥٢) أي إنّ رحمة الله واسعة، فمن شاء دخل فيها له ومن أعرض عنها فإنّه حرّم نفسه منها، والله سبحانه يعطي المذنبين الفرصة للرجوع والتوبة، وهذا أيضاً من ألطافه الباسطة ورحمته الواسعة، فإنّه يمهل لأهل السيئات أن يرجعوا ويتوبوا إلى الله، فإذا رجعوا وتابوا فيجعل السيئات مغفورة بل وقد يبدّلها بالحسنات، لأنّ أصل التوبة الخالصة هي العفو عن السيئات.

وورد في عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث قال: إذا تاب العبد توبةً نصوصاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقال معاوية بن وهب، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: يُنسي ملكيه ما كتبنا عليه من الذنوب ويوحي إلى جوارحه. اكتمي عليه ذنوبه ويوحي إلى بقاع الأرض: اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب فيلقي الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب (الكافي ج٢: ص٤٣١ ح١).

أقول: ولا يبعد أن يقال: إنّه تعالى يزيل تلك الذنوب عن بال العبد وينسيه أيضاً لئلّا يستحي العبد، لأنّ الرحمة الإلٰهية تقتضي أن يتم نعمته على العبد التائب الصادق في توبته، لأنّ الكريم الذي يتجاوز عن المسيء يتجاوز عن جميع ما صدر منه من القبيح بجميع جهاته، ومن الجهات هي جهة وجودها في بال العبد، فانّ مقتضىٰ كرمه ووعده بالغفران وقبول توبة العبد أن يتفضل عليه بالغفران ومحو السيّئات بصورة مطلقة لأنّ الله تعالى رحيم وقد كتب على

←

فالشيعة لم تحكم عليه بشيء ولم تجعل له شريعة بل بنية ما حكم به هو سبحانه على نفسه وشرحته وشيدته وروّجته[١].

➲ نفسه الرحمة.

وفي حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: ما خلق الله من شيء إلّا وقد خلق له ما يغلبه، وخلق رحمته تغلب غضبه (المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج ٤: ص٢٤٩).

ثمّ إنّ القرآن الكريم بيّن حقيقة رحمة رب العالمين والنيل الى درجاتها خلال بعض الآيات الكريمة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ ٱللهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٥٦).

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ (سورة النساء: ١٧٥).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ * أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧).

فالرحمة الإلٰهية واسعة وشاملة لجميع الناس في الدنيا والآخرة ومن هنا يتضح معنى قوله تعالى حرّم على نفسه الظلم وقد ورد في الحديث القدسي أنّه تعالى قال: ﴿يا عبادي اني حرّمت الظّلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظلموا﴾ (صحيح مسلم ج٨: ص١٧ باب تحريم الظلم). فهذه حقيقة ثابتة في الإسلام وهي من أُصول الدين عند الشيعة، فالعدل في الأُصول بمعنى: أنّ الله تعالى عادل وليس بظالم ولا يظلم أحداً، وهناك آيات وروايات كثيرة تدل على المقام لم نذكرها رعاية للإختصار. فلاحظ.

(١) وبعبارة أُخرى: انّ القائلين بالعدل الإلٰهي وعدم كونه سبحانه وتعالى ظالماً لم يفرضوا شيئاً على الله بل إنّ قولهم مبني على مقتضى صفاته تبارك وتعالى الكمالية والجماليّة التي منها الحكمة والرحمة كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فبمقتضىٰ صفاته الحكيمة في أفعاله ونفي الظلم عنه يعرف انّه تبارك وتعالى لا يصدر منه الفعل المخالف لحكم العقل لأنّ ➲

➲ الحكمة مبني على التحسين والتقبيح العقليين، لأنّ الحكيم لايصدر منه الفصل على خلاف حكم العقل، فجميع ما يفعله يكون متصفاً بالحسن العقلي وهذا الحسن والقبح العقلي أصل محرز ثابت بتأييد القرآن والسنة النبوية والتعاليم الدينية قال الله تعالىٰ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (سورة صٓ: ٢٨).

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة القلم: ٣٥).

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ﴾ (سورة الرحمٰن: ٦٠) فهذه الآيات وغيرها تدلّ بالصراحة على أنّ الله ليس من سنته التسوية بين الظالم والمظلوم وبين المسلم وغير المسلم وبين المجرم وغيره، فإنّ عدله يقتضي أن لايجعل المجرمين كالمصلحين والصالح كالطالح.

وهناك آيات أُخرىٰ تأمر بالعدل والإحسان وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي، ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل: ٩٠) كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣).

فدلالة هذه الآيات على ما تقول به الشيعة الإمامية في باب العدل الإلٰهي واضحة ظاهرة وهي كسابقتها من الآيات، فإنّه تعالى بيّن فيها أنّ وجدان الإنسان يكون حاكماً وقاضياً لحكم العقل بحسن العدل وقبح المنكر، ولهذه الجهة أنّ المشركين حينما أرادوا تبرير أنفسهم من ارتكاب القبائح نسبوه إلى الله ليدفعوا عن نفسهم قبح ما كانوا يفعلون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللهُ مَاأَشْرَكْنَا وَلاَآبَاؤُنَا وَلاَحَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٨) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَٱللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللهَ لاَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَا لاَتَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٨) فلو لم يكن القبيح قبيحاً بحكم العقل في المرتبة السابقة على الحكم الشرعي لما نسبوه إلى الله عزوجل ولكن الله تبارك وتعالىٰ ردّ عليهم بقوله: انّ الله لا يأمر بالفحشاء، وهذا حكم وجدانهم به، فهو سبحانه منزّه من ارتكاب القبائح ➲

أما علم السنّي بالقاعدة المعلومة وهي: كلّما حكم به العقل حكم به الشرع، وكلّما حكم به الشرع حكم به العقل.[(١)] فإن وجد الشيعة يستدلون من طريق العقل

➲ والمنكرات التي يعرفها الإنسان بوجدانه. فقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (سورة الأعراف: ٢٨).

فأخبر تعالى بأنّ فعل الفاحشة أمر مستنكر عند العقل والعقلاء قبل النهي عنه، ولكن مع ذلك أنّ الله تعالى قد نهى عن الفحشاء، لأنّ الفحشاء فعل منكر شرعاً بالإضافة إلى كونها قبيحة عقلاً تستنفر منها العقول قبل الشرع بل أنّها مخالفة للفطرة البشرية، إذن إنّ الاستنكار والقول بأنّ الله لايأمر بالفحشاء أمر واضح بديهي عند العقل، فالقائلين بعدم اعتبار حكم العقل بتحسين العدل وتقبيح الظلم والقول بالجبر يكون إنكارهم إنكاراً للحكم العقلي الضروري فقول الجبرية نفس قول الكفّار والمشركين في عهد الجاهلية طابق النعل بالنعل. فلاحظ.

(١) وبعبارة أُخرى: أنّ معنى: «كلّما حكم به العقل حكم به الشرع» هو أنّ العقل يستكشف من الملاك الموجود في الحكم على نحو العلية التامة، بحيث لايمكن الإنفكاك بين الملاك والحكم الشرعي، فعندئذٍ يحكم في موارد ثبوت الملاك والمناط بالحكم الشرعي على نحو تعميم التعليل، فكما أنّ التعليل تعمّم بالنسبة.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ حكم العقل العملي الذي يكون مورد وفاق العقلاء بما هم عقلاء إذا تحقّق في شيء وكشف الملاك الواقعي لذلك الحكم على ما هو عليه في الواقع ونفس الأمر، أي كشف عن ملاك الحكم الشرعي من المصلحة أو المفسدة في الواقع ونفس الأمر، فيترتّب عليه حكم الشرع الذي يكون ملاكه ومناطه نفس الحكم الأوّل أيضاً بلا كلام وهو من المسلّمات الفقهية لدىٰ الشيعة الامامية.

فإذا حكم العقل بحسن العدل وقبح الظلم بعد كشف ملاكهما في الواقع ونفس الأمر يترتّب عليه نفس الحكم المترتّب علىٰ الحكم الأوّل لأنّ من المعلوم أنّ الشارع من العقلاء بل رئيس العقلاء، فإذا كان وجه الحكم معلوماً والملاك للحكم مذكوراً فالحكم جارٍ في الثاني لعموم التعليل وثبوت الموضوع وترتّب الحكم عليه قهري، فإنّ الشيعة الاثنىٰ عشرية يعتقدون بأنّ الأحكام الشرعية مترتّبة على المصالح والمفاسد الواقعية، فإذا ثبتت المصلحة أو المفسدة فترتّب الحكم عليه أمر قهري لا محالة. فلاحظ.

في بعض المقامات من دون تعرّض للشرع من جهة هذه القاعدة، فعلم مما نبّهنا عليه ظلم السنّي للشيعة وعدم إنصافه معهم وكذبه عليهم[١].

ورابعها: إنّه لو فرض كون الشيعة جاعلين لله سبحانه من عند نفوسهم شريعة لكنها حسبما نبّهنا عليه مطابقة لما فرضه سبحانه على نفسه من الرحمة ولما حرّمه على نفسه من الظلم، فما جعلوه مطابق لما جعله على نفسه فلم يخالفوه ولم يعصوه في الذي جعله على نفسه،[٢] بل جرت سيرتهم على العمل به فحصلت لهم

---

(١) وخلاصة الكلام: أنّ القاعدة إذا فسّرت بصورة صحيحة، تعدّ حجر الأساس للقوانين الشرعية الإسلامية؛ لأنّ ملاكات التكاليف الشرعية مبنية على المصالح والمفاسد الواقعية والمصالح والمفاسد الواقعية مترتّبة على التحسين والتقبيح العقليين.

هذا بناءً على القول بأنّ العقل يكشف عن المصلحة الواقعية، وأمّا اذا كانت الأحكام الشرعية أُمور تعبّدية لم يعرف الملاك والمصلحة فيها، فلا معنى؛ لجريان هذه القاعدة، إذ من الواضح أنّ شأن العقل درك ما هو معلوم الملاك، وأمّا لوكان الملاك، مجهولاً فلا يمكن.

نعم قد أنكر الأشاعرة وأهل الحديث هذه القاعدة لأنّهم زعموا أنّ العقل لا يدرك حسن الأفعال وقبحها وذهبوا إلى: أنّ المرجع في تمييز الحسن والقبح هو الشرع، ومن هنا افترق المسلمون الى طائفتين:

١ـ من يقول بالتحسين والتقبيح العقليين الذي يمثلهم الإمامية وبعد الإمامية المعتزلة.

٢ـ من ينكر التحسين والتقبيح العقليين وهم الأشاعرة وأهل الحديث.

وقد استدل علماء الشيعة الإمامية على اعتبار هذه القاعدة بأدّلة تقتضي وضوح الحكم ويكفي للباحث المراجعة إلى كتبهم في هذا المجال ولا يحتاج إلى بسط البحث أكثر من هذا؛ لأنّه من البديهيات والضروريات التي لا يختلف فيه اثنان. فلاحظ.

(٢) لا شك أنّ كل باحث لو رجع إلى كتب الشيعة الإمامية ودرسها دراسة علمية موضوعية بقصد التمحيص والتحقيق في جميع مجالاتها يجد بوضوح أنّ الشيعة الإمامية يتعبّدون بنصوص القرآن الكريم، وكل ما ثبت صحته عن النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمّة الطاهرين عليهم السلام، ويرفضون كلام غير المعصوم المخالف للكتاب والسنة القطعية لأنّهم يعتبرون مخالفة الكتاب ⇐

السعادة بذلك[١]، فليقل لنا السُنّي ما حال من عصاه وخالفه ولم يعتن بما كتبه على

وسنّة المعصومين مخالفة للشريعة المقدسة، وهذا من المعتقدات المسلّمة عندهم، فلا تأخذهم في ذلك لومة لائم بل يبذلون كل جهدهم في الدفاع عنه بكل ما يملكون من المال والنفس لأنّهم يعتقدون بانّ الدفاع عن كتاب الله وسنّة المعصومين دفاع عن الدين نفسه فقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢) قد فسره علماء الشيعة حسب ما ورد في تفسيره بهداية الناس بسبب بعث الأنبياء وإنزال الكتب، ولذلك قال تعالى في وصف خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التوبة: ١٢٨) فإنّه سبحانه قد كشف في هذه الآية الكريمة، عن منتهىٰ لطفه وعنايته، فبيّن تعالى أنّ رحمته الخاصة بالمؤمنين هي نفس هداية المؤمنين إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، والرسول الأكرم ﷺ هو الحامل لهذه الرسالة الألٰهية والرحمة الربانية، فيعرف من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أنّ الكتابة هي الإثبات والقضاء الحتم وهي إفاضة النعمة على مستحقّها، وإيصال الشيء إلى سعادته التي تليق به، والمعنى أنّه تعالى: أوجب على نفسه الرحمة وإفاضة النعم بإرسال الرسل وإنزال الكتب قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (سورة المجادلة: ٢١) وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (سورة الذاريات: ٢٣) فهذه الصفة من صفاته تعالى الخاصة بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٦) أي أن تلك الرحمة الواسعة تكون مقيّدة بالحكمة وهي دلالتهم لما تضمن نجاتهم وسعادتهم المعنوية وسلوكهم إلى مرضاته.

فالشيعة يعتقدون بأنّ الله تعالى مصدر كل رحمة، وهو الذي أوجب على نفسه الرحمة، وهذه الرحمة عامة لجميع الكائنات وخاصة للبشر.

(١) فإنّ سعادة كل موجود بكماله والغاية التي يبلغها بحسب خلقه ومقتضيات أحواله، فكمال الإنسان في معرفة الله وعبوديته وطاعته جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦) وطبقاً لمعنى هذه الآية الكريمة فإنّ الجن والإنس لم يخلقوا لغير عبادة الله، فالعبودية هي غاية الكمال وأعلىٰ مقام للإنسانية، فإنّ أعظم مقامات الإنسان مجتمعة في أفضل الإنسان وأكملهم وهو الرسول الأعظم ﷺ وإنّ

نفسه وحرّمه على نفسه؟ بل نسب اليه ما يخالف ذلك. فزعم أنّه خلق الكفر والشرور في العباد، وأنّه يعاقبهم على هذه التي هو خلقها فيهم وهو ظلم بَيّن، وقد نفى سبحانه عن نفسه الظلم وحرّمه عليها(١).

⬅ أعظم المقام له مقام العبودية كما نشهد بذلك ونقول: أشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، فإنّ مقام العبودية أعظم من مقام الرسالة، ولذلك قدّم في الشهادة عليها والمقصود بالعبادة هو المنهج لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة، حيث أنّ العبادة بمعناها العام هي التسليم لأمر الله عزّوجلّ وهذه الحالة ستهب للإنسان روح التكامل في الأبعاد المختلفة، إذن سعادة كل إنسان بتكامله وتكامله بعبوديته، وهذا المقام إنّما يحصل بإرادة الإنسان واختياره للأعمال الصالحة وأخلاقه الحسنة.

فكما يتلوّن بلون الإناء الذي يحتويه، فإنّ أعمال الانسان وأخلاقه ونياته تعين مصير الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر:٣-١).

(١) فإن هذه الحقيقة القرآنية هي أصل غير قابل للإنكار، وقد نص سبحانه وتعالى عليها في آيات عديدة.

منها: قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (سورة صٓ:٢٨).

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ (سورة الجاثية: ٢١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة يٓس:٦٠).

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة القلم: ٣٥).

ومنها: قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ﴾ (سورة الرحمٰن: ٦٠) وإلى غير ذلك من الآيات والمستفاد منها أنّه يستحيل على الله تعالى أن يساوي بين المؤمن والكافر وبين المجرم والصالح؛ لأنّ المساوات بين الطرفين ظلم والظلم بعيد عن ساحة الربوبية قال الله ⬅

فامتاز بحمدالله الحق من الباطل، وعلم بأنّ الشيعة على برهان من الله، وأنّ من تسمى بأهل السنّة على غير برهان من الله، فالشناعة العظيمة قد لحقت من قال بإمامة الثلاثة بذهابهم الى خلق الله فعال عباده ومعه يعاقبهم عليها بعد تصديقهم بأنّه قد كتب على نفسه الرحمة وحرّم على نفسه الظلم[1].

تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ (سورة النساء: ٤١) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة يونس: ٤٤) بل وفي بعض الآيات أنّ الله تعالى أكّد على أنّ الظالم ليس له نصير (راجع سورة الحج: ٧١).

وفي بعض الآيات قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (سورة غافر: ١٨) فإنّ من عرف معنى الظلم يعلم علم اليقين بأنّه بعيد عن كلّ عاقل يدرك قبحه، فكيف بالحكيم الذي لايفعل إلاّ عن حكمة وكتب بالحكيم على الإطلاق وهو الله سبحانه وتعالى، فإنّ الظلم بعيد عن ساحته المقدّسة، وهو سبحانه قد نفى ذلك عن نفسه تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

(١) فإنّ من ذهب الى أن الله تعالى خالق لأفعال العباد، وأنّ الانسان مسلوب الاختيار في أعماله وأفعاله قد خالف كتاب الله العزيز صراحة لأنّ الله تعالى أكّد على اختيار الإنسان في أعماله ضمن آيات عديدة:

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الإنسان: ٣).

ومنها: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ (سورة الكهف: ٢٩).

ومنها: قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصّلت: ٤٦).

قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (سورة الطور: ٢١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُم مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ (سورة النور: ١١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ

فإن قيل: المعتزلة لم تذهب الى ذلك وهم قائلون بإمامة الثلاثة[١].

ٱلْأَوْفَى﴾ (سورة النجم: ٣٩ ـ ٤١). وإلى غير ذلك من الآيات، فإنّها صريحة في أنّ الإنسان مختار في عمله.

ومن كذّب بهذه الآيات الصريحة فقد شمله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَيُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٢١) وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٥٧) وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِنَ ٱلْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَاكُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٧) والى غير ذلك من الآيات الصريحة في أنّ من كذّب بآيات الله فهو كافر وسيذوق العذاب الأليم.

إذن، إنّ القائلين بالجبر مخالفون لصريح القرآن الكريم كما تقدّم من الآيات الكريمة، ومضافاً إلى الآيات المذكورة أنّ الله سبحانه وتعالى ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢) وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام: ٥٤). فكيف يمكن من كتب علىٰ نفسه الرحمة أن يعذّب عباده بسبب الفعل الذي هو خالقه؟!!!

وكيف يمكن تعذيب من لا اختيار له في العمل فإنّه ظلم والله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

ثمّ لايخفى أنه القول الجبر مضافاً إلى كونه مخالفاً لصريح القرآن الكريم، فهو أثر لميول سلاطين بني أُميّة والغاصبين لخلافة أئمّة الأطهار عليهم السلام الذين كانوا لايتحاشون عن ارتكاب كلّ جريمة نكراء للوصول ارلى القدرة والسلطة، وكانوا يتوسّلون بكلّ خديعة لتبرير أعمالهم الشنيعة، فكانوا يتوسّلون إلى القول بالجبر لئلاّ يتوجّه إليهم الاعتراضات والحملات من الأُمّة وعامّة الناس. فلاحظ.

(١) فإنّ المعتزلة أحد الفرق السنيّة المخالفة للإمامية وهم يسمّون أنفسهم بالعدلية، القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين، فهم يعتقدون: أن العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها كعلمنا

قيل: المعتزلة قد انقرضت في زمن الملك الظاهر بيبرس،[١] فلم يبق في الدنيا معتزلي من ذلك اليوم على ما نقله المقريزي في خططه[٢]، وقد مضى بيان

➲ بحسن الصدق النافع وقبح كذب الضار، وغيرهما من الأُمور البديهية، ولكن مع الأسف أنّهم يشتركون مع الأشاعرة في أُصول المذهب كالالتزام بالخلافة علىٰ طريقة العامة خلافاً لما بنوا عليه في أُصول معتقداتهم من الالتزام بالعدل الإلٰهي المقتضي لوجوب اللطف عليه؛ فإنّ مقتضىٰ حكم العقل وجوب بعث الأنبياء وتنصيب المعصومين والخلفاء وعدم خلو عصر من الإمام المعصوم فهم خالفوا مقتضىٰ هذه القاعدة العقلية، واتّفقوا مع الأشاعرة في باب الخلافة والتزموا بخلافة المفضول على خلاف الموازين العقلية والعقدية والشرعية مع أنّهم صرحوا بعدم جواز تقديم المفضول على الفاضل.

قال المناوي: لا يجوز الحكم للمفضول بعلو الدرجة بها على الفاضل وإلّا لبطل الفضل، وهذا القسم يختص به الفاضل بفضل علمه... (أُنظر فيض القدير بشرح جامع الصغير ج٢: ص٣٤) وسيأتي تفصيل الكلام في هذا المقام إن شاء الله تعالى.

(١) وهو ركن الدين بيبرس العلاني البندقداري الصالحي النجمي الملقب بالظاهر، ملك من ملوك مصر، فهو ملك مصر بعد أن غلب على المغول سنة ٦٦٠ هـ وأحيىٰ في دولته وسلطنته مذهب الخلفاء، فقد وَلِيَ مصر أربعة قضاة من المذاهب الأربعة: الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، واستمر ذلك من سنة ٦٦٥ هـ حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام سوىٰ هذه الأربعة، وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الإسلام.... (الخطط المقريزية ج٣: ص٢٣٢).

ولايخفى على الخبير أنّ دعم العبّاسيون من قبل بيبرس إنّما كان لهدف ضرب خط آل البيت عليهم السلام فإنّ خط آل البيت عليهم السلام متمثّل في الشيعة فقط، ولذلك اهتم بيبرس أن يقضي على هذا الخط والنهج، وكلّما كان يقرب منه من أهل السنّة فقضوا على المعتزلة أيضاً لأنّهم قد مالوا في بعض المسائل إلى الشيعة، وإن كان ذلك تناقض بَيّن من المعتزلة حيث لايجتمع الاعتقاد بالعدل الإلٰهي مع الاعتقاد بخلافة الخلفاء الثلاثة كما تقدّمت الإشارة إليه. وعلى كل حال: فإنّ مذهب الاعتزال قد انقرض في عصر الظاهر بيبرس البندقداري. فلاحظ.

(٢) الخطط المقريزية (المسمّاة) بـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لتقي الدين أحمد بن ➲

مخالفة المعتزلة لما كتبه سبحانه على نفسه في غير هذه المسألة، فعامة من قال بإمامة الثلاثة مخالفون لما فرضه سبحانه على نفسه ولما حرمه،[1] فتدبّر.

➲ علي بن عبد القادر البعلبكي المقريزي، بفتح الميم نسبة إلى مقريز، محلة من بعلبك.
ثم المصري الفقيه المؤرّخ الشافعي ولد سنة ٧٦٩ هـ وتوفّي سنة ٨٤٥ هـ

قال المقريزي ما هذا نص عبارته: فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري وَلِيَ مصر أربعة قضاة، وهم شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي، فاستمر ذلك من سنة ٦٦٥ هـ حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام سوىٰ هذه المذاهب الأربعة، وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الإسلام. وعودي من تمذهب بغيرها، وأنكر عليه ولم يكن مقلّداً لأحد هذه المذاهب، وأفتىٰ فقهاء الأمصار في طول هذه المدة بوجوب اتّباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها. (أنظر كتاب الخطط المقريزية ج٣: ٢٣٢ ـ ٢٣٥).

أقول: إنّ حصر المذاهب بالأربعة كان من أجل إقصاء مذهب أهل البيت عليهم السلام لأنّ بيبرس وغيره ممن ساعده على ذلك كانوا يستهدفون مشروعية المذاهب الأربعة السنية فقط، وبذلك أرادوا القضاء على جميع المذاهب حتى المذاهب السنية كالمعتزلة وغيرها فضلاً عن مذهب أهل البيت عليهم السلام، وأما مذهب الاعتزال وإن كان له دور قليل في حكومة المأمون العبّاسي ولكن حيث كانوا متفقين مع الشيعة الإمامية في أصل العدل والقول بالتحسين والتقبيح العقليين فقد منعوا عن انتشاره لئلّا يعرف الناس مايقرّبهم إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام. فلاحظ.

(١) فإنّ المعتزلة وإن ذهبوا بالعدل الإلٰهي في باب التوحيد إلاّ أنهم خالفوا مقتضىٰ هذا الاعتقاد في باب الإمامة؛ لأنّ العدل الإلٰهي يقتضي وجوب اللطف على الله، ومن فروع اللطف وجوب نصب الإمام المعصوم وهذا يخالف مسلك اختيار الناس الخليفة، فإنّ من ذهب إلى خلافة الخلفاء الثلاثة فقد خالف العدل الإلٰهي إذ مقتضى العدل الإلٰهي وجوب اللطف، ومن المسائل التي تترتّب عليه وجوب نصب الإمام والخليفة من قِبَل الله تعالى.

ومن الواضح أنّ من يذهب بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان إنّما يقول: بعدم وجود نص على إمامة أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويدّعون بأنّ الخلافة كانت باختيار الناس حيث أنّ الأُمة الإسلامية أجمعت في سقيفة بني ساعدة واختاروا أبا بكر خليفة لهم، ولكنهم غفلوا عمّا بنوا ➲

وخامسها: إنّ ما نسبه الى الشيعة من أنّهم يشبّهون الله في أفعاله بالعباد في أفعالهم فما هو حسن منهم حسن منه، وما هو قبيح منهم قبيح منه من عظيم بهتانه عليهم، فهذه صحفهم تنادي بوجوب توحيده سبحانه في نفسه وفي صفاته وفي أفعاله وفي عبادته،[١] فالله بمقتضى ما كتبه على نفسه من الرحمة عليه أن يرسل

عليه في باب التوحيد من العدل الإلٰهي، فإنّ العدل الإلٰهي يقتضي وجوب نصب الإمام، كما أنّه يقتضي وجوب بعث الأنبياء، فعدم نصب الإمام يكون ظلماً ومخالفاً للعدل؛ لأنّ الله تعالى يعلم حيث يجعل رسالته، وإذا كان كما يدّعون فيكون ظلماً وقد حرمه الله على نفسه كما تقدّمت الإشارة إليه من خلال مباحث المتقدّمة.

(١) فإنّ الشيعة الإمامية تعتقد بوحدانية الله عزوجل من جهات متعددة، وربما يعبّر عن تلك الجهات بأقسام التوحيد أو مراتب التوحيد. وخلاصة ما ذكروه في المقام هو ما يلي من الأقسام:

١ـ التوحيد الذاتي: والمراد به هو المعرفة بوحدانية الله عزوجل ونفي التعدّد عنه، بأنّ الله تعالى واحد لا ثاني له، كما نص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وقد يطلق التوحيد الذاتي ويراد منه نفي التركيب أي الايمان بوحدانية الله بصورة نفي التركيب عنه، كما نص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

٢ـ التوحيد الصفاتي: والمراد به هو المعرفة بأنّ ذاته تعالى عين صفاته بل كل صفة من صفاته عين الصفة الأُخرىٰ منه، لا تكون زائدة على ذاته، ويعبّر عنه بالتوحيد الصفاتي.

وتوضيحه: أنّ صفات الإنسان كالعلم والقدرة ونحو ذلك تكون زائدة على ذاته أي أنّها أمر حادث تعرض على الإنسان ولكن الصفة بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى لا تكون حادثة ولا طارئة على ذاته المقدسة، حيث لو كانت زائدة على ذاته للزم التركيب والتركيب يلازم الحاجة الى إنضمام البعض إلى البعض، والله سبحانه وتعالى غني بالذات؛ فصفاته الكمالية والجلالية لا تكون زائدة على ذاته بل هي عين ذاته.

٣ـ التوحيد الأفعالي: والمراد به المعرفة والقول بأنّ الله تعالى غير محتاج في أفعاله لأيّ أحد ولأيّ شيء، فلا يمكن لأحد أن يقوم له المساعدة في أفعاله وكل ما في الوجود محتاج اليه.

الى عباده الرسل باياته التي يحصل لهم العلم اليقينى منها بصدقهم فيما يدعونهم

➲ وتوضيح المقام: أنّ كل ما يقع في العالم من العلل والمعلولات والأسباب والمسبّبات والنظامات العادية وما فوقها التي تقع في الخارج ليس لها استقلالية في وقوعها حدوثاً وبقاءً بل كل شيء قائم بالله تعالى وهو القيّوم المطلق، ولكنه قد أعطى للعلة دور العلية وللمعلول دور المعلولية.

وبعبارة أُخرىٰ: انّ الله تعالى قد جعل قانون العلية والمعلولية قواماً لوجود الأشياء بحيث لو لم توجد العلة في الخارج لايوجد المعلول، فإنّ هذه العلية لو لم تكن لم يتحقق هذا النظام الدقيق في العالم، وكل هذه العلل والأسباب منوطة بإذن الله تبارك وتعالى في عليتها وسببيتها، فلو لم يشأ الله تبارك وتعالى لا تؤثر العلة ولا السبب، بل إذا أراد الله تعالى أن يجعل السبب والعلة ـ مثلاً ـ في جهة العكس لكان محقّقاً، كما في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث أراد أن تكون النار برداً على عكس اقتضائها.

وعليه: فإنّ العلل والأسباب أكبر دليل على وجود خالق لنظام هذا العالم مثلاً، أنّ الشمس التي تضيء العالم لايمكن أن يقال: أنّها وجدت اتفاقاً وليس من وراء وجودها حكمة وعلة، فكل شيء يتحقّق في الخارج ويلبس ثوب الوجود يكون وجوده لسبب وعلة، فإنّ الله تعالى قد أوجد العلية لتحقّق الأشياء وهذا مايسمىٰ بالعلة الحادثة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العلة المبقية، فإنّه تعالى هو الذي أعطىٰ لكل وجود علة لبقائه بعد حدوثه.

اذن لامعنى للقول بايجاد الشيء بالعلة على نحو الاستقلال خاضعة لقدرة الالهية وسلطانه وملكه.

٤ـ التوحيد في العبادة: والمراد به المعرفة والاعتقاد بان الله تبارك وتعالى هو الوحيد الذي يستحق العبادة والطاعة وانّ عبادته واجبه دون من سواه لأنّ العبادة تجب أن تكون لمن هو كمال مطلق، ومطلق الكمال لمن هو غني عن الآخرين ولمن هو واهب النعم وخالق كل الموجودات وهذه الصفات لا تجتمع إلّا في ذاته المقدسة كما في قوله تعالى: اياك نعبد واياك نستعين، وهذا النوع من التوحيد هو الهدف الوحيد من بعث الأنبياء كما قال سبحانه: ولقد بعثنا في كل امة رسولاً أن اعبدوالله واجتنبوا الطاغوت (سورة النحل: ٣٦) وقال تعالى: وما ارسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي اليه أن لا اله الّا أنا فاعبدون (سورة الانبياء: ٢٥) ولا أظن أحداً من المسلمين يشك في هذه الأقسام والجهات في بحث التوحيد.

وهو معرفته وطاعته وقد فعل[1] والعباد عليهم تصديق الرسل ومتابعتهم ليحصل

---

(١) فانّ معنى قوله تعالى: كتب على نفسه الرحمة (سورة الأنعام: ١٢) أي أوجب على ذاته المقدسة من باب التفضل والاحسان ببعث الأنبياء والرسل وانزال الكتب ونصب الأئمة وارشاد العباد وتعظيم أجرهم ومدح الصابرين واعطاء الناس العقل السليم والى غير ذلك من ادوات الهداية التي جعلها في اختيار الانسان لينتفع بها ويحصل له اليقين بها ويصدق بما اعطاه من الفضل والرحمة فالرحمة في الآية الكريمة اشارة إلى النعم الالهية ظاهرية وباطنية وقد جاءت مراراً في الآيات الكريمة كقوله تعالى: ابتغاءكم من فضله (سورة الروم: ٢٣) أو لتبتغوا من فضله (سورة النحل: ١٤) بمعنى تحصيل النعمة وقد جاء في بعض الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام انّ الفضل الالهي هو وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونعمة النبوة، وانّ المراد من رحمة الله وجود الامام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ونعمة الولاية. فقد ورد في تفسير قوله تعالى: يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (سورة يونس: ٥٧ ـ ٥٨) ففي الحديث عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من هداه الله للاسلام وعلّمه القرآن ثم شكى الفاقة كتب الله الفاقة بين عينيه إلى يوم القيامة ثم تلا: قل بفضل الله ورحمته... وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام فضل الله ورسوله ورحمته علي بن أبي طالب عليه السلام (تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ج٥: ص٢٠١) وروى أيضاً عن قتادة ومجاهد وغيرهما عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: بفضل الله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورحمته علي بن أبي طالب عليه السلام ثم قال الطبرسي ورواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس (تفسير مجمع البيان ج٥: ٢٠١).

وفي تفسير العياشي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قلت له: قل بفضل الله وبرحمته بذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون فقال: الاقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والايتمام بأمير المؤمنين عليه السلام هو خير مما يجمع هؤلاء في دنياهم (تفسير العياشي ج٢: ١٣٤) وفي تفسير الفرات الكوفي عن جعفر بن محمد الفرازي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قوله تعالى: بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون قال: بفضل الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبرحمته أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (تفسير فرات الكوفي: ص١٧٩) وعنه عن

لهم الفوز برضاه ورحمته(١).

➲ زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال: بفضل الله ورحمته فمن قسم الله له حبنا أهل البيت فهو خير له من سلطان هؤلاء خير مما يجمعون (تفسير فرات الكوفي: ص١٧٩) وإلى غير ذلك من الروايات.

وربما كان ذلك اشارة إلى أنّ وجود النبي ﷺ كان بداية الاسلام والامام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام سبب بقائه واستمراره فاحدهما علة محدثة وموجدة والاخر علة مبقية وللاطلاع على هذه راجع تفاسير الشيعة كتفسير البرهان ونور الثقلين وغيرهما ذيل الآية المباركة.

(١) فإنّ التصديق بالرسل يلازم التبعية لهم في الأقوال والأفعال والتسليم بما جاؤوا به، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٤) فإنّ البصيرة هي الرؤية الذهنية والفعلية.

وفي المقام معناه: أنّ الأدلّة والبراهين كانت كافية لإظهار الحقيقة لأنّها منطقية، فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها، ولذلك قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَبِّي هٰذَا بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠٣ف). وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (سورة يونس: ١٠٨) وإلى غير ذلك من الآيات التي فيها التصريح بأنّ التعاليم السماوية قد جاءت بواسطة الرسل والكتب السماوية، وكذلك قد بيّنت الحقيقة بالأدلة الواضحة والبراهين الجليّة للناس ليهتدوا بدين الحق، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ فإنّ التصديق بما جاء من قبل الله يحصل لكل إنسان عاقل له الشعور والعقل والوجدان اذ الأدلة والبراهين تكفي لقبول ما جاء من عند الله، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٥).

ومعناه: إنّه إذا أتاكم رسلي يتلون عليكم آياتي فاتّبعوهم؛ لأنّ من اتقى منكم واتّبعهم وأصلح نفسه فلايخاف ولايحزن فالمؤمن الحقيقي هو من يؤمن بجميع ما جاء من قبل الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ ➲

فانظر هل بين ما وجب عليه سبحانه، وبين ما وجب على عباده مشابهة[١]؟ فأين مقام رشدهم الى معرفته وطاعته من مقام تحصيلهم معرفته

⊃ ٱلَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٤٣).

فإنّ الجنّة ونعيمها لمن كان مؤمناً حقيقياً، والمؤمن الحقيقي هو الذي يعمل على مقتضىٰ العقل والفطرة وهما يدعوان الانسان إلى التبعية عمن له صلاحية الهداية للوصول إلى الحق والعدل، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾... (سورة النساء: ١٣٥).

فالآية تشير إلى أنّ المؤمن الحقيقي هو ذلك الشخص الذي لا يعير إهتماماً في مجال الحق والعدل، ويتقاضى عن مصلحته ومصلحة أقاربه من أجل تطبيق الحق والعدل إنّما يهتم لما هو. الحق فلاحظ.

(١) وخلاصة الكلام: إنّ الفرق بين وجوب اللطف على الله والرحمة على العباد أمر واضح بديهي جداً، لأنّ حكم العقل ظاهر وبديهي في إدراك الحكمة في هذا اللطف والتفضّل فانّه من باب ارشاد العبد إلى طريق السعادة لا الوجوب بمعنى الطاعة كما هو واضح ظاهر.

فإنّ العقل حاكم بوجوب طاعة الله لأنّ الحاكمية لله عزوجلّ وحده فوجوب الطاعة، من باب وجوب المولوية والمالكية التكوينية والتشريعية على الإطلاق، فهو سبحانه مالك ذاتاً لكل شيء ملكية حقيقية ذاتية تكوينية وتشريعية فلا بد أن يخضع له المملوك خضوع من هو مملوك حقيقة فوجوب طاعة الله عقلي كما أنّ وجوب طاعة الرسول وطاعة أُولي الأمر كذلك عقلي.

ولذلك قال العلّامة الحلّي في كتابه نهج الحق وكشف الصدق: لو كان الحسن والقبح سمعياً لا عقلياً لما قبح من الله شيء ولو كان كذلك لما قبح منه تعالى إظهار المعجزات على يد الكاذبين، وتجويز ذلك يسدّ باب معرفة النبوة إذ إظهار المعجزة بعد ادّعاء النبوّة لا يكون دليلاً لصدق إدّعائه إذا كان باب احتمال إظهار المعجزة على يد الكاذب مفتوحاً (نهج الحق: ص٨٤).

وعليه: فإنّ معنى الوجوب في المقامين واضح لدى الخبير، فلا يصح بعد ذلك القول بأنّ المعنى واحد. فلاحظ.

والقيام بوظائف طاعته؛ فإنّ ما وجب عليه سبحانه غير ما وجب عليهم[١].

فإنّ الذي وجب على بيان ربوبيته لهم بإرشادهم إلى ما يوجب رضاه عنهم ورحمته عليهم[٢]، والذى وجب عليهم التصاغر لكبريائه وعظمته بالجري على

(١) بعبارة أُخرىٰ: أنّ العقل يدرك من صميم ذاته أنّ الله سبحانه وتعالى يستحق العبادة دون غيره لأنّه تبارك وتعالى مالك كلّ شيء وما سواه مملوك له، ومقتضى مملوكية جميع المخلوقات هوالعبودية والخضوع أمام خالقه ومالكه قال الله تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾ (سورة مريم: ٩٣) ولمّا كان هو المعطي للنعم كلّها أُصولها وفروعها في الدنيا والآخرة كانت الالهية واستحقاق العبادة منحصرة فيه ولا توجد في غيره ومع أنّ كل العباد وظيفتهم العبادة والطاعة فهو غير محتاج لطاعتهم بل هم المحتاجون، فأين المقام كانت صفاته الكمالية والجلالية مبيّنة لعظمته وكبريائه، وأنه العقل يدرك ويكشف عن لزوم كونه معبوداً لايزال ومستحقّاً للعبادة وحده؛ لأنّ الغني بالذات الذي يستمد اليه كل شيء لا بد أن يستمد اليه الكل لأنّ كلّ شيء تحت مملوكيّته وقاهريّته وغيره الفقير المطلق ومن هنا يتضح قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: أوّل عبادة الله معرفته وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه، لشهادة العقول أنّ كل صفة وموصوف مخلوق، وشهادة كل مخلوق أن له خالقاً ليس بصفة ولا موصوف... (التوحيد للصدوق: ص٣٤).

فإنّ صفاته الكمالية والجلالية تكشف عن عظمة ذاته المقدّسة، بأنّه تبارك تعالى قائم بذاته غير محتاج لسواه خالق عالم غني عن العالمين رحمته واسعة و....

وأمّا بالنسبة إلى البشر فإنّ العقل يدرك بأنّه محتاج إلى غيره في جميع شؤونه، وأنّه فقير، ووجوده منوط بلطف من هو غني بالذات ومحتاج إلى إحسانه بحيث لو قطع ارتباطه لحظة واحدة منه لأصبح عدم في عدم، فالبشر بواسطة هذا العقل يبيّن حقيقة نفسه وفقره المطلق ويبيّن وظيفته أمام خالقه فيجب عليه طاعة ربه وعبادته.

(٢) وبعبارة أُخرى: إنّ ما أوجبه تعالى على نفسه؟ إفاضة النعمة وإنزال الرحمة على العباد ببعث الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع وغير ذلك من الألطاف والهدايات التي بها جهّز ⟵

عبادته خاضعين خاشعين له مؤمّلين رضاه ورحمته[1]، والذي حرّمه على نفسه

➲ عباده للوصول إلى السعادة والكمال المطلوب، فإنّه قد أتم أمر الدعوة علىٰ الناس بما لامزيد عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأعراف: ٥٢). هذه الآية الكريمة تشير الى أنّ حرمان الكفّار والعصاة ومصيرهم المشؤوم هو نتيجة تقصيرهم أنفسهم وإلاّ لم يكن قصور في هدايتهم وقيادتهم وإبلاغ الآيات إليهم وبيان الدروس التربوية لهم، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٥٢) وفقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الإسراء: ٨٢) وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٥١) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧) وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يوسف: ١١١) وإلى غير ذلك من الآيات.

فإنّ أدوات الهداية كانت ممهدة لجميع الناس فمن استعمل هذه الأدوات والقوىٰ في سبيل هداية نفسه فقد اهتدىٰ ومن لم يهتد فهو المسئول عن عمله، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (سورة الكهف: ٢٩) وقال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ (سورة الشمس: ٧ ـ ٨) وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الدهر: ٣٠).

(١) لا شك أنّ الواجب على كل عبد التسليم لإرادة الله سبحانه من دون أيّ قيد وشرط والخضوع له بالعبودية والطاعة، ليكون مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ...﴾ (سورة المائدة: ١٦) فإنّ اتّباع رضوان الله يلازم الإيمان الكامل بالله تعالى ثم التسليم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٨٢).

فالظاهر أنّ مكان الأمن المقصود به في الآية الكريمة نفس سبل السلام المذكور في الآية المتقدّمة التي ينتفع به الناس. إذ أنّ من سلك سبل السلام فهو في مكان أمن وهو المكان الذي دعا اليه جميع الخلائق، كما قال تعالى: ﴿وَٱللهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ﴾ (سورة يونس:
➲

عقوبة من لم يصدر منه ذنب[١]، والذي حرم عليهم تعدّي حدوده التي حدّها لهم قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[٢]، فأين ما حرّمه على نفسه

➲ ٢٥).

وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة عن ابن بابويه بسنده عن العلاء بن عبد الكريم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله عزوجل: ﴿وَٱللهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلاَمِ﴾ فقال: إنّ السلام هو الله عزوجل وداره التي خلقها لأوليائه الجنّة (معاني الأخبار للشيخ الصدوق: ص ١٧٦).

(١) لأنّ عذاب من لم يستحق العذاب ظلم، ويستحيل ذلك على الله تعالى فإنّ الظلم قبيح عقلاً وحرام شرعاً، أما عقلاً فواضح لأنّ الظلم إمّا عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه، أو بمعنى: التعدّي إلى حقوق الآخرين، وعلى كلا المعنيين فهو قبيح عقلاً، وأمّا شرعاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (سورة الكهف: ٤٩) فإنّ انتفاء الظلم في أفعاله تعالى بانتفاء موضوعه، وعلى هذا فإنّ الآيات النافية للظلم عن ساحته المقدّسة تقصد سلب الظلم عنه لأجل عدم موضوعه واستحالة تحقّقه منه تعالى، فما جاء مثل هذه الآية الكريمة إنّما تبيّن أهم الموارد وهو الإنسان، بحيث أنّه لا يلوم أحداً سوىٰ نفسه لأنّ الثواب والعقاب إنّما يترتّبان على نفس أعمال الإنسان، فلا يزيد في عقاب المسيء ولا ينقص من ثواب المحسن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٨) وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ (سورة غافر: ٣١) وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة النحل: ١١٨) وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصّلت: ٤٦). فعند ما يقول تبارك وتعالى: انّ لا يريد الظلم بعباده، كيف يجوز له أن يعذّب من لا يستحقّ العذاب.

فمن البديهي أنّ القول بالجبر وكون الله تعالى خالقاً لأفعال العباد مرجعه إلى أنّه تعالى يكون خالقاً للمعاصي وإذا كان الله خالقاً للمعاصي فمعناه: أنّه أراد المعاصي، وكيف يمكن أن ينسب الى الله سبحانه وتعالى إرادة الظلم وهو يصرح في كتابه العزيز: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ أو ما الله يريد ظلماً للعباد، فانّه تبارك وتعالى نفى جميع أنواع الظلم عن نفسه فلاحظ.

(٢) (سورة الطلاق: ١) فإنّ المراد بالحدود في الآية الكريمة هو التخلف عن الأوامر والنواهي

مما حرّمه عليهم؟ فما وجه الشبه بين فعله وفعلهم؟ وما المناسبة بين الفعل الذي يدل على الربوبية والفعل الذي يدل على العبودية؟ فإنّ أوّلهما دليل على القهر والعظمة والغنى والرحمة، وثانيهما يدلّ على الحاجة والضعف والذلة والمرحومية[١].

الإلهية، ولا يستثني منها أحداً أبداً، فمن لم يطع الله فقد تعدىٰ عن حدوده، فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ الله تعالى حدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها وفرض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وسن لكم سنناً فاتبعوها، وحرّم عليكم حرمات فلا تهتكوها، وعفا لكم عن أشياء رحمة منه لكم عن أشياء من غير نسيان فلا تكلّفوها (الأمالي للشيخ المفيد: ص١٥٩ ح١).

وأمّا وجه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٢٩) هو أنّ كل مذنب إذا أذنب ذنباً فقد خرج عن الحدود التي رسمها الله للعباد فيكون متعدّياً لحدّ من حدود الله، وكل متعدّ من حدود الله فهو ظالم، سواء كان ظالماً لنفسه أو ظالماً لغيره، فينتج أنّ كل فاعل ذنب ظالم ولا محالة لا يكون الظالم مساوياً مع غير الظالم فلا يستوي الحسنة والسيئة ولا المحسن والمسيء. وعليه: إذا حرّم الله الظلم على عباده كيف يصح أن يحللها بالنسبة إلى نفسه؟ وكيف يصح لنا نسبة الظلم إليه؟

فمن الواضح أنّ مرجع قول أهل السنّة: من أنّ الله خالق لأعمال العباد خيرها وشرها إلى انّه يجوز له تعالى أن لايراعي الحدود التي جعلها للعباد، بل وحيث أنّ صفاته عين ذاته أزلية تصح على هذا الزعم أن يكون ذلك من صفاته ـ والعياذ بالله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) وبعبارة أوضح: إنّ فعله تعالى ناشئ من صفاته الكمالية الجمالية، وانّ صفاته عين ذاته لا زائدة عليها، فلاتكون صفاته حادثة بل أنّها عين ذاته أزلية، إذن لامعنى للقول بانّه تعالى خالق لأفعال العباد، إذ أفعال العباد من الأمور الحادثة المتجددة المسبوقة بالعدم وهو ينافي الأزلية.

والحق كما قلنا: أنّه لا ارتباط بين القول بأنّ صفاته عين ذاته وبين فعله سبحانه وفعل العبد، حيث إنّ أفعاله تعالى تتحقّق بإرادته وتقديره واختياره سبحانه وتعالى، وإرادته تتعلق بفعل فيه المصلحة. وعليه: فإنّ العقل مستقل في الحكم بحسن ما يفعله، ولا ارتباط بين هذا

وسادسها: إنّ ما نقله عن أهل السنّة من عدم قياسهم لله سبحانه في أفعاله بخلقه مناقض لما زعمه في المبحث السابق من عدم تعقّله لقائل غير مستكمل بفعله[١]، فإنّه قد قاس الله بخلقه من حيث حاجتهم الى فعلهم وتحقّق كمالهم به[٢]

الحكم العقلي وبين حكم العقل بحسن العدل وقبح الظلم في أفعال العباد، لأنّ الله حكيم والحكمة تقتضي رعاية المصلحة في الأفعال ورعاية المصلحة في الأفعال تستلزم المداومة حتى الفعل الحسن وأما فعل العباد فانّ ترتب حكم العقل عليه ليس من باب الحكمة بل لأنّ العقل مستقل في إدراكه بالحسن والقبح ذاتا بلا نظر إلى شأن الفاعل، فيحكم بالحسن إن كان فعله حسناً وبالقبح إن كان قبيحاً.

بعبارة أُخرى: إنّ أفعاله تعالى مبنية على الحِكَم المصالح الواقعية، وإنّ العقل يدرك أنّ الفعل الصادر منه تعالى حسن لأنّ الفعل صادر من الحكيم لابدّ أن يكون فيه المصلحة والحكمة، لأنه الحكيم لا يصدر منه الفعل إلّا على وجه الأتم الأصلح فالعقل يدرك بأنّ الفعل الصادر من الله سبحانه حسن لأنّه منشأ صدور الفعل هو الحكيم الخبير.

والفرق بين هذا الحكم العقلي وبين القول بأنّ أفعال العباد لو كان مطابقاً للحسن فتكون حسناً واضح جداً.

(١) فإنّ ما زعمه ابن تيمية ـ في المباحث السابقة ـ من أنّ الله تعالى يكون مستكملاً بفعله وإيجاده العالم باطل كما ذكرناه في المباحث المتقدّمة ومانسبة إلى الشيعة دليل على جهله لأنّ الشيعة الإمامية يعتقدون أنّ إيجاد العالم يكون لغرض حكيم وغايات عظمة وحكمة بالغة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِين كَفَرُوا﴾ (سوره صَ: ٢٧) فإنّ حكمته تقتضي ذلك لا لغرض إثبات قدرته كي يكون بذلك مستكملاً بفعله، فإنّه يفعل الفعل الحسن لأنّ الحكمة تقتضي ذلك فصدور فعل الحسن بمقتضى صفاته وذاته لا لشيء اخر حتى يستكمل به.

فلا يقال: هذا الفعل يفيد كمالاً إذ لو لم يفد كمالاً لكان وجوده كعدمه، لأنّا نقول: لا نسلم أنّه لو لم يفد كمالاً كان وجوده كعدمه، فإنّ الفعل قد يطلب له الاستكمال، وقد يبعث عليه الكمال،

والله سبحانه منزّه عن ذلك، فإنّه الغني عن كل شيء وكل شيء من الرسل الى غيرهم فقيرون الى رحمته وفضله[٣]، وقد كلّفهم ليحصل لهم الكمال بما كلّفهم به

⮊ فالأوّل يفيد كمالاً، والثاني يدل على الكمال لا أنّه يفيد الكمال، وفعل الله سبحانه من قبيل الثاني.

وبالجملة: فإنّ ما زعمه ابن تيمية في البحث السابق أمر باطل بلا إشكال، وإنّ أفعاله تعالى لا تكون فيه جهة الاستكمال حيث أنّها تختلف عن أفعال البشر. فلاحظ.

(٢) فإنّ أعمال البشر تكون لغرض تحصيل الكمال والوصول إلى الخصال المطلوبة لنفسه.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ البشر إنّما يسعى بأفعاله لتحصيل الكمال وإحراز النفع ودفع الضرر عن نفسه؛ لأنّه ناقص يريد به الاستكمال، فمثلاً يشتغل ليتحصّل العلوم ويتحصّل الفضائل والأخلاق وغير ذلك لحاجته إليها ولوصوله الى الكمالات، فهو يسعى لتحصيل الكمال لأنّه ناقص يريد الاستكمال، وهذا بخلاف أفعال الله سبحانه، فإنّه كمال محض لا نقص فيه، وكل ما يفعله حسن لأنّ مقتضىٰ صفاته الكمالية والجلالية رعاية المصالح والفعل الحسن وهذا لا يكون استكمالاً بل أنّه مقتضىٰ الكمال لأنّ الذي يسعىٰ لحصول الكمال فعله فيه جهة الاستكمال وأمّا الكامل الذي ليس فيه نقص فإنّ أفعاله بمقتضىٰ كماله فلاحظ.

(٣) لأنّ الاحتياج والنقص من لوازم الإمكان، والإنسان إذا كان وجوده ممكناً يحتاج إلى العلة في الوجود وفي البقاء، لأنّ كل حادث يحتاج في وجوده وتحققه إلى العلة، فكل ما في الوجود مفتقر في حدوثه وبقائه إلى أصل وعلة وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللهِ وَٱللهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (سورة فاطر: ١٥). فمعناه: أنتم محتاجون اليه في كل أُموركم، فإنكم لا تقدرون على إصلاح أُموركم إلّا بعونه وقدرته تبارك وتعالى، وهذا معنى الفقر والحاجة الواقعي، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ«١٦» وَمَا ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ بِعَزِيزٍ﴾ (سورة إبراهيم: ٩ ـ ١٠) فإنّه تبارك وتعالى غنيّ عن الناس لا يضره الذهاب والإتيان بخلق جديد، بل يهون كل شيء بأمره وإرادته ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يس: ٨٢).

إذن معنى الآية أنّ جميع الناس في جميع طبقاتهم من الأنبياء والرسل إلى الاشخاص العاديين هم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد.

من معرفته والقيام بوظائف طاعته[١]، فأتقاهم أكملهم وأقربهم اليه منزلة وأكرمهم عنده مقاماً، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢].

---

(١) فإنّ التكليف إنّما هو لطف ونعمة من الله تبارك وتعالى، وإنّه موهبة عظيمة من مواهب الله عزّوجلّ، لأنّ معنى التكليف الحث على الطاعة وما فيه المصلحة للإنسان والزجر والاجتناب عن المعصية والفعل القبيح الذي فيه المفسدة للانسان، فإنّ كل عاقل يعلم أنّ الإنسان لو اجتمع فيه صفات الحسن وارتفع عنه القبيح فيعرج نحو الكمال اللائق بشأنه.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الرحمة الربانية عامة تسع جميع الخلق، لكنّها تبلغ الناس وتصل اليهم بما يناسب كفاءتهم وشأنهم، فإنّ الله تعالى يهب نعمه المادية والمعنوية على جميع الأمم، فاذا استفادوا من تلك النعم ساروا بها نحو الكمال واستمدّوا بها للوصول الى الحق من طريق التكليف والوصول إلى المصالح والمفاسد الواقعية، وسيحصل لهم الكمال شيئاً فشيئاً، وأمّا إذا لم يستغلوا هذه الفرصة العظيمة سوف يخرجون عن جادة الكمال وتتبدّل تلك المواهب الإلهية بالبلاء والهبوط إلى الأسفل.

(٢) (سورة الحجرات: ١٣) هذه الآية المباركة تلفت الأنظار الى أصل هام من أُصول الإسلام وهو: إنّ الميزان والمعيار الإلٰهي في تقسيم شخصية الإنسان هو مدىٰ تجذّره في ضميره من التقوىٰ، فلا كرامة لأحد ولا فخر بشيء لأحد إلّا بالتقوىٰ والتقرّب من المولىٰ عزوجل، فلا فرق بين الأسود والأبيض ولا بين السيد والعبد ولا بين العربي والأعجمي، ولا غير ذلك من العناصر التي تحقّق بها مفهوم الأُمة إلاّ بالتقوى، فإنّ الميزان عند الله هو التقوىٰ وضبط النفس عن الهوىٰ والعمل الصالح، إذ أنّه لو كان ذلك الشيء أمراً دنيوياً ظاهرياً فلا مزية لأمر دنيوي، ولا قدر له إلّا إذا كان فيه جهة دينية، فإنّ الدين هو أساس كل الخير حيث إنّ الدين مجموعة من الآداب والأحكام التي تضمن كرامة الإنسان، فما لم يكن أمر الدنيا مورد تأييد الدين فلا قيمة له. وإن كان أمراً أُخروياً فأمره إلى الله تبارك وتعالى، والله تعالى يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

وبالجملة فإنّ شرف كل إنسان إيمانه بالله سبحانه وأفعاله الحسنة وأخلاقه الكريمة، فكلّما ازداد الإنسان خيراً في أفعاله وأوصافه من الايمان والآداب ازداد شرفاً وكرامةً عند الله.

فانظر الى عدم إنصافه لخصمه وفريته عليه وذمّه على صفة قد تنزّه عنها[١] وقد وصف السنّي نفسه بها، فهو قد ذمّ نفسه من حيث ذهابه الى قياس الله بخلقه في فعله بنفسه[٢]، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ

---

(١) فإنّ الشيعة الإمامية منزّهون عمّا ينسب اليهم من النسب الباطلة، حيث أنّ الشيعة الإمامية أخذوا معالم دينهم في الأُصول والفروع من أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. فالمفتري على الشيعة يعلم بأنّ الحجة إنّما تكون عند الشيعة قول المعصوم وفعله فلا يأخذون من غير المعصوم شيئاً فهم يتمسّكون بالقرآن الكريم وسنّة المعصومين، ويكفي لهم الاستدلال على مدّعاهم التمسّك بحديث الثقلين المتفق على صحته جميع الفرق الإسلامية، بل وتواتره من الواضحات لدى كل مسلم له خبرة بالحديث والسنّة النبوية. وسيأتي البحث في توضيح هذا البحث وبيان حديث الثقلين في محله إن شاء الله تعالى.

(٢) وذلك لأنّ ابن تيمية ذهب الى أنّ أفعال الإنسان إنّما تصدر منه لجهة الاستكمال لأنّ الإنسان بأفعاله يريد رفع النقصان والوصول إلى ضالته ومنافعه وتحقّق أغراضه النافعة بحاله، فابن تيمية قد قاس بين فعل الإنسان وفعل الله في هذا المجال، فجعل فعل الله مثل فعل الإنسان في جهة الاستكمال.

ولكن هذا الزعم باطل؛ لأنّ أفعال الله يغاير أفعال الناس، فإنّ أفعاله سبحانه ناشئة من صفاته الكمالية والجلالية أي من علمه وقدرته الأزلية، فكماله سبحانه وتعالى في ذاته وأوصافه تقتضي الكاملية في فاعليته، وأفعاله انّما تكون مترتّبة على المصالح الواقعية، فالغاية والغرض في أفعاله لاتكون لجهة الاستكمال، لأنّه لو كان كذلك فلايصح أن تكون أفعاله معللة بعالميته، فإذا كان فعله سبحانه ناشئاً من علمه الأزلي فلامعنى للاستكمال حينئذٍ، لأنّ العلم الأزلي يمنع عن كل جهة نقص في أفعاله فلاحاجة للاستكمال؛ لأنّ الاستكمال هو من جهة وجود النقص، فالعبد الذي يريد رفع النقصان عن نفسه يكون محتاجاً الى الاستكمال والغرض الغائي لأفعاله الوصول إلى مرحلة يكون فعله حسناً فهذا هو الاستكمال وأمّا بالنسبة إلىٰ الله سبحانه لا يكون استكمالاً لأنّه تبارك وتعالى يكون كمالاً مطلقاً من جهة

ٱلْكِتَابَ﴾[(١)].

وقد مضى نقل بعض ما دلّ منه على غناه سبحانه عن غيره وفقر غيره اليه[(٢)].

➲ الصفات الجلالية والجمالية فلا يوجد في أفعاله عبث ولا الخطأ بخلاف الانسان الذي يوجد في أفعاله الخطأ والعبث و... فقياس أفعاله تعالى بأفعال العباد باطل عند الشيعة الإمامية.

(١) (سورة البقرة: ٤٤) وقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة: إنّ علماء بني إسرائيل كانوا يأمرون الناس باتّباع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ولكنّهم لم يؤمنوا به ولم يتّبعوه، رغم علمهم بأحقّيته لذلك فنزلت هذه الآية المباركة ومضمونها النهي عن ترك النفس للعمل بالخير والحث على دعوة الآخرين إليه بلا توجّه إلى النفس، فإنّ تاركه يكون تاركاً للخير والعمل الصالح والإيمان والاعتقاد الصحيح.

وأيضاً يدل عليهم قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الصف: ٢ و ٣) فإنّ من السمات الأساسية للمؤمن الصادق هو الانسجام التام بين أقواله وأعماله، وكلّما ابتعد الإنسان عن هذا الأصل فإنّه يبتعد عن حقيقة الإيمان و«المقت» في الأصل بمعنى: البغض الشديد لمن ارتكب عملاً قبيحاً، ولذلك إنّ العرب في الجاهلية كانوا يطلقون عبارة (نكاح المقت) لمن يتزوّج زوجة أبيه، لأنّ هذا النوع من النكاح كان مبغوضاً عندهم بغضاً شديداً.

وفي الجملة السابقة نلاحظ اقتران اصطلاح المقت مع الكبر ليدلّ على الشدة وعظمة ذلك الذنب كما هو دليل على الغضب الإلٰهي الشديد على من يستعمل هذا الأُسلوب، وتقبيح موقفه عند الله وعند الذين آمنوا، فالآية تقول: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ذلك لأنّ الجدال بالباطل أي الجدال السلبي واتّخاذ الموقف ضد الوقائع أمر يستقبحه الشارع الأقدس والمؤمنون، فالآية قائمة على أساس الدليل المنطقي.

(٢) قال الله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللهِ وَٱللهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (سورة فاطر: ١٥) هذه الآية الكريمة تؤكّد على أنّ الإنسان محتاج الى الله والله غني في ذاته ومحمود فيما يفعل. وهذه الحقيقة تكشف عن كثير من الغموض ويجيب على الكثير من الأسئلة.

➲

وسابعها: إنّ ما زعمه من اتفاق من تسمى بأهل السنّة على صدور ما وعد به سبحانه، وعلى عدم تعذيبه رسله وعباده الصالحين، سيأتي عن قريب ما فيه من العجيب[(١)].

نعم إنّ القائم بذاته غير محتاج إلى سواه، وكل البشر بل كل الموجودات محتاجة إليه في جميع شؤونها وفقيرة إليه ومرتبطة بذلك الوجود العظيم القائم بنفسه المستقل في أفعاله وتصرّفاته، فإنّه غني عن العالمين بل العالم كلّها محتاجة إليه بحيث لو قطع لحظة واحدة ارتباطه عن هذا العالم الكبير لأصبحت عدم في عدم، فكما أنّه غني غير محتاج مطلقاً فإنّ البشر يمثّلون الفقر المطلق وكما أنّه قائم بذاته فإنّ المخلوقات كلّها قائمة به سبحانه وتعالى، لأنّه تبارك وتعالى وجود لا متناهي من كل ناحية وواجب الوجود في الذات والصفات، ومع ذلك أنّه رؤوف بالعباد (راجع سورة البقرة) وأنّه سبحانه كتب على نفسه الرحمة.

فالمستفاد من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢) أي أوجب الرحمة على نفسه، وهذا هو مقتضىٰ قاعدة اللطف التي تقول بها الشيعة الإمامية والتي تثبت بها الشيعة وجوب بعث الأنبياء ونصب الأئمة وإرسال الكتب، وتكليف الناس بما ينفعهم ونهيهم عما يضرهم، وإراءة الطريق نحو الكمال و....

(١) وخلاصة الكلام: إنّ الوعد الإلٰهي أمر محتوم لا شك ولا شبهة فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (سورة آل عمران: ٩) وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ قِيلاً﴾ (سورة النساء: ١٢٢) وقال تعالى: ﴿وَعْدُ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ لاَ يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (سورة الرعد: ٣١) وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللهِ لاَ يُخْلِفُ ٱللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم: ٦) وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة الروم: ٩) وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ﴾ (سورة لقمان: ٣٣) وقال تعالى: ﴿وَكُلّاً وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحديد: ١٠).

فإنّه تبارك وتعالى صادق الوعد ولا يستطيع أحداً أن يكون أصدق قولاً من الله العزيز القدير في وعده وكلامه، كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ قِيلاً﴾ (سورة النساء: ١٢٢) وذلك لأنّ من الطبيعي أنّ عدم الوفاء بالوعد ناتج إمّا عن الجهل وإما عن الحاجة والله سبحانه منزّه عنهما،

وثامنها: إنّ ما زعمه من منازعتهم في تحسين العقل وتقبيحه ليس له مدخلية بمقام البحث من حيث عدم توقّفه على ذلك[1]؛ لما عرفت من ثبوت معنى

فهو سبحانه منجز لما وعده به عباده، فأوعد المؤمنون الرحمة، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (سورة الفتح: ٢٩) وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة: ٧٢) ووعد الكافرين والمنافقين بالعذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (سورة التوبة: ٦٨) وعلى أيّ حال، فإنّ الوعد الإلهي أمر محتوم، وأمّا الاختيار بيد الإنسان في أعماله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الإنسان: ٣) فعدم تعذيبه للأنبياء والمرسلين وعباده الصالحين لا من باب الجبر، بل أمر مربوط بعملهم واعتقادهم ونياتهم. كما هو واضح لدى الخبير.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ ما ذكره ابن تيمية من عدم وجود الارتباط بين مبحث الإمامة والمباحث العقلية التي تتفرّع عليها الدقائق الكلامية أمر باطل باجماع المسلمين قولاً وعملاً؛ لأنّ المسلمين متفقون على مسألة ضرورة وجود الإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليقوم بدور المحافظة على الدين والشريعة وثغور المسلمين، سواء قلنا بقاعدة اللطف أم لم نقل بها، فإنّ الأشاعرة من أهل السنّة والجماعة الّذين يرفضون التحسين والتقبيح العقليين أيضاً يعتقدون بضرورة وجود الإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ هم يعتقدون بأنّه لابد من وجود خليفة أو ملك أو رئيس أو ولي أمر يقوم بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضرورة وجود الامام بعد الرسول صلى الله عليه وآله من المسلمات عند الجميع أمر مسلّم بلا ريب ولذلك قالت عائشة لعبدالله بن عمر ـ كما في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة ـ يا بني، أبلغ عمر سلامي وقل له: لا تدع أُمة محمد بلا راعٍ، استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاً، فإنّي أخشى عليهم الفتنة.... (الإمامة والسياسة ج١: ص٢٨).

فالضرورة العقلية ـ مع قطع النظر عن النصوص ـ قاضية بوجوب وجود الإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإجماع المسلمين قاطبة، فهل بعد ذلك يمكن لابن تيمية أن يقول: لا ربط ببحث الإمامة

هذه القاعدة من طريق الشرع ولم يستقل بها العقل وحده[١].

وقد عرفت مخالفة من قال: إنّ الله سبحانه خالق فعل العباد[٢]، ومن قال

➲ بالمباحث العقلية؟!!!

ونحن نسأل ابن تيمية: وهل أنّ هناك فرق بين درك العقل في الموارد الضرورية ودركه في الأُمور الحسنة أو قبيحة. وبعبارة أُخرىٰ: أنّ حكم العقل بحسن الأشياء وقبحها إنّما هو حكم ضروري بديهي واضح لدى جميع العقلاء، فلا معنى لإنكاره.

(١) لأنّ الضرورة العقلية التي تكون مسلّمة لدى جميع البشر ومقبولة عند الكل أمر غير قابل للإنكار.

قال القاضي الإيجي في المواقف: الضرورة العقلية لا يطلب مستندة بل هو ما يجزم به مجرد الفطرة عند تصوّر الطرفين (المواقف ج٢: ص٦٣٣) فلا شك أنّه إذا حكم العقل بشيء وكان ملاك ذلك الشيء معلوماً كالشمس في رابعة النهار، فإنّ الشرع يحكم به أيضاً. فلاحظ.

(٢) لا شك أنّ كثيراً من الآيات الكريمة صريحة في أنّ افعال العباد غير مخلوقة لله سبحانه وتعالى كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة التوبة: ٣) فإنّ البراءة لم ترد في الآية الكريمة من الخلق ذواتهم بل إنّما وردت بالنسبة إلى شركهم وقبح أعمالهم، وهل يعقل بأنّ الله تعالى يفعل ويخلق شيئاً ويكون بريئاً منه؟!!!

وكقول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (سورة الشورىٰ: ٣٠) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الأنفال: ٥٣) وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ (سورة الروم: ٤١) والى غير ذلك من الآيات المباركة، فإنّها تدلّ بالصراحة على أنّ الإنسان من الاعمال سوف يجد نتيجتها والعكاسها إن خيراً فيجد ارتداد عمله خيراً وإن شراً فيجده وهذا دليل على أنّ الانسان مختار في أعماله ليس فيها جهة الجبر.

وبعبارة أوضح: إنّ للأفعال جهتان: جهة الثبوت والوجود، وجهة الانتساب إلى الفاعل.

فإنّ الجهة الثانية تتصف بالطاعة والعصيان أو بالحسنة والسيئة، فإنّ النكاح والسفاح فعلان لا فرق بينهما من جهة الوجود والثبوت والتحقّق، وإنّما الفرق الفارق بينهما هو أنّ النكاح أمر مشروع وموافق لأمر الله تعالى، وأنّ السفاح فاقد لهذه المشروعية وإن كانا في الوجود ➲

بعدم لزوم نصب إمام، وبعدم لزوم نصب إمام معصوم، وبتجويز نصب المفضول والفاضل موجود، لما كتبه سبحانه على نفسه من الرحمة(١) ولما حرّمه عليها من

والتحقّق أمراً واحداً، فالأول يكون طاعة والثاني معصية، والإنسان مخيّر بين الأمرين، فما كسبه لنفسه فهو بما كسبت يداه ويثيب بقدر ما يستحق من الثواب. فلاحظ.

(١) قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ...﴾ (سورة الأنعام: ٤٥) أي أوجب وألزم على نفسه الرحمة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٨٤) أي فرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم، فإنّ الكتابة بمعنى القضاء المحتوم والكتاب المحفوظ الذي لاريب في وقوعه ولا سبيل للتبديل إليه، وهي السنّة الإلٰهية الجارية في الكون ليوسع علىٰ عباده يأخذ بـأيديهم ليسيروا نحو سعادتهم، فإنّ الرحمة الإلٰهية أمر ثابت وسنّة إلٰهية جارية لاريب في وقوعها، ومتمثّلة في أنبياء الله وأوليائه الذين هم وسائط رحمة الله ووسائل النجاة وأسباب هـداية الخلق إلى السعادة الأبدية، فالإمام المعصوم في كل عصر وزمان رحمة إلٰهية كما يقول تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٦) لأنّ الإمام المعصوم له إحاطة بعالم الواقع ويعلم كل شيء بإذن الله تبارك وتعالى كما يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (سورة يسٓ: ١٢) فمن رحمة ربّ العالمين أن ينصب لأمة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إماماً رحمةً للعالمين، فنصب الإمام من أبرز مصاديق الرحمة الربانية، كما أنّ إرسال الرسل يكون كذلك، ولذلك ورد في تفسير الرحمة الإلٰهية وذكر مصاديقها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ الرحـمة الإلٰهية متمثّلة في خلفاء الله في الأرض كما في الحديث الوارد في الكافي بسنده عن أبـي عبيدة الحذّاء، قال: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الاستطاعة وقول الناس، فقال: وتلا هذه الآية: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾ ولذلك خلقهم، يـا أبـا عـبيدة، النـاس مختلفون في إصابة القول وكلهم هالك، قال: قلت: قوله: من رحم ربك؟ قـال: هـم شـيعتنا ولرحمته خلقهم، وهو قوله: ولذلك خلقهم، يقول: لطاعة الإمام، الرحمة التي يقول: ورحمتي وسعت كل شيء، يقول: علم الإمام ووسع علمه الذي هو من علمه كل شيء، هم شيعتنا.

ثم قال: فسأكتبها للذين يتقون يعني الولاية... ثم قـال: يـجدونه مكـتوبا عـندهم فـي التـوراة والإنجيل يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم والوصي والقائم يـأمرهم بـالمعروف ويـنهاهم عـن المـنكر...

الظلم[1]، فأيّ حاجة إلى التعرّض لهذه المسألة هنا فذكرها تطويل بغير طائل، ولو

(الكافي ج١: ص٤٢٩ ح٨٣).

وإلى غير ذلك من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام فالإمام رحمة من الله على الخلق، وهل يصح بعد ذلك أن نقول: لا يشترط فيه العصمة والعلم وغير ذلك من الأوصاف المشترطة في الرسول والنبي؟!! فإنّ الإمام رحمة الله الواسعة كما أنّ النبي يكون كذلك فيشترط في الامام مايشترط في النبي لأنّ الإمام كالنبي في المقامات فلا بد له من شرائط حامل رسالة السماء التي منها العصمة و...

(١) فإنّ الله سبحانه وتعالى نفى الظلم عن نفسه في مواضع عديدة من كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة النحل: ١١٨) وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٠٩) وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٨) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً﴾ (سورة يونس: ٤٤) وقال تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ (سورة فصّلت: ٤٦) وإلى غير ذلك من الآيات المباركة الصريحة بأنّه تعالى قد نفى جميع أنواع الظلم عن نفسه.

وتوضيح ذلك: إنّ الآيات تصرّح بأنّ سُنّة الله تبارك وتعالى هي العدالة المحضة في جميع الأُمور، لأنّ الظلم يتحقّق بسبب النقص والجهل والأهواء، والذات الإلٰهية المقدّسة منزّهة عن جميع ذلك.

والمهم أنّ القرآن الكريم بيّن هذه الحقيقة شكل واضح ضمن آيات عديدة فنفىٰ الظلم في جميع أبعاده عن ساحة الربوبية جل وعلا، لأنّ الاعتقاد به يؤدي الى إلغاء أيّ نوع من المسؤولية والتكليف، حيث لو كان الله الخالق لكل شيء هو الظالم ـ والعياذ بالله ـ فما معنى نهيه عن إشاعة الفساد والظلم وارتكاب القبائح، فنهي الشارع دليل على أنّ الإنسان مسؤول عن أعماله وأفعاله وهكذا علّمنا القرآن في الآيات العديدة، وكذلك أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فقد ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في الإجابة على هذا السؤال: هل يجبر الله عباده على المعاصي؟ فقال عليه السلام: لا بل يخيّرهم ويمهلهم حتى يتوبوا، فسئل مجدّداً: هل كلّف عباده ما لا يطيقون؟ فأجاب الإمام عليه السلام: كيف يفعل ذلك وهو يقول: ﴿مَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ثم أضاف الإمام عليه السلام: إنّ أبي موسى بن جعفر عليه السلام نقل عن أبيه جعفر بن محمد عليه السلام أنّه قال: من

فرضنا توقّف معرفة الحق في المقام على معرفة الحق في هذه المسألة، فذكر السنّي لها على هذه الجهة ليس يجدي شيئاً، فإنّه لم يتعرّض لغير نقل القولين فيها ولم ينقل أدلّتهما، فأيّ ثمرة في التعرّض لها بدون ذكر ما هو مستند القولين فيها وبيان الحق منهما؟ والسنّي في مقام المناظرة وليس في مقام نقل ما قاله الناس وحده[1].

زعم أنّ الله يجبر عباده على المعاصي أو يكلفهم ما لا يطيقون فلا تأكلوا ذبيحته، ولا تقبلوا شهادته، ولا تصلّوا وراءه ولا تعطوه من الزكاة شيئاً (عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢: ص١١٣ ح١٦).

فمدلول الحديث: أنّ من اعتقد بهذا الاعتقاد الباطل وهو يعلم أنّه مخالف لصريح القرآن الكريم ومخالف لضرورة العقل فهو خارج عن إطار المسلمين إذ القرآن ينفي الظلم عن رب العالمين، والقائل بالجبر وغيره من العقائد الفاسدة التي ترجع نتيجتها إلى القول بأنّ الله سبحانه ظالم مخالف للقرآن الكريم، والمخالف للقرآن الكريم خارج عن حقيقة الإسلام. فلاحظ.

(١) فإنّ من شرائط المناظرة والاحتجاج بين علماء الأديان والمذاهب هو أن يذكر كلاً من الطرفين الأدلة الوافية على مدّعاه، وما يقوله في مقام البحث والمناظرة، لأنّ القول بلا دليل يكون فاقداً للاعتبار عند العلماء والعقلاء، والقول بلا دليل ادّعاء محض والادعاء مباين للاعتبار كما هو واضح ظاهر.

فلابدّ أن يكون القول قائماً علىٰ أساس الدليل المعتبر كي يصبح كلاماً معتبراً عند العلماء واذا كان الأمر كذلك الاستدلال بهذا النوع من الكلام والاحتجاج به لأنّ الدليل المعتبر هو الحجة والحجة هي ما تفيد العلم القطعي والعلم القطعي يوجب سكون النفس والطمأنينة القلبية عند من قام لديه الحجة، ولذلك تسمى المناظرة الاحتجاج لأنّ كل من طرفي المناظرة يقيم الحجة على طرفه الآخر، فاقامة الحجة تحصل بالاستدلال بالدليل المعتبر والدليل المعتبر هو ما يكون حجة على طرفه الآخر، ولكن علىٰ صعيد الواقع لا يوجد من يعمل بهذا القانون إلّا من هو على مسلك الحق وهو من يكون تابعاً للقرآن وسنة المعصومين عليهم السلام فانّ التابع

نعم سيأتي منه في المباحث المتأخرة ترجيحه لما ذهبت اليه الشيعة في هذه المسألة ومن هذه الجهة لم يرد هنا على من قال بأنّ نفي تحسين العقل وتقبيحه قول أهل البدع[١].

و**تاسعها**: إنّ ما زعمه من كون مبنى المنازعة في مسألة الحظر وعده على مسألة التحسين والتقبيح من عجائبه لأنّ مسألة الحظر وعدمه موردهما الشيء الذي ليس فيه منفعة حتى يفعل من جهتها وليس فيه مضرة حتى يجتنب من جهتها، وليس فيه مضرة حتى يجتنب من جهتها[٢]، ومسألة التحسين والتقبيح

⬅ لعم يأخذ الحجة منهم ولا شك أنّ حجة القرآن وحجة المعصومين قاهر فوق كل حجج وهذا مسلك الشيعة الامامية فلاحظ.

(١) هذا السؤال متوجّه إلى ابن تيمية وإلى من يتّبع مسلك الأشاعرة وهو: أنّ العقل بما هو عقل هل له أن يحكم بحسن الأشياء وقبحها أو لا؟

وبعبارة أُخرىٰ: هل أنّ العقل يكون مستقلاً من دون واسطة الشرع، فيدرك حسن الأشياء وقبحها بلا ضميمة شيء في جنبه كحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار أو لا؟ فمدار البحث بين النفي والإثبات ولا ثالث لهما، فإنّ الأشاعرة التزموا بعدم ذلك وذهبوا إلى أنّه: لا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها، ولا يتصف فعل بالحسن أو القبح بذاته قبل ورود الشرع، ولأجل ذلك قالوا لا حسن إلّا ما حسّنه الشارع ولا قبيح إلّا ما قبّحه، فانّ الظلم قبيح لأنّ الشارع نهى عنه العدل حسن لأنّ الشارع أمر به، ولو عكس وجعل العدل قبيحاً والظلم حسناً لكان كما قال.

وأمّا الشيعة الإمامية فيعتقدون بأنّ العقل يدرك من صميم، ذاته حسن الأشياء وقبحها ويعتقدون أيضاً بوجود المصالح والمفاسد في الواقع وإذا أدرك العقل الواقع وكشف عن الملاك الواقعي فله أن يحكم طبق الملاك الذيجعل له كقانون كلي لابد من مراعاته فلاحظ.

(٢) وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الموضوع في مسألة الحظر هو الأفعال بفرض عدم ورود التكليف فيها من قبل الشارع، ومن الواضح لدى الخبير أنّه مع فرض عدم التكليف من الشارع لا معنى ⬅

موردهما كون الشيء على صفة يمدح فاعله من جهتها أو يذم، فليس في البين مناسبة ولزوم لهاتين المسألتين حتى تبنى إحديهما على الثانية[١].

⬅ لاحتمال العقوبة، لأنّ العقل مستقل بقبح العقاب بلا بيان، فإذا كان المقصود من الحظر الحكم العقلي قبل ورود الشرع فهذا غير جار في المقام، لأنّ التكليف واعمال المولوية من ناحية الشارع أمر لازم من باب اللطف والإحسان لئلّا يفوّت من العبد المصلحة ولا يقع في المفسدة، فالحكم العقلي يستتبع التكليف وإن كان القوم قد اختلفوا في أنّ الحكم العقلي هل يكون جارياً قبل ورود الحكم الشرع؟ على أقوال.

قال ابن حزم: هل الأشياء في العقل قبل ورود الشرع على الحظر أو على الإباحة؟ قال أبو محمد: الأشياء كلّها في العقل قبل ورود الشرع على الحظر. وقال الآخرون: بل هي الإباحة، وقال الآخرون: بل هي الحظر حاشا الحركة النقلية من مكان إلى مكان، وشكر المنعم فقط، وقال الآخرون ـ وهم جميع أهل الظاهر وطوائف من أهل أصحاب القياس ـ ليس لها حكم في العقل أصلاً ولا بحظر ولا بإباحة، وإنّ كل ذلك موقوف على ما ترد به الشريعة... (الأحكام لابن حزم ج١: ص٤٧).

أقول: إنّ هنا يكون بحثا طويلاً بين العلماء، ولا يهمّنا التعرّض له في المقام لأنّ من الواضح لدى الخبير أنّ الحكم العقلي إنّما يكون جارياً إذا كان التكليف فعلياً من قبل الشارع، وأمّا إذا لم يرد تكليف من الشارع فالحظر العقلي لا يوجب لزوم التكليف لأنّ قبح العقاب بلا بيان حاكم، فالحظر العقلي لا يمنع التكليف الشرعي الواقعي حيث لعل ذلك فيه مصلحة أو مفسدة واقعية ولا يعلم بها إلّا الله سبحانه، إذن لا معنى للقول بحكم العقل بالحظر. فلاحظ.

(١) فإنّ التحسين والتقبيح العّقليين أمران ثابتان لايمكن مخالفتهما لكلّ عاقل ولكن قد يختلف مواردهما بختلاف الملاك فيختلفان وإلّا فانهما ثابتان ويتوقّف عليهما آراء العقلاء، فمثلاً: أنّ قتل النفس المحترمة مما لا شبهة في حكم العقل بقبحه ولكن بعد قيام الإقرار على أنّ القاتل الذي قتل مظلوماً عمداً، فإنّ قتله لايكون قتلاً للنفس المحترمة، فيتبدّل الملاك يكون قتله من باب القصاص حسناً؛ لأنّ القصاص شرّع للتشفّي ودفع الفساد عن المجتمع.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ القصاص عبارة عن المساواة وإجراء العدل في المجتمع، والعقل يستحسن فعل العدل بوجوهه المختلفة، فلا محالة لا يعقل الحكم على خلافه من الشارع، إذ المفروض انّه ⬅

ولذلك جعل يستدل الحاظر في تلك بأنّ التصرّف في ملك الغير بدون رخصة منه محرّم شرعاً، والمبيح جعل يستدل بأنّه لم يرد نهي من جانب المولى ـ جلّ شأنه ـ على التجنّب؛ وذلك دليل على إباحته لما لم ينه عنه سبحانه، فإنّه لو لم يكن مباحاً لنهى عنه، ومبنى دليل الجانبين الشرع دون العقل[١].

➲ مما لا يختص به عاقل دون عاقل والشارع من العقلاء بل رئيس العقلاء، فهو بما هو عاقل كسائر العقلاء وإلّا لزم الخلف، فالعدل بما هو عدل حسن عند جميع العقلاء ومنهم الشارع، والظلم بما هو ظلم قبيح عندهم ومنهم الشارع.

نعم تفاوت الأنظار في بعض الأفعال إنّما هو من أجل عدم تشخيص الملاك فيه لا من جهة حكم العقل، فإنّه قد يختلف حكم العقل باختلاف الجهات.

فمثلاً في باب القصاص أنّ القتل بناءً على كونه في غير محله يعدّ ظلماً، وأمّا من باب القصاص يكون عين العدل، هذا أمر مسلم ومعقول لا يوجب انتقاض فثبوت الحسن والقبح عند جميع العقلاء أمر مسلّم واضح من البديهيات الأولية. وعليه: فما ذكره ابن تيمية في المسألتين مردود كما هو واضح ظاهر.

(١) لا يخفي علىٰ الخبير أنّ الأحكام الشرعية مترتبة على الملاك والمصالح الواقعية؛ فاذا لم يجد الفقيه في مورد من الموارد أمر من الشارع الأقدس أو نهي ولكن مع ذلك كان ملاك الحكم معلوماً عنده فيكشف الفقيه الحكم الشرعي باعتبار أنّ بالملاك يعرف المصلحة والمفسدة الواقعية للأشياء، فإذا عرفنا المصلحة الواقعية فيمكن للعقل كشف الحكم الشرعي.

مثلاً: إذا فرضنا فرضاً محالاً أنّه لم يرد النهي عن التصرف في مال الغير من دون إذن صاحبه، فإنّ مقتضى حكم العقل قبح التصرف في مال الغير؛ لأنّ التصرف في مال الغير من دون إذن صاحبه ظلم، وكلّما كان ظلماً فقد حرمه الشارع الأقدس، فالملاك هو الظلم فإذا صدق عنوان التصرف في مال الغير وكان ملاكه واضحاً بديهياً فيحكم بالحرمة من باب صدق الملاك؛ إذ بالملاك نعرف أنّ غرض الشارع وهو لزوم عدم وقوع الظلم في الخارج، وهذا من البديهيات الأوليات، فإنّ العقل حاكم بلزوم حصول غرض الشارع فإذا عرفنا أنّ الشارع لايرضىٰ بوقوع الظلم في الخارج بأيّ صورة كان يلزم على الناس أن يحقّقوا غرض الشارع ولو بوجود الملاك في بعض الموارد. فلاحظ.

ودليل الثانية هو: إنّا نجد بضرورة العقول كون الظلم قبيحاً مذموماً فاعله، والعدل حسناً ممدوحاً فاعله الى غير ذلك(١).

فانظر الى دليل المسألتين ومعناهما، فستعلم يقيناً عدم المناسبة بينهما حتى تبنى إحديهما على الثانية، ودليل مسألة التحسين والتقبيح هو العقل، فإنّ النافي يزعم أنّه لن يعرف بعقله شيئاً من ذلك، وهذه الدعوى مخالفة لضرورة ذوي العقول حتى من لم يتديّن منهم بشريعة حسبما هو مبيّن في محله(٢).

والسنّي لمّا لم يكن عنده دليل على ذلك نقل ما زعمه عن جماعة من أهل

---

(١) فإنّ حكم العقل بحسن العدل والإحسان وأداء حقوق الآخرين وقبح الظلم والعدوان على الغير والتعدّي على حقوق الآخرين من الضروريات المسلّمة التي لا ينبغي الارتياب فيها فهي من الضروريّات عند جميع العقلاء، وبهذا الحكم العقلي يستكشف الملاك للحكم الشرعي حيث أنّ حكم العقل الضروري لو كشف عن المصلحة الواقعية أو المفسدة الواقعية يقطع الإنسان بأنّ حكم الشرع أيضاً مطابق لهذا الحكم العقلي حيث أنّه مطابق للواقع على ما هو عليه من المصلحة أو المفسدة من باب الملازمة بين المصالح والمفاسد الواقعية والحكم الشرعي، ويعبّر عن هذه الملازمة بالملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع. فلاحظ.

(٢) فالتحسين والتقبيح العقليين أمر لا يمكن إنكاره لكل ذي عقل؛ فإنّ العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها من صميم ذاته لا محالة، فكما أنّ العقل السليم يحذّر الإنسان بشدة عن عدو الخطر الذي لا يتورّع عن أيّ شيء، فكذلك يدرك حسن العدل وقبح الظلم، ولا شك أن إنكار الأشاعرة لهذا الحكم إنكار للأمر الضروري، فهم في الحقيقة نفوا هذه الضرورة الواقعية التي تعد من المسلمات عند الكل، ومن هنا يعلم أنّ نفي الغرض عن أفعال الله تعالى مردود وباطل عند كل ذي لب، لأنّ كل عاقل يعلم أنّ الحكيم لا يصدر منه الفعل بلا غرض ولا مصلحة، حيث أنّ العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها من صميم ذاته وهذا أمر ذاتي غير قابل للتغيير والانقلاب، فالحكيم لا يصدر منه الفعل على خلاف الحكمة، فكيف بالحكيم على الإطلاق وهو رب العالمين الذي يعلم كل شئ علماً ذاتياً أزلياً، فما ذكره ابن تيمية والأشاعرة مخالف للضرورة العقلية المسلّمة. فلاحظ.

مذهبه وسكت، ومن المعلوم كون المقام مقام برهان وليس مقام نقل وحده[١].

---

(١) لا شك أنّ البحث العلمي له أُصول وضوابط خاصّة يعرفها كلّ عالم به الخبرة بصناعة الفنّ في المجالات العلمية ومن تلك الضوابط أن يكون البحث نزيهاً من كل العصبيات والحميات والأهواء والنزاعات الطائفية، وايضاً لابد أن يكون البحث قائماً على الأدلة القاطعة والحجج الظاهرة والبراهين الساطعة بحيث ينطلق عند الكل من المسلّمات التـي يـؤمن بـها جـميع العقول على المبنى الذي يسلكه المستدل، فإنّ أصل المبنى لو كان أمراً معقولاً وبنى عـليه الباحث مطالبه العلمية واستدل على ذلك بأدلّة وافية فهي تكون مقنعة للكل أو كانت الأدلّة وافية للطرف المقابل في مقام الاحتجاج، فيكون هذا النوع من البحث بـحثاً عـلمياً مـفيداً خاضعاً للمنهج الصحيح عند العلماء.

فالشيعة الإمامية تتحدىٰ جميع الأديان والمذاهب للبحث معهم بحثاً علمياً مطابقاً لمنهج العلماء في العالم، فهم يلتزمون بالاستدلالات المنطقية والعقلية على حقّانية مذهب الشيعة الاثـنىٰ عشرية، وبطلان جميع المذاهب والأديان بما يكون مطابقاً لمبنىٰ جميع العلماء في العـالم، فالشيعة الإمامية تتحدّىٰ جميع الأديان والمذاهب منذ وجودها في العالم، وليس هناك من له القدرة على ردّه، والدليل على ذلك أنه كل من يعرف أُصول البحث والمناظرة يجد مـنطق علماء الشيعة في الاستدلال مطابقاً للنهج العلمي الرائج في المدارس والجامعات الأكاديمية المكاتب الفكرية والدينية وأدلتها مقبولة عند جميع أهل العقل والمنطق.

وأما مثل ابن تيمية، فإنّ كلماته لو توضع أمام أهل العلم والمنطق فيجده بعيداً عن المنهج العلمي لأنّه أولاً لا يتخذاً المبنىٰ العلمي في أبحاثه حتى يعرف طرفه المقابل أنّ مبناه كذا واذا اتخذ مبنىً سوف تجده يخالف مبناه ويتكلم علىٰ خلاف ما ابتنى عليه وهذا أمر واضح لمن راجع كتبه فإنّ العصبية لا يعطيه المجال للبحث على اساس المنهج العلمي ومتابعة الحـق فـابن تيمية ذكر أقوال الأشاعرة وأهل الحديث من أهل السنة في أفعال الله ولم يقيم الدليل على صحة أقوالهم، فللعلماء الأحرار أن يطالبونه بالدليل. هذا اولاً.

وثانياً إنّ أقوال الأشاعرة قد ذكرها علماء الشيعة الإمامية وردوا عليها بما فيه الكفاية، فراجـع كتب الشيعة في أُصول الاعتقادات، باب الجبر والتفويض، فهل يمكن ابـن تـيمية أن يـردّ عليهم؟!!!

وعاشرها: إنّ ما نقله عن فخر الدين[١] من ذهابه الى قولٍ ثالث[٢] وهو الذي ذكره من أعجب العجائب، من حيث مخالفته لنصِّ الفرقان العظيم، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ**

---

(١) وهو أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي الطبري الأصل الرازي الأشعري الشافعي، المعروف بفخر الدين الرازي، الملقّب بابن الخطيب، صاحب التفسير الكبير الذي أكمله نجم الدين القمولي وشهاب الدين الخوبي، وله كتاب أساس التقديس في علم الكلام، ولباب الإشارات، ومحصّل أفكار المتقدمين والمتأخرين الى غير ذلك، وكان له تشكيكات على مسائل من دعائم الدين يورث الحيرة بحيث لقّب بامام المشككين، وله كتاب السر المكتوم وفيه التشكيكات العجيبة، وذكر بعض من دافع عنه أنّه تاب بعد هذا التأليف والله هو العالم بخفيات الأُمور.

وعدّه ابن تيمية في منهاج السنّة من الجبرية كما في المقام.

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني في إرشاد الطالبين: قد طلب الشيخ فخر الدين الرازي الطريق الى الله تعالى، فقال الشيخ نجم الدين: الكبرى لا نطيق مفارقة صنمك الذي هو علمك، فقال: يا سيدي، لابد إن شاء الله، فأدخله الشيخ الخلوة وسلبه جميع ما معه من العلوم، فصاح في الخلوة بأعلى صوته: لا أُطيق فأخرجه (أُنظر: فواتح الرحموت المطبوع بهامش المستصفي ج٢: ص٢١٥).

قال ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان في حقه: وكان مع تبحّره في الأُصول يقول: من التزم دين العجائز فهو الفائز، وكان يعاب بإيراد الشبه الشديدة ويقصر في حلها، حتى قال بعض المغاربة: يورد الشبهة نقداً ويحلها نسيئة، وقد ذكره ابن دحية، فحكى عنه أشياء رديئة، وكانت وفاته بهراة يوم عبد الفطر سنة ٦٠٦ هـ (لسان الميزان ج٤: ص٤٢٧).

(٢) وهو القول بأنّ العقل يدرك الحسن والقبح من أفعال العباد فقط دون أفعال الله. (أُنظر: كتاب المحصول للفخر الرازي ج١: ص١٠٨ وج٥: ١٧٨ وص١٨٢ وص١٨٦ وص١٩٠ و١٩٤).

أقول: ومعنى قوله هذا يعارض ما قاله في كتابه التفسير، حيث ذهب هناك الى الجبر مطلقاً. وانظر: تفسير الرازي، ج٢: ص٤٩ وج٤: ص٢٠٢ وج٦: ص١٩٩ وج٧: ص١٠ وغير ذلك).

وَٱلْمُنكَرِ﴾[١]، ولا شك أنّ متعلق أمره ونهيه هو ما يسمى عدلاً وإحساناً وفحشاءً

---

(١) سورة النحل: ٩٠. هذه الآية المباركة تبيّن أكمل التعاليم الإسلامية في شأن المسائل الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية؛ منها: العدل والإحسان. فهل يمكن تصوّر قانون أوسع وأشمل من العدل، فإنّ العدل هو القانون الذي تدور حول محوره جميع أنظمة في الوجود وحتى السماوات والأرض، فهي قائمة على أساس العدل، كما قال النبي ﷺ: بالعدل قامت السماوات والأرض (تفسير البيضاوي ج٥: ص٢٧٣).

والمجتمع الإنساني الذي هو جزء صغير في كيان هذا الوجود الكبير فلا يخرج عن قانون العدل، ولا يمكن تصوّر مجتمع ينشر السلام والأمان يحظى بذلك دون أن تستند أركان حياته على أساس العدل في جميع المجالات.

ولما كان المعنى الواقعي للعدل يتجسّد في جعل كل شيء في مكانه المناسب له فالانحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدّي على حقوق الآخرين ما هي إلّا صور لخلاف أصل العدل، فالإنسان السالم هو الذي تعمل جميع أعضاء جسمه بشكل صحيح (بدون أية زيادة أو نقصان) ويحلّ المرض فيه بمجرد تعطيل أحد الأعضاء أو تقصيره في أداء وظيفته.

ويمكن تشبيه المجتمع ببدن إنسان واحد، فإنّه سيمرض ويعتل إن لم يراع فيه العدل، ومع ما للعدالة من قدرة وجلال وتأثير عميق في كل الأوقات في عملية بناء المجتمع السليم، إلّا أنّها ليست العامل الوحيد الذي يقوم بهذه المهمة، ولذلك جاء الأمر بالإحسان بعد العدل مباشرة ومن غير فاصلة.

وبعبارة أوضح: قد تحصّل في حياة البشرية حالات حسّاسة لا يمكن معها حل المشكلات بالاستعانة بأصل العدالة فقط، وإنّما تحتاج إلى إيثار وعفو وتضحية وأمثال ذلك وما يتحقق ذلك إلّا برعاية أصل الإحسان.

فعن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ...﴾ (سورة النحل: ٩٠) إنّ المراد بالعدل الإنصاف والإحسان والتفضّل (نهج البلاغة ج٤: ص٥١ الحكمة رقم ٢٣١).

فالآية الكريمة تحتوي إلى دستور عمل إسلامي عام، وتمثّل أحد مواد القانون الأساسي للإسلام في كل زمان ومكان، فإحياء هذه الأُصول الأساسية يجعل الدنيا عامرة بالخير، وهادئة من

←

ومنكراً، فلابدّ أن تكون هذه الأُمور متحقّقة بأوصافها ومعروفة لدى الناس حتى يصح أنّ الله أمر بها أو نهى عنها، وإذا كانت موجودة قبل تعلّق الأمر والنهي بها نهي، إذن موجودة قبل ورود الشرع بها ومستفادة من حكم العقل(١).

⮌ كل اضطراب، وخالية من أيّ سوء وفساد.

ثم إنّ الآية الكريمة فيها دلالة واضحة على أنّ الله تبارك وتعالى لا يأمر بفعل القبيح، وأنّه تعالى لا يفعل القبيح حيث يأمر بالعدل والإحسان، ومعنى ذلك: أنّ هناك في مقابل العدل والإحسان أفعال قبيحة لا يأمر بها الشرع الأقدس بل الشارع وبل وينهىٰ كما قال تعالىٰ: وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر، فقول الأشعري: إنّ الحسن محض قول الشارع «افعل» والقبيح قوله، «لا تفعل» باطل ووجه البطلان واضح؛ إذ أنّه تعالى أكّد نفي صدور فعل القبيح عن ذاته المقدّسة وقال تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ (سورة الأعراف: ٢٨ و٢٩)، ففي هذه الآية الكريمة تأكيد على نفي القبح عن الله تعالى، حيث لمّا كان الله تعالى مقسطاً في جميع أفعاله كيف يمكن نسبة فعل مخالف للقسط له، فإنّ القسط حسن وخلافه قبيح، والآية تنفي أي نوع من القبيح عن ساحة الباري عزوجل، وهذا حجة من كتاب الله عزوجل على الأشعري وأتباعه. فلاحظ.

(١) فإنّ حقيقة العدل هي إقامة المساواة والموازنة بين الأُمور، بأن يعطى سهم كل ذي حق له فيعطى كل من السهم ما ينبغي، أو يوضع كل سهم في موضعه الذي يستحقّه.

قال ابن حجر: فإنّ العدل: هو المساواة في المكافأة في خير أو شر، والإحسان مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بالترك أو بأقل منه... (فتح الباري ج١٠: ص٤٠٠) ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٩٤) فمعنى العدل عند الناس نفس المعنى الموجود عند العقلاء وهو وضع كل شيء في موضعه الذي يستحقه، فعند العقل وضع الشيء في موضعه هو نفس العدل الذي هو من صفات الله تعالى، ومعنى ذلك: أنّه سبحانه يثاب المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء على إساءته ويأخذ حق المظلوم من الظالم ولا يبعض في إقامة القانون ولا يستثني منه أحد.

ومن هنا يظهر أنّ معنى العدل مساوق لمعنى الحسن ويلازمه إذ لا يوجد فعل يتصف بالعدل ولا يتصف بالحسن، كما لا يوجد فعل يتصف بالظلم ولا يكون قبيحاً. فلاحظ.

ومن المعلوم بالضرورة أنّ الشيء الواحد بمعناه الواحد لا يختلف في الحسن والقبح باختلاف فاعله، فإنّ العدل حسن والمنكر قبيح أيّاً ما كان فاعلهما[١]، فما معنى القول بالتحسين والتقبيح في أفعال العباد دون أفعال الله تعالى، فانّ الفعل الذي هو ظلم كيف يكون قبيحاً إذا صدر من العبد وحسناً إذا صدر من الله، فما لكم كيف تحكمون[٢]؟

---

(١) إذ من الضروي أنّ الشيء إذا تحقّق لا ينقلب عما هو عليه، فإنّ مقتضى تحقّق كل عنوان ذاتي كالعدل تحقّق حكم العقل بحسنه سواء كان صدور العمل من الخالق جل وعلا أو من العبد، فانّ الكذب قبيح حتى اذا صدر من الشارع الأقدس إذ لما كان الكذب قبيحاً لا ينقلب عما هو عليه كما أنّ العدل حسن فإنّ عنوان العدل علة لتحقّق الحسن والذاتي لا ينقلب عما هو عليه، فإنّ الشيء إذا كان في ذاته متّصفاً بالحسن أو بالقبح، فلايتغيّر ذلك الوصف لأنّ الذاتي لايتغيّر عما هو عليه، والمقصود بالذاتي هو الذاتي بكلا معنييه أي الذاتي في باب الكليات الخمس والذاتي في باب البرهان لايختلف ولايتخلّف، وهذا حكم ثابت عند العقل كما هو مذكور في محله. فلاحظ.

(٢) لا إشكال في أنّ معنى الحقيقي في الحسن والقبح واحد وإن استعملا في معان اخرىٰ فانّ الاستعمال اعم من الحقيقة والمجاز فمعنى الحسن هو إدراك العقل أنّ هذا الشيء مما ينبغي أن يفعل ويمدح فاعله والقبيح إدراك العقل أنّ هذا الشيء مما لا ينبغي أن يفعل ويذم فاعله فإدراك حسن الصدق وقُبح الكذب أمر ثابت بحكم العقل، وأمّا إذا قلنا بأنّ الحسن والقبح ليس لهما معنى واحد، فلا يمكننا الجزم بكون الكلام صادقاً كي نعتقد بمضمون الإخبار ونستكشف منه حسن الأفعال أو قبحها، وذلك لاحتمال عدم صدق الكلام، لأنّه لو قلنا أنّ القبيح ما قبّحه الشارع فمعناه: أنّ الكذب حسب الفرض المذكور لم يثبت قبحه، فحينئذٍ لابد من اثبات قبح الكذب باخبار الشارع، وإذا كان كذلك فإنّ قبح الكذب متوقّف على إخبار الشارع واخبار الشارع أيضاً متوقّف على قبح الكذب إذ لو لم يكن الشيء عند الشارع قبيحاً لايخبر بقبحه وهذا يستلزم منه الدور.

وأجاب القوشجي عن هذا الاشكال بقوله: إنّا لا نجعل الأمر والنهي دليلي الحسن والقبح ليرد ما ←

وحادي عشرها: إنّ ما زعمه من كون من قال بإمامة الثلاثة متفقين على تنزيه الله سبحانه عن أن يخلّ بما وجب عليه وعن أن يفعل قبيحاً هو من جهة تلبيس ومن جهة كذب بيّن(١).

ذكرتم، بل نجعل الحسن عبارة عن كون الفعل متعلق الأمر والمدح والقبح، عن كونه متعلق النهي والذم (شرح التجريد: ص٣٢٩).

ويلاحظ عليه: إنّه لا يمكن استكشاف الحسن والقبح شرعاً من مجرد سماع تعلّق الأمر والنهي بشيء، إذ من المحتمل أن يكون الشارع عابثاً في أمره ونهيه، ولو قال: أنّه ليس بعابث، لا يثبت به نفي احتمال العابثية عن كلامه وفعله لاحتمال كونه هازلاً أو كاذباً في كلامه.

فلابد أن يكون العقل مستقّلاً بقبح الهزل والكذب والعبث في القول حتى يستكشف من إخبار الشارع حسن فعله وأوامره أو قبح فعله وما نهىٰ عنه، وهذا ما يهدف اليه علماء الشيعة من أنّه لولا استقلال العقل في بعض الأفعال ما ثبت حسن ولا قبح أصلاً.

(١) إذ من الواضح أنّ الأشاعرة من أهل السنّة ومن وافقهم في عدم اعتبار التحسين والتقبيح العقليين يقولون بأنّه: لا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها، فإنّ الحسن ما حسّنه الشارع والقبيح ما قبّحه الشارع فلاتكون أحكام الشارع دائراً مدار المصالح والمفاسد والمحبوبية والمبغوضية التي هي ملاكات الأحكام ومناطاتها، وإنّما الملاك والمناط في الأحكام الأمر والنهي فقط. فالأشاعرة أنكروا الملاكات والمصالح الواقعية للأحكام الشرعية وذهبوا إلى أنّ أحكام الشارع ليست مجعولة للأغراض والغايات والمصالح والمفاسد الواقعية.

وعليه: فلايجب على الشارع شيء وله أن يخل بالواجب أو يرتكب القبيح إذ لايقبح منه شيء ولايجب عليه، شيء بل أنّه خالق لكل شيء حتى الشرور والقبائح فلايقبح منه فعل والإخلال بالنسبة إلى أيّ واجب من الواجبات لأنّه على حسب زعمهم أنّ العقل لايحكم بحسن شيء من الأفعال ولابقبحه، بل ما يفعله الشارع حسن وما لم يفعله قبيح. (أنظر: دلائل الصدق ج٢: ص٣٤٦) نقلاً عن روزبهان الآمدي: إنّ مذهب أهل الحق ذهب الى أنّ الباري تعالىٰ خلق العالم وأبدعه لا لغاية يستند الإبداع اليها، ولا لحمة يتوقّف الخلق عليها، بل كل ما أبدعه من خير وشر ونفع وضر لم يكن لغرض قاده إليه ولا لمقصود أوجب العقل

فأمّا جهة التلبيس؛ فلما نقله عن جماعة منهم من عدم وجود معنى للوجوب عليه وللتحريم، فإنّ معنى العبارة التي قد نقلها هي وجوب وحرمة أفعال عليه سبحانه وهو تعالى يجري على مقتضى ذلك، وهذه الفرقة قد نفت هذين الحكمين عنه[١]، فظاهر القضية ناف للحكم وباطنها ينحل الى قولين: قول ينفي

➲ عليه (الأحكام للآمدي ج٢: ص١٨٩).

أقول: ومن الواضح لدى الخبير: أنّ حجر الأساس لهذه المباحث هو اثبات الحسن والقبح العقلي، ونفي هذا الحكم من الأشاعرة نفي للحكم الضروري، لأنّ معنى ذلك: جواز فعل القبيح والإخلال بالواجب، فإذا كان العقل لا شأن له في إدراك حسن الأفعال وقبحها فمعناه أنّه لا يمكن درك حسن الأُمور الذاتية التي يستقل العقل في الحكم بحسنه أو قبحه حتى إذا كان فاعل الفعل حكيماً أو كان حكيماً علىٰ الاطلاق فلا معنى لكون فعله موافقاً للمصلحة ولا معنى للقول بأنّ الحكيم لا ينبغي منه فعل القبيح هذا مسلك من تسمىٰ بأهل السنة والجماعة.

(١) وخلاصة الكلام: أنّ المنكر للتحسين والتقبيح العقليين لايكون الشيء عندهم قبيحاً إلاّ إذا قبّحه الشارع، فكلّ فعل عندهم غير قبيح إلّا ما قبّحه الشارع، ومعنى ذلك: أنّه لو صدر القبيح من الشارع الأقدس لا يكون قبيحاً عند هؤلاء لأنّ القبيح ما قبّحه الشارع الأقدس، وأيضاً بناءً على هذا الزعم الاخلال بالواجب ليس بقبيح عند هؤلاء لأنّ الشارع لو لم يجعله قبيحاً لا يعدّ من القبائح.

وأيضاً ذهبوا إلى أنّه يجوز أن يعاقب الله المطيع ويثيب العاصي وليس ذلك بقبيح منه تعالىٰ.

قال الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٩) وظاهر الآية أنّ مغفرة الله تعالى وتعذيبه غير مقيدين بشيء، بل قد يدعى أنّ التقييد منافٍ للسوق إذ هو لإثبات أنّه سبحانه المالك على الإطلاق، فله أن يفعل ما يشاء لا مانع له من مشيئته، ولو كانت مغفرته مقيدة بالتوبة وتعذيبه بالظلم لم يكن فاعلاً لما يشاء، بل لما تستدعيه التوبة أو الظلم، فالآية ظاهرة في نفي الوجوب على الله تعالى، وأنّه يجوز أن يغفر سبحانه للمذنب ويعذّب المصلح وهو مذهب الجماعة... (تفسير الآلوسي ج٤: ص٥١).

➲

موضوعها، وقول يثبت موضوعها وينفي حكمه وليس ذلك سوى التدليس[١].

➲ أقول: الظاهر أنّ هؤلاء لم يعرفوا معنى الواجب على الله، فإنّ من الواضح أنّ الشيعة الإمامية عندما يقولون بأنّ الله تعالى لايخل بواجب معناه: أنّ الحكمة تقتضي أن لا يفعل الله القبيح ولا يخل بواجب، فعدم التجويز مربوط بقضية الحكمة، أي أنّ الحكمة البالغة الإلٰهية تقتضي ذلك، فإنّ الحكيم لا يصدر منه إلاّ ما يكون موافقاً للحكمة، فعدم تجويز الإخلال بالواجب أمر عقلي لا أنّ معناه عدم القدرة أو معناه الوجوب المصطلح عندنا، بمعنى لزوم الشيء عليه مولوياً، فالوجوب المقصود هنا غير الوجوب الشرعي الذي يقصد منه الالزام بل إنّ معناه: أنّ أفعاله تعالى لا تصدر منه إلّا لجهة الحكمة وليس معنى هذا الالزام عليه بل معناه أنّ العقل يدرك بانّ الحكيم لا يفعل فعلاً مخالفاً للحكمة وهذا مثل أن تقول فلان رجل عالم لا ينبغي له أن لا يقرأ ولا يكتب فانّ مقتضىٰ كونه عالماً معرفته بالقراءة والكتابة، فالحكمة تقتضي أنّ الله تعالى يعطي الثواب للعمل الصالح وأن يعذّب الكفّار والعاصين، فجواز تعذيب الأنبياء وإثابة الفراعنة وإن كان أمراً مقدوراً على الله ولكن حيث أنّ ذلك مخالف للحكمة، فلن يفعله الله تعالى أبداً وليس معنى هذا تحديداً لقدرة رب العالمين، وإنّما معناه أنّ القدرة الإلٰهية حكيمة غير ظالمة، ولذلك تجد في كتب الشيعة الامامية يصرّحون بأنّ أفعال الله إنّما تكون صادرة منه على أساس حكمة، وهي معللة بالأغراض الصحيحة والغايات المعقولة لا أنّه غير قادر على ذلك. فلاحظ.

(١) فإنّ التدليس عبارة عن التمويه، والفرق بينه وبين الكذب أنّ الكذب مخالفة الواقع أي إخبار بما يخالف الواقع، والتدليس مضافاً إلى عدم مطابقته للواقع فيه جهة التمويه.

قال الجوهري في الصحاح: التدليس كتمان العيب والمدالسة: المخادعة (الصحاح ج٣: ص٩٣).

وقال ابن الأثير: التدليس إخفاء العيب (النهاية في غريب الحديث ج٢: ص١٣٠).

وقال الزبيدي: المدلس في الحديث، من لايذكر في حديثه من سمعه منه، ويذكر الأعلى موهماً أنّه سمعه منه وهو غير مقبول، والتدليس: التكتّم (تاج العروس ج٨: ص٢٩٠).

فالتدليس أمر قبيح وقبحه يكون أشد من الكذب.

فابن تيمية لما وجد أن إنكار التحسين والتقبيح العقليين مرجعه إلى القول بتجويز فعل القبيح على الله وتجويز الإخلال بالواجب بالنسبة إلى الشارع الأقدس، فجعل ينكر هذا اللازم مع ➲

وأمّا جهة الكذب فقد عرفت في طيّ هذه المباحث كونهم متفقين على نقيض ما نسبه اليهم السنّي هنا، وقد تكرّر بيان ذلك منا[١].

وثاني عشرها: انّ ما وصف به الشيعي من كونه مبدعاً من أعظم جرئته وجسارته على الله ورسوله؛ فانّ الشيعي حسبما بيّناه الى هنا وسنبينه فيما يأتي قد بيّن وشيّد ما نزل من عندالله سبحانه وما ورد من سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢] قامعا

← اعترافه بالملزوم، وهذا تدليس محض، كما أنّ الأشاعرة الذين ينكرون التحسين والتقبيح العقليين أيضاً وقعوا في هذا الإشكال وإن صرحوا بنفي فعل القبيح من الله سبحانه إلّا أنّ لازم كلامهم جواز صدور فعل القبيح منه عزوجل، وقد تقدم ذكر دعواهم وما يرد عليهم من الإشكالات. إذن القول بنفي فعل القبيح عن الله عزوجل منهم تدليس واضح عند العلماء. فلاحظ.

(١) قد تقدّم الكلام في ادّعاء الأشاعرة حيث ذهبوا إلى أنّ الحسن ما حسّنه الشارع والقبيح ما قبّحه الشارع والأفعال كلها ليست فيها جهة الحسن ولا جهة القبح وعلىٰ هذا المبنىٰ اختاروا مذهبهم فيقولون: بأنّ الظلم لا يكون قبيحاً في حدّ ذاته إذا كان الشارع لم ينه عنه، ولكن حيث أنّ الشارع قد نهى عنه، يكون قبيحاً والعدل إنّما يكون حسناً لأنّ الشارع قد أمر به ولو عكس وجعل العدل قبيحاً والظلم حسناً لكان كما قال.

وأيضاً تقدّم بأنّ الأشاعرة ذهبوا إلى أنه ليس شيء واجب على الله، فله أن يعذب المطيع وله أن يثيب العاصي.

قال الآمدي في كتابه الأحكام: وأمّا الثواب والعقاب فليس مما يجب على الله تعالى في مقابلة الفعل، بل إن أثاب بفضله، وإن عاقب فبعدله كما عرفت من أصلنا، بل له أن يثيب العاصي ويعاقب الطائع (الأحكام للآمدي ج١: ص١٥٠).

(٢) فإنّ الشيعة الإمامية لا يقولون شيئاً في الدين إلّا بما جاءهم في ذلك دليل من الله ورسوله والأئمة الطاهرين عليهم السلام فإنّهم يأخذون معالم دينهم عن الله عزوجل ـ والمعصومين عليهم السلام.

وبعبارة أُخرىٰ: انّهم تمسّكوا بالقرآن وسنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسنن أئمة أهل البيت عليهم السلام لأنّهم مستودع علوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلّا وحي يوحى فلا تبيح ←

بآيات الفرقان العظيم ويسنن سيد المرسلين، هامات المبدعين وماحياً لبدعهم ومزيلها وجاعل السنن في محالها ومنجي الغفلة من شرَّ مصائدهم ومكائدهم وغشّهم باظهار الحق لهم بأتقن دليل وبأجلى حجة وبرهان[١] والسني قد جعل

➲ الشيعة الرجوع في أُمور الدين إلى غير المعصوم لأنّ غير المعصوم لا يصون عن الخطأ والاشتباه والغفلة وغير ذلك مما يؤدي إلى الضلال والانحراف وادخال ما ليس في الدين.

فقول الإمام المعصوم يكون خالياً عن كل ريب وشائبة وهو الحجة وهو عين الحق وليس في خلافه حق، كما أنّ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكون كذلك، فالشيعة منذ تكوّنت من عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كانت تعتقد بهذه العقيدة وإلى يوم القيامة باقين على هذا الاعتقاد، ولذلك عكفوا على أقوال المعصومين عليهم السلام من أول نشأتهم وقد بذلت الوسع والطاقة في تدوين كل ما شافهوها عنهم، واستفرغت الهمم والعزائم في ذلك بما لا مزيد عليه حفظاً للعلم الذي لا يصح عند الله سواه. وحسبك ما كتبوه أيام الإمام الصادق عليه السلام من تلك الأُصول المسمّىٰ بأربعمائة وهي أربعمائة مصنف لأربع مائة مصنف، كتبت الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام وعن الإمام الصادق عليه السلام وغيرها هو أضعاف، كما يتضح للباحث بالمراجعة إلى كتب الحديث الشيعية. فلاحظ.

(١) فإنّ القرآن الكريم حجة من الله وكتاباً ينطق بالحق وهو الحجة المقبولة عند جميع المسلمين، ومبين كل شيء، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ ٱللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (سورة المائدة: ١٥) وهو تبيان لكل شيء، فيه أُصول كل شيء من المعارف والأحكام والأخلاق والقوانين التشريعية وغيرها. فالقرآن الكريم لم يبق شيء يتعلق بتحقيق الهدف من بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم إلّا وقد ذكره الله في كتابه وإن كانت الآيات القرآنية كلّها معجزة في فصاحتها وبلاغتها إلّا أنّها محتاجة إلى المفسر الذي يعرف حقائق المكنونة فيها وهو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (سورة النحل: ٤٤) أو من يكون قائماً مقامه ومتصفاً بصفاته الكريمة من الظلم والعصمة و... فالشريعة الإسلامية جاءت من لدن عليم خبير كاملة متكاملة لتربية البشرية، وقد جعلت لهم برامج مثالية لسعادتهم وتكاملهم وإيصالهم إلى مقام القرب الإلٰهي، كما نقرأ في قوله تعالى: ➲

شريعة خير الرسل ﷺ بدعة من حيث وصفه لمن شيّدها وبيّنها وروّجها بأنّه مبدع[(١)].

﴿وَلَقَدَ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة النور: ٣٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ ٱللهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (سورة الزمر: ٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (سورة الزمر: ٤١) وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الحشر: ٢١) وإلى غير ذلك من الآيات التي تبيّن الهدف من نزول القرآن الكريم.

ثم إنّ القرآن الكريم بيّن حقيقة السنة النبوية وحجيّتها وأهميتها والدعوة إلى الاهتداء بها بقوله تعالى: ﴿مَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (سورة الحشر: ٧) وقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ (سورة النساء: ٥٩) فقرن تبارك وتعالى طاعة الرسول بطاعته وفرضها على المسلمين، واعتبر طاعة الرسول كطاعته واجبة على جميع المسلمين، قال الله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللهَ....﴾ (سورة النساء: ٨٠) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (سورة محمّد ﷺ: ٣٣) فهذه الآية اعتبرت أنّ قبول الأعمال من المؤمنين مشروط بطاعة الرسول ﷺ فإنّ طاعة الرسول أصل أساسي في قبول المؤمن أعماله وإن لم يطع الرسول فما كان له على الله شيء.

قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلاَغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة النور: ٥٤) هذه الآية الكريمة تصرّح بأنّ الاهتداء إنّما تتحقق بطاعة الله وطاعة الرسول معاً. فلاحظ.

(١) فإنّ البدعة عبارة عن إدخال ما ليس في الدين. والإحداث فيه بعنوان كونه أمراً دينياً، وهذا من مصاديق الافتراء على الله وإن لم ينسبه إلى الله تعالى؛ لأنّ من الواضح أنّ الدين كلّه لله تعالى فمن زاد فيه أو حدث فيه حادث فقد نسبه إلى الله تعالى افتراءً وزوراً وأدخل في الدين ما ليس فيه، قال رسول الله ﷺ: كل بدعة ضلالة (المستدرك للحاكم ج ١: ص٩٦).

وثالث عشرها: إنّ ما زعمه من أنّ الشيعي سلك مسلك أمثاله... الى آخره عدم إنصاف منه بيِّن، لما هو معلوم من توقّف معرفة مذهب أيّ فرقة من الفرق على سيرتها في العمل دون مجرّد القول[١]، فإنّه قد يخالف العمل لجهات ليس المقام مقام سردها، فالعبرة في معرفة صدق من يقول بأنّ الله منزّه عما ليس يليق

➲ وفي الحديث الآخر قال صلى الله عليه وآله وسلم: كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار (الكافي ج١: ص٥٧ ح١٢).

وعن ابن مسعود، عن أبيه، عن جده: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ستكون بعدي أُمراء يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ويحدثون البدعة، فقال ابن مسعود: وكيف أصنع إن أدركتهم؟ قال: تسألني ابن ام عبد كيف تصنع لا طاعة لمن عصى الله (السنن الكبرىٰ للبيهقي ج٣: ص١٢٤).

وفي حديثٍ آخر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم (الكافي ج٢: ص٣٧٥).

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً قال: أبىٰ الله لصاحب البدعة التوبة قيل: يا رسول الله، وكيف ذلك؟ قال: إنّه قد أشرب قلبه حبها (الكافي ج١: ص٥٤) وإلى غير ذلك من الروايات الواردة في المقام والخبير يعلم بانّ الروايات الواردة في هذا المجال بالغ عن حدّ التواتر ولذلك قد أجمعت الامة الاسلامية علىٰ أنّ أهل البدعة هم أهل الضلالة وأهل الصلاة هم الدعاة إلى النار وهم يوم القيامة من المقبوحين قال الله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ هُم مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ (سورة القصص: ٤٢) فإنّ سوء أعمالهم في الدنيا هو الذي جعلهم ملعونين في الدنيا ومقبوحين في الآخرة. فلاحظ.

(١) لأنّ مجرد الإدّعاء لا تقوم علىٰ شيء وليس ورائه قناعة ولا قبول فلا يفيد ولا أثر له عند العلماء والباحثين، والعبرة في البحث العلمي بإقامة الدليل والبرهان واتمام الحجة علىٰ الخصم ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة البقرة: ١١١).

فالاستدلال لابد أن يكون بدليل ثابت، إمّا من المسلّمات لدى الكل أو لا أقل أن يكون حجة عند خصمه، فمجرد الدعوىٰ في البحث العلمي لا سيّما مه كبار رجال العلم كالعلامة الحلّي رضوان الله تعالى عليه يحتاج المؤنة العلمية وحيث أنّ الرجل ليس له إلّا الإدعاء المحض فقوله يدلّ على جهله فلا يثبت بذلك إلّا شخصيته الخالية عن الأُمور العلمية. فلاحظ.

برحمته وعدله النظر فيما يعتقده، فإن طابق ما يعتقده لقوله المطابق للشريعة فقوله صدق ومذهبه حق، وإن لم يطابق قوله لما وردت به الشريعة فإنّ قوله كذب وينسب اليه المخالفة للشريعة(١).

وهذه المقالة قد تكررت منّا، وعرفت عدم تنزيه من قال بإمامة الثلاثة لله سبحانه عن فعل الظلم وعن المخالفة لماكتبه عليه من الرحمة(٢)، فما فعله الشيعي

---

(١) هذا عقيدة ابن تيمية تبعاً للأشاعرة فهم يعتقدون بأنّه لا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها، فلا حسن إلّا ما حسّنه الشارع ولا قبيح إلّا ما قبّحه، وهذا الاعتقاد يعتبر حجر الأساس لمعتقداتهم في الابواب المختلفة من اصول العقائد وفي المقام أساس البحث هو قولهم أنّ الله تعالى خالق كل شيء حتى أفعال العباد التي فيها الخير والشر والإيمان والكفر والتوحيد والشرك و... .

ومرجع هذا القول إلى أنّه يجوز في حقه تعالى أن يفعل الفعل الذي يستقبحه العقل وعدم كون أفعاله مبنياً على الحكمة والمصلحة والفرض الصحيح.

وأيضاً يكون مرجع هذا القول إلى جواز الإخلال بالواجب إذ لمّا كان الملاك في حسن الأشياء وقبحها عندهم هو فعل الشارع وأمره ونهيه، فإنّ هذه المقالة ترجع إلى أن لا يجب عليه شيء ومعنى هذا جواز الإخلال بالواجب، وعلى هذا الأساس يصح أن ينسب إلى هؤلاء القول بعدم وجود الحكمة في أفعال رب العالمين، والقول بجواز ارتكاب فعل القبيح على الله سبحانه، لأنّ معنى الحكمة عدم ارتكاب فعل القبيح وحكم العقل بعدم جواز فعل ما لا ينبغي صدوره من العاقل والتصديق بثبوت هذه الصفة للباري تعالى يتوقّف على قبول القاعدة العقلية وهي التحسين والتقبيح العقليين؛ إذ مفاد تلك المسألة يرجع إلى أن هناك أفعالاً يدركها العقل كونها حسنة أو قبيحة، فإنّ العقل يدرك بأنّ الغني بالذات منزّه عن الاتصاف بالقبح وفعل ما لا ينبغي، ومن هنا يلزم القول بالحكمة في أفعال رب العالمين والالتزام بهذه القاعدة العقلية وإلّا فلا يمكن إثبات مدعاه. فلاحظ.

(٢) لأنّ الاشاعرة من أهل السنة ذهبوا إلى أنّ العقل عاجز عن درك حسن الأفعال وقبحها، وأمّا المعتزلة منهم وإن اعترفوا بأنّ العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها إلّا أنهم لم يسلموا ⇐

ليس تلبيساً في نقل المذهب، بل المذهب بنفسه مشتمل على التلبيس من حيث قول أهله بأنّهم متابعون للشريعة وعاملون بها جميعاً مع مخالفة عقائدهم وجملة

➲ القاعدة عملاً في جميع الموارد، فإنّهم مع الالتزام بالحكم العقلي والقول بالحسن والقبح مع ذلك رفضوا لوازم هذه القاعدة العقلية في باب الإمامة والقول باللطف، فإنّ القاعدة تقتضي وجوب نصب الإمام المعصوم من قبل الله سبحانه في كل عصر وزمان وحيث أنّ المعتزلة كيفية أهل السنة يعتقدون بخلافة خلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان فرفضوا القاعدة بجميع لوازمه في باب امامة اولاً انكروا قاعدة اللطف في هذا الباب ثم انكروا العدل الالهي في هذا المجال وثالثة التزموا بجواز تقديم المفضول على الفاضل.

ومن الواضح لدى الخبير أن عدم التزامهم بهذا الأمر الضروري يلازم امتناع إثبات الشرائع السماوية عن طريق العقل لأنّ أساس إثبات الشرائع إثبات التوحيد وإثبات التوحيد يتوقف على البراهين العقلية والبراهين العقلية تتوقف على التسليم للملازمة العقلية، ومن الملازمة العقلية درك حسن الأشياء وقبحها، فتكون الشرائع السماوية متوقفة على قبول الحكم العقلي فانكار هذا الأصل يهدم استدلال التوحيد وبذلك تسقط جميع الشرائع السماوية وكذلك الاعتقاد بالنبوة، فإنّ الاعتقاد بالنبوة العامة ايضاً متوقف علىٰ هذه القاعدة كما قرر في محله؛ لأنّ ارسال الرسل من باب اللطف واللطف من فروع قاعدة التحسين والتقبيح العقلية ولا يجوز الاستثناء في الحكم العقلي لأنّ الاستثناء في الحكم العقلي نقض للقانون العقلي وانهدام للاستدلال المنطقي.

وعليه: فإنّ نقض قانون حكم العقل في المقام يلزم منه انهدام الاستدلال في جميع موارده، وبناءً على ذلك يصح نقض القانون حتى بالنسبة إلى الأنبياء وتشريع الشرائع، وهذا مرجعه إلى عدم رعاية حال العباد والله تعالى منزّه عن ذلك، والى ذلك يشير العلّامة الحلّي رحمه الله في كتابه نهج الحق ويقول: لو كان الحسن والقبح باعتبار السمع لا غير، لما قبح من الله تعالى شيء، ولو كان كذلك لما قبح منه تعالى إظهار المعجزات على يد الكاذبين، وتجويز ذلك يسد باب معرفة النبوة، فإنّ أي شيء أظهر المعجزة عقيب ادّعاء النبوة لا يمكن تصديقه مع تجويز إظهار المعجزة على يد الكاذب في دعوىٰ النبوة (نهج الحق وكشف الصدق: ص٨٤).

من أقاويلهم لها مثل قولهم يخلق الله سبحانه فعال عباده[١]، ومثل تجويزهم عليه

---

(١) فإنّ الأشاعرة ذهبوا إلى أنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه مباشرة، وليس لقدرة العبد فيها دور، واستدلوا على ذلك بأدلّة:

منها: قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُم مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ لاَ إِلٰـهَ إِلَّا هُـوَ فَـأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (سورة فاطر: ٣) فان الحصر المذكور يدل على أن الله هو الخالق لجميع الأشياء.

ومنها: أفعال العباد فإنّه تعالى خالقها.

والجواب عنه واضح لأنّ معنى خالقية الله لكل شيء ومؤثّريته في الوجود قد بـيّنه الله تـبارك وتعالى في آية اخرىٰ من القرآن الكريم وهي: قوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ لاَإِلٰـهَ إِلَّا هُـوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٢) هذه الآية المباركة تدلّ بالصراحة علىٰ أنّ خالقية رب العالمين لكـل شـيء لاتـتعارض مـع حـرية الإنسـان واختياره في أعماله إذ تقول الآية انّ الله خالق كل شيء فيا ايها الانسان أعبد ربك فالآية صريحة بانّ خلق كل شيء بيد الله وهذا لا يتنافي مع أنّ العبادة فعل العبد، فأفعال الإنسان تنسب إليه وأفعال الله تنسب إلى الله، فلاتوجد علتان في المقام أو خالقان للفعل الواحد في عرض واحد، لكن الله تبارك وتعالى قادر على كل شيء ومعناه: أنّ الله تبارك وتعالى مع ماله من القدرة على كل له شيء ،فإنّ حكمته اقتضت أن يعطي للإنسان الاختيار والحـرية فـي العمل، وإن كان الله تعالى قادراً أن يسلب هذا الاختيار والحرية من الانسان في أي لحظة أراده، ولكن مع ذلك أعطاه هذا الاختيار والحرية في العمل ولكن في جميع الآنات محتاج إلى الكرم والإحسان والفضل من الباري تعالى، فلو انقطع لحظة واحدة اللطف مـنه تـعالى لأصبح الوجود كلّه العدم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ولم يقل: لكـل شيء وكيل، فإنّ الاختلاف في المعنى بين الجهتين واضح «لأنّ» على تفيد التسليط ونفوذ الأمر، أمّا «اللام» تفيد التبعية، فالجملة مع لفظ علىٰ تدلّ على الولاية والرعاية والجملة مع لفظ «لام» تدلّ على التمثيل والوكالة، فهذه الآية الكريمة بيّنت حقيقة الأمر بـين الأمـرين بصورة واضحة. إذ معنى التوحيد في الخالقية هو الحصر في الله سبحانه، فإنّ الله تعالى هو الخالق المستقل بالذات، وحصر الخالقية المستقلة لذاته المقدسة وغير معتمدة بشيء غير أنّ هذا لا ينافي القول بأنّ غير الله يقوم بأمر الخلق والإيجاد بإذن الله تعالى، وبالتسبيب فـإنّ

سبحانه تعذيب المطيعين وتثويب العاصين[(١)]، ومثل قولهم: بعدم لزوم نصب

➲ الكل جنود لله تعالى، وهذا ما يدعمه العقل ويعضده القرآن، فإنّ القرآن الكريم مليء بالآيات الناصّة على استناد الأفعال والآثار إلى أسباب كونية وإلى الإنسان نفسه كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ (البقرة: ٢٦١) هذه الآية الكريمة اعتبرت مسألة الإنفاق الذي هو من أفعال العباد إحدىٰ أهم المسائل التي أكّد عليها الإسلام، فتقول الآية الشريفة بأنّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ فيكون مجموع المتحصّل من فعل العبد سبعمائة حبة، فالآية تشير إلى أنّ ثواب هذا العمل تضاعف بأضعاف عديدة، وإلى غير ذلك من الآيات.

فوجه الجمع بين الآيات الدالة على حصر الخالقية بالله سبحانه والآيات التي تثبت للموجودات التأثير وللإنسان دوراً في أفعاله هو انحصار الخالقية المستقلة النابعة من الذات في الله تبارك وتعالى، والتأثير بالتسبيب وبإذن الله تبارك وتعالى من العبد.

فاتضح جواب الأشاعرة بهذين الآيتين، وهناك آيات اخرىٰ كثيرة ترد على عقيدة الأشاعرة وعقيدة الجبر، وسنذكرها إن شاء الله تعالى في محلّه.

(١) لا شك أنّ من ثمرات انكار مسألة التحسين والتقبيح العقليين القول بأنّ أفعال الله ليست معللة بالأغراض والغايات، إذ بناءً على إنكار التحسين والتقبيح يجوز للمنكر أن ينسب إلى الله فعل ما لا ينبغي صدوره من الحكيم وذلك يؤدي إلى القول بجواز كونه سبحانه وتعالى مُخلّاً بالغرض وهو قبيح عقلاً؛ إذ لو كانت أفعاله معللة بالغايات والحِكَم العقلية لكان العقل حاكماً بالنسبة إلى أفعاله، فحيث أنّ العقل لا شأن له في أفعاله تعالى فلا تكون أفعاله صادرة عنه لغرض صحيح عقلائي ـ والعياذ بالله ـ فبناءً على زعمهم هذا أنّ أفعاله تعالى ليست حكيمة ولا معللة بالغرض الصحيح؛ لأنّ أساس الحكمة حكم العقل بالتحسين والتقبيح العقليين كما تقدم؛ ثم إنّ الحكمة عبارة عن كشف الحقائق بواسطة الاستدلال العقلي فإذا كان الشيء حسناً عند العقل يجوز فعله للحكيم.

ولكن الأشاعرة يزعمون بأنّ هذا الاستدلال يوجب التحديد للباري تعالى، فيرفضون حكم العقل يحكمون بانّ أفعاله تعالى ليست مبنّية على التحسين والتقبيح العقليين. ولكن الجواب عنهم ➲

إمام[١] وعدم لزوم كونه معصوماً على تقدير صدور النصب[٢]، وقولهم: بتجويز

➲ واضح، فإنّ هذا الاستدلال ليس تحته شيء إذ كما ذكرنا أنّ حكم العقل لا يحدد الباري جل وعلا وانّما هو درك للأوصاف فقط ودرك الأوصاف درك لشأن رب العالمين فلا يوجب تحديداً. فلاحظ.

(١) اتفقت كلمات أهل السنّة على عدم لزوم نصب الإمام من قبل الله تبارك وتعالى وذهبوا إلى أنّ الإمام كرئيس دولة يجوز للناس انتخابه، أو أنّ الإمام نائب من نوّاب الأُمة، أو أن الإمام هو المتسلّط على الأمة بانقلاب عسكري أو ما شابه ذلك، فالإمامة عند أهل السنّة أشبه بسياسة وقتيه زمنية يستغلها الفرد من الأُمة بأحد الطرق المذكورة وغيرها.

وعليه: فتعيين الإمام عند أهل السنة يرجع إلى نفس الأُمة لا إلى الله سبحانه ولا إلى رسوله، ولذلك ذكروا بعض الشروط في حق الإمام لا تكون تحصيلها صعبة بل هي متوفرة لكثير من الناس، صرّحوا في كتبهم بأنّ الامام لا ينخلع عن إمامته بفسقه ومعصيته وخروجه عن طاعة الله،

قال الباقلاني: لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبشار وتناول النفوس المحرمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء مما يدعو اليه من معاصي الله (التمهيد للقاضي أبي بكر الباقّلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ: ص١٨٦).

وقال الطحاوي: ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أُمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً عن طاعتهم، ونرىٰ طاعتهم من طاعة الله عزوجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة (متن شرح العقيدة الطحاوية: ص٣٧٩).

وقال التفتازاني: لا ينعزل الإمام بالفسق أو بالخروج عن طاعة الله تعالى والجور (أي الظلم على العباد) لأنّه قد ظهر الفسق، وانتشر الجور من الأئمة والأُمراء بعد الخلفاء... (شرح العقائد النسفية، والمتن لأبي حفص عمر بن محمد النسفي، والشرح لسعد الدين التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١ هـ: ص١٨٥ ـ ١٨٦). وإلى غير ذلك من كلماتهم في هذا المجال.

(٢) اتفق أهل السنّة على أنّ العصمة ليست من شرائط الإمام، واستدلّوا على ذلك أن الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكونوا معصومين.

➲

تقديم المفضول على الفاضل حسبما قالت المعتزلة بهذه[١] إلى غير ذلك، ومعنى

➲ قال التفتازاني: واحتج أصحابنا على عدم وجوب العصمة بالإجماع على إمامة أبي بكر وعمر و عثمان مع الإجماع على أنّهم لم تجب عصمتهم... وحاصل هذه الدعوىٰ الإجماع على عدم اشتراط العصمة في الإمام (شرح المقاصد ج٥: ص٢٤٩).

لايخفى على الخبير أنّ استدلالهم على عدم العصمة بفعل الأُمّة وما حدث بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصادرة بالمطلوب، لأنّ الاستدلال يكون بنفس ما وقع في التاريخ؛ أي أنّ الدليل يكون عين المدّعىٰ، فلايثبت به شيء. ويستبيّن حقيقة بطلان هذه النظرية في محلّه إن شاء الله تعالى.

وأمّا الشيعة الإمامية فقد اتفقت كلمتهم على لزوم هذا الشرط.

قال الشيخ المفيد: اتفقت الإمامية على أنّ إمام الدين لا يكون إلّا معصوماً من الخلاف لله تعالى.... (أوائل المقالات للمفيد: ص٤٧).

وقال أيضاً: أقول: إنّ الأئمة القائمين مقام الأنبياء في تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود وحفظ الشرائع وتأديب الأنام معصومون كعصمة الأنبياء.... (أوائل المقالات للمفيد: ص٧٤) وإلى غير ذلك من كلماتهم رضوان الله تعالى عليهم، وقد استدلوا على وجوب العصمة بوجوه عقلية ونقلية، والنقلية كتاباً وسنّة، سنذكرها في محله ان شاء الله تعالى.

(١) فإنّ المعتزلة من أهل السنّة كالأشاعرة ذهبوا إلى أنّ تعيين الإمام يرجع إلى الأُمة لا إلى الله سبحانه وتعالى ولا إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم حيث أنّهم يعتقدون بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يعيّن خليفة ومات بلا وصية والخليفة من انتخبه الناس بعد وفاته أو من تسلّط عليهم بالقوة والقهر، فالمتسلّط على الأُمة هو الإمام وإن كان تسلطه بانقلاب عسكري أو ما شابه ذلك، إذن بناءً علىٰ هذا المسلك لا فرق بين أن يكون الامام مفضولاً أو فاضلاً فجوّزوا تقديم المفضول على الفاضل، وإنّ تقديم المفضول على الفاضل ليس من جهة العلم فقط بل من جميع الجهات، فإنّ أحد مصاديق تقديم المفضول على الفاضل هو تقديم العالم على الجاهل وأحد مصاديقه الاخرىٰ تقديم الفاسق على العادل وهكذا، لأنّ الإمام لابد أن يكون أفضل الرعية من جميع الجهات.

فالمعتزلة يعتقدون بجواز تقديم المفضول على الفاضل من جميع الجهات وإن كان ذلك مخالفاً ➲

هذه جميعها عدم قيامه سبحانه بما كتبه على نفسه من الرحمة(١)، وفعله لما علم بقبحه من خلق الشرور في العباد وعقوبته لهم عليها..(٢) الى تمام ما نبّهنا عليه، فعلم مخالفة ما قالوه لساناً لما هم مصرّون عليه في العمل، فالقول الذي يتبعه العمل هو المذهب دون القول الذي يخالفه العمل، فالتلبيس إذن في نفس المذهب دون نقله، فتدبر في الغشّ والبهتان(٣).

⬅ لمبناهم في باب التحسين والتقبيح العقليين، فإنّهم قد خالفوا هذه القاعدة المسلمة عندهم الذي بنوا عليه مذهبهم، وهذه القاعدة تقتضي وجوب إرسال الرسل من باب اللطف، وكذلك تقتضي وجوب نصب الإمام المعصوم في كل عصر وزمان من باب اللطف، فهم خالفوا هذه القاعدة في باب وجوب نصب الإمام من قبل الله عزوجل. فلاحظ.

(١) قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢) ومعنى كتب، أي أثبت وألزم على نفسه، ولازم هذه الكتابة تخصيص الرحمة لجميع من يستحقّها من خلقه، وهي نعمة إلٰهية شاملة لجميع الناس، سواء انتفع الناس بها أو أعرضوا عنها، فإنّ الله تبارك وتعالى قد أتم نعمته عليهم بجميع ما يوجب نجاتهم والسعادتهم، وقد أتم عليهم الحجة ببعث الأنبياء والمرسلين، وإنزال الكتب ونصب الأئمّة المعصومين أعلاماً، للدين وبيّن حقيقة الرحمة للناس عملاً فهذا معنىٰ قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فإنّ من مصاديق الرحمة بالعباد اللطف بهم في هذا المجال. فلاحظ.

(٢) وخلاصة الكلام: أنّهم ذهبوا إلى أن أفعال العباد خيرها وشرها لم تكن باختيارهم، فإنّهم مجبورون عليها والسؤال الذي يتوجّه اليهم هو أنّه إذا كان الأمر كذلك، كيف يجوز للباري تعالى أن يعذّب العاصي الذي ليس له اختيار في الفعل والمعصية؟!!!

(٣) فإنّ المذهب عبارة عن مجموعة من النظريات الأساسية التي تحدّد مواقف الشريعة من المجتمع والفرد بحيث تعالج مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية والاقتصادية والمدنية وأساساً أنّ المذهب القوي الذي يملك منطقاً قوياً لا يرهب من أقوال الآخرين ولا يخاف من طرح آراء المذاهب الأُخرىٰ لأنّه أقوىٰ منها، وهي التي ينبغي أن تخافه، والمثال الواضح له هو المنطق المتبع في في سيرة الأنبياء فانّ منطق الأنبياء في مقابل مخاليفهم منطق الحوار ⬅

➲ والتعقّل وتجذيب الناس إلى كلمة الحق ودفع الباطل فكان نوح عليه السلام لا يبالي من الكفار، وعندما شكى قومه للبارئ تعالى يقول: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَاراً﴾ (سورة نوح: ٧) فبيّن نوح عليه السلام موقفه من الكفار وبذل تمام جهوده لدعوة الناس فهذه الآية الكريمة قد بينت حقيقة الدعوة في رسالة نوح عليه السلام والأنبياء عليهم السلام كان نهجهم الدعوة إلىٰ الله فكانوا في أوساط الناس يبلغون رسالاتهم ولايخشون أحداً إلاّ الله، ولا يؤثر اللؤم والتهديد فيهم أبداً، فلا يخافون في الله لومة لائم، فكانوا يتمسّكون بأصلين مهمين؛ وهما عدم الحزن على مافاتهم وعدم التعلّق والفرح بما لديهم، فهم مصداق لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (سورة الحديد: ٢٣).

قال السنّي:

وأما قوله: وذهبوا [أهل السنّة] الى أنّه لا يفعل لغرض بل كل أفعاله لا لغرض من الأغراض ولا لحكمة البتة، فيقال له: أمّا تعليل أفعاله وأحكامه بالحكمة ففيه قولان مشهوران لأهل السنّة، والغالب عليهم في الفقه وغيره التعليل، وأمّا في الأُصول فمنهم من يصرّح بالتعليل ومنهم من يأباه، وجمهور أهل السنّة على إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله وأحكامه.

وأمّا لفظ «الغرض» فالمعتزلة تصرّح به وعند غيرهم يشعر عندهم نبوع من النقص إمّا ظلم وإمّا حاجة؛ فإنّ كثيراً من الناس إذا قال فلان له غرض في هذا، أو فعل هذا لغرض أرادوا أنّه فعله لهواه، مراده المذموم والله منزّه عن ذلك، فعبّر أهل السنّة بالحكمة والرحمة وغير ذلك مما جاء به النص(١).

(١) منهاج السنّة ج١: ص١٢٥.

قلت:

في هذه وجوه من العجائب قد تقدّم بعضها.

أحدها: ما نسبه الى الجمهور منهم من القول بالحكمة والتعليل، فانّه كذب بيّن عليهم لما نقله عنهم صاحب المواقف وشارحه وغيرهما، من ذهاب أهل السنّة وسلف المحدّثين وأهل الفقه منهم الى نفي الحكمة والتعليل(١).

قلت: ويشهد لذلك ذهاب الجمهور منهم الى خلق الله سبحانه أفعال عباده فيهم من الكفر والشرور(٢).

---

(١) أُنظر المواقف للقاضي الإيجي ج٣: ص٢٨٣ ـ ٢٨٥، و شرح المواقف للقاضي الجرجاني ج٨: ص١٩٥.

(٢) وتوضيح المقام: أن الأشاعرة ذهبت إلى أنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٢) فذهبوا إلى أنّ إطلاق كل شيء شامل لأفعال الإنسان على نحو العموم سواء كان الفعل خيراً أم شراً.

قال أبو الحسن الأشعري في كتابه اللمع: إنّ الكافر ليس موجداً لكفره؛ لأنّ الكافر يقصد الكفر بما أنّه أمر حسن، ولكنه في الحقيقة قبيح كما أنّ المؤمن يقصد الإيمان بما أنّه غير متعب وهو ليس كذلك، فينتج أنّه إذا لم يكن المحدث للإيمان والكفر بما لهما من الخصوصيات شخص المؤمن والكافر يكون المحدث هو الله سبحانه (أُنظر اللمع: ص٧١ ـ ٧٢).

وثانيها: ما عرفته من ذهاب عامة من قال بإمامة الثلاثة الى نفي الحكمة والتعليل في أفعاله سبحانه وفي تكاليفه للخلق أشاعرتهم وغيرهم من المعتزلة وغيرهم لما بينّاه من كون المعيار في المذهب القول المطابق للعمل دون مطلق القول[١].

أقول: ويرد عليه أولاً بالنقض: وهو أنّه لو صح هذا الدليل لوجب القول بأنّ شارب الماء الذي يتخيّل أنّه خمر لم يشرب ماء ولم يصدر منه العمل المطابق لقصده إذ لم يتحقق منه العمل المقصود لأنّه قصد شرب الخمر، وكان الواقع شرب الماء فما وقع لم يقصد وما قصد لم يقع.

وثانياً بالحل: إنّ ما ذكره خلط بين الصفات الواقعية الحقيقية والصفات الانتزاعية، فالأُولى كالحرارة والبرودة تحتاج الى محدث كما يحتاج موصوفها اليه.

وأمّا الثانية: فإنّ الصغر والكبر ينتزعان من مقايسة شيء، إلى شيء فلا حاجة لهما إلى صانع وراء محدث ذات الشيء؛ لأنّ مقايسة شيء إلى شيء لا تحتاج إلى صانع، حيث أنّ هذه الأوصاف من مصنوعات الذهن ومخترعاته.

فالجسم الذي يقدّر بالذراع لتقدير الكبر والصغر إنّما يتحقّق التقدير بالمقايسة، وهذه المقايسة ليست أمراً يحدثها أحد في الخارج، وإنّما هي موجودة بوجود منشأ انتزاعها غير أنّ الذي يقدر هو يبيّن ذلك المقدار الموجود في الخارج، وعلى ضوء ذلك فإنّ الايمان والكفر صفتان يعرض على الإنسان بعد اختيارهما، وأمّا الميزان الذي جعله الله تعالى لتبيين حقيقة الايمان ومراتبه أو لتبيين الكفر ومراتبه، إنّما هو من الأُمور الانتزاعية كالمقايسة التي ذكرناها في باب المقدار فلا يحتاج هذا الميزان إلى فاعل ومحدث كما اتضح مما تقدم.

(١) وخلاصة الكلام: أنّ الحكمة والعلة في أفعال الله سبحانه بمعنى تنزيهه عن فعل ما لا ينبغي صدوره منه تعالى، فإنّ الفعل الذي يصدر من الله سبحانه لابد أن يكون حسناً عند العقل اذ الحكيم لا يصدر منه الفعل إلّا علىٰ وجه الحسن فالفعل الذي يصح والفعل لا يصح نسبته إلى الله إلّا أن يكون حسناً عند العقلاء بما هم عقلاء لأنّه لا يصدر منه تعالى الفعل إلّا لمصلحة وغرض عقلائي، فإذا تبين ملاك فعله العقلاء كلّهم يحكمون بحسن فعله تبارك وتعالى سواء

كانوا من أهل الإيمان أو من أهل الكفر، فالعاقل مع تجرده عن كل شيء إذا نظر إلى فعل الله لا محالة يحكم بالحسن، لأنّ الحكيم أفعاله مبنية على الحكمة ووجه فعله واضح عند العقلاء فيزنون الفعل بميزان العقل من دون النظر إلىٰ الانتماءات والأغراض المادية والمعنوية، والعقل ميزان كلي يحكم به مستقلاً من دون دخالة الأُمور الخارجة، فهذا ما يسمىٰ بالتحسين والتقبيح العقليين الذاتيين.

ومثاله: أنّ العقل يحكم بحسن الإحسان وبقبح الظلم مستقلاً من دون نظر إلى غرض الفاعل أو الحاكم، فكأنّ الحسن والقبح داخلان في ذات الفعل وجوهرته، فلا ينفكّان عنه، فغرض الفعل يلازم غرض الحكمين. والحكيم هو الذي لا ينفك فعله من المصلحة لأنّ الحكمة تقتضي وضع كل شيء في محله فلا يصدر منه الفعل إلّا علىٰ وجه الحسن ولا يفعل القبيح أبداً، فالتصديق بهذه الصفة للباري تعالى مبني على القول بالتحسين والتقبيح العقليين في المرتبة السابقة، ولما كانت هذه القاعدة أساساً لثبوت الصفات الفعلية، فإنّ أفعاله تعالى في الأُمور التكوينية والتشريعية، فالشيعة الإمامية يعتقدون بثبوت الغرض في أفعاله ـ تعالى ـ

وأمّا الأشاعرة قد أنكروا هذه القاعدة حيث زعموا بأنّ هذه القاعدة موجب لتحديد رب العالمين، فهم غفلوا عن أنّ هذه القاعدة لا تكون حدّاً لقدرة رب العالمين، فإنّ الله تعالى قادر على كل شيء، ولكن حيث أنّه حكيم أنّ العقل يدرك بأنّ الحكيم لا يرتكب القبيح، وهذا الحكم والدرك العقلي ليس تحديداً لقدرة رب العالمين، وانّما هو درك صفة من صفاته – عزوجل – وقد اتضح مما تقدّم قول الشيعة الاثنىٰ عشرية وبطلان قول الأشعرية بما لا مزيد عليه.

وخلاصة ذلك. أنّه لو قلنا: لا سبيل للعقل إلى معرفة الحسن والقبح إلّا بتصريح الشرع لا يحصل الجزم بقول الشرع حيث لا سبيل لنا لم عرفة الحسن والقبح إلاّ بعد ثبوت أن الشارع لا يكذب ولا يعبث بكلامه، وأيضاً بعد إثبات أنّه تعالى حكيم، والحكيم لا يصدر منه فعل القبيح، فيلزم أن يكون الفعل المصادر منه حسناً قبل أن يفعله.

ولذلك قال العلّامة الحلّي: إنّه لو كان الحسن والقبح سمعياً لا عقلياً لما قبح من الله شيء، ولو كان كذلك لما قبح منه تعالى إظهار المعجزات على يد الكاذبين، وتجويز ذلك ليسدّ باب معرفة

وثالثها: ما قاله من كون الغالب عليهم في الفقه التعليل؛ فإنّه من مناقضاتهم الشيعة لأنّ الجمهور منهم حسبما عرفت مصرّحون بنفي الحكمة والتعليل[١]، وفي

النبوة إذ إظهار المعجزة بعد ادعاء النبوة لا يكون دليلاً لصدق ادعائه اذا كان باب احتمال اظهار المعجزة على يد الكاذب مفتوحاً(نهج الحق وكشف الصدق: ص٨٤).

وأمّا المعتزلة وهم الذين يشتركون مع الأشاعرة في أصل المذهب والالتزام بمنهج الخلفاء على طريقة العامة فإنّهم وإن أقروا بلزوم إجراء القاعدة وذهبوا إلى أنّ العقل مستقل في إدراك حسن الأشياء وقبحها إلّا أنّ اعتقادهم في الإمامة يناقض قولهم في قبول القاعدة، لأنّهم خالفوا هذه القاعدة العقلية في هذا الباب وبنوا فيه علىٰ جواز اختيار الناس الإمام والخليفة علماً انّ رسول الله ﷺ بعث من قبل رب العالمين بقاعدة اللطف، وأمّا بالنسبة إلى خليفته فلم يلتزموا به هذا القانون العقلي بل ذهبوا إلى جواز تقديم المفضول على الفاضل في المقام، وهو مخالف للحكم العقلي. فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: أنّ الأشاعرة الذين يشكلّون أكثرية أهل السنّة والجماعة يقولون: بأنّ أفعال الله تعالى لا تكون معللة بالأغراض الحكيمة ولا تكون أفعاله سبحانه صادرة منه عن حكمة ومصلحة، وذلك لأنّهم يقولون: إنّ الله تعالى خالق كل شيء بما فيه الخير والشر، فإذا كان الله خالقاً للشر فمعناه: إنّ أفعاله ليست معللة بالأغراض الصحيحة، حيث أنّ في أفعاله الشر ـ والعياذ بالله ـ والشر ليس فيه حكمة ولا غرض صحيح، وعلى هذا الأساس: ذهبوا إلى القول بالجبر الذي أسس عليه بنو أُمية حكومتهم حتى أن معاوية لما نصب ولده يزيداً خليفة للمسلمين وسلّطه على رقاب الناس فاعترضت عليه عائشة، فأجابها معاوية: إن أمر يزيد قضاء من الله فليس للعباد فيه الخيرة من أمرهم (أُنظر الإمامة والسياسة ج١: ص١٦٧) وكذلك عبدالله بن عمر لمّا اعترض عليه قال له مثل هذا القول (أُنظر الإمامة والسياسة ج١: ص١٧١).

وقد سرىٰ هذا الاعتقاد البائس إلى غير الأُمويين من الخلفاء وهم العباسيون بحيث أصبح قانوناً من القوانين الاعتقادية عند أهل السنة والجماعة وأتباع السقيفة فكانوا يتعذّرون به ويأخذونه ذريعة لأفعالهم الشنيعة وظلمهم وتعدّيهم على حقوق الناس حتى أصبح مذهب الأشعري مذهباً رسمياً لأهل السنة والجماعة في عصر المتوكل العباسي، فأنكروا قاعدة

الفقه جرّت سيرتهم على التحليل من جهة ضيق الخناق بسبب جهلهم بالشريعة من حيث عدم تلقّيهم لها عن حملتها وحفظتها وهم العترة، فجرى ديدنهم على القياس[١] بعد علمهم حسبما ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما ببيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم

➲ التحسين والتقبيح العقليين، وأنكروا العدل الإلٰهي، وزعموا أنّه لا شأن للعقل في الحكم بحسن الأشياء وقبحها بل الحسن ما حسّنه الشارع والقبيح ما قبّحه الشارع، فليس هناك تقبيح من العقل حتى تكون أفعال الشارع يدرك به ويحكم بأنّها معللة بالأغراض الراجعة إلى مصلحة العباد فبناءً على زعمهم هذا التزموا بلوازم عجيبة في صفات الباري تعالى، فجوّزوا في حقه سبحانه الظلم وفعل القبيح و... .

(١) فإنّ القياس عبارة عن تعدية الحكم من محل الى محل آخر، كما قاله الغزالي في كتابه المستصفى: ص٣٢٨.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ المراد من القياس هو أن نقيس موضوع على آخر متشابهان من بعض الجهات، ونحكم للثاني بنفس الحكم الموجود في الموضوع الأوّل من دون أن نعرف فلسفة الحكم وأسراره كاملاً، كأن نقيس بول الإنسان المحكوم بالنجاسة ووجوب الاجتناب عنه بعرق الإنسان. ونقول: بما أنّ هذين الشيئين يتشابهان في الخروج من بدن الإنسان فيسري حكم الأوّل إلى الثاني، فيكون كلاهما نجسين أو كلاهما طاهرين في حين أنهما لو تشابها من جهة فهما متفاوتان ومختلفتان من جهات أُخرىٰ. وعلى أي حال فقد جعلوا القياس دليلاً لإثبات الحكم الشرعي، حتى أنّ ابن حزم قال في كتابه الأحكام: أنّه قال أبو الفرج القاضي وأبوبكر الأبهري المالكيان: أنّ القياس أولىٰ من خبر الواحد المسند والمرسل (أُنظر الأحكام لابن حزم ج٧: ص٩٣٠).

والقياس بهذا المعنى المذكور من المواضيع الفكرية عند أهل السنة والجماعة، وقد وقع البحث فيه على عهد الإمام الصادق عليه السلام بين أئمة الشيعة ومخالفيهم، ودارت المناظرات حول عدم مشروعية ذلك ومن تلك المناظرات هي ما وقعت بين الإمام الصادق عليه السلام وأبي حنيفة.

فقد روى أبو نعيم بسنده، عن عمرو بن جميع، قال: دخلت على جعفر بن محمد أنا وابن أبي ليلىٰ وأبو حنيفة، فقال لابن أبي ليلىٰ: من هذا معك؟ قال: هذا رجل له بصر ونفاذ في أمر ➲

الدين، قال: لعله يقيس أمر الدين برأيه... (إلى أن قال): يا نعمان حدثني أبي عن جدّي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أوّل من قاس أمر الدين برأيه ابليس، قال الله تعالى له: اسجد، فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بابليس لأنّه أتبعه بالقياس (حلية الأولياء ج٣: ص١٩٧) ورواه أبو نعيم في مسند أبي حنيفة: ص٦٦، و السيوطي في الدر المنثور ج٣: ص٧٢، والشوكاني في فتح القدير ج٢: ص١٩٣، والآلوسي في روح المعاني ج٨: ص٨٩ وغيرهم.

فبيّن الإمام عليه السلام أنّ الأخذ بالقياس أخذ بفعل إبليس لأنّ الموضع موضع نفس الموضع حيث أنّ إبليس تمرّد عن الأمر بالسجود لأنّه على خلاف قياسه لتخيله: أنّ الأمر بالسجود يقتضي التفاضل العنصري، ولأجل هذا الخطاء خرج عن طاعة رب العالمين.

فالإمام عليه السلام بيّن لأبي حنيفة أنّ القياس في الحكم الشرعي أيضاً خروج عن طاعة الله مثل ما فعله إبليس في تمرّده عن أمر رب العالمين.

وفي حديثٍ آخر قال الإمام الصادق عليه السلام لأبي حنيفة: يا أبا حنيفة، أنت فقيه العراق؟ قال: نعم، قال فيم تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، قال: يا أبا حنيفة، تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم، قال: يا أبا حنيفة، لقد ادعيت علماً، ويلك ما جعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلّا عند الخاص من ذرية نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما ورّثك الله من كتابه حرفاً... (الى أن قال): يا أبا حنيفة، إذا ورد عليك شيء ليس في كتاب الله ولم تأت به الآثار والسنة كيف تصنع؟ فقال: أصلحك الله أقيس وأعمل فيه برأيي، فقال عليه السلام: يا أبا حنيفة، إنّ أوّل من قاس إبليس قاس على ربنا، فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فسكت أبو حنيفة.

ثم قال الإمام عليه السلام: يا أبا حنيفة، أيما أنجس البول أو الجنابة؟ فقال: البول، فقال الإمام عليه السلام: فما بال الناس يغتسلون من الجنابة ولا يغتسلون من البول؟ فسكت أبو حنيفة، فقال الإمام عليه السلام: يا أبا حنيفة، أيما أفضل الصلاة، أم الصوم؟ قال: الصلاة قال عليه السلام: فما بال الحائض تقضي صومها ولا تقضي صلاتها؟ فسكت أبو حنيفة، فقال الإمام عليه السلام: يا أبا حنيفة، أخبرني عن رجل كانت له أُم ولد وله منها ابنة وكانت له حرة لا تلد فزارت الصبية بنت أُم الولد أباها،

➲ فقام الرجل بعد فراغه من صلاة الفجر فواقع أهله التي لا تلد وخرج إلى الحمّام فأرادت الحرة أن تكيد أُم الولد وابنتها عند الرجل فقامت اليها بحرارة ذلك الماء فوقعت عليها وهي نائمة، فعالجتها كما يعالج الرجل المرأة فعلقت، أي شيء عندك فيها؟ قال: لا والله ما عندي فيها شيء (أُنظر علل الشرائع ج١: ص٨٩ ح٥).

فرغم ما ورد في ذم القياس وبطلانه وكونه عمل إبليس استند اليه علماء أهل السنّة.

قال الفخر الرازي في كتابه المحصول: الوجه الرابع: نقل عن الصحابة القول بالرأي والرأي هو القياس، وإنّما قلنا أنّهم قالوا بالرأي ؛ لأنّه روي عن أبي كرانه قال: في الكلالة أقول فيها برأيي وقول عثمان لعمر في بعض الأحكام: إن اتّبعت رأيك فرأيك رشيد...

وعن ابن مسعود في قصة بروع، أقول فيها برأيي، وإنّما قلنا أنّ الرأي عبارة عن القياس لأنّه يقال للإنسان: أقلت هذا برأيك أم بالنص؟ فيجعل أحدهما في مقابلة الآخر، وذلك يدلّ على أنّ الرأي لا يتناول الاستدلال بالنص سواء كان جلياً أو خفياً، فثبت بهذه الوجوه أنّ بعض الصحابة ذهب إلى القول بالقياس والعمل به... (المحصول ج٥: ص٦٢).

أقول: لا شك أنّ الاستناد بالرأي في الأُمور الدينية غير صحيح في كل حال من الأحوال، لأنّ مرجع ذلك إلى إدخال ما ليس في الدين في الدين، وحيث أنّ الإسلام دين إلٰهي أبدي، فالله تبارك وتعالى قد أكمل هذا الدين من جميع الجهات، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (سورة المائدة: ٣) فأخبر تبارك وتعالى بحصول الإكمال وإتمام النعمة علىٰ جميع الناس بعد تنصيب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام اماماً وعلماً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَومِ ٱلآخِرِ﴾ (سورة النساء: ٥٩) وقال تعالى: ﴿مَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (سورة الحشر: ٧).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا علَيَّ الحوض (مسند أحمد بن حنبل ج ٣: ص ١٤) وهل بعد هذه التوضيحات يبقىٰ التوضيح عذر لأحد أن يقول: لم تكن الطرق الشرعية محددة ولم أكن قادراً على أخذ الأحكام من الطريق الذي اسمه الله ➲

⮊ للمسلمين؟ فأهل السنة والجماعة ليس لديهم جواب على هذه الأسئلة حيث أنّهم سلكوا طريقاً غير ما فرضه الله عليهم فما ذكره الفخر الرازي من أنّ الصحابة كانوا يعلمون بالرأي كلام صادق ولكن لم يذكر أنّ الصحابة خالفوا القرآن والسنة النبوية في طريقتهم مثلاً، إنّ الخليفة الأوّل عندما أرسل خالد بن الوليد لجمع الزكاة من قبيلة بني نويرة وفعل ما فعل خالد من الجناية التي اسودّ بها تاريخ الاسلام كما نقله ابن الأثير في تاريخه (اُنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢: ص٣٤٦).

فقال عمر لخالد: لماذا فعلت هذه الجناية؟ فدافع عنه أبوبكر فقال: إنّ خالداً اجتهد فأخطأ فكأنّما الإسلام دين مبني على الرأي عند هؤلاء ليس ديناً سماوياً له قوانين من قبل الله ورسوله، فالعمل بالرأي ابتدأ من عصر الخلفاء الثلاث كان أقرأ رائحاً ثم توسّع في العصور المتأخرة من خلفاء الجور، وصار منهجاً رسمياً لعلماء أهل السنّة والجماعة، حتى أبا حنيفة أخذ القياس دليلاً من الأدلة الشرعية في عصر الدولة العباسية، وعمل به العلماء التابعين لهم.

ولكن الخبير يعلم بأن القياس مخالف لنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللهِ تَفْتَرُونَ﴾ (سورة يونس: ٥٩) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ ٱلظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾ (سورة يونس: ٣٦) وقال تعالى ﴿قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللهِ تَفْتَرُونَ﴾ (سورة يونس: ٥٩) وغير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أن أحكام الدين وقواعد الشريعة لابد أن يؤخذ من مصادره الدينية وهي الكتاب والسنة النبوية وسنة المعصومين عليهم السلام فبطلان القياس ثابت بالقرآن الكريم والنصوص الواردة عن العترة الطاهرة عليهم السلام، والسبب الرئيس لوقوع علماء أهل السنّة في هذه المشكلة هو ابتعادهم عن العترة الطاهرة والذين جعلهم النبي صلى الله عليه وآله أحد الثقلين الذي أمر بالتمسّك بهما، فأهل السنة تابعوا إبليس بدل متابعة أهل البيت.

هذا وقد صرح كبار الصحابة بأنّ أوّل من قاس هو إبليس.

قال أبو حيان الأندلسي: أنّه قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أوّل من قاس إبليس، قال ابن عباس فأخطأ، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس، وقالا: ما عُبدت الشمس والقمر إلّا بالمقياس... (تفسير البحر المحيط ج ٤: ص ٢٧٤).

⮈

للخلق جميع ما يحتاجون إليه الى يوم القيامة(١) فاحوجهم الجهل إلى هذه

⬅ ثم إنه قال الشنقيطي: استدل منكروا القياس بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ على بطلان القياس، لأنّه تعالى أوجب الرد إلى خصوص الكتاب والسنّة دون القياس.

ثمّ قال: وأجاب الجمهور بأنّ ردّ المختلف فيه غير المعلوم من النص إنّما يكون بالتمثيل والقياس... (أضواء البيان ج ١: ص ٢٤٥).

أقول: إنّ الجمهور منهم لو ثبت عندهم لزوم العمل بما جاء عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم صحيحاً فيلزمهم العمل بحديث الثقلين، ومفاد هذا الحديث: وجوب التمسّك بأقوال العترة الطاهرة كوجوب العمل بالقرآن والرجوع الى سنة العترة الطاهرة بنص حديث الثقلين له، ولكن أهل السنة والجماعة خالفوا حديث الثقلين وقدّموا قول أبي حنيفة على قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلاحظ.

(١) أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: دعوني ما تركتكم إنّما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم فأتوا به ما استطعتم (صحيح البخاري ج٨: ص١٤٢ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة / باب قبل باب ما يكره من كثرة السؤال).

وأخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة، قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أيها الناس! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا... (الىٰ أن قال): فقال: ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه (صحيح مسلم ج٤: ص١٠٢ كتاب الحج / باب فرض الحجج مرة في العمر) وأخرج أيضاً في صحيحه عن أبي مسلمة بن عبدالرحمٰن وسعيد بن المسيّب أنّهما قالا: كان أبو هريرة يحدث أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به، فافعلوا منه ما استطعتم، فإنّما هلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم توقيره صلى الله عليه وآله وسلم وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة اليه أولاً يتعلّق به التكليف، وما لا يقع ونحو ذلك) (أُنظر شرح صحيح مسلم للنووي ج ١٥: ص ١٠٩).

وأخرج ابن ماجة في سننه بسنده عن أبي هريرة أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا (سنن ابن ماجة ج١: ص٣ ح١).

⬅

المخالفة لما جعلوه مذهباً لهم من نفي التعليل والحكمة[1] بعد مخالفتهم لخبر

وأخرج الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين بسنده عن ابن مسعود أنّه قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ليس من عمل يقرّب إلى الجنة إلّا قد أمرتكم به ولا عمل يقرّب إلى النار إلّا قد نهيتكم عنه (المستدرك على الصحيحين ج٢: ص٤).

وقريب من هذا المضمون ورد في كتب الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فمنها ما رواه أبو حمزة الثمالي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع، فقال: أيها الناس! والله ما من شيء يقرّبكم من الجنة ويباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنة إلّا وقد نهيتكم عنه (الكافي ج٢: ص٧٤ ح٢).

ووجه الاستدلال بهذه الأحاديث بناءً علىٰ سلك أهل السنة والجماعة من اعتبار هذه الأحاديث عندهم سنداً أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد بيّن حقيقة جميع المسائل والأحكام في الإسلام حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه.

فإنّ المستفاد منه أن جميع أحكام الدين أولها عن آخرها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوّل ما أمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيلزم علينا العمل به، والثاني ما نهانا عنه فيلزم علينا أن نجتنبه، والثالث ما سكت عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يأمر به ولا نهىٰ عنه، فهو مباح ليس حراماً ولا فرضاً. وعليه: فأي حاجة إلى القياس أو رأي مع هذا البيان الواضح؟!!!

(١) فإنّ الأشاعرة لمّا ذهبوا إلى أنّ العقل عاجز عن إدراك حسن الأفعال وقبحها، وزعموا أنّ الموضوع لو جرّد عن الأمر والنهي الشرعي لا يكون حسناً ولا قبيحاً، والحسن هو ما أمر به الشارع والقبيح ما نهىٰ عنه، فلو جُرّد الموضوع عن الأمر والنهي لما تمكّن العقل من إدراكها (أُنظر الارشاد للجويني :ص٢٥٨ وغيره) فعلى حدّ زعمهم أنّه لا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها، فلا حسن في العالم إلّا ما حسّنه الشارع ولا قبيح إلّا ما قبّحه.

ولكن من الواضح لدى الخبير: أنّ هذا الإنكار منهم إنكار للأمر البديهي حيث أن كل إنسان يحكم في نفسه بحسن العدل وقبح الظلم وجداناً، مع تجرد النفس عن كل شيء وكذلك تنفر النفس عن الظلم، فهذا يدلّ لأنّ التحسين والتقبيح العقليين إنّما يكونان ذاتيين أي أنهما يكونان من ذات العقل نفسه، ولذلك قال العلّامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه) في شرح التجريد: إنّا نعلم بالضرورة حسن بعض الأشياء وقبح بعضها من غير نظر إلى شرع، فإنّ كل

الثقلين[(١)]

➲ عاقل يجزم بحسن الإحسان ويمدح عليه وبقبح الإساءة والظلم ويذم عليه، وهذا الحكم ضروري لا يقبل الشك وليس مستفاداً من الشرع لحكم البراهمة الملاحدة به من غير اعتراف بالشرائع (أُنظر كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٥٩).

فالأشاعرة أنكروا الحسن والقبح العقلي لأنّهم نسبوا خلقة كل شيء الى الله سبحانه له حتى أفعال الشرور، وحيث وجدوا أنّ لازم هذا القول إنكار الحكمة والمصلحة عن أفعال رب العالمين والقول بإنكار التحسين والتقبيح العقليين، فذهبوا إلى أنّ أفعاله تعالى لا تكون معللة بالأغراض والغايات الحسنة، وإنّما هي مرهون لبيان الشرع؛ إذ ليس للعقل سبيل إلى معرفة حسن الأشياء وقبحها فالحسن عندهم ما حسّنه الشارع والقبيح ما قبّحه.

ولكن هذا الزعم كما تقدّم باطل لأنّه سوف يتوجه إليهم هذا السؤال وهو انّه كيف نعرف حسن ما حسّنه الشارع؟ وقبح ما قبحه؟ أليس أنّ الحسن لابدّ أن يكون معلوماً في الرتبة السابقة قبل أن يحسّنه الشارع، حتى نعرف الحسن من كلام الشارع؟ فإنّ تحسين الشارع وتقبيحه يتصور بعد ثبوت حقيقة الحسن وحقيقة القبيح وإلّا يلزم الدور لأنّ معرفة الحسن والقبيح اذا كان بفعل الشارع وفعل الشارع لو كان ميزانا لمعرفة الحسن والقبح فهو دور صريح.

فالأشاعرة أنكروا الحكمة والصواب في أفعال الله بإنكارهم الحسن والقبح العقلي، ولمّا أنكروا القاعدة العقلية التزموا بعدم وجود الحكمة في أفعال رب العالمين، وذهبوا إلى أنّ ما فعله الله الحسن وإن كان ظلماً في الواقع فلاحظ.

(١) فإنّ حديث الثقلين من أصح الأحاديث الإسلامية التي رواها علماء الإسلام، بل أنه من الأحاديث المتواترة، وقد نقله جمع كبير من مشاهير علماء أهل السنّة، ونقله مسلم بن الحجّاج في صحيحه في كتاب الفضائل، باب فضائل على بن أبي طالب عليه السلام، وغيره من أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن.

فالحديث حجة قاطعة على جميع المسلمين بمختلف مذاهبهم ومشاربهم من جهة السند.

ومن جهة الدلالة فهو صريح في أنّ المرجعية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله منحصرة في الكتاب العزيز والعترة الطاهرة وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وآله فيه بأنّ النجاة من الضلال إنّما يكون بالتمسّك بهما معاً لا بواحد منهما ولا بتركهما؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبداً. ولقوله ➲

وما بمعناه[1]، فجريان سيرتهم على التعليل مناقضة شنيعة لمبنى مذهبهم[2].

صلى الله عليه وآله وسلم: فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

وأوضح من ذلك دلالة ما رواه الطبراني في معجمه الكبير، ففي ذيله قوله صلى الله عليه وآله وسلم: فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم (اُنظر المعجم الكبير للطبراني ج٥: ص١٦٧).

وبالطبع أن معنى التمسّك بالقرآن هو الأخذ بتعاليمه والسير على نهجه وطريقه، فكد لك التمسّك بأهل البيت عليهم السلام فانّ الحديث صريح في حجية أقوالهم في اصول الدين وفروعه، فالتمسّك بالكتاب وبالعترة الطاهرة منقذ من الضلال.

ومن هنا يتضح أنّ التمسّك بأحدهما لا يغني عن الآخر، حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: ما إن تمسّكتم بهما. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولم يقل: ما إن تمسّكتم بأحدهما أو تقدّمتم على أحدهما، فمعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم الثقلان لابد من التمسّك بهما، أي في جميع الأحوال والأزمان معاً إلى يوم القيامة فانّهما سبب للسعادة والنجاة، والابتعاد عنهما سبب للشقاوة والضلال وايضاً أنّ، الحديث يدلّ بوضوح على بقاء العترة في جنب الكتاب إلى يوم القيامة، أي لا يخلو منهما زمان من الأزمنة فلن يفترقا حتى يردا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحوض، وهي كناية عن بقائهما إلى يوم القيامة.

يقول ابن حجر المكي: وفي أحاديث الحث على التمسّك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهّل منهم للتمسّك به إلى يوم القيامة، كما أنّ الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض، كما يأتي. ويشهد لذلك الخبر السابق: في كل خلف من أُمتي عدول من أهل بيتي (الصواعق المحرقة: ص١٤٩).

وقال في مقامٍ آخر أنّه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما بقاء الناس بعدهم ـ أي بعد أهل البيت عليهم السلام ـ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: بقاء الحمار إذا كسر صلبه (الصواعق المحرقة: ص٩١ و١٤٢ في الباب الحادي عشر) والمراد أنّ الأُمة بدون أهل البيت عليهم السلام كالحمار إذا كسر صلبه وشلّ وزال عنه مشيه؛ فهو الضال الذي لا يقدر الحركة يميناً و لايساراً.

(١) كحديث السفينة، وحديث الكساء، وحديث المباهلة، وحديث أهل بيتي أمان لأهل الأرض، وغير ذلك.

(٢) لأنّ من الواضح أنّ وصفه تعالى بالعدل والحكمة إنّما يمكن إثباتها بحكم العقل، فإنّ العقل

ورابعها: ما زعمه في التعبير بكلمة «الغرض» فإنّه هو بنفسه قد عبَّر بها في مثل المقام حسبما يأتي ذلك عنه، فما يجيب هو عن تعبيره بها يجاب به عن تعبير الشيعي بها(١).

➲ يحكم مستقلاً بأنّ الغني بالذات يكون عادلاً ولايظلم مثقال ذرة، كما أنّه يحكم مستقلاً بأنّ الحكيم يكون جميع أفعاله مطابقاً للحكمة والمصلحة، فثبوت هذه الصفات للباري تعالى متوقّف على قبول التحسين والتقبيح العقليين، ولولا استقلال العقل بحسن العدل وقبح الظلم، لما صح وصفه سبحانه بالعدل وتنزيهه عن الظلم كما أنّ وصفه بالحكمة ايضاً كذلك فإنّ معنىٰ الحكيم هو من لا يعبث لأنّ فعل العبث قبيح عقلاً، ومن عزل العقل عن درك التحسين والتقبيح العقليين لما تسنّى له إثبات الحكمة في أفعاله، وكذلك كون أفعاله تعالى معلّلة بالغايات، فإنّه أيضاً من الأُمور المترتبة على درك العقل مستقلاً.

وعليه: فإنّ دعوىٰ ابن تيمة ومن تبعه القول بالحكمة في أفعال رب العالمين، أو التعليل والغاية في أفعاله غير مسموع منه؛ لأنّ من الواضح أنّ هذه المسائل مبنية على مسألة التحسين والتقبيح العقليين، وإنّ درك العقل مستقلاً يكشف عن ملاك الصفات وبذلك يتحقق تنزيه رب العالمين عما لا يصح انتسابه اليه وما يجب أن يوصف به، فالمنكر لمسألة التحسين والتقبيح العقليين لا يمكنه القول بالحكمة في أفعال رب العالمين، ولا يمكنه القول بلزوم التعليل والغاية في أفعاله، ولا يمكنه القول بالعدل في أفعاله. فلاحظ.

(١) حيث أنّ الشيعة تعتقد بأنّ العقل يدرك الملاك ويميّز الحسن عن القبيح، فإنّ العقل يدرك المصالح والأغراض التي تدور عليها بقاء النظام وجريان العدل والحكمة والمصلحة، وأيضاً يدرك الظلم الذي يهدم أساس هذا النظام. ومن الواضح أن أفعال رب العالمين تكون بالعدل والحكمة والمصلحة وثبوت هذه الصفات له تعالى مبني على القول بالتحسين والقبيح العقليين، فالعقل يدرك من صميم ذاته من دون إستعانة الشرع أنّها حسنة ومعناه حيث أنّ الشارع حكيم والحكيم فعله لا يخلو من الغرض والمصلحة، أو أنّها قبيحة والشارع منزّه عنه. هذا ما سيذكره العلامة إن شاء الله تعالى في مباحثه الآتية.

وأما ابن تيمية فانّه يقول: لا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها، فلا حسن في العالم إلّا ما ➲

وخامسها: ما قد تعارف عند المتكلّمين من الشيعة، وممن قال بـإمامة الثلاثة من التعبير بهذه الكلمة قاصدين بها الحكمة وجرى على ذلك مصطلحهم، فما أدري ما وجه عدم إنصاف السنّي في المقام للشيعي بهذه المناقشة، فإنها مناقشة باردة، مضافاً الى ما قد يعلم منه شدّة تحمّل السنّي على الشيعي، وهو أنّ الشيعي قد عطف على كلمة «الغرض» كلمة «الحكمة» لبيان كون المقصود من كلمة الغرض معنى من جنس معنى الحكمة، مثل المصلحة والرحمة والفائدة وما بمعنى ذلك من الكلمات، فأين هذا ممّا زعمه من إشعاره بنوع من النقص إمّا ظلم وإمّا حاجة[١]؟!!!.

حسّنه الشارع ولا قبيح إلّا ما قبّحه، ومع ذلك يخبط في البحث ويـقول: أنّـه أيـضاً قـائل بالمصلحة و... فالتهافت في كلماته واضح بيّن؛ لأنّ من الواضح أنّ المصلحة في أفعاله تعالى متوقفة على الحكم العقلي الحاكم بحسن الأشياء وقبحها، لأنّه لولا حكم العقل بحسن العدل لما صحّ وصفه تعالى بالعدل أو تنزيهه عن الظلم؛ لأنّ الحكيم لا يعبث بكلامه وفعله وإنّما تكون أفعاله وأقواله صادرة عنه بالملاك الذي ذكرناه. فلاحظ.

(١) وقبل الاشكال على ابن تيمية لا بأس بذكر كلام العلامة الحلّي فـي المـقام قـال العـلّامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه): ذهب أهل السنّة إلى خلاف ذلك كلّه ـ أي إلى خلاف ما قاله الإمامية في صفات الله من أنّه تعالى عدل حكيم لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب، وأفعاله إنّما تقع لغرض صحيح وحكمة، وأنّه لا يفعل الظلم ولا العبث... ـ فلم يثبتوا العدل والحكمة في أفعاله تعالى، وجوّزوا عليه فعل القبيح والإخلال بالواجب، وأنّه تعالى لا يفعل لغرض بل كل أفعاله لا لغرض من الأغراض، ولا لحكمة البتة (منهاج الكرامة: ص٢١ ـ ٢٢).

أقول: لا يخفى على الخبير: أنّ ابن تيمية هرب من الاصطلاح العلمي في لفـظ «الغـرض» إلى استعماله في الأفعال لغاية، فقال: يصدق لفظ الغرض وإن لم يكن فيه مصلحة.

وبعبارة أُخرى: يقول: إنّ العرف قد يستعمل لفظ الغرض في مورد الغاية الخالي مـن المـصلحة والحكمة، فيستشهد بقولهم ويقول: ألا ترىٰ أنّه يقال: إنّ زيداً فعل فعله لغرض ما ولا يريد

➲ منه المصلحة والحكمة؟

فمن الواضح أنّ هذا الجواب فرار من البحث؛ لأنّ العلّامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه) عطف كلمة الحكمة على الغرض ليبيّن أنّ مراده من الغرض هو الحكمة والمصلحة لا الغرض الخالي من المصلحة كما هو واضح ظاهر. فلاحظ.

قال السنّي:

وأما قوله أنّه يفعل الظلم والعبث فليس في المسلمين من يقول ذلك بل الذين يقولون أنّه خالق كل شيء من أهل السنّة، والشيعة يقولون أنّه خالق أفعال عباده، ومن المخلوقات ما هو مضر لبعض الناس ومن ذلك الأفعال التي هي ظلم من فاعلها وإن لم تكن ظلماً من خالقها، كما أنّه إذا خلق فعل العبد الذي هو صوم لم يكن هو صائماً وهذه حال ركوعه وسجوده وجوعه وعطشه وغيرها، فالله تعالى إذا خلق في محل صفة أو فعلاً لم يتصف هو بتلك الصفة وذلك الفعل إذ لو كان كذلك لأتّصف بكل ما خلقه من الأغراض ولكن هذا الموضع زلّت فيه الجهمية من المعتزلة ومن اتّبعهم من الشيعة الذين يقولون: ليس لله كلام إلّا ما خلقه في غيره وليس له فعل إلّا ما كان منفصلاً عنه، فلا يقوم به عندهم لا فعل ولا قول فقيل لهم: الصفة إذا قامت بمحلّ عاد حكمها عَلَى ذلك المحل لا على غيره، فإذا خلق حركة في محل كان ذلك المحل هو المتحرّك لها لم يكن المتحرّك بها هو الخالق لها، وكذلك إذا خلق ريحاً أو لوناً أو علماً أو قدرة في محل كان ذلك المحل هو المتلوّن بذلك اللون المتروّح بتلك الريح العالم بذلك العلم القادر بتلك القدرة ومثلها الكلام، وحينئذ فيكون ما سمعه موسى كلام الشجرة ليس كلام الله لو كان مخلوقاً واحتجّت المعتزلة وأتباعهم من الشيعة على ذلك بالأفعال، فقالت: كما أنّه

عادل محسن بعدل وإحسان يقوم بغيره فكذلك هو متكلم بكلام يقوم بغيره وكان هذه حجة على من سلم الأفعال لهم كالأشعري ونحوه، فإنّه ليس عنده فعل يقوم به بل يقول الخلق هو المخلوق لا غيره، وهو قول جماعات من أصحاب مالك والشافعي وأحمد لكن جمهور الناس يقولون الخلق غير المخلوق، وهو قول الحنفية والذي ذكره البغوي عن أهل السنّة.

وقال جمهور أهل السنّة الذين يفرّقون بين الخلق والمخلوق أنّها مخلوقة لله تعالى ومفعولة له، ليس هي نفس فعله وخلقه الذي هو صفته القائمة به، فهذه الشناعات التي يذكرها الشيعة غير متوجّهة على جمهور أهل السنّة وانّما ترد على طائفة.

فقوله: عن أهل السنّة، إنّهم يقولون يفعل الظلم والعبث إن أراد ما هو ظلم وعبث. فهذا فريّة منه وإن قاله ملزماً لهم فهم غير مسلمين له أنّه ظلم وإن أراد ما هو ظلم وعبث من العبد فليس فيه محذور في كون الله يخلقه وجمهورهم لا يقولون أنّ هذا الظلم والعبث فعل الله بل يقولون أنّه فعل للعبد لكنه مخلوق لله كما أنّ قدرة العبد وسمعه وبصره مخلوقة لله وليس هو سمع الحق ولا بصره ولا قدرته. انتهى بحذف ما لم يضر بما هو في صدد بيانه(١).

---

(١) منهاج السنّة ج١: ص٤٥٦ ـ ٤٦٠.

قلت:

وقد مضى فساد غالب ما بيّنه هنا ولكن نشير الى ما فيه من العجائب بوجوه، ترويجاً للحق وحفظاً لغفلة الخلق من التلبيس والبهتان[١].

---

(١) من الأُمور التي يلزم على أتباع ابن تيمية التأمّل فيه هو أنّه لابدّ لهم من الوقوف على هذه المطالب والتعمّق فيها، وأن يتجنّبوا التعصّب الجاف والتقليد الأعمىٰ والعناد، لأنّ التعصب والعناد بلاء عظيم يقفان بوجه كل فكر ومنطق، ويرفضان الانصياع للحق حتى لواتضح لديهم الحقيقة بأدلة وافية مقنعة إذ بالتّعصب يفقدون الأرضية اللازمة لقبول الحق والاستسلام له. والقرآن الكريم أشار إلى سبب اللجاج والتعصّب بقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٧).

فحيث أنّ الملحدين كانوا يمتلكون أجهزة استقبال الحقائق كالعين والأُذن والقلب، ولكن عطلوا كل هذه الأجهزة وانغمسوا في الانحراف والعناد واللجاج، وبذلك استحقوا العذاب العظيم، وهذا نداء قرآني لأتباع ابن تيمية ولجميع الملحدين أن يخرجوا من حالة التعصّب ويفتحوا أعينهم وأُذنيهم ويتعمّقوا في جميع مسائل دينهم ودنياهم وآخرتهم، فاذا كان لهم القدرة على الجواب مما يتوجّه إليهم من السؤال فليجيبوا عنه، وإن لم يكن لهم الجواب وتبيّن الحق لهم فليخضعوا للحق فإنّ الانصياع للحق والدعوة الإلٰهية أمر ثابت بالنصوص القرآنية والسنّة النبوية والعقل، فالاعراض عن هذه الأدلة إعراض عن المسلّمات والبديهيات، والإعراض عن المسلّمات من أبرز مصاديق إنكار الضروريات، وهل بعد الحق إلّا الضلال المبين.

ثم إنّ الله تبارك وتعالى قد نسب إلى الذين يخالفون الحق بعد معرفته بالسفاهة، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ
⇐

➲ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ وَلٰكِن لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٣).

والوجه في ذلك واضح لأنّ كل إنسان عاقل يعلم بأنّه لابد أن يستخدم طاقاته المادية والمعنوية في سبيل معرفة الحقيقة، فإذا عرف الحقيقة فإنّ مخالفته والإعراض عنه سفاهة محض لأنّ طريق الحق طريق النجاة ومن عرف طريق النجاة وخالفه فهو غير عاقل، لأنّ العاقل لا يترك طريق النجاة ولا يقع نفس في المهالك بعد معرفة الطريق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (سورة البقرة: ١٣٠) إذ بعد تبين أنّ شخصية إبراهيم شخصية مثالياً حيث أنّ إبراهيم عليه السلام كان له دعوة الحق، وقد عرف الأجيال دعوته إلى التوحيد والطهارة من الشرك والسعادة في الدنيا والآخرة، فإنّ من يرغب عن مدرسة الطهر والنقاء والفطرة والعقل والسعادة في الدنيا والآخرة فهو سفيه قطعاً؛ إذ من الواضح أنّ طريق ابراهيم ودعوته إلى الحق من مصاديق سلوك طريق الأمن الذي لا خوف فيه ولا حزن فهو طريق العيش في الدنيا والآخرة وهل العاقل يترك طريق العيش ويبدلّه بطريق الخوف والمهالك والضلال؟!!!

فيلزم على الكلّ أن يستسلم للحق والحقيقة لأنّ الحق طريق النجاة. ومن هنا أنّ الله تبارك وتعالى يتسلىٰ خاطر نبيه من الحزن ويقول له: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سورة فاطر: ٢٤) فمسؤوليتك البشارة والإنذار، وبيان التعاليم الدينية وتوضيح الحقائق لا غير.

وأمّا الفئة التي لا تذعن بعد كل هذه الآيات والمعاجز وتبيّن له الحقائق فأنت غير مسؤول عنهم حيث أنّك قد بلّغت رسالتك، فمن لم يهتد بهداك ولم يأخذ بما أتيت به فهو في الخسران والضلال ومصيره إلى جهنم وبئس المصير، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (سورة البقرة: ١١٩) اذ أنّ هؤلاء لو كانوا يريدون الحق، فإنّ كلامك كافٍ لهم لأنّ كلامك واضح الدلالة، فلو أنّهم تركوا التعصّب والعناد يستطيعون حل مشاكلهم بسرعة، فإنّ ما جئت من مسائل الإسلام واضح معتدل في جميع جهاته.

لذلك قال تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (سورة البقرة: ١٤٣) فإنّ الوسط هو ما توسّط بين الشيئين، فالإسلام هو ➲

أحدها: ما زعمه من عدم قول مسلم بأنّ الله سبحانه يفعل الظلم والعبث، فإنّك قد عرفت بهتانه فيما سلف بيانه[١]، نعم لم يقل مسلم صريحاً بأنّ الله سبحانه

الدين المعتدل في العقيدة، فلا يشوبها إفراط ولا تفريط في جميع مجالاته، فلا تسلك طريق الغلو ولا طريق التقصير ولا الشرك ولا الجبر ولا التفويض والتشبيه في صفات الله ولا التعطيل و... فلا هم كاليهود الذين لا يفهمون سوىٰ المادة، ولا هم كالنصارى الذين سلكوا الرهبانية المفرطة، فالمسلم الحقيقي هو من يستسلم للحق ولا يتجاوز الحدود. فلاحظ.

(١) فإنّ الأشاعرة قد أنكروا التحسين والتقبيح العقليين، وذهبوا إلى أنّ العقل عاجز عن إدراك حسن الأفعال وقبحها والقبيح عندهم ما قبحه الشارع والحسن ما حسنه الشارع وقد أقاموا على هذا الأساس دعويين:

الأُولى: أنّه لا يتصور صدور الظلم من الله سبحانه وتعالى. والسبب في ذلك: أنّ الظلم عبارة عن التصرّف في مال الغير، أو التصرف في ملك الغير بدون إذنه، والمفروض أنّ العالم بعرصته العريض من العوالم العُلوية والسُفلية والدنيوية والآخروية كلّها ملك لله سبحانه وتحت سلطانه وتصرّفه ولا سلطان لغيره فيه، ولا شريك له في ملكه. ومن الطبيعى أنّ أي تصرف صدر عنه تعالى كان في ملكه، فلا يكون مصداقاً للظلم.

وعليه: فلا محذور لعتابه العبيد على أفعالهم غير الاختيارية، بل ذهبوا إلى أنّه لا يكون عقابه ظلم إذ لو عاقب نبياً من أنبيائه وأدخله النار وأثاب شقياً من الأشقياء وأدخله الجنة جاز له ذلك، حيث له تبارك وتعالى أن يتصرف في ملكه ما شاء، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون... (أُنظر الإبانة للشيخ الأشعري: ص٢٠، ومقالات الإسلاميين له ج١: ص٣٢١، والإرشاد للجويني: ص٢٥٨، والمحصل للرازي: ص٢٩٨ وغير ذلك) .

ونتيجة هذه الدعوىٰ: انتفاء الظلم في أفعاله تعالى بانتفاء موضوعه، وعلى هذا المعنى يؤولون الآيات النافية للظلم عن ساحته تعالى كقوله تعالى: ﴿**وما ربك بظلّام للعبيد**﴾ (سورة فصّلت: ٤٦) فيقولون: بأنّ المراد من ذلك سلب الظلم عنه تعالى لأجل عدم موضوعه واستحالة تحقّقه، لا لأجل قبحه وعدم صدور القبيح منه عقلاً.

وعلى ضوء هذا البيان يظهر وجه عدم اتصاف أفعال العباد بالظلم، حيث أنها أفعال لله تعالى حقيقه وتصدر منه واقعاً، ولا شأن للعبد فيها في مقابل شأنه تعالى ولا إرادة لهم في مقابل

⮌ إرادته سبحانه وتعالى.

الثانية: ذهبوا إلى أنّ الله سبحانه وتعالى هو الحاكم على الإطلاق، فلا يتصوّر حاكم فوقه. وعليه: فلا يعقل أن يكون محكوماً بحكم عبيده، ولا معنى لعدم تجويز الظلم عليه بحكم العقل، فإنّ مرده إلى تعيين الوظيفة له تعالى وهو غير معقول (اُنظر نفس المصادر السابقة).

أقول: قد تقدّم الجواب عن هذين الدعويين في المباحث السابقة وأوضحنا فيه بما لا مزيد عليه وذكرنا ايضاً عقيدة الشيعة الاثنى عشرية في هذا المجال.

وفنشير هنا إلى الجواب عن كلتا الدعويين.

باختصار: فنقول: أمّا الدعوىٰ الأُولى فهي ساقطة جداً والسبب في ذلك: أنّ هذين القضيتين أعني: قبح الظلم وحسن العدل من القضايا الواضحة لدى العقل والعقلاء، ولا تحتاج الى مزيد بيان إذ أنّهما من القضايا التي قياساتها معها، فإنّ العدل حسن بعنوانه من دون لحاظ اندراجه تحت عنوان آخر، والظلم قبيح بعنوانه من دون لحاظ اندراجه تحت عنوان آخر، فلا يتمكّن أحد ولن يتمكّن من إنكارهما لأنّهما من القضايا الأوّلية التي يدركهما العقل البشري من صميم ذاته.

وأمّا ما ذكره من عدم قول مسلم بأنّ الله سبحانه يفعل الظلم والعبث، فإنّه ثبت للقارئ الكريم كذبه؛ إذ من الواضح أنّ المنكر للتحسين والتقبيح العقليين في أفعال الله عزوجل، وقول بأنّ العقل عاجز عن درك حسن الأفعال وقبحها يلزم منه القول بجواز فعل القبيح على الله سبحانه.

وبعبارة أوضح: حيث أنّ الأشاعرة أنكروا حكم العقل في أفعال الله، فلازم هذا الإنكار جواز مخالفة حكم العقل في أفعاله تعالى، ومعنى جواز المخالفة جواز صدور الفعل المخالف للحكم العقلي منه سبحانه، فمثلاً أنّ العقل لو حكم بقبح الظلم على الحكيم وكذلك حكم بقبح فعل العبث على الحكيم، فإنّ هذا الإنكار يلازم القول بجواز إرتكابه، إذ معنى إنكار هذا الحكم جواز مخالفته ولازم جواز مخالفة حكم العقل بجواز صدور ذلك منه.

وعليه: فإنّ الأشاعرة وابن تيمية ومن ذهب إلى أنّ العقل ليس له شأن درك الأفعال، يلزمهم القول بجواز صدور الفعل القبيح من الحكيم لأنّهم يدّعون بأنّ العقل لا يدرك مستقلاً حسن ⮌

يظلم ويعبث بهاتين الكلمتين، ولكن عامة من قال بإمامة الثلاثة حسبما عرفت صدر ذلك منهم في المعنى واللزوم حسبما مثّلنا به من مسألة الكناية بقولنا: زيد كثير الرماد، والبحث في المعاني بأيّ عبارة قصدت[١].

➲ الأفعال ولا قبحها ومعناه: لا يكون الفعل القبيح قبيحاً بذاته ولا حسناً، فلا يكون الظلم والعبث قبيحاً ولا يكون العدل حسناً عندهم.

ولكن كما تقدم أنّ هذا القول خاطئ جداً لأنّ العقل يدرك من صميم ذاته قبح الظلم، سواء كان في أفعال الباري تعالى أو في أفعال العباد، فإنّ العقل يحكم باستحقاق الذم على عنوان الظلم. وعلى ضوء هذا التفسير: لو أثاب المولى عزوجل عبده العاصي وعاقب عبده المطيع عد ذلك منه ظلماً ووضعا للشيء في غير محله، وإن كان تصرّفه تصرّفاً في ملكه وسلطانه.

وأمّا الدعوىٰ الثاينة: فلأنّها خلط بين فرض التكليف على الله وكشف ما عنده من الحُكم من خلال صفاته الكمالية، فالقائل بالملازمة لا يفرض التكليف على الله بل يستكشف ما عنده من الأحكام من خلال دراسة صفاته الكمالية.

فيقول: إنّه تعالى عادل وبما أنّه عادل لا يجور، وأنّه تعالى حكيم وبما أنّه حكيم لا يعبث، وأنّه تعالى عالم وبما أنّه عالم لا يجهل، فالعقل يستكشف الأحكام اللائقة به حسب صفاته الكمالية، ولبس هذا الحكم العقلي من قبيل التكاليف التي فرضها الله على عباده، فإنّ الفرق بينهما واضح ظاهر؛ إذ لو قلنا بأنّه لا يجوز على الله سبحانه تعذيب البريء وعدم مجازات المجرم ليس معناه فرض التكليف، بل معناه أنّ العقل يدرك ذلك.

والإدراك: عبارة عن استكشاف الحكم العقلي.

وبعبارة أُخرىٰ معناه: أنّ العقل يستكشف من صفات الله الكمالية هذا المعنى، وهذا نظير ما يقوم به العلماء من كشف أسرار الطبيعة وقوانينها. فلو قال القائل: بأنّ زوايا المثلث تساوي قائمتين فهذا لا يعني إلّا أنّه في الواقع كذلك لا أنّه يجب أن يكون كذلك، كما هو واضح ظاهر.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ ما ذكره الأشاعرة إنّما هو خلط بين حكم العقل العملي وحكم العقل النظري. وسنذكر تفصيل الكلام في محله إن شاء الله تعالى.

(١) وتوضيح المقام أنّ الكناية عبارة: عن ذكر اللازم وارادة الملزوم بحيث يكون انتقال الملزوم

وثانيها: ما نسبه الى الشيعة من القول بأنّ الله سبحانه خالق فعل عباده؛ فإنّه معلوم كذبه فيه، وقد مضى بيان ذلك(١).

من اللازم عند العرف والعقلاء أمر شائع، فلو قال: أحد زيد كثير الرماد، فانّ المتبادر منه عند العرف والعقلاء هو الكرم والجود سواء قصده المتكلم أم لم يقصده وفي المقام أنّ يكون كذلك لأنّ أكثر أهل السنة يعتقدون بأنّ الله تعالى خالق لكل شيء حتى أفعال العباد باطلاقها، فانّ خلق الظلم لا يكون قبيحاً منه جل جلاله، حيث بناءً على زعمهم أنّ العقل ليس له شأن في درك أفعال الله عزوجل فلا يسئل عما يفعل وان كان فعله مخالفاً للحكمة والمصلحة ولا يجب عليه شيء وإن أخل بواجب ومن الواضح لدى الخبير أنّ هذه الاعتقادات لها لوازم كثيرة منها القول بجواز فعل الظلم وجواز الاخلال بالواجب وجواز تضييع الحقوق فانّ هذه اللوازم أمر ثابت عند العرف والعقلاء سواء صرح بها المتكلم في حين كلامه أم لم يصرح بها كما أنّ الكناية تكون كذلك فلا معنى للقول بأنّ المتكلم لم يقصد الملزوم فانّ الملزوم ثابت وموجود بوجود لازمه كما أنّ نور الشمس موجود بوجود قرص الشمس فلا معنى لأن تقول: الشمس طالعة والمقصوده طلوع الشمس فقط بلا قصد بالنسبة إلى وجود النور فانّ وجود النور قهري بوجود الشمس فلاحظ.

(١) قد تقدّم في المباحث السابقة أنّ إحدىٰ ثمرات التحسين والتقبيح العقليين هي القول بأنّ أفعال العباد ليست مخلوقة لله سبحانه؛ إذ لو كانت مخلوقة لله سبحانه لما صح عقاب عباده على فعلهم؛ لأنّ مقتضى القانون العقلي أن تكون العقوبة على الجرم والتخلّف، فإذا كان الله سبحانه خالقاً لأفعال العباد فمعناه: أنّ العبد لم يفعل الجرم ولم يتخلّف فيكون العقاب عندئذٍ على فعلٍ لم يفعله العبد، فإذا عاقبتهم عليها فهو ظلم صريح. وعلى هذا الأساس يبطل أيضاً الوعد والوعيد من الله سبحانه.

ولكن كما تقدم في المباحث السابقة: أنّ الشيعة الإمامية يعتقدون أنّ من صفات الباري تعالى العدل والعدل من ثمرات التحسين والتقبيح العقليين، كما أنّ الحكمة أيضاً ترجع إلى هذه القاعدة، فالشيعة الإمامية عندما يقولون بأنّ الله عادل معناه: أنّهم ينزّهون أفعال الباري تعالى عن الظلم والفعل القبيح.

وعليه: فلا معنى للقول بأنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد، إذ أفعال العباد فيها الظلم والجور. وإذا

وثالثها: ما زعمه من كون بعض الفعال ظلماً من فاعلها وليست ظلماً من خالقها؛ فإنّه من غريب مقالته؛ فإنّ معنى خالق الفعل وفاعله وموجده ومحدثه ومصدره وغير ذلك غير مختلف بل جميعها من حيث المعنى متحدة، فمعنى أنّه فعل الصلاة والصيام والزنا والسرقة وغيرها صدرت منه وحدثت ووجدت وخلقت بعد أن لم تكن، فأيّ معنى ـ حينئذ ـ لفرض فاعل لهذه وفرض خالق غيره لها[1].

قلنا: أنّ الله تعالى خالق لأفعالهم فمعناه: أنّ الله خالق الظلم، وهذا لا ينسجم مع قاعدة التحسين والتقبيح العقليين المسلّمة عندهم، كما أنّ من ثمرات هذه القاعدة القول بأنّ الله حكيم، ومعنى ذلك: أنّ الشيعة ينزّهون الباري تعالى فعل الباري عن العبث، بل يلتزمون باقتران أفعاله تعالى بالأغراض والغايات، وبهذا يتضح للقارئ الكريم بهتان ما نسبه ابن تيمية الى الشيعة.

(١) وملخّص الكلام: أنّ معنى «الخلق» هو الاختراع والإيجاد.

قال ابن حجر: خَلَقَ أي اخترع وأوجد. (أُنظر فتح الباري لابن حجر ج١٠: ص٣٦٢).

وتوضيح ذلك: أنّ كل خلق يحتاج إلى الخالق كما أنّ كل حادث يحتاج إلى علة وحيث أنّ الأشاعرة ذهبوا إلى حصر الخالقية بالله تعالى على الإطلاق، فأنكروا قانون العلية والمعلولية والتأثير والتأثّر بين الموجودات الإمكانية، وزعموا أنّ التأثير والتأثّر في الموجودات ليس إلّا من الله تعالى حتى في الأُمور الطبيعية كالحرارة والبرودة والنور وغيرها كلّها ليست تحت قانون العلية.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّهم يزعمون ليس في عالم الكون علة إلّا الله، فيقولون: إنّ الله علة لخلق الخير والشر، ويستدلّون على ذلك بقضية أنّه لا خالق في الوجود إلّا الله.

أقول: من الواضح لدي الخبير أنّ الله تعالى خالق لكل شيء، وصرّح بهذه الحقيقة القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿ذٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ لاَإِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٢) وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ (سورة الرعد: ١٦) وقال تعالى: ﴿ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (سورة الزمر: ٦٢).

فإنّ زعم الشركة في هذه بين الله وبين عباده فيتوجّه الظلم في فعل الزنا والسرقة اليهما وهي ليست مقصودة له قطعاً[١].

➲ ولكن الشيعة الإمامية تعتقد بأنّ خالق كل شيء هو الله تعالى مع وصف الحكمة، فإنّ فعله وخلقه يكون مقترناً بالحكمة والمصلحة؛ لأنّه تعالى حكيم والحكيم لا يصدر منه الفعل إلّا على وجه الحكمة والمصلحة، فلا يصدر منه فعل القبيح، فهو منزّه عن القبيح مطلقاً، إذن إنّ الحكيم الذي هو قادر متعال وغني على الإطلاق لا يفعل الشر ولا يخلق إلّا الخير.

وبعبارة أُخرى: أنّ الله تعالى خالق لكلّ شيء، وهذا معنى التوحيد في الخالقية، ومن ناحية أُخرى أنّ الله تعالى مدبّر كلّ شيء، أي أنه تدبير كلّ شيء يكون بيده، فتدبيره للأُمور يقتضي أن يكون خلقه مطابقاً للحكمة والمصلحة، وهذا معنى التوحيد في الربوبية فالشيعة الاثنى عشرية، يعتقدون بالتوحيد الكامل الشامل لتوحيد الخالقية وتوحيد الربوبية وتوحيد الذات والصفات.

وعليه: فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي خالق لجميع الامور حتى الأسباب والعلل الطبيعية، والمقصود بالامور الطبيعية والأسباب العادية هي ما تقتضي بطبيعتها في مجاري الأُمور إلّا أن يقضي الله تعالى بقضائه على خلاف مجراه وأمّا في موارد العادية فانّ الله يأبى إلّا أن يجري الأُمور بأسبابها، ومعنىٰ ذلك أنّ الله تعالى قد جعل تكويناً وطبيعةً عقيب كل علة معلولها من غير دخالة أمر آخر في الملازمة بينهما، وإن كان له القدرة على ذلك، ولكن الحكمة تقتضي أن يجعلها بطبيعتها الكوينية. فلاحظ.

(١) فإنّ ما بنىٰ عليه ابن تيمية في المقام تبعاً للأشاعرة من أنّه لا علة بين الموجودات الإمكانية إلّا الله تعالى وهو خالق لجميع المخلوقات.

فبناءً على ما زعمه ابن تيمية والأشاعرة يصح نسبة فعل القبيح إلى الله سبحانه لأنّ معنىٰ قولهم أنّ الله تعالى خالق كل شيء مطلقا القول بانّه خالق للشرور والقبائح، فلا محيص لهم من القول بذلك سواء كان في الامور التكوينية أو الامور التشريعية والتكوينية سواء كان ذلك من الامور الطبيعية او غير ذلك، فمثلاً أن المريض سببه هو الله تعالى لا العلل الطبيعية، وسبب الحمىٰ ـ مثلاً ـ هو الله سبحانه وليس للجراثيم دور في ظهورها وكذلك سائر الظواهر الطبيعية، فالكل مخلوق لله سبحانه بلا واسطة وبلا تسبّب وبلا سبب.

➲

وقد نصّ صاحب المواقف وشارحه على ما في بالي وغيرهما على كون العباد عند جمهور من قال بإمامة الثلاثة ظروفاً محضة لما يبرز عنهم من الفعال وعدم تأثير قدرتهم فيها بل الله سبحانه قد خلقها فيهم[١].

فقول السنّي ليس له معنى البتّة لعدم قصده الشركة وعدم تصوّر صدور فعل من فاعلين على غير جهة الشركة، فالزنا والسرقة والغيبة وغيرها: إمّا تصدر من العباد بخلق الله سبحانه لها فيهم، مثل خلقه طولهم وعرضهم ولونهم، وغيرها مما خلقه سبحانه فيهم، فهم حينئذٍ ظروف محضة لها، فيصير الخالق لها فيهم هو الفاعل لما علم قبحه فيهم فقد ظلمهم بذلك.

وإمّا تصدر عنهم بمشيئتهم وقدرتهم التي هم مختارون بحسب الخلقة في صرفهما بفعل ما فرضه الله سبحانه عليهم وبفعل ما حرّمه، فإنّ صرفوهما في الثاني فالظلمة هم بضرورة العقول، فعلم مما بيّناه عدم وجود معنى محصّل له جهة صحة متصوّرة لما زعمه السنّي.[٢]

فعلى هذا زعموا بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه مباشرة، وإن كان ابن تيمية ـ في المقام ـ يلجأ الى القول بالتناقض للدفاع عن مبناه، ولكن لا يفيده إذ لا يمكنه أن يقول بالشركة ولا يمكنه القول بأنّها مخلوقة للعباد، فيبقىٰ الشق الأوّل وهو القول بأنّ الله تعالى هو الخالق. فعلىٰ هذا المبنى زعم أنّ الله خالق جميع أفعال العباد خيرها وشرها. فلاحظ.

(١) أُنظر المواقف للقاضي الإيجي ج٣: ص٢٤٩ قال في المقصد الرابع: إنّ الله تعالى مريد بجميع الكائنات غير مريد لما لا يكون. وهذا مذهب أهل الحق ـ ويقصد بذلك أهل السنّة والجماعة ـ وكذلك أُنظر: شرح المواقف للقاضي الجرجاني ج٨: ص١٧٣.

(٢) وخلاصة الكلام: أنّ ما ذكره ابن تيمية في المقام جمع بين الأمرين المتناقضين؛ إذ أنّه من ناحية يقول بانا نعتقد أنّ الله حكيم وأنّ أفعاله حكيمة ومن ناحية أُخرىٰ أنكر حكم العقل في حسن الأفعال وقبحها بصورة عامة، وهذا يؤدي إلى عدم وجود ميزان لتشخيص حسن

ورابعها: ما زعمه من كون بعض المخلوقات ما هو مضر لبعض الناس، فانّه مقال مبهم لم يبيّن مقصوده منه[1]؛ لأنّ خلق ما هو مضر إمّا أن يقصد به أنّ الله خلقه ليضر بعض الناس، فالله سبحانه منزّه عن ذلك، فإنّه ظلم بيّن وقد تنزّه

⬅ الأعمال وقبحها.

فيقول: إنّ الله تعالى خالق كل شيء خيراً كان أم شراً، وعلىٰ حدّ زعمه يقول: إنّ الله فاعل للشر كما هو فاعل للخير ومع ذلك يقول: انّه تعالىٰ حكيم في أفعاله، أليس هذا جمع بين المتناقضين؟

ولا غرو فإنّ سيرة الرجل في باحث العلمية ليس إلّا التعصّب وذكر الأكاذيب والتدجيل والتلبيس والأخذ بناصر المبدعين مهما بلغ الأمر، سواء انتهى الى الأمر المتناقضين أو الى المكابرة أو حتى إذا انتهى الى مخالفة السنّة النبوية، وبل حتى إذا انتهىٰ الأمر الى مخالفة صريح القرآن، وهذا نتيجة التعصّب والعناد. فلاحظ.

(١) لا يخفى على الخبير: أنّ مسلك ابن تيمية في توحيد الخالقية نفس مسلك الأشاعرة، فكلما أنّ الأشاعرة أنكروا العلية والمعلولية بين الموجودات الممكنة، وزعموا أنّه ليس في صفحة الوجود مؤثر حتى بالتأثير التبعي إلّا الله سبحانه، فجعلوا الظواهر كلّها مخلوقة لله بالمباشرة وبلا توسط، وهذه العقيدة صارت من الأُمور المسلّمة عندهم، بحيث من أنكر ذلك فكأنما أنكر التوحيد في الخالقية.

فابن تيمية ايضاً علىٰ هذا الإعتقاد ومرجع هذا الاعتقاد إلى تجوز فعل الشرّ بالنسبة إلى الله عزوجل، فانّهم وإن لم يصرحوا بذلك ولكن مآل كلامهم إلى هذا الاعتقاد الباطل، إذ بناءً على هذا القول أنّ خالق كل شيء حتى الأفعال القبيحة وحتى الظلم والمنكرات هو الله سبحانه ومعنى جواز صدورها منه، جواز نسبتها اليه وهذا ينتهي إلى نسبة عدم وجود الحكمة في أفعاله، لأنّ الحكيم لا يصدر منه فعل القبيح والشرور من الأفعال القبيحة إذن ما نسبه العلّامة الحلّي إلى الأشاعرة من أنّ أهل السنّة يزعمون أنّ الله خالق للشر نسبة صحيحة، فالأشاعرة ومن تبعهم كابن تيمية وغيره يتوجه إليهم هذا الإشكال، فلابد من أحد الأمرين ليس إلّا وهماً، إمّا أن يرفعوا اليد عن قولهم: إنّ الله خالق كل شيء، وإمّا ان يلتزموا بلوازم هذا القول. فلاحظ.

سبحانه عنه، وحرّمه على نفسه(١).

وإمّا أن يقصد به المعنى الذي ينطبق على الحكمة وهو أنّ الله خلق ما فيه ضرر وغيره لمنفعة عباده، وبيّن لهم ضرر المضر فأمرهم بالمحافظة منه من الجهة

---

(١) أولاً: إنّ الله تبارك وتعالى قد نهى عن الظلم، بل وقد لعن الظالمين فقال تعالى: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ (سورة هود: ١٨) وأيضاً نهىٰ تبارك وتعالى عن الركون إلى الظالمين، فقال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ ٱلنَّارُ﴾ (سورة هود: ١١٥) فإنّ الركون عبارة عن الميل القليل، فالمعنى أنّه لا تميلوا إلى من وجد منه الظلم وقتاما أدنىٰ الميل، فضلاً عن إجابتهم لأنّ الميل إليهم يوجب الدخول في النار فقال تعالى فتمسّكم النار بركونكم اليهم، وإذا كان الميل اليسير إلى من صدر منه وقتاما يسمىٰ ظلماً موجباً للدخول في النار، فما ظنّكم بالميل الكثير اليهم وبالظالم نفسه وبالظلم، ولعل هذين الآيتين أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وإذا كان الأمر كذلك كيف يجوز لرب العالمين أن يخلق خلقاً ليضر به الآخرين بعد وضوح أنّ الضرر بالآخرين من أبرز مصاديق الظلم.

وثانياً: أنّ الله تبارك وتعالى قد حرّم الظلم على نفسه، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ (سورة غافر: ٣١) وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٨) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً﴾ (سورة يونس: ٤٤).

فإنّ عدم إرادة الظلم في أفعاله سبحانه وتعالى ونفي الظلم عن نفسه بصورة عامة ومطلقة أكبر دليل على أنّ أفعاله ليس فيه الظلم بجميع معانيه فما يصدق عليه الظلم بصورة عامة ومطلقة. يعبد عن ساحته المقدسة.

مضافاً إلى أنّه ورد في الروايات المتواترة بين الفريقين أنّه سبحانه وتعالى قد حرّم الظلم على نفسه.

ففي صحيح مسلم بسنده عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: يا عبادي! إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... (صحيح مسلم ج٨: ص١٧ كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم) فالكتاب والسنّة الصحيحة عند أهل السنّة تدلاّن بالصراحة على أنّ الله تبارك وتعالى حرّم الظلم على نفسه، وإذا حرمه على نفسه، كيف يجوز أن يخالف ما حرّمه على نفسه؟!! فيه الضرر والفساد؟!!!

التي يضر بها، مثل العقارب والحيّات والسباع والنار وغيرها، فمن لم يحرس نفسه منها لحقه ضررها لعدم قيامه بما وظّفه الله من وجوب المحافظة منها، ومثلها الطعام الطّيب والمشروبات اللذيذة التي هي بالنسبة الى نفسها خالية من الضرر وموجبة للمنفعة، ولكنها مضرة للمريض وللمفرطين فيها، ولذلك نهى المريض عنها وعن الزيادة منها على قدر الحاجة، فمن لم ينته فأصابه الضرر منها فهو بنفسه قد جلب الضرر الى نفسه[١].

---

(١) وخلاصة الكلام: أنّ التدبّر في نظام الكون يكشف عن وجود خالق حكيم، الذي خلق خلقه بأفضل صورة متناسبة مع الهدف الذي أنشأ من أجله سبحانه خلقه، فإنّ الحكمة تقتضي أن تكون أدوات كل ما يحتاج اليه الخلق متناسبة مع العمل المطلوب منها، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (سورة السجدة :٧) فإنّ ما خلقه سبحانه يكون على أساس نظام دقيق سالم لا يمكن تخيل نظام أكمل من ذلك فيه إذ قد أوجد سبحانه وتعالى العلاقة الخاصة بين الموجودات بحيث يكون في كل مورد انسجاماً خاصاً ويصدق عليه أنّه أحسن خلقه فيه؛ إذ أنّه تبارك وتعالى قد أعطى كلّاً من الموجودات ما هو أحسنه، إذن الشر الصادر من بعض الموجودات لا يكون مخلوقاً لله سبحانه بل هو من عوارض نفس المخلوق مثلاً، إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأنياب للحيوانات وسيلة ليأكل بها ويدافع بها عن نفسه ويستخدمها عند عروض الخطر، فهي وسيلة للدفاع عن نفسه، كما أنّ السلاح وسيلة للدفاع عن أنفسنا، فإنّ هذا السلاح لو استخدم في محله فهو خير وإن لم يستعمل في محله فهو شر، فالخير والشر إنّما يحصلان بسبب الأعمال لا أنّهما موضوعان لخلق الشر، فالإنسان يفعل الخير والشر باختياره وإرادته يعين مصيره كما أنّ الموجودات خاضعة لقوانين الخلقة، وما يصدر منهم على أساس الفطرة لا أنّ الله سبحانه أفعالهم، فإنّ الله تبارك وتعالى خلق كل شيء بحكمة من أجل الخير المتوقّع فيه، ولكن استخدام ذلك في محل الشر إنّما هو فعل المخلوق، فالله تبارك وتعالى منزّه عن خلق الضرر والشر والفساد و... تعالى عما يصفون.

فالقول بأنّ الله خالق للشر يستلزم استناد القبائح اليه.

فقول السنّي: إنّ من المخلوقات ما هو مضر إن أراد به المعنى الأوّل فقد عرفت فساده، وإنّه ظلم بيّن[(١)]، وإن أراد به المعنى الثاني فهو حق لا ريب فيه، لكن قياس أفعال العبد عليه قياس فاسد؛ فإنّ الفعل الذي خلقه الله في العبد بحسب زعمه لا يستطاع التحرّز منه فيكون ضرراً بحتاً، وصدوره من الله ظلم بَيّن وقد تنزّه سبحانه عن الظلم[(٢)].

⬅ وخلاصة الكلام: إنّ معنى التوحيد في الخالقية هو القول بأنّ الله تعالى خالق المخلوقات بالحكمة والنظام الذي فيه الخير ليس إلّا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (سورة السجده: ٧).

(١) لأنّ إستناد الضرر إلى الله سبحانه يستلزم تجويز الظلم والفساد في حقه سبحانه وتعالى، حيث انّ الضرر بالغير بلا جهة يعتبر ظلماً وعدواناً، وهو أمر مردود بالنسبة الى الله تعالى، لأنّ الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٢).

(٢) وتوضيح المقام: أنّ ما زعمه ابن تيمية تبعاً للأشاعرة من أنّ المراد بالتوحيد في الخالقية حصر الخلق والإيجاد على الإطلاق بالله تعالىٰ، وأنّه ليس في صفحة الوجود مؤثر وموجد إلّا الله، وعلىٰ هذا الأساس أنكروا قانون العلية والمعلولية والتأثير والتأثّر بين الموجودات الممكنة فبطلان قولهم مما لا يخفىٰ علىٰ الخبير لأنّ العلية النافذة في العوالم العالية والدانية إمّا يرجع إلى القول بالجبر أو إلى التفويض، وكلا الأمرين باطل بالضرورة كما بيّن في محله، ضرورة أنّه لو قلنا أنّ العلية باطلة، فلازمه إمّا حدوث الحوادث بلا علة، وهو خلف، أو أن يكون السبب الوحيد هو الله سبحانه وهو مسلك الجبر، وهذا ينتهي إلى نسبة الظلم والضرر إلى الله سبحانه وهو محال، أو القول بأنّ المخلوق هو العلة بالاستقلال لا بالتبعية، وهذا معناه: التفويض أي أنّ العبد يكون فاعلاً مستقلاً في عرض فعل الله، وهذا أيضاً باطل لوضوح أنّ القدرة الإلٰهية ليست مقيدة بشيء بل جميع المخلوقات تحت قدرته وسلطانه، فثبت مما تقدم بطلان هذه النظرية أيضاً.

وتبيّن أنّ هناك معنى آخر لحصر الخالقية، وهو أنّ مقتضي الصفات الإلٰهية الكمالية خلق كل شيء بحكمة تدبيره، فكل شيء خالقه هو الله تعالى ولكن الله تعالى قدّر لكلّ شيء أمراً ⬅

وخامسها: ما زعمه من عدم اتّصاف الله سبحانه بالصفة التي يخلقها في عباده وبالفعل الذي يفعله فيهم، فإنّه من عجيب تلبيسه، وسيأتي البحث فيه عن قريب[١].

➡ فدبّره بتدبيره.

وخلاصة الكلام: أن الخالقية المستقلة النابعة من ذاته المقدسة غير معتمدة على شيء ومنحصرة بالله سبحانه ولا يشاركه فيها أحد، وأما الأسباب والمسبّبات التي جعلها الله تعالى بين الموجودات الممكنة فهي مخلوقة بتدبيره وحكمته وأمّا سائر المخلوقات التي فيها الشر كالقتل والسرقة والظلم ونحو ذلك من الأفعال القبيحة، إنّما هي مستندة إلى من يباشرها فلاينسب إلى الله سبحانه، لأنّ الله تعالى منزّه عن القبيح لأنّ ارتكاب القبيح نقص والنقص محال بالنسبة إلى الباري جلّ وعلا.

(١) وخلاصة ما زعمه ابن تيمية في المقام من إنّ الله خالق لجميع أفعال العباد ولا خالق أصلاً ولا تبعاً إلّا الله، وبعبارة أُخرى: أنّ ابن تيمية يدّعي أنّ الله سبحانه فاعل وخالق فعل العبد فالصلاة والصيام والحج الذي يأتي به العبد يكون خالقه هو الله، لأنّ هذه العبادات والأفعال من الموجودات المخلوقة ولا خالق في الوجود إلّا الله، ولكن الله لا يكون حاجاً ولا صائماً ولا عابداً بل العبد هو محل لهذه الصفة.

أقول: إنّ ما زعمه في المقام من أعجب العجب عند أهل الفن؛ إذ الفاعل للفعل إمّا أن يكون خالقاً له واقعاً أو لا يكون كذلك ولا واسطة بين الإثبات والنفي، فإذا كان الله خالقاً للفعل فمعناه: أنّ العبد لادخالة له في أفعاله حيث أنّ الله سبحانه خالق لجميع أفعال العباد، إذ بناءً على هذا المدّعى أنّ كل شيء من الجوهر والعرض مخلوق لله سبحانه ومستند إليه، إذ لا خالق في الوجود إلاّ الله، وعليه: فلا معنى لدخالة العبد في أفعاله ولو على نحو الصفتية وإمّا أن يقول معناه: أنّ العبد خالق مع الله في تحقّق الفعل، ونحن نقطع بأنه خصم لا يرضىٰ بهذه المقالة لأنّ مرجعه إلى الشرك في الخالقية فهو يقول: لا خالق في صفحة الوجود إلّا الله، وإذا كان الأمر كذلك، فلا يبقىٰ إلّا القول بأنّ الله تعالى هو الخالق لأفعال العباد، ومعنى ذلك: أنّ الله تعالى أراد خلق فعل العباد؛ إذ كل ما يفعله تبارك وتعالى فهو متعلق لإرادته الحتمية وإذا كان ⬅

وسادسها: ما زعمه بقوله لو كان مخلوقاً، فإنّه سيأتي البحث في فساد ما زعموه من قدمه والمقام ليس محله(١).

والعجيب الغريب من السنّي، حيث يعترف بأنّ الله سبحانه كَلَّم موسى عليه السلام في زمان بعثته له وما كلّمه به لم يكن في عرضه الوجود قبل خلق موسى عليه السلام، وإنّما أوجده سبحانه بمخاطبته لموسى عليه السلام بعد بعثته له، فكيف يتصوّر قدم ما وجد وحدث وصدر في زمان بعثة موسى عليه السلام فإنّه قبل وجوده ليس في العالم موسى

➲ الأمر كذلك فمعناه: أنّه سبحانه أراد أفعال الكفر والشرور والفساد ـ والعياذ بالله ـ لأن أفعال العباد فيها الكفر والشرور والفساد و...، وهذا نتيجة زعم ابن تيمية، كما لا يخفى على الخبير.

(١) وخلاصة ما زعمه: أنّه لو قلنا أنّ الله تعالى خالق لأوصاف مخلوقاته، فلا يمكن توصيفه بتلك الصفة لأنّ الصفة في المخلوق حادث والصفة في الباريء تعالى قديم، فلا يمكن انتساب الحادث إلى القديم.

أقول: مع قطع النظر عن أنّ القديم لا يمكن اتصافه بالحادث، فإنّ ما ذكره ابن تيمية في المقام خلط بين المباحث. وسيتضح ذلك للقارئ الكريم من خلال المباحث الآتية إن شاء الله تعالىٰ.

فمثلاً: أن من أفعال الإنسان الأكل، فإذا كان خالق هذا الأكل هو الله، والإنسان يتلذّذ من أكله، فإنّ هذه الصفة ممنوعة في حق الباري تعالى، وقد ذكر الوجه ذلك بأنّ أسماء الله توقيفية فلابد من أن يكون مثبتاً له حتى يصح الانتساب.

ولكن السؤال المتوجّه إلى ابن تيمية وأتباعه هو أنّه: هل أنّ هذا الأكل الذي صدر من العبد يكون مخلوقاً لله تعالى أم لا؟

فإذا كان مخلوقاً لله، هل أنّ الإرادة الإلٰهية تعلّقت به أم لا؟ فإذا قال: بأنّ الأكل مخلوق لله فلابد أن يقول: بأنّ الإرادة الإلٰهية قد تعلقت به، وإذا قال: بأنّ الإرادة الإلٰهية تعلّقت به فمعناه: أنّ الله يتصف بتلك الصفة حيث يصح إسناد الفعل اليه، ويصح إسناد الإرادة الإلٰهية اليه. وعليه: فلا معنى لقوله يصح نسبة الفعل إلى الله، ولا تصح نسبة الصفة إليه، هذا أولاً.

وثانياً: اذا كانت الصفات الإلٰهية قديمة والفعل حادثاً، كيف يمكن تعلّق الإرادة القديمة بفعلٍ حادث، أليس هذا إنفكاك بين المتلازمين؟!!

حتى يخاطبه بذلك الخطاب الذي موضوعه وجود موسى عليه السلام لقوله سبحانه فيه: (أن يا موسى...)، فهل ينادي سبحانه من هو معدوم؟!!! فانظر الى الخطأ الفاحش[١].

وسابعها: ما زعمه بقوله واحتجّت المعتزلة وأتباعهم من الشيعة.... إلخ، فإنّ فيما ذكره دعويين:

إحديهما: قد عرفت فيما مضى كذبه فيها وعدم إنصافه وتخفيفه بالشيعة حيث جعلهم متابعين لمن حدث بعدهم بطبقة وطبقتين، وهو يعلم أنّ الشيعة قد

---

(١) وتوضيح المقام: أنّ ما ذكره ابن تيمية من تكلّم الله سبحانه مبني على نظرية أهل الحديث والحنابلة، حيث أنهم أكّدوا على أنّ كلام الله قديم، وقد روّج هذه الفكرة أحمد بن حنبل وذهب الى عدم حدوث القرآن، وكان يدافع عن هذه الفكرة بحماس حتى سجن وعذّب وجلد بالسياط في هذا السبيل، وكان يقول: إنّ القرآن كلام ليس بمخلوق، فمن زعم أنّه مخلوق فقد كفر (أُنظر السنّة لأحمد بن حنبل: ص٤٩).

ثم نقل عنه التوقّف في الأمر بعد أن طلب منه المتوكّل الادلاء برأيه، فاختار كون القرآن ليس بمخلوق، وتوقّف في أنّه قديم أو لا يكون قديماً (أُنظر تاريخ المذاهب الإسلامية لمحمد بن أبي زهرة: ص٣٠٠).

وعلى كل حال: فابن تيمية استشهد بقصة تكلّم الله مع موسى عليه السلام لإثبات مدّعاه من عدم إمكان التوصيف بالفعل في غير محله، وبذلك قد خلط بين المباحث حيث أنّ من الواضح البحث في خلق الله تعالى واضح لدى الخبير، لأنّه لو قلنا: أنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد، هل يكون متصفاً بما تعلّقت به إرادته أم لا؟ لا أن الله تعالى تكلّم وصدر منه نفس الفعل، فإنّ الإرادة الإلٰهية لو تعلّقت بشيء، فلا محالة يكون ذلك الشيء موجوداً بإرادته، وهنا يتوجّه هذا السؤال وهو أنّه: هل إنّ الإرادة الإلٰهية تعلّقت بالتكلّم حين الكلام أو لا؟ وليس بين النفي والإثبات واسطة، فإذا تعلّقت الإرادة فتصحّ النسبة إليه، كما تصحّ نسبة خلقه إليه، أليس يقول الخصم: إنّ الله خالق كل شيء، فإنّ شمول الكل بالنسبة إلى جميع الأشياء نسبة يدخل فيه حتى صفاته تعالى، أليس من صفاته هي الصفات القديمة، فكيف تصح هذه النسبة اليه؟!!!

تلقّت علم الشريعة من حفظته وحامليه قبل تولّد جدّ إمام المعتزلة وشيخها[١].

---

(١) لا شك أنّ من راجع التاريخ مراجعة التحقيق والتمحيص يجد أنّ مذهب الاعتزال أُسّس في أوائل القرن الثاني، وذلك عندما اعتزل واصل بن عطاء عن حلقة الحسن البصري وشكّل دراسة فكرية في مقابل استاده، فإنّ واصلاً أخذ يروّج فكرة الاعتزال في مقابل أهل الحديث، وأنّ مباحثه ومناظراته موجودة في التاريخ، فبإمكان كل باحث الوصول اليها والوقوف على تاريخه. وكانت ولادة واصل بن عطاء سنة ٨٠ من الهجرة ووفاته سنة ١٣١ من الهجرة، فأصل مذهب الاعتزال نشأ في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني، فهذا أمر واضح لا يخفى على الخبير الباحث في تاريخ المذاهب والفِرَق.

ثم إنّ من أُصول مذهب المعتزلة العدل والتوحيد، بحيث أنّهما يعدّان حجر الأساس لهذا المذهب، ولا شك أن واصل بن عطاء قد أخذ التوحيد والعدل وغيره من أُصول دينه وفروعه، عن أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، وأخذ عبدالله عن أبيه ابن الحنفية، وأخذ ابن الحنفية عن أبيه أميرالمؤمنين عليه السلام (أنظر طبقات المعتزلة: ص٢٣٤، وذكر المعتزلة من مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري: ص٦٤، والمنية والأمل لابن المرتضى: ص٢٧ ـ ٢٨، وابن أبي الحديد في شرح النهج ج١: ص١٧ وغيرهم).

وأما الشيعة الإمامية، فهم قد أخذوا معالم دينهم عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين أخذوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويكفي للباحث المراجعة إلى كتب الشيعة، فلو رجع الباحث إلى الكتب الأصلية للشيعة الإمامية ككتاب الكافي للشيخ الكليني المتوفى سنة ٣٢٩ هـ وكتاب التوحيد للشيخ الصدوق المتوفى سنة ٣٨١ هـ وغيرها من الكتب نجدها مليئة بالأحاديث الصحيحة المتواترة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والصريحة في التوحيد والعدل ونفي التشبيه ونفي التجسيم ونفي الجبر وغير ذلك، فيجد أنّ الشيعة الإمامية كانوا يعتقدون بالعدل قبل تأسيس مذهب الاعتزال.

ويكفي للباحث النظر في نهج البلاغة لمولانا أميرالمؤمنين عليه السلام وملاحظة خطبه عليه السلام وبياناته عليه السلام في صفات الله عزوجل. وعلى سبيل المثال: لو نظرنا إلى الخطبة الأُولىٰ من نهج البلاغة نظرة عابرة ودقّقنا في مضامينها العالية لوجدنا فيها البيان الرائع في الصفات الإلٰهية.

ففي المرحلة الأُولىٰ: يشير الإمام عليه السلام إلى كيفية عجز العباد عن إظهار المدح والثناء وأداء الشكر

والثانية: قوله أنّهم محتجّون بما نسبه إليهم من الدليل بزعمه ذلك فرية عليهم، فإنّ حجتهم على ذلك قولهم باستحالة قيام الحادث بالقديم، فإنّ[1] قيامة

➲ الإلٰهي فأشار عليه السلام في هذه المرحلة إلى ثلاثة أوصاف، فقال: الحمدلله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعمائه العادّون ولا يؤدي حقّه المجتهدون.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام عجز البشرية من الناحية الفكرية عن إدراك عظمة ذاته المقدّسة وكنهه تعالى.

وأشار عليه السلام في هذا المجال إلى صفتين، فقال عليه السلام: الذي لا يدركه بُعد الهمم ولا يناله غوص القطن، ثم في المرحلة الثالثة يورد الإمام عليه السلام الدليل علىٰ ما أشار اليه سابقاً بقوله عليه السلام: الذي ليس لصفته حدّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، وفي المرحلة الرابعة يشير الإمام عليه السلام إلى كشف النقاب عن خلق العالم والكائنات، ولابدّ للإنسان من أن يجعل هذه الحقيقة سبيلاً لمعرفة الله سبحانه، فيقول عليه السلام: فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان أرضه.

ثم أشار الإمام عليه السلام الى دور التربية التامة في المعرفة الإلٰهية، وذلك في قوله عليه السلام: أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار اليه، ومن أشار اليه فقد عدّه...(نهج البلاغة: الخطبة رقم ١).

فهذه الخطبة وغيرها من الخطب والروايات الواردة عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة الطاهرين عليهم السلام أكبر دليل علىٰ أنّ العدل كان من اصول الدين عند الشيعة الامامية من القرن الأوّل للهجرة بل من يوم الأوّل الذي عرف رسول الله صلى الله عليه وآله الأئمة الهدىٰ عليهم السلام للامامة، فكل ذلك دليل علىٰ أنّ الشيعة الإمامية إنّما أخذت معالم دينها من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهم قد أخذوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أخذها من الله عزوجل، فاعتقاد الشيعة ماخوذ من ينبوع الوحي الصافي ومعينه العذب مباشرة.

(١) فإنّ الشيعة الاثنى عشرية قسموا صفات الله إلى قسمين، صفات الذات وصفات الأفعال، وحيث أنّ صفات الأفعال هي الصفات التي تضاف إلى الذات، ولا تتصف الذات بها إلّا من ➲

يتصوّر على وجهين:

أحدهما: حاجة القديم الى قيام الحادث به، وذلك محال؛ لغنى القديم عن غيره، ولزوم تغيّره بقيام الحادث فيه، والتغيّر محال على القديم[(١)].

وثانيهما: عدم الحاجة، فقيامه فيه حينئذٍ عبث وفعل العبث منزّه عنه

➲ خلال الأفعال الصادرة عنه تعالى، فهي إذن حادثة؛ لأنّها تابعة لما تتعلّق به من الأفعال الحادثة.

وعليه: يستحيل أن تتحد مع الذات الإلٰهية لاستحالة اتّحاد الحادث بالقديم، وبهذا يتضح أنّ صفاته تعالى غير ذاته، وهذا لا يضر في وحدانية رب العالمين، ولا في واحديته يقول صدر المتألهين، لا يخل بوحدانية كون الصفات الإضافية أو صفات الأفعال زائدة عليها، فإنّ الواجب تعالى ليس علوه ومجده بنفس هذه الصفات الإضافية، بل بكونه في ذاته بحيث ينشأ منه هذه الصفات وهو إنّما هو كذلك بنفس ذاته، فإذن علوّه ومجده ليس إلّا بذاته لا غير... (المبدأ والمعاد لصدر الدين الشيرازي: ص١٧٥).

وعلى هذا الأساس: فإنّ هذه الصفات إذا كانت زائدة على الذات فهي حادثة ولا يستلزم من ذلك محذوراً؛ إذ لو كانت قديمة لكان معنى ذلك تعدّد القدماء بتعدّد الصفات، وتعدّد القدماء مستحيل، والقديم يستحيل أن يكون محلّاً للحوادث فالأفعال الإلٰهية حادثة وان كان علة الأفعال صفاته الذاتية الأزلية كما تقدم البحث فيه.

(١) فإنّ القديم عبارة: عن الوجود الأزلي القائم بنفسه لا يسبقه العدم ولا يمكن اتّصافه بالحادث؛ لأنّ الحادث مسبوق بالعدم، وكلّما كان مسبوقاً للعدم فهو حادث ومحل للتغيير، والموجود الأزلي منزّه عن التغيير والحوادث.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الحوادث قبل حدوثها كانت معدومة ولم تكن شيئاً لا عيناً ولا جوهراً ولا عرضاً، فإذا حدثت تنتقل من العدم إلى الوجود ومن الصفر إلى العدد.

فالقديم يمتنع تغيره؛ لأنّ ما ثبت قدمه امتنع عدمه، فالقديم هو الموجود الأزلي الذي لا أوّل لوجوده وفي مقابله الوجود الممكن والحادث هو الموجود الذي له أول. وعليه: فلا يجوز استناد الحادث إلى القديم.

سبحانه، مضافاً[١] الى ما عرفت من لزوم تغيّر القديم لو قام به الحادث[٢].

---

(١) وبعبارة أوضح: أنّ الله تبارك وتعالى غني لا حاجة له إلى شيء فهو منزّه عن الاحتياج؛ لأنّ الاحتياج نقص والنقص من لواحق الإمكان، فلو لم يكن غنياً من جميع الجهات لأمكن فيه الحاجة أي أمكن فيه النقص والله تبارك وتعالى منزّه عن النقص والحاجة، فالغني بالذات لا حاجة له بشيء فهو سبحانه غني على الإطلاق لا حاجة له بفعل عبده والاعتقاد بهذه الحقيقة ينافي القول بأنّ الله خالق لأفعال العباد؛ إذ لو كان الله خالقاً لفعل العبد معناه: أنّه تعالى علة لفعل العبد وإقدام العبد لذلك الفعل معلول لهذه العلة، وإذا كان الأمر كذلك إما يرجع إلى الحاجة لأنّ كل من المعلول يحتاج إلى العلة وكل علة يحتاج إلى المعلول، وإما يرجع إلىٰ العبث لأنّه سبحانه وتعالى غني على الإطلاق لا حاجة له بفعل الغير، فكونه علة لفعل العبد ينافي كونه غنياً بالذات.

وعليه: إذا قلنا أنّه سبحانه محل للحوادث يلزم أن نقول: بأنّه محتاج ومفتقر لتحقق ما يصدر من العبد؛ إذ لو قلنا أنّه خالق لأفعال العباد، وأنّ العبد معلول في أفعاله، وأنّ الله علة لذلك، فيكون الباري تعالى في هذا الفرض محتاج إلى معلوله، لأنّ العلة تحتاج إلى معلوله، كما أنّ المعلول يحتاج إلى العلة أو أن نقول: إنّ فعله عبث لأنه لا حاجة له بفعل الغير. فلاحظ.

(٢) وبعبارة أوضح: أنّه لو كان الله تعالى محلّاً للصفات للزم تعدّد القدماء أو تغير القديم، وهذان اللازمان باطلان، أما الملازمة الأُولى فلأنّه لو تعدّدت صفاته ولم تكن ترجع بعضها إلى بعض يلزم منه تعدّد القدماء، وإمّا يلزم تغيّر القديم بالحادث أي أنّ صفة الفعل منه تعالى أزلي، ثم تغيّر بحادث، فمثلاً على حدّ زعم القوم: أنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد، فمرجع هذا القول إلى صفات الله، فإذا قلنا: بأنّ صفات الله الفعلية أزلية وقديمة فمعناه: تعدّد القدماء، وإذا قلنا بأنّ هذه الصفة الفعلية أزلية ثم صارت حادثة وتغيرت بفعل العبد، فتكون حادثة: أنّ الأزلي صار حادثاً واللازمان باطلان؛ لأنّ الأول مرجعه الى النقص والثاني إلى تغيير الواجب بالممكن، وبعد وضوح هذه المقدمة فإنّ قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾ (سورة النساء: ١٦٤) حكاية عن تكلّمه تعالى لموسى عليه السلام في الشجرة، فلو كان كلامه تعالىٰ بالمعنى القائم على نفسه لم يكن وجه لتخصيص اسناده إلى نفسه، حيث أنّ التكلّم مع موسى عليه السلام ظاهره الكلام بالمعنى الحقيقي كما هو معنى التكلّم واقعاً، وهذا غير التكلّم

وأمّا ما نسبه اليهم السنّي من الحجة، فعلى فرض ذكر بعضهم لها فهو من باب ذكر النظير وليس من باب بيان الدليل؛ فإنّه قياس محض، والقياس عند الشيعة باطل، وما حاجتهم الى القياس في المقام وهذه حجتهم قامعة لمن خالفهم.

وثامنها:[١] ما زعمه من تفريق جمهور أهل السنة بين الخلق والمخلوق

الصادر منه تعالى مع سائر الأنبياء، إذ الكلام الصادر منه مع سائر الأنبياء كان عن طريق الوحي والإلهام، فهذا التكلّم نوع خاص بواسطة الأصوات والحروف في الشجرة وهو تكلّم خارجي.

(١) وخلاصة الكلام: أنّ تنظير المقام بباب كلام الله قياس باطل؛ إذ لا شك أنّ كلام الله تعالى محدث وليس بقديم، وأنّ كلامه سبحانه من الشجرة حكاية عن تكلّمه الحادث، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾ (سورة النساء: ١٤٦) فظاهر الآية حكاية عن تكلّمه تعالى، فلو كان كلامه بالمعنى القائم بنفسه لم يكن وجه لتخصيص إسناده إلى نفسه عند تكلّمه مع موسى عليه السلام.

وعليه: فإنّ القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه، والله سبحانه وتعالى أوجده بعد أن لم يكن موجوداً، وأمّا قياس ذلك بباب خلق أفعال العباد قياس باطل لأنّ من الواضح أنّ تكلّم الله تعالى لو كان من الحروف والأصوات كما هو ظاهره كذلك لابد أن يكون حادثاً إذ كل ما سبق وجوده العدم أو طرأ على وجوده عدم فهو حادث فالحروف والأصوات تكون كذلك فكلام الله يكون حادثاً ولكن ليس كلام الله ككلام البشر فانّ البشر يحتاج في تكلمه إلى الآلات المعدة له ولكن الله تعالى يكون تكلّمه على نحو خاص لا يكون متوقفاً على شيء يلازم الجسمانية وان كان حادثاً فانّ كلامه نوع خاص به وهذا لا يلازم الجسمية ولا يلزم محذور اخر، فقياس هذا الباب بتكلم الله قياس مع الفارق لأنّ التكلّم أحد الصفات الإلٰهية كالإرادة وغيرها من صفاته الكمالية الجلالية.

فالأشاعرة الذين يزعمون أنّ كلام الله نفسي وقائم بذاته سبحانه أزلاً وهو قديم أمر غير مقبول عند الشيعة الإمامية.

فالشيعة الإمامية تبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام خالفوا الأشاعرة وردوا عليهم بأدلّة وافية مذكورة

فانه من عجائب المزخرفات التي ليس لمعناها محصل؛ فان الخلق بضرورة من له أدنى شعور محض نسبة بين الفاعل ومفعوله وليس له وجود منفرد منحاز عن المفعول حتى يصير موضعاً لحكم مستقل مخالف لحكم المفعول، بل هو معنى غير مستقل بنفسه قائم بالمفعول، فما معنى الفرق بين الفعل والمفعول؟!!![1]

➲ في محله، ومن أجل توضيح المقام نشير إلى ما ورد في المقام عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ففي حديث سئل عن الإمام الرضا عليه السلام عن القرآن هل هو خالق أم مخلوق؟ فأجاب الإمام عليه السلام: بأنّ كلام الله ليس بخالق ولا مخلوق ولكنّه كلام الله (أُنظر التوحيد للشيخ الصدوق: ص٢٢٦).

فالإمام بيّن بأنّ الوصف بالخالق أو المخلوق في الكلام الإلٰهي غير صحيح من جهتين:

الأُولى: انه قال ليس بخالق فاشار الامام عليه السلام بذلك الى الردّ على دعوىٰ أنّه كلام نغسي قائم بذاته كما كان هو زعم الأشاعرة وأهل الحديث، حيث كانوا يزعمون أنّ كلام الله قديم فاراد الامام بذلك الرد على هذا القول حيث لو كان قديماً لكان هناك الهان كما قال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام لو كان قديماً لكان إلٰهاً ثانياً (نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٨٦، من خطبته عليه السلام في التوحيد).

وأما عدم وصفه بالمخلوق لتنزيهه الباري تعالى عما يتوهّم من لفظ «المخلوق» حيث أنّ لفظ «المخلوق» قد يستعمل لغة في معنى «الإختلاق» حيث أنّ الاختلاق قد يطلق على الكلام المكذوب، وإنّما امتنع الإمام عليه السلام عن ذكر هذه الصفة بإطلاق المخلوق على كلامه سبحانه؛ لأنّه قد يطلق المخلوق على المكذوب ويقال: كلام مخلوق، أي مكذوب، وهذا أشبه بالنهي عن قول «راعنا» في قوله تعالى: ﴿لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ٱنْظُرْنَا﴾ (سورة البقرة: ١٠٤) فإنّ عبارة «راعنا» قد استغلها اليهود، وفيها نوع من سوء الأدب، لأنّها من باب المفاعلة وباب المفاعلة يفيد المبادلة والاشتراك؛ وهي لذلك تعني: راعنا لتراعيك، وقد نهى القرآن عن ذلك لعدم توهّم أنّ المقصود هو المعنى المتدوال عند اليهود.

وفي المقام: إنّ الأمر كذلك، فإنّ الامام عليه السلام أراد أن يقول: بأنّ كلام الله حادث، ولكن لا يصح أن نستعمل لفظ المخلوق له. فلاحظ.

(١) وبعبارة أوضح: أنّ الخلق عبارة عن إيجاد الشيء وصنعه وإخراجه من العدم إلى الوجود،

وقد عرفت محالية قيام الفعل بالله سبحانه[(١)]، ففعله قائم بعباده، فلو فرض

➲ وتحقّق هذا الأمر منوط بصدور الفعل من الخالق أو الفاعل، وصدور الفعل من الفاعل قائم بالمفعول الواقع عليه الحدث، فمثلاً. إنّ الضرب إذا صدر من زيد فإنّ زيداً هو الفاعل وصدور هذا الفعل يكون موقوفاً على وجود من وقع عليه الضرب وهو المفعول، وهذه النسبة إلى الفاعل إنّما تصح عند وجود المضروب له، فإنّ الفاعل موضوع للنسبة الصدورية والمفعول موضوع للنسبة الوقوعية، فالفعل بدون الفاعل والمفعول لا يعقل تصوّره، وفي المقام أنّ كل خالق لابد أن يكون له مخلوق حتى تصح نسبة الخالق إليه، كما أنّ الفاعل لابد له من مفعول، فإنّ نسبة المخلوقية أيضاً تصح عندما يكون هناك فاعلاً خالقاً، كما هو واضح ظاهر.

(١) لأنّ أفعال العباد فيها القبيح والمنكر والظلم والكفر وغير ذلك، فإذا كانت الأفعال مخلوقة لله سبحانه فمعناه: أنّ الله تعالى هو خالق القبيح والمنكر وهو فاعله سبحانه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولا يخفى أنّ هذه المقالة لها جذور من العهد الجاهلي، كما قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَٱللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللهَ لاَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَا لاَتَعْلَمُونَ**﴾ (سورة الأعراف: ٢٨) فإنّ الكفّار والمشركين عندما كانوا يسئلون عما يفعلون من الفواحش كانوا يقولون في الجواب: الله أمرنا بها لأنّهم كانوا يعتقدون بأنّ كل ما يفعلونه يكون بإرادة الله سبحانه، ولذلك لو ظهر منهم فعل كانوا يقولون بانّ الله فعله وكانوا يستدلون علىٰ ذلك بانّ هذا العمل قد صدر منا بارادة الله اذ لو كان الله تعالى لا يريد ارتكاب هذا العمل لمنعنا تكويناً وحيث لم يمعنا تكوينا فمعناه أنّه كان يريده، أي إنّ ذلك الفعل كان مطلوباً له، وهذا معنى قولهم: والله أمرنا بها، ولكن القرآن الكريم يرد عليهم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللهَ لاَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَا لاَتَعْلَمُونَ**﴾ وأيضاً قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلاِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَا لاَتَعْلَمُونَ**﴾ (سورة الأعراف: ٣٣). فهذه المقالة مردودة بمنطق القرآن الكريم.

وهناك آيات أُخرىٰ تدلّ على المقام، كما أنّ الروايات الكثيرة الواردة في تفسير هذه الآيات وغيرها تدلّ على المقام. مضافاً إلى حكم العقل بتنزيه الله سبحانه عن الفعل القبيح وخلق الشرور، كما سيتضح إن شاء الله تعالى من خلال المباحث الآتية.

كون الكفر والزنا وقتل الرسل وخيرة العباد وغير ذلك من الفساد خلق الله سبحانه وفعله في عباده لزمت القائل بذلك الشناعات لما بيّناه من عدم وجود معنى محصّل في دعوى الفرق بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول(١).

وتاسعها: ما زعمه من عدم وجود محذور في نسبة الظلم الى العبد بوجود الشرور فيه، فإنّه من عجيب الظلم والتناقض؛ لأنّ المفروض كون الخالق لها في العبد وفاعلها غيره، فلم يصير العبد ظالماً حينئذٍ(٢)؟ فأيّ فعل منافٍ للشريعة قد

---

(١) لأنّ من الواضح أنّ الخلق عبارة عن إيجاد الشيء وصنعه وتحقّقه وهو منوط بصدور الفعل من الفاعل، وصدور الفعل من الفاعل متوقّف على من يقوم عليه الفعل وهو المفعول؛ لأنّ الفاعل هو الذي يقوم بإيجاد الفعل، أي أنّ فعله قائم على من يقع عليه الفعل. فلا يمكن تصوّر الفعل مع عدم تصوّر النسبة الوقوعية.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الفاعل موضوع للنسبة الصدورية والمفعول موضوع للنسبة الوقوعية، وكل فعل لابدّ له من النسبة إلى الطرفين حتى يصح إطلاق الفعل عليه.

وفي المقام حيث أن ابن تيمية وأكثر أهل السنة ذهبوا إلى أنّ الله تعالىٰ خالق لأفعال العباد فمعناه: أنّه تعالى فاعل وصانع لأفعال العباد. فالخالق والصانع لابد أن يكون له مخلوق ومصنوع كي تصح نسبة الفاعلية والفعلية إليه.

فبناءً على زعم ابن تيمية والأشاعرة لابدّ من القول بأنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد أي فاعلها، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ أفعال العباد فيه الخير والشر وفيه الفسق والفجور وفيه الإيمان والكفر، فمعنى قولهم: أنّه تعالى خالق لأفعال العباد، أي أنّه صانع لخير أفعالهم وشرها. ومن الواضح أنّ نسبة خلق الشر إلى الحكيم غير معقول بل محال؛ لأنّ الحكيم لا يصدر منه فعل القبيح، والشر من أبرز مصاديق القبح فلا يعقل صدوره من الحكيم كما لا يخفى ذلك على الخبير.

(٢) وبعبارة أوضح: أنّ أفعال العباد ـ بناءً على زعم ابن تيمية وأكثر أهل السنة ـ معلولة لإرادة الله عزّوجلّ وخاضعة لها، بل إنّهم يقولون: أنّ أفعال العبد بيد الله تبارك وتعالى، فالعبد كالميت في يد الغسّال، فكما أنّ الميت لا إرادة له في يد الغسّال أصلاً، فإنّ العبد يكون كذلك،

صدر من العبد حتى يوصف بالظلم[١]؟

وهل يصير المسجد ظالماً لو جعل فيه رجل نجاسة ولوّثه بها؟ فإنّ العبد والمسجد من هذه الجهة متساويان لعدم صدور الفعل من العبد بل هو ظرف محض فحاله حال المسجد من هذه الجهة، فنسبة الظلم الى العبد مناقض لزعم السُنّي أنّ خالق الشرور في العبد هو الله سبحانه، والعبد لم يفعل شيئاً منها، وبهتان على الله وعلى العبد على زعمه، فهو قد نفي الظلم عن الله سبحانه بعدما زعمه أنّه هو الخالق الكفر والشرور والفساد في العباد ونسب الظلم الى العباد بعدما زعمهم ظروفاً محضة للفساد[٢].

➲ وإذا كان الأمر كذلك كيف يمكن نسبة الظلم الى العبد.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ أفعال العباد بناءً على زعم ابن تيمية لم تصدر باختيارهم وإرادتهم، بل جميعها بإرادة الله تعالىٰ التي لا تتخلّف عن مراده، وبناءً على هذا إنّ العباد يصبحون مضطرين ومجبورين في حركاتهم وسكناتهم، فهم كالأموات في أيدي الغسّال، تصح نسبة الظلم اليهم؟

(١) وبعبارة أُخرىٰ: لو صح صدور الفعل من الإنسان بلا اختيار ولا إرادة فلا يمكن تحقق الفعل منه في الخارج؛ لأنّ وجوده كآلة بلا حول ولا قوة ولا اتّصاف له في ايجاد الفعل، فلا يصح نسبة الفعل إليه، وعليه فإنّ صدور الفعل من الإنسان خارج عن اختياره وإرادته فلاينسب إليه صدور الظلم لأنّه منوط باختياره، حيث أنّ الإرادة والاختيار علة تامة للفعل والارادة عبارة عن الشوق المؤكد في النفس، فاذا حصلت المقدمات للإرادة وكان العمل تحت اختيار الانسان فيكون الفعل الصادر منه منسوباً اليه، وأمّا إذا لم يكن له اختيار في العمل كيف تصحّ نسبة العمل اليه، وكيف يصح أن يقال بأنّه كان يريد العمل؟ فإنّ هذا أمر وجداني كما هو واضح ظاهر.

وعليه: فلو كانت الإرادة علة تامة للفعل، فلازمه أن يكون الإنسان مختاراً في عمله. وإذا قلنا: أنّ الإنسان غير مختار في عمله فمعناه: أنّه لم يريد الفعل، فإذا لم يريد الفعل وهو غير مختار كيف يمكن نسبة صدور الفعل اليه ؟!!!

(٢) لا شك أنّ أساس دعوىٰ القوم في قولهم: إنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد هو كون أفعال

⬅ العباد بخلق الله؛ إذ لو كانت أفعالهم بخلقهم لكانوا شركاء له في الخلق، ومن ناحية اخرىٰ أنّ العبد هو الذي يباشر العمل كيف لا يكون له دخالة في أفعاله فانّ هذا التأثير منه أمر وجداني لا يمكن انكاره فلهذه الجهة ذهبوا إلى أنّ العبد محل وظرف للعمل بحيث لا يكون مؤثراً حقيقياً في تحقق الفعل، وعليه ذهبوا إلى أنّ الفعل خالقه هو الله سبحانه ولا دخالة للعبد فيه وانّما يكون العبد ظرفاً لخلق الله عزوجل.

أقول: لا شك أنّ انكارهم دخالة العبد وتأثيره في فعل نفسه إنكار لأمر وجداني حيث أنّ كل انسان يعلم علماً وجدانياً بانّه مختار في الفعل والترك فاذا شاء شرب الماء واذا لم يشأ لم يشربه.

ولكن الأشاعرة وأهل الحديث حيث أنكروا التحسين والتقبيح العقليين في الأفعال ذهبوا إلى عدم اختيار العبد في أفعاله. نعم، أقصى ما هناك أنّ إرادة العبد تتحقق مقارناً لإرادة الله سبحانه.

قال شارح المواقف: إنّ أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله سبحانه وحدها، وليس لقدرتهم تأثير فيها، والله سبحانه أجرىٰ عادته بأن يوجد في العبد قدرة واختياراً، فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارناً لهما، فيكون فعل العبد مخلوقاً لله إبداعاً وإحداثاً ومكسوباً للعبد. والمراد بكسبه إياه: مقارنته لقدرته وإرادته من غير أن يكون هناك منه تأثير ومدخل في وجوده سوى كونه محلّاً له (أُنظر شرح المواقف للجرجاني ج٨: ص١٤٦).

أقول: يقع الكلام هنا في مقامين؛ الأول: في عموم قدرته تعالى لعامة الكائنات والثاني: في اختيار العبد وإرادته، هل يكونان في طول إرادة الله أو في عرضه؟

امّا الأوّل: لا شك أنّ الله تعالى خالق بالذات وأنّ خالقيته بالذات من مختصاته سبحانه وتعالى، ولكن هذا لا يتنافي اختيار العبد في أفعاله؛ لأنّ الخالقية بالذات معناه: أنّ كل ما يوجد في صفحة الوجود فهو مخلوق لله سبحانه، وكل حركة تكون مؤثرة بإذنه، فجميع الأسباب والمسبّبات مخلوقة لله إلّا أنّ صفات الله الكمالية وحكمته البالغة تدلان على أنّ أفعاله تصدر منه للأغراض والغايات المعقولة الحكيمة.

وبعبارة أُخرى: أنّ التوحيد في الخالقية يقتضي أن نقول: بأنّ الله تعالى خالق لكلّ شيء حتّى ⬅

⮌ أفعال العباد، وأمّا مقتضى التوحيد في الربوبية هو القول بأنّ الله تعالى حكيم في تدبيره، فلايفعل ما يخالف الحكمة، فإذا كانت أفعال الإنسان فيها الخير والشر لا معنى للقول بأنّ الله تعالى خالق لفعل الشر إذ الشر خلاف الحكمة والتوحيد في الربوبية يقتضي لزوم الحكمة في أفعاله تعالى، إذن لا معنى للقول بأنّ الله تعالى خالق لجميع أفعال العباد.

ثمّ أنّ العقل مستقل في درك حسن ما يفعله سبحانه، فلا تصحّ نسبة خلق الشرور والأفعال القبيحة إلى الله سبحانه، وإنّ تملّكه سبحانه وتعالى للعبد وجميع شؤونه تملّكاً ذاتياً لا يكون دليلاً على أنّه خالق لأفعاله بصورة مطلقة، هب أن الله تعالىٰ هو الذي أعطىٰ الإنسان القدرة والعقل والشعور وحتى الاختيار والحرية ليكون مختاراً في اعماله وأفعاله، وإن كانت بعض مقدمات أفعاله غير اختيارية، ولكن أصل العمل يتحقّق بإرادة الإنسان واختياره.

ومن هنا يتضح المقام الثاني: وهو اختيار العبد، فإنّ اختياره يكون في طول الإرادة الإلٰهية لا في عرضه، حيث أنّ الله تبارك وتعالى جعل التأثير بين العلل والمعلولات، وهذا لا ينافي الخالقية الذاتية لله سبحانه، فلا خالق إلّا هو ولكن الخالق الذاتي الذي له القدرة علىٰ كل شيء أعطىٰ الانسان الإختيار والإرادة والحرية في العمل وهذا، لا ينافي تأثير العلل الطولية، كيف وقد نص القرآن الكريم على تأثير العلل الطبيعية في آثارها ضمن آيات عديدة. كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٤) هذه الآية الكريمة تدلّ وجود الخالق غير الله ولكن الله تعالى أحسن الخالقين، من الواضح أنّ المراد من الخلق ليس خلقاً ذاتياً بل ايجاد الأسباب لتحقق المسببات فالإنسان خالق بنص القرآن ولكن ليس خالقاً في عرض الله، وإنّما خلقه يكون في طول خلق الله، ولذلك قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾.

فيكون معنى التوحيد في الخالقية، هو أنّ الله تعالى الخالق الأصيل الذي لا يعتمد على شيء، وغيره يكون خالقاً بقدرة الله ولطفه وعنايته، ومن أجل توضيح المقام نمثّل مثالاً واضحاً:

فمثلاً أنّ الذي يؤسّس معملاً لتوليد الكهرباء أو لإنتاج أنابيب المياه يصنعها ويضعها تحت تصرفنا، فلا يمكن أن نستفيد من هذه الأشياء إلّا بمساعدته، ولكن بالنتيجة يكون التصميم النهائي لنا، فيمكن أن نستفيد من الكهرباء لإمداد غرفة عمليات جراحية لإنقاذ المريض ⮎

➲ المشرف على الموت أو نستخدمها في مجالس اللهو والفساد، ويمكن أن نروي بالماء عطش إنسان ونسقي ورداً جميلاً، أو نستخدم الماء في إغراق دور النـاس ظـلماً وجـوراً، فاختيار العمل بيد الإنسان والإنسان حرّ في ذلك، وإن كان أصل القدرة من الله تعالى وبيده، فله تعالى أن يسلب منه دور القدرة في ارادته ولكن حكمته البالغة اقتضت أن يعطي الانسان القدرة على العمل ليكون للانسان دور في تحقق أفعاله فلاحظ. فلاحظ.

قال السنّي:

وأما قوله عنهم: أنّهم يقولون أنّه لا يفعل ما هو الأصلح لعباده بل ما هو الفساد كفعل العاصي وأنواع الكفر وجميع أنواع الفساد الواقعة في العالم مستندة اليه تعالى الله عن ذلك، فيقال: هذا الكلام وان قاله طائفة من متكلّمي أهل الإثبات فهو قول طائفة من متكلّمي الشيعة أيضاً، وأئمة أهل السنّة وجمهورهم لا يقولون ما ذكر بل الذي يقولون أنّ الله خالق كل شيء، وربه ومليكه، وأنّه لا يخرج عن ملكه وخلقه وقدرته شيء فهو خالق لعبادات الملائكة والمؤمنين وسائر حركات العباد.

والقدرية ينفون عن ملكه خيار ما في ملكه وهو طاعة أنبيائه وملائكته والمؤمنين فيقولون: لم يخلقها الله قد قال الخليل عليه السلام «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك» فطلب من الله ان يجعله مسلما ومن ذريته امة مسلمة له وهو صريح في انّ الله يجعل الفاعل فاعلا وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فقد طلب من الله أن يجعله مقيم الصلاة، فعلم أنّ الله هو الذي يجعل العبد مصلّياً، وقد أخبر عن الجلود والجوارح إخبار مصدق لها أنّها قالت: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فعلم أنّه ينطق جميع الناطقين.

وأما كونه لا يفعل ما هو الأصلح لعباده أو لا يراعي مصالح العباد، فهذا مما

اختلف فيه الناس، فذهبت طائفة من المثبتين للقدر الى ذلك وهم الجهمية، وذهب جمهور أهل العلم الى أنّه إنّما أمر عباده بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم وإن فعل المأمور فيه مصلحة عامة لمن فعله، وإن إرسال الرسل مصلحة عامة، وإن كان فيه ضرر على بعض الناس بمعصية؛ فإنّ الله تعالى كتب في كتاب فهو عنده موضوع فوق العرش «إنّ رحمتي سبقت غضبي» أخرجاه في الصحيحين، وسائر ما يقدّره الله تغلب فيه المصلحة والرحمة والمنفعة، وإن كان في ذلك ضرر لبعض الناس فللّه في ذلك حكمة أُخرى، وهذه المسائل مبسوطة في محلها وهو لم يذكر سوى الحكاية، ونحن بيّنا ما فيها من الصواب والخطأ. انتهى مقاله.

وقد حذفنا من مقاله هنا ما كرره غير مرة من مسألة القدر وغيرها، وذكر القائلين بها والنافين لها، وجعل الشيعة فيها على قولين، وغير ذلك مما بيّنا الحق فيه فيما تقدّم ومن هذه الجهة تركناه هنا[١].

---

(١) منهاج السنّة ج١: ص٤٦٠.

قلت:

وفي هذه النبذة وجوه من العجائب:

أحدها: ما نسبه الى طائفة من أهل مذهبه من القول بأنّ خالق الكفر والشرور في العالم هو الله سبحانه ونفاه عن جمهورهم، فإنّه من غريب كذبه وتناقضه؛ لأنّ قوله بعد ذلك بل الذي يقولونه: إنّ الله خالق كل شيء... الى وسائر حركات العباد، مناقض لما نفاه عن جمهورهم؛ فإنّه أثبت بهذه العبارة خلقه سبحانه لعامة أفعال العباد من خيرها وشرها، وهو قول جمهور أهل مذهبه حسبما نصّ عليه صريحاً، فما نفاه عنهم في العبارة المتقدمة أثبته لهم في العبارة المتأخّرة المتصلة بها، وهو أغرب تناقض لكونه حصل من عبارتين مختصرتين متصلتين[١].

(١) فإنّ كل عاقل يعرف أنّ إثبات الشيء ونفيه في آنٍ واحد جمع بين المتناقضين هذا من ناحية ومن ناحية اخرىٰ أنّ ظاهر الكلام حجة؛ لأنّ حجية الظهور أمر عقلائي ثابت بحسب حكم العقلاء والسيرة العقلائية القائمة على اعتباره كلام المتكلم، فما ذكره ابن تيمية في المقام واضح البطلان بحسب ظاهر كلامه، إذ أنّه جمع بين الأمرين، فمن ناحية يقول: إنّ الله خالق كل شيء ومن الأشياء أفعال الإنسان وأفعال الإنسان فيه الخير والشر، فمعناه على حدّ زعمه: إنّ الله خالق للشرور من أفعال الإنسان، ومن ناحية اخرىٰ يقول: أنّ أفعال الله مبنية

وثانيها: ما نسبه الى الشيعة من أنّهم ينفون عن ملكه سبحانه خيار ما في ملكه وهو طاعة أنبيائه وملائكته وعباده الصالحين، فإنّه من عجيب تدليسه وكذبه وتناقضه(١)، لأنّ الشيعة متابعون لما وردت به الشريعة، قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم

على الحكمة، ومعنى هذا إنّ الله تعالى لا يصدر منه الفعل إلاّ عن وجه حكمة والحكمة عبارة عن عدم صدور فعل لا ينبغي صدوره من العاقل الحكيم.

فإنّ من الواضح أنه لا يصح صدور الشر والظلم من العاقل، كيف تصحّ نسبته إلى الحكيم على الإطلاق، فما ذكره ابن تيمية في المقام التزام بالمتناقضين، والمراد بالمتناقضين هما أمران نقيضان لا يمكن اجتماعهما أبداً ولا ارتفاعهما كالصحة والفساد والحق والضلال والخير والشر والرشد والغي وغير ذلك، فإنّه لابدّ من ثبوت أحد الأمرين ولا واسطة بينهما إمّا أن يقول بأنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد على نحو الإطلاق، وحينئذٍ يلزم عليه الالتزام بعدم وجود الحكمة في أفعاله، إذ إطلاق الأفعال يشمل الشرور والشرور ليس فيها الحكمة.

وإمّا أن يرجع عن إدّعائه ويقول: أنّ ليس بخالق لجميع أفعال العباد ويلزم عليه أن يوجّه أنّ الله تعالى خالق لكلّ شيء، فهو بين الأمرين فلايمكنه الأخذ بالطرفين لأنّ الأخذ بالطرفين أخذ بالمتناقضين ولذلك قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (سورة الأحزاب: ٤) فلايمكن الاعتقاد بالمتناقضين في قلب واحد أي أنّ النفس الواحدة لا تسع لاعتقادين متنافيين ورأيين متناقضين في جوفه، فإذا كان هناك أمران متنافيان فهما لقلبين، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فالرجل الواحد لا يسعه إلاّ قلب واحد واعتقاد واحد.

وفي المقام: أنّ ما ذكره ابن تيمية من أنّ أفعال العباد إنّما يخلقه الله ثم يقول: أنّ ما يخلقه الله هو الفعل الأصلح، فلا يمكن الجمع بينهما إلاّ من باب الجمع بين المتناقضين. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ الشيعة الإمامية عندما يقولون: إنّ الانسان مختار في أفعاله وأعماله لا يقصدون الاختيار المساوق للاستقلال، كما ذهب اليه المعتزلة حيث زعموا أنّه لا تكون لله تبارك وتعالى إرادة واختيار وسلطان على الإنسان في اختياره وفعله، فإنّ منطق الشيعة الإمامية في هذا المجال هو منطق القرآن الكريم والسنّة الشريفة الواردة عن العترة الطاهرة عليهم السلام فلو لاحظ الخبير الآيات من القرآن الكريم بالنسبة إلىٰ لأفعال الإنسان يجد أنها تفنّد نظرية الجبر

ونظرية التفويض، فأمّا الآيات التي ترد على نظرية الجبر:

فمنها: قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصّلت: ٤٦) وقوله تعالى: ﴿كُلُّ آمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (سورة الطور: ٢١) وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣٩ ـ ٤١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الإنسان: ٣) وغيرها من الآيات التي تدلّ على أنّ الانسان له دور في تعيين مصيره.

وأمّا الآيات التي ترد على نظرية التفويض:

فمنها: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (سورة التكوير: ٢٩) وقوله تعالى: ﴿قُل لاَأَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ ٱللهُ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٨) وإلى غير ذلك من الآيات الكريمة، فانّ المجموعة الأُولىٰ تفنّد نظرية الجبر، والمجموعة الثانية تفنّد نظرية التفويض، وجمع الله تبارك وتعالى بين الأمرين في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾ (سورة النساء: ٧٩) وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (سورة الحمد: ٥).

كما أنّ الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ترشدنا الى القول بنفي الجبر والتفويض واتّخاذ موقف الأمر بين الأمرين، ومن تلك الروايات ما رواه الصدوق بسنده، عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام وأبي عبدالله الصادق عليه السلام قالا: إنّ الله عزوجل أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذّبهم عليها، والله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون، قال: فسئلا عليهما السلام: هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة؟ قالا: نعم أوسع مما بين السماء والأرض (كتاب التوحيد للصدوق: ٣٦٠).

ومنها: ما رواه أيضاً بسنده، عن الإمام الرضا عليه السلام قال: ذكر عند الإمام عليه السلام الجبر والتفويض، فقال: ألا أُعطيكم في هذا أصلاً لا تختلفون فيه، ولا تخاصمون عليه أحداً إلّا كسرتموه،قلنا: ان رأيت ذلك، فقال عليه السلام: إنّ الله عزوجل لم يطع بإكراه ولم يعص بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، وهو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صاداً، ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، وإن

مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(١) ومن الضروري كون أعظم نعمة التوفيق لفعل ما يوجب

⮌ لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه، ثم قال عليه السلام: من ضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه (كتاب التوحيد للصدوق: ص٣٦١ ح٧).

وأيضاً روىٰ بسنده عن المفضّل بن عمر، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين الأمرين، قال: فقلت: وما الأمر بين الأمرين؟ قال: مثل ذلك رجل رأيته على معصية فنهيته، فلم ينته، فتركته، ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته أنت الذي أمرته بالمعصية (كتاب التوحيد للصدوق: ص٣٦٢ ح٨) وإلى غير ذلك من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام.

فما ذهب اليه الشيعة الامامية في المقام أمر واضح متخذ من القرآن الكريم وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام، وللباحث أن يراجع كتب الشيعة الإمامية في هذا المجال وفي غيره في سائر الجالات والعلوم من الكلام والتفسير والحديث وغير ذلك.

(١) سورة النحل: ٥٣، هذه الآية المباركة تدلّ على أن كل نعمة وكل خير من الله وما بكم ومالكم من النعمة مثل الصحة في الجسم والسعة في الرزق ونحوهما كل ذلك من عند الله ولكن هذا لا ينافي قانون العلية والسببية التي جعلها الله تعالى في الموجودات الطبيعية.

وتوضيح المقام: أنّ القدرة عبارة عن مبدئية الفاعل المختار للعمل الذي يمكن صدوره منه، وكلّما كان الفاعل أكثر تكاملاً من حيث المرتبة الوجودية كان أكثر قدرة، وبطبيعة الحال إنّ الموجود الذي يتوفر على الكمال اللامتناهي له قدرة على كل شيء، إذ أنّ قدرته غير محدودة ولا متناهية، فكل شيء يكون تحت قدرته وسلطانه، ولكن يجب هنا أن نؤكد على بعض الملاحظات:

١ـ أنّ العمل الذي تتعلق به القدرة لابدّ أن يكون ممكن التحقّق، فإنّ شيء المحال في ذاته أو المستلزم للمحال لا تتعلق له القدرة عقلاً، فالقول بأنّ الله قادر على كل عمل، لا يعني أنّه مثلاً قادر على أن يخلق إلٰهاً آخر، وذلك لأنّ الإلٰه غير مخلوق.

٢ـ أنّ القدرة على كل عمل لا توجب على مثل القادر أن يحقّق كل الأعمال التي يقدر عليها، بل إنّما يحقّق الأعمال التي يريد تحقيقها، فمثلاً أنّ الحكيم لا يريد فعلاً إلّا موافقاً للحكمة، فلا يفعل فعلاً عبثاً ولا فعلاً لا ينبغي صدوره من القادر الحكيم، فالله تبارك وتعالىٰ هو الحكيم ⮌

رضاه والخُلد في جنان نعماه[1]؛ فإنّه سبحانه هو الهادي الى طاعاته بآياته وبيّناته بعد خلقه في العباد القوى التي بها يقدرون على معرفته وعبادته وينتهون عن معصيته، وحثّهم على ذلك بوعدهم بالمثوبة رحمة منه على الطاعة التي خلق فيهم مقدّمات وجودها وقادهم بعد ذلك الى فعلها بآياته الباهرة وبتوعّدهم بالعقوبة

➲ الذي لا يريد إلّا الأفعال الحكيمة والصالحة والحسنة والجميلة، فلا يـحقّق إلّا مـثل هـذه الأعمال وإن كان قادراً على تحقق غيرها.

٣ـ أنّ القدرة الحقيقية هي القدرة التي تتضمّن الاختيار، فالقدرة التي لا تكـون فـيها الاخـتيار ليست إلّا الاضطرار، فالقدرة الحقيقية هي القدرة الإلٰهية التي لا يقيدها شيء، فلا يمكن لأي عامل أن يقهر الله ويجبره على القيام بعمل، فهو يملك أكمل مراتب القدرة وأرقاها، وكذلك يملك أكمل مراتب الإختيار، ولا يمكن لأي لأحد أن يسلب منه الاختيار، لأن وجود كل موجود بقدرته وقدرته منه وبه وإليه. ويتلخّص ذلك كله في هذه الجمل الثلاثة: «لا إله إلّا الله»، و«لا حول ولا قوة إلّا بالله» و«إلى الله ترجع الأُمور».

وبهذه المقدمات يتبيّن معنى قوله تعالى: ﴿**ما بكم من نعمة فمن الله**﴾ (سورة النحل: ٥٣) وقوله تعالى: ﴿**ان الله على كل شيء قدير**﴾ (سورة البقرة: ٢٠).

(١) من الواضح أنّ الجنة بذلك الاتساع الذي وصفه القـرآن الكـريم. بـأنّ عـرضها السـماوات والأرض راجع (سورة آل عمران: ١٣٣) وأنّها لنعم دار المتقين (راجع سـورة النـحل: ٣٠) ليس من السهل للإنسان أن يصل اليها، بل لابدّ من تحصيل رضوان الله، كما قـال تـعالى: ﴿**ورضوان من الله اكبر**﴾ (سورة التوبة: ٧٢) فإنّه بسبّب الطاعات وتـرك المـعاصي يـصل الانسان إلى هذه الدرجة، ومن اشتدّ سعيه في رضا الرب جل وعلا وطال اجتهاده في العمل الصالح ليلاً ونهاراً، فيشمله هذا الفضل الإلٰهي ورحمته الواسعة ولطفه وعنايته الخاصة، فإنّ العناية الخاصة الإلٰهية إنّما تشمل من أراد ذلك وسعىٰ للوصول اليه، وأمّا مـن خـالف ربـه وأعرض عن هذه الرحمة والعناية وخرج عن طاعة الله ودخل في طاعة إبليس، فلا يشمله هذه العنايات الربانية ـ كما هو واضح ـ من لسـان القـرآن الكـريم والروايـات الصـحيحة. فلاحظ.

على المعصية(١).

(١) وخلاصة الكلام: إنّ الله تبارك وتعالى قد أودع في الإنسان شعوراً خاصاً وقوىٰ خاصة فطرية، بحيث يستطيع الإنسان أن يهتدي بها إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم القويم.
وهذه القوىٰ الفطرية تغرس في أعماق نفس الإنسان روح التوحيد والعبودية والإحساس بالمسؤولية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (سورة الإنسان: ٢) هذه الآية المباركة تتحدّث عن أصل خلق الإنسان الذي خلقه الله تبارك وتعالى من ذرات متناثرة، ثم جعله إنسان ذا شعور وفهم وعقل، ليكون سميعاً بصيراً.
فتقول الآية الكريمة: إنّ خلق الإنسان كان من نطفة والنطفة عبارة عن الماء القليل، ولكن غلب استعمالها في ماء الذكور، و«أمشاج» جمع المشج وهو بمعنى المختلط الممتزج ووصفت النطفة بالأمشاج؛ لأنّ النطفة تتكوّن من ذرات الوجود المتناثرة في التراب والماء والهواء وغير ذلك، فهذه الذرات تجتمع من زوايا متعددة وتكون نطفة الإنسان، ولعل ذكر خلق الإنسان من النطفة المختلطة إشارة إلى القابليات المختلفة الموجودة في داخل النطفة وهي سبب للعوامل الوراثية التي يمتلكها الإنسان عن طريق الجينات، فإنّها توجب الوراثة في بعض الأُمور والأوصاف في الإنسان.
وهذه إشارة إلى فطورات النطفة في مراحل التكامل لوصول الإنسان إلى مقام التكليف والتعهّد وتحمّل المسؤولية والاختيار والامتحان وهذه إحدىٰ المواهب الإلٰهية العظيمة التي أكرم بها الإنسان وجعله أهلاً لتحمّل التكليف وتحمّل المسؤولية، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ ومعناه: أنّ الله تبارك وتعالىٰ. قد هيّأ للإنسان الوسائل للهداية وأعطاه العقل والحرية والاختيار ليختار الطريق الصحيح لنفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (سورة الإنسان: ٣) أي دللناه على الطريق وبيّنا له طريق الخيرو الشر وعرّفناه المنهج الصحيح والباطل.
فالإنسان هو الذي يختار الطريق لتعيين المصير الذي يريده، فهو ينتخب المنهج الصحيح فيكون شاكراً للنعم الإلٰهية، وإمّا يكون تاركاً لها.
وقد بيّن تبارك وتعالى بعض مصاديق ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (سورة فصّلت: ١٧) فالله تبارك وتعالى إنّما هدىٰ

فانظر هل من يعتقد هذه العقيدة مخرجاً لخيار ما في ملكه عن ملكه، ولِمَ يفتري على جمهور أهل مذهبه؟[١] حيث نسب إليهم القول بأنّ الرسل والملائكة

الناس جميعاً بإلقاء الحجة عليهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٩) ففي الآية تفريعان: التفريع الأوّل: قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ وهذا جواب للمشركين، حيث كانوا يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ...﴾ (سورة الأنعام: ١٤٨) فيقول الله في جوابهم: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ أي أنّ ماذكرتم ليس بحجة لكم بل حجة عليكم؛ لأنّ الله تعالى لو شاء لهداكم أجمعين وأجبركم على الإيمان وترك الشرك، وحيث لم يجبركم على ذلك وأبقاكم على الاختيار، فله أن يدعوكم إلى ترك الشرك والتحريم.

وبعبارة أخرىٰ: أنّ ما ذكره الله تعالى في جواب المشركين من أنّ «لله الحجة البالغة» أكبر دليل على عدم وجود الجبر في الأعمال؛ إذ لو شاء الله لأجبركم على الإيمان فهداكم أجمعين، ولكن لم يفعل ذلك بل جعلكم مختارين، فيجوز له دعوتكم إلى ما دعاكم. ومن هنا نعرف أنّ التفريع الثاني هو بيان العلة لهذه الحجة التي ذكرها الله تعالىٰ وبيّنها لهم.

فالله تبارك وتعالى قد أتم حجته على الخلق بالهداية وإراءة الطريق ليختار الإنسان ما يعيّن مصيره من الطريق الصحيح أو التمرد والطغيان، فهو يحرث لنفسه ثم يحصد ما حرث، قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ (سورة النجم: ٤١) فليس للإنسان إلّا مقتضى سعيه إن كان خيراً فيرى خيراً وإن كان شراً، فقد أمضاه لنفسه، قال الله تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (سورة الشورىٰ: ٢٠).

وبالجملة: فهذه الدعوة الإلٰهية لا يستقيم أمرها إلّا أن تكون باختيار الإنسان من دون أيّ اضطرار.

(١) وبعبارة أوضح: أنّه لا شك في أنّ الله تبارك وتعالى مالك لكل شيء بملكيته الذاتية، والمراد بالملكية الذاتية سلطانه تعالى على جميع الكائنات، فإنّ جميع الكائنات تحت قدرته وسلطانه، فلا يملك أحداً شيئاً من عند نفسه مستقلاً وبقدرته، فكل ما في الوجود لله الواحد القهّار قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الملك: ١)

وغيرهم مطيعون لله وهو عالم بأنّ مذهبهم كون الطاعة ليست فعلهم بل خلقها الله فيهم، فإن صدق في نسبته هذه إلى جمهور أهل مذهبه فهم متناقضون في نسبة فعل الطاعات في الخلق تارة إلى الله سبحانه وتارة إلى نفس الخلق[١].

➲ وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ (سورة المؤمنون: ٨٨) وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة يسٓ: ٨٣) قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (سورة هود: ١٢٣) وقال تعالى: ﴿بَل لِلّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ (سورة الرعد: ٣١).

فكل شيء بيد الله يفعل ما يريد متى شاء، فالإنسان وماله من المواهب والنِعَم كلها من الله وبيد الله تبارك وتعالى، والعبد وما في يده من النعم حتى إنسانيته وآثارها من علم وحياة وقدرة وتدبير كلها من الله وبيد الله تعالى وهو سخّر لعباده الأسباب الكونية للوصول إلى المقاصد التي يريدها العباد، فكل ذلك مملوكة لله محضاً أعطاها الله للإنسان وملّكه إياه.

ومن الواضح: أنّ بإعطائه تلك النِعَم لن تخرج عن مليكتة الذاتية وسلطانه الدائم، ولا ينقطع عنه ذلك بل أنّ النعم تتحقق بقدرته حدوثاً وبقاءً، فله فيعطي الإنسان ما شاء وله أن لا يعطيه وله أو يعطيه ثم يسلبه منه، وله أن يعطيه بعد أن لم يحدث له ذلك، فكل ذلك بيده وقدرته وسلطانه.

وخلاصة الكلام: أنّه ليس للإنسان استقلال فيما يمتلكه من النعم بل كل ذلك من الله عزوجل وإن كان من الأسباب الكونية التي جعلها الله تعالى في يد الانسان عارية فإنّ الأسباب الكونية والطبيعية قد جعلها الله تعالى سبباً فله أن يسلب منه السببية كما أنّ النار جعلها الله تعالىٰ سبباً لوجود الحرارة ولكن له أن يجعل النار بارداً بقدرته العظيمة كما جعلها في قصة ابراهيم عليه السلام لا شك أنّ أمر الله في هذه الواقعة كان أمراً تكوينياً مثل قوله تعالى: انّما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون (سورة يس: ٨٢) إذن لا استقلال للإنسان في أعماله بحيث يكون كل شيء مفوض له بل انّ النعم الظاهرة والباطنة من الله تعالى حدوثاً وبقاءً ولكن هذا لا ينافي اختيار العبد وحريته في أعماله كما تبيّن من خلال المباحث السابقة وعليه فما ذكره ابن تيمية باطل أيضاً ما نسبه إلى جمهور أهل السنّة باطل لا يتفوّه به المسلم. فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: أنّ الطاعة عبارة عن امتثال الأوامر والانتهاء عن النواهي، فطاعة الله هي

وثالثها: ما زعمه من كون الله سبحانه هو الذي يجعل العبد مصلّياً... (الى آخره) فإنّه تفسير منه لكتاب الله بنظره؛ لأنّه سبحانه قال في حق إبراهيم عليه السلام وإسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلاَةِ﴾[(١)]... وليس معنى الوحي الجعل والخلق، بل معناه طلب فعل الخير منهم وطلب إقام الصلاة[(٢)].

الامتثال والانقياد نحو أوامره ونواهيه. وعليه: فإنّ الأمر غير المأمور به؛ لأنّ الأمر فعل الله تعالى والمأمور به فعل العبد، فإذا قال الله تعالى: آمنوا، أو قال أسلموا، صلوا، صوموا، زكوا... فإنّ هذه الأوامر عبارة عن طلب الله سبحانه الفعل من عباده الذين توجّه إليهم الطلب والتكليف والخطاب ولا يجوز الترك ما أمر به الله عزوجل، فإتيان هذه الأعمال يعتبر طاعة من العبد، وكيف يمكن نسبته إلى الله عزوجل الذي أمر العبد بإتيانها.

ثم إنّ طاعة الفعل من العبد تعتبر خضوعاً من العبد، والخضوع فعل الخاضع فلا يعقل نسبته إلى المخضوع له، فإنّ الصلاة فعل المصلّي والصوم فعل الصائم وهكذا، فلا يعقل نسبة هذه الأفعال إلى الآمر بها، كما لا يصح ولا يجوز نسبة فعل المنهي عنه إلى الله؛ إذ لو كانت المعاصي مخلوقة لله سبحانه لما استحق العبد الذم على فعله، حيث لو كانت مخلوقة لله معناه أنها صادرة منه سبحانه بإرادته ولو كانت المعاصي صادرة منه تعالى بإرادته لكان العبد العاصي مطيعاً لله بعصيانه، حيث أنّه لم يرتكب إلّا ما أراده الله تعالى، وهذا معناه الطاعة، لأنّ الطاعة عبارة عن موافقة العبد لإرادة رب العالمين والتحريك بتحريكه كما يقال: هذا طوع إرادة بمعنى ارتباط إرادته ومطاوعته له.

وعليه: فما ذكره ابن تيمية من النسبة إلى جمهور أهل السنة مآله إمّا إلى أنّ الله تعالى فاعل أفعال العباد ومعناه: أنّ الله هو فاعل الشرور والفساد ـ والعياذ بالله ـ وأما إلى التناقض كما تبين من خلال المباحث السابقة وكلا الأمرين باطلين كما هو واضح ظاهر.

(١) سورة الأنبياء: ٧٣.

(٢) لا شك أنّ الوحي أمر واقعي مفاض من الله سبحانه على نبي من أنبيائه، يقول الله تبارك: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

➲ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ (سورة النجم: ١ ـ٥) فالوحي تعليم من الله تعالىٰ، سواء كان هذا التعليم بالتكلّم أو بالإلهام أو بالإشارة أو غير ذلك، فإنّ الوحي ارتباط مع عالم الغيب وذات الخالق المقدّسة.

وأجمل كلام في هذا المجال هو ما ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حين سألوه عن لفظ الوحي في كتاب الله عزوجل، فقسمه الإمام عليه السلام إلى سبعة أقسام؛ وهي: ١ـ وحي الرسالة والنبوة: مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنَا دَاوُود زَبُوراً﴾ (سورة النساء: ١٦٣).

٢ـ الوحي بمعنى الإلهام: مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ (سورة النحل: ٦٨).

٣ـ الوحي بمعنى الإشارة: مثل قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ (سورة مريم: ١١).

٤ـ الوحي بمعنى التقدير: مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ (سورة فصّلت: ١٢).

٥ـ الوحي بمعنى الأمر: مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ (سورة المائدة: ١١١).

٦ـ الوحي بمعنى الأكاذيب: مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (سورة الانعام: ١١٢).

٧ـ الوحي بمعنى الإخبار: مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٣) (اُنظر بحار الأنوار ج٩٠: ص١٦).

فالمستفاد من القرآن الكريم والسنة الشريفة أنّ الوحي له معانٍ عديدة، كما له أشكال مختلفة كما بيّنه الامام أمير المؤمنين عليه السلام في الحديث المتقدّم، فالوحي إمّا بالتكلم أو بالالهام أو بالإشارة، فقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ...﴾ (سورة الأنبياء: ٧٣) فهو طلب منه تعالى فعل الخير من الأنبياء عليهم السلام، ولا فرق بين اقسام الوحي من هذه الجهة حيث أنّ المهم في المقام هو الوصول اليهم والطلب منهم فعل الخيرات، وهذا لا ينافي فعل الأنبياء عليهم السلام اذا كانت عادتهم فعل الخيرات.

➲

وقال سبحانه عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَٱلزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً﴾(١)

والوصية ليست بمعنى الخلق، بل بمعنى طلب فعل الصلاة والزكاة(٢) وقال

⬅ والشاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ﴾ إضافة المصدر إلى معموله؛ وهي تفيد تحقّق الفعل في الخارج، فالغاية تدل على فعل الخير وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ وهي كانت محققة منهم والوحي والأمر بذلك تاكيد له.

ويؤيده قوله تعالى: «كانوا لنا عابدين» فإنّ ظاهر الآية الكريمة تدلّ على أنّ الأنبياء كانوا عابدين قبل الوحي.

ومن هنا يعرف أن الوحي في المقام لا يكون وحياً تشريعياً بل انّه وحي تاكيدي كما ذكره المفسّرون؛ إذ لو كان وحي التشريع كان المفروض أن يذكر في الآية الكريمة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ...﴾ ولكن التعبير جاء بصيغة المصدر الدال على تحقق الفعل منهم مؤيدين بالوحي الإلٰهي.

والحاصل: أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ...﴾ يدلّ على أن ما فعلوه من الخيرات إنّما كان لأهمية الأعمال المذكورة التي كانت مشروعة قبل نزول هذا الوحي، إما بالوحي الإلهامي أو بغير ذلك، فالله تبارك وتعالى قد أيد فعل أنبيائه وعباداتهم بالوحي ولا فرق بين أن يكون الوحي وحياً كلامياً، كما أنّ القرآن يكون كذلك أو وحيا إلهامياً أو غير ذلك من أقسام الوحي، فإنّه قد حصل للانبياء عليهم السلام، وأيّدهم الله تبارك وتعالى وأيّد أعمالهم وعباداتهم التي كانوا يفعلونها باختيارهم، ووصلوا الى مرحلة العبودية إثر تلك العبادات. فلاحظ.

(١) سورة مريم: ٣١.

(٢) فإنّ الوصية هاهنا بمعنى العهد الإلٰهي وهو الجعل والقرار باعتبار أنّ يتعهّد بها الموصي لموصىٰ له، ويلتزم أن يجعل شيئاً لغيره، فالوصية هي الالتزام بالشيء لغيره، فتشمل العهود الإلٰهية ومعناها في المقام التكاليف وسائر مجعولاته سبحانه وتعالى؛ فإنّ الصلاة أحد التكاليف الإلٰهية التي هي أظهر مظاهر عبادة الله، وقد اختصت من بين سائر العبادات بالاعتناء بشأنها حتى ورد في الأحاديث أنّها عمود الدين، وهي أوّل ما يحاسب العبد عليها، ⬅

➲ فإن قُبِلَت قُبِلَ ما سواها وإن رُدّت رُدّ ما سواها (أُنظر الكافي ج٣: ص٢٦٨ ح٤، والتهذيب ح٢: ص٢٣٩ ح١٥، ومن لا يحضره الفقيه ج١: ص١٣٤ ح٥، ووسائل الشيعه ج٤: ص١٠٨ ب ا من المواقيت ح٢).

فإقامة الصلاة هي رمز ارتباط الإنسان بالله تبارك وتعالى، ومن البديهي يجب أن يتحقّق هذا الارتباط في جميع الظروف والحالات، كما ورد أنّه لا تسقط الصلاة بحال (أُنظر الوسائل ج٢: ص٦٠٥ ب ١ من أبواب المستحاضة ح٥) وبذلك يحصل مصداق الوفاء بعهد الله، وكذلك المصداق البارز لحفظ ما أمر الله تعالى به.

فالإنسان يجدّد العهد بإقامة الصلاة، ويجدّد صلته بالله تبارك وتعالى ضمن الصلوات التي يصلّيها صباحاً ومساءً.

ولا يخفى أنّ الصلاة ليست مجرد ألفاظ وحركات لا روح فيها ولا معنى، بل هي حالة التوجّه والخضوع أمام الله تبارك وتعالى وتفضّله عن الغير، وهذه الحالة تظهر للمؤمن الحقيقي الذي يفوّض جميع اموره في حالة ارتباط مع الله، إلى الله عزوجل فيرىٰ نفسه ذرة أزاء الوجود المطلق وقطرة في محيط لا نهاية له، فإنّ لحظات الصلاة تعتبر درساً له في بناء ذاته وتربيتها ووسيلة لتهذيب نفسه وسمو روحه.

وكذلك إتيان الزكاة، فإنّ الزكاة عبادة وصلة شرعية شرّعها الله في أموال عباده الأغنياء مواساةً لإخوانهم الفقراء قضاءً لحق الأُخوة وعملاً بما يوجب الألفة والمحبة بين المسلمين، وكما أمر الله تعالىٰ من المعاونة والمعاضدة بينهم، فالزكاة هي الطهارة من الدنس والآثام وإن كان المراد من التزكية في الزكاة هي تزكية الأموال إلّا أنّ تزكية الأموال تكون سبباً لتزكية النفوس، ولذلك قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (سورة التوبة: ١٠٣) فالآية الكريمة تشير الى الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية المترتبة على الزكاة، حيث تقول: تطهّرهم وتزكّيهم بها، فهي تطهّرهم من الرذائل الأخلاقية. ومن حب الدنيا وحب المال والبخل وغير ذلك من المساوئ الأخلاقية وتزرع مكانها حب الإعطاء والسخاء ورعاية حقوق الآخرين في نفوسهم، وفوق كل ذلك فإنّ المفاسد الاجتماعية والانحطاط الأخلاقية والاجتماعية كثيراً ما يتولّد من الفقر والتفاوت الطبقي الذي يؤدي إلى وجود طبقة ➲

سبحانه في حق خاتم رسله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلاَةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱللَّيْلِ﴾ الى غير ذ[١]لك.

فلو كان سبحانه هو جاعل المصلّي مصلّياً فأيّ معنى لوصيته لعيسى عليه السلام بالصلاة والزكاة، ولطلبه من خير رسله صلى الله عليه وآله وسلم إقام الصلاة ومن سائر المؤمنين في آيات أُخر[٢]،

محرومة، وكل هذه الأُمور ستنقلع من المجتمع بتطبيق هذه الفريضة الإلٰهية وأدائها، وهي التي تطهّر المجتمع من التلوّث الذي يحيط به، وكذلك سيفعل التكافل الاجتماعي وينمو ويتطور الاقتصاد في ظل مثل هذه البرامج السماوية، وعلى هذا فإنّ الصلاة والزكاة عبادتان قد طلب الله من عيسى عليه السلام، وهو قد امتثل بهما. فلاحظ.

(١) سورة الإسراء: ٧٨ وقد أمر الله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة بإقامة الصلاة في أوقاتها الخاصة الثلاثة المذكورة فيها، كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلاَةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ ٱللَّيْلِ﴾ (سورة هود: ١١٤) وقال تعالى: ﴿حافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلاَةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٨) فإنّ من المعلوم أنّ هناك ثلاث أوقات للصلوات، فبعضها في الوسط وبعضها في الطرفين من الوسط، فلأهمية إتيان الصلاة في أول أوقاتها قد أشار القرآن الكريم إلى إتيانها في أوقاتها الخاصة خلال آيات متعددة وعبارات مختلفة، فأمر المسلمين بإتيانها في أوقاتها الثلاثة واعتبر الأوقات شرطاً من شرائط صحة الصلاة، ومن ذلك يعلم بأنّ الصلاة تجب مع جميع شرائطها، ولا بدّ للمسلمين من مراعاتها.

(٢) قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (سورة البقرة: ٣) وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْصَّلاَةَ وَآتُوا ٱلْزَّكَاةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلْرَّاكِعِينَ﴾ (سورة البقرة: ٤٣)وقال تعالى:
﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللهِ﴾ (سورة البقرة: ١١٠) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصارىٰ وَٱلصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاًفَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٧) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ (سورة

فهل يعقل طلب ما هو خلقه وفعله من غيره[١]؟!!!

وما معنى وحيه الى إبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب عليهم السلام إقام الصلاة وفعل الخير؟[٢]

النساء: ١٠٣) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ ٱللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ ٱلزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّآتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ (سورة المائدة: ١٢) وإلى غير ذلك من الآيات.

(١) فإنّ طلب الفعل من الغير مع فرض أنّ فاعل الفعل وخالقه هو نفس الطالب له فانّه غير معقول؛ لأن مرجعه إلى أنّ الطالب للفعل هو الفاعل فيكون جمع بين الطالب والقابل في مورد واحد، فلو كان الله سبحانه خالقاً لأفعال العباد، فطلب إتيان ذلك الفعل الذي خلقه هو بنفسه يكون طلباً للشيء الحاصل.

(٢) ونحن نذكر هنا معنى الوحي في اللغة والقرآن والسنة كي يعرف القارئ الكريم أن ما قصده ابن تيمية ليس له وجه علمي أبداً.

أمّا معنى الوحي لغةً: فقد قال الراغب في مفرداته: أنّ أصل الوحي يعني الإشارة السريعة سواء بالكلام الخافت، أو الصوت الخالي من التراكيب الكلامية أو الإشارة بالأعضاء (بالعين واليد والرأس) أو بالكتابة (أُنظر مفردات غريب القرآن للراغب: ص٥١٥) ولا يخفىٰ انّه قد أخذ منه أكثر اللغويين والمفسّرين.

ومن خلال ذلك نستفيد: أنّ الوحي يشتمل على السرعة من جانب والإشارة من جانب آخر، ولذلك تستخدم هذه الكلمة للارتباط الخاص السريع للأنبياء مع عالم الغيب وذات الخالق المقدسة، فلا يدلّ على معنى خلق الأعمال، ولو استفسرنا القرآن الكريم عن معنى الوحي لوجدنا فيه آيات استخدم فيها هذا اللفظ وأُريد منه معانٍ متعددة، نذكر بعض مواردها في المقام ليتبين حقيقة الوحي من القرآن الكريم، فمن تلك الموارد ما جاء بمعنى. وحي الرسالة والنبوة، مثل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنَا

فعلم مما بيّناه كون المقصود من آية: ﴿ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلاَةِ﴾[1] وآية: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[2] التثبيت على إقامتها وعلى الدين الحنيف لما هو معلوم من كون صدور هاتين الدعوتين من إبراهيم عليه السلام بعد نبوته وبعد فعله للصلاة، فدعا الله سبحانه تثبيته على ذلك[3].

داوُود زَبُوراً﴾ (سورة النساء: ١٦٣).

ومنها: ما جاء بمعنى الإلهام، مثل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ (سورة النحل: ٦٨).

ومنها: ما جاء بمعنى الإشارة، مثل: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ (سورة مريم: ١١).

ومنها: ما جاء بمعنى التقدير، مثل: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ (سورة فصّلت: ١٢).

٥ـ الوحي بمعنى الأمر: مثل: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ (سورة المائدة: ١١١).

ومنها: ما جاء بمعنى الأكاذيب، مثل: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (سورة الأنعام: ١١٢).

ومنها: ما جاء بمعنى الاخبار، مثل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٣).

وهذه المعاني جاءت في الرواية الواردة عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

(اُنظر بحار الأنوار ج١٨: ص٢٥٤).

ويمكن أن تكون لبعض هذه الأقسام فروعاً أخرىٰ تزيد عند استعمالها من استخدامات الوحي في الكتاب والسنّة، ولكن ليس فيها ما يدلّ على معنىٰ خلق الأعمال. وعلى سبيل المثال: أنّه قال التفليسي في كتابه (وجوه القرآن) أنّ للوحي عشر معان أو عشر أوجه، وبعضهم ذكر عدداً أكثر من هذا، ولكن لم نر من يذكر أنّ الوحي جاء بمعنى خلق الأعمال. فلاحظ.

(١) سورة إبراهيم: ٤٠.

(٢) سورة البقرة: ١٢٨.

(٣) وتوضيح المقام: أنّه لو أمعنا النظر في آيات القرآن الكريم وأدعية الانبياء فيه لوجدنا أنّ

➲ دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام من الأدعية الممتازة حيث قد جاءت بعد الآيات التي تتحدّث عن المؤمنين الصادقين الشاكرين وهي قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلالٌ * ٱللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (سورة إبراهيم: ٣١ ـ ٣٤) فهذه الآيات تتحدّث عن برامج العباد المخلصين لله عزوجل والنِعَم النازلة عليهم، ثم عقيب هذه الآيات ذكر تعالى أدعية إبراهيم عليه السلام ليكون تكملة لهذا البحث ونموذجاً حيّاً له، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِناً...﴾ (سورة إبراهيم: ٣٥) ـ إلى ان قال ـ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي...﴾ (سورة إبراهيم: ٤) فإنّه عليه السلام طلب من الله سبحانه أن يجعله مقيم الصلاة، فإذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام من أهل العبادة والصلاة والجهاد في سبيل، فما وجه هذا الدعاء؟ أليس يكون بالنسبة الى نفسه تحصيلاً للحاصل؟ اذ من الواضح أنّه عليه السلام كان ممن يقيم الصلاة، فلا شكّ أن الدعاء انّما لجهة تثبيت هذا الأمر له، كما أنّ دعائه عليه السلام بعد أن رفع قواعد البيت مع إسماعيل كان هكذا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ...﴾ (سورة البقرة: ١٢٦ ـ ١٢٧) فإنّ تضرع إبراهيم وإسماعيل إلى رب العالمين والطلب منه حين الاشتغال بإعادة بناء الكعبة جامعة ودقيقة، بحيث تشمل كل احتياجات الإنسان المادية والمعنوية وتفسح المجال عن عظمة هذين النبيين الكبيرين فقالا في دعائهما أولاً: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

من الواضح أنّ معنى المسلم هو التسليم المحض والخضوع التام أمام أمر الله ونهيه، ولا شك أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا مسلمين وخاضعين لأوامر الله تعالى ونهيه، فالمقصود هنا التثبيت على هذا الأمر لا حدوثه وإحداثه كما لا يخفى ذلك على أحد، وهذا المعنى في الطلب والدعاء يصدق على دعاء جميع الأنبياء، ولذلك جاء في شأن يوسف عليه السلام في القرآن ➲

فيجب على المسلم تفسير آيات الفرقان العظيم بما يطابق بعضها بعضا حسبما بيّنا ذلك هنا والسنّي قد فسّر بعض آياته بما يخالف بعضها على ما عرفت فإنّه جميعه حق والحق منزّه عن التناقض ومنافاة بعضه لبعض[١].

الكريم أنّه قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (سورة يوسف: ١٠١) فهل يعني بذلك أنّه لم يكن مسلماً ـ والعياذ بالله ـ فطلب من الله أن يجعله مسلماً؟!!! أو لم يكن صالحاً، فدعائه من أجل كونه صالحاً أو يجعله الله من الصالحين؟ من الواضح أنّه طلب هو التثبيت على هذا الأمر.

وخلاصة الكلام أنّ الآيتين تدلان على تثبيت الأمر من إقامة الصلاة والتسليم لأوامر الله تبارك وتعالى، أو لترفيع الدرجة في إقامة الصلاة والتسليم، فعلى أي حال فلا يناسب لما ذكره ابن تيمية. فلاحظ.

(١) لا شك أن القرآن الكريم كتاب الله الخالد ودستوره الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كتاب يخاطب الكلّ، وأنّ آياته متحدة المضمون يفسّر بعضها بعضاً، ولذلك يستطيع من أحاط بمعارفه ومعالمه تفسير آياته بعضها ببعض.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنّه قال: وإنّما نزل ليصدّق بعضه بعضاً (أنظر بحار الأنوار ج٩٠: ص١٢٧، وكنز العمّال ج١: ص٦١٩ ح٢٨٦١، وتفسير ابن كثير ج١: ص٣٥٥، والدرّ المنثور ج٢: ص٨ وغير ذلك).

وقال الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض (نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٣٣، وشرح ابن أبي الحديد ج٨: ص٢٨٧).

فتفسير القرآن بالقرآن من أسمى المناهج الصحيحة الكافلة لتبيين المقصود من الآيات القرآنية، وكيف لا يكون كذلك وقد قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة النحل: ٨٩) فإذا كان القرآن الكريم موضّحاً لكل شيء فهو موضّح لنفسه أيضاً، غير أنّ هذا النوع من التفسير لا يتمكّن به أحد إلّا من كان محيطاً بمعارف القرآن، ولا يمكن لأحد هذا الادّعاء إلّا من نزل القرآن في بيوتهم وهم: وهم أهل بيت الرسالة والنبوة وحصراً في النبي ﷺ وعترته الطاهرة عليهم السلام الذين هم أعدال القرآن. فمن الواضح أنّ تفسير القرآن بالقرآن إذا

ورابعها: ما ذكره من نطق الجلود وغيرها، فإنّه ليس له دخل بمقام البحث؛ فإنّ النطق والسمع والبصر والشم والذوق وغيرها من القوى التي هي في بني آدم وغيرهم قد خلقها الله سبحانه فيهم لِحكَمٍ، وليست هي مثل ما يصدر منهم من

➲ كان عن طريق أهل البيت المعصومين عليهم السلام يكون تفسيراً صحيحاً.

وعلى كل حال: فإنّ بعض علماء الاسلام ومفسّريهم قد استمدّوا بهذا النمط من التفسير، أي تفسير الآيات بالآيات وحيث أن بعض العلماء لم يستخرجوا الموضوعات التفسيرية مما جاء عن أهل بيت الوحي عليهم السلام فتفسيرهم لا يعني إلّا على القول بـ«حسبنا كتاب الله» وذلك كتفسير ابن كثير ومحمّد بن عبده من علماء أهل السنّة وأمّا جلّ علماء الشيعة الاثنى عشرية فقد سلكوا هذا النهج، والأكمل من هذه التفاسير في اتباع هذا المنهج هو تفسير العلّامة الطباطبائي الموسوم بـ«الميزان في تفسير القرآن» فإنّه بني على تفسير الآية بالآية.

ومن الواضح أنّ هذا النوع من التفسير في مقابل التفسير بالرأي الذي يشمله الحديث النبوي؛ وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار (سنن الترمذى ج٤: ص٢٦٨ ح٤٠٢٣).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: من فسّر القرآن برأيه فقد افترىٰ على الله الكذب (إكمال الدين: ص٢٥٧) إذ من الواضح أنّ التفسير بالرأي يصدق اذا فسّر القرآن بالآراء الشخصية والأفكار البشرية الواهية والنظريات والاتجاهات المخلوقة من تصوّرات الإنسان، فإنّ هذا النوع من التفسير خطر جداً، ويشمله قوله صلى الله عليه وآله وسلم: من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار (اُنظر عوالي اللآلي لابن أبي جمهور الأحسائي ج٤: ورواه أبو الليث السمرقندي في تفسيره ج١: ص٣٦، والفخر الرازي في تفسيره ج٧: ص١٩١ وغيرهم، فالذي يفسّر القرآن لابدّ له أن يأخذ التفسير من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو وصي النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن يتلوه في العلم والحكمة والمعرفة يعرف دقائق القرآن وحقائقه، ولذلك قال الله تعالى: وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نُزل اليهم (سورة النحل: ٤٤) اذن ما جاء في القرآن الكريم في باب أفعال العباد مطوية ضمن آيات عديدة وإنّما يفهم معنى ذلك من أحاط بمجموعها والخبير يعلم أنّ المستفاد من مجموعها هو الإعتقاد بالأمر بين الأمرين الذي بيّنه أئمة أهل البيت عليهم السلام، وسنوضّحه إن شاء الله تعالى في محله.

الفعال مثل: الصلاة والصيام والغيبة والنميمة والزنا وشرب المحرم وغيرها[١].

---

(١) وبعبارة أوضح: أنّه لا شك ولا شبهة في شهادة الأعضاء والقوىٰ يوم القيامة على صاحبها، كما نصّ القرآن الكريم على ذلك كقوله بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة يّس: ٦٥) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النور: ٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا ٱللهُ ٱلَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة فصلت: ٢١).

فظاهر هذه الآيات شهادة أعضاء الإنسان يوم القيامة من الأيدي والأرجل والسمع والبصر والجلود، وغيرها على المجرمين عن إدراك وشعور بما تحمله سابقاً أيام الحياة في الدنيا، وأنّ الله تبارك وتعالى هو الذي ينطق هذه الأعضاء للكشف عمّا كانت تحمله إلّا أنّ الكلام وقع في كيفية نطق تلك الأعضاء، فثمة تفسيرات واحتمالات عديدة:

الأول: إنّ الله سبحانه وتعالى يجعل في كل واحد من تلك الأعضاء القدرة على التكلم والشعور، وهي تقوم بنقل الحقيقة بصدق، وما هو العجب في ذلك؟ فمن جعل في قطعة من اللحم المسمّاة بـ «لسان» أو «مخ الإنسان» القدرة علىٰ النطق، أو القدرة على التفكّر يستطيع أن يجعل هذه القدرة في سائر أعضاء البدن أيضاً.

الثاني: إنّ تلك الأعضاء لا تعطي الإدراك والشعور ولكن الله سبحانه وتعالى ينطقها، وفي الحقيقة فإنّ تلك الأعضاء ستكون محّلاً لظهور الكلام، وانكشاف الحقائق بإذن الله تعالى.

الثالث: إنّ أعضاء البدن الإنساني تحتفظ بآثار الأعمال التي قامت بها في الدنيا، إذ أن أي عمل في هذه الدنيا لا يفنى، بل إن آثاره ستبقى على كل عضو من البدن وفي الفضاء المحيط بها، وفي ذلك اليوم الذي هو يوم الظهور ويوم الشاهد والشهود وتجلّي الحقائق. ستظهر هذه الآثار على اليد والقدم وسائر الأعضاء، وظهور تلك الآثار بمنزلة الشهادة والإخبار عما فعله صاحبه.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الشهادة والنطق بمعنى دلالة الحال على صدور المعصية منهم، وهذا مثلما نقول في المحاورات: عينك تشهد على سهرك، أو الجدران تبكي على صاحب البيت وغير ذلك. وعلى كل حال: فإنّ من المسلّمات شهادة الأعضاء في يوم القيامة، ولكن يا ترىٰ هل أنها ←

نعم أصل تلك القوى مخلوقة فيهم لله سبحانه لكن صرفها فيما يحلّ ويحرم منبعث عن مشيئتهم وعن اختيارهم، ومن هذه الجهة فرض عليهم صرف قوة النطق في تعليم المفروضات والنهي عن المناكير، ومثلها قوة السمع والبصر وغيرها وحرّم عليهم صرفها في المحرّمات مثل: الغيبة والنظر الى المحرّم، وذوق طعام الغير بغير رخصة منه، الى غير ذلك[1].

مثل تكلّم اللسان أي يصدر منها أصواتاً تفيد الشهادة، أو تشهد على لسان الحال بأنّ كل عضو يكشف عن فعله فحسب، أو يكشف عن كل الأعمال؟

لا شك أنّ الاحتمال الأول هو الأنسب بدليل قوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة فصّلت:٢١) وذلك في جواب سؤال المجرمين الذين يعترضون على أعضائهم ويقولون: لِمَ شهد ثم علينا؟

وأيضاً أنّ النطق لا يكون مجرد الأصوات بل عين التكلّم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ...﴾ (سورة يٓس:٦٥) وعليه: فإنّ التكلّم والنطق مما لا ريب فيه، ولكن هل هو ذلك مثل الأفعال الصادرة من الإنسان أو إنّها أمر غير عادي وليست من نوع أفعال البشر؟ هذا أمر لابدّ من إثباته بالدليل. فلاحظ.

(١) وخلاصة الكلام: أنّ القوىٰ الحسّية كالسمع والبصر وغيرها من الحواس ومن القوىٰ النفسية الطبيعية التي تكون في مقابل القوىٰ الجسدية خاضعة لنظام التكوين القائم علىٰ أساس سلسلة الأسباب والمسبّبات وارتباط كل ظاهرة من الظواهر الكونية بعلة وسبب، فإنّ قوة الباصرة ـ مثلاً ـ قوة طبيعية لرؤية الأجسام عن طريق العين فالعين، تكون من القوى الجسمية وتكون في اختيار الإنسان أما القدرة على البصر هي من القوىٰ الحسّية التي تكون مربوطة بالطبيعة ونظام التكوين، فالإنسان يستطيع أن يدرك بالقوىٰ الحسّية ظواهر الملائمة بطبيعته لتلك الحاسة، فيستطيع أن يدرك الذوق في المذوقات والسمع في المسموعات والشم في مشمومات والنظر في المبصرات، فكل حاسّة من الحواس تدرك نوعاً من الظواهر المادية الملائمة لطبيعتها لتلك الحاسة مع وجود المقتضي لها وفقد المانع عنها. فلا تكون هذه القوىٰ في اختيار الإنسان.

فالبحث في المقام: في الفعال التي هي تصدر عن العباد باختيارهم ومشيئتهم لمّا نبّهنا عليه من التفضيل، فخالق النطق هو الله ومستعمله فيما يحلّ وفيما يحرم هم العباد، فثبت خروجه عن محل البحث[١].

➲ أمّا القوىٰ الجسدية وهي التي تكون موجودة في العضلات والجسم، فهي صالحة للفعل والترك، أي أنّها مما تكون باختيار الإنسان فله أن يفعله وله أن يتركه، فالإنسان قادر على فعله وتركه. ومن الواضح أنّ حس الجلود والسمع والبصر وغير ذلك التي هي من القوىٰ الحسّية لا تكون من قبيل القوى الجسمية حتى يلاحظ فيه اختيار الإنسان وعدم اختياره، فما ذكره ابن تيمية خلط بين القوتين. فلاحظ.

(١) وبعبارة أُخرىٰ: إنّ النطق الذي هو من الكيفيات المسموعة ومن القوىٰ النفسية التي خصّها تبارك وتعالى للإنسان، فقال تعالى: ﴿**ٱلرَّحْمَٰنُ«١» عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ«٢» خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ«٣» عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ**﴾ (سورة الرحمٰن:١ـ٣) فإنّ البيان وإن كان له معنى لغوي واسع، حيث يطلق لكل شيء يوضّح ويبيّن شيئاً ولا يختص بالنطق، بل وحتى يشمل الكتابة والخط وأنواع الاستدلالات العقلية والمنطقية إلّا أنّ النطق أحد مصاديق هذا المعنى الواسع المستفاد من الآية الكريمة، فإنّ الله تبارك وتعالى قد أودعه في الإنسان ليَمنَّ عليه الكفاءة والخصائص الفطرية اللازمة للبيان والكلام.

والظريف هنا في الآية المباركة أنّ تعليم البيان لم يعطف على خلق الانسان، ولعله إشارة إلى أن تعليم البيان كان في نفس الوقت الذي خلق الإنسان فيها. ومعناه أنّ تعليم البيان كان من أوّل خلقة الإنسان جنباً بجنب أي أنّ الإنسان خلق مع نعمة النطق وعلى أي حال: فإنّ النطق من النعم الإلٰهية التي خلقها الله تبارك وتعالى في نفس الإنسان وجعلها أمراً طبيعياً له، كضربان القلب والنبض فكما أنّ ضربان القلب والنبض لهما سير طبيعي قهري كذلك قوة النطق فانّها أمر طبيعي قهري لا خيار للإنسان فيه.

ثم جعل تبارك وتعالى اللسان وسيلة لتفعيل هذه القوة، كما يجعل يوم القيامة الأيدي والأرجل والجلود وسيلة لتفعيل الشهادة على صاحبه. فالمهم أنّ أصل هذه القوة ـ أي النطق ـ أمر غير اختياري، ولكن الوسيلة التي جعلها الله تبارك وتعالى لها أمر جسماني وهو اللسان الذي ➲

وخامسها: ما زعمه من قوله وذهب جمهور أهل العلم الى أنّه إنّما أمر عباده... الى آخره، فإنّه من غريب فريتهم من حيث زعمهم أنّ الله سبحانه هو خالق الكفر في العباد، فأيّ معنى حينئذٍ لقول جمهورهم بأنّه إنّما أمر عباده، فإنّ الله سبحانه لا يأمر بالمحال؛ لعدم قدرة لمن خلق فيهم الكفر على إطاعة أمره بأن يوحّدوه(١).

يكون جميع حركاته وسكناته في اختيار الإنسان، وأما النطق في يوم القيامة إنّما يكون أمره بيد الله تبارك وتعالى، ولذلك نقرأ في القرآن الكريم في سورة فصلت هذه الآية المباركة عندما يسأل المجرمون عن أعضائهم، في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (سورة فصّلت: ٢١) ومعناه أنّ الله تبارك وتعالى كما خلق كل شيء في أول مرة فإنّه ينطقهم يوم القيامة مرة أُخرىٰ.

وبعبارة أُخرىٰ: كما أنّ الله تبارك وتعالى خلق الإنسان بيد قدرته وعظمته كذلك ينطقهم يوم القيامة فهم تحت قدرته وسلطانه مع قطع النظر عن حقيقة النطق وكيفيته يوم القيامة، اذ أنّ النطق إمّا أن يكون من المصاديق، القوىٰ الجسمانية المادية كالرؤية والنظر والسمع والبصر بوسائلهم المادية، وإمّا يكون الاستعمال بالمعنى الأعم أي سواء كان هناك نطقاً حقيقياً أو شاهد حال النطق والدال عليه، فعلىٰ أي تقدير: فإنّ أمره بيد الله تبارك وتعالى وليس بيد الإنسان.

(١) لا يخفىٰ على الخبير أنّ ما ذهب اليه الأشاعرة من أنّ الله تعالى هو الفاعل لأفعال العباد، وليس للعباد في ذلك اختيار وقدرة أصلاً، فقد وقع مورد النزاع بينهم، وبعد قبول الإشكال من علمائهم المتأخرين قاموا بتعديل هذه النظرية وتوجيه مسلك الجبر، فذهبوا إلى أنّ العباد لهم قدرة واختيار على أفعالهم، ولكن لا يكون لقدرتهم واختيارهم مدخل وتأثير في العمل، وإنّما الموجد لها هو الله تعالى، فالعبد كاسب بمعنى أنّه محل لتلك الأفعال التي أوجدها الله سبحانه وتعالى فيهم، والبيان الذي ذكروه في المقام يرجع إلى أنّ العبد إذا توجّهت قدرته إلى الفعل سبقت قدرة الله تعالى اليه وأوجدها قبل أن يحققّها العبد.

بل ومن غريب تناقضهم، فإنّ تصديقهم بأنّه سبحانه أمر عباده بما يصلحهم به مناقض لزعمهم أنّه هو الذي خلق فيهم الكفر الذى ليس شيء في الفساد يقربه؛ لكونه سبب الخلود في جهنم، والمتناقضان لن يجتمعا البتة(١).

أقول: لا يخفى على الخبير عدم معقولية هذا التوجيه إذ هذا التوجيه أشبه شبه بالخروج من الحفرة والوقوع في البئر ففي الواقع القول به أشد من نظرية الجبر التي ذهب بها الأشاعرة، لأنّ نظرية الجبر على ما فيها من الإشكال يمكن تعقلّه وإن كان باطلاً غير مقبول عند العلماء، ولكن نظرية الكسب ليس فيها ضابطة علمية كي تكون قابلة للتعقّل، ومع قطع النظر عن الإشكالات الواردة على القولين، فإنّه لا يمكن للطرفين القول بأنّه تبارك وتعالى يريد المصلحة من الخلق لأنّهم لو قالوا بأنّ الله تعالى خالق كل شيء معناه: أنّه خالق للكفر، وإذا كان الله خالقاً للكفر فمعناه: أنّ خلقه لم يكن فيه مصلحة.

فالقول بأنّ أفعاله مبنياً على المصلحة أمر باطل، إذ ليس في خلق الكفر مصلحة، وكذلك لو قالوا بأنّ الله تعالى خالق للكفر، ولكن الإنسان محل لذلك، أي أنّ الإنسان له اختيار ولكن الله هو الخالق، وهذا جمع بين المتناقضين لأنّ كلا من الطرفين متفقان على أنّ الله هو خالق لأفعال العباد، سواء كان للعبد اختيار وقدرة في العمل أم لا؟

وإذا كان كذلك بناءً على زعمهم: أنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد معناه: أنّه أراد تحقّق الفعل، فإذا اراد تحقّق الفعل معناه أراد تحقّق الكفر والعصيان حيث أنّ الكفر والشرور من أفعال الإنسان فمرجع هذا القول إلى مالا يقبله العاقل، فمثلاً: إنّ الله تعالى أمر إبليس بالسجود ولكن لم يُرده لعدم تحقّق السجود من إبليس، ونهى آدم عليه السلام عن الأكل من الشجرة ولكن أراده لأن آدم عليه السلام أكل من الشجرة.

وهل يعقل هذه المقالة؟!!!

فمن الواضح لدى الخبير أنّ المصلحة تكون في الأوامر والنواهي وبناءً على زعم القوم أن فاعل الأفعال من الشرور وغيرها هو الله فكيف يمكن الجمع بين المصلحة وفعل الشر فلاحظ.

(٢) وبعبارة أوضح: أنّه إذا أمر الله تعالى بشيء معناه أنّه أراده إذ لو لم يُرده لم يطلبه، فإذا أراده أمر به، وإذا أمر بشيء لابدّ وأن يكون في ذلك الشيء مصلحة، وإذا نهى عن شيء لابدّ أن يكون

ومثله القول فيما زعموه بعبارة «ونهاهم عما فيه فسادهم» لعدم قدرتهم على تغيير ما خلقه سبحانه فيهم من الكفر والشرور، فنهيه لهم نهي عن شيء غير مقدور لهم تركه، ونهيه عن ذلك مناقض لخلقه ما فيه فسادهم بزعم من تسمىٰ بأهل السنّة[1].

➲ فيه مفسدة.

وبعد توجه الأمر إلى العبد وعصبانه بالنسبة إلى أمر رب العالمين يكون عصيان العبد بناءً زعم القوم متعلق لإرادة الله سبحانه لأنّ القوم يقولون: انّ العبد لا اختيار له في حركاته وسكناته ولازم هذا القول هو الالتزام بأنّ عصيان العبد يكون بارادة الله عزوجل حيث أنّهم يقولون: أن العبد كالميت في يد الغسال لا ارادة له ولا اختيار فبناءً على هذا الزعم أنّ الإرادة الإلٰهية المتعلقة بالأُمور الشرعية تتبدل بعصيان العبد؛ لأنّ عصيان العبد لم يكن باختياره وإنّما هو بقدرة الله وارادته فعصيان العبد يكون بارادة الله كما أن طاعة العبد يكون كذلك.

وبناءً على هذا الزعم كلّما تغير العبد من الطاعة والعصيان يتغير ارادة الله بارادة العبد.

أقول: أولاً لابد أن يكون الأوامر الإلٰهية فيه المصلحة فإذا تعلّق ارادته تعالى بأمر لابدّ وأن تكون فيه المصلحة وإذا كانت المصلحة في فعل الشيء كيف يمكن أن تكون المصلحة في عصيانه؟!!!! كيف يصح وجود المصلحة في الترك، وهل يعقل أن يريد سبحانه الفعل الذي فيه مصلحة وفي نفس الوقت يريد تركه ويكون تركه أيضاً فيه مصلحة؟ وهل تصح نسبة هذا التناقض الى الباري عزوجل؟ وهل يمكن أن يتفوه عاقل بهذه المقالة البائسة وينسبه إلى الحكيم على الإطلاق؟!!!

(١) وبعبارة أوضح: إنّ الله تبارك وتعالى إذا أمر بشيء معناه: أنّه أراد ذلك الشيء من العبد، إذ لو يُرده لم يطلبه من عبده، فطلبه دليل على إرادته. ومن هنا يعرف أنّ ذلك الشيء الذي طلبه الله من عبده فيه المصلحة؛ لأنّ الحكيم على الإطلاق إنّما يكون فعله فيه مصلحة، فأمره سبحانه يقتضي أن يكون ذلك الفعل الذي تعلق به إرادة الله فيه مصلحة للعبد؛ وكذلك إذا نهىٰ عن شيء فإنّ نهيه تعالى عن ذلك الشيء دليل على أنّ ذلك الشيء مبغوض عنده لوجود المفسدة فيه، ولذلك يطلب تركه من عباده، فإذا تمّ هذا الأمر نأتي إلى كلام القوم فانّهم يقولون: أنّ ➲

وسادسها: ما زعمه من وجود الضرر لبعض الناس بإرسال الرسل، فأنّه من عجائبه، من حيث مناقضته لمبنى جمهور أهل مذهبه؛ لما عرفته من ذهابهم الى خلق الله سبحانه المعاصي في العباد، فأيّ مدخلية للرسل في معصيتهم؟ وهل يعقل تأثير دعوة الرسل بمن خلق الله سبحانه فيهم الشر من الكفر وغيره(١).

العبد ليس له قدرة واختيار في أفعاله، وأنّ ما يفعله مخلوق لله تبارك وتعالى وعليه إن كان فعل العبد معصية يكون بإرادة الله عزوجل، وإذا كان الأمر كذلك فمعناه: أنّ الله تعالى هو فاعل لمعصية وإذا كان الأمر كذلك فالنهي عن المعصية التي يخلقها الله تعالى غير معقول، إذ كيف يمكن النهي عن شيء يكون فاعله نفس الناهي؟!!!!

وبعبارة أوضح: أنّ الله تعالى لا يفعل فعلاً إلّا أن يكون بدون إرادته، والإرادة إنّما تتحقّق إذا كان الشيء محبوباً عنده وأيضاً لا ينهىٰ عن شيء إلّا إذا كان ذلك الشيء مبغوضاً عنده، وفي المقام حيث انّه تعالى ينهىٰ عن المعصية فهو مبغوض عنده وحيث أنه تعالى خالق لأفعال العباد بناءً على زعم القوم فمعناه أنّه أراد ذلك الفعل حيث لا يصدر منه فعلاً إلّا بارادته والنتيجة انّه بناءً على زعم القوم قد اجتمع المبغوضية والمحبوبية في شيء واحد وهو محال وهو اجتماع بين المتناقضين فلاحظ.

(١) لا شك أنّ بعثة الأنبياء والرسل كانت لغرض إنقاذ البشرية من الظلمات إلى النور ودعوتهم إلى الحق والعدالة. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (سورة الحديد: ٢٥) وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥) فضرورة بعثة الأنبياء واضحة لمن له أدنىٰ تأمّل في القرآن الكريم، حيث أنّ آياته بيّنت أنّ حقيقة الهداية هي ليست إلاّ الدلالة إلى عزوجل والإرشاد له، كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (سورة الليل: ١٢) ويقول أيضاً: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ «٢١» لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (سورة الغاشية: ٢١) فالهداية هي الهداية على نحو الدلالة والإرشاد وهي التي عبّر عنها القرآن الكريم بالخروج من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ

➲ أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٧) وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة المائدة: ١٦) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ ٱللهِ﴾ (سورة إبراهيم: ٥) وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (سورة الأحزاب: ٤٣) وإلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنّ الله تعالى هو الذي يرشد الناس إلى الحق والصراط المستقيم بواسطة انبيائه وهم الذين يخرجون الناس من الظلمات إلى نور فهذه الهداية هي الهداية الإرشادية التي تتحقّق بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الأوصياء للأنبياء وتنصيب الأئمّة المعصومين في كل عصر وزمان لهداية الناس وإرشادهم إلى الحق ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (سورة الرعد: ٧) فالإنذار هو الإبلاغ وإتمام الحجة على الناس، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلاَغُ﴾ (سورة المائدة: ١٠٦) وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلاَغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (سورة النحل: ٣٥) قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلاَغُ﴾ (سورة يس: ١٧) ومعنى ذلك: أنّ تكليف الأنبياء والرسل هو دعوة الناس إلى دين الحق بالبيّنات والدلائل الواضحة وتشمل المعجزات والدلائل العقلية فالهدف من بعثة الأنبياء ونصب الأوصياء ووجود المعصوم في كل عصر وزمان هو إرشاد الناس إلى الإيمان والوصول إلى السعادة والكمال وقد بيّن لنا القرآن الكريم معنى كمال الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦) فالكمال يحصل بالعبودية، لأنّ العبادة منهج لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة، والعبادة بمعناها الشمولي هي التسليم لأمر الله عزوجل وهي تهب للإنسان روح التكامل والوصول إلى هذا التكامل طريقه العبودية وهي باختيار الإنسان فلا معنى للقول بأنّ التكامل يحصل بالاجبار وأصولاً أنّ التكامل ليس أمراً يمكن خلقه بالإجبار حيث أنّ التكامل من الاُمور التي يتحقّق بالإرادة والاختيار، فمثلاً لو أخذ الإنسان مال الغير عدواناً وبنىٰ به مكاناً لخدمة الناس كالمستشفىٰ فهل لهذا العمل أثر تكاملي روحي وأخلاقي في نفسه؟

قطعاً لا يكون كذلك، لأنّ التكامل انّما يحصل إذا كان العمل بالميل والرغبة والإرادة فعند ذلك ➲

وسابعها: ما زعمه من كون بعث الرسل مصلحة عامّة؛ فإنّه مناقض لمبنى جمهور من قال بإمامة الثلاثة، من حيث زعمهم أنّ الله سبحانه هو خالق الخير في العباد فإرسالهم الى من خلق فيه الخير عبث، لعدم الفائدة في دعوتهم الى الخير من حيث وجوده فيهم بخلق الله، بل محال، فإنّ دعوتهم هذه الفرقة من الخلق الى الخير تحصيل للحاصل وهو محال، وبعثهم الى من خلق الله فيه الشر من العباد عبث؛ لعدم الفائدة فيه بل محال لعدم قدرة الرسل على تغيير ما خلقه من الشر فيهم وعدم قدرة العباد على ذلك، فعلى مبنى جمهور من تسمى بأهل السنّة، بعث الرسل

➲ يحصل التكامل وهذا هو الهدف من خلق الإنسان إذن، إنّ الحكمة الإلٰهية اقتضت أن يتوفّر للإنسان أسباب السعادته وهذه السعادة إنّما تحصل عن طريق الأنبياء وأوصيائهم وإرشاداتهم، كما ورد في الحديث الذي جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (سورة الرعد: ٧).

فقد أخرج السيوطي بسنده عن ابن جرير وابن مردويه وأبي نعيم في المعرفة والديلمي وابن عساكر وابن النجار، قال: ﴿لما نزلت انّما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: أنا المنذر وأومأ بيده إلى منكب علي رضي الله عنه فقال: أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي (الدر المنثور ج ٤: ص٤٥).

وأيضاً أخرج عن ابن مردويه، عن أبي برزة الأسلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّما أنت منذر، ووضع يده على صدر نفسه ثم وضعها على صدر علي وهو يقول: لكل قوم هاد (الدر المنثور ج ٤: ص٤٥).

وأخرج أيضاً بسنده عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: المنذر والهادي أنا وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه (الدر المنثور ج ٤: ص٤٥).

وهناك روايات كثيرة نقلها السيوطي وغيره تدلّ علىٰ أنّ حقيقة الكمال تحصل بإرشاد النبي ﷺ وأوصيائه المعصومين عليهم السلام ومن هنا يعرف ضرورة وجود الإمام المعصوم بعد وفاة النبي ﷺ لأنّ الهدف الأساسي من خلقة الإنسان الوصول إلى التكامل والتكامل يحصل بالعبودية والعبودية تحصل بإرشادات المعصومين عليهم السلام فلاحظ.

إلى الخلق عبث بل محال من حيث طلبهم من العباد للمحال على ما بيّناه[١].

وثامنها: ما نقله من خبر الصحيحين[٢]؛ فإنّه حجة بيّنة على أهل مذهبه، كيف يتصوّر سبق رحمته سبحانه غضبه على زعمهم أنّه خلق الكفر في غالب عباده وهو يعاقبهم عليه، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ

---

(١) وخلاصة الكلام: أنّ أهل السنّة والجماعة لم يعتنوا بهدف إرسال الرسل وإنزال الكتب ولزوم وجود المعصوم في كل عصر وزمان بل على حسب زعمهم واعتقادهم قسّموا الناس إلى قسمين قسم منهم أهل الجنة والفوز وقسم منهم أهل النار فعلى حسب زعمهم أهل الجنة بالاجبار يدخلون الجنة وأهل النار بالاجبار يدخلون النار ولا علاقة بين أعمال الإنسان ودخوله في أي منهما.

وتوضيح المقام أنّ القسم الأوّل هم أهل الفوز والنجاة يوم القيامة؛ لأنّه بناءً على زعمهم أنّ السعيد سعيد في بطن أُمه، فإنّ الله تعالى قد جعل السعيد سعيداً، فسعادة الإنسان يدور مدار خلقه، فكما يجعله الله أبيضاً أو أسوداً يجعله سعيداً، فلا ارتباط بين سعادته وأعماله وسلوكه الشخصية، فهو أهل الخير والصلاح وفي زمرة أهل الجنة فعلى هذا الإدّعاء لا حاجة لهم الى دعوة الأنبياء والرسل؛ لأنّ دعوة الأنبياء إنّما هي لتحصيل السعادة والسعادة حاصلة لهؤلاء من الناس، فتكون دعوة الأنبياء لهم تحصيلاً للحاصل.

وأمّا القسم الثاني: فهم أهل الشر وأهل الشقاء ومعناه: على حدّ زعمهم أنّ الله تعالى قد خلق لهم الأعمال الشريرة وجعلهم في زمرة أهل الشقاء، ومن الواضح أنّ من يكون أهل الشقاء فهو في النار سواء أنذره المرسلون أم لم ينذروه. وعليه: أيضاً لا حاجة له إلى بعث الأنبياء؛ إذ لا تأثير لبعث الأنبياء بالنسبة إليه. فلاحظ.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه بسنده، عن أبي هريرة، عن النبيﷺ، قال: إنّ الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه أنّ رحمتي سبقت غضبي (صحيح البخاري ج٨: ص١٧٦ كتاب التوحيد، باب بعد باب كان عرشه على الماء).

وأخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة: أنّ النبي ﷺ قال: لمّا خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إنّ رحمتي تغلب غضبي (صحيح مسلم ج٨: ص٩٥ كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى).

بِمُؤْمِنِينَ﴾[١] فغالبهم غير مؤمن، فلو فرض خلقه الكفر فيهم لصار غضبه سابقاً رحمته لقلة من خلقه مرحوماً وكثرة من خلقه مغضوباً عليه.

فالخبر دليل بيّن على مذهب الحق، فإنّه سبحانه خلق الخلق بقدرته وبعث اليهم رسله بآياته يدعونهم الى معرفته وطاعته وهذه منه رحمة عظيمة يفوز برضاه ونعماه من قبلها وعمل عليها ومن لم يقبلها استحق غضبه، فالرحمة منه سابقة على

---

(١) سورة يوسف: ١٠٣، هذه الآية المباركة تبيّن حقيقة أكثر الناس فتقول: يا أيها النبي، إنّ أكثر الناس لا يؤمنون ولو حرصت على إيمانهم وتصديقهم واجتهدت في دعائهم إليه، فإنّ الحرص هنا بمعنى شوق النبي ﷺ ولهفه لدخول الناس في الإيمان ليكتسب الإنسان الخير ويعمل في ظله عملاً صالحاً ولكن أكثر الناس كانوا يصرون على العناد ولا يؤمنون رغم ما كانوا يشاهدون من علائم الوحي والنصائح الإلٰهية.

فالآية تبيّن هذه الحقيقة للرسول الأعظم ﷺ وتقول: يا أيّها الرسول، ولو أحببت إيمانهم وحرصت على ذلك، ولكن أكثر الناس شأنهم هذا أن لا يؤمنوا لإنكبابهم على الدنيا وانجذاب نفوسهم إلى زينتها، فإنّك لو حرصت على إيمانهم لا يغني حرصك شيئاً؛ إذ المدعو لا يجيبك أي، ليس قصور في دعوتك، وإنّما تمام التقصير والقصور في المدعو الذي ليس فيه شأنية القبول، إذ من شروط تحصيل الإيمان وجود الإستعداد في الإنسان لقبول الحق، وحيث لا يفعّل الإنسان هذه القوة المودّعة من الله عزوجل في نفسه فلا تحصل له السعادة والفوز نحو الكمال، فإنّ أبناء يعقوب كانوا يعيشون في بيت الوحي والنبوة، ومع ذلك نرىٰ كيف عصف بهم الأهواء حتى كادوا أن يقتلوا أخاهم بني من أنبياء الله. فكيف نتوقّع من جميع الناس أن يتغلّبوا على أهوائهم وشهواتهم مرة واحدة بشكل جماعي ويؤمنوا بالله عزوجل.

نعم إن ركيزة السوء في الإنسان واغتراره بنفسه وتجاهله لمساوئه ومغالطته لنفسه صار سبباً لعدم إيمانه وإلّا فإنّ شأنه أن يؤمن بالله رأساً، ولذلك كان النبي ﷺ يبين حقيقة الإيمان وما فيه من المنافع والكمال للإنسان فمع أنّ النبي ﷺ كان حريصاً على ايمان الناس فان أكثر الناس لم يؤمنوا به، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يوسف: ١٠٣).

غضبه وهو المبتدي بها على عباده[١] وغضبه إنّما يصدر عليهم من حيث ردّهم

---

(١) وخلاصة الكلام: أنّ رحمته تعالى العامة الشاملة لجميع الخلوقات تناسب ذاته المقدسة، أي لا نهاية لها ولا غاية لها، فإنّها شاملة لجميع خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٦) أي وسعت كل شيء من الإنسان وغيره، والإنسان أعم من المؤمن والكافر والمكلّف وغيره، فإنّ رحمته واسعة وشاملة لجميع الأشياء والمخلوقات في كل الحالات والأزمنة والأمكنة، فلا ينقطع أبداً.

نعم إنّ رحمته لا تكون جزافاً وعن عجز وجهالة، بل إنّها عن حكمة، قال الله تعالى لموسى بن عمران فيما أوحى اليه: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٦) أي أنّ أبواب الرحمة العامة الإلٰهية مفتوحة للجميع على نسبة واحدة؛ وهي تنال جميع المخلوقات براً كان أو فاجراً، صالحاً كان أو طالحاً، فإنّ شموليتها غير مفيدة وغير مشروطة، كما أنّ الأمر بالنسبة إلى المواهب الإلٰهية في الأُمور المعنوية أيضاً يكون كذلك، فلا تختص بقوم دون الآخر.

فإنّه تعالى قد بيّن طرق الهداية والسعادة والكمال لكل الأجيال والأمم والناس أجمعين، فلم يبق أحد من البشر إلّا وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم بواسطة أنبيائه ورسله وارشاداته فأرسل اليهم الرسل وأنزل اليهم الكتب والتعاليم السماوية، وأنذرهم عن المهلكات والطرق الملتوية وغير ذلك، ثم إنّ الآية الكريمة أشارت إلى الرحمة الخاصة وهي الرحمة التي جعلها الله للمؤمنين خاصة، فقال عزّ اسمه: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ والتقوىٰ إشارة إلى اجتناب كل معصية وإثم، فهذه الرحمة خاصة بالمتّقين، وقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي أجعلها للذين يتقون.

وهذا دليل على أنّ الرحمة الرحيمة وهي الرحمة الخاصة كما قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة البقرة: ١٠٥) وهذه الرحمة خاصة بالمؤمنين حقاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً﴾ (سورة النساء: ٦٩) وقال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٦) وقال تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ (سورة النحل: ١٩) وقال تعالى: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً

لرحمته ومشاقتهم له، فهم السبب التام لصدور غضبه عليهم بعد شمول رحمته لهم وعدم قبولهم لها[١].

وَعِلْماً﴾ الى قوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٥) فليس المراد بالرحمة في هذه الآيات هي الرحمة العامة الواسعة لكل شيء، بل هي الرحمة الخاصة بالمؤمنين والصالحين، وما فوقهم من الصديقين والشهداء والأنبياء فالرحمة الألٰهية، إنّما تنال لمن يستحقّها، فليست هي جزافية. فلاحظ.

(١) فإنّ الرحمة الإلٰهية عامة شاملة لجميع العباد صالحهم وطالحهم، حيث أنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب ووضع الشرائع ونصب الأوصياء، كلّها من أجل أنقاذ العباد من الهلكات والعقبات والأهوال والمتاهات المظلمة وارشادهم إلىٰ طريق الحق والنهج الصواب وما فيه صلاح معاشهم وتزكيتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتركيز الحق في نفوسهم، وهذا معنى الرحمة الإلٰهية الشاملة لجميع الناس، فإنّ الرسالة السماوية وهي ما يعبّر عنها بالرسول الظاهري تضمن سعادة الإنسان برعاية العقل والفطرة الذي يعبّر عنه بالرسول الباطني قد تهجت للعباد الطريق الأمثل وإيجاد الأرضية للفوز بالسعادة الأبدية والوصول إلىٰ الدرجة العليا من مقامات الإنسانية.

فمن اهتدىٰ بهداية الله سبحانه فتشمله الرحمة الواسعة الربّانية، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾ (سورة فاطر: ٢) فإنّ جميع خزائن الرحمة الإلٰهية مفتوحة لجميع الناس فمن شاء فليدخلها بسلام آمنين فلا يستطيع أحد، أن يغلق باب هذه الرحمة الواسعة، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

إذن، إنّ الرحمة الإلٰهية شاملة لجميع العباد، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (سورة يونس: ١٠٨) وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْآنَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (سورة النحل: ٩٢).

قد بيّن تبارك وتعالى في هذه الآيات وغيرها حقيقة شمول رحمته الواسعة لجميع الناس التي لا استثناء فيها، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة: ١٠٥) فمن ضل

وتاسعها: ما زعمه من أنّ الشيعي لم يذكر سوى الحكاية؛ فإنّه من عجيب تدليسه الذي دَلّ على عجزه عن مقابلة خصمه[1] لكونه قد قال الحقّ، فإنّه ولم

إنّما هو بيده، كما أنّ إيمان المؤمن هو حاصل باختياره، فالقرآن الكريم يبيّن هذه الحقيقة بصورة واضحة، وهي إنّ الهداية حقيقتها تعاليم إلٰهية، فمن اهتدىٰ بها فإنّهما يـهتدي لنـفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها، ولذلك قال الله تعالى عن لسان النبيﷺ: وما أنا عليكم بوكيل، فكأنّما النبي ﷺ يريد أن يقول لهم: إذا أرشدتكم إلى الهداية فلا تتصوّروا أنّكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسي، فإنّ نفع الهداية يرجع اليكم؛ لأنّ الله تبارك وتعالى قال: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾.

وكل ما يترتب على الهداية من المنافع الدنيوية والأُخروية وغيرها فهي عائدة للمهتدي نـفسه، والعكس صحيح، أي ومن ضلّ فإنّما تكون عواقبه الوخيمة عائدة إلى نفسه فلا يلوم أحداً إلّا نفسه قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتمُ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة إبراهيم:٢٢) فجواب الشيطان حاسم لأتباعه وله مفهوم واسع يشمل كل الطواغيت ووساوس الجنّ والإنس والمقصود أن هذه الآية الكريمة تدلّ بوضوح على انّ الإنسان هو المسؤول عن عقبات أعماله.

لا يخفىٰ أنّ الرحمة الإلٰهية مقرونة بالحكمة ولا يتصور فيها العبق والجزاف فانّ مقتضىٰ الحكمة الإلٰهية شمول الرحمة للوصول إلى التكامل والوصول إلى التكامل الحقيقي هـو أن يـرتقي الإنسان باختياره نحو القمة من درجات السعادة والفضائل الانسانية لا بالجبر والاكراه، لأنّ المدح والذم يصحان فيما إذا كان الفعل صادر بالقدرة والاختيار.

(١) إنّ كتاب منهاج الكرامة من الكتب التي تصدّت للمباحث العلمية والدقائق الكـلامية التـي عليها المعوّل وإليها المرجع لأنّ كتاب منهاج الكرامة يتبع نهج الدراسة المعهودة لدى العلماء في مسائل الإمامة، فالباحث المنصف يشهد بذلك لأن الكتاب يحتوي على الأدلة العـقلية والنقلية، بلا تعصّب ولا نقص.

والدليل على ذلك يكفي للباحث أن يدرس الاستدلالات الموجودة في الكتب، ثم ينظر ويلاحظ

يأت ببرهان على حقّية ما ذكره من حيث عدم الحاجة الى البرهان لكونه من ضروريات العقول وأدلة الشرعية بيّنة جَلية، ومن هذه الجهة ذكر الذي نسبه الى من قال بإمامة الثلاثة مشنّعاً به عليهم من حيث مخالفة ما قالوه لضرورة العقول المنفّرة لعامة من لهم أدنى شعور يميّزون به بين الظُلمة والنور والظل والحرور، فمن يقدر على ردّ من عاب غيره مشنّعاً عليه من حيث مخالفته لضرورة العقول، والغافل بأدنى تصوّر يلتفت الى ثبوت حقّية ما ذهب اليه الشيعة من العقائد التي

➲ كتاب منهاج السنّة لابن تيمية في الردّ على هذه الاستدلالات، ويجعل نفسه حاكماً وقاضياً بينهما.

من المُسلّم أن من له الإنصاف يحكم بأنّ الردّ لايكون ردّاً على الكتاب وانّما هو تثبيت لشخصية ابن تيمة وما في مستتر نفسه.

أولاً: لأنّ الفصل الأوّل من الكتاب الذي عقده العلّامة الحلّي قدس سره إنّما هو لبيان موضوع البحث ولم يقصد البحث الاستدلالي في هذا الفصل، ولذلك ذكر في عنوان الفصل ما هذا لفظه: «الفصل الأول: في نقل المذاهب في هذه المسألة....» (منهاج الكرامة: ص٣١) فإنّ كل إنسان منصف لو نظر الى هذا العنوان يقول: إنّ صاحب هذا الكتاب أراد رعاية النهج العلمي في هذا الكتاب، حيث لابدّ أن يتضح الموضوع ثم البحث حوله، وقد عقدت الفصول التالية للبحث الاستدلالي.

وثانياً: إنّ المسائل المربوطة بصفات الله تعالى لا دخل لها مباشرة بمباحث الإمامة، ولكن من الواضح لدىٰ الخبير أنّ من المسائل المبحوثة في الامامة قاعدة اللطف، وهذه القاعدة من فروع العدل الإلٰهي. وما ذكره العلّامة رحمه الله في المقام إنّما هو بمقدار اللازم في هذا الموضوع، وإلّا فإنّ أصل البحث عن العدل الإلٰهي بحث طويل جداً، وموكول الى محله وهو من مباحث التوحيد.

وثالثاً: إنّ ما ذكره العلّامة قدس سره في الفصل الأوّل من قاعدة اللطف والحكمة الإلٰهية إنّما هو إشارة إلى ما ذكره علماء الكلام في باب التوحيد والعدل الإلٰهي. فالخبير يعلم بأنّ هذا البحث مطروح في محله، وإنّ عقيدة الشيعة الاثنى عشرية واضحة فيه، فلا يحتاج الى ذكره مفصّلاً. فلاحظ.

تقدّمت وفساد من خالفها[١].

وعاشرها: ما زعمه من بيانه خطأ الشيعي وإصابته فيما نقله عن أصل مذهبه، فإنّك قد عرفت ظُلمه للشيعي وعدم إنصافه معه في تخطئته له فيما حكاه عمن تسمى بأهل السنّة وعن اثنى عشرية الشيعة، وتحامله عليه في ذلك بتكذيبه له وهو عالم بصدقه. والله سبحانه وليّ التوفيق[٢].

---

(١) وخلاصة الكلام: إنّ التشنيعات التي شنّعها ابن تيمية على الشيعة الإمامية وعلمائهم لا سيما العلّامة الحلّي (قدس الله أسراره) قد مرّ جوابه غير مرة، ونزيد جوابه في هذه المرة بهذين البيتين من الشعر:

وذي سفه يواجهني بجهل ... وأكره أن أكون له مجيباً

يزيد سفاهة وأزيد حلماً ... كعود زاده الإحراق طيباً

(٢) فإنّ من أقبح التشنيعات هو تكذيب من يعلم صدق كلامه، فإنّ تكذيب الحق والإصرار عليه إنّما هو عادة المنكرين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن الحق والحقيقة والإنصاف ويحكومون على كل شيء حسب أميالهم، وأهوائهم ومشتهياتهم كيف ما كانت ويتمسّكون بأيّ وهم ووهن ذريعة لإنكار الحق وانحرافاً عن الدعوة إليه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٥).

فإنّ الإستمرار في الانحراف والإصرار على المعاندة جعلهم معتادين لإنكار الحق حتى يصل بهم الأمر أنّهم لا يدركون الأُمور إدراكاً صحيحاً؛ إذ لو يرون الآيات بأوضح صورها لآمنوا به، ولكن حيث أنّهم يعاندون وينكرون الحق تعصّباً وجهلاً، فكأنّما لا يدركون الحق أبداً، بل الأكثر من ذلك أنّهم عندما يأتون ويجدون الحقائق لايفتحون نوافذ قلوبهم لئلّا يأتون ـ على الأقل ـ بهيئة الباحث عن الحق الذي يسعى للعثور على الحقيقة، بل يأتون بروح وفكر سلبيين، ولا هدف لهم سوى الجدل والاعتراض.

فالآية الكريمة توصف حالة هؤلاء وتقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ إنّهم عند سماعهم كلامك الذي يستقي من ينابيع الوحي ويجري على لسانك الناطق بالحق، يبادرون إلى اتهامك بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها أُناس غابرون: يقول الذين كفروا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ

ـــ

➲ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وفي آية أُخرىٰ قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَاإِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (سورة الأنفال: ٣١).

فتقول الآية: إنّ الكفّار عندما يعجزون عن مواجهة الحق كانوا يعارضون آيات الله، فيقولون: لو نشاء لقلنا مثل هذا فكانوا يعرفون جيداً أنّهم غير قادرين على معارضة الآيات الربّانية، ولكن من أجل حقدهم وعصبيتهم كانوا يقولون: إنّ الإتيان بمثل هذه الآيات غير عسير ولو نشاء لقلنا مثلها ولكنّهم لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها أبداً، وفي آية أُخرىٰ يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (سورة النحل: ٢٤).

فالحديث في هذه الآية حول منطق المستكبرين، فيقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ليس أنّه بوحي إلٰهي بل هو أكاذيب القدماء ـ العياذ بالله ـ.

فهذه الآيات وغيرها توضّح لنا موقف ابن تيمية من معارضة الحق ومعاندته له، حيث أنّ كلماته مليئة بالتشنيع والتكذيب وإنكار الحق وبذلك يتداعي الباحث الآيات المذكورة في حق المعاندين. فلاحظ.

قال السني:

وأمّا قوله أنّهم يقولون أنّ المطيع لا يستحق ثواباً والعاصي لا يستحق عقابا... الى آخره، فهذه فرية على أهل السنّة ليس فيهم من يقول أنّ الله يعذّب نبيّاً ولا مطيعاً، ولا من يقول أنّ الله يثيب إبليس وفرعون بل ولا يثيب عاصياً على معصيته.

وأمّا الاستحقاق فهم يقولون: أنّ العبد لا يستحق على الله بنفسه شيئاً وليس له أن يوجب على ربّه شيئاً لا لنفسه ولا لغيره، ويقولون: أنّه لابدّ أن يثيب المطيعين كما وعد؛ فإنّه صادق في وعده لا يخلف الميعاد، ولكن لو قدّر أنّه عذب من يشاء لم يكن لأحد منعه، وهو سبحانه لو ناقش في الحساب من ناقشه من خلقه يعذّبه، كما ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبيﷺ أنّه قال: من نوقش الحساب عذّب. قالت: قلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ«٧» فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً**﴾ فقال: ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذّب.

وفي الحديث: إنّ الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم فرحمته خير لهم من أعمالهم.

وهذا قد يقال لأجل المناقشة في الحساب والتقصير في حقيقة الطاعة.[1]

انتهى ملخّصاً من المكرر ومن بعض ما ليس له مدخل في محل البحث.

(١) منهاج السنّة ج١: ص٤٦٦.

قلت:

وفيه وجوه من العجائب:

أحدها: ما زعمه من أنّ ما نقله الشيعي عن أهل مذهبه هنا فرية؛ فإنّه من عجائبه المنبعثة عن شدّة عناده وعدم انصافه، ألاترى كيف زعم أنّه فرية عليهم ثم أخذ يقرّر مذهبهم،[1] فاذا هو نفس ما نقله الشيعي عنهم.

---

(١) لا شك أنّ أكثر أهل السنّة وهم الأشاعرة ذهبوا إلى أنّ الطاعة والمعصية من العبد لا أثر لهما في استحقاق الثواب والعقاب.

قال الآمدي: أمّا الثواب والعقاب فليس مما يجب على الله في مقابلة الفعل... (الأحكام للآمدي ج١: ص١٥٠).

وقال الشهرستاني عند ذكر العقائد الأشعرية ما هذا نصّ عبارته: الإيمان هو التصديق بالجنان ... فلو تاب فلا أقول بأنّه يجب على الله قبول توبته بحكم العقل؛ إذ هو الموجب، فلا يجب عليه شيء بلىٰ ورد السمع بقبول توبة التائبين وإجابة دعوة المضطرين، وهو المالك في خلقه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً، ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً، إذ الظلم هو التصرّف فيما لا يملكه المتصرّف أو وضع الشيء في غير موضعه، وهو المالك المطلق فلا يتصوّر منه الظلم (الملل والنحل للشهرستاني ج١: ص١٠١).

وقال الصفدي عند ذكره لبعض عقائد الأشعرية في ترجمة الشيخ الأشعري أنّه قال: وصاحب ←

➲ الكبيرة إذا خرج من الدنيا بغير توبة حكمه إلى الله، إما أن يغفر له برحمته، أو يشفع له رسول الله ﷺ وإمّا يعذّبه....

قال: ولا أقول أنّه يجب على الله قبول توبته لحكم العقل؛ لأنّه هو الموجب لا يجب عليه شيء أصلاً ... وهو مالك لخلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعه النار لم يكن جوراً، ولو أدخلهم الجنّة لم يكن حيفاً... قال: والواجبات كلها سمعية، فلا يوجب العقل شيئاً البتة ولا يقتضي تحسيناً ولا تقبيحاً (الوافي بالوفيات ج٢٠: ص١٣٧).

وقال الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليظلمهم...﴾ ويفيد أنّه لو وقع منه تعالى تعذيبهم من غير جرم لا يكون ظلماً؛ لأنّه تعالى مالك المُلك يتصرّف به كما يشاء، فله أن يثيب العاصي ويعذّب المطيع وهذا أمر مشهور بين الأشاعرة (تفسير الآلوسي ج٢٠: ص١٥٩) والى غير ذلك من كلماتهم الدالة على عقيدة الأشعرية والحنابلة الذين يشكّلون أكثرية أهل السّنة.

والمهم في المقام: أنّ ابن تيمية يلزمه هذه العقيدة التي هي مبنية على إنكار التحسين والتقبيح العقليين، فيلزم عليه الالتزام بلوازمه، فما ذكره معلوم عند أهل الفن، فالأشاعرة تبعاً لأهل الحديث ذهبوا إلى إنكار هذه القاعدة العقلية الضرورية التي تدركها جميع العقول وهي واضحة لدىٰ كل الناس، فلا حاجة إلى التطويل أكثر من ذلك ومع ذلك، فإنّ من راجع كتب الأشاعرة يجد أنّ هذه العقائد مذكورة هناك.

فمن جملة ذلك: أنّه ذكر الجويني بأنّ العقل عاجز عن إدراك حسن الأفعال وقبحها، وإنّ الحسن ما أمر به الشارع والقبيح ما نهى عنه، ولو جرّد الموضوع عن الأمر والنهي لما تمكّن العقل إدراكها (أُنظر الإرشاد للجويني: ص٢٥٨ وغيره).

وعلى هذا الأساس يتّضح للباحث أنّ الأشاعرة من أهل السّنة ذهبوا إلى أنّه لا يجب على الله شيء ولا يقبح منه شيء، فله أن يعذّب الناس كلّهم، بل وله أن يعذّب الصالحين والصدّيقين والأنبياء والمؤمنين ويدخلهم النار خالداً فيها، ويثيب المنافقين والعاصين ـ وحتى إبليس اللعين ـ ويدخلهم الجنة، فإنّ ذلك بناء على ما ذهبوا حسب زعمهم بأنّه ليس شيء قبيح على الله.

➲

قال النووي في منهاجه: باب لن يدخل الجنة أحد بعمله بل برحمة الله.

ثم قال ما معناه: مذهب أهل السّنة عدم وجوب شيء على الله، فلو عذّب المطيعين فأدخلهم النار كان ذلك من عدله، فإن رحمهم ونعّمهم وجعلهم في الجنة فذلك بفضله، ولو نعّم الكافرين فجعلهم في الجنة كان له ذلك ولكنه هو المخبر وخبره الصادق أنّه غير فاعل ذلك بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذّب الكافرين ويخلّدهم في النار بعدله، وليس ينافي ذلك مادُلّ من الفرقان العظيم على أنّ سبب دخول الجنة ما عملوه من الصالحات، فإنّ التوفيق لها وقبولها من رحمته[١]. انتهى معنى مقاله.

فانظر هل تجد فرقاً في المعنى بين ما نقله الشيعي وما قرّره السنّي، وما قاله النووي، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً على أنفسهم من هذه البلية[٢].

وبناءً على هذا الزعم ذهبوا إلى أنّه لا يجب شيئاً على الله بحكم العقل، فتخيّلوا أنّ ذلك يوجب تحديد الباري عزّوجلّ، ولكن غفلوا عن أنّهم أجازوا في حقّه تعالى الظلم والفعل القبيح وغير ذلك مما يستنكره العقل. فلاحظ.

(١) أنظر شرح صحيح مسلم ج٧: ص١٦٠.

(٢) فإن المنصف الخبير لو تأمّل في كلام ابن تيمية يذعن بأنّه أنكر حقيقة واضحة، ويستطيع كل واحد أن يلمسها بوضوح، حيث أنّ الأشاعرة لما أنكروا إدراك العقل بالنسبة إلى صفات الباري عزوجل عجزوا عن الاستدلال العقلي وذهبوا إلى أنّ الله لا يجب عليه شيء حتى من ناحية إدراك العقل وإن كانوا يقولون بأنّ الوعد والوعيد أمر صحيح واقع من الله تبارك وتعالى، ولكن مع ذلك يعتقدو بأنّه لايلزم على الله تعالى الالتزام بذلك، بل يجوز له تعالى أن يخلف مواعيده ويدخل المطيعين في النار والعاصين في الجنة، وإن كان ذلك مخالفاً للعقل الضروري، لأنّهم يقولون: لا شأن للعقل في درك حسن الأشياء وقبحها فإنّ الحسن ما حسّنه الشارع والقبيح ما قبحه.

وثانيها: ما لو فرضنا عدم نصّهم على ما نسبه اليهم الشيعي فهو صادق في هذه النسبة لكونها مما يلزم قولهم بخلق الله سبحانه لفعال عباده لزوماً بيّناً[١]؛

➲ وعليه: فإنّ هذه القاعدة الأولية المُسلّمة عند الكل قد أنكرها ولكن كعادته أراد التدليس والتدجيل في كلامه، حيث ذهب إلى وجود الحكمة فى أفعال الله عزوجل مع انكار القاعدة العقلية فانّ انكاره لهذه القاعدة المسلمة يلازم القول بعدم استحقاق العبد الثواب على الطاعة والعذاب على المعصية، لأنّ من ذهب إلى إنكار القاعدة العقلية، وزعم أنّ العقل عاجز عن إدراك حسن الأشياء وقبحها لابدّ له من أن يلتزم بأنّ الأفعال في حدّ ذاتها لا تتصف بالحسن ولا القبح لأنّ القاعدة الصحيحة عندهم هي حكم الشرع فقط، أي كلّما أمر به الشارع فهو حسن عندهم، وكلّما نهى عنه فهو قبيح، ولازم هذا الاعتقاد أنّ العقل لا يمكنه أن يدرك حسن إثابة المطيع وتعذيب العاصي، لأنّه كلّما صدر من الله تعالىٰ فهو حسن ولا يقبح منه شيء، فله أن يعذّب الصالحين والصدّيقين وحتى الأنبياء والمرسلين، وله أن يثيب المنافقين والعاصين والفراعنة حتى إبليس اللعين فابن تيمية لا يمكنه الفرار من الإشكال، فامّا يجب عليه أن يلتزم بلوازم انكاره للقاعدة أو يتراجع عن عقيدته ويلتزم بما بنىٰ عليه الشيعة الإمامية في هذا المجال. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ الالتزام بالشيء التزام بلوازمه، فإذا التزام أحد بأنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه، وأنّ الناس مجبورون في أفعالهم غير مختارين، يلزمه القول: بأنّ كل ما يفعله الإنسان فهو مخلوق لله تعالى حتى المعاصي والشرور، فإنّ من لوازم هذا الاعتقاد الفاسد هو عدم استحقاق الثواب والعقاب بفعل العبد، لأنّ فعل العبد بناءً على هذا الزعم مخلوق لله سبحانه.

وإذ كان الله فاعلاً للخير والشر فلا معنى لإعطاء الثواب، أو إجراء العقاب؛ لعدم تحقق الطاعة والمعصية من العبد.

قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة فاطر: ١): واحتجّ أصحابنا بهذا على أنّ فعل العبد مخلوق لله تعالى، قالوا: إنّ فعل العبد شيء فيكون مخلوقاً لله تعالى قادراً عليه، وإذا كان الله قادراً على إيجاده، فلو أوجده العبد امتنع كونه تعالى قادراً على إيجاده، لأنّه لمّا أوجده العبد امتنع من الله إيجاده؛ لأنّ إيجاد الموجود محال، فلمّا كان ➲

ولعدم تعليل فعله بحكمة،(١)

➲ العبد موجداً له يفضي إلى هذا المحال، وجب أن لا يكون العبد موجداً له. (تفسير الرازي ج ٩: ص٨٢).

فهذا اعتقاد الأشاعرة وتبعهم في ذلك ابن تيمية، فهم يتخيّلون بأنّ فعل العبد مخلوق لله تعالى، لأنّه لا يمكن هناك فاعلين مستقلين لفعلٍ واحد.

وعلى هذا الأساس: ذهبوا إلى أنّ ما يفعله العبد لا أثر له، فلا يترتّب على فعل العبد شيء، أي لا يترتّب على فعله أثر الطاعة والثواب، ولا على عصيانه أثر العقاب، وإنّما الثواب والعذاب أمرهما بيد الله تعالى إن شاء أعطى الناس الثواب و إلى الجنة وإن شاء أدخلهم النار، فلا يقبح منه شيء وإن عذّب الصالحين والصدّيقين وحتى الأنبياء والمرسلين، أو أثاب المنافقين والعاصين والفراعنة وحتى إبليس وأدخلهم الجنة، هذا ما بنىٰ عليه الأشاعرة وابن تيمية وإن لم يصرّحوا بذلك، فإنّ لازم قولهم ذلك. فلاحظ.

(١) فإنّ الحكمة عبارة عن: العلم والمعرفة بأسرار عالم فرع ثبوت التحسين والتقبيح العقليين، ولولا استقلال العقل بحسن العدل وقبح الظلم لما عرف معنى الحكمة، لأنّ الحكمة عبارة عن كشف حقائق الأشياء والأفعال بواسطة العقل، ولولا حكم العقل بحسن الأشياء وقبحها لما عرف صفات الله الكمالية والجلالية، لأنّ صفاته الجمالية والجلالية ثابتة بالاستدلال العقلي، كما أنّ تنزيهه تبارك وتعالى عن القبائح ثابت بالحكم العقلي، فإنّ الحكمة من صفات رب العالمين والحكيم هو من لا يصدر منه الفعل إلّا على وجه الحكمة والمصلحة.

إذن، إنّ الحكم بصفة الحكمة لله تعالى يكون بواسطة العقل، فإنّ العقل حاكم بتنزيه الله عن الفعل القبيح، وحيث أنّ الظلم قبيح بحكم العقل المستقل فيستحيل صدوره من الله تعالى، لأنّه يستحيل صدور القبيح منه تعالى، وهكذا نعرف معنى الحكمة في أوصاف الله تعالىٰ، حيث لما عرفنا أنّ الله تبارك وتعالى حكيم والحكيم هو الذي تكون أفعاله مطابقة للحكمة، والحكمة هي كون الفاعل لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب، لأنّ فعل القبيح والإخلال بالواجب نقص والنقص قبيح، فالحكيم لا يصدر منه فعل القبيح، فالله تعالى منزّه عن القبيح والنقص.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ الفعل يتصف بصفة الحكمة إذا كان صادراً لجهة الحكمة، فمثلاً: إنّ العمل ➲

فالعصاة لم يصدر منهم ما يستحقّون به العقوبة(١)

➲ المقدور هو العمل الذي يمكن صدوره من فاعله وجواز نسبة امكان صدور الفعل من الفاعل أمر ثابت بحكم العقل، كما أنّ نسبة صدور افعل على وجه الحكمة أمر ثابت بحكم العقل للحكيم، فالحكيم هو الذي تكون أفعاله مبنية على الحكمة، ومن الواضح أنّ الفعل المقدور يمكن صدوره من الحكيم لأنّ العقل يحكم بجواز صدوره منه.

والمراد بالمقدور ليس المقدور الامكاني بل المقدور الفعلي، لأنّ المقدور الأمكاني ليس محل، النزاع؛ إذ الإمكان دائرته وسيعة، فالقدرة الألٰهية وإن كانت تشمل غير المقدور، ولكن حيث أنّ العمل بوصف كونه غير مقدور غير معقول عند العقل فلايصدر من الحكيم؛ إذ الحكيم لا يصدر منه الفعل الذي لا ينبغي صدوره من العاقل، والفعل الموصوف بعدم الصدور من العاقل.

إذن، القول بأنّ الله تعالى قادر على كل شيء لا ينافي عدم خلقه تعالى الشيء المحال، لأنّ ذلك خلاف الحكمة، فإنّ التوحيد في الربوبية يقتضي أن لايخلق الله شيئاً مخالفاً للحكمة، فإنّ العقل يدرك بأنّ من له صفة الحكمة لايفعل فعلاً مخالفاً للعقل والحكمة.

وبهذا الاستدلال ـ أيضاً ـ يعرف: أنّ أفعاله تعالى معلّلة بالأغراض، كما يستّضح في محله إن شاء الله تعالى. فلاحظ.

(١) وذلك لأنّه بناءً على زعم القوم أنّ الله تبارك وتعالى خالق لأفعال العباد كلّها، ويعتقدون بانّ الله تعالى خالق للمعاصي، ولكن السوال المتوجّه إليهم أنّه لو كان الله تعالى خالقاً للمعاصي كيف يستحقّ العبد العقاب بفعل الله عزّوجلّ؟!! وبعبارة أوضح: إنّهم يعتقدون باعتقاد ولايهمّهم توالي هذا الاعتقاد الباطل، فإذا لم يفعلوا ذلك لا يستحقون العذاب.

قال الفخر الرازي: أنّه تعالى خالق أفعال العباد، وذلك يمنع من القول بأنّه تعالى يراعي المصالح... (المحصول ج٥: ص١٨٢).

وهذا هو مذهب الأشاعرة القائلين بأنّه تعالى هو الخالق الموجد لأفعال العباد كلها خيرها وشرها. فمثلاً: إنّ الله تعالى أمر إبليس بالسجود لآدمعليه السلام، فعصيان إبليس بناءً على زعم القوم ليس فعله، وإنّما هو فعل الله تعالى، لأنّهم يقولون انّ الله موجد الطاعة والعصيان، فعصيان إبليس إنّما تحقّق بإرادة الله.

فرحمته لهم بإدخالهم الجنة جائز،[١] والمطيعون لم يصدر منهم ما يستحقّون به الرحمة فإدخالهم النار جائز،[٢] كيف وهم مصرّحون وملتزمون بما لزم هذه العقيدة[٣].

وثالثها: ما زعموه من تجويز تعذيب المطيعين وتثويب العصاة؛ فانّه

---

(١) أي بناءً على زعمهم يجوز شمول الرحمة الإلٰهية للكفّار والعصاة وحتى المشركين؛ لأنّه بناءً على هذا الزعم أنّ الرحمة الألٰهية ليست مقيدة بالحكمة والأغراض الصحيحة فلامانع من شمولها للكفّار المشركين لأنّهم يقولون: أنّ الكفّار والمشركين لا يصدر منهم المعصية وإنّما يكون الله تعالى خالق للمعصية والكفر والشرك و.... فإذا كان الله هو الفاعل والخالق للمعصية فما ذنب الكافر حتى يعاقب عليه؟

إذن، إنّ الكافر والمشرك بناءً على قولهم هذا يستحق رحمة الله، كما أنّ المؤمن يستحق ذلك، فرحمته تعالى تشملهم، فيجوز أن يدخل الله الكافر والعصاة الجنة. فلاحظ.

(٢) وذلك لأنّ ما فعله المطيعون والصالحون من الأعمال الصالحة لم تكن باختيارهم، بل الله خلقها؛ لأنّه بناءً على زعم القوم أنّ الله تبارك وتعالى خالق لأفعال العباد خيرها وشرها.

قال ابن حجر: قال السلف: التخليق فعل الله وأفاعيلنا مخلوقة، ففعل الله، صفة الله والمفعول من سواه من المخلوقات (فتح الباري ج١٣: ص٣٦٩).

أقول: لاشك انّه بناءً على هذا القول أنّ الله تعالى موصوف بما يفعله العبد؛ إذ بناءً على هذا الزعم أنّ الله تعالى خالق لجميع المعاصي لأنّه خالق لأفعال العباد، وأفعال العباد فيه المعصية والكفر والشرك وغير ذلك. فمعنى أنّ الله خالق لكلّ شيء: أنّ الله خالق لجميع المعاصي بناءً على ذلك لابد من القول بأنّه لايقبح منه شيء، أي أنّ ما يفعله حسن وإن كان ظلماً وعدواناً.

ثم انّ من البديهي أنّ ما يفعله الله متعلق بإرادته، وفي المقام معناه: أنّه الله تعالى أراد فعل القبيح ـ والعياذ بالله ـ وهل يلتزم به عاقل؟!!!

(٣) أي بمقتضىٰ قاعدة الإلزام ومفادها «ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم» أو بتعبير آخر: «فمن فمك أُدينك» فهذه القاعدة المسلمة عند الكل تقتضي انّ ما ذهب إليه الأشاعرة والحنابلة في باب أفعال العباد وإنكارهم لقاعدة التحسين والتقبيح العقليين، يلزم عليهم الالتزام بما التزموا به في باب صفات الله، وفي باب خلق أفعال العباد. فلاحظ.

مناقض لما قالوه من صدور وعده سبحانه بإثابة المطيعين،[(١)] ووعده صدق[(٢)]

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٩) وقال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة: ٧٢) وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلنَّعِيمِ «٨» خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة الروم: ٨ ـ ٩) وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْماً لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (سورة لقمان: ٣٣) وقال الله تعالى: ﴿لٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَعْدَ ٱللهِ لاَ يُخْلِفُ ٱللهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (سورة الزمر: ٢٠) وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (سورة الفتح: ٢٩) والى غير ذلك من الآيات.

فإنّ الأشاعرة يقولون: نحن نلتزم بوعد الله، ولكن هذا ليس هو الأصل الأولي، فإنّ الأصل الأولي عندهم أنّ الله تعالى مالك الملك جميعاً، فله أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولكن حيث وعد عباده بأنّه يدخل المطيعين في الجنة والعاصين في النار، فيدخلهم لأنّه وعدهم وهو قائل: «أنّه لا يخلف الميعاد». ولو لا ذلك لأمكن أن يدخل المطيعين إلى النار.

فالأصل الأولي مقتضاه أن يفعل ما يشاء، فإن شاء أن يدخل المذنبين إلى الجنة فله ذلك، وإن شاء أن يدخل الصالحين وحتى الأنبياء والمرسلين إلى النار فله ذلك؛ لأنّه مالك العباد وما يتعلق بهم من الأفعال.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ قِيلاً﴾ (سورة النساء: ١٢٢) وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ (سورة يونس: ٤) وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يونس: ٥٥) وقال تعالى: ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَأَنَ ٱلسَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ (سورة الكهف: ٢١) وقال تعالى: ﴿وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم: ٦) وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لاَيُوقِنُونَ﴾ (سورة الروم: ٦٠) وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللهِ

فليس حينئذٍ بُدّ من وقوعه،[١] فأيّ معنى لتجويزهم ذلك؟!!! فإنّ التجويز مستلزم لعدم علمهم بأنّ وعده سبحانه صدق يستحيل تخلّفه، فأمّا بعد العلم باستحالة تخلّفه فالتجويز المشار اليه محال من دون ريب[٢].

➲ ﴿حَقّاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة لقمان: ٩) وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ ٱلْغَرُورُ﴾ (سورة لقمان: ٣٣) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (سورة الجاثية: ٣٢) وقال تعالى: ﴿وَكُلّاً وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحديد: ١٠) وإلى غير ذلك من الآيات.

وإذا كان الأصل الأولي عندهم الفعل حسبما يشاء الله وإن كان مخالفاً للحكمة والمصلحة والحكم العقلي فيجوز أن ينسب إليه مخالفة الوعد إذ بناءً على زعمهم جواز نسبة كل فعل إليه وإن كان مخالفاً للعقل والحكمة.

ولكن الأمر واضح البطلان لأنّ الحكيم لا يصدر منه الفعل المخالف لحكم العقل فيستحيل مخالفة وعده لأنّ مخالفة الوعد قبيح عقلاً ومخالف للعدل والحكمة، فما ذكره الأشاعرة وابن تيمية من أنّ مخالفة الوعد ليست قبيحة أمر باطل.

(١) فإنّ الوعد الإلٰهي أمر حتمي وقطعي لابد منه، فيلزم على كل مؤمن بالله عزوجل الايمان بالوعود الإلٰهية والخوف من الحساب والجزاء، فإنّ الوعد نوع من العهد فلا يمكن التخلف منه لاسيّما إذا كان الوعد من الله عزوجل فإنّ لزوم الوفاء به آكد لأنّ مخالفة الوعد ينافي العدل والحكمة والله تعالىٰ منزّه عن مخالفة العدل والحكمة.

(٢) وبعبارة أُخرىٰ: أنّ ما التزم به الأشاعرة والحنابلة وابن تيمية وغيرهم من أهل السنّة وتجويزهم تعذيب المطيعين وتثويب العصاة والمذنبين إنما يستلزم منه تخلّف الوعد الإلٰهي، لأنّ الوعد اذا لم يكن بالفعل يصح تخلّفه، لأنّه بناءً على قولهم: أنّ الله مالك الملك له أن يفعل ما يشاء، وأنّ كل ما يفعله حسن وان كان عند العقل ظلماً.

فنتيجة هذه المقالة: جواز نسبة خلف الوعد إلى الله سبحانه إذ بناءً على اعتقادهم انّ ما يفعله الله حسن ولا يقبح منه شيء وان فعله مخالفاً لوعده لأنّ القاعدة الأوليّة عندهم هي مالكية الله ➲

ورابعها: ما نقله النووي عنهم من أنّ تعذيب المطيعين عدل ومن أنّ تعذيب العصاة عدل؛(١) فإنّه بهتان. فانّ العدل عبارة عن جعل الشيء في موضعه الذي يستحقّه(٢) والعقوبة العدل هي المسبّبة عن المعصية(٣)، والمفروض على مذهبهم

⬅ بالنسبة إلى كل شيء ومعنى ذلك: أنّ له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، والعمل على خلاف وعده من مصاديق وصغريات هذا القياس، أي يجوز له أن ينصرف في ملكه حيث شاء.

أقول: نحن نلزمهم على هذا الالتزام بأنّه لابدّ لهم من القول بأنّ الله يخالف الميعاد والعياذ، بالله.

(١) أُنظر شرح صحيح مسلم للنووي ج١٧: ص١٥٩ - ١٦٠.

(٢) هذا التعريف مرادف لتعريف الحكمة لأنّ الحكمة عبارة عن وضع الشيء في موضعه اللائق به على ما تقتضيه الحكمة، فيكون تعريف العدل بوضع كل شيء في محله نفس تعريف الحكمة فيمكن لنا أن تقول: أن العدل مرادف للحكمة والعادل مرادف للحكيم، ويؤيد ذلك أنّ كلّا من العدل والحكمة يتحدان في وقوفهما علىٰ التحسين والتقبيح العقليين؛ فانّ معنى العدل وضع الشيء في محله بحسب التحسين العقلي كذلك الحكمة فهي وضع الشيء في محله بحسب التحسين والتقبيح العقليين.

وتوضيح المقام: أنّ وضع كل شيء في موضعه المناسب له يحتاج إلى العلم بحقائق الأشياء، والحكمة تقتضي الإحاطة بحقائق الأشياء والأفعال، لأنّ القيام بالفعل الحسن مرهون للعلم بوجوه حسنة والحكيم العالم بالوجوه الحسنة لا ينبغي صدور الفعل منه على غير هذا الوجه؛ لأنّه يستلزم القبيح ولا ينبغي صدور فعل القبيح من الحكيم لذلك الأمر في العدل فانّ العادل من يكون فعله موزوناً بحكم العقل فلا ينبغي صدوره الفعل منه على غير حكم العقل أي أنّ أفعال العادل لا يخرج عن حكم العقل وهذا معنى الحكمة فلاحظ.

(٣) لأنّ المعصية هي مجازاة لمخالفة التكليف وعصيان أوامر رب العالمين، وحيث أنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق الإنسان عبثاً فانّ مقتضىٰ لطفه أنّ يأمره بما فيه المصلحة له وينهاه عما يكون مفسدة له، فاذا خالف العبد الأوامر لابدّ أن يرىٰ نتيجة مخالفته لأنّ مقتضىٰ العدل والحكمة عدم عبثية فعل الحكيم، فجعل نتيجة أعمال الإنسان جزاءً له وهذا مطابق للحكمة والعدل؛ لأنّهما يقتضيان تنفيذ المجازاة بملاحظة المخالفة من العبد حيث أنّ الهدف النهائي ⬅

أنّه لم تصدر معصية من العباد فلم يحصل منهم سبب العقوبة العدل،[(١)] ومن الضروري كون عقوبة من لم يفعل معصية ظلماً فما وجه زعمهم أنّها عدل؟ والمطيعون لم تصدر منهم معصية فعقوبتهم ظلم من دون ريب؟[(٢)]

من خلقة الإنسان إيجاد العدل، والعدل يقتضي أن تكون العقوبة الإلٰهية عقوبة مطابقة للحكمة. فلاحظ.

(١) لأنّ العقوبة الإلٰهية يوم القيامة ليست إلّا انعكاساً للأعمال التي يقوم بها الإنسان نفسه، وهذا مقتضىٰ العدل والحكمة لأنّ العقوبة حسب استحقاق الإنسان وعدم استحقاقه، وأمّا بناءً على مسلك القوم حيث ذهبوا إلى أنّ الله تعالى خالق لأفعال العباد، ولا تكون العقوبة حسب استحقاق العباد، بل العقوبة غير متوقّفة علىٰ عمل العبد لأنّ العبد ليس له الإختيار في أعماله وأفعاله، فلامعنى لعقابهم على ما فعلوا من الجرائم والآثام، لأنّه بناءً على زعمهم ليس للإنسان دور في أفعاله، وأنّ الله تعالى هو خالق لافعالهم وأعمالهم، والعقوبة تترتب على فعل الإنسان نفسه، ولا تصح نسبة الأفعال على هذا الزعم ـ إلى الإنسان حتى ولا على مسلك الكسب، فإنّ القائل بنظرية الكسب يقول: أنّ الله خالق لأفعال العباد والعبد كاسب، فلا تصح نسبة العمل، إليه لأنّ الكسب لا يكون ايجاداً وإحداثاً للعمل وإنّما يكون ظرفاً ومحلاً للعمل فالقائل بالكسب أيضاً يقول: بأنّ الله خالق لأفعال العباد والعبد لا القدرة له على العمل.

وعليه: فلا يترتّب على فعلهم العقوبة: إذ لم يكن لهم الاختيار في أعمالهم وأفعالهم حتى يستحقوا العذاب.

وخلاصة الكلام: أنّ العدل يقتضي أن تكون العقوبة على الفعل الصادر من العبد وهي انعكاس أعمال العبد.

(٢) وخلاصة الكلام: أنّ القوم يعتقدون أنّ كل أفعال الإنسان مخلوق لله تعالى، وليس للإنسان أي دور في إيجاد عمل نفسه، سواء كان في الطاعة والعصيان.

وفي الحقيقة: أنّ القوم يعتقدون بأنّ الله تعالى علة لكل شيء مباشرة، وليس على نحو التسبيب فلايعتقدون بانّ الحكمة الربانية قد تقتضي بأن يجعل بين مخلوقاته الأسباب والمسبّبات، فيزعمون أنّه ليس لإرادة الإنسان وقدرته دوراً في إيجاد العمل ولو في الطول، فذهبوا الى أنّ

وخامسها: ما نقله النووي عنهم من عدم المنافاة بين ما دَلّت عليه آيات الفرقان العظيم من كون سبب دخول الجنة ما عملوه من الصالحات ومن كون دخولهم اليها بفضل الله سبحانه لما هو معلوم من أنّ التوفيق للطاعات وقبولها بفضله[1]، فإنّه هادم أصل ما زعموه من خلق الله سبحانه أفعال عباده لعدم صدور عمل الصالحات من العباد على المبنى المرقوم، وليس لتوفيقهم الى فعلها وقبولها معنى؛ فإنّ هذين موقوفان على صدور عمل من العباد باختيارهم وقدرتهم ومشيئتهم والمفروض نقيض ذلك لزعمهم أنّ الله سبحانه خالق عملهم وعدم صدور العمل منهم باختيارهم وقدرتهم ومشيئتهم[2].

الإنسان كريشة في مهب الريح ليس له إرادة ولا قدرة ولا اختيار في الفعل والترك.

وهنا يتوجّه إليهم هذا السؤال: بأنّ العقاب والثواب يترتّبان على أيّ شيء؟ أليس أنّ العقاب والثواب يترتّبان على عمل الإنسان وإنّهما نتيجة تلك الأعمال التي مارسها الإنسان، فأين صار الهدف من خلق الإنسان؟ وأين صار العدل الإلٰهي؟ وأين حكمته البالغة؟!!!

(١) أنظر شرح صحيح مسلم ج١٧: ص١٦٠.

(٢) وتوضيح المقام أنّه: لو سلب الاختيار من الإنسان لما بقي موضوع لتحمّل المسؤولية، والوظيفة، وتوجّه الأمر والنهي اليه وتعلّق الجزاء والثواب والعقاب علىٰ أعماله؛ لأنّ نفي الاختيار يستلزم نفي تأثير الأعمال؛ إذ لو صدر الفعل مسلوب الاختيار والإرادة من العبد لا يكون له التأثير فلا يترتب عليه شيء من الجزاء والعقوبة؛ لأنّ موضوع الجزاء والعقوبة هو الأمر الاختياري، وحيث أنّ الأشاعرة يزعمون أنّ الإنسان ليس له الاختيار في أفعاله وأعماله بل هو كالميت في يد الغسّال فكما أنّ الميت لا اختيار له في حركة جسمه كذلك الإنسان ليس له اختيار.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأسباب والعلل التكوينة والطبيعة فانّ الأشاعرة انكروا التسبيب بين العلّة والمعلول وذهبوا إلى أنّها مخلوقة لله مباشرة فذهبوا إلى إنّ الحرارة توجد بأمر الله سبحانه كما أنّ وجود النار يكون بإرادة الله عزّوجلّ، وأنّ الشبع يوجد بأمر الله تعالى كما أنّ

وسادسها: ما زعمه السُنّي من أنّه لو قدّر أنّ الله عذّب من يشاء فليس لأحد منعه، فإنّه تدليس منه؛ لأنّ البحث ليس في أنّ أحداً يمنع الله من فعله تعالى وتقدّس[١] بل البحث في أنّه كيف يتصوّر أنّه يعذّب المطيعين وينعّم العاصين!![٢]

خالق الأكل هو الله سبحانه، وأنّ الارتواء يوجد بأمر الله تعالى كما أنّ الشرب مخلوق لله سبحانه، وهكذا كل الامور الطبيعية والتكوينة فإذا كان الأمر كذلك فأيّ تأثير لعمل الإنسان بعد تحققه من قبل الله تعالى، فإنّ جميع العلل والوسائط والأسباب ـ بناءً على هذا زعم ـ تستند إلى الله تعالى، فلا علة إلّا الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا معنى لنسبة الفعل إلى العبد لا على نحو العرضية ولا على نحو الطولية. فلا معنى للقول: بأنّ العقوبة تترتّب على عمل العبد جزاءً، فإنّ الجزاء والعذاب يتوقّفان على الفعل المنسوب إلى الإنسان، كما يلزم في نسبة العمل إلى الإنسان أن يكون الإنسان فاعلاً مختاراً في عمله وإلّا فلا تصح النسبة فلاحظ.

(١) وبعبارة أُخرى: أنّ التقدير الألهي في مجال أفعال الإنسان لا ينافي اختيار الإنسان، فإنّه قد يتوهم البعض أنّ الاعتقاد بالتقدير الإلٰهي يستلزم أن تكون أفعال الإنسان غير شاملة لقانون حصر الخالقية في الله تبارك وتعالى.

ولكن هذا الزعم باطل بالضرورة؛ لأنّ التقدير الإلٰهي في مجال أفعال الإنسان متعلق بالفعل المختار ولذلك يتوجّه إليه التكليف، ولولا كونه مختاراً لم يتوجّه إليه التكليف، حيث أنّ المكلّف لو صدر منه العمل بلا اختيار ولا إرادة لاتصحّ نسبة العمل إليه، وإنّما تصحّ النسبة إذا كان العمل صادراً منه بالإرادة والاختيار.

فالتقدير الإلٰهي في أفعال الإنسان تتعلّق بالفعل المختار، وهذا لا يخرج الإنسان عن كونه تحت قدرة الله تبارك وتعالى ولا يخرجه عن دائرة سلطانه لأنّ التقدير الإلٰهي عبارة عن تحقّق الشيء محدوداً ومُقدّراً، فتحديد أفعال الإنسان بهذا التعريف المذكور يجعله محدوداً ومقدوراً بتقدير الله عزوجل، وهذا أمر لا إشكال فيه فالتقدير الإلٰهي في أفعال الإنسان على وجه الاختيار لا ينافي حصر خالقيته سبحانه إذ أنّ الله تعالىٰ قدّر أن يكون الإنسان فاعلاً مختاراً في أفعاله.

وليكون في البحث أكثر فائدة وأكثر وضوحاً نقول: إنّ المراد من التقدير الإلٰهي ما جعله الله تعالى

مقدّراً لكل شيء، فإنّ القدر عبارة عن المقدار، والتقدير جعل الشيء على المقدار ووضع كل شيء بحدّ معين، فكل شيء أو كل حادث فهو مقدّر ومحدّد كميةً وكيفيةً وزمانيةً ومكانيةً بقدر الله، وتحقّق ذلك بفعل معيّن وعلل وعوامل خاصة، فكل شيء يتحقّق في هذا العالم يكون له تقدير خاص من حيث تحقّقه من جهة وجود مقدماته والعوامل الدخيلة في تحقّقه وسيره نحو الكمال.

وزمان تحقّقه ومكانه وغير ذلك من خصوصياته فعلى سبيل المثال: إنّ كلّ جنين له خصوصيات من حيث الزمان والمكان والسير نحو الكمال فسيره يبتدأ من النطفة والنطفة تتبدّل إلى العلقة والعلقة الى المضغة، وهكذا تتدرج إلى أن تكون إنساناً متكاملاً، وهذه التدرّج والأسباب يكون بتقدير الله سبحانه، ففي كل مرحلة لابدّ أن يكون السبب صالحاً للتدرّج إلى المرحلة الأُخرىٰ ولا يكون مانعا من ذلك، فبطبيعة الحال أنّ الجنين يسير سيرها التكاملية الطبيعية إذا كانت الأسباب مهيئة ولم تحدث مانع من سيرها، وأمّا إذا حدث حادث ومنع مانع فالجنين يسقط ولا يرتقي الى المراحل الأُخرىٰ.

فالتقدير الإلٰهي والقرار الربّاني يكون كذلك بالنسبة إلى كل شيء فيتعلّق بكل حادث وبأسبابه وعوامله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (سورة القمر: ٤٩) وقال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللهُ لِكُلِّ شَيءٍ قَدْراً﴾ (سورة الطلاق: ٢) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ«٢» وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (سورة الأعلى: ٣) فتقدير كل شيء هو جعله محدوداً بحدود العلل المادية والشرائط الزمانيةو المكانية.

وبالجملة: أنّ القدرة الإلٰهية لا تنافي تقديره بالنسبة إلى اختيار الإنسان وحريته في أفعاله، فإنّ هذا التقدير كغيره من الأُمور التي قدّرها الله سبحانه وتعالى. فلاحظ.

(٢) فإنّه لو أجبر سبحانه وتعالى عباده على الطاعات أو على المعاصي وجعل الجنّة جزاءً للمطيعين والنار للعاصين كان ذلك أمراً جزافياً لا على حسب موازين العدل والانصاف لأنّ من الواضح أنّ الإجبار على العمل يخرج الإنسان عن الإرادة والاختيار في العمل، والعمل الصادر منه بلا اختيار يسلب اعتبار نسبة العمل إلى صاحبه، حيث أنّ العمل لو لم يصدر عن الإنسان باختياره ورضاه وطيب نفسه لايكون بإادته، وإذا لم يكن العمل بإرادته لايكون

وما نقله من الخبر الذي دَلّ على تعذيب من نوقش الحساب(١) بهتان بيّن على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه مناقض لما دَلّت عليه آيات الفرقان العظيم من سببية عمل الصالحات لدخول الجنة،(٢) فالصالحات التي فعلها المعصومون لابدّ أن تكون قد

➲ منسوباً إليه هذا إذا كان العمل مطابقاً للطاعة والمعصية، وامّا إذا كان الأمر على عكس، أي قلنا: يجوز أن يدخل الله المطيعين في نار جهنم ويدخل العاصين في جنته، فهذا ظلم في حق العباد؛ لأنّ الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه، وهو صادق في المقام كما هو واضح ظاهر.

ثم إنّه إذا كان الإنسان مجبوراً على عمل فإنّ عمله ليس له أثر عند العقلاء؛ لأنّ الجبر على العمل يتحقّق بسلب القدرة والاختيار وإذا كان فعله خارجاً عن قدرته واختياره لا معنى لكونه مسؤولاً عن ذلك التكليف المتوجّه إليه، والجزاء إنّما يكون على العمل الذي له أثر عند العقلاء، وأمّا العمل المجبور فلا أثر له عند العقلاء، فالجزاء عليه إمّا جزاف وإمّا ظلم وكلا الأمرين قبيح عند العقلاء.

(١) أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن أبي ملكية، قال: إنّ عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلّا راجعت فيه حتى تعرفه، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من حوسب عذّب. قالت عائشة: فقلت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾؟ قالت: فقال: إنّما ذلك العرض. ولكن من نوقش الحساب يهلك (صحيح البخاري ج١: ص٣٤ كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه) وأخرجه في كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذّب وكذا مسلم في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب ج٨: ص١٦٤ وغيرهما من المحدثين.

(٢) قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ...﴾ (سورة البقرة: ٢٥) وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ٨٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٧) وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ ➲

صدرت منهم على الجهة التي يحبّها الله سبحانه ويرضاها ويقبلها منهم بها، فما وجه تعذيبهم حينئذٍ[1]؟

➲ أُجُورَهُمْ وَٱللهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ٥٧) وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ...﴾ (سورة النساء: ٥٧) وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ (سورة النساء: ١٢٤) وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلْصَّالِحَاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة المائدة: ٩) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (سورة الرعد: ٢٩) إلى غير ذلك من الآيات.

فإنّ هذه الآيات وغيرها تدلّ بالصراحة على أنّ الايمان والعمل إنّما يكونان طريقان للنجاة، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (سورة الكهف: ٣٠).

هذه الآيات الكريمة تدلّ بالصراحة على أنّه لاتضيع أعمال العاملين قليلة كانت أو كثيرة، كلية كانت أو جزئية، ومن أيّ شخص وفي أيّ عمر كان، فالذين عملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، فلا تعطى الجنة جزافاً.

(١) لا شك أنّ رضا الله ومحبته لا تكون بلا علة ولا سبب، بل النيل إلى هذا المقام العظيم تابع لأسبابه الخاصة، لأنّ معنى الرضا موافقة النفس لفعل أو لشيء، فيقال: رضي لفعل كذا، أو رضي لشيء بكذا، والقرآن الكريم قد بيّن هذه الحقيقة بشكلٍ واضح ضمن آيات عديدة: منها:

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللهُ هٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (سورة المائدة: ١١٩) هذه الآية الكريمة قد بيّنت أنّ مقام الرضاء مقام عظيم ولا يناله إلّا من كان صادقاً في إيمانه وأعماله.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ أساس جميع الخيرات هو الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ«١» إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ«٢» إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ (سورة العصر: ١ ـ ٣) فإنّ الإنسان إذا كان صادقاً في إيمانه وأعماله الصالحة سوف يناله مقام الرضاء.

➲

➲ وبعبارة أُخرىٰ: إنّ جميع الأعمال الصالحة مطوية تحت عنوان الصدق في القول والعمل والنية، وأنّ الصدق هو الرصيد الذي ينفع يوم القيامة، فالصادقون لهم هذا المقام العظيم الذي جعله الله تعالى لهم، فقال سبحانه: ﴿رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فلو بلغ الإنسان هذه المرتبة حيث يرضىٰ الله عنه ويرضىٰ عن الله لأحس بلذّة لاترقىٰ إليها لذة، ولهانت في نظر الإنسان سائر اللذّات، وهذه المرتبة مرتبة يعجز القلم واللسان عن سمّوها وأبعادها.

فهذا المقام نتيجة الإيمان الصادق والأعمال الصالحة والنيات الخالصة بحيث يحصل للانسان سكون النفس والرضا بالله تبارك وتعالىٰ لأنّه بذل تمام جهده لتنفيذ كل ما أراده الله تعالى ./

وفي المقابل: أنّ الله أعطاهم كل ما أرادوا، ومن هنا نعرف مدلول قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ (سورة الفتح: ١٨) فإنّ مقام الرضا هو للمؤمنين الصادقين في إيمانهم، الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإخلاص وصدق، والله تبارك وتعالى علم ما في قلوبهم من الإيمان والصدق والوفاء، وأمّا الذين كانوا يبرزون الإيمان ويسّرون الكفر والنفاق، فإنّ الله تعالى يعلم بأنّ هؤلاء يكذّبون في القول والعمل والنيّة، فمقام الرضا لا يشتمل إلّا للمؤمن الحقيقي وهو المؤمن الصادق في إيمانه وأعماله، قال الله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٤) فإنّ مقام الرضا للصادقين في الإيمان والأعمال الصالحة.

وعليه: فلابدّ أن نعرف من هو الصادق في إيمانه، قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾ (سورة الحشر: ٨) فإنّ الصادق الحقيقي هو من كان في جميع لحظات حياته صادقاً في إيمانه وقائماً بوظيفة العبودية لله عزوجل ونهاية الخضوع والخشوع له الذي فاقوا كل الناس وهم المعصومون عليهم السلام الذين قال الله تعالى في حقّهم: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ (سورة التوبة: ١١٩) فإنّ الصادق الحقيقي هو المعصوم.

ولا شك أنّ المعصوم لا يصدر منه إلّا ما فيه رضا الله ومحبّته؛ لطاعته المحض، وقيامه بوظائف العبودية، وانقياده لله تبارك وتعالى من جميع الجهات، فإنّهم يحبون الله ولا يفكّرون بغير رضاه والله تبارك وتعالى يحبّهم وقد بيّن تبارك وتعالى في كتابه العزيز بأنّه يحب المتقين، ➲

والمناقشة في حساب من هذه حال عبادتهم غير موجبة لنقص فيها، وقد فرضنا وقوعها على وجهها المحبوب المطلوب لله سبحانه(١).

➲ فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٧٦).

والظاهر أنّ المراد بالعهد هو مطلق العهد سواء كان مع الله أو مع الناس، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ (سورة الإسراء: ٣٤).

فإنّ عموم مفهوم الوفاء بالعهد يشمل جميع المواثيق والعهود الفطرية والتشريعية؛ منها: الإيمان بالله تبارك وتعالى والثقة به، فإنّ من أوفى بجميع عهوده مع الله واتقى فإنّ الله يحب المتقين، فالمتقين لهم أعلى المقامات عند ربهم، وأنّ مقامهم رهين أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (سورة الطور: ٢١) فكلّما ازداد التقوىٰ في نفوس أولياء الله زادتهم كرامة عند الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات: ١٣) فالمعصوم الذي يكون نفسه صائناً من جميع الأدناس والأرجاس هو في أعلى مراتب التقوىٰ والإيمان، ولا شك أنّ أعماله توجب ترضا الله، وتكون مقبولاً عنده، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة المائدة: ٢٧).

والظاهر من هذه الآية الكريمة تدلّ على أنّ عمل غير المتقي غير مقبول، وإن كان صحيحاً من جهة الأجزاء والشرائط، فالعمل المقبول هو العمل الصادر من المتّقين حقاً. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ الحساب الإلٰهي يوم القيامة حق وأمر حتمي الوقوع. وقد دلّ على ذلك النصوص الكثيرة والسنّة بحيث أصبح من ضروريات الإسلام، بل كل الأديان السماوية.

ومن أسماء يوم القيامة «يوم الحساب» كما جاء ذلك في القرآن الكريم عند حكاية دعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ (سورة إبراهيم: ٤١).

وكما يحكي أيضاً أنّ موسى عليه السلام لما أجاب فرعون عن تهديده اياه بالقتل، قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ (سورة غافر: ٢٧) فالحساب أمر حق بالنسبة إلى جميع الناس في يوم القيامة حتى بالنسبة إلى الأنبياء والمعصومين عليهم السلام، وقد نطقت بذلك الآيات الكثيرة والروايات المتواترة، قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ➲

نعم غالب غير المعصومين قد يتبيّن الفساد في غالب صالحاتهم عند المناقشة من حيث عروض بعض الصفات المفسدة لها، مثل عدم الخلوص في النية، ومثل العُجب وغير ذلك(١).

➲ وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٦٩) فالأنبياء والمرسلون والشهداء يحضرون يوم القيامة ليسألوا عن أدائهم لمهام الرسالة، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٦) فالمحكمة العدل الإلٰهي يحاسب فيها جميع الناس حتى المعصومين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ سورة المائدة:١٠٩) فالمحاسبة أمر قطعي ولكن ليس معنى المحاسبة دائماً التوبيخ والنقص، بل في بعض الأوقات تبيين للحق، وفي بعض الأحيان بمعنى الشهادة.

ويستفاد من بعض الآيات: أنّ الأنبياء شهود على أُمتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (سورة النحل: ٨٩) وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (سورة القصص: ٧٤).

فالظاهر أنّ الشاهد من كل أُمة هو نبيهم، وإن لم يصرح بشخصه، ولكن أصل الشهادة أمر مسلّم، وقائمة يوم القيامة.

ومن الواضح أنّ الشهادة لابدّ أن تكون بالنسبة إلى الحقائق والشاهد لابد أن يكون عالماً لما يشهد به. ومن هنا نعرف أنّ شهادة الأنبياء بالنسبة إلى أعمال أُمتهم أو شهادة النبي ﷺ بالنسبة إلى أعمال أُمته أو بالنسبة إلى أعمال الأنبياء هي شهادة عن علم، وذلك لأنّ الأعمال تعرض للشاهد، فالنبي الكريم ﷺ شاهد لأعمال أُمته، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هٰؤُلاَءِ شَهِيداً ﴾ (سورة النساء: ٤١) فإنّ الآية الكريمة تدلّ على المقام العظيم لنبي الإسلام، حيث أنّه شاهد لأعمال الجميع، وهذه الشهادة هي بالعلم واليقين الحاصل من عرض الأعمال والنيات له ﷺ.

وخلاصة الكلام: أنّ بيان الحساب والكتاب وعرض الأعمال يوم القيامة أمر مطلوب، بل أنّه من تقوىٰ القلوب فما جاء في روايات أهل السنّة مخالف للقرآن والسنة الشريعة. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ التظاهر والرياء والعجب والسُمعة بلاء اجتماعي كبير. والحقيقة أنّ كل عمل

يتوقّف على دافعه، وبالتعبير الإسلامي أساس كل عمل نية عامله، فإنّ الإسلام قد ركّز على نية العامل في تقويم الأعمال، ولذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث معروف متفق عليه بين العامة والخاصة قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّما الأعمال بالنيات (أُنظر وسائل الشيعة ج١: ص٣٤، وصحيح البخاري ج١: ص٢ باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي حديثٍ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوىٰ. فمن غزىٰ ابتغاء ما عند الله فقد وقع أجره على الله عزوجل، ومن غزىٰ يريد عرض الدنيا أو نوىٰ إعقالاً لم يكن له إلّا ما نوىٰ (وسائل الشيعة ج١: ص٣٥).

فالنية هي التي تصوغ شكل العمل دائماً، فمن كان يعمل لله عزوجل جعل أساس عمله مستحكماً قوياً مثبتاً وعادة يسعىٰ بكل جهده إلى أن يستفيد الناس منه أكثر الاستفادة، لكن المتظاهر المرائي يكتفي بزخرفة الظاهر دون أن يهتم بعمق العمل وباطنه وهو دائماً يرىٰ جاحة المحتاجين اليه فيسفىٰ في أن يرائي بأعماله ويجذب الاخرين بالتظاهر.

والروايات الواردة في ذم الرياء والتظاهر بالأعمال الصالحة كثيرة، ففي بعضها وصفت الرياء بأنّه نوع من الشرك.

منها: ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قيل: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، قال: يقول الله عزوجل: يوم القيامة اذا جارى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذي كنتم تراؤن في الدنيا، هل تجدون عندهم ثواب أعمالكم (بحار الأنوار ج٦٩: ص٢٦٦). وأخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ج٥: ص٤٢٨ والطبراني في المعجم الكبير ج٤: ص٢٥٣ وغيرهم.

ومنها: ما رواه السيوطي في الدر المنثور عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: إذا كان يوم القيامة صارت أُمتي على ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصاً، وفرقة يعبدون الله رياءً، وفرقة يعبدون الله يصيبون به الدنيا، فيقول للذي كان يعبد الله للدنيا: بعزّتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ فيقول: الدنيا، فيقول: لا جرم ينفكّ ما جمعت ولا ترجع إليه، انطلقوا به الى النار، ويقول للذي يعبد الله رياءً: بعزّتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ قال: الرياء، فيقول: إنّما كانت عبادتك التي ترائي بها لا يصعد إِلَيَّ منها شيء ولا ينفكّ اليوم، انطلقوا به إلى النار، ويقول الذي كان يعبد الله خالصاً:

أما فهم السنّي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (١) فمن قَبِلَ هذه المبايعة

➲ بعزّتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ فيقول: بعزّتك وجلالك لأنت أعلم مني، كنت أعبدك لوجهك ولدارك، قال: صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة (الدر المنثور ج٣: ص٣٢٣).

ومنها: ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: الرياء شجرة لا تثمر إلاّ الشرك الخفي وأصلها النفاق (سفينة البحار ج١: مادة رئي) وإلى غير ذلك من الروايات.

فالعمل إذا كان خالصاً وليس فيه الرياء أو العجب أو السمعة ونحو ذلك يكون مقبولاً، وإلاّ فلا يصعد منه شيئاً ولا ينفع صاحبه.

ومن الواضح: أنّ هذا البلاء والمرض انّما يعرض لغير المعصوم، ولذلك إنّ الله تعالى مَثّل مثالاً واضحاً يبيّن فيه حقيقة المرائي، فيقول تعالى: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ (سورة البقرة: ٢٦٤).

فتشبيه العمل الصادر رياءً بالصخرة التي خطتها قشرة ناعمة من التراب تشبيه دقيق جدّاً، لأن المرائي له باطن خشن ومجدب، فيحاول تعظيمه بمظهر حسن وجميل، وهو من أجل حب الخير والإحسان من الناس اليه، فأعماله غير صادرة منه بجهته الواقعية، وليس لها اساس عاطفي ثابت لكن المعصوم لا يكون كذلك. فلاحظ.

(١) سورة التوبة: ١١١، لقد وعد الله المؤمنين ـ في هذه الآية الكريمة وعداً قطعياً ـ المجاهدين في سبيله بأنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة وهي تجارة لا نظير لها، فإنّ لكل معاملة خمسة أركان أساسية، وهي عبارة عن: المشتري والبائع والمتاع والثمن وسند المعاملة أو وثيقتها.

وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى هذه الأركان في هذه الآية المباركة، فجعل نفسه مشترياً والمؤمنين بائعين وأموالهم وأنفسهم متاعاً وسلعة، والجنة ثمناً لهذه المعاملة، وسند ذلك القرآن والتوراة والإنجيل، وعداً عليه حقاً، فإنّ الله تبارك وتعالى أصدق الصادقين، لا يحتاج إلى سند وضمان، فإنّه تعهّد بأهم الوثائق والضمانات أمام عبيده، وهل توجد معاملة أكثر ربحاً من هذه المعاملة؟

فالمقتول في سبيل الله استوفى أجره العظيم حتماً بنص القرآن الكريم، كيف وابن تيمية يقول: إنّ الله إن شاء يدخل الجنة وإن لم يشأ لا يدخل، فهل أنّ الله تعالى يخلف وعده؟ كلّا ثم كلّا.

منهم لله سبحانه وفى الله له بالثمن، أليس يصير ثمنه الجنة[(١)]؟ ولو نوقش الحساب فعلى ما نقلوه من الخبر يلزم كذب عامة ما دلّ من الفرقان العظيم على استحقاق المطيعين الجنة ورضى الله سبحانه وفضله ورحمته[(٢)] بل هم جميعاً مستحقّون

---

(١) فإنّ الاشتراء هو قبول العين المبيعة بنقل الثمن في المبايعة، وقد ذكر تعالىٰ في الآية الكريمة وعده القطعي للذين يجاهدون في سبيله بانفسهم وأموالهم، بأنّ لهم الجنة وجاء بذلك في قالب التمثيل وهو من لطيف التمثيل، فصوّر ذلك بيعاً وجعل نفسه مشترياً والمؤمنين بايعين، وأنفسهم وأموالهم سلعة ومبيعاً والجنة ثمناً إلى أن قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ (التوبة: ١١١) وبهذا البيان يظهر أنّ البشارة تحصل من مجموع ما يؤتيهم الله من الأجر في الآخرة والدنيا لا خصوص النصر والفتح.

وخلاصة الكلام: أنّ الآية الكريمة تقول: أن من ضحىٰ بنفسه وماله، في سبيل الله فكأنما باعه بشيء أغلىٰ وأثمن؛ إذ يستطيع أن يقوم مقام رأس ماله حياة دائمة، حافلة برضوان الله سبحانه ونعمه المادية والمعنوية،

ومما يلفت النظر أنّ البائع في هذه المعاملة هو الإنسان والمشتري هو الله تعالى والبضاعة هي النفس وثمنها رضوان الله، في حين إنّا نرىٰ في موارد أُخرىٰ أنّ الثمن في مثل هذه المعاملات هو الجنة الخالدة، ولعله لهذا السبب كانت «من» في الآية المباركة دلالة على أنّ بعض المؤمنين يستطيعون أن يقوموا بمثل هذه المعاملة بحيث لا يطلبون عوضاً عن أرواحهم وأنفسهم سوىٰ رضوان الله تعالى وإن كانت الدعوة إلى الكل.

ثم من أجل التأكيد على هذه المعاملة تضيف الآية الكريمة: ومن أوفىٰ بعهده من الله، أي أنّ ثمن هذه المعاملة وإن كان مؤجّلاً، إلّا أنّه مضمون ولا تكون نسيئة؛ لأنّ الله تعالى غني عن عباده، فلقدرته واستغنائه عن الجميع وكونه أوفى من الكل بعهده فلا ينسى، ولا يعجز عن الأداء، ولا يفعل ما يخالف الحكمة ليندم عليه ويرجع عنه ولا يخلف وعده ـ والعياذ بالله ـ وعلى هذا فلا يبقىٰ أي مجال للشك في وفائه بعهده وأدائه الثمن في رأس الموعد المقرر. فلاحظ.

(٢) قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ (سورة النساء: ١٢٤) وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ

للعقوبة بعد العلم بأنّهم فاعلون ما يرضى الله عنهم. والحديث الذي تأتي منه هذه الطامّة بهتان بيّن(١).

➡ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (سورة غافر: ٤٠) وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ٥٧) وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ (سورة النساء: ٥٧) وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلْصَّالِحَاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة المائدة: ٩) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (سورة الرعد: ٢٩) وإلى غير ذلك من الآيات.

فإنّ الحديث الذي يقول: إنّ من حوسب فسوف يعذب ومن نوقش الحساب يهلك، لا يمكنه المعارضة مع القرآن لأنّ القرآن الكريم ميزان لتشخيص الحق من الباطل والفي والثمين، ولا شك في كثرة الكذابة على الرسول والأئمة الطاهرينعليهم السلام واختلاط اخبارهم المروية عنهم صدقها بكذبها فيجب على العلماء أن يعرضوا الأخبار والروايات بالقرآن الكريم، فاذا كان مخالفاً للقرآن الكريم يضرب به عرض الجدار لأنّهمعليهم السلام صرحوا بأنّ ما جاءكم من المخالف للقرآن زخرف باطل فاضربوه عرض الجدار، وفي المقام أنّ هذه الآيات الكريمة وغيرها تدلّ علىٰ أنّ الجنة الأبدية إنّما هي لمن وعدها الله تعالى له، والخبر مدلوله أنّ من قال: سوف نحاسب يوم القيامة، أو قال: بأنّ الإنسان لو فعل خيراً سوف يرىٰ نتيجة عمله هذا يكون من الهلكات وهذا ينافي وعده تعالى للمؤمنين الجنة في قبال الأعمال الصالحة، لأنّ من عمل عملاً صالحاً فله أن ينتظر وفاء الوعد الإلٰهي، وهذا مقتضىٰ ظهور الآيات الكريمة والأخبار المعارضة لها يضرب بها عرض الجدار، لأنّ الخبر الواحد ظني الصدور والقرآن قطعي الصدور فلا تعارض بين الظن والقطع، ومن الطبيعي أن مثل هذه الحالة لابدّ أن يؤخذ بالقرآن ويضرب بالحديث عرض الجدار، فما ذكره ابن تيمية في غاية البطلان.

(١) وبعبارة أُخرىٰ: أنّ الخبر الواحد مع فرض كونه صحيحاً من جهة السند، أي كون سنده ومطابقاً لضوابط وقواعد علمي الرجال والحديث فلا يمكنه أن يعارض القرآن، لأنّ خبر الآحاد ظني الصدور، والقرآن قطعي الصدور فلا معارضة بين الظن والقطع. فلاحظ.

وسابعها: ما نقله من الخبر الذي دَلَّ على عدم ظلمه سبحانه لو عذّب جميع خلقه؛(١) فإنّه مثل سابقه بهتان بَيّن إذ لو لم يكن ذلك ظلماً لما وعد المطيعين من العباد بالمثوبات وبنعيم الجنّات، ومن هذه الجهة قال سبحانه في فرقانه العظيم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾(٢) فقد روي

---

(١) أخرج أحمد بن حنبل في مسنده بسنده عن ابن الديلمي قال: لقيت أُبيّ بن كعب، فقلت: يا أبا المنذر، إنّه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر، فحدّثني بشيء لعله يذهب من قلبي، قال: لو أنّ الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه هو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو أنفقت جبل أحد ذهباً في سبيل الله عزوجل ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر. وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير ذلك لدخلت النار، قال: فأتيت حذيفة فقال لي مثل ذلك، وأتيت ابن مسعود فقال لي مثل ذلك، وأتيت زيد بن ثابت فحدّثني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك (مسند أحمد بن حنبل ج٥: ص١٨٢) ورواه ابن ماجة في سننه ج١: ص٣٠، وأبو داود في سننه ج٢: ص٤١٣، وابن حجر في فتح الباري ج١١: ص٢٥٣، والطبراني في معجمه الكبير ج٥: ص١٦٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ج١: ص١١٥ ح٥٣٧ وغيرهم.

(٢) سورة طه: ١١٢، هذه الآية المباركة تقول: أنّ الله تبارك وتعالى وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنّ لهم نتيجة عملهم واعتبر سبحانه وتعالى الوفاء بالوعد حقاً للمؤمنين ولذلك يقول تعالى: فلا يخاف ظلماً اذ الوعد الالهي وعد غير مكذوب ولا هضما أي لا يكون الجزاء فيه نقصا وقال تعالى في سورة النساء الآية: ١٢٤: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ وقال تعالى في سورة الأنبياء الآية: ٩٤: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ ففي هذه الآيات وغيرها قيّد سبحانه وتعالى العمل الصالح بالايمان، وذكرت بأنّ الكفر سيحبط العمل الصالح، فبمقتضي الآيات والأدلة الدالة على حبط أعمال الكفار لا يترتّب الجزاء المقتضي للعمل الخير على أعمالهم الصالحة وأفعالهم الحسنة، لأنّ الإيمان شرط لقبول الأعمال والآيات الدالة علىٰ هذا الأمر كثيرة:

➲ منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٢٧).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ (سورة المائدة: ٥) وبهذه الصورة يعمد القرآن الكريم إلى نبذ كل العصبيات بكل بساطة حيث جعل كل القيمة في الإيمان ثم الجزاء هو للعمل الصالح، لأنّ الإيمان بدون العمل الصالح كالشجرة بلا ثمرة، كما أنّ العمل الصالح بدون إيمان كالشجرة من دون جذر؛ إذ قد تبقىٰ عدة أيام وتجفّ آخر الأمر فلا يمكن أن يوجد عمل صالح بلا إيمان.

والمهم في المقام أنّ المؤمن الذي كان يعمل الصالحات فهو يوم القيامة سيحصل على نتيجة أعماله الصالحة لأنّ الله تبارك وتعالى قد بشّر ووعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً عظيماً، قال الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ (سورة الإسراء: ٩) وقال تعالىٰ: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ (سورة الكهف: ٢) وهذا وعد إلٰهي بشّر به عباده المؤمنين فلا يخلف الله وعده قال الله تعالى: ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ عَهْدَهُ﴾ (سورة البقرة: ٨٠) وقال تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللهُ وَعْدَهُ﴾ (سورة الحج: ٤٧) وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ لاَ يُخْلِفُ ٱللهُ وَعْدَهُ﴾ (سورة الروم: ٦) وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ لاَ يُخْلِفُ ٱللهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (سورة الزمر: ٢٠) فمقتضىٰ هذه الآيات وغيرها أنّ المؤمن الذي يعمل الصالحات بإخلاص ومع شرائط قبول الأعمال يرىٰ استحقاق الجنة لنفسه جزاءً لأعماله الصالحة لأنّ الوعد الإلٰهي منجز لا يخلف أبداً.

ولا بأس بالإشارة هنا إلى الفرق بين الظلم والهضم المذكور في الآية الكريمة، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾ إشارة إلى أنّ المؤمنين الصالحين لا يخافون الظلم ولا النقصان في العمل أبداً، لأنّ المحكمة الإلٰهية العادلة تعطي حق كل ذي حق في مكانه ومحله، فمن عمل صالحاً فيستحق أجره في تلك المحكمة العادلة ولا ينقص من أعمالهم الصالحة شيئاً، لأنّ المحكمة الإلٰهية هي محكمة عادلة لا يمكن فيها تصوّر النقص.

واحتمل بعض المفسّرين هنا بأنّه قد يخطئ الكاتبين في كتابة الحسنات والله تبارك وتعالى يقول:
➲

في الدر المنثور بطرق عن جماعة من الصحابة: إنّ الظلم فيها الزيادة في سيئاته، والهضم النقص من حسناته[١]. ونقل السنّي فيما مضى تفسيرها[٢].

➲ بأنّ المؤمنين الذي يعملون الصالحات لا يخافون من محو حسناتهم نقصان، ولو مقدار قليل منها؛ لأنّ الحساب الإلهي دقيق جداً، ولذلك قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٤) فهؤلاء مستحقون إلى اللطف الإلهي لأنّ الله سبحانه بشّر عباده الصالحين بأنّه لا يضع أجر عملهم، وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ (سورة الإسراء: ١٩) فإنّه تبارك وتعالى في مقام الشكر والثناء على عباده الصالحين فيشكر لهؤلاء سعيهم وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف: ٣٠) أي إنّا لا نضيع أعمال العاملين قليلة كانت أعمالهم أو كثيرة، كلية كانت أو جزئية، وفي أي زمان من عمره أُولئك لهم حيات عدن.

(١) الدر المنثور لجلال الدين السيوطي ج٤: ص٣٠٨.

(٢) قال ابن تيمية: والظلم وضع الشيء في غير موضعه، فالله تبارك وتعالى لا يضع العقوبة إلّا في المحل الذي يستحقّها... (منهاج السنّة ج١: ص١٣٩).

أقول: كيف يمكن الجمع بين هذا التعريف للظلم، وقوله: لو عذّب الله أهل سماواته وأرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم فرحمته خير لهم من أعمالهم (أنظر منهاج السنّة ج١: ص٤٦٦).

وبعبارة أوضح: إذا كان معنى الظلم عنده وضع الشيء في غير محله، فإنّ عذاب المعصومين وعذاب من لا يستحق العقوبة وضع في غير موضعه، ومعنى قوله: لو عذّب أهل سماواته وأرضه لعذّبهم أي بما فيهم من المعصومين والأنبياء والملائكة والشهداء والصالحين و... والوجه الذي يذكره لهذا الإدّعاء المزعوم هو أنّ الله تعالى مالك لكل شيء فله أن يتصرّف في مملوكه كيف يشاء.

والوجاب عنه واضح لمن له أدنى تأمّل في البحث، حيث أنّ الله تعالى مالك لكلّ شيء وله التصرّف في جميع ملكه إلاّ أنّه تبارك وتعالى حكيم في تصرّفاته، فهو مدبّر في أفعاله، ➲

فانظر الذي يُنزّه نفسه عن أقل الظلم وهو الزيادة في سيئات عبده المؤمن كيف يجوّز في حقّه ظلم عامة عباده المطيعين بأن يعاقبهم جميعاً ويكون ذلك منه ليس بظلم؟!(١)

⬅ فلايصدر منه ما يخالف الحكمة.

وبعبارة أُخرى: كما يلزم علينا أن نعتقد بالتوحيد في مالكيته يلزم علينا الاعتقاد بالتوحيد في ربوبيته، فإنّه حكيم في تدبيره، فلايفعل شيئاً مخالفاً للحكمة. فلاحظ.

فالقول بأنّ الله له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء ولو على خلاف الحكمة بحجة أنّه مالك لكل شيء أمر لا يقبله العقل المستقل، ولا معنى للقول بأنّه يجوز له تعذيب المعصومين وتكريم مجرمين، لأنّ ذلك من ابرز مصاديق الظلم، فما ذكره ابن تيمية باطل على مبناه لأنّه يقول: أن الظلم وضع الشيء في غير محله وفي المقام أنّ تعذيب المعصومين وضع الشيء في غير محله. فلاحظ.

(١) قال الله تعالى: ﴿لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ (سورة النساء: ٤٠) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة يونس: ٤٤).

وقد ورد في الحديث القدسي أنّه تعالى قال: يا عبادي، إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... يا عبادي! إنّما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أُوفيكم إياها (صحيح مسلم ج٨: ص١٧ كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم) فالمستفاد من الآية والرواية أنّ الله تبارك وتعالى حرّم الظلم على نفسه فلايظلم أحداً.

وعليه: كيف يصح الأخذ بمدلول حديث عائشة الذي فيه: لو عذب جميع الخلق كان له ذلك؛ فإنّ في الخلق من لا يستحق العقوبه قطعاً لعصمتهم وتسليمهم لاوامر رب العالمين، فبناءً على صحة الحديث من جهة السند لابد أن يؤول عند علماء أبناء أهل السنّة، ومنهم ابن تيمية، حيث لو أُخذ بظاهر الحديث معناه أنّ الله تبارك وتعالى لو عذّب أهل سماواته وأرضه كان أمراً صحيحاً منه تعالى، ولكنّه مخالف للحكمة والعدل، بل ظلم صريح لأنّ بعض الموجودين في السماوات والأرض من المعصومين، والمعصوم هو لم يرتكب ذنب أصلاً، ⬅

فياعجبى هو سبحانه يعد مادون ذلك ظلماً[١] ومن تسمى بأهل السنّة ينسبون اليه الذي يعسر ضبطه، ويزعمون أنّه ليس بظلم بل هم متناقضون حيث يفسّرون آية[٢] «ومن عمل الصالحات» بما عرفت وينسبون الى حضرته المقدسة

فكيف يجوز تعذيب من لم يرتكب ذنب؟ أليس تعذيبه يكون ظلماً والله تبارك وتعالى حرّم الظلم على نفسه، فلايمكن الأخذ بظاهر حديث عائشة مع قطع النظر عن السند.

نعم إذا كان التعبير على نحو القضية الشرطية أي كان تعبيره كالتالي: لو كان جميع أهل الأرض مذنبين لكان حقاً على الله أن يعذّبهم جميعاً لا على نحو القضية الحقيقية بنحو العموم الشامل للجميع مع ما فيهم من المعصومين ومن لا يستحق ذلك، فإنّ هذا مخالف للعدل بل هو ظلم والله تعالى منزّه عن الظلم، وأنّ أفعاله موافقة للحكمة والمصلحة فالحديث لا يجوز الأخذ به.

(١) قال الله تعالى: ﴿لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (سورة النساء: ٤٠) فقد أبطل سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة دعوىٰ أهل السنّة، حيث أنّهم جوزوا في حقه الظلم، فالآية تقول: أن الظلم ولو بمقدار ذرة بعيد عن ساحة الربوبية، والذرة عبارة من الشيء الصغير التي لا تراه الأعين.

وقال البعض: هي من أجزاء الهباء والغبار في الهواء التي تظهر خلال شعاع الشمس، وقيل: إنّه الغبار الدقيق المتطاير من يدي الإنسان إذا جعلها علىٰ التراب وما شابه ذلك، وعلى اي تقدير فإنّها تطلق على كل شيء صغير جداً، فالآية تقول: انّ الله لا يظلم قط حتى بمقدار ذرة صغيرة، فالعقوبات إنّما هي جزاء العاصين السيئة. فلاحظ.

(٢) قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً ...﴾ أي منع ثواب مستحق بالوعد (تفسير البيضاوي ج ٤: ص٧٢).

وقال ابن كثير: فلا يخاف ظلماً ولا هضماً. قال علماء التفسير: أي فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا تهضم بأن ينقص من حسناته... (تفسير ابن كثير ج٢: ص٢٠٧).

وقال أبو السعود: ﴿فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً ...﴾ أي منع ثواب مستحق بموجب الوعد (تفسير أبي السعود ج٦: ص٤٣) والى غير ذلك من كلمات القوم، فإنّهم قد صرّحوا في تفاسيرهم بأنّ الله تعالى لا يظلم عباده، وهذا ينافي اعتقادهم في باب قدرته تبارك وتعالى، حيث يقولون: أنّ قدرته غير مقيّدة بالحكمة والمصلحة ولم يقيّد بالحسن والقبح العقلي. فلاحظ.

ما يناقض الذي نزّهوه عنه[١]، فتدّبر.

وثامنها: ما زعموه من أنّه سبحانه لو عذّب جميع خلقه لم يكن ذلك ظلماً منه؛ فإنّه مناقض لما دلّ تنزيهه سبحانه نفسه عن الظلم وتحريمه له على نفسه من حيث عدم تصوّر ظلم بالنسبة اليه بعد زعمهم بأنّ تعذيبه جميع خلقه ليس بظلم منه، فيصير ما دلّ على تحريمه الظلم على نفسه ليس له معنى وهو مناقض لما زعمه الجمهور منهم من كون الظلم منه سبحانه ممكناً، لكنه لم يصدر، ولن يصدر منه لتحريمه له على نفسه، فيقال لهم: أين مورده ومحله حتى تتعلّق به الحرمة بعد زعمكم أنّه سبحانه غير ظالم على تقدير تعذيبه جميع خلقه من رسله وملائكته

---

(١) فإنّهم خالفوا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾ (سورة طه: ١١٢) حيث زعموا أنّ الله تعالى له أنّ يعذّب جميع أهل السماوات والأرض مطلقاً من دون قيد وشرط استناداً إلى حديث عائشة، واعتقاداً بأنّ القدرة الإلٰهية غير مقيدة بالحكمة والمصلحة، ولكن الآية الكريمة جعلت العذاب لمن يستحقّه، وأكّدت على أنّ العذاب إذا كان من غير استحقاق لكان ظلماً منه تعالى، والله سبحانه منزّه عن الظلم مطلقاً، فالله تبارك وتعالى يقول في هذه الآية: إنّ المؤمن الذي يعمل الصالحات فلا يعذبه الله، لأنّ عذابه يكون ظلماً، ولذلك نجد أهل السنّة عندما يصلون إلىٰ هذه الآية الكريمة وتفسيرها يعترفون بأنّ الله لا يعذّب المؤمن إذ لو عذّبهم يعدّ بذلك ظالماً ـ والعياذ بالله ـ

قال صاحب شرح العقيدة الطحاوية: بعد ذكر الآية الكريمة: وكذلك لا يعاقب أحداً إلّا بعد حصول سبب العقاب... (شرح العقيدة الطحاوية: ص٤٨٧) كذلك غيره، ولكن مع ذلك كله عندما يأتون إلى بحث القدرة الإلٰهية يقولون: إنّ الله تعالى له القدرة على أن يعذّب جميع خلائقه حتى المؤمن وحتى الأنبياء والمرسلين، فإنّ ما ذكروه هنا مناقض لما يزعمونه في باب القدرة الإلٰهية.

وهناك آيات كثيرة تدل على أنّ الله تعالىٰ لا يظلم خلقه أبداً، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (سورة غافر: ١٧). وغيرها من الآيات. فلاحظ.

وخيار عباده[١]؟

---

(١) وخلاصة الكلام: إنّ أكثر أهل السنّة جوّزوا في حقّه تعالى تعذيب الناس بلا سبب ولا علة حيث أنّهم يعتقدون بعدم وجود الحكمة والمصلحة في أفعال الله عزوجل وايضاً يعتقدون بأنّ أفعال الله عزوجل غير معللة بالأعراض والحِكَم فيزعمون أنّ الله تعالى يفعل ما يشاء وإن كان فعله مخالفاً للعدل بل وان كان فعله ظلماً أي إن كان فعله مخالفاً للحكمة والعقل؛ ويقولون في وجه ذلك أنّه لا شأن للعقل في درك أفعال رب العالمين.

ولذلك صححوا حديث: لو أنّ الله عذّب أهل سماواته... المتقدّم ذكره.

قال الملّا علي القاري، في كتابه شرح مسند أبي حنيفة عند شرح هذا الحديث: قال أهل السنّة والجماعة: إنّ الله سبحانه لا يجب عليه إثابة مطيع ولا عقوبة عاص... وعلى هذا القياس لو عذّب الأنبياء المعصومين، وإنّما تركهم لظهور أمرهم... (شرح مسند أبي حنيفة: ص ٣٨٠ ـ ٣٨١).

وقال الطيبي في شرح هذا الحديث ما هذا نص عبارته: وفيه (أي في الحديث) إرشاد وبيان شاف لإزالة ما طلب منه؛ لأنّه هدم به قاعدة القول بالحسن والقبح عقلاً، لأنّه مالك السماوات والأرض، ما فيهن ينصرف في ملكه كيف يشاء، فلا يتصوّر منه ظلم لأنّه لا يتصرف في ملك غيره (نقلاً من حاشية السندي على سنن ابن ماجه ج١: ص٦٨).

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ...﴾ (سورة العنكبوت: ٢١) قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد... فله الخلق والأمر مهما فعل، لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: إنّ الله لو عذّب أهل سماواته وأرضه... (تفسير القرآن العظيم ج٣: ص٤١٩).

وقال صاحب مشكاة المصابيح في شرح الحديث: (أو أنّ الله عزوجل عذّب أهل سماواته) من الملائكة (وأهل الارض) من الأنبياء والأولياء وغيرهم (عذّبهم وهو غير ظالم لهم) الواو للحال، إرشاد وبيان شافٍ لإزالة ما طلب منه؛ لأنّه هدم قاعدة الحسن والقبح العقليين ؛ لأنّه مالك الأرض والسماوات. وما فيهم فله أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا يتصوّر في تصرفه ظلم؛ لأنّه ليس تصرف في ملك الغير ولا ملك للغير أصلاً... (مشكاة المصابيح مع

➲ شرحه مرقاة المفاتيح ج١: ص٤٩٢ – ٤٩٣).
وإلى غير ذلك من كلماتهم، فإنّها تدلّ بالصراحة على أنّ الله تعالى لو عذّب أهل الدنيا بأجمعهم بما فيهم المطيعين وأنبيائه والمرسلين كان ذلك عدل وليس بظلم، وإن كان مخالفاً لحسن العقل وقبح الظلم.

أقول: بناءً على زعمهم في أفعال الله عزّوجلّ من جواز صدور الظلم منه ـ والعياذ بالله ـ وقبولهم الحديث مع ما ذكروه من التفاسير له، فقد اعترفوا بذلك أنّ الله سبحانه وتعالى يجوز أن يظلم عباده، إذ بناءً علىٰ هذا الاعتقاد جوزوا تعذيب جميع أهل السماوات والأرض بما فيهم من لا يستحق العقوبة بل من هو من المعصومين الذين وعدهم الله بالجنة، ولا فرق في ذلك بين أن نقول معنى الظلم وضع الشيء في غير موضعه، أو بمعنى التعدّي في ملك غيره أو غير ذلك؛ فإنّهم جوزوا صدور الظلم من الله سبحانه مطلقاً، فيقولون أنّ الله سبحانه له أن يعذّب جميع أهل السماوات والأرض؛ لأنّه مالك الملك فله أن يتصرّف في ملكه كيف يشاء ولم يتأمّلوا في أنّ الله تعالى مدبّر للأمور، وأنّ تدبيره يكون بالحكمة، فهم سمعوا أنّ الله تعالى مالك لكل شيء وله أن يتصرّف في ملكه كيف يشاء ولكن لم يتأمّلوا في أنّه تعالى مدبّر للأمور بالحكمة.

وبعبارة أُخرى: أنّهم عرفوا معنى التوحيد في المالكية، ولكن غفلوا عن التوحيد في الربوبية. فلاحظ.

قال السني:

وأمّا ما نقله عنهم أنّهم يقولون: إنّ الأنبياء غير معصومين، فهذا الإطلاق نقل باطل عنهم؛ فإنّهم متفقون على أنّ الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى.

وهذا هو مقصود الرسالة بحيث لا يجوز أن يستقر في ذلك شيء من الخطأ.

وتنازعوا: هل يجوز أن يسبق على لسانه ما يستدركه الله تعالى ويبيّنه له بحيث لا يقره على الخطأ، كما نقل أنّه ألقىٰ على لسانه ﷺ تلك الغرانيق العلىٰ وأنّ شفاعتهنّ لترجى، ثم إنّ الله نسخ ما ألقاه الشيطان وأحكم آياته، فمنهم من لم يجوّز ذلك ومنهم من جوّزه؛ إذ لا محذور فيه، فإنّ الله ينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته.

وأمّا قوله: «قد يقع منهم الخطأ» فيقال له: أنّهم متفقون علىٰ أنّهم لا يقرون على خطأ في الدين، ولا على فسق ولا على كذب.

ففي الجملة: كلّ ما يقدح في نبوّتهم وتبليغهم عن الله سبحانه فهم متفقون على تنزيههم عنه، وعامة الجمهور الذين يجوّزون عليهم الصغائر يقولون: أنّهم معصومون من الإقرار عليها، فلا يصدر عنهم ما يضرّهم كما جاء في الأثر: كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، والله تعالى يحب التوّابين ويحب المتطهّرين، وأنّ العبد ليفعل السيئة فيدخل بها الجنة.

وأمّا النسيان والسهو في الصلاة فذلك واقع منهم، وفي وقوعه حكمة استنان المسلمين بهم.

ونقل عن موّطأ مالك: إنّما أُنسي أو أُنسى لأسنّ، وقد قال ﷺ: إنّما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّروني. أخرجاه في الصحيحين ونقله أنّهﷺ صلّى بهم خمساً[١].

---

(١) منهاج السنّة ج١: ص٤٧٠ - ٤٧٣.

قلت:

في هذه النبذة من العجائب ما نبيّنها بوجوه:

أحدها: إنّ قوله فيما نقله الشيعي نقل باطل[١] من عجائبه؛ لما علم من بعض مقدّمات علم المناظرة وهو علم المنطق أنّ القضية المعدولة المحمول مفادها إيجاب جزئي[٢]، فإنّ قول القائل: الرسل غير معصومين يصدق ولو ثبت خطأهم

---

(١) إنّ ما نسبه العلّامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه) إلى علماء أهل السنّة من أنّهم ذهبوا إلى: أنّ الأنبياء غير معصومين بل قد يقع منهم الخطأ والزلل والفسوق والكذب والسهو وغير ذلك... (منهاج الكرامة: ص٣٢) كلام دقيق مطابق لما ذهب إليه علماء أهل السنّة، فإنّ كل من يعرف العربية والقواعد المنطقية حينما يرجع الى كتبهم ويقرأ عباراتهم المدوّنة في هذا المجال يذعن بأنّهم معتقدين بعدم عصمة الأنبياء بصورة مطلقة، وإن اختلفوا في تحديد العصمة إلى أقوال، وسيتبين ذلك للقارئ الكريم.

وخلاصة الكلام: أنّ من يقرأ كتب أهل السنّة في هذا المجال يحصل له العلم القطعي بأنّ مقصودهم هو عدم عصمة الأنبياء على نحو الإطلاق والعموم.

ولا يخفىٰ على الخبير أنّ نقيض السالبة الكلية هي الموجبة الجزئية، أي القول بعدم العصمة على نحو العموم معناه: جواز ارتكاب بعض الذنوب، كما سيأتي تفصيل الكلام فيه ان شاء الله تعالى.

(٢) وتوضيح المقام: إنّه ربّما يتوهم البعض أنّ مفاد القضية السالبة مثل قولك: ليس محمد في

➲ الدار هو نفس مفهوم قولك: محمد ليس في الدار، فلا فرق بين القضيتين أصلاً.

ولكن هذا التصوّر باطل قطعاً، وعدم التمييز بين الهاتين القضيتين لعله صار سبباً للمغالطات الكثيرة والشبهات في الأدلة والحجج، وعلى ضوئه التجأ المنطقيون الى تقسيم القضايا باعتبار تحصيل الموضوع والمحمول وعدولهما إلى قسمين: محصّلة ومعدولة.

أمّا المحصّلة: فهي القضية التي يكون موضوعها ومحمولها معاً محصّلاً، سواء كانت القضية موجبة أو سالبة، فإذا قلنا: الجوّ نقي، أو قلنا: الجو ليس ببارد، فهي قضية محصّلة باعتبار أنّ الموضوع أو المحمول كليهما يدلان على أمر إيجابي، والفرق بين القضيتين أنّ الأُولى هي موجبة والثانية سالبة، وهذا ما يسمىٰ بمحصّلة الطرفين.

وأمّا المعدولة: فهي القضية التي تكون الموضوع أو المحمول أو كلاهما معدولاً، أي داخلاً عليه حرف السلب على وجه يكون جزءاً من الموضوع أو المحمول أو كليهما معدولاً وتسمىٰ معدولة الموضوع أو معدولة المحمول أو معدولة الطرفين حسب دخول العدول على أحد طرفيها أو كليها.

مثال معدولة الطرفين: كل لا عالم هو غير صائب الرأي، كل غير مجد ليس هو بغير مخفق في الحياة.

ومثال معدولة المحمول: الهواء هو غير فاسد، الهواء ليس هو غير فاسد.

ومثال معدولة الموضوع: غير العالم مستهان، غير العالم ليس بسعيد.

وإنّ مما يلزم التنبيه اليه هنا هو بيان الفرق بين معدولة المحمول وبين السالبة، محصّلة المحمول فنقول: إنّه يوجد فرق بينهما من ناحيتين:

أوّلاً: من ناحية المعنى: فإنّ القضية السالبة قد سُلب فيها الحمل، فعندما تقول: حسن ليس بجالس، أي حسن قد سلب عنه الجلوس، وأما إذا قلنا حسن لا جالس، فالقضية موجبة ولكنها معدولة المحمول، فقد حمل فيها لا جالس الذي هو عدم الجلوس على حسن، والفرق بين سلب الحمل وحمل السلب واضح جداً. فإنّ النفي في الثاني تكون باعتبار انتفاء الموضوع، أمّا في الأوّل إنّ النفي ليس كذلك بل مجرد سلب الجلوس فقط.

ثانياً: من ناحية اللفظ: فإنّ قضية المعدولة غالباً ما يستعمل فيها حرف الربط أعني كلمة (هو) ➲

في فعل الصغائر، فليس معناها سلباً كلياً حتى يستفاد منها خطأهم في كل شيء[١]

فيقال: حسن هو غير جالس، أو حسن هو لا جالس، بخلاف القضية السالبة فلا يستعمل فيها ذلك، فتقول: حسن ليس بجالس، وأيضاً غالباً ما تستعمل في القضية السالبة (ليس) وفي المعدولة (لا) أو (غير).

وبعد وضوح هذه المقدّمة نرجع إلى قول العلّامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه) فإنّه قال: إنّ أهل السنّة يقولون: إنّ الأنبياء غير معصومين، بل قد يقع منهم الخطأ والزلل... فهل هذه القضية هي سالبة محصّلة أو معدولة المحمول؟!!!

(١) وبعبارة أوضح: إنّ الجملة التي ذكرها العلّامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه) في المقام قضية إيجابية معدولة المحمول، مثل قولك: زيد غير قائم، فمقتضىٰ القاعدة الأدبية والمنطقية أنّ العدول يكون في المحمول، ومفادها ربط السلب بالمحمول أي مثل حمل غير قائم على زيد، فالقضية ـ حينئذٍ ـ تكون موجبة لا سالبة، والفرق بين سلب الحمل وحمل السلب واضح جداً وعليه فإنّ ما أفاده العلّامة؛ في المقام واضح من حيث الدلالة والمقصود إذ من الظاهر الواضح أن مقصوده ليس حمل السلب بل مقصوده سلب الحمل أي أنّ أهل السنّة يقولون: بأنّ الرسل غير معصومين، حيث أنّ علماء أهل السنّة يجوزون ارتكاب الصغائر لهم على الأنبياء.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّهم يقولون بأنّ عصمة الأنبياء ليست بمعنى عدم ارتكابهم الذنب مطلقاً بل العصمة عندهم هي العصمة عند نزول الوحي واستلامهم الوحي، وكذلك عدم خطأهم في تبليغ الرسالة، وأمّا في سائر أعمالهم فهم كبقية الناس العاديين يجوز لهم ارتكاب الذنوب؛ ولذلك قال العلّامة الحلّي (رضوان الله تعالى عليه): أنّ أهل السنّة يقولون: إنّ الأنبياء غير معصومين، بل قد يقع منهم الخطأ والزلل والفسوق والكذب وغير ذلك... (منهاج الكرامة: ٣٢).

وهذا ليس معناه سلب العصمة عنهم كلياً حتى يستفاد من قوله: بأنّه نسب إلى علماء أهل السنّة والجماعة بأنّهم قالوا: إنّ الأنبياء يرتكبون الخطأ في كل حال، وكل شيء بل معناه كما تقدّم سلب الحمل أي القضية الموجبة، حيث أنّه يحمل جملة السلب على الموضوع ومعناه: إنّ اعتقاد أهل السنّة مرجعه إلى عدم عصمة الأنبياء وعدم العصمة، أي قد يصدر منهم الخطأ.

فيالهفي على السنّي حيث تردىٰ بهذه الورطة التي ينزّه عنها أصاغر طلبة العلم، فكيف بمن جعل نفسه في المرتبة القصوىٰ منه فأخذ يردّ بزعمه على مشيّدي الدين ومروّجيه، وليته لم يدخل نفسه في هذه الحلبة لما عرفته من لزومه لجهة الباطل منها، فأضرّ نفسه وغشّ غيره ممن ليس له خبرة بالمنقول والمعقول، والله سبحانه وليّ التوفيق(١).

وخلاصة الكلام: إنّ ما ذكره العلّامة؛ كلام دقيق في النسبة إلى علماء أهل السنّة وإن كان يصح نسبة السلب الكلي إلى علماء أهل السنّة، لأنّ علماء المنطق يقولون نقيض الموجبة الكلية السالبة الجزئية ونقيض السالبة الكلية الموجبة الجزئية، إذن يمكن على هذا الأساس أن ينسب إلى علماء أهل السنّة، بأنّهم ذهبوا إلى عدم عصمة الأنبياء لأنّ نقيض الموجبة الجزئية في العصمة يوجب الالتزام بعدمه كما هو واضح ظاهر. فلاحظ.

(١) لاشك أنّ المنهج الذي يتخذه الباحث في محاوراته العلمية أكبر دليل علىٰ اعتبار شخصيته وديانته وأخلاقه، وإلّا فإنّ البحث العلمي لا يفقد طبيعته العلمية المقبولة لدىٰ جميع العلماء؛ لأنّ البحث العلمي علىٰ ضوء الحقائق المسلمة، يعد ضرورة من الضروريات عند أهل العلم فلا يمكن إنكاره، بل إنّ الحقائق العلمية تخضع لها كل إنسان حرّ مجرد عن العصبية والعناد العمياء؛ فإنّ الإنسان المفطور على قبول الحق يخضع ظاهراً وباطناً للحق وان كان الحق مخالفاً لمصالحه الدنيوية.

ولايخفى أنّ سبب عدم قبول الحق وإنكاره يرجع إلى حالة الاستكبار وعدم التسليم للحق، فإنّ هذا النوع من التكبّر من أقبح أنواعه حيث يغلق على الإنسان جميع سبل الهداية، ولذلك وصف أميرالمؤمنين عليه السلام الشيطان بأنّه: سلف المستكبرين (اُنظر الخطبة القاصعة من نهج البلاغة) لأنّ أوّل من خطّأ في طريق مخالفة الحق بعدم تسليمه للحقيقة الربّانية هو الشيطان، حيث أنّه اعترف بالحكمة الألٰهية وقبل بأنّ آدم عليه السلام أكمل منه، ولكن مع ذلك عاند واستكبر فخالف أمر ربه، فالعناد والتكبّر يمنعان من قبول الحق، ولذلك قال الله تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ...﴾ (سورة البقرة: ١٤٥) هذه الآية تصرّح بأنّ عناد هؤلاء ولجاجهم ليس من جهة خفاء الحق عليهم؛ لأنّهم

➲ عالمون بالحقيقة، وإنّما الباعث للعناد واللجاج هو بثّ الاعتراض وإثارة الفتنة لجحودهم الحق، لأنّهم كانوا يأبون الاستسلام للحق ولم توجد فيهم روح طلب الحقيقة، ومن هذه الجهة يقول تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أي لا يتبعون الحق.

فلا شك أنّ جميع الأنبياء كانوا يواجهون مثل هؤلاء المعاندون للحق والحقيقة، إمّا لكونهم أثرياء متنفّذون بين الناس، وإمّا لكونهم علماء منحرفون، وإمّا جهلاء معجبون فكانوا يعانون مخالفة هؤلاء معاناة التعب والكرب، وعند سعيهم لإجتثاث هذه الأُصول الفاسدة كانوا يواجهون الخدع والفتن وأمثال ذلك.

فكل باحث عن الحق والحقيقة يلزم عليه أن يتخذ منهجاً سليماً في البحث العلمي الموصل إلى الهدف وهو الوصول الى الحقيقة.

ولقد علّمنا مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام علائم العقائد العلمية وغير العلمية ببيان جامع مبسوط، فللباحثين أن يدقّقوا في هذا الكلام العظيم، ومن الجدير أن نذكر هذا الحديث المبارك هنا لنعرف خصائص علماء الحق، ثم نتناول ما ورد في كلامه عليه السلام من العلائم واحدة واحدة بالدرس والبيان، كي نطّبقها على أنفسنا ونكون طالبين للحق والحقيقة.

أمّا الحديث فهو قوله عليه السلام: إنّ العالم من عرف أنّ ما يعلم فيما لا يعلم قليل، فعد نفسه بذلك جاهلاً فازداد بما عرف من ذلك في طلب العلم اجتهاداً، فما يزال للعلم طالباً وفيه راغباً، وله مستفيداً، ولأهله خاشعاً، ولرأيه متهماً وللصمت لازماً وللخطأ حاذراً، ومنه مستحياً وإن ورد عليه ما لا يعرف لم ينكر ذلك لما قرّر به نفسه من الجهالة (تحف العقول: ص٧٣، ومستدرك نهج البلاغة ج ٤: ص٢٠٠، وبحار الأنوار ج ٧٤: ص ٢٢٣) وهذا البيان العظيم تبيّن سبع علائم للعلماء الحقيقيين وهي:

١ـ الإهتمام بالمجهولات، والتعطّش المتنامي لإكتساب العلم، فانّ علماء الحق وأصحاب الآراء والعقائد السليمة لا يكتفون بمعلوماتهم فحسب، وإنّما يسعون لتحصيل العلوم ورفع مجهولاتهم بالمعلومات الجديدة ليتبلور لهم الحق والحقيقة بأعلىٰ صورته، وكلّما تزداد المعلومات يعرف العالم بأنّ مجهولاته أكثر من معلوماته، حيث أنّ معلوماته محدودة وأنّ ➲

⬅ مجهولاته غير محدوده وليس لها نهاية، فلا تقاس المحدود بغير محدود، ولمّا يتطور العلم يكتشف كل يوم أسراراً جديدة عن عالم الخلقة وأسرارها المكنونة فيه، أليس هذا إشارة الى عجز الإنسان بالنسبة إلى العلم الواقعي بجميع الأشياء؟ وما ازداد العالم علماً على علم إلّا ازداد معرفة بأسرار الوجود وتعقيده، مما يؤدي إلى ظهور مزيد من العلامات المحتاجة للتحقيق كما يتضح له مزيد من المجهول.

وبناءً عليه: فكلّما ازدادت معلومات الإنسان ازدادت له المعرفة بأنّ مجهولاته أكثر، حتى يرىٰ العدد قاصراً عن بيان المسافة بين معلوماته ومجهولاته، وذلك لأنّ معلوماته محدودة ومجهولاته لا تتناهى، والعدد عاجز عن إحصاء ما لا يتناهىٰ، ولذلك قال الإمام عليه السلام: إنّ العالم من عرف أنّ ما يعلم فيما لا يعلم قليل، فعد نفسه بذلك جاهلاً، وهذا بعينه معنى القول المنسوب إلى سقراط: بلغت من العلم حتى علمت أني جاهل.

٢ـ التعطّش المتنامي لإكتساب العلم، فبعد أن يزن العالم معلوماته بالنسبة لمجهولاته بميزان الدقة، يفهم أنّ ما يعلم بالنسبة إلى ما لا يعلم شيء لا يحتسب، ليشتد ظمأ الإطلاع والوعي في روحه ويزيد العشق والولع بالعلم قدرته وسعيه لمعرفة حقائق الوجود، كما قال الإمام عليه السلام العالم لا يشبع من العلم ولا تشبع به (ميزان الحكمة ج٣: ص٢٠٧١).

وقال عليه السلام: الذي لا يمل من تعلّم العلم (عيون الحكم والمواعظ: ص٤٧) وعلى جهة النقيض تماماً اشباه العلماء وهم من يصدّهم داء اعتبار النفس عالماً عن مداومة الدراسة، ولا ينتج هذا الداء الفرصة للمصاب حتى يحقّق فيما لا يعلم بل يوهمه بأنّه عليم بكل شيء ولم يعد نفسه ناقصاً كي يحصل العلم ويكتسبه.

٣ـ التواضع لأهل العلم، فإنّ العلامة الثالثة التي أشار إليها الإمام عليه السلام ضمن ما أشار به إلى العالم الحق هي الخضوع والتواضع لأهل العلم، فمهما بلغ الإنسان من العلم إذا قارن ما علم بما جهل، لم يتملّكه الغرور، فيحبس نظره فيما علم ليس إلّا، بل إنّه ليأخذ تحقيقات الآخرين وعلومهم بعين الاعتبار ويقدرها وعلى خلاف ذلك العلماء الخياليون الذين يعتبرون أنفسهم أعلم العلماء ويتوهّمون أنّه لو تواضعوا للعالم لكان ذلك منقصة من قدرهم العلمي ويتصوّرون أنّ الناس سيعزون احترامهم للعلماء الآخرين إلى قلة علمهم، وبهذا يتظاهرون ⬅

➡ بأنّ العلم تناهى لديهم ولا علم أو عالم بعدهم، فهؤلاء ليس لديهم إلّا التصوّر الباطل الذي لا يصله إلى شيء.

٤ـ اتهام الرأي الذاتي، ورابعة علامات العالم الحق فيما أورده الإمام عليه السلام من الخصائص هي إتّهام الشخص رأيه ونظره، فالعالم الواقعي الواعي لا يبرئ رأيه أو نظره من الخطأ مطلقاً، بل إنّه لينظر اليه بعين الإتهام، ولا يعتبر أي فرضية نظرية علمية منطقية منطبقة على الواقع ما لم تثبت لديه بصورة قطعية، فما أكثر الآراء والعقائد التي ظلت القرون المتمادية على العالم باعتبارها نظريات علمية قطعية حتى تغيّرت بالتطوّر العلمي لبطلانها ودونك فرضية بطلميوس في علم الهيئة وأمثالها في المسائل النظرية ليست قليلة.

٥ـ اختيار الصمت، وخامسة ميزات العالم الحق في كلام الإمام عليه السلام هى ملازمة الصمت، إنّ العالم الواقعي المدرك بأنّ معلوماته نزر يسير أمام مجهولاته التي لا تعد ولا تحد، لا يسمح له عقله إبداء رأيه في كل مسألة، وإنّ هذا على خلاف المبتلين بالغرور العلمي واعتبار النفس عالماً، والذين لا يتريّثون بل يتعجّلون الإجابة عما يسألون دون تأمل، أُولئك الذين لا يقتصر على وصفهم بأنّهم ليسوا علماء، وإنّما هم مرضىٰ، أو كما نعتهم الامام الصادق عليه السلام بانهم مجانين: ان من أجاب في كل ما يسأل عنه لمجنون (معاني الأخبار: ص٢٣٨).

٦ـ التحفّظ من الخطأ، وهو الميزة السادسة فيما أورده الإمام عليه السلام من علامات العالم الحق، فمن برئ من الغرور العلمي وعرف مقدار ما يجهله إذا أراد أن يبدي رأياً في مسألة ما استجمع فكره وسيطر علىٰ حواسه حذر الوقوع في الخطأ، ثم يظهر رأيه بكل دقة آخذاً كلية أبعاد المسألة المعنية وجوانبها المختلفة بعين الاعتبار، فلسان العاقل وراء عقله دائماً (نهج البلاغة: الكلمات القصار رقم ٤٠) فلا ينطق مطلقاً بكلام غير موزون تحاشياً لارتكاب الخطأ فيما يقول، على خلاف المبتلىٰ بالغرور العلمي باعتبار تخيله في نفسه بانّه يكون عالماً بالذي يبدي رأيه ارتجالاً دون تأمّل في كل يعرض.

٧ـ عدم إنكار المجهول. وآخر العلامات التي حدّد بها الإمام عليه السلام شخصية العالم الحق، والذي يستحق من وجه نظر الإمام عليه السلام أن يقال عنه عالم هي إنكاره ما جهل، وما ليس يعلم أن ورد عليه ما لا يعرف لم ينكره لما قرّر به نفسه من الجهالة، هذا المعافي السالم من الغرور ⬅

وثانيها: إنّ ما نسبه الى أهل مذهبه من اتفاقهم على عصمة الرسل عليهم السلام في التبليغ كذب منه بيّن[(١)]؛

العلمي العارف ضالة معلوماته وعدم تناهي مجهولاته لا يخبر له عقله على أي حال أن ينكر ما لا يعرفه، وما هو مجهول بالنسبة له.

وبهذا المعنى نقل عن ابن سينا أنّه قال: كلّما قرع سمعك من الغرائب فذره في بقعة الإمكان ما لم يذدك عنه قائم البرهان (قريب من هذا المضمون في الإشارات والتنبيهات ج٣: ص٤١٨ في ذكر الحوادث الغريبة، حيث قال: فالصواب أنّ شرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان...) (أنها لحقيقة عقلية علمية: إنّ عدم المعرفة لا يدلّ على عدم الوجود، فما أكثر الأشياء التي لا علم للإنسان بها ولكنها موجودة.

وهل كان البشر قبل ألف سنة على علم بحركة الدم وحركة الذرة ومئات الحقائق العلمية الأُخرىٰ التي كشفت وثبتت اليوم؟ فهو كان لا يعلم شيئاً منها، فهل يمكن أن يكون دليلاً على عدم وجودها كحقيقة واقعية؟

فلو أنّ الانسان كان من أهل العلم بالمعنى الواقعي لعلم أنّ أكثر الحقائق الموجودة كانت أُموراً مجهولة بالنسبة إلى البشر، وأمير المؤمنين عليه السلام ضمن كلام آخر له بيان يبيّن فيه خصائص العالم الواقعي، وأشباه العلماء يقول عليه السلام: لا تقولوا بما لا تعرفون، فإنّ أكثر الحق فيما تنكرون (نهج البلاغة: الخطبة رقم ٨٧).

ولكن المسألة التي بلغت إلى هذا الحدّ من الوضوح والبيان لا يمكن إنكارها، وإنّ الشيء الواضح لو كان مجهولاً عند أحد لا يحق له أن ينكرها إلّا يقول بأنّي لا أعلم ذلك، فإنّ إنكار الشيء يحتاج إلى الدليل فلا يصح الإنكار مع الجهل.

وبهذا المقدار نكتفي في بسط الكلام ونترك الحكم والقضاء للقارئ الكريم حتى يعرف حقيقة أمثال ابن تيمية المعادي لأميرالمؤمنين عليه السلام والمعادي للعلامة الحلّي؛ الذي هو من أتباع الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(١) لا يخفى على الخبير أنّ علماء المسلمين اختلفوا في عصمة الأنبياء على أقوال:

أحدها: ما ذهبت إليه الحشوية وبعض أهل الحديث، وهو القول بجواز ارتكاب الكبائر لهم قبل البعثة وبعدها (أُنظر شرح الأُصول الخمسة للقاضي عبد الجبّار: ص٥٧٣).

ثانيها: ما ذهبت اليه المعتزلة وهو القول بجواز ارتكاب الكبائر لهم قبل البعثة وعدم جواز ذلك لهم بعد البعثة، وهو قول أبي علي الجبائي (اُنظر شرح الأُصول الخمسة للقاضي عبد الجبّار: ص٥٧٥) وجماعة من المعتزلة ذهبوا إلى عدم جواز ارتكاب الكبيرة على الأنبياء قبل البعثة وبعدها. نعم هؤلاء ذهبوا إلى جواز ارتكاب الصغيرة إذا لم تكن منفرة؛ لأنّ قلة الثواب عندهم لا يقدح في صدق المرسل ولا في القبول منهم (اُنظر شرح الأُصول الخمسة للقاضي عبدالجبّار: ص٥٧٤).

ثالثها: ما ذهبت إليه الأشاعرة وهو القول بمنع الكبائر والصغائر الخسيسة لهم بعد البعثة، قال القوشجي: المذهب عند محقّقي الأشاعرة منع الكبائر والصغائر الخسيسة بعد البعثة مطلقاً، والصغائر غير الخسيسة عمداً لا سهواً (شرح التجريد للقوشجي: ص٤٦٤).

وقال القاضي الإيجي ـ وهو من الأشاعرة ـ أن الجمهور قال: لا يمتنع أن يصدر عنهم الكبيرة (اُنظر المواقف: ص٣٥٩).

رابعها: ما ذهبت إليه الإمامية الاثنى عشرية وهو القول بأنّ الأنبياء معصومون من جميع المعاصي صغيرها وكبيرها من حين الولادة حتى الوفاة عمداً كان أو سهواً او نسياناً، فلا يجوز لهم المعصية مطلقاً.

وهناك أقوال اُخرىٰ في المسألة لم نتعرّض لها لعدم اعتبارها عند أكثرية العلماء من جميع الفرق الإسلامية، وذلك كقول الأزارقة من الخوارج حيث ذهبوا إلى جواز الكفر على الأنبياء ـ والعياذ بالله ـ (اُنظر المواقف: ص٣٥٩).

وعلى أي تقدير: أنّ ثقة الناس بالأنبياء تقتضي أن يكونوا معصومين على الإطلاق، لكن الكلام وقع في حدود هذه العصمة، فذهب جمهور المتكلّمين من أهل السنّة الى عصمتهم عن التعمّد.

قال صاحب المواقف: أجمع أهل الملل والشرائع على عصمتهم عن التعمّد في الكذب، فيما دلّت المعجزة على صدقهم فيه كدعوىٰ الرسالة وما يبلّغونه عن الله، وفي جواز صدوره عنهم على سبيل السهو والنسيان خلاف، فمنعه كثير من الأئمة وجوّزه القاضي... (المواقف: ص٣٥٨).

فنسب إلى القاضي أبي بكر الباقلّاني المتوفىٰ سنة ٤٠٣هـ تجويز الخطأ في إبلاغ الرسالة سهواً

لما نقله عنهم القاضي عياض[(١)] في شفائه[(٢)]، ونقله عنه النووي في منهاجه، من ذهاب محقّقيهم وجماهير علمائهم إلى عدم عصمتهم في الشرعيات التي يبلغونها للناس بفعلهم لها دون قولهم، ثم نقل قولين عنهم في وجوب تنبيههم على ذلك: فعن جمهور متكلّميهم وجوب تنبيههم على الله في الفور، وعن غيرهم وجوب

➲ ونسياناً لا عمداً وقصداً فهذا، رأى الأشاعرة.

وأمّا المعتزلة فقد ذكر رأيهم القاضي عبدالجبّار المعتزلي وعنه العلماء ونحن نذكر هنا نفس ما ذكره العلماء قال: إنّا لا نجوّز علىٰ النبي السهو والغلط فيما يؤديه عن الله، وإنّما تجوز عليه أن يسهو في فعل قد بيّنه من قبل، وأدّى ما يلزم فيه حتى لم يغاير منه شيئاً. فإذا فعله مرة لمصالحه لم يمتنع أن يقع فيه السهو والغلط، ولذلك لم يشتبه على أحد الحال في أنّ الذي وقع منه من القيام في الثانية هو سهو، وكذلك ما وقع في خبر ذي اليدين إلى غير ذلك (المعنى ج١: ص٢٨١).

فالقاضي استثنىٰ السهو في التبليغ إذ كان قبل الرسالة، وإذا لم يغير شيئاً، فما يقول ابن تيمية في هذا المجال؟ فإنّ الرجل جوّز وقوع السهو من النبي ﷺ حتى في مرحلة التبليغ.

ثم إنّ العصمة في مرحلة تبليغ الرسالة على وجهين: أحدها: العصمة عن الكذب وهو داخل في العصمة، عن المعصية وثانيها: المعصية عن الخطأ سهواً في تلقّي الوحي وتحمّله (أي وعيه) وأدائه وهذا هو الذي ركّز عليه العلماء في البحث:

وقال ابن تيمية في المقام: اتفق علماء أهل السنّة على عصمة الرسل في التبليغ أي من جهة تلقّي الوحي وتحمّله وأدائه إلى الناس. ولكن هذا الإعاء كذب وباطل، وسيظهر كذبه للقارئ الكريم في المباحث الآتية.

(١) وهو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي البستي المراكشي المحدّث المالكي، ولد سنة ٤٧٦هـ بمراكش وتوفىٰ سنة ٥٤٤هـ

وقال الذهبي: أصله أندلسي (أُنظر تذكرة الحفّاظ ج٤: ص١٣٠٤) وله كتب كثيرة منها: كتاب الشفا في تعريف حقوق المصطفى ﷺ، قال صاحب كشف الظنون في وصف هذا الكتاب: هو كتاب عظيم النفع كثير الفائدة، لم يؤلف مثله في الإسلام (كشف الظنون ج٢: ص١٠٥٣).

(٢) أُنظر كتاب الشفا في تعريف حقوق المصطفى ﷺ ج٢: ص١١٥.

التنبيه منه سبحانه ولو قبل موتهم بقليل[١].

فعلم من ذلك فرية السنّي على أهل مذهبه بنقله اتفاقهم على عصمة الرسلعليهم السلام في التبليغ[٢].

---

(١) أُنظر: شرح صحيح مسلم للنووي ج٣: ص٥٤ - ٥٥.

(٢) لا شك أنّ منصب النبوة أخطر وأكبر مسؤولية تتطّلب مؤهّلات وامتيازات خاصة يتفرّد بها النبي والرسول عن سائر الناس، ولتقريب عظمة تلك المؤهّلات المطلوبة يكفي لكل إنسان أن يدقّق في أحد الجوانب الحياتية كإدارة الشؤون الاقتصادية أو العسكرية أو السياسية أو التربوية أو غير ذلك مما يرتبط بقيادة الناس، فيعرف أنّ القيادة في أحد هذه المجالات صعبة جدّاً فكيف بالقيادة في جميعها، وكيف إذا كان الأمر مربوطاً بالدين وعقائد الانسان وغير ذلك من الأُمور التي ترتبط مباشرة بسعادة الإنسان وضلاله وخسرانه، فإنّ القائد الإلٰهي لابدّ وأن يكون في الدرجة العليا من الخبرة في جميع تلك المجالات وغيرها مما يرتبط بقيادة الناس، لأنّ القادة الألٰهيين هم أعرف من غيرهم بأُصول النظام العادل الصالح الحكيم.

ومن الطبيعي أنّ امتلاك تلك القدرات الواسعة يتطّلب مصونية القائد من الخطأ في جميع المجالات ليكون مؤهّلاً حقيقياً لقيادة البشر، وهذا هو ما يسمىٰ بالمعصوم، فالمعصوم هو من ليس يرتكب الخطأ مطلقاً وحتى لا يخطر بباله نية الخطأ وهو متصل بعالم لا يتصوّر فيه الخطأ والسهو وغير ذلك، لأنّ ذلك العالم هو عالم الوحي الألٰهي، فجميع أقوال النبي وأفعاله وحركاته وسكناته متصلة بذلك العالم العظيم، ومتصل بأخبار الله سبحانه، المحيط بجميع المصالح والمفاسد الواقعية، فمن هذه الجهة لابدّ من القول بأنّ الأنبياء معصومون من الخطأ والمعصية مطلقاً، أي في جميع الحالات وفي جميع أدوار حياتهم، ولكن أهل السنّة والجماعة قد خالفوا هذا المنطق القرآني والعقلي على طوائف متعددة، فبعضهم ذهب إلى أنّ العصمة من حين البلوغ وأمّا قبل البلوغ فيجوّزون لهم ارتكاب المعاصي، وبعضهم يجوّزون ارتكاب المعاصي لهم حتى بعد البلوغ وقبل البعثة، وبعضهم يجوّزون لهم ارتكاب المعاصي حتى بعد البعثة ولكن في غير تبليغ الرسالة، وبعضهم حتى في التبليغ إن لم يؤثر في التبليغ، وإلى غير ذلك من الأقوال في باب عصمة الأنبياء، ولذلك نجد أنّ العلماء قسموا الأقوال في

وثالثها: إن ما قاله من أنّ الرسل غير مقرّين على الخطأ في الدين، نقض لما قاله ونسبه الى أهل مذهبه من اتفاقهم على العصمة في تبليغه،(١) فإنّه قد قال

➲ باب عصمة الأنبياء إلى ثلاثة أقسام رئيسية.
القسم الأول: هو القول بعصمة الأنبياء عند نزول الوحي واستلامه.
القسم الثاني: هو القول بعصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة.
القسم الثالث: هو القول بعصمة الأنبياء في جميع الأحوال.
وعصمة الأنبياء في المرحلة الأُولى موضع اتّفاق الجميع؛ لأنّ احتمال الخطأ والالتباس في هذه المرحلة يؤثر على وثوق الناس واطمئنانهم، ويوجب أن لا يعتمد الناس على إخبارات النبي وأقواله والعصمة في مرحلة التبليغ على وجهين:
أحدهما: العصمة عن الكذب، وهو داخل في العصمة عن المعصية والذنب، وإذا جاز له ذلك لا ينقاد إلى أمثال أوامره ونواهيه؛ إذ لا يحصل به الغرض من البعثة.
وثانيهما: العصمة عن الخطأ والسهو في تلقّي الوحي وتحمّله ووعيه وأدائه، وهذا هو الذي وقع مورد البحث بين علماء أهل السنّة والجماعة فبعضهم وافقوا ذلك وبعضهم خالفوه.
قال أبوبكر الباقّلاني المتوفى سنة ٤٠٣هـ يجوز ذلك سهواً ونسيانا لا عمداً وقصداً (أُنظر: المواقف: ص٣٥٨) وغيره من علماء أهل السنّة أيضاً، فلا نطيل الكلام فيه. فثبت كذب ادعاء ابن تيمية.

(١) وتوضيح المقام: أنّ اعتقاد علماء أهل السنّة والجماعة في قولهم بعصمة الأنبياء في مرحلة تبليغ الرسالة فقط، فقد اختلفوا في صورة عدم نزول الوحي على النبي، فذهب جماعة منهم إلى أنّه ينتظر الوحي، وذهب جماعة أُخرىٰ منهم إلى أنّه يجتهد في تلك الواقعة، وقد ادعىٰ بعضهم قيام الإجماع على جواز الاجتهاد في هذه الحالة (أُنظر: إرشاد الفحول ج٢: ص٢١٧).
ومن الطبيعي أنّ من ذهب إلى جواز الاجتهاد للنبي يلتزم بأنّ المجتهد قد يخطئ وقد يصيب، فهم يلتزمون بهذا اللازم ولكن يقولون: بأنّه عندما لا يقرُّ على الخطأ فهو صواب لا محالة.
قال محمد أمين في كتابه تيسير التحرير: إنّ أكثر أهل العلم على أنّه ﷺ كان مأمور بالاجتهاد مطلقاً في الأحكام الشرعية والحروب والأُمور الدينية بغير تقييد لشيء منها، أو من غير تقييد ➲

بخطئهم وعدم عصمتهم. ونقل اتفاق أهل مذهبه على ذلك غايته نقل عنهم كونهم متفقين على عدم تقريرهم على الخطأ، وقد عرفت كونهم مختلفين في ذلك مما نقلناه عن القاضي عياض(١).

➲ بانتظار الوحي، وهو من مذهب عامة الأُصوليين ومالك والشافعي وأحمد وعامة أهل الحديث، وقيل والقائل الأشاعرة وأكثر المعتزلة والمتكلّمين: أنّه لا يصح أن يكون ﷺ مأموراً بالاجتهاد في الأحكام الشرعية، ثم عن الجبائي وابنه: غير جائز عليه عقلاً، وعن غيرهما جائز عقلاً، ولكن لم يتعبّد به شرعاً، وقيل: كان له الاجتهاد في الحروب فقط وهو محكي عن القاضي والجبائي (تيسير التحرير ج ٤: ص١٨٥).

وذكر الذبياني: أنّ مذهب أكثر الأُصوليين أنّ الاجتهاد واقع منه (أي من النبي ﷺ) شرعاً، مستدلّين بأدلّة ذكرها علمائهم في كتب أُصول الفقه، وذكر العلماء أنّ الاجتهاد بمنزلة الوحي الثابت: لأنّه لا يقرُّ على الخطأ فهو صواب لا محالة، بخلاف اجتهاد غيره من المجتهدين؛ فإنّه يحتمل الخطأ والإقرار عليه، كما رأينا ذلك في مسألة أسرىٰ بدر، ومسألة الإذن للمتخلّفين في غزوة تبوك (تاريخ الفقه الإسلامي للذبياني: ص٣٧).

بل قد ذهب بعض المجوّزين لاجتهاده، أنّه ﷺ كان يستخدم القياس في استنباط الأحكام الشرعية، وذكروا بعض الحوادث ادّعوا أنّها تؤيد مذهبهم: منها انّ امرأة جاءت النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله انّ امي ماتت ولم تحجَّ افأحج عنها؟ قال ﷺ: أرأيت لو كان على امِّك دَين أفتقضيه عنها؟ قالت: نعم، قال: فدين الله أحق أن يقضىٰ... (أُنظر تاريخ الفقه الإسلامي للذبياني: ص٣٨).

وقال السرخسي: الاختلاف بين العلماء في أنّه ﷺ هل كان يجتهد فيما لم يوح اليه فيه؟ فمنهم من يقول: كان ينتظر الوحي وما كان يفصل بالاجتهاد. والصحيح عندنا أنّه ﷺ كان يجتهد وما كان يقر على الخطأ... (أُنظر المبسوط للسرخسي ج١٦: ص٦٩).

وخلاصة الكلام: أنّ أهل السنّة ذهبوا إلى جواز اجتهاد النبي ﷺ في الأُمور المذكورة، ومعنى ذلك جواز الخطأ حتى في بيان الأحكام الشرعية، إذ المجتهد قد يخطئ وقد يصيب، فهل ينكر ذلك ابن تيمية، وهل يصح ادّعاء ابن تيمية بعد هذه الأقوال من كبار علمائهم؟

(١) قال القاضي عياض: فأمّا ما تعلّق منها بأمر الدنيا فلا يشترط في حق الأنبياء العصمة، من

ورابعها: إنّ ما زعمه من المنازعة بين أهل مذهبه في تجويز أن يسبق على لسان الرسول ﷺ ما يستدركه الله سبحانه ويبيّنه من عظيم العجائب والمخالفات لنصّ الفرقان العظيم، فهل يختلف المسلمون ويتنازعون في مطلب بيّنه سبحانه بياناً جلياً في محكم الفرقان، حيث قال يصف نطق رسوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١) فحصر نطق رسوله وخصه بالوحي، فما معنى هذه

➲ عدم معرفة الأنبياء ببعضها، أو اعتقادها على خلاف ما هي عليه ولا وصم عليهم فيه، إذ هممهم متعلقة بالآخرة وأنبائها وأمر الشريعة وقوانينها... أو يكون فعل ذلك باجتهاده فيما لم ينزل عليه فيه شيء على القول بتجويز وقوع الاجتهاد منه في ذلك على قول المحقّقين، وعلى مقتضى حديث أُمّ سلمة... (أنظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج ٢: ص ١١٥–١١٦).

وقال في مكانٍ آخر: أما أحواله في أُمور الدنيا فقد يعتقد في الدنيا الشيء على وجه يظهر خلافه، أو يكون منه على شك أو ظن بخلاف أُمور الشرع، فعن رافع بن خديج، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل فقال: ما تصفون؟ قالوا: كنا نصنعه، قال: لعلّكم لو لم تفعلوا كان خيراً فتركوه فنفضت، فذكروا ذلك له فقال: إنّما أنا بشر مثلكم (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج ٢: ص ١٨٣).

وقال: وأمّا ما يعتقده في أُمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم، ومعرفة الحق من المبطل وعلم المصلح من المفسد، فبهذه السبيل، لقوله ﷺ إنّما أنا بشر وأنتم تختصمون إلَيَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يؤخذ منه شيئاً، فإنّما أقطع له قطعة من النار.

وعن أُم سلمة وفي رواية الزهري عن عروة: «فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنّه صادق فأقضي له» ويجري أحكامه ﷺ على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد ويمين الحالف ومراعاة الأشبه... (الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ج ٢: ص ١٨٥).

وقال: فأمّا ما تعلّق منها (أي معارف الأنبياء) بأمر الدنيا فلا يشترط في حق الأنبياء العصمة من عدم معرفة الأنبياء ببعضها، أو اعتقادها على خلاف ما هي عليه ولا وصم عليهم فيه. (الشفا ج ٢: ص ١١٥).

(١) سورة النجم: ٣ – ٤، هذه الآية المباركة فيها جهتان واقعيتان:

المنازعة[١]؟ وما معنى نسبة ما هو كفر الى من هذه رفعة شأنه وشدّة عصمته[٢]؟

← الجهة الأُولىٰ: تقول بأنّ النبي ﷺ لا ينطق إلّا عن جهة الوحي، فالنبي هو خليفة الله في الأرض بين الناس، كلامه كلام الله فطاعته تكون طاعة الله.

والجهة الثانية: هي أنّ هذه الآية تنفي وجود الهوىٰ عن النبي ﷺ في أفعاله وأقواله، حيث أنّ الهوىٰ يضلّ الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾ (سورة صٓ: ٢٦) فالنبي ﷺ أفعاله وكلماته منزّهة عن الهوىٰ، فليس في كلامه وأفعاله وجميع حركاته وسكناته ما يضلّ الناس ومعناه: أنّ كل ما يقوله أو يفعله فهو من جانب الله، وفيه الهداية والرشاد. فلاحظ.

(١) وبعبارة أُخرىٰ: إنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ هو كون كلام النبي ﷺ نفس الوحي والقرآن: فكما أنّ القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنّه وحي إلٰهي كذلك جميع أقوال النبي ﷺ في جميع الحالات والأزمنة والأمكنة؛ لأنّه ما ينطق النبي ﷺ إلّا من جانب الوحي الإلٰهي، فلابدّ أن يؤخذ بجميع ما نطق به النبي ﷺ لأنّ كلّه وحي إلٰهي.

وعليه: فلا معنى للنزاع والبحث في أقواله ﷺ، فأين دليل قول أهل السنّة من القرآن وغيره في أنّ كلام النبي ﷺ اجتهاد منه، فإنّ الاجتهاد ردّ الفرع إلى الأصل واستعمال الظنون في طريق الاستنباط، فهل يعقل أن ينسب إلى النبي ﷺ الاجتهاد الذي هو عبارة عن الرأي، والرأي إمّا أن يكون مصيباً للواقع وإمّا أن يكون مخطئاً، فهل تصح هذه النسبة إلى النبي الأكرم ﷺ الذي قال الله تعالى في حقه: ما ينطق إلّا عن الوحي، فإنّ هذه النسبة معناه: أنّ النبي ﷺ قد يكون مخطئاً والله سبحانه يقول: إنّ كلام النبي ليس فيه الخطأ لأنّه وحي يوحىٰ إليه.

(٢) فإنّ نسبة الاجتهاد إلى النبي ﷺ مرجعها إلى عدم معرفة النبي ﷺ الحكم في موارد الإجتهاد، إذ لو كان يعلم الحكم لما صح الإجتهاد وهذا نسبة الجهل إلى النبي الأكرم ﷺ فمرجع قولهم: أنّ النبي ﷺ يجتهد في بعض الأحيان إلى أنّ النبي ﷺ يكون جاهلاً ـ والعياذ بالله ـ في بعض الأحيان.

ثم إنّ المجتهد قد يصيب وقد يخطئ فإنّ معنى قول أهل السنّة: انّ النبي ﷺ قد يجتهد في ←

فتدبّر في زعمهم بأنّهم العاملون بالفرقان دون غيرهم[١].

➲ بعض المسائل مرجعه إلى أنّ النبيﷺ ليس له علم بالواقع، ولذلك يصح له الإجتهاد، والاجتهاد قد يكون موافقاً للحكم الواقعي وقد يكون مخالفاً للحكم الواقعي، أي معناه أنّ النبيﷺ كان قد يخطئ في أقواله ـ والعياذ بالله ـ وهذا كفر صريح لأنّ مرجعه إلى الجهل، والقول بأنّ النبيﷺ كان جاهلاً بالأحكام الذي يحتاج اليها الناس، وهذا مخالف لصريح القرآن الذي أكّد علىٰ أنّ ما جاء به النبيﷺ وحي ولازم الاتّباع.

إذن، أنّ العصمة لا تختص بمجال تلقّي الوحي وإبلاغه إذ هناك مجالات أُخرىٰ للعصمة؛ وهي تنزّه المعصوم عن ارتكاب أي عمل ينافي للعصمة المطلقة، فإنّ نفس الدليل الذي يدل على لزوم عصمة النبي ﷺ في مجال تلقّي الوحي وتحمّله وأدائه إلى الناس يدلّ بعينه على لزوم عصمته عن الخطأ في تطبيق الشريعة وأُموره الفردية، حرفاً بحرف، ولكي يتبيّن المقام أكثر وضوحاً نقول:

إنّ الغاية المتوخاة من بعث الأنبياء هي هداية الناس إلى السعادة، ولا تحصل هذه الغاية إلّا بكسب اعتمادهم وثقتهم المطلقة بصحة ما يقوله الأنبياء عن الله تعالى، و أمّا إذا كان النبي يخطئ أو يسهو في تطبيق الشريعة أو يغلط في أُموره الفردية والاجتماعية، فلا يبقىٰ بعد ذلك ثقة للناس لأنّ احتمال الخطأ في كل فعل وقول منه يسلب ثقة الناس به؛ إذ في كل فعل أو قول يحتملون الخطأ والسهو والغلط، فلا يبقىٰ مجالاً للاعتماد عليه، بل ولن يبقى شيء مما جاء به هذا النبي إلّا وقد تطرّقه علامات الاستفهام، ولسان حال الناس يقول: هل ما يحكمه عن الله تعالى من الوظائف، هي وظائف إلٰهية حقاً، أو من الأخطاء والاشتباهات، وبأي دليل هو لا يخطئ في مجال الوحي ويخطئ في غير ذلك المجال؟

وهذا الحديث النفسي والشعور الداخلي إذا تعمّق في أذهان الناس سوف يسلب عنهم الثقة بالنبي، وبالتالي تنتفي الثقة به وتذهب النتيجة المطلوبة من البعثة.

فإنّ عامة الناس ورعاعهم الذين يشكّلون أغلبية المجتمع غير قادرين على التفكيك بين صيانة النبيﷺ في مجال الوحي وسائر المجالات، بل جوّزوا في حقّه الخطأ والسهو في مجال تسرّب إلى مجال آخر ومرحلة أُخرىٰ عندهم، فإذا لم يوجد في بعض المجالات ما يصون النبيﷺ عن الخطأ فلا تتحقّق الثقة به كما هو واضح ظاهر.

(١) لا شك أنّ التدبّر في القرآن الكريم وفهم معانيه الدقيقة ومفاهيمه القيمة تؤدي إلى هداية

الناس إلى الصراط المستقيم وينقذهم من الجهالة والضلالة، ويحييهم حياة طيبة وسعادة أبدية، وذلك لأنّ من تدبّر في القرآن كمال التدبّر تميّز الأُمور بعقله، وعرف الحق والحقيقة بنور القرآن حق المعرفة؛ لأنّ القرآن نور ينير الطريق لطلّاب السعادة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ ٱللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (سورة المائدة: ١٥) فكما أنّ النور سبب للكشف والظهور، إذ لولا النور ما أدرك البصر شيئاً، فإنّ النور ظاهر بذاته ومظهر لغيره كذلك القرآن الكريم يلوّح للناظر فيه حجة قائمة وبياناً واضحاً، ينادي إلى الحق والصراط المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٧) فإنّ من يتّبع النور يكشف له الطريق ويسير إلى الطريق الواضح، فيحييه القرآن حياة طيبة في الدنيا والآخرة، ويفوز برضوان من الله، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة: ٧٢).

فالتدبّر في القرآن حق التدبّر يهدي الإنسان إلى الحق، لأنّ من تدبّر في القرآن فقد اعتصم بالله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة آل عمران: ١٠١).

وأمّا من لم يعتصم بالله وتعلّق بالأهواء المضلة المغوية الداعية إلى طاعة الشيطان، فيخرج عن مسير الهداية والصراط المستقيم، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِن رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكْرِ ٱللهِ أُولئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الزمر: ٢٢) هذه الآية الكريمة كغيرها بيّنت أنّ الذي جاء من قبل الله تبارك وتعالى يفتح الطريق لجميع الناس للوصول الى الحق، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (سورة الحديد: ٢٨).

فالنور هو الاعتقاد بالحق لأنّه يرتفع به ظلمة الباطل والجهل وحيرة الشك واضطراب القلب، والنور هو صالح العمل من حيث أنّ رشده بيّن وأثره في السعادة جليّ كما أنّ النور المادي سبب لكشف الأجسام وظهورها، فإنّ النور المعنوي هو ما جاء من قبل الله تعالى يرفع جميع الظلمات في الاعتقادات وغيرها، ولذلك حثّ القرآن الكريم على التدبّر في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد: ٢٤) فإنّ القرآن

⬅ الكريم مع وجود العام والخاص والمطلق والمقيّد والمجمل والمبيّن لم يكن فيه اختلافاً وإغماضاً، كما قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (سورة النساء: ٨٢).

وكذلك السنّة النبوية قد حثّت على التدبّر في القرآن، فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته، ما استطعتم إنّ هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسّك به ونجاة لمن تبعه (المستدرك للحاكم ج١: ص٥٥٥) والى غير ذلك من الروايات.

وخلاصة الكلام: أنّ أهل السنّة وعلى رأسهم خلفائهم وعلمائهم ومتعصبيهم كابن تيمية لو كانوا يتدبرون في القرآن الكريم لكانوا يعرفون حقيقة قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحقيقة فعله، ويعرفون أنّه لا فرق في الواقع بين القرآن وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحجية، حيث قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ«٣» إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣ ـ ٤) فهذين الآيتين تشيران ـ بوضوح ـ إلى أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطق عن الميول النفسانية، وأنّ ما جاء به فهو وحي أُلقي في روعه وأوحي إلى قلبه، وهو من لا يتكلم عن الميول النفسانية ويعتمد في منطقه على الوحي دائماً، فيكون كلامه مصوناً من الزلل في المرحلتين وغيرهما، أي في مرحلة الأخذ والتلقّي ومرحلة التبليغ والتبيين، وكذا في مرحلة التطبيق لأنّ الآية مطلقة تشمل جميع الجهات.

ثم إنّ القرآن الكريم يصف فؤاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعينه بأنّهما لا تكذبان ولا يزيفان ولا يطغيان، فقال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ«١١» أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ«١٢» وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ«١٣» عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ«١٤» عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ«١٥» إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ«١٦» مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (سورة النجم: ١١ – ١٧) وأيضاً قال تعالى: ﴿مَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (سورة الحشر: ٧) فإنّ الآية مطلقة تشمل جميع ما آتىٰ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القول والفعل وغير ذلك.

وأيضاً قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَومِ ٱلآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (سورة النساء: ٥٩) وهذه الآية الكريمة قد حصرت الحجية في قول الله وقول الرسول، وعليه: فما جاء به الرسول حجة بصورة مطلقة، أفيصح ⬅

وخامسها: إن ما نقله عمّن جوّز ذلك من عدم وجود محذور فيه بعد فرض نسخه من الله سبحانه في الفور[١] من غريب المشاقّة لله وعجيبها؛ فإنّه لو لم يكن

بعد هذه الآيات القرآنية الصريحة احتمال وجود الخطأ والاشتباه والشك في أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله في أي مرحلة من مراحل النبوة والرسالة والحكم بين الناس.

نعم هناك أخبار وردت عن طريق الأحبار من اليهود والنصارىٰ الذين رسخوا بين المسلمين واستظهروا الإيمان، رووا أحاديث مكذوبة ونسبوها إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وفق ما كانوا يعتقدون به في ملتهم، فأخذ بعض المسلمين منهم واهتمّ الخلفاء بذلك اهتماماً بالغاً؛ لأنّ هذه الروايات كانت تفتح لهم الطريق في مجال الخلافة والإمامة ولا سيّما خلفاء بني امية فكانوا يطعنون في النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذكر التنقيص حتى يرفعوا الإشكال عن أنفسهم، وستتبين هذه الحقيقة للقارئ الكريم في المباحث الآتية أكثر وضوحاً ان شاء الله تعالى.

(١) وتوضيح المقام: أنّ هذا المعنى الذي ذكره ابن تيمية في عصمة الأنبياء عليهم السلام وامكان الشيطان في وسوستهم لا يناسب ساحة الأنبياء بصورة عامة والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بصورة خاصة بل انّه جسارة بساحتهم المقدسة، وسيتبيّن للقارئ الكريم بطلان قوله من القرآن الكريم والسنّة النبوية.

فإنّ ما ذكره ابن تيمية في المقام إشارة الى البحث الذي ورد في بعض الكتب العقدية من أنّ الشيطان قد يلقي في امنية الأنبياء ويوسوس في قلوبهم ولكن الله ينسخ ذلك.

أقول: ما ذكروه في المقام يرجع إلى إحدىٰ الصورتين: الصورة الأُولىٰ: أن يوسوس الشيطان في قلوب الأنبياء ويوهن عزائمهم الراسخة، ويقنعهم بعدم جدوىٰ دعوتهم وإرشادهم في أُمتهم، وأنّ الأُمة التي أُرسلوا إليهم أُمة غير قابلة للهداية، فتظهر بسبب ذلك سحائب اليأس في قلوبهم، ويكفّوا عن دعوة الناس وينصرفوا عن هدايتهم.

وفي جواب هذه الصورة نقول: أنّه لا شك أنّ هذا المعنى لا يناسب ساحة قدس الأنبياء بنص القرآن الكريم، حيث إنّ هذا القول يستلزم أن يكون للشيطان سلطان على قلوب الأنبياء وضمائرهم حتى يوهن عزائمهم ورغباتهم في طريق الدعوة والإرشاد، وصريح القرآن الكريم ينفي تسلّط الشيطان على الأنبياء فيقول تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ (سورة الحجر: ٤٢ وسورة الإسراء: ٦٥).

➲ ويقول تعالى أيضاً حكاية عن لسان إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ«٨٢» إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة صٓ: ٨٢ ـ ٨٣) فنفى سبحانه وتعالى سلطان الشيطان عن عباده المخلصين ـ بالفتح ـ والعبد الخالص لله هو العبد الذي يكون متحرّراً من عبودية غير الله سبحانه، وليس لأحد أن يتسلّط عليه ويجذب رغباته سوىٰ رب العالمين، فالشيطان لا يستطيع من إيجاد الوسوسة في قلوب الأنبياء.

إنّ القرآن الكريم يبيّن هذه الحقيقة بشكل واضح فيقول تعالى: إنّ الشيطان لا يتمكن من وسوسة الأنبياء وليس له عليهم سبيل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (سورة الحجر: ٤٢) لا شك أنّ متابعة الشيطان أمر منهي عنه من قبل الله سبحانه وهذا النهي قد توجه إلى الإنسان منذ خلق الله آدم عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ«١٦٨» إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَٱلْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩) فالآية تشير إلى أنّ الانحرافات التي يرتكبها الإنسان إنّما هي بسبب متابعة الشيطان، وهي تحصل بشكل تدريجي، وهذه هي معنىٰ خطوات الشيطان، فتلوّث الإنسان شيئاً فشيئاً وتتوالى الخطوات واحدة بعد أُخرىٰ، ويصبح الفرد مذنباً بالكبيرة أو الصغيرة إلى أن يمتلئ قلبه من إغواءات الشياطين.

وجدير بالذكر: أنّ هذه الخطوات إنّما تصل إلى الفعلية إذا لم يكن أساس منطقي عند الإنسان، فإغواء الشيطان ووسوسته يمكن أن ينتج بالنسبة إلى غير المعصومين وغير المخلصين ـ بالفتح ـ وأمّا من وصل في العبودية والطاعة إلى حدّ الإخلاص الذي لا يرىٰ إلّا الله تبارك وتعالى في جميع شؤون حياته، فهو مصون من خطر الانحراف والانزلاق والتلوّث، لأنّ الشيطان نفسه يعترف بعدم قدرته على إضلال هؤلاء، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ«٨٢» إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة صٓ: ٨٢ ـ ٨٣) والله سبحانه تعالى ضمّن هذا الأمر فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (سورة الحجر: ٤٢).

ويتّضح من خلال ما تقدّم أنّ المراد بالعباد ليس جميع الناس بل المؤمنون منهم فحسب، وهم الذين آمنوا بالله بصورة حقيقية ليس فيهم أي شائبة من عدم الإيمان، وينحصر ذلك في المخلَّص ـ بالفتح ـ فبشهادة القرآن أنّ إبليس ليس له سلطان على الأنبياء وليس له أن يوجد ➲

➲ الوهن في عزائمهم، فلا معنى لإلقاء الشيطان الوسوسة في قلوبهم بعد هذه الآيات المباركة.

الصورة الثانية: أن يكون المراد من إلقاء الشيطان في أُمنية الأنبياء هو إغراء الناس ودعوتهم إلى مخالفة الأنبياء حتى تصبح جهودهم عقيمة غير مفيدة.

أقول: هذا المعنى هو الظاهر من القرآن الكريم، حيث إنّ الله سبحانه يحكي في غير مورد أنّ الشيطان كان يحض أقوام الأنبياء على المخالفة ويعدهم بالأماني، حتى يخالفون أمر الله، ولكن الأنبياء لا يعصون الله أبداً، قال الله سبحانه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ (سورة النساء: ١٢٠) وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ (سورة إبراهيم: ٢٢).

فهذه الآيات ونظائرها تشهد بوضوح على أنّ الشيطان وجنوده كانوا يسعون بشدة وحماس في دعوة الناس على مخالفة الأنبياء والرسل، وكانوا يخدعونهم بالعدة والأماني، وعند ذلك يتضح مفاد الآية في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَىٰ ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللهُ آيَاتِهِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الحج: ٥٢) فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ أي إذا فكّر في هداية أُمته، وخطّط لذلك الخطط، وهيأ لذلك المقدّمات ألقىٰ الشيطان في أُمنيته، أي أنّ الشيطان كان يحض الناس علىٰ المخالفة والمعاكسة لأُمنية الأنبياء وإفشال خططهم حتى تصبح المقدّمات عقيمة غير منتجة.

ومعنى نسخه سبحانه بالنسبة إلى ما يلقيه الشيطان هو نسخ وعده تعالى رسله بالنصر والعون والإنجاح، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (سورة غافر: ٥١). وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ ٱللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة المجادلة: ٢١) وقال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (سورة الأنبياء: ١٨) وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ«١٧١» إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ«١٧٢» وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾ (سورة الصافّات: ١٧١ ـ ١٧٣).

➲

➲ وقال في حقّ النبي الأعظمﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة: ٣٣) وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِن بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٥) والى غير ذلك من الآيات الساطعة التي تحكي عن انتصار الحق الممثّل في الرسالات الإلهية في صراعها مع الباطل وأتباعه.

فتبيّن أنّ معنى نسخه سبحانه وتعالى ما يلقيه الشيطان هو بالنسة إلى الوعد الإلهي.

ومن هنا يظهر المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ﴾ فإنّ المراد من الآيات هي الدلائل الناصعة الهادية إلى مرضات الله سبحانه.

وإن شئت قلت: إذا نسخ الله ما يلقيه الشيطان يخلفه ما يلقيه الله سبحانه إلى أنبيائه من الآيات الهادية إلى رضاه أولاً، وإلى سعادة الناس ثانياً.

والحاصل: أنّ المقصود ليس كما استدل بها ابن تيمية وأضرابه، حيث فسّروا إلقاء الشيطان في أُمنية الرسول أو النبي بالتدخّل في الوحى النازل عليه فيغيّره عليه، بل إنّ المراد هو أنّ في مجال الصراع بين أنصار الحق وجنود الباطل يكون الانتصار والظفر للأول والاندحار والهزيمة للثاني، فتضمحلّ الخطط الشيطانية وتنهزم أذنابه بإرادة الله سبحانه فهذه الآيات المباركة تبين المقصود من تلك الآية الشريفة والنسخ المذكور فيها، وبعد وضوح أنّ المراد من إلقاءات الشيطان هو ما ذكرناه من تفسير الآيات المذكورة تبيّن أنّ المعنى والمراد هو: أنّه ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلّا إذا تمنّىٰ أمراً لصالح الدين والمجتمع، وفكّر وخطّط لتطوير العمل ألقى الشيطان في أُمنيته إلّا أنّ الله لم يترك نبيه وحده أزاء القاءات الشياطين، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته.

وإنّ هذا العمل يسير على الله تعالى، لأنّه عليم بجميع هذه المؤمرات الدنيئة، ويعرف كيف يحبطها والله عليم حكيم. إلّا أنّ هذه المؤامرات الشيطانية التي كان يحيكها المشركون والكفرة، كانت تشكّل ساحة لامتحان المؤمنين والمتآمرين في آنٍ واحد، إذ تضيف الآية الكريمة: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فمعناه: أنّهم بعيدون عن الحق لشدة عداوتهم وعنادهم.

➲

في ذلك محذور لما خصّ سبحانه وحصر نطق رسوله بالوحي منزّهاً له عن مطلق التفوّه بغيره[1]؛ فإنّه قد علم من الحصر المزبور في سورة النجم وجود المحذور

⮊ ويحتمل أن تكون عبارة تمنّىٰ وأمنية تعني: التلاوة والقراءة، كما جاءت في أشعار العرب بهذا المعنى. ولذلك يمكن تفسير الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ كان شياطين الانس وغيرهم يلقون كلمات خلال قراءة كلام الله من أجل تشويش أفكارهم وإبطال أثر القرآن في الهداية والنجاة، إلّا أنّ الله عزوجل يمحو أثر هذه الإلقاءات ويثبت آياته، وينسجم هذا التفسير مع عبارة ثم يحكم الله آياته، وبما ذكرنا يبطل أُسطورة الغرانيق التي ذكرها ابن تيمية وعلماء أهل السنّة وسنذكرها مفصّلاً في محله، ونردّ عليها إن شاء الله تعالى.

فالتمنّي والأُمنية بمعنى القراءة وإن لم تستعمل إلّا نادراً، ولم ترد في القرآن بهذا المعنى قطّ. فلاحظ.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣ ـ ٤) هذين الآيتين تدلّان بالصراحة على أنّ النبي الأكرم ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، أي لا يتكلم بداعي الهوىٰ مطلقاً في جميع الحالات والأحوال، وهو دال صراحة على حجية أقواله حجّة كحجية القرآن الذي أتىٰ به من عند الله من غير فرق بينهما، وهذا الإطلاق ظاهر واضح.

ويستفاد من الآية الكريمة، أن النبي ﷺ قدوة في جميع أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته، وكل ذلك حجة علينا بصورة مطلقة و في جميع الحالات، لأنّ النطق كناية عن بيان الشيء فبيان النبي ﷺ بأيّ صورة كان حجّة قطعية، لأنّ الله سبحانه وتعالى أمرنا باتّباع النبي الأكرم ﷺ على نحو الاطلاق، وقد جعله الله قدوة وأُسوة لجميع الناس، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللهَ كَثِيراً﴾ (سورة الأحزاب: ٢١) هذا خطاب عام شامل لجميع المسلمين، وجميع حالات النبي ﷺ بل يشمل حتى الذين يرجون الله يوم القيامة وإن لم يكونوا من المسلمين، فإنّهم لو اقتدوا برسول الله ﷺ في جميع الأحوال تصلح أُمورهم وتستقيم أحوالهم. فالقرآن الكريم عبّر عن هذه الأُسوة والاقتداء بالنبي الأكرم ﷺ بقول مطلق، ومعنى ذلك أنّ جميع ما يفعله النبي ﷺ حسن مقبول عند الله تعالى.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ وجوده ﷺ يكون قدوة لجميع الناس وأُسوة لكل بشر، جميع الناس بما ⮈

في النطق بغير ما في الفرقان مسطور، فهم مضافاً الى نفس مخالفتهم لنصّ الفرقان وعدم متابعتهم لما فيه يعتذرون بعذر يخطئون به الله سبحانه وهو زعمهم عدم وجود محذور في نطق خير الرسل صلى الله عليه وآله وسلم بما يخالف الوحي، ومعنى ذلك تخطئة من حصر نطقه بالوحي تعالى الله عن ذلك[(١)].

➲ لديهم من الانتماءات والاتّجاهات عندما يتفكّرون في أفعال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما فيها من السعادة والنجاة لهم لا محالة أنّ عقولهم تحكم عليهم بلزوم التبعية والاقتداء والتأسّي للوصول إلى السعادة. فلاحظ.

(١) وخلاصة الكلام: إنّ عدم الأخذ بإطلاق الآية والقول بعدم عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلّا في بعض الحالات الخاصة قول على خلاف ما أنزل الله تبارك وتعالى، وتكذيب للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم حيث أنّ الله سبحانه يقول عن لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَايُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (سورة الأنعام: ٥٠) فإنّه تبارك وتعالى حصر تبعية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع أقواله وأفعاله بالوحي، وحينئذٍ فلا يسوغ لأحد مخالفته في أي حالة من حالاته أصلاً، فما زعمه ابن تيمية وأهل السنّة من أنّ عصمة الأنبياء منحصرة بمقام التبليغ باطل؛ إذ معناه يمكن أن يخطئ الرسول في بعض الأحيان، حيث إنّ مرجع هذا القول إلى أنّ الرسول في بعض أفعاله وأقواله يخرج عن إطار الوحي فيكون الرسول من الناس العاديين الذين ليس لهم إطلاع بعالم الوحي والغيب، فهم قد يصيبون وقد يخطئون.

فلازم كلام ابن تيمية في النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكون كذلك، وهذا القول مخالف للنص الصريح من القرآن الكريم، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ«٣» إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (سورة النجم: ٢ و ٣) فلا يجوز لأحد أن يخالف كلام الله في محكم التنزيل: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (سورة يونس: ٥٩) و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (سورة النحل: ١١٦) وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ (سورة يونس: ٦٠).

والحاصل: أنّ المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ والآيات النازلة بهذا المضمون حجية جميع أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله، وقول ابن تيمية وأهل السنّة باطل وافتراء على الله ➲

وسادسها: إنّ ما زعمه من كون المقصود من الرسالة هو التبليغ عجيب غريب صدوره حتى من العامي السوقي لضرره كون معنى الرسالة هو التبليغ عرفاً وشرعاً، يقال: أرسل زيد رسوله إلى قومه، يعني: بعث مبلغاً عنه الى قومه، ومعنى «بعث الله النبيين» بعث الله المبلّغين عنه، ومن الضروري كون المقصود من بعث المبلّغين: هو الفائدة والمصلحة التي قصدها الباعث لهم، وهي من الله سبحانه رشد الخلق الى ما يصلحهم من متابعة الحق وقيام الحجة بذلك على من عتى وبغى[1].

ورسوله قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثَاقُ ٱلْكِتَابِ أَن لاَيَقُولُوا عَلَى ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٩) فدلّت هذه الآية أيضاً على أنّ الله أخذ الميثاق من العباد: أن لا يقولوا على الله إلّا الحق، والحق هو الخلاف الباطل، والملاك واضح عند المؤمن بالله حيث قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (سورة البقرة: ٢٦) فالّذي جاء من قبل الله تعالى هو الحق وغيره باطل، فلاحظ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦) وقال تعالى: ﴿لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (سورة النساء: ٦٠) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦) وإلى غير ذلك من الآيات الآمرة بانحصار الأخذ من الله ورسوله. فلاحظ.

(١) وبعبارة أُخرىٰ: أنّ الرسالة الإلهية هي الوسيلة والواسطة بين الناس والوحي الإلهي، فالرسالة الإلهية لابدّ أن تصل إلى الناس من خلال هذه الواسطة أو الوسائط السماوية حتى تتوفر الظروف والأجواء المناسبة لتكامل الإنسان ليتحقّق بذلك الهدف الإلهي من خلق البشر، فإنّه بملاحظة الصفات الكمالية الإلهية يثبت أنّ هذه الرسالة يلزم أن تكون مصونة من التشويه والتلعّب العمدي والسهوي وذلك؛ لأنّ الله تعالى، لو لم يجعل طريقاً صحيحاً لوصول الرسالات إلى عباده لكان هذا مخالفاً للحكمة لأنّ الحكمة تقتضي وصول الرسالات الإلهية إلى الناس من متابعه الأصلية وإلّا كان علىٰ الناس أن يحتجّوا بعدم وصول ما أراده الله

فانظر الى معنى الرسالة والى المقصود منها المترتّب عليها بعين البصيرة، وتصوّر ما زعمه السنّي فسترى خطئه عياناً، وحيث كان المقصود من الرسالة رشد الخلق لزم بعث من هو ممتاز عن سائر الخلق بجميل الصفات التي توجب ميل الخلق طبعاً الى متابعته وعمدتها العصمة من الخطأ والنسيان حتى في العاديات، لوثوق الخلق حينئذٍ بقوله وفعله وبصدقه من حيث تفرده بهذه الصفة التي هم عادون عنها، فيعلمون أنّ له حافظاً غيبياً عظيم القدرة الى مرتبة جعل رسوله في هذه الدرجة المنبثقة وهو بشر مثل غيره من البشر[1].

تعالى؛ لأنّ الطريق الذي لا يؤمن الوصول إلى الهدف ليس طريقاً آمناً عند العقلاء، فالإرادة الإلهية قد تعلّقت بأن يكون الطريق في الوصول هو نفس الطرق العقلائية، فالإرادة، الإلهية الحكيمة تنفي الطرق التي يدعو الناس إليها سوىٰ طرق الأنبياء ومن يدعو اليهم. فما ذكره ابن تيمية هو الطريق الذي يخالف منهج الأنبياء لأنّ منهج الأنبياء لا يختلف مع الإرادة الإلهية والإرادة الإلهية لا تخالف الحكمة، فمنهج الأنبياء هو المنهج الموافق للحكمة.

إذن مع ملاحظة أنّ الله عالم بكل شيء لا يمكن أن يجعل رسالته في غير المعصوم قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٤) فمع ملاحظة العلم الالهي وقدرته الغير المحدودة لا يمكن احتمال كون الرسول والنبي غير معصوم؛ لأنّ صيانة الوحي تقتضي وجود المعصوم في الوسط كي لا يقع الإشتباه والسهو في الرسالة الإلهية ولا تتلاعب الشياطين في ذلك ولا تتأثر فيها عوامل السهو والنسيان و...، قال الله تعالى: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً«٢٦» إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً«٢٧» لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ (سورة الجن: ٢٦ ـ ٢٨). فصيانة الأديان السماوية بوجود الأنبياء المعصومين عليهم السلام ولا شك أنّ الغاية من الدين وإرسال الرسل وإنزال الكتب هي كمال الخلق ووصولهم إلى الرشد، وهذا لا يتحقق إلّا بعصمة الأنبياء من جميع الجهات. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ الأنبياء في الدرجة الأُولى من العلم واليقين بحيث لا تنقدح في نفوسهم الداعي

⮊ للمعصية فضلاً عن فعلها وارتكابها، وإنّ مبدأ ذلك العقل والإلهام الفطري من الله سبحانه، فإنّ هذه الحالة النفسية المرتكزة في وجودهم تكون سداً قوياً ومنيعاً في وجه الوسائس الشيطانية فلا ينقدح ارتكاب فعل القبيح في أذهانهم أصلاً فضلاً عن المباشرة به نظير الإنسان العادي الذي له القدرة على ارتكاب بعض الأفعال القبيحة، ولكن لا يرتكبها لشدة قبحه بل لا يخطر ذلك بباله كأكل القاذورات والخروج من البيت عرياناً، فإنّ أمثال هذه الأفعال عادة لا يفعلها العاقل لشدة قبحها والمعصوم بالنسبة إلى جميع المحرمات له هذه الحالة.

بالنسبة إلى جميع المحرمات والمكروهات وما يستقبحه العقل، فإنّ نفس المعصوم تأبىٰ من ارتكاب أي معصية وفعل قبيح، كما أنّ النفوس تأبىٰ من أكل القاذورات وإن كان هو من جنس البشر الذي تكون أعماله باختياره إلّا أنّه حيث صرف حياته وعمره في طاعة الله وعبادته والتسليم المحض له والله سبحانه وتعالى منحه العلم والعقل الوافر ليتحقق بذلك مراتب الأعلى من الطاعة والعبودية حتى يصل إلى مرحلة لا يخطر بباله فعل العصيان والخطأ، قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (سورة إبراهيم: ١١) فإنّ هذه الآية الكريمة تشير إلى حقيقة الأنبياء بأنّهم بشر مثل الناس العاديين يأكلون الطعام كما يأكلون الناس ويشربون كما يشربون، ولكن حيث لهم الاستعداد والقابلية لتحمّل مسؤولية الرسالة، فإنّ الله تبارك وتعالى قد مَنّ عليهم العقل أوافر والعلم الكامل ليرتقوا درجات الكمال بالعبودية والطاعة، ولتكون طاعتهم وعبوديتهم وتسليمهم لذاته المقدسة كاملة، وهذا العطاء الإلهي ليس بدون حساب اذ أنّ المشيئة الإلهية تقتضي أن يجعل رسالته لمن يكون أهلاً لذلك.

وملخّص الكلام: أنّ العصمة غصن من دوحة التقوىٰ ونتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي واستشعار عظمة الرب جل وعلا، وهذه ليست وليدة ساعتها فينقلب غير المعصوم معصوماً بنزول جبرائيل عليه السلام عليه وإكسائه ثوب الرسالة، بل هي ملكة نفسانية لا تحصل إلّا بعد مجاهدات عظيمة نفسانية مع تأييد ربّاني وإزالة حب الدنيا والأموال والاعتبارات الدنيوية عن النفس وتحمل مخاطرات كثيرة طابعاً تربوياً لذلك المقام العظيم، و كلّما يفي بها المزاج ⮈

فأمّا لو صدر منه خطأ ولو عادي لنفرت منه القلوب وجوّزت عليه الخطأ في الشرعيات، ولحقّره الخلق بزعمهم أنّه مثلهم ليس له تفوّق عليهم بصفة ينقادون من جهتها الى تعظيمه وتوقيره وتصديقه ومتابعته[1].

فهي في حكم ما لا يكون مقدوراً للأشخاص العاديين ولذلك يحصل الوثوق لجميع الناس بأقوالهم وأفعالهم، حيث إن كل ذلك ناشئ من التزكية والمعرفة واليقين. فلاحظ.

(١) لأنّ الهدف الأساسي من بعث الأنبياء تزكية النفوس وتربيتهم، يقول سبحانه حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة البقرة: ١٢٩) فإنّ إبراهيم الخليل عليه السلام يذكر هنا ثلاث أهداف لبعثة الأنبياء.

الأوّل: تلاوة آيات الله على الناس، أي إيقاظ الأفكار والأرواح في ظل الآيات الإلهية المبشرة والمنذرة، فإنّ قوله تعالى: «يتلو عليهم» أي يبيّن لهم آيات الله شيئاً فشيئاً، لأنّ معنى «التلاوة» تتبّع الشيء شيئاً بالتدريج، أي يتلو شيء تلو الشيء الآخر، وإنّما سُمّيت القراءة بالتلاوة لأنّ القراءة تتبّع وفق النظم الموجود في الكتاب، فهذه المقدّمة ـ أي تلاوة الآيات ـ إعداد لتحقّق التعليم والتربية.

الثاني: تعليم الكتاب والحكمة، ولا تتحقّق التربية إلّا بالتعليم، فإنّها تتحقّق عن طريق الوعظ والإرشاد، قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (سورة البقرة: ٢١٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٤٨) فالتربية تتحقّق بالتعليم، ولعل التفاوت بين الكتاب والحكمة المذكور في الآية هو أنّ المراد بالكتاب هو الكتاب السماوي، والحكمة هي العلوم والأسرار والعلل والنتائج الموجودة في الأحكام وغيرها التي لا يعلمها إلّا النبي أو المعصوم أو من له أهلية ذلك؛ إذ أمر الحكمة بيد الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (سورة البقرة: ٢٦٩) فإنّ الحكمة إذا نزلت بساحة أحد فقد نزلت بساحته البركة والخير الكثير، والحكمة من الأحكام والإتقان فتطلق على الأمر المتقن

➲ الذي لا يوجد فيه ثلمة ولا فتور أيضاً.

الثالث: التزكية، وهي الهدف الأخير التي يذكرها القرآن الكريم عن لسان إبراهيم الخليل عليه السلام.

فالتزكية في اللغة عبارة عن الإنماء، وهي التطهير أيضاً، وبذلك يتخلّص الهدف النهائي من بعثة الأنبياء في دفع الناس إلى مسيرة التكامل العلمي والعملي، فإنّ التربية عن طريق القول وإن كانت محقّقة في الخارج إلّا أنّ تأثير التربية بالعمل أشد وأعمق وآكد، وذلك لأنّ التطابق بين مرحلتي القول والفعل وهو العامل الرئيسي في إذعان الآخرين بأحقّية تعاليم المربّي، وأمّا إذا كان هناك اختلاف بين المرحلتين لوقع النقض في فعل المربّي والناس سوف يتركونه بمشاهدة وجود النقض بين القول والعمل، وعند ذلك إنّ الهداية تفقد أثرها ولا يبقىٰ أثر لدعوة المربّي.

ولذلك قال تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾ (سورة الصفّ: ٢ ـ٣).

وينبغي التأكيد هنا على أنّ علوم البشر محدودة، ومقرونة بآلاف الفجوات المبهمة والأخطاء الكبيرة، والإنسان أيضاً لا يطمئنّ بدقّة إلى معلوماته، لأنّه شاهد أخطائه وأخطاء الآخرين، ولذلك يلزم وجود من ليس في أقواله وأفعاله خطأ أصلاً في كل زمان وعصر على وجه الأرض ليقتدوا به الناس دفعاً لذلك المحذور. ومن هنا تعرف ضرورة بعثة الأنبياء والمرسلين المستمدين من مبدأ الوحي، والمبعوثين إلى الناس ليزيلوا أخطاءهم، ويملأ وافراغات جهلهم ويبعثوا فيهم اطمئناناً بعلمهم، فالأنبياء معلمون ومربون يزودون الناس بالعلم والتربية. فإذا لم يكن النبي مصوناً من الخطأ والزلل فلا تتحقق الغاية المتوخّاة منه؛ إذ بعد تصوّر وقوع الخطأ فيه، فلا معنى لكونه رافعاً لأخطاء الناس عموماً ومطلقا.

ثم إنّه إذا كان احتمال وجود الخطأ في فعل النبي لانتفىٰ وثوق الناس به؛ إذ بمجرد خطور هذا الاحتمال إلى الذهن يخطر أيضاً إلى الذهن عدم كفاءته بالنسبة إلى هذه المسؤولية العظيمة؛ لاحتمال وجود الخطأ في جميع أفعاله ومن أفعاله دعوة الناس إلى الله سبحانه فلا يحصل الإطمئنان بدعوته، وإذا انسلب الإطمئنان من أفعاله فينسلب منه أصل الهداية، لأنّ الإطمئنان أساس للدعوة والهداية وهو أصل أساسي في تربية الانسان، فهذا الأصل التربوي يهدينا إلى القول بأنّ التربية الكاملة المتواخّاة من بعثة الأنبياء وترسيخها في النفوس للمتربّين لا تحصل ➲

وسابعها: إن ما زعمه من اتفاق المسلمين على عدم تقرير الرسل على الخطأ معلوم البهتان من جهتين:

إحداهما: ذهاب اثنى عشرية الشيعة الى عصمتهم وعدم تجويز الخطأ عليهم بوجه من الوجوه[١].

⇦ إلّا بمطابقة أعمالهم لأقوالهم.

ومن ناحية أُخرى: إنّ البشر تتكوّن من العقل والغرائز فهو بحاجة إلى التربية بقدر حاجته إلى العلم، فينبغي أن يتكامل عقله وأن تتجه غرائزه نحو هدف صحيح، وذلك لا يتحقّق إلّا بوجود الأنبياء. فلاحظ.

(١) لا شك أنّ اعتقاد الشيعة الإمامية في عصمة الأنبياء متخذة من الكتاب والسنّة والعقل وهو قول سديد يطمئنّ به النفس ويرتاح إليه القلب، ويقطع به الطريق على المشاغبين، وخصوصاً أعداء الإسلام من اليهود والنصارىٰ والملحدين الذين يبحثون عن ثغرات ينفذون منها لنسف معتقدات المسلمين، والطعن في نبي الإسلام ﷺ بل الطعن في جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

فالشيعة الإمامية ينزّهون الأنبياء في جميع أفعالهم وأقوالهم من الذنوب والخطايا والمعاصي صغيرة كانت أم كبيرة قبل البعثة وبعدها و...

وملخّص ذلك: أنّ العصمة لها مراحل متعددة ينبغي للباحث أن يتدرج المباحث في المقام بالدليل القطعي، فنقول: أنّ العصمة يلزم فيها المراحل التالية وهي:

المرحلة الأُولى: وهي التزام الإنسان بجميع الأوامر والنواهي الإلهية، وهذا يعني أنّه لا يترك واجباً وان لا يفعل محرّماً مطلقاً.

المرحلة الثانية: وهي العصمة في تلقّي الوحي من الله سبحانه وتعالى والعصمة في حفظه وإبلاغه إلى الناس، وبذلك ستكون هذه المرحلة من ثلاثة مقاطع:

١ـ الصيانة من الخطأ والاشتباه حينما ينزل الوحي على قلبه.

٢ـ الصيانة في حفظ ما نزل عليه وبقائه في قلبه كما هو.

٣ـ الصيانة من الخطأ والاشتباه حينما يبلّغ ما نزل عليه إلى الناس.

⇦

الثانية: ما نقلناه عن القاضي عياض من ذهاب جماعة من أهل مذهب السُنّي الى تقريرهم على الخطأ حتى قرب الموت في المسائل الشرعية التي بيّنوها بالفعل دون القول[١].

فبان بهتانه في نقله عن المسلمين جميعهم عدم تقرير الرسل على الخطأ[٢]،

المرحلة الثالثة: وهي عصمة الأنبياء في تطبيق الشريعة، فمن غير الممكن أن يخطئ المعصوم في تطبيق أحد الأحكام الشرعية ـ مثلاً ـ في تطبيق الحدود والتعزيرات، أو يخطئ في تطبيق الوحي على نفسه كأن يصلّي صلاة الفجر ثلاث ركعات بسبب السهو والغفلة، فالنبي لابدّ أن يكون معصوماً في هذه المرحلة أيضاً.

المرحلة الرابعة: وهي عصمة الأنبياء في مسائل حياتهم الاعتيادية والأُمور العادية المرتبط بحياتهم الشخصية التي لا علاقة لها بمسألة الوحي والتبليغ.

وفي ضوء النهج القرآني في البحث عن عصمة الأنبياء نجد أنّ القرآن الكريم قد تعرّض لمراحل العصمة بأجمعها، وكذلك السنّة النبوية القطعية، وكذلك أنّ العقل حاكم بها. وسنوضّح جميع هذه المراحل للقارئ الكريم إن شاء الله تعالى في محله.

فكل مرحلة من هذه المراحل يحتاج إلى بحث مستقل يتوفّر على بيان المقصود من العصمة في تلك المرحلة، واستقصاء أدلّتها بصورة وافية، وإن كان يكفينا في المقام الاستدلال بالدليل العقلي على لزوم عصمة الأنبياء في جميع المجالات وإلّا لم يحصل بهم الوثوق.

قال المحقّق البحراني: ينبغي أن يكون النبي منزّهاً عن كل أمر ينفّر عن قبوله إمّا في خُلقه كالرذائل النفسانية من الحقد والبخل والحسد والحرص ونحو ذلك، أو في خلقه كالجذام والبرص، أو في نسبه كالزنا ودناءة الآباء، لأنّ جميع هذه الأُمور صارفة عن قبول قوله والنظر في معجزته، فكانت طهارته عنها من الألطاف التي فيها تقريب الخلق إلى طاعته واستمالة قلوبهم إليه (قواعد المرام: ص١٤٧).

(١) أنظر: كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ج٢: ص١١٥ وقد نقل عنه النووي في كتابه شرح صحيح مسلم ج٣: ص٥٤ – ٥٥.

(٢) لا يخفى على الخبير: أنّ جميع الفرق الإسلامية قد خالفوا الشيعة الإمامية في مسألة تنزيه

⬅ الأنبياء، لأنّ الشيعة الإمامية يعتقدون بأنّ الأنبياء معصومون من جميع المعاصي صغيرها وكبيرها من حين الولادة، حتى الوفاة فلا تصدر منهم المعصية في أيّ مرحلة من المراحل المذكورة سهواً كان أو نسياناً أو غفلةً، فالعصمة عندهم مطلقة من جميع الجهات.

وهناك فِرقٌ أُخرىٰ من المسلمين ذهبت إلى عدم عصمة الأنبياء في بعض المراحل المذكورة على أقوال مختلفة:

الأول: قول الأزارقة من الخوارج: فإنّهم ذهبوا إلى جواز الكفر علىٰ الأنبياء أخذاً بمبدئهم من أن كل ذنب كفر (أُنظر: المواقف للقاضي الإيجي: ص٣٥٩).

الثاني: قول الحشوية: فإنّهم ذهبوا إلى جواز ارتكاب الكبائر على الأنبياء قبل البعثة وبعدها، وتمسّكوا في ذلك بأباطيل لا أصل لها (أُنظر: شرح الأُصول الخمسة للقاضي عبدالجبّار: ص٥٧٣).

الثالث: قول المعتزلة: فإنّهم ذهبوا إلى جواز ارتكاب الكبيرة على الأنبياء قبل البعثة بل ذهبوا إلى عدم الجواز بعد البعثة، وهذا قول أبي علي الجبائي (أُنظر: شرح الأُصول الخمسة: ص٥٧٤).

ومنهم من قال: إنّ الأنبياء لا يجوز عليهم الكبيرة لا قبل البعثة ولا بعدها وتجوز عليهم الصغيرة إذا لم تكن منفّرة، لأنّ قلة الثواب مما لا يقدح في صدق الرسل ولا في القبول منهم، وهو قول القاضي عبدالجبّار (أُنظر: شرح الأُصول الخمسة: ص٤٧٥).

الرابع: قول الأشاعرة: قال القوشجي: المذهب عند محققي الأشاعرة منع الكبائر والصغائر الخسيسة بعد البعثة مطلقاً، والصغائر الخسيسة عمداً لا سهواً (أُنظر: شرح التجريد للقوشجي: ص٤٦٤).

وأمّا قبل البعثة فقد نقل القاضي الإيجي عن جمهور أهل السنّة بأنّه: لا يمتنع أن يصدر عنهم كبيرة (المواقف: ص٣٥٩).

وخلاصة الكلام: إنّ قول الشيعة في عصمة الأنبياء قول سديد يطمئن اليه القلب ويرتاح به النفس ويقطع به الطريق علىٰ المشاغبين، وخصوصاً أعداء الدين والملحدين الذين يبحثون عن ثغرات ينفذون منها لنسف معتقدات الإسلام والطعن في نبيناﷺ، فتراهم كثيراً ما يحتجّون على المسلمين بما ورد في كتب أهل السنّة، لا سيّما ما ورد في صحيحي البخاري ومسلم ⬅

بل الذي ينظر الى تفسير البغوي والى الدرّ المنثور المشتمل على التفسير بالمأثور يجدهم ناقلين نبذة من أخبارهم الصحيحة التي دلّت على خطئه ﷺ في تبليغهم بالقول وهي المتضمّنة لعبارة: وإنّ شفاعته لترتجى. الذي هو كفر من دون ريب.(١)

والعجب العجاب أنّهم ينسبون اليه النطق بهذه العبارة وما قبلها في السورة التي حصر سبحانه فيها نطقه بالوحي، فالله قد خصه بهذه الفضيلة وهم ينسبون اليه هذه الرذيلة،(٢) وهل يجوّز المسلم صحة خبر مناقض لنصّ الفرقان العظيم؟!!! فما

⬅ باعتبار أنّهما من أصحّ الكتب بعد القرآن عندهم، وفيهما روايات تنسب أقبح الاعمال وأشنع الأفعال إلى الأنبياء، وحتى بالنسبة إلى النبي الأكرم ﷺ فإنّه قد ورد فيهما روايات تقدح في الرسول الأعظم ﷺ كحديث الغرانيق وغيرها. وسيتّضح ذلك كلّه للقارئ الكريم في محله إن شاء الله تعالى.

(١) أنظر: تفسير البغوي ج٣: ص٢٩٣، والدر المنثور لجلال الدين السيوطي ج٤: ص١٩٤ و وص ٣٦٦ و ص٣٦٧ و ص٣٦٨، وذكره السيوطي أيضاً في لباب النقول: ص١٣٨، والطبري في تفسيره ج١٧: ص٢٤٥ ـ ٢٥٠، والخصاص في أحكام القرآن ج٣: ص٣٢١ ـ ٣٢٢، والسمرقندي في تفسيره ج٢: ص٣٢٣ و ص٤٦٥، والثعلبي في تفسيره ج٧: ص٣٠، والواحدي النيسابوري في أسباب نزول الآيات: ص٢٠٨ وفي تفسيره ج٢: ص٧٣٧، والسمعاني في تفسيره ج٣: ص٤٤٨ وج٥: ص٢٩٤ وج٦: ص٢٩٤، والنسفي في تفسيره ج٣: ص١٠٩، وابن العربي في أحكام القرآن ج٣: ص٣٠٣ ـ ٣٠٠٧، وابن الجوزي في زاد المسير ج٥: ص٣٠٢ والقرطبي في تفسيره ج١٢: ص٨٤ ـ ٨٥، والبيضاوي في تفسيره ج٤: ص١٣٤، وابن كثير في تفسيره ج٣: ص٢٣٩ - ٢٤٠، والشوكاني في فتح القدير ج٣: ص٤٦٣، والآلوسي في تفسيره ج١٧: ص١٧٦ - ١٨٥ وغيرهم.

(٢) وهي أُسطورة الغرانيق التي أخرجها علماء أهل السنّة بطرق كثيرة جداً ونصّوا على توثيق رجاله وصحة أسناده، فقالوا: إنّه ﷺ يوم قرأ في سورة النجم عند قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ«١٩» وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ (سورة النجم: ١٩ـ٢٠) ثم قال ﷺ: تلك الغرانيق العلىٰ منها الشفاعة ترجىٰ، (أُنظر: تفسير القرطبي ج١٢: ص٨٠) ونسبوا هذه القصة

⬅

إلى النبي الأكرم ﷺ بانّ تلك الأصنام ترجىٰ الشفاعة منها ـ نعوذ بالله ـ وهي مقالة توجب الشرك فما عذرهم عند رسول الله ﷺ ولذلك اضطر بعضهم إلى أن يقولوا في هذه الأحاديث التي رواها كبار علماء السنة أنها من وضع الزنادقة (اُنظر: الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض ج٢: ص١١٨ وتفسير الرازي ج١٦٨ ومجمع الزوائد للهيثمي ج٧: ص١١٥ وغيرهم).

فإنّ هذه الجريمة الكبرىٰ إنّما صدرت من قريش بعد وفاة النبي ﷺ واتّهمت النبي ﷺ بأنّه لم يكن معصوماً حتى في التبليغ وهكذا سجلت أهل السنة قصة الغرانيق التي تزعم بان النبي ﷺ قد ارتكب خيانة ـ العياذ بالله ـ في نص القرآن وشهد بشفاعة الأصنام اللات والعزىٰ ومناة وسجد لها لكي ترضىٰ عنه قريش، وقد فرح لهذه القصة والاُسطورة المنافقون وأعداء الإسلام من تلك الأيام إلى يومنا هذا فجعلوا هذه الاُسطورة محاولة عظيمة ضد المسلمين وأخذوا يعيبون على المسلمين ويستنكلون عليهم ويقولون لهم: كيف تقولون بأنّ القرآن نزه جميع الأنبياء وقد وقع الخطأ من نبيكم ـ العياذ بالله ـ فنسبوا هذه الفرية العظيمة الى النبي الأكرم ﷺ.

والغرانيق جمع غرنوق وهو طائرا أبيض من طيور الماء يشبه الكركي يعلو في طرفه وقد شبهت به قريش أصنامها لأنّ الطائر يعلو في طيرانه ويرتفع في السماء فقالوا: أن أصنامنا مثلها في رفعة القدر ومفضلة عند العرب فانّ أهم الأصنام عند العرب كانت اللات والعزىٰ ومناة مقامها عندهم مقام عال كطائر الغرنوق (اُنظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج٣: ص٢٦٤، والعين للخليل ج٤: ص٤٥٨، ولسان العرب ج١٠: ص٢٨٧) فحديث الغرانيق يدل بالصراحة على جواز سهو الأنبياء، وبهذا الحديث أراد ابن تيمية أن يقلّل من شأن النبي الأعظم ﷺ للدفاع عن مذهبه الباطل، فنسب إلى الرسول الأعظم ﷺ نسبة لا يمكن لمؤمن غيور أن يتفوّه به.

ومن الطريف جداً أنّ سورة النجم التي نزلت في شأن النبي الأكرم ﷺ وحصرت نطق النبي الاكرم ﷺ بالوحي في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ«٣» إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣ ـ ٤) وقوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ (سورة النجم: ١٢) وقوله

لكم كيف تحكمون[١].

➲ تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغىٰ﴾ (سورة النجم: ١٧) هذه الآيات الكريمة أثبتت عصمة النبي ﷺ في القول والنظر والفكر وجميع حركات النبي ﷺ وسكناته، فكيف لابن تيمية واتباع بني أُمية أن يصدّقوا هذا الحديث الموضوع الذي هو مخالف لصريح القرآن الكريم؟!!!

ثم إنّ مما يتّضح من حديث الغرانيق أنّ بني أُمية هم الذين وضعوا هذا الحديث قد رفعوا شأن أصنامهم الجاهلية، وبذلك نعرف بأنّهم وإن أظهروا الإسلام ولكن كانوا على عهدهم في الجاهلية، أي أنّهم كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً بالأصنام حتى في العهد الذي أخذوا زمام المسلمين بأيديهم فكانوا مشركين حقاً.

(١) فإنّ القرآن الكريم هو الأساس الذي يبتني عليه الإسلام، وهو المصدر الأول للتعاليم الربانية الذي يعوّل عليه في كل ما يهم المسلمين من أُمور دينهم ودنياهم، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم عليم، وأنّه الحق الفصل، والتبيان لكل شيء.

فالقرآن الكريم ينقل لنا أنّ الافتراءات التي نسبها بنو أُمية وأتباعهم إلى النبي الأكرم ﷺ باطلة، وقد فندها القرآن الكريم خلال هذه الآيات الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ«١» مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ«٢» وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ«٣» إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ«٤» عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ«٥» ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ«٦» وَهُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ«٧» ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ«٨» فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ«٩» فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ«١٠» مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ«١١» أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ«١٢» وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ«١٣» عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ«١٤» عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ«١٥» إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ«١٦» مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ«١٧» لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ (سورة النجم: ١ ـ ١٨) هذه الآيات قد بيّنت بصورة واضحة أنّ جميع أقوال النبي ﷺ وأفعاله من الجوارح والجوانح إنّما نشأ من الوحي.

فالآيات بصدد بيان مصونية قلب النبي ﷺ وبصره ولسانه وجميع أعضائه من جوارحه وجوانحه وما يصدر منها من الأفعال والأقوال في جميع الحالات، سواء كان في حال نزول الوحي أو التبليغ أو التطبيق، أو في حالات عادية أُخرىٰ من حياته، ففي كلها أنّ النبيّ ﷺ

➲

أمّا آية «يلقي الشيطان في أُمنيته»[١] فمعناها: أنّ كل نبي ورسول كان يتمنّى أن يظهر لقومه صِدقه فيما جاء به من عند الله ويشتهي أن لا يكذّبوه ولا يلتبس عليهم أمره، لكن الشيطان يلقي في أمنيته ما يعوقها عن التقدّم بادئ ذي بدء ويقيم العثرات في سبيل نجاح النبي فيما يتمنّاه، فيلتبس الحق بالباطل، ولكن الله سبحانه بعد ذلك يوضّح الأمر فينسخ ما يلقي الشيطان من وساوسه وتلبيساته، ويريد كل عثرة في سبيل تبيّن الهدى، فيميّز الحق من الباطل ثم يحكم آياته الدالة على صدق رسوله والله عليم حكيم، فهو عليم بما يلقيه الشيطان ويوسوس به ولكنه يمهل الناس لحكمته البالغة، فهو حكيم فيما يمتحن به الخلق ويبتليهم، وحينئذٍ فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها[٢].

مصون من الخطأ والزلل والسهو والنسيان و... فهو معصوم مطلقاً لا يصدر منه السهو والغفلة أبداً، فضلاً عن ارتكاب هذا الجرم العظيم الذي نسبه بنو أُمية إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وتبعهم علماء السنّة والجماعة. فلاحظ.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللهُ آيَاتِهِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الحج: ٥٢).

(٢) سورة الزمر: ٤١، هذه الآية تقول ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم حق فمن اهتدىٰ به فإنّما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس مأموراً بإجبار الناس لقبول الحق والإيمان بالله، لأنّ الإجبار على قبول الإيمان لا معنى له ولا يستطيع أحد أن يدفع العذاب الإلهي من الناس عند شموله. فالواجب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنّما هو البلاغ والإرشاد وهداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، أمّا ما يتعلق بهم فهم يختارون الطريق الذي يريدون السلوك فيه فعليهم أن ينتخبوا طريقهم، فمن اهتدىٰ فإنّما يهتدي لنفسه، وكل ما يترتب على الهداية من منافع دنيوية كانت أو أُخروية، فهي عائدة للمهتدي نفسه، ومن ضل فعليها.

وعلى أي حال، إنّ هذه القاعدة الأساسية قد بيّنها الله تبارك وتعالى كأصل ثابت جارٍ في جميع

وثامنها: إنّ ما نسبه الى الجمهور من تجويز الصغائر عليهم طامة عظيمة مُخلّة بالمقصود من بعثهم الذي هو رشد الخلق الى ما يرضى الله سبحانه، وصدور المعاصي منهم حتى الصغيرة تنفّر طباع الناس عنهم من دون ريب.[1] وحينئذٍ

الموارد، وقد تكرّرت هذه الجملة في عدّة آيات من القرآن الكريم، مرة في سورة يونس الآية: ١٠٨، ومرة في سورة النحل الآية: ٩٢، ومرة في سورة الزمر الآية: ٤١، فالخبير لو راجع هذه الآيات المباركة يتبين له حقيقة هذا الأمر بشكلٍ واضح. فلاحظ.

(١) من البديهي أنّ المعصية وإن كانت صغيرة قبيحة، يستحق صاحبها الذم، لأنّ المعصية خروج عن الطاعة والخروج عن الطاعة وإن لم يكن فيه الشدة بل كان من أضعف مراتبه فهو أيضاً خروج عن دائرة العبودية المطلقة، ويستحق فاعله الذم ويعدّ ذلك نقصاً؛ إذ أنّ مرتكبها قد قد خالف الاستقامة في الدين وانحرف عنه فهو نقص لمرتكبها، لأنّ الاستقامة حقيقة منوطة بترك جميع المحرّمات صغيرة كانت أم كبيرة والإتيان بجميع الواجبات، فالذي لا يكون كذلك لا يليق بمنصب النبوة لأنّ من لا يكون فعله منزّهاً عن القبيح أو النقص لا يوجب ثقة الناس به، بل تنفّر نفوس الناس منه.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ من يفعل القبيح أو لا تكون طاعته كاملة بل كان فيها النقص، فتذهب ثقة الناس منه، لأنّ الإتباع فرع الاعتقاد بصحة الأقوال والأعمال المتبوع له وسلامة أعماله وأقواله فرع عدم وقوع القبيح والنقض فيها، فإذا كان في أعمال المتبوع له أو في أقواله فعلاً قبيحاً أو قولاً مخالفاً للواقع لذهب ثقة الناس منه.

ومن أجل وضوح المقام نقول: إنّ المعصية الصغيرة لو صدرت من الناس العاديين قد نقول بأنّ الله يغفر له حينما يجتنب الكبائر، ولكن هذا الذنب لو صدر من الإنسان الكبير قد يكون من أكبر الكبائر لأنّ صدور هذا الذنب الصغير من المرجع الديني الذي يقتدىٰ به يكون ذنباً عظيماً حيث أنّ المرجع للدين يتوقع منه ما لا يتوقع من أشخاص العاديين، فإن صدور هذا الفعل منه بمنزلة ترويجه بين الناس وإن كان ذلك الفعل من الصغائر، لأنّ الناس يقتدون بأفعاله ويتمسّكون بأقواله وأوامره ونواهيه، فكيف إذا كان ذلك الإنسان نبياً من أنبياء الله، فإنّه إذا جاز له فعل الصغيرة من الذنب لذهب ثقة الناس به ولا يجد المبعوث إليه في قرارة نفسه

يتلون عليهم قوله سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾[١] فيغلبونهم بهذه الحجة البيّنة.

➲ حافزاً إلى الامتثال لأوامره ونواهيه؛ إذ يحتمل أن يكون كاذباً؛ لأنّه يحتمل أن يكون قوله كفعله، إمّا فيه القبيح وإمّا فيه النقص، وعلى كلتا الحالتين تذهب ثقة الناس منه، فلا يحصل منه الغرض للبعثة، مضافاً إلى أنّ بعثة الأنبياء إنّما هي لجهة الاعتقاد، أي أنّ الهدف من بعث الأنبياء إيجاد الاعتقاد القلبي بين الناس بالتوحيد وأُصول الدين، فإذا لم يكن أعمال النبي مصوناً من النقص أو العيب فلا يحصل الهدف من ذلك، لأنّ كل الأُمة ينظرون إلى الأقوال والأفعال معاً، فإذا كانت أقوال النبي المبعوث اليهم يخالف أعماله أو بالعكس، فلا يؤثر كلامه فيهم لأنّ الناس يقولون له: أنت لابدّ من إصلاح نفسك قبل إصلاح الآخرين، كيف يأمر الله الناس باتّباع من هو يلزم أن يكون متبوعاً للآخرين؟!!! وقد أمر الله تعالى في كتابه العزيز باتباع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله كما قال تعالى: ﴿مَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (سورة الحشر: ٧) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الاحزاب: ٢١) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (سورة الممتحنة: ٦) فإذا إحتمل الإنسان أن سيكون في فعل المبعوث إليه خطأ أو سهو فيرتفع الوثوق به، ونتيجة ذلك: أنّه لا يحصل الغرض من البعثة، ولذلك قال المحقّق الطوسي: ويجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق فيحصل الغرض(كشف المراد: ص٢١٧).

(١) سورة البقرة: ٤٤، هذه الآية الكريمة تدلّ بالصراحة على توبيخ وذم أُولئك الذين يأمرون الناس بفعل الخير وهم لا يعملون.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ الآية الكريمة فيها جهة التعجّب والاستنكار من فعل أُولئك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وإن كانت هذه الآية الكريمة تخاطب علماء اليهود الذين كانوا يعترفون برسالة خاتم الأنبياءﷺ ويقولون لأقربائهم من المسلمين: اثبتوا على ما أنتم عليه، ولا هم يؤمنون لأنّهم كانوا يخشون من انهيار مركز قدرتهم وتفرّق عامة الناس عنهم، لذلك وبّخهم الله تعالى من ذلك العمل ويقول لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة البقرة: ٤٤) ولكن المستفاد من ظاهر الآية: أنّ ➲

ثم بعد صدور الصغيرة منهم أما يجب على الخلق نهيهم عن ذلك من باب وجوب النهي عما حرّمه الله؛ فإن وجب فقد حصل نقيض المطلوب المقصود لله من بعثهم الذي هو وجوب طاعة الخلق لهم ووجوب متابعتهم، ولو لم يجب لزم عدم وجوب النهي عن المنكر،[١] وهو مضافاً الى مخالفته لضرورة الدين يلزم منه

➲ الخطاب يكون لجميع الناس ولا اختصاص لعلماء اليهود في ذلك، كما أنّها لا تختص بقوم دون الآخر، ولذلك جاء في آية أُخرىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ«٢» كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الصفّ: ٢ - ٣) فإنّ مدلول هذه الآية الكريمة نفس مدلول الآية السابقة، وقد بيّنت هذه الآية السمات الأساسية للمؤمن الصادق وهي لزوم الانسجام التام بين أقواله وأفعاله، وكلّما ابتعد الانسان عن هذا الأصل، فإنّه يبتعد عن حقيقة الإيمان، لأنّ الفرق بين الإيمان الحقيقي والنفاق هو أنّ الإيمان الحقيقي مطابقة الأعمال والأقوال مع الأمر القلبي بخلاف النفاق، فإنّ المنافق من يكون اعتقاده القلبي أمر وظاهر أعماله وأقواله أمر آخر.

وعليه: فإنّ منهج الدعاة إلى الله يكون مبنياً على أساس العمل أولاً ثم القول، فالداعي الى الله يُبلّغ بعمله قبل قوله، كما جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة للناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاة بألسنتكم» (بحار الأنوار ج٥: ص١٩٨) فإن التأثير العميق للدعاة للعملية أمر ثابت وله جذابته، حيث إنّه يجذب المدعو أكثر من القول لأنّه موجب لوثاقة المدعو، فالوثوق بعمل الداعي أكثر وقوعاً من حصول الوثوق بالقول كما هو أمر متعارف. فلاحظ.

(١) وتوضيح المقام: أنّ دعوىٰ جواز ارتكاب الصغائر للأنبياء يلزم منه الالتزام بلوازمه، ومن لوازم ذلك وجوب النهي عن المنكر، أي أنّه يجب على المؤمنين أن ينهوا نبيهم عن ارتكاب تلك المعصية لأنّ المعصية أمر منكر، سواء كانت صغيرة أم كبيرة، فإذا ارتكبها أحد يجب على المؤمنين النهي عنها لوجوب النهي عن المنكر على آحاد المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٤).

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضَهُمْ أَولِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ➲

عدم وجوب طاعة الخلق عند نهيهم عن المناكير لما فرضناه من عدم وجوب النهي عن المنكر، فتبطل البعثة لعدم الفائدة فيها حينئذٍ، فتدبّر[(١)].

ٱلْمُنْكَرِ﴾ (سورة التوبة: ٧١) فالدعوة في الآية الأُولى إلى الخير وإلى الاعتقاد بالحق، لأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنعان ظهور الموانع ورسوخ المنكر والباطل.

ومن الواضح أنّ المعصية منكر سواء كانت صغيرة أم كبيرة.

والمحصّل من الآية الثانية أنّها جعلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يثيب به الولاء والمحبة إذا شاع بين المؤمنين، فيلزم أن يعلموا بهذه المهمة، وإذا وجب على المؤمنين أن يأمروا بينهم بالمعروف وينهوا عن المنكر، ففي المقام يلزم تقض لغرض من بعث الأنبياء كما هو واضح ظاهر.

وإذا لو قلنا بعدم جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يلزم رفع اليد عن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو قلنا بجوازه لذهب فائدة بعث الأنبياء؛ إذ مهمة الأنبياء هو إرشاد الناس نحو المعروف وتحذيرهم عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ...﴾ (سورة البقرة: ٢١٣) وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥) وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ...﴾ (سورة الأنعام: ٤٨) فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مصاديق التبشير والإنذار كما هو واضح ظاهر.

(١) وبعبارة أُخرىٰ: أنّ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الضروريات الدينية التي جاءت في الأُمم السابقة، وقد عاب الله تعالى في كتابه العزيز على علماء بني إسرائيل الذين كانوا لا يتناهون عن المنكر، فقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ«٧٨» كَانُوا لاَ يَتَنَاهُوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٧٨ ـ ٧٩).

وقال مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: إنّما هلك من كان قبلكم حيثما عملوا من المعاصي ولم ينههم الربّانيون والأحبار عن ذلك وأنّهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربّانيون والأحبار عن ذلك نزلت العقوبات، فأمروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر... (الكافي ج ٥: ص٥٧ ح٦).

ومن هذه الجهة اهتم سبحانه وتعالى بذلك إهتماماً عظيماً حتى ذكر ذلك بعد إقامة الصلاة وإيتاء

⬅ الزكاة، كما في قوله تعالى عن لسان لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (سورة لقمان: ١٧) فجعل سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف بعد الصلاة مباشرة، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (سورة الحج: ٤١).

ولعل هذا الاهتمام من جهة أنّه لولا تحقّق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الديني لما قام الصلاة ولا الزكاة ولا غيرهما من أحكام الدين، بل أنّ هلاك الأُمم كان بسبب عدم القيام بهذا الواجب، كما ورد ذلك في خطبة أميرالمؤمنين عليه السلام وقد تقدّم ذكرها.

بل لعل الوجه في كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الضروريات حتى الأُمم السابقة من جهة أن وجوبه عقلي كوجوب الطاعة من باب شكر المنعم، وعندئذٍ لا يحتاج إلى الإثبات من ناحية الشرع إذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يضمنان سلامة المجتمع وأمنه، واستقرار العدل فيه، وحفظ حقوق الآخرين، وحفظ الأُمة من الانحرافات والضلالات وغير ذلك، وانّ عدم وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفسح المجال للعوامل التي توجب عدم الوحدة في المجتمع، وتمزّق الأُمة وتفرّق جمعها، فمن هذه الناحية أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة إلٰهية واجبة علىٰ جميع المؤمنين يلزم إجرائهما في المجتمع الإيماني، وهذه الفريضة عامة واجبة الإجراء عند تحقق موضوعها، ولا فرق في مصداقها وموردها عند تحقّق الموضوع وإن كان الطرف الذي يجب أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أكبر إنسان في المجتمع، لأن بمجرد تحقّق الموضوع يترتب الحكم عليه قهراً، فيجب إجراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعليه: إذا قلنا بأنّ الأنبياء ـ العياذ بالله ـ جاز لهم ارتكاب المعاصي ولو الصغيرة، فيجب على المؤمنين أن يأمروا نبيهم بالمعروف وينهوا عن المنكر، لأنّ بعد تحقق الموضوع يكون ترتيب الحكم عليه قهري، وإن كان ذلك الشخص نبي من أنبياء الله، وهل تصح هذه النسبة إلى أنبياء الله؟!!!

من الواضح أنّه لا تجوز هذه النسبة إلى أنبياء الله لأنّ الأنبياء بعثوا لإجراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع، فإذا كان النبي يحتاج إلى من يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ⬅

وتاسعها: إنّ ما نسبه الى من جعله خليفة في أرضه من فعل الذنب، ومن أنّ حاله بعد التوبة خير من حاله قبل الخطيئة من عجائبه الشنيعة[(١)]؛ لما عرفته من

➲ فإنّه فاقد للشرط الأساسي في هذا المجتمع، وفاقد الشيء لا يكون معطياً، كما أنّ عدم طاعته في المعصية واجبة لأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (أُنظر: سنن الترمذي ج٣: ص١٢٥) وأيضاً يلزم منه عدم وجوب طاعته) لأنّ طاعته يحتاج إلى الدليل ولا دليل لمن لا يتقي عن المنكر. فلاحظ.

(١) قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ (سورة ص: ٢٦) هذه الآية المباركة تبيّن أنّ القصص الخيالية التي نسجها القصاصون من علماء اليهود وتبعهم بعض الجهلة من المسلمين لا أساس لها عقلاً ولا مثبت له سنداً، وهل يمكن أن ينتخب الباري عزوجل شخصاً ينظر إلى عرض الناس بعين الخيانة، ويلوّث يده بدم الأبرياء فهل يعقل أن يجعل الله هذا الإنسان خليفةً في الأرض ويسلّمه منصب القضاء المطلق؟!!!

فإنّ هذه الآية المباركة تتضمن لخمس جملات كل واحدة منها تتحدث عن حقيقة معينة في هذا المجال، ولنذكرها للقارئ الكريم كي يعرف مقام داود عليه السلام.

الأُولى: قد ذكرت الآية الكريمة خلافة داود في الأرض، ومعنى ذلك أنه يكون نائباً لله تعالى في الأرض بين العباد والمنفّذ لأوامره ونواهيه.

الثانية: إنّ الآية الكريمة تأمر داود عليه السلام بتكليف الحكم بين الناس، فإنّها تقول له: إنك بعد أن منحك الله نعمة الخلافة في الأرض يلزم عليك أن تحكم بين الناس بالحق، وفي الواقع أنّ الآية تريد أنّ تبين أن احدىٰ ثمار خلافة الله هي ظهور الحكومة العادلة بين الناس، فقال تعالى: لتحكم بينهم بالحق.

الثالثة: إنّ الآية الكريمة تشير إلى أهم خطر يهدد الحاكم العادل وهو إتباع هوىٰ النفس. فتقول الآية: أن الحكومة العادلة تقتضي أن يكون حاكمها غير مطيع لهوىٰ نفسه، ولا يخفىٰ ان الله تبارك وتعالى الذي هو عالم بالخفيات وأسرار الكون يعلم كيف ينتخب العباد ويجعلهم خلفائه في أرضه ويجعل لهم منصب القضاء، فإنّه تبارك وتعالى كان يعلم بأنّ داود عليه السلام كان ➲

➲ له أهلية هذا المقام العظيم وكان يعرف حقيقة داود وحقيقة ما في نفسه، فلا يصح أن نقول: بأنّ الله تعالى قد جعل خلافته في شخص تكون نفسه ضعيفة ينزلق بـأدنىٰ الشـيء، فـهذه النسبة إلى الباري عزوجل مساوقة لإنكار علمه الأزلي بجميع الأشياء وهو محال قطعاً.

الرابعة: إنّ الآية الكريمة تقول: بأنّه إذا اتبعت الهوىٰ فيضلّك عن سبيل الله، وهذا أيضاً أمر واضح لمن دقق وأمعن النظر فيه؛ لأنّ من الواضح أنّ متابعة الهوىٰ تؤدي إلى الضلالة والانـحراف والخروج عن الدين، ومن الواضح فالحاكم الذي ينتخبه الله تعالى، انّما هو الهادي إلى الحق والله تبارك وتعالى لا ينتخب الضال المنحرف التابع للهوىٰ.

قال الله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَـمِيعٌ بَـصِيرٌ**﴾ (سـورة الحج: ٧٥) فلا يمكن أن يصطفي الله المذنبين والملوّثين بالذنوب والأهواء، فإنّ الاصطفاء الإلهي يتحقّق بفعل الله عزوجل والفعل الإلهي ينشأ من علمه الأزلي وهو جل جلاله مطّلع على المستقبل وعلى كافة الأجيال في كل الأزمان، فلا يجعل خلافته فيمن يتبع هواه، يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّـبِينٌ«٦٠» وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ (سورة يٓس: ٦٠ ـ ٦١) فالداعي الى الصراط المستقيم لابدّ أن يكون له أهلية ذلك، فإذا كان تابعاً للهوىٰ يفرط بمصالح الناس لأجل مطامعه الشخصية كيف يمكن أن نقول بأنّه يكون أهلاً لتصدي هذا المقام العظيم من قبل الله تبارك وتعالى؟!!!

لا سيّما أنّ الأمر في باب الحكومة أهم وأصعب لأنّ الحكومة التي على رأسها خليفة الله لابدّ وأن تكون حكومة عادلة لابد أن تجري فيها الأحكام الإلٰهية، فإذا كـانت هـذه الحكـومة المنتخبة بانتخاب الله لا يجري فيها العدل بل كان فيها الظلم والاضطهاد فمعناه: أنّ الله تعالى ليس له القدرة على انتخاب من يجري العدالة في الأرض ـ والعياذ بالله ـ فإنّ الظلم موجب لزوال الحكومة وانهيارها.

الخامسة: إنّ الآية الكريمة تشير إلى مسألة الاعتقاد بالآخرة وعدم نسـيان يـوم الجـزاء، فـإن الحكومة العادلة هي الحكومة التي على رأسها من يذكّر الناس الآخرة ويوم الجزاء، وانّ من يذكّر الناس الآخرة لابدّ أن يكون ذلك اليوم نصب عينه، ومن يكون الآخرة نصب عينه لا معنى لكونه متبعاً للهوىٰ، وهل بعد ذلك يجوز لمسلم أن ينسب الى داود عليه السلام الأكاذيب التي ➲

➲ نسبها اليه علماء اليهود من أنه فعل فعل كذا وكذا من الأفعال الشنيعة؟!!!

والآن نتصفّح كتاب التوراة لنشاهد ماذا ذكر فيه اليهود عن هذه الواقعة لنعثر على الأساس الذي اعتمد عليه ابن تيمية وبعض المفسّرين الجهلة من أتباع بني أُمية وخلفاء الجور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً﴾ (سورة ص: ٢٤).

فقد جاء في التوراة وفي الكتاب الثاني اصموئيل الإصحاح الحادي عشر من الجملة الثانية وحتى السابعة والعشرين: وكان في وقت المساء، أن داود قام عن سريره وتمشّى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحمم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقيل: إنّها بتشبع بنت اليعام وزوجة أوريا الحتي، فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت عليه، فاضطجع معها وهي طاهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود بأنها حبلىٰ، وبعد علمه بحمل تشبع بعث داود برسالة إلى يوآب وهو القائد العام لقوات داود، وطلب منه فيها أن يبعث أوريا اليه، فبعث يوآب أوريا إليه، وفور وصوله إلى قصر داود استفسر منه عن سلامة يوآب وسلامة الجيش وعن سير المعارك.

وهنا أمر داود أوريا بأن يذهب إلى بيته ويغسل رجليه، فخرج أوريا من قصر داود، وبعث داود خلفه أنواعاً من الطعام إلّا أن أوريا نام عند باب قصر داود مع بقية عبيد سيده داود ولم يذهب إلى بيته عندما علم داود أن أوريا لم يذهب إلى بيته، قال داود لأوريا: ألم تكن قد عددت من السفر؟ فلماذا لا تذهب إلى بيتك؟ فقال لداود: إنّ الصندوق وإسرائيل ويهودا وسيدي يوآب وعبيد سيدي يعيشون تحت الخيام في الصحراء؟ فهل يصح أن أذهب إلى بيتي لآكل وأشرب وأنام فيه؟ أقسم بحياتك أني لا أفعل ذلك!

وفي الصباح بعث داود برسالة إلى يوآب بيد أوريا وكتب في الرسالة يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت، ففعل به ذلك فقتل وأخبر داود بذلك، فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب (نقلاً عن الإصحاح الحادي عشر من كتاب «صموئيل الثاني» الجمل ٢ إلى ٢٧).

➲

➲ وخلاصة الكلام: إنّ هذه القصة لها تتمة ولم نذكر تمامها، لأنّها واضحة بذاتها من الأكاذيب والافتراء على نبي من أنبياء الله ولا يصدقه عاقل، إذ هي تدلّ بالصراحة على أنّ داود عليه السلام ـ والعياذ بالله ـ خان أحد المؤمنين من أصحابه وقتله ليتزوج بامرأته.

ثم في بقية القصة: أن هذا النبي الذي جعله الله خليفةً في أرضه بعد ارتكابه لهذه الجرائم الشنيعة تاب إلى الله تعالى من الواضح إنّما نسج هذه الأساطير من هو عدو لأنبياء الله ومن هو عدو لداود عليه السلام.

ثم إن المسلمين الذين ثقلوا هذه القصة الموضوعة فمنهم من صرح بأنّها كذب وافتراء على نبي من أنبياء الله، ومنهم من صدق ذلك، وهم أمثال ابن تيمية وأضرابه، حيث لم يقيموا أي وزن لأنبياء الله، فهم مع أعداء الأنبياء في صف واحد، فهذه الفرية كبقية الافتراءات الموجودة في الأحاديث إنّما وضعها بنو أُمية وأتباعهم لينشروا بين الناس عقيدة عدم عصمة الأنبياء وذلك ليسهل لهم الطعن في نبي الإسلام، فهذه الفكرة قد أخذها ابن تيمية من بني أُمية وصاغها بصيغة الرواية الصحيحة التي يعتمد عليها ويعتبر حتى في العقيدة.

ولكن المسلم الحرّ يأبىٰ قبول هذه الفرية والأُسطورة لأنّ كل مسلم عندما يقرأ هذه القصة يجزم بأنها موضوعة من قبل أعداء الأنبياء لأنّها مخالفة للخطوط التي رسمها الله تعالى في القرآن الكريم لأنبيائه حيث جعلهم الهداة إلى صراط مستقيم، ولذلك يجب علينا أن ندقّق فيما استعرضه بنو أُمية آخذاً من التوراة في هذه الأُسطورة. فنقول: يمكن للمتتبع الملاحظة فيها بما يلي:

١ـ هذه المرأة التي تزوج بها داود المشهور أنها أُم سليمان عليه السلام وهو من الأنبياء، فهل يعقل أن نبياً من أنبياء الله يفعل هذا الغدر بأصحابه لكي يتزوج بامرأته ثم يحصل نتيجة هذا الزواج سليمان بن داود أحد الأنبياء العظام؟!!!

٢ـ هل يمكن اتهام نبي مدحه الله تبارك وتعالى في القرآن العظيم بعشر صفات عظيمة ودعا نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم الى أن يستلهم من سيرته، هل يمكن اتهامه بتلك التهم العظيمة؟!!!

٣ـ هل تطابق هذه الأراجيف مع آيات القرآن النازلة في حق داود عليه السلام كقوله تعالى: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً**﴾ (سورة ص: ٢٦).

➲

منافاة مرتبة النبوة، لما زعموه من صدور الذنب من صاحبها[١]؛ ولذلك لمّا جعل

٤ـ إذا ارتكب شخص عادي مثل هذا العمل الإجرامي للاعتداء على زوجة ضابط، وفي مؤمن من خلال عملية خبيثة بماذا سيحكم الناس عليه وما هي عقوبته؟ فالناس يتنزّهون عن هذا العمل الشنيع فكيف بنبي من أنبياء الله هو داود عليه السلام؟

ثم إنّ ما يجدر ذكره هو أنّ التوراة لا تعتبر داود نبياً، وإنّما تعتبره ملكاً عادلاً له مكانة مرموقة، وإنّه مشيّد المعبد الكبير لبني إسرائيل، العجيب من المسلمين الذين لهم القرآن الكريم ويأخذون هذه القصص من الأحبار والرهبان ويطعنون في نبي من أنبياء الله!!!

٥ـ لو طرحت هذه القصة على شخص لا يمتلك سوىٰ القليل من العقل والإدراك، لأعترف بأن قصص التوراة المحرّفة، وما هي إلّا خرافات وإنّها وليدة أفكار أعداء الأنبياء وأشخاص جهلة غير مطلعين، إذ كيف يعقل قبول هذه الخرافات، و كيف يمكن أن توزن في المعايير العلمية ويترتب عليها النتائج العقدية، وتكون معياراً للبحث العلمي الذي تترتب عليه النتائج العقدية.

وإذا كانت هذه القصة والأُسطورة من أكاذيب اليهود كيف يصدّق المسلمين الذين يعتقدون بالقرآن ومنهجه هذه الأكاذيب الواضحة البطلان، فإنّ من صدّقها فهو مدافع عن اليهود الذين لهم عداوة مع الأنبياء الصالحين.

(١) وبعبارة أوضح: إنّه هل يمكن إتّهام نبي مدحه الله تبارك وتعالى في القرآن المجيد بصفات عظيمة بارتكاب مختلف أنواع الذنوب الكبيرة ثم ينقلها أعداء الإسلام في ظل حماية بني أُمية، وبعد ذلك يؤخذ كرواية في مصادر المسلمين لتمسك بها الجهلة والبلهاء منهم، ولولا أنها مذكورة في كتب أتباع النهج الأُموي وابن تيمية لكان من الخطأ ذكرها والتعرض اليها لما في ذكرها إهانة بشأن الأنبياء، وبالطبع فإن هذه الرواية المأخوذة من التوراة قصة كاذبة مزيفة تنسب ارتكاب الزنا وغيرها من المحرّمات ـ نعوذ بالله ـ إلى أحد الأنبياء الكبار.

وأخيراً نقول لأتباع النهج الأُموي وابن تيمية: تعالوا انظروا إلى نهج أئمة أهل البيت عليهم السلام المقام رواية ورد في كتاب عيون الأخبار للشيخ الصدوق رحمه الله في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون مع أصحاب الملل والمقالات، قال الإمام الرضا عليه السلام لابن الجهم: وأما داود فما يقول من قبلكم فيه؟ قال: يقولون: إن داود كان يصلي في محرابه اذ تصور له إبليس على هيئة طير

أحسن ما يكون من الطيور، فقطع داود صلاته وقام يأخذ الطير إلى الدار فخرج في أثره فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حيان، فأطلع داود في أثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل، فلمّا نظر إليها هواها!!! وكان قد أخرج أوريا بالمشركين فصعب ذلك على داود، فكتب اليه ثانية أن قدمه أمام التابوت، فقدم فقتل أوريا وتزوج بامرأته.

قال: فضرب الإمام الرضا عليه السلام يده على جبهته وقال: إنا لله وانا إليه راجعون، لقد نسبتم نبياً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتى خرج في أثر الطير ثم بالفاحشة ثم بالقتل، فقال: يابن رسول الله، ما كانت خطيئته؟ فقال: ويحك! إن داود عليه السلام إنّما ظن أنه ما خلق الله خلقاً هو أعلم منه، فبعث الله عزوجل اليه ملكين فتسوّرا المحراب فقال: خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال: أكفلنيها وعزني في الخطاب، فعجل داود على المدعىٰ عليه، فقال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ولم يسأل المدعي البينة على ذلك، ولم يقبل على المدعىٰ عليه فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه، ألا تسمع الله عزوجل يقول: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ** ...﴾ الى آخر الآية. فقال: يابن رسول الله، فما قصته مع أوريا؟ فقال الإمام الرضا عليه السلام: إن المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج أبداً، فأوّل من أباح الله عزوجل أن يتزوج بامرأة قتل بعلها داود عليه السلام فتزوج بامرأة أوريا لما قتل وانقضت عدتها، فذلك الذي شق على الناس من قتل أوريا (عيون أخبار الرضا عليه السلام ج٢: ص١٧١).

ويستفاد من هذا الحديث أن مسألة أوريا كانت لها جذور حقيقية بسيطة وأن داود نفّذ ما جاء في الرسالة الإلٰهية إلّا أنّ أعداء الله من جهة، والجهلة من جهة أُخرىٰ، ومؤلفي القصص الخيالية من جهة ثالثة اختلقوا سيقاناً وأغصاناً وأوراقاً لهذه القصة كي ينفّروا الناس من داود لزواجه مع المرأة المتوفىٰ عنها زوجها، ولذلك نجد مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام قال: لا أُوتي برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدين حدّاً للنبوة وحداً للإسلام (بحار الأنوار ج١٤: ص٢٦ ح٦) وإنما قاله الإمام عليه السلام ذلك لأنّ الشائع بين الناس كانت هي التهمة والقصة مختلقة لا واقع لها، وليست الحادثة كما زعموا.

الله خليله إماماً للناس سأله إمامة ذريّته، فأجابه سبحانه: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾[(١)] والعاصي ظالم من دون ريب؛ قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ

فالأقوال في هذه القصة التي هي من مختلقات علماء اليهود والنصارىٰ إنّما جاءت في لسان أتباع الخلفاء دفاعاً عن شخصيتهم اللئيمة، وحيث أنّ الناس لم يمكنهم تشخيص الحقيقة فأخذوا بهذه الروايات وشاعت بينهم كالقصص المشهورة.

وفي النهاية: اتهموا أحد الأنبياء العظام بارتكاب مختلف أنواع الذنوب المخزية وتناقلها القصّاصون للجهلة والبلهاء حتى صارت هذه القصة المكذوبة مرتكزة في أذهانهم، وذكرتها الكتب المعروفة حتى وصل الأمر إلى التوراة المحرفة، ثم من اليهود إلى بعض الجهلة من المسلمين، وجاءت هذه الخزعبلات في تفسير بعض الآيات الكريمة من علماء أهل السنة والجماعة، وركّز عليها اين تيمية وأتباع النهج الأُموي.

فالشيعة الإمامية هم تبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام، ينزّهون داود عليه السلام عن هذه الأكاذيب المنسوبة اليه، كما ينزّهون جميع الأنبياء عليهم السلام من ارتكاب المعاصي كبيرة كانت او صغيرة من حين الولادة حتى الوفاة.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٢٤) هذه الآية الكريمة تشير إلى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام والإختبارات المتتالية التي اجتازها إبراهيم عليه السلام بنجاح، وتبيّن من خلالها مكانة إبراهيم عليه السلام وعظمته وشخصيته، وبعد أن اجتاز هذه الاختبارات بنجاح استحق أن يمنحه الله الوسام الكبير وهو مقام الامامة.

والظاهر من الآية أنّ هذه القصة تحقّقت أواخر عهد إبراهيم عليه السلام أي بعد أن بلغ عمره أكثر من مائة سنة وبعد تولّد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وذلك لأنّ إبراهيم الخليل عليه السلام قد طلب من الله تعالى كما في هذه الآية الكريمة بأن يستمر خط الإمامة من بعده في ذريته، وقد استجيب طلب إبراهيم عليه السلام بأنّ هذا المقام لا يعطى إلّا للطاهرين والمعصومين من ذريتك؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ بصورة مطلقة.

فالمقصود بالظالم هو مطلق من صدر عنه الظلم ولو في وقتٍ ما فإن التلبّس بالظلم في أيّ زمان بصورة مطلقه سواء كان الظلم على نفسه أو على الآخرين لا يصلح لهذا المقام والعهد الإلهي

➲ فإنّ استعمال عنوان الظلم هنا بصورة مطلقة إنّما يدلّ على معناه الواسع أي ما يقابل العدل وهو وضع الشيء في غير مكانه المناسب، كما إن القيادة الإلٰهية منزلة عظيمة ذات مسؤوليات جسيمة هائلة وخطيرة، فإنّ لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص، فأبراهيم عليه السلام إنّما سأل الإمامة لبعض ذريته لا لجميعهم، فأُجيب بنفيها عن الظالمين من ولده وليس جميع ولده من ظالمين بالضرورة حتى يكون نفيها عن الظالمين نفياً عن الجميع، ففيه إجابة لما سأله مع بيان أن الإمامة عهد إلٰهي لا ينال هذا العهد الظالمين.

من الطريف أنّ لصاحب الكشّاف هنا كلام لا بأس بذكره، قال ما هذا نصّ عبارته:

إنه قالوا في هذا دليل على أنّ الفاسق لا يصلح للإمامة، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره ولا يقدم للصلاة. وكان أبو حنيفة يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن علي عليه السلام وحمل المال اليه، والخروج على اللص المتغلب المسمىٰ بالإمام والخليفة كالدوانيقي وأشباهه، قالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبدالله بن الحسن حتى قتل، فقال: ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادني على عد آجره لما فعلت. وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط، وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة والإمام إنما هو لكفّ الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعىٰ الذئب ظلم (الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري ج١: ص٣٠٩).

وخلاصة الكلام: إنّ هذه الآية المباركة أبطلت إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة. وقد بيّن لنا أئمة أهل البيت عليهم السلام هذا المقام العظيم من خلال تفسير هذه الآية المباركة وما أعطى الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام من المقامات:

ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾ قال: فمن عظمها في عين إبراهيم عليه السلام قال: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَتِي**﴾ قال: ﴿**قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ** لا ينال عهدي الظالمين﴾ قال: لا يكون السفيه إمام التقي (الكافي ج١: ص١٧٥).

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[١] فكيف يتصوّر في حق من جعله خليفة في أرضه إماماً لخلقه صدور العصيان منه[٢]؟ وكيف يتصوّر خيرية حال العاصي بعد التوبة من حاله قبل

---

(١) سورة الطلاق :١. هذه الآية المباركة عبّرت عن القوانين الإلٰهية بكلمة «حد» كما أن في غيرها من الآيات القرآنية قد جاءت هذه الكلمة وهي بمعنى الالتزام بما شرعه الله تبارك وتعالى.

منها: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُون﴾ (سورة البقرة: ٢٢٩).

ومنها: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ«١٣» وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (سورة النساء: ١٤) فاعتبرت هذه الآيات وغيرها أنّ القوانين الإلٰهية هي الحدود الشرعية يجب الالتزام بها وإلّا سوف يكون الإنسان خارجاً عن الخطوط الحمراء التي رسمها الله للعباد، فالمخالفة للقوانين الإلٰهية تعتبر تعدياً وتجاوزاً للحدود الإلٰهية وهي أوضح معصية لله تعالى بنص القرآن وموجب لصدق عنوان الظالم عليه، وإذا صدق هذا العنوان فلا ينال العهد الإلٰهي وهو الولاية والخلافة الإلٰهية كما ذكره الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام، فلاحظ.

(٢) وبعبارة أوضح: أنّ خليفة الله هو نائبه ووكيله في أرضه، فالخليفة هو الإمام والامام هو المتقدم للاتباع والمتقدم للاتباع لابدّ أن يكون مقدماً في جميع الصفات والكمالات لأنّ الإمامة هي عهد إلٰهي ومنصب رباني يربط بين العباد ومعبودهم. ومن البديهي أن علم الله وقدرته وحكمته تقتضي أن ينتخب خليفة لا يرتكب ولن يرتكب المعصية أبداً لا صغيرها ولا كبيرها لأنّ هذه الخلافة العظيمة تستبطن مسؤولية عظيمة من قبل الله تبارك وتعالى لهداية الناس، فإنّ الإمام هو المنفّذ لأوامر الله تعالى في الأرض، فإذا كان المنفّذ لأوامر الله تعالى هو من يرتكب العصيان ولا يبالي من المعصية ولو صغيرة فلا يصح أن يقتدي الناس به لأنّ من لايؤمن من المعاصي لايؤمن من عدم الضلالة إذ من يرتكب المعاصي هو بحاجة إلى الإمام يهديه نحو السعادة فليس له أهلية الهداية ولا يكون من الحكمة أن يختار الله عاصياً لمقام الإمامة لأنّه نقض لغرضه، فإنّ غرضه تعالى من جعل الإمام بين الناس هداية

←

المعصية، وقد تحقّق ظلمه وجسارته على ربّه والمنعم عليه؟ غايته أنّه سبحانه تفضّل عليه بقبول توبته ومغفرة ذنبه، فأين حاله هذه من حاله التي جرى فيها على مقتضى ما حدّه الله له مبتغياً مرضاته. فتصوّر الحالين ثم تدبّر في فضل ما تجده أولى في تعظيم الله منهما(١).

⬅ الناس ووصولهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة، فإذا كان الإمام ضالاً أو عاصياً أو من لايؤمن له من العصيان والضلالة فلامقتضي له لهداية الناس، فإنّ داود عليه السلام كان خليفة الله في أرضه ونبيه المرسل إلى عباده وقد أمره الله تعالى أن يحكم بين الناس بالحق، فقال عز من قائل: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ (سورة ص: ٢٦).
وقد أثنىٰ عليه في الذكر الحكيم والفرقان العظيم، فقال عز من قائل: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ«١٧» إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ«١٨» وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ«١٩» وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (سورة صٓ: ١٧ ـ ٢٠) إلى أن قال جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (سورة صٓ: ٢٥) وقال عزوجلّ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ (سورة النساء: ١٦٢) فداود ممن فضّله الله على الناس بخصوصياته وكمالاته وبزبوره وغير ذلك، فكان من المعصومين لاسيّما إنّ الله تعالى قد أعطاه منصب القضاء والحكم، وإنّ هذا المنصب والمقام له دور كبير في إقامة العدل والحق في المجتمع، وبطبيعة الحال يتطّلب من يكون له أهلية لتصدّي هذا المقام العظيم؛ إذ هذا المقام مقام يلزم على من يناله أن يحكم بما أنزل الله والحكم بما أنزل الله هو الحكم بالعدل والحق، وأمّا إذا حكم على خلاف ذلك ـ ولو في مورد واحدٍ ـ يسقط عنه هذه الأهلية، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ (سورة المائدة: ٤٥) فإنّ الظالم لا يليق أن يتصدّى لهذا المقام العظيم، فالإرادة الإلٰهية الحكيمة إنّما تعلّقت باختيار الخليفة الذي لا يكون ظالماً في أي حالة من أحوال حياته، وهذا معناه أنّه لابدّ أن يكون معصوماً على الإطلاق، فلاحظ.

(١) وملخّص الكلام: إنّ خيرة الله لابدّ أن يكون أتقىٰ الناس؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات: ١٣) والمراد من الكرامة: القرب من الله تعالى. وبمقتضىٰ الآية ⬅

⬅ الكريمة: أنّ كلّما كان الإنسان أتقىٰ فهو أقرب إلى الله، لأنّ الإكرام المطلق من دون أي قيد وشرط هو ممن حاز على أعلىٰ مراتب التقوىٰ، أي من كان يسلم دينه وعقله وروحه وقلبه وجميع قواه الظاهرة والباطنة تسليماً محضاً أمام إرادة الله سبحانه.

وقد جاء هذا المعنىٰ في القرآن الكريم خاصاً بمجموعتين: الأُولى: الملائكة المقرّبون، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ«٢٦» لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٧) والثانية: الأشخاص الذين بلغوا بإيمانهم أكمل الإيمان، وقد سمّاهم القرآن «المخلصين» فيقول عنهم سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ (سورة المعارج: ٣٥).

فالتقوىٰ الإلٰهية والإحساس بالمسؤولية الداخلية، والوقوف بوجه الشهوات، والالتزام بالحق والصدق والطهارة والعدل هي أعلى القيم الإنسانية، ولا شيء أفضل من التقوىٰ في سبيل التقرّب إلى الله وساحته القدسية، وإذا كان هذا هو الشعار الإلٰهي في القرآن الكريم والقانون الإلٰهي الذي يحدّد به التقرّب إليه بحيث يجعل العبد الحبشي المتقي أفضل وأكرم عند الله من الحر القرشي غير المتقي، كيف يجوز لنا أن نقول بأنّ الله تعالى يختار عباده العاصين لهداية الناس مع أنّ العصيان يبعّد الإنسان من الله؛ إذ العصيان هو في النقطة المقابل من الامتثال والامتثال مرحلة لتحصيل التقوىٰ، فإنّ التقوىٰ سبب للقرب الإلٰهي، فكيف يمكن أن نقول بأنّ العاصي هو له مقام المتقي؟!!!

ثم إنّ خيرة المتقين هم الخاشعون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة الشعراء: ٩٠) وهذا تصوير آخر من مقام المتقين حيث رسمه الله لهم، وهو دخولهم الجنة لمنتهىٰ التكريم والتجليل، فتقول الآية الكريمة: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فإنّ «أُزلفت» من مادة زلفىٰ على وزن كبرىٰ ومعناها: القرب، أي قرّبت الجنّة للمتقين، وهذا أمر لا يمكن أن يتصوّر في الظروف الدنيوية وشروطها، فإنّ ذلك المقام العظيم يعطيها الله للمتقين بأن يقرّب لهم الجنة بمنتهىٰ التكريم وهو لطف إلٰهي لعباده المؤمنين، حيث لا يتصوّر فوقه لطف آخر، والتعبير بغير بعيد تأكيد على هذا المعنى، فكيف يجوز لنا أن نقول بأنّ هذا المقام العظيم يتناوله العاصي؟!!!

⬅

وليس ينافي ما بيّناه محبّة الله سبحانه لمن تاب بعد ظلمه؛ فإنّ البحث في تفضيل من عرف ربّه حق المعرفة فلم يعصه على من عرفه ثم عصاه ثم تاب فتاب

➲ وخلاصة الكلام: إنّ التقوىٰ الإلٰهية هي الشعار الإسلامي الخالد، كما يقول مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام: فإنّ تقوىٰ الله مفتاح سداد وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة عن كل هلكة، بها ينجح الطالب وينجو الهارب، وتنال الرغائب، فاعملوا والعمل يرفع... (الخطبة رقم: ٢٣٠).

وأنّ كلّما كان العبد أقرب إلى ربه، كان له خشية من مقام ربه كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ«٤٠» فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (سورة النازعات: ٤٠) فإنّ الخوف من مقام الله بمعنى الخوف من المقام العلمي لله ومراقبته المستمرة لكل بشر وهذا هو التقوىٰ، لأنّه كلّما كان الإنسان أقرب إلى الله فهو أحرص على طاعة الله ويكون أشد خوفاً منه.

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: من علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه ونهىٰ النفس عن الهوىٰ (الكافي ج٢: ص٧٠ ح١٠).

فأين هذا المقام وأين العاصي، فإنّ العاصي هو من تجاوز الحدّ الإلٰهي ومن تجاوز الحد الإلٰهي فقد خرج من القانون الذي وضعه الله تعالى في القرآن الكريم للقرب منه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ سورة البقرة: ٢٢٩) فإنّ الظالم هو من ليس له يوم القيامة أمان عند عرضة العقاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (سورة الشورى: ٤٥) ومن كان ابتعد عن الله تبارك وتعالى كيف يصح لنا أن نقول بأنّ الله تعالى اختاره لهداية عباده المؤمنين، ليقرّبهم إلى الله تعالى، فإنّ مرضات الله منحصرة بالمقربين، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ﴾ (سورة البقرة: ٢٠٧) فإنّ هذا المقام العظيم لا يحصل إلّا بتقوىٰ الله، وأنّ التقوىٰ هي الملاك الوحيد للأقربية إلى الله تعالى، فكلّما ازدادت التقوىٰ إزداد القرب من الله، ومن هنا نعرف أنّ الله تعالى يختار أقرب العباد إليه وهم في أعلىٰ مراتب التقوىٰ، فأين هذا من العاصي؟!!!

الله عليه بفضله.[1]

---

(١) لا شك أنّ التوبة ترفع الذنوب وتطهّر النفوس من أقذار الآثام والموبقات، يقول الله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢٢٢) فاقتران الطهارة بالتوبة إشارة إلى أنّ التوبة طهارة كما إنّ الطهارة المائية ترفع الحدث والخبث كذلك التوبة ترفع الأقذار النفسية، فإنّ الطهارة المائية هي الطهارة التي تتعلّق بالطهارة الظاهرية والتوبة تتعلق بالطهارة الباطنية، فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله والانخلاع عن ألواث الذنوب والشقاء ومحو السيئات، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (سورة النساء: ١١٠).

هذه الآية الكريمة تشير إلى حقيقة قرآنية وهي: إنّ باب التوبة مفتوحة أمام المسيئين، سواء كانت المعصية عمل سوء فيه ظلم على النفس أو على الآخرين، أو كانت ظلماً على الله تعالىٰ، فإنّ التوبة الحقيقية ثابتة بالأدلّة والنصوص، وهي باب للرجوع من كل ذنب، فإنّ جميع الذنوب قابلة للغفران، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ (سورة الزمر: ٥٣) فإنّ هذه الآية الكريمة تعطي الأصل الأساسي للمذنبين وليس في القرآن آية شموليتها وصلت إلى هذه الدرجة، كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: ما في القرآن آية أوسع من ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا ...﴾ (كنز العمال ج٢: ص٢٩٢).

وإنّ العبارة القرآنية وهي قوله تعالى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ إشارة إلى أنّ للتوبة أثر في نفس التائب بحيث يجد التائب في باطن نفسه نتيجة توبته، فمن ناحية ان تأنيب الضمير الذي يخلفه ارتكاب المذنب يزول عن التائب نظراً للغفران الذي سيناله من الله تعالى، ومن جانب آخر يحس الإنسان التائب بالقرب إلى الله بسبب رحمته بعد أن كان يحس البعد عنه بسبب ارتكاب الذنب، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام: ٥٤) وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (سورة طه: ٨٢).

فالمستفاد من هذه الآيات المباركة وغيرها: أنّ من تاب وعمل صالحاً فيكون مشمولاً للرحمة الإلٰهية والمغفرة الربانية، هذا ولكن الأمر في العهد الإلٰهي يختلف عن شأن التائب، حيث أنّه

ولا ريب أنّ من لم يعص وأنّ الحال التي لم يجر فيها عصيان خير من العاصي التائب المقبول توبته، ومن الحال التي جرى فيها عصيان ثم توبة مقبولة[1].

➲ وإن كان الله تعالى يحب التوّابين أمّا العهد الإلٰهي الذي هو الولاية الإلٰهية والنبوة والإمامة لا يجتمع مع لحظة واحدة من الذنب والعصيان لإطلاق قوله تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٢٤) فإنّ منزلة النبوة والإمامة هي أسمىٰ من أن تنال لمن أذنب في حياته ولو مرة واحدة وتاب من ذلك، فإنّ النبي والإمام صفوة الله وخيرته، والخبير يعلم أنّ الحكمة الإلٰهية وعلمه وقدرته تقتضي أن تكون الصفوة خالص من كل عيب وسوء، كما عبّر القرآن عنهم بـ «المخلصين» قال الله تعالى عن لسان إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة الحجر: ٣٩ ـ ٤٠) وأيضاً قال تعالى عن لسان إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة صٓ: ٨٢ ـ ٨٣) فاستثنىٰ من عباده المخلصين ـ بالفتح ـ وهم الذين لا يمكن للشيطان من إغوائهم، وهذا المقام كان لجميع الأنبياء المأمورين بالدعوة، فهذه الكلمة قد تكررت عدة مرات في القرآن الكريم لأهميّة المقام، حيث اعترف الشيطان ـ مع جميع وساوسه ـ بعجزه في كسب هؤلاء، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهم الذين لا يخرجون عن جادة الصواب والصراط المستقيم، وثابتين دائماً في طريق المعرفة والعبودية لله بصدق وإخلاص وصفاء، فهم آمنين من وسائس الشيطانية وهذه المنطقة هي المنطقة الوحيدة التي لا يتمكّن الشيطان من الوصول إليها.

إذن، إنّ التائب من الذنب وإن كان محبوباً عند الله إلّا أنّه لا يمكنه الوصول الى هذه المرتبة، لأنّ الشيطان قد وصل إليه وتمكن من إغوائه، فلا يليق بمقام صفوة الله. فلاحظ.

(١) وخلاصة الكلام: إنّه لا شك أنّ الله تبارك وتعالى حكيم لا يفعل عبثاً ولا يظلم أحداً، فإذا كانت أبواب رحمته مفتوحة أمام عباده ودعوته إيّاهم للتوبة المستمرة، فإنّ كل إنسان له مقامه الخاص بما يصلح له من أعماله ونفسياته، فإنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له (أُنظر: الكافي ج٢: ص٤٢٥ ح١٠) ومعناه: إنّ التائب ليس فاسقاً بعد توبته، وإنّ شهادته مقبولة، ➲

وعاشرها: إنّ ما ذكره من خبر صدور النسيان منه ﷺ ليستنّ به من عجيب ما رووه، فإنّ بيان حكم النسيان كافٍ للناس في الجريان عليه، فإنّه ليس يلزم النبي فعل جميع ما يعرض لمتابعيه، بل عليه البيان لهم،[1] وخبر صلاته

وغير ذلك مما يترتّب عليه من الأحكام لأنّ توبته هدّمت ما قبلها من جهة الفسق وعدمه، كما هو مدلول الحديث النبوي بأنّ التوبة تجب ما قبلها (أُنظر: عوالي اللآلي ج١: ص٢٢٧).

والحق: إنّ هذا الحديث ليس له سند تام، كما يمكن المناقشة في دلالته لأنّ الجب القطع على ما ذكره الطريحي في مجمع البحرين وغيره من أهل اللغة، والمعنى: أن التوبة تجبّ ما قبلها من المعاصي والذنوب بصورة مطلقة لا يعني تكويناً، وإلّا يلزم منه الكذب، كما أنّ ذلك لا يصدق على الضمانات المترتّبة على الذنب، فإنّ هذه الأحكام لا تجب أبداً، إذن لا معنى لإطلاق الجبّ ولابدّ من تقييده إذا تم السند.

والمهم أنّ التوبة وإن كانت تجبّ ما قبلها إلّا أنّ بضرورة الفقه والدين أنّ الأحكام الوضعية لا تجبّ.

بعبارة أُخرىٰ: إنّ الكافر إذا أسلم لو كان عرق في ثوبه قبل إسلامه يكون ثوبه نجساً فلا يطهر بإسلامه، والعاصي ليس كمن لم يعص الله، فإنّ العاصي إذا تاب من معصيته فهو ليس كمن لم يعص الله قط.

فالباحث لابدّ أن يفرّق بين هذه الأُمور كي يتضح له أنّ الصفوة الإلٰهية من هو مقامه أعلى وأجل مما ذكرنا ممن يعصي الله سواء تاب من معصيه أم لم يتب. فلاحظ.

(١) من الواضح لدى الخبير صيانة النبي ﷺ عن السهو والنسيان والخطأ والاشتباه في أي مجال من المجالات، سواء كان في مجال تطبيق الشريعة أو في مجال الأُمور العادية الفردية المرتبطة بحياته أو غير ذلك من المجالات أمر ثابت بالعقل والوحي، فإنّ البعثة رهن صيانته عن الخطأ والسهو والنسيان في جميع المجالات، فلا تتحقّق الغاية المتوخاة من بعثته إلّا بصيانته من ذلك في جميع المجالات، وهذا هو الدليل العقلي الذي اعتمدت عليه الشيعة الإمامية بعد اتفاق الكل على لزوم صيانته عن الخطأ والنسيان والسهو في مجال تلقّي الوحي وحفظه وأدائه إلى الناس ولم يختلف في ذلك اثنان.

➲ وإليك توضيح هذا الدليل العقلي: إنّ الخطأ والنسيان والسهو في غير أمر الدين وتلقّي الوحي يتصوّر على وجهين:

الأول: الخطأ والنسيان والسهو في تطبيق الشريعة، كالسهو في الصلاة أو في إجراء الحدود.

الثاني: الاشتباه في الأُمور العادية المُعدّة للحياة، كما إذا استقرض ألف دينار وظن أنّه استقرض مائة دينار.

فإنّ النبي مصون من الاشتباه والسهو في كلا الموردين؛ وذلك لأنّ الغاية المتوخّاة من بعثة الأنبياء هي هدايتهم إلى طريق السعادة، ولا تحصل تلك الغاية إلّا بكسب اعتماد الناس من صحة على ما يقوله النبي، أو ما يفعله من جهة أنّه أُسوة، أو ما يحكيه عن جانب الوحي، وهذا هو الأساس لحصول الغاية، ومن المعلوم انه لو سها النبي واشتبه عليه الأمر في المجالين ربما تسرّب الشك إلى أذهان الناس، وأنّه هل يسهو في ما يحكيه من الأمر والنهي أم لا؟

فبأي دليل بعد ذلك يقال انّه لا يخطأ في هذا الجانب مثلاً، مع أنّه يسهو في غير المجالين، وهذا الشعور إذا تغلغل في أذهان الناس سوف يسلب اعتماد الناس من النبي، وبالتالي تنتفي النتيجة المطلوبة من البعثة، فلأجل سدّ هذا الباب المنافي للغاية المطلوبة من إرسال الرسل ينبغي ان يكون النبي مصوناً من السهو والنسيان والخطأ والاشتباه في عامة المراحل، سواء أكانت في حقل الوحي أو في تطبيق الشريعة، أو في الأُمور العامة أو غير ذلك، ولهذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: جعل مع النبي روح القدس وهي لا تنام ولا تغفل ولا تلهو ولا تسهو (بصائر الدرجات: ص٤٥٤).

وخلاصة الكلام: إنّه لمّا كان النبي عليه السلام أُسوة في الحياة في عامة المجالات يجب أن يكون نزيهاً عن العصيان والخلاف والسهو والاشتباه ونحو ذلك، ليجذب اعتماد الناس به.

وأمّا الوحي فإنّ الأدلة الدالة على عصمة النبي من الخطأ والسهو، فقد جاء في القرآن الكريم ما يدلّ على ذلك. واليك بعض ما جاء في القرآن الكريم في هذا المجال:

١ـ قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللهُ وَلاَ تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ (سورة النساء: ١٠٥).

➲

➲ وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (سورة النساء: ١١٣).

وقد نقل المفسّرون حول نزول الآيتين روايات كثيرة بطرق مختلفة:

أمّا ما ورد عن أهل السنة في هذا المجال فهي روايات كثيرة:

منها: ما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره بسنده عن ابن زيد، قال: كان رجل سرق درعاً من حديد في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطرحه على يهودي، فقال اليهودي: والله ما سرقتها يا أبا القاسم، ولكن طرحت عليَّ وكان للرجل الذي سرق جيران يبرؤونه ويطرحونه على اليهودي، ويقولون: يا رسول الله، إنّ هذا اليهودي الخبيث يكفر بالله وبما جئت به، قال: حتى مال عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببعض القول فعاتبه الله عزوجل في ذلك، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللهُ وَلاَ تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ (تفسير الطبري ج ٤: ص ١٧٢).

أقول: هذه الرواية وإن لم تكن حجة عندنا سواء صحت عند أهل السنّة أم لم تصح إلّا أنّ مجموع الروايات الواردة حول الآيتين وأسباب نزولها متفقة على أنّ الآيات نزلت حول شكوىٰ رفعت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان كل من المتخاصمين يسعىٰ ليبرئ نفسه ويتّهم الآخر، وكان في جانبٍ واحد منهما رجل طليق اللسان يريد أن يخدع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببعض تسويلاته، يثير عواطفه على المتهم البريء حتى يقضي على خلاف الحق، وعند ذلك نزلت الآية المباركة ورفعت النقاب عن وجه الحقيقة، فعرّف المحق من المبطل.

فالدقة في فقرات الآية الثانية يوقفنا على سعة عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الخطأ والسهو وصيانته منهما، وهي أربع فقرات:

الأُولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

➲

➲ الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾.

فالآية الكريمة من حيث المجموع تدل على عصمة النبي الأكرم ﷺ وصيانته من ارتكاب الذنوب، والله سبحانه قد بيّن هذه الحقيقة بصورة واضحة، ولكي يبعد الأمة الإسلامية عن الحيرة في قضية إطاعة الرسول ﷺ وليجنّبها التناقض بين فعلي الطاعة وعدمها قال: إنّ العلم والحكمة قد ملأ في قلبك، ولكي يضمن ثقة للمسلمين ويدفع عنهم اليأس والقنوط يسبّب عدم التضمين من الضلالة والاعتماد على النبي ﷺ وما جاء به من قبل الله سبحانه.

وقد ورد في آخر الآية دليل من الأدلّة الأساسية لقضية العصمة بشكل مجمل، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ من الواضح أنّ ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة والعلوم ليس لأحد من الأوّلين والآخرين مثله، فإنّ النبي الأكرم ﷺ في ظلّ العلوم والمعارف الربّانية كان مصوناً من أي خطأ واشتباه وسهو وغير ذلك، فإنّ من يعلم حسن الأشياء وقبحها يعلم جميع الأسرار ويعلم ما هو الصالح وما هو الفاسد وما هو النافع وما هو المضر، فلا يقدم على ما يضره.

وبعبارة أوضح: أنّ الذي يعلم عواقب الأمور لا يقدم على نفسه شيئاً، مثلاً أنّ الطبيب الذي يعلم خواص الأشياء لا يأكل شيئاً يضر بصحته، فإنّ علم الطب الذي تعلّمه الطبيب هو السبب في حفظه ومنعه من شرب الماء الملوّث بالجراثيم القاتلة، فقد وفّر هذا العلم العصمة والمصونة للطبيب حيال ارتكاب مثل هذا الخطأ، لكن الإنسان الذي يجهل خطورة ذلك الماء فإنّه قد يشرب ذلك الماء ثم يعرض عليه العوارض التي يستلزم منه المرض والآفات الناشئة من رسوخ الجرائم في جسمه، وهكذا يتبيّن أنّ مصدر الكثير من الأخطاء هو الجهل بمقدّمات العمل أو مستلزماته أو عواقبه، فالذي له الإحاطة الكاملة بجميع عواقب الأمور وما يستلزم من المستلزمات، فهو يعلم الطريق الصحيح من الطريق السقيم، فيعرف طريق النجاة فلا يدخل في الطريق المخوف والهلاك، لا سيما إذا كان معرّف الطريق له عالم الوحي، فإنّه أعرف بكل شيء لأنّ الوحي الإلهي كامل من جهة العلوم والمعارف ومحيط بجميع الأشياء إحاطة كاملة بقضاياها المختلفة ومقدّماتها ومستلزماتها وعواقبها، لن يقع فيه الخطأ أبداً، ولن يرتّب عليه أي زلل أبداً، ولن يضل الطريق ابداً، ولن يمارس ذنباً مطلقاً ولا يعرض له حالة

➲

خمساً وما شابهه ليس بحجة على الخصم بالنظر الى نفسه لكونه ممّا تفرّد بنقله من تسمى بأهل السنّه،(١) بل هو مردود عليهم من حيث مخالفته ومخالفة ما هو نظيره

➲ السهو أبداً.

ومن الواضح أنّ هذا العلم إنّما هو من عند الله تعالى وبإذنه، فالله تبارك وتعالى يجعل نبيه عالماً بجميع الأُمور ولا محذور من ذلك.

(١) أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن عبدالله بن مسعود، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ خمساً، فلما انفتل توشوش القوم بينهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: يا رسول الله، هل زيد في الصلاة؟ قال: لا، قالوا: فإنّك قد صلّيت خمساً فانفتل ثم سجد سجدتين، ثم قال: إنّما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون (صحيح مسلم ج٢: ص٨٥ كتاب الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له).

وأخرج البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مسعود، قال: صلّى النبي ﷺ قال إبراهيم: لا أدري زاد أو نقص، فلمّا سلّم قيل له: يا رسول الله، أحدث في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: صلّيت كذا وكذا فثنى رجله واستقبل القبلة وسجد سجدتين، ثم سلّم، فلما أقبل علينا بوجهه قال: إنّه لو حدث في الصلاة شيء لنبأتكم به، ولكن إنّما أنا بشر مثلكم انسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّروني، وإذا شك أحدكم في صلاته فليتحر الصواب فليتم عليه، ثم يسلّم ثم يسجد سجدتين (صحيح البخارى ج١: ص١٠٤ كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة).

أقول: هذه الرواية نقلها أهل السنة وليس حجة على الشيعة، ومن شرائط الاحتجاج أن يكون الدليل الذي يستدل به يكون حجة على الطرف الآخر، إن قلت: هذه الرواية وإن كانت عامية لا يمكن الاستدلال بها عند الشيعة إلّا أنّ قضية سهو النبيﷺ قد ورد في بعض روايات الشيعة أيضاً، ولذلك قال الصدوق رحمه الله في توجيه ذلك في كتاب من لا يحضره الفقيه: وليس سهو النبيﷺ كسهونا لأنّ سهوه من الله عزوجل، وإنّما هو إسهاء ليعلم أنّه بشر مخلوق، فلا يتخذ رباً ومعبوداً دونه... (من لا يحضره الفقيه ج ١: ص ٣٦٠).

أولاً: إنّ هذه الرواية وأمثالها هي محمولة على التقية لاشتهارها بين العامة وعلماء أهل السنّة ومخالفتها لأُصول المذهب عند الشيعة الإمامية.

➲

مما يدلّ على الخطأ والنسيان والغفلة في حق الهادي إلى الحق لنصّ الفرقان العظيم، حيث قال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لاَ يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١] فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حالة سهوه ونسيانه وغفلته غير هاد الى الحق، بل غيره يهديه اليه فكيف يقتدى بمن يهديه غيره بل عليه هو بأن يصير متّبعاً لمن يبيّن له سهوه ونسيانه وهو قد بُعث هادياً للخلق غير مهدي بهم البتة؟[٢].

➲ وثانياً: إنّ مضمون الرواية فيه اضطراب لايمكن الأخذ به، والكلام في ذلك مفصّل (راجع كتاب بحارالأنوار للعلّامة المجلسي ج ١٧: ص ١١١).

(١) سورة يونس: ٣٥، هذه الآية الكريمة صريحة في أنّ الهادي إلى الحق أحق بالاتّباع ممن يحتاج في الاهتداء، فإنّ الهادي إلى الحق هو الذي يعلم الحق ويعلم الطريق للوصول اليه، فهو أحق من غيره، فالهادي إلى شيء هو الأحق بذلك الشيء والآية الشريفة تنص على لزوم رجوع المهتدي إلى الهادي والعكس غير صحيح، لأنّ الهادي إلى الحق هو من يكون له الاحاطة الكاملة بجميع زوايا الحق.

(٢) لا شك أنّ المراد بالهداية في الآية المباركة هي الهداية الإلٰهية والهداية الإلٰهية هي إيصال الناس إلى الهدف الذي خلق من أجله الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس: ٧ ـ ٩) فإنّ الإنسان بفطرته يبحث عن صانعه وخالقه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (سورة الروم: ٣٠) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللهِ ٱلْإِسْلاَمُ ...﴾ (سورة آل عمران: ١٩) وإلى غير ذلك من الآيات.

فإنّ هذه الآيات تدل بالصراحة على أنّ الاعتقاد بالإسلام والتوحيد ونبوة الأنبياء وجميع أحكام الإسلام أمر فطري يحصل لمن درس وفحص عن ذلك دراسة علمية موضوعية، ولكن عندما يريد أن يدرس ويفحص عن حقيقة الاسلام لابدّ له من الهادي العالم بحقائق الأُمور العارف بحقيقة الأشياء ليأخذ بيده ويعلّمه جميع معارف الدين، وهذا الهادي لابدّ أن يكون له ➲

➲ شرائط لازمة للهداية وإلاّ سوف لايحصل على النتيجة التي يريد الوصول إليها، وإنّ أحد تلك الشرائط هو أعلمية الهادي بمعارف الدين، والأعرف انّما هو الأعلم بحقائق الأُمور والأعلم بحقائق الأُمور هو المعصوم، فالداعي إلى الحق لابدّ أن يكون معصوماً من الخطأ والسهو ونحو ذلك.

وأمّا الذي لا يكون هادياً للخلق بل هو اهتدىٰ بغيره من الناس لا يليق بمقام هداية الناس، لأنّه كما قلنا أنّ هذا المقام يحتاج إلى العلم والشرائط اللازمة للهداية، وفاقد الشيء لا يكون معطياً. فلاحظ.

محتويات الكتاب